

قصة الحضارة ول ديورانت

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> الاستيلاء على بلاد اليونان

الباب الخامس

فتح بلاد اليونان

146-201 ق.م

الفصل الأول

الاستيلاء على بلاد اليونان

لما تحالف فليب ملك مقدونيا مع هنيبال على رومه (214)، كان يأمل أن تسير في ركابه بلاد اليونان كلها لإزهاق روح ذلك الجبار الناشئ في الغرب؛ ولكن الشائعات ما لبثت أن انتشرت تقول إنه كان يعتزم إذا ما انتصرت قرطاجنة أن يفتح أرض اليونان كلها بمعونة حلفائه القرطاجنيين. ومن أجل ذلك وقعت العصبة الإيتولية Aetolian ميثاقاً تعهدت فيه أن تساعد رومه في حربها ضد فليب؛ واستطاع مجلس الشيوخ بفطنته أن يستفيد من هذا الخذلان فيقتنع فليب بعقد صلح منفرد مع رومه (205). وما كاد الرومان ينتصرون في معركة زاما حتى أخذ مجلس الشيوخ - وهو الذي لم ينس قط إساءة وجهت إلى بلاده - يكد لمقدونية ويستعد للثأر منها. ذلك أن هذا المجلس كان يشعر بأن رومه لا تستطيع أن تأمن على نفسها ما دام من ورائها تلك القوة العظيمة التي لا يفصلها عنها إلا بحر ضيق. ولما أن عرض مجلس الشيوخ اقتراحاً بإعلان الحرب اعترضت الجمعية على هذا الاقتراح وقام أحد التربيونين يتهم الأشراف بأنهم يريدون أن يحولوا أنظار الشعب عما في البلاد من فساد (1)؛ ولكن المعارضين

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> الاستيلاء على بلاد اليونان

في الحرب سرعان ما أتمدت أصواتهم واتهموا بخور العزيمة وضعف الوطنية؛ وما وافى عام 200 ق.م حتى أبحر ت. كوينكتوس فلامينوس T. quintus Flaminus إلى مقدونية. وكان فلامينوس فتى في الثلاثين من عمره، وكان من أفراد تلك الدائرة الحرة المعينة بصبغ البلاد بالصبغة الهلينية، والتي كانت تتجمع في رومه حول آل سيبو. والتقى بفليب عند سينوسفلى Cynoscephalae بعد عدة حركات عسكرية ماهرة، وهزمه هزيمة منكرة (197). ثم أدهش جميع أمم البحر الأبيض المتوسط، ولعله أدهش روما نفسها أيضاً، بأن أعاد فليب، بعد أن عاقبه على فعلته، إلى عرشه المفلس الهزيل، وعرض على بلاد اليونان كلها أن يعيد إليها حريتها. واحتجت العصابة الاستعمارية من أعضاء مجلس الشيوخ ولكن الأحرار تغلبوا إلى وقت ما؛ وأعلن رسول من قبل فلامينوس في عام 169 إلى حشد كبير اجتمع في الألعاب التي كانت قائمة في البرزخ اليوناني أن بلاد اليونان ستحرر من سيطرة روما ومقدونية، وستعفى من أداء الجزية، وأن الحامية الرومانية نفسها ستسحب منها. ويقول أفلوطرخس إن الجمهور المحتشد هتف هتافاً عالياً بلغ من شدته أن ماتت الغربان التي كانت تطير فوق الملعب وهوت على الأرض (2). ولما أظهر العالم المتشكك رييته في نيات القائد الروماني، بدد شكوكه بسحب جيشه إلى إيطاليا، وكان هذا العمل صفحة ناصعة البياض في تاريخ الحروب. ولكن الحرب تستتبع السلم على الدوام، فقد استاء الحلف الإبتولي من تحرير المدن اليونانية التي كانت خاضعة له، وطلب إلى أنتيوخوس الثالث Antiochus III أن يحرر بلاد اليونان من حريتها. واغتر أنتيوخوس

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> الاستيلاء على بلاد اليونان

بما حازه من نصر رخيص في بعض المعارك التي خاض غمارها في الشرق، فسولت له نفسه أن يبسط سلطانه على غرب آسيا بأجمعه. وخشيت برجموم عاقبة بغيه، فلجأت إلى روما تستعين بها عليه، وأرسل مجلس الشيوخ سيبو الأفريقي وأخاه لوسيوس Lucius مع أول جيش روماني تطأ أقدامه أرض آسيا. والتحم الجيشان عند مجنيزيا (189Magnesia) وانتصر الرومان نصراً كان بداية الفتوح التي شملت بلاد الشرق ذي الصبغة اليونانية. وزحفت الجيوش الرومانية نحو الشمال وردوا الغالبيين إلى جلاشيا Jalatia (الأناضول) وكانون من قبل يهددون برجموم وحمد لهم سكان الجزائر الأيونية حسن صنيعهم هذا. لكن اليونان في أوربا لم يعجبهم هذا العمل. لقد أضحت الجيوش الرومانية تحيط ببلاد اليونان من الشرق والغرب، وإن كانت لم تطأ بعد أرضها، ولقد حررت روما اليونان من عدوهم ولكنها اشتترطت أن يضعوا حداً لحرب الطبقات وللحروب الخارجية. غير أن حياة الحرية بغير حرب كانت حياة جديدة شاقة على دول المدن التي تتكون منها هلاس، وكانت الطبقات العليا تتق إلى فرض سلطانها السياسي على المدن المجاورة لبلادها، كما أن الطبقات الفقيرة أخذت

تتهم روما بأنها أينما حلت تعين الأغنياء إلى الفقراء. وكانت نتيجة هذه العوامل مجتمعة أن عقد برسيوس Perseus بن فليب الخامس وخليفته على عرش مقدونية حلفاً مع سلوقس الرابع Seleucus IV ومع أهل جزيرة رودس، وأهاب باليونان في عام 171 أن يثوروا معه على روما، ولكن لوسيوس إيميلوس بولس ابن القنصل الروماني الذي قتل في معركة كاني هزم برسيوس في بدنا Pudna بعد ثلاث سنين من ذلك العام، وخرّب سبعين مدينة مقدونية، وأسر برسيوس نفسه وسار به مصفداً يزين موكب نصره في شوارع روما - وعوقبت رودس بتحريم كل المدن الأسبوية التي كانت تؤدي إليها الخراج، وبإنشاء ميناء منافس لها في ديلاس. وقبض على ألف

صفحة رقم : 3007

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> الاستيلاء على بلاد اليونان

من زعماء اليونان ومنهم المؤرخ بوليبيوس Polybius واتخذوا رهائن في إيطاليا، وظلوا في النفي ستة عشر عاماً مات منهم في خلالها سبعمائة . وسارت العلاقة بين اليونان والرومان خلال العشرة الأعوام التالية سيراً حثيثاً نحو العداوة السافرة. ذلك أن المدن والأحزاب والطبقات المتنافسة في بلاد اليونان لجأت إلى مجلس الشيوخ في روما تطلب إليه العون، وهيأت لروما بطلبها هذا سبباً للتدخل انتهى بأن أضحت بلاد اليونان خاضعة خضوعاً فعلياً إلى روما وإن ظلت بالاسم حرة مستقلة. ولم يستطع أشياخ سيبو في مجلس الشيوخ أن يصمدوا أمام الواقعيين الذين كانوا يشعرون أن النظام والسلام لا يستتبان في بلاد اليونان إلا إذا خضعت خضوعاً كاملاً لحكم الرومان. وبينما كان النزاع قائماً بين روما من جهة وقرطاجنة من جهة أخرى خرجت مدائن الحلف الآخر على روما وثارَت مطالبة بحريتها. وتزعم الحركة زعماء الطبقات الفقيرة، فحروا العبيد وسلحوهم، وأجلوا الوفاء بالديون، وأشعلوا مع الحرب نار الثورة في البلاد. ولمام دخل الرومان يقودهم موميوس Mummius بلاد اليونان وجدوا أهلها منقسمين على أنفسهم،

صفحة رقم : 3008

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> الاستيلاء على بلاد اليونان

وكان من السهل عليهم أن يهزموا الجيوش غير المدربة. وحرق موميوس كورنثة Corinth، وذبح رجالها وباع نساءها وأطفالها بيع الرقيق، ولم يكذب يترك فيها شيئاً من الثروة المنقولة أو الآثار الفنية بل نقلها كلها تقريباً إلى رومه. وأصبحت مقدونية وبلاد اليونان من ذلك الحين ولاية تابعة لرومه بحكمها حاكم روماني، وكانت أثينا وإسبارطة هما المدينتين الوحيدتين اللتين سمحت لهما رومه بأن تحتفظا بشرائعهما. واختفت اليونان من تاريخ العالم السياسي مدى ألفي عام.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> تبدل أحوال رومة

الفصل الثاني

تبدل أحوال رومة

ونمت الإمبراطورية الرومانية نمواً تدريجياً، ولم يكن معظم هذا النماء نتيجة خطة موضوعة عن قصد وتدبير، بل كان الدافع إليه ضغط الظروف وترجع الحدود تراجعاً يتطلبه سلامة البلاد. فقد أخضعت الفيالق الرومانية مرة أخرى بلاد غالة الجنوبية في معركة كرمونا (Cremona 200) وموتينا (193)، ودفعت حدود إيطاليا الشمالية حتى أوصلتها إلى جبال الألب. كذلك كان لا بد لرومه أن تحتفظ بسيطرتها على أسبانيا بعد أن استعادتها من قرطاجنة كيلا تعود هذه إلى الاستيلاء عليها، هذا إلى ما في تلك البلاد من ثروة معدنية عظيمة تشمل الحديد والفضة والذهب. وقد فرض عليها مجلس الشيوخ جزية سنوية باهظة من المعادن الغفل والنقود، وكان حكامها الرومان يعوضون أنفسهم تعويضاً سخياً عن السنة التي يقضونها فيها بعيدين عن موطنهم. وحسبنا أن نذكر دليلاً على هذا أن كونتس منوسيوس Quintus Minucius، لما عاد إلى رومه بعد فترة قصيرة قضاها قنصلاً في أسبانيا، جاء إليها بأربعة وثلاثين ألفاً وثمانمائة رطل وخمسة وثلاثين ألف دينار من الفضة؛ وكان الأسبان يجندون في الجيش الروماني فكان منهم أربعون ألفاً في القوة التي استولى بها سيبو إيميليانوس Scipio Aemilianus على نومانتي Numantia الأسبانية. ولما ثارت على الحكم الروماني ثورة عنيفة في عام 195 ق.م أخضعها ماركس كاتو Marcus Cato ولكنه جرى في إخضاعها على سنة الرومان الأفاضل الذين كان جيلهم أخذاً في الانقراض، فكان عادلاً رحيماً. ووفق تيبيريوس سمبرونيوس جراكس (Tiberius Sempronius Gracchus 179) توفيقاً مشوباً بالعطف والرأفة بين

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> تبدل أحوال رومة

حكمه وبين أخلاق الأهلين وحضارتهم، واتخذ له أصدقاء من زعماء القبائل، ووزع الأراضي على الفقراء. ولكن واحداً من خلفائه يدعى لوسبيوس لوكس (Lucius Lucullus 151) أخذ بشروط المعاهدات التي عقدها جراكس وهاجم من غير سبب كل قبيلة يستطيع أن يجد عندها ما لا يغتصبه منها، وقتل أو استبعد آلافاً من الأسبان دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن حجة يبرر بها هذا الاعتداء. واتبع هذه السنة نفسها سلبسيوس جلبا Sulpicius Galba (150) فاستقدم إلى معسكره سبعة آلاف من الأهلين بعد أن عقد معهم معاهدة يعدهم فيها بأنه سيوزع عليهم بعض الأراضي؛ فلما جاءوا أمر أعوانه بأن يحيطوا بهم ثم ذبحهم أو استرقهم. وفي عام 154 شنت قبائل لوزتانيا Lusitania (البرتغال) على رومه حرباً دامت سبع سنين. وظهر بين هذه القبائل زعيم قدير يدعى فرياثوس Viriathus قوي البنية، فارح الطول، شجاعاً، صبوراً، شهماً، نبيلاً. وظل ثماني سنين يكيل الضربات إلى كل جيش روماني يرسل لقتاله ويوقع به الهزيمة حتى ابتاع الرومان آخر الأمر من يقاتله غيلة. وصبر الكلتنبريان Celtibrians الثائرون أهل أسبانيا الوسطى على الحصار في نوماننيا خمسة عشر شهراً، لا يتناولون من الطعام إلا جثث موتاهم، حتى أرغمهم سيبو إيميلينوس في عام 133 على التسليم. ويمكن القول بوجه عام إن السياسة التي سارت عليها الجمهورية الرومانية في أسبانيا قد بلغت من الوحشية والغدر حداً جعل ضررها برومه أكثر من فائدتها لها. وفي هذا يقول ممسن Mommsen المؤرخ الألماني "إن التاريخ كله لم يشهد حرباً تضارع هذه الحرب الأسبانية فيما انطوت عليه من ضروب الغدر والقسوة والجشع(4)".

وكانت الثروة المنتهبة من الولايات هي التي أمدت رومه بالمال الذي تتطلبه حياة التهنك والفساد والأنانية التي أشعلت نار الثورة في البلاد، وقضت آخر الأمر على الجمهورية. ذلك أن الغرامات الحربية التي فرضتها رومه على قرطاجنة

صفحة رقم : 3011

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> تبدل أحوال رومة

وسوريا، والعبيد الذين سيقوا إليها من جميع ميادين النصر، والمعادن الثمينة التي استولت عليها بعد فتح بلاد الغالة الجنوبية وأسبانيا، والأربعمئة ألف ألف سنترس (وهي تساوي ستين مليون ريال أمريكي) التي انتزعتها من أنتيوخوس، وبرسيوس، وال 4503 رطل من الذهب، وال 220.000 رطل من الفضة التي اغتصبها مانيلوس فلسو Manlius Vulso في حروبه الآسيوية، هذه كلها وغيرها من أسباب الثراء الفجائي الذي ساقته إليها المقادير بدلت طبقات الملاك في رومه في مدى نصف قرن من الزمان (202-146 ق.م) من رجال ذوي موارد وسطى مكتسبة إلى أشخاص مترفين يستمتعون بثراء ونعيم لم يعرفهما قبلهم إلا الملوك. وكان الجند يعودون من هذه الغارات يجر الحقائب بالمال والأسلاب. ولما أخذت النقود يتضاعف مقدارها في رومه أسرع من المباني فإن أصحاب الأملاك العقارية تضاعفت ثروتهم أضعاف دون أن يحركوا في سبيل ذلك عضلة أو عصباً. واضمحلّت الصناعة وراجت التجارة، ولم تكن رومه في حاجة إلى إنتاج السلع، فقد كانت تأخذ العالم لتؤدي منها أثمان بضائع. وازدادت الأعمال العامة زيادة لا عهد للرومان بها، وأثرى منها المكارسون الذين كانوا يعيشون من العقود التي تبرمها الحكومة، وزاد عدد أصحاب المصارف المالية وأثروا. وكانوا يصرفون فوائد عن الودائع، ويقبضون التحاويل المالية (praescriptions)، ويخصمون السفائح لعملائهم، ويقرضون المال ويقترضونه، ويستثمرون ما يتجمع لديهم من الأموال أو يديرون المشروعات المالية؛ وأثروا من الربا الفاحش الذي كانوا ينتزعونه بلا رحمة حتى أصبح القاتل (sector) والمرابي يعبر عنهما بلفظ واحد(7). وهكذا أخذت رومه تخطو خطوات واسعة في أن تكون المركز المالي والسياسي - لا المركز الصناعي والتجاري - للعالم الذي يسكنه الجنس الأبيض. وبهذه الوسائل وأمثالها انتقل الأشراف ومن يلونهم من رجال الطبقة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> تبدل أحوال رومة

الوسطى بخطى واسعة من البساطة الرواقية إلى التعم والترف الطليق، وبلغ هذا التبدل أقصى مداه أو كاد في أيام كاتو (234-149)؛ فاتسعت البيوت، وتناقصت الأسر، وتسابق الناس في تأثيث دورهم بأفخم الأثاث وأغلاه ثمناً؛ فأخذوا يشترون الطنافس البابلية بأعلى الأثمان، وبيتاعون الأسرة المطعمة بالعاج أو الفضة أو الذهب؛ وكانت الأحجار والمعادن الثمينة تتلألأ على النضد والكراسي وأجسام النساء، وسروج الخيل. ولما قل المجهود الجسمي وزاد الثراء استبدل الناس بغذائهم القديم البسيط وجبات ثقيلة طويلة من لحوم الحيوان والطير وغيرهما من ألوان الطعام الشهى والتوابل والمشهيات، وأصبحت الأطعمة النادرة المستوردة من خارج البلاد لا تخلو منها موائد ذوي المكانة في المجتمع ومن يدعون أن لهم فيه مكانة. وحسبنا شاهداً على هذا الإسراف أن أحد كبار الموظفين قد ابتاع حيوانات بحرية في وجبة واحدة بألف سترس، واستورد آخر "أنشوجة" بألف وستمان سترس للبرميل، وابتاع ثالث كمية من البطارخ بألف ومائتي سترس، وكان الطاهي الماهر يباع بأعلى الأثمان في سوق النخاسة. كذلك كان شأن الشراب، فقد انتشر وزادت مقاديره وكان لا بد أن تكون الكؤوس كبيرة ومصنوعة من الذهب قدر المستطاع، وقل مقدار ما يمزج به الخمر من ماء، بل إنه كان يشرب أحياناً بلا ماء على الإطلاق. وسن مجلس الشيوخ قوانين صارمة تحدد مقدار ما ينفق من الأموال على المآدب والملابس، ولكن الشيوخ أنفسهم كانوا يتجاهلون هذه القوانين ولذلك لم يأبه بها غيرهم من الأهلين. وفي ذلك يقول كاتو في ألم وحسرة: "إن المواطنين لم يعودوا يستمعون للنصح لأن البطون لا أذان لها(9)" وأخذ الناس يشعرون بأنهم أفراد لا شأن للدولة بهم، وثاروا عليها وعلى تدخلها في شئونهم، كما ثار الابن على أبيه، وكما ثارت المرأة على الرجل. وقد جرت العادة من قديم الزمان أن يقوي سلطان المرأة كلما زادت ثروة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> تبدل أحوال رومة

المجتمع؛ ذلك أنه إذا امتلأت البطون أخلى الجوع الميدان للحب، ولذلك فشتت الدعارة في رومه وانتشر اللواط حين اتصل الرومان ببلاد اليونان وبلاد آسيا، فكان كثير من الأغنياء يدفع الواحد منهم تالنتا (3600 ريال أمريكي) ثمناً للغلام الوسيم، وشكا كاتو من أن ثمن الولد الجميل يزيد على ثمن مزرعة(10). على أن النساء لم يخلين الميدان لهؤلاء الغزاة اليونان والسوريين، فأخذن يتجملن بكل وسائل التجميل التي هيأتها لهن الثروة الجديدة، وأصبحت الأدهان ضرورة لا غنى لهن عنها، وشرعن يستوردن من غالة أنواعاً من الصابون تخفي لون شعرهن الأشيب وتحيله أحمر(11). وكان الثرى من أهل الطبقة الوسطى يتباهى بأن يزين زوجه وبناته بالملابس والجواهر الغالية ويطلقهن في المدينة يعلن عن ثروته؛ وزاد شأن النساء في دور الحكم نفسها، وفي ذلك يقول كاتو: "إن الرجال في

جميع أنحاء العالم يحكمون النساء، أما نحن الرومان الذين نحكم جميع الرجال فإن نساءنا يحكمنا(12)". وحدث في عام 195 ق.م أن خرجت نساء رومه الحرائر إلى السوق العامة ونادين بإلغاء قانون أبيوس Appius الصادر في عام 215 والذي يحرم على النساء التحلي بالذهب والملابس الكثيرة الألوان وركوب العربات. وأذركا الرومان بأن رومه سيحل بها الخراب إذا ألغي هذا القانون، وينطقه ليفي بهذه الخطبة التي قرأها كل جيل من الأجيال من ذلك الوقت إلى هذه الأيام:

"لو أننا كلنا قد استمسكنا في بيوتنا بحقوق الأزواج وسلطانهم، لما تورطنا الآن في هذه المشاكل مع نساءنا. أما ونحن لم نستمسك بهذه الحقوق وهذا السلطان فإن نفوذنا الذي قضي عليه استبداد النساء في البيت قد وطنته الأقدام، وقضي عليه في السوق... ألا فلنذكروا جميع النظم والقوانين الخاصة بالنساء، والتي حاول بها آباؤنا أن يقللوا من فجوهرن ويجعلوا منهن زوجات طائعات لأزواجهن. ومع ذلك فإنكم رغم هذه القيود لا تستطيعون أن تكبحوا جماحهن.

صفحة رقم : 3014

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> تبدل أحوال رومة

فما بالكم إذا ما تساوين بأزواجهن؟ هل تظنون أنكم في هذه الحال ستطيقونهن؟ إن الساعة التي يصبحن فيها مساويات لكم ستكون هي الساعة التي يصرن فيها ذوات الأمر والنهي عليكم(13)". وسخر منه النساء وألزمته الصمت وأصررن على طلبهن حتى ألغي القانون. وانتقم كاتو لنفسه وهو رقيب بأن زاد الضرائب المفروضة على السلع التي يحرمها قانون أبيوس إلى عشرة أضعاف ما كانت عليه. ولكن التيار كان جارفاً، ولم يكن في وسع أحد أن يصدده، فألغيت القوانين الأخرى التي كانت تحد من حرية النساء أو عدلت أو أغفلت؛ فأصبح للنساء الحق المطلق في الإشراف على استثمار بائناتهن، وصرن يطلقن أزواجهن أو يجرعنهم السم في بعض الأحيان، وبدا لهن أن ليس من سداد الرأي أن يلدن الأبناء في عصر ازدحمت فيه المدن بالسكان وكثرت فيه حروب الفتح والاستعمار.

وكان كاتو وبوليبيوس قد أدركا في عام 160 ق.م أن السكان يتناقصون، وأن الدولة عاجزة عن أن تجند من الجيوش ما استطاعت أن تجنده لقتال هنيبال. وورث الجيل سيادة العالم، ولكنه لم يجد لديه من الوقت أو الرغبة ما يستطيع بهما أن يدافع عنه؛ ذلك أن الاستعداد لتلبية نداء الحرب كلما دعا لها الداعي، وهو الاستعداد الذي كان من خصائص المالك الروماني، لم يعد له وجود، بعد أن تركزت الملكية في أيدي أسر قلائل، وغصت أفقر أحياء رومه بالصعاليك الذين لا مصلحة لهم في البلاد يخافون عليها أو يدافعون عنها. وأصبح الناس شجعاناً بالنيابة إن صح هذا التعبير. فقد كانوا يهرعون إلى المدرجات ليشاهدوا الألعاب التي تجري فيها الدماء، وكانوا يستأجرون المجالدين ليصطروا أمامهم في ولائهم. وأنشئت مدارس للبنين والبنات يتعلم فيها الشبان والشابات الغناء والموسيقى والمشي الرشيق(14). ورقت طباع الطبقات العليا بعد أن فسدت أخلاقها؛ أما الطبقات الدنيا فقد ظلت طباعها غليظة خشنة قوية، وكانت وسائل لهوها في الغالب عنيفة ولغتها بذيئة. وإنا لنشم رائحة البذاءة في بلوتس Plautus

صفحة رقم : 3015

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> تبدل أحوال رومة

وندرك السبب في أن الجماهير كانت لا تطيق مشاهدة مسرحيات ترنس Ternnce. ولما أن حاولت فرقة من الموسيقيين أن تعزف في أحد مواكب النصر في عام 167 أرغم النظارة أولئك الموسيقيين على أن يستبدلوا بعزفهم مباراة في الملاكمة(15).

وسيطرت النزعة التجارية على الطبقات الوسطى المطردة الزيادة، ولم يعد أساس ثرائها هو العقار كما كان من قبل، بل أصبح هذا الأساس هو الاستثمار التجاري أو إدارة الأعمال التجارية. ولم يكن في وسع القانون الأخلاقي القديم أو في وسع حفنة من الرجال من طراز كاتو أن يحولوا بين هذا العهد الجديد عهد رؤوس الأموال المتحركة أن يصبغ الحياة الرومانية كلها بصبغته. فكان كل إنسان يسعى جاهداً للحصول على المال، وكان كل إنسان يقدر ويقدر غيره بما عنده من المال، وكان المتعاقدون على الأعمال يغشون ويخدعون، وبلغ من غشهم وخداعهم أن تخلت الحكومة عن كثير من أملاكها- كمناجم مقدونية- لأن المتعاقدين معها على استغلالها كانوا يسخرون العمال ويبتزون أموال الدولة ابتزازاً أصبحت معه المشروعات مصدر بلاء للدولة لا مورد ربح لها(16). وتخلق الأشراف بالخلق الجديد، وشاركوا غيرهم في الثروة الجديدة- إذاً جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين، ومن واجبتنا ألا نصدقهم- بعد أن كانوا من قبل يرون أن الشرف أعلى قدراً من الحياة. وأصبحوا لا يفكرون في الأمة، بل يفكرون في امتيازاتهم ومطالبهم الطائفية والفردية، وصاروا يقبلون الهدايا والرشا الكبيرة لكي يمنحوا عطفهم على الأفراد والدول، وما أسهل ما كانوا يجدون سبباً لشن الحرب على البلاد التي فيها من الثروة أكثر مما فيها من القوة. وكان الأشراف يعترضون العامة في الطرقات ويستجدونهم أصواتهم أو يبتاعونها منهم، وأصبح من الأمور المألوفة أن يختلس الحكام الأموال العامة كما أصبح من غير المألوف أن يحاكم هؤلاء على ما يختلسون

صفحة رقم : 3016

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> تبدل أحوال رومة

منها. ومن ذا الذي يعاقب اللصوص من زملائه إذا كان نصف أعضاء مجلس الشيوخ قد انتمروا على خرق المعاهدات، وسرقة الأحلاف، وانتهاج الولايات؟ وفي ذلك يقول كاتو: "من يسرق مال مواطن يقضي بقية أيامه مكبلاً بالسلاسل والأغلال؛ ولكن من يسرق مال المجتمع يقضي بقية أيامه رافلاً في أفخر الثياب ومتحلياً بالذهب الوهاج(17)".

ومع هذه فإن منزلة مجلس الشيوخ قد علت عما كانت عليه من قبل، ذلك بأن رومه بقيادته قد خرجت ظافرة من الحربين البونينيتين ومن الحروب المقدونية الثلاث، وتحدثت كل منافسيها، وتغلبت عليهم، وكسبت صداقة مصر، وبسطت عليها نفوذها، واستولت على جزء كبير من ثروة العالم أمكنها به أن ترفع عن إيطاليا كلها في عام 146 عبء الضرائب المباشرة. وقد اغتصب مجلس الشيوخ في خلال أزمت الحرب والسياسة كثيراً من اختصاصات الجمعيات والحكام، ولكن النصر الذي نالته رومه قد برر هذا الاغتصاب؛ وفوق هذا فإن تحول البلاد إلى إمبراطورية متسعة الرقعة قد جعل الجمعية أداة سمجة غير صالحة للحكم؛ ذلك أن الشعوب النائرة التي خضعت وقتئذ لحكم مجلس شيوخ كثرة أعضائه من الساسة المحتكين والقواد الطافرين، لم يكونوا يقبلون أن يتصرف في شئونهم بضعة آلاف من الإيطاليين الذين يستطيعون حضور الجمعيات الوطنية في رومه. إن الحرية أساس الديمقراطية، والنظام أساس الحرب، وكلاهما لا وجود له مع الآخر. ذلك أن الحرب تتطلب قدراً عظيماً من الذكاء والشجاعة، والحزم والسرعة في اتخاذ القرارات، والعمل الجماعي المتحد، والطاعة العاجلة لأوامر الرؤساء؛ ومن أجل هذا قضت كثرة الحروب على الديمقراطية. وكان القانون ينص على أن من حق الجمعية المثوية وحدها أن تعلن الحرب وتعقد الصلح؛

ولكن مجلس الشيوخ كان يستطيع بماله من حق الهيمنة على صلات الدولة الخارجية أن يدفع الأمور إلى حيث لا تجد الجمعية مناصباً من الخضوع لرأيه(18). وكان مجلس الشيوخ هو المشرف على خزانة الدولة، كما كان هو المسيطر على

صفحة رقم : 3017

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> تبدل أحوال رومة

الشؤون القضائية، وذلك بحكم القاعدة المتبعة من قديم الزمان وهي أن جميع المناصب القضائية الهامة كان يختار شاغلها من أعضاء المجلس أو المرشحين لعضويته، يضاف إلى هذا كله أن وضع القوانين وشرحها كانا من اختصاص طبقة الأشراف.

وكان في داخل هذه الأرستقراطية الجركية محصورة في الأسر ذات السلطان، ذلك أن التاريخ الروماني قد ظل إلى عهد صلا Sulla سجلاً لأعمال الأسر لا أعمال الأفراد؛ فلما نرى فيه أسماء ساسة عظام بارزين ولكننا نرى جيلاً في إثر جيل أسماء بعينها تشغل أعلى مناصب الدولة؛ ترى من بين مائتي قنصل شغلوا هذا المنصب الخطير بين عامي 233، 133 ق.م مائة وتسعة وخمسين ينتمون إلى ست وعشرين أسرة، ومائة ينتمون إلى عشر أسر. وكانت أقوى أسرة في ذلك العهد هي آل كورنيليوس Cornelius. وليس تاريخ رومه الحربي والسياسي من أيام بيليوس كورنيليوس سيبو Publius Cornelius Scipio الذي خسر معركة تريبيا Trebia في عام 218 أيام ولده سيبو الإفريقي قاهر هنيبال وأيام حفيد ثانيهما وتبناه سيبو إيمليانوس الذي دمر قرطاجنة في عام 146، نقول ليس تاريخ رومه الحربي والسياسي طوال ذلك العهد في جملته إلا تاريخ هذه الأسرة، ولقد بدأت الثورة التي قضت على طبقة الأشراف على يد ابني جراكس وهما حفيدا إيمليانوس. ولقد أصبح سيبو الإفريقي بعد انتصاره في واقعة زاما التي أنجبت رومه من الدمار محبباً لجميع الطبقات، وظلت رومه فترة من الزمان على استعداد لأن تمنحه أي منصب يرغب فيه.

فلما أن عاد هو وأخوه لوسيو Lucius من ميدان القتال في آسيا (187) طلب أشياخ كاتو أن يعرض على المجلس حساب الغرامة الحربية التي أداها إليه أنتيوخوس لبيعته بها إلى رومه، وأبى سيبو الإفريقي أن يجيب أخوه هذا الطلب، ومزق سجلات الحساب أمام مجلس الشيوخ. وحوكم

صفحة رقم : 3018

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> تبدل أحوال رومة

لوسيو أمام الجمعية وحكم عليه بأنه اغتصب الأموال العامة، ولم ينجه من العقاب إلا رفض التربيون تيبيريوس سمبرونيوس جراكس Tiberius Sempronius Gracchus زوج ابنة سيبو الإفريقي أن يجيز هذا العقاب بماله من

حق الرفض. واستدعى سيبو الإفريقي إلى المحاكمة فما كان منه إلا أن عطل الإجراءات القضائية بأن دعا الجمعية وسار أما أعضائها إلى هيكمل جوبنتر للاحتفال بذكرى معركة زاما. ولما دعي مرة ثانية أبى أن يجيب الدعوة وسافر إلى ضيغته في ليطرنوم Liternum وبقي فيها بقية أيامه لا يجرؤ أحد على أن يمسه بسوء. وكان يقابل هذه النزعة الفردية في السياسة نمو الفردية في التجارة وفي الأخلاق. وما لبثت الجمهورية الرومانية أن قضى عليها نشاط عظماء رجالها وجهودهم الطليقة من جميع القيود.

وقد رفع من شأن الأرستقراطية ومن شأن هذا العهد كله، ما سرى في نفوس تلك الطبقة من تقدير للجمال. ذلك أن اتصال الرومان بالثقافة اليونانية في إيطاليا وصقلية وآسيا قد جعلهم على علم بكل مستلزمات الحياة المترفة، وبكل ثمار الفنون الجميلة في العالم القديم. ولما عاد الفاتحون إلى بلادهم جاءوا معهم بكثير مما اشتهر في أنحاء العالم من روائع الصور الملونة، والتمائيل، والكؤوس، والمرايا، والمعادن المنقوشة، والمنسوجات الغالية، والأثاث الثمين. وقد ارتاع الجيل القديم حين رأى مرسلس Marcellus يزين الميادين الرومانية بالتمائيل التي اغتصبها من سرقرسة. ولم يكن ما يشكو منه أهل ذلك الجيل اغتصاب قائدهم لهذه التمائيل، بل كانوا يشكون "البطالة ولغو الحديث" اللذين أصبحا عادة لازمة للمواطنين المجددين الذين يقفون الآن "الفصحوا عن السفاسف وينتقدوها(19)". واغتصب فلقبوس Fulvius 1015 تمثالاً من مجموعة تمائيل برس Pyrrhus في أمبراشيا Ambracia. وشحن إيمليوس بولس خمسين عربة في موكب نصره بالكثورز الفنية التي استولى عليها من بلاد اليونان ضمن ما استولى عليه منها نظير تحريرها. وفعل هذا الفعل نفسه صلا Sulla، وفريس Verres، ونيرون Nero ومئات

صفحة رقم : 3019

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> تبدل أحوال رومة

غيرهم من الرومان خلال مائتي عام من تاريخ البلاد جردوا منها بلاد اليونان من روائع فنها ليكتسي بها العقل الروماني.

وطغى هذا الغزو على الفن الإيطالي فنبذ صفاته الأصلية، وطرأه الوطني واستسلم بأجمعه - إلا في شيء واحد - إلى الفنانين اليونان والى الموضوعات والأشكال اليونانية. وأقبل المثالون، والمصورون، والمهندسون اليونان إلى رومه حيث كان الذهب يتدفق في جيوبهم، وما لبثوا أن صبغوا عاصمة فاتحي بلادهم بالصبغة اليونانية. وشرع سراة الرومان يشيدون قصورهم على الطراز الروماني حول فناء غير مسقوف، ويزينونها بالعمد، والتمائيل، والصور اليونانية، وبالآثاث اليوناني. أما الهياكل فقد تحولت على مهل حتى لا تغضب الآلهة من التحول وبقي جسم الهيكل القصير والقاعدة المرتفعة للتمائيل - وهما من مميزات الفن التسكاني - القاعدة المتباعدة في بناء الهياكل ونحت التمائيل.

فلما أن زاد عدد الآلهة الأولمبية، رأى الرومان أن من حق تلك الآلهة أن تبني بيوتها على الطراز الهليني الرفيع. غير أن الفن الروماني قد ظل في ناحية واحدة جوهرية يعبر بوسائله الخاصة وبقوته الفذة عن الروح الإيطالية الفنية، وإن ظل يسترشد بالفن اليوناني. أما فيما عدا هذا فقد استبدل المهندسون الرومان القوس بالعارضة الراكزة على الأعمدة في الأبنية التي خلدوا بها نصرهم أو زينوا بها دورهم، وفي القنوات التي تجر الماء لدورهم وفي أبنية محاكمهم.

وعلى هذا النحو شاد كاتو من الحجارة في عام 184 الدار المعروفة باسم باسلكا بورشيا Bacilica Portia، وبعد خمس سنين من ذلك العام شاد إيمليوس بولس باسلكا إيمليا Bacilica Aemilia في صورتها الأولى التي أصلحها فيما بعد أبناؤه وأحفاده جيلاً بعد جيل، وجملوها أحسن تجميل. وكانت الباسلكا الرومانية النموذجية

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> تبدل أحوال رومة

داراً تقام لتصريف الأعمال التجارية والقضائية، وتتألف من بناء في شكل مستطيل طويل يقسمها إلى ممشى وأفنية صقان من الأعمدة الداخلية، يعلوها في العادة سقف في صورة قبة مصندقة، وهو طراز أخذ في الأصل من الإسكندرية (20). وإذا كان الممشى مرتفعاً عن الأفنية فقد كان من المستطاع حفر شبكة من الفتحات في الحجارة فوق كل فناء يدخل منها الضوء والهواء. ذلك بطبيعة الحال هو الشكل الأساسي للجزء الداخلي من الكنائس الكبرى في العصور الوسطى. وبهذه الصروح الضخمة شرعت رومه تتخذ لنفسها مظهر القوة والفاخرة الذي امتازت به في مستقبل أيامها حتى بعد أن لم تكن عاصمة العالم كله.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> الآلهة الجدد

الفصل الثالث

الآلهة الجدد

ترى ماذا كان شأن الآلهة القديمة في ذلك العهد، عهد التحول السريع الذي لا يبقى ولا يذر؟ يلوح أن شيئاً من الكفر بهذه الآلهة قد سرى من الأشراف إلى عامة الشعب؛ وإلا فكيف يرضى شعب لا يزال يؤمن بالآلهة القديمة عن هذه المسرحيات الهزلية التي يسخر فيها بلوتس Plautus- مهما كانت حجته في أنه إنما يحاكي النماذج اليونانية- من أعمال جوبتر مع ألكمينا Alcmena، ويجعل من عطارده مهرجاً ضحكة، ثم هو لا يرضى عن هذا فحسب بل يحيى هذه المشاهد بالصخب والضجيج. إن كاتو نفسه وهو الحريص على العادات القديمة، كان يعجب من قدرة اثنين من العرافين إذا التقيا على ألا يسخر كلاهما من الآخر (21). لقد طالما خضع هؤلاء العرافون لأساليب الختل السياسية؛ وكثيراً ما كان الفأل والطيرة ينطق بهما لتكليف الرأي العام كما بهوى الزعماء، وكثيراً ما كانت أصوات الشعب في الاقتراع على أمر من الأمور تكفيها وسائل التهريج والشعوذة الدينية. ولطالما رضى الدين بأن يُحوّل استغلال الشعب إلى واجب مقدس تتطلبه الآلهة.

ولقد عاش من الدلالات السيئة أن يكتب بولبيوس حوالي عام 150 ق.م، بعد أن عاش سبعة عشر عاماً في أرقى المجتمعات في رومه، ما يستدل منه على أن الدين الروماني لم يكن إلا أداة طيعة من أدوات الحكم:

"إنني أرى أن الميزة التي تمتاز بها الجمهورية الرومانية، والتي ترفع من قدرها فوق سائر بلاد العالم، إنما هي طبيعة دينها. ذلك أن ما يعد عند الأمم الأخرى عيباً من العيوب وسبباً في الأعقاب- وهو الخرافات- لهو نفسه

صفحة رقم : 3022

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> الالهة الجدد

العامل الأكبر في تماسك الدولة الرومانية. فهذه الشؤون تكتسي بثوب من الأبهة والفخامة، وتسري في الحياة الخاصة والعامّة سرياناً لا يضار عنها فيه غيره من الأديان.. ويقيني أن الحكومة قد نهجت هذا النهج لخير الشعب. ولو أنه كان مستطاعاً إقامة دولة كل رجالها من الحكام، لما كان هذا النهج واجباً محتوماً. ولكن الجماهير كلها بلا استثناء متقلبة الأهواء لا تثبت على حال، تملأ قلوبها الرغبات الطليقة التي لا تنقيد بقانون، والشهوات التي لا تخضع لحكم العقل، والانفعالات العنيفة؛ ومن أجل هذا كان لابد من وجود أسباب للإرهاب لا تراها العين، ومواكب ومظاهر دينية فخمة تمسك هذه الجماهير بعضها ببعض".

ولعله كان في وسع بوليبوس أن يؤيد قوله هذا بحوادث في أيامه تثبت أن الخرافات لا تزال هي المسيطرة على عقول الرومان، على الرغم من بلوتس وعلى الرغم من الفلسفة. من ذلك أنه لما حلت بالرومان كارثة كاني Cannae، ولاح أن رومه لن يعصمها عاصم من هنيبال، استولى الرعب على الشعب الروماني المهتاج ونادى: "أي إله نرتجيه لينجي رومه من البلاء الذي هي فيه؟".

وحاول مجلس الشيوخ أن يسكن هذا الذعر بالتضحية البشرية، ثم بالصلاة إلى الآلهة اليونانية، ثم استخدام الطقوس اليونانية في عبادة الآلهة كلها الرومانية منها واليونانية على السواء. ثم قرر المجلس في آخر الأمر أنه إذا كان قد عجز عن القضاء على الخرافات فإنه سينظمها ويسيطر عليها. من ذلك أنه أعلن في عام 205 أن الكتب السبيلية Sibylline تنبئ بأن هنيبال سيغادر إيطاليا إذا جئ بالأم الكبرى - Magna Mater - وهي صورة من الإلهة سيبيل Cybele - من بسينس Pessinus في فريجيا Phrygia إلى رومه. ووافق على ذلك أتالس Attalus ملك برجموم ونقل الحجر الأسود الذي كان في اعتقادهم جسد الأم الكبرى إلى أستيا حيث استقبله سيبو الإفريقي وطائفة من فضليات

صفحة رقم : 3023

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> الالهة الجدد

السيدات بمظاهر التكريم. ولما أن ارتطمت السفينة التي كانت تحمله بطين نهر التيبير رفعتها العذراء كلوديا الفستية، وجرتها في النهر صعداً إلى رومه بما للعفة من قوة سحرية، ثم أمسكت السيدات جميعهن كل واحدة بعد الأخرى بالحجر في يدها وحملته في موكب رهيب إلى هيكل النصر، وأخذ الأهلون الأتقياء يحرقون البخور أمام بيوتهم أثناء مرور الأم الكبرى. وارتاع مجلس الشيوخ حين وجد أن المعبود الجديد لابد أن يقوم على خدمته كهنة يُخصون

أنفسهم. وكان من المستطاع العثور على رجال يقبلون هذا، ولكن الرومان لم يكن يسمح لهم بأن يكونوا من بينهم. وشرعت رومه من ذلك الوقت تحتفل في شهر إبريل من كل عام بعيد الآلهة الكبرى Magalesia، واتخذ الاحتفال في بادئ الأمر صورة الحزن العنيف، ثم انقلب بعدئذ إلى المرح العنيف. ذلك أن سيبيل كانت إلهة نباتية، وتروي الأساطير أن ابنها أتيس Attis رمز الخريف والربيع مات وانتقل إلى الجحيم Hades، ثم عاد إلى الحياة من بين الأموات.

وغادر هنيبال إيطاليا في عام 205، وهنا مجلس الشيوخ نفسه على الطريقة التي اتبعتها في علاج الأزمة الدينية. ولكن الحروب التي دارت مع مقدونية قد فتحت لرومه أبواب اليونان والشرق. وقد جاء في أثر الجنود الذين عادوا بأسلاب الشرق وأفكاره وأساطيره أفواج من الأسرى اليونان والأسبويين، ومن الرقيق واللجنين، والتجار والسياح، والرياضيين والفنانين والممثلين والموسيقيين، والمدرسين والمحاضرين؛ والناس إذا هاجروا جاءوا معهم بالهتهم. واغتنبت الطبقات الدنيا في رومه بما عرفته عن ديونيسس باخوس Dionysus Bacchus؛ وأرفيوس Orpheus ويريدس Eurydice، والطقوس الغامضة الخفية وهي في اعتقادهم مصدر الإيحاء الإلهي، والخمر القدسي، والاتصال الروحي، الذي يكشف عن الآلهة التي تبعث حياة وتعد عبادها الخلود. وارتاع مجلس الشيوخ في عام 186 حين علم أن من الشعب أقلية كبيرة قد اعتنقت الطقوس الديونيسية،

صفحة رقم : 3024

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> الآلهة الجدد

وأن الإله الجديد تقام له حفلات تدار فيها كؤوس الخمر على المحتفلين. وإذ كانت هذه الحفلات تقام سراً وفي الليل فقد راجت الإشاعات القائلة بأنها كانت حفلات حمراء يصحبها الخمر والفجور الطليق، وقد وصفها ليفي بقوله: "إن الفسق بالرجال كان أشد من الفسق بالنساء"، ثم يقول بعد هذا- ولعله في ذلك ينزل لغو القول منزلة التاريخ المحقق: "ومن لم يكن يرضى بالدينس... كان يضحى به قرباناً للإله (23)". وجرم مجلس الشيوخ هذه الطقوس الدينية؛ وقبض على سبعة آلاف من القانمين بها، وقضى بإعدام مئات منهم. وكان هذه نصراً مؤقتاً في الحرب العوان التي خاضت رومه غمارها لصد تيار الأديان الشرقية.

صفحة رقم : 3025

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> بداية عصر الفلسفة

الفصل الرابع

كانت الطريقة التي غزت بها بلاد اليونان رومه أن بعثت إلى عامتها بالدين اليوناني والمسرحيات الهزلية اليونانية، وإلى الطبقات العليا من أبنائها بالأخلاق وبالفلسفة اليونانية. وانتشرت هذه الهدايا اليونانية مع الثروة الرومانية ومه الإمبراطورية الرومانية على تقويض دعائم دين رومه وأخلاقها، وكان هذا إحدى السبل التي اتبعتها هلاس في انتقامها الطويل المدى من غزاتها. وبلغ هذا الغزو غايته في الفلسفة اليونانية من أبيقورية لكريشبيوس الرواقية إلى رواقية سنكا الأبيقورية. وفي الدين المسيحي غلبت فلسفة ما وراء الطبيعة اليونانية الآلهة الإيطالية، ولما نشأت القسطنطينية كانت الغلبة فيها للثقافة اليونانية، فنافست في بادئ الأمر الثقافة الرومانية، ثم حلت في آخر الأمر محلها؛ ولما أن سقطت القسطنطينية عادت الآداب والفلسفة والفنون اليونانية فغزت إيطاليا وأوربا كلها في عصر النهضة. ذلك هو المجرى الرئيسي في تاريخ الحضارة الأوروبية، أما ما عداه فتيارات فرعية وروافد جانبية. وفي ذلك يقول شيشرون: "لم يكن منشأ الفيض الذي أقبل من بلاد اليونان إلى مدينتنا مجرى صغيراً بل كان منشؤه نهراً خضماً من الثقافة والعلم (24)"، أصبحت حياة رومه الذهنية والفنية والدينية من بعده جزءاً من العالم المصطبغ بالصبغة الهلينية. ووجد الغزاة اليونان في مدارس رومه وقاعات المحاضرات فيها ثغرة طيبة ينفذون منها إلى رومه، وموقعاً صالحاً يثبتون فيه أقدامهم. فجاء في أعقاب

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> بداية عصر الفلسفة

الجيوش الرومانية التي عادت من بلاد الشرق تيار دافق من "اليونان الصغار" Graeculi كما كان يسميهم الرومان استهزاء بهم. وكان منهم أرقاء كثيرون استخدموا معلمين في الأسر الرومانية، ومنهم النحاة الذين أنشئوا الدراسات الثانوية في رومه بما افتتحوه من المدارس لتعليم لغة اليونان وآدابهم؛ ومنهم البلغاء الذين كانوا يلقون محاضرات عامة في فن الخطابة والأدب والإنشاء والفلسفة، أو يعطون فيها دروساً خاصة. وشرع الخطباء الرومان - حتى من كان منهم يبعث الثقافة اليونانية أمثال كاتو - يتخذون خطب ليسيلاس Lysias، وإيسكين Aeschines ودمستين Demosthenes نماذج لهم ينسجون على منوالها. ولم يكن لهؤلاء المدرسين اليونان دين يؤمنون به إلا القليلين منهم، وأقل من هؤلاء المتدينين من كانوا يثبتون في قلوب تلاميذهم شيئاً من العقيدة الدينية. وكانت منهم أقلية صغيرة تحذو حذو أبيقور، وتسبق لكريشبيس في وصفه الدين بأنه أكبر الشرور في حياة الشر. وأدرك الأشراف مهيب العاصفة وحاولوا أن يسدوا عليها الطريق، فنفى مجلس الشيوخ من البلاد في عام 173 اثنين من الفلاسفة أو البلغاء. ولكن العاصفة لم تسكن، فقد جاء إلى رومه في عام 159 كراتس الملوسي Crates of Mallus مدير المكتبة الملكية الرواقي في برجموم في عمل رسمي، وكسرت فيها ساقه، فأقام بها، وأخذ وهو في دور النقاهة يلقي محاضرات في الأدب والفلسفة. وفي عام 155 بعثت أثينا إلى رومه سفراء من أهلها كانوا زعماء المدارس الفلسفية الثلاث العظيمة: كارنيدس Carneades الأكاديمي أو الأفلاطوني، وكروتولوس Critolaus المشائي أو الأرسطاطيلي وديوجين Diogenes الرواقي السلوسي (of Selucia). وكان قدوم هؤلاء إلى رومه مبعث نهضة علمية وفلسفية لا تكاد تقل في قوتها عما بعثه قدوم كرسولوراس Chrysoloras إلى إيطاليا في عام 1453. وتحدث كارنيدس عن البلاغة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> بداية عصر الفلسفة

بفصاحة حملت الشبان على أن يجتمعوا حوله في كل يوم ليستمعوا له (25). وكان الرجل شاكاً إلى أقصى حد، فكان يشك في وجود الآلهة، ويقول إن في الإمكان تبرير الظلم بأسباب لا تقل في وجاهتها عن الأسباب التي يبرر بها العدل. وفي هذا تسليم من جانب الفلسفة الأفلاطونية بآراء ترازيماكس Thrasymachus. ولما سمع كاتو - وكان وقتئذ شيخاً طاعناً في السن - بهذا القول طلب إلى مجلس الشيوخ أن يأمر بإعادة السفراء الثلاثة إلى بلادهم، فعادوا ولكن بعد أن ذاق الجيل الجديد لذة الفلسفة؛ ومن ذلك الحين أخذ الأثرياء من شباب رومه يذهبون إلى أثينا ورودس ليستبدلوا فيهما بايمانهم القديم أحدث ما فيهما من تشكك. وكان الذين فتحوا بلاد اليونان هم أنفسهم الذين نشروا الثقافة اليونانية والفلسفة اليونانية في رومه، وكان فلامينوس Flamininus يحب الآداب اليونانية قبل أن يغزو مقدونية ويحرر اليونان، فلما أن غزاها تأثر كثيراً بما رأى في بلاد اليونان من فنون ومن مسرحيات. وخليق بنا أن نذكر لرومه أن بعض قوادها العسكريين كانوا يستطيعون فهم بوليكليتس Polycleitus وفيدياس Pheidias وإن كانوا قد تغالوا في تقدير هذين الفنانين إلى حد السرقة. ولما أن انتصر إيمليوس بولس على برسيوس لم يستيق من كل ما جاء به من الغنائم إلا مكتبة الملك ليرتها أبناؤه من بعده، وقد حرص على أن يتعلم هؤلاء الأبناء الآداب والفلسفة اليونانية حرصه على أن يتعلموا فنون الصيد والحرب الرومانية، وكان يشترك معهم في هذه الدراسات بالقدر الذي تسمح له به واجباته الرسمية. ولما مات بولس تبني أصغر أبنائه صديقه ب. كرنليوس سببو ابن الإفريقي واتخذ الابن المتبني اسم الرجل الذي تبناه جرياً على عادة الرومان وقتئذ، وأضاف إليه اسم عشيرة أبيه فأصبح اسمه بعدئذ، كرنليوس

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> بداية عصر الفلسفة

سببو إيمليانوس وهو الذي سنطلق عليه اسم سببو في صحائف هذا الكتاب. وكان شاباً وسيم الطليعة قوي البنية، بسيطاً في عاداته، متزناً في حديثه، رقيق القلب، كريماً، شريفاً طاهر اليد، لم يترك وراءه عند وفاته إلا ثلاثة وثلاثين رطلاً من الفضة ورطلين من الذهب، وإن كانت جميع غنائم قرطاجنة قد مرت بين يديه، وإن كان قد عاش عيشة العالم المتقشف لا عيشة الرجل الثري. وقد التقى في شبابه بيوليبوس اليوناني الذي نفي من بلاده وأسداه بوليبيوس النصح والكتب القيمة، وكانت هذه يد حفظها له الشاب طول حياته. وذاعت شهرته وهو لا يزال شاباً يحارب تحت إمرة أبيه في بدنا Pydna، ولما استخف به عدوه في أسبانيا وطلب إليه أن يبارزه قبل هذا التحدي وانتصر في المباراة (27).

وقد جمع حوله في حياته الخاصة طائفة من الرومان الممتازين الذين شغفوا بالأفكار اليونانية. ومن أعظم هؤلاء شهرة جاريوس ليليوس Gaius Laelius وهو رجل حكيم في رأيه، وفي صداقته، عادل في أحكامه، نقي السيرة، طاهر السريرة، لا يفوقه في فصاحة اللسان وجمال الأسلوب إلا إيميلينوس نفسه. وقد أحب شيشرون ليليوس وأعجب به بعد مائة عام من وفاته، وسمي باسمه مقالته عن الصداقة، وكان يتمنى أن لم يعيش في عصره المضطرب بل في تلك الدائرة الرفيعة التي كانت تضم شباب رومه المفكر.

وكان لهذه الدائرة أبلغ الأثر في الأدب الروماني، ولقد كسب ترنس Terence بفضل اشتراكه فيها ما امتازت به لغته من دقة في التعبير وجمال في الأسلوب، ولعل جايوس لوسليوس (103-180) قد أفاد منها قدرته على أن يجعل لهجائه اللاذع الذي كان يسلطه على رذائل عصره وترفه هدفاً اجتماعياً.

وكان اللذان يشران على هذه الفئة من اليونان رجلين هما بوليبيوس Polybius وبانييتيوس Panaetius. وقد عاش أولهما سنين كثيرة في بيت سيبو. وكان رجلاً واقعياً عقلياً، قليل الاعتزاز بالناس وبالذول. أما بانيتيوس فقد جاء من

صفحة رقم : 3029

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> بداية عصر الفلسفة

رودس، وكان كزميله بوليبيوس من الأشراف اليونان. وعاش كثيراً من السنين مع سيبو ينعم بصداقته ويشاركه في نفوذه وسلطانه. وهو الذي غرس في نفس سيبو فضائل الرواقية ونبلها، وأكبر الظن أن سيبو هو الذي حمله على أن يلطف من المطالب الخلقية المتطرفة لهذه الفلسفة، ويجعل منها عقيدة عملية. ولقد شرح بانيتيوس في كتاب له "في الواجبات" المبدأين الأساسيين للفلسفة الرواقية وهما أن الإنسان جزء من كل يجب أن يتعاون معه - مع أسرته، وبلده، ومع روح العالم القدسي؛ وأنه لم يوجد في العالم ليستمتع بملاذ الحواس وإنما وجد ليؤدي واجبه من غير أن يشكو أو يتململ. ولم يكن بانيتيوس كالرواقين الأولين يدعو إلى الفضيلة الكاملة أو عدم المبالاة التامة بطببات الحياة ومتعتها. واستمسك الرومان المتعلمون بهذه الفلسفة واتخذوها بديلاً كريماً مقبولاً من دينهم القديم الذي لم يعودوا يؤمنون به، ووجدوا في مبادئها قانوناً أخلاقياً يتفق كل الاتفاق مع تقاليدهم ومثلهم العليا.

وهكذا أصبحت الرواقية هي الملهم لسيبو والمطمح الذي يصبو إليه شيشرون؛ كما كانت هي خير ما في سنكا، والمرشد الهادي لتراجان Trajan، والمواسية لأوريليوس Aurelius. وجملة القول أنها أصبحت هي ضمير رومة.

صفحة رقم : 3030

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> النهضة الأدبية

الفصل الخامس

لقد كان الغرض الذي يهدف إليه سيبو وجماعته أن يناصروا الفنون والفلسفة، وأن يجعلوا اللغة اللاتينية لغة رقيقة سلسلة أدبية، وأن يجذبوا ربان الشعر الرومانية إلى ينابيع الشعر اليوناني المتدفقة، وأن يهينوا للكتاب والشعراء الناهضين مستمعين وقراء. من ذلك أنه لما أن جاء كاتو - وهو العدو الألد لكل شيء يمثله سيبو وأصدقاؤه - بشاعر من الشعراء إلى رومه في عام 204 ق.م اختفى به سيبو وأكرم مثواه. وكان هذا الشاعر هو كونتس إينبوس Quintus Ennius. وكان قد ولد في عام 239 بالقرب من برنديزيوم Brundisium من أبوين أحدهما يوناني والآخر إيطالي. وتلقى علومه في تارنتم، وكان ذا روح حماسية تأثرت أشد التأثر بالمسرحيات اليونانية التي كانت تعرض على مسرح تلك المدينة. واسترعت شجاعته العسكرية في سردينيا النقات كاتو. ولما جاء إلى رومه أخذ يشتغل بتدريس اللغتين اليونانية واللاتينية، وينشد أشعاره لأخصائه. وسرعان ما وجد سبيله لجماعة سيبو وأصدقائه؛ ولم يكن ثمة بحر من بحور الشعر إلا حاوله، وكتب عدداً قليلاً من السالي وما لا يقل عن عشرين مأساة، وكان يعجب بيور بديز ويعبت مثله بالأراء المتطرفة، ويغيب الأتقياء بما ينطق به من الأمثال التهكمية الأبيقورية كقوله: "أسلم معكم أن ثمة آلهة ولكنهم لا يبالون بما يفعله الأدميون، وإلا لكانت عاقبة الطيبين الخير وعاقبة الخبيثين الشر - وهذا قلما يحدث(28)". ويقول شيشرون إن من استمعوا لهذا القول طربوا وصفقوا له استحساناً(29). وقد ترجم أو شرح كتاب "التاريخ المقدس" تأليف يوهامروس Euhemerus وهو الكتاب الذي يثبت فيه كاتبه أن الآلهة ليسوا إلا أبطالاً أمواتاً ألهمهم

صفحة رقم : 3031

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> النهضة الأدبية

عواطف الشعب وتعلقه بهم. على أنه لم يكن مجرداً كل التجرد من الآراء الدينية، وآية ذلك أنه أعلن في وقت ما أن روح هوميروس قد تنقلت في عدة أجساد منها جسم فيثاغورس ومنها جسم طاووس ثم استقرت في جسم إينبوس Ennius. وقد كتب تاريخاً حماسياً لرومه في صورة ملحمة كبيرة تبدأ من مجيء إينباس Aeneas إلى بيرس Pyrrhus، وقد ظلت هذه الحوليات إلى أيام فرجيل الملاحم القومية لإيطاليا؛ وبقيت منها قطع صغيرة قليلة العدد أشهرها كلها بيت لا يمل المحافظون الرومان ترديده وهو: "قوام الدولة الرومانية أخلاقها القديمة ورجالها العظماء". وكانت القصيدة من حيث الوزن تعد ثورة على الأوزان الشعرية القديمة. فقد استبدل فيها بالوزن المهلهل غير المنتظم الذي كان يستخدمه نيفيوس Naevius الشعر المرن السداسي الأوتاد الذي كان يستخدم في الملاحم اليونانية. وصاغ إينبوس الشعر اليوناني في صور جديدة، وبث فيه قوة جديدة، وغمر أبياته بالأفكار، وأعدده من حيث طريقته وألفاظه وموضوعه وأفكاره للكريشيس وهوراس وفرجيل. وقد توج أعماله الأدبية برسالة عن ملاذ الفم، ومات بذات الرنة في سن السبعين بعد أن ألف هذه القبرية التي يفخر فيها بنفسه: "لا نبكوا علي ولا تحزنوا لوفاتي؛ فإني أبقى على شفاه الرجال وأحيا(30)". ونجح إينبوس في كل شيء عدا المسلاة، ولعل سبب إخفاقه أنه عني بالفلسفة عناية جدية فوق ما يجب، ونسي نصيحته التي قال فيها "يجب على الإنسان أن يتفلسف دون أن يسرف في فلسفته(31)". وكان الناس يفضلون الضحك

على الفلسفة وكانوا في ذلك على حق؛ وقد أغنوا بهذا التفضيل بلوتس وأفقروا إينيوس. ولهذا السبب عينه لم تلق المآسي المسرحية شيئاً من التشجيع في رومه. نعم إن الأشراف قد أعجبوا بمآسي بكوفيرس Pacuvius وأكيوس Accius، ولكن الشعب تجاهلها والزمان لم يبق على ذكرها.

صفحة رقم : 3032

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> النهضة الأدبية

وكان موظفو الدولة يعرضون المسرحيات على الجماهير في رومه، كما كان أمثالهم يعرضونها عليه في أثينة، على أنها جزء من الحفلات التي تقام في الأعياد الدينية أو في جنازات المواطنين الممتازين. وكان الملهى الذي تمثل فيه مسرحيات بلوتس وترنس يتكون من محالة خشبية تعلوها خلفية مزخرفة scaena أمامها طوار مستدير للرقص جزؤه الخلفي هو المسرح proscaenium. وكان هذا البناء الهش الرقيق يهدم عقب كل حفل كما نفعل نحن بالمقاعد والحواجز التي نقيمها للاستعراض في هذه الأيام. وكان النظارة يشاهدون اللعاب وهم وقوف أو جلوس على مقاعد يأتون بها معهم، أو يتربعون على الأرض في العراء. ولم تبن في رومه دار كاملة للتمثيل قبل عام 145 ق.م، وحتى في ذلك الوقت كانت الدار لا تزال بناء خشبياً لا سقف له، ولكن مقاعد مصفوفة على نظام المدرجات اليونانية نصف الدائرية. ولم يكن النظارة يؤدون لدخولها أجراً، وكان في مقدور الأرقاء أن يدخلوا دون أن يكون لهم حق الجلوس، أما النساء فلم يكن يسمح لهن إلا بالجلوس في المقاعد الخلفية. ولعل النظارة في ذلك العهد كانوا أحسن من شهدهم تاريخ التمثيل كله وأشهدهم غباوة- فكانوا جماعة من الخابيين المتراحمين الوضيعين. وكثيراً ما كان يطلب إليهم في بداية التمثيل أن يرعوا قواعد الأدب والأخلاق، كما أن الفكاهات والنكات السمجة العادية يطلب تكرارها لكي يستطيع النظارة إدراكها. وكان يطلب إلى الأمهات في بعض الأحيان أن يتركن أطفالهن في منازلهن، وكانت الخطب الافتتاحية تنذر الأطفال بالعقاب إذا أحدثوا شيئاً من الضجيج، أو تحذر النساء من الثرثرة في أثناء التمثيل. وترى هذه المطالب مدونة حتى في وسط المسرحيات التي نشرت فيما بعد(32). وإذا حدث أن صحب التمثيل صراع ينال المتفوق فيه جائزة، أو ألعاب بهلوانية على الحبال، فقد كان التمثيل ينقطع أحياناً حتى ينتهي الصراع

صفحة رقم : 3033

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> النهضة الأدبية

أو تنتهي الألعاب، وهما أشد إثارة لحماسة النظارة من التمثيل. وعند ختام تمثيل مسلاة رومانية كانت تلقى العبارة الآتية: "والآن فيصق الجميع" أو ما في معناها للدلالة على أن الرواية قد انتهت وأن التصفيق مباح. وكان التمثيل خبير ما في المسرح الروماني، وكان مدير المسرح من الأحرار، وكان هو الذي يمثل الدور الرئيسي عادة، أما غيره من الممثلين فكان معظمهم من الأرقاء اليونان. وكان كل مواطن يتخذ التمثيل حرفة له يفقد بذلك

حقوقه المدنية- وهي عادة ظلت قائمة إلى أيام فلتيير. وكان الرجال يمثلون أدوار النساء. وكان النظارة قليلي العدد، ومن أجل ذلك لم يكن الممثلون يلبسون أقنعة بل كانوا يكتفون بالأصباغ والشعر المستعار؛ فلما أن ازداد عدد النظارة أصبحت الأقنعة واجبة لتمييز أشخاص المسرحية بعضهم من بعض، وكان يطلق على القناع لف برسونا *persona* وهو في أغلب الظن مشتق من الكلمة التيسكانية فرسو *phearsu* بمعنى قناع. وكانت الأدوار تسمى دراماتيس برسوني *dramatis personae* أي أقنعة المسرحية. وكان ممثلو الأدوار المحزنة يلبسون أحذية عالية *cothurnus* أما ممثلوا الأدوار المضحكة فكانوا يحتدون نعالاً وطينة *soccus*. وكانت بعض أدوار المسرحية تغني على أنغام المزمارة، وكان المغنون في بعض الأحيان يغنون الدوار، والممثلون يمثلونها تمثيلاً صامتاً بالإشارات. وقد كتبت ملاهي بلوتس بالشعر السهل المكون من أسباب وأوتاد يتلو بعضها بعضاً تقليداً لأوزان الشعر اليوناني وموضوعاته، ومعظم الملاهي اللاتينية التي وصلت إلينا مأخوذة من المسرحيات اليونانية مباشرة، أو بمزج مسرحيتين يونانيتين أو أكثر بعضها ببعض، وهي مأخوذة في الغالب من مسرحيات فيلمون *Philemon* ومناندر *Menander* أو غيرهما من كتاب "المسلة الجديدة" في أثينا، وكان اسم المسرحية الرومانية واسم مؤلفها يكتبان عادة على الصفحة الأولى. وقد حظر الاقتباس من مسرحيات أرسطوفان و"المسلة القديمة" بمقتضى

صفحة رقم : 3034

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> النهضة الأدبية

قانون الألواح الاثني عشر الذي كان يعاقب على الهجاء السياسي بالإعدام(33). ولعل خوف كتاب المسرحيات اللاتين أن يطبق عليهم هذا التشريع الرهيب هو الذي حدا بهم إلى الاحتفاظ بالمناظر والشخصيات والعادات والأسماء، وحتى النقود، كما كانت في الأصل اليوناني. ولولا بلوتس لكان القانون الروماني قد أبعد الحياة الرومانية كلها تقريباً عن المسرح الروماني. ولكن هذه الرقابة الصارمة لم تمنع فحش القول وبذئبه أن ينطق به على المسرح، فقد كان الهدف الذي يبتغاه المشرفون على التمثيل هو تسليية النظارة لا رفع مستواهم، ولم يكن جهل العامة ليسوء قط الحكومة الرومانية، وكان النظارة يفضلون المزاح السمج على الفكاهة الرقيقة، ويعجبهم الهزل والتهريج أكثر مما يعجبهم الحذق والدهاء، ويطربهم فحش القول أكثر مما يطربهم الشعر، وكان بلوتس أحب إليهم من ترنس. وكان أول دخول تيتس مكسيوس بلوتس *Titus Maccius Plautus* أي تيتس المهرج ذي القدم الكرشاء في أمبريا *Umbria* عام 254 ق.م؛ ولما قدم إلى رومه عمل فيها خادماً من خدم المسرح وادخر بعض المال وحرص على استثماره ولكنه أضاعه. واضطره العيش إلى كتابة المسرحيات، وسر الجماهير بما كان يبثه من الإشارات الرومانية في مسرحياته المقتبسة من المسرحيات اليونانية. واستطاع بهذه الطريقة أن يجمع بعض المال وأن يمنح مواطنيه رومه. وكان بلوتس رجلاً شعبياً شديداً ضاحكاً صخاباً، يضحك مع كل إنسان على كل إنسان، ولكنه كان طيب القلب عطوفاً على الناس جميعاً. وقد بلغ عدد ما كتبه أو صقله من المسرحيات مائة وثلاثين بقيت منها إلى الآن عشرون. ومن هذه المسرحيات البقية مسرحية *Miles Gloriosus* وهي صورة مرحة لجندي صخاب يغذيه خادمه وينفحه بالأكاذيب.

صفحة رقم : 3035

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> النهضة الأدبية

الخدم: أريت الفتاتن اللتفن استوقتاني بالأمس؟.

الضابط: ماذا قالتا لك؟.

الخدم: لما مررت بنا سألتاني:

"يا عجباً! هل هنا أخيل العظفم؟" فأجبتهما:

"فف الحق إنه لجميل! يا له من رجل نبفل!

"ما أبهى شعره!"... وتوسلت إلى كلتاها.

... أن أطلب إليك أن تخرج الؤوم مرة أخرى. حتى تستطيعا رؤفئك عن قرب.

الضابط: ألا ما أكثر ما فجره الجمال على الإنسان من متاعب!!.

وفي مسرحية أمفثريون Amphitryon تنصب السخرية على جوف Jove فهو يتنكر في صورة زوج الكميناء Alcmena ويدعو نفسه ليستمتع إلى قسمه، ويقرب القربان إلى جوبتر (35). وفي اليوم التالي يغرر بهذه السيدة فتتلمس ويطلب بلوتس إلى الإله في آخر المسرحية أن يعفو عنه وأن يتقبل من الجماهير أكبر قسط من الثناء. وقد نالت هذه القصة من إعجاب الجماهير في رومه أيام بلوتس بقدر ما نالت في أثينا أيام مناندر Menander وفي باريس أيام ملبيير Moliere ، وما تناله في نيويورك في الوقت الحاضر. أما مسرحية أولولاريا Aulularia فهي قصة رجل بخيل يكنز المال، وفيها من العطف عليه أكثر مما في رواية البخيل Avare لمليير. وترى البخيل فيها يجمع قلامة أظفاره ويتحسر على ما خسره من الماء فيما أدرفه من الدموع. ومسرحية منمكي Menaechmi هي القصة القديمة قصة التوأمين اللذين يختلط أمرهما على الناس ثم يتبينونهما، ويرى لسنج Lessing أن مسرحية الأسير Captiv خير مسرحية مثلت في ملهى (35). وقد أعجب بها بلوتس أيضاً ويقول في مستهلها:

صفحة رقم : 3036

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> النهضة الأدبية

ليست مبتذلة ولا هي كغيرها من المسرحيات.

وليس فيها سطور فذرة يستتكف الإنسان أن ينطق بها.

وليس فيها قواد كاذب ولا مومس خبيثة.

وهو قول حق، ولكن حبكة المسرحية معقدة غاية التعقيد، وتعتمد كل الاعتماد على المصادفات غير المتوقعة، وعلى الرؤى العجيبة التي لا يلام صاحب العقل الحريص على صدق التاريخ أن يمر بها دون أن يعيرها أية عناية. ولم يكن سر نجاح هذه المسرحيات القديمة بل كثرة ما فيها من الحادثات الفكهة المضحكة والنكات اللفظية المرححة التي لا تقل فحشاً عما في مسرحيات شكسبير، والصخب القذر البذيء، والنساء الطائشات وما يظهره في بعض الأحيان من عواطف طيبة. وقد كان في وسع النظارة في كل مسرحية أن يتقوا من وجود حادثة من حوادث الحب، وتغريب بفتاة، وبطل وسيم فاضل، وعيد أرجح عقلاً من كل من فيها من الشخصيات مجتمعة. وفي هذه المسرحيات نرى الأدب الروماني منذ بدايته تقريباً وثيق الارتباط بالرجل العادي، ويصل بما اقتبس من المسرحيات اليونانية إلى حقائق الحياة، ويبلغ في هذا حداً لم يبلغه قط فيما بعد.

وفي السنة التي توفي فيها بلوتس على الأرجح (184 ق.م) ولد في قرطاجنة بيبليوس ترنتيوس أفر Publus Terentius Afer من أصل فينيقي، ولربما كان من أصل إفريقي. ولسنا نعرف عنه شيئاً قبل أن يكون عبداً من عبدة

ترنتيوس لوكانس Terentius Lucanus في رومه. فقد أدرك هذا الشيخ مواهب الشاب الحي فعلمه ووهبه حريته، وتسمى الشاب باسم سيده اعترافاً منه بفضله عليه. وفي وسعنا أن نعرف شيئاً من أخلاق الرومان الطيبة حين نسمع أن ترنس "الفقير الخلق الثياب" جاء إلى بيت كاسيليوس استاتيوس Caecilius Statius - وكانت مسرحيات هذا المؤلف المضحكة هي المسيطرة في ذلك الوقت على المسرح

صفحة رقم : 3037

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> النهضة الأدبية

الروماني- وقرأ عليه المشهد الأول من مسرحية أندريا. وأعجب كاسيليوس بهذا المشهد إعجاباً حمله على أن يستبقي الشاعر إلى العشاء معه وأن استرعى أسماع إيمليوس Aemilijus وليليوس، وقد حاول كلاهما أن يصقل أسلوبه فيجعله هو الأسلوب اللاتيني الحبيب إلى قلبه. ومن ثم راجت الإشاعة القائلة بأن ليلبيوس هو الذي كان يكتب لترنس مسرحياته، وهي إشاعة رأى المؤلف كياسة منه وحصافة إلا يؤيدها أو ينكرها(38). واستمسك ترنس في أمانة وإخلاص بأصول المسرحيات اليونانية التي نقلها إلى اللاتينية وأطلق على هذه المسرحيات أسماء يونانية، وتحاشى أن يشير فيها إلى الحياة الرومانية، ولم يدع لنفسه أكثر من أنه مترجم لهذه الروايات- وهو تواضع منه وبخس لأعماله(39). ولعل الذي دفعه إلى هذا هو تأثيره بالهلينية المتغلبة على سيبو وجماعته. ولسنا نعرف ماذا كان مصير تلك المسرحية التي كان كاسيليوس يحبها ويعجب بها أشد الإعجاب، ولكننا نعرف أن هيرا Hecyra مسرحية ترنس الثانية قد أخفقت لأن النظارة غادروا الملهى في أثناء التمثيل ليشهدوا صراعاً للدبية. ثم بسم له الحظ في عام 162 حين كتب أشهر مسرحياته كلها وهي مسرحية "المعذب نفسه" Heauton Timoroumenos وهي تروي قصة أب منع ابنه أن يتزوج الفتاة التي اختارها لنفسه، ولكن الابن تزوجها رغم هذا، فما كان من الأب إلا أن تبرأ منه ونفاه من البلاد، ثم أنبه ضميره وندم على فعلته وعاقب نفسه على ما فعل بامتناعه عن أن يمس ثروته وبأن يعيش عيشة الكدح والفقر، ثم عرض عليه جار له أن يتدخل في الأمر ليحل مشكلته، فيسأله الأب عما يدعوه إلى الاهتمام بغيره والإشفاق عليهم، فيرد عليه الجار بهذه العبارة المعروفة في جميع أنحاء العالم والتي صفق لها النظارة طرباً وإعجاباً وهي: Hums sum humani nihil a me alienum puto "إني إنسان؛ ولا أرى أن شيئاً مما

صفحة رقم : 3038

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> النهضة الأدبية

يتصل بالإنسان غريب عليّ". ومثلت في السنة التالية مسرحية "الخصي" وبلغ من إعجاب النظارة بها أن مثلت مرتين في يوم واحد (ولم يكن ذلك مألوفاً في تلك الأيام)، وريح منها ترنس ثمانية آلاف سسترس (نحو 1200 ريال

أمريكي) في يوم وليلة(40). وظهرت بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت رواية "الفورميو" وقد سميت كذلك نسبة إلى الخادم الفكاهة الذي أنقذ سيده من غضب أبيه، والذي أصبح فيما بعد نموذجاً لشخصية فيجارو Figaro القوية في رواية بومارشيه Beaumarchais. وفي عام 160 ق.م مثلت آخر مسرحية لترنس وهي مسرحية أدلفي أو "الإخوة" في الألعاب التي أقيمت بمناسبة وفاة إيميلوس بولس. وبعد قليل من ذلك الوقت سافر الكاتب بطريق البحر إلى بلاد اليونان، ثم مرض وهو عائد منها، ومات في أركاديا في الخامسة والعشرين من عمره. وانصرف الجمهور بعض الانصراف عن مسرحياته الأخيرة، لأن الصبغة الهلينية التي اصطبغت بها قد أعلنت من قدره فوق ما يجب. فقد كان يعوزه مرح بلوتس وخفة روحه وفكاهته؛ هذا إلى أنه لم يعن في مسرحياته بمعالجة الحياة الرومانية، فلم يدخل في المضحك منها أنذالاً فاسدين أو مومسات طائشات، بل صور كل النساء في تلك المسرحيات في صور رقيقة، حتى العاهرات منهن كن يحمن على حافة الفضيلة. وقد احتوى تلك المسرحيات سطوراً تعد من جوامع الكلم، وعبارات جرت مجرى الأمثال، منها hinc illae lacrimae ("ومن ثم كانت تلك الدموع") ومنها fortes fortuna adiuvat ("الحظ يواتي الشجعان")، quot homines tot sententiae ("عدد الآراء كعدد الرجال") وعشرات من أمثالها. ولكن هذه الحكم لا يقدرها إلا أصحاب الذهن الفلسفية أو الحساسة الأدبية، وهما ما لم يجدهما العبد الإفريقي في جمهرة الشعب الروماني. ومن أجل هذا النقص لم يعبأ ذلك الشعب بمساليه التي توشك أن تكون مآسي، وبحبكات المتقنة البناء ولكنها تسير في بنائها على مهل،

صفحة رقم : 3039

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> النهضة الأدبية

وبدراسته الدقيقة للشخصيات الغربية، وبحواره الهادئ، وبأسلوبه المفرط في الهدوء، وفي نقاء لغته نقاء يكاد أن يكون إهانة للشعب الروماني؛ وكان النظارة وهم يشاهدون هذه المسرحيات كانوا يشعرون بأن قد حدث بينهم وبين كتلس الروماني صدع لن يلتئم قط. وقد كان شيشرون - وهو القريب من كتلس قريباً لا يمكنه من أن يراه على حقيقته، والحصيف حصافة تحول بينه وبين الإعجاب بلكريشوس - نقول كان شيشرون يظن أن ترنس أرق شعراء الجمهورية. وكان قيصر أعدل في حكمه عليه أتى عليه بقوله إنه "المحب للكلام الطاهر"، ولكن أسف لأنه لم يوهب القدرة على الضحك vis comica ووصفه بأنه "نصف مناندر" Dimitrius Menander. على أن ترنس قد أفلح في شيء واحد على الأقل؛ ذلك أن هذا الرجل السامي الأجنبي، الذي تشبع بروح ليليبوس وبلاد اليونان، قد صاغ من اللغة اللاتينية أداة أدبية هي التي استطاع بها شيشرون في القرن التالي أن يكتب نثره وفرجيل أن ينشئ شعره.

صفحة رقم : 3040

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> كاتو والمعارضون المحافظون

كاتو والمعارضون المحافظون

وامتلأت قلوب الرومان أصحاب النزعة المحافظة خوفاً كما امتلأت نفوسهم اشمئزازاً من هذا الغزو اليوناني لأدب الرومان، وفلسفتهم، ودينهم، وعلومهم، وآدابهم؛ ومن هذا الانقلاب العنيف في أخلاقهم، وعاداتهم، ودمائهم. وكان هؤلاء الرومان القدامى المحافظين شيخ متقاعد يدعى فاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus يقيم في مزرعة سيبينية، وأخذ هذا الشيخ يأسف لما أصاب الأخلاق الرومانية القديمة من ضعف وانحلال، وما أصاب السياسة من فساد، ومن حلول الأفكار والأساليب اليونانية محل "أساليب أجدادنا". وكان الرجل شيخاً طاعناً في السن لا تمكنه قواه من أن يكافح بنفسه هذا التيار الجارف، ولكن اتفق أن كان في مسكن بالقرب منه وفي جوار بلدته ريت Reate، وفي خارج حدودها، شاب مزارع من العامة اجتمعت له كل الصفات الرومانية القديمة، فكان يحب فلاحاً الأرض ولا يمل العمل المجهد الشاق، وكان مقتصداً يعيش عيشة البساطة القديمة، ولكنه مع ذلك يتحدث حديث المتطرفين النابهين. وكان اسم هذا الرجل ماركس بورسيوس كاتو Marcus Porcius Cato وكان سبب تسميته بورسيوس أن أسرته ظلت أجيالاً عدة تربي الخنازير، أما سبب تسميته كاتو فإن أفراد هذه الأسرة كانوا على جانب عظيم من الدهاء. وأشار عليه فلاكوس أن يدرس القانون، فعمل كاتو بنصيحته وكسب ما رفعه جيرانه من القضايا في المحاكم المحلية. ثم نصحه فلاكوس أن يسافر إلى رومه، ففعل، وما زال يرقى في المناصب العامة حتى أصبح كوسترا يشرف على الشؤون المالية Quaestor ولما يبلغ الثلاثين من عمره (204). وفي عام 199 عين إيديلا مشرفاً

صفحة رقم : 3041

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> كاتو والمعارضون المحافظون

على الأشغال العامة والملاعب والأسواق والشرطة. وما وافقت سنة 198 حتى كان بريطوراً Praetor يلي القنصل في المرتبة، ثم صار قنصلاً في عام 195، ثم تربيوناً في عام 191، ثم رقيباً Censro في عام 184. وكان في هذه المدة قد خدم في الجيش ستة وعشرين عاماً، وكان فيها كلها جندياً شجاعاً، وقائداً محنكاً، قاسي القلب شديد البأس. وكان من رأيه أن النظام أساس الأخلاق والحرية، وكان يحتقر الجندي "الذي يستخدم يديه في المشي وقدميه في الحرب، والذي يعلو غطيته في النوم على صراخه في الحرب". ولكنه كسب احترام جنده بسيره إلى جانبهم على قدميه، وبإعطاء كل منهم رطلاً من الفضة من غنائم الحرب، وعدم احتفاظه بشيء من هذه الغنائم لنفسه (41). وكان في فترات السلم يندد بالخطابة والخطباء، وأصبح بهذا العمل أقوى خطباء زمانه. وكان الرومان يستمعون إليه وهم مأخوذون على الرغم منهم بسحر بيانه، لأن أحداً من قبله لم يتحدث إليهم بمثل ما تحدث به هو من الإخلاص الواضح والفكاهة اللاذعة. وكان في مقدوره أن يسلط سوط لسانه على أي إنسان يستمع إلى خطبه، ولكن من يستمعه كان يسره أن يرى هذا السوط يسلط على جاره. وظل كاتو يكافح الفساد والرشوة في رومه غير عابئ بما يصيبه في هذا الكفاح، ولم تغرب عليه شمس يوم من الأيام إلا وقد خلق له فيه عدواً جديداً. وقلما كان أحد يحبه لأنه كان يقلق بال الناس بوجهه الكثير الندب، وشعره الأحمر الأشعث، ويخيفهم ويهددهم بأسنانه الكبيرة، ويخجلهم بتقشفه، ويسبقهم

بجده وكدحه، وتتفد نظراته التي يلقيها عليهم من عينيه الخضراوين خلال ألفاظهم إلى مكنون صدورهم، فيطلع فيها على أنانيتهم. وحاول أعداؤه من الأشراف أن يقضوا عليه بما وجهوه إليه من التهم العلنية، ولكنه في كل مرة كان ينجيه من هذا الاتهام اعتراض الزراع الذين كانوا لا يقلون عنه بعضاً للفساد والترف(42). ولما أن رفعت أصوات العامة إلى منصب الرقيب وجفت قلوب

صفحة رقم : 3042

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> كاتو والمعارضون المحافظون

الرومان أجمعين. وما أن تولى هذا المنصب حتى أخذ ينفذ النذر التي بها، والتي كسب بها المعركة الانتخابية، ففرض الضرائب الباهظة على الكماليات، وأوقع غرامة على أحد أعضاء مجلس الشيوخ لإسرافه، وأخرج من هذا المجلس ستة من أعضائه وجد في سجلاتهم أحكاماً قضائية. وطرد منه مانليوس لأنه قبل زوجته علناً، وقال عن نفسه إنه لم يعانق قط زوجته إلا في وقت قصف الرعد- وإن كان يسره أن يقصف الرعد. وأتم كاتو نظام المجاري في المدينة، وقطع الأنابيب التي تأخذ الماء خفية وخيانة من القنوات المبنية العامة، وأجبر الملاك على أن يهدموا ما كان يمتد من مبانيهم في عرض الطريق أو فوقه، وخفض ما كانت تؤديه الدولة ثمناً للأعمال العامة، وأرغم جباة الضرائب على أن يؤدوا لخزانة الدولة نصيباً أوفى مما كانوا يجنونه من الأهلين(48). وبعد أن قضى خمس سنين يجاهد جهاد الأبطال في أعمال تتعارض مع طبيعة الإنسان، اعتزل منصبه واستثمر ما كان له من المال استثماراً ناجحاً، وملاً ضيعته التي اتسعت رقعته في ذلك الوقت بالعبيد، وأخذ يقرض المال بربا فاحش ويبتاع الرقيق بأبخس الأثمان، ثم يدرّبهم على بعض الأعمال التي تتطلب شيئاً من المهارة، ويبيعهم بأغلاها، وبذلك أثرى إثراء مكنه من أن يقطع لتأليف الكتب- وهي مهنة كان يزدريها.

وكان كاتو أول كاتب عظيم من كتاب النثر اللاتيني، وقد بدا كتاباته بنشر مجموعة خطبه، ثم أصدر كتاباً في فن الخطابة دعا فيه إلى التزام الأسلوب الخشن الروماني بدل أسلوب الخطباء الإيزوقراطي Isocratean الرقيق، وعرف الخطيب بأنه "رجل صالح برع في الكلام vir bonus dicendi peritus (وهما صفتان قل أن اجتمعتا في إنسان)، وبهذا التعريف أوجد مجالاً لجدل كونتليان quintilian

صفحة رقم : 3043

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> كاتو والمعارضون المحافظون

ونقاشه. وكتب رسالة جمع فيها تجاربه في الزراعة وسماها De agricultura. وهي الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا من كتب كاتو، وأقدم كتاب في اللغة اللاتينية الأدبية أبقى عليه الدهر. وقد كتب هذا الكتاب بأسلوب سهل رصين مركز تركيزاً يجعله من جوامع الكلم. فهو لا يسرف في الألفاظ، وقلماً ينزل فيه إلى استخدام حرف من حروف الوصف،

وفي هذا الكتاب يقدم النصائح المفصلة لمن يريد أن يشتري أو يبيع الرقيق (فيقول مثلاً: إن كبار السن منهم يجب أن يباعوا قبل أن يصيروا مصدر خسارة لسادتهم)، ولمن يؤجر الأرض بجزء من غلتها، ولزراع الكروم والأشجار، وتدبير شؤون المنازل والصناعات، وصنع الأسمت وطهو أصناف الطعام النادرة الشهية، وعلاج الإمساك والإسهال، ومداواة لسع الأفاعي بروث الخنازير، وتقريب القربان للآلهة. ويسأل كاتو نفسه في هذا الكتاب عن أحكام الطرق للإفادة من الأرض الزراعية، ثم يجيب عن هذا السؤال بقوله إنها "تربية الماشية المربحة"، وتليها "تربية الماشية المتوسطة الربح"، وتليها "تربية الماشية العديمة الربح"، ويليهما كلها "حرب الأرض وزرعها". وهذه هي الحجج التي أوجدت الضياع الواسعة في إيطاليا.

ولعل أهم كتبه كلها هو كتاب "الأصول" Origines الذي لم يعثر عليه حتى الآن، وهو محاولة جزئية للبحث في آثار إيطاليا، وشعوبها، ونظمها، وتاريخها منذ نشأتها إلى السنة التي مات فيها كاتو، ولا نكاد نعرف من هذا الكتاب أكثر من أن مؤلفه أراد أن يغيظ الأشراف بالسخرية من أسلافهم فلم يذكر فيه اسم أحد من قواد الحرب، ثم ذكر فيللا باسمه، وأثنى عليه لأنه قاتل بيرس Pyrrhus قتال الأبطال(45). وكان الغرض الذي يهدف إليه كاتو من تأليف هذا الكتاب ومن مقالاته عن الخطابة، والزراعة والصحة العامة، والعلوم العسكرية،

صفحة رقم : 3044

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> كاتو والمعارضون المحافظون

والقانون، أن يؤلف دائرة معارف يستعين بها على تربية ولده. وكان يرجو من الكتابة اللاتينية أن تحل الكتب المكتوبة بهذه اللغة محل الكتب المدرسية اليونانية التي كان يرى أنها تربك عقول شباب الرومان وتفسدها. ويلوح أنه، وإن كان هو نفسه قد درس اليونانية ستعجل بالقضاء على العقائد الدينية لدى شباب الرومان، فلا يكون في حياتهم الخلفية ما يحميها من الشراهة والخصام والغرائز الجنسية، وكان يسخط على سقراط كما يسخط عليه ننتشه، ويصفه بأنه أشبه بالقابلية العجوز النثرار، ويقول إن قتله مسموماً كان جزءاً حقيقياً على إفساده أخلاق أثينا وشرائعها(46). وحتى الأطباء اليونان أنفسهم كانوا من أبغض الناس إليه، وكان يفضل على طبهم العلاج المنزلي القديم، ولا يثق بالجرّاحين الذين يعجلون باستعمال المبضع في أكثر الحالات. وقد كتب إلى ولده يقول:

"اليونان جنس مجرم عنيد، وأؤكد أن هذا الشعب إذا ما غمر أدبه رومه سيقضي على كل شيء فيها... وسيكون هذا القضاء عاجلاً إذا ما بعث إليه بأطبائه؛ لقد أجمعوا أمرهم بينهم على أن يقتلوا كل "البرابرة"... حذار أن تكون لك صلة بالأطباء(47)".

وكان وهو الذي يعنتق هذه الآراء العدو الطبيعي الأكبر للندوة السيبوننتية، وهي التي كانت ترى أن انتشار الآداب اليونانية في رومه عاملاً لا بد منه لرفع الآداب اللاتينية والعقلية الرومانية إلى كمال نموها؛ وكان كاتو ممن أشاروا بمحاكمة سيبو الإفريقي وأخيه، وقال إن القوانين التي تحرم الرشوة والفساد يجب ألا يفرق فيها بين الأشخاص. أما الدول الأجنبية فكان ينادي بأن تعامل جميعها، إلا واحدة منها، بالعدل، وألا تتدخل رومه في شؤونها، وكان يحتقر اليونان وإن كان يعظم بلادهم ويجلها. ولما أن قام دعاة الاستعمار النهابون من أعضاء مجلس الشيوخ يدعون إلى محاربة الغنية ألقى عليهم خطبة قوية يدعو فيها إلى

صفحة رقم : 3045

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> كاتو والمعارضون المحافظون

السلام والى مصالحة أهل تلك الجزيرة. أما الدولة التي كان يدعو إلى استثنائها من المعاملة العادلة، ومن عدم التدخل في شؤونها فهي- كما يعلم العالم كله- قرطاجنة. ولما أرسل إليها في بعثة رسمية عام 175 هاله ما رأى من انتعاش المدينة واستعادتها حياتها بعد الذي أصابها في حروب هنيئال، وما وقعت عليه عيناه من بساتين الفاكهة والكروم، وما يتدفق فيها من الثروة الناتجة من انتعاش تجارها، وما كانت تخرجه دور الصناعة فيها من أسلحة. فلما عاد امسك أمام المجلس بكمية من التين الطازج قطفها من أشجار قرطاجنة منذ ثلاثة أيام ليتخذها رمزاً لرخاء المدينة وقربها من رومه، وهما القرب والرخاء اللذان كانا نذيري شؤم لرومه؛ وتنبأ بأنه إذا كانت قرطاجنة وشأنها فإنها لا تلبث أن يكون لها من الثراء ومن القوة ما يحفزها إلى العودة إلى كفاحها للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط. وظل من ذلك اليوم يحتم كل خطاب له في مجلس الشيوخ أياً كان موضوعه بتلك العبارة التي تتم عن عقيدته وعناده، ويصر عليها إصراراً عجيباً: "هذا إلى أنني أعتقد أن قرطاجنة يجب أن تدمر" *Ceterum censes delendum esse Carthaginem*. وكان دعاة الاستعمار في مجلس الشيوخ متفقين معه في رأيه، ولم يكن ذلك لأنهم يطمعون في تجارة قرطاجنة، بل لأنهم كانوا يرون في حقول شمال إفريقية، وهي الحقول الخصبة التربة الجيدة الإرواء، مجالاً جديداً يستثمرون فيه أموالهم ويفلحونه على أيدي الرقيق. وكانوا والحالة هذه ينتظرون على أحر من الجمر حجة يتدعون بها لخوض غمار الحرب البونيقية الثالثة.

صفحة رقم : 3046

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> يجب أن تمحى قرطاجنة من الوجود

الفصل السابع

يجب أن تمحى قرطاجنة من الوجود

وجاءتهم هذه الحجة من أعجب حكام ذلك الوقت- مسينسا Masinissa ملك نوميديا Numidia- وهو ملك عمر تسعين عاماً (238-148) ورزق ولداً وهو في السادسة والثمانين من عمره(48)، ووضع لنفسه نظاماً صارماً لحياته استمسك به كل الاستمساك، واستبقى به صحته وقوته إلى آخر أيامه تقريباً. وقد أفلح هذا الملك في تنظيم رعاياه البدو، وبدلهم من حياة الترحال حياة الاستقرار الزراعية، وأنشأ منهم دولة منظمة ظل يحكمها حكماً صالحاً مدى ستين عاماً، وجعل مدينة سرتا Cirta حاضرة البلاد بما أنشأ فيها من المباني الفخمة. ودفن بعد وفاته في قبره وهو الهرم العظيم الذي لا يزال باقياً إلى اليوم قرب مدينة قسطنطينية في بلاد تونس. واستطاع هذا الملك أن يكسب صداقة

رومه، وكان يدرك ما عليه قرطاجنة من ضعف سياسي، فأخذ يغير المرة بعد المرة على أراضيها، وينقصها من أطرافها، فاستولى على لبتس Leptis العظيمة وغيرها من المدن، وما زال على هذه الخطة حتى سيطر بها على جميع المسالك البرية المؤدية إلى العاصمة المنهوكة القوى. وإذ كانت المعاهدة المعقودة بين رومه وقرطاجنة تحرم على ثانيتهما الاشتباك في حرب إلا برضاء أولاهما فقد أرسلت قرطاجنة سفراء من عندها إلى مجلس الشيوخ في رومه ليحتجوا على عدوان مسينسا. فما كان من هذا المجلس إلا أن نبه هؤلاء السفراء إلى أن القينيقيين على بكرة أبيهم دخلاء في إفريقية، وأنهم ليس لهم فيها حقوق تضطر أية أمة مسلحة أن تحترمها. فلما أدت قرطاجنة إلى رومه آخر الأقساط السنوية الخمسين من الغرامة المفروضة عليها بمقتضى معاهدة زاما وهي 200 تالنت ظنت أنها بهذا الأداء قد تحررت من التزاماتها، وأعلنت الحرب على

صفحة رقم : 3047

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> يجب أن تمحى قرطاجنة من الوجود

نوميديا في عام 151، وفي السنة الثانية أعلنت رومه الحرب على قرطاجنة. ووصل هذا النبا الأخير إلى مسامع القرطاجنيين، ووصل معه أن الأسطول الروماني قد ألقع إلى إفريقية. ولم تكن المدينة القديمة مستعدة لخوض غمار حرب عوان مهما يكن من كثرة سكانها وضخامة تجارتها. ذلك أن جيشها كان صغيراً وأن أسطولها كان أصغر من جيشها، ولم يكن لها جنود مرتزقة ولا حلفاء. يضاف إلى هذا أن رومه كانت تسيطر على البحار، ومن أجل هذا أعلنت أتكا انضمامها إلى رومه، وحال مسينسا بين قرطاجنة وبين الاتصال بالأرض التي خلفها في القارة الإفريقية، وأرسلت قرطاجنة بعثة عاجلة إلى رومه وأمرتها أن تجيئها إلى جميع مطالبها فوعدها مجلس الشيوخ الروماني بأنه إذا أسلمت قرطاجنة إلى القنصلين الرومانيين في صقلية ثلاثمائة من أبناء أشرف الأسر فيها ليكونوا رهائن لديهما، وأجابت القنصلين إلى جميع مطالبهما أياً كانت هذه المطالب، احتفظت في نظير ذلك بحريتها وسلامة أرضها. وأرسل مجلس الشيوخ أوامر سرية إلى القنصلين لينفذ ما صدر إليهما قبل من الأوامر. وأسلم القرطاجنيون أطفالهم بقلوب واجفة وعيون باكية، واحتشد أبائهم عند شاطئ البحر يودعونهم، وهم في أشد الألم والحسرة، وحاولت أمهاتهم في آخر لحظة أن يمنعن السفن من المسير، وألفت بعضهن أنفسهن في الماء، وأخذن يسبحن فيه ليلقين آخر نظرة على أطفالهن. وأرسل القنصلان الأطفال إلى رومه، وعبرا البحر إلى ينكا Utica على رأس الجيش والأسطول، واستدعيا سفراء قرطاجنة، وطلبوا أن تسلم بلدهما كل ما بقي لها من السفن، وكمية كبيرة من الحبوب، وجميع الأسلحة والمعدات الحربية. فلما أجيببت هذه المطالب كلها، طلب القنصلان بعدئذ أن يخرج جميع سكان قرطاجنة منها، وأن يقيموا على بعد عشرة أميال من المدينة، لأنهما سيأمران بإحراقها عن آخرها. وحاول السفراء عبثاً أن يقتنعوا الرومان بأن تدمير مدينة أسلمت إلى أعدائها رهائن من أهلها وجميع أسلحتها ومن غير قتال غدر وخيانة

صفحة رقم : 3048

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> يجب أن تمحى قرطاجنة من الوجود

لا نظير لهما في التاريخ كله. وعرضوا أن يقدموا حياتهم فداء لمدينتهم، وتكفيراً عما عساها أن تكون قد اقترفته من الذنوب، وخرروا على الأرض سجداً وأخذوا يضربونها برؤوسهم. فأجابهم القنصلان بقولهم إن هذه هي شروط مجلس الشيوخ وإنهما لا يستطيعان أن يغيرا منها شيئاً.

ولما سمع أهل قرطاجنة بما هو مفروض عليهم جن جنونهم، وطاشت أحلامهم، فأخذ آباء الأطفال الذين أسلموا رهائن إلى رومة يقطعون أجسام القواد الذين أشاروا بتسليمهم، وقتل آخرون القواد الذين أشاروا بتسليم السلاح، وأخذ غيرهم السفراء العائدين في شوارع المدينة ويرجمونهم بالحجارة، ومنهم من قتلوا كل من وجدوه في المدينة من الإيطاليين، ومنهم من وقفوا في دور الصناعة الخالية من السلاح يبكون وينتحبون. وأعلن مجلس شيوخ قرطاجنة الحرب على رومه، وأهاب بكل من فيها من البالغين رجالاً ونساء، أرقاء وأحراراً، أن يجيشوا جيشاً جديداً، وأن يصنعوا أسلحة يدافعون بها عن المدينة. وثبت الغضب قلوبهم، وقوى عزائمهم، وأخذوا يهدمون المباني العامة لينتفعوا بما فيها من خشب وحديد، وصهرت تماثيل الآلهة الأجزاء لتصنع منها السيوف، وجزت شعور النساء لتصنع منها الحبال، ولم يمض على المدينة المحصورة إلا شهران حتى أخرجت 8000 درع، 8000 سيف، 70.000 حربة، وستين ألف قذيفة منجنيقية، وبنيت في مينائها الداخلي عمارة بحرية مؤلفة من 120 سفينة (49).

وقاومت المدينة الحصار براً وبحراً ثلاث سنين، كان القنصلان في خلالهما يهاجمان أسوارها بجيوشهما، وكانا في كل مرة يرتدان عنها خائبين. ولما كان سببوا إيميليانس وحده- وهو أحد التربيونين العسكريين- هو الذي أظهر في هذا الحصار براعة ودهاء، فقد عينه مجلس الشيوخ الروماني والجمعية قنصلاً وقائداً في عام 147، ولم يعارض في هذا التعيين أحد حتى كاتو نفسه. ولم يمض على ذلك إلا قليل حتى نجح ليلبيوس في تسلق أسوار المدينة. ودافع القرطاجنيون

صفحة رقم : 3049

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> يجب أن تمحى قرطاجنة من الوجود

عنها شارعاً شارعاً، وإن كان الجوع قد أضناهم وأهلك الكثيرين منهم، ولكنهم واصلوا دفاعهم ستة أسابيع كاملة، وأعداؤهم يحصدونهم حصداً بلا شفقة ولا رحمة. ولما رأى سببوا أن قنصاة الأعداء يصيدون رجاله وهم كامنون وراء الجدران، أمر أن تشعل النيران في كل الشوارع التي يستولون عليها، وأن تدك مبانيها دكاً، فاحترق في اللهب كثير من الجنود المختبئين في الدور. ووجد القرطاجنيون آخر الأمر أن لا بد لهم من التسليم بعد أن نقص عددهم من خمسمائة ألف إلى خمسة وخمسين ألفاً. وطلب قائدهم هزدروبال أن يؤمن على حياته فأجابته سببوا إلى ما طلب، ولكن زوجته بجبنه وألقت بنفسها وبأولادها في اللهب. وبيع من بقي من الأهالي حياً في سوق الرقيق، وأسلمت المدينة إلى الجيوش الرومانية ينهبونها ويعيشون فيها فساداً. وأحجم سببوا عن تدميرها، وأرسل إلى مجلس الشيوخ يسأله رأيه الأخير، فرد عليه المجلس بأن قرطاجنة نفسها وكل ما انضم إليها في الحرب من البلاد التابعة لها يجب أن تدمر عن آخرها، وأن تحرث أرضها وتغطي بالملح، وأن تصب اللينات على كل من يحاول بناء شيء في موضعها، وظلت النار مشتعلة في المدينة سبعة عشر يوماً كاملة.

ولم يعقد صلح أو وقع معاهدة، لأن الدولة القرطاجنية لم يبق لها وجود، وتركت يتكا Utica وغيرها من مدن إفريقية التي ساعدت رومه حرة تحت حمايتها؛ وأما ما بقي من أملاك قرطاجنة فقد جعل ولاية خاضعة لرومه وسمي ولاية "إفريقية Africa". وجاء الممولون الرومان وقسموا الأرض ضياعاً، وورث التجار الرومان التجارة القرطاجنية،

وأضحى الاستعمار العامل المحرك الدافع للسياسة الرومانية، والغرض السافر الصريح الذي تعمل له عن قصد وتدبير، وضمت سرقوسة إلى ولاية صقلية الرومانية، وأخضعت بلاد غالة الجنوبية لتكون هي الطريق البري لأسبانيا بعد أن خضعت كلها لرومه، ولم تجد رومه

صفحة رقم : 3050

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> يجب أن تمحى قرطاجة من الوجود

صعوبة في إقناع مملكتي مصر وسوريا المصطبغتين بالصبغة الهلينية بالخضوع إلى رغبات رومه- كما اضطر بوبليوس Popilius أنتيوخوس Antiochus الرابع- إلى الخضوع لها بلا قتال. وإذا نظرنا إلى تدمير قرطاجة وكورنث في عام 146 من الناحية الأخلاقية- وهي نظرة لها شأنها على الدوام في السياسة الدولية- حكمنا دون تردد بأن هذا العمل من أفضع الفتوح وأشدّها وحشية في التاريخ كله. أما من ناحية الاستعمار وبناء الإمبراطوريات- أي من ناحية السلامة والثراء- فقد كان هذا الفتح حجر الزاوية في سيادة رومه التجارية والبحرية، فقد أضحت منذ تلك اللحظة هي المسيطرة على البحر الأبيض المتوسط، والمتصرفة في مصائره، وارتبط تاريخه بتاريخها أوثق ارتباط. ومات في أثناء هذه الحرب من أشعلوا نارها تحوطهم هالة من النصر والفخر. فمات كاتو في عام 149، ومسينسا في عام 148، وترك الرقيب الطاعن في السن أثراً عميقاً في التاريخ الروماني. وظل الناس قروناً كثيرة يرون فيه الروماني النموذجي في عصر الجمهورية، واتخذ شيشرون في كتابه De Senectute المثل الأعلى للرجال، وحاول حفيد حفيده أن يأخذ نفسه بفلسفته خالية من فكاوته، كما حاول ماركس أن يتخذ نموذجاً له ينسج على منواله، وكان فرننتو Fronto يهيب بالأدباء اللاتين أن يعودوا إلى أسلوبه البسيط الخالي من الالتواء والتعقيد. ولكنه مع ذلك لم يفلح إلا في أمر واحد وهو تدمير قرطاجة، أما مقاومته للهلينية ومحاولته أن يمنعها من السيطرة على الحياة الرومانية فقد أخفق فيهما كل الإخفاق، واستسلمت كل نواحي الحياة الرومانية من أدب، وفلسفة، وخطابة، وعلم، ودفن، ودين، وأخلاق، وعادات، وملابس، استسلمت هذه كلها لتأثير اليونان. لقد كان كاتو يكره الفلاسفة اليونان، ولكن حفيده الشهير كان يحيط نفسه بهم، وظلت العقيدة الدينية التي فقدها هو تضمحل رغم ما بذل من الجهود

صفحة رقم : 3051

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الجمهورية -> فتح بلاد اليونان -> يجب أن تمحى قرطاجة من الوجود

لإحيائها وأهم من هذا كله أن الفساد السياسي الذي قاومه في شبابه أخذ ينتشر ويعظم كلما زادت مخاطر المناصب الحكومية باتساع رقعة الإمبراطورية. وكان كل فتح حربي جديد يزيد في ثراء رومه كما يزيد في فسادها ووحشيتها، وكانت قد كسبت كل حرب خاضت غمارها عدا حرب الطبقات، وأزال تدمير قرطاجة آخر عائق قائم في سبيل الانقسام والفتن في المدينة، وجوزيت رومه على تملكها العالم بثروات طاحنة وفتن صماء دامت قرناً من الزمان.

صفحة رقم : 3052

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> العوامل التي هيأت البلاد للثورة

الكتاب الثاني

الثورة

30-145 ق.م

الباب السادس

الثورة الزراعية

78-145 ق.م

الفصل الأول

العوامل التي هيأت البلاد للثورة

كان للثورة أسباب كثيرة، وكانت لها نتائج يخطئها الحصر، وكانت الشخصيات التي أطاحت بها الأزمة من ابتداء ابني جراكس إلى أغسطس من أقوى الشخصيات في التاريخ، ولم تنتشب قط قبل الحرب أو بعدها إلى أيامنا هذه حرب كان لأهدافها من الخطر مثل ما كان لتلك الحرب، ولم تمثل على المسرح العالمي في يوم من الأيام مأساة ما تمثيلاً أقوى مما مثلت به مأساة تلك الأيام. وكان أول أسباب هذه الثورة تدفق الحبوب الناتجة من عمل الرقيق في صقلية وسردانية وأسبانيا وإفريقيا، وما أحدثه تدفقها من خراب حل بالزراع الإيطاليين، إذ خفض ثمن الحبوب التي تنتجها أراضيهم إلى أقل من تكاليف إنتاجها. وكان سببها الثاني تدفق الرقيق الذين حلوا محل الزراع في الريف والعمل الأحرار في المدن؛ وكان ثالث هذه الأسباب زيادة عدد الضياع الواسعة. وكانت الدولة قد أصدرت في عام 220 قانوناً يحرم على أعضاء مجلس الشيوخ أن يتعاقدوا على الأعمال العامة أو يستثمروا أموالهم في التجارة، فلما أن زاد ثراؤهم من غنائم الحرب اشتروا بهذه الأموال مساحات واسعة من الأراضي الزراعية. وكانت الأرض في البلاد المفتوحة تقسم في بعض الأحيان قطعاً صغيرة وتباع للرومان

صفحة رقم : 3053

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> العوامل التي هيأت البلاد للثورة

المستعمرين، وقلت بذلك حدة الفتن والنزاع القائمين في المدن؛ وأعطى جزء كبير من هذه الأراضي للمولين وفاء ببعض ما أقرضوه للدولة من أموال في أثناء الحروب، أما الجزء الأكبر منها فقد ابتاعه أعضاء مجلس الشيوخ نفسه. وكان من أثر انتشار هذه الضياع الواسعة أن اضطرت المالك الصغير إلى اقتراض المال بأرباح فاحشة يستحيل عليه الوفاء بها، فلم يلبث أن وقع في هاوية الفقر أو الإفلاس أو فقد أرضه ونزح إلى المدن ليسكن في أحيائها الفقيرة الحقيبة الوبيئة. وآخر ما نذكره من أسباب الثورة ما طرأ على حال الفلاح نفسه من تغير كبير. لقد جند هذا الفلاح في الجيش وهيأت له انتصاراته سبيل انتهاب الثروة من العالم، وأصبح يكره العمل الانفرادي الرتيب الخالي من المغامرات في الحقول ولا يستطيع الصبر عليه، وكان أحب إليه من هذا العمل أن ينضم إلى صعاليك المدينة المشاغبيين، ويرقب الألعاب المثيرة في المجتذات بلا أجر، ويأخذ الحبوب من الحكومة بأرخص الأثمان، ويبيع صوته في الانتخابات لمن يبتاعه بأعلى الأثمان أو لمن يمني به بأعظم الأمان، ويختفي في غمار الجماهير المعدمة الخاملة الوضيعة.

وأصبح المجتمع الروماني يزداد شيئاً فشيئاً على الانتهاب من الخارج والاسترقاق في الداخل، بعد أن كان في أول الأمر مؤلفاً من زراع أحرار. فأما في المدن فكانت كل الخدمات المنزلية، وكان كثير من الصنائع اليدوية، ومعظم الأعمال التجارية، وكثير من الأعمال المصرفية، وكل أعمال المصانع والأشغال العامة، كانت هذه الأعمال كلها يقوم بها الأرقاء، وقد أدى ذلك إلى انخفاض أجور العمال الأحرار انخفاضاً يكاد يجعل الكدح والبطالة في الكسب سواء. وكان الأرقاء في الضياع الواسعة يفضلون على العمال الأحرار لأنهم لم يكونوا يلزمون بالخدمة العسكرية، ولأن عددهم كان يمكن الاحتفاظ به جيلاً بعد جيل نتيجة المتعة الوحيدة التي كان يسمح لهم بها أو نتيجة الرذيلة التي كان ينهمك فيها

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> العوامل التي هيأت البلاد للثورة

سادتهم%@ يقصد بهذه العبارة تناسل الأرقاء فيما بينهم أو بين النساء وأسيادهن. @. وكانت الغارات لا تنقطع على بلاد البحر الأبيض المتوسط كلها للمجيء بالأداة الحبة اللازمة التي تصنعت. وكان يضاف إلى أسرى الحرب الذين يساقون إلى رومه بعد كل معركة تنتصر فيها جيوشها ضحايا القراصنة الذين كانوا يقبضون على العبيد أو الأحرار على سواحل آسيا أو بالقرب منها، وضحايا الموظفين الرومان الذين كانوا يقتنصون الناس اقتناصاً منظماً ويستعيدون من أهل الولايات كل من لا يجرؤ حكامها المحليون على حمايته(1). ولم يكن يمضي أسبوع لا يأتي فيه النخاسون بفرائسهم البشرية من إفريقيا، وأسيانيا، وغالة، وألمانيا، والبلاد الواقعة على ضفتي نهر الطونة، والروسيا، وآسيا، واليونان- من هذه الأقاليم كلها إلى ثغور البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود. ولم يكن من الحوادث غير المألوفة أن يباع في ديلوس مائة ألف من الأرقاء في يوم واحد. وقد قبضت الجيوش الرومانية في عام 177 على أربعين ألفاً من أهل سرادنية، وفي عام 167 على مائة وخمسين ألفاً من أهل أبيروس، بيعوا في أسواق النخاسة. وكان ثمن الواحد منهم في الحالة الثانية لا يزيد على ما يعادل ريالاً أمريكياً(2). وكان مما خفف من شقاء الأرقاء في المدينة ما كان يبرم من العقود الإنسانية بينهم وبين سادتهم، وما كانوا يطعمون فيه من نيلهم حريتهم؛ أما في الضياع فلم يكن يسمح للصلوات الإنسانية بأن تتدخل في أعمال الاستغلال؛ فلم يعد العبد في تلك الضياع عضواً في الأسرة كما كان في بلاد اليونان أو في رومه نفسها في عهدنا الأول؛ ولما كان العبد يرى مالكة، وكان يطلب إلى الحراس أن يعتصروا من هذه الآلات البشرية الموكولة إلى أسواطهم كل ما يستطيعون اعتصاره منها، وبقدر هذا الإحصار يكون أجر هؤلاء الحراس. أما أجر العبد نفسه في الضياع الواسعة فلم يكن يزيد على ذلك القدر من الطعام والكساء الذي يمكنه من أن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> العوامل التي هيأت البلاد للثورة

يكبح كدحاً متواصلًا في كل يوم من شروق الشمس إلى غروبها- عدا بعض أيام الأعياد- حتى تدركه الشيخوخة. فإذا شكا أو عصى أمر حارسه ألزم أن يعمل ورجلاه مكبلتان بالأغلال، وأن يقضي الليل في جب تحت الأرض ergastulum لا تكاد تخلو منه كل ضيعة واسعة. لقد كان في هذا النظام من التلف والخسارة الاقتصادية بقدر ما فيه من الوحشية، لأنه لم يكن يعول إلا نحو جزء من عشرين جزءاً من الأسر التي كانت تعيش من قبل على هذه الأراضي نفسها معيشة الأحرار من الناس.

وإذا ذكرنا أن نصف هؤلاء الأرقاء، إن لم يكن أكثر من نصفهم، كانوا من قبل أحراراً (لأن الأرقاء قلما كانوا يشتركون في الحروب)، كان في مقدورنا أن نتصور ما يشعر به هؤلاء البائسون المحطمون من مرارة؛ ولا يسعنا إلا أن نعجب من ندرة ما كانوا يلجئون إليه من الثورات. وقد حدث في عام 196. أن ثار أرقاء الريف في إتروريا

وعمالها الأحرار، ولكن الجيوش الرومانية أرهبتهم "وقتل الكثيرين منهم أو أسرتهم، ومنهم من جلدوا أو صلبوا عقاباً لهم على فعلتهم" كما يقول ليفي(3). وحدثت مثل هذه الثورة عام 185 في أبوليا؛ فقبض على سبعة آلاف من العبيد وحكم عليهم أن يعملوا في المناجم(4). وكان أربعة آلاف من الأرقاء الأسبان يعملون في مناجم قرطاجنة الجديدة وحدها. وفي عام 139 شبت نار "حرب الأرقاء الأولى" في صقلية، فقد لبي دعوة إينوس Eunus أربعمئة من الأرقاء وذبحوا الأحرار من أهل مدينة أنا Enna، ثم أقبلت أفواج العبيد من الضياع ومن الأجباب الخاصة في صقلية، فضاعفوا عدد الثوار حتى بلغ سبعين ألفاً. وما لبثوا أن احتلوا أجرينتم Agrigentum، وهزموا الجيوش الرومانية التي كانت في الولاية، واستولوا على الجزيرة كلها تقريباً،

صفحة رقم : 3056

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> العوامل التي هيأت البلاد للثورة

واحتفظوا بها حتى عام 131. وفي تلك السنة حاصرهم جيش القنصل في إنا ومنع عنهم الزاد حتى اضطرهم الجوع إلى الاستسلام. وسبق إينوس إلى رومه، وألقى في جب تحت الأرض، وبقي فيه حتى قضى عليه الجوع والقمل(5). وقامت ثورات أقل من هذه شأناً انتهت بإعدام مائة وخمسين من الأرقاء في رومه، وأربعمئة وخمسين في منتوريا Menturnae وأربعة آلاف في سينوسا Sinuessa. وفي تلك السنة استصدر تيبيريوس جراكس Tiberius Gracchus القانون الزراعي الذي فتح باب الثورة الرومانية على مصراعيه.

صفحة رقم : 3057

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> تيبيريوس جراكس

الفصل الثاني

تيبيريوس جراكس

هو ابن تيبيريوس جراكس Tiberius Sempronius Graccus الذي تدين له أسبانيا بالشكر لأنه حكمها حكماً عادلاً كريماً، والذي عين قنصلاً مرتين ورقبياً مرة، والذي أنقذ من الهلاك أخا سيبو الإفريقي وتزوج ابنته، وأنجبت كرنليا اثني عشر طفلاً توفوا كلهم إلا ثلاثة منهم قبيل البلوغ، وتحملت هي بعد وفاته عبء تربية تيبيريوس وأخت لهما- تدعى أيضاً كرنليا- صارت فيما بعد زوجة سيبو إيمليانوس؛ وكان للزوج والزوجة نصيب من الثقافة الهيلينية، وكان ممن يعطفون على الدائرة الثقافية السيبونية. وكان لكرنليا ندوة أدبية، وكتبت رسائل بأسلوب سليم رشيق جعلها من خير ما كتب في الآداب اللاتينية، ويقول أفلوطرخس إن ملكاً من ملوك مصر عرض عليها بعد أن تزلت أن تتزوج، وأن ينزل لها عن عرشه؛ فأبت وأثرت أن تبقى ابنة لسيبو، وحماة لسيبو آخر وأما لجراكس. ونشأ تيبيريوس وكبوس جراكس في جو مشبع بطرائق الحكم والفلسفة عرفاً فيه مشاكل الحكومة الرومانية ونظريات الفلسفة اليونانية. وقد تأثراً بأراء بلوسوس Blossius وهو فيلسوف يوناني من كومي Cumae بعث فيهما نزعة حرة قوية استخفت بقوة المحافظين في رومه. ويكاد الأخوان أن يكونا متماثلين في طموحهما، وكبريائهما، وإخلاصهما، وفصاحتها التي لا يكاد يصدقها العقل، وشجاعتهما التي لا تشوبها قط سائبة. ويحدثنا كبوس أن تيبيريوس شاهد مأساة الزراع، وتأثر بها أشد التأثر حين كان مسافراً في إتروريا "فراى قلة السكان ولاحظ أن الذين كانوا يحرقون

صفحة رقم : 3058

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> تيبيريوس جراكس

الأرض ويرعون قطعان الضأن هم العبيد الأجانب" (6)، وإذا كان تيبيريوس يعرف وقتئذ أن الملك وحدهم هم الذين يجندون للخدمة في الجيش فقد سأل نفسه كيف تستطيع رومه أن تحتفظ بزعامتها أو استقلالها إذا حل زراعتها الأقوياء الذين كانوا يؤلفون الكثرة الغالبة في الفيالق الرومانية عبيد غرباء لا تربطهم بها صلة ما؟ وكيف تكون الحياة الرومانية حياة طيبة، والديمقراطية الرومانية ديمقراطية صالحة، إذا غصت بصعاليك المدن المعدمين بدل الزراع الأباة الأعزاء الذين يمتلكون الأرض ويفلحونها بأنفسهم؟ وخيل إليه أن توزيع الأرض على المواطنين الفقراء هو الحل الصحيح البين الذي لا بد من الالتجاء إليه لحل المشاكل الثلاث القائمة وقتئذ في البلاد: الاسترقاق في الريف، والازدحام والفساد الخلقي في المدن، وضعف الروح الحربية بين المواطنين. وما كاد تيبيريوس جراكس يختار تربيوناً في مستهل عام 133 حتى أعلن أنه يعتزم أن يعرض على الجمعية القبلية ثلاثة اقتراحات (1) ألا يسمح لأي مواطن بأن يمتلك أكثر من 323 فداناً- أو 667 فداناً إذا كان له اثنان من الأبناء- من الأراضي المشتركة أو المستأجرة من الدولة. (2) وأن يُرد إلى الدولة كل ما عدا هذا القدر من الأرض العامة التي باعته أو أجرته للأفراد، على أن ترد الدولة لهم أثمانها أو الإيجار الذي أدوه مضافاً إلى قدر من المال نظير ما أنفقوه في إصلاحها. (3) وأن تقسم هذه الأراضي التي ترد إلى الدولة إقطاعيات مساحة كل منها عشرون فداناً توزع على المواطنين الفقراء على شرط أن يتعهدوا بالآلا يبيع أحد منهم نصيبه من هذه الأراضي؛ وأن يؤديوا عنها ضريبة سنوية إلى خزنة الدولة. ولم يكن هذا الإصلاح الزراعي خيالاً متعذر التنفيذ، بل كانت مجرد محاولة لتنفيذ قوانين ليسنيوس كلفس Licinius Calvus الصادرة في عام 367 ق.م، والتي ألغيت ولم تنفذ قط. وقد قال تيبيريوس للعامّة الفقراء في إحدى خطبه الشهيرة التي تعد من أعظم الخطب في التاريخ الروماني كله:

صفحة رقم : 3059

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> تيبيريوس جراكس

"إن لحبوانات الأرض جحورها ولطير الهواء أوكارها ومخابئها، أما الرجال الذين يحاربون ويموتون من أجل إيطاليا فلا يستمتعون فيها إلا بالضوء والهواء. إن قواد الجيش ينادون جنودهم أن يقاتلوا دفاعاً عن قبور آبائهم وأضرحتهم، ولكن نداءهم هذا نداء سخيف باطل، إذ ليس في وسعك أن تدلهم على مذبح لأبائهم يقربون فيه لألهم، وليس للفقراء مقابر لأسلافهم. إنكم أيها الفقراء تقاتلون وتموتون لينعم غيركم بالثروة والترف، ويقال لكم: إنكم سادة العالم، ولكنكم لا تجدون في هذا العالم موضعاً لقدم، في وسعكم أن تقولوا إنه ملك لكم" (7).

وأعلن مجلس الشيوخ أن هذه الاقتراحات ليست في واقع الأمر إلا مصادرة لأموال الناس، واتهم تيبيريوس بأنه يعمل ليكون طاغية حاكماً بأمره، وأقنع إكتافيوس وهو تربيون آخر أن يستخدم ما له من حق الاعتراض في منع عرض المشروع على الجمعية، فما كان من جراكس إلا أن تقدم باقتراح يقضي بأن كل تربيون يعمل ضد مصالح من يمثلهم يجب أن يسقط على الفور من عداد أعضاء الجمعية. ووافقت الجمعية على هذا الاقتراح وأخرج حراً تيبيريوس إكتافيوس قوة واقتداراً من قاعة الجمعية على الفور، ووافقت الجمعية بعدئذ على الاقتراحات الأصلية فأصبحت قانوناً واجب التنفيذ، ثم أوصلته محروساً إلى منزله لخوفها أن يغتاله مغتال في الطريق (8).

غير أن حكمه غير المشروع في حق التربيون في الاعتراض، وهو الحق الذي جعلته الجمعية نفسها من أقدم الأزمان حقاً مطلقاً غير مقيد بقيد ما، قد وضع في يد معارضيه سلاحاً يشهرونه في وجهه ويقضون به على قانونه. فجهروا بعزمهم على أن يتهموه في نهاية العام الذي يتولى فيه منصبه بالخروج على دستور البلاد واستخدم العنف ضد أحد التربيونين. وأراد تيبيريوس أن يحمي نفسه بالسخرية من الدستور مرة أخرى، وذلك بترشيح نفسه

صفحة رقم : 3060

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> تيبيريوس جراكس

لأن يعاد اختياره تربيوناً في عام 132. وإذا كان إميليانس وليليوس وغيرهما من الشيوخ الذين عضدوا اقتراحه الأول قد تخلوا عنه الآن، فقد لجأ بكليته إلى العامة ووعدهم بأن ينقص إذا اختاروه مدة الخدمة العسكرية، ويلغى استئثار الشيوخ بأعمال المحلفين، وأن يجعل حلفاء رومه من الإيطاليين مواطنين رومانيين. ورفض مجلس الشيوخ في هذه الأثناء اعتماد الأموال التي طلبتها اللجنة الزراعية التي نيظ بها تنفيذ قوانين تيبيريوس. فلما أوصى أتلس الثالث Atallus III ملك برجموم Pergamum بمملكته لرومه في عام 133 عرض جراكس على الجمعية أن تباع أملاك أتلس الخاصة والمنقولة، وأن يوزع ما يتحصل من بيعها على من نالوا إقطاعات من أراضي الدولة ليبتاعوا بها ما تحتاجه مزارعهم من أدوات. وأثار هذا الاقتراح غضب مجلس الشيوخ لأنه رأى أن ما له من سيطرة على الولايات وعلى الأموال العامة قد أخذت تنتقل إلى جمعية قوية الشكيمة غير ممثلة للبلاد، معظم أعضائها من أصل وضيع ومن غير أبناء البلاد الأصليين. فلما كان يوم الانتخاب ظهر جراكس في السوق العامة بملابس الحداد ومن حوله حراس مسلحون للدلالة على أن هزيمته في الانتخاب ستؤدي إلى اتهامه وإعدامه. وحدث في أثناء الاقتراح أن لجأ كلا الطرفين إلى العنف. ونادى سيبو نسكا Scipio Nasica بأن تيبيريوس يريد أن ينصب نفسه ملكاً، وقاد الشيوخ إلى السوق العامة مسلحين بالهراوات. وارتاع أنصار جراكس حين شاهدوا أثواب الأشراف الفخمة فتخلوا عنه، وأصيب

تبيير يوس بضربة على أم رأسه خر على أثرها صريعاً وهلك معه بضع مئتين من أتباعه. ولما طلب كيوس Caius أخوه الأصغر أن يؤذن له بدفنه لم يجب إلى طلبه، وألقيت جثث العصاة الموتى في نهر التبيير وكورنليا في أثناء ذلك حزينة باكية.
وأراد مجلس الشيوخ أن يهدئ من ثورة العامة فوافق على تنفيذ قوانين جراكس. ويستدل من ازدياد عدد المواطنين المدونة أسماؤهم

صفحة رقم : 3061

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> تبيير يوس جراكس

في السجلات بمقدار 76000 من عام 131 إلى 125 على أن مساحات واسعة من الأراضي قد وزعت حقاً على الزراع، ولكن اللجنة الزراعية وجدت نفسها أمام عقبات كثيرة. ذلك أن كثيراً من الأراضي التي يراد توزيعها كانت قد أخذت من الدولة قبل ذلك الوقت بعدة سنين أو بعدة أجيال، وأصبح لمن يمتلكونها وقتئذ حقوق اكتسبوها بوضع أيديهم عليها زمناً طويلاً، وأن منها أراضي كثيرة أخرى قد ابتاعها الملاك الجدد بأثمان عالية ممن اشتروها من الحكومة بأثمان منخفضة. ولجأ أحلاف رومه الإيطاليون الذين أضرت القوانين بحقوقهم التي اكتسبوها بوضع اليد إلى سيبو إيميليانوس ليحميهم من اللجنة الزراعية، واستطاع بما له من النفوذ أن يؤجل أعمالها فاستشاط الرأي العام غضباً عليه لهذا العمل، واتهمه بالخيانة وعدم الوفاء بذكرى جراكس التي أضحت وقتئذ ذكرى عزيزة مقدسة. وفي صباح يوم من أيام أيار عام 129 وجد الرجل ميتاً في فراشه، وأكبر الظن أن يداً أثيمة قد اغتالته ولم يعرف أحد من هو هذا المغتال.

صفحة رقم : 3062

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> كيوس جراكس

الفصل الثالث

كيوس جراكس

وأخذ النمامون الذين خلت قلوبهم من الرحمة يشيعون أن كرنليا قد إنتمرت مع ابنتها زوجة سيبو المشوهة المكروهة على قتل تيبيريوس؛ وأخذت كرنليا وسط هذه الكوارث الفادحة تواسي نفسها بالعكوف على العناية بابنها الذي لم يبق لها في هذا العالم عزيز سواه. ولم يكن ما أثاره مقتل تيبيريوس في قلب أخيه كيوس هو مجرد الرغبة في الانتقام، بل أثار فيه صادق العزم على أن يتم ما بدأه أخوه. وكان قبل إذ قد أظهر كثيراً من الذكاء والشجاعة في أثناء خدمته بقيادة إيمليانس في نوماتيا، ونال إعجاب الناس على اختلاف مشاربهم باستقامته وبساطة معيشتته؛ وكان رجلاً حاد المزاج جياش العواطف، إذا ثار زادت حدتها لطول كبتها، وقد أصبح بفضلها أعظم خطباء الرومان قبل أيام شيشرون، وفتحت أمامه أبواب المناصب كلها تقريباً في مجتمع كان للفصاحة فيه المحل الثاني بعد الشجاعة في رقي الرجال وبلوغهم أسمى المراتب. لهذا كله اختير تربيوناً في خريف عام 124.

وكان كيوس رجلاً واقعياً أكثر من أخيه، ومن ثم أدرك أن لا بقاء لأي إصلاح إذا لم يقو على مغالبة القوة الاقتصادية أو القوة السياسية في الدولة. ولذلك استقر رأيه على أن يضم إلى جانبه خمس طبقات من طبقات الشعب المختلفة: طبقة الزراع، والجيش وعامة المدن ورجال الأعمال. فأما الطبقة الأولى فقد ضمها إليه بالعودة إلى القوانين الزراعية التي سنها أخوه، ووسع مداها بأن طبقها على الأراضي الزراعية التي تمتلكها الدولة في الولايات التابعة لها، ثم أعاد تشكيل لجنة الأراضي، وأشرف بنفسه على أعمالها. وحقق مطامع الطبقات الوسطى بإنشاء مستعمرات جديدة في كيو، وتارنتم، و ناربو Narbo، وقرطاجنة، وبتنمية هذه

صفحة رقم : 3063

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> كيوس جراكس

المستعمرات وجعلها مراكز مزدهرة للتجارة. وأرضى الجنود بأن قرر أن تؤدي أثمان ملابسهم من الخزائن العامة، وأرضى عامة المدن بإصدار قانون الحبوب Iex Frumentaria وبمقتضاه أخذت الحكومة على نفسها أن تعطي القمح لكل من يطلبه بسعر ستة أسات وثلاث أس لكل موديوس Modius (أي بما يعادل 36 slash 100 من الريال الأمريكي لكل جالونين) وهو نصف ثمنه في السوق. وكان هذا العمل الأخير صدمة عنيفة للمبادئ الرومانية القديمة- مبادئ الاعتماد على النفس- كما كان له آثار خطيرة في التاريخ الروماني كله. وكان كيوس يعتقد أن تجار الحبوب يبيعونها للجمهور بضعفي نفقات إنتاجها، وأن الإجراء الذي اتخذه لن يكلف الدولة خسارة ما لأن توحيد عمليات البيع والشراء سينزل بالنفقات إلى حد كبير. وسواء كان هذا أو لم يكن فإن القانون قد جعل الفقراء من سكان المدن الأحرار يناصرون ابني جراكس ويناصرون من بعدهما مارينوس وقيصر بدل أن كانوا موالي للأشراف وأتباعاً لهم، يعملون لإطعامهم وتوفير أسباب الترف لهم، كما كان عماد الحركة الديمقراطية التي بلغت ذروتها في كلوديوس Clodius وقضى عليها في أكتوم.

وكان الإجراء الخامس يهدف إلى تثبيت سلطان الحزب الذي ينتمي إليه بالقضاء على السنة المتبعة من زمن قديم والتي تجعل الأغنياء يفترون في الجمعية المنوية قبل غيرهم من الطبقات، فاستبدل كيوس بهذه السنة تقليداً جديداً يجعل المنات في الجمعية يعطون أصواتهم حسب نظام يعين بالقرعة. ثم استرضى رجال الأعمال بأن جعل لهم وحدهم حق العمل محلين عند النظر في جرائم الولايات، فأصبحوا بذلك حكماً في قضاياهم إلى حد بعيد. ولم يكتف بهذا بل أراد أن يستثير مطامعهم فاقترح أن تقرض على جميع غلات آسيا الصغرى ضريبة توازي عشر هذه الغلات يجوبونها هم أنفسهم. ثم زاد ثراء المقاولين، وأنقص عدد المتعطلين، بأن وضع برنامجاً لإنشاء الطرق في كافة أنحاء إيطاليا. ولقد

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> كيوس جراكس

كانت هذه القوانين في جملتها- رغم ما يغشى بعضها من خداع سياسي- أعظم مجموعة من التشريع الإنشائي سنت قبل أيام قيصر.

واستطاع كيوس باعتماده على هذا العون المتعدد النواحي أن يطرح ما جرت به العادة من قديم، وأن يُختار تربيوناً للمرة الثانية. وأكبر الظن أنه قد فكر في ذلك الوقت في السيطرة على مجلس الشيوخ بإضافة ثلاثمائة عضو جديد إلى أعضائه الثلاثمائة، تختارهم الجمعية من بين رجال العمال. واقترح كذلك أن يعطي حق الانتخاب كاملاً لجميع الأحرار من سكان لاتيوم، وأن يعطي هذا الحق منقوصاً إلى سائر الأحرار من سكان إيطاليا، وكانت هذه أجراً حركة قام بها في طريق الديمقراطية السياسية، ولكنها كانت أيضاً أول ما ارتكب من أغلاط في خطته. ذلك أن من كان لهم حق الاقتراع لم يتحمسوا كثيراً لأن يشترك معهم غيرهم في هذه الميزة التي اختصوا بها حتى ذلك الوقت، ولو كان شركاؤهم فيها قوم لا يستطيع حضور جلسات الجمعيات في رومه إلا أقلية صغيرة منهم. ولم يدع مجلس الشيوخ هذه الفرصة تفلت من بين يديه. ذلك أن كيوس كاد يتجاهله ولا يحسب له حساباً حتى ظن أنه قد فقد كل ما كان له من قوة ومكانة في البلاد، ولم يرقى هذا التربيون النابه إلا زعيماً شعبياً مستبداً يريد أن يستحوذ لنفسه على أكبر قسط من السلطة بتوزيع أملاك الدولة وأموالها ذات اليمين وذات الشمال. ولاح له فجأة حليف جديد هو صعاليك رومه الغيرون على حقهم القديم، وانتهاز فرصة غياب كيوس، وكان قد غادر رومه ليثبت قواعد مستعمرته الجديدة في قرطاجنة، فأشار على تربيون آخر هو ماركس ليفيوس دروسس Marcus Livius Drosus أن يضم إليه الزراع الجدد بإصدار قانون يلغي به الضرائب المفروضة على أراضيهم بمقتضى قوانين جراكس، وأن يسترضي صعاليك المدن ويضعفهم في الوقت نفسه بأن يقترح إنشاء اثنتي عشرة مستعمرة جديدة في إيطاليا تنتسح كل واحدة منها لثلاثة آلاف من رجال رومه. ووافقت الجمعية من فورها

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> كيوس جراكس

على هذه المشروعين، ولما عاد كيوس وجد دروسس قد كسب قلوب الشعب، ينازع الزعامة عند كل خطوة يخطوها. ورشح كيوس نفسه لأن يختار تربيوناً مرة ثالثة ولكنه هزم، وقال أصدقاؤه إنه انتخب ولكن أصوات الناخبين قد تناولها الغش والتزوير، غير أنه نصح أتباعه بالألجئوا إلى وسائل العنف واعتزل الساسة وفضل عليها الحياة الخاصة.

وأشار مجلس الشيوخ في العام الثاني أن تجلو رومه عن المستعمرة المنشأة في قرطاجنة، وفسرت الأحزاب جميعها هذا الاقتراح- سراً أو جهراً- بأنه مقدمة لحرب يشنها المجلس على قوانين جراكس لإلغائها. وجاء بعض أنصار جراكس إلى الجمعية مسلحين، وقتل أحدهم رجلاً من المحافظين هم بالقبض على كيوس. فما كان من أعضاء مجلس

الشيوخ إلا أن خرجوا في اليوم الثاني على استعداد تام للقتال، ومع كل منهم عبدان مسلحان، وهاجموا أنصار جراكس المتحصنين فوق نل الأفتنين. وبذل كيوس كل ما في وسعه لتسكين الفتنة، ومنع اعتداء كلتا الطائفتين على الأخرى؛ فلما عجز عن ذلك ولي هارباً وعبر نهر التيبير، ولما أن لحقه أعداؤه أمر خادمه أن يقتله، وصدع الخادم بالأمر ثم قتل نفسه. وقطع أحد أصدقاء كيوس رأس صديقه، وحشاها بالرصاص المصهور، وحملها إلى مجلس الشيوخ، وكان المجلس قد أعلن أنه يكافئ من يأتيه بهذا الرأس بما يساوي وزنه ذهباً (9). وقتل من أنصار كيوس في المعركة مانتان وخمسون، وأعدم ثلاثة آلاف غيرهم تنفيذاً لقرار أصدره مجلس الشيوخ. ولما ألقيت جثته وجثث أتباعه في نهر التيبير لم يحتج على هذا العمل غوغاء المدينة الذين كان يعمل لخيرهم، ذلك أن هؤلاء الغوغاء كانوا وقتئذ في شغل عن هذا الاحتجاج بنهب بيته (10). وحرّم مجلس الشيوخ على كرنليا أن تلبس ثياب الحداد حزناً على ولدها.

صفحة رقم : 3066

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> ماريوس

الفصل الرابع

ماريوس

واستخدم الأشراف الظافرون كل ما وهبوا من ذكاء لهدم العناصر الإنشائية من تشريعات كيوس لا العناصر التي أراد بها كسب محبة الشعب الروماني. فلم يجرءوا مثلاً على إخراج رجال الأعمال من منصب المحلفين في القضايا، أو أن يحرّموا المكاسين والمقاولين مرابع صيدهم الوفيرة في آسيا، ورضوا بأن يظل توزيع الأراضي على الفقراء بأن أضافوا إليه مادة تجيز لملاك هذه الأراضي الجديدة أن يبيعوها، فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى باع آلاف منهم ما يمتلكون إلى كبار ملاك الرقيق، وأخذت الضياع الكبيرة تعود إلى سابق عهدها. ثم ألغيت لجنة الأراضي في عام 118، ولم تحتج الجماهير في العاصمة على الإلغاء، لأن الجماهير قد عقدت النية على أن الأكل من قمح الدولة في المدينة خير من فلاح الأرض أو الكدح في المستعمرات الناشئة. وتعاون الكسل والتخريف (ونقول التخريف لأنم أرض قرطاجنة كانت في زعمهم أرضاً منحوسة ملعونة) على إبطال كل محاولة بذلت قبل أيام قيصر للتخفيف من حدة الفقر بالهجرة إلى خارج البلاد، وزاد الأثرياء ولكن عدد الأثرياء لم يزد على ما كان من قبل، وقد قرر أحد الديمقراطيين المعتدلين في عام 104 أن عدد الملاك من المواطنين الرومان لا يزيد على ألفي مالك (11). وفي ذلك يقول أبيان Oppian: "إن الفقراء قد أصبحت حالهم أسوأ مما كانت من قبل سيئة" ... فقد خسر العامة كل شيء... وظل عدد المواطنين والجنود يتناقص تناقصاً مطرداً" (12). وكان لا بد من سد النقص في صفوف الجند بمجندين من الولايات

صفحة رقم : 3067

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> ماريوس

الإيطالية؛ ولكن هؤلاء لم يكن لهم صبر على القتال، ولم تكن قلوبهم عامرة بحب رومه؛ وأخذ عدد الفارين من الجند يتضاعف على مدى الأيام، واختل النظام في الجيش وانحطت قدرة المدافعين عن الجمهورية إلى أدنى حد. ولم تلبث أن هاجمها الأعداء، وكاد هجومهم عليها أن يكون من الشمال ومن الجنوب في وقت واحد. ذلك أن قبيلتين من قبائل الكلت وهما قبيلتا السمبريين والتبوتون انحدرت جموعها كالسيل الجارف فاخترقت ألمانيا عام 113 في عربات مغطاة، وكانت عدتهم ثلاثمائة ألف من المحاربين ومعهم أزواجهم وأبنائهم ودوابهم، وكانهم أرادوا أن يشعروا رومه بما يتهددها من أخطار في المستقبل القريب. ولعل هؤلاء الأقوام قد ترامى إليهم من فوق جبال الألب أن رومه قد افتتنت بالثروة وكرهت الحرب. وكان القادمون الجدد طوال القامة، أقوىاء البنية، شجعاناً لا يجد الخوف سبيلاً إلى قلوبهم. وكانوا بيض البشرة شقر الشعر حتى قال عنهم الإيطاليون إن شعر أطفالهم أبيض كشعر الشيوخ. والتقوا بجيش روماني في نوريا Noreia (وهي نورماكت Neumarkt الحالية في كورنثيا) وأفنوه عن آخره؛ ثم عبروا نهر الرين وهزموا جيشاً رومانياً آخر، ثم تدفقوا غرباً إلى غالة الجنوبية وبددوا شمل جيش روماني ثالث ورابع وخامس. وأسفرت معركة أروسيو Arausio (أورنج) عن قتل ثمانين ألفاً من الجيوش الرومانية النظامية، وأربعين ألفاً من المدنيين الذين يتعقبون معسكرات الجنود (13). وتفتحت أبواب إيطاليا بعد هذه المعارك أمام الغزاة، واستولى الرعب على رومه وكان رعباً لم تعرف له مثيلاً منذ أيام هنيبال. وفي الوقت عينه تقريباً شبت نار الحرب في نوميديا. ذلك أن يوجورثا Jugurtha حفيد هاسنسا عذب أخاه تعذيباً انتهى بموته، وحاول أن يحرم أبناء عمه حقهم في الملك، فأعلن مجلس الشيوخ الحرب عليه في عام 111 لعله يستطيع أن يجعل نوميديا ولاية رومانية ويفتح أبوابها للتجارة ولرؤوس

صفحة رقم : 3068

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> ماريوس

الأموال الرومانية، واستطاع يوجورثا أن يبتاع بالمال بعض الأشراف ليدافعوا عن قضيته وعن جرائمه أمام مجلس الشيوخ، وأن يرشوا القواد الذين أرسلوا لقتاله، فعدوا معه صلحاً مواتياً أو اكتفوا بمناوشات لا تلحق به أذى. ولما استدعى إلى رومه كان أكثر سخاء منه قبل قدومه إليها، واستطاع بذلك أن يعود إلى عاصمته دون أن تقام في سبيله العقبات (14).

ولم يخرج من هذه الحروب موفور الكرامة سليم الشرف إلا ضابط واحد هو جايوس ماريوس Gaius Marius. وقد ولد هذا القائد كما ولد شيشرون في أربينوم Arpinum. وكان والده عاملاً يتقاضى أجراً قليلاً، وتطوع في الجيش وهو صغير السن، وأصيب بعدة جراح في نومنثيا Numantia، وتزوج من عمه لقيصر، واختير تربيوناً رغم جهله وسوء أخلاقه أو بسبب جهله وسوء أخلاقه. ولما عاد من الخدمة العسكرية في خريف عام 108، وكان وقتئذ ياوراً لكونتس متلس Quintus Metellus القائد الضعيف العاجز في إفريقيا، اعتلى منصة للخطابة وطلب أن يختار قنصلاً بدل متلس، وقطع على نفسه عهداً إذا اختير لهذا المنصب أن يقود الجيوش الرومانية إلى النصر في الحرب البورجورثية. فأجابه الشعب إلى طلبه، وتولى قيادة الجيش، وأرغم يوجورثا على الاستسلام له في عام 106، ولم

يعلم الشعب وقتئذ أن أكبر من عمل للنصر في هذه الحرب شاب جريء من الأشراف هو لوسيوس صلا Lucius Sulla وإن كان قد عرف منه ذلك فيما بعد. أما في ذلك الوقت فقد استمتع ماريوس بأعظم ما يستمتع به القائد المنتصر، وبلغ من حب الشعب له أن تجاهلت الجمعية نصوص الدستور المحتضر وصارت تنتخبه قنصلاً عاماً بعد عام (من 104-100). وناصره رجال الأعمال لأن انتصاراته قد فتحت آفاقاً جديدة لمشروعاتهم الاستغلالية من جهة، ولأنهم رأوه الرجل الوحيد الذي كان في استطاعته أن يرد حيافل الكلت من جهة أخرى. وتبينت رومه من ذلك الوقت

صفحة رقم : 3069

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> ماريوس

في عم قيصر منافع القيصرية- ذلك أن الدكتاتورية الممثلة في قائد محبوب من الشعب، ومن ورائه جيش مخلص له، قد بدت للكثيرين من الرومان المنهوكي القوى البديل الوحيد من المساوي الأجرية التي تلازم الحرية. وكانت الجحافل السميرية بعد انتصارها في أروسيو قد أجلت زحفها على رومه، وعبرت جبال البرانس، وعانت في أسبانيا فساداً، غير أنها عادت إلى غالة في عام 101، وهي أكثر عدداً مما كانت قبل، واتفقت مع النيتون على أن يهاجمها السهول الغنية في شمالي إيطاليا من طريقين مختلفين. ولجأ ماريوس في صد هذا الخطر المحدق بالمدينة إلى طريقة جديدة من طرق التجنيد أحدثت انقلاباً خطيراً في الجيش أولاً وفي الدولة نفسها فيما بعد. ذلك أنه دعا إلى الخدمة العسكرية كل من يشاء من المواطنين سواء كان له ملك أو لم يكن. وعرض أجوراً مغرية على المتطوعين، ووعدهم أن يطلق سراحهم وأن يقطعوا أرضاً في نهاية الحرب. وكان معظم الجيش الذي جمع بهذه الطريقة مكوناً من فقراء المدن، وكانت عواطفه معادية لجمهورية الأشراف، وكان إذا حارب لا يحارب دفاعاً عن بلاده بل يحارب في سبيل قائده ومن أجل الغنائم. وبهذه الوسيلة وضع ماريوس الأساس العسكري للثورة القيصرية، ولعله فعل ذلك على غير علم منه. وكان ماريوس جندياً لا رجلاً سياسياً، ومن ثم فإنه لم يكن يتسع وقته لتدبر العواقب السياسية البعيدة. فلما أن ألف الجيش بهذه الطريقة السالفة الذكر قاده فوق جبال الألب وقوى أجسام جنده بالسير الطويل والتدريب، كما قوى قلوبهم بالهجوم على مواقع كان من السهل التغلب عليها، وكان يرى أن من المجازفة أن يلتحم وإياهم في حرب حقيقية إلا بعد أن يتم تدريبهم على هذا النحو. ومر النيتون بمعسكره دون أن يلقوا مقاومة ما، وكانوا يسألون الرومان ساخرين هل يريدون أن يبعثوا معهم برسائل إلى زوجاتهم اللاتي يوشك هؤلاء أن يستمتعوا بهن. وفي وسع القارئ أن يتصور عدد هؤلاء النيتون إذا علم أنهم قضاوا في مرورهم بمعسكر

صفحة رقم : 3070

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> ماريوس

الرومان ستة أيام كاملة. فلما أن تم مرورهم أمر ماريوس جنده بالانقضاء على مؤخرتهم؛ ودارت بين الجيشين معركة عند أكواسكتيا (102Aquae Sextia) (وهي مدينة إكس Aix في مقاطعة بروفانس Provence). وبلغ عدد القتلى والأسرى من جيوش مائة ألف. وفي ذلك يقول أفلو طرخس: "ويقال إن أهل مرسيليا أقاموا حول كرومهم أسواراً من عظام القتلى وإن الأرض بعد أن تحللت فيها أجسامهم وهطلت عليها أمطار الشتاء أخصبها ما تسرب إليها من المواد المتعفنة، حتى بلغ محصولها في الموسم الذي تلا ذلك الفصل درجة من الوفرة لم يكن لها مثيل من قبل(15)". وبعد أن أراح ماريوس جيشه عدة شهور رجع على رأسه إلى إيطاليا والتقى بالسمريين في فرسلا Vercellae بالقرب من نهر البو (101) في المكان الذي انتصر فيه هنيبال على الرومان في أول معركة خاض غمارها معهم. وأراد البرابرة أن يظهر قوتهم وبأسهم، فساروا عراة الأجسام وسط الثلوج، وتسلقوا الجبال المكسوة بالجليد، وخاضوا مناسفه العميقة إلى قلال الجبال، ثم انزلقوا منها مهم يهللون ويضحكون فوق المنحدرات الوعرة، واستخدموا دروعهم مزلق في أقدامهم(16). فلما دارت المعركة بعدئذ بينهم وبين الرومان لم يكذبوا منهم أحد على قيد الحياة.

واستقبل ماريوس في العاصمة المبتهجة كأنه "كملبوس ثان" صدعها غارة كلتيه، "ورميولوس" آخر أنشأ رومه من جديد. ووهبته جزءاً من الغنيمة التي جاء بها مكافأة له على عمله؛ فأصبح بذلك من أثرياء المدينة يمتلك من الضياع ما "يكفي لأن يكون وحده مملكة". وفي عام 100 ق.م اختير قنصلاً للمرة السادسة. وكان زميله في القنصلية لوسيوس ستورنيس Lucius Saturninus، وكان رجلاً متطرفاً حاد الطبع عقد النية على أن يبلغ الهدف الذي كان يسعى له أبنا جراكس بالتشريع إن استطاع وبالقوة إن يبلغ الهدف الذي كان يسعى له عرض على الجمعية قانوناً يقضى بتوزيع بعض أراضي المستعمرات على الجنود

صفحة رقم : 3071

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> ماريوس

المضرسين الذين اشتركوا في المعارك الحديثة؛ ولما أنقص ثمن القمح الذي توزعه الدولة على العامة من ستة أسات وتلث أس (أي ما يعادل 0.39 من الريال الأمريكي) إلى خمسة أسداس أس (أس نحو 0.05 من الريال الأمريكي) لكل موديوس لم يعارض ماريوس في هذا الإجراء. وأراد مجلس الشيوخ أن يحمي خزانة الدولة، ويحمي نفسه بتحريض أحد التريبونين على أن يمنع الاقتراع على هذين المشروعين. ولكن ستورنيس لم يعبأ بهذا الاعتراض وتقدم بهما إلى الجمعية. واحتدم النزاع بين الطرفين، ولجأ كلاهما إلى العنف. ولما أن قتل أنصار ستورنيس كايوس مميوس Caius Memmius، وكان من أكبر الأشراف مقاماً، لجأ مجلس الشيوخ إلى آخر سهم في كنانته واستخدم حقه في حماية الشعب senatus consultum de re publica defendenda وأمر ماريوس بوصف كونه قنصلاً أن يخمد الفتنة.

وكان على ماريوس أن يختار بين أمرين ليس فيهما حظ لمختار، وكان هذا الاختيار أسوأ ما مر عليه طول حياته. فقد كان شديداً على نفسه أن يختم جهاده الطويل لخدمة العامة من أهل رومه هذه الخاتمة التعسة فيها زعماءهم وأصدقائه السابقين، على أنه هو أيضاً كان لا يرضى عن استخدام العنف ويعتقد أن الثورة تنتج من الشرور أكثر مما تستطيع علاجه. وأخيراً سار على رأس قوة لمهاجمة الثوار وسمح بأن يقتل ستورنيس رجماً بالحجارة، ثم طلق السياسة وعاش في عزلة عيشة نكدة يائسة، يحتقره العامة الذين دافع عنهم وأخذ بانصرهم، والأشراف الذين أنجاهم من البلاء.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> ثورة إيطاليا

الفصل الخامس

ثورة إيطاليا

كانت الثورة في ذلك الوقت تتطور إلى حرب أهلية داخلية. ولما استعان مجلس الشيوخ أحلاف رومه من ملوك الشرق لصد غارات السمبريين رد عليه نقوميدس ملك بثينيا بقوله إن جميع الرجال القادرين على حمل السلاح في مملكته قد بيعوا في سوق الرقيق للوفاء بمطالب جباة الضرائب الرومانيين الفادحة. ورأى مجلس الشيوخ أن الجيش في ذلك الوقت أفضل من الرقيق فأصدر قراراً يقضي بتحرير كل من أصبحوا أرقاء لعجزهم عن أداء الضرائب. فلما سمع الأرقاء بهذا القرار اجتمع مئات منهم في صقلية، وكان كثيرون منهم من يونان بلاد الشرق الهلنستية، وتركوا سادتهم واحتشدوا عند باب قصر البريتور وطالبوا بحريتهم، فعارض أسيادهم في ذلك الطلب واحتجوا عليه، واستمع البريتور إليهم وأجل تنفيذ قرار التحرير. ونظم الأرقاء أنفسهم بقيادة دعي ديني يسمى سلفيوس Salvius وهاجموا مدينة مورجنتيا Morgantia. واستطاع مواطنو المدينة أن يضموا وفاء معظم عبيدهم حين وعدوهم بأن يحرروهم إذا صدوا هجمات المغيرين؛ فلما صدوها أخلف سادتهم وعدهم ولم يحرروهم، فانضم معظمهم إلى الثائرين. وثار حوالي ذلك الوقت نفسه (103) نحو ستة آلاف من الأرقاء في طرف الجزيرة الغربي بقيادة أثنيون Athenion، وهو رجل متعلم ذو عزيمة ماضية؛ وهزمت هذه القوة تبعاً عدداً من الجيوش التي سيرها البريتور لإخماد ثورتها، ثم تحركت نحو الشرق وانضمت إلى الثوار الذين كانوا تحت قيادة سلفيوس. وتغلبت جموعهم على جيش بعثت به رومه من إيطاليا نفسها، ولكن سلفيوس مات في ساعة النصر. ثم عبرت جيوش أخرى مضيق صقلية

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> ثورة إيطاليا

بقيادة القنصل مانيوس أكوليوس (101)؛ فبارز أثنيون هذا القنصل وقتله في المبارزة، وأصبح الأرقاء بلا قائد، فهزموا وقتل آلاف منهم في الميدان، وأعيد آلاف آخرون إلى سادتهم، ونقل مئات منهم على ظهور السفن إلى رومه ليقاتلوا الوحوش في الألعاب التي أقيمت احتفالاً بانتصار أكوليوس، ولكن الأرقاء لم يقاتلوا الوحوش بل أغمد كل منهم خنجره في قلب زميله وماتوا عن آخرهم.

وبعد بضع سنين من هذه الحرب- حرب الأرقاء الثانية- امتشقت إيطاليا كلها الحسام. وسبب ذلك أن رومه- وهي أمة صغيرة بين كومي وكيري Caere، وبين جبال الأبنين والبحر- قد ظلت نحو قرنين من الزمان تحكم سائر إيطاليا كما كانت تحكم الشعوب المغلوبة، وبلغ من أمرها أن مدناً قريبة منها مثل تيبور Tibur وبرانستي Praeneste لم يكن لها من يمثلها في الحكومة التي تصرف أمورها، بل كان مجلس الشيوخ والجمعيات والقناصل يصدرن المراسيم والقوانين إلى الهيئات الإيطالية كأنها ولايات أجنبية مغلوبة على أمرها. وكانت موارد هؤلاء "الأحلاف" من مال ورجال تستنزف في الحروب التي لم يكن لها هدف إلا ملء خزائن عدد قليل من الأسر في رومه، ولم تتل الولايات التي ظلت موالية لها في صراعها المرير مع هنيبال على هذا الولاء جزاء يستحق الذكر، أما التي قدمت إلى هنيبال في هذا الصراع شيئاً من المعونة أياً كان نوعها فقد كان عقابها أن أخضعت إلى رومه خضوعاً أذلها إذلالاً جعل كثيراً من أهلها ينضمون إلى الأرقاء في ثورتهم عليها. وكان عدد قليل من أثرياء المدن قد منحوا حق مواطني رومه، وكانت رومه نفسها تستخدم سلطانها في كل مكان لمساعدة الأغنياء على الفقراء، وفي عام 126 حرمت الجمعية على سكان المدن الإيطالية أن يهاجروا إلى رومه، وفي عام 95 أخرجت هذه العاصمة الغنية كل من لم يكن من أهلها مواطناً رومانياً بل كان مواطناً إيطالياً فحسب. وحاول أحد الأشراف أن يصلح هذه الحال فكان جزاؤه على هذه

صفحة رقم : 3074

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> ثورة إيطاليا

المحاولة الإعدام. كان م. ليفيوس دروسس M. Livius Drusus ابن التربيون الذي كان ينافس تيبيريوس جراكس؛ ولما كان متبناه قد أصبح والد زوجة أغسطس، فإن الأسرة ربطت مصيرها بمبادئ الثورة. وجرياً وراء هدفها هذا عرض ليفيوس دروسس، بعد أن اختير تربيوناً في عام 91، ثلاثة إجراءات وهي: (1) أن يوزع مقدار آخر من أراضي الدولة على الفقراء. (2) أن ترد إلى مجلس الشيوخ حقوقه القضائية التي كانت مقصورة عليه، مشروطاً أن يضم إليه في الوقت نفسه ثلاثمائة من رجال الأعمال. (3) أن يمنح جميع الأحرار في إيطاليا حقوق المواطنين الرومانيين. وأجازت الجمعية الاقتراح الأول وهي مغتبطة، وأجازت الثاني دون أن تبدي اغتباطاً أو استياء؛ ولكن مجلس الشيوخ رفض الاقتراحين كليهما وأعلن أنه لا يرتبط بشيء منهما. أما الاقتراح الثالث فلم يعرض للاقتراح لأن مغتالاً مجهولاً طعن دروسس طعنة قاتلة في منزله. وبعثت هذه الاقتراحات الأمل في نفوس الولايات الإيطالية وأيقنت مما حل بها أن مجلس الشيوخ والجمعية لن يقبلا بطريقة سليمة أن يشترك غيرهما معهما فيما يعود عليهما من المزايا بفضل هذه الاقتراحات. فأخذت هذه الولايات تستعد للثورة. وتألقت منها جمهورية اتحادية، عاصمتها كنفرنيوم Confrinium، وعهدت بالحكم إلى مجلس الشيوخ مؤلف من خمسمائة عضو يختارون من جميع القبائل الإيطالية عدا التسكان والأميريان الذين رفضوا الانضمام إلى هذا الاتحاد. فلم يسع رومه إلا أن تعلن الحرب من فورها على المنتهقين. واشتركت أحزاب العاصمة كلها في الحرب التي كانت في رأيهم دفاعاً عن وحدة إيطاليا؛ وملأ الخوف قلوب الرومانيين على بكرة أبيهم من انتقام الدول المتمردة إذا انتصرت في هذه "الحرب الاجتماعية" القائمة بين الأخوة بعضهم وبعض. وخرج ماريوس من عزلته،

صفحة رقم : 3075

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> ثورة إيطاليا

وتولى القيادة، وانتصر في معركة بعد معركة، مع أن جميع القواد الرومانيين - ماعدا صلا - قد منوا بالهزيمة. وقتل في ثلاث سنين حوالي ثلاثمائة ألف نفس، وخربت إيطاليا الوسطى أشد تخريب. ولما أوشكت إتروريا وأميريا أن تنضم إلى الثوار استرضتهما رومه بأن منحت أهلها جميع حقوق المواطنين الرومانيين؛ وفي عام 90 منحت حقوق الرومان السياسية لجميع الأحرار والمحربين الإيطاليين الذين يقسمون يمين الولاء لرومه. وكان من أثر هذه الامتيازات القليلة أن ضعفت قوة الأحلاف المناوئين لرومه، فألقت المدن واحدة بعد الأخرى سلاحها، ولم يحل عام 89 حتى كانت هذه الحرب الوحشية الضروس قد وضعت أوزارها، واختتمت بسلام نكد لا خير فيه للطرفين. ذلك أن الرومان قد قضوا على ما منحوه للولايات الإيطالية من حقوق سياسية، بأن جمعوا المواطنين الجدد في عشر قبائل جديدة لا تقتصر إلا بعد أن تفرغ الخمس والثلاثون قبيلة التي كانت موجودة قبل من الاقتراع، وبذلك لم تكن لاقتراعها هذا قيمة في معظم الأحيان. يضاف إلى هذا أنه لم يكن في وسع المواطنين الجدد أن يحضروا الجمعيات في رومه إلا قلة ضئيلة منهم. لذلك صبرت الجماعات التي غرر بها والتي أضنتها الحرب وخربت بلادها على مضض، فلما أن مضت على ذلك الوقت أربعون سنة فتحت أبوابها لقيصر يعرض عليها حقوق المواطنين في جمهورية لا وجود لها.

صفحة رقم : 3076

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> صلا السعيد

الفصل السادس

صلا السعيد

ولم يلبث النزاع بين الرومانيين والإيطاليين أن قام من جديد بعد بضع سنين قلائل ساد فيها السلام، وكل ما في الأمر أن تبدل اسم هذا النزاع من نزاع "اجتماعي" إلى نزاع "أهلي" وأن تبدل ميدانه من المدن الإيطالية إلى رومه نفسها. وتفصيل ذلك أن لوسبوس كرنليوس صلا اختير ليتولى في عام 88 ق.م منصب القنصلية. وتولى قيادة الجيش الذي كان يعبأ لقتال مثراداتس Mithridates حاكم بنتس Pontus؛ ولكن التربيون سلبيسيوس روفس Sulpicus Rufus لم يكن يرضى أن يتولى رجل محافظ مثل صلا قيادة هذه القوة العظيمة، وأقنع الجمعية بأن يتولى القيادة ماريوس، وكان وقتئذ رجلاً بديناً في التاسعة والستين من عمره، ولكنه مع ذلك لم تفارقه مطامعه العسكرية. وأبى ماريوس أن تفلت من يده فرصة القيادة التي طال انتظارها، وأن تقلت منه لما لاح له أنه نزوة من نزوات جمعية خاضعة لتأثير

زعيم شعبي مهرج، وللرشا التي لم يكن يشك في أنها قد تلقته من التجار الذين يحبون ماريوس. فلم يكن منه إلا أن فر إلى نولا Nola وكسب ولاء الجيش وزحف به على رومه. وكان صلا رجلاً فداً في منشئه، وأخلاقه، ومصيره. فقد ولد فقيراً ولكنه أصبح المدافع عن الأشراف، كما أصبح ابنا جراكس ودروسس Drusus وقبصر وهم من الأشراف زعماء الطبقات الفقيرة. وثأر لنفسه من الحياة إذ جعلته شريفاً ومعدماً؛ وذلك بأنه حين أصبح رب المال استخدمه في قضاء شهواته، فأطلق لها العنان، ولم يتقيد فيها بعرف، ولم يؤذبه على إسرافه فيها ضمير. وكان دميم الخلق - له عينان زرقاوان برأقتان في وجه أبيض

صفحة رقم : 3077

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> صلا السعيد

تلطخه بقع شديدة الحمرة "كأنه توت منثور عليه دقيق(17)". لكن هذه الملامح كانت تخفي وراءها تعليماً راقياً، فقد كان يتقن الأدب اليونانية والرومانية، وكان مولعاً بجمع روائع الفن، دقيقاً في اختيارها (مستعيناً على ذلك في العادة بالوسائل العسكرية). وأمر أن تحمل له من أثينا مؤلفات أرسطوطاليس، واختص بها نفسه لتكون جزءاً من أثمن غنائه، ووجد خلال أيام الحرب والثورة من الوقت ما استطاع فيه أن يكتب مذكراته ليضلل بها الناس من بعده. وكان رقيقاً مرحاً لطيفاً، وصديقاً كريماً، يدمن الخمر، ويشتهي النساء، ويولع بالحرب، ويطرب للغناء؛ ويقول عنه سلاست Sallust إنه "كان يعيش عيشة البذخ، ولكن ملذاته لم تحل قط بينه وبين أداء واجباته؛ إذا استثنينا من ذلك التعميم أنه كان في وسعه أن يجعل سلوكه مع زوجته أشرف مما كان(18)". وسلك الرجل طريقه إلى المجد سلوكاً سريعاً، وخاصة في الجيش وسيلته الموقفة إلى أغراضه. وكان يعامل جنوده معاملة الزميل لزميله، يشترك معهم في أعمالهم وفي سيرهم، ويتعرض لما يتعرضون له من الأخطار؛ "وكان همه الوحيد ألا يسمح لإنسان ما أن يفوقه في حكمته وشجاعته(19)". ولم يكن يؤمن بالهة الرومان، ولكنه يؤمن بالخرافات. وفيما عدا هذا كان الرجل من أكثر الرومان واقعية كما كان أشدهم قسوة، خياله ومشاعره خاضعة لسلطان عقله. ومما قيل عنه أنه كان نصف أسد ونصف ثعلب، وأن الثعلب فيه كان أشد خطراً من الأسد(20). قضى نصف أيامه في ميادين القتال، وقضى العشر السنين الأخيرة منها في الحروب الأهلية، ولكنه رغم هذا ظل محتفظاً بفكاهته ومرحه إلى آخر أيام حياته، يوشى قسوته ووحشيته بكتابة المقطوعات الشعرية الفكاهية، ويملاً رومه ضحكاً، خلق لنفسه مائة ألف عدو ومات في فراشه. وكان يلوح أن هذا الرجل الذي يتألف من مزيج كيميائي من الفضائل والردائل هو الذي تحتاجه البلاد لقمع الثورة في الداخل والقضاء على مترداتس في الخارج. وكان من السهل على رجاله المدربين البالغ عددهم 35.000 أن

صفحة رقم : 3078

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> صلا السعيد

بيدوا شمل الأشتات غير المتجانسين الذين جمعهم ماريوس ارتجالاً في رومه. فلما أيقن ماريوس بحرج موقفه فر إلى إفريقيا؛ وقتل سلبسيوس إذ غدر به خادمه. وأمر صلا أن يدق رأس التربيون في منبر الخطابة الذي كان منذ قليل تتجاوب فيه أصداء خطبة البليغة؛ وحرر العبد مكافأة له على خدمته، ثم أمر بقتله جزاء له على غدره. وبينما كان جنوده يسيطرون على السوق العامة أصدر قراراً بالأعرض أي أمر على الجمعية إلا بأذن مجلس الشيوخ، وإن يكون نظام الاقتراحات هو النظام المقرر في "دستور سرفيوس"، وهو الذي يجعل الأولوية والميزة للطبقات العليا؛ ثم عمل على أن يكون هو القنصل الأول وسمح بأن يختار نيبوس أوكتافيوس Cnaeus Octavius وكرنليوس سننا Cornelius Cinna قنصلين (87)، ثم سار للقاء مثرادس العظيم. ولكنه لم يكد يغادر إيطاليا حتى قام النزاع من جديد بين طبقة العامة وطبقتي الأشراف والفرسان الممتازين، ونشب القتال في السوق العامة بين أنصار أوكتافيوس المحافظين وأتباع سنا المتطرفين، وقتل من الفريقين في يوم واحد عشرة آلاف رجل. وانتصر أوكتافيوس في آخر الأمر وفر سنا لينظم الثورة في المدن المجاورة، ثم أبحر إلى إيطاليا بعد أن قضى الشتاء مختفياً، وأعلن تحرير الرقيق، وسار على رأس قوة مؤلفة من ستة آلاف رجل لقتال أوكتافيوس في رومه. وانتصر الثوار وذبحوا آلافاً مؤلفة من أعدائهم، وزينوا منابر الخطابة برؤوس الشيوخ المقتولين، وساروا في الشوارع صفوفاً ورؤوس الأشراف فوق رماحهم، وأضحت هذه سنة جرى عليها الثوار فيما بعد. واستقبل أوكتافيوس الموت في هدوء واطمئنان وهو جالس على كرسي التربيون مرتدياً ملابسه الرسمية. ودامت المذبحة خمسة أيام بلياليها، كما دام الإرهاب عاماً كاملاً، واستدعت محكمة الثورة الأشراف للمثول أمامها، وقضت بإدانتهم إذا كانوا قد قاوموا ماريوس وصادرت أملاكهم. وكانت إيماءة ماريوس تكفي لأن تطيح برأس أي إنسان

صفحة رقم : 3079

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> صلا السعيد

مهما كانت منزلته، وكان يقتل في أغلب الأحيان لساعته قبل أن يبرح مكانه. وقتل بهذه الطريقة أصدقاء صلا جميعهم؛ وصودرت أملاكه، وعزل من قيادة الجيش، وأعلن أنه عدو الشعب. ولم يسمح بدفن الموتى بل تركت جثثهم في الشوارع تلتهما الكلاب والطيور الجارحة. وانطلق الأرقاء المحررون في البلدة ينهاون، ويفسقون، ويقتلون الناس بلا تمييز بينهم، وظلوا على هذه الحال حتى جمع سنا أربعة آلاف منهم، وأحاطهم بجنود من الغاليين وأمر بقتلهم عن آخرهم (21).

ثم اختير سنا قنصلاً مرة ثانية، كما اختير ماريوس للمرة السادسة، ولكن ماريوس توفي في الشهر الأول بعد توليه منصبه وهو في الواحدة والسبعين من عمره، منهوك القوى من فرط ما لاقى من الشدائد وضروب العنف. وانتخب فلريوس فلاكوس Valerius Flaccus قنصلاً بدلاً منه، وأصدر مرسوماً بإلغاء ثلاثة أرباع الديون جميعها، ثم زحف شرقاً على رأس جيش مؤلف من اثني عشر ألفاً لخلع صلا من القيادة، وبقي سنا في رومه يتولى فيها الحكم بمفرده، فاستبدل بالجمهورية دكتاتورية، وعين جميع موظفي المناصب الكبرى، وعمل على أن ينتخب قنصلاً أربع سنين متتالية.

ولما غادر فلاكوس إيطاليا كان صلا يحاصر أثينا لأن هذه المدينة انضمت إلى مثرادس في ثورته على رومه. ولما حبس عنه مجلس الشيوخ المال اللازم لمرتبات جنوده عمد إلى الهياكل والكنوز في أولمبيا وإيدورس ودلفي فنهبا ليمون بها جنده وينفق منها على حروبه. وفي شهر مارس من عام 86 اقتحم الجند أحد الأبواب في أسوار أثينا، وندفقوا منه إلى داخل المدينة، وانتقموا لما عانوه من طول الحصار ومشاقه بأن عاثوا في المدينة فساداً، يقتلون وينهبون. ويقول أفلوثرخس "إن عدد القتلى كان يخطئه الحصر.. وقد جرت الدماء أنهاراً في شوارع المدينة، وخرجت منها إلى الضواحي النائية(22)". وأخيراً أمر صلا

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> صلا السعيد

بوقف المذبحة، وقال إنه "يصفح عن الأحياء إكراماً للموتى". ثم قاد جنوده نحو الشمال بعد أن استراحوا من متاعب القتال، وهزم قوة كبيرة عند قيرونية Chaeronea، وأركومينس Orchomenus، وطارد فلولها إلى آسيا مجتازاً مضيق الهلسبنت (الدردنيل)، وأخذ يعد العدة للقاء القسم الأكبر من جيش ملك بنت ، ولكن فلاكوس كان قد وصل في هذه الأثناء إلى آسيا على رأس جيشه، وأبلغ صلا مرة أخرى أن عليه أن يتخلى عن القيادة. ولكنه استطاع أن يقنع فلاكوس بأن يتركه حتى يتم حملته، وكانت نتيجة هذا أن قتل فلاكوس بيد ياوره فميريا Fimbria، ثم نصب هذا الضابط نفسه قائداً للجيش الرومانية كلها، وتقدم شمالاً لملاقاة صلا. فما كان من صلا أمام هذا الخرق إلا أن عقد مع مترادس صلحاً (85) ينزل هذا الملك بمقتضاه عن كل ما ظفر به من الفتوح في تلك الحرب، ويسلم إلى رومه ستين سفينة حربية، ويؤدي لها غرامة مقدارها ألفي تالنت. ثم اتجه صلا بعدئذ نحو الجنوب والتقى بمفيريا في ليديا، فانضمت جنود فميريا إلى صلا، وانتحر قائدها وأصبح صلا سيد بلاد الشرق اليونانية، ففرض عليها غرامة حربية مقدارها عشرون ألف تالنت، وشرع يجبي الضرائب من مدائن أيونيا الثائرة. ثم سار مع جيشه بطريق البحر إلى بلاد اليونان، وزحف على بترى Patrae، ووصل إلى برنديز في عام 83. وحاول سنا أن يقف زحفه ولكن جنوده قتلوه. وحمل صلا إلى خزائن رومه خمسة عشر ألف رطل من الذهب، ومائة وخمسة عشر رطلاً من الفضة، مضافة إلى ما حملة من النقود ومن روائع الفن التي خص بها نفسه. ولكن زعماء الديمقراطيين، وكانوا لا يزالون أصحاب الأمر والنهي في رومه، ظلوا يتهمون به بأنه عدو الشعب، ووصفوا المعاهدة التي عقدها مع مترادس بأنها مذلة قومية، واضطر صلا على الرغم منه أن يزحف بجنوده

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> صلا السعيد

الأربعين ألفاً على رومه، وواصل هذا الزحف حتى بلغ أبوابها. وخرج كثيرون من الأشراف لينضموا إليه، وجاء إليه أحدهم وهو نيبوس بمبي بفيلق يتألف كله من موالي أبيه وأصدقائه. وسار ابن ماريوس على رأس جيش لملاقاة صلا، فهزم وفر إلى برانست، بعد أن أرسل إلى البريتور الشعبي يأمره بأن يقتل كل من لا يزال في العاصمة من زعماء الأشراف. وصعد الرجل بالأمر فجمع مجلس الشيوخ وقتل جميع هؤلاء الزعماء وهم جلوس في مقاعدهم أو في أثناء فرارهم. ثم جلت القوات الديمقراطية عن رومه ودخلها صلا دون أن يلقي مقاومة، ولكن جيشاً من السمنيين قوامه مائة ألف مقاتل زحف من الجنوب وانضم إلى فلول القوات الديمقراطية ليثأر للولايات الإيطالية ويغسل عار الهزيمة التي منيت بها في "الحرب الاجتماعية". وخرج صلا لملاقاتهم وانتصر عليهم عند باب كلين Colline بجيشه البالغ خمسين ألفاً في معركة تعد من أشد معارك التاريخ القديم هولاً، جرت فيها الدماء أنهاراً. وبعد أن تم له النصر أمر

بقتل ثمانية آلاف من الأسرى رمياً بالسهم بحجة أنهم وهم أحياء يسببون له من المتاعب أكثر مما يسببون له منها وهم أموات. ورفعت رؤوس من أسر من الزعماء على أسنة الرماح أمام أسوار برانتست، حيث كان آخر جيوش الديمقراطيين محصوراً. ثم سقطت برانتست، وانتحر ماريوس الصغير، وعرض رأسه مسمرأ في السوق العامة. وهو عمل كانت السوابق الكثيرة قد جعلته في نظر الناس أمراً مألوفاً مشروعاً.

ولم يجد صلا بعدنذ صعوبة في إقناع مجلس الشيوخ بأن ينصبه دكتاتوراً، فلما تم له ذلك أصدر من فوره حكماً بإعدام أربعين من الشيوخ، وألفين وستمائة من رجال الأعمال، وكان هؤلاء الرجال ممن أعانوا ماريوس عليه وابتاعوا أملاك الشيوخ الذين قتلوا في أثناء حكم المنظرين. وعرض صلا مكافآت لمن يبلغونه عن أسماء هؤلاء الرجال، كما عرض مكافآت قدرها اثنا عشر ألف دينار (7200 ريال أمريكي) على من يأتيه بالمحكوم عليهم أمواتاً كانوا أو أحياء. وزينت السوق

صفحة رقم : 3082

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> صلا السعيد

العامة برؤوس القتلى وبقوائم بأسماء المحكوم عليهم تتجدد من آن إلى آن، ولم يكن يسع المواطنين إلا الاطلاع عليها بعد الفينة والفينة ليعرفوا مصيرهم أم الموت أم الحياة. وانتشرت أهوال المذابح والنفي ومصادرة الأملاك من رومه إلى الولايات، وكان ضحاياها هم الثوار الإيطاليين وأتباع ماريوس أينما وجدوا. وكان عدد من قتلوا في هذا الإرهاب الأرستقراطي حوالي أربعة آلاف وسبعمائة نفس. ويصف أفلوطرخس هذا الإرهاب بقوله: "وكان الأزواج يذبحون بين أحضان زوجاتهم، والأبناء في جحور أمهاتهم". وقد حكم على كثيرين ممن وقفوا على الحياد أو كانوا من المحافظين، فمنهم من قتل ومنهم من نفي، وقيل إن صلا قد فعل بهم ذلك لحاجته إلى أموالهم، ينفقها على جنوده أو في ملذاته، أو يكافئ بها أصدقاءه. وكانت الأملاك المصادرة تباع لمن يعرض فيها أعلى الأثمان، أو للمقربين ذوي الخطوة عند صلا، وأضحت هذه الأملاك أساساً لثراء كثيرين من الناس أمثال كراسس Crassus وكتلين Catiline. واستخدم صلا حقوقه الدكتاتورية في إصدار طائفة من المراسيم- تعرف بالقوانين الكرنيلية نسبة إلى العشيرة التي ينتمي إليها- كان يرجو أن ينشئ بها دستوراً أرستقراطياً يظل دستور رومه طوال حياتها. وأراد أن يسد ما طرأ على عدد مواطني رومه من النقص بسبب الموت، فأعطى حق المواطنين لكثير من الأسبان والكلت ولبعض الأرقاء السابقين، فأضعف من سلطان الجمعيات بحشد هؤلاء الأعضاء الجدد فيها وهم المدينون له بعضويتها، وبتحديد القانون القديم القاضي بالألا يعرض قانون على الجمعية إلا بموافقة مجلس الشيوخ. ثم عمل على وقف نزوح الإيطاليين إلى رومه فوقف توزيع الغلال من قبل الدولة على الأهليين ثم قلل ازدهام السكان في المدينة بتوزيع الأراضي الزراعية على اثني عشر ألفاً من جنوده الأقدمين. وأراد أن يمنع القنصل الذي يختار لمنصبه جملة مرات متتالية أن يكون دكتاتوراً فعلياً، فأصر على تنفيذ السنة القديمة التي كانت تحرم على أي موظف أن يشغل منصبه مرة

صفحة رقم : 3083

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> صلاح السعيد

ثانية إلا بعد مضي عشر سنوات على خروجه منه في المرة السابقة. وأنقص مكانة التربيون بتقييد حقه في الرضا وحرمان التربيون السابق من حق التعيين في أي منصب من المناصب الكبرى. واسترد من رجال الأعمال حقه الذي كان مقصوراً عليهم في أن يكونوا محلفين في المحاكم العليا، ورد هذا الحق إلى مجلس الشيوخ، واستبدل بنظام الالتزام في الضرائب نظام جباتها من الولايات نفسها وإرسالها إلى خزانة الدولة مباشرة. ثم أعاد تنظيم المحاكم، وزاد في عددها ضماناً لسرعة البت في القضايا؛ وحدد اختصاصها ومدى اختصاصها ومدى سلطتها تحديداً دقيقاً، ورد إلى مجلس الشيوخ كل ما كان له قبل ثورة ابني جراكس من مزايا تشريعية وقضائية وتنفيذية واجتماعية، وحق أعضائه في لبس زي خاص. وقد فعل صلاح كل هذا ليقينه أن الحكم الملكي أو الأرسقراطي هما اللذان يصلحان دون غيرهما من النظم لحكم الإمبراطوريات حكماً حازماً حكيماً؛ ثم عمل على زيادة عدد أعضاء مجلس الشيوخ إلى الحد المقرر، فأجاز للجمعية القبلية أن ترقى إلى عضويته ثلاثمائة من طبقة "الفرسان"، وأراد أن يبرهن على ثقته بعدالة هذا الإجراء الشامل واطمئنانه له فشرح جيوشه وقرر ألا يسمح ببقاء جيوش في إيطاليا كلها. وبعد أن ظل حاكماً بأمره عامين تخلى عن سلطته بأجمعها، وأعاد الحكم القنصلي، واعتزل الحياة العامة (عام 80 ق.م). وكان في حياته الجديدة أمناً على نفسه، لأنه قد قتل كل من يستطيعون الإلتزام به. ولذلك سرح حرسه وقواده، وكان يسير في السوق العامة لا يخشى أذى، وعرض أن يفسر أعماله الوطنية لكل مواطن يطلب إليه أن يفسرها له. ثم ذهب ليقضي أيامه الأخيرة في قصره الصغير في كومي، بعد أن مل الحرب والسلطان والمجد، ولعله قد مل أيضاً صحبة الناس، فأحاط نفسه بالمغنين والمغنيات والراقصين والراقصات، والممثلين والممثلات، وأخذ يكتب شروحه Commentarii ويتسلى بصيد الحيوان والسماك، والانهماك في الطعام والشراب. وأطلق عليه الناس

صفحة رقم : 3084

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الثورة الزراعية -> صلاح السعيد

من ذلك الوقت اسم "صلاح السعيد" لأنه انتصر في كل معركة، واستمتع بكل لذة، واستحوذ على كل سلطة، وعاش عيشة لا يساوره فيها خوف ولا ندم، وتزوج خمس نساء طلق منهن أربعاً واستكمل متعته بالمحاطي، ولما بلغ الثامنة والخمسين من عمره أصيب بخراج في القولون بلغ من شدته "أن اللحم النتن استحال قملاً، بلغ من الكثرة حداً كان لا يد معه من استخدام كثير من الرجال والنساء لقتله، ولكن القمل أخذ يزداد ويتضاعف حتى لم تتلوث به ثيابه، وحماماته، وأنيته فحسب، بل تلوث به أيضاً طعامه نفسه(23)" على حد قول أفلوطرخس. ومات صلاح على أثر نزيف في الأمعاء، ولم يكد يقضي في عزلته عاماً واحداً (78 ق.م) ولم يفته أن يملأ قبريته قبل وفاته: "لم يخدمني قط صديق، ولم يسئ إلي أبداً عدو، إلا جزيت الأول على خدمته والثاني على إيساعته الجزاء الأوفى".

صفحة رقم : 3085

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> الحكومة

الباب السابع

الحركة الرجعية الأجركية

60-77 ق.م

الفصل الأول

الحكومة

على أن صلا قد أخطأ مرتين بإسرافه في الكرم. وكان خطوه الأول أنه أبقى حياة رجل كان ابن عدو له وابن أخي عدو آخر. ذلك هو كيبوس يوليوس قيصر المرح النابه الذي كان يوشك أن يبدأ العقد الثالث من عمره في سني الإرهاب. وكان صلا قد طلب إعدامه فيمن طلب إعدامهم، ولكنه عفا عنه استجابة لشفاعة أصدقائه وأصدقاء الشاب. على أنه لم يكن مخطئاً في حكمه حين قال: "إن هذا الشاب هو ماريوس مكرراً". ولعله أخطأ كذلك إذ عجل باعتزال الحياة السياسية وأسرف في الملاذ فقرب إسرافه أجله. ولو أنه أوتى من الصبر وبعد النظر بقدر ما أوتى من القسوة والشجاعة لأنجى رومه من الفوضى التي ضربت إطنابها فيها خمسين عاماً، ولأمكنها أن تستمع في عام 80 ق.م بالأمن والسلام والنظام والرخاء التي أعادها إليها أغسطس قيصر حين عاد إليها من أكتيوم، وكان ما عمله أغسطس خلقاً وإبداعاً لا إرجاعاً للقديم.

ولم تكد تمضي على وفاته عشر سنين حتى ذهبت كل أعماله. ذلك أن الأشراف قد غرهم ما أوتوا من نصر في صراعهم المرير، فأهملوا واجبات الحكم وسعوا لكسب المال من طريق التجارة لينفقوه في ترفهم وشهواتهم. واستمر

صفحة رقم : 3086

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> الحكومة

النزاع بين الأشراف والعامية قوياً مريراً لا ينقصه إلا فرصة نتاح حتى يلجأ الطرفان فيه إلى أشد ضروب العنف. وكان الأشراف: "خيار الناس" optimates يستمسكون بنبيلهم، ولكن لم يكن معنى استمسكهم به أن يترفعوا بسبب هذا النبيل عن ارتكاب الدنيا، بل كان معناه في نظرهم أن الحكم الصالح يتطلب قصر المناصب العليا في الدولة على الذين تولوها قبله سخروا منه وسموه "رجلاً حديثاً" Novus homo أي "حديث النعمة"، وكان من هؤلاء الحديثي النعمة ماريوس وشيشرون. أما العامة فكانوا يطلبون أن تتاح الفرصة لذوي المواهب والكفايات، وأن تكون السلطة كلها في يد الجمعيات، وأن توزع الأراضي الحرة على الفقراء والجنود المسرحين. ولم يكن الأشراف ولا العامة ممن يؤمنون بالديمقراطية، بل كانت كلتا الطبقتان تسعى لأن تكون هي الحاكمة بأمرها، وتلجأ إلى ضروب الإرهاب والفساد والرشوة على مآل الناس بلا خوف ولا وخز ضمير. واستحالت الجماعات التي كانت من قبل جمعيات خيرية لتبادل البر بين أعضائها وكالات لبيع أصوات العامة في الانتخابات كئلاً. وارتقت عملية ابتياع الأصوات حتى تطلبت درجة كبرى من التخصص، وطائفة من الإخصائيين، فكان منهم المشتررون divisores الذين يتناعون الأصوات، والوسطاء interpretes والحراس sequestres الذين يحتفظون بالمال حتى تعطي الأصوات (2). وفي أقوال شيشرون وصف للمرشحين وهم يسبرون بين الناخبين في حقل المريخ وأكياس نقودهم في أيديهم (3). واستطاع بمبي أن يحمل الناس على اختيار صديقه أفرائيوس Afranius قنصلاً بدعوة زعماء القبائل إلى حدائقه، وفيها أعطى كل زعيم أثمان أصوات قبيلته (4). وبلغ ما كان يُستدان من المال لشراء أصوات الناخبين حداً رفع سعر فائدة الأموال التي تقترض في أثناء الحملة الانتخابية إلى ثمانية في المائة في الشهر الواحد (5).

صفحة رقم : 3087

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> الحكومة

وكانت المحاكم نفسها. بعد أن اختص بها أعضاء مجلس الشيوخ- لا تنقل فساداً عن عمليات الانتخاب، وفقدت الأيمان كل ما كان لها من قيمة في الشهادة، وفشت شهادة الزور كما فشت الرشوة. ولما أن أتهم ماركس مسالا Marcus Messal بأنه ابتاع بالمال الأصوات التي انتخب بها قنصلاً في عام 53 برئ بالإجماع، وإن كان أصدقاؤه أنفسهم شهدوا عليه (6) واعترفوا بجريمته (6). وكتب شيشرون لابنه يصف هذه الحال بقوله: "لقد أصبح المال أساس كل المحاكمات، ولذلك لن يحكم على إنسان إلا في جرائم القتل" (7)، وكان خليقاً به أن يقول "إنسان ذي مال"، "بغير المال وبغير المحامي القدير" كما قال محام آخر في ذلك الوقت "فديتهم إنسان ساذج برئ بأية جريمة لم يرتكبها قط، ثم يحكم عليه ما في ذلك شك" (8). ولما برئ لنتولس صوراً Lentulus Sura بأغلبية صوتين حزن أشد الحزن على ما أنفق من مال في رشوة قاض أكثر من العدد الذي كان يجب عليه أن يرشوه (9). ولما أدان المحلفون من أعضاء مجلس الشيوخ البريتور كونتس كليدس Quintus Calidus قال "إنهم لم يكن في وسعهم مع احتفاظهم بشرفهم أن يطلبوا أقل من ثلاثمائة ألف سسترس إذا أريد منهم أن يحكموا على بريطور" (10). وكان ولاية الأقاليم من أعضاء الشيوخ السابقين، وجباة الضرائب، والمرابون، وكلاء التجار، يبتزون الأموال من الأقاليم تحت حماية هذه المحاكم ابتزازاً لو سمع به أسلافهم لغضبوا له غيراً من هؤلاء وحسداً لهم. وللسنا ننكر أنه كان من بين حكام الأقاليم طائفة من الكفاة الأشراف، أما كثرتهم العظمى فماذا عسى أن ينتظر منها؟ لقد كانوا يعملون بلا أجور، وكانت العادة المألوفة أن يظفوا في مناصبهم عاماً واحداً، وكان عليهم في خلال هذه الفترة القصيرة أن

يجمعوا من المال ما يكفي للوفاء بديونهم، وابتياح منصب جديد، وأن يضمّنوا لأنفسهم فيما بعد عيشاً رغداً يليق بالروماني العظيم. ولم يكن في البلاد

صفحة رقم : 3088

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> الحكومة

من يحول بينهم وبين أطماعهم إلا مجلس الشيوخ، وكان في وسع الحكام أن يثقوا بأن الشيوخ وهم سادة مهذبون يمنعهم كرم محتدهم أن يكونوا سبباً في لفظ غير محبوب لأنهم كلهم قد فعلوا مثل ما فعله هؤلاء الحكام، أو يرجعون أن يفعلوا مثله بعد قليل. ولنضرب لذلك مثلاً يوليوس قيصر نفسه، فقد ذهب ليحكم أسبانيا في عان 61 ق.م وعليه من الديون ما يعادل 7.500.000 ريال أمريكي. فلما عاد في عام 60 ق.م وفي بهذا الدين كله دفعة واحدة. وكان شيشرون يظن أنه رجل شريف متمت في شرفه إلى حد يؤلمه أشد الألم، لأنه لم يجمع في السنة التي ولى فيها حكم قليقية أكثر من 110.000 ريال أمريكي، وكان يملأ رسائله بالدهشة من اعتداله.

وكان القواد الذين يفتحون الولايات أول من يستفيد منها. فقد كان لوكلس يعد حروبه في الشرق مضرب المثل في الترف؛ وجاء بمبي من تلك البلاد نفسها بما قيمته أحد عشر مليون ريال أمريكي لنفسه ولأصدقائه، وإذا قلنا إن قيصر جمع لنفسه من بلاد الغالة ملايين يخطئها الحصر فإن قولنا هذا لا يعدو الحقيقة إلى المجاز. ويلي هؤلاء الحكام في ابتزاز المال الملتزمون وكانوا يجمعون من الأهلين ضعفي ما يرسلونه إلى رومه. فإذا عجزت مدينة أو ولاية عن أن تجمع من سكانها ما يكفي من المال لأداء ما يجب عليها أن تؤديه من الخراج أو الضرائب أقرضها المليون أو الساسة الرومان ما تحتاجه من المال بفائدة تتراوح بين أثنى عشر وأربعين في المائة، على أن يجمع منها رأس المال وفائدته، إذا لزم الأمر، الجيش الروماني نفسه بحصارها أو فتحها أو نهبها. وقد حرم مجلس الشيوخ على أعضائه أن يشتركوا في هذه القروض، ولكن عظماء الأشراف أمثال بمبي، والصالحين منهم أمثال بروتس، لم يعدموا وسيلة للاحتيال على القانون باستخدام الوسطاء في إقراض المال. وحسبنا دليلاً على ما وصلت إليه هذه الحال أن أقاليم آسيا

صفحة رقم : 3089

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> الحكومة

الرومانية قد أدت إلى الرومان فواند على ما اقترضته منهم ضعفي ما أدته إلى الملتزمين والى الخزائنة الرومانية(11). وفي عام 70 ق.م بلغ ما أدته وما لم تؤده مدن آسيا الصغرى من فواند على الأموال التي اقترضتها للوفاء بمطالب صلا في عام 84 سنة أضعاف هذه القروض. ولم تجد العشائر والجماعات وسيلة لأداء أرباح هذه الدين الفادح إلا أن تبيع أبنيتها العامة وتمثيلها، وأن يبيع الأباء أطفالهم في أسواق الرقيق، وذلك لأن المدين الذي يعجز عن أداء دينه كان يعذب على العذراء، فإذا ما بقي في الولاية شيء من موارد الثروة بعد هذا كله هرعت إليها

من إيطاليا وسوريا وبلاد اليونان جماعات من المقاولين، تعاهد معهم مجلس الشيوخ على "تنمية" ثروة الولاية المعدنية والخشبية وغيرهما. وكانت التجارة تسير على الدوام في ركاب العلم الروماني، فمن التجار من كانوا يشترون الأرقاء، ومنهم من كانوا يشترون السلع أو يبيعونها، ومنهم من كانوا يشترون الأرض وينشئون في الأقاليم ضياعاً أوسع رقعة من ضياع إيطاليا. وفي ذلك الوقت يقول شيشرون في عام 69 ق.م. مبالغاً في قوله كعادته: "إلا يستطيع رجل من الغالبيين أن يقوم بعمل تجاري إلا عن طريق مواطن روماني؛ ولا ينتقل درهم واحد من يد إلى يد دون أن يمر بسجل أحد الرومان". وقصارى القول أن التاريخ القديم لم يشهد في جميع أدواره حكومة تضارع حكومة ذلك العهد في ثرائها وسطوتها وفسادها.

صفحة رقم : 3090

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأليجركية -> أصحاب الملايين

الفصل الثاني

أصحاب الملايين

ورضى رجال الأعمال بحكم مجلس الشيوخ لأنهم كانوا أكثر من الأشراف استعداداً لاستغلال موارد الولايات، وبهذا تم "انتلاف الطبقات" أو تعاون الطبقتين العاليتين وهو المثل الأعلى الذي كان ينادي به شيشرون والذي أصبح حقيقة واقعة في شبابه؛ فقد اتفقت الطبقتان على الاتحاد والغزو. وكان رجال الأعمال ووكلائهم المعتدون يملأون أروقة رومه وطرقاتها، وتغص بهم أسواق الولايات وحوجزها. وكان رجال المصارف يصدرن خطابات الاعتماد إلى الهيئات المالية المرتبطة بهم(13)، ويقرضون المال لكل غرض من الأغراض حتى لخوض غمار الحياة السياسية. وكان التجار يندبذبون بين العامة والأشراف فيعينون بنفوذهم الأولين إذا زادت أنانية الشيوخ، ثم يعودون إذا حاول الزعماء الديمقراطيون أن يبروا بعودهم التي قطعوها للطبقات الفقيرة قبل الانتخاب. ويعد كراسس Crassus، وأنكس Atticus ولوكس Lucullus نماذج صادقة لمظاهر الثراء الروماني الثلاثة: الحصول عليه، والمضاربة به، ثم استخدامه للترنم والترف. كان ماركس ليسينيوس كراسس Marcus Licinius Crassus ينحدر من أسرة شريفة. فقد كان أبوه خطيباً مصقلاً ذائع الصيت، وفتناً، ورفيقاً، حارب إلى جانب صلا ثم فضل الانتحار على التسليم لماريوس. وكافاً صلا ابنه بأن سمح له بشراء أملاك المحكوم عليهم المصادرة بطريق المساومة. وكان ماركس في شبابه قد درس الأدب والفلسفة، واشتغل بجد في الأعمال القضائية، ولكن رائحة المال أسكرته في تلك الأيام الأخيرة، فأنشأ فرقة لإطفاء الحريق. وكان ذلك عملاً جديداً لم تألفه رومه من قبل.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> أصحاب الملايين

وكانت إذا شبت النار سارعت إلى مكانها، وعرضت أن تُستأجر لإطفائها، أو ابتاعت المباني المعرضة لخطر الحريق بأثمان اسمية، ثم أطفأت الحريق. وحصل كراسس بهذه الطريقة على مئات من البيوت والمساكن كان يؤجرها بأجور مرتفعة. واشترى كذلك عدداً من مناجم الدولة حين أخرجها صلا عن نطاق الأملاك العامة. وما لبثت ثروته أن ارتفعت بهذه الطريقة من سبعة ملايين سسترس إلى مائة وسبعين مليوناً (أي نحو ثروته 25.500.000 ريال أمريكي). أو ما يقرب من جميع دخل الخزنة العامة في عام كامل. ويقول كراسس إنه لا يحق لإنسان ما أن يعد نفسه غنياً إذا لم يكن في مقدوره أن يجند لنفسه جيشاً، ويعد له كل ما يلزمه من سلاح وعتاد، ويحتفظ به (14). وقد شاءت الأقدار أن يكون هلاكه بسبب ثرائه الذي يحدده هذا التحديد. ذلك أنه أن أصبح أغنى رجل في رومه ظل حليف الشقاء، شديد الرغبة في أن يشغل منصباً عاماً، وأن يكون والياً على أحد الأقاليم، وقائداً لحملة أسبوية. ومن أجل ذلك كان يطوف الشوارع يستجدي الناس أصواتهم في ذلة وخضوع، ويحتفظ بالأسماء الأولى لعدد لا حصر له من المواطنين، ويتظاهر بشطف العيش، ويعمل على ضم ذوي النفوذ من رجال السياسة إليه بإقراضهم المال من غير فائدة على شرط أن يؤديه له متى طالبهم بأدائه. على أنه رغم حرصه وطمعه كان طيب القلب، لا يصد عن بابه من يريد لقاءه، يكرم أصدقاءه إلى أقصى حدود الكرم، يسدي النصيحة لكلا الحزبين السياسيين بالحكمة التي امتاز بها أمثاله من الرجال على مدى الأيام. وقد حقق في حياته كل آماله، فاختر قنصلاً في عام 70 ق.م، واختير إلى هذا المنصب مرة أخرى في عام 55، وحكم سوريا، وأعان على تجيش الجيش العظيم الذي قاده لفتح بارتيا Parthia. وهُزم في كارهي Carrhae وأسر غدرًا وخيانة، ثم قتل قتلة وحشية في عام 53، فقطع رأسه، وصب أعداؤه الذهب المصهور في فمه.

وكان تيتس بمبونيوس أتكس Titus Pomponius atticus أصدق

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> أصحاب الملايين

أرستقراطية من كراسس، ومن طراز من أصحاب الملايين أسمى من طرازه: فقد كان يضارع في الشرف والأمانة ماير أنشل سلسل آل رتشيلد Meyer Anschel of the rot Schil، ولا يقل علماً عن لورنزوده مديشي Lorenzo de Medici وكان حادثاً في الشؤون المالية حذق فلتير Voltaire. ونحن نسمع به في بادئ الأمر وهو يطلب العلم في أثينا حين سحر بحديثه وبقراءته للشعر اليوناني واللاتيني لب صلا، فألح عليه هذا القائد السفاح أن يعود معه إلى رومه ليكون فيها رفيقاً له، فأبى تيتس أن يستجيب لإلحاحه. وكان عالماً ومؤرخاً، كتب تاريخاً موجزاً للعالم (15)، وعاش معظم حياته في الأوساط الفلسفية في أثينا، وسمى أتكس لعلمه الغزير ببلاد أتكا وحبه العظيم لأهلها. وورث الرجل عن أبيه وعمله أموالاً تبلغ قيمتها نحو 960.000 ريال أمريكي استثمرها في مزرعة عظيمة لتربية الماشية في إبيروس Epirus وفي شراء الدور في رومه وتأجيرها، وفي تدريب المصارعين وأمناء السر وتأجيرهم، وفي نشر الكتب. وكان إذا تهيأت أسباب المشروعات النافعة أقرض المال بفوائد مجزية، ولكنه كان يقرض أثينا وأصدقاءه

قرضاً حسناً من غير فائدة (16). وكان شيشرون وهورتنسيوس Hortensius وكاتو الأصغر يودعون عنده ما أخره من المال، ويعهدون إليه تدبير شؤونهم، ويجلون له لبعده نظره واستقامته وعظم ما يؤديه إليهم من الأرباح. وكان يسر شيشرون أن يستشير ه فيما يتنازع من البيوت، وفيما يختاره لتزيينها من التماثيل، وفيما يملأ به من مكتباته من الكتب. وكان أتكس يولم الولايم في قصد واعتدال، ويعيش في تواضع الأبيقوري الحق، ولكن بشاشته لأصدقائه وحديثه المطرب المنقف جعلاً بيته ملتقى العظماء من رجال السياسة. وكان يعاون الأحزاب جميعها، وقد نجا من اضطهادها جميعاً، ولما بلغ السابعة والسبعين من عمره، وأصيب بدء عضال ألمه وبس من شفائه منه أمات نفسه جوعاً.

وأجر لوسيوس لوسينيوس لوكلس Lucius Lucinius Lueullus وهو

صفحة رقم : 3093

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> أصحاب الملايين

رجل من أسرة من كيريات الأسر الشريفة، عام 74 ليتم ما بدأه صلا من حرب مثر داتس. وظل ثماني سنين يقود جنوده القلائل في شجاعة ومهارة حتى أوشكت حملته أن تظفر بالنصر المؤزر على عدوه؛ ثم تمرد جنوده المتعبون، فقادهم هو وهم مرتدون من أرمينيا إلى أيونيه وسط مخاطر لا تقل عن المخاطر التي خلدت اسم زينوفون Zenophon. ولما أفلحت الدسائس في إبعاده عن قيادة الجيش، عاد إلى رومه حيث ضي بقية حياته في هدوء وترف ونعيم. وشاد على تل بنسيوس Pincius قصراً واسع الأبهاء، وبوائك، ودور كتب، وحدائق. وكان له في تسكولم Tusculum ضيعة تمتد عدة أميال، وابتاع له في ميسينيوم قصراً صغيراً ذا حديقة بعشرة ملايين سسترس (أي نحو مليون ونصف مليون ريال أمريكي)، وحول جزيرة نسيدا Nesida بأكملها إلى مصيف له لا يشاركه فيه سواه. وذاعت شهرة حدائقه بما حوت من غروس لم يكن لها نظير من قبل في رومه. من ذلك أنه هو الذي أدخل شجرة الكرز إلى إيطاليا من بلاد بننس، ومن إيطاليا نقلت هذه الشجرة إلى شمالي أوربا وإلى أمريكا. وكانت موائده من الحادثات الهامة التي يتناقل الناس أخبارها في رومه طوال العام. ولقد حاول شيشرون في يوم من الأيام هو وجماعة من أصدقائه ليتعشى معه ذات ليلة، ولكنه استحل لوكلس ألا يخبر بذلك أحداً من خدمه. ووافق لوكلس على هذا ولم يشترط إلا أن يسمح له بأن يخبر رجاله بأنه سيتعشى في "قاعة أبلون تلك الليلة".

ولما أقبل شيشرون ومن معه وجدوا مائدة فخمة. ذلك أنه كان للوكلس عدة حجرات للطعام في قصره بالمدينة يختار كل واحدة منها حسب فخامة الوليمة. وكانت قاعة أبلون مخصصة بالوجبات التي تتكلف الواحدة

صفحة رقم : 3094

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> أصحاب الملايين

منها مانتى ألف سسترس أو أكثر (17). ولكن لوكلس لم يكن بالرجل النهم، وكانت بيوته بمثابة معارض لروائع الفن المختارة أحسن اختيار، وكانت مكتباته مورداً عذبا للعلماء والأصدقاء، وكان هو نفسه ضليعا في الآداب القديمة وفي الفلسفة على اختلاف أنواعها. وكان يفضل منها بطبيعة الحال فلسفة أبيقور. وكان يسخر من حياة بمبي الشاقة المجردة، ويرى أن حسب المرء طول حياته حملة حربية واحدة، وأن كل ما زاد على ذلك غرور لا خير فيه. وحذا حذوه كثيرون من أثرياء رومه وإن لم يكن لهم ذوقه، وسرعان ما أخذ الأشراف والأثرياء يتنافسون في مظاهر الترف والنعيم، على حين كان وميض نار الثورة يلوح في الولايات المفلسة، والناس يموتون جوعاً في أكوأهم القدرة الحقيرة. وكان الشيوخ لا يستيقظون من نومهم إلا وقت الظهيرة، وقلما كانوا يحضرون جلسات المجلس. وكان بعض أبنائهم يتزينون بأزياء العاهرات، ويختالون في الطرقات كاختيالهين، على أجسامهم ثياب مطرزة مزركشة، وفي أرجلهم صنادل النساء، متعطين متحلين بالجواهر، لا يقبلون على الزواج، وإذا تزوجوا عملوا على ألا يكون لهم أبناء، وينافسون شبان اليونان في التخنث. وكان الشيخ الواحد في رومه ينفق على بيته ما لا يقل عن عشرة ملايين سسترس. وقد بنى كلوديوس زعيم العامة قصراً كلفه 14.800.000. وكان المحامون أمثال شيشرون وهورتنسيوس Hortensius يتنافسون في تشييد القصور تنافسهم في الخطابة رغم قانون سنسيوس الذي يحرم الأجور القضائية. وكانت حدائق هورتنسيوس تحوي أكبر مجموعة من الحيوانات في إيطاليا كلها. وكان لكل رجل ذي مقام منزل ذو حديقة في بايا Baiae أو بالقرب منها، حيث كان الأشراف يتمتعون بحمامات البحر وجمال خليج نابلي،

صفحة رقم : 3095

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> أصحاب الملايين

ويطلقون لشهواتهم الجنسية العنان. وقامت قصور أخرى من نوعها على التلال المجاورة لرومه. وكان لكل ثري عدد من هذه القصور، فكان ينتقل من قصر إلى قصر في فصول السنة المختلفة. وكانت الأموال تنفق جزافاً في تزيينها من الداخل، وفي تأثيثها وشراء ما يلزمها وما لا يلزمها من الصحاف الفضية، وحسبنا أن نذكر أن شيشرون أنفق خمسمائة ألف سسترس على نضد من خشب الليمون. ولم يكن غريباً أن ينفق أمثاله مليون سسترس على نضد آخر من خشب السرو، ولقد قيل إن كاتو الأصغر، وهو الذي كان مضرب المثل في الفضائل الرواقية بأجمعها، قد ابتاع من مدينة بابل أغطية خوان بثمانمائة ألف سسترس (18). وكان يقوم بالخدمة في هذه القصور جيوش من الأرقاء أخصائيون في أعمالهم المختلفة. منهم خدم حجرة السيد نفسه، ومنهم حاملو رسائله، وموقد ومصابيح، وموسيقيوه، وأمناء سره، وأطبائه، وفلاسفته، وطهاته. وأصبح الأكل وقتنذ أهم أعمال الطبقات العليا في رومه. وكان القانون الأخلاقي عندهم وهو قانون كتردورس القائل بأن: "الشيء الطيب هو ما له صلة بالبطن". وحسبنا دلالة على فهم أهل ذلك العصر وتقنهم في ملء بطونهم أن نذكر أن وليمة أقامها كاهن كبير في عام 63 ق.م وحضرها خليط من الجنسين منهم قيصر وغازى فستا، كانت المشهيات فيها بلح البحر، وطيور الدج بالخنجل (الأسفراغ) والطيور السمينة، وفتائر البطليونس، وحشيشة القريض البحرية، وشرائح البطارخ والسمك الصدفى الأحمر، والطيور المغردة؛ ثم يجيء بعد هذا الطعام نفسه ويتكون من أنداء الخنازير، ورؤوسها، السمك، والبط المنزلي والبري، والأرناب، والدجاج، والفتائر والحلوى (19). وكانت الأطعمة الشهية النادرة تستورد من جميع أجزاء الإمبراطورية ومن البلاد الخارجية، فالطواويس تستورد

صفحة رقم : 3096

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> أصحاب الملايين

من جزيرة ساموس Samos، والقطا من فريجيا. والكركي من أبونيا، والتن (التونة) من خلدونية Chalcedon والشيق من جاديز Gades، والبطلينوس من تارنتم Tarentum والدخس من رودس. وكانت الأطعمة التي تنتجها إيطاليا نفسها تعد حقيرة بعض الشيء لا تليق إلا بالسوقة. وقد أولم الممثل أيزوبس Aesopus وليمة أكل فيها من الطيور المغردة ما ثمنه خمسة آلاف ريال أمريكي بنقود هذه الأيام (20). وظلت القوانين تصدر بتحريم الإسراف في الطعام، ولكن أحداً لم يكن يأبه بها. وحاول شيشرون أن يتقيد بهذه القوانين فلا يأكل إلا لاخضر المباحة شرعاً، وظل عشرة أيام يشكو زحار البطن".

وأنفقت بعض الثروة الجديدة في إقامة الملاهي الرحبة والألعاب على أوسع نطاق. من ذلك أن إيميلوس اسكورس Aemilius Scaurus شاد ملهى يحتوي ثمانية آلاف مقعد، وثلاثمائة وستين عموداً، وثلاثة آلاف تمثال، ومسرحاً ذا ثلاث طبقات وثلاثة صفوف من الأعمدة منها صف من الخشب، وصف من الرخام، وثالث من الزجاج. وتمرد عبيده لشدة ما أرهقهم من العمل فحرقوا الملهى بعد الفراغ من بنائه، وحملوه ديناً يبلغ مائة مليون ستترس (23). وقدم بمبي في عام 55 ما يلزم من المال لإقامة أول ملهى حجري دائم في رومه- وكان يحتوي على 17.500 مقعد، وعلى بستان فسيح ذي أروقة ينتزه فيها النظارة بين الفصول. وأقام اسكربونيوس كوريو Scribonius Curio أحد قواد قيصر عام 53 ملهيين من الخشب كلاهما على شكل نصف دائرة يتصلان بظهريهما. وكان الملهيان يعرضان مسرحيات في الصباح، فإذا انتهى دار البناءان، والنظارة لا يزالون في مقاعدهم، على قطبيهما فاستحال نصفاً الدائرتين مدرجاً،

صفحة رقم : 3097

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> أصحاب الملايين

وأضحى المسرحان حلبة للمصارعة (24). ولم تبلغ الألعاب في بلد من البلاد أو في عصر من العصور من الكثرة وعظيم النفقة وطول الزمن مثل ما بلغت وقتئذ في رومه (25). وحسبنا دليلاً على ذلك أن ألعاباً أقامها قيصر اشترك فيها يوم واحد عشرة آلاف مجالد، وقتل فيها الكثيرون منهم. وعرض صلاً قتالاً للأسود اشترك فيه مائة أسد، وعرض قيصر قتالاً آخر كان فيه أربعمائة، وعرض بمبي قتالاً كان فيه ستمائة. وكانت الوحوش في هذه الألعاب تقاتل الرجال والرجال يقاتل بعضهم بعضاً، والنظارة الذين تغص بهم الساحات يشاهدون مناظر الموت وهم مغتبطون.

صفحة رقم : 3098

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> المرأة الجديدة

الفصل الثالث

المرأة الجديدة

كان ازدياد الثراء وفساد الأخلاق من أكبر العوامل في الانحلال الخلقي وانفصام رابطة الزواج. وظلت الدعارة منتشرة في البلاد رغم ازدياد التنافس من النساء ومن الرجال. وازداد عدد المواخير والحانات التي تأوي هؤلاء العاهرات زيادة جعلت بعض الساسة يلجئون في الحصول على أصوات الناخبين إلى اتحاد أصحاب المواخير (35). واصبح الزنى من الأمور العادية، وألفه الناس حتى لم يعد يستلقت أنظار إنسان ما غلا إذا استخدم للأغراض السياسية. ولم يكن ثمة امرأة موسرة إلا طلقت مرة على الأقل. ولم يكن اللوم في ذلك واقعاً على النساء، فقد كان أكبر أسباب انتشار الطلاق أن الزواج عند الطبقات العليا أصبح خاضعاً لمال والسياسة. ذلك أن الرجال كانوا يختارون أزواجهم أو كانت الأزواج يخترن للشبان ليحصلوا منهن على أكبر البائنات أو على صلات يفيدون منها جاهاً ومالاً. وقد تزوج صلا وبمبي خمس مرات. وأراد صلا أن يضم بمبي إلى جانبه فأقنعه بالتخلص من زوجته الأولى والافتتان بإميليا ربيبة صلا، وكانت وقتئذ متزوجة وحاملاً. ووافقت إميليا على هذا الزواج مكرهة ولكنها ماتت في أثناء الوضع عقب انتقالها إلى بيت بمبي. وزوج قيصر ابنته يوليا Julia إلى بمبي ليضمن بذلك انضمامه إليه في الحلف الثلاثي. وأغضبت كاتو هذه الحال فوصفها بقوله "عن الإمبراطورية أصبحت توكيلاً لإدارة شؤون الزواج" (25). ولم تكن هذه الزيجات إلا زيجات سياسية، إذا تم النفع المرجو منها تطلع الزوج إلى زوجة أخرى يرقى على كتفيها إلى منصب أعلى أو مال أوفر. ولم يكن ثمة حاجة إلى سبب يديده، وحسبه أن يرسل غليها خطاباً يبلغها فيه أنها أصبحت حرة في شؤونها كما أصبح

صفحة رقم : 3099

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> المرأة الجديدة

هو حراً في شؤونه. وامتتع بعض الرجال عن الزواج امتناعاً تاماً، وكانت حجتهم في هذا أن المرأة الجديدة قد ذهب حياؤها وأسرفت في حريتها، واكتفى كثيرون منهم باتخاذ السراري والإماء. وكان الرقيب مثلث المقدوني Metellus (131Macedonicus) يرجو الرجال أن يتزوجوا وينجبوا البناء لأن هذا واجب تفرضه عليهم الدولة مهما ضاقت نفوسهم بالزوجات (26)، ولكن عدد الأعزاب والزيجات العقيمة أخذ بعد هذا النصح يزداد أسرع قبلة، وأصبح الأطفال من الكماليات التي لا يطيقها إلا الفقراء.

وهل تلام المرأة وهي تعيش في هذه الظروف إذا استخفت بقسم الزواج ووجدت في الصلات الجنسية غير المشروعة الحب والعطف اللذين لم ينلها إياهما الزواج السياسي. لقد كانت هناك بطبيعة الحال كثرة من النساء الصالحات حتى بين الأغنياء أنفسهم، ولكن الحرية الجديدة أخذت تحطم ما كان للأب من سيطرة تامة على أسرته *Patria Potestas* كما أخذت تحطم كيان الأسرة بأكمله. وخلصت النساء الرومانيات العذار، وكان لهن من الحرية مثل ما للرجال سواء بسواء، واتخذن لهن أثواباً من الحرير المهلل الشفاف المستورد من الهند والصين، وأرسلن رسلهن يجوبون أسواق آسيا ليأتوهن بالحلي والعطور، واختفى الزواج الذي يتبعه انتقال الزوجة إلى دار زوجها *Marriahe cum manu*، وكانت النساء يطلقن أزواجهن كما يطلق الرجال زوجاتهم. وأخذت طائفة متزايدة من النساء تنفس عن نفسها بالأعمال الثقافية، فتعلمن اللغة اليونانية، ودرسن الفلسفة، وكتبن الشعر، وألقين المحاضرات العامة، ولعين وغنين ورقصن، وأقمن الندوات الأدبية واشتغل بعضهن بالتجارة والشؤون المالية، ومارست فئة منهن صناعة الطب أو الحمامة. وكانت كلوديا *Clodia* زوج كونتس كاسيليوس مثلث *Quintus Caecilius Metellus* أشهر النساء اللاتي أكملن ما في أزواجهن من نقص بالقيام بطائفة

صفحة رقم : 3100

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> المرأة الجديدة

من أعمال الفروسية والشهامة، فقد تمتلكها نزعة قوية للدفاع عن حقوق النساء، وهزت مشاعر الجيل القديم بسيرها بعد زواجها مع أصدقائها الرجال دون أن يكون معها محرّم، وكانت تستقبل تعرف من أصدقائها وتقبلهم أحياناً على ملأ من الناس، بدل أن تغض الطرف وتنزوي في عربتها شأن النساء الراقيات في عرف تلك الأيام. وكانت تولم الولايم لأصدقائها من الرجال، وكان زوجها يعتمد الغياب في أثنائها كما كان يفعل بعدنذ ماركيث ده شاتليه *Marquis ds chatelet*. ويصف شيشرون - وهو الرجل الذي لا يوثق بوصفه - "حبها، وزناها، وعهرها، وأغانيها، وما كانت تقيمه من حفلات موسيقية وولائم الطعام، ومقاصف الشراب في بايا *Baiae* براً وبحراً" (37). وكانت في الحق امرأة ماهرة إذا زلت في ظرف وكياسة، يعجز الإنسان عن ألا يزل معها، ولكنها أخطأت في الاستخفاف بأنانية الرجال. لقد كان كل واحد من عشاقها يحب أن يستأثر بها حتى تقتر شهوته، كما كان كل واحد منهم يصبح عدوها الألد حين تتخذ لها صديقاً غيره. ومن أجل ذلك لطحها كتلس *Cutullus* (إذا كانت هي التي يسميها لزيبيا *Lesbia*) بالنكات البذيئة، وذكرها كاليوس *Caelius* في حديث له عن الذي ثبتت به أفقر العاهرات، ووصفها كاليوس في المحكمة بأنها ثبتت ببيع أس *Quadrantaria* (أي ما يعادل 1.5 من الريال الأمريكي). ذلك بأنها كانت قد اتهمت بأنه حاول قتلها بالسم، واستأجر هو شيشرون للدفاع عنه، ولم يتورع الخطيب المدره عن اتهامه بالفسق مع محارمها وبالقتل، وقال في خلال دفاعه إنه رغم هذا "ليس عدواً للنساء وأولى له ألا يكون عدواً لامرأة هي صديقة لكل الرجال". وبرئ كتلس مما اتهم به وجوزيت كلوديا بعض الجزاء لأنها أخت بيليوس كلوديوس أشد الزعماء تطرفاً في رومه وألد أعداء شيشرون.

صفحة رقم : 3101

الفصل الرابع

كاتوثان

وقام في وسط هذا الفساد والانحلال رجل كان بقية من رجال الأيام الخالية وداعية للسير على سننها. ذلك هو ماركس بورسيوس كاتو Marcus Porcius Cato الأصغر. وكان قد خرج على مبدأ من مبادئ جده الأعلى فدرس اللاتينية وأفاد منها تلك الفلسفة الرواقية التي بعثت فيه مع عقيدته الجمهورية إخلاصه القوي الذي لم يفارقه قط طول حياته. وورث كاتو من المال مائة وعشرين تالنتا (أي ما يعادل 432.000 ريال أمريكي) ولكنه عاش عيشة بسيطة كلها جد ونشاط، وكان يفرض المال ولكنه لا يتقاضى عن قرضه فوائد. وكانت تعوزه فكاهة جده الأعلى الخشنة، وقد أزعج الناس بما كان يتصف به في ظنهم من الاستقامة الصارمة العنيدة والاستمساك بالمبادئ استمساكاً لا يتفق في رأيهم مع روح العصر الذي يعيش فيه، ذلك أن حياته نفسها كانت اتهاماً لحياتهم لا يغفرونه له، وكانوا يتمنون أن لو مال قليلاً نحو الرذيلة، ولو لم يكن هذا إلا احتراماً لعادات بني الإنسان وتأدياً في حقهم. وما من شك في أنهم قد ابتهجوا حين فعل كاتو فعلة تكاد تتم عن سخريته بالمرأة واعتقاده أنها ليست إلا أداة للتنازل "فأعار" زوجته كارسيلييا إلى صديقه هورتلسيوس Hortensius -أي طلقها وحضر زواجها الذائع الصيت- ولما مات هورتلسيوس بعدد أعادها إلى عصمته (28). ولم يكن في وسع معاصريه أن يحبوه لأنه كان ألد أعداء الخيانة والسفالة. وأشد المدافعين عن حقوق الأبناء على أبائهم وأسرهم. وكان نقده لأخلاق ذلك العصر أقسى وأشد صرامة من نقد الرقيب كاتو الأكبر نفسه. ولما كان يضحك أو يبتسم، ولم يحاول

صفحة رقم : 3102

قط أن يكون لطيفاً بشوشاً، وكان يؤنب كل من تملقه أشد التأنيب. وقد قال شيشرون إنه أخفق في أن ينتخب قنصلاً لأنه كان يحيا حياة مواطن في جمهورية أفلاطون لا حياة روماني بين حثالة أبناء رميولوس" (29). ولما عين كوسترا كان سوط عذاب يصب على العجز وعلى استغلال سلطان الوظيفة، وحفظ أموال الخزانة العامة من جميع الغارات السياسية، ولم تضعف يقظته وحرصه على هذه الخزانة بعد أن انقضت فترة توليه منصبه. وكان يصب تهمه على جميع الأحزاب على حد سواء، وقد أفاد من هذه التهم آلاف المعجبيين ولكنها لم تترك له صديقاً واحداً. ولما كان بريئاً أفتع مجلس الشيوخ بأن يصدر قراراً بأن يأمر كل مرشح للقنصلية بياناً مفصلاً بما أنفقه أثناء الحملة الانتخابية، وما اتبعه فيها من الوسائل، وأزعج هذا القرار كثيراً من السياسيين لأن الكثرة الغالبة منهم كانت تعتمد في انتخابها على الرشا، فلما أن ظهر كاتو بعدد في السوق العامة أخذوا هم ومواليهم يسبونهم ويرمونهم

بالحجارة، فلم يكن منه إلا أن اعتلى المنصة وواجه المجتمعين وهو ثابت الجنان، وما زال يخطب فيهم حتى خضعوا له. ولما اختير تربيوناً سار على رأس جيش إلى مقدونية، وامتطى خدمه وأتباعه الجياد، أما هو فسار راجلاً. وكان يهزأ برجال الأعمال ويدافع عن الأرستقراطية أو حكم أبناء الأسر الشريفة، ويرى انه إن لم يحكم البلاد هؤلاء الأشراف فلا من مفر من أن يحكمها ذوو الثراء، وهذا شر أياها شر. وشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الذين كانوا يفسدون السياسة الرومانية بالمال والأخلاق الرومانية بالترف، وظل إلى آخر أيام حياته يقاوم يخطوها بمبي أو قيصر نحو الطغيان الفردي. ولما أن قضي قيصر على الجمهورية تخلص كاتو من حياته بيده والى جانبه كتاب من كتب الفلسفة.

صفحة رقم : 3103

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> اسبار تكوس

الفصل الخامس

اسبار تكوس

ووصل سوء الحكم وقتئذ إلى غايته كما تأصلت الديمقراطية فيه بدرجة قلما نجد لها نظيراً في تاريخ الدول. وحدث في عام 98 ق.م أن أعاد القائد الروماني ديدوس Didius ما فعله من قبله سلبسيوس جلبا Swpicius Galba فقد خدع قبيلة كاملة من الأسبان المشاغبيين حتى استدرجهم إلى معسكر روماني في أسبانيا مدعياً أنه يريد أن يسجل أسماءهم ليوزع الأرض الزراعية عليهم، فلما دخلوا المعسكر هم وأزواجهم وأبنائهم أمر بهم فذبحوا عن آخرهم، ولما عاد إلى رومه احتفل بعودته احتفال الظافرين(30). ولم يطق هذه الفظائع وأمثالها من ضروب الوحشية التي كان يفتقرها رجال الإمبراطورية ضابط سيبني في الجيش الروماني يدعى كوننس سرتوريوس Quintus Sertorius فذهب الأسبان، ونظم صفوفها ودرّبهم على القتال وقادهم من نصر إلى نصر على الجيوش الرومانية التي سيرت لإخضاعهم، وظل ثماني سنين (80-72) يحكم مملكة ثائرة خارجة على حكم الرومان، كسب في خلافها قلوب الأسبان بحكمه العادل وبإنشاء المدارس لتعليم أبنائهم. وعرض منس القائد الروماني مائة تالنت أي ما يقارب من 360.000 ريال أمريكي، وعشرين ألف فدان من الأرض مكافأة لأي روماني يقتل سرتوريوس، وكان لهذا العرض السخي أثره فدعاه برنا Perpenna، وهو لاجئ روماني في معسكره، إلى وليمة، واغتاله، وتولى قيادة الجيش الذي دربه سرتوريوس. وأرسل بمبي لقتال برنا ولم يلق صعوبة ما في التغلب عليه. وأسر برنا وأعدم وعاد الرومان إلى استغلال أسبانيا من جديد.

وكان العمل الثاني من أعمال الثورة من فعل الأرقاء لا من فعل الأحرار.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> اسبارتكوس

ذلك أن لنتولس بتياتس Ientulus Batiates قد أنشأ في كبوا مدرسة للمصارعين، رجالها من الأرقاء أو المجرمين المحكوم عليهم، ودرّبهم على صراع الحيوانات أو صراع بعضهم بعضاً، في حلبة الصراع العامة أو في البيوت الخاصة. ولم يكن ينتهي الصراع حتى يقتل المصارع. وحاول مائتان من هؤلاء المصارعين أن يفروا، ونجح منهم ثمانية وسبعون، وتسلموا واحتلوا أحد سفوح بركان فيزوف، وأخذوا يغيرون على المدن المجاورة طلباً للطعام (37). واختاروا لهم قائداً من أهل تراقية يدعى اسبارتكوس Spartacus ويقول فيه أفلوطرخس إنه "لم يكن رجلاً شهماً وشجاعاً وحسب، بل كان إلى ذلك يفوق الوضع الذي كان فيه ذكاء في العقل ودمائة الأخلاق" (31). وأصدر هذا القائد نداء إلى الأرقاء في إيطاليا يدعوهم إلى الثورة، وسرعان ما التف حوله سبعون ألفاً، ليس منهم إلا من هو متعطش للحرية وللانتقام. وعملهم أن يصنعوا أسلحتهم، وأن يقاتلوا في نظام أمكنهم به أن يتغلبوا على كل قوة سيرت عليهم إخضاعهم. وقذفت انتصاراته الرعب في قلوب أثرياء الرومان، وملأت قلوب الأرقاء أملاً، فهرعوا إليه يريدون الانضواء تحت لوائه، وبلغوا من الكثرة حداً اضطر معه أن يرفض قبول متطوعين جدد بعد أن بلغ عدد رجاله مائة وعشرين ألفاً لأنه لم يكن يسهل عليه أن يعنى بأمرهم. وصار بجيوشه صوب جبال الألب، وغرضه من هذا "أن يعود كل رجل إلى بيته بعد أن يجتاز هذه الجبال" (32). ولكن أتباعه لم يكونوا متشعبين مثله بهذه العواطف الرقيقة السلمية، فتمردوا على قائدهم، وأخذوا يهبون مدن إيطاليا الشمالية، ويعيثون فيها فساداً. وأرسل مجلس الشيوخ قوات كبيرة بقيادة الفنصلين لتأديب العصاة. والتقى أحد الجيشين بقوة منهم كانت قد انشقت على اسبارتكوس وأفنتها عن آخرها. وهوجم الجيش الثاني قوة العصاة الرئيسية فهزمته وبددت شمله. ثم سار اسبارتكوس بعدئذ صوب جبال الألب والتقى في أثناء سيره بجيش ثالث يقوده كاسيوس فهزمه شر هزيمة، ولكنه وجد جيوشاً

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> اسبارتكوس

رومانية أخرى تقف في وجهه وتسد عليه المسالك فولى وجهه شطر الجنوب وزحف على رومه. وكان نصف الأرقاء في إيطاليا متأهبين للثورة، ولم يكن في وسع أحد في العاصمة نفسها أن يتنبأ متى تنتشب هذه الثورة في بيته، وكانت تلك الطائفة الموسرة المترفة التي تنتمتع بكل ما في وسع الرق أن يتمتعها به، كانت تلك الطائفة كلها ترتعد فرائصها فرحاً حين تفكر في أنها ستخسر كل شيء - السيادة والملك والحياة نفسها. ونادى الشيوخ وذوو الثراء يطالبون بقائد قدير، ولكن أحداً لم يتقدم للاضطلاع بهذه القيادة، فقد كان القواد كلهم يخافون هذا العدو الجديد العجيب، ثم تقدم كراسس crassus آخر الأمر وتولى القيادة، وكان تحت إمرته أربعون ألفاً من الجنود، وتطوع كثير من الأشراف في جيشه لأنهم لم ينسوا كلهم تقاليد الطبقة التي ينتمون إليها ولم يكن يخفي على اسبارتكوس أنه يقاتل إمبراطورية بأكملها، وأن رجاله لا يستطيعون أن يصرفوا شؤون العاصمة بله الإمبراطورية نفسها إذا استولوا عليها. فلم يعرج في زحفه على رومه وواصل السير حتى بلغ ثوريي Thuriis مخترقاً إيطاليا كلها من شمالها إلى جنوبها، لعله يستطيع نقل رجاله إلى صقلية أو إلى إفريقيا. وظل سنة ثالثة يصد الهجمات التي يشنها عليه الرومان، ولكن

جنوده نفذ صبرهم وسئمو القتال، فخرجوا عليه وعصوا أو امره، وأخذوا يعيثون فساداً في المدن المجاورة. والتقى كراسس بجماعة من أولئك النهابين وقتك بهم، وكانوا اثني عشر ألفاً وثلاثمائة ظلوا يقاتلون إلى آخر رجل فيهم. وفي هذه الأثناء كان جنود بمبي قد عادوا من أسبانيا فأرسلوا لتقوية جيوش كراسس، وأيقن اسبارتكوس أن لا أمل له في الانتصار على هذه الجيوش الحرة، فانقض على جيش كراسس وألقى بنفسه في وسطه مرحباً بالموت

صفحة رقم : 3106

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> اسبارتكوس

في وسط المعركة، وقتل بيديه ضابطين من ضباط المئين، ولما أصابته طعنة ألقته على الأرض وأعجزته عن النهوض ظل يقاتل وهو راكع على ركبته إلى أن مات وتمزق جسمه لم يكن من المستطاع أن يتعرف عليه. وهلك معه معظم أتباعه. وفر بعضهم إلى الغابات، وظل الرومان يطاردونهم فيها، وصلب ستة آلاف من الأسرى في الطريق الألباوي الممتد من كبوا إلى رومه (71). وتركت أجسامهم المتعفنة على هذه الحال عدة شهور تظميناً لجميع السادة وإرهاباً لجميع العبيد.

صفحة رقم : 3107

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> بمبي

الفصل السادس

بمبي

ولما عاد كراسس وبمبي من هذه الحملة لم يسرحا جنودهما أو يجرداهم من سلاحهم عند أبواب رومه استجابة لرغبة مجلس الشيوخ وإطاعة للقانون، بل عسكرا بهم خارج أسوار المدينة، وطالبا أن يؤذن لهما بأن يرشحا نفسيهما للتصليية دون أن يدخل المدينة. وخالفا بذلك مرة أخرى كل السوابق المألوفة. وزاد بمبي على ذلك أن طلب أرضاً لجنوده وموكب نصر لنفسه. ولكن مجلس الشيوخ لم يجبه إلى طلبه، وكان يرجو أن يفرق بين القائدين ويثير كلا

منهما على الآخر. غير أن كراسس وبمبي اتفقا فيما بينهما، وعقدا حلفاً فجائياً مع الطبقات الدنيا ومع رجال الأعمال، ونجحا بفضل الرشا السخية في أن يختارا قنصلين في عام 70 ق.م وقد ناصرهما رجال الأعمال لغرضين أولهما رغبتهم في أن يستعيدوا ما كان لهم من سلطان في مناصب المحلفين الذين يحاكمونهما، وثانيهما أن يستبدلوا بلوكس Lucullus- الذي كان يحكم الشرق حكماً صالحاً لا نفع فيه لهم رجلاً من طبقتهم يعمل بمبادئهم. وقد وجدوا في بمبي ضالته المنشودة.

وكان بمبي وفتنذ في الخامسة والثلاثين من عمره ولكنه كان جندياً ضرسته الحروب وخاض معارك كثيرة. وكان من أسرة غنية من طبقة الفرسان، نال إعجاب مواطنيه لشجاعته واعتداله وحذقه كل ضروب الألعاب وفنون الحرب. وكان قد طهر صقلية وإفريقيا من أعداء صلا ولقبه الفكه بلقب "العظيم" جزاء له على زهوه وانتصاره في الحروب. وقد أحرز بعض النصر وهو شاب أمرد(33). وقد بلغ

صفحة رقم : 3108

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأليجركية -> بمبي

من الجمال حدا أنطق فلورا Flora إحدى سراري ذلك الوقت بقولها إنها لم تكن تستطيع أن تفارقه قط دون أن تعضه(34). وكان مرهف الشعور، شديد الحياء، يحمر وجهه من شدة الخجل إذا اضطر إلى خطابة في اجتماع عام، أما في الحرب فقد كان في تلك الأيام مقدماً يخوض غمارها ولا يبالي بما يتعرض له من الأخطار. ولما تقدمت به السن أثر حياؤه كما أثرت بدانته في قدرته على القيادة، وكان تردده سبباً في هزائمه. ولم يكن ألمعياً سريع الخاطر أو عميق التفكير؛ ولم يكن هو الذي يرسم الخطط التي يسير عليها، بل يضعها غيره- كان يضعها له في أول الأمر السياسيون من طبقتهم العامة ثم الأثرياء من الشيوخ. وكان ثراؤه الواسع سبباً في انتشاله من المغريات السياسية الدنيئة؛ فكان وهو في وهدة الفساد والأنانية التي يتردى فيها أهل زمانه علماً في الوطنية والاستقامة؛ ويلوح أنه كان في أعماله يستهدف الصالح العام مع صالحه الخاص. وكان أبرز عيوبه غروره وكبرياؤه، ومنشأ ذلك أن انتصاراته الأولى قد جعلته يغالي في تقدير مواهبه، وكان مما يعجب له ولا يستطيع فهمه أن تتلأأ رومه هذا التلكؤ الطويل في أن تجعله يستمتع بكل ما يستمتع به الملوك إلا الاسم وحده.

ولما تنسم صنيعة صلا منصب القنصلية أخذاً يعملان ما في وسعهما لتقويض أركان الدستور الذي وضعه ولي نعمتهما. وأراد بمبي وكراسس أن يوفيا بما عليهما من دين للعامة فأقرا مشروع قانون يهدف إلى إرجاع ما كان للثريين من سلطات، ووطدا دعائم حلفهما مع رجال الأعمال فأمر لوكس أن يخول الملتزمين الإشراف التام على جباية الضرائب في بلاد الشرق، وأيدا التشريع الذي يقضي بأن توزع مناصب المحلفين بالتساوي بين أعضاء الشيوخ وطبقتي الفرسان ورجال المال. ومضى على كراسس خمسة عشر عاماً قبل أن يلقى جزاءه- وهو أن يصب الذهب في جوفه صبا في بلاد آسيا. أما بمبي فقد نال جزاءه في عام 67 حين خولته الجمعية سلطة تكاد أن تكون مطلقة من كل قيد في

صفحة رقم : 3109

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> بمبي

تأديب قرصنة قليقية. ذلك أن جزيرة رودس قد استطاعت في الأيام السالفة أن تطهر بحر إيجه من هؤلاء القرصنة؛ فلما أن ذلت رودس وافترقت على يد رومه وديلوس لم يكن في مقدورها أن تحتفظ بالعمارة البحرية التي تمكنها من هذا العمل، ولم يكن الأشراف ملاك الأراضي المسيطرون على مجلس الشيوخ شديدي الحرص على أن تبقى مسالك التجارة البحرية آمنة من الأخطار. أما التجار والعامّة فقد تأثروا بهذه الحال أشد التأثر، فقد تعذرت التجارة أو كادت في بحر إيجه بل وفي القسم الأوسط من البحر الأبيض المتوسط، ونقص المستورد من الحبوب نقصاً سريعاً ارتفع بسببه ثمن القمح في رومه حتى بلغ عشرين سنترس لكل موديس أو نحو ثلاثة ريالات أمريكية لكل جالونين. وتباهى القرصنة بنصرهم فرفعوا على سفنهم التي تبلغ عدتها ألف سفينة الساريات المذهبة والأشرعة الأرجوانية، وجهزوها بالمجاديف المصفحة بصفائح الفضة. وقد استولوا على أربعمائة من المدن الساحلية، واحتفظوا بها، ونهبوا الهياكل في سمثريس Samothrace. وساموس Samos، وإيدورس Epidaurus، وأرجوس Argos ولوكاس Leucas وأكتوم Actium، وعمدوا إلى اختطاف الموظفين الرومان، وبلغت بهم الجرأة أن هاجموا سواحل أبوليا Apulia وإتروريا.

وأراد جابينيوس Gabinias صديق بمبي أن يعالج هذا الموقف، فتقدم بمشروع قانون يجعل له السيطرة التامة مدى ثلاثة سنوات على جميع الأساطيل الرومانية وعل جميع الأشخاص المقيمين على مدى خمسين ميلاً من شاطئ البحر الأبيض المتوسط. وعارض كل الشيوخ، ما عدا قيصر، هذا الإجراء العجيب، ولكن الجمعية أجازته في حماسة بالغة ووافقت على أن تمد بمبي بجيش مؤلف من 125.000 مقاتل وأسطول مؤلف من 500 سفينة، وأبلغت خزانة

صفحة رقم : 3110

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> بمبي

الدولة أن تضع تحت تصرفه 144.000.000 سنترس. وكان هذا المشروع في واقع الأمر سلباً للسلطة من مجلس الشيوخ، وختاماً لعودة "صلا" إلى الحكم، وإقامة لملكية مطلقة مؤقتة كانت فاتحة لملكية قيصر ومثلاً له يحتذيه. وكانت نتيجة هذا العمل مؤيدة لهذه السابقة الخطيرة، فلم يمض على تنصيب بمبي إلا يوم واحد حتى أخذ ثمن القمح في الانخفاض، وقبل أن يمضي عليه في هذا المنصب ثلاثة شهور أتم العمل الذي أنيط به - فاستولى على سفن القرصنة ومعاقلمهم وأعدم زعماءهم وإن لم يسيء استعمال السلطة غير العادية التي وضعت بين يديه. وتشجع التجار فنشطت التجارة الخارجية، ومخرت السفن عباب البحار، وتدفق على رومه سيل من الحبوب. وقبل أن يعود بمبي من قليقية صديقه منليوس Manilius على الجمعية مشروع قانون بنقل قيادة الجيوش وحكم الولايات التي كان يقودها ويحكمها لوكلس (66) إلى بمبي، وإطالة الفترة التي حددها قانون جابينيوس لسلطاته المتعددة. وعارض مجلس الشيوخ في هذا المشروع، ولكن التجار والمرابين أيدوا الاقتراح تأييداً قوياً، ذلك أنهم كانوا يؤملون أن يكون بنبي أقل لبناً من لوكلس لمدينتهم في آسيا، وأن يعيد إلى الملتزمين حق جباية الضرائب، وأنه لن يكتفي بفتح بثنيبا وبننس بل سيفتح كذلك كبدوكيا وسوريا وبلاد اليهود. وأن هذه الحقول الغنية ستنفتح أبوابها إلى التجارة والأموال الرومانية تحت حماية الجيوش الرومانية. وقام "رجل جديد" هو ماركس تليوس شيشرون Marcus Tullius Cicero كان قد اختير برييتورا في ذلك العام بمعونة رجال الأعمال فأيد "قانون منليوس، وهاجم العصبية المالية الحاكمة في مجلس الشيوخ بفصاحة وتهور لم يسمع بمثلهما في رومه من أيام أبني جراكس، وبصراحة لم تعهد قط في السياسيين". ومن أقواله في هذا الهجوم:

"إن جميع النظم الخاصة بالمال والائتمان التي تسير عليها رومه ترتبط بخراج

صفحة رقم : 3111

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> بمبي

الولايات الآسيوية ارتباطاً لا انفصام له، فإذا ما حجز هذا الخراج انهارت جميع نظم المال والائتمان في هذه البلاد.. وإذا ما خسر بعض الناس أموالهم كلها جرّوا معهم كثيرين غيرهم. فأنقذوا الدولة من هذه الكارثة... وإبدلوا في الحرب على مترداتس كل ما استطعتم من جهود حتى تحتفظوا بشرف رومه وسلامة أحلافنا، وبأثمن جزء من مواردنا، وبثروة عدد لا يحصى من المواطنين".

وأجازت الجمعية من فورها مشروع القانون، ولم يكن ذلك لأن العامة يعنون أقل عناية بأموال المالبين، بل لأنهم كان يسرهم أن يجدوا في تحويل قائد من القواد سلطات واسعة غير محدودة وسيلة لإلغاء تشريعات "صلا" والقضاء على سلطان مجلس الشيوخ عدوهم القديم.

ومن ذلك اليوم أخذ أجل الجمهورية ينصرم، وأخذت حياتها تقترب من نهايتها. ذلك أن الثورة الرومانية مستعينة بفصاحة عدوها الألد، كانت قد خطت خطوة أخرى نحو طغيان قيصر.

صفحة رقم : 3112

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> شيشرون وكاتلين

الفصل السابع

شيشرون وكاتلين

يقول أفلوطرخس إن ماركس تليوس إنما سمي شيشرون لأن أحد أجداده كانت له على أنفه ثؤلولة تشبه الحمصة الجبلية (cicer). ولكن أرجح من هذا التعليل أن آباءه قد اكتسبوا هذا اللقب لما كانوا ينتجونه من حمص ذائع الصيت. ويصف شيشرون في كتاب "القوانين" وصفاً رقيقاً يخلب اللب بيته الصغير المتواضع الذي شهد مولده بالقرب من

أربينوم Arpinum في منتصف المسافة بين رومه ونابلي على التلال المتصلة بجبال أبنين Appenine. وكان مولده من الثروة ما يكفيه لأن يعلم ولده خير تعليم يستطيع أن يناله في ذلك الوقت، فاستأجر الشاعر اليوناني أركباس Archias ليُعلم ماركس الأدب واللغة اليونانية، ثم أرسله ليدرس القانون مع كونتس موسيوس أسكيفولا Quinuts Mucius Scaevola أعظم رجال القانون في عصره. وكان شيشرون يستمع في شوق وانتباه إلى المحاكمات والمناقشات التي تدور في السوق العامة، وسرعان ما أتقن الفنون والأساليب المتبعة في الخطب القانونية. وقد قال في إحدى المناسبات: "من أراد النجاح في القانون فعليه أن يتخلى عن جميع مسراته، ويتجنب كل ضروب اللهو. ويودع التسلية والألعاب والطرب، وأكد أقول إن عليه أن يقطع صلاته بأصدقائه(26)".

وسرعان ما كان هو نفسه يشتغل بالقانون ويلقى خطاباً رنانة حوت من البلاغة والشجاعة ما أكسبه شكر الطبقات الوسطى والدنيا. وقد قاضى أحد صنائع صلا وشهر بما كان يرتكبه من الاضطهاد حين كان حكم الإرهاب

صفحة رقم : 3113

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> شيشرون وكاتلين

الذي أقامه صلا على أشده (80 ق.م) (27). ثم سافر بعد قليل من ذلك الوقت إلى بلاد اليونان، ولعله سافر إليها فراراً من غضب ذلك الطاغية، وظل في تلك البلاد يدرس الفلسفة وفن الخطابة. وبعد أن قضى ثلاث سنين في أثينا هنيئاً سعيداً انتقل إلى رودس حيث استمع إلى محاضرات أبولونيوس Appollonius بن مولون Molon في البلاغة، وإلى محاضرات بوسيدونيوس Poseidonius في الفلسفة، وتعلم من أولهما تراكيب الجمل المتعاقبة وعفة اللفظ وهما الصفتان اللتان كان يمتاز بهما أسلوبه؛ وتعلم من ثانيهما تلك الرواقية المعتدلة التي نادى بها بعدئذ فيما كتبه من مقالات عن الدين وفن الحكم والصدقة والشيخوخة.

ثم عاد إلى رومه في سن الثلاثين وتزوج ترنشيا Terentia واستطاع بيانيتها السخية أن تشتغل بالسياسية، وعلا شأنه ونبه ذكره بعدله وحسن إدارته حين كان كوسترا في صقلية عام 75 ق.م. ولك عاد إلى الاشتغال بالمحاماة في عام 70 ق.م. وأهاج عليه طبقة الأشراف إذ قبل أن يوكل في قضية أقامتها مدن صقلية على كيوس فيرس Caius Verrs عضو الشيوخ، واتهمته فيها بأنه وهو صاحب الخراج في تلك الجزيرة (73-71) كان يبيع المناصب والأحكام. ويخفف الضرائب بنسبة ما يناله من الرشأ، وأنه لم يكن يبقي في سرقوسة شيئاً من تماثيلها، وأنه وهب إيراد مدينة بأكملها إلى إحدى سراريه، وأسرف في الظلم، وابتزاز الأموال والسراقات حتى غادر الجزيرة وهي أكثر خراباً مما كانت بعد حربين من حروب الرقيق. وشر من هذا كله أن فيرس قد اختص نفسه ببعض ما كان يختص به الملتزمون عادة، وناصر رجال الأعمال شيشرون في اتهاماته، أما هرتنسيوس الزعيم الأرسنقراطي للمحامين الرومان فقد تولى زعامة المدافعين عن فيرس، وأجيز لشيشرون أن يقضي في صقلية حوالي مائة يوم يجمع فيها الأدلة؛ ولكنه اكتفى منها بخمسين يوماً، وعرض في خطبته الافتتاحية من الأدلة الدامغة ما جعل هرتنسيوس - وكان قد زين حدائقه ببعض ما نهبه

صفحة رقم : 3114

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> شيشرون وكاتلين

فیرس من التماثل- يتخلى عن موكله. وحكم على فیرس بغرامة قدرها أربعون مليون سسترس، ففر إلى خارج البلاد، ونشر شيشرون بعدئذ الخمس الخطب الإضافية التي كان قد أعدها، وكانت كلها هجوماً عنيفاً على فساد الحكم الروماني في الولايات. وبلغ ما أحرزه من تأييد الشعب بجده وشجاعته أنه حين رشح نفسه للقتل في عام 63 ق.م انتخب بحماسة بالغة منقطع النظير.

وكان شيشرون من أبناء طبقة الفرسان، ولذلك كانت ميوله بطبيعة الحال مع الطبقة الوسطى، وكانت تشمئز نفسه من كبرياء الأشراف ويستنكر امتيازاتهم سوء حكمهم، ولكنه كان يخشى أشد خشية أولئك الزعماء المتطرفين، فقد كان يرى أن منهجهم، بوضعه أزمة الحكم في أيدي الغوغاء، يعرض الملكية لأشد الأخطار. ولهذا كانت الخطة السياسية التي وضعها لنفسه حين تولى الحكم أن يقيم "حلفاً من الطبقات"- أي تعاوناً بين الأشراف ورجال الأعمال، يحول دون عودة تيار الثورة الجارف.

على أن أسباب التذمر وقواه كانت أعمق وأكثر من أن يقضي عليها بسهولة، فقد كان كثيرون من الفقراء يستمعون إلى الخطباء ينادون بوجوب قيام دولة مثالية، وكان بعض من يستمعون إليهم على استعداد لأن يستخدموا أساليب العنف في تحقيقها. وكان يعلو عن هؤلاء قليلاً جماعات من العامة خسروا أملاكهم لعجزهم عن أداء ما عليها من رهون. وكان بعض جنود صلا القدامى قد عجزوا عن استغلال أراضيهم استغلالاً مربحاً، وكانوا مستعدين للاشتراك في أي اضطراب يتيح لهم فرصة لانتهاج المال بلا كد. وكان بين الطبقات العليا طائفة من المدنيين المفلسين العاجزين عن أداء ديونهم، والمضاربين الذين فقدوا كل أمل أو رغبة في الوفاء بالتزاماتهم، ومنهم من كانت لهم مطامع سياسية ولكنهم وجدوا سبل الرقي تسدها عليهم طائفة من المحافظين طالت آجالهم فوق ما ينبغي لها أن تطول. وكان إلى جانب هؤلاء كلهم عدد قليل من الثوار المخلصين لمثلهم العليا الذين

صفحة رقم : 3115

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> شيشرون وكاتلين

لا يخالجهم شك في أنه لا سبيل إلى تلطيف ما تنن منه الدولة الرومانية من فساد وظلم إلا بانقلاب كامل وثورة جارية. ولم يحاول أحد جمع هذه الطوائف المشتقة وضمها كلها في قوة سياسية مؤتلفة إلا رجل واحد هو لوسيو سرجيوس كاتلين Lucius Sergius Catiline، وهو رجل لا نعرف عنه إلا ما يصفه به أعداؤه- أي ما نستقيه من تاريخ حركته كما كتبها سلاست Sallust الغني صاحب الملايين، وما نقرأه من اتهامات ومطالب مقذعة في خطب شيشرون ضد كاتلين. فأما سلاست فيصفه بأنه "روح ملطخ بالإجرام، هو والآلهة والناس على طرفي نقيض، لا يجد الراحة في نوم ولا في يقظته لأن ضميره قد قسا عليه فأتلّف عقله المضني المنهوك. وكان هذا سبباً في صفرة وجهه، وحمرة عينيه، وهرجلته في مشيه، فتارة يسرع وتارة يبطن؛ وملاك القول أن وجهه ونظراته لا تترك مجالاً للشك في أن بعقله خبالاً" (38). ذلك وصف يوحى بالصورة التي يرسمها لأعدائهم في الحرب أقوام يكافحون في سبيل الحياة والسلطان؛ حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها هذبت الصورة شيئاً فشيئاً. أما صورة كاتلين فلم تهذب قط؛ فقد اتهم في شبابه بافتراع عذراء فستية، وهي أخت غير شقيقة لزوجة شيشرون الأولى، وبرأت المحكمة العذراء من هذه التهمة ولكن ألسنة السوء لم تبرئ منها كاتلين، بل فعلت عكس هذا إذ أضافت إلى التهمة الأولى تهمة ثانية هي أنه قتل

ابنه ليرضى بقتله عشيقته الغيور (39). ولسنا نجد ما تعارض به هذه القصص إلا قولنا إن عامة الناس في رومه- "الغوغاء اليائسين الجباع" كما يسميهم شيشرون- ظلوا أربع سنين بعد وفاة كاتلين ينثرون الأزهار على قبره (40). وينقل لنا سلسلت هذه الفقرة وهي كما يلوح فحوى خطبة له: "منذ وقعت الدولة في قبضة عدد قليل من أقوياء الرجال... أصبح لهم فيها كل النفوذ والمنزلة والثروة، ولم يتركوا لنا فيها إلا الخطر والهزيمة والمحاكمات

صفحة رقم : 3116

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> شيشرون وكاتلين

والفقر... وماذا بقي لنا في الحياة إلا الأنفاس التي تتردد في صدورنا؟... أليس خيراً لنا أن نموت شجعاناً من أن نفقد حياتنا اليائسة الذليلة بعد أن تصير لعبة في أيدي السفهاء" (41). وكانت الخطة التي يريد أن يضعها لضم عناصر الثورة المتعارضة خطة سهلة بسيطة تتلخص في كلمتين هما "سجلات جديدة"، ويقصد بهما إلغاء الديون كلها إلغاء تاماً بلا قيد ولا شرط. وأخذ يعمل لهذه الغاية بهمة لا تعادلها إلا همة قيصر؛ والحق أنه نال إلى حين عطف قيصر إذا لم يكن قد نال في السر معونته. وقد قال شيشرون: "لم يكن ثمة شيء لا يستطيع فعله، ولم تكن ثمة ألام لا يقاسيها في سبيل تعاون عناصر الثورة ويقظتها وكدحها. وكان في وسعه أن يتحمل البرد والجوع والعطش" (42). ويقول لنا أعداؤه إنه نظم فرقة قوامها أربعمئة رجل عهد إليها قتل القنصلين والاستيلاء على أزمة الحكم في أول يوم من عام 65 ق.م فلما حل ذلك اليوم لم يحدث شيء غير هادي، وفي عام 64 ق.م رشح كاتلين نفسه للقنصلية ضد شيشرون وشن عليه حملة انتخابية شديدة، روعت أصحاب رؤوس الأموال، وبدأت أموالهم تتسرب من إيطاليا. واتخذت الطبقات العليا لتأييد شيشرون وتحقق بذلك ما كان ينادي به من "تعاون الطبقات"، ودام هذا التعاون عاماً كاملاً، وكان هو ممثل هذا التعاون وصوته الناطق. ولما وجد كاتلين أبواب السياسة موصدة أمامه ولى وجهه شطر الحرب، فجهز أتباعه سراً جيشاً في أتروريا من عشرين ألف مقاتل، وجمعوا في رومه عصابة من المتآمرين كان فيها ممثلون لجميع الطبقات من الشيوخ إلى الرقيق. وكان فيها

صفحة رقم : 3117

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> شيشرون وكاتلين

بريتوران هما سثجس Sefhegus ولنتولس Lentulus، وتقدم كاتلين للقنصلية مرة أخرى في شهر أكتوبر التالي. ويقول لنا المترجمون له من المحافظين إنه أراد أن يضمن لنفسه النجاح في هذا الانتخاب، فدبر قتل منافسه في أثناء الحملة، واغتال شيشرون في الوقت عينه. وادعى شيشرون أنه علم بهذا التدبير فملاً "ميدان المريخ" بحرس مسلح،

وأشرف بنفسه على عملية الانتخاب، وهزم كاتلين للمرة الثانية رغم تأييد الطبقات الدنيا وتحمسهم له. ويحدثنا شيشرون أنه في اليوم السابع من نوفمبر طرق بابيه عدد من المتأمرين، ولكن حراسه صدوهم عنه وأبصر شيشرون في اليوم الثاني كاتلين في مجلس الشيوخ فأخذ يكيل له ذلك السباب الذي كان كل تلميذ ينطق به في وقت من الأوقات. وبينما كان الخطيب يصب اللعنات على كاتلين خلت المقاعد التي حوله واحداً بعد واحد حتى لم يبق في المجلس غيره. وتحمل وهو صامت سيل التهم الجارف والألفاظ المقذعة القاسية تنصب انصباب السياط على رأسه. وأخذ شيشرون يستثير كل عاطفة من عواطفه، فشبّه الأمة بالأب العام وشبّه كاتلين بقائل أبيه، واتهمه غمراً وضمناً بغير دليل بأنه يآتمر بالدولة، وبالسرقة، والزنى، والأفعال الجنسية الشاذة، وتوجه آخر الأمر إلى جوف Jove أن يقي رومه السوء، وأن يصب عذابه السرمدى على كاتلين. ولما أتم شيشرون خطبته خرج كاتلين من المجلس دون أن يعترضه أحد، وانضم إلى قواته في إتروريا. وأرسل قائده لوسيوس منليوس Lucius Manlius آخر نداء له إلى مجلس الشيوخ وقال فيه: إنا لنشهد الآلهة والناس على أننا لم نمتشق الحسام لنقاتل به بلدنا، أو نهدد به سلامة بني وطننا. وكل الذي يدفعنا نحن المعدمين البائسين الذين تضافر علينا عنف المرابين وقسوتهم فشدونا من أوطاننا، وحكم علينا

صفحة رقم : 3118

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> شيشرون وكاتلين

بالفاقة والحرمان، وأصبحنا سخرية للساحرين- كل الذي يدفعنا إلى ما نحن فاعلوه هو رغبتنا في أن نحمي أنفسنا من الظلم. وأما المال وأما السلطان، وهما أكبر أسباب النزاع بين بني الإنسان، فلا مآرب لنا فيهما، بل كان الذي نطلبه هو الحرية، ذلك الكنز الذي لا يفرط فيه الإنسان إلا حين يسلم الروح. وإننا لنتوسل إليكم أيها الشيوخ أن تستشعروا الرحمة على بني وطنكم المعذبين(44)!. وخطب شيشرون في اليوم الثاني خطبة وصف فيها أتباع منافسه العاصي بأنهم طائفة ملتفة حول عصابة من الضالين المارقين المتعطرين، وأطلق العنان لعبقريته فاخترع كل ما أسعفته به من سخرية وسباب، وختم خطبته مرة أخرى بنغمة دينية. وعرض على مجلس الشيوخ في الأسابيع التالية ما زعم أنه براهين تثبت أن كاتلين قد حاول أن يشعل نار الثورة في بلاد الغالبيين، وأفلح في اليوم الثالث من ديسمبر أن يقنع أولي الأمر بالقبض على لنتولس، وستيجس وخمسة غيرهما من أتباع كاتلين. وصرح في خطبة ثالثة له بالجريمة التي ارتكبوها، وأعلن أنهم قد زجوا في السجن، وأبلغ المجلس والشعب أن المؤامرة قد أخفقت، وأن في وسعهم أن يعودوا إلى بيوتهم آمنين مطمئنين. وفي اليوم الخامس من ديسمبر دعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع وسأله عما يفعله بالمعتقلين، فأقترح سلاunos أن يقتلوا، وأشار قيصر أن يكتفي بسجنهم، وذكر الشيوخ بأن قانون سمبرونيوس يحرم إعدام المواطن الروماني. ونصح شيشرون في خطبة له رابعة أن يعدموا، وكان في هذه المرة رقيقاً في نصحه، غير عنيف في عرضه. وأيد كاتو بفلسفته هذا الرأي، ورجحت كفة القائلين بالإعدام. وحاول بعض الشبان من الأشراف أن يغتالوا قيصر وهو خارج من قاعة المجلس ولكنه نجا من شرهم.

وذهب شيشرون ومعه رجال مسلحون إلى السجن الذي كان فيه المعتقلون، وهناك نفذ الحكم على الفور، ثم أرسل ماركس أنطونيوس زميل شيشرون في القنصلية، ووالد ماركس أنطونيوس الذائع الصيت- أرسل على رأس جيش

صفحة رقم : 3119

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الحركة الرجعية الأجركية -> شيشرون وكاتلين

روماني للقضاء على قوة كاتلين. ووعده مجلس الشيوخ أن يعفو عن كل رجل يترك صفوف الثوار، وأن يمنحه فوق ذلك مائتي ألف سنترس. ولكن "أحدًا لم يفر من معسكر كاتلين" على حد قول سولست. ودارت رحى القتال بين الجيشين في سهول بستويا (Pistoia 61). وقاتل الثوار، وكانوا ثلاثة آلاف رجل، قتال الأبطال، ودافعوا عن أعلامهم- نستور ماريوس- العزيمة عليهم إلى آخر رجل منهم رغم ما كانوا عليه من قلة بالنسبة لأعدائهم. ولم يستسلم واحد منهم أو يفر من الميدان، بل ماتوا جميعاً في المعركة كما مات بينهم كاتلين نفسه. وإذا كان شيشرون من رجال الفكر لا من رجال العمل، فقد أدهشه وأثر فيه ما أظهره من المهارة والشجاعة في القضاء على هذه الفتنة الصماء. ومن أقواله في مجلس الشيوخ: "إني ليخيل إليّ أن تدبير هذا العمل العظيم يتطلب حكمة فوق حكمة الآدميين" (45) وشبه نفسه بـرمبولوس، ولكنه قال إن حفظ رومه أعظم من تشبيدها (46). وتبسم الشيوخ وكبار الموظفين ضاحكين من قوله، ولكنهم كانوا يعلمون أنه هو الذي أنجاهم، وهتف له كاتو وكاتلس ولقباه بأبي الوطن Pater Patriae. ويحدثنا هو عن نفسه بقوله إنه لما اعتزل منصبه في عام 63 ق.م قدمت له جميع الطبقات ذوات الأملك شكرها، ولقبتة بالرجل الخالد، وسارت من حوله إلى بيته (47). ولم يشترك صعاليك المدينة في هذه المظاهرة، ذلك أنهم لم يغفروا له اعتدائه على قوانين رومه بقتله المواطنين دون أن يتيح لهم فرصة استئناف حكم الإعدام، وأحسوا بأنه لم يحاول قط إزالة أسباب ثورة كاتلين أو تخفيف أعباء الفقر عن جمهرة الشعب، ومنعوه أن يخطب في الجمعة في آخر يوم من حكمه، وكانوا يستمعون له وهم غضاب حين أقسم أنه قد حافظ على المدينة. والحق أن الثورة لم ينقض عهدها في ذلك الوقت بل اندلعت نيرانها فيما بعد حين أصبح قيصر قنصلاً.

صفحة رقم : 3120

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> لكريشوس

الباب الثامن

الأدب في عهد الثورة

145-30 ق.م

الفصل الأول

لكريشبيوس

لم يغفل الناس الأدب وسط هذا الانقلاب العنيف في أحوال البلاد الاقتصادية ونظم حكمها وأخلاقيها، كما أنه لم يكن بمنجاة من حمى ذلك العهد وما فيه من دوافع قوية. من ذلك أن فارو Varro ونيبوس Nepos قد وجدا السلامة في دراسة الآثار القديمة وفي البحوث التاريخية. وعاد سلسلت من حروبه ليدافع عن حزبه ويغشى أخلاقه بستار من المقالات الأدبية الرائعة. ونزل قيصر من عليائه على رأس الإمبراطورية ليكتب في النحو ويواصل حروبه في شروحه Commentaries، وحاول كاتلس وكلفس Calvus أن يجدا في الحب وفي الغزل ملجأ يعصمهما من أعاصير السياسة، وفر لكريشبيوس وأمثاله من ذوي القلوب الضعيفة والنفوس المرهفة الحس إلى حدائق الفلسفة، وغادر شيشرون من أن إلى أن حرارة السوق العامة ليهدي أعصابه ويروح عن نفسه بين صفحات الكتب. ولكن أحداً من هؤلاء لم يجد ما ينشده من السلام لأن الحروب والثورات كانت تطغى عليهم جميعاً. وما من شك في أن لكريشبيوس نفسه قد أحس بالقلق الذي يصفه في الفقرة الآتية:

"إن عبناً ينقل عقولهم وجبالاً من الشقاء يرسو فوق قلوبهم... ذلك

صفحة رقم : 3121

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> لكريشبيوس

أن كلاً من لا يعرف ما يريد فيعمل دائباً لتبديل مكانه ظناً منه أن في استطاعته أن يلقي حمله عن عاتقه. فهناك رجالاً قد مل الحياة في منزله، فتراه يخرج من قصره بين الفينة والفينة، ولكنه لا يجد نفسه في خارج الدار أحسن منه حالاً في داخلها فيعود إليها فجأة، فتراه مسرعاً يسوق جواده إلى بيته الريفي لا يلوي على شيء.. ولكنه لا يكاد يجتاز عتبة الدار حتى يتنأب أو يحاول نسيان متاعبه في النوم العميق. وقد بلغ به الأمر أن يعود من فورهِ إلى المدينة. وهكذا يفر كل امرئ من نفسه، ولكن نفسه التي لا يستطيع الفرار منها تزيد التصاقاً به رغم إرادته كما هو المنتظر منها، وهو يكره نفسه لأنه وهو إنسان مريض لا يعرف سبب شكواه. وكل من يستطيع أن يرى هذا بوضوح يطرح عمله من ورائه ظهرياً، ويسعى قبل كل شيء لفهم طبيعة الأشياء.

وكل ما نعرفه عن حياة تيتس لكريشبيوس كارس Titus Lucretius carus هو قصيدته. ولم يشأ أن يذكر في هذه القصيدة شيئاً عن نفسه؛ أما فيما عداها فإن الأدب الروماني يغفل إغفالاً عجبياً شأن رجل من أعظم رجاله إذا استثنينا إشارات قليلة في مواضع منه مختلفة. وتحدد الرواية المأثورة تاريخ مولده بعام 99 أو 95، وتاريخ وفاته بعام 55 أو 51 ق.م، أي أنه عاش نحو خمسين سنة من سني الثورة الرومانية: سني الحرب الاجتماعية، ومذابح ماريوس، وإرهاب صلا، ومؤامرة كاتلين، وقنصلية قيصر. وكانت الأرستقراطية التي ينتمي إليها في الأغلب الأعم أخذة في

الانحلال البادي للعيان؛ وكان العالم الذي يعيش فيه يتصدع ويتردى في الفوضى التي لا يأمن فيها أحد على حياته أو ماله. وقصيدته حنين منه إلى الراحة الجسمية والسلامة العقلية. ولجأ لكريشيويس من متاعب العالم إلى الطبيعة والفلسفة والشعر. ولعله أيضاً قد عرج على الحب، فإذا كان قد وقع له شيء منه فما من شك في أنه لم يوفق فيه، لأنه يقسو في كتابته على النساء، ويشهر بفتنة الجمال،

صفحة رقم : 3122

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> لكريشيويس

وينصح الشباب المتعطر لإشباع شهواته بأن يسد مطالب الجسد بالاختلاط الجنسي الهادئ الطليق(2). وكان يجد في الغابات والحقول، وفي النبات والحيوان، وفي الجبال والأنهار والبحار، كان يجد في هذه كلها بهجة لا يعادلها إلا شغفه بالفلسفة. وكان مرهف الحس سريع التأثر كوردسورث Wordsworth، قوي الإدراك مثل كيتس Keats، توحى إليه المدرة أو ورقة الشجرة، كما توحى لشلي Shelley، علم ما وراء الطبيعة. وكان لجمال الطبيعة ورهبتها وكل ما يتصل بهما أثره فيه، فكانت تحرك عواطفه صور الأشياء وأصواتها، ورائحتها ومذاقها؛ وكان يحس بصمت المرابض الخفية، وسدول الليل الهادئ، وطلوع النهار المتناقل. وكان كل شيء طبيعي أعجوبة الأعاجيب في نظره. ماء ينساب على مهل، ونبات يخرج من البذور، وتغير دائم في الجو، ونجوم في السماء ثابتة لا تحول، وكان يرقب الحيوانات في شغف وعطف، ويحب ما فيها من صور القوة والجمال، ويحس بالأمها، ويعجب من فلسفتها التي لا تعبر عنها الألفاظ. ولم ير قبله شاعر عبر عن جلال العالم وما حواه من تباين دقيق وقوة متناسقة ملتزمة، بمثل ما عبر عنه هو. فهنا كسبت الطبيعة في آخر الأمر معاقل الأدب، وأفاضت على شاعرها قدرة على الوصف لم يفقه فيهما إلا هو مروس وشكسبير.

وما من شك في أن هذه الروح الحساسة التي تستجيب إلى ما حولها من المؤثرات قد تأثرت تأثراً عميقاً بخفايا الدين ومظاهره الخلابية، ولكن الدين القديم الذي كان فيما مضى دعامة قوية لكيان الأسرة والنظام الاجتماعي قد فقد ما كان له من سيطرة على الطبقات المتعلمة في رومه، فقد كان قيصر مثلاً يبتسم في لطف وهو يمثل دور الكاهن الأكبر، كما كانت مآدب الكهنة متعة الأبيقوريين الرومان. وكان من الأهلين أقلية صغيرة تكفر بالآلهة الرومانية جهرة، وكان بعض الساسة الرومان يقوم بالليل ويحطم أصنام الآلهة، كما كان يفعل ألقبيادس Alcibiades في أثينا(3). أما الطبقات الدنيا فإن الطقوس الرسمية لم تعد تلهم

صفحة رقم : 3123

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> لكريشيويس

الكثيرين من أفرادها أو تخفف عنهم أحزانهم، فأخذوا يهرعون إلى الهياكل الماطخة بالدماء والتي كانت تعبد فيها "الأم الكبرى" الفريجية، أو الإلهية ما الكبدوكية، أو بعض الآلهة الشرقية التي جاء بها الجنود أو الأسرى من بلاد الشرق إلى إيطاليا. وتطورت الفكرة الرومانية القديمة عن "أوركوس" Orcus، وهي التي كانت تمثلها في صورة مكان تحت الأرض يأوي إليه الموتى بلا تمييز بينهم، فصاروا يعتقدون بوجود جحيم حقيقي "تارتاروس" Tartarus أو أكبرون Acheron يعذب فيه الناس جميعاً عذاباً أبدياً إلا طائفة قليلة تولد من جديد وتبدأ حياة جديدة في مجتمع جديد(4). وقد نظر الشمس والقمر على أنهما إلهين، وكان كل كسوف وخسوف يحدث لهما يبعث الرعب في القرى المنعزلة وفي قلوب الكثيرين من الأهليين، وأقبل العرافون والمنتنبئون الكلدان على إيطاليا يجوسون خلالها ويستطلعون طلع المعدمين والأثرياء على السواء، ويكشفون عن الكنوز المخبأة وعمما يخبئه المستقبل، ويفسرون الأحلام والفقول تفسيراً مأوه الحذر والغموض، أو الملق النافع. وكانوا يبحثون كل ظاهرة طبيعية غير مألوفة، ويدعون أنها نذير تنذرهم به الآلهة. وكان الدين الذي يعرفه لكريشيوس هو هذا الحسد العظيم من الخرافات والطقوس والنفاق.

فلا عجب والحالة هذه إذا اشمأزت نفسه منها، وثار عليه، وهاجمه بكل ما في قلب المصلح الديني من جرأة وحماسة.

وفي وسعنا أن نحكم على مقدار ما كان يعمر قلبه أيام شبابه من تقي وإيمان، وما أصابه بعدئذ من خيبة رجاء، إذا عرفنا مقدار ألمه الشديد من حال الدين وقتئذ. فقد أخذ يبحث لنفسه عن دين يعوضه عما فقدته من إيمانه بالدين القديم، فتنقل من تشكك إنيوس Ennius إلى قصيدة أنبادقليس الرائعة التي شرح فيها مبدأ التطور وتنازع الأضداد. ولما عرف آراء أبيقور خيل إليه أنه عثر على جواب المسائل التي كانت

صفحة رقم : 3124

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> لكريشيوس

تحرير عقله، وبدا له أن الرجل الحر يجد في ذلك الخليط العجيب من المادية وحرية الإدارة، ومن الآلهة المرححة والعالم الذي لا يؤمن بالآلهة، جواباً عما ينتابه من شكوك ومخاوف. ولاح أن نسمة من نسمة التحرر من المخاوف السماوية تتبعته من حدائق أبيقور، ونكشف عن سلطة القانون العليا واستقلال الطبيعة بشؤونها وسلطانها على مصائرنا، ومن أن الموت أمر طبيعي لا تلام عليه. ولذلك اعتزم لكريشيوس أن ينتزع هذه الفلسفة من النثر القبيح الذي صاغها فيه لكريشيوس ويصهرها فيخرجها شعراً، ثم يقدمها لمعاصريه على أنها هي الطريقة المثلى، وهي الحقيقة، بل هي الحياة نفسها. وكان يحس أن في نفسه قوة نادرة مزدوجة- فيها إدراك العالم الموضوعي، وعاطفة الشاعر الذاتية؛ ويرى في نظام الطبيعة بأكمله سمواً، وفي عناصرها جمالاً، بشجاناً ويبرران هذا التزاوج بين الفلسفة والشعر. وقد أبرز هذا الهدف العظيم الذي كان يعلم له جميع قواه الكامنة وسما به إلى مستوى رفيع فذ من الرقي الفعلي، ثم تركه قبل أن يبلغ هذا الهدف منهوكاً خائر القوى، أو لعله تركه ناقص العقل مخبولاً. غير أن كدحه الطويل المبهج المطرب قد حباه بسعادة استحوذت عليه فصب فيها كل ما كان كامناً في روحه الدينية من إخلاص عميق.

ولم يختر لكريشيوس لقصيدته عنواناً شعرياً بل اختار لها عنواناً فلسفياً هو: De Rerum Natura "في طبيعة الأشياء"، وهي ترجمة بسيطة لعبارة Peri Physeos (عن الطبيعة) التي اختارها الفلاسفة قبل سقراط اسماً عاماً لرسالاتهم. وبعد أن كتبها قدمها لأبناء كيوس ممبوس Caius Memmius في عام 58 ق.م لتكون لهم سبيلاً هادياً يخرجهم من الخوف إلى الإدراك. وقد حدا في طريقة عرضه لما احتوته من الآراء طريقة أنبادقليس في ملحمته، كما احتذى في تعبيره لغة إنيوس العجبية الخالية من الزخرف والتجميل، واختار لها

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> لكريشيوس

الوزن السهل الصالح للتعبير عن مختلف الأغراض، وهو الوزن السداسي الأوتاد. ثم نسي إلى حين إهمال الآلهة شؤون الناس وتباعدها عنهم فبدأ بدعوة حارة موجهة إلى فينوس إذ خالها رمزاً للرغبة المبدعة، ولطرائق السلم كما كانت محبوبية أنبادقليس فقال:

يا أم شعب إنياس، يا بهجة الخلق والآلهة، أي فينوس المغذية المربية!.. إن جميع الأحياء تحمل بها أمهاتها وتلدّها، ثم تنظر إلى الشمس عن طريقك أنت. وإذا أقبلت فرت الرياح أمامك، وتبددت سحب السماء؛ إليك ترفع الأرض ذات المعجزات أزهارها الجميلة، وإليك تضحك أمواج البحر وتتلاألأ السماء الصافية بالضياء الشامل. ذلك أنه إذا ما بدت تباشير النهار في فصل الربيع وهبت ريح الجنوب المخصبة فأكسبت كل الأشياء نضارة وخضرة، هللت لك طيور الهواء أولاً ورحبت بقدمك، أيتها الإلهة المقدسة، لأن قوتك قد نفذت في قلبها، ثم أخذت القطعان البرية تقفز فوق المراعي التي تفرح بقفزها، وتعبّر الجداول السريعة الجريان، وهكذا يصبح كل واحد منها أسير جمالك ويسير في ركابك أينما سرت، ثم تبعثين بالحب الجميل في صدور كل المخلوقات من خلال البحار والجبال والأنهار الجارية، وأوكر الطير بين أوراق الشجر والحقول الخضراء؛ وتوحين إليها بأن تتناسل وتخلد أنواعها. وإذ كنت أنت وحدك تتحكمين في طبيعة الأشياء، وبغيرك لا يرتفع شيء إلى شواطئ الضوء اللامعة، ولا يوجد شيء بهيج أو جميل؛ فإن نفسي تتوق إليك لتكوني شريكتي في كتابة هذه الأبيات.. ألا فامنحي أيتها الإلهة ألفاظي جمالاً لا يدركها الفناء، واجعلي في خلال ذلك الوقت أعمال الحرب الوحشية تنام وتسكن... وإذا ما استند المريخ إلى جسمك المقدس فانحني حوله من عليانك، وصبّي الألفاظ الحلوة من فمك، واطلبي نعمة السلام إلى الرومان(5).

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> في طبيعة الأشياء

الفصل الثاني

في طبيعة الأشياء

إذا حاولنا أن نصوغ ما في جدل لكريشيويس من اضطراب حماسي في صورة منطقية، فإن فكرته الأساسية تتمثل في ذلك البيت المشهور:

Tantum religio potuit suadere malorum

ما أكثر ما بعثه الدين في قلوب الناس من شرور!

فهو يروي قصة إفجينييا في أوليس، والضحايا البشرية التي يخطئها الحصر، والذبايح التي تقدم قرباناً للآلهة التي يمثلونها في صورة البشر النهمين، ويذكرنا بالأهوال التي تحيط بالسذج والشبان حين يضلون في أجام الآلهة المنتقمة الجبارة، وما يقذفه في قلوبهم الرعد والبرق والموت والجحيم من رعب، وبالأهوال السفلى التي يصورها الفن الإتروري والقصص الشرقية الغامضة الخفية. وهو ينحى باللائمة على بني الإنسان لأنهم يفضلون مراسم التضحية على التعقل الفلسفي ويقول:

"أيها الخلاق البانسون ما بالكم تعزون إلى الآلهة هذه الأعمال الشائنة وهذا الغضب المرير! كم من أحزان يهينها الناس لأنفسهم (بهذه العقائد) وكم من جراح تتخذ بها أجسامنا، ودموع تذرفها أعين أبنائنا! ذلك أن التقوى لا تكون في كثرة توجيه الرأس المقنع إلى الأحجار، ولا في الاقتراب من جميع مذابح القربان، ولا في الركوع والسجود... أمام هياكل يكون في طاقة الإنسان أن ينظر إلى الأشياء جميعها بعقل هادئ مطمئن" (7).

صفحة رقم : 3127

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> في طبيعة الأشياء

ولا ينكر لكريشيويس وجود الآلهة، ولكنه يقول إنها تقيم بعيدة عنا، سعيدة كل السعادة في عزلتها وبعدها عن أفكار البشر ومتاعبهم، هنالك "وراء أسوار العالم المشتعلة" (extar flammantia moeine mundi) بمنأى عن ضحاياتنا وصلواتنا، وهي تعيش كما يعيش أتباع أبيقور بعيدة عن الشؤون الدنيوية، فائقة بتأمل الجمال وعمل ما تتطلبه الصداقة والسلام (8). وليست الآلهة في رأيه هي التي خلقت العالم، وليست هي سبب ما يقع فيه من الأحداث، فمن ذا الذي يظلمها ذلك الظلم الصارخ فيتهمها بأنها سبب ما في الحياة على الأرض من تلف، واضطراب، وآلم، ومظالم؟ كلا إن هذا الكون اللانهائي الذي يشمل عدة عوالم مستقل عما سواه، ولا شأن له بغيره، ولا يسيطر عليه قانون خارج عنه؛ فالطبيعة تفعل كل شيء من نفسها. من ذا الذي أوتي من القوة ما يستطيع به أن يتصرف في الأشياء مجتمعة، ويقبض بيده على ذلك العنان القوي عنان الأبدية التي لا قرار لها؟ من ذا الذي يستطيع أن يحرك السموات كلها دفعة واحدة.. ويهز السماء الصافية بالرعد القاصف، ويقذف بالبرق فيزلزل به في كثير من الأحيان هياكل الآلهة، ويرسل الصواعق فيقضي بها على البريء وينجو منها المجرم" (9). إن إله الكون الذي لا إله سواه هو القانون، وأصدق العبادات، والسبيل الوحيد إلى السلام أن يعرف الناس ذلك القانون ويحبوه. إن مخاوف العقل وظلمته لا تبددها أشعة الشمس... بل يبدها النظر في قوانين الطبيعة (11).

وهكذا "يمس" لكريشبيوس "برحيق ربات الشعر" مادية دمقريطس الخشنة، ويصرح بأن مبدأه الأساسي المقرر أن لا وجود إلا للذرات والفراغ" (12) أي المادة والفضاء، ثم ينتقل من فوره إلى مبدأ جوهرى (وافترض) من مبادئ العلم الحديث، وهو أن ما في العالم من مادة وحركة لا يتغير أبداً، وألا شيء ينشأ من لا شيء، وأن ليس الإلتاف والتحطيم إلا تغييراً في الشكل، وأن الذرات لا تتحطم، ولا تتبدل، وأنها

صفحة رقم : 3128

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> في طبيعة الأشياء

صلبة، مرنة، عديمة الصوت والرائحة والذوق واللون، وأنها لا حدود لها، يتدخل بعضها في بعض ليتكوّن منها مركبات وصفات لا حصر لها، وتتحرك حركة لا انقطاع لها، في سكون الأشياء العديمة الحركة البادي للأنظار: "فكثيراً من نرى على سفوح الجبال.. الأغنام ذات الأصواف تزحف حيث يغريها بالزحف الكلاً الذي تتلألاً عليه قطرات الندى، وترى الحملان التي شبيعت ورويت تلعب وتتناطح في لعبها برؤوسها. ولكن هذه كلها تنطمس للبعيد عنها حتى لا تستطيع العين أن تميزها، وتبدو لطفة بيضاء على تل أخضر. وتنتشر الجيوش الحرارة في بعض الأحيان في ميادين واسعة؛ وتتحرك حركات تمثل بها الحروب، تسطع دروعهم البرنزية فتضيء ما حولها، وتنعكس على قبة السماء، وتزلزل الأرض وتجلجل تحت أقدام الجند وسنابك الخيل، وتصطم هذه الأصوات بالجبال فتدفع بها مرة أخرى إلى نجوم السماء. ومع هذا فإن في تلال الجبال مكاناً تبدو منه هذه الجيوش كأنها ساكنة لا تتحرك؛ ولا تعدو أن تكون بقعة صغيرة بيضاء مستقرة فوق السهل" (13).

وتحتوي الذرات على المنيمات minima أو "أصغر الأشياء"، وكل منيمة minimum جسم نهائي صلب، لا يقبل الانقسام، ولعل اختلاف ترتيب هذه الأجزاء هو السبب في اختلاف أحجام الذرات وأشكالها، وهو الاختلاف الذي ينشأ منه تباين الطبيعة تبايناً يسر النفوس وينعشها. والذرات لا تتحرك في خطوط مستقيمة أو منتظمة، بل إن في حركتها انحرافاً أو زيقاً دقيقاً لا يستطاع قياسه، وفيها تلقائية عنصرية تسري في جميع الأشياء وتصل إلى غايتها في إرادة الإنسان الحرة.

صفحة رقم : 3129

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> في طبيعة الأشياء

لقد كانت كل الأشياء من قبل عماء، ولكن التوزيع التدريجي للذرات المتحركة حسب أحجامها وأشكالها قد أنتج- عن غير قصد- الهواء والنار والماء والتراب ومن هذه كلها نشأت الشمس والقمر والكواكب والنجوم؛ وفي الفضاء اللانهائي تنشأ باستمرار عوالم جديدة وتفتحت عوالم أخرى قديمة، والنجوم نيران مثبتة في حلقة من الأثير (وهو ضباب من ذرات أرق من الذرات السابقة) المحيطة بكل مجموعة كوكبية. وهذا الجدار الكوني الناري هو الذي يكون

"أسوار العالم الملتهبة". ثم انفصل جزء من الضباب البدائي عن هذه الكتلة وأخذ يدور وحده وبرد فتكونت منه الأرض. وليست الزلازل ناشئة من صراخ الآلهة بل من تمدد الغازات والمجاري التي تحت الأرض. كما أن الرعد والبرق ليسا صوت الإله وأنفاسه بل هما نتيجتان طبيعيتان لتكاليف السحب واصطدامها ببعضها ببعض. وليس المطر مرحمة من جوف بل هو رجوع الرطوبة التي بخرتها الشمس إلى الأرض.

والحياة في رأيه لا تختلف في جوهرها عن غيرها من خصائص المادة، فهي نتيجة الذرات التي لا حياة في كل منها بمفردها. وكما أن الكون قد اتخذ صورته الخاصة به طوعاً لقوانين المادة المتأصلة فيها، فكذلك أخرجت الأرض كل أنواع الكائنات الحية وأعضاءها بطريقة الانتخاب الطبيعي لا بغيرها من الطرق.

لا شيء ينشأ في الجسم ويقصد به أن نستخدمه، ولكن ما ينشأ فيه ينتج بعد وجوده الغرض الذي يستخدم فيه (14).. فلم يكن هدف الذرات هو الذي جعلها ترتب نفسها ترتيباً قائماً على الذكاء والفتنة، بل السبب في ترتيبها هذا أن كثيراً من الذرات منذ الأزل قد تحركت والنقت بطرق مختلفة لا حصر لها، وجربت كل التراكيب المختلفة.. ومن ثم نشأت مبادئ الأشياء العظيمة... وأجيال الكائنات الحية (15). وما أكثر ما حاولت الأرض أن توجده من الهولاء، فمنها ما لم تكن له أقدام، ومنها ما لم تكن له يدان أو فم أو وجه أو أطراف ملتصقة بجسمه.. ولكن هذه المحاولات

صفحة رقم : 3130

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> في طبيعة الأشياء

كلها ذهبت أدراج الرياح، فقد ضنت عليها الطبيعة بالنماء، ولم تستطيع هي أن تجد لنفسها الطعام، أو أن تتصل بعضها ببعض اتصالاً مبعثه الحب.. وما من شك في أن كثيراً من الحيوانات قد بادت في ذلك الوقت لأنها عجزت عن الاحتفاظ بأنواعها عن طريق التزاوج والتناسل، وسبب ذلك أن الأنواع التي لم تهبها الطبيعة صفات "تحميها من أعدائها" كانت تحت رحمة غيرها، وسرعان ما هلكت وانقرضت (16).

وليس العقل (Animue) إلا عضواً كالقدمين والعينين، وهو مثلهما أداة أو وظيفة لتلك الروح (Anime) أو النسمة الحيوية، وهي مادة جداً رقيقة تنتشر في الجسم كله، وتبعث الحياة في كل جزء من أجزائه. وعلى الذرات الشديدة الحساسية التي يتكون فيها العقل تسقط الصور أو الأشرطة التي لا ينقطع خروجها من سطوح الأشياء. وهذا هو منشأ الإحساس. وينشأ الذوق والشم والسمع والبصر واللمس من جزيئات تخرج من هذه الأشياء وتقع على اللسان أو الحلق أو الخياشيم أو الأذنين أو العينين أو الجلد. والحواس كلها صور اللمس. وهي المحك النهائي للحقائق، فإذا ما ظن أنها أخطأت فليس ذلك إلا نتيجة لسوء التفسير، ولا يصحح خطأ إحدى الحواس إلا حاسة أخرى، ولا يمكن أن يكون العقل محك الحقائق لأن العقل يعتمد على التجارب أي على الإحساس.

وليست النفس شيئاً روحياً، ولا هي خالدة، فهي لا تستطيع تحريك الجسم إلا إذا كانت ذات جسم، وهي تنمو وتشخ مع الجسم، وتتأثر بما يتأثر به من مرض ودواء وخمر، وتتبدد ذراتها تبدداً ظاهرياً حين يموت، ولو وجدت النفس بغير الجسم لكانت عديمة الإحساس عديمة المعنى؛ وما فائدة النفس بغير أعضاء اللمس والذوق والشم والسمع والبصر؟ والحياة لا توهب لنا لتكون ملكاً خالصاً لنا بل عارية نستعيرها ونحتفظ بها ما دمنا على الانتفاع بها، فإذا ما استنفدنا قواها وجب علينا أن نغادر مائدة الحياة مغتربين شاكرين، كما يغادر

صفحة رقم : 3131

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> في طبيعة الأشياء

الضعيف الوليمة. وليس الموت نفسه أمراً مخيفاً رهيباً، بل الذي يسبب رهبته هو خوفنا مما نلقاه في الدار الآخرة. ولكن الدار الآخرة لا وجود لها، والجحيم هو جحيم هذه الدنيا، فهو العذاب الناشئ من الجهل والانفعالات والتخاصم والشره؛ والجنة توجد على ظهر هذه الأرض، وهي معابد الحكماء الصافية (17sapientum templa serena). وليست الفضيلة في خوف الآلهة، ولا في تجنب الملذات وخشيتها، بل هي في تناسق أعمال الحواس والمواهب بإرشاد العقل؛ ومن الناس من يفنون أعمارهم من أجل تمثال يقيم لهم، أو شهرة يتحدث بها الناس عنهم، ولكن "ثروة الإنسان الحقة هي أن يعيش عيشة بسيطة وعقله في سلام" (18vivere parce Aequo Animo)، وخير من العيش الجامد المعنت في الأبهاء المذهبة "الرقود في جماعات على الكلاً الناعم بجوار غدير تحت أشجار باسقة" (19)، أو سماع الألحان الموسيقية العذبة اللطيفة، أو أن يفقد الإنسان ذاته في حب أطفاله والعناية بهم، والزواج خير ولكن الحب المثير للعواطف جنون، يجرد العقل من صفائه وتدبيره. "فإذا أصابت الإنسان سهام فينوس- سواء أطلق هذه السهام غلام له أعضاء فتاة، أو أطلقتها امرأة يشع الحب من جسمها كله- فإنه ينجذب نحو مصدر الضربة ويتوق إلى الاتحاد معه" (20). ولا يستطيع زواج ولا مجتمع أياً كان نوعه أن يجد قاعدة سليمة يقوم عليها في هذا الغرام الجنوني.

ولما كان لكريشوس قد وجه عواطفه كلها نحو الفلسفة ولم يجد في قلبه متسعاً للحب، فإنه أبى أن يعود إلى العهد الروائي العاطفي القديم الذي يقول به اليونان الذين كانوا يجدون الحياة البدائية، وينادون بالعودة إلى الطبيعة، كما مجددها روسو ونادى بالعودة إليها. نعم لقد كان الناس في ذلك الوقت أصلب عوداً، ولكنهم كانوا يعيشون في الكهوف، ولا يعرفون الناس، ويتناكحون بلا زواج، ويقتل بعضهم

صفحة رقم : 3132

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> في طبيعة الأشياء

بعضاً بغير قانون، ويموت منهم جوعاً بقدر من يموت من المحتضرين بالتحمة (21). أما الطريقة التي تمت بها الحضارة فيشرحها لكريشوس في خلاصة موجزة لتاريخ الإنسان الطبيعي يقول فيها إن التنظيم الاجتماعي قد وهب الإنسان القدرة على البقاء بعد أن بادت الحيوانات التي كانت أشد منه قوة وبطشاً. وقد اهتدى إلى النار حين رآها تندلع من احتكاك أوراق الأشجار وأغصانها، وأنشأ من الإشارات والحركات لغة، وتعلم الغناء من الطير، وأنس الحيوان لمنفعته، كما استأنس هو بالزواج والقانون؛ ثم شق الأرض، ونسج الملابس، وصهر المعادن وصنع منها أدواته؛ ثم رصد كواكب السماء، وقاس الزمن وتعلم الملاحة؛ ثم رقى فن القتل، وتغلب على الضعفاء، وشاد المدن، وأقام الدول. وليس التاريخ إلا موكب الدول والحضارات التي تنشأ وتردهر ثم تضمحل وتقنى، ولكن كلاً منها تخلف وراءها تراثاً من العادات والأخلاق والفنون تتلقاها عنها الحضارات التي تأتي من بعدها "فهي كالعديتين في سباق يسلم كل منهم مصباح الحياة إلى غيره" (22)

(et quasi cursores vitae lampada tradit) وكل ما ينمو من الأحياء يضمحل: الأعضاء، والكائنات الحية، والأسر، والدول، والأجناس، والكواكب، والنجوم. والذرات وحدها هي التي لا تموت أبداً، وتوجد إلى جانب قوى الخلق والنماء قوى أخرى تعادلها وتوازنها وهي قوى التدمير، وهذه لا تنقطع عن العمل ما بين دفع وجذب وتراخ وانقباض، وحيات وموت. وفي الطبيعة خير وشر، والآلام يلقاها كل كائن حي وإن لم يستحقها، والانحلال يتبع خطى كل تطور، وأرضنا نفسها في طريقها إلى الموت والفناء، وها هي ذي الزلازل تخربها وتدمرها، والأرض تفقد قدرتها على الإنتاج والأمطار والأنهار تقرضها وتفتتها، وتنقل الجبال نفسها آخر الأمر إلى البحار، وسيأتي على عالمنا النجمي كله يوم يفنى فيه كما تفنى هذه الجبال؛

صفحة رقم : 3133

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> في طبيعة الأشياء

فتهاجم جدران السماء من كل جوانبها وتتصدع ثم تنهدم وتخرّب (23). ولكن ساعة الفناء نفسها تكشف عما في العالم من حيوية لا تقهر "ويمتاز بالعويل على الموتى البكاء على الطفل الوليد" (24) وتتكون عوالم جديدة ونجوم وكواكب جديدة، وتنشأ أرض أخرى وحياة غير الحياة الأولى، ويبدأ التطور من جديد. وإذا ألقينا نظرة عامة على هذه القصيدة التي تعد "أروع نتاج الأدب القديم كله" (25)، فقد نلاحظ لأول وهلة ما فيها من عيوب: كاضطراب موضوعاتها التي حال موت الشاعر في مقتبل العمر دون مراجعتها، وتكرار عباراتها وأبياتها وفقرات منها برمتها، واعتقاده أن الشمس والقمر والنجوم ليست في حقيقتها أكبر مما تبدو للناظر إليها (26)، وعجز النظام الذي تشرحه القصيدة عن أن يفسر كيف تستحيل الذرات الميتة إلى حياة وإدراك، وإغفال الشاعر ما يبعثه الإيمان في المؤمن من نظر ثاقب وطمأنينة وساوى، وإلهام وشاعرية قوية محرّكة، كما أغفل ما للدين من آثار اجتماعية. ولكن ما أقل هذه الأغلاط وما أضعف شأنها أمام المحاولة الجريئة التي بذلها الشاعر لتفسير العالم والتاريخ والدين والمرض تفسيراً منطقياً معقولاً، وأمام ما صور به الطبيعة من أنها عالم يسيطر عليه القانون لا يعتري المادة والحركة فيه زيادة أو نقصان. وأمام عظمة الموضوع الذي تحدث عنه ونبل الطريقة التي عرض بها؛ وأمام قوة الخيال المتصلة التي تشعّر في كل مكان "بجلال الأشياء" وتسمو برؤى أنبأقليس، وعلم دمقرطيس، ومبادئ أبيقور الأخلاقية، إلى شعر يبلغ من الروعة والجمال أسمى ما بلغه الشعر المعروف في جميع العصور. فها هي ذي لغة كانت لا تزال بعد غير مصقولة ولا ناضجة تكاد في ذلك الوقت أن تكون

صفحة رقم : 3134

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> في طبيعة الأشياء

خلواً من المصطلحات الفلسفية والعلمية، بل خلقها ثم وجه الكلام القديم وجهات جديدة من حيث الوقع والجرس، وصاغ الوزن السداسي صياغة أكسبته حيوية وقوة لم تكن له في أية لغة أخرى من اللغات المعروفة، وسما به بين الفينة والفينة إلى درجة من الرقة والجمال والسلاسة لا تقل من نظائرها في شعر فرجيل. وإن ما في القصائد لكريشبيوس من حيوية لا تفارقه في وقت من الأوقات ليدل على أنه قد استمتع بحياته كلها، لم يكد يترك فيها فترة قصيرة أو طويلة من يوم مولده إلى يوم وفاته إلا عاش خلالها على الرغم مما كان يحيط به من آلام متعددة وخيبة مريرة.

وكيف مات لكريشبيوس؟ يقول القديس جيروم Saint Jerome إن "لكريشبيوس قد جن على أثر تجرعه دواء يولد الحب، بعد أن كتب عدة كتب.. م مات منتحراً في الرابعة والأربعين من عمره" (28). وليس لهذه القصيدة ما يؤيدها، ويشك الكثيرون في صحتها، ولسنا نعتقد أن قديساً يستطيع أن يروي رواية عن حياة لكريشبيوس منزهة عن الهوى. وقد وجد بعضهم ما يؤيد هذه القصة في قصيدته نفسها؛ ذلك أن منها شواهد على الذهن المكثف غير الطبيعي، فضلاً عن أن موضوعاتها مهوشة غير منظمة، وأنها مقتضبة تنتهي انتهاءً فجائياً غير متوقع (29). ولكن الإنسان ليس في حاجة إلى أن يكون لكريشبيوس- ولكريشبيوس دون غيره- لكي يكون حاد المزاج سريع التهيج، مهوشاً، ولكي يموت. لقد كان لكريشبيوس كما كان يوربديز رجلاً من الطراز الحديث، وكان تفكيره وإحساسه يوائمان عصرنا الحاضر أكثر مما يوائمان القرن الأول قبل ميلاد المسيح. وقد تأثر به هوارس وفرجيل في أيام شبابهما، وهما يذكرانه من غير أن يبوحا باسمه في كثير من عباراتهما الجزلة، ولكن الجهود التي كان يبذلها أغسطس لإعادة الدين القديم قد جعلت هذين الشاعرين وهما صنيعتا أغسطس يريان أن

صفحة رقم : 3135

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> في طبيعة الأشياء

ليس من الحكمة أن يعبراً في صراحة عن إعجابهما بللكريشبيوس ويعترفوا بما في عنقهما له من دين يضاف إلى هذا أن الفلسفة الأبيقورية لن تكن توائم العقل الروماني، كما كانت أعمال الأبيقوريين توائم الذوق الروماني في عصر لكريشبيوس، فقد كانت رومه في حاجة إلى رجل ذي فلسفة ميتافيزيقية يمجد القوى الصوفية الباطنية لا القوانين الطبيعية، وإلى عالم أخلاقي ينشئ شعباً حربياً كامل الرجولة لا شعباً من أصحاب النزعة الإنسانية المحبين للسلم والهدوء؛ وكانت في حاجة إلى فلسفة سياسية شبيهة بفلسفتي فرجيل وهوراس، تبرر سيطرة رومه الإمبراطورية. ولما بعث الدين من جديد بعد سنكا كاد الناس ينسون لكريشبيوس، ولم يبدأ يظهر أثره في الفكر الأوربي إلا بعد أن كشفه بجيلو Poggio من جديد في عام 1418 ب.م. وقد أخذ طبيب من مدينة فيرونا Varona يدعى جبرولامو فراكستورو (Girolamo Fracastoro 1483-1553) عن الشاعر نظريته التي يقول فيها إن المريض ينشأ من "بذور" Semina خبيثة تسبح في الهواء، وفي عام 1647 أحيا جاسندي Gassendi الفلسفة الذرية. وكان فلتير يقرأ في طبيعة الأشياء في خشوع ويقول كما قال أوفيد Ovid إن ما فيها من أبيات ثورية سيبقى ما بقيت الأرض (30). وقد خاض لكريشبيوس بمفرده أقسى الوقائع في زمانه ونعني بها إحدى وقائع الحرب الأبديّة بين الشرق والغرب، بين "القلب الحنون" والإيمان الباعث للسلوى المخفف للأحزان من جهة، والعقل العنيد الجاسي والعلم المادي من جهة أخرى. ولسنا في حاجة إلى القول بأنه أعظم الشعراء الفلاسفة، وأنه هو الذي سما بالأدب اللاتيني ما سما به كاتلس وشيشرون إلى ذروة مجده؛ وبه انتقلت زعامة الأدب نهائياً من بلاد اليونان إلى رومه.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> حبيب لزيبيا

الفصل الثالث

حبيب لزيبيا

في عام 57 ق.م غادر رومه كيبوس مميوس Caius Memmius الذي أهدى إليه لكريشيوس قصيدته ليكون بريطوراً أولاً في بثنيا Bithynia، وكان حكم حكام الولايات الرومان قد أخذوا في ذلك الوقت يعتادون عادة جديدة هي أن يصطحب كل منهم عند سفره إلى ولايته أحد المؤلفين. ولم يأخذ هذا الحاكم معه لكريشيوس بل أخذ شاعراً يختلف عنه في كل شيء عدا قوة عاطفته ويدعى كونتس (أوكيوس) فليريوس كاتلس Quintus Valerius Catullus. وكان كونتس هذا قد قدم إلى رومه من مدينة فيرونا موطنه الأصلي، وكان لأبيه فيها من المنزلة ما يجيز له أن يكون ضعيفاً كثير التردد على قيصر، وما من شك في كونتس نفسه كان على جانب كبير من الثراء، فقد كانت له بيوت ذات حدائق بالقرب من تيبور Tibur وعلى شواطئ بحيرة جاردا Garda، وكان له بيت جميل في رومه. وهو يقول عن هذه الأملاك إنها كانت مستغرقة في الدين، ولا ينفك يعلن أنه فقير، ولكن الصورة التي نستطيع أن نرسمها له من قصائده هي صورة الرجل المهذب الذي لا يهتم بكسب العيش، ولكنه يتمتع نفسه بطيبات الدنيا من غير حساب في صحبة أمثاله المترفين في عاصمة الدولة. وكانت هذه الفئة تضم طائفة من العقول وأبرع الخطباء السياسيين من الشبان أمثال ماركس كئيلبوس Marcus Caelius وهو شريف أصبح فيما بعد شيوخياً، وليسينيوس كلفس Licinius Calvus الشاعر النابه والقانوني الضليع؛ وهلفيوس سنا Helvius Cinna الشاعر الذي كاد الغوغاء من أنصار أنطونيوس يحسبونه أحد قتلة قيصر وينهالون عليه ضرباً حتى يقضي نحبه. وكان هؤلاء يعارضون قيصر ويوجهون له كل ما تسعفهم

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> حبيب لزيبيا

به عقولهم من نكات لاذعة، وهو لا يعرفون أن ثورتهم الشعرية إنما تعبر عن الثورة التي يعيشون في جرها. وكان هؤلاء جميعاً قد ملوا الأدب القديم، ولم يطبقوا فحاجة نيفيوس Naevius وإنيوس Ennius وألفاظهما الطنانة المزوقة. وتاقت نفوسهم لأن يغنوا عواطف الشبان في أوزان جديدة غنائية في لفظ عذب رقيق عرف يوماً من الأيام في الإسكندرية أيام كلمكس Calimachus ولكن رومه لم تشهد مثله قبل أيامهم هذه. ولم يكونوا راضين عن المبادئ الأخلاقية القديمة وعن تقاليد السلف التي كانت تلقى على أسماعهم في كل حين من أفواه الكبراء المنهوكين. وكانوا ينادون بقدسية الغرائز، وبراءة الشهوات وعظمة التهنك والانغماس في الملاذ، ولم يكونوا هم وكاتلس أسوأ من غيرهم من أدباء الشبان الذين كانوا يعيشون في ذلك الجيل وفي الجيل الذي يليه: من هوارس Horace وأوفد Ovid وتيبلس Tibullus وبروبريتوس Propertius، بل ومن فرجيل الخجول في أيام شبابه، أولئك الذين جعلوا الشعر يدور حول كل امرأة متزوجة أو غير متزوجة، تقدم لربات شعرهم حباً سهلاً عابراً.

وكانت كلوديا Clodia أرشق فتاة في هذه الفئة، وهي من سلالة أسرة كلوديوس التي لم تذهب عنها حتى تلك الأيام عظمة الأباطرة. ويؤكد لنا أبوليوس (Apeulius 31) أنها هي التي سماها كاتلس باسم لزيبيا Lesbia إحياء لذكرى سابفة Sappho التي كان يترجم قصائدها أحياناً، ويحاكيها كثيراً، ويحبها دائماً. ولما جاء كاتلس إلى رومه في الثانية والعشرين من عمره اتخذها صديقة له، بينما كان زوجها حاكماً في بلاد غالة الإيطالية. وقد سحرت لبه من ساعة أن وضعت "قدمها البراقة على عتبة داره التي أبلتها أعتاب الناس من قبل، وكان يدعوها إلهته المتألقة ذات الخطوة الرشيقة". ولا غرابة في أن تفتته خطاها، فإن مشية المرأة قد تكفي وحدها لتفتن الرجل كما يفتنه صوتها. وقد عطفت عليه فرضيت

صفحة رقم : 3138

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> حبيب لزيبيا

أن يكون من بين عبادها. ولم يكن في وسع الشاعر الهائم بها أن يضارع في غير ميدان الشعر مواهب منافسه فوضع تحت قدمها أجمل ما في اللغة اللاتينية من القصائد الغنائية، وترجم لها أحسن ترجمة وصفت بها سايفو لجنون المحبين وهو الجنون الذي كان يمتلكه وتنتذ(32). وكتب في الطائر الذي كانت تضمه إلى صدرها أبياتاً تعد من خير ما كتب في وصف الغيرة:

أيها الطائر يا بهجة حبيبتني

التي تلعب معك وتضمك إلى صدرها

والتي تمد لك سبابتها إذا طلبتها،

وتغريك بأن تعضها عضه قويه .

لست أدري أيه دعابه لطيفه يلذ لحبيبي الوضاه

أن تداعب بها أمنيتي... .

وقد أحس وقتاً ما بأن السعاده قد غمرته، وظل يتردد عليها كل يوم ينشدها قصائده، ونسى كل شيء إلا حبه إياها
واقفاته بها .

أي لزببائي حبيبي هيا بنا نعيش،

ولا تلق بالاً إلى شيء مما ينطق به العجانز القساه

ونراه حقيراً غير جدير بالاعتبار .

قد تغرب الشموس ثم تعود؛

أما نحن فإذا غربت شمسنا القصيره الأجل

غلب علينا السبات الطويل في ليلنا الأبدى .

ألا فاعطني ألف قبلة ثم مائة

ثم ألفاً أخرى، ثم مائة ثانية

صفحة رقم : 3139

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> حبيب لزيبيا

ثم ألفاً بعدها، ثم مائة

حتى إذا بلغت القبلات ألفاً مؤلفة

تعمدنا الخطأ في العد والحساب لكيلا نعرف نحن عديدها

أو تحسدنا عليه نفس حقيرة

إن عرفت عدد قبلاتنا الكثيرة.

ولسنا نعرف كم من الوقت دامت هذه النشوة؛ وأكبر الظن أنها قد ملت آلافه المؤلفة، فرأت أن تراوح عن نفسها بعد أن خانت زوجها من أجله بأن تستبدل به عاشقاً غيره. واتسعت وقتئذ دائرة عشاقها حتى خالها كاتلس في نوبة من نوبات الجنون "تعانق ثلاثة آلاف زان مرة واحدة" (35). وأبغضها في الوقت الذي كانت فيه نار الحرب تلتهم فؤاده (36adi et Amo)، وأبى أن يستمع إلى ما كانت فيه تحدثه به من وفاء وإخلاص، وصور لنا هذا الإباء بالصورة المأثورة عن كيتس Keats:

إن الألفاظ التي تقوه بها المرأة للمحب الواله الجائع،

يجب أن تنقش على صفحة الرياح السافية،

وتحفر على مجاري الماء الدافقة (27).

ولما أصبح الشك اللاذع يقيناً لا مرية فيه، استحال هيامه بها حقداً عليها ورغبة قوية في الانتقام منها، فاتهمها بأنها تسلم نفسها لرواد الحانات، وأخذ يندد بمحببها الجدد ولا يتورع عن سبهم بأفحش الأقوال وفكر في الانتحار، على حد قوله في شعره. وقد أظهر في الوقت نفسه عواطف أشرف من هذه وأدل منها على نبلة: فقد وجه إلى صديقه مانليوس في يوم عرسه أغنية يقول فيها إنه يحسده على ما يتيح له زواجه من صحبة طيبة صالحة، وبيت آمن مستقر، ومن متاعب سعيدة هي متاعب الأبوة. ثم انتزع نفسه من مكان مأساته بأن صحب مميوس Memmius

صفحة رقم : 3140

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> حبيب لزيبيا

إلى بيثينيا Bithynia، ولكنه لم يحقق ما كان يرجوه فيها من استعادة نشاطه وماله. ثم خرج عن طريقه يوماً من الأيام ليبحث عن قبر أخ له مات بجوار طروادة، وادى لهذا الأخ الميت في خشوع مراسم الدفن التي يؤديها الأبناء لأبائهم، ثم أنشد بعدئذ بقليل أبياتاً رقيقة من الشعر أضحت بعض ألفاظها من الأقوال الخالدة:

أيها الأخ العزيز لقد تنقلت في كثير من الدول وجبت البحار.

وجئت لأقدم لك هذا القربان المحزن.

وأهدي إليك آخر ما يهدي إلى الأموات.

فتقبل هذه الهدايا التي تبللها دموع الأخوة؛

ووداعاً يا أخي إلى أبد الدهر.

وبدل مقامه في آسيا حاله، وهدأ من طبعه، وأثرت أديان الشرق القديمة واحتقالاته في هذا المتشكك الذي وصف الموت من قبل بأنه "سبات الليل الأبدى"، فوصف في "أنيس" Atys وهي أعظم قصائده كلها وأعذبها لفظاً وأوضحها تصويراً عبادة شيبيل Cybele وصفاً رائعاً قوياً، وامتألت نفسه حمية وحماسة وهو يقرأ عويل عبادها الذين يضحون من أجلها برجولتهم، وحزنهم على متع الصبا وأصدقاء الشباب. وقد قص في قصيدته "بليوس وثيتس Peelus and Thetis" قصة بليوس وأردياني Ariadne في شعر سداسي الأوتاد حلو النغم لا يكاد يجاريه شعر فرجيل نفسه. وابتاع بعدئذ في بلده أمستريس Amastris يخنأ صغيراً طاف به البحر الأسود وبحر الأرخبيل والبحر الأدرياتي وسار به صعداً في نهر البو Po حتى وصل إلى بحيرة جاردا Garda والى بيته في سرميو Sirmio. وهنا أخذ يسأل نفسه قائلاً: "وهل ثمة سبيل للفرار من متاعب فوق فرشنا من أن نعود إلى مواطننا الأولى ومعابدنا، وأن نستريح فوق فرشنا المحبوبة؟" (39) إن الناس يبدؤون حياتهم بالبحث عن السعادة ثم يقنعون آخر الأمر بالسلام.

صفحة رقم : 3141

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> حبيب لزيبا

إن علمنا بكانتلس لأوفى من علمنا بمعظم شعراء الرومان لأنه يكاد في جميع الأحوال يتخذ من نفسه موضوعاً لشعره؛ وإن هذه الصرخات الغنائية، صرخات الحب والكره، لتكشف عن نفس رحيمة حساسة قادرة على أن تكون ذات

عواطف كريمة حتى للأهل والأقارب؛ ولكن الذي لا يسرنا منه أنه يجعل نفسه على الدوام موضوع شعره، ويعتمد الفحش في القول، ويقسو على أعدائه فينشر على الناس أخص خصائصهم، ويشنع على ميلهم للواط، وعلى رائحة أجسامهم النتنة، ويقول عن واحد منهم إنه يغسل أسنانه بالبول متبعاً في ذلك عادة أسبانية قديمة (40)، ويقول عن آخر إنه أبخر إذا فتح فاه مات في ذلك كل من حوله (41). فهو والحالة هذه يتذبذب في غير عناء بين الحب والقدارة، يقبل ويلوط، وينافس مارتياك Martial في قيادة الناس إلى أفذار رومه ومبازلها في أركان شوارعها. ويمثل ما يتصف به معاصره وأبناء طبقتهم من مزيج بين خشونة البداوة ورقة الحضارة، كأن الرومان المتعلمين مهما برعوا في آداب اليونان لم يستطيعوا قط أن ينسوا الإسطبلات والمعسكرات. ويدافع كاتلس عن نفسه بمثل ما يدافع به مارتياك فيقول إنه لا بد له أن يمزج أبياته الشعرية بالأفذار لكي يسترعي بها انتباه مستمعيه.

على أنه قد كفر عن هذه السيئات بما كان يبذل من العناية الفائقة في الوصول بشعره إلى درجة الكمال. ففي أبياته الإحدى عشرية الأوتاد من الجمال الطبيعي غير المتكلف ما تعجزه عنه صنعة هورامس وتكلفه، وما يسمو في بعض الأحيان فوق أناقة فرجيل نفسه، وقد كلفه إخفاء فنه كثيراً من التقنن. وكثيراً ما يشير كاتلس إلى ما كان يعانيه من الجهد المؤلم والعناية الشديدة اللذين جعلاه شعره سريع الفهم بين السهولة. وقد يسر له بلوغ هذه الغاية ما كان يعرفه من مفردات اللغة فقد كان يصوغ الألفاظ التي يتداولها الناس شعراً رقيقاً. وقد أغنى الآداب اللاتينية بالألفاظ التصغير الرقيقة، كما أغناها بلغة الحانات الدارجة.

صفحة رقم : 3142

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> حبيب لزيبيا

وكان يتجنب قلب الألفاظ وتبديل مواضعها، كما كان يتجنب الإبهام والغموض؛ وكانت أبياته سلسلة سهلة، خفيفة على السمع، ترحب بها الأذان. وقد عكف على دراسة شعراء الإسكندرية الهلنستيين، وشعراء أيونيا الأقدمين، وأتقن ما يمتاز به شعر كلمكس Callimachus من عبارات سهلة وأوزان متعددة، وما في شعر أركلوخس Archelochus من قوة واتجاه مباشر نحو الغرض، وما في شعر أنكريون Anacreon من خمريات قوية، وما في شعر سابو من حب ونشوة. والحق أننا إذا أردنا أن نحذر كيف كان أولئك الشعراء يكتبون معظم أشعارهم، فإن علينا أن ندرس كاتلس، فقد درس هذا الشاعر أشعارهم، وأجاد فهم دروسهم إجادة رفعتهم من مرتبة تلاميذهم حتى أصبح في مرتبتهم. وقد فعل في الشعر اللاتيني ما فعله شيشرون في النثر اللاتيني، تسلمه قوة فجة فسمما به حتى أصبح فناً لا يفوقه فيه أحد غير فرجيل.

صفحة رقم : 3143

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> العلماء

كيف كانت الكتب اللاتينية تكتب وتوضح بالرسوم، وتجلد وتنتشر وتباع؟ لقد كان الرومان من أقدم الأزمان يكتبون التمارين المدرسية، والرسائل القصيرة، والسجلات التجارية التي لا يقصد بها أن تبقى طويلاً؛ كانوا يكتبون هذه كلها بقلم معدني ذي طرف رفيع على ألواح مطلية لطيفة من الشمع، ويمحون ما يكتبونه عليها بإبهامهم. وأقدم ما وصل إلينا من الأدب اللاتيني مكتوب بريش الطير والحبر على ورق مصنوع في مصر من أوراق نبات البردي التي يضم بعضها إلى بعض ويضغط ويلصق بالغراء. ثم بدأ الرق المتخذ من جلود الحيوان المجففة ينافس نبات البردي في القرن الأول الميلادي لكتابة الأدب والوثائق الهامة. وكانت الدبوما (المزدوجة) تتكون من ورقة مطوية من الرق. وكان الكتاب الأدبي يصدر عادة في صورة ملف (Volumen أي الملفوف) وتفك طياته في أثناء قراءته. وكان النص يكتب عادة في عمودين أو ثلاثة أعمدة في كل صفحة، خالياً في كثير من الأحيان من علامات الترقيم والفواصل بين الجمل أو بين الكلمات نفسها. وكانت بعض المخطوطات توضحها رسوم بالحبر، فقد كان كتاب Imagines لفارو Varro مثلاً يتألف من سبعمائة صورة لعظماء الرجال، ومع كل صورة ترجمة لصاحبها. وكان في وسع أي إنسان أن ينشر أي مخطوط يشاء باستئجار الأرقاء لنسخ صور منه، وأن يبيع النسخ بعد كتابتها. وكان للأغنياء كتبة ينسخون لهم ما يشاءون من الكتب، ويطعمونهم، ولكنهم يأجرونهم على عملهم، ولذلك كانت الكتب رخيصة، وقد جرت العادة في أول الأمر أن تكتب

صفحة رقم : 3144

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> العلماء

ألف نسخة من كل مخطوط. وكان بائعو الكتب يشترون النسخ جملة من الناشرين أمثال أتكس Atticus ثم يبيعونها فرادى في محال بيعها. ولم يكن الناشر أو البائع يعطي المؤلف شيئاً، اللهم إلا كلمة طيبة أو هدية في بعض الأحيان، ذلك أن الرسوم التي تؤدي الآن إلى مالك الكتاب لم تكن معروفة في ذلك الوقت. وكانت المكتبات العامة كثيرة العدد، وقد جعل أسنيوس بليو Asinius Pollio في عام 40 ق.م مجموعته الخاصة أولى المكتبات العامة في رومه. وفكر قيصر بإنشاء مكتبة أخرى أكبر منها وجعل فارو مديراً لها، ولكن هذه الفكرة لم تنفذ إلا في عهد أغسطس، شأنها شأن كثير من أفكار قيصر ومشروعاته.

وكان من أثر هذه الوسائل المشجعة التي خففت كثيراً من المتاعب عن طلاب العلم، أن أخذ الأدباء والعلماء الرومان ينشطون نشاط علماء الإسكندرية وأدبائها، فغمر البلاد سيل جارف من القصائد والنثرات، وكتب التاريخ، والكتب المدرسية، لا يقل في قوته عن فيضان نهر التيبير نفسه. فكان كل شريف يزين مغامراته بالشعر، وكانت كل سيده تكتب وتلحن، وكل قائد يدون مذكرات، وكان العصر عصر "الملخصات"، تخرج في كل موضوع من الموضوعات لتقي بحاجات ذلك العصر التجاري السريع.

وقد اتسع وقت ماركس ترنتيوس فارو Marcus Terentius Varro، رغم حملاته الحربية الكثيرة، خلال حياته التي دامت تسعة وثمانين عاماً (116-26 ق.م)، لتخليص كل فرع من فروع العلم يعرفه أهل زمانه. وكانت ملفاته البالغ عددها 620 ملفاً (نحو 74 كتاباً) دائرة معارف عصره كتبها رجل بمفرده. وقد افنتن بالبحث في أصول الكلمات فكتب مقالاً "في اللغة اللاتينية" لا يزال حتى الآن أكبر ما يهدينا إلى معرفة لغة الرومان الأولى. ولعله أراد أن يعاون أغسطس على تحقيق بعض أغراضه فحاول في رسالته "عن الحياة الريفية" (36De Re Rustica)

صفحة رقم : 3145

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> العلماء

ق.م) أن يشجع الناس على العودة إلى الأرض لتكون خير ملجأ يعصمهم من فوضى النزاع المدني. وقد جاء في مقدمة هذه الرسالة: "إن السنة الثمانين تذرني بان على أن أحزم متاعي وأستعد للخروج من هذه الحياة" (42)، وهو يرى أن تكون آخر وصيته له مرشداً يهديه إلى الحياة الريفية الهادئة السعيدة، ويعجب بالنساء القويات اللاتي يلدن في الحقول ثم يواصلن عملهن من فورهن (43). ثم يبدي حزنه وأسفه على نقص نسبة المواليد بين المواطنين، وهو النقص الذي اخذ يبذل سكان رومه ويقول: "لقد كانت نعمة الأطفال سبب فخر المرأة وإعجابها بنفسها، أما الآن فإنها تفخر بما يفخر به إنيوس Ennius فتفضل أن تواجه الحرب ثلاث مرات على أن تلد طفلاً واحداً". ويقول في "عاديته المقدسة" Divine Antiquities إن كثرة النسل والنظام والشجاعة في أمة ما تتطلب مبادئ أخلاقية تؤيدها عقيدة دينية. ويأخذ بقول المشرع العظيم كورنتس موسيوس أسكيفولا Q. Muciu Scarvola إن الدين نوعان - أحدهما للفلاسفة والثاني لعامة الشعب، وينادي بأن ثانيهما يجب أن يقوي وتثبت دعائمه، على الرغم مما فيه من عيوب ونقائص لا يرتضيها العقل، ويشير إلى بذل الجهود لإرجاع عبادة آلهة رومه القديمة إلى عهد الأول، وإن كان هو نفسه يؤمن بنوع غامض من وحدة الوجود. ولقد تأثر بكاتو وبوليبيوس فألقى بنفسه في تيار سياسة أغسطس الدينية وإن لم يكن من المؤمنين بمبادئها، كما نهج منهج فرجيل في تقواه الريفية. وكأما أراد فارو أن يتم أعمال كاتو الأكبر في جميع الميادين فأكمل كتاب الرقيب المعروف باسم "الأصول Oirgines" في كتابه هم المسمى "حياة الشعب الروماني" - وهو كتاب في تاريخ الحضارة الرومانية. ومما يؤسف له أن الدهر

صفحة رقم : 3146

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> العلماء

لم يبق على هذا الكتاب بل أباده كما أباد كل مؤلفات فارو تقريباً، على حين أنه أبقى التراجم التي كتبها كرنليوس نيبوس Cornelius Nepos، والتي لا تزيد قيمها على ما يكتبه صبية المدارس. لقد كان التاريخ في رومه فناً، لم

يضم إلى صفات الفن خصائص العلم، ولم يرق حتى في كتابات تاسيتس Tacitus إلى درجة البعث الإنتقادي والى تخيص المصادر. ولكن التاريخ بوصفه ميداناً من ميادين البلاغة قد وجد في ذلك العصر من يمارسه على خير وجه ونعني به كيوس سلسطيوس كرسيس (Caius sallustius Crispus 35-86 ق.م.)، وقد قام كيوس بعمل هام في السياسة والحرب إلى جانب قيصر، وحكم نوميديا وبرع في السرقة، وأنفق كثيراً من المال على النساء، ثم ركن إلى حياة الترف والأدب في بيت له في رومه اشتهر فيما بعد بحدائقه الغناء وأصبح مسكناً للأباطرة. وكانت كتبه كما كانت سياسته مواصلة للحرب بوسائل غير وسائلها. فقد كانت "التواريخ وحرب جوثين، وكتلين" كلها دفاعاً مجيداً عن العامة وهجوماً عنيفاً على "الحرس القديم". وقد أظهر فيها ما كان في رومه من انحلال خلقي، واتهم مجلس الشيوخ والمحاكم بأنها ترفع حقوق الملكية فوق الحقوق الإنسانية، وينطق ماريوس Marius بخطبة يؤكد فيها ما لطبقات الناس جميعاً من حقوق متساوية، ويطالب بان تفتح السبيل لذوي المواهب أياً كان مولدهم(46). ويزيد في تأثير قصصه بما يورده فيها من تعليقات فلسفية وتحاليل أخلاقية نفسية. وأوجد أسلوباً من الهجاء وجزءاً واضحاً سريعاً أصبح هو المثل الذي احتذاه تاسيتس Tacitus.

صفحة رقم : 3147

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> العلماء

وقد استمد هذا الأسلوب لونه ونغمته من الخطب التي كانت تلقى السوق العامة وفي الحكم، شأنه في هذا شأن جميع النثر الروماني في القرن الذي كان يعيش فيه سلسست وفي القرن الذي يليه. ذلك أن تقدم مهنة القضاء ونشأة الديمقراطية الكلامية قد زادا حاجة الناس إلى الخطابة العامة، فأخذت مدارس الخطابة يتضاعف عددها على الرغم من عداة الحكومة لها. وفي هذا يقول شيشرون إنك تجد "الخطابة في كل مكان"، وكان أول ظهور أساتذة هذا الفن في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد، ومن أشهرهم ماركس أنطونيوس (ابن أنطونيوس الشهير)، ولوسيوس كراسس Lucius Crassus، وسليسيوس روفوس Sulpicius Rufus، وكونتس هورتنسيوس Quintus Hortensius. وفي وسعنا أن نتصور ما كان لهؤلاء الخطباء من رنات قوية إذا علمنا أن الذين يستمعون لهم كانت لا تتسع لهم السوق العامة، بل كانت تغص بهم الهياكل والشرفات المجاورة لها. وكانت بلاغة هورتنسيوس واستعداده لأن يبيع مواهبه وضميره بالمال مما جعله محبوب الأشراف كما جعله من أغنياء رومه. وترك لورثته بعد وفاته عشرة آلاف دن من الخمر(46)، وكان إلقاءه قوياً حياً حتى كان روسيوس وإبسيوس وغيرهما من كبار الممثلين الذائعي الصيت يحضرون المحاكمات التي يترافع فيها ليتعلموا ما ينقصهم من فن التمثيل بدراسة حركاته وطريقة إلقاءه؛ وقد حذا حذو كاتو الكبير فراجع خطبه ونشرها، وهو الفن الذي وصل به منافسه شيشرون إلى ذروة الكمال، والذي جعل للخطابة أبلغ الأثر في النثر الروماني كله. ولقد بلغت اللغة اللاتينية عن طريق الخطابة الدرجة القصوى في البلاغة والرونق والقوة والجمال اللغات الشرقية؛ والحق أن الخطباء الشبان الذين جاءوا من بعد هورتنسيوس وشيشرون كانوا يعيبون على ما يسمونه الأسلوب "الأسوي" إسراره في المحسنات اللفظية، وفي إثارة عواطف السامعين، حتى لقد أخذ قيصر وكلفس Calvus

صفحة رقم : 3148

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> العلماء

وبروتس Brutus وبليو Polio على أنفسهم أن يلتزموا أسلوب الخطابة "الأثني" الذي يمتاز بالهدوء والعفة والاعتدال. وهنا قام الخلاف من زمن بعيد بين النزعتين "الإبداعية" و"الاتباعية" أي بين النظرة العاطفية والنظرة العقلية إلى الحياة، وما تستلزمه هذه النظرة الأخيرة من سيطرة على الأسلوب. وكان الشباب أصحاب المذهب الاتباعي يجأرون بالشكوى من أن الشرق قد أخذ يغلب رومه على أمرها في كل شيء حتى في الخطابة نفسها.

صفحة رقم : 3149

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> قلم شيشرون

الفصل الخامس

قلم شيشرون

كان شيشرون يفخر بخطبه ويدرك أن هذه الخطب تهيئ السبيل إلى الأدب الروماني، ولذلك أحس بوقع انتقادات المدرسة الأثينية، فلم يعه إلا أن يدافع عن نفسه، فكتب عدة رسائل طويلة في فن الخطابة، وقد لخص في بعضها تاريخ البلاغة الرومانية في حوار واضح بارع وضع فيه القواعد التي يجب اتباعها في تأليف الخطب وفي الإيقاع والإلقاء. ولم يسلم في هذه الرسائل بأن أسلوبه "أسيوي"، وقال إنه قد حذا فيه حذو ديمستين Demosthenes واتهم "الأثينيين" بأن خطبهم الفاترة الخالية من العواطف تتيم السامعين أو تجعلهم يفرّون منهم.

وتوضح السبع والخمسون التي وصلت إلينا من خطب شيشرون جميع الحيل التي يلجأ إليها من خطب الخطباء الناجحون. فهي توفي على الغاية في عرض ناحية واحدة من نواحي الموضوع الذي يتحدث عنه الخطيب عرضاً يفيض حرارة وحماسة؛ وفي إدخال السرور على المستمعين بالفكاهات والنوادر؛ وفي إثارة كبريائهم وأهوائهم، وعواطفهم، ووطنيتهم، وتقواهم؛ وفي عرض أخطاء المعارض له أو أخطاء مولاه سواء كانت صحيحة أو مما يروبوها الناس عنه، وسواء كانت تمس الشؤون العامة أو تمسه هو نفسه؛ ويحذقه في تحويل انتباه السامعين من النقط التي في غير صالحه، وغمرهم بفيض من الأسئلة الخطابية يضعها بحيث تكون الإجابة عنها صعبة أو مؤذية، ثم يكبل التهم في جمل تكون عبارتها قوية قوة السباط، وتيارها الجارف يغمر المستمعين؛ ولا تدعى هذه الخطب أنها عادلة منصفة بل إن فيها من التجريح أكثر مما فيها من التصريح، وهي خلاصات يستغل من

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> قلم شيشرون

يلقيها حرية القذف التي كانت محرمة في المسارح، ولكنها مباحة في السوق العامة وفي ساحات القضاء. ولا يتردد شيشرون في أن يصف ضحاياه بألفاظ مثل "الخنزير" و"البواء" و"الجزار" و"القذارة"؛ ويقول لبيزو Piso إن العذاري يقتلن أنفسهن ليتقين شر عُهره، ويصب اللعنات على أنطونيوس لأنه يظهر حبه لزوجته على ملاء الناس؛ وكانت هذه المثالب تسر المستمعين والمحلفين ولم يكن أحد من الناس يأخذها مأخذ الجد. ولم يأنف شيشرون نفسه من أن يكتب إلى بيزو رسائل تقيض وداً وصداقة بعد بضع سنين من هجومه الوحشي عليه في In Pisonem. وجدير بنا فوق هذا أن نقر بأن في خطب شيشرون من الأناثية والبلاغة الخطابية أكثر مما فيها من الإخلاص الخلقي أو الحكمة الفلسفية، بل إن فيها من الأناثية والبلاغة أكثر مما فيها من الفطنة أو التعمق القانوني، ولكنها بلاغة ليست كمثلاً بلاغة قط. إن خطب ديموستين نفسه لم يكن فيها هذا التصوير الواضح، الحيوي، وهذه الفكاهة الغزيرة، وهذا القذف اللاذع لبني الإنسان؛ ومما لا جدال فيه أنا لا نجد أحداً قبل شيشرون أو بعده قد أكسب اللغة اللاتينية ما أكسبها هو من سحر وسلامة فائتة، وقوة عاطفية وجمال. لقد كانت خطبه أسمى ما وصل إليه النثر اللاتيني؛ وقد كتب إليه قيصر الكريم وهو يهدي إليه كتابه "في التشبيه" يقول: "لقد كشفت كل كنوز الخطابة، وكنت أنت أول من استخدمها، وبذلك كانت لك اليد الطولي على جميع الرومان، وكنت مفخرة وطنك؛ لقد نلت نصراً دونة نصر أعظم القواد، لأن الذهن البشري أنبل من توسيع رقعة الإمبراطورية الرومانية" (47).

وتكشف خطب شيشرون عن أخلاقه السياسية، أما رسائله فتكشف عن إنسانيته، وتجعل المرء يعفو عن جميع عيوبه السياسية. لقد أملى هذه الخطب كلها إلا قلة منها على أمين سره، ولم يراجعها بنفسه، ولم يكن يفكر وهو يكتب معظمها أنها ستشر على الملأ، ومن أجل هذا فإن الناس لم تعرض عليهم نفسية إنسان

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> قلم شيشرون

وسريرته كاملتين، كما عرضت عليهم نفسية شيشرون وسريرته. وفي ذلك يقول نيبوس Nepos "لا حاجة لمن يقرأ هذه الرسائل بقراءة تاريخ تلك الأيام"، ذلك أن في وسع قارئها أن يطلع على أهم الفصول الحيوية من المسرحية الثورية من داخلها، والسنائر كلها مرفوعة عنها. وأسلوبها في الغالب صريح قديم، خال من الفن والتكلف، ملئ بالملح والفكاهات (49)، ولغتها مزيج جذاب من الرقة الأدبية، وسلاسة اللغة الدارجة. وهي أكثر ما بقي من آثار شيشرون بل من النثر اللاتيني كله طرفة ومرتعة؛ ومن الطبيعي أن نجد في هذه المجموعة الكبيرة من الرسائل (وهي تشمل 864 رسالة تسعون منها كتبت لشيشرون) بعض المنتاقضات وغير قليل من الشواهد الدالة على عدم الإخلاص. وليس فيها كلها أثر واحد للتقي والإيمان اللذين يطالعنا كثيراً في مقالات شيشرون أو في تلك الخطب التي يجعل الألهاة فيها ملجأه الأخير، ويتبين لنا من هذه الرسائل أن رأيه الخاص في كثير من الناس، وخاصة في قيصر، لا يتفق على الدوام مع ما يصفهم به جهرة (50)، وفيها يظهر غروره الشديد الذي لا يكاد يصدق العقل ألطف وأحب إلى

النفس مما يظهر في خطبه، حيث يبدو لنا وكأنه يحمل معه تمثالاً أينما ذهب. وهو يقر مبتسماً بأن "تقديرى لنفسى وثنائى عليها أعظم الأشياء قدراً عندى" (51). ويؤكد لنا في سداجة ساحرة أنه "إذا كان في الناس من لا يتصف بالغرور فهو أنا" (52). ومما يلهو به القارئ ما يجده فيها من رسائل كثيرة عن المال، ومن أقوال كثيرة عن بيوته المتعددة. فقد كان له فضلاً عن بيوته ذات الحدائق في أربينوم Arpinum وأستوري Asturae وبتيولي وبمبي Pompeii كان له فضلاً عن هذه البيوت ضيعة في فورميا Formiae تبلغ قيمتها 250.000 سترس، وأخرى في تسكولوم Tusculum تساوي 500.000، وقصر عل نل بلاتين

صفحة رقم : 3152

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> قلم شيشرون

Palatine كلفته 3.500.000 ألا إن هذه المتع وأسباب الترف لتبدو شنيعة مشينة إذا ما أتصف بها الفيلسوف. ولكن هل في الناس من بلغت فضائله تبقى معها سمعته إذا ما نشرت رسائله الخاصة؟ والحق أن الإنسان إذا أمعن في قراءة هذه الرسائل يكاد يحب هذا الرجل. إنه في واقع الأمر لم يكن له من الأغلاط، ولعله لم يكن له من الغرور، أكثر مما لنا، ولكنه أخطأ إذ خلد هذه الأغلاط وهذا الغرور في نثر أوفى على الكمال. وخير ما نستطيع أن نصفه به أن كان عاملاً مجداً، وأباً رحيماً، وصديقاً وفياً؛ وفي وسعنا أن نراه في بيته مولعاً بكتبه وأبنائه، يحاول أن يحب زوجه ترنتيا Terentia الغضوب المصابة بالربثية والتي لم تكن تقل عنه ثروة أو فصاحة. ولقد أوتى هو وزوجه من الثروة ما يبعد عنهما السعادة، وكانت متاعبهما ومنازعاتهما تنشأ على الدوام من حساباتهما الضخمة، وظلت هذه المنازعات تزداد حتى طلقها بسبب تشاحن على المال نشأ بينهما. ولم يلبث بعد أن طلقها أن تزوج بيليا Publia؛ وقد اسفلت نظره إليها أنها ذات ثروة طائلة وليست كبيرة السن، فلما أن أظهرت بغضها لابنته تليا Tullia طلقها هي الأخرى. وكان يحب تليا أشد الحب، فلما ماتت حزن عليها حزناً كاد يذهب بعقله، وأراد أن يشيد لها معبداً كمعابد الآلهة. ومن أطف رسائل شيشرون التي كتبها إلى تيرو Tiro كبير أمناء سره والتي كتبها عنه. وكان تيرو يكتب ما يمليه عليه مختزلاً، ويشرف له على أمواله بقدرة وأمانة كافاه عليهما شيشرون بتحريه من الرق. وأكثر الخطابات عدداً هي التي كتبها إلى أنكس Atticus الذي كان

صفحة رقم : 3153

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> قلم شيشرون

يستثمر لشيشرون أمواله المدخرة والذي أنجاه من عدة ورطات مالية، ونشر له مؤلفاته، وأسدى إليه من النصح السديد ما لم يعمل به. وقد كتب شيشرون إلى أنكس، وكان غائباً في بلاد اليونان عن حكمة وفطنة حين بلغت الثورة عنفوانها، خطاباً يعد مضرب المثل في الوفاء وعذوبة اللفظ قال فيه:

لست اشعر بحاجة أشد من حاجتي إلى من أستطيع أن أفضي إليه بكل ما يتصل بي، ومن يحبني، ومن أتق بحزمه وحصافة رأيه، ومن أستطيع أن أتحدث إليه بلا ملق ولا رياء ولا تحفظ. إن أخي الذي يفيض صراحة وحناناً غائب عني... وأنت يا من أنجيتني من متاعبي وأسباب قلقي برأيك السديد، ويا من كنت رفيقي في الشؤون العامة وموضع ثقتي في جميع شؤوني الخاصة. وشريكي في جميع أقوالي وأفكاري- أين أنت؟ (54).

وبينما كانت بلاد الرومان تمر بتلك الأيام العصيبة حين عبر قيصر الروبكون وهزم بمبي، ونصب نفسه حاكماً بأمره، اعتزل شيشرون الحياة العامة إلى حين وأخذ ينشد الراحة من عنائها في قراءة الفلسفة والكتابة فيها. وقد كتب إلى أنكس في ذلك الوقت يقول له: "تذكر ما وعدتني به فلا تعط كتبك لإنسان ما بل احتفظ بها لي. إنني أحبها أعظم الحب، وتتمنئ نفسي أشد الاشمئزاز من كل ما عداها" (55). وقد عمل وقتئذ بما كان ينصح به غيره، وأصدر في فترة لا تزيد إلا قليلاً على سنتين ما يكاد يكون مكتبة في الفلسفة ذلك أن ضعف العقيدة الدينية لدى الطبقات العليا قد خلف وراءه فراغاً أخلاقياً لاح معه

صفحة رقم : 3154

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> قلم شيشرون

أن رومه تتردى في مهاوي الانحلال الخلقي والاجتماعي. وكان شيشرون يأمل أن تحل الفلسفة محل الدين متهددي هذه الطبقات إلى الحياة الطبيعية، وتحفزها لأن تحيا هذه الحياة، ولم يكن يعتزم أن يضيف إلى النظم الفلسفية السابقة نظاماً جديداً، بل كان كل ما يهدف له هو تلخيص تعاليم حكماء اليونان وتقديمها للرومان لتكون آخر ما يهديه لهم في حياته (57). وقد بلغ من أمانته العلمية أن أقر في غير خفاء أنه يستمد فلسفته من رسائل بانتيوس Panaetius وبوسيدونيوس Poseidonius وغيرهما من فلاسفة اليونان المحدثين (58)، وأن عمله لا يزيد على تكييف رسائلهما تكييفاً جديداً؛ بل إنه في بعض الأحيان لا يفعل أكثر من ترجمة هذه الرسائل. ولكنه قد حول نثر هؤلاء الفلاسفة الجاف الممل إلى لغة لاتينية سهلة، واضحة، جذابة، وجمل بحوثه بالحوار. وكان ينتقل فيها تنقلاً سريعاً من بيداء المنطق وما وراء الطبيعة الجذباء، إلى المشاكل الحية، مشاكل السلوك وحكم البلاد. وقد اضطر كما اضطر لكريشوس إلى ابتكار مصطلحات فلسفية جديدة، ونجح في هذا نجاحاً جعله صاحب الفضل على اللغة والفلسفة كلتيهما. والحق أن الحكمة لم يزنها من أيام أفلاطون هو الذي استمد منه شيشرون معظم أفكاره؛ ذلك بأنه لم يكن يحب تحكم الأبيقوريين الذين "يتحدثون عن الأمور الإلهية حديث الوائقين، حتى ليخيل إليك أنهم قد جاءوا لساعتهم من مجتمع للآلهة". وكذلك لم يكن يعجبه تحكم الرواقين الذين يلوون الحجج عن قصد وتعمد حتى ليخيل إليك أن الآلهة أنفسهم إنما وجدت لمنفعة الأدميين (59) وتلك نظرية لم ير شيشرون نفسه في بعض أطواره أنها بعيدة عن حكم العقل. وكانت النقطة التي بدأ منها فلسفته هي بعينها بداية فلسفة الأقدمية الجديدة The New Academy - أي التشكك الهين الذي لا يعترف بأن شيئاً ما مؤكداً كل التأكيد، والذي يرى في الاحتمالات الراجعة ما يكفي مطالب الحياة البشرية؛

صفحة رقم : 3155

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> فلم شيشرون

وفي ذلك يقول في بعض كتاباته: "إن فلسفتي في معظم الحالات هي فلسفة الشك(61).. ولعلمكم تأذنون لي ألا أعرف ما لا أعرفه"(61). ويقول في موضع آخر: "إن الذين يريدون أن يعرفوا رأيي الشخصي يظهرن قدرأ من التشوف لا يقره العقل"(62). ولكن ما أوتي من قدرة فائقة على التعبير سرعان ما كان يتغلب على حياته: فيهزأ بالتضحيات الدينية، والهاتقين والعرافين. ويخصص رسالة بأكملها لإنكار القدرة على التنبؤ بالغيب، ويتساءل في معرض استنكار الاعتقاد بالتنجيم، وهو الاعتقاد الذي كان واسع الانتشار في تلك الأيام، هل كان من قتلوا في واقعة كاني قد ولدوا في مطلع نجم واحد(63). بل إنه ليشك في أن العلم بالمستقبل خير لمن يعلمه، وذلك لأن المستقبل نفسه قد يكون كريهاً كغيره من الحقائق الكثيرة التي يدفعنا حمقنا إلى الجري وراءها. ويظن شيشرون أن في مقدوره أن يقضي على العقائد القديمة كلها قضاء مبرماً بالسخرية منها والاستهزاء بها. فيقول مثلاً: "إذا سميت الحب سيريز Ceres وسميت الخمر باخوس Bachus كانت هذه التسمية استعارة من الاستعارات المألوفة، ولكن هل تظن أن أحداً من الناس قد بلغ به الجنون إلى الحد الذي يعتقد معه أن ما يأكله إله بحق"(63). على أن شكه في الإلحاد لم يكن يقل عن شكه في أية عقيدة تحكيمية أخرى. فهو يرفض العقيدة الذرية التي كان يقول بها دمقريطس ولكريشيوس، ويقول إن من أبعد الأشياء أن تنظم الذرات نفسها بلا هاد يهديها ولو ظلت تفعل كذلك أبد الدهر، ثم ينشأ من هذا التنظيم عالمنا الذي نعيش فيه. وشأنها في ذلك شأن الحروف الهجائية فإن من أبعد الأشياء كذلك أن تتجمع هذه الحروف من تلقاء نفسها فينشأ من تجمعها "حوليات إنبيوس"(64). ويقول إن

صفحة رقم : 3156

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> فلم شيشرون

جهلنا بالآلهة ليس بالدليل القاطع على عدم وجودها، بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا فيقول إن إجماع الناس على وجودها يكفي في حد ذاته لترجيح وجود قوة مدبرة. ويستخلص من هذا أن الدين نظام لا بد منه للأخلاق الشخصية والنظام العام، وأنه نظام لا يمكن أن يهاجمه إنسان عاقل(65)؛ ولذلك فإنه ظل يقوم بواجبات العراف الرسمي في الوقت الذي كان يكتب فيه ضد التنبؤ والعرافة. ولم يكن يعد هذا نفاقاً بمعناه الصحيح، ولعله كان يسميه سياسة وحسن التصرف. ذلك أن الأخلاق الرومانية، والمجتمع الروماني، ونظام الحكم فيه، كانت كلها وثيقة الارتباط بالدين القديم، وأنه إذا أريد لها البقاء وجب ألا يترك هذا الدين كي يموت. (وكان الأباطرة يبررون اضطهاد المسيحيين بمنزل هذه الحجج). ولما توفيت ثليا التي كان يحبها أعظم الحب، اشتدت به نزعة الأمل في الخلود. وكان قيل ذلك بعدة سنين كثيرة قد استعار من فيثاغورس وأفلاطون وإيكسودس في "حلم سيبو" الذي اختتم به "جمهورية" أسطورة معقدة بليغة عن حياة بعد الموت، بنعم فيها الموتى العظماء الصالحين بالنعيم الأبدى. أما في رسائله الخاصة- وحتى في رسائله التي يواسي فيها الثاكليين من أصدقائه- فإنه لا يذكر قط شيئاً عن الحياة الآخرة. وإذ كان على علم بما يسري في أيامه من نزعة التشكك فإن الأسس التي أقام عليها بحوثه في الأخلاق والسياسة كانت أسساً دنيوية محضة، لا تعتمد قط على تأييد غير القوى الطبيعية. فهو يبدأ (في De Finbus) بالتساؤل عن الطريق الموصلى إلى السعادة. ثم يوافق الرواقيين في شيء من التردد على أن الفضيلة وحدها لا تكفي للوصول إليها. ومن أجل هذا تراه (في De Efficus) يبحث عن طريق الفضيلة، ويفلح بفضل جمال أسلوبه في أن يجعل الواجب محبباً ممتعاً إلى حين، وفي ذلك يقول: "الناس جميعاً أخوة، وخلق بنا أن نعد العالم كله مدينةً مشتركة للآلهة والبشر على السواء"(66). ثم يواصل حديثه قائلاً إن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> فلم شيشرون

أسمى المبادئ الخلقية هي الولاء لهذا الكل، ولاء يكون الحافز له هو الضمير الحي. وأول ما يجب على الإنسان لنفسه وللمجتمع، أن يقيم حياته على أساس اقتصادي سليم، وعليه بعدئذ أن يؤدي واجباته بوصفه مواطناً في بلده. والسياسة الحكيمة أعظم شرفاً من أعمق البحوث الفلسفية(67).

وهو يرى أن الملكية المطلقة خير أنواع الحكومات إذا كان الملك صالحاً، وأكثرها شراً وفساداً إذا كان الملك فاسداً. وتلك حقيقة سرعان ما تأيدت في رومه نفسها. وعنده أن الحكومات الأرستقراطية تصلح إذا كان الحاكمون فيها هم أحسن الناس حقاً. ولكن شيشرون، وهو من أفراد الطبقة الوسطى، لا يسلم تسليمياً مطلقاً بأن الأسر القديمة المحافظة على أرستقراطيتها خير الأسر. والحكم الديمقراطي في رأيه يصلح إذا كان الشعب فاضلاً، وهذا في ظنه لا يكون أبداً. هذا إلى أن هذا الحكم يفسده الافتراض الكاذب بأن الناس متساوون. ولذلك كان خير الحكومات هي التي تقوم على دستور يجمع بين هذه الأنواع كلها كحكومة رومه قبل عهد ابني جراكس، فقد جمعت بين سلطة الجمعيات الديمقراطية، وسلطة مجلس الشيوخ الأرستقراطية، وسلطة القنصلين التي لا تكاد تقل عن سلطة الملوك في السنة التي يتولىان فيها منصبهما، والملكية إذا لم تكن لها ضوابط وموازين تصبح حكومة استبدادية، كما أن هذه الظروف نفسها تجعل الأرستقراطية الجركية، وتجعل الديمقراطية حكم الغوغاء وتستحيل إلى فوضى وطغيان. وقد كتب بعد خمس سنين من تولى قيصر منصب القنصلية، وكأنه فيما كتب كان يصوب السهم إلى صدر قيصر:

يقول أفلاطون إن الحكام المستبدين ينبتون من مغالاة الناس في التحلل من القيود تحلاً بسميه حرية، كما ينبت النبات من الجذور... وإن هذه الحرية تهوى بالأمة آخر الأمر إلى درك الاستعباد.. إن كل شيء يزيد على

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> فلم شيشرون

حده ينقلب إلى ضده.. وذلك لأن العامة التي ليس لها حاكم يسيطر عليها تختار من بينها في العادة زعيماً يقودها.. وهو إنسان جري لا ضمير له.. يسعى لنيل رضا الناس بما يعطيهم من أموال غيرهم. ولما كان هذا الرجل يخشى أشد الخشية أن يظل فرداً كغيره من الأفراد فإنهم يخلعون عليه حماية المنصب العام، ويجددون له هذه الحماية على الدوام، فيحيط نفسه بحرس مسلح، وينتهي به الأمر إلى أن يصبح طاغية يستبد بالشعب الذي حباه القوة والسلطان(68).

ولكن قيصر أرغم هذا نال بغيته، ورأى شيشرون أن خير ما يفعله هو أن يكظم غيظه ويرفه عن نفسه بالقول المعاد في القانون، والصدافة، والمجد، والشيوخة، وبأن "القوانين تلتزم الصمت في أيام الحرب" Silent lege enter arma على حد قوله هو نفسه. على أنه كان في وسعه على الأقل أن يستسلم للتفكير في فلسفة القانون، وقد عرفه كما

عرفه الرواقيون بأنه "التفكير الصحيح المنفق مع الطبيعة" (69) أي أن القانون يعمل لجعل الصلات التي تنشأ من دوافع الناس الاجتماعية صلات منظمة مستقرة. وفي ذلك يقول إن "الطبيعة قد غرست في نفوسنا الميل إلى حب الناس" (المجتمع)، "وهذا هو أصل القانون" (70) ويرى شيشرون أن الصداقة يجب ألا تقوم على المنافع المتبادلة بل على المصالح المشتركة التي تدعمها، وتحدوها الفضيلة والعدالة، وأن قانون الصداقة هو "ألا يطلب الإنسان إلى صديقه أن يعمل أشياء غير شريفة، وألا يعملها هو إذا طلب إليه عملها" (71)، وعنده أن الحياة الشريفة هي خير ضمان للشيخوخة السارة، وأن الاستهتار والإسراف في أيام الصبا يتركبان الشيخوخة جسماً والعقل منهوكاً قبل الأوان. أما الحياة التي تقضي على خير وجه فقد يبقى الجسم والعقل فيها سليمين حتى يبلغ المرء مائة من السنين، ولنضرب لذلك ماسينسا Masinassa. والانكباب على الدرس قد يجعل الإنسان "يغفل عن اقتراب الشيخوخة منه خفية" (72). والشيخوخة أمجادها كما للشباب أمجادها- ففيها الحكمة المتسامية،

صفحة رقم : 3159

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> قلم شيشرون

وفيهما حب الأطفال آباءهم وإجلالهم إياهم، وفيها تهدأ حمى الرغبات والمطامح. وقد نخشى الشيخوخة الموت ولكن ذلك لا يحدث إذا كان العقل قد كونه الفلسفة، فأدرك أن وراء القبر، في أحسن الأحوال، حياة جديدة أسعد من الحياة وفي أسوأها (73).

وفي وسعنا أن نحكم على مقالات شيشرون في الفلسفة بأنها كلها ضئيلة الأثر، وأنها كآرائه في الحكم والسياسة تستمسك فوق ما يجب بالسنن القديمة والتقاليد المرعية. وسبب ذلك أنه وإن أوتي تشوف العالم فقد أوتي معه حذر أبناء الطبقة الوسطى وضعف عزيمتهم، ولذلك ظل في فلسفته نفسها سياسياً يكره أن يسيء إلى شخص واحد من الناس، خشية أن يفقد بذلك صوته يوم الانتخاب. وكان ديدنه أن يجمع آراء غيره ويجيد الموازنة بين ما لها وما عليها، فإذا انتهى من هذه الموازنة خرج السامع بعدها من نفس الباب الذي دخل منه، لا يدري أي الكفتين ترجح على الأخرى. ولولا ما امتازت به هذه الكتب الصغيرة من أسلوب سهل جميل لعفي عليها الزمان، ولما بقي لها ذكر الآن. فما أجمل لاتينية شيشرون وما أسهل قراءتها، وما أسلس لغتها وأوضحها! لقد كان إذا قص حادثة أسبغ عليها من الحيوية التي تسري في خطبه فتسترعي الأسماع وتسحر الألباب. وإذا وصف شخصاً أظهر في هذا الوصف من البراعة ما يجعل القارئ يتأسف معه لأنه لم يجد متنسماً من الوقت يمكنه من أن يكون أعظم مؤرخي رومه (74)، وإذا انطلق في الخطابة أفاض على السامع جُملاً متزنة، جميلة اللفظ، قوية العبارة، مما أخذته عن إيزوقراطيس Isocrates، وجعل السوق العامة تدوي بالتصفيق والاستحسان.

إن آراء شيشرون هي آراء الطبقات العليا، أما أسلوبه فقد أراد به أن يصل إلى قلوب الشعب؛ ومن أجل هذا تراه يبذل جهده لكي يكون

صفحة رقم : 3160

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> الأدب في عهد الثورة -> قلم شيشرون

هذا الأسلوب واضحاً لا غموض فيه، وأن تكون الحقائق التي يوردها مما يهز مشاعر السامعين هزاً، وهو يمزج المعنويات بالنوادر والفكاهات.
وملاك القول أن شيشرون قد خلق اللغة اللاتينية خلقاً جديداً، فوسع نطاق مفرداتها، وصاغ منها أداة مرنة للتعبير عن الفلسفة، وجعلها صالحة لاستيعاب الآداب والعلوم في أوروبا الغربية سبعة عشر قرناً من الزمان. وإن الأجيال التي جاءت بعده لتذكره على أنه مؤلف أكثر منه رجل سياسة. ولما أن نسي الناس ما قام به وهو قنصل من أعمال مجيدة، أو كادوا ينسونها، على الرغم مما فيها من ذكريات طيبة، ظلوا يمجدون فتوحه في عالم الأدب والفصاحة. وإذا كان من عادة الناس أن يمجدوا الصورة كما يمجدون المادة، وأن يعظموا الفن كما يعظمون العلم والسلطان، دون سائر الرومان، من الشهرة ما لم ينل أكثر منه إلا قيصر وحده. ولم يغفر هو لرومه هذا الاستثناء الوحيد.

صفحة رقم : 3161

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الرقيع

الباب التاسع

قيصر

100-44 ق.م

الفصل الأول

الرقيع

يقول يوليوس قيصر إنه ينتمي إلى يولوس أسكانيوس Iulus Ascanius ابن إينياس Aeneas ابن فينوس Venus الزهرة) ابنة جوبيتر: أي أنه بدأ حياته إلهاً واختتمها إلهاً. وكان آل يوليوس من أقدم الأسر في إيطاليا وأعلىها شرفاً، وإن كان الدهر قد عدا عليها فذهب بمالها وأفقرها. فقد كان أحد أفراد هذه الأسرة يوليوس قنصلاً في عام 489، كان منها قنصل آخر في عام 482، وكان فوبسكس يوليوس Vopiscus Julius قنصلاً في عام 473، وسكستس يوليوس Sextus Julius في عام 157، وآخر في عام 191(1). وقد ورث عن عم لزوجته يدعى ماريوس- كما يرث الناس في بعض الأحيان عن أعمامهم- ميلاً إلى المبادئ السياسية المتطرفة. وكانت أمه أورليا سيدة وقورة حكيمة مقتعدة في تدبير شؤون بيتها الصغير، وكان هذا البيت

صفحة رقم : 3162

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الرقيع

في حي سابورة- وهو حي من الطراز القديم، ومن الأحياء التي تكثر فيها الحوانيت والحانات والمواخير. في هذا البيت ولد قيصر في عام 100 ق.م، وكان مولده نتيجة لجراحة هي التي كانت سبباً في تسميته باسمه الأول . ويقول سيوتونيوس Suetnius فيما نقله عنه هلند Holland إن قيصر هذا كان شخصاً مطيعاً سلس القيادة إلى حد يدعو للعجب، كما كان الميل إلى التعلم". وكان المعلم الذي يتولى تعليمه اللغتين اللاتينية واليونانية وعلوم البلاغة رجلاً من الغالبيين. وشرع قيصر مع هذا المعلم يعد نفسه على غير علم منه للفوز بأعظم فتوحه كلها. ذلك أن الشاب أظهر استعداداً عظيماً للخطابة، وبدأ في شبابه يكتب ويؤلف. ثم أنفذه من هذه النزعة تعيينه ياوراً حريباً لماركس ثرمس Marcus Thermus في آسيا. وأحبه نقوميديس Nicomedes والى بيثينيا Bithynia حباً دفع شيشرون وغيره من الثرثارين المغتابين إلى أن يعيروه بأنه "أسلم عذرتة لملك"(2). ولما عاد إلى رومه في عام 84 تزوج كوساتيا Cossutia استجابة لرغبة أبيه. فلما أن توفي والده بعد زواجه منها بزمن قليل طلقها وتزوج كورنليا Cornelia ابنة سنا Cinna الذي تولى قيادة الثورة بعد ماريوس. ولما تولى صلاحاً زمام السلطة أمر قيصر أن يطلق كورنليا، فلما أبى أن يطيع هذا المر صادر صلاحاً أملاكه التي ورثها عن أبيه كما صادر بائنة كورنليا وسجل اسمه في المحكوم عليهم بالإعدام.

ولما علم قيصر بذلك هرب من إيطاليا وانضم إلى الجيش المحارب في قليقية، حتى إذا مات صلاحاً عاد إلى رومه (75). ولما رأى أن أعداءه هم أصحاب الأمر والنهي فيها غادرها مرة أخرى إلى آسيا. وأسره القرصنة في الطريق واقتادوه إلى كمين لهم في قليقية، وعرضوا عليه أن يطلقوا سراحه نظير فدية قدرها عشرون

صفحة رقم : 3163

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الرقيع

تالنتا (72.000 ريال أمريكي)، فلما سمع ذلك لاسهم على أنهم لم يقدره حق قدره، وعرض عليهم هو نفسه أن يعطيهم خمسين تالنتا. وأرسل خدمه ليأتوه بالمال، وأخذ في هذه الأثناء يسلي نفسه بكتابة القصائد وقراءتها على أسريه. فلما لم تعجبهم قصائده ساهم برابرة همجاً، وأو عدهم بأنه سيشنقهم في أول فرصة تتاح له. ولما جاءه الفداء أسرع بالذهاب إلى ميليطس Miletus وأعد السفن والملاحين، وطارد القرصنة وقبض عليهم، واستعاد منهم الفداء، وصلبهم؛ ولكنه وهو الرجل الشفيق الرحيم قطع رقابهم أولاً (3). وذهب بعدئذ إلى جزيرة رودس ليدرس فيها البلاغة والفلسفة.

ولما عاد إلى رومه وزع جهوده بين السياسة والحب. وكان وسيم الوجه وإن كان سقوط شعر رأسه في هذه السن المبكرة أخذ يشغل باله. ولما توفيت كرنليا في عام 68 تزوج بمبا ابنة حفيده صلا. وإذا كان هذا الزواج زواجاً سياسياً محضاً فإنه لم يتورع عن العلاقات الجنسية غير المشروعة حسب عادة ذلك الوقت؛ ولكن هذه العلاقات بلغت من الكثرة ومن التنوع الشاذ حداً جعل كوريا Curia (والد قائده الأخير) يصفه بقوله إنه "زوج كل امرأة وزوجة كل رجل" (4ommmium mulierum vir et ommium virorum mulier). وظل يتبع هذه العادات نفسها في حروبه فبيعت مع كيلوبطرة في مصر، ومع الملكة إيونو Eunoe في نوميديا، ومع كثيرات من النساء في غالة، حتى كان جنوده يلقبونه في مزاحهم بلقب "الزاني الأصلع". ولما تم له النصر في بلاد الغالبيين أخذ جنوده يشدون ببئين من الشعر المقفى يحذرون فيهما جميع الأزواج بقولهم إن عليهم أن يغلقوا الأبواب على زوجاتهم ما دام قيصر في المدينة. وكان الأشراف يحقدون عليه لسببين أولهما أنه قضى على امتيازاتهم، وثانيهما أنه أفسد زوجاتهم؛ وطلق بمبي زوجته لاتصالها بقيصر، ولم تكن كراهية كاتو الشديدة له منبعثة عن أسباب فلسفية خالصة بل كان من أسبابها أن أختاً له غير شقيقة تدعى

صفحة رقم : 3164

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الرقيع

سرفليا Servilia كانت أحب عشيقات قيصر له. ولما ارتاب كاتو في صلات قيصر بكاتلين وظنه شريكاً له في مؤامراته طلب إليه في مجلس الشيوخ أن يقرأ جهرة رسالة جئ بها إليه في تلك اللحظة، فما كان من قيصر إلا أن أوصلهما إليه دون تعليق عليها، فإذا هي رسالة حب بعثت بها إليه سرفليا (5). وظلت تهيم بحبه طوال حياته؛ وكانت السنة السوء القاسية تتهما في أخريات أيامها بأنها أسلمت ابنتها ترشيا Tertia إلى قيصر لتشبع شهواته. وحدث في مزاد علني أثناء الحرب الأهلية أن باع قيصر إلى سرفليا ضياعاً صادرها من جماعة من الأشراف المعاندين بثمان أسمي زهيد. ولما أظهر بعضهم دهشته من ضالة الثمن قال شيشرون في سخرية لاذعة كانت خليقة بأن تطيح برأسه إنه *tertia deducta*، وهي عبارة تحتمل معنيين فقد يكون معناها أن الثمن "ينقص ثلثه" وقد تكون إشارة منه إلى الإشاعة الرائجة وقتئذ وهي أن سرفليا قد جاءت بابنتها ترشيا إلى قيصر. وأصبحت ترشيا فيما بعد زوجاً ليكيوس القاتل الأول لقيصر، وهكذا يختلط عشق الخلائق بالفتن التي تندلع نيرانها في الدول.

ولعل هذه الظروف قد ساعدت على رفع قيصر إلى أعلى الدرجات، ولعلها أيضاً قد عانت على سقوطه. فقد كانت كل امرأة فاز بحبها صديقة له عظيمة النفع، وخاصة في معسكرات الأعداء؛ وقد حافظت معظمهن على وفائهن له حتى بعد أن هدأت عاطفة حبه لهن وأضحت لا تزيد على المجاملات المألوفة من الرجال إلى النساء. من ذلك أن كراسس أقرض قيصر أموالاً طائلة ليستخدمها في الدعاية لنفسه وهو يطالب بالفتصلية فيرشو بها الشعب، ويقيم له الألعاب، وذلك على الرغم مما كان يشاع وقتئذ من أن زوجته ترتلا كانت تعشق قيصر.

وحسبك دليلاً على مقدار هذه الأموال أن قيصر كان يوم ما مديناً له بثمانمائة تالنت (2.800.000 ريال أمريكي). ولم يكن الباعث على هذه القروض هو الكرم والصدقة، بل كانت بمثابة اشتراك من أصحابها في الحملات

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الرقيع

تود إليهم في صورة مساعدات سياسية أو غنائم حربية؛ فقد كان كراسس - كما كان أتكس - في حاجة إلى من يحمي ملايينه وتتيح له فرص استثمارها. وكان معظم الساسة الرومان في ذلك الوقت ينوعون بمثل هذه "الديون". فقد كان ماركس أنطونيوس مثلاً مديناً بنحو 40.000.000 سسترس، وشيشرون بستين مليوناً، وميلو Milo بسبعين مليوناً على أن من الجائز أن تكون هذه الأرقام افتراء على هؤلاء الساسة.

وجملة القول أن علينا أن نتمثل في أول حياته في صورة السياسي الذي لا ضمير له، والرقيع المستهتر، الذي بدلته السنون والتبعات شيئاً فشيئاً فجعلته من أقدر رجال الحكم وأرعاهم للحرمان في تاريخ العالم. وينبغي لنا - ونحن نطرب من عيوبه ونقائصه - ألا ننسى أنه كان رجلاً عظيماً على الرغم من هذه العيوب والنقائص. وليس في وسعنا أن نسوي بين أنفسنا وبين قيصر بقولنا إنه كان يضل بالنساء، ويرشو الزعماء، ويؤلف الكتب.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> القنصل

الفصل الثاني

القنصل

بدأ قيصر حياته السياسية بأن تحالف مع كاتلين سراً واختتمها بأن أعاد الحياة إلى رومه. ذلك أنه لم يكد يمضي عام واحد على موت صلا حتى قدم للمحاكمة نيبوس دلابل Gnaeus Dolabella أحد العاملين في حركة صلا الرجعية، وكان قرار المحلفين على غير ما يشتهي قيصر، ولكن العامة هللت له حين هاجم ذلك القرار في خطبة بليغة ردد فيها المبادئ الديمقراطية. نعم إنه لم يكن يضارع شيشرون في تمسسه وفكاهته، أو في جملة الموزونة القوية، أو في حدة لسانه. والحق أن قيصر كان يبغض أسلوب شيشرون "الأسوي" لأنه اعتاد من أول الأمر ذلك الأسلوب الموجز

القوي ذا البساطة الصارمة التي امتازت بها فيما بعد "تعليقاته" على الحربين الغالية والأهلية. على أنه رغم هذا كله لم يلبث أن صار أفصح الفصحاء في رومه إذا استثنينا شيشرون نفسه(6). واختير قيصر كوسترا في عام 68، وأرسل للعمل في أسبانيا حيث تولى قيادة الحملات العسكرية التي سيرت لتأديب القبائل الوطنية، فخرّب مدينتها، ونهب من الأموال ما استطاع أن يوفي به بعض ما عليه من الديون. على أن هذه المدن قد حمدت له في الوقت نفسه أن خفض فوائدها من المالين الرومان، ولما قدم إلى مدينة جاذز وشاهد فيها تمثالاً للإسكندر الأكبر أخذ يلوم نفسه على أنه لم يعمل إلا القليل في مثل السن التي فتح الفتى المقدوني حين بلغها نصف عالم البحر الأبيض المتوسط. ثم عاد بعدئذ إلى رومه واندفع في الصراع القائم وقتئذ في سبيل المنصب والسلطان. فاختير إيديلا أو مشرفاً على المباني العامة في عام 65، وأنفق أمواله-

صفحة رقم : 3167

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> القنصل

أي أموال كراسس- في تزيين السوق العامة بما أقامه فيها من المباني والأعمدة الجديدة؛ وأخذ يتوود إلى العامة بما كان ينفقه عن سعة على الألعاب. وكان صلا قد أزال من الكبتول ما جمعه فيه ماريوس من شارات النصر كالأعلام والصور والمغانم التي تمثل صفات الرجل المتطرف القديم وانتصاراته، فأعادها كلها قيصر إلى مواضعها واعتبط بعودتها جنود ماريوس القدامى أشد الاغتباط، وأظهر بهذا العمل وحدة سياسته المناقضة لسياسة ماريوس. واحتج المحافظون على هذه السياسة، وعرفوا من ذلك الوقت أنه رجل يجب عليهم أن يعملوا للقضاء عليه. وكان في عام 64 ق.م رئيساً لإحدى اللجان التي عينت للنظر في بعض قضايا القتل، فاستدعى للمثول أمام اللجنة من كان حياً من عمال صلا الذين عاونوه على وضع قوائم من حكم عليهم هذا القنصل، وقضى على الكثيرين من هؤلاء العمال بالنفي أو الإعدام. وفي عام 63 ق.م اقترح في مجلس الشيوخ ضد إعدام من اشتركوا مع كاتلين، وقال في عرض خطابه إن الشخصية البشرية لا بقاء لها بعد الممات(7)؛ ويلوح أن قوله هذا كان الجزء الوحيد من خطابه الذي لم يسيء فيه إلى أحد. واختير في تلك السنة نفسها رئيساً أعلى الدين الروماني pontifex maximus ثم اختير في عام 62 بريتورا praetor وأمر في ذلك العام بمحاكمة أحد زعماء المحافظين لاختلاسه بعض الأموال العامة. وفي عام 61 عين والياً على أسبانيا ولكن دائنيته حالوا بينه وبين السفر إليها، وأقر في ذلك الوقت أنه في حاجة إلى 25.000.000 سسترس إذا أراد ألا يمتلك شيئاً قط، فتقدم كراسس لمعاونته وضمنه في جميع ديونه. وبذلك استطاع أن يسافر إلى أسبانيا، ويشن حملات حربية مروعة على القبائل الثائرة ذات النزعة الاستقلالية. وعاد بعدها إلى رومه ومعه من الغنائم ما يكفي لأداء ديونه وملء خزائن الدولة بالمال، فما كان من مجلس الشيوخ إلا أن اقترح أن يقام له احتفال بنصره العظيم. ولعل

صفحة رقم : 3168

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> القنصل

الأشراف قد أظهروا بعملهم هذا كثيراً من الهاء وحصافة الرأي، فقد كانوا يعرفون أن قيصر سيرشح نفسه لمنصب القنصلية، وأن القانون ينص على ألا يرشح لها من كان غائباً عن البلاد، وأن من يقام له احتفال بالنصر يجب أن يظل بحكم القانون بعيداً عنها إلى يوم الاحتفال- وحرص مجلس الشيوخ على أن يحدده بعد موعد الانتخاب. ولكن قيصر استبق يوم الاحتفال بنصره، ودخل المدينة وأدار المعركة الانتخابية بجد ومهارة عجز معارضوه عن مقاومتها. وكان سبب نجاحه مهارته في ضم بمبي إلى قضية الحرية. وكان بمبي قد عاد توأماً من بلاد الشرق بعد أن قام فيها بسلسلة من الأعمال الحربية والسياسية المجيدة، فقد طهر البحر من القراصنة، وأمن بذلك سبل التجارة في البحر الأبيض المتوسط، وأعاد الرخاء إلى المدن التي كان رخاؤها يعتمد على هذه التجارة. وكان قد أرضى أصحاب المال في رومه بفتح بيثينيا وبنس وسوريا، وكان قد خلع ملوكاً وأجلس على العرش آخرين، وأقرضهم الأموال من غنائه الحربية بفوائد باهظة، وقبل رشوة كبيرة من ملك مصر الذي دعاه إلى القدوم إليها لإخماد فتنة اندلع لهيبتها في تلك البلاد. ثم عاد فامتنع ما اتفق عليه بحجة أنه عمل غير مشروع(9)؛ ونشر لواء السلام في ربوع فلسطين وجعلها ولاية خاضعة لنفوذ رومه، وأنشأ تسعاً وثلاثين مدينة جديدة، وأقر حكم القانون والنظام والسلام. وقصارى القول أنه كان قد سلك قبل ذلك الوقت مسلك السياسي الحكيم والحاكم القدير وأن مسلكه عاد على البلاد بالمال الوفير. فلما رجع إلى رومه حمل إليها ثروة عظيمة من الضرائب، والخراج، والبضائع التي غنمها في حروبه، ومن الأموال التي افتدى بها الأرقاء أو بيعوا بها، فاستطاع بذلك أن يعمر خزانة الدولة بمائتي مليون سسترس، وأن يضمن لها إيراداً سنوياً قدره ثلاثمائة وخمسون مليوناً، وأن يوزع على جنوده ثلاثمائة وأربعة وثمانين مليوناً، وأن يستبقي لنفسه رغم هذا كله من المال ما ينافس به كراسس فيكون أحد رجلين هما أغنى أغنياء رومه.

صفحة رقم : 3169

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> القنصل

وكان خوف مجلس الشيوخ من هذه الأعمال أكثر من سروره منها، فلما علم أن بمبي قد نزل في برنذريوم(62) ومعه جيش يدين له بالولاء والإخلاص، ويستطيع بكلمة من قائده أن يجعله حاكماً بأمره على البلاد، لما علم مجلس الشيوخ ذلك تملكه الرعب. ولكن بمبي كان رجلاً كريماً عظيماً، فسرح جنوده ودخل رومه وليس معه إلا أتباعه الأخصاء. ودام الاحتفال بنصره يومين كاملين، ولكن هذه الفترة على طولها لم تكف لعرض الحفلات التي تصور انتصاراته وتظهر مغانمه.

وكان مجلس الشيوخ حقوداً ضنياً، فرفض طلبه القاضي بتوزيع الأرض على جنوده، ولم يقر الاتفاقات التي عقدها مع الملوك المغلوبين، وأعاد النظم التي أقامها من قبله لوكلس في بلاد الشرق والتي أغفلها بمبي. وكانت نتيجة هذه العمال أن تمزق اتفاق شيشرون المعروف بحلف الطبقات Concordi ordinum، وأن ألقى بمبي والرأساليين في أحضان الطبقات الدنيا واغتم قيصر هذه الفرصة السانحة فألف منه ومن بمبي وكراسس الحكومة الثلاثية الأولى(63) وتعهدوا جميعاً أن يقاوموا كل تشريع لا يرضى عنه أي واحد منهم. واتفق بمبي أن يساعد قيصر في أن ينتخب قنصلاً، كما تعهد قيصر، إذا ما اختير لهذا المنصب، أن ينفذ الاقتراحات التي عرضها ورفضها مجلس الشيوخ.

وكانت الحملة الانتخابية شديدة مريرة استخدمت فيها الرشوة من كلا الجانبين. ولما سمع كاتوزعيم المحافظين أن حزبه يبتاع أصوات الناخبين تحلل من مبادئه الأولى ووافق على هذا العمل بحجة أنه وسيلة إلى غرض نبيل، واختار العامة قيصر كما اختار الأشراف بيباوس Pibulus.

وما كاد قيصر يتسلم مقاليد منصبه (59) حتى عرض على مجلس الشيوخ

صفحة رقم : 3170

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> القنصل

المطالب التي تقدم بها بمبي: وهي توزيع الأرض على عشرين ألفاً من المواطنين الفقراء ومنهم جنود بمبي، والتصديق على الاتفاقات التي عقدها بمبي في بلاد الشرق، وتخفيض المبالغ التي تعهد الملتزمون بجمعها من ولايات آسيا بمقدار ثلثها.

ولما عارض المجلس كل مطلب من هذه المطالب بجميع ما لديه من وسائل فعل قيصر ما فعله ابنا جراكس، فعرضها على الجمعية مباشرة. واستطاع المحافظون أن يقتنعوا ببيلوس، كما أقتنعوا العرافين بأن يعلنوا أن الحظ غير موات لإجابتها. ولم يأبه قيصر لأقوال العرافين، وحمل الجمعية على أن تتهم ببيلوس بالخيانة، وقام رجل متحمس من العامة فأفرغ وعاء من البراز على رأس ببيلوس.

ثم وافقت الجمعية على مشروعات قيصر، وكانت تجمع، كما تجمع مشروعات ابني جراكس، بين السياسة وخطة مالية ترضي رجال الأعمال. وأعجب بمبي بوفاء قيصر بعهد، واتخذ يوليا ابنته زوجة رابعة له، وأصبح الاتفاق بين العامة والطبقة الوسطى رابطة حب وصدقة. وتعهد أعضاء الحكومة الثلاثية للنجاح المنتظر من أتباعهم أن يؤيدوا ببيلوس كلوديوس Publius Clodius في أن ينتخب تربيوناً في خريف عام 59، وأخذوا يعملون من ذلك الحين للمحافظة على رضا الناخبين بما يقدمونه لهم من ضروب اللهب والألعاب الكثيرة.

وتقدم قيصر بمشروعه الثاني الخاص بتوزيع الأراضي في شهر إبريل من ذلك العام نفسه. وكان هذا المشروع يقضي بتوزيع الأراضي التي تملكها الدولة في كمبانيا على من كان له ثلاثة أبناء من المواطنين الفقراء؛ وتجاهل قيصر مجلس الشيوخ مرة أخرى، وأجازت الجمعية المشروع، وبذلك تمت الموافقة على سياسة ابني جراكس بعد جهود دامت مائة عام كاملة. ولزم ببيلوس Bibulus في ذلك الوقت بيته واكتفى بأن أخذ يصدر من حين إلى حين تصريحات يقول فيها إن الطوالع غير موافقة للتشريعات الجديدة. أما قيصر يصرف الشؤون العامة

صفحة رقم : 3171

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> القنصل

من غير أن يستشيرها فيها، وبلغ من إهماله إياه أن كان الفكهون من أهل المدينة يصفون هذا العام بأنه "قنصلية يوليوس وقيصر". وأراد أن يفرض رقابة الشعب على مجلس الشيوخ، فأنشأ أول صحيفة إخبارية، بأن جعل الكتبة يسجلون أعمال الشيوخ وغيرهم، مضافة إلى الأخبار اليومية، ثم تعلق هذه "الأعمال اليومية" ويحملها إلى جميع أجزاء الإمبراطورية رُسل يخصصون لهذا العمل.

وقبل أن تنتهي فترة هذه القنصلية التاريخية أفلح قيصر في أن يعين والياً على بلاد الغالة الجنوبية وغالة ناربونة في الخمس السنين التي تلي سنة القنصلية. وإذ كان القانون يحرم إقامة الجنود في إيطاليا نفسها فإن قيادة الفيالق المقيمة في شمال إيطاليا قد جعلت لصاحبها السيطرة العسكرية على شبه الجزيرة بأكملها. وأراد قيصر أن يستوثق من بقاء تشريعاته السابقة، فعمل على أن ينتخب صديقه جابنيوس Gabinius وبيزو Piso قنصلين في عام 58، وتزوج كليرنيا Calpurnia ابنة بيزو؛ ولكي يضمن استمرار العامة على تأييده بذل جهوده الموفقة لانتخاب كلوديوس تربيوناً في عام 58. ولم يحز لنفسه أن تتأثر مشروعاته بطلاقة الحديث لزوجته الثالثة بمبياً بسبب ارتيابه في صلاتها غير المشروعة بكلوديوس.

صفحة رقم : 3172

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الأخلاق والسياسة

الفصل الثالث

الأخلاق والسياسة

كان بلبوس كلوديوس بلشر Publiws Claudius Pulcher أبيلبوس كلوديوس الجميل فرعاً من دوحه آل كلوديوس. وكان شاباً أرسقراطياً باسلاً لا يهاب الردى ولا يتورع من الناحية الخلقية عن اقتراف أية موبقة. وقد نزل من مرتبته السامية، كما نزل منها كاتلين وقيصر، ليفقد العامة في كفاحهم ضد الأغنياء، وأراد أن يكون من حقه أن يختار تربيوناً فأقنع إحدى الأسر الفقيرة في أن تتبناه، وأراد أن يعيد توزيع الثروة التي تجمعت في أيدي بعض الطبقات في رومه، وأن يقضي على شيشرون- وكان قد استطال في عرض أخته كلوديا وأخذ يدلّيع عن حرمة الملكية- فعمل جندياً عادياً تحت إمرة قيصر حتى يستطيع أن يستولي على زمام السلطة. وكان يعجب بخطط قيصر ويعشق زوجته، واحتال للوصول إليها بأن تزى بزي امرأة ودخل بيت قيصر، ثم تزى بزي كاهن واشترك في المراسم الدينية التي يقيمها النساء وحدهن إلى الآلهة الطيبة Bona Dea. ثم افترض سره ووجهت إليه تهمة الاعتداء على حرمة الآلهة وأسرارها، وحوكم على هذه التهمة. ولما نودي على قيصر ليشهد عليه قال إنه لا يوجه تهمة ما إلى كلوديوس. فلما سأله المدعي العمومي عن سبب طلاقه بمبياً قال إن سبب هذا الطلاق هو "أن زوجتي يجب أن تكون بعيدة عن الشبهات".

وكانت هذه إجابة لبقّة تسيء إلى ذلك العون السياسي القيم، ولا تسيء إليه هو، وشهد كثيرون من الشهود بأن كلوديوس من الشهود كان على اتصال بكلوديا، وأنه ضاجع أخته ترشياً بعد زواجها من لوكس: واحتج كلوديوس بأنه كان غائباً عن رومه في ذلك اليوم الذي يعزى إليه فيه ذلك الاتهام المزعوم الدنيء، ولكن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الأخلاق والسياسة

شيشرون شهد بان كلوديوس كان معه في رومه في ذلك اليوم نفسه. وظن الشعب أن المسألة كلها مؤامرة من مجلس الشيوخ للقضاء على زعيم من زعمائه، وأخذ يطالب ببراءته من التهمة الموجهة إليه. ورشا كراسس عدداً من القضاة. بتحريض قيصر كما يقول بعضهم. ليحكموا في صالح كلوديوس، واستطاع المتطرفون للمرة الأولى أن يقدموا من المال أكثر مما يقدمه المحافظون، وبرئ كلوديوس. ولم يدع قيصر هذه الفرصة السانحة تفلت من يده فاستبدل بزوجة من أبناء المحافظين ابنة أحد الشيوخ المناصرين لقضية الشعب.

ولم يكد قيصر يعتزل منصبه حتى اقترح بعض المحافظين إلغاء كل التشريعات التي أصدرها إلغاء تاماً. ولم يكتف رايه في هذه "القوانين اليوليوسية" وطلب بمحوها من سجلات القوانين الرومانية. وتردد مجلس الشيوخ في الاستجابة إلى هذا التحدي الصريح لقيصر ومن ورائه الجحافل الرومانية، ولكلوديوس المسيطر على التربيونية. وكان كاتو في عام 63 قد خطب ود الشعب وحاول ضمه إلى جانب المحافظين بإعادة النظام القاضي بتوزيع الغلال على الأهلين بثمان بخس. وأراد كلوديوس أن يكون أكثر منه استرضاء للعامة فأخذ يوزع الغلال من غير ثمن على كل من يطلبها، وأقرت الجمعية بناء على طلبه مشروعات قوانين تحرم رفض الإجراءات التشريعية بالاستناد إلى الحجج الدينية وتجعل تأليف الهيئات النقابية من الحقوق المشروعة، وكان مجلس الشيوخ قد حاول من قبل حلها. وقد أعاد هو تنظيم هذه الهيئات وجعل لها حق الاقتراح مجتمعة، وكسب بذلك ولاءها وإخلاصها له، فعينت له من أعضائها حرساً مسلحاً. وإذا كان يخشى أن يحاول كاتو وشيشرون، بعد أن تنتهي فترة توليه منصبه، إلغاء ما قام به قيصر من الأعمال فقد أفتق الجمعية بتعيين كاتو مندوباً رومانياً في قبرص وإصدار قرار يقضي بنفي كل من يتسبب في قتل أي مواطن روماني دون أن يحصل على موافقة الجمعية، كما تتطلب ذلك قوانين الدولة. ورأى شيشرون أنه هو المقصود بهذا القانون، ففر إلى

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الأخلاق والسياسة

بلاد اليونان حيث أخذت المدن والشخصيات الكبيرة تتنافس في تكريمه والاحتفاء بمقدمه. وكان رد الجمعية على هذا القرار أن قررت مصادرة أملاك شيشرون، وهدم بيته القائم على تل البلاتين Palatine.

وكان من حسن حظ شيشرون أن كلوديوس قد غمره ما ناله من نصر، فأخذ يهاجم بمبي وقيصر، ويحاول الانفراد بزعمامة الشعب. وكان جواب بمبي على خطط كلوديوس أن أيد الطلب الذي تقدم به كونتس Quintus أخو شيشرون بالسماح لخطيب رومه أن يعود إليها. ودعا مجلس الشيوخ جميع المواطنين الرومان إلى الاجتماع في عاصمة الدولة لبيدوا رأيهم في هذا الاقتراح. وجاء كلوديوس بعصابة مسلحة إلى ميدان المريخ لتتصرف على عملية الاقتراح، واستخدم بمبي رجالاً فقيراً من الأشراف يدعى أنيوس مليو Annius Milo لتنظيم عصابة أخرى لمناوتها، وكانت نتيجة ذلك حدوث شغب واضطراب سفكت فيه الدماء، فقتل عدد كبير من الناس ولم ينج كونتس نفسه من القتل إلا بمعجزة من المعجزات. على أنه أفلح فيما كان يرمي إليه، وعاد شيشرون ظافراً إلى رومه بعد نفي دام عدة شهور

(57)، وحيته في طريقه من برنديزيوم إلى رومه جماهير غفيرة بلغت من الكثرة حداً تظاهر معه شيشرون بالخوف من أن يتهم بأنه قد دبر أمر نفيه ليحظى بهذا التكريم العظيم عند عودته (11). ويلوح أنه قد تعهد بمناصرة بمبي، ولعله أيضاً قد تعهد بمناصرة قيصر، نظير سماحها بعودته. وشاهد ذلك أن قيصر أقرضه أموالاً كثيرة لينظم بها شؤونه المالية من جديد، وأبى أن يتقاضى عليها فائدة (12). وظل شيشرون بعد عودته عدة سنين المدافع عن أقطاب الحكومة الثلاثية والناطق بلسانهم مجلس الشيوخ. ولما لاح في أفق رومه خطر نقص الحبوب مرة أخرى (57) استطاع أن

صفحة رقم : 3175

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الأخلاق والسياسة

يحصل لبمبي على تفويض عجيب، هو أن تكون له السلطة الكاملة مدى ست سنين على كل موارد الطعام في رومه، وعلى جميع الدولة وتجارها الخارجية. واستطاع بمبي مرة أخرى أن يفيد من هذه السلطة أعظم إفادة، ولكن دستور الجمهورية أصيب مرة أخرى بطعنة نجلاء، وظل حكم الأفراد يحل محل حكم القانون. وكذلك استطاع شيشرون أن يقنع مجلس الشيوخ بالموافقة على اقتراح عرض عليه بتقديم مبلغ كبير من المال لأداء مرتبات جنود قيصر في غالة. وفي عام 54 أفلح في دفاعه عن حكم أولس جابنيوس Aulus Gabinius، حاكم إحدى الولايات وصديق رجال الحكومة الثلاثية، حتى برئ من تهمة ابتزاز أموال الولايات واستخدام العنف في الحصول عليها. وفي عام 55 خسر كل ما كسبه من عطف قيصر ومعاونته بهجومه العنيف على وال روماني آخر يدعى كلبيرنيوس بيزو Calpurnius Piso. ذلك أنه لم ينس قط أن بيزو هذا كان من الذين اقترعوا على نفيه، ونسي أن ابنة بيزو كانت زوجة قيصر. ولما عاد كاتو من قبرص عام 57 ق.م بعد أ أعاد تنظيم شؤونها على خير وجه شرع المحافظون يلمون شعنتهم ويعيدون تنظيم صفوفها، وكان كلوديوس قد أضحى وقتئذ عدو بمبي الألد فقبل ما عرضه عليه الأشراف من أن يعيرهم محبة الشعب وعصاباته السفاحة. واتجه الأدب من ذلك الوقت وجهة معادية لقيصر وأخذت قصائد كلفس Clavus وكاتلس Catullus الهجائية تصوب كالسهام المسمومة معسكر الحكومة الثلاثية. وكلما توغل قيصر في بلاد الغالبيين، وتواترت أنباء ما كان يلاقه فيها من الأخطار الكثيرة، أخذ الأمل يدب من جديد في صدور الشخصيات النبيلة، وقال شيشرون وقتئذ إن "من لم يمت بالسيف مات بغيره".

صفحة رقم : 3176

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الأخلاق والسياسة

وإذا جاز لنا أن نصدق ما قاله قيصر، فإن عدداً من المحافظين قد أخذوا ياتمرون مع أريوفستس Ariovistus القائد الجرمني على اغتيال قيصر (13). وسارع دميوتوس Domitius يرشح نفسه للقتل، ويعلن أنه إذا ما فاز بها

فسيقترح من فوره على المجلس استدعاء قيصر - أي أن قيصر سيتهم ويحاكم. وتلونّ شيشرون بلون الزمان، فاقتراح أن ينظر مجلس الشيوخ في يومي 25، 26 من شهر مايو في إلغاء قوانين قيصر الخاصة بالأراضي الزراعية.

صفحة رقم : 3177

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> فتح بلاد غالة

الفصل الرابع

فتح بلاد غالة

تسلم قيصر في عام 58 ق.م مهام منصبه، منصب حاكم بلاد غالة الجنوبية والنربونية، أي شمالي إيطاليا وجنوبي فرنسا. وكان أريوفستس قد سار في عام 71 ق.م على رأس خمسة آلاف من الجرمان إلى بلاد الغالة حين استعانته إحدى قبائلها على قبيلة أخرى. وقدم لها قائد الألماني المعونة التي طلبتها ولكنه لم يغادر البلاد، بل بقي فيها ليبسط حكمه على جميع القبائل الضاربة في شمالي غالة الشرقي. واستنجدت قبيلة الإيدوي Aedui إحدى هذه القبائل برومه لتعينها على الألمان (61). وخولّ مجلس الشيوخ الحاكم الروماني على بلاد غالة النربونية حق إجابة هذا الطلب، ولكنه في الوقت نفسه تقريباً ضم أريوفستس إلى طائفة الحكام الموالين لرومه. وكان مائة وعشرون ألفاً من الألمان قد عبروا في هذه الأثناء نهر الرين، واستقروا في فلاندرز فشدوا بذلك أزر أريوفستس، وأخذ يعامل أهل البلاد معاملة الشعوب المغلوبة، وشرع يمّني نفسه بالاستيلاء على بلاد غالة بأجمعها (14). وبدأت في الوقت عينه قبائل الهلفتي Helveti الضاربة حول جنيفاً تهاجر نحو الغرب، وكانت عدتها نحو 368.000، وأندز قيصر بان هذه القبائل تعتزم اختراق بلاد غالة النربونية في طريقها إلى جنوبي فرنسا الغربي. ويصف ممسن Mommsen حركات هذه القبائل بقوله: "لقد كانت القبائل الألمانية الضاربة تتحرك في جميع الأصقاع الممتدة من نهر الرين إلى المحيط الأطلنطي، وكانت هذه اللحظة شبيهة باللحظة التي انقضت فيها قبائل الألماني والفرنجة على إمبراطورية القياصرة المتداعية.. بعد خمسمائة عام من ذلك الوقت" (15) وأخذ قيصر يحتال لإنقاذ رومه بينما كانت رومه نفسها تدبر المؤامرات للقضاء عليه.

صفحة رقم : 3178

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> فتح بلاد غالة

وجند قيصر من ماله الخاص. ومن غير أن يرجع في ذلك إلى مجلس الشيوخ- وكان الدستور يحتم عليه الرجوع إليه- نقول جند ثلاث فرق جديدة كاملة العدة زيادة على الأربعة الفرق التي كانت تحت إمرته. ثم أرسل يدعو أريوفستس ان يحضر إليه من فوره لبحث الموقف معه. ورفض أريوفستس الدعوة كما كان قيصر يتوقع. وأقبلت وقتئذ على قيصر وفود كثيرة من القبائل الغالية تتطلب إليه حمايتها، فأعلن الحرب على أريوفستس وقبائل الهلتي، واتجه بجيوشه نحو الشمال ودارت بينه وبين جحافل الهلتي معركة حامية عند بيركتي Bibracte عاصمة الإيدوي، ومكانها الآن بالقرب من بلدة أوتون Autun الحالية. وانتصرت جيوش قيصر في هذه المعركة انتصاراً غير حاسم، أقرب ما يكون إلى الهزيمة، كما يقول قيصر نفسه، ونحن مضطرون أن نأخذ عنه هو معظم هذه الأنباء. وعرض الهلتي أن يعودوا إلى موطنهم في سويسرا، ووافق قيصر على أن يؤمنهم في عودتهم إليه، ولكنه اشترط عليهم أن تخضع البلاد التي كانوا يحتلونها إلى حكم رومه. وبعثت بلاد الغالة جميعها وقتئذ تشكر له تخليصها من أعدائها، وترجوه أن يساعدها على طرد أريوفستس. والتقى قيصر بالألمان عند أستيم Astheim، ودارت بينه وبينهم معركة انتهت بقتلهم أو أسرهم عن آخرهم تقريباً، كما يقول هو نفسه (58). وفر أريوفستس من الميدان ولكنه مات بعد ذلك بقليل. واعتقد قيصر أن تحرير غالة من أعدائها لا يفتقر في شيء عن فتحها، فشرع من فوره يعيد تنظيمها على أساس خضوعها لسلطان رومه، وحجته في ذلك أن هذا التنظيم هو الوسيلة الوحيدة لحمايتها من الألمان. ولم تقنع هذه الحجة بعض الغالبيين فثاروا، واستعانوا عليه البلجي Belgae وهو قبيلة ألمانية كلتية

صفحة رقم : 3179

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> فتح بلاد غالة

قوية تسكن شمال غالة بين نهري السين والرين. والتقى بهم قيصر على شاطئ نهر الأين Aisne وهزمهم، ثم سار بسرعة خاطفة لم تمكن أعداءه من لم شعئهم، والتقى بالسويسيون Suissiones، والأمبياني Ambiani، والنرفياني Nervii، والأدوتيشي Aduatici. وهزم كلاً منهم على انفراد، ونهب بلادهم، وباع أسرارهم لتجار الرقيق الإيطاليين. وأعلن في ذلك الوقت فتح بلاد الغالة، وكان في إعلانه هذا متعجلاً بعض الشيء، وجاراه مجلس الشيوخ فأعلن أن غالة ولاية رومانية، ورفع العامة في رومه- ولم يكونوا يظنون في نزعتهم الاستعمارية عن أي قائد من القواد- عقيرتهم يمجدون بطلم البعيد. وعاد قيصر فعبر الألب إلى بلاد غالة الجنوبية، وأخذ يعمل على تنظيم شؤونها الإدارية، وسد ما حدث من النقص في فيالقه، ودعا بمبي وكراسس أن يقابلاه في لوكا ليضع معهما خطة مشتركة للدفاع عن أنفسهم ضد الحركة الرجعية التي يقوم بها المحافظون.

وأرادوا أن يقطعوا الطريق على دمتيوس Domitius فاتفقوا على أن يتقدم بمبي وكراسس للقنصلية في عام 55 ق.م منافسين له، وعلى أن يعين بمبي والياً على أسبانيا وكراسس على سوريا لمدة خمس سنين (54-50)؛ وأن يظل قيصر والياً على غالة خمس سنين أخرى (53-49)، وعلى أن يسمح له بعد انتهاء هذه الفترة أن يتقدم مرة أخرى للقنصلية.

وأمد قيصر زميليه وصديقيه بما يلزمهما من الأموال التي غنمها من الغالبيين لخوض المعركة الانتخابية؛ وبعث أيضاً بمبالغ طائلة إلى رومه ليوجد ببعضها أعمالاً للمتعطلين، ويدفع منها مكافآت لمؤيديه، وليرفع ببعضها مكانته في أعين الشعب بالإقدام على تنفيذ منهاج واسع من المنشآت العامة. وحيا الشيوخ الذين جاءوا ليفحصوا عن غنائمه بالرشا السخية، فأدى ذلك إلى إخفاق الحركة التي كانت ترمي إلى إلغاء ما أصدره من القوانين. واختير بمبي وكراسس قنصلين بعد أن قدما الرشا السخية المعتادة، وعاد قيصر يعمل على إقناع الغالبيين أن السلام أحلى من الحرية.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> فتح بلاد غالة

وأخذت الأحوال على نهر الرين شمالي كولوني تنذر بالشر المستطير. فعبرت النهر قبيلتان ألمانيتان إلى غالة البلجيكية، وزحفنا فيها إلى أن وصلنا لياج Liege، واستعانهما الحزب الوطني في غالة على الرومان، والتقى قيصر بالغزاة عند أكسانتن (55Xanten)، وصددهم إلى نهر الرين، وقتل منهم كل من لم يمت في النهر غرقاً رجالاً كانوا أو نساءً أو أطفالاً. ثم أقام مهندسوه في عشرة أيام جسراً على النهر العظيم، وكان عرضه وقتئذ 1400 قدم، وعبرت عليه فيالغ قيصر، وحاربت أعداءها في الأراضي الألمانية زمناً يكفي لجعل نهر الرين حداً آمناً للدولة الرومانية، ثم عاد بعد أسبوعين إلى بلاد غالة.

ولسنا نعرف السبب الذي حدا به إلى غزو بريطانيا في ذلك الوقت، ولعله قد أغراه بهذا الغزو ما وصل إلى علمه من الشائعات عن كثرة الذهب واللؤلؤ فيها، أو لعله كان يرغب في الاستيلاء على ما في بريطانيا من قصدير وحديد لتصدره رومه إلى البلاد الخارجية، أو لعله قد أغضبه ما قدمته بريطانيا من عون إلى الغالين، وأنه رأى أن يجعل السلطة الرومانية في غالة آمنة من جميع جهاتها. ومهما يكن السبب فقد سار على رأس قوة صغيرة عبر بها بحر المنش في أضيق أجزاءه، وهزم البريطانيين الذين لم يكونوا مستعدين لحربه، وأخذ عن البلاد بعض المعلومات القليلة، ثم قفل راجعاً (55). لكنه عبر البحر إليها مرة أخرى في العام الثاني وهزم البريطانيين بقيادة كسفلونس Cassivelaunus، ووصل إلى نهر التايمز، وانتزع من أهل البلاد وعداً بأن يعطوا الجزية، ثم رجع إلى غالة.

ولعل سبب رجوعه أن سمع أن الثورة يكاد يندله لهيبتها مرة أخرى بين القبائل الغالية، فلما عاد أخضع أولاً الإبورون Eburones. ثم زحف على ألمانيا (53). ولما عاد منها ترك الجزء الأكبر من جيشه في غالة الشمالية، ثم ذهب مع من بقي من هذا الجيش ليقضي الشتاء في شمالي إيطاليا، وكان يرجو أن يخصص بضعة شهور لإصلاح أسواره في رومه، ولكنه سمع في أوائل عام 52 أن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> فتح بلاد غالة

فرسنجتركس Vercingetorix أقدر الزعماء الغالين قد حشد كل القبائل الغالية تقريباً في حرب تبغي بها أن تستعيد استقلالها. وبذلك أصبح مركز قيصر شديد الحرج لأن الجزء الأكبر من جيشه كان في شمال إيطاليا، والأقاليم الواقعة بينه وبين هذا الجيش في أيدي الثوار. ولكنه سار على رأس قوة صغيرة فوق تلوغ السفن Cevennes وهاجم مدينة أوفرنى Auvergne. ولما جاء فرسنجتركس بقوته ليدافع عنها ولي قيصر دسمس بروتس Decimus Brutus قيادة جنوده الذين كانوا يهاجمونها، وسار هو متخفياً ومعه عدد كبير من الفرسان مخترباً بلاد غالة من الجنوب إلى

الشمال، وانضم إلى جيشه الرئيسي، وقاده من فوره إلى القتال، وحاصر أفريكوم (Avaricum (بورج Bourgas) وسنابوم Cenabum (أورليان Orleans)، واستولى عليهما، وأعمل فيهما السلب والنهب، وقتل أهلها، وملاً بكنوزهما خزائنه الخاوية. ثم زحف بجيشه على جرجفيا Gergovia حيث قاومه الغاليون مقاومة عنيفة اضطرته إلى الانسحاب وفي ذلك الوقت تخلى عنه الأديون الذين أنجاهم قبل من الألمان، والذين بقوا حتى ذلك الوقت أنصاراً له وحلفاء، ثم استولوا على قواعده ومخازن ميرته في سواسون Soissons، وشرعوا يستعدون لرده إلى البلاد غالة النربونية.

وكان هذا هو الوقت الذي ساءت فيه أحوال قيصر كما لم تسوء من قبل ولا من بعد، ومرت به بعض الأيام فقد فيها كل أمل في النجاة. وفي هذا الوقت العصيب ضرب الحصار على أليزيا Alesia (أليز سنت رين - Alise ste-Reine)، وجازف بكل شيء في هذا الحصار لأن فرسنجتركس جمع فيها ثلاثين ألفاً من جنوده. وما كاد قيصر يوزع مثل هذا العدد من الجند حول المدينة حتى وصلته الأنباء بأن 250.000 من الغاليين بدعوا يزحفون نحو المدينة من الشمال. فما كان منه إلا أن أمر جنوده بأن يقيموا حول المدينة سورين دائريين من التراب، أحدهما من أمامهم والآخر من خلفهم، وانقضت جيوش فرسنجتركس وحلفائه

صفحة رقم : 3182

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الثورة - قيصر - فتح بلاد غالة

على هذين السورين وعلى الجيوش الرومانية الباسلة وهاجمتها المرة بعد المرة، ولكنها باءت في كل هجماتها بالخسران. وواصل الجيش المنقذ هجماته على هذا النحو أسبوعاً كاملاً، ثم تبدد شمله لاختلال نظامه ونقص طعامه وعتاده، واستحال هذا الجيش فلولا لا حول لها ولا طول في الساعة التي نفذت فيها موارد الرومان، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى بعثت المدينة الجائعة فرسنجتركس نفسه بناء على طلبه إلى قيصر أسير الحرب، ثم استسلمت للرومان ووضعت نفسها تحت رحمتهم (52). وعفا قيصر عن المدينة فلم يمسه بسوء، ولكنه أسلم جنودها لرجال جيشه ليكونوا رقيقاً لهم. وسبق فرسنجتركس مكبلاً بالأغلال إلى رومه حيث سار فيما بعد يزين موكب نصر قيصر، وجوزي بالقتل على حبه للحرية.

وقرر حصار إليزيا مصير بلاد غالة، كما قرر خصائص الحضارة الفرنسية. ذلك أنه أضاف إلى الإمبراطورية الرومانية بلداً تبلغ مساحتها ضعف مساحة إيطاليا وفتح خزائن خمسة ملايين من الناس وأسواقهم إلى التجارة الرومانية. يضاف إلى هذا أن ذلك الحصار أنجى إيطاليا وعالم البحر الأبيض المتوسط مدة أربعة قرون من غارات البرابرة، وانتشل قيصر مرة أخرى من حافة هاوية الخراب إلى ذروة المجد والثروة والسلطان. وظلت بلاد غالة عالماً آخر تتورث ثورات متفرقة عقيمة، أحمدها قيصر بقسوة لم تألفها منه، ثم خضعت لرومه وأسلمت لها أمورها. وما كاد يتم له النصر حتى عاد قيصر كما كان الفاتح الشهم الكريم، فعامل القبائل المغلوبة معاملة لينة كان من آثارها أن هذه القبائل لم تتحرك قط لتخلع عن كاهلها نير رومه حين شبت فيها نار الحرب الأهلية، ولم يكن في مقدورها ولا في مقدور قيصر أن يؤديها هذه القبائل. وظلت بلاد غالة بعدئذ ثلاثمائة عام ولاية رومانية يعمها الرخاء في ظلال السلم الرومانية، وتعلمت من خلالها اللغة اللاتينية، وأدخلت عليها كثيراً من التغيير حتى أصبحت الأداة التي نقلت بها ثقافة العهود الغابرة إلى

صفحة رقم : 3183

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> فتح بلاد غالة

شمالي أوروبا. ولا جدال في أن قيصر ومعاصريه لم يكونوا يدركون ما سوف تتمخض عنه انتصاراته الدموية من نتائج بعيدة المدى، فقد كان أقصى ما يظنه أنه أنقذ إيطاليا، وضم لها ولاية جديدة. وأنشأ لها جيشاً قوياً، لكنه لم يدر بخلده أنه منشئ الحضارة الفرنسية.

ودهشت رومه إذ وجدت أن قيصر إداري قادر لا يعتريه ملل، وقائد محتك واسع الحيلة، بعد أن لم تكن تعرف عنه أكثر من أنه رجل متلاف رقيق، وسياسي، ومصلح. ثم أدركت في الوقت عينه أنه مؤرخ عظيم. ذلك أنه وهو في ميادين القتال تقض مضجعة الهجمات المتوالية عليه من رومه، كان يسجل فتوحه في غالة، ويدافع عن هذه الفتوح في شروحه Commentaries، وقد سما بها إيجازها العسكري. إذا جاز أن نصفها بهذا الوصف. وبساطتها الفنية من منزلة النشرات الحزبية إلى أسمى مكان في الأدب اللاتيني. وحتى شيشرون نفسه، بعد أن تقلب مرة أخرى في مبادئه السياسية، أخذ يتغنى بقيصر ويستعجل في ذلك الوقت ما حكم به عليه التاريخ فيما بعد إذ قال:

ليست معاقل الألب المنيع، ولا مياه الرين الفيضة الصاخبة، هي الدرع الحقيقي الذي صد عنا غارات والقبائل الألمانية الهمجية، بل الذي صدها في اعتقادي هو قيادة قيصر وقوة ساعديه. ولو أن الجبال دكت وسويت بالسهول، والأنهار جفت، لاستطعنا أن نحفظ ببلادنا حصينة منيعة بفضل ما نال قيصر من نصر مؤزر وما قام به من أعمال مجيدة. ألا ما اعظم فضله علينا(16).

ويجب أن نضيف إلى هذا ما أتى به عليه ألماني عظيم إذ قال:

إذا كان ثمة جسر يربط ماضي هلاس ورومه المجيد بتاريخ أوروبا

صفحة رقم : 3184

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> فتح بلاد غالة

الحديث، الذي هو أعظم منه مجداً وأسمى قدراً، وإذا كان غرب أوروبا رومانياً، وإذا كانت أوروبا الألمانية قد صبغت بالصبغة اليونانية والرومانية القديمة.. فما ذلك كله إلا من عمل قيصر. وإذا ما أوجده سلفه العظيم في بلاد الشرق قد كادت تمحو معالمه كلها زعازع العصور الوسطى، فإن الصرح الذي شاده قيصر ظل قائماً آلاف السنين التي تبدلت فيها الأديان وتغيرت الدولة(17).

صفحة رقم : 3185

الفصل الخامس

فساد الديمقراطية

انحطت السياسة الرومانية في خلال الخمس السنين الثانية من ولاية قيصر على غالة إلى الدرك الأسفل من الفساد والعنف، فقد كان القنصلان بمبي وكراسس يسيران في حكمهما على خطة شراء أصوات الناخبين، وإرهاب المحلفين، والالتجاء إلى القتل في بعض الأحيان (18). ولما انقضت مدة ولايتهما جند كراسس جيشاً كبيراً وأبحر به إلى سوريا، ثم عبر نهر الفرات، والتقى بالبارثيين عند كرهية Carrhae، ودارت الدائرة عليه لتفوق فرسان البارثيين، وقتل ولده في المعركة. وبينما كان كراسس يرتد بقواته بنظام، دعاه قائد البارثيين إلى الاجتماع به، فأجاب الدعوة، ولكن القائد البارثي غدر به وقتله، وأرسل رأسه ليمثل به دور بنيثيوس Benthues في احتفال في بلاط ملك البارثيين، مثلث فيه مسرحية باخية Bacchae ليوربديز Euripidis. وأصبح جيشه بغير قيادة، وكان قد مل القتال، فانحلت عراه وتبدد شمله (53). وكان بمبي في هذه الأثناء قد جمع له جيشاً، ولعله كان يبغى به إتمام فتح أسبانيا، ولو أن قيصر نجح في خطته لفتح بمبي أسبانيا القاصية، ولأخضع كراسس أرمينية وبارثيا، ولبسطت رومه سلطانها على هذه البلاد جميعها في الوقت الذي فيه قيصر يمد حدود الإمبراطورية الرومانية إلى نهري التاميز والرين. ولكن بمبي أبقى فيلقه في إيطاليا بدل أن يقودها إلى أسبانيا، إلا فيلقاً واحداً أعاره قيصر إبان الأزمة التي نجمت عن ثورة الغالين. وحدث في عام 54 أن انفصمت العروة الوثقى التي كانت تربطه بقيصر على أثر وفاة زوجته يوليا في أثناء

صفحة رقم : 3186

الوضع، وعرض عليه قيصر أن يزوجه أكتافيا حفيده أخيه وأقرب قريباته في ذلك الوقت، وطلب أن يتزوج هو بابنة بمبي، ولكنه رفض كلا العرضين. وأخلت النكبة التي حلت بكراسس وجيشه في العام التالي من الميدان قوة أخرى كانت تعمل على إيجاد التوازن فيه. ذلك أن نجاح كراسس كان من شأنه أن يحول دون طغيان قيصر أو بمبي. وعقد بمبي من ذلك حلفاً صريحاً مع المحافظين، ولم يبق أمامه لنجاح خطته التي كان ينبغي بها الحصول على السلطة العليا بالطرق المشروعة في الظاهر إلا عقبة واحدة، هي مطامع قيصر وجيشه. وكان يعرف أن قيادة قيصر للجيش تنتهي في عام 49، فاستصدر مراسيم تقضي بمد أجل قيادته هو إلى آخر عام 46، وطلب إلى جميع الإيطاليين القادرين على حمل السلاح أن يحلفوا يمين الولاء العسكري له هو شخصياً، وكان يعتقد بعد هذا أن الزمن كفيل بأن يجعله سيد رومه (19).

وبينا كان القائدان اللذان يبغى كلاهما أ، يكون الحاكم بأمره في رومه يضعان خططهما على هذا النحو كانت الديمقراطية تحتضر في عاصمة البلاد، فكانت الأحكام القضائية، ومناصب الدولة، وعروش الملوك الخاضعين لسلطانها، تباع إلى من يعرض فيها أعلى الأثمان. من ذلك أن القسم الأول من المقترعين في الجمعية قد استولى في عام 53 على عشرة ملايين سسترس ثمناً لأصوات أفراده(20). ولما لم ينفع المال لم يتورع ذوو الشأن عن الالتجاء إلى الاغتيال(21) أو كشف الستار عن ماضي الناس، والتهديد بالكشف عن فضائحهم، فلم يروا أمامهم سبيلاً غير الإذعان. وفشا الإجرام في المدينة كما انتشرت السرقات في الأقاليم، ولم يكن في هذه ولا في تلك قوة من الشرطة تظمن الناس على أنفسهم أو أموالهم، فكان الأغنياء يستأجرون عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم في الجمعية. واستهوت رائحة المال أو هبات الحبوب أحط الطبقات في إيطاليا فهرعت إلى رومه، وجعلت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل، فكان كل من يقبل

صفحة رقم : 3187

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> فساد الديمقراطية

الاقتراع كما يطلب إليه يؤذن له بدخولها سواء كان من مواطني رومه أو من غير مواطنيها. وكان يحدث في بعض الأحيان ألا يكون من بين من أعطوا أصواتهم إلا أقلية هي التي لها حق الاقتراع. وكثيراً ما كان الخطباء يحصلون على حق الخطابة في الجمعية بالهجوم على المنصة والاستيلاء عليها قوة واقتداراً. وأضحت العصابة التي ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها هي التي تشرع للدولة، كما كان الذين يقترعون على غير هواها يضررون حتى يكاد يقضي عليهم، ثم تشعل النار بعد الضرب في بيوتهم. وقد كتب شيشرون بعد جلسة من هذه الجلسات يقول: "لقد امتلأ التيبير بجثث المواطنين كما سدت بها البالوعات العامة، واضطر الأرقاء إلى امتصاص الدم بالإسفننج من السوق العامة"(22).

وكان كلوديوس وميلو أعظم الخبراء الممتازين في هذه المهزلة البرلمانية، فقد كانا ينظمان عصابات من أحط الطبقات ليصلوا بها إلى أغراضهم السياسية، وقلما كان يوم واحد يمر دون أن توضع قوة هذه العصابات موضع الاختبار. من ذلك أن كلوديوس هاجم شيشرون في أحد شوارع المدينة في يوم من الأيام، وحرق أجراؤه بيت مليو في يوم ثان، ثم قبضت عصابات ميلو على كلوديوس نفسه في يوم آخر وقتله (52). غير أن صعاليك المدينة الذين لم يكونوا يجهلون ما يبدره من المؤامرات رفعوه إلى مقام الشهداء، واحتفلوا بجنائزته احتفالاً عظيماً، وجاءوا بجثته إلى مجلس الشيوخ، وحرقوا البناء فوقها كأنه كومة الحطب التي تحرق عليها جثث الموتى. وجاء بمبي بجنوده ففرقوا الغوغاء، ثم طلب إلى المجلس جزاء له على عمله هذا أن يعينه "قنصلاً بغير زميل"، وهي عبارة نصح بها كاتو وقال إنها أخف على السمع من لفظ دكتاتور. ثم عرض بمبي على الجمعية، بعد أن أربها بجنده، عدة اقتراحات يبغى بها القضاء على الرشوة والفساد السياسي المنتشرين في البلاد، كما عرض عليها

صفحة رقم : 3188

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> فساد الديمقراطية

اقترحاً بإلغاء حق المرشح لمنصب القنصل أن يفعل هذا وهو غائب عن رومه، (وكانت الجمعية قد منحت قيصر هذا الحق بناء على مشروع قانون عرضه عليها بمبي نفسه في عام 55). وأخذ يشرف بنفسه على قوة الدولة العسكرية، وعلى أعمال المحاكم؛ ولم يؤخذ عليه في هذا الإشراف شيء من الهوى أو المحاباة. وحوكم مليو على جريمة قتل كلوديوس وأدين على الرغم من دفاع شيشرون عنه ثم هرب إلى مرسيليا. وغادر شيشرون رومه ليحكم قليقية (51)، وحكمها بكفاية ونزاهة أدهشتنا أصدقاءه وأغضبتهم عليه. ثم استسلمت عناصر الثروة والنظام كلها في عاصمة البلاد إلى دكتاتورية بمبي، أما الطبقات الفقيرة فظلت صابرة تتلطف على عودة قيصر.

صفحة رقم : 3189

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الحرب الأهلية

الفصل السادس

الحرب الأهلية

دامت الفتن والثورات في الدولة الرومانية مائة عام، حطمت في خلالها كيان الطبقة الأرستقراطية الأنانية القليلة العدد التي كانت تتولى شؤون الحكم في البلاد، ولكنها لم تحل حكومة أخرى محلها. فأما الجمعية فقد أفسدها التعطل والرشوة والخيز ومجادلة الوحوش، فأحالتها إلى جماعة من الغوغاء الجهلة تسيطر عليهم أهواؤهم وشهواتهم، فكانت بذلك عاجزة أشد العجز عن حكم نفسها بله حكم إمبراطورية واسعة الرقعة. وانحطت الديمقراطية حتى أضحت وكأنها هي المعنية بقول أفلاطون: "صارت الحرية إباحية، وأخذت الفوضى تتوسل أن يوضع حد للحرية" (24). ولم يختلف قيصر مع بمبي في أن الجمهورية قد ماتت، وأنها أصبحت على حد قوله: اسماً على غير مسمى لا جسم لها ولا صورة" (25). ولم يكن ثمة مفر من الدكتاتورية، ولكنه كان يريد أن يضع أزمة الأمور في أيدي قيادة تعمل لتقدمها ورفيها، قيادة غير جامدة لا تبقى البلاد على حالها التي تردت فيها، بل تبذل جهودها لتخفيف ما يتغلغل فيها من مفساد ومظالم وفاقة أفسدت الديمقراطية وهوت بها إلى الحضيض. وكان قيصر وقتئذ في الرابعة والخمسين من عمره، وما من شك في أنه قد أوهنته حروبه الطويلة في غالة، وأنه لم يكن يحب أن يتورط في محاربة مواطنيه وأصدقائه السابقين، ولكنه كان على علم بالمؤامرات التي تحاك له، والفخاخ التي تنتصب لاقتناصه، وكان يؤلمه أشد الألم أن تكون هذه المؤامرات والفخاخ هي الجزاء الذي يجزي به من أنجي إيطاليا من الدمار والخراب. وكانت مدة حكمه في غالة تنتهي في اليوم الأول من شهر مارس سنة 49 ق.م، ولم يكن في وسعه أن يتقدم للقنصلية إلا في

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الحرب الأهلية

خرف ذلك العام، وفي الفترة الواقعة بين الزمانيين يفقد الحصانة التي يسبغها عليه منصبه، ولا يستطيع دخول رومه دون أن يعرض نفسه للاتهام بأنه خارج على القانون، وهو السلاح المألوف الذي كانت تلجأ إليه الأحزاب المختلفة في رومه في نزاعها على السلطة. وكان ماركس مارسلس Marcus Maecellus قد عرض قبل ذلك الوقت على مجلس الشيوخ أن يعزل قيصر من الولاية قبل انتهاء مدتها، ومعنى هذا الغزل هو البقاء خارج البلاد أو المحاكمة، وكان التريبونان قد أنجياه من هذه المكيدة باستخدام ما لهما من حق الاعتراض، ولكن مجلس الشيوخ كان بلا ريب راضياً عن هذا الاقتراح، وقال كاتو بصريح العبارة إنه يرجو أن توجه التهمة إلى قيصر، وأن يحاكم وينفى من إيطاليا. أما قيصر نفسه فلم يدخر جهداً في العمل على إزالة أسباب النزاع بينه وبين خصومه. فلما أن طلب مجلس الشيوخ بإيعاز بمبي أن يتخلى له كلا القائدين عن فيلق يرسله لقتال بارثيا، أجابه قيصر من فوره إلى طلبه، وإن لم تكن القوة التي لديه كبيرة. ولما طلب بمبي إلى قيصر أن يعيد إليه الفيالق الذي أرسله له قبل عام من ذلك الوقت، بادر أيضاً بإرساله إليه، وإن كان أصدقاؤه قد أبلغوه أن الفيالقين لم يرسلوا إلى بارثيا بل بقيا في كابوا. وطلب قيصر على لسان مؤيديه في مجلس الشيوخ أن يعاد العمل بقرار الجمعية السابق الذي كان يجيز له أن يرشح نفسه لمنصب القنصلية وهو غائب عن رومه، ولكن المجلس رفض الاقتراح وطلب إلى قيصر أن يسرح جنوده. وأحس هو أن ليس له سند يحميه إلا فيالقه، ولعله لم يكن يعمل لكسب ولائهم له إلا ليقفوا إلى جانبه في مثل هذه الأزمة. غير أنه في ذلك الوقت عرض على مجلس الشيوخ أن يعتزل هو وبمبي منصبيهما- وبدا هذا العرض معقولاً لا غبار عليه في نظر الشعب، حتى أنه كلال جبين رسوله بالأزهار. ووافق المجلس على هذه الخطبة بأغلبية 370 ضد 22، ولكن بمبي أبى أن يخضع لهذا القرار، حتى إذا أشرف عام 50 على الانتهاء ولم يبق منه إلا بضعة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الحرب الأهلية

أيام، أعلن أن قيصر عدو الشعب إذ لم يتخل عن القيادة قبل اليوم الأول من شهر يوليا. وفي أول عام 49 قرأ كوريو Curio على المجلس رسالة من قيصر يعلن فيها استعداده لتسريح جيشه كله عدا فيلقين اثنين إذا سمح له بأن يظل والياً على غالة حتى عام 48، ولكنه أفسد هذا العرض بأن أضاف إليه أنه يرى في رفضه إعلاناً للحرب عليه. ودافع شيشرون عن هذا الاقتراح، ووافق عليه بمبي، ولكن القنصل لنتولس Lentulus تدخل في الأمر وأخرج كوريو Curio وأنطونيوس نصيري قيصر من المجلس (26)، وبعد نقاش طويل أصدر المجلس على كره منه وبإلحاح لنتولس وكاتو ومارسلس إلى بمبي أمراً وسلطة "يعمل بهما على ألا تصاب للدولة بسوء". وتلك عبارة رومانية معناها الدكتاتورية والحكم العسكري.

وتباطأ قيصر وتردد أكثر مما كانت عاداته. فقد كان مجلس الشيوخ من الوجهة القانونية على حق فيما فعل، ولم يكن من حقه هو أن يعرض الشروط التي تعتزل بمقتضاها منصبه وقيادته. وكان يعرف أن الحرب الأهلية قد تثير الفتنة

في غالة وتخرب إيطاليا بأجمعها، ولكنه كان يعلم أيضاً أن استسلامه معناه إسلام الإمبراطورية للعجز وللرجعية، وترامي إليه في أثناء تفكيره أن صديقاً من أقرب الأصدقاء إليه ومن أقدر مؤيديه وهو تيتس لبيينس Titus Labienus قد انشق عليه وانضم إلى بمبي، فما كان منه إلا أن استدعى الفيلق الثالث عشر، أكثر فيالقه ولاء له وأحبها إلى قلبه، وعرض المر كله على رجاله. وكانت أول كلمة نطق بها أمامهم وهي "رملاني الجنود. Commilitones" كافية لكسب قلوبهم، ولم يكونوا ينكرون عليه حقه في استعمال هذا اللفظ لأنهم رأوه من قبل يشترك معهم في الصعاب ويتعرض معهم للأخطار، وكثيراً ما شكوا هم أنفسهم من أنه يجازف بحياته ويعرضها للخطر فوق ما يجب. وكان هو على الدوام يخاطبهم بهذا اللفظ بدل اللفظ المقتضب الجاف الذي كان ينطق به من هم أقل منه مجاملة

صفحة رقم : 3192

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الحرب الأهلية

من القواد. وكان معظم رجاله من بلاد الغالة الجنوبية، وهي البلاد التي جعل لأهلها حق المواطنين الرومان، وكانوا يعرفون أن مجلس الشيوخ قد أبى أن يعترف لهم بهذه المنحة، وأن أحد أعضائه قد جلد رجلاً من أهلها ليدل بذلك على احتقاره لعمل قيصر، على الرغم من أن جلد المواطن الروماني كان عملاً لا يجيزه القانون. وكان قيصر قد علمهم في أثناء حروبهم الطويلة أن يحترموا - بل أن يحبوا على طريقتهم الخشنة الصامتة في الحب. وكان قاسياً على الجبناء ومن لا يرعون النظام، ولكنه كان سمحاً لينا لا يقسو عليهم جزاء لهم على أغلاطهم التي تدفعهم إليها طبيعتهم البشرية، وكان يتغاضى عن أخطائهم الجنسية ويجنبهم ما لا ضرورة له من الأخطار، وكثيراً ما أنجاهم من الهلاك بحنكته وحسن قيادته. وهذا إلى أنه ضاعف أجورهم، ووزع عليهم كثيراً من غنائه الحربية، ولما جاءوا إليه شرح لهم ما عرضه على مجلس الشيوخ، وكيف قابل المجلس هذه العروض، وذكر لهم أن الأرستقراطية المتعطللة الفاسدة لا تستطيع أن توفر لرومه النظام والعدالة والرخاء، وسألهم هل يتبعوه؟ فلم يعارض واحد منهم، ولما قال لهم إنه ليس لديه مال يؤدي منه أجورهم جاءوا إلى خزائنه بكل ما كان مدخراً لديهم.

وفي اليوم العاشر من شهر يناير نت عام 49 ق.م. عبر بأحد فيالقه الروبيكون وهو مجرى صغير بالقرب من أريمينوم Ariminum كان هو الجنوبي لغالة الجنوبية. ويقال إنه قد نطق في ذلك الوقت بقوله المأثور: "لقد قضى الأمر" (Iacta est alea)، وخيل إلى الناس أن هذا العمل هو الحمق بعينه لأن الفيالق الخمسة الباقية من جيشه كانت لا تزال بعيدة عنه في بلاد غالة لا تستطيع اللحاق به إلا بعد عدة أسابيع، على حين أن بمبي كان لديه عشرة فيالق، أي ستون ألف جندي، وكان من حقه أن يجند ما يشاء من الفيالق الأخرى، ولديه من المال ما يكفي لتسليحهم وإطعامهم. وانضم بعدئذ إلى قيصر الفيلق الثاني عشر من فيالقه عند بسينوم Picenum، والفيلق الثامن عند كورفنيوم Corfinium، ثم

صفحة رقم : 3193

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الحرب الأهلية

أنشأ ثلاثة فيالق جديدة من أسرى الحرب ومن المتطوعين ومن أهل البلاد؛ ولم يكن يلقي صعوبة في جمع الجنود لأن إيطاليا لم تكن قد نسيت بعد ما قاسته في الحرب الاجتماعية (88)، كانت ترى في قيصر البطل المدافع عن حقوق الإيطاليين. فكانت مدانها تفتح أبوابها لاستقباله واحدة بعد أخرى، وكثيراً ما خرج سكان بعض هذه المدائن على بكرة أبيهم ليحيوه ويرحبوا به (28)، وقد كتب شيشرون في ذلك يقول: "إن المدن تحببه كأنه إله معبود" (29). وقاومت كورفنيوم مقاومة قصيرة الأجل، ثم استسلمت له ولم يسمح لجنوده أن ينهبوا، وأطلق سراح منه قبض عليهم من الضباط، وبعث إلى معسكر بمبي بكل ما تركه لبيينس Labienus من المال والعتاد. ولم يشأ أن يصادر ضياع من وقع في يده من الأعداء وإن كان في ذلك الوقت معدماً فقيراً لا يكاد يملك شيئاً من المال - وكانت هذه خطة حميدة يمتاز بها قيصر، كان من أثرها أن وقفت كثرة الطبقة الوسطى من الأهلين على الحياد. وأعلن في ذلك الوقت أنه سيبعد كل المحايدين أصدقاء له وأنصاراً. وكان في كل خطوة يخطوها إلى الأمام يعرض عروضاً للصلح على أعدائه. من ذلك أنه أرسل إلى لنتولس Lentulus رسالة يرجوه فيها أن يستخدم ما يخلعه عليه منصب القنصل من نفوذ ليعيد السلم إلى البلاد، وعرض رسالة كتبها إلى شيشرون استعداده لاعتزال الحياة العامة وترك المجال إلى بمبي على شرط أن يسمح له بأن يعيش آمناً على حياته (30). وبذل شيشرون جهده في التوفيق بين القائدين، ولكن منطقة لم يجده نفعاً أمام تسف الثورة ودعاؤها المتعارضة (31).

ولما تقدم قيصر نحو العاصمة انسحب بمبي هو وجنوده منها وإن كانت جيوشه وقتئذ لا تزال أكثر من جيوش قيصر عدداً. وانسحب من ورائه في غير نظام عدد كبير من الأشراف تاركين وراءهم زوجاتهم وأبناءهم تحت رحمة قيصر. ورفض بمبي عروض الصلح جميعها، وأعلن أنه سيعد كل من

صفحة رقم : 3194

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الحرب الأهلية

لم يغادر رومه وينضم إلى معسكره عدواً له. ولكن الكثرة العظمى من أعضاء مجلس الشيوخ بقيت في رومه، وتذبذب شيشرون بين الفريقين، وكان يحتقر تردد بمبي وخور عزيمته، فقسم وقته بين ضياعه في الريف وسار بمبي إلى برنديزيوم وعبر بجنوده البحر الأدرياتي. وكان يعرف أن جيشه يعوزه النظام، وأنه في حاجة إلى كثير من التدريب قبل أن يستطيع الصمود في وجه فيالق قيصر، وكان يرجو أن يستطيع الأسطول الروماني الذي يسيطر هو عليه أن يجوع إيطاليا في هذه الأثناء ويدفعها إلى إبادة عدوه.

ودخل قيصر رومه في اليوم السادس عشر من مارس دون أن يلقي في دخولها أية مقاومة، ودخلها وهو مجرد من السلاح لأنه ترك جنوده في البلدان المجاورة لها؛ وأعلن حين دخولها العفو العام عن جميع أهلها، وأعاد إليها الإدارة البلدية والنظام الاجتماعي. ودعا التريبونان مجلس الشيوخ إلى الانعقاد وطلب إليه قيصر أن يعينه حاكماً بأمره (دكتاتوراً)، ولكن المجلس لم يجبه إلى طلبه، ثم عرض على المجلس أن يبعث رسلاً إلى بمبي ليفاوضه في عقد الصلح فرفض ذلك أيضاً. فطلب المال من الخزانة العامة فوقف في سبيله التريبون لوسيوس متلس Lucius Metellus فلما قال قيصر إن النطق بعبارات التهديد أصعب عليه من تنفيذها خضع متلس. واستطاع من ذلك الوقت أن يكون حر التصرف في أموال الدولة، ولكنه كان نزيهاً كل النزاهة، فأودع في الخزانة العامة كل ما غنمه من الأموال في حروبه الأخيرة. ولما تم له ذلك عاد إلى جنوده واستعد لملاقاة الجيوش الثلاثة التي كان بمبي وأنصاره يعدونها في بلاد اليونان وأفريقيا وأسبانيا، وأراد أن يضمن لإيطاليا كفايتها من الحبوب التي تعتمد عليها في حياتها،

فأرسل كوريو Curio المتهور العنيف ومعه فيلقان من جيشه ليستولي على صقلية، فلما نزل في الجزيرة سلمها إليه كاتو وانسحب منها إلى إفريقيا، فاندفع وراءه كوريو اندفاع رجيوليوي Regulus، واشتبك معه في معركة

صفحة رقم : 3195

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الحرب الأهلية

لم يكن قد كمل استعداداه هو لها، فهزم وقتل في ميدان القتال، ولم يندم عند وفاته على ما أصابه بل ندم أشد الندم على ما ألحقه من الأذى بقيصر.

وكان قيصر في هذه الأثناء قد سار على رأس جيش إلى أسبانيا وكان غرضه من هذا الزحف أن يضمن عودتها إلى تصدير الحبوب إلى إيطاليا، وأن يحول بينها وبين الهجوم على مؤخرته حين يزحف لملاقاة بمبي، وارتكب في إيطاليا كما ارتكب في غالة عدة أغلاط عسكرية فنية(32)، كانت عاقبتها أن تعرض جيشه- الذي كان أقل من جيش أعدائه عدداً- للهزيمة وللهلاك جوعاً. ولكنه أنجاه وأنجى نفسه، كمألوف عادته، بسرعة خاطره وشجاعته(33)، فقد حول مجرى أحد الأنهار واستحال الحصار الذي كان مضروباً عليه حصاراً على أعدائه، وظل صابراً زمناً طويلاً حتى يستسلم له الجيش المحاصر وإن كان جنوده قد ملوا الانتظار طويلاً يطالبون بالهجوم على العدو. ثم استسلم أنصار بمبي آخر الأمر وخضعت أسبانيا كلها إلى قيصر (أغسطس سنة 49). وعاد بعدئذ إلى إيطاليا برأ، ولكنه وجد الطريق مغلقاً في وجهه عند مرسيلىا، وقد وقف أمامه جيش يقوده لوسيسوس دمتيوس Lucius Domitius وهو القائد الذي أسره في كورفنيوم ثم أطلق سراحه. واستولى قيصر على المدينة بعد أن حاصرها حصاراً شديداً، ثم أعاد تنظيم الإدارة في غالة، ولم يحل شهر ديسمبر حتى عاد ظافراً إلى رومه.

وقوت هذه الحملات مركزه السياسي، كما طمأننت البطون المتخوفة في العاصمة على كفايتها من الطعام، فلم يمانع مجلس الشيوخ وقتئذ في أن يعينه دكتاتوراً. ولكن قيصر تخلى عن هذا اللقب بعد أن اختير أحد القنصلين في عام 48 ق.م. ولما وجد أزمة النقد مستحكمة في إيطاليا، لأن اختزان النقود قد سبب انخفاض الأثمان، وأبى المديونون أن يؤدوا بالنقود الغالية ما استدانوه بالنقود الرخيصة- لما وجد هذا أصدر قراراً

صفحة رقم : 3196

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الحرب الأهلية

يهيج أداء الديون سلعاً بقدر أثمانها محكمون من قبل الحكومة كما كانت تقدر قبل الحرب. وكان يرى أن هذه "خير وسيلة للاحتفاظ بشرف المدينين ولتبيد أو تقليل الخوف الذي كان يساور البعض من أن تلغى هذه الديون إلغاء تاماً، وهو الإلغاء الذي يحتمل حدوثه في أعقاب الحروب"(34).

ومن الشواهد الدالة على بطئ سير الإصلاح في رومه قبل ذلك العهد أنه اضطر مرة أخرى أن يحرم استعباد المدين إذا لم يؤد دينه، وأنه أباح خصم الفوائد التي دفعت قبل ذلك الوقت من أصل الدين، وحدد سعر الفائدة بواحد في المائة كل شهر. وأرضت هذه الإجراءات معظم الدائنين لأنهم كانوا يخشون أن تصادر أموالهم، ولكنها أغضبت المتطرفين الذين كانوا يرجون أن يسير قيصر على خطة كاتلين فيلغى الديون كلها ويعيد توزيع الأراضي على السكان. ووزع قيصر الحبوب على المعوزين وألغى جميع أحكام النفي ما عدا الحكم الصادر على ميلو، وعفا عن كل من يعود إلى البلاد من الأشراف. ولكن أحداً لم يحمده له اعتداله، ذلك أن المحافظين الذين عفا عنهم عادوا يأترون به ليقتلوه، وبيننا كان يواجه بمبي في تساليا Thessaly تخلى عنه المتطرفون وانضموا إلى كنيليوس Caelius بعد أن وعدهم بإلغاء الديون إلغاء تاماً، وبمصادرة الأملاك الواسعة، وتوزيع الأراضي على الأهلين توزيعاً جديداً. وفي أواخر عام 49 انضم قيصر إلى الجنود والى الأسطول اللذين جمعهما لصاربه في برنديز يوم. وكان عبور جيش من الجيوش البحر الأدريايوي شتاء في تلك الأيام عملاً لم يسمع به من أحد قط. ولم يكن في استطاعة الاثنتي عشرة سفينة التي تحت تصرفه أن تقل من جنوده إلا ستين ألفاً في كل مرة، وكانت أساطيل بمبي التي تفوقها عدة وعدداً تغدو وتروح بين ثغور الشاطئ المقابل له والجزائر المجاورة لهذا الشاطئ. ولكن قيصر رغم هذا أقلع بجنوده، ونزل في إبيروس ومعه عشرون ألفاً منهم. غير أن سفنه تحطمت وهي عائدة إلى إيطاليا. ولم يعرف

صفحة رقم : 3197

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الثورة - قيصر - الحرب الأهلية

قيصر السبب الذي أخر بقية جيشه، فحاول أن يعبر البحر مرة أخرى في زورق صغير. وأخذ الملاحون يجذفون والموج يعاكسهم حتى كادوا يغرقون، ولكن قيصر لم تهن عزيمته رغم ما كان يحيط به من أهوال جسام، وأخذ يقوي قلوبهم بهذه العبارة التي لا يبعد أن تكون من نسج خيال المؤلف:

"لا تخافوا إنكم تحملون قيصر وحظه" (35)،

ولكن الريح والموج قذفاً بالقارب إلى الشاطئ الذي بدأ منه، واضطر هو أن يعود من حيث أتى. وكان بمبي في هذه الأثناء قد استولى بأربعين ألفاً من رجاله على درشيوم Dyrrhachium ومخازنها الغنية، ولكنه عجز عن مهاجمة جيش قيصر الذي تناقص عدده وقلت مؤونته، وكان بمبي في تلك الأيام قد سمن وابتلى بالتردد وخور العزيمة. وبينما كان هو في تردده جمع ماركس أنطونيوس أسطولاً جديداً حمل عليه ما كان باقياً من جيش قيصر في إيطاليا.

وبذلك أصبح قيصر متأهباً للقتال، ولكنه ما زال يكره أن يقاتل الروماني رومانياً، فأرسل رسولاً إلى بمبي يعرض عليه أن يتخلى القائدان كلاهما عن قيادتهما، ولكن بمبي لم يرد عليه فهاجمه وأخفق في هجومه، غير أن بمبي عجز أن يتبع النصر بمطاردة عدوه. ثم قتل ضباط بمبي جميع من وقع في أسرهم من أعداءهم الضباط على الرغم من نصيحة قائدهم الأعلى، أما قيصر فلم يقتل أحداً من أسراه (37)، وهو عمل رفع من قوة جنوده المعنوية بقدر ما أضعف من قوة بمبي. وطلب رجال قيصر إلى قائدهم أن يعاقبهم على ما أظهروه من الجبن في حربهم الأولى ضد الفيالق الرومانية، فلو لم يجيبهم إلى ما طلبوه توسلوا إليه

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الحرب الأهلية

أن يعود بهم إلى ساحة القتال، ولكنه رأى من الحكمة أن يردد إلى تساليا ليستريحوها فيها بعض الوقت. واستقر رأي بمبي وقتئذ على القرار الذي قضى على حياته. فقد أشار عليه أفرانيوس Afranius أن يعود إلى إيطاليا الخالية من وسائل الدفاع ويستولي عليها؛ ولكن معظم مستشاريه ألحوا عليه أن يطارد قيصر ويقضي عليه. وبالغ الأشراف الذين كانوا في معسكر بمبي فيما أحرزه من النصر في درهشيوم وظنوا أن القضية الكبرى قد فصل فيها في ذلك المكان. وهال شيشرون- وكان قد انضم إليهم آخر الأمر- أن يسمعهم يتنازعون فيما سيعود على كل منهم بعد أن يعودوا إلى ما كانوا فيه، وأن يرى ما يتقبلون فيه من الترف وهم في ميدان القتال، فقد كان الطعام يقدم لهم في صحاف من الفضة، وكانت خيامهم مفروشة بالطنافس الوثيرة تزينها الصور الرائعة وطاقات الزهر الجميلة. وكتب شيشرون في ذلك يقول:

"وكان البمبيون، ما عدا بمبي نفسه، يحاربون بوحشية شديدة، وينطقون في أحاديثهم بمبادئ القسوة، حتى كان الرعب يستولي عليّ إذا ما فكرت في نصرهم... إنهم قوم ليس فيهم ما هو خير إلا قضيتهم.. لقد كانوا يفترضون أن يعدم أعداؤهم جملة لا أفراداً متفرقين.. وقد لتنلس نفسه أن يستولي على بيت هورتنسيوس وعلى حدائق قيصر وباياني" (38).

وكان بمبي نفسه أميل إلى التريث وعدم الاشتباك في معركة فاصلة، ولكنه اضطر إلى العمل برأي مستشاريه لما أن عبروه بالجبن والخور، فأصدر أمره بالزحف. ودارت رحى المعركة الفاصلة في فارسالس في اليوم التاسع من شهر أغسطس عام 48 ق.م، وكانت معركة طاحنة دام فيها القتال حتى نهايتها المريرة. وكان

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الحرب الأهلية

جيش بمبي يتألف من ثمانية وأربعين ألفاً من المشاة، وسبعة آلاف من الفرسان؛ أما جيش قيصر فلم يكن يزيد على اثنين وعشرين ألفاً من المشاة؛ وألف من الفرسان. ويقول أفلوطرخس تعليقاً على هذا الموقف. "وكان عدد قليل من أنبل رجال رومه يشاهدون المعركة عن كثب.. ويفكرون فيما صارت إليه الإمبراطورية بسبب المطامع الشخصية. لقد التقت في هذا المكان زهرة شباب المدينة الواحدة وعماد قوتها في صراع عنيف، وحسبنا هذا برهاناً قاطعاً على ما في الطبيعة البشرية من عمى وجنون إذا ما أثرت شهواتها" (40).

لقد كان أقرب الأقارب، بل كان الأخوة أنفسهم، يقاتل بعضهم بعضاً في الجيشين المتعادين. وقد أمر قيصر رجاله أن يبقوا على حياة كل من يستسلم من الرومان، أما الشباب الأروستقراطي ماركس بروتس فقد أمرهم قيصر أن يقبضوا عليه دون أن يصيبوه بأذى، فإذا لم يجدوا سبيلاً إلى هذا فليسمحوا له بالفرار (41). وروع البمبيون لتفوق أعدائهم

القيادة، والتدريب، والقوة المعنوية. وقتل منهم وجرح خمسة عشر ألفاً، واستسلم عشرون ألفاً، وولى الباقيون الأدبار. ونزع بمبي شارة القيادة عن رجاله وفر مع من فروا من رجاله. ويخبرنا قيصر أنه لم يفقد من رجاله إلا مائتين (42). وهو قول يحملنا على الشك في كتيبه كلها. وأخذ رجاله يتندرون بما في خيام أعدائهم من وسائل الزينة، وبما وجدوه فيها من الموائد المثقلة بالطعام الشهي الذي أعد لساعة الاحتفال بالنصر. وأكل قيصر عشاء بمبي في خيمة بمبي نفسه.

وسار بمبي على ظهر جواده الليل كله حتى وصل إلى لاريسا Larissa، وركب منها سفينة أقلته إلى الإسكندرية، وخرج في طريقه على متليني Mytilene حيث انضمت إليه زوجته، وطلب إليه سكانها أن يقيم معهم، ولكنه رفض طلبهم في أدب ومجاملة، ونصحهم أن يستسلموا للفتح في غير

صفحة رقم : 3200

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> الحرب الأهلية

خوف لأن "قيصر" على حد قوله "رجل عامر القلب بالصلاح والرحمة" (43). وفر بروتس أيضاً إلى لاريسا، ولكنه أطل المكث فيها ووجه منها رسالة إلى قيصر. وأبدى القائد المنتصر أشد الاعتباط حين سمع أن بروتس، حي يرزق، وعفا عنه من فوره، كما عفا عن كاسيوس استجابة لرغبة بروتس. وكان كذلك لينا في معاملة أمم الشرق التي أيدت بمبي مدفوعة إلى ذلك بمشينة الطبقات العليا المسيطرة عليها. ووزع ما جمعه بمبي من الحبوب على سكان بلاد اليونان الجوع، ولما جاءه الأثينيون يطلبون إليه أن يعفو عنهم، أجابهم وعلى شفثيه ابتساماً اللوم بقوله: "إلى متى ينجبكم مجد آباءكم الأولين من موارد الهلاك التي توردها أنفسكم؟" (44). وأكبر الظن أن بعضهم قد حذر قيصر من أن بمبي يفكر في معاودة القتال معتمداً على جيش مصر ومواردها، وعلى القوة التي كان كاتو وليبينس Labienus ومتلس يعدونها في يتكا Utica. ولكن حدث بعد أن وصل بمبي إلى الإسكندرية أن أمر بوتينس Pothinus خصى الشاب بطليموس الثاني عشر ووزيره خدمة أن يقتلوه، ولعله فعل ما فعل رجاء أن يكافئه عليه قيصر. فقد طعن القائد طعنة نجلاء حين وطئت قدماه شاطئ مصر، بينما كانت زوجته تنظر إليه في هلع وهي على ظهر السفينة التي أقلتهما إلى تلك البلاد. فلما جاء قيصر أهدى إليه رجال بوتينس رأس القائد الذي فصل عن جسده، فولى وجهه عنهم في هلع، وأخذ يبكي من فرط تأثره بهذا الشاهد الجديد على أن الناس كلهم يلقون مصيراً واحداً، وإن اختلفت الوسائل المؤدية إلى هذا المصير. ونزل قيصر في قصر البطالمة الملكي وشرع ينظم شؤون تلم المملكة القديمة.

صفحة رقم : 3201

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> قيصر وكليوباترة

قيصر وكليوباترة

وأخذت مصر بعد وفاة بطليموس السادس (145) تسير مسرعة في طريق الاضمحلال وعجز ملوكها عن الاحتفاظ بنظامها الاجتماعي أو حريتها القومية؛ وأخذ مجلس الشيوخ الروماني يقوي فيها سلطانه ويملي عليها إرادته، بل إنه أقام حامية رومانية في الإسكندرية. وكانت مقاليد الحكم قد آلت بعد وفاة بطليموس الحادي عشر الذي أجلسه بمبي وجانبوس على العرش إلى ابنه بطليموس الثاني عشر وابنته كليوباترة، وذلك لأن والدهما قد أوصى قبل وفاته أن يرثا الملك من بعده، وأن يتزوج الأخ أخته ويشتركا في حكم البلاد معاً. وكانت كليوباترة من أصل يوناني مقدوني، وأكبر الظن أنها كانت أقرب إلى الشقرة منها إلى السمرة (45). ولم تكن بارعة الجمال ولكن قوامها الرشيق المعتدل. وخفة روحها، وتنوع ثقافتها، ودمائة خلقها، وحسن صوتها، مضافة إلى مقامها الملكي قد جعلتها فتنة لكل من رآها تسلبه لبه وإن كان قائداً رومانياً. وكانت على علم بتاريخ اليونان وآدابهم وفلسفتهم، تجيد الحديث باللغات اليونانية والمصرية والسورية، ويقال إنها كانت تتقن لغات أخرى غير هذه. وقد جمعت إلى فتنة أسبازيا الذهنية فتنة المرأة المتحللة إلى أقصى حد من القيود الخلقية. ويقال إنها ألقت رسالة في مستحضرات التجميل، وأخرى في المقاييس والموازن والنقود المصرية، وموضوع الرسالة الثانية موضوع مغر جذاب (46). وكانت إلى هذا حاكمة قديرة وإدارية ماهرة، نجحت في نشر التجارة المصرية، وارتقت على يديها الصناعة؛ وكانت تجيد تدبير الشؤون المالية حتى في الوقت الذي كانت تنصب فيه شرك الحب. وقد جمعت إلى هذه الصفات شهوة جسدية قوية، ووحشية

صفحة رقم : 3202

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الثورة - قيصر - كليوباترة

عنيفة تصب على أعدائها العذاب والموت صبا، ومطامع سياسية بعيدة، تحلم ببناء إمبراطورية واسعة، ولا تحترم في سبيل الوصول إلى غايتها قانوناً إلا قانون النجاح. ولو أنها لم يجر في عروقتها دم البطالمة المتأخرين الداعرين لكان من الجائز أن تحقق غرضها وتصبح ملكة تحكم دولة واسعة الرقعة تضم بلاد البحر الأبيض المتوسط. وكانت تدرك أن مصر لم تعد قادرة على البقاء مستقلة عن الدولة الرومانية، ولم تر ما يمنعها أن تكون هي المسيطرة على الدولة المتحدة.

وقد استاء قيصر حين عرف أن بوثنيس نفي كليوباترة، ونصب نفسه نائياً عن بطليموس الشاب يحكم باسمه، ولذلك أرسل إليها سراً، وجاءته سراً وقد احتالت على الوصول إليه بأن أخفت نفسها في فراش حمله تابعها أبولودورس Apollodorus إلى مسكن قيصر. وذهل القائد الروماني حين رآها، وأسرته بشجاعته وسرعة بديهتها، وهو الذي لم يدع انتصاراته في ميدان القتال تربي على انتصاراته في ميادين الحب. ووفق بينها وبين بطليموس وأجلسها هي وأخاها على عرش مصر كما كانا من قبل. وعرف قيصر من أخيه أن بوثنيس هو القائد المصري أخلاص Achilles كانا يآمران به ليقفلاه ويبيدا القوة العسكرية الصغيرة التي جاءت معه إلى مصر، فدبر في الخفاء اغتيال

بوثنيس، وفر أخلاس، واتصل بالجيش المصري، وحرّضه على الثورة. وسرعان ما امتلأت الإسكندرية بالجنود ينادون بالويل والثبور لقيصر، وحرّض ضباط الحامية الرومانية التي وضعها مجلس الشيوخ في تلك المدينة على الانضمام إلى الجيش الثائر ضد هذا الدخيل الخائن الذي سولت له نفسه أن يقرر وراثة عرش البطالمة، وأن يعمل على أن يولد من صلبه من يرث هذا العرش في المستقبل.

وعمل قيصر في هذا الطرف الحرج ما كانت تسعفه حيلته، فأحال القصر الملكي والملهى المجاور له إلى قلعتين تحصن فيهما هو ورجاله. ثم أرسل يطلب المدد من آسيا الصغرى وسوريا ورودس. ولما أدرك أن أسطول الضعيف

صفحة رقم : 3203

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> قيصر وكليوباترة

الذي لم يكن فيه من يحميه لن يلبث أن يقع في يد أعدائه، أمر به فحرق والتهمت النار جزءاً من مكتبة الإسكندرية لا نعرفه على وجه التحديد. ورأى أن لا بد له من الاستيلاء على جزيرة فاروس لأنها هي المدخل الذي يمكن أن يصل إليه منه المدد المنتظر، فهاجمها هجوم اليانس، واستولى عليها، ثم جلا عنها، ثم عاد فاستولى عليها. وحدث في إحدى هذه المعارك أن اضطر إلى السباحة في البحر لينجو من الموت بعد أن صوبت إليه عاصفة من سهام، وذلك حين قذف المصريون به وبأربعمائة من رجاله إلى البحر بعيداً عن الحاجز الذي كان يصل الجزيرة بأرض المدينة. وظن بطليموس الثاني عشر أن الثوار قد حالفهم النصر، فخرج من القصر وانضم إليهم واختفى من التاريخ. ولما جاء المدد إلى قيصر هزم به المصريين وحامية مجلس الشيوخ في معركة النيل، وكافأ كليوباترة على إخلاصها له في هذه الأزمة بأن عين أباها الأصغر بطليموس الثالث عشر ملكاً معها على مصر، فجعلها بذلك حاكمة البلاد الحقيقية.

ويصعب علينا أن ندرك السر في بقاء قيصر تسعة أشهر في الإسكندرية، والجيش نجش لقتاله في ينكا Utica، ورومه في أشد الحاجة إلى يده الصناع، لأن كئيلوس Caelius وميلو ينفخان فيها نار الثورة عليه. فلعله كان يحس بأنه جدير ببعض الراحة واللهو بعد حروب دامت عشر سنين؛ وفي هذا يقول سيوتونيوس Suetonius إنه كثيراً ما كان يقضي الليل كله حتى مطلع الفجر يلهو مع كليوباترة، وكان بوده أن يسير معها في قاربها من أقصى مصر إلى أقصاها حتى يصل إلى بلاد الحبشة لولا أن هدده جنوده بالخروج عليه" (47)، لأن كل واحد منهم لم يجد له فتاة لعباً. أو لعل شهامته قد أجبرته على أن ينتظر حتى تفيق كليوباترة من ألام الوضع، فقد وضعت طفلاً في عام 47 ق.م سمي قيصريون Caesarion، ويقول ماركس أنطونيوس إن قيصر اعترف بأنه ولده (48). ولا يبعد أن تكون قد أسرت إليه تلك الفكرة الجميلة فكرة أن يكون ملكاً

صفحة رقم : 3204

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> قيصر وكليوباترة

ويتزوجها فيجتمع بذلك عالم البحر الأبيض المتوسط تحت فراش واحد. ذلك كله ظن وهو إلى ذلك إثم؛ فليس ثمة ما يؤده إلا ما نستخلصه من الشواهد والقرائن المفصلة. وما من شك في أنه عاد إلى نشاطه حين عرف أن فرناسس Pharnaces بن مثراداتس قد استولى مرة أخرى على بنتس Pontus وأرمينيا الصغرى، وأنه أخذ يدعو بلاد الشرق إلى الثورة من جديد على رومه المنقسمة على نفسها. ووضحت في ذلك الوقت حكمته في "تهدئة" أسبانيا وغالة قبل لقائه بمبي؛ فلو أن الغرب ثار عليه وقت أن ثار الشرق لكان من المرجح أن تتصدع أركان الدولة وأن يزحف "البرابرة" نحو الجنوب، وألا تشهد رومه قط عصر أغسطس. لكن قيصر حال دون ذلك كله؛ فقد بدأ بإصلاح أمر فيالقه الثلاثة، ثم غادر مصر في شهر يونية من عام 47 ق.م، وسار بسرعه المعتادة على طول شواطئ مصر وسوريا وآسيا الصغرى إلى بلاد بنتس وهزم فرناسس في واقعة زيلا (Ziela 2 أغسطس)، وبعث من ميدان القتال إلى صديق لعم بهذا الخبر القصير البليغ: "جنت، ورأيت، وهزمت" (49vein, vidi, vici). وقابله شيشرون عند تارنيم (26 سبتمبر)، وطلب إليه أن يعفو عنه وعن غيره من المحافظين، فأجابته إلى ما طلب وأظهر له الرضا والود، وهاله بعد أن عاد إلى رومه أن الحرب الأهلية قد استحالت في العشرين شهراً التي قضاها بعيداً عنها إلى ثورة اجتماعية، وأن دلابللا Dolabella زوج ابنة شيشرون انضم بفوته إلى كنيليوس وعرض على الجمعية مشروع قانون بإلغاء جميع الديون، وأن أنطونيوس أطلق جنوده على صعاليك دلابللا المسلحين، وأن ثمانمائة من الرومان قتلوا في السوق العامة. وكان كنيليوس قد استخدم سلطته وهو بريطور Praetor فأعاد ميلو إلى رومه، ونظماً معاً جيشاً في جنوبي إيطاليا، وطلباً إلى الأرقاء أن ينضموا إليهما في ثورة جائحة على النظام القائم. ولم يلقيا في هذه الثورة إلا قليلاً من النجاح، ولكن روح الثورة كانت قد أشربت بها جميع النفوس، فكان المتطرفون في رومه

صفحة رقم : 3205

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الثورة - قيصر - قيصر وكيوبطرة

يحتفلون بذكرى كاتلين وينثرون الأزهار مرة أخرى على قبره. وكان جيش بمبي في إفريقيا قد ازداد عدده حتى أضحى في قوة الجيش الذي هزم في فرسالس. وكان سكستس Sextus بن بمبي قد أنشأ في أسبانيا جيشاً جديداً، وتعرضت إيطاليا مرة أخرى لخطر انقطاع الحبوب عنها. تلك هي الأحوال التي كانت قائمة في شهر أكتوبر من عام 47 حين عاد قيصر إلى رومه وإلى زوجته كلبيرنيا Calpurnia ومعه كيلوبطرة وأخوها - زوجها الغلام وقيصرون. وشرع في الأشهر القليلة التي أتاحت له بين الحروب يعيد النظام إلى رومه ولما عين حاكماً بأمره من جديد استرضى المتطرفين إلى حين بإلغاء القانون الأخير من قوانين صادرة، وألغى في رومه كل ما قل عن ألفي سسترس من أجر الأراضي. وحاول في الوقت نفسه أن يهدئ مخاوف المحافظين فعين ماركس بروتس حاكماً على بلاد غالة الجنوبية. وأكد لشيشرون وأتكس أنه لن يثير حرباً على نظام الملكية، وأمر بإعادة تماثيل صلا التي حطمها الرعاع. ولما وجه أفكاره نحو بمبي وأنصاره ساءه وثبط من همته أن يسمع أن أكثر جنوده ولاء له قد ثاروا عليه، لأنهم لم يتسلموا مرتباتهم من زمن بعيد وأنهم يرفضون الإنجاز إلى أفريقيا. وكانت خزائن الدولة وقتئذ خاوية أو شبه خاوية، فجمع ما يحتاجه من المال بمصادرة أموال الأشراف الذين خرجوا عليه وبيعها. ولما سئل في ذلك قال عنه قد تعلم أن الجند يعتمدون على المال، وإن المال يعتمد على القوة، والقوة تعتمد على الجند. ثم ظهر فجأة بين الجنود المتمردين، وجمعهم حوله وقال لهم في هدوء إنه قد سرحهم، وإن في مقدورهم أن يعودوا إلى منازلهم، وإنه سيؤدي إليهم كل ما تأخر من رواتبهم بعد أن يتم له النصر في أفريقيا على يد "غيرهم من الجنود". ويقول أبيان إنهم "لما سمعوا هذا القول استولى عليهم الخجل جميعاً لأنهم تخلوا عن قائدهم في الساعة التي يحيط به العدو من كل جانب.. فصاحوا بأنهم نادمون على خروجهم عليه، وتوسلوا إليه أن يحتفظ بعم في خدمته" (51) فأجابهم إلى ما طلبوا في إباء ساحر، وأبحر بهم إلى أفريقيا.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> قيصر وكليوباترة

والتقى في اليوم السادس من شهر إبريل سنة 46 ق.م بقوى متلس سيبو Metellus Scipio في ثبوسوس وليبيوس Labienus وجوبا الأول IJuba ملك نوميديا مجتمعة. وخسر المعركة الأولى في هذه المرة أيضاً، ولكنه فعل ما فعله من قبل، فأعاد تنظيم صفوفه وهجم بها على عدوه وانتصر عليه. ولأمه جنوده المتعطشون للدماء على ما أظهره من رافة بأعدائه في فرسالس، واعتقدوا أنه لولا هذه الرحمة لما اضطروا إلى قتال هؤلاء الأعداء مرة أخرى، ولذلك قتلوا من جنود بمبي الثمانين ألفاً نحو عشرة آلاف ولم تأخذهم بهم رافة، لأنهم لم يريدوا أن يلتقوا بهؤلاء الجنود مرة أخرى في ميدان القتال. وانتحر وفر سيبو ومات في مناوشة بحرية، وهرب كاتو ومعه سرية من جنوده إلى بئكا. ولما اقتفى أثره وأراد الضباط أن يصدوه عن المدينة، أقنعهم كاتو بأنه لا جدوى من عملهم هذا، وأعد المال لمن أردادوا القتال، ولكنه أشار على ابنه بالاستسلام لقيصر. أما هو نفسه فقد رفض كلتا الخطين، وقضى السهرة في بحوث فلسفية. ثم أوى إلى حجرة نومه، وقضى شطراً من الليل يقرأ فيدون Phaedo لأفلاطون. وأيقن أصدقائه أنه سيقتل نفسه فأخذوا سيفه من جانبه. فلما غفلت أعينهم أمر خادمه أن يأتيه بالسيف، وتظاهر بالنوم ساعة من الليل، ثم قام وأمسك بسيفه وبقر به بطنه؛ وهرول إليه أصدقائه، وأعاد الطبيب أحشاءه إلى بطنه، وخاط الجرح، وضمده، ولكنهم لم يكادوا يخرجون من الحجرة حتى رفع كاتو الضمادات عن الجرح وأعاد فتحه وأخرج منه أحشاءه، وقضى نحبه.

ولما جاء قيصر كان أشد ما أجزنه أن لم تتح له الفرصة للعفو عن كاتو، وأن كل ما يستطيع أن يفعله عن ولده. وشيع أهل بئكا الرواقي المنتحر في مشهد حافل كأنهم يعرفون أنهم يدفنون معه جمهورية كادت تبلغ من العمر خمسة قرون.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> قيصر الحاكم

عاد قيصر إلى رومه في خريف عام 46 بعد أن نصب سلسيت والياً على نوميديا، وأعاد تنظيم ولايات أفريقيا. وأوجس مجلس الشيوخ خيفة من هذه العودة، وأدرك أن البلاد مقبلة على الحكم الملكي المطلق، فاختاره حاكماً بأمره مدة عشر سنوات. واحتفلت رومه بعودته احتفالاً لم تشهد له مثيلاً من قبل، وكافا قيصر كل جندي من جنوده بخمسة آلاف درخمة أتيكية (حوالي ثلاثة آلاف ريال أمريكي)، أي أكثر بكثير مما كان قد وعدهم به، وأولم وليمة كبرى للمواطنين الرومان احتوت على اثنين وعشرين ألف مائدة. وأعد لتسليتهم معركة بحرية صورية، اشترك فيها عشرة آلاف رجل. ثم غادر رومه إلى أسبانيا في أوائل عام 45 وهزم آخر جيش من جيوش بمبي عند مندا Munda. ولما عاد إلى رومه في شهر أكتوبر وجد إيطاليا كلها تسودها الفوضى. ذلك أن الحكم الألجركي الفاسد، والثورات التي دامت مائة عام كاملة، قد أشاعا الاضطراب والفوضى في الأعمال الزراعية والصناعية والمالية والتجارية. أضف إلى هذا أن استنزاف موارد الولايات، وحبس رؤوس الأموال، وزعزعة أركان الاستثمار، أدت كلها إلى اضطراب سوق المال. هذا إلى أن آلاف الضياع قد حل بها الخراب، لأم مائة ألف من الرجال سيقوا من الأعمال المنتجة إلى ميادين القتال، وأن آلاف مؤلفة من الزراع أرغمتهم منافسة الحبوب المستوردة من خارج البلاد أو التي تنتجها الضياع الكبرى التي يعمل فيها العبيد على الانضمام إلى صعاليك المدن والاستماع ويطونهم خاوية إلى الوعود التي يمينهم بها الزعماء المهرجون. وأخذ من أبتت عليهم رحمة قيصر من الأشراف

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> قيصر الحاكم

بأنتمرون به في قصورهم ونواديبهم، ولما أن طلب إليهم في مجلس الشيوخ أن يعترفوا بضرورة الدكتاتورية ويعانوه على أن يعيد النظام إلى البلاد ويأسو جراحها، سخروا مما يعرضه عليهم هذا المغتصب وبسطوا السنتم في استضافته لكيلو بطرة في رومه، وأخذوا يشيعون سراً أنه يعيد العدة ليكون ملكاً، ولينقل عاصمة الدولة إلى الإسكندرية أو إلى اليوم Ilium.

ومن أجل ذلك شرع قيصر، وقد أدركته الشيخوخة ولما يتجاوز بعد الخامسة والخمسين من عمره، ويعمل بهمة الرومان الأصيل ليحيي موات الدولة الرومانية. وكان يعلم أن انتصاره لن تكون لها قيمة إن لم يكن في مقدوره أن يشيد في مكان الحطام التي أزلها صرحاً أحسن منها وأثبت دعامة. ولما أن مد أجل دكتاتوريته في عام 44 من عشر سنين إلى دكتاتورية تدوم مدى الحياة لم ير فرقا كبيراً بين الحاليين، وإن لم يكن قد أدرك في ذلك الوقت أن أجله لن يطول أكثر من خمسة شهور.

وأخذ مجلس الشيوخ يتملقه وحباه بكل ما يستطيع من ألقاب التعظيم، ولعله كان يهدف بذلك إلى أن يشيع كراهيته في قلوب الشعب الذي كان يبغض الملكية ولا يطيق حتى اسم الملك. وأجاز له المجلس أن يلبس إكليل الغار الذي كان يوارى به صلته، وأن يحمل حتى في وقت السلم رمز سلطات الإمبراطور imperator. وبفضل هذه السلطات كان يسيطر على خزائن المال، كما كان منصب الحبر الأكبر Pontifex Maximus يمكن من السيطرة على الشؤون الدينية في البلاد، وكان له، بوصفه قنصلاً، أن يقترح القوانين وينفذها، وبوصفه تربيوناً كانت ذاته مصونة لا تمس، وبوصفه رقيباً كان له أن يعين أعضاء مجلس الشيوخ ويسقطهم. واحتفظت الجمعيات بحقها في الاقتراع على القوانين المعروضة عليها، ولكن دلابلا وأنطونيوس رجلي قيصر كانا يسيطران عليها، وكانت توافق عادة على سياسته. وكان هو من ناحيته يجتهد في أن يقيم

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> قيصر الحاكم

دكتاتورية على محبة الشعب له ورضائهم عنه شأنه في هذا شأن غيره من الطغاة الحاكمين. وأنزل مجلس الشيوخ حتى صار أشبه شيء بمجلس استشاري له، ورفع عدد أعضائه من ستمائة عضو إلى تسعمائة، وكان يجده على الدوام باستبدال أربعمائة عضو جديد يمثل عددهم من أعضائه السابقين. وكان كثيرون من هؤلاء الأعضاء الجدد من رجال العمال، وكثيرون منهم من المواطنين البارزين في المدن الإيطالية أو مدن الولايات الرومانية، ومنهم من كانوا من أعضاء المثين أو الجنود أو أبناء العبيد. وارتاع الأشراف حين رأوا زعماء غالة المغلوبة يدخلون مجلس الشيوخ وينضمون إلى حكام الإمبراطورية، بل عن الماجنين من أهل العاصمة قد ساءهم هذا التصرف ونشروا في طول المدينة وعرضها مقطوعة شعرية يقولون فيها "إن قيصر يقود الغالبيين في موكب نصره، ثم يدخلهم مجلس الشيوخ؛ لقد خلع الغالبيون سراويلهم القصيرة ولبسوا المنزر العريض الأطراف" الذي يلبسه الشيوخ(52).

ولعل قيصر قد تعمد أن يجعل المجلس الجديد هيئة ضخمة عاجزة عن المداولة الجدية المنتجة أو المقاومة الموحدة. ولذلك اختار طائفة من أصدقائه هم بلبس balbus، وأبيوس Oppius، وماتيبوس Matius وغيرهم، ليتخذ منهم وزراء له غير رسميين ينفذون سياسته؛ وأدخل النظام البيروقراطي في الدولة بأن وضع الشؤون الكتابية في دولا ب الحكومة ودقائق الأعمال الإدارية في أيدي من كان في بيته من المحررين والرقيق. وسمح للجمعية أن تختار نصف كبار الحكام في المدينة، واختار هو النصف الباقي بطريق التوصية، وكانت الجمعية تأخذ بهذه التوصيات على الدوام. وكان من حقه، بوصفه تربوناً، أن يعترض على قرارات غيره من التربونين والقناصل ويبطلها، ورفع عدد البريتورين Praetors إلى ستة عشر، والكواستورين Quaestor إلى أربعين لينجز بذلك

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> قيصر الحاكم

أعمال البلدية والأعمال القضائية، وراقب بنفسه شؤون المدينة كلها على اختلاف أنواعها، وقضى على كل ما كان فيها من عجز وفساد وإتلاف، ونص في جميع العهود التي منحها للمدينة على الأوامر الصريحة والعقوبات الشديدة التي يتعرض لها كل من يحاول إفساد الانتخابات أو الوظائف العامة. وأراد أن يقضي على السنة القديمة سنة السيطرة على الشؤون السياسية بابتياح أصوات الناخبين جملة. ولعله أراد أيضاً أن يحصن نفسه من ثورة الرعا. فألغى الاتحادات والنقابات ولم يبق منها إلا ما كان ذا أصل قديم، وإلا الجماعات اليهودية ذات الأغراض الدينية الخالصة. وقصر وظائف المحلفين على الطبقتين العليين واحتفظ لنفسه بحق النظر في أهم القضايا وأخطرها شأنًا، وكثيراً ما كان يجلس للقضاء بنفسه. وليس ثمة من ينكر ما تنتصف به أحكامه من حكمة ونزاهة. وقد اقترح على المشترعين في أيام

أن يجمعوا القوانين الرومانية المعمول بها وقتئذ في كتاب واحد منظم، ولكن موته العاجل حال دون إتمام هذا المشروع.
ثم سار على خطة ابني جراكس، فوزع الأرض على جنوده القدامى وعلى الفقراء، وسار أغسطس نفسه على هذه السياسة، فهدأت الاضطرابات بين الزراع كثيراً من السنين. وأراد أن يمنع عودة الملكية الزراعية إلى التركيز فحرم بيع الأراضي الجديدة قبل مضي عشرين عاماً، كما أمر أن يكون ثلث العمال في المزارع من الأحرار، وذلك لكي يحول دون استغلال الأراضي كلها على أيدي الأرقاء. وكان من قبل قد أنقص عدد الرعايا المتعطلين في المدينة بمن جندهم منهم في الجيش، وباقتطاعهم الأراضي الزراعية بعد تسريحهم. ثم أنقص عددهم مرة أخرى بأن أرسل ثمانين ألفاً من المواطنين ليستعمروا قرطاجنة وكورنثة وأشبيلية وأرليس وغيرهما من المراكز. ولم يكتف بهذا بل أراد أن يضمن العمل للباقيين من المتعطلين فوضع برنامجاً ضخماً للبناء رصد له 160.000.000 سسترس. من ذلك أنه أمر بإنشاء بناء جديد في ميدان المريخ لاجتماع الجمعيات، وإضافة مبنى

صفحة رقم : 3211

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> قيصر الحاكم

جديد للسوق العامة يدعى سوق أبوليوم لتخفيف الزحام عن السوق القديمة. ثم جمل كثيراً من المدن في إيطاليا وإسبانيا وغالة وبلاد اليونان.
وبعد أن خفف أعباء الفقر بهذه الوسائل أراد أن يعرف أثرها في الناس، فطلب إلى من شاء الفقراء أن يتقدم إلى الدولة بالحصول على إعانات من الحبوب، فوجد أن عدد الطالبين قد نقص على الفور من 32.000 إلى 150.000.
وقد ظل حتى ذلك الوقت نصيراً للعمامة، بهدف إلى إسعادهم في جميع ما وضعه من المشروعات. ولكنه كان يعلم أن الثورة الرومانية ثروة زراعية أكثر منها صناعية، وأنها موجهة في الغالب إلى طبقة الأشراف التي تسخر لخدمتها الأرقاء، ثم إلى المرابين، وأنها لم يوجه إلا القليل منها لرجال الأعمال. فواصل خطة ابني جراكس الزراعية، ودعا رجال الأعمال إلى تأييد الثورة الزراعية والمالية.
وكان شيشرون قد حاول أن يعقد حلقاً بين الطبقات الوسطى والأشراف، أما قيصر فحاول أن يُولف بين أولئك وبين العامة، وأمدّه بالمال كثيرون من الممولين على اختلاف درجاتهم من كراسس إلى بلبس، كما أمد الكثيرون من أمثالهم بالمال للثورتين الأمريكية والفرنسية. ولكن قيصر رغم هذه المعونة قضى على مصدر من أكبر مصادر الاستغلال المالي والربح غير المشروع- وهو جباية الضرائب في الولايات على أيدي جماعات الملتزمين. ثم خفض الديون بدرجات متفاوتة، وسن قوانين صارمة لتحريم الربا الفاحش. وأسعف العاجزين عجزاً شديداً عن الوفاء بديونهم بوضع قانون للإفلاس لا يختلف في جوهره عن القانون المعمول به في هذه الأيام. وأعاد إلى العملة استقرارها بجعل الذهب أساساً لها، وبصك قطعة ذهبية تدعى أوريوس Aureus كانت تساوي في قوتها الشرائية الجنيه الإسترليني في القرن التاسع عشر، وكانت صورته تطبع على النقود

صفحة رقم : 3212

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> قيصر الحاكم

الحكومية وتزيين برسوم لم تعرفها رومه من قبل. وقد نظمت الإدارة المشرفة على مالية الدولة تنظيمًا جديدًا، وطمعت بكفايات جديدة كانت نتيجتها أن وجد في خزائنها حين قتل قيصر 700.000.000 سسترس، وفي خزينته الخاصة 100.000.000. وأراد أن يقيم نظام الضرائب والإرادة على أساس علمي سليم، فأجري إحصاء عاماً في إيطاليا وأعد العدة لإحصاء عام مثله في سائر أنحاء الإمبراطورية، ثم أراد أن يعوض النقص الكبير الذي أحدثته الحروب في عدد المواطنين الرومان، فتوسع إلى أقصى حد في منح حق المواطنة الرومانية- وكان ممن شملهم هذا الحق الأطباق والمعلمون في رومه. وكان النقص المطرد في المواليد قد أقض من قبل مضجعه، فقرر في عام 59 ق.م أن تكون الأولوية في امتلاك الأراضي التي توزعها الحكومة لأبناء الثلاثة الأبناء. والآن قرر منح مكافآت للأسر الكبيرة، وجرم على من ليست له أبناء من النساء أن يركبن المحفات أو يتحلين بالجواهر- وكان هذا التشريع أضعف تشريعاته كلها وأقلها نفعا.

وظل قيصر كما كان رجلاً لا أدريا وإن لم يكن عقله بعيداً كل البعد عن الخرافات (53). ولكنه بقي الرئيس الأعلى لدين الدولة ولم يبخل على هذا الدين بما يحتاجه من الأموال، فأعاد بناء الهياكل القديمة وأنشأ هياكل أخرى جديدة. وكانت فينوس أمه الحنون تلقى منه أعظم ضروب التكريم، لكنه مع هذا كان يطلق للناس كامل الحرية في الفكر والعبادة، وألغى ما كان قد صدر من الأوامر بتحريم عبادة إيزيس، ومنع التعرض لليهود في ممارسة شعائر دينهم. ولما رأى أن تقويم الكهنة لم يعد يتفق مطلقاً مع فصول السنة أمر سوسجينس Sosigenes العالم اليوناني الإسكندري السنة من ذلك الحين تشتمل على 365 يوماً، يضاف إليها يوم في آخر شهر فبراير كل أربع سنين. وأخذ شيشرون يشكو من هذا

صفحة رقم : 3213

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> قيصر الحاكم

التغيير ويقول إن قيصر لم يقنع بحكم الأرض فتناول إن تنظيم النجوم والتحكم في شؤونها، ولكن مجلس الشيوخ قبل هذا الإصلاح أحسن قبول، وأطلق اسم يوليوس وهو اسم أسرة قيصر على شهر كونكتيلس (Quinctilis) (الشهر الخامس) وكان هذا الشهر هو الشهر الخامس حين كان شهر مارس بداية العام. ولك تلك الأعمال التي شرع فيها قيصر أو فكر فيها ووقفت بسبب قتله أقل شأنًا من الأعمال التي تمت فعلاً. ومن هذه الأعمال الأولى أنه وضع أساس ملهى عظيم، ومعبد للمريخ يتفق وما عرف عن هذا الإله من شره ونهم، وعين فارو على رأس هيئة تعمل لإنشاء دور كتب عامة. وعمل على إنقاذ رومه من وطأة الملاريا بتجفيف بحيرة فوسينس Fucinus ومنافع بننين Pontine، واستصلاح الأراضي المجففة وزرعها. وأشار ببناء جسر حول التبير ليمنع طغيان مياهه على الأراضي المجاورة له، واقترح تحويل مجرى هذا النهر لإصلاح ميناء أستييا Ostia الذي كان غرين النهر يسده من أن إلى أن. وأمر مهندسيه بأن يعدوا مشروعاً يرمي إلى إنشاء طريق يخرق وسط إيطاليا من الشرق إلى الغرب وإلى حفر قناة في برزح كورنثة Corinth.

وكان أشد ما أغضب أهل رومه من أعماله أن منح أحرار الإيطاليين كلهم ما لأهل رومه نفسها من حقوق، وأهن سوي بين الولايات وبين إيطاليا. ذلك أنه منح حق الانتخاب لأهل غالة الجنوبية في عام 49، ثم وضع في عام 44 ميثاقاً يدل ظاهرة على أنه لجميع مدن إيطاليا وانه يسوي بين هذه المدن وبين رومه، ولكن أكبر الظن أنه كان يفكر

في إقامة حكومة نيابية من نوع ما تجعل لهذه المدن نصيباً ديمقراطياً في حكومته الملكية (55). ثم انتزع حق تعيين الولاية من مجلس الشيوخ المرتشي الفاسد، ورشح هو لهذه المناصب رجالاً عرفوا بالمقدرة والكفاية، وجعلهم في كل آن عرضة للعزل بأمر منه وحده، وخفض الضرائب في الولايات إلى ثلثي ما كانت

صفحة رقم : 3214

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> قيصر الحاكم

عليه، وعهد جبايتها إلى موظفين مسؤولين أمامه. ولم يأبه باللعنات القديمة التي كانت تصب على من يعيد بناء كيو وقرطاجنة وكورونثة؛ وأتم في هذه الناحية أيضاً ما شرع فيه ولدا جراكس، وأعطى حقوق الرومان أو اللاتين للمستعمرين الذين أرسلهم لإنشاء عشرات المدن الممتدة من جبل طارق إلى البحر السود، أو لتعمير ما كان قائماً منها من قبل. ولا جدال في أنه كان يريد أن يمنح حق المواطنة الرومانية لجميع الذكور الراشدين في الإمبراطورية كلها، وبذلك لا يكون مجلس الشيوخ ممثلاً لطبقة واحدة في رومه بل يكون ممثلاً لعقلية الولايات جميعها وإرادتها. وهذه الفكرة التي سيطرت على عقل قيصر فيما يجب أن يكون عليه نظام الحكم، مضافة إلى تنظيمه الجديد لرومه وإيطاليا، تكمل في رأينا تلك المعجزة المنقطعة النظير - المعجزة التي جعلت من الشاب المتلاف العريبي رجلاً من أقد ررجال السياسة المشؤومة في جميع العصور وأعظمهم شجاعة وعدلاً واستتارة. وكان قيصر كالإسكندر لا يعرف أين تقف جهوده وإصلاحاته؛ فلما أن رسم في ذهنه صورة لدولته في نظامها الجديد ساءه أن يجدها معرضة للغزو عند أنهار الفرات والدنوب والرين، فأخذ يفكر في إرسال حملة عظيمة لإخضاع بارثيا والأخذ بثأر كراسس الذي أمده بالمال في أزماته، وفي الزحف حول البحر الأسود لتهدئة سكوديا Scythia، وفي ارتياد نهر الدانوب وفتح ألمانيا (16). حتى إذا ما أمن الإمبراطورية على هذا النحو عاد إلى رومه متقلاً بالمجد والمغانم، ومعه من المال ما يستطيع به أن يقضي على الكساد الاقتصادي في البلاد، وله من القوة والجاه ما يستطيع به أن يغض الطرف عن كل معارضة؛ ومن الحرية ما يمكننا من أن يعين من يخلفه، وأن يموت بعد أن يورث العالم "السلم الرومانية" Pax Romana، وهي أعظم تراث يستطيع أن يورثه إياه.

صفحة رقم : 3215

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> بروثس

الفصل التاسع

ولما تسربت أنباء هذه الخطة إلى رومه رحب بعها العامة الذين يحبون المجد، وتلمظ لها رجال الأعمال ذ شموا فيها رائحة الحرب، وتصوروا المطالب تنهال عليهم لصنع العتاد، وتصوروا الولايات تنهب وتتكس في خزائهم الأموال. أما الأشراف فرأوا الفناء يحل بهم عند عودة قيصر، ولذلك عقدوا النية على قتله قبل أن يغادر البلاد. وكان قيصر قد عامل هؤلاء الأشراف معاملة كريمة أطلقت لسان شيشرون بالثناء عليه. وكان قد عفا عن كل من استسلم له من أعدائه، ولم يحكم بالإعدام إلا على عدد قليل من الضباط الذين خانوا عهده فحاربوه بعد أن هزمهم وعفا عنهم. وكان قد أحرق كل الرسائل التي عثر عليها في خيمة بمبي وسببو من غير أن يقرأها، وأرسل ابنة بمبي وأحفاده الأسرى إلى سكتس ابن بمبي، وكان لا يزال في حرب معه، وأصلح تمثال بمبي وأقامه في موضعه بعد أن طرحة أتباعه على الأرض؛ وعين بروتس وكاسيوس والبيين على اثنتين من الولايات، كما عين غيرهما من الأشراف في بعض المناصب العليا، وصبر على كثير من الأذى والمثالب دون أن يشكو أو يتذمر، ولم يتخذ شيئاً من الإجراءات ضد من كان يظن أنهم ياتمرون به ليقتلوه. أما شيشرون الذي طالما لبس لكل حالة لبوسها، وأدار شراعه لكل ريح، فإن قيصر لم يكتف بالعفو عنه بل كرمه ولم يبخل عليه بشيء مما طلبه الخطيب العظيم لنفسه أو لأصدقائه البمبيين، بل نه انصاع لإلحاف شيشرون، فعفا عن ماركس مرسلس وهو الرجل الذي خرج على قيصر ولم يندم على فعله. وقد امتدح شيشرون في خطبة له رنانة عنوانها "إلى مرسلس" (56)

صفحة رقم : 3216

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> بروتس

" كرم قيصر الذي لا يصدق العقل"، وقال عن بمبي إنه لو انتصر لكان أشد منه انتقاماً من أعدائه. ثم أضاف إلى ذلك قوله: "لقد سمعت مع الأسف الشديد عباراتك الفلسفية المشهورة *lam satis vivi* لقد نلت كفايتي من طول الحياة ومن الشهرة... ورجائي إليك أن تطرح حكمة الحكماء.. ولا تكن حكيماً إذا عرضتك الحكمة للأخطار... إنك لا تزال بعيداً كل البعد عن إنجاز أعمالك العظيمة، بل إنك لم تضع بعد أسسها" ثم وعد قيصر وعداً صادقاً باسم مجلس الشيوخ كله بأنهم سيسهرون على سلامته ويصدون بأجسامهم كل اعتداء عليه (57). وأثرى شيشرون في ذلك الوقت ثراء جعله يفكر في شراء قصر آخر هذا القصر غير قصر صلا نفسه. وكان يستمتع بالمأدب التي يدعوها إليها أنطونيوس ويلبس وغيرهما من أعوان قيصر، ولم تكن رسائله في أي وقت مضى أكثر بهجة مما كانت في ذلك الوقت (58). غير أن قيصر لم ينخدع بهذا كله، فقد كتب إلى ماريوس يقول: "إذا كان في الناس من هو ظريف فذاك شيشرون ولكنه يبغضني أشد البغض" (59). وكان قيصر صادقاً في قوله، فلما أن عاد البمبيون إلى مناوأة قيصر بعد أن أمنوا جانبه ارتدى هذا الأديب التلراني في أحضانهم وكتب يثني على كاتو الأصغر ثناء ما كان أجدره بأن ينبه قيصر إلى ما يحيط به من الأخطار. غير أن قيصر لم يفعل أكثر من أن يرد على شيشرون بكتابة ضد كاتو -Anti-Cato لا تدل على حصافة عقله. ذلك أنه بعمله هذا أمكن خصمه من أن يختار السلاح الذي ينازله به، وكانت نتيجة هذا أن انتصر الخطيب عليه، وأثنى الرأي العام على أسلوب شيشرون كما أثنى على الحاكم الذي اختار أن يكتب رسالة وهو قادر على أن يوقع أمراً بالإعدام. وبعد فإن الذين حرموا ما كان لهم من سلطان لا يمكن أن تستل سخائمهم

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> بروتس

بالعفو عن مقاومتهم لمن حرمهم هذا السلطان، وليس عفوك عنك بأقل صعوبة عن أذيته. ومصدق هذا أن الأشراف في مجلس الشيوخ الذي لم يكن يجرؤ على رفض المقترحات التي عرضها عليه قيصر حسب الأصول الدستورية أخذوا يتبرمون وينددون بتدنيد الوطنيين الصادقين بالقضاء على الحرية التي أتخمت بالمال خزائنتهم، وعز عليهم أن يقرروا بأن عودة النظام تتطلب التضحية ببعض حريتهم. وقد روعهم وجود كليوباترة وقيصريون في رومه. نعم إن قيصر كان يعيش مع زوجته كليرنيا وإنهما كانا يتبادلان المحبة في الظاهر، ولكن من ذا الذي يعرف- ومن ذا الذي تطاوعه نفسه على ألا يذيع- ما كان يحدث في أثناء زيارته للكثيرة للملكة العظيمة الجميلة؟ وأكدت الشائعات أنه يريد أن ينصب نفسه ملكاً، وأن يتزوج كليوباترة، وأن ينقل عاصمة دولتهما المتحدة إلى بلاد الشرق. ألم يأمر بأن يقام له تمثال على الكبتول بجوار تماثيل ملوك رومه الأقدمين؟- ألم تطبع صورته على النقود الرومانية؟ وهي وقاحة لم يسبق لها نظير. ألم يلبس جلابيب أرجوانية من اللون الذي كان يحتفظ به عادة للملوك؟ لقد حاءه القنصل أنطونيوس يوم عيد ليركاليا في الخامس عشر من فبراير عام 44 عاري الجسد إلا من جلود الماعز التي كان يلبسها الكهنة في ذلك العيد تملأ من كثرة ما احتسى من الخمر، وحاول ثلاث مرات أن يضع التاج الملكي على رأس قيصر؛ ورفضه قيصر في المرات الثلاث. ولكن ألم يكن سبب هذا الرفض أن الجماهير قد أبدت غضبها من هذا العمل وإن أبدته همساً؟ ألم يقص التربيونين عن منصبها لأنهما رفعا عن تمثاله الإكليل الملكي الذي وضعه عليه أصدقائه ولما أقبل عليه الشيوخ وهو جالس في هيكل فينوس لم يقم واقفاً لاستقبالهم. وقال بعضهم إنه قد أقعدته وقتنذ نوبة صرع، وقال غيرهم إنه كان يشكو إسهالاً شديداً، وأنه ظل جالساً حتى لا تتحرك أمعاؤه في هذه اللحظة غير

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> بروتس

المواتية(60)، ولكن كثيرين من الأشراف كانوا يخشون أن ينادي به ملكاً في أي يوم. وأقبل كيوس كاسيوس، وهو رجل مريض الجسم- "أصفر نحيل" كما يصفه أفلوطرخس(61)، على ماركس بروتس واقترح عليه اغتيال قيصر. وكان قبل ذلك قد عرض خطته على جماعة من الشيوخ وعلى بعض الممولين الذين قل ما ينهبونه من الولايات مذ وضع قيصر القيود الشديدة على الملتزمين، بل عرضها أيضاً على بعض القواد في جيش قيصر الذين أحسوا بأن ما حباهم به من المناصب والغانم كان أقل مما يستحقون، وكان هؤلاء كلهم قد وافقوا عليها. وكان المتأمرين في حاجة إلى بروتس ليكون هو رافع لواء المؤامرة، لأنه اشتهر بين الناس كافة بأنه أعظم الناس استمساكاً بالفضيلة، وكان الناس يقولون إنه من سلالة بروتس الذي طرد الملوك قبل ذلك الوقت بأربعمئة وستة وأربعين عاماً. وكانت أمه سرفليا أختاً غير شقيقة لكاتو، وزوجته بورشيا ابنة كاتو وأرملة بيبولس عدو قيصر؛

ويقول أبيان "إن الناس كانوا يظنون أن بروتس نفسه ابن قيصر لأن قيصر كان عشيق سرفليا في الوقت الذي ولد فيه بروتس" (62). ويضيف أفلوطرخس إلى ذلك أن قيصر كان يعتقد أن بروتس ولده (63). ولا يبعد أن يكون بروتس نفسه ممن يعتقدون هذا الاعتقاد، وأنه كان يحقد على قيصر لأنه أفسد أخلاق أمه وجعله مضغة في أفواه الرومان، يقولون عنه إنه ابن زانية بدل أن يكون من نسل آل بروتس. وكان هو على الدوام مكتئباً يميل إلى الصمت كأن ظملاً حل به يجثم على صدره ويشغل باله، وذلك في الوقت الذي كان فيه فخوراً معجباً بنفسه، لأنه أياً كان مولده يجري في عروقه دم الأشراف. وكان يجيد اللغة اليونانية ويجب الفلسفة، وكان في علم ما وراء الطبيعة من القائلين برأي أفلاطون، وفي الأخلاق من أتباع زينون. وكان مما انطبع في ذهنه أن الرواقية تتفق مع المبادئ اليونانية والرومانية في الحث على قتل الطغاة الظالمين. وقد كتب

صفحة رقم : 3219

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الثورة - قيصر - بروتس

في هذا إلى صديق له يقول: "إن آباءنا كانوا يعتقدون أنه لا ينبغي لنا أن نخضع للمستبد ولو كان هذا المستبد أبانا نفسه" (64). وقد ألفت رسالة في الفضيلة وخط الناس في المستقبل بينه وبين هذا الوصف، وإن كان بعيداً عنه. فقد أقرض أهل سلاميس Salamis في قبرص عن طريق بعض الوسطاء أموالاً بسعر ثمانية وأربعين في المائة، ولما تدمروا من أداء ما تراكم عليهم من الفوائد ألح على شيشرون، وكان وقتئذ قنصلاً في قليقية، أن يستعين بالجيش الرومانية على جمع المال (65). وقد حكم غالة الجنوبية حكماً صالحاً يمتاز بحسن الإدارة والكفاية، ولما عاد إلى رومه عينه قيصر برييتور Praetor على الحواضر. وقد ثار كل عنصر طيب فيه على مقترحات قيصر، وأخذ كاسيوس يذكره بأبائه على الظلم، ولعل بروتس قد شعر بأنه يتحداه بأن يثبت أنه من نسلهم وبأن يحذو حذوهم. وكان هذا الشاب الحساس يحمرّ وجهه خجلاً حين يرى تمثال بروتس الأكبر أمثال هذه العبارة:

أي بروتس! هل مت؟ وإلا فإن آباءك براء منك

وقد أهدى إليه شيشرون عدة من رسائله كتبها في تلك السنين، وسرت في ذلك الوقت بين الأشراف شائعة فحواها أن لوسيوس كوتا Lucius Cotta سيعرض على مجلس الشيوخ في اجتماعه المقبل الذي سيكون في الخامس من شهر مارس اقتراحاً بتنصيب قيصر ملكاً، لأن عرافة سيبيلا قالت إن البارثيين لن يهزموا إلا على يد ملك (67). وقال كاسيوس إن المجلس، وقد أصبح نصف أعضائه ممن عينهم قيصر، سوف يوافق على هذا الاقتراح، وإنه لن يبقى بعد ذلك أمل في عودة الحكم الجمهوري. وتأثر بروتس بهذا كله، واستسلم، واخذ المتآمرون بعد ذلك يحكمون أمرهم ويضعون خططهم. واستخلصت بورشيا

صفحة رقم : 3220

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> بروتس

السر من زوجها، بأن طعنت نفسها بخنجر في فخذا لتبرهن بذلك على أنه ما من أذى يصيبها في جسمها يحملها على أن تتطرق بشيء رغم إرادتها. وأصر بروتس في لحظة غير مواتية له على ألا يمسه أنطونيوس بأذى. وحدث في مساء اليوم الرابع عشر من شهر مارس أن عرض 2 قيصر على من كانوا مجتمعين في منزله أن يكون موضوع حديثهم "ما هي خير طريقة للموت؟" وأجاب هو عن ذلك السؤال بقوله: "إنها الميتة المفاجئة". وتوسلت إليه زوجه في صباح اليوم الثاني ألا يذهب إلى مجلس الشيوخ، وقالت إنها رأت في نومها ملطخاً بالدماء؛ وحاول خادم آخر، كان يرى مثل رأيها، أن يفتعل نذيراً بمنع قيصر من الذهاب، فتسبب في سقوط صورة لأحد أسلافه معلقة على جدار، ولكن دسمس بروتس Decimus Brutus، وهو صديق حميم لقيصر وأحد المتأمرين، ألح عليه أن يحضر الاجتماع وإن لم يفعا فيه أكثر من أن يطلب بنفسه في رقة ومجاملة تأجيل الجلسة إلى وقت آخر. وأقبل صديق لقيصر عرف نبأ المؤامرة ليحذره فوجده قد غادر داره في طريقه إلى المجلس. وقابل في طريقه عرافاً كان قد أسر إليه من قبل أن "يحذر اليوم الخامس عشر من شهر مارس" وقال له قيصر وهو يبتسم، إن الخامس عشر من مارس قد جاء ولم يصب فيه بسوء، فأجابه اسبورنا Sburinna "نعم ولكنه لم يمض بعد". وبينما كان قيصر يقرب القربان الذي كان من المؤلف تقريبه قبل الجلسة أمام ملهى بمبي حيث يعقد المجلس اجتماعه إذ وضع أحدهم في يده لوحة صغيرة يحذره فيها من مؤامرة ولكنه لم يعبا بها. وتقول الرواية المأثورة إن هذه اللوحة وجدت في يده بعد مقتله .

صفحة رقم : 3221

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> قيصر -> بروتس

وشغل تربونيوس Trebonius- وهو أحد المتأمرين، وكان من قبل أحد قواد قيصر المقربين- أنطونيوس بالحديث فعطله عن حضور الاجتماع. ولما دخل قيصر الملهى واتخذ فيه مجلسه هجم "دعاة الحرية" من فورهم عليه. ويقول سيوتونيوس: "لقد كتب بعضهم يقولون إنه حين هجم عليه ماركس بروتس قال باللغة اليونانية Kai su teknon- "وأنت أيضاً يا ولدي"(69). ويقول أبيان إن قيصر حين طعنه بروتس امتنع عن كل مقاومة، وغطى وجهه ورأسه بثوبه، واستسلم للضربات، وسقط عند قدمي تمثال بمبي(70). وهكذا تحققت رغبة واحدة من رغبات أكمل إنسان أنجبته الأيام الخالية .

صفحة رقم : 3222

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وبروتوس

الباب العاشر

أنطونيوس

44-3-ق.م

الفصل الأول

أنطونيوس وبروتوس

لقد كان مقتل قيصر مأساة من مآسي التاريخ الكبرى، وليس السبب في عظم هذه المأساة مقصوراً على أنها حالت بينه وبين إتمامه عملاً من أجل الأعمال السياسية والإدارية، وأدت إلى امتداد عهد الفوضى والحروب خمسة عشر عاماً أخرى. ولو كانت نتائجها مقصورة على هذا وذاك لهان الخطب، فقد عاشت الحضارة بعده، وأتم أغسطس ما بدأه قيصر، بل إنه مأساة من نوع آخر وهو أن الحزبين المتعارضين في مجلس الشيوخ كان كلاهما في أغلب الظن على حق: فالمتمارين محقون في اعتقادهم أن قيصر كان يعتزم أن ينصب نفسه ملكاً، كما أن قيصر نفسه كان محقاً في ظنه أن الفوضى والنظام الإمبراطوري قد جعلاً الملكية أمراً محتوماً. وقد انقسم الناس بين الرأيين ولا يزالون منقسمين منذ اللحظة الرهيبة التي مرت بمجلس الشيوخ، وقد استولى عليه الهلع من وقع الحادث، ثم فر أعضاؤه مذعورين مضطربين من قاعة الاجتماع. وأقبل أنطونيوس على مكان الحادث بعد وقوعه، ورأى أن الحكمة هي عين الشجاعة، فاحتمى في بيته. وخانت شيشرون فصاحته حتى

صفحة رقم : 3223

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس وبروتوس

في الوقت الذي حياه بروتوس وخنجره يقطر دماً في يده قائلاً له مرحباً "بأبي بلده". ولما خرج المتآمرون وجدوا الشعب هائجاً في الميدان العام، وأرادوا أن يضموه إلى جانبهم بالأفاز الحرية والجمهورية، ولكن العامة الذين جن جنونهم من هول الحادث لم يعينوا بهذه الألفاظ التي طالما استخدمت لسنتر المطامع والشره. ولجأ القتلة إلى البناء القائم على الكبتول ليعتصموا به خوفاً على حياتهم، وأحاطوا أنفسهم بحر اسهم من المصارعين. وانضم إليهم شيشرون في آخر النهار، وأرسلوا رسلاًهم إلى أنطونيوس يستطلعون طلعه فأجابهم جواباً ودياً.

واحتشد في اليوم الثاني جمع غفير في السوق العامة وأرسل المتآمريين صنائعهم ليبتاعوا تأييدهم وينظموا من هذا الحشد جمعية شرعية. ثم استجمعوا شجاعتهم، ونزلوا من فوق الكبتول، وألقى بروتوس على المجتمعين خطبة كان قد أعدها من قبل ليلقيها في مجلس الشيوخ. غير أن هذه الخطبة لم يكن لها أثر في السامعين، وحاول كاسيوس أن يؤثر هو فيهم ولكنهم قابلوه بصمت وفتور، فعاد المحررون إلى الكبتول، حتى إذا ما نقص عدد العامة المحتشدين تسللوا إلى بيوتهم. واعتقد أنطونيوس أنه وارث قيصر، فحصل من كلبرنيا- وقد أذهلتها الفاجعة وكادت تذهب بعقلها- على كل ما تركه قيصر في القصر من أوراق وأموال، ثم عاد في الوقت نفسه جنود قيصر القدامى المضربين للحضور إلى رومه. وفي اليوم السابع عشر دعا مجلس الشيوخ إلى الاجتماع مستخدماً في ذلك حقه بوصفه تربيوناً، وأدهش الأحزاب جميعها بلطفه وهدوئه، فقبل ما عرضه عليه شيشرون وأصدر عفواً عاماً، ووافق على أن يعين بروتوس وكاسيوس والييين لاثنتين من الولايات، (أي أن يفرأ وينجوا ويستمتعا بالسلطان)، على شرط أن يقر مجلس الشيوخ جميع الأوامر والقوانين والتعيينات التي أصدرها قيصر. وإذا كانت كثرة الشيوخ مدينة بمناصبها وأموالها إلى هذه القرارات نفسها فقد وافقت على هذا الشرط، ولما فض الاجتماع أتى الجميع على أنطونيوس وقالوا إنه هو السياسي

صفحة رقم : 3224

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس وبروتوس

الذي انتزع السلم من بين أنياب الحرب. وفي مساء ذلك اليوم نفسه أولم وليمة عشاء لكاسيوس. وعاد مجلس الشيوخ إلى الانعقاد في اليوم الثامن عشر وأقر وصية قيصر، ووافق على أن يحتفل بجنائزته احتفالاً عاماً، واختار أنطونيوس ليؤبئه التأبين المؤلف.

وفي اليوم التاسع حصل أنطونيوس من العذارى الفستية على وصية قيصر، وكان قد أودعها عندهن، وقرأها لجماعة صغيرة في بادئ الأمر ثم لجماعة أخرى أكبر من الأولى عدداً. وقد جاء فيها أنه يوصى بجميع أملاكه الخاصة لثلاثة أحفاد أخوته (وكان ذلك مثار دهشة أنطونيوس وغضبه) وسمي واحداً منهم بالذات وهو كايوس أكتافيوس متبناه ووريثه. وجعل الدكتاتور حدائقه متنزهاً عاماً للشعب، وأوصى لكل مواطن في رومه بثلاثمائة سسترس. وسرعان ما انتشر نبأ هذا الإحسان في جميع أنحاء المدينة، ولما جئ في اليوم العشرين من الشهر بجثة قيصر إلى السوق العامة، بعد أن حنطت في بيته، لإجراء المراسم النهائية احتشد حولها جمع غفير من الناس ومن بينهم جنود قيصر القدامى ليكرموه. ويظهر أن أنطونيوس قد تحدث إلى هذا الجمع في بادئ الأمر بحيلة فلم يطلق لسانه العنان، ولكن عواطفه المكبوتة لم تثبت أن تغلبت عليه فأطلقت لسانه وأكسبت ألفاظه فصاحة أيما فصاحة. ولما رفع من النعش العاجي الثوب الممزق الملطخ بالدماء والذي مزقته الطعنات التي وجهت إلى قيصر، ثارت عواطف المجتمعين ثوراناً لم يكن في وسع أحد أن يكبح جماحه، وعلا النحيب والعيول، وأخذ كل واحد يجمع الأحطاب اللازمة لإشعال النار التي ستحرق بها الجثة. وألقى الجنود القدامى أسلحتهم فوق كومة الأحطاب لتكون قرباناً يقربونها إلى قيصر، كما ألقى

الممثلون ملابسهم والموسيقيون آلات عزفهم، كما ألقيت النساء أغلى ما يمتلكن من الحلي. وانتزع بعض المتحمسين مشاعل من النار وذهبوا بها ليحرقوا بيوت المتأمرين، ولكنهم وجدوا الحراسة شديدة على

صفحة رقم : 3225

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وبروتوس

هذه المباني، ووجدوا أن أصحابها قد فروا من رومه. وظلت طائفة كبيرة من الشعب بجوار الأحطاب المحترقة طوال الليل، ما لازمها اليهود ثلاثة أيام كاملة اعترافاً منهم بفضل قيصر وعطفه عليهم فيما أصدره من قوانين. ولم ينقطعوا طوال هذه الأيام الثلاثة عن ترديد أناشيدهم الجنازية. وظلت العاصمة في هذه الأيام الثلاثة تجتاحها الفتن والقتل حتى أمر أنطونيوس جنوده في آخر الأمر أن يعيدوا إليها النظام، وأن يلقوا بكل من لا يرتدع عن السلب والنهب من فوق صخرة تريبيا Tarpeia.

وكان أنطونيوس نصف ما كان قيصر كما سيكون أغسطس نصفه الثاني؛ فقد كانت أنطونيوس قائداً عظيماً كما كان أغسطس حاكماً فذاً ممتازاً، ولكن الصفتين لم تجتمعا في واحد منهما. وقد ولد أنطونيوس في غالة 82 ق.م، وقضى الشطر الأكبر من حياته في المعسكرات كما قضى أكثرها في معاقرة الخمر، ومجالس النساء، والاستمتاع بالمرح وشهي الطعام.

وكان رغم كرم محتده وبهاء طلعتة يتصف بفضائل عامة الناس. وكان قوي الجسم، حيواني الروح، طيب القلب، كريماً، شجاعاً، وفياً. وقد أساء إلى سمعته وسمعته قيصر نفسه إذ احتفظ في داره برومه بطائفة كبيرة من النساء والغلمان، وبعشيقة يونانية في محمله كلما غادر رومه (1). وكان قد ابتاع منزل بمبي في المزاد العام وأقام فيه، ثم أبى أن يؤدي ثمنه (2). وهاهو ذا يجد في أوراق قيصر - أو يسجل فيها على ما يقول بعضهم - كل ما يستفيد من وجوده - مناصب لأصدقائه، ومراسيم يصل بها إلى أغراضه، وخيراً كثيراً لنفسه، فلم يمض على مقتل قيصر أسبوعان حتى وفي بديون كانت عليه يبلغ مقدارها نحو 1.500.000 ريال أمريكي، وأصبح بعد عشية وضحاها رجلاً ثرياً. واستولى على الخمسة والعشرين مليون ريال التي كان قيصر قد أودعها في هيكل أبس Aps وعلى خمسة ملايين أخرى من أموال قيصر الخاصة. ولما رأى أن دسمس بروتوس،

صفحة رقم : 3226

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وبروتوس

الذي عينه قيصر قبل مقتله والياً على غالة الإيطالية، وقد تولى هذا المنصب المريح رغم اشتراكه في اغتيال قيصر، استصدر قراراً من الجمعية بتعيينه هو والياً على هذه الولاية ذات الموقع العسكري الخطير، وعوض دسمس عنها

بولاية مقدونية. ثم استصدر قراراً بأن يتخلى ماركس بروتس وكاسيوس عن مقربة لدسمس، وعن سوريا لدابلان، وأن يقتعا بقورنية وكريت.

وارتاع مجلس الشيوخ من قوة أنطونيوس المتزايدة، فدعا إلى رومه كيبوس أكتافايوس متبني قيصر لكي يقضي على هذه القوة. وقد صار كيبوس في مستقبل الأيام أعظم الساسة الحاكمين في التاريخ الروماني. أما في عام 44 فلم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من العمر، وقد تسمى باسم الرجل الذي تبناه كما جرت بذلك العادة المألوفة وعده بإضافة اسمه هو فصار اسمه الكامل كيبوس يوليوس قيصر أكتافيانوس. وظل ذلك اسمه حتى ضم إليه بعد سبعة عشر عاماً من ذلك الوقت اسم أغسطس، وهو اللقب العظيم التي تعرفه به القرون التالية. وكانت جدته هي يوليا Julia أخت قيصر، أما جده فكان مصرفياً من أصل عامي في فلترا Velitrae من أعمال لاتيوم. وكان أبوه قد عمل إيديلا شعبياً ثم بريطوراً ثم فيما بعد والياً على مقدونية.

وقد نشأ الغلام على البساطة الإسبارطية، وتعلم الآداب والفلسفة اليونانيتين والرومانيتين، وقضى معظم الثلاث السنين الأخيرة في قصر قيصر. ولقد كان من أسباب حزن قيصر أنه لم يكن له أبناء شرعيون، كما كان من أكبر الشواهد على حصافة رأيه أن تبنى أكتافايوس، فأخذه وهو غلام معه إلى أسبانيا في عام 45، وسره أن رأى الشاب المريض، العصبي، الضعيف الجسم، قد تحمل أخطار الحرب وشدايدها بشجاعة عظيمة. وعمل قيصر على أن يدرّب الشاب على فنون الحرب والحكم (3). وإن لنعرف ملامحه من التماثيل الكثيرة التي أقيمت له: فهو رقيق، نحيل، جاد، حيي وحازم معاً، مستسلم وعنيد؛ مثالي اضطرت له الظروف

صفحة رقم : 3227

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الثورة - أنطونيوس - أنطونيوس وبروتس

لأن يكون واقعياً، ومفكر علمته صروف الدهر أن يكون من رجال العمل. وكان أصفر الوجه، هزيل الجسم، مموّداً يشكو سوء الهضم. ولذلك لم يكن يأكل إلا قليلاً، ولا يشرب إلا أقل؛ وعاش أطول مما عاش من حوله من الأقوياء بالحمية وتنظيم الحياة.

وجاء في أواخر مارس عام 44 عبد محرر إلى أبولونيا Appolonia من أعمال اليريا Illyria حيث كان اكتافيان مع جيشه يحمل إليه نبأ مقتل قيصر ووصيته.

وارتاع الشاب المرفه الحس لاجود الناس وكفرهم بنعم المنعم عليهم، وثار في نفسه كل ما كان كامناً فيها من حبه لأخي جدته الذي كان يعزه أعظم إعراز، والذي كان يعمل جاهداً لإقامة صرح الدولة المحطمة. وعقد النية في صمت على أن يواصل جهود قيصر وأن ينتقم من قاتليه. ثم ركب من فوراً إلى شاطئ البحر وعبره إلى برنديزيوم وأسرع إلى رومه؛ وأشار عليه أقاربه فيها أن يظل مختفياً عن الأنظار لنلا بهلكه أنطونيوس، ونصحته والدته ألا يقوم بعمل من الأعمال ولكنها ابتهجت حين سخر من هذه النصيحة. وكان كل ما أشارت به عليه أن يصبر كلما كان الصبر في مقدوره، وأن يلجأ إلى الختل بدل الحرب السافرة، وقد عمل بهذه النصيحة الحكيمة إلى آخر أيامه.

وتوجه لزيارة أنطونيوس وسأله عما هو فاعل بقتله قيصر. وهاله أن يرى أنطونيوس مشغولاً بإعداد جيش يزحف به على دسمس بروتس، لأنه أرى أن يتخلى عن بلاد غالة الجنوبية؛ وطلب إلى أنطونيوس أن يوزع ما تركه قيصر حسب وصيته، وخاصة ذلك الجزء الذي يوصي بإعطاء كل مواطن خمسة وأربعين ريالاً. غير أن أنطونيوس وجد أسباباً كثيرة تدعو إلى تأخير تنفيذ الوصية، فما كان من اكتافيان إلا أن وزع على جنود قيصر القدامى أموالاً استدانها من أصدقاء قيصر وأعد بنفسه جيشه.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وبروتوس

وإغتاظ أنطونيوس من وقاحة هذا "الولد" على حد قوله. وأعلن أن بعضهم قد حاول قتله، وأن الذي كان يريد اغتياله قد قال إن اكتافيان هو المحرض له. وأنكر اكتافيان هذه التهمة، وقال إنه برئ منها، وانتهز شيشرون فرصة هذا النزاع وأدخل في رومه اكتافيان أن أنطونيوس فظ غير مهذب يجب أن يهزم. ووافق اكتافيان على هذا الرأي، وضم فيلقه إلى فيالق القنصلين هرتيوس Hirtius وبنسا Pansa، وزحف بها كلها شمالاً لقتال أنطونيوس. وأمد شيشرون هذه الحرب الأهلية الجديدة بطائفة من الاتهامات المقذعة ضمنها أربع عشرة "قلبة قوية" في الطعن على سياسة أنطونيوس العامة وحياته الخاصة، ألقى بعضها في مجلس الشيوخ أو في الجمعية، ونشر بقيتها للدعابة ضد أنطونيوس على أحسن الصور التي صارت الدعابة الحربية تنشر بها في مستقبل الأيام. ولما التقى الجيشان في موتينا Mutina (مودينا Modena) هزم أنطونيوس وفر من الميدان (44)؛ ولكن هرتيوس وبنسا قتلا في المعركة. وعاد اكتافيان إلى رومه وأصبح القائد الأوحده لفيالق مجلس الشيوخ وفيالقه هو، وأرغم المجلس وهو مؤيد بهذه القوة على أن يعينه قنصلاً، وأن يلغى العفو الذي أصدره عن المتآمرين وأن يحكم عليهم جميعاً بالإعدام. ولما تبين له أن شيشرون ومجلس الشيوخ من ألد أعدائه، وأن كل ما في الأمر أنهما يتخذانه أداة مؤقتة للقضاء على أنطونيوس لما تبين له هذا سوى النزاع القائم بينه وبين أنطونيوس، وكون منه ومن أنطونيوس وليدس الحكومة الثلاثية الثانية. (43-33 ق.م)، ثم زحفت جيوشهم المتحالفة على رومه واستولت عليها دون أن تلقى مقاومة، وفر كثون من الشيوخ ومن المحافظين إلى جنوبي إيطاليا وإلى الولايات الخارجية، واعترفت الجمعية بهذه الحكومة الثلاثية، وخولتها سلطات كاملة مدى خمسة أعوام.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وبروتوس

ولكي يستطيع الحكام الثلاثة أداء رواتب جنودهم، وملء خزائنهم، والانتقام من قنلة قيصر، بسطوا على رومه حكماً لا يماثله في تاريخ الرومان كله حكم آخر في الإرهاب وسفك الدماء. فقد أعدوا قوائم تحتوي على أسماء من لايد من إعدامهم، وكانوا ثلاثمائة من الشيوخ، وألفين من رجال الأعمال، وعرضوا على كل حر يأتيهم برأس واحد من هؤلاء 25.000 درخمة (15.000 ريال أمريكي)، وعلى كل عبد 10.000 (4). وأضحى امتلاك المال جريمة يعاقب عليها بالإعدام فكانوا يحكمون بقتل الأطفال الذين يرثون مالا، وينفذون فيهم الحكم، وكان ينتزع من الأرامل ما يرثه من الأموال، وقد أرغمت 14.000 امرأة على أن ينزلن للحكام الثلاثة عن الجزء الأكبر من أملاكهن، ثم استولوا آخر الأمر على الأموال المدخرة المودعة عند "العذارى الفستية". وقد عفوا عن أتكس لأنه ساعد من قبل فلنيا Fulvia زوجة أنطونيوس، ولكنه رغم اعترافه بهذا الفضل أرسل مبالغ طائلة من المال إلى بروتوس وكاسيوس. وأقام الحكام الثلاثة جنودهم حراساً على كل مخارج المدينة، واختبأ المحكوم بإعدامهم في الآبار والبالوعات والحجر العليا في الدور والمداخن. ومنهم من ماتوا وهم يدافعون عن أنفسهم، ومنهم من أماتوا أنفسهم جوعاً أو شفقاً أو غرقاً، ومنهم من

قفروا من فوق الأسطح أو ألقوا أنفسهم في النار. ومن الناس من قتل خطأ، ومن غير المحكوم عليهم من انتحروا فوق أجسام من قتلوا من أقاربهم. وكان التربيون سلفيوس Salvius يعلم أنه من المقتضي بإعدامهم، فأقام وليمة وداع لأصدقائه، ودخل عليه رسل الحكام الثلاثة في أثناء الوليمة، وقطعوا رأسه وتركوا جسمه أمام المائدة، وأمروا المدعويين أن يستمروا في طعامهم وشرابهم. وانتهز العبيد هذه الفرصة للتخلص من سادتهم، ولكن كثيرين منهم قضاو نحبهم وهم يدافعون عن ملاكهم، وقد تخفى واحد منهم في زي سيدة وقتل بدلاً منه. ومات

صفحة رقم : 3230

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وبروتوس

بعض الأبناء دفاعاً عن آباءهم، ونم بعضهم على آباءهم ليرثوا نصيباً من أموالهم. ومن الزوجات الزانيات أو اللاتي خانهن أزواجهن من نمي عليهم، وأنقذت زوجة كوبونيوس Coponius بعلمها بالنوم مع أنطونيوس. وكانت ففيا زوجة أنطونيوس قد حاولت أن تشتري منزل جارها رفوس Rufus، فأبى ذلك عليها ثم حاول في ذلك الوقت أن يقدمه لها هبة من غير ثمن، ولكنها استطاعت أن تضع اسمه بين أسماء المحكوم بإعدامهم، فلما قطع رأسه أمرت به فدفق بالمسامير على باب بيته الأمامي(5).

ووضع أنطونيوس اسم شيشرون بين الأسماء الأولى من المحكوم عليهم. وذلك لأن أنطونيوس كان زوج أرملة كلوديوس، وابن زوجة لنتولس الكتاليناري Lentulus the Catallnarian الذي قتله شيشرون في السجن، وقد ساءه بحق ما احتوته "فلبات" شيشرون من تجريح وطعن شديد. وعارض أكتافيان في هذا ولكنه لم يستمر طويلاً في معارضته، ذلك أنه لم يكن في وسعه أن ينسى تمجيده لقتلة قيصر، كما لم ينس العبارة التي قالها للمحافظين ببيرر بها مغازلته لوريث قيصر وما فيها من تورية. وحاول شيشرون الفرار، ولكنه لم يتحمل دوار البحر فغادر المركب وقضى الليل في بيته في فورميا Formiae؛ وأراد أن يقضي فيه اليوم الثاني في انتظار مقتله لأن ذلك في نظره خير من البحر الهائج المضطرب، ولكن عبيده دفعوه إلى داخل هودج، وساروا به نحو السفينة، وبيناهم في طريقهم إذ أقبل عليهم جنود أنطونيوس. وأراد العبيد أن يقاوموهم ولكن شيشرون أمرهم أن يضعوا الهودج على الأرض ويستسلموا. ثم مد الرجل رأسه "وجسمه يعلوه العثير، وشعر رأسه ولحيته منفوش، ووجهه قد أضناه القلق والتعب" (7)، حتى يسهل على الجنود قطعه (42). وكانت أوامر أنطونيوس نقضي بأن تنقطع أيضاً يده اليمنى.

صفحة رقم : 3231

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وبروتوس

فقطعت وجيء بها مع رأسه عليه. وضحك أنطونيوس ضحكة الفوز، ووهب القتلة 250.000 درخمة، وأمر بتعليق الرأس واليد في السوق(8).

وفي أوائل عام 42 عبر الحكام بقواتهم البحر الأدريايوي واخترقوا مقدونية إلى تراقيا حيث جمع بروتس وكاسيوس آخر الجيوش الجمهورية، واستعاننا على تموينه بالمال ينتزعونه بطرق لا تماثلها في قسوتها حتى السوابق الرومانية. فقد طلبا من الولايات الشرقية للإمبراطورية ضرائب عشر سنين مقدماً، وحصلوا بالفعل على تلك الضرائب. ولما أظهر أهل رودس شيئاً من المعارضة في هذه المطالب هاجم كاسيوس ثغرهم العظيم، وأمر الأهلين جميعهم بتسليم ثروتهم، وقتل كل من تردد منهم، وحمل معه عشرة ملايين ريال أمريكي. وفي قليقية أنزل جنوده في بيوت طرسوس Tarsus، ولم يبارحوها حتى أدت إليه تسعة ملايين ريال، ولم يستطع السكان أداء هذا المال حتى باعوا بالمزاد جميع أراضي البلدية، وصهروا جميع أنية الهياكل وحليها، وباعوا كل الأحرار عبيداً. فباعوا أولاً الأولاد والبنات، ثم النساء والشيوخ، وباعوا آخر الأمر الشبان. وانتحر الكثيرون من الأهلين حين علموا أنهم يبيعوا. وجمع كاسيوس من بلاد اليهود أربعة ملايين ريال، وباع سكان أربع من المدن عبيداً. ولم يتحرج بروتس أيضاً عن جمع المال بالقوة، من ذلك أنه رفض سكان أكسانثوس Xanthus من أعمال ليثيا مطالبه حاصرهم حتى نفذت مؤونتهم ولم ينفذ عنادهم فانتحروا جميعاً (9). وأطال بروتس المكث في أثينا لحبه الفلسفة؛ ولكن المدينة كانت غاصة بالشبان الرومان النبلاء الذين كانوا ينادون بالحرب التي تعيدهم إلى أوطانهم. ولما أن جمع بروتس كفايته من المال طوى كتبه وانضم بجيوشه إلى كاسيوس ونزل إلى الميدان. والتقت جيوش الطرفين المتقاتلين في فلباي في شهر سبتمبر من عام 42.

صفحة رقم : 3232

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وبروتس

وزحف جناح بروتس على جناح أكتافيان وزحزحه عن موضعه واستولى على معسكره، ولكن جيوش أنطونيوس هزمت جيوش كاسيوس هزيمة منكرة. وأمر كاسيوس حامل درعه أن يقتله ففعل. ولم يستطع أنطونيوس أن يواصل انتصاره على الفور؛ لأن المرض أقعد أكتافيان فلزم خيمته واحتل نظام جيشه، فاضطر أنطونيوس إلى إعادة تنظيم الجيش كله. وبعد أن استراح بضعة أيام قاده لقتال بروتس، وأوقع بمن بقي من الجيوش الجمهورية هزيمة ولوا على أثرها الأدبار. ورأى بروتس رجاله يستسلمون فأدرك. ولعله قد سره أن يدرك. أنه خسر كل شيء، فألقى بنفسه على سيف صديق له ومات. ولما أقبل أنطونيوس على جثته غطاها بثوبه الأرجواني؛ فلقد كان هو وبروتس صديقين في يوم من الأيام.

صفحة رقم : 3233

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وكليوباترة

أنطونيوس وكليوباترة

لقد كانت معركة فلبي آخر معركة برية للأشراف القدامى، وقد حذا الكثيرون منهم- ابن كاتو، وابن هورتنسيوس، وكونتليوس فارس، Quintilius Varue، وكونتس لبيو Quintus Labeo- حذو بروتس وكاسيوس فانتحروا. وقسم المنتصرون الإمبراطورية فيما بينهم: فأعطى ليدس أفريقيا وأخذ أكتافيان الغرب، واختار أنطونيوس مصر وبلاد اليونان والشرق. وكان أنطونيوس دائم الحاجة إلى المال، فعرض على مدائن الشرق ألا يؤاخذها على ما أمدت به أعداءه من المال إذا هي أمدته بمثله- أي بعشرة أمثال الضريبة السنوية في مدى عام. وعاد قديم مرحة وبشاشته إليه حين ظن أن النصر قد أعاد إليه أمنه وطمأنينته، فانقص مطالبه من الإفزيين حين أقبلت عليه نساؤهم في ثياب كاهنات باخوس يحيينه ويسمينه الإله ديونيسس؛ ولكنه وهب طاهيه بيت موظف مجنيزي Magnesian كبير مكافأة له على عشاء أعده له. وعقد مجلساً من أهل المدن الأيونية في إفسوس وأقر فيه حدود تلك الولايات، وحسم ما بينها من خلاف بحكمة لم ير معها أغسطس بعد عشرة أعوام من ذلك الوقت ما يدعو إلى تعديل ما اتخذ في هذا المجلس من قرارات. وعفا عن كل من حاربه إلا الذين اشتركوا في مقتل قيصر. ومد يد المعونة للمدن التي لاققت العذاب على يد كاسيوس وبروتس، ورفع عنها الضرائب الرومانية، وحرر كثيرين ممن باعهم المتآمرون أرقاء، كما حرر مدن سوريا من الطغاة الذين قضوا على حكوماتها الديمقراطية (10). وبينما كان أنطونيوس يظهر هذه الكياسة المنبغثة من طيبة قلبه وبساطة

صفحة رقم : 3234

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وكليوباترة

خلقه؛ استسلم للشهوات الجنسية استسلاماً أفقده احترام رعاياه لسلطته. فقد أحاط نفسه بالراقصات والموسيقيات والعشيقات، والمهرجين والصخابين، واتخذ له زوجات ومحظيات كلما لاحت له امرأة وأعجبتة. وكان قد أرسل الرسل إلى كليوباترة يدعوها للمثول بين يديه في طرسوس لتجيب عما اتهمت به من مساعدتها كاسيوس على جمع المال والجنود. وجاءت كليوباترة، ولكنها جاءت في الوقت الذي اختارته وعلى الطريقة التي اختارها. فبينما كان أنطونيوس جالساً على عرش في السوق العامة، ينتظر منها أن تحضر وتدفع عن نفسها ما اتهمت به، ثم يقضي لها أو عليها- ركبت هي نهر سندس Cyndus في قارب ذي أشرعة أرجوانية، وسكان مذهب، ومجاديف من فضة، تضرب الماء على أنغام الناي والمزمار والقيثار. وكانت وصيفاتها هن بحارة القارب، ولكن في زي حور البحار وربات الجمال. أما هي فقد تزينت بزي الزهرة (فينوس) ورقدت تحت سرادق من قماش موشي بالذهب. ولما انتشر بين أهل طرسوس هذا المنظر الفتان أقبلوا على شاطئ النهر زرافات ووحيداناً، وتركوا أنطونيوس وحده جالساً على عرشه. ودعته كيلوباترة إلى العشاء معها في قاربها، فأقبل عليها ومعه حاشيته الرهيبة، فأولمت وليمة فاخرة، وقدمت لهم فيها أشهى الطعام والشراب، وأفسدت الفواد بما قدمت لهم من الهدايا والابتنامات. وكان أنطونيوس قد أوشك أن يقع في حبها وهي لا تزال فتاة حين شاهدها في الإسكندرية، فلما أبصرها في تلك اللحظة وهي في التاسعة والعشرين من عمرها رآها قد اكتملت مفاتها؛ وبدأ حديثه معها يلومها على ما فعلت؛ واختتمه بأن

أهدى إليها فينيقيا، وسوريا الوسطى، وقبرص، وأجزاء من قليقية وبلاد العرب واليهود(11). وكافأته هي بما يشتهي، ودعته إلى الإسكندرية، فأجاب الدعوة، وقضى في تلك المدينة شتاء بعيداً عن الهموم والأكدار (41- 40) يعب حب الملكة عبا، ويستمتع إلى المحاضرات في

صفحة رقم : 3235

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وكليوباترة

المتحف، ناسياً أن له إمبراطورية في حاجة إلى من يحكمها. أما هي فلم تكن أسيرة حبه. بل كانت تعرف أن مصر الغنية الضعيفة لن تلبث أن تجتذب إليها رومه الشرهة القوية، وأن السبيل الوحيد لنجاة بلادها وعرشها هي أن تتزوج بسيد رومه. ولقد حاولت من قبل أن تفعل هذا بقيصر، وهي تحاول الآن أن تفعله بأنطونيوس، ولم يكن له هو سياسة غير سياسة قيصر. فمال إلى تحقيق الحلم القديم، وهو توحيد رومه ومصر، ونقل عاصمته إلى بلاد الشرق الفتان الجميل.

وبينما كان أنطونيوس يلهو ويلعب في الإسكندرية، كانت زوجته فلفيا وأخوها لوسيو ياتمران بأكتافيان ليسقطاه وينتزعاً سلطانه على رومه. والحق أن أكتافيان كان أبعد ما يكون عن السعادة في ذلك البلد: فقد أضحى مجلس الشيوخ بؤرة للمغامرين والقواد، ودب التذمر بين العمال المتعطلين، واختل نظام الشعب كل الاختلال. وكان سكستس بمبي يحول بين المدينة وبين استيراد ما يلزمها من الطعام، ووقف دولاب الأعمال التجارية لما ساد البلاد من خوف، وقضى النهب والضرائب الفادحة على الثروات فلم يكذب يبقئ منها شيء، وأخذ الكثيرون من الناس يعيشون عيشة الاستهتار والفساد الجنسي الطليق، محتجين بأن الغد قد يأتي بإلغاء العملة، أو بإنتهاب جديد، أو بالموت. وكان أكتافيان نفسه من أبعد الناس طهارة الذليل في ذلك الوقت، وكأنما أرادت فلفيا وأراد لوسيو أن يبلغوا بالفوضى غايتها القسوى فجيشاً جيشاً ودعوا إيطاليا إلى القضاء على أكتافيان، فحاصر ماركس أجربا Marcus Agrippa قائد جيوش أكتافيان لوسيو في بروزيا Perusia حتى اضطره إلى الخروج منها بعد نفاذ مؤنثه (مارس عام 40). وماتت فلفيا من شدة مرضها. وعدم تحقيق مطامعها، وحزنها على إهمال أنطونيوس لها. وعفا أكتافيان عن لوسيو لعله بذلك يحتفظ بالسلام بينه وبين أنطونيوس، ولكن أنطونيوس عبر البحر وحاصر جيوش أكتافيان في برنديزيوم. وكان الجيشان أكثر حكمة من قائدهما

صفحة رقم : 3236

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وكليوباترة

فامتنع كل منهما عن قتال الآخر، واضطراهما إلى أن يسويا ما بينهما من نزاع تسوية سلمية (40). وتعهد أنطونيوس أن يكون حسن السلوك، فزوجه أكتافيان أخته اللطيفة الطاهرة، وسر كل إنسان بهذه النتيجة إلى حين، وتنبأ فرجيل- وكان وقتئذ يكتب نشيده الرابع- بعودة حكم "زحل" العادل المثالي.

وفي عام 38 وقع أكتافيان في حب ليفيا Livia زوجة تيبيريوس كلوديوس نيرون Tiberius Cladius Nero وكانت وقتئذ حاملاً، فطلق من أجلها زوجته الأولى اسكريبونيا Scriponie. وأقنع نيرون بالتخلص من ليفيا، وتزوج بها، واستطاع بفضل إصغائه إلى نصائحها المقنعة، وصلاتها بأشراف البلاد- لأنها من سلالة أسرة كلوديوس النبيلة- استطاع بذلك أن يحسن صلاته بطبقة الملاك، فخفض الضرائب، وأعاد ثلاثين ألفاً من العبيد الأبقين إلى سادتهم. وشرع يعمل في صبر وأناة لإعادة النظام إلى إيطاليا. وأمكته بمعونة أجربا وبمائة وعشرين سفينة أمده بها أنطونيوس أن يحطم أسطول سكتس بمبي، ويستورد الطعام إلى رومه، ويقضي على مقاومة البمبيين (36). وحمد له مجلس الشيوخ عمله واختاره تربيوناً طول حياته.

وذهب أنطونيوس إلى أثينا مع أكتافيا بعد أن زُفّت إليه باحتفال رسمي في رومه. وفي ذلك البلد استمتع أنطونيوس إلى حين بتلك المتعة الجديدة متعة الحياة مع امرأة صالحة، وتخلّى عن مشاغل السياسة والحرب، وأخذ يستمع إلى محاضرات الفلسفة وأكتافيا إلى جانبه. على أنه كان في هذه الأثناء يدرس الخطط التي وضعها قيصر لفتح بارثيا. وكان لبينس Labienus ابن قائد من قواد قيصر قد دخل في خدمة ملك بارثيا، وقاد جيوشه من نصر إلى نصر في قليقية وسوريا- وهما ولايتان من أغنى ولايات الدولة الرومانية وأعودها عليها بالمال (40). وألقى أنطونيوس نفسه في حاجة إلى الجند لمواجهة هذا التهديد الخطير، كما وجد في حاجة إلى المال لأداء مرتبات الجنود، والمال عند كليوبطرة

صفحة رقم : 3237

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وكليوبطرة

موفور، ومل فجأة حياة الفضيلة والسلم، فأعاد أكتافيا إلى رومه وطلب إلى كليوبطرة أن تقابله في أنطاكية. وجاءت إليه كليوبطرة بعدد قليل من الجنود، ولكنها عارضت في مشروعاته الضخمة الواسعة، ويبدو أنها لم تعطه من مالها الكثير إلا النزر اليسير. وزحف أنطونيوس على بارثيا بمائة ألف جندي (36)، وحاول عبثاً أن يستولي على قلاعها، وفقد نحو نصف رجاله في تفهقر يدل على منتهى الجراة والبطولة مدى ثلاثمائة ميل في بلاد معادية له. وضم أرمينيا إلى الإمبراطورية الرومانية في أثناء تفهقره، وأقام لنفسه موكب نصر، وصدّم مشاعر الإيطاليين صدمة عنيفة بإقامة هذا الموكب في الإسكندرية ثم أرسل رسالة طلاق إلى أكتافيا (32)، وتزوج كليوبطرة، وثبتها هي وقيصريون حاكمين معاً على مصر وقبرص، وخلع الولايات الشرقية من الإمبراطورية على ابنه وابنته من كليوبطرة. وإذا كان يعرف أنه لا بد أن يسوي الأمور بينه وبين أكتافيا في القريب العاجل أطلق لنفسه العنان في اللهو والترف. وشجعت كليوبطرة على أن يغامر آخر مغامرة في سبيل السلطة العليا، وساعدته على حشد جيش وأسطول، وأقسمت له بقسمها المحبب إليها أنها واثقة من النصر وثوقها بأنها ستتولى الحكم في الكبتول يوماً من الأيام (13).

صفحة رقم : 3238

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وأكتافيان

الفصل الثالث

انطونيوس وأكتافيان

صبرت أكتافيا على هجرها صبر الكرام، وعاشت ساكنة هادئة في بيت أنطونيوس في رومه، تربي أطفاله الذين رزقهم من فلنيا وابنتيها منه. وكان منظرها المحزن أمام أكتافيان في كل يوم، وصمتها الفصيح، يثيران كوامن غضبه، ويؤكدان له أنه هو إيطاليا جميعاً مقضي عليهما إذا نجح أنطونيوس في خطته، فاخذ يعمل على أن تدرك إيطاليا حقيقة الموقف، تدرك أن انطونيوس قد تزوج ملكة مصر، وأنه وهبها هي وأطفالها غير الشرعيين أكثر ولايات الإمبراطورية خراجاً، وأنه سيضع رومه وإيطاليا بأجمعها في المقام الثاني بعد مصر. ولما بعث أنطونيوس برسالة إلى مجلس الشيوخ- وكان قد تجاهله سنين طوالاً- يقترح فيها أن يعتزل هو وأكتافيان الحياة العامة، وأن تعود جميع النظم الجمهورية إلى سابق عهدها، تخلص أكتافيان من هذا الموقف الحرج بأن قرأ على المجلس ما ادعى أنه وصية لأنطونيوس انتزعها هو قسراً من العذارى الفسنية، وفيها يوصي أنطونيوس بأن يكون ولداه من كليوباترة ورثيه دون غيرهما، ويأمر بان يدفن إلى جانب الملكة في الإسكندرية(14). وكانت الفقرة الأخيرة من هذه الوصية حاسمة في نظر المجلس بقدر ما كان يجب أن تكون مثيرة للارتياح في صحتها. ذلك أنها لم تثر في نظر المجلس الشك في أن وصية تودع في رومه تشترط هذه الشروط، بل أقنعت إيطاليا أن كليوباترة تستخدم أنطونيوس في خططها التي تبغي بها الاستيلاء على الإمبراطورية. ولجأ أكتافيان إلى الأساليب الخداعة التي هي من أخص خصائصه، فأعلن الحرب (32) على كليوباترة لا على أنطونيوس، ليجعلها بذلك كفاحاً مقدساً في سبيل استقلال إيطاليا.

صفحة رقم : 3239

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وأكتافيان

وأبحر أسطول أنطونيوس وكليوباترة في شهر سبتمبر من عام 32 إلى البحر الأيوني. وكان مؤلفاً من خمسمائة سفينة حربية، ولم يكن أسطول بهذه القدرة قد ظهر على متن البحر من قبل. وكان يؤيده جيش مؤلف من ثلاثمائة ألف من المشاة، واثنى عشر ألفاً من الفرسان، وأمدهما بمعظمه أمراء الشرق وملوكه يرجون من وراء ذلك أن تكون هذه الحرب وسيلة للتحرر من نير رومه. وعبر أكتافيان البحر الأدرياتي بأربعمائة سفينة وثمانين ألف جندي من المشاة واثنى عشر ألفاً من الفرسان. وظلت القوات المتعادية عاماً أو نحو عام تستعد للمعركة الفاصلة وتضع خططها؛ فلما كان اليوم الثاني من شهر سبتمبر عام 31 التحم الجيشان والأسطولان عند أكتيوم في الخليج الأمبراسي في معركة من

المعارك الحاسمة في التاريخ. وبرهن أجربا على أنه أبرع من أعدائه في وضع الخطط، وكانت سفينه الخفيفة أسهل وأخف حركة من سفائن أنطونيوس الضخمة ذات الأبراج العالية. وقد أحرقت النار هذه السفن إذ ألقى عليها بحارة أكتافيان مشاعل متقدة. ويصف ديوكاسيوس Dio Cassius ما حدث وقتئذ بقوله:
"وأهلك الدخان بعض البحارة قبل أن تصلهم النيران، ومنهم من نضح لحمهم في دروعهم التي احمرت من شدة الالهب، ومنهم من شوتهم النار شياً في سفنهم كما تشوي اللحم في الأفران. وألقى الكثيرون منهم أنفسهم في البحر، ومن هؤلاء من إتهمتهم الحيتان، ومنهم من قتلوا رمياً بالسهم، ومنهم من قضاوا نحبهم غرقاً. ولم يمت من هذا الجيش كله ميتة يستطيعون تحملها إلا من قتل بعضهم بعضاً (15).
ورأى أنطونيوس أن الدائرة قد دارت عليه، وأشار إلى كليوبطرة أن تنفذ خطة الانسحاب التي اتفقا عليها من قبل. فوجهت ما بقي من أسطولها نحو الجنوب، وانتظرت قدوم أنطونيوس. ولما عجز من إنقاذ السفينة المعقود لؤاها له، غادرها وركب قارباً أقله إلى كليوبطرة، وجلس هو وحده في مقدم السفينة

صفحة رقم : 3240

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وأكتافيان

أثناء عودتهما إلى الإسكندرية ورأسه بين يديه، فقد أدرك أنه خسر كل شيء حتى الشرف. وسار أكتافيان إلى أثينا ومنها إلى إيطاليا ليخمد فتنة ثارت بين جنوده الذين أخذوا يطالبون بأن يباح لهم نهب مصر، ثم رجع إلى آسيا ليعاقب بعض من انضموا من أهلها إلى أنطونيوس، وليجمع أموالاً جديدة يسعف بها المدن التي طال عليها عهد الشقاء والحرمان. ثم اتجه بعدئذ نحو الإسكندرية (30). وكان أنطونيوس قد ترك كليوبطرة وأقام في جزيرة قرب فاروس، وأرسل منها رسلاً يطلب الصلح، ولكن أكتافيان لم يعبأ بهم، وأرسلت كليوبطرة إلى أكتافيان على غير علم من أنطونيوس صولجاناً وتاجاً وعرشاً من الذهب دليلاً على خضوعها له. وكان جوابه لها - على حد قول ديو - أنه يتركها ويترك مصر دون أن يمسه بأذى إذا قتلت أنطونيوس (16).
وكتب الحاكم المهزوم إلى أكتافيان مرة أخرى يذكره بصداقتهما الماضية وبكل المرح الطائش الذي اشتركا فيه أيام الصبا، وقال إنه يرضى بأن يقتل نفسه إذا عفا هو عن كليوبطرة، ولم يرد عليه أكتافيان في هذه المرة أيضاً. وجمعت كليوبطرة كل ما استطاعت جمعه من أموال مصر في أحد أبراج القصر ثم أبلغت أكتافيان أنها ستنتف هذه الأموال كلها وتقتل نفسها إذا لم يعقد معها صلحاً شريفاً. وسار أنطونيوس على رأس القوة الصغيرة التي كانت باقية لديه ليحارب عدوه في المعركة الأخيرة، واستطاع بشجاعة اليائس أن يكسب نصراً مؤقتاً، ولكنه أبصر في اليوم الثاني جنود كليوبطرة المرتزقة تستلم للعدو، وتراءى إليه أن كليوبطرة قد ماتت، فطعن نفسه طعنة قضت على حياته. ولما علم أن الخبر مكذوب طلب إلى أتباعه أن ينقلوه إلى البرج الذي أوت الملكة ووصيفاتها إلى حُجره العليا وأغلقت عليهن الأبواب، فأدخل إليها من النافذة ومات بين ذراعيها. وسمح لها أكتافيان أن تخرج من البرج وتدفن حبيبها، ثم أجاز لها

صفحة رقم : 3241

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الثورة -> أنطونيوس -> أنطونيوس وأكتافيان

المثول بين يديه. ولم يتأثر بما كان باقياً من المفاتن في امرأة محطمة مهزومة في التاسعة والثلاثين من عمرها، وعرض عليها شروطاً للصلح بدت معها الحياة عديمة القيمة لمن كانت من قبل ملكة. ولم يخالجها شك في أنه يعتزم أخذها أسيرة إلى رومه لتزين موكب نصره، فما كان منها إلا أن لبست ثيابها الملكية، ووضعت صلا على صدرها، وماتت. وحذت حذوها وصيفتها شارميون Charmion وإيريس Iris فانحرتا (17).
وسمح أكتافيان أن تدفن إلى جوار أنطونيوس، وقتل هو وقيصريون وأكبر أبناء أنطونيوس من فلفيا أما ابنا أنطونيوس والملكة فقد أبقى على حياتهما وأرسلهما إلى إيطاليا حيث ربتهما أكتافيا وعنيت بهما كما لو كان ابنيها. ووجد الظافر الخزانة المصرية سليمة وفيها من المال الموفور ما كان يحلم به. ونجت مصر من المذلة التي كادت تلحق بها لو أنها سميت ولاية رومانية. ذلك أن كل ما فعله أكتافيان أن جلس على عرش البطالمة وورث أملاكهم، وترك في مصر حاكماً يدير شؤون البلاد باسمه.
وهكذا غلب وريث قيصر وريثة الإسكندر، وضم ملك الإسكندر إلى ملكه، وانتصر الغرب على الشرق مرة أخرى، كما انتصر من قبل في مراثون ومجنيزيا، وإنتهى صراع الجبابرة، وكان الفوز فيه لرجل عليل.
وفضي على الثورة في أكتيوم، كما قضى على الجمهورية في فرسالس وأتمت رومه الدورة المشتومة التي يعرفها أفلاطون ونعرفها نحن: ملكية، فأرستقراطية، فاستغلال أجزكي، فديمقراطية، ففوضى ثورية، فدكتاتورية. وإنتهى مرة أخرى، في جزر التاريخ ومدته، عهد من عهود الحرية، وبدأ عهد من عهود النظام.

صفحة رقم : 3242

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> في الطريق إلى الملكية

الكتاب الثالث

الزعامة

30 ق.م. - 192 ب.م

الفصل الأوّل

في الطريق إلى الملكية

انتقل أكتافيان من الإسكندرية إلى أسية وواصل فيها توزيع الممالك والولايات. ولم يصل إلى إيطاليا إلا في صيف عام 29 ق.م. ولم تكد تبقى طبقة من طبقات الأهلين فيها إلا حبيته وأحتقلت بمقدمه، وعدته منقذ البلاد، وأشتركت في موكب النصر الذي دام ثلاثة أيام متوالية. وأغلق هيكل يانوس إشارة إلى أن إله الحرب قد نال كفايته إلى حين، فقد أنهكت الحرب الأهلية التي دامت عشرين عاماً شبه الجزيرة التي كانت تشتتني الحرب وتتعطش للدماء. وفي هذه الفترة أهملت المزارع ونُهبت المدن أو ضرب عليها الحصار، وسُرقت الكثير من ثروتها أو دُمر تدميراً، وتحطم دولاب الإدارة ووسائل الدفاع عن النفس والمال؛ وجعل اللصوص الشوارع كلها غير مأمونة خلال الليل، وكان قطاع الطريق يجوبون المسالك يخطفون المسافرين ويبيعونهم ببيع الرقيق. وكان من أثر هذا أن كسدت التجارة، ووقفت حركة الاستثمار، وارتفعت فوائد الديون ارتفاعاً، ونقصت قيمة الأملاك. ولم يكن للفاقة والفوضى أثر في تحسين الأخلاق التي انحلت بسبب الثروة والترف؛ ذلك أنه كلما توجد ظروف أشد إفساداً للأخلاق من الفقر الذي يعقب الغنى، ولذلك امتلأت رومة بالرجال

الذين فقدوا مركزهم الاقتصادي وخسروا اترانهم الأخلاقي: من جنود ذاقوا طعم المغامرات وتعلموا فنون التقتيل؛ ومواطنين أبصروا بأعينهم مدخراتهم تلتهمها الضرائب الفادحة وتضخم العملة وهما من مستلزمات الحروب، وكانوا ينتظرون أن يحدث حادث ما ينتشلهم من الوهلة التي تردوا فيها ويعيد إليهم الثراء والنعيم؛ ومن نساء ذهبت الحرية بعقولهن فكثر بينهن الطلاق والإجهاض والزنا؛ وانتشر العقم لضعف الرجولة وأخذت السفسطة الضحلة تفخر بنزعتها المتشائمة الساحرة.

على أن هذا الوصف لا يحمل إلى القارئ صورة كاملة لرومة في ذلك الوقت، بل يجب أن يضاف إليه وباء فتاك ينخر عظامها وتسري جراثيمه في دماؤها فقد عادت القرصنة إلى البحار، وكانت تزداد بهجة وسروراً كلما تدهورت الولايات وأشرفت على الدمار. وسغبت المدن والولايات ولما توالى عليها من ابتزاز والنهب في أيام صلا، ولوكلس، وبمبي، وجابنياس، وقيصر، وبروتس، وكاسيوس، وأنطونيوس، وأكتافيان. وحل الخراب ببلاد اليونان التي كانت ميداناً للقتال، وثُهب أموال مصر وأرزاق أهلها، وأطعم الشرق الأدنى مائة جيش ورشا ألف قائد؛ وكان أهله يبعضون رومة أشد البغض لأنها هي السيد الذي قضى على حريتهم دون أن يعرضهم عنها أمناً أو سلاماً، وكانوا يتطلعون إلى زعيم يقوم بينهم، فيكشف عما تعانيه إيطاليا من ضعف وخوف، ويجمع شتاتهم ويقودهم في حرب يتحررون بها من سيطرة رومة.

وكان في وسع مجلس الشيوخ القوي في يوم من الأيام أن يواجه هذه الأخطار، فيعيب الفيلق الضخمة، ويجد لها القادة المهرة، ويمدهم بحنكته وكفايته السياسية البعيدة النظر. أما الآن فلم يبق من مجلس الشيوخ إلا أسمه، فقد أنقرضت الأسر التي كان يستمد منها القوة، وقضى عليها النزاع الطويل أو العقيم، ولم تنتقل تقاليد الحكم التي كانت تمتاز بها هذه الأسر إلى رجال

صفحة رقم : 3244

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - مواهب أغسطس السياسية - في الطريق إلى الملكية

الأعمال وإلى الجنود وأهل الولايات الذين خلفوها في المجلس الجديد. ومن أجل هذا فقد أسلم هذا المجلس معظم ما كان له من سلطان إلى رجل في وسعه أن يرسم الخطط، ويتحمل التبعات، ويقود، وأسلمها إليه وهو شاكراً ومغتنباً. وتردد أكتافيان طويلاً قبل إلغاء هذه الهيئة القديمة، ويصوره ديوكاسيوس Dio Cassius، وهو يبحث المسألة بحثاً مفصلاً مع ماسيناس وأجربا، فيقول أنهم كانوا يرون أن الحكومات كلها حكومات أجزكية، ولذلك فإن المشكلة المعروضة أمامهم لم تكن مشكلة الاختيار بين الملكية، والأرستقراطية، والديمقراطية؛ بل كان عليهم أن يقرروا: هل تضطروهم ظروف الزمان والمكان أن يفضلوا الأجزكية في صورة الديمقراطية التي تعتمد على ثروة رجال الأعمال؟ وقد وفق أكتافيان بينها كلها في "زعامة امتزجت فيها نظريات شيشرون وسابقات بمبي وسياسات قيصر".

وقبل الشعب هذا الحل قبول الفلاسفة؛ ذلك أنه لم يعد حريصاً على الحرية مولعاً بها، بل كان قد مل الفوضى وتاقت نفسه إلى الأمن والنظام، وكان يرضى أن يحكمه أي إنسان يضمن له الخبز والألعاب. وأدرك إدراكاً يكتنفه الغموض أن جمعياته السمجة التي يتغلغل فيها الفساد ويمزقها العنف، لا تصلح لحكم الإمبراطورية، ولا تستطيع إعادة الحياة إلى إيطاليا المريضة، بل أنها لا تستطيع أن تحكم مدينة رومة نفسها. هذا إلى أن الصعاب التي تكتنف الحرية تتضاعف كلما اتسعت رقعة الأراضي التي تعتقها. فلما لم تعد رومة دولة لا تشمل أكثر من مدينة واحدة دفعها النطان الإمبراطوري دفعاً إلى أن تحذو حذو مصر وفارس ومقدونية. ولم يكن في وسعها أن تقاوم هذا الدفع الشديد، وكان لا بد أن تقوم على أنقاض الحرية، التي استحالت فردية وفوضى حكومة جديدة تضع للدولة المترامية الأطراف نظاماً جديداً. وكان عالم البحر الأبيض المتوسط كله عالماً

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> في الطريق إلى الملكية

مختل النظام، مترامياً تحت قدمي أكتافيان، ينتظر منه أن يبسط عليه الحكم الصالح. ونجح أكتافيان فيما أخفق فيه قيصر لأنه كان أكثر من قيصر صبراً، وأوسع منه حيلةً، ولأنه كان يفهم فن الألفاظ والأشكال، ويرضى أن يسير سيراً ويبدأ حذراً في المواقف التي اضطر فيها عمه العظيم لضيق وقته أن يخرج على التقاليد المرعية، ويحدث في نصف عام من حياته من التغيرات ما يتطلب جيلاً كاملاً. وفوق هذا فقد كان المال موفوراً لدى أكتافيان. ويقول سوتنيوس إنه لما جاء بكنوز مصر إلى رومة "كثرت فيها النقود كثرة أنخفض معها سعر الفائدة" من اثني عشر إلى أربعة في المائة، و "ارتفعت قيمة الأملاك الثابتة ارتفاعاً عظيماً". وما كاد يتضح للناس أن حقوق الملكية قد عادت إليها قدسيته وأن أكتافيان قد فرغ من أحكامه على أعدائه ومن مصادرة الأملاك، حتى خرجت الأموال من مخابنها وعاد الاستثمار سيرته الأولى، وراجت التجارة، وأخذت الثروة تتجمع من جديد، وتسرب بعضها إلى جيوب العمال والأرقاء. ولشدها أغتبطت جميع الطبقات في إيطاليا بعد أن عرفت أن تلك البلاد ستبقى هي المستمعة بخيرات الإمبراطورية، وأن رومة ستظل عاصمتها، وأن خطر نهضة الشرق وبعثه قد زال إلى حين، وأن ما كان يحلم به قيصر من قيام اتحاد من أمم حرة متساوية في الحقوق لم يسفر إلا عن العودة في هدوء إلى امتيازات الشعب المفضل صاحب السيادة. وكان أول ما فعله أكتافيان بالأموال الجمة التي أنتهباها أن وفي بما عليه لجنوده من ديون. وقد أستبقى في الخدمة منهم مائتي ألف رجل أقسم كل واحد منهم بيمين الولاء له شخصياً، وسرح الثلثمائة ألف الباقين بعد أن أقطع كلاً منهم مساحة من الأراضي الزراعية ونفحه بهبة مالية سخية. ووزع الهدايا الثمينة على قواده وأنصاره وأصدقائه، وكثيراً ما كان يسد العجز الذي يحدث في الخزائن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> في الطريق إلى الملكية

العامه من ماله الخاص. وكان إذا رأى ولاية من الولايات حل بها الضنك بسبب الأحوال السياسية أو الطواريء الطبيعية أعفاها من الخراج العام، وبعث إليها بالمال الكثير لإنقاذها مما تعانيه. وألغى جميع المتأخر من الضرائب على أصحاب الأملاك، وأحرق علناً السجلات التي تثبت ما عليهم للدولة من الديون، وأدى من أموال الدولة ثمن ما يوزع من الغلال على المحتاجين، وأقام الألعاب للشعب على نظام واسع، وقدم المال لجميع المواطنين. ثم شرع في إقامة المنشآت العامة ليقضي بذلك على التعطل ويجمال رومة، وأنفق على هذه الأعمال من أمواله الخاصة، فلا غرامة بعد هذا إذا نظرت إليه الأمة نظرتها إلى إله معبود. وبينما كانت هذه الأموال تتسرب من يديه كان هذا الإمبراطور المتواضع يعيش عيشة بسيطة خالية من مظاهر العظمة، يتجنب ترف النبلاء، ومتع المنصب وأبهته، يرتدي الأثواب التي تنسجها له النساء في بيته، وينام على الدوام

في حجرة صغيرة في الدار التي كانت من قبل قصر هورتسيوس. ولما أحترق هذا القصر بعد أن أقام فيه ثمانية وعشرين عاماً، أقام له قصرأ جديداً على نظام القصر القديم، وكان ينام في نفس الحجرة الضيقة التي كان ينام فيها من قبل. وكانت منعتة الوحيدة أن يفر من الشؤون العامة بركوب زورق تدفعه الرياح دفعاً بطيئاً على طول ساحل كمبانيا. واستطاع على مر الوقت أن يقنع مجلس الشيوخ والجمعيات الوطنية، أو أن يتفضل بالسماح لها، بأن تخلع عليه السلطات التي جعلته في مجموعها ملكاً في كل شيء إلا في الأسم وحده. وقد احتفظ على الدوام بلقب إمبراطور Imperator بوصفه القائد الأعلى لجميع القوات المسلحة في الدولة. وإذا كان الجيش قد بقي معظمه خارج خارج حدود العاصمة على الدوام، وخارج حدود إيطاليا في معظم الأحوال، فقد كان في وسع المواطنين أن ينسوا، وهم يمارسون جميع المراسم الشكلية للجمهورية الميتة، أنهم يعيشون في كنف حكومة ملكية

صفحة رقم : 3247

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> في الطريق إلى الملكية

عسكرية تختفي منها مظاهر القوة طالما كانت الألفاظ كافية للحكم. واختير أكتافيان قنصلاً في عامي 43 و 33 وفي كل عام من الأعوام المحصورة بين 31 و 23. وخلعت عليه أعوام 36، 30، 23 سلطات التربيون فكسب بذلك طول حيلته الحصانة التي يتمتع بها التربيون، وأصبح له حق وضع القوانين وعرضها على مجلس الشيوخ أو الجمعية، وحق الاعتراض على كل موظف في الحكومة ووقفها. ولم يعترض أحد على هذه الدكتاتورية المحبوبة، ذلك أن رجال الأعمال الذين امتلأت خياشيمهم برائحة غنائم أكتافيان المصرية، والجنود المدنيين لكرمه بأرضهم أو مراكزهم، وكان من عادت عليهم بالنفع قوانين قيصر، ومناصبه ووصيته كل هؤلاء كانوا يقولون ما يقوله هو من أن حكومة الفرد خير أنواع الحكومات كلها، أو أنها في القليل خيرها إذا كان هذا الفرد كأكتافيان حر التصرف في أمواله، وإذا كان في مثل جده وكفايته، وإذا كان مثله بين الإخلاص لخير البلاد. ولما كان رقيباً مع أجربا في عام 28 أجرى إحصاءً عاماً للسكان، وأعاد النظر في عضوية مجلس الشيوخ، فأنقص عدد الأعضاء إلى ستمائة عضو، ولقب هو نفسه مدى الحياة بلقب "زعيم الشيوخ" Princeps Senatus. وكان معنى هذا اللقب في بادئ الأمر "الأول في تيبث أعضاء مجلس الشيوخ"، ثم ما لبث أن أصبح معناه "الزعيم" بمعنى الحاكم كما أصبح معنى لفظ Imerator بعد أن خلع هذا اللقب على أكتافيان هو إمبراطور Emperor بالمعنى الذي يفهم من هذا اللفظ في هذه الأيام. ويسمي التاريخ بحق حكومته وحكومة خلفائه مدى قرنين من الزمان بحكومة "الزعامة" ولا يسميها الحكومة الملكية بالضبط، وذلك لأن الأباطرة "Emperors" كانوا يعترفون نظرياً على الأقل بأنهم لم يكونوا إلا زعماء (Princeps) مجلس الشيوخ. وأراد أكتافيان أن يجعل مظهر سلطته الدستورية أروع من ذي قبل، فنزل في

صفحة رقم : 3248

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> في الطريق إلى الملكية

عام 27 عن جميع مناصبه، وأعلن عودة الجمهورية، وصرح برغبته (وهو في الخامسة والثلاثين من عمره) باعتزال الحاة العامة. وأكبر الظن أن هذه المسرحية قد أعدت من قبل؛ فقد كان أكتافيان من أولئك الرجال الحذرين الذين يعتقدون أن الأمانة خير أساليب السياسة، بشرط أن تمارس بحكمة وحسن تدبير. ومهما تكن حقيقة هذا الأمر فقد قابل مجلس الشيوخ نزول أكتافيان عن حقوقه بنزوله هو أيضاً عما له من حقوق، وتوسل إليه أن يظل هادياً للدولة ومصرفاً لأموالها، ومنحه لقب أغسطس وهو اللقب الذي أخطأ المؤرخون فحسبوه اسمه. ولم يكن هذا اللقب يستعمل من قبل إلا في وصف الأثباء والأماكن المقدسة وبعض الأرباب المبدعة أو المكثرة (ومعنى أوجير Augere باللاتينية "يزيد")؛ فلما أن أطلق على أكتافيان خلع عليه هالة من القداسة وحباه بحماية الدين والآلهة. ويلوح أن سكان رومة قد بدا لهم زمناً ما أن "عودة" الجمهورية كانت عودة حقيقية، وأنهم استعادوها فعلاً في نظير صفة خلعوها على أكتافيان. ولم لا؟ ألا يزال مجلس الشيوخ والجمعيات هي التي تسن القوانين، وتختار كبار الحكام؟ إن أحداً لا ينكر ذلك وكل ما يفعله أغسطس وعماله هو أن "يقترحوا" القوانين و"يرشحوا" أرباب المناصب الهامة. وكان أكتافيان بوصف كونه إمبراطوراً وفتناً يسيطر على الجيش والخزانة، وينفذ القوانين، وكان بفضل امتيازاته التريبونية يشرف على كل ما عدا ذلك من أعمال الحكومة. ولم تكن حقوقه أوسع كثيراً من حقوق بركليز Pericles أو بمبي أو أي رئيس نشط من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن الفرق كله أن سلطاته هو كانت دائمة. وقد استقال في عام 23 من القنصلية، ولكن مجلس الشيوخ منحه وقتئذ "سلطات القنصل" وإن لم يبق له اسمه، فجعله بذلك المسيطر على الموظفين جميعهم في الولايات كلها. ولم يعترض أحد على ذلك في هذه المرة أيضاً؛ بل حدث عكس هذا.

صفحة رقم : 3249

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> في الطريق إلى الملكية

وذلك أنه لما لاح خطر نقص الحبوب حاصر الشعب مجلس الشيوخ، وأخذ يطالب بجعل أغسطس دكتاتوراً. وكان سبب ذلك أنهم قد ساءت أحوالهم في عهد أجزكية مجلس البيوخ إلى حد جعلهم يميلون إلى الدكتاتورية التي ستخطب ودهم في زعمهم لتقضي بذلك على سلطان الأغنياء. وأبى أغسطس أن يقبل هذا العرض ولكنه وضع الأنونا Annona أو موارد الطعام تحت سلطانه، وقضى على خطر القحط في أقرب وقت؛ وحمد له الشعب عمله هذا حمداً جعل رومة ترتاح أشد الارتياح حين أقدم على تعديل نظم الدولة على النحو الذي رسمه لها في ذهنه.

صفحة رقم : 3250

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> النظام الجديد

الفصل الثاني

النظام الجديد

والآن فلندرس حكومة الزعامة ببعض من التفصيل لأنها كانت في كثير من نواحيها من أعظم الأعمال السياسية في التاريخ ومن أكثرها دقة. لقد جمع الزعيم في يده كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية؛ فكان من حقه أن يقترح القوانين على الجمعيات أو على مجلس الشيوخ ويعرض المراسيم؛ وكان في وسعه أن ينفذها وأن يفرضها بالقوة إذا شاء، وأن ينشرها ويعاقب الخارجين عليها. ويقول سوتونيوس إن أغسطس كان يجلس في مجلس القاضي بانتظام وإن مجلسه كان يدوم في بعض الأحيان حتى يجن الليل "وكان يأمر بوضع محفنة فوق المنصة يلجأ إليها إذا أصابته وعكة... وكان رجلاً حي الضمير ليناً في أحكامه إلى حد كبير" وإذ كان قد أقيمت عليه تبعة مناصب كثيرة فقد شكّل له مجلساً غير رسمي من المستشارين أمثال مانياس، ومن المنفذين لقراراته أمثال أجربا، ومن القواد أمثال تيبيريوس، كما أنشأ له هيئة من أرقائه ومعائيقه.

وكان كيس ماسناس من أثرياء رجال الأعمال، وكان قد قضى نصف حياته يساعد أغسطس في الحرب والسلام وفي أعماله السياسية الداخلية والخارجية، وساعده أخيراً على الرغم منه في مغامراته النسائية. واشتهر قصره العائم على تِل الأكولين بحدائقه الغناء وببركة استحمامه ذات الماء الساخن. وكان أعداؤه يصفونه بأنه شخص. مخنث أبيقوري لأنه كان يتباهى بلبس الحرير والتحلي بالجواهر، وأنه يعرف كل ما يعرفه المبطلان الروماني. وكان يستمتع بالأدب والفن ويناصرهما بكرم وسخاء، وقد أعاد إلى فرجيل ضيعته ووهب هوراس ضيعة

صفحة رقم : 3251

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> النظام الجديد

أخرى. وكان هو الموحى بكتاب الجورجيين Geprgics والأناشيد. وأبى أن يشغل أي منصب من المناصب العامة. مع أنه كان في وسعه أن يحصل منها على أي منصب يريد به إلا القليل. وقد ظل سنين طويلاً يجهد نفسه في بحث مبادئ السياسة الخارجية ووقائعها، وبلغ من شجاعته أن كان يعنف أغسطس إذا ظنه قد وقع في خطأ موبق. ولما مات (في عام 8 ق.م.) حزن عليه الزعيم وعدّ موته خسارة لا تعوض.

ولعل أغسطس (أصله من الطبقة الوسطى ولم يكن يحتقر التجارة كما يحتقرها الأشراف) كان يعمل بمشورته حين رشح كثيرين من رجال الأعمال للمناصب الإدارية الكبرى وإلى حكم الولايات نفسها. ولما تدمر مجلس الشيوخ من هذه البدعة، استرضاه بأشياء كثيرة: فمنح بعض لجانته سلطات استثنائية، وجمع حوله مجلساً من الزعماء المستشارين مؤلفاً من حوالي عشرين رجلاً كلهم تقريباً من الشيوخ، وأصبح لقرارات هذا المجلس على مدى الأيام ما لقرارات مجلس الشيوخ نفسه من قوة، وكانت سلطاته واختصاصاته تزداد كلما ضعفت سلطات مجلس الشيوخ، ونقصت

اختصاصاته. ولكن مجلس الشيوخ لم يكن إلا أدواته العليا على الرغم مما كان يغدق عليه من ضروب العطف والمجاملة.

وقد استخدم حقه بوصفه رقيباً فأعاد النظر في عضويته أربع مرات، وكثيراً ما استخدم حقه في حقه في طرد بعض أعضائه منه لعجزهم عن القيام بالأعمال الرسمية أو لسوء سلوكهم الشخصي، وقد رشح هو نفسه معظم أعضائه الجدد؛ وكان من دخلوه من الكوستريين والبريتورين والقناصل بعد انقضاء المدة المحددة لتوليهم مناصبهم، كانوا كلهم ممن اختارهم هو أو ممن وافق على اختيارهم. وقد حشد في هذا المجلس أغنى رجال الأعمال في إيطاليا وانضمت الطبقتان إلى حد ما في ذلك الائتلاف الذي هيئته لهما سيطرتهما المتحدة التي اقترحها شيشرون في الأيام الخالية. وبذلك وقفت قوة المال في وجه كبرياء المولد وامتيازاته، كما وقفت

صفحة رقم : 3252

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> النظام الجديد

الأرستقراطية الوراثية في وجه مساوي الثروة وأعمالها التي لا تتحمل لها تبعه. واقتصرت اجتماعات مجلس الشيوخ بناء على اقتراح أغسطس على اليومين الأول والخامس عشر من كل شهر، ولم يكن اجتماعه يدوم في العادة أكثر من يوم واحد. وإذا كان الذين يرأسون اجتماعه هم "زعماء الشيوخ" فإنه لم يكن يُستطاع عرض أي اقتراح عليه بغير موافقته، والحق أن كل اقتراح يُعرض عليه كان يعده من قبل هو أو أعوانه. وأصبحت اختصاصات المجلس القضائية والتنفيذية وقتئذ أهم من اختصاصاته التشريعية، فكان بمثابة محكمة عليا، وكان يحكم إيطاليا بوساطة لجان، ويوجه أعمال الأشغال العامة المختلفة. وكان يحكم الولايات التي لا تحتاج إلى إشراف عسكري كبير، ولكن الزعيم هو الذي كان يشرف على العلاقات الخارجية. ولما جرد المجلس بهذه الطريقة من سلطاته القديمة أهمل هو نفسه اختصاصاته الضيقة نفسها وصار يتخلى باستمرار عن كثير من التبعات للإمبراطور وموظفيه.

وظلت الجمعيات تعقد جلساتها، ولكن عدد هذه الجلسات أخذ يقل شيئاً فشيئاً؛ وظلت تقترح ولكنها لم تكن تقترح إلا على المشروعات أو الترشيحات التي يوافق عليها الزعيم، وقضى على حق العامة في تولي المناصب أو كاد يقضي عليه في عام 18 ق.م. حين صدر قانون يُقصر تولي هذه المناصب على الرجال الذين تبلغ قيمة أملاكهم أربعمئة ألف سسترس (60.000 ريال أمريكي) أو أكثر (2). وشرح أغسطس نفسه للقتل ثلاث عشر مرة، وسعى لنيل أصوات الناخبين كما كان يسعى غيره من المرشحين؛ ونزل بذلك من عليائه للاشتراك في المسرحية التي كانت تمثل فصولها على مسرح السياسة الرومانية. وقد عمل على منع الرشا في الانتخابات بأن طلب إلى كل مرشح أن يودع قبل عملية الانتخاب مبلغاً من المال ضماناً منه بأنه لن يلجأ إلى الرشوة (3). بيد أن أغسطس نفسه وزع في وقت من الأوقات ألف سسترس على كل عضو ناخب

صفحة رقم : 3253

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> النظام الجديد

في قبيلته حتى يضمن بذلك صحة أصوات القبيلة(4). وظل القناصل والتريبونون يُنتخبون حتى القرن الخامس بعد الميلاد(5). غير أن المنصبين أصبحا بعد أن آلت معظم حقوقهما إلى الزعيم منصبين إداريين لا تنفيذيين، ثم انتهيا إلى أن صارا منصبين شرف لا أكثر.

أما حكم رومة الفعلي فقد وضعه أغسطس في أيدي موظفين إقليميين يتفاوضون مرتبات من الدولة وتساعدهم في عملهم شرطة مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل يرأسهما "كبير شرطة البلدية Praefectus Urbi" فضلاً عن هذا فقد وُضع ست كتائب قوام كل منها ألف جندي بالقرب من رومة، وثلاث كتائب في داخلها ليضمن بذلك استتباب النظام من النوع الذي يريده، وليؤيد بها سلطانه، وإن كان قد اعتدى بعمله هذا على جميع السوابق أشد الاعتداء. وأصبحت هذه الكتائب فيما بعد هي الحرس البريتوري، أي حرس البريتوريوم Praetorium أو مقر القائد الأكبر. وهذه الفرق هي التي جعلت كلودوس إمبراطور في عام 41 ب.م، وهي التي بدأت عملية إخضاع الحكومة للجيش. ثم امتدت عناية أغسطس الإدارية من رومة إلى إيطاليا وإلى الولايات الخارجية. فمنح حق المواطنة الرومانية أو حق الانتخاب الضيق المعروف "بالحقوق اللاتينية" لجميع العشائر التي اشتركت في تحمل أعباء الحرب على مصر. ثم أعان المدن الإيطالية بما نفحها به من هبات، وزينها بالمباني الجديدة، وابتكر طريقة تمكن أعضاء مجلسها من إعطاء أصواتهم في انتخاب الجمعيات في رومة بطريق البريد. ثم قسم الولايات فثنين: أولاهما ما تحتاج إلى دفاع جدي والثاني ما كانت في غير حاجة إلى هذا الدفاع. فأما الثانية (وكانت تشمل صقلية، وبتكا، وغالة النربونية، ومقدونية، وآخية، وآسية الصغرى، وبيثينيا، وبنطس، وقبرص، وكريت، وقورينة، وأفريقية الشمالية، فقد وضع حكمها في يد مجلس الشيوخ. أما الثانية وهي الولايات الإمبراطورية-

صفحة رقم : 3254

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> النظام الجديد

فكان يحكمها سفراؤه، ووكلاؤه، أو رؤساء حرسه. وقد أمكنه هذا النظام البديع من أن يختفض بسيطرته على الجيش، الذي كان يقيم معظمه في الولايات "المعرضة للخطر". وهذا إلى أنه وضع في يده موارد مصر الغنية وأمكنه من أن يراقب الحكام المعنيين من قبل مجلس الشيوخ بأعين وكلائه الذين كان يعينهم لجباية الخراج من الولايات جميعها بلا استثناء. وكان كل حاكم يتقاضى في أيامه مرتباً محدوداً، وبذلك قلت رغبته إلى حد ما في ابتزاز المال من أهل الولاية التي يحكمها. وكان إلى جانب الوالي هيئة من الموظفين المدنيين تساعد على الدوام الاتصال في الأعمال الإدارية وتمنع إلى حد ما رؤساءهم المؤقتين من الإقدام على الأعمال غير المشروعة. أما أقيال الدول التي كانت خاضعة لنفوذ رومة فكانوا يعاملون معاملة طيبة حكيمة، وظلوا بسببها موالين لأغسطس كل الولاء، وقد أفتع الكثيرين منهم بأن يرسلوا إليه أبنائهم ليعيشوا في قصره، وليتلقوا فيه تربية رومانية؛ وأصبح هؤلاء الشبان بفضل هذا التدبير الكريم رهائن لديه حتى يحين وقت تتويجهم، ثم صاروا بعنذ على غير علم منهم أداة لصبغ بلادهم بالصبغة الرومانية. ويبدو أن أغسطس بعد انتصاره في أكتيوم، وما بهته هذا الانتصار في نفسه من حماسة وزهو، وبعد أن رأى من حوله جيشاً ضخماً وأسطولاً قوياً، يبدو أنه أخذ بعد هذا يعد العدة لتوسيع رقعة الإمبراطورية ومد حدودها إلى المحيط الأطلنطي، والصحراء الكبرى، ونهر الفرات، والبحر الأسود، ونهر الدانوب والألب، وأنه كان يعترم الاحتفاظ بالسلم الرومانية بسياسة العدوان عند هذه الحدود جميعها لا بسياسة الدفاع السلبي. وقد أتم الإمبراطور بنفسه فتح أسبانيا، ونظم الإدارة في بلاد غالة تنظيمياً يدل على مقدرته ومهارته، وكان من نتائجه أن ساد السلام ربوع تلك البلاد نحو

قرن كامل. واكتفى في بارتيا باسترجاع الأعلام، ومن بقي على قيد الحياة من الأسرى الذين أخذوا من كراسس في عام 53؛ أما في

صفحة رقم : 3255

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> النظام الجديد

أرمينية فقد أعاد إلى عرشها ملكها تجرانيس Tigranes الموالي لرومة. وأرسل بعثات لفتح بلاد العرب ولكنها أخفقت. وأخضع ربيباه تيبيريوس ودورس في العشر السنين المحصورة بين 19، 9 ق.م بلاد إيليريا Illyria وبانونيا Pannonia وريتيا Raetia. ولما غزا الألمان غالة تدرع أغسطس بهذه الحجة فأمر دروسس أن يعبر بهر الرين؛ ولشد ما اغتبط حين علم أن هذا الشاب قد شق طريقه إلى نهر الإلب. غير أن دروسس أصيبت أحشاؤه على أثر سقطة سقطها على الأرض عانى على أثرها المرض ثلاثين يوماً. وكان تيبيريوس شديد الحب لأخيه، فسار على ظهر جواده أربعمئة ميل من غالة إلى ألمانيا ليضمه إلى صدره في آخر ساعات حياته؛ ولما تم له ذلك نق جثته إلى رومة، وسار وراء الجنازة طول الطريق (9ق.م) ثم عاد بعدئذ إلى ألمانيا وحمل على القبائل الضاربة بين الإلب والرين حملتين (8-7 ق.م 4-5 ب.م) خضعت على أثرهما روما. وحلت برومة وقتئذ في وقت واحد تقريباً كارتان بدلت حمى الفتح والتوسع سياسة سلام. ذلك أن بانونيا ودماشيا اللتين فتحتا حديثاً ثارتا على رومة، وقتل أهلها جميع من كان فيهما من الرومان، وأعدتا جيشاً مؤلفاً من مائتي ألف رجل وهددتا إيطاليا نفسها بالغزو. وأسرع تيبيريوس فعقد الصلح مع القبائل الألمانية، وسار على رأس قواته القليلة إلى بانونيا، واستطاع بصبره وخططه العسكرية الفنية أن يستولي على محصولات البلاد أو يتلفهما فيجرح العدو من مصادر تموينه، كما استطاع بحرب العصابات أن يمنعه من إنتاج محاصيل جديدة، وعمل في الوقت نفسه على أن يوفر المؤن لجنوده. وأصر على العمل بهذه السياسة ثلاث سنين رغم ما وجه إليه من النقد في بلاده، حتى نال أخيراً بغيته، فرأى الثوار الجياح يلقون أسلحتهم، وبسط هو السلطة الرومانية من جديد على ربوع البلاد. ولكن حدث في تلك السنة نفسها (9 ب.م) أن نظم أرمنيوس الثورة في

صفحة رقم : 3256

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> النظام الجديد

ألمانيا، وأوقع فيالق فاروس الروماني في كمين، وقتل جنودها عن آخرها إلا من انتحر بإلقاء نفسه على سيفه مثل فاروس نفسه. ولما سمع أغسطس بهذا النبأ "تأثر أشد التأثير" كما يقول سوتونيوس. وظل عدة شهور لا يخلق لحيته ولا يقص شعر رأسه، وكان في بعض الأحيان يضرب الباب برأسه ويصيح بأعلى صوته: "أي كونتليوس فاروس

أعد إليّ فيالقي(6)!" وأسرع تيبيريوس إلى ألمانيا، وأعاد فيها تنظيم الجيش، وصد هجمات الألمان، ورد حدود الدولة الرومانية، بناء على أوامر أغسطس إلى نهر الرين. وكان هذا قراراً خسر فيه أغسطس شطراً كبيراً من كبريائه، ولكنه دل على حكمته وحصافة عقله. وقد أسلمت ألمانيا بمقتضاه إلى "البربرية" أي إلى ثقافة غير رومانية ولا يونانية، وتركت حرة تسليح سكانها المتزايدين لمحاربة رومة. على أن الأسباب التي حملت الرومان على السعي لفتح ألمانيا كان من شأنها أن تتطلب منهم إخضاع سكوديا-أي جنوبي روسيا. ولكنهم لم يفعلوا لأن الإمبراطورية يجب أن يقف امتدادها في مكان ما؛ وكان نهر الرين حداً للدولة خيراً من أي حد آخر غرب جبال أورال. هذا إلى أن أغسطس بعد أن ضم أسبانيا الشمالية والغربية، وريشيا، ونوركم، وبامونيا، وموزيا، وجلاتيا، وليسيا، وبمفيليا شعر بأنه قد استحق بأعماله لقب "الإله المكثر". وكانت الإمبراطورية حين وفاته تشمل مساحة قدرها 3.340.000 ميل مربع أي أكثر من مساحة الولايات المتحدة في القارة الأمريكية، وكانت تعادل مساحة رومة قبل الحروب البونية مائة مرة. ونصح أغسطس خليفته بأن يقنع بهذه الإمبراطورية وهي أعظم إمبراطورية شهدتها التاريخ حتى ذلك الوقت، وأن يوجه همه إلى توحيدها وتقويتها في الداخل بدل أن يوسعها في الخارج، وأظهر دهشته من أن "الإسكندر لم يرد أن تنظم الإمبراطورية التي أنشأها أصعب من كسبها(7)". وبهذا بدأت السلم الرومانية Pax Romana.

صفحة رقم : 3257

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> عهد الرخاء

الفصل الثالث

عهد الرخاء

لا يمكن أن يقال عن أغسطس إنه "فر من الميدان وسمى هذا الفرار سلماً"؛ ذلك أنه لم يكد تمض عشر سنين بعد معركة اكتيوم حتى انتعشت بلاد البحر الأبيض المتوسط انتعاشاً لم يضارعه في سرعته انتعاش قبله. وقد كانت عودة النظام في حد ذاتها باعثاً قوياً على هذا الانتعاش؛ وكيف يتمكن الرخاء من إجابة هذه الدعوة الإجماعية التي يتقدم بها إليه ما عاد إلى البحر من أمن وسلامة، وإلى الحكومة من الاستقرار، مضافاً إلى استمساك أغسطس بالقديم الموروث وتحفظه، وإلى استهلاك كنوز مصر المدخرة، واستغلال المناجم الجديدة، وإنشاء دور سك جديدة، وإلى ثقة الأهليين بالنقد وسرعة تداوله، وكعلاجية الزحام في إيطاليا بإقطاع الأهليين أرضاً يفلحونها، وينقلهم إلى أراضي المستعمرات؟ ومن القصص الماثورة في هذا الصدد أن جماعة من بحارة الإسكندرية نزلوا في بتيولي، وكان أغسطس قريباً منها، فأقبلوا في ملابسهم الزاهية وأهدوا إليه البخور كما يهدى البخور إلى الآلهة، وقالوا له إنهم استطاعوا بفضل أنه يسيروا في البحر آمنين، وأن يتاجروا واثقين، وأن يعيشوا سالمين(8).

ولم يكن أغسطس، وهو حفيد رجل مصري، يخالجه أدنى شك في أن خير سياسة اقتصادية هي السياسة التي تجمع بين الحرية والأمان. ومن أجل ذلك وفر الحماية لجميع طبقات الأمة بسن القوانين، وبالذقة في تطبيقها؛ ووضع في الطرق العامة حراسة قوية، وأقرض ملاك الأراضي المال من غير فائدة(9)؛ وهدأ ثائرة الفقراء بما وزعه عليهم من

قمح الدولة، و"بالقرعة" والهدايا بعض الاحيان. أما فيما عدا هذا فقد ترك للمشروعات الخاصة، والإنتاج، والتبادل، حرية أوسع

صفحة رقم : 3258

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> عهد الرخاء

مما كان لها من قبل. عل أن الأعمال التي تديرها الدولة كانت مع هذه الحرية كثيرة متنوعة إلى حد لم تبلغه من قبل، وكان لها شأن أيما شأن في إنعاش الحياة الاقتصادية؛ فقد شُيد في خلال هذه المدة اثنان وثمانون هيكلًا، وأنشئت سوق عامة جديدة وباسلقا جديدة لتيسير الأعمال المالية وأعمال المحاكم، وأقيم بناء جديد لمجلس الشيوخ بدل البناء الذي احترق فيه كلوديوس؛ وشُيدت صفوف الأعمدة لتخفيف حرارة الشمس، وأكمل الملهى الذي بدأه قيصر وسَمي باسم مرسلس زوج ابنة أغسطس؛ واستحث الإمبراطور الأثرياء على أن ينفقوا بعض أموالهم في تجميل إيطاليا بالباسقات، والهياكل، ودور الكتب، والملاهي، والطرق. ويقول ديوكاسيوس إنه "أمر الذين يحتفلون بالنصر أن ينفقوا مغانمهم في تشييد مباني عامة تخلد ذكرى أعمالهم" (19أ). وكان أغسطس يرجو من وراء ذلك أن يجعل عظمة رومة في ازدياد سلطانه ورمزاً لهذا السلطان.

ومن أقواله في آخر أيامه أنه وجد رومة مدينة من الأجر ثم تركها وهي من الرخام(9ب)؛ وذلك مغالاة تُعتر لقائلها، فقد كان فيها قبل أيامه كثير من الرخام، وبقي فيها من بعده كثير من الأجر، ولكن الحقيقة أنه قلما فعل رجل لمدينة ما فعله أغسطس لرومة.

وكان ساعده الأيمن في إعادة بناء رومة ماركس فسپانيوس أجربا Marcus Vispanius Agrippa. وكان صديقه هذا قد اشترك مع ماسنياس في تنفيذ سياسة أغسطس. ولما كان أجربا إيديلا عام 33 ق.م ضم الجماهير إلى جانب أكتافيان بأن فتح لهم 170 حماماً، ووزع عليهم الزيت والملح بلا ثمن، وأقام لهم ألعاباً عامة دامت خمسة وخمسين يوماً، وعين حلاقين لجميع المواطنين

صفحة رقم : 3259

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> عهد الرخاء

من غير أجور -ولعله أنفق ما تطلبه هذا كله من ماله الخاص. وكانت كفايته خليقة بأن تجعله فيصراً ثانياً؛ وكنه فضل أن يخدم أغسطس مدى جيل كامل. ومبلغ علمنا أنه لم يرتكب إنمأ يشين حياته العامة أو الخاصة، فقد تركه المغتابون الرومان، الذين لم يتركوا أحداً غيره إلا سلقوه بالسنة حداد، دون أن يمسه بقاله سوء. وكان هو أول روماني أدرك ما للقوة البحرية من خطر عظيم، فوضع خطة لإنشاء عمارة بحرية وأنشأها، وتولى قيادتها، وهزم بها سكستس بمبي،

وطهر البحر من القراصنة، وكسب العالم لأغسطس في معركة أكتيوم. وعُرض عليه ثلاث مرات أن يقام له موكب نصر بعد هذه الانتصارات الرائعة، وبعد أن هدا أسبانيا وغاللة والمملكة اليسبورية، ولكنه رفض في كل مرة. وقد وهبه زعيمه ثروة طائلة اعترافاً منه بفضلِهِ، ولكنه ظل رغم هذه الثروة يعيش عيشة خالية من البذخ والترف. وبذل جهوده كلها في إقامة المنشآت العامة كما بذلها من قبل في حفظ كيان الدولة، فكان يستأجر بماله الخاص مئات من العمال لإصلاح الطرق والمباني، والمجاري العامة، وإعادة فتح قناة مارسييس المغطاة. وأنشأ هو قناة من نوعها جديدة، هي قناة يوليوس، وأصلح وسائل مد رومة بالماء باحتقار سبعمائة بئر وإنشاء خمسمائة عين فوّارة، ومائة وثلاثين خزناً.

ولما شكّا الناس من ارتفاع أثمان النبيذ أجابهم أغسطس بدهائه المعروف:
"لقد عمل صهري أجرباً على ألا تنظماً رومة أبداً" (10).

وأنشأ أجرباً، وهو أعظم المهندسين الرومان بلا منازع، مرفأ واسعاً عظيماً، ومركزاً لبناء السفن بإيصال بحيرتي لكريتس وأفرنس بالبحر. وهو الذي أنشأ أول الحمامات العامة الرائعة الفخمة، التي امتازت بها رومة فيما بعد على سائر مدن العالم. وشاد من ماله الخاص هيكلأ لفينوس والمريخ أعاد بناء هدریان وهو المعروف لنا بهيكل الآلهة Pantheon في هذه الأيام، ولا يزال يظهر عليه حتى الآن هذه العبارة M. AGRIPA...PECIT. ونظم أعمال مسح أراضي الإمبراطورية

صفحة رقم : 3260

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> عهد الرخاء

مرة كل ثلاثين عاماً، وكتب رسالة في الجغرافية، ورسم للعالم خريطة ملونة على الرخام. وكان مثل ليوناردو دافنشي عالماً طبيعياً، ومهندساً، ومخترعاً للمقدوفات الحربية وفتاناً. وكان موته المبكر وهو في سن الخمسين (12ق.م) من الأحران الكثيرة التي عكرت صفاء سني أغسطس الأخيرة. وقد زوجه أغسطس بابنته يوليا، وكان يرجو أن يرث الإمبراطورية من بعده لأنه خير من يستطيع أن يحكمها حكماً صالحاً نزيهاً شريفاً. وكانت المنشآت العامة الكثيرة النفقة، مضافة إلى الخدمات الواسعة التي تقوم بها الحكومة سبباً في زيادة المصروفات العامة زيادة لم يكن لها نظير من قبل. ذلك أن المرتبات كانت تؤدي وقتئذ للموظفين في الولايات وفي المدن، وللحكام ورجال الشرطة؛ وكان يقوم على حراسة البلاد جيش قوي دائم وأسطول ضخم، وكانت المباني العامة التي لا عداد لها تشاد أو تُصلح، وكان العامة يرشون بالحبوب والألعاب ليظلموا هادئين. وإذ كانت هذه النفقات كلها إنما تؤدي من الإيرادات العادية، ولم تحمل الأجيال التالية بدين أهلي ما، فقد أصبحت الضرائب في أيام أغسطس علماً وصناعة دائمة. ولم يكن أغسطس نفسه بالرجل الصلب الذي لا يلين، فكثيراً ما أعفى الأفراد المأزومين والمدن المأزومة من الضرائب أو أداها من ماله الخاص. وأعاد إلى البلديات خمسة وثلاثين ألف رطل من الذهب قدمت إليه "هدية تتويج"، حينما اختير قنصلاً للمرة الخامسة، ورفض هبات أخرى كثيرة (12)، وألغى ضريبة الأراضي التي فرضت على إيطاليا في أثناء الحرب الأهلية؛ وفرض بدلاً منها على جميع سكان الإمبراطورية ضريبة مقدارها خمسة في المائة على الأموال التي يوصى بها لأي إنسان عدا الأقارب الأذنين والفقراء (13)، كما فرض ضريبة مقدارها واحد في المائة على المزايدات العامة، وأربعة في المائة من أثمان الأرقاء، وخمسة في المائة عند تحريرهم، وقرر عوائد جمركية تتراوح بين اثنين ونصف وخمسة في المائة على جميع البضائع

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> عهد الرخاء

الواردة إلى كل المواني تقريباً. وكان سكان المدن جميعاً يؤدون ضرائب للبلديات، ولم تكن الأملاك الرومانية معفاة من الضريبة كما كانت الأراضي الإيطالية. وكانت الضرائب تؤدي على الماء المستمد من القنوات العامة. وكان دخل الخزانة كبيراً من تأجير الأراضي العامة، والمناجم، ومصائد الأسماك، واحتكار الدولة للملح، ومن الغرامات التي تفرضها المحاكم. وكانت الولايات تؤدي ضريبة على الأراضي Tributum Soli، وضريبة الفرضة Tributum Capitis، ومعناها الحرفي ضريبة على الرؤوس، ولكنها كانت في واقع الأمر ضريبة على الأملاك الشخصية. وكانت الضرائب تجمع في خزانتين في رومة كلتاهما في معبد، وهما الخزانة الأهلية (Aerarium) التي يشرف عليها مجلس الشيوخ، والخزانة الإمبراطورية (Fiscus) التي كان يملكها ويديرها الإمبراطور. وكانت ترد إلى الخزانة الثانية الأموال من أملاك الإمبراطور الخاصة، ومن الأموال التي يوصي بها الخيرون والأصدقاء. وبلغ ما تجمع من هذه الوصايا في أيام أغسطس 1.400.000.000 سسترس. ويمكن القول بوجه عام إن الضرائب في أيام الزعامة لم تكن فادحة، وإن ما أنفقت فيه حصيلتها إلى عهد كمدوس كان يبرز ما عاناه الناس في أدائها. وقد عم الرخاء الولايات وأقام الأهلون مذابح لأغسطس الإله شكرًا له أو تطلعاً إلى ما سوف يأتيهم به من خير. وقد أضطر في رومة نفسها لأن يعنف الناس على إسرافهم في مديحه. ومن أمثلة هذا الإسراف أن أحد المتحمسين أخذ يجري في شوارع المدينة ويدعو رجالها ونساءها لأن "يهبوا" حياتهم لأغسطس؛ أي أن يقطعوا على أنفسهم عهداً بأن يقتلوا أنفسهم حين يموت. وحدث في عام 2 ب.م. أن اقترح مسالا كرفينس الذي Messala Corvinus

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> عهد الرخاء

استولى على معسكر أكتافيان في فلباي أن يمنح أغسطس لقب "أبي البلاد". ولشد ما اغتبط مجلس الشيوخ بمنح الإمبراطور هذا اللقب وكثيراً غيره من ألقاب الثناء والتكريم، فقد سره ألا يتحمل إلا القليل من تبعه الحكم، وأن يحتفظ مع ذلك بالثراء ومظاهر الشرف. وكانت طبقة رجال الأعمال التي زادت ثروتها كثيراً عن ذي قبل تحتفل بذكرى مولده احتفالاً يدوم يومين كاملين في كل عام. ويقول سوتونيوس "إن الناس جميعاً على اختلاف أصنافهم وطبقاتهم كانوا يقدمون له الهدايا في اليوم الأول من شهر يناير" -أي في عيد رأس السنة. ولما أن دمرت النيران قصره القديم تبرعت إليه كل مدينة في الإمبراطورية بمقدار من المال ليستعين به على إعادة بنائه، ويبدو أن كل قبيلة وكل نقابة فعلت هي الأخرى مثل ما فعلت المدن. وأبي أن يأخذ من أي فرد أكثر من دينار واحد، ومع ذلك فقد حصل على ما يكفي لبناء القصر وزيادة وقصارى القول أن جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط قد أحست بالسعادة بعد محنتها الطويلة، وكان في وسع أغسطس أن يعتقد أنه استطاع بصبره أن ينجز العمل العظيم الذي أخذ على عاتقه أن ينجزه.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> إصلاحات أغسطس

الفصل الرابع

إصلاحات أغسطس

لقد أشقى أغسطس نفسه إذ حاول أن يصلح قلوب الناس ويسعدهم معاً، وكان ذلك تطاولاً منه لم تغفره له رومة أبداً، ذلك أن إصلاح الأخلاق أشق أعمال الحكام وأكثرها دقة وخطورة، وقل من الحكام من جرؤ على محاولته، وقد تركه أكثرهم للمنافقين أو القديسين.

وبدأ أغسطس هذا الإصلاح بداية متواضعة لوقف تيار الانقلاب العنصري في رومة. ذلك أن سكان رومة لم يكونوا يتناقصون كما قد يتبادر إلى الأذهان، بل كان هؤلاء السكان يزدادون زيادة مطردة بفضل المغريات الكثيرة، وما كان يوزع عليهم من الأرزاق وما يستورد من الثروة ومن الرقيق. وإذا كان المحررون ينالهم نصيبهم من الأرزاق التي توزعها الدولة، فقد أعتق كثيرون من المواطنين عبيدهم المرضى أو الطاعنين في السن لكي تطعمهم الدولة، وحرر أكثر من هؤلاء لبواعث إنسانية، كما استطاع كثيرون منهم أن يقتصدوا من المال ما يبتاعون به حريتهم. وإذا كان أبناء المحررين يصبحون مواطنين رومانيين من تلقاء أنفسهم، فقد تضافر تحرير الأرقاء وتكاثر الغريباء مع قلة تناسل عناصر السكان الأصليين على تبديل الطابع العنصري لسكان رومة. وكان أغسطس يشك في إمكان استقرار أحوال بلد يسكنه هذا الخليط المختلف العناصر من الأهلين، ويرتاب في ولاء هؤلاء السكان إلى الإمبراطورية وهم الذين تجري في عروقهم دماء الشعوب المغلولة على أمرها. لذلك عمل على قانون فوفيا كانينيا Lex Fufia Caninia (2 ب.م) وغيره من القوانين التي تبيح لكل من يملك عبداً أو عبيدين لا أكثر أن يعتقه أو يعتقهما جميعاً، ولمن يملك ثلاثة عبيد إلى عشرة أن يعتق نصفهم،

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> إصلاحات أغسطس

ومن يملك أحد عشر إلى ثلاثين أن يعتق ثلاثهم، ومن يملك واحداً وثلاثين إلى مائة أن يعتق ربعهم، ومن يملك مائة عبد وعبد إلى ثلاثمائة أن يعتق خمسهم، والتي لا تبيح لسيد أن يعتق أكثر من مائة من عبده.

وقد يتمنى الإنسان أن لو حدد أغسطس اقتناء العبيد لا تحريرهم. ولكن القدماء كانوا يرون الاسترقاق قضية مسلماً بها لا تحتل جدلاً، ولو أنه طلب إليهم أن يحرروا العبيد جملةً لنظروا إلى ما ينجم عن هذا العمل من النتائج الاقتصادية والاجتماعية نظرة الرعب والهلع، كما يخشى أصحاب الأعمال في وقتنا الحاضر ما عساه أن ينجم عن الضمان الاجتماعي للعمال من تراخ في العمل وقلة في الإنتاج. لقد كان تفكير أغسطس قائماً على المصالح العنصرية ومصالح الطبقات، ولم يكن في مقدوره أن يرسم في ذهنه صورة لرومة القوية لا يتصف أفرادها بالخلق والشجاعة والمقدرة السياسية التي كان يمتاز بها الرومان الأقدمون بوجه عام والأشراف الأقدمون بوجه خاص. وكان ضعف العقيدة الدينية القديمة بين الطبقات العليا سبباً في القضاء على ما كان للزواج والوفاء والأبوة من حرمة وقداسة، وكانت هجرة الناس من الأرياف إلى المدن قد جعلت الأطفال عبئاً ثقيلاً على آبائهم أو لعباً يتسلون بها على أحسن تقدير، بعد أن كانوا مصدر ربح لهم. واشتدت رغبة النساء في التجميل واجتذاب الأموال بعد أن كن يرين أن خير زينة لهن هي إنجاب الأبناء. وقصارى القول أن الرغبة في الحرية الفردية بدت في ذلك الوقت مجانية لحاجات العنصر الروماني الأصلي. ومما زاد الطين بلة أن السعي وراء الهبات والوصايا أضحى وقتئذ أكثر الأعمال ربحاً في إيطاليا (16). فقد كان الرجال الذين لا أبناء لهم إذا بلغوا مرحلة العمر الأخيرة يجدون أحسن الترحيب في بيوت لهم أبناء، يستقبلون فيها ويطمعون، وكان كثير من الرومان يحبون هذه المتعة وهذا النوع من الحياة اللينة، حتى أصبحت سبباً آخر من أسباب العقم. يضاف إلى هذا أن طول سني الخدمة العسكرية حال بين كثيرين

صفحة رقم : 3265

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> إصلاحات أغسطس

من الشبان وبين الزواج في أكثر سني العمر صلاحية له. وامتنع كثيرون من الرومان الأصليين عن الزواج بتاتاً، وفضلوا الاتصال بالعاشرات أو اتخاذ السراري والعشيقات حتى على تعدد الزوجات متفرقات. ويلوح أن الكثرة العظمى من المتزوجين عمدت إلى تحديد عدد أفراد أبنائها بالجوء إلى إجهاض الزوجات وقتل الأطفال ومنع الحمل (18).

وأقلقت هذه المظاهر وأمثالها من مستلزمات الحضارة بال أغسطس وأقصت مضجعه، وبدأ يشعر أن لا بد من العودة إلى العقائد والأخلاق القديمة. وعاد إليه بعد أن صفا ذهنه وأنهك جسمه بفعل السنين احترامه لتراث الآباء والأجداد، فأخذ يشعر أن ليس من المصلحة في شيء أن ينفصل عن الماضي انفصلاً تاماً، بل الواجب أن تعمل الأمة -إذا أرادت لنفسها حياة حياة سليمة- على استمرار تقاليد الماضي، كما يجب على الفرد أن تكون له ذاكرة. ولذلك أخذ يقرأ بجد أكسبته إياه السنون تواريخ رومة القديمة ويعجب بالفضائل التي يعزوها المؤرخون إلى أهلها، ويحسداهم عليها، وأشد ما كان يعجب بخطبه كونتس متلس في الزواج، فتلاها في مجلس الشيوخ وأصدر أمراً إمبراطورياً بإذاعتها بين طبقات الشعب. وكان كثيرون من رجال الجيل القديم يتفقون معه في آرائه فألفوا من بينهم حزباً مترماً شديد الرغبة في تقويم الأخلاق عن طريق التشريع؛ وأكبر الظن أن ليفيا Livia أمدتهم بنفوذها. واستخدم أغسطس ماله من حقوق بوصفه رقيباً وتربيوناً فأصدر طائفة من القوانين -أو لعله حمل الجمعية على إصدارها- تهدف كلها إلى تقويم الأخلاق، وتشجيع الزواج، والوفاء بين الأزواج، والأبوة الصالحة، والحياة البسيطة، والعودة بها إلى السنن القديمة. وحرمت هذه القوانين على المراهقين والمراهقات -أن يحضروا دور اللهو العامة في صحبة الكبار من أقرابهم؛ ومنع النساء من مشاهدة الاستعراضات الرياضية، وقصر أماكنهم في المجتلدات على

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> إصلاحات أغسطس

المقاعد العليا؛ ثم حدد مقدار ما ينفق من المال في البيوت، وعلى الخدم، والولائم، والزواج، والجواهر، والملابس. وكان أهم هذه "القوانين اليوليانية" كلها "القانون اليولياني الخاص بالعفة ومنع الزنى" Lex Julia de Pudicitia ("Lex Julia de Coercendis Adulteris" 18ق.م). وبهذا القانون وضع الزواج لأول مرة في التاريخ الروماني تحت حماية الدولة بعد أن كان متروكاً لسلطة الآباء في أسرهم Patria Potestas، واحتفظ الأب بحقه في قتل ابنته الزانية هي وشريكها ساعة أن يضبطهما متلبسين بهذه الجريمة، وأجيز للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا ضبطه في منزله، أما زوجته فلم يكن له أن يقلها إلا إذا ارتكبت الفحشاء في بيته هو. وكان يطلب إلى الزوج الذي يكشف عن خيانة زوجته أن يأتي بها إلى المحكمة في خلال سنتين يوماً من هذا الكشف؛ فإذا لم يفعل هذا كان يُطلب إلى والد الزوجة أن يقوم هو بهذا العمل؛ فإذا لم يفعل الوالد نفسه ذلك جاز لأي مواطن أن يتهمهما. وكان عقاب المرأة الزانية أن تُنفى من البلاد طوال حياتها، وأن تجرد من ثلث ثروتها ومن نصف بائنتها، وأن يُحرم عليها الزواج مرة أخرى. وقد فُرت هذه العقوبات نفسها على الزوج الذي يتغاضى عن زوجته الزانية. غير أنه لم يكن من حق الزوجة أن تتهم زوجها بالزنى، فقد كان له أن يتصل بالعاشرات الرسميات المسجلات دون أن يعاقبه القانون على هذا الاتصال. ولم يكن هذا القانون يطبق إلا على المواطنين الرومان.

وأكبر الظن أن أغسطس سن حوالي ذلك الوقت قانوناً آخر يُعرف عادة باسم القانون اليولياني الخاص بالزواج بين الطبقات Lex Julia de Maritandis Ordiniyrdus ذلك لاحتوائه على فصل خاص بالزواج بين الطبقات أي بين الطبقتين العليين. وكان الهدف الذي يرمي إليه مزدوجاً، فقد كان يرمي إلى تشجيع الزواج وإلى تحديده معاً، وذلك لأنه كان يعطل امتزاج الدم الروماني

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> إصلاحات أغسطس

بالدم الغريب، ويعيد إلى الزواج فكرته الأولى فكرة الاتحاد لإنجاب الأبناء. وكانت السبيل التي سلكها القانون للوصول إلى هذين الهدفين هي فرض الزواج على جميع الصالحين له من الرجال إذا كانوا أقل من سن السنتين، وعلى الصالحات له من النساء إذا كن أقل من الخمسين. وألغيت الوصايا التي كانت تشترط في الموصى له أن يظل عزباً؛ وفرضت عقوبات على العزاب: فحرموا من الميراث عدا ميراث الأقارب إلا إذا تزوجوا في خلال مائة يوم بعد وفاة الموروث؛ كما مُنعوا من مشاهدة الحفلات والأعياد العامة. ولم تكن الأرمال أو المطلقات يرثن إلا إذا تزوجن مرة أخرى في خلال ستة شهور من موت الزوج في الحالة الأولى ومن الطلاق في الحالة الثانية. وحرمت العنس والزوجة العقيم من الميراث إذا بلغت الخمسين من عمرها، أو كانت أصغر من ذلك وكانت تملك خمسين الف سسترس (75000 ريال أمريكي). وحرم على الرجال من طبقة أعضاء

مجلس الشيوخ أن يتزوجوا من المحررات أو الممثلات أو العاهرات، كما حرم على الممثل والمحرر أن يتزوج ابنة من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ. وفرضت على النساء اللاتي يمتلكن أكثر من عشرين ألف سسترس أن يؤدين ضريبة سنوية قدرها 1% من أموالهن حتى يتزوجن، ثم تخفض هذه الضريبة بالتدريج كلما رزقن ابناً، فإذا رزقن الطفل الثالث رفعت الضريبة عنهن، وإذا كان لأحد القنصلين أبناء أكثر من زميله تقدم عليه. وكان يفضل في تولي المناصب العامة أكبر المتقدمين إليها أسراً متى كان صالحاً لتولي المنصب. وكان من حق الأم ذات الثلاثة الأبناء أن ترتدي جلباباً خاصاً *Ius Trium Liberorum* وأن تحرر من سيطرة زوجها عليها. وقد أغضبت هذه القوانين الطبقات جميعها حتى طبقة المتمزتين، فقد اشتكى هؤلاء من أن "حق الثلاثة الأبناء" قد حرر الأم من سلطان الرجل تحريراً شديداً خطورة. ومن الرجال من أخذوا يبررون عدم الزواج بقولهم إن "المرأة

صفحة رقم : 3268

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> إصلاحات أغسطس

الحديثة" قد تطرفت في استقلالها، وغطرستها، ونزقها، وإسرافها. وكانوا يرون أن حرمان العزّاب من مشاهدة المعارض والألعاب العامة عقاب قاس مستحيل التنفيذ، ولهذا أمر أغسطس بإلغائه في عام 12 ق.م؛ ثم خففت القوانين اليوليائية مرة أخرى بمقتضى قانون بوبيّا بوبيّا *Popia Poppea*، وذلك بتخفيف شروط الميراث على العزّاب، وبمضاعفة الفترة التي تستطيع الأرامل والمطلقات في أثنائها أن يرثن قبل أن يتزوجن مرة أخرى، وبزيادة القدر الذي يستطيع أن يرثه من لا أبناء له. ثم أقيمت أمهات الأبناء الثلاثة من القيود التي وضعها قانون فوكونيا *Lex Voconia* على الوصايا للنساء. وخفضت السن المحددة للتقدم للمناصب العامة بنسبة حجم أسرة من يتقدم لهذه المناصب. ولاحظ الناس بعد أن سنت هذه القوانين أن القناصل الذين وضعوا صيغتها وأطلقوا أسماءهم عليها عزّاب لا أبناء لهم. وأصناف النمامون إلى ذلك أن الذي اقترح هذه القوانين على أغسطس -وهو الذي لم يكن له إلا ولد واحد- هو ماسناس الذي لم يكن له ولد، وأنه في الوقت الذي سنت فيه كان ماسناس يعيش عيشة الترف والخنوة، وكان أغسطس يغوي زوجة ماسناس على الفحشاء (19).

وليس في وسعنا أن نحكم على أثر هذه الشرائع التي تعد أهم الشرائع الاجتماعية في التاريخ القديم، ولكننا لا نستطيع أن نقول إنها لم تسن بالعناية والدقة الواجبتين، وإن من أرادوا خرقها كانوا يجدون فيها كثيراً من الثغرات؛ فمنهم من تزوجوا إطاعة للقانون ثم ما لبثوا أن طلقوا زوجاتهم؛ ومنهم من يبتّوا أطفالاً ليحصلوا بذلك على المناصب أو الوصايا، ثم "حرروهم" -أي طردوهم من ديارهم بعدئذ (20). وأعلن تاستس بعد قرن من ذلك الوقت أن هذه الشرائع أخفقت في الغرض الذي كانت ترمي إليه: "فالزواج وإنجاب الأبناء لم يزيدها على ما كانا عليه من قبل، وذلك لأن مغريات عدم النسل مغريات عظيمة القوة" (21).

ولم ينقطع الفساد الخلقي وإن أصبح الناس أكثر تأدباً فيه عما كانوا من

صفحة رقم : 3269

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> إصلاحات أغسطس

قبل؛ ونتبين من أقوال أوفد أنه كان في طريقه إلى أن يصير فناً من الفنون الجميلة، وموضوعاً يعني مهرة الخبراء بتعليمه للمبتدئين. والحق أن أغسطس نفسه كان يرتاب في قوة هذه الشرائع. وكان يتفق مع هوراس في أن القوانين عبث لا طائل منه إذا لم تتغير القلوب (22). ولقد كافح كفاح الأبطال ليصل إلى قلوب الناس؛ فكان يعرض من مقصورتِه في ساحة الألعاب أبناء جرمنيكوس الكثيرين، وكان جرمنيكوس مضرب المثل في الأبوة؛ وكان يهب ألف سسترس للأباء ذوي الأسر الكبيرة (23)؛ وأقام نصباً تذكاريًا لأمة ولدت خمسة أبناء (وهي لم تفعل ذلك بالطبع لبواعث وطنية) (24)؛ ولشد ما اغتبط حين رأى فلاحاً يأتي راجلاً إلى رومة ومن ورائه ثمانية أبناء، وستة وثلاثون حفيداً، وتسعة عشر من أبناء أحفاده (25). ويصوره ديو كاسيوس يخطب في الناس ويشهر "بانتحار العنصر" الروماني الأصيل (26). وكان يلذ له أن يقرأ مقدمة تاريخ ليفي الأخلاقية، ولعله هو الموحى بها. وقد أصبحت الآداب في عصره وبتأثيره آداباً تعليمية عملية الصبغة، وأقنع بنفسه أو عن طريق ماسيناس فرجيل وهوراس بأن يستخدم شعرهما في الدعاية إلى الإصلاح الخلقي والديني، فحاول فرجيل في كتاب الزراعة *Georgics* أن يعيد الرومان بأغنيهِ إلى المزارع، كما حاول في الإنيادة *Aeneid* أن يجتذبهم إلى الآلهة القدامى. أما هوراس فبعد أن ذكر أمثلة كثيرة لمسرات العالم حول أغانيهِ إلى الموضوعات الراقية. وأقام أغسطس في عام 17 ب.م "الألعاب القرنية *Ludi Saeculares* - التي ظلت قائمة ثلاثة أيام، وشملت حفلات، ومباريات، واستعراضات؛ وقد أقامها احتفالاً بعودة عصر زحل الذهبي، وكلف هوراس أن يكتب *Carmen Saecular* لكي يغنيها في الموكب سبعة وعشرون فتى ومثلهم من الفتيات. وحتى الفن نفسه قد استخدم للإشارة إلى

صفحة رقم : 3270

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> إصلاحات أغسطس

الأخلاق، فقد مثلت في نقش أراباسس *Ara Pacis* البارز الجميل حياة رومة وحكومتها؛ وشيّدت المباني العامة لتمثيل قوة الإمبراطورية وعظمتها، وأقيمت عشرات الهياكل لتستثير في قلوب الناس ذلك الإيمان الذي كاد يموت. واقتنع أغسطس في آخر الأمر - وهو الرجل المتشكك الواقعي - بأن إصلاح الأخلاق لا بد أن ينتظر نهضة دينية. ذلك أن جيل المتشككين أمثال لكريشيوس وكانلس وقيصر كان قد مضى وانقضى، وأدرك أبناء هذا الجيل أن خشية الآلهة هي شباب الحكمة، بل إن أوفد الساخر نفسه أخذ يكتب بعد قليل من ذلك الوقت على طريقة فلنير: "إن أسباب الرحمة للإنسان أن تكون هنالك آلهة، وأن نعتقد بوجودها *Expenditesses Deos et Un Expedit Esse Putemuse* (27)". وكانت عقول المتحفظين تعزو أسباب الحرب الأهلية وما جرته على الدولة من كوارث إلى إهمال الدين، وما استتبع هذا الإهمال من غضب آلهة السماء. وأصبح الناس الذين حل بهم عقاب الآلهة في كل مكان من إيطاليا على استعداد لأن يعودوا إلى مذابح البلاد القديمة، وأن يسبحوا بحمد الآلهة الذين أبقوا عليهم ليستمتعوا بعودة الدين إلى سالف عهده السعيد. ولما خلف أغسطس لبدس *Lepidus* الفاتر الإيمان - بعد أن ظل صابراً زمناً طويلاً يترقب موته - لما خلفه من منصب الكاهن الأكبر "احتشد الناس من كافة أنحاء إيطاليا لينتخبوني لهذا المنصب حتى بلغ عددهم حداً لم يبلغ مثله في رومة من قبل" (28). وترغم هو حركة إحياء الدين وسار على بهجها، وكان يرجو أن يكون الناس أكثر قبولاً لإصلاحاته السياسية والأخلاقية إذا ما ربطها برباطاً وثيقاً بالآلهة الرومانية. ومن أجل هذا رفع مقام الجماعات الأربع الكهنوتية، وزاد ثروتها إلى حد لم يكن له مثيل في الأيام السلفية، واختار نفسه عضواً في كل منها، واضطلع بواجب اختيار أعضائها الجدد، وكان يحرص كل الحرص على حضور اجتماعاتها ويشترك في مواكبها الفخمة الرهيبة.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> إصلاحات أغسطس

ثم حرم ممارسة العبادات والطقوس المصرية الآسيوية في رومة، ولكنه استثنى اليهود من ذلك التحريم، وأطلق الحرية الدينية لسكان الولايات، وأغدق الهبات على الهياكل، وجدد الاحتفالات والمواكب والأعياد الدينية القديمة. ولم تكن الألعاب القرنية احتفالات دنيوية كما يظن لأول وهلة، فقد كانت تقام في كل يوم من أيامها الثلاثة طقوس وتتلّى فيه أناشيد، أهم ما تُشعر به عودة صلات الود الوثيقة بالآلهة. ولما أن تغذت العبادات القديمة بهذه المعونة الملكية العليا سرت فيها حياة جديدة ومست من جديد شعاف قلوب الناس وآمالهم السماوية. ومن أجل هذا ظلت ثلاثة قرون صامدة للفوضى الناشئة من العبادات المتعارضة التي تسربت إلى رومة بعد أيام أغسطس. ولما أن ماتت بعد هذه القرون الثلاثة عادت من فورها إلى الحياة من جديد، وإن اتخذت لها رموزاً جديدة وتسمت بأسماء جديدة. وكان أغسطس نفسه من أكبر المنافسين للآلهة، وكان قيصر قد ضرب له المثل في هذا التنافس: ذلك أن مجلس الشيوخ اعترف بألوهية قيصر بعد عامين من مقتله، وما لبثت عبادته أن انتشرت في سائر أنحاء الإمبراطورية. وكانت بعض المدن الإيطالية منذ عام 36 ق.م قد أفسحت لأكتافيان مكاناً بين معبوداتها؛ وما وافى عام 27 ق.م حتى أضيف اسمه إلى أسماء الآلهة في الترانيم الرسمية التي كانت تنشد في رومة، وحتى أصبح يوم مولده يوماً مقدساً لا عيداً فحسب؛ ولما مات أصدر مجلس الشيوخ قراراً أن تعبد رومة من ذلك الوقت وأن تعده من الآلهة الرسمية. وكان ذلك كله يُعد عملاً طبيعياً لا غبار عليه عند الأقدمين لأنهم لم يدر بخلداهم قط أن ثمة تقصّل على الدوام بين الآلهة والآدميين؛ فما أكثر ما كانت الآلهة تتخذ لنفسها أشكالاً آدمية، ولقد كان ما لهرقل، وليقورغ والإسكندر، وقيصر، وأغسطس وأمثالهم من عبقرية مبدعة يبدو للشرق المتدين بنوع خاص إعجازاً خليفاً بالتقديس. ألم يعتقد المصريون أن الفراشة، والبطالمة، بل وأنطونيوس نفسه أرباب يعبدون؟ ولقد

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> إصلاحات أغسطس

كان عسيراً عليهم أن يضعوا أغسطس في منزلة نقل عن هؤلاء. ولم يكن الأقدمون وهم يفعلون هذا من الغفلة والبلادة بالدرجة التي يرميهم بها من يفعلون فعلهم في هذه الأيام؛ فلقد كانوا على علم تام بأن أغسطس بشر، فإذا ألهوا روحه أو أرواح غيره فإنهم لم يكونوا يستعملون لفظ إله Theos, Deus إلا بالمعنى الذي نستعمل نحن فيه لفظ قديس في هذه الأيام. والحق أن تقديس الموتى وليد التأليه الروماني، وأن الصلاة للآدمي المؤلفة لم تكن تبدو لهم في ذلك أكثر سخفاً مما تبدو الصلاة للقديس في هذه الأيام.

وارتبطت عبادة عبقرية الإمبراطور في البيوت الإيطالية بعبادة أرباب المنازل وعبقرية أبي الأسرة. ولم يكن في هذه العبادة شيء عسير على شعب ظل عدة قرون يؤله الموتى من آباءه، ويبني لهم المذابح، ويسمي مقابر أسلافه هياكل. ولما أن زار أغسطس أسية اليونانية في عام 21 ق.م وجد أن عبادته قد انتشرت فيها انتشاراً سريعاً؛ وكانت النذور تقدم إليه والخطب ترحب به بوصفه "المنقذ" و "ناقل الأنبياء السارة" و "الإله ابن الإله". وقال بعض الناس أنه هو المسيح الذي طال انتظاره أقبل يحمل السلام والسعادة لبني الإنسان (29). وجعلت مجالس الولايات الكبرى عبادته المحور الذي تدور عليه احتفالاتها، وعينت مجالس الولايات والبلديات طائفة جديدة من الكهنة يدعون بالأغسطيين لخدمة الإله الجديد. وأبدى أغسطس استيائه من هذا كله، ولكنه قبله آخر الأمر على أنه تمجيد روحي للزعامة، وتقوية للرابطة بين الدين والدولة، وعبادة مشتركة موحدة بين عقائد مختلفة مفرقة، وهكذا رضي حفيد المرابي أن يكون إلهاً.

صفحة رقم : 3273

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> أغسطس نفسه

الفصل الخامس

أغسطس نفسه

ثرى أي رجل هذا الذي ورث ملك قيصر في الثامنة عشرة من عمره، وكان سيد العالم في الحادية والثلاثين. والذي حكم رومة نصف قرن من الزمان، والذي شاد أعظم إمبراطورية في التاريخ القديم؟ لقد كان كنيباً جذاباً معاً، ولم يكن أحد أسمح منه، ولكن نصف عالم قد عبده رغم هذه السماحة. وكان ضعيف البنية، لا يمتاز بالشجاعة النادرة، ولكنه كان قادراً على أن يهزم جميع أعدائه وينظم شؤون الممالك، وينشيء حكومة أفادت على الدولة المترامية الأطراف مدى قرن من الزمان رخاءً منقطع النظير.

وقد استنفذ المثالون كثيراً من الرخام والبرونز في صنع تماثيل وصور له يظهره بهضها في صورة الشاب الجاد المهذب الفخور الوجل، وبعضها في صورة الكاهن المنقبض الصدر، وبعضها قد غطت فيه نصف جسمه شاربت الملك، وبعضها في ثياب القائد العسكري فقد اضطر الفيلسوف على كره منه وبمشقة على نفسه أن يضطلع بواجب القواد. ولكن هذه الصور لا تكشف عن الأمراض التي كان يشكو منها وإن أوحى بها في بعض الأحيان وهي الأمراض التي جعلت حربه ضد الفوضى تتأثر في كل خطوة بكفاحه في سبيل صحته. ولم يكن بالرجل الوسيم الخلق، وكان ذا شعر أصفر بلون الرمل، ورأس مثلث عجيب الشكل، وحاجبين مقترنين، وعينين صافيتين نافذتي النظرات؛ ولكن ملامحه مع ذلك كانت هادئة ساكنة-على حد قول سوتنيوس-وقد بلغ هدوؤه وسكونه حداً جعل أحد الغاليين، وكان قد جاء ليغتاله، يبدل نيته ويرتد عنه. وكان ذا جسد حساس يشوبه القوب من أن إلى أن؛ وقد أضعف داء المفاصل

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> أغسطس نفسه

ساقه اليسرى فكان يعرج قليلاً، وكان يصاب في بعض الأحيان بنوع من التصلب شبيه بتصلب المفاصل تعجز معه يده اليمنى عن الحركة. وأصيب هو وعدد كبير من الرومان في عام 23 ق.م بوباء يشبه التيفوس، وكان يشكو من وجود حصا في المثانة، ولا يستطيع النوم إلا بمشقة، ويعاني في كل ربيع تمرداً في الحجاب الحاجز، ويصاب بالزكام إذا هبت الريح من الحبوب".

وكان شديد التأثر بالبرد، ولذلك كان يلبس في الشتاء "صدرية من الصوف بقي بها صدره، ويلف اللفائف على فخذه وساقيه، ويلبس شعراً وأربعة إشارات وعباءة ثقيلة". ولم يكن يجرؤ على تعريض رأسه للشمس، وكان يتعبه ركوب الخيل، فكان يحمل أحياناً في محفة إلى ميدان القتال(30). وظهرت عليه آثار الشيخوخة وهو في سن الخامسة والثلاثين بعد أن عاش في إحدى الفترات الحاسمة في تاريخ الإنسانية فأصبح عصبياً، معتلاً، سريع التعب، ولم يكن أحد يحلم وقتئذ بأنه سيعيش أربعين سنة أخرى. وجرب عدداً كبيراً من الأطباء على اختلاف أنواعهم جزاهم كلهم أحسن جزاء، وكان منهم أنطونينس موسى الذي عالجه من مرض لم يكن معروفاً على وجه التحقيق (ولعله خرّاج في الكبد) بالكمامات والحمامات، وقد كرم موسى هذا بأن أعفى جميع الأطباء من الضرائب(31). ولكنه كان يعالج نفسه بنفسه في أكثر الأحيان، فكاد يعالج داء المفاصل بالاستحمام بالماء المالح الساخن والحمامات الكبريتية، وكان يقل من الطعام، ولا يتناول الأطعمة البسيطة الخفيفة كالخبز الخشن، والجبن، والسلك، والفاكهة. وقد بلغ من عنايته بمأكله أن كان "في بعض الأحيان يتناول طعامه بمفرده قبل المأدب أو بعدها، ولا يطعم أو يشرب شيئاً في أثناءها"(32). وقصارى القول أن روحه هي التي أبقت على جسمه وحملته حمل الصليب شأنه في هذا شأن القديسين في العصور الوسطى.

وكان جوهر طباعه حيويته أعصابه، وقوة عزمته، ونافذ بصيرته، وسعة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> أغسطس نفسه

صدره وحسن تفكيره. وقد قبل من المناصب عدداً يخطئه الحصر، واضطلع بتبعات لم يضطلع أحد بأكثر منها إلا قيصر وحده، وأدى ما تتطلبه هذه المناصب من واجبات بأمانة وذمة، ولم تمنعه هذه الواجبات من أن يرأس جلسات مجلس الشيوخ بانتظام، وأن يحضر المؤتمرات والاجتماعات، وأن يحكم في مئات من القضايا، وأن يتحمل على مضض حضور المآدب والحفلات، وأن يدبر الحملات الحربية في البلاد النائية، وأن يصرف أموال الفيالق الحربية والولايات، وأن يزورها كلها، وأن يشرف على كل صغيرة وكبيرة من الأعمال الإدارية في دولا الحكومة. وفوق هذا كله ألقى مئات الخطب، وأعدّها هو حصراً يفخر به على أن يجعلها واضحة، سهلة، جميلة الأسلوب، وكان يقرؤها بعد إعدادها ويفضل ذلك على أن يرتجلها حتى لا ينطق بألفاظ يندم عليها بعد النطق بها. ويحاول سوتونيوس أن يقتنعنا بأنه لهذا السبب عينه كان يكتب مقدماً أحاديثه الهامة مع الأفراد، حتى مع زوجته نفسها، وقرأها لهم(33).

وقد ظل يؤمن بالخرافات كما كان يؤمن بها معظم المتشككين في عصره بعد أن فقد إيمانه بدينه بزمن طويل. من ذلك أنه كان يحمل جلد عجل البحر ليقني به شر الصواعق، وكان يعتقد بالفأل والطيرة، ويعمل في بعض الأحيان بما يترأى له في منامه من نُذر، وكان يأبى أن يبدأ رحلة في الأيام التي يرى أنها أيام مشئومة (34). وقد اشتهر في الوقت عينه بأنه واقعي في أحكامه، عملي في تفكيره، وكان ينصح للشبان بأن يبادرون بالانخراط في سلك الأعمال التي تتطلب منهم همه ونشاطاً حتى تقوم التجارب وضرورات الحياة، ما أخذوه عن الكتب من آراء (35). وقد احتفظ إلى آخر أيام حياته بعقليته الطبية البرجوازية وبتحفظه وحذره

صفحة رقم : 3276

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> أغسطس نفسه

واعتداله في نفقاته. وكانت الحكمة المحببة إليه هي قوله "بادر على مهل". وكان يفوق معظم أمثاله من ذوي السلطان العظيم في تقبل النصح واحتمال التائب بصدر واسع وتواضع عظيم. وقد زوده الفيلسوف أثنورس Athendorus عندما همّ بوداعة وهو عائد من عنده إلى أثينة بعد أن عاش معه سنين بنصيحة قال له فيها: "إذا غضبت فلا تقل كلمة أو تفعل شيئاً قبل أن تعدّ لنفسك الحروف الهجائية الأربعة والعشرين". وشكر أغسطس للفيلسوف تحذيره وتوسل إليه أن يبقى معه عاماً آخر وقال له: "لا خطر يتهدد الخير الذي يعود على الإنسان بفضل السكوت" (36). لقد قلنا من قبل إن مما يثير الدهشة أن يتحول قيصر من رجل سياسي صخاب إلى قائد سياسي محتك؛ ولكن أكثر من هذا إثارة للدهشة تحول أكتافيان القاسي القلب المنطوي على نفسه إلى أغسطس المتواضع الكبير العقل النبيل الطبع. ولقد حدث هذا التحول في خلال نموه. إن الشاب الذي أجاز لأنطونيوس أن يعلق رأس شيشرون في السوق العامة، والذي تنتقل من حزب إلى حزب دون أن يجد من ضميره تائباً على هذا التنقل، والذي أطلق العنان لشهوته الجنسية، والذي طارد أنطونيوس وكليوباترة إلى منيتهما دون أن تؤثر فيه صداقة أو شهامة-إن هذا الشاب العنيد الذي لا يحب أهداً لم يُسم عقله السلطان والجاه، بل أصبح في الأربعين سنة الأخيرة من حياته مضرب المثل في العدل والاعتدال، والإخلاص والنبيل والتسامح، يضحك من سخرية الشعراء به وهجوهم إياه، وينصح تيبيريوس أن يفتع بمنع أعمال العدوان أو محاكمة المعتدين، وألا يسعى لتكريم أفواههم، ولا يصير على أن يعيش غيره من الناس عيشة البساطة التي فرضها هو على نفسه. فكان إذا دعا إلى وليمة، انسحب منها في بدايتها لكي يترك لضيوفها الحرية التامة في الاستمتاع بالطعام والمرح. ولم يكن

صفحة رقم : 3277

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> أغسطس نفسه

مز هوأ بنفسه وكان يستوقف الناخبين ليطلب إليهم أن يعطوه أصواتهم في الانتخاب، وينوب عن أصحابه من المحامين في القضايا. وكان إذا دخل رومة أو خرج منها يفعل ذلك في السر لأنه يبعض مظاهر الأبهة، وهو لا يظهر في نقش أراباسيز Ara Pacis مميّزاً عن غيره من المواطنين بأية علامة من علامات الامتياز، وكانت استقبالاته الصباحية مباحة لجميع المواطنين، وكان يستقبلهم كلهم بالبشاشة والترحيب. ولما تردد أحد الناس في أن يعرض عليه ماتمساً، لامة مازحاً بقوله إنه يعرض عليه وثيقة "كأنه يقدم فلساً لفيل(37)".

ولما بلغ سني الشيخوخة، وأحفظته الخيبة، واعتاد عظيم السلطة، بل اعتاد الألوهية، تبدلت حاله فخرج عن تسامحه، واضطهد أعداءه من الكتاب، وصادر التواريخ التي تسرف في الانتقاد، وأصم أذنه عن سماع أشعار أوفد التي يقول فيها إنه تاب وأناب، ويقال إنه أمر في يوم من الأيام أن تكسر ساقا ثالثس Thallus أمين سره لأنه أخذ خمسمائة دينار لبيوح بما يحتويه أحد الخطابات الرسمية، وإنه أرغم أحد محرريه على الانتحار حين تبين له أنه زنى برومانية متزوجة. وقصارى القول أن الإنسان إذا نظر إلى أخلاقه في جملتها لم يكن من السهل عليه أن يحبه؛ وإن من واجبنا أن نتصور ما كان يعانيه من الضعف الجسم وما قاساه في شيخوخته من أحزان قبل أن تتفتح قلوبنا له كما تتفتح لقيصر المقتول أو لأنطونيوس المغلوب.

صفحة رقم : 3278

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> آخر أيام أغسطس

الفصل السادس

آخر أيام أغسطس

تكاد مآسي أغسطس وهزائمه كلها أن تكون في داخل بيته. وأول ما نذكره من هذه المآسي أنه لم يُرزق من زوجاته الثلاث-كلاديا وأسكر بونيا وليفيا- إلا طفلة واحدة! ذلك أن أسكر بونيا قد ثارت لطلاقها منه على غير علم منها بأن ولدت له يوليا Julia. وكان يأمل أن تلد ليفيا ولداً ينشئه ويعلمه أساليب الحكم، ولكن زواجها من أغسطس قد تكشف لسوء حظه عن زواج عقيم، وإن كانت قد كافأت زوجها الأول بأن أنجبت له ولدين عظيمين هما تيبيريوس ودروسس. وإذا استثنينا هذا العقم فقد كانت هي وأغسطس سعيدين بهذا الزواج؛ فقد كانت هي ذات جمال وجلال، وخلق مكين وذكاء عظيم؛ وكان أغسطس يعيد على مسامعها أنباء أهم ما يعتزم القيام به الأعمال، ولم يكن تقديره لمشورتها ينقص عن تقديره لمشورة أرجح أصدقائه عقلاً. وسئلت مرة كيف صار لها هذا النفوذ العظيم، فأجابت بقولها إن سبب ذلك أنني "عفيفة إلى أقصى حد العفة... لا أتدخل مطلقاً في شؤونه، أنني كنت أدعي أنني لم أرَ خليلاته ولم أسمع شيئاً عنهن أو عما كان بينه وبينهن من وقائع غرامية(38)". وكانت مضرب المثل في الفضائل القديمة، ولعلها كانت تُسرف في الإصرار على الدعاية لهذه الفضائل. وكانت تقضي أوقات فراغها في أعمال البر، فتساعد الأباء ذوي الأسر الكبيرة، وتهب البائنات للعرائس الفقيرات، وتتفق على كثير من اليتامى من مالها الخاص.

وكان قصرها نفسه أشبه بملجأ للأيام؛ ذلك أن أغسطس كان يشرف في هذا القصر وفي قصر أخته أكتافيان على تربية أحفاد، وأبناء إخوته وأخواته، وبناتهن، وحتى على أبناء أنطونيوس الستة

صفحة رقم : 3279

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> آخر أيام أغسطس

الذين بقوا أحياء. وكان يرسل الذكور في سن مبكرة إلى الحروب، يعنى بتعليم البنات الغزل الحياكة، "ويحرم عليهن أن يفعلن أو يقبلن شيئاً خفية، إن كان مما يصح أن يسجل في يومية المنزل" (39). وأحب أغسطس دروس ابن ليفيا، وتبناه ورباه، وكان يسره أن يورثه ثروته وملكه، وكان موت هذا الفتى في سبابه من أولى مآسي الإمبراطور. أما تيبيريوس فقد كان يحترمه ولكنه لا يحبه، ذلك بأن تيبيريوس خليفة أغسطس كان صلفاً مفرطاً في ثقته بنفسه، ينزع إلى الكآبة والخفاء. ولا شك في أن جمال ابنته يوليا وخفة روحها قد متعاه بالكثير من أوقات السعادة في أيام طفولتها. ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرها أقنع أكتافيان بأن تسمح بطلاق ابنها مارسلس من زوجته، وأغرى الشاب بأن يتزوج يوليا، ولكن مارسلس توفي بعد سنتين من هذا الزواج؛ وبعد أن حزنت عليه يوليا حزناً قصيراً الأجل شرعت تستمتع بحرية طالما تآقت نفسها إليها. غير أن الإمبراطور الشديد الولع بعقد عقود الزواج لم يلبث أن حمل أجربا على كره منه على أن يطلق زوجته ويقترن بالأرملة المرححة (21 ق.م) راجياً أن يثمر هذا الزواج حفيداً له يرثه بعد وفاته. وكانت يوليا وقتئذ في الثامنة من عمرها، أما أجربا فكان في الثانية والأربعين، ولكنه كان رجلاً صالحاً عظيماً وكان له من الثروة ما يحبب الناس فيه. وقد جعلت يوليا بيته في المدينة ندوة للمرح والفكاهة، وأضحت هي روح الشباب المرح في العاصمة، على نقيض ليفيا التي كانت تنزع من طائفة المترمطين. وانطلقت الألسن تتهم يوليا بخيانة زوجها الجديد وتعزو إليها جواباً غير معقول عن سؤال غير معقول كذلك. فقد قيل إنها سئلت لم كان أبناؤها الخمسة الذين ولدتهم لأجربا مشابهين له فأجابت: "إني لا أقبل ركباً قط إذا كانت السفينة قد امتلأت (Munquam Nisi Nave Plena Tollo Vectorem) (40)". ولما مات أجربا عقد أغسطس آماله على ولدي يوليا الأكبرين جيوس ولسيوس وغمرهما

صفحة رقم : 3280

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> آخر أيام أغسطس

بحبه، وعني بترقيتهما إلى مناصب كبيرين لا تجيز قوانين البلاد ترقيتهما إليها في مثل سنهما. وأضحت يوليا أرملة مرة أخرى، وكانت أبرع جمالاً وأكثر ثراء من ذي قبل، فاندفعت مستهترة في كثير من مغامرات العشق أطلقت فيها ألسنة أهل رومة وجعلتها موضع تندرهم ولهوهم، وخفت عنهم ما كانوا يجدونه من الضيق بسبب "القوانين اليوليوسية". وأراد أغسطس أن يقطع ألسنة السوء عن الولوج في عرضه ولعله أراد أيضاً أن يزيل ما بين زوجته

وابنته من شفاق فزوجها مرة ثالثة؛ فأرغم تيبيريوس ابن ليفيا على أن يطلق زوجته الحامل فبساتيا أجربنا Vipsania Agrippina، ابنة أجربا، وأن يتزوج يوليا التي لم تكن أقل منه كرها لهذا الزواج (9ق.م). وبذل هذا الشاب وكان من الطراز الروماني القديم-غاية جهده لكي يكون زوجاً صالحاً، ولكن يوليا لم تلبث أن امتنعت عن بذل أي جهد للتوفيق بين حياتها الأبيقورية وحياته الرواقية، وعادت إلى مغامرات الحب الخفية. وصبر تيبيريوس على هذه الفضائح وكظم غيظه إلى حين؛ وكان قانون يوليا الخاص بالزانيات Lex Julia de Adulteriis يطلب إلى زوج الزانية أن يشكوها إلى المحاكم؛ ولكن تيبيريوس عصى هذا القانون لكي يرد الأذى عن واضعه، ولعله أراد بذلك أيضاً أن يرد الأذى عن نفسه، لأنه هو وليفيا كانا ياملان أن يتبناه أغسطس، وأن يوليه زعامة الإمبراطورية من بعده. ولما تبين أن الإمبراطور يؤثر عليه أبناء يوليا من أجربا اعتزل مناصبه الرسمية، وأوى إلى رودس، وعاش فيها سبع سنين معيشة الرجل العادي البسيط قضاها في الوحدة والفلسفة والتنجيم. وخلا الجو ليوليا، وكان لها من الحرية ما لم تستمتع به قط من قبل، فأخذت تنتقل من عشيق إلى عشيق حتى كان قصف عشاقها ومرحهم يملآن السوق العامة صخباً وضجيجاً طوال الليل(41).

وقاسى أغسطس وقتنذ (2ق.م)، وهو شيخ محطم في الستين من عمره،

صفحة رقم : 3281

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> آخر أيام أغسطس

كل ما يقاسيه أب وحاكم يشهد بعينيه انهيار أسرته وشرفه وشرائعه. وكانت هذه القوانين تحتم على أبي الزانية أن يتهمها بالزنى علناً إذا لم يقم زوجها بهذا الاتهام. وقد عرضت عليه أدلة على سوء سلوكها، ولما أعلن أصدقاء تيبيريوس أنهم سيتولون هم اتهام يوليا أمام المحاكم إذا لم يتهمها أغسطس، قرر أن يسبقهم إلى العمل؛ فأصدر قراراً ينفي ابنته إلى جزيرة بندتيريا Pandateria، وهي صخرة جرداء بالقرب من شاطئ كمبانيا، في الوقت الذي بلغ فيه مرحها وفسادها ذروتها، وأرغم أحد عشاقها وهو ابن من أبناء أنطونيوس أن ينتحر، ونفى عدداً آخر من العشاق خارج البلاد. وقتلت فوبي Phoebe إحدى معتوقات يوليا نفسها شقفاً مفضلة ذلك على الشهادة عليها. ولما سمع الوالد المنكوب بهذا النبأ قال:

"وددت لو أنني كنت والد فوبي ولا أكون والد يوليا"

وكان ولداها جيوس ولوسيو قد سبقاها إلى الدار الآخرة بزمن طويل؛ فأما لوسيو فقد توفي في مرسيليا في العام الثاني قبل الميلاد على أثر مرض من الأمراض، وأما جيوس فقد مات من جرح أصيب به في أرمينية (4م.م). وألفى أغسطس نفسه في شيخوخته من غير أنيس ولا وريث، في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا، وبانونيا، وغالة تُهدد بالانقراض عليه، فاضطر على الرغم منه إلى استدعاء تيبيريوس (2ب.م)، وتبناه، وأشركه معه في الحكم، وأرسله لإخماد نار الثورة؛ ولما عاد في العام التاسع بعد الميلاد بعد حروب طاحنة مظفرة دامت خمس سنين أقرت رومة، وكانت تحقد عليه لثروته، بأن تيبيريوس قد شرع يحكم البلاد وإن كان أغسطس لا يزال زعيمها. وبعد فإن آخر مآسي الحياة أن تدوم مآساتها على الرغم من صاحبها-أي أن يعيش الإنسان بعد أن يخسر كل شيء، وأن يُحرم حتى الموت. ولم يكن أغسطس، إذا نظرنا إلى عدد السنين وحده، قد بلغ أرذل العمر حين أخرجت يوليا من البلاد، فقد كان غيره من الرجال وهم في سن الستين أقباء

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> آخر أيام أغسطس

أشدها؛ أما هو فقد حياي أكثر من حياة، ومات أكثر من ميتة، مذ جاء إلى رومة غلاماً في الثامنة عشرة من عمره وليثأر لمقتل قيصر وينفذ وصيته. وكم من حرب خاض غمارها من ذلك الحين، وكم من هزيمة أو شكت أن تحقيق به، وما أكثر ما عانى من آلام وأمراض، وتعرض لمؤامرات وأخطار، وما أكثر ما شاهد من مرارة الخيبة، وانهيار أغراضه النبيلة وتبدها؛ وقد حدث له كل ذلك في فترة لا تزيد على أربعين عاماً، ملئت كلها بالآلام والمنغصات، ورأى فيها أماله تصيب أملاً بعد أمل، وأعوانه يُختطفون من واحداً بعد واحد، حتى اختطف من آخر الأمر تيبيريوس العنيد الشجاع نفسه! ولعله كان يرى وقتئذ أنه كان خيراً له وأحكم أن يموت ميتة أنطونيوس في أوج العظمة وبين ذراعي حبيبته. وما من شك في أنه كان يتحسر إذا ما عاد بذاكرته إلى تلك الأيام الجميلة، حين كان قلبه يفيض بالسعادة إذا رأى يوليا وأجربا من حوله، أو شاهد أحفاده يمرحون ويلعبون في أرض قصره. وها هو ذا يرى يوليا أخرى ابنة ابنته قد شبت عن الطوق، وأخذت تسير سيرة أمها، وكأنها أخذت على نفسها أن توضح للناس جميع ما ورد في أشعار صديقها أوفد من أفانين العشق. ولما جاءت أغسطس الأدلة القاطعة على أنها زانية نفاها في عام 8م إلى جزيرة في البحر الأدرياتي، ونفى أوفد في الوقت نفسه إلى تومي Tomi على شاطئ البحر الأسود؛ وبروى أن الإمبراطور اليانس الضعيف قال وقتئذ: "يا ليتني لم أتزوج قط، أو يا ليتني مت دون أن يكون لي ولد!" وقد فكر في بعض الأحيان أن يميت نفسه جوعاً.

ولاح له أن الصرح الذي شاده قد انهيار من أساسه، ذلك أن السلطات التي اضطلع بها لكي يحفظ الأمن والسلام في ربوع البلاد قد أضعفت مجلس الشيوخ والجمعيات التي استمد منها هذه السلطات، حتى فقدت كل مقومات الحياة. فقد مل الشيوخ التصديق على ما يطلب إليهم التصديق عليه كما ملوا إطراء أغسطس وتملقه، فلم يعدوا يحضرون الجلسات. وأما الجمعيات فلم تكن يجتمع فيها إلا حفنة من المواطنين، وأصبح الموظفون الأكفاء ينفرون من المناصب التي

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> مواهب أغسطس السياسية -> آخر أيام أغسطس

كانت من قبل مطامع الرجال المبدعين المبتكرين بما تخلعه عليهم من الجاة والسلطان، وأضحى هؤلاء يرونها من دواعي الغرور الكاذب الكبير الأكفاء. وحتى السلم التي بسط أغسطس لواءها على البلاد، والأمن الذي وطد دعائمه في رومة، قد أضعفا قوى الشعب وأوهنا عزيمته، فلم يكن أحد يرغب في الانضمام إلى الجيش، أو يعترف بأن الحرب شر محتوم، وأن لا بد من خوض غمارها من أن إلى أن؛ وحل الترف محل البساطة في العيش، والعلاقات

الجنسية الطليقة محل الأبوة والأمومة، وأخذ الشعب العظيم يسير مسرعاً بإرادته المضمحلة المنهوك في طريق
الفناء.

وكان الإمبراطور الشيخ يشهد هذه المآسي ويشعر بها ويدركها حق الإدراك. ولم يكن في وسع أحد من الناس أن يقول
لَهُ وقتئذ إن الزعامة العجيبة الحاذقة التي أنشأها ستهب الإمبراطورية الرومانية أطول فترة من الرخاء عرفها البشر
في تاريخهم كله، وإن السلم الرومانية التي بدأت في صورة السلم الأغسطسية ستعد في عصور التاريخ المقبلة أجل
الأعمال في تاريخ الحكم والسياسة رغم ما فيها من العيوب الكثيرة وعلى الرغم من أنه قد جلس على العرش في
أثنائها بضعة ملوك بلهاء. لقد كان أغسطس وقتئذ يعتقد، كما يعتقد ليوناردو دافنشي، أنه أخفق فيما كان يبتغيه.
ووفاته المنية وهو هادئ ساكن في نولا Nola، وكان قد بلغ السادسة والسبعين من عمره (41 ب.م)، وقال لأصدقائه
الذين التقوا حوله وهو على فراش الموت تلك الكلمات التي طالما اختتمت بها الملهاة الرومانية: "والآن وقد أنقنت
تمثيل دوري، فصفقوا بأيديكم وأخرجوني من المسرح بتصفيقكم"، ثم عانق زوجته وقال لها: "تذكرني عشرتنا
الطويلة يا ليفيا. الوداع".
ثم فاضت روحه بعد هذا الوداع البسيط (42). وبعد بضعة أيام من وفاته حملت جثته في شوارع رومة على أكتاف
الشيوخ إلى ميدان المريخ حيث أحرقت بينما كان أطفال كبار الأسر في البلاد يرتلون نذبة الأموات.

صفحة رقم : 3284

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> الحافظ الأغسطي

الباب الثاني عشر

العصر الذهبي

30م-18م

الفصل الأول

إذا كان والسلام أكثر ملاءمة لإنتاج الآداب والفنون من الحروب والقتال، فإن الحرب والهزات الاجتماعية العنيفة تزيل الثرى من حول نبات الفكر، وتغذي البذور التي تنضج في أوقات السلم. والحياة الهادئة لا تخلق الأفكار العظمية ولا عظماء الرجال، ولكن الأزمات القاسية والكفاح من أجل البقاء تقتلع موات الأثنياء من جذورها وتجعل نماء الآراء والأساليب الجديدة. والسلم التي تعقب النصر في الحرب فيها من الحوافز والدوافع ما في دور النقاهاة السريع من حيوية وقوة، والناس في هذه الفترة يبتهجون لمجرد أنهم أحياء وكثيراً ما يرفعون عقيرتهم بالغناء. حمد الشعب لأغسطس أنه عالج سرطان الفوضى الذي كان يقوض دعائم حياتهم المدنية وإن كان قد استعان على ذلك بجراحة كبرى. وقد دهشوا حين ألفوا أنفسهم وقد أثروا إثراء سريعاً بعد ما حل بهم من الخراب، وتاهوا كبرياء وحين وجدوا أنهم، رغم ما كانوا يرزحون منذ قليل من ضعف واضطراب، لا يزالون سادة المعروف لهم. وأخذوا يعودون بنظرهم إلى تاريخهم، من بدايته إلى الوقت الذي يعيشون فيه، من عهد منشي رومة الأول إلى عهد معيد

صفحة رقم : 3285

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> الحافظ الأغسطي

حياتها ومجدها، وقالوا إنه تاريخ عجيب حقاً، وإنه أشبه ما يكون بملحمة شعرية. ولم يثر دهشتهم أن يصوغ فرجيل وهوراس حمدهم ومجدهم وز هوهم شعراً، وأن يصوغه ليفي نثراً. وخير من ذلك كله أن الأقاليم التي فتحوها إلا القليل منها لم يكن يسكنها أقوامهم همج غير متحضرين، فقد كان جزء كبير منها يشمل التي تنفتت بالثقافة اليونانية فكانت ذات لغة رقيقة، وأدب سام، وعلم عظيم، وفلسفة ناضجة، وفن نبيل. وأخذت هذه الثروة الروحية وقتند تندفق على رومة، وتثير في أهلها الرغبة في تقليدها ومناقستها، وتبعث في لغتها وآدابها الحياة والنماء، فسرت إلى المفردات اللاتينية عشرة آلاف كلمة يونانية، ودخلت الأسواق الرومانية عشرة آلاف تمثال ونقش وهيكلا وشارع وبيت. وأخذت الأموال تنتقل إلى الطبقات العليا، وإلى الشعراء والفنانين، من أيدي الذين استولوا على كنوز مصر، ومن ملاك الأراضي الإبطالية الغائبين عنها، ومن الذين يستغلون موارد الإمبراطورية وتجارتها. وشرع الكتاب يهدون مؤلفاتهم إلى الأغنياء يرجون بذلك أن ينالوا عطية تعينهم على مواصلة أعمالهم الأدبية، فأهدى هوراس أغانيه إلى سالست، وإيليوس لاميا Aelius Lamia ومانليوس تركواتس Manilius Turquatus وموناتيوس Munatius، وجمع مسالا كورفينوس Massala Corvinus حوله طائفة من المؤلفين كان نجمهم للامع تيبلس Tibullus، واستعاد ماسناس ثروته وقيمة شعره بما قدمه من العطايا لفرجيل وهوراس وبرويرتيوس Propertius؛ وظل أغسطس حتى سنيه الأخيرة التي استولى عليه فيها الاضطراب والغيظ يجزل العطاء للأدباء، فكان يسره أن تتحول إلى الآداب والفنون تلك القوى التي كانت سبباً في اضطراب السياسة، فكان يجزل العطاء للمؤلفين ليؤلفوا الكتب، إذا ما تركوه يحكم الدولة كما يشاء. وقد ذاعت أنباء سخائه على الشعراء فاجتمعت حوله طائفة كبيرة منهم تسير في ركابه أينما سار.

صفحة رقم : 3286

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> الحافظ الأغسطي

وأصراً شاعر يوناني على أن يتعقبه كلما خرج من قصره كل يوم، ويعرض عليه أبياتاً من الشعر، فما كان منه في يوم من الأيام إلا أن وقف وهو خارج من القصر وكتب هو بعض أبيات من عنده، وأمر أحد أتباعه أن يضعها في يد الشاعر اليوناني، فعرض الشاعر عليه بضعة دنائير وقال إنه يأسف لأنه لا يستطيع أن يقدم له أكثر منها، فأجازه قيصر على فكاخته لا على شعره بمائة ألف سسترس(1).
ونُشر من الكتب في ذلك الوقت ما لم ينشر مثله في أي عصر من العهود الماضية. أما الشعر فأصبح عمل كل إنسان فيلسوفاً كان أو أبله(2). وإذا كان المقصود بالشعر كله وبمعظم الكتب أن يقرأ على الناس بصوت عالٍ، فقد كانت تُعقد الاجتماعات من الأصدقاء الذين يُدعون لهذا الغرض، أو من الجماهير ليقرأ عليهم المؤلفون ثمار قرانحهم. وكان يحدث في أوقات التسامح، وهي نادرة، وأن يقرأ المؤلفون هذه الثمار بعضهم على بعض. وكان جوفنال Juvenal يقول إن من الأسباب التي تضطره لسكنى الريف هو أن يفر من الشعراء الذين تزدهم بهم رومة(3). وكان الكتاب يجتمعون في محال بيع الكتب التي يزدحم بها حي الأرجليت Argiletum ليحصلوا على عدد من أنجبتهم البلاد من عباقرة الأدب، بينما كان المفلسون من محبي الكتب يقرؤون خلسة نتقاً من الكتب التي يعجزون عن شرائها. وكانت الإعلانات يُلصق على الجدران معلنة أسماء الكتب الجديدة وأثمانها فكان المجلد الصغير يُباع بأربعة سسترات أو خمسة، والمجلد المتوسط يُباع بعشرة (نحو ريال أمريكي ونصف الريال)؛ أما الكتب الأنيقة كحكم مارتتيال Martial والتي كانت تُزين في الغالب بصورة مؤلفيها فكان الواحد منها يُباع بخمسة دنائير أو نحوها (3 ريالاً(4)). وكانت الكتب تصدر إلى جميع أنحاء الإمبراطورية أو تُنشر في رومة، وليون، وأثينة والإسكندرية في وقت واحد(14). وقد اغتبط مارتتيال

صفحة رقم : 3287

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> الحافظ الأغسطي

من أن كتابه يُشترى ويباع في بريطانيا. وكان لمعظم الناس في ذلك الوقت حتى الشعراء أنفسهم وكتبات خاصة ويصف أوفد مكتبته وصفاً ينم عن تعلقه بها. ويُستدل من أقوال مارتتيال على أن المولعين باقتناء الكتب قد وجدوا حتى في ذلك العهد السحيق، فكانوا يجمعون النسخ الأنيقة الفخمة والمخطوطات النادرة؛ وقد أنشأ أغسطس دارين من دور الكتب العامة، وحذا حذوه تيبيريوس، وسبازيان، ودومتيان Domitian، وتراجان، وهديان، فلم يحل القرن الرابع قبل الميلاد حتى كان في رومة وحدها ثمان وعشرون من هذه الدور. وكان الأجانب من الطلاب والكتاب يُقبلون عليها وعلى المحفوظات العامة للدرس والبحث؛ فأقبل ديونيشيوس من هليكارنسس Halicarnassus، وديودور من صقلية، وأخذت رومة تنافس الإسكندرية في الحياة العامة، وأضحت العاصمة الأدبية للعالم الغربي.
وكان هذا الازدهار سبباً في تحول الأدب والمجتمع كله عما كانا عليه من قبل، فعُلت مكانة الآداب والفنون، وأخذ النحاة يحاضرون عن الأحياء من المؤلفين، وكان الناس يُنشدون مقطوعات من أقوالهم في الطرقات، والكتاب يختلطون بكبار الحكام وبنساء الطبقات العالية في الندوات الخاصة إلى حد لم يشهد التاريخ له نظيراً من بعد إلا في عصر ازدهار الآداب في فرنسا. وأضحى الأشراف أنفسهم رجال أدب، كما أضحى الأدب نفسه أرسقراطياً، وحل

محل فجور إينوس، وبلوتس، ولكريشيوس العارم جمال رقيق أو تعقيد بغيض في التعبير والتفكير. وامتنع الكتاب عن الاختلاط بالجماهير، فامتنعوا عن وصف أساليبهم في الحياة وعن التحدث بلغتهم؛ فبدأ الأدب ينفصل عن الحياة انفصالاً أفقد الآداب اللاتينية ما كان لها من حيوية. وأضحت الآداب تُصاغ على الأنماط اليونانية، كما كانت موضوعاتها تؤخذ من التقاليد اليونانية أو من بلاط أغسطس. وكان الشعراء إذا بقي لديهم وقت بعد وصف الرعاة على نحو ما كان يفعل ثيوكريتس، أو الحب كما كان يفعل أناكريون Anacreon،

صفحة رقم : 3288

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> الحافظ الأغسطي

يقضونه في التغني بجمال الزرع وبفضائل الآباء. ومجد رومة وعظمة الآلهة. وسار الأدب في ركاب الحكم، وأضحى مواعظ تدعو الأمة إلى الاستمساك بالأفكار الأغسطية. وكانت البلاد قوتان تقاومان تسخير الأدب لخدمة الدولة على النحو السالف الذكر. أولاهما "جوع هوراس البيغيزة الدنسة" التي كانت تحب الأدب القديم والمسرحيات القديمة وما فيها من هجو لاذع وتجريح وتفضلهما على جمال الأدب الجديد المعطر المنمق. أما القوة الثانية فكانت دنيا الأراذل والعاهرات، دنيا المرح والرذيلة، التي كانت تنتمي إليها كلوديا ويوليا. وقد ثارت هذه الفئة الغنية ثورة جامحة على القوانين البيوليوسية، وكانت تعارض كل إصلاح خلقي، وكان لها شعراؤها، ومجامعها ومعاييرها الأخلاقية والاجتماعية. وأخذت القوتان المتعارضتان تتطاحنان في الأدب كما تتطاحنان في الحياة، فتلتقيان تارة كما التقتا في تيبلس، وبروبيرتيوس، وتقاومان ثقي فرجيل وعفته ببذاءة أوفد وجراته، وتقضيان على يوليا وابنتها وعلى شاعر بالنفي من البلاد، وتظلان في هذا التطاحن حتى تُتهك كلتاها الأخرى في العصر الذهبي. لكن ضمان الأحداث العظيمة، وما هيأته الثروة والسلم للناس من فراغ أطلق قرائحهم، وعظمة العالم الذي كان يدين لرومة بالطاعة، كل هذا قد غلب على ما في طبيعية الدولة من جمود، وأنتج عصرًا ذهبياً ظل الناس في مستقبل الأيام يرون أنه أخرج أكمل الأدب طرا في صورته ولفظه.

صفحة رقم : 3289

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> فرجيل

الفصل الثاني

ولد فرجيل أحب الرمان إلى القلوب في عام 70 ق.م في ضيعة قرب منتوا Mantua، حيث يتعرج نهر منسيو Mincio ويتجه على مهل نحو البو. ولم تنجب العاصمة من بعده إلا عدداً جد قليل من العظماء، فقد كانوا في القرن الذي تلا مولد هذا الشاعر والذي ولد المسيح في منتصفه يجيبون من إيطاليا، ثم جاءوا فيما بعد ذلك من الولايات. ولعل الدم الكلتي كان يجري في عروق فرجيل لأن الغالبيين سكنوا منتوا قبل مولده بزمان طويل. وكان هو من الوجهة القانونية غالي المولد لأن أهل غالة الجنوبية لم يمنحوا حق المواطنة الرومانية على يد قيصر إلا بعد مولد باثنتين وعشرين عاماً. ولعل هذا هو الذي جعل هذا الشاعر الذي كان أفصح من تغنى بعظمة رومة ومصيرها لا يذكر فيما بعد شيئاً عما يتصف به الجنس الروماني من قوة الجسم وقدرة على مغالبة الصعاب، بل يتغنى بما في خلق الكلت من تصوف ورقة ورشاقة، وهي صفات قل أن يجدها الإنسان في العنصر الروماني الأصيل.

وكان والده كاتب محكمة، فادخر من مرتبه ما يكفي لشراء ضيعة وتربية النحل فيها، وقضى الشاعر طفولته في هذه البيئة الهادئة الطنانية، ولذلك ظلت أشجار الشمال الظليلة ومياهه الغزيرة عالقة بخياله بعد أن شب وترعرع، ولم يكن يحس بالسعادة الحقة إلا بين تلك الحقول والمجاري المائية. ولما بلغ الثانية عشر من عمره أرسل إلى المدرسة في كرمونا Cremona، ثم أرسل في الرابعة عشر إلى ميلان، وفي السادسة عشر إلى رومة؛ وهنا درس البلاغة وما يتصل بها من الموضوعات على الرجل الذي درسها عليه أكتافيان

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> فرجيل

فيما بعد. والراجح أنه حضر بعدئذ محاضرات Siro الأبيقوري في نابلي، وبذل غاية جهده ليقبل فلسفة اللذة، ولكن نشأته الريفية حالت بينه وبين هذا الهدف، ويلوح أنه عاد إلى موطنه في الشمال بعد أن أمم دراسته، وذلك لأننا نجد في العام الرابع بعد الميلاد يسبح في الماء لينجو من جندي اغتصب ضيعة أبيه؛ فقد صادرها أكتافيان وأنطونيوس لأن هذه البلاد انتصرت إلى أعدائها. وحاول أسنيوس بليو Asinius Pollio العالم وحاكم غالة الإيطالية أن يرد الضيعة إلى مالكيها ولكنه عجز، فعوضه عن ذلك بأن تولى رعية الشاب فرجيل وشجعه على الاستمرار في كتاب "المختارات Eclogues" وهي القصائد التي كان ينشئها في ذلك الوقت.

ولم يكد يحل عام 37 حتى كان اسم فرجيل على كل لسان في رومة. ذلك أن المختارات نُشرت قبيل ذلك الوقت وتقبلها أهل رومة بقبول حسن، وكانت إحدى الممثلات قد أنشدت أبياتها على المسرح، وصفق لها النظارة تصفيقاً ملؤه الحماسة والإعجاب (6). وموضوع القصائد هو وصف الرعي على نمط قصائد ثيوقريطس Theocritus، ونجد فيها أحياناً ألفاظها نفسها؛ وهي جميلة الأسلوب والتوقيع وأنغامها أجمل الأنغام السداسية الأوزان التي استمعت لها رومة في تاريخها كله، وهي مليئة بالحنان التألمي، والحب التخيلي. وذلك أن الشاب وإن قضى شطراً كبيراً من حياته في العاصمة قد انفصل عنها زمناً يكفي لأن يجعله يمجّد حياة الريف ويعدها المثل الأعلى للحياة الحقة. وكان من أثر شعره أن أصبح كل إنسان يسره أن يتخيل نفسه راعياً يسير مع قطعانه على سفوح الأبنين صاعداً أو نازلاً، ويحطم قلبه بالحب وصد الحبيب.

وكان أكثر واقعية من هذه الأشباح الثيوقريطية ما كان في شعر فرجيل

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> فرجيل

من وصف للمناظر الريفية. وقد مجد فرجيل هذه المناظر أيضاً كما مجد مناظر الرعي واتخذها هي الأخرى مثلاً أعلى للحياة؛ ولكنه هنا لم يكن مقلداً، فقد استمع من قبل إلى أغاني الخطاب الشهوانية، وشهد بعينيه النحل القلق يحوم حول الأزهار(8)، وعرف يأس الزراع الخالي البال الذي خسر أرضه كما خسر آلاف الناس أراضيهم في تلك الأيام(9). على أن أهم من هذا كله كان شديد الإحساس بما كان يرتجبه ذلك العصر من القضاء على التخريب والحرب. وكانت الكتب السبيلية Sibylline قد تنبأت بأن عصر زحل الذهبي سيعود مرة أخرى بعد العصر الحديدي؛ ولما أن ولد في عام 40 ق.م ولّد لأسينيوس بليو نصير فرجيل أعلن الشاعر في الكتاب الرابع من المحترات أن مولده سيكون بداية المدينة الفاضلة فقال:

والآن سيعود العصر الأخير الذي (يبش به) نشيد كومية (سبيل)، وها هي ذي الأحقاب العظيمة المتعاقبة تولد من جديد وتعود العذراء، ويعود حكم زحل (Saturn) وينزل من السماء العليا جيل جديد. أي لوسينا الطاهرة العفيفة (ربة المواليدي)! ابتمسي للغلام الذي ولد منذ قليل، والذي سيزول في عهده لأول مرة جيل جديد، وينشأ في العالم جيل الذهب. إن إلهك أبلو قد أصبح الآن ملكاً على الأرض".

وتحققت هذه النبوءات بعد عشر سنين من ذلك الوقت، فتخلص الناس من عدد الحرب الحديديّة، وسيطر على البلاد جيل جديد مسلح بالذهب ومفتون به؛ ولم تشهد رومة في السنين القليلة الباقية من حياة فرجيل اضطرابات جديدة، وعمها الرخاء والسعادة، وحيا الناس أغسطس ولقبوه بالمنقذ وإن لم يلقبوه أبلون. ورحب بلاط الإمبراطور - وإن لم يكن فيه من المظاهر العظيمة والأبهة إلا نصف ما في بلاط الملوك-

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> فرجيل

بما في شعر فرجيل من تفاؤل؛ واستقدمه إليه ماسيناس، وأحبه، ورأى فيه أداة شعبية ينفذ بها إصلاحات أكتافيان. وكان حكمه هذا دليلاً على بعد نظره؛ ذلك أن فرجيل كان في الثالثة والثلاثين من عمره - كان يبدو وقتئذ رجلاً ريفياً سمجاً، شديد الحياء إلى حد يجعله يتلعثم إذا تكلم، يتجنب الظهور في أي مكان عام يمكن أن يعرفه الناس فيه ويشيروا إليه، لا يطبق مجتمعات رومة الراقية الحديثة المهذرة المتطاولة. وفوق هذا فقد كان فرجيل معتل الجسم كأغسطس بل أكثر منه اعتلالاً، يشكو شكوى مستمرة من الصداع وأمراض الحلق، واضطرابات المعدة والبصاق الدموي الكثير. ولم يتزوج فرجيل قط، ويلوح أنه لم يكن أكثر إحساساً بالحب العارم الطليق من بطله إنياس. ويبدو أنه أتى عليه حين من الدهر كان يواسي نفسه فيه بالعطف على غلام من الرقيق؛ أما فيما عدا هذا فقد كان معروفاً في نابلي باسم "العذراء"(10).

وكان ماسناس كريماً في معاملة الشاعر الشاب، فأقنع أكتافيان بأن يرد له ضيعته، واقترح على الشاعر أن يكتب عدة قصائد يمجد فيها الحياة الزراعية. وكانت إيطاليا في ذلك الوقت (37ق.م) تجزي أشد الجزاء على تحويل كثير من أرضها الزراعية إلى مراعي وبساتين، وكروم؛ وكان سكستس بمبي يمنع عنها الطعام الذي يرد من صقلية وأفريقية؛ ونقص القمح يندرها بانفجار بركان الثورة من جديد. وكانت حياة المدن توهن ما في شباب إيطاليا من رجولة، ولاح أن صحة الأمة من جميع نواحيها تتطلب العودة إلى حياة الزرع. فلما اقترح ماسيناس على فرجيل أن يكتب القصائد التي تمجد الزرع أجاب الشاعر الطلب من فوره، فقد كان عليمًا بحياة الريف، وكان أجدر بتصوير ما فيها من جاذبية وجمال معتمداً على ما اختزنه في ذاكرته من حب لها عظيم، وإن كان ضعف صحته في ذلك الوقت يحول بينه وبين احتمال ما فيها من صعاب. وخبأ

صفحة رقم : 3293

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> فرجيل

الشاعر نفسه في نابلي، وبعد أن ظل يعمل سبع سنين خرج على العالم بأعظم ما أنشأه من القصائد وهي القصيدة المعروفة باسم Georgics وترجمتها الحرفية "العمل في الأرض". وسُر منها ماسيناس وجاء معه بفرجيل إلى الجنوب ليقابل أكتافيان، وكان وقتئذ (29ق.م) عائداً من انتصاره على كليوباترة. واسترح القائد المصني في بلدة أتلا Atella الصغيرة، وأخذ يستمع أربعة أيام كاملة لألفي بيت، وهو مأخوذ بجمالها مفتتن بسحرها. هذا إلى أن القصائد تتفق مع سياسته اتفاقاً يفوق كل ما كان يتوقعه ماسيناس. فقد كان يعترم الآن أن يسرح الجز الأكبر من جيوشه الجرارة التي ساد بها العالم، وأن يعمل على أن يستقر جنوده المضرسون في الأرض فيستطيع بذلك أن يهدئ بهم، وأن يطعم المدن الإيطالية، ويحفظ كيان الدولة، كل ذلك بفلح الأرض في الريف. وأصبح فرجيل من ذلك الوقت حراً في أن يفكر في الشعر دون غيره.

في هذه القصائد نرى فناً عظيماً يعالج أشرف الفنون بأجمعها فن زراعة الأرض. وفيها يأخذ فرجيل عن هزيبود Hesiod وأراتس Aratus، وكاتو، وفارو ولكنه يحول نثرهم الخشن أو أبياتهم العرجاء إلى شعر رقيق مصقول؛ وهو يطرق جميع فروع الفلاحة ويفيها حقها فيتحدث عن أنواع التربة ووسائل علاجها، وفصول الزرع والحصاد، ويبحث في غرس أشجار الزيتون والكروم، وتربية الماشية والخيل والضأن، والعناية بالنحل. ويستهو به كل عمل من أعمال الزراعة ويثير اهتمامه ويستحوذ على فكره حتى ليجتاح إلى أن يجد نفسه من الانهماك في الموضوع الذي يتحدث عنه ونسيان ما بعده، فيقول:

"ولكن الوقت يمر مرأً سريعاً، وما مر منه لا يمكن أن يعود أبداً، على حين أننا نحن يسحرنا حب (موضوعنا) فنطيل الوقوف عند كل دقيقة من دقائقه". ولا ينسى فرجيل أن يقول كلمة عن أمراض الحيوانات وطريقة علاجها، ويصف حيوانات المزرعة المعروفة وصفاً يدل على فهمه

صفحة رقم : 3294

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> فرجيل

لطبائعها وعطفه عليها، وهو لا يفرغ أبداً من الإعجاب ببساطة غرائزها وقوة انفعالاتها، وكمال أشكالها. وهو يمجّد الحياة الريفية ويجعلها هي المثل الأعلى للحياة، ولكنه لا ينسى ما فيها من تقلبات الحظوظ، ومن الجهود المضنية، والكفاح الدائم للحشرات، وتناوب الجذب والعواطف، وما تسببه هذه وتلك لأهل الريف من عذاب أليم. ولكن العمل في رايه يقهر كل شيء (12)، كما أن للجهود التي تُبذل في أعمال الزراعة غرضاً ونتيجة تكسيانها كرامة، وليس لأي روماني أن يشعر بالخجل من قيادة المحراث. ومن أقوال فرجيل إن الأخلاق الكريمة تنشأ في المزارع، وإن جميع الفضائل التي قامت على أساسها عظمة رومة قد عُرسَتْ وُعِدَتْ في الريف، وإن الإنسان قلما يجد عملاً من أعمال إلقاء البذور ووقايتها، والغرس والعزق والحصاد إلا له ما يقابله في تنمية الروح وتقويتها، وإن الروح إذا كانت في الحقول، حيث معجزات النماء وتقلبات الجواء تنبئ عن وجود القوى الخفية، لتحس بوجود الحياة المبدعة الخالقة، وتتأثر بالإلهام الإلهي، وتدرك ضالتها أمام عظمة هذه الحياة، وتمتلئ إجلالاً لها وتعظيماً، أسرع من إحساسها وتأثرها وإدراكها لذلك وامتلائها به في المدينة. وهنا ينشد أشهر أبياته كلها، ويبدوها بترديد صدى معاني لكريشوس، ولكنه ينشدّها بنغمة فرجيلية خالصة فيقول:

"ألا ما أسعد الرجل الذي استطاع أن يتعلم علل الأشياء، ويطأ بقدمه جميع الخواف والأقدار القاسية العنيدة وصخب الجحيم الشره. ولكن الرجل الذي يعرف الأرباب الريفية بان، وسلفانوس الهرم، والأخوات الحوريات لا يقل عنه سعادة (13)". وهو يرى أن الزارع على حق حين يسترضي الآلهة بالضحايا، ويستجلب عطفها ورضاها؛ لأن هذه الأعمال الدالة على التقى والصلاح تبعث بأعيادها وحفلاتها الضياء في أعمال الفلاحة الشاقة، وتخلع على الأرض وعلى الحياة معنى، وشاعرية وخيالاً ذاروعة.

صفحة رقم : 3295

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> فرجيل

وكان دريدن يرى أن هذه القصائد "خير أشعار أحسن الشعراء (14)". وهي تشترك مع De Rerum Natura في تلك الميزة النادرة الوجود وهي أنها تلقينية وجميلة معاً. ولم تأخذها رومة بجد على أنها كتاب في الزراعة، ولسنا نعرف أن أحداً ممن قرؤوها قد استبدل المزرعة بالسوق العامة؛ ولعل فرجيل إنما كتب هذه النفحات الريفية كما يظن سنكا ليطرب بها أهل المدن. ومهما يكن من شيء فقد أحس أغسطس أن فرجيل أدى الأمانة التي عرضها عليه ماسناس على خير وجه وأكملها، فاستدعى الشاعر إلى قصره واقترح عليه أن يقوم بواجب أشق من الأول موضوعه أوسع وأعم من الزرع وحياة الريف.

صفحة رقم : 3296

الفصل الثالث

الإلياذة

لقد كانت الفكرة الأولى أن يتغنى فرجيل بمعارك أكتافيان (15)، ولكن ما يفترضه القديمان من انحذار قيصر ربيب أكتافيان من الزهرة (فينوس) وإنياس هو الذي جعل الشاعر -أو لعله جعل الإمبراطور- يفكر في إنشاء ملحمة في تأسيس رومة. ثم تفتح الموضوع أمام الشاعر، فشمّل الأحداث التي وقعت بعد تأسيس رومة، والتنبؤ بإنشاء إمبراطورية أغسطس، وبالسلم التي كانت أثراً من أعماله. وشمّل مشروع الملحمة أيضاً وصف أخلاق الرومان في أثناء هذه الأعمال المجيدة، والسعي لبث حب الفضائل القديمة في قلوب الرومان، وتصوير بطلها في صورة الإنسان الذي يعظم الآلهة، ويهتدي بهديها، ويدعو إلى الإصلاحات والمبادئ الأخلاقية التي دعا إليها أغسطس فيما بعد. فلما رسم فرجيل خطوط الملحمة الرئيسية أوى إلى عدة أماكن نائية منعزلة في إيطاليا، وقضى العشر السنين التالية (19-29) في تأليف الإلياذة. وكان يكتب فيها على مهل مخلصاً في عمله إخلاصاً فلوبير Flaubert، فيملي بضعة أسطر في صدر النهار ثم يعيد كتابتها في الأصل. وكان أغسطس في هذه الأثناء ينتظر إتمام الملحمة بفارغ الصبر، وكثيراً ما كان يسأل عما تم منها، ويلحّ على فرجيل بأن يبعث إليه كل ما يفرغ من كتابته. وظل الشاعر يستمهله أطول وقت مستطاع، ولكنه أخيراً قرأ له الكتب الثانية والرابعة والسادسة منها. ولما سمعت أكتافيا أرملة أنطونيوس الفقرة التي تصف ابنها مرسلس الذي مات من عهد قريب، أغمي عليها (16). ولم تتم الملحمة ولم تراجع المراجعة الأخيرة، لأن فرجيل سافر إلى بلاد

صفحة رقم : 3297

اليونان في عام 19 ق.م والتقى بأغسطس في أثينة، وأصيب بضربة شمس في مجازا، فقفّل راجعاً إلى بلده بعد أن وصل برنديزيوم بزم من قليل، وطلب وهو على فراش الموت إلى أصدقائه أن يتلفوا مخطوط الملحمة قائلًا إنه كان يحتاج إلى ثلاث سنين على الأقل تقديراً لصقلها وإعدادها للنشر، ولكن أغسطس أمرهم ألا ينفذوا هذه الوصية. أما قصة الإلياذة فيعرفها كل تلميذ. وخلصتها أنه بينما كانت مدينة طروادة تحترق يظهر شبح هكتور القتيل إلى "إنياد الصالح" قائد أحلافه الدروانيين، ويأمره أن يستعيد من اليونان ما كان في طروادة من "أشياء مقدسة وآلهة منزلية". وأهمها كلها البلاديوم Palladium أو صورة بلاس أثيني Pallas Athene؛ وكانوا يعتقدون أن بقاء الطرواديين موقوف على الاحتفاظ بها. وفي ذلك يقول هكتور Hector بطلم المعروف: "ابحثوا عن هذه الصورة" الرموز المقدسة "لأنكم بعد أن تطوفوا بالبحار ستقيمون لكم آخر الأمر مدينة عامرة" (17). ويفر إنياس مع أبيه الشيخ

أنكيسيز Anchises وابنه اسكونيوس، فيركبون سفينة تقف بهم في أماكن مختلفة، ولكن أصوات الآلهة تتادبهم على الدوام أن يواصلوا السير. وتدفعهم الريح إلى مكان قريب من قرطاجنة حيث يجدون أميرة فينيقية تُدعى ديدو Dido تشيد مدينة جديدة. (وبينما كان فرجيل يكتب هذا كان أغسطس ينفذ مشروع قيصر وهو إعادة بناء قرطاجنة). ويقع إنياس في حب الأميرة، وتهب عاصفة مواتية فتتيح لهما الفرصة لأن يلجأاً معاً إلى كهف واحد، ويتم بينهما ما تعده ديدو زواجاً، ويقبل إنياس تفسيرها هذا إلى حين، ويشترك هو ورجاله وهم راضون في بناء المدينة، ولكن الآلهة القاسية، التي لا تراها قط في الأساطير القديمة تعني كثيراً بالزواج، وتندره بالسفر وتقول له إن هذه ليست هي البلدة التي يجب عليه أن يتخذها عاصمة له. ويصدع إنياس بما يؤمر، ويترك الملكة الحزينة وهو يودعها بهذه الألفاظ الشبيهة بالغناء:

صفحة رقم : 3298

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> الإلياذة

"لن أنكر قط أيتها الملكة أنك تستحقين مني ما تعجز الألفاظ عن التعبير عنه...إني لم أمسك قط مشعل الزوج ولم أقسم يمين الزواج...ولكن أبلو قد أمرني الآن بركوب البحر...فامتعتي إذن عن أن تهلكي نفسك وتهلكيني بهذه الشيكات. إني لا أسعى إلى إيطاليا بمحض إرادتي" (18).

"لا أسعى إلى إيطاليا بمحض إرادتي"، هذا هو سر القصة ومحورها الذي تدور عليه، ونحن الذين نحكم على فرجيل وبطله بعد ثمانية قرون من كتابة الأدب العاطفي وقراءته، نعلق على الحب الروائي، وعلى العلاقات بين غير الأزواج، وأكثر مما كان يعلقه عليها اليونان الرومان. فقد كان الزواج عند الأقدمين رابطة بين الأسر أكثر مما كان رابطة بين الأجسام والأرواح، وكانت مطلب الدين أو الوطن أسمى من حقوق الأفراد ونزواتهم. ويعطف فرجيل على ديدو ويسمو إلى ذروة البلاغة في فقرة من أجمل فقرات ملحمته حين يتحدث عنها وهي تلقي نفسها فوق كومة من الحطب المعد لحرق الموتى وتحرق نفسها حية؛ ثم يسير في ركاب إنياس إلى إيطاليا.

وينزل القرطاجنيون إلى البر عند كومي ثم يسيرون إلى لاتيوم حيث يستقبلهم ملكها لانتس ويرحب بهم. وكانت ابنته لا فينيا Lavinia مخطوبة لترنس Turnus وهو شاب وسيم وزعيم الروتوليين المجاورين لهذه المدينة؛ ويوقع إنياس الجفوة بينها هي وأبيها وبين خطيبها؛ ويعلن ترنس الحرب عليه وعلى لاتيوم، وتتشب معارك حامية الوطيس. وتعتزم سيبيل الكومائية Cumaeen Sibyl أن تقوي إنياس وتشجعه، فتأخذه إلى تارتاروس بطريق بحيرة إيرنس Aernus. وكما أن فرجيل قد كتب ملحمة عن تجوال إنياس على نمط أوديسية هومروس وأخرى قصيرة عن حروبه شبيهة بالإلياذة، فإنه الآن يستوحي رحلة أوديسيوس في الجحيم، ويصبح هو نفسه مثلاً يحتذى دانتي ويهتدي بهديه في ملهاته المقدسة. وفي هذا يقول فرجيل: "ما أسهل النزول إلى الجحيم Facilis Descensus

صفحة رقم : 3299

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> الإلياذة

Averni " ولكن بطله يجد الطريق إليها وعراً شديد العذاب، كما يجد العالم السفلي معقداً شديداً للاختلاط. وفي هذا العالم يلتقي بديدو، فتشيع بوجهها عما يبته من وجده؛ ويشهد ضروب العذاب التي يعاقب بها من ارتكبوا الذنوب على وجه الأرض، والسجن الذي يُعذب فيه أنصاف الآلهة المتمردون كما يُعذب الشيطان. ثم تأخذه سيبيل إلى أيك السعداء حيث ينعم الصالحون في الأودية الخضراء بالنعيم السرمدى. وهنا يشرح له والده أنكيسيز، الذي توفي في الطريق، أسرار الجنة، والمطهر والجحيم، ويصور له في أوضح صورة وأشملها مجد رومة وأبطالها في مستقبل الأيام. وتكشف له الزهرة في رؤيا أخرى عن موقعة أكتيوم وانتصارات أغسطس، وبعد أن تنتعش روح إنياس بهذه المناظر يعود إلى عالم الأحياء، ويقفل ترنس، وينشر الموت من حوله ببطشه وشدة بأسه. ويتزوج بلفينيا الخيالية، ثم يموت والدها فيرث عرش لاتيوم، ولا يلبث أن يخز صريعاً في إحدى المعارك، وينقل إلى جنان الفردوس، ويشيد ابنه أسكانيوس Ascanius ألبانجا لتكون عاصمة جديدة للقبايل اللاتينية، ومنها يخرج من نسله رمبولس وريموس ليشيدا مدينة رومة.

ويبدو أن من سوء الأدب أن ينتقد الإنسان نفساً كريمة رفيعة كنفس فرجيل لما تغمر به بلدها وإمبراطورها من ثناء وتعظيم، أو أن ينقب الإنسان عن عيوب في ملاحم لعله لم يرغب قط في كتابتها، ولم يعيش ليتمها. ولا حاجة إلى القول بأنه كتبها على نمط الملاحم اليونانية، وتلك هي السنة جرى عليها الأدب الروماني كله إذا استثنينا منه الهجاء والمقالة. غير أننا نستطيع لأنفسنا هذا القدر من النقد، وهو أن مناظر المعارك الحربية ليست إلا أصداء ضعيفة لما في مناقشات الإلياذة من قعقة وضجيج، وأن أورورا Aurora

صفحة رقم : 3300

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> الإلياذة

لتظهر في الإلياذة بقدر ما تظهر به الفجر ذات الأصابع الوردية في إلياذة هومر. ويستعير الشاعر من نيفيوس، وإنيوس، ولكريشيوس حوادث وعبارات، وسطوراً كاملة في بعض الأحيان، كما أن أبولونيوس الرودسي Apollonius of Rhodes هو الذي يمدد بالمثل الذي يحتديه في حب ديدو المفجع، وهذا النموذج هو أرجونوتكا Argonautica. وكانت هذه الاستعارات الأدبية جائزة لا غبار عليها في عصر فرجيل، كما كانت جائزة في عصر شيكسبير، لك أنه كان ينظر إلى آداب البحر الأبيض المتوسط كلها على أنها تراث عقول البحر الأبيض المتوسط كلها، والمعين الذي تستمد منه هذه العقول. ولا جدال في أن ما تقوم عليه الملحمة من أساطير تتعب القارئ وتبعث في نفسه الملل، وذلك لأننا نضع لأنفسنا الآن أساطير أخرى جديدة؛ ولكن الذي لا شك فيه أيضاً أن هذه الإشارات والملحومات الإلهية التي تتخلل القصيدة كانت مألوفة محبوبة حتى لقراء الشعر الروماني المتشككين. ولسنا نجد في ملحمة فرجيل العليل ذات الشعر الهادئ السلس ما نجده في قصة هومر من حوادث دافئة، كما أننا لا نجد فيها الحقائق التي يسري فيها دم الحياة والتي تحرك جبابرة الإلياذة، أو أهل إثاكا Ithaca السذج. يضاف إلى هذا أن قصة فرجيل كثيراً ما تمشي الهويناء، وأن أشخاصه كلهم تقريباً مرضى إلا الذين بهجرهم إنياس أو يقضي عليهم. وديدو الإلياذة امرأة حية لطيفة، خادعة، شديدة الانفعال، وترنس محارب ساذج شريف يغدر به لاتنس، وتحكم عليه الآلهة السخيفة بموت هو غير جدير به. وبعد أن يقرأ الإنسان عشر مقطوعات كلها نواح وندب، تشمئز نفسه من "تقي" إنياس الذي يتركه مسلوب الإرادة. ويُغتفر له عذره، ولا يولتيه النجاح إلا بتدخل القوى السماوية، وفوق هذا كله فإننا لا نستمتع بالخطب الطويلة التي يقتل بها الشاعر الصالحين من الرجال، والتس تكون بلاغتها سبباً آخر من أسباب مللنا، يضاف

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> الإلياذة

إلى هذا ما ندجده فيها من تمحيص هو محك الإنسانية النهائي لمعرفة الحقيقة. وإذا شئنا أن نفهم الإلياذة على حقيقتها ونقدرها التقدير الذي هي جديرة به، كان علينا أن نتذكر في كل قسم من أقسامها أن فرجيل لم يكن يكتب رواية خيالية، بل كان يكتب لرومة كتاباً مقدساً؛ وليس ذلك لأنه يقدم لها شريعة دينية واضحة، فإن الآلهة الذين يسيرون الحوادث في تمثيليته من وراء الستار لا يقلون خبثاً عن لآلهة هومر، وإن لم يكونوا قريبين من البشر الفكهين قرب هؤلاء؛ بل إننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن كل ما في القصة من شر وشفاء ليس منشؤه من فيها من رجال ونساء بل منشؤه الآلهة أنفسهم. وأكبر الظن أن فرجيل لم يكن يرى في أولئك الأرباب إلا أنهم أدوات لشعره، ورموز للظروف الظالمة المستبدة، والحدائث المفاجئة التي تخل بسير العالم المنتظم الرتيب؛ وهو على العموم يتذبذب بين جوف الأرباب وبين القدر اللا شخصي، فهذا يسيطر على الكائنات تارة وذلك يسيطر عليها تارة أخرى. وآلهة القرية والحقل أحب إليه من آلهة أولمبس، فهو لا يترك فرصة تُتاح له إلا مجد الأولى ووصف طقوسها ومراسمها، وتمنى لو استطاع الناس أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من حب الآباء، والوطن والآلهة، وهو الحب الذي كانت تغذيه العقيدة الريفية البدائية: "أسفي على تقوى الأقدمين وإيمانهم!" غير أنه لا يؤمن بالفكرة القديمة عن الجحيم حيث يحشر الموتى جميعاً الصالح منهم والطالح، بل تخالجه أفكار أرفية فيناغورية عن تجسيد الأرواح بعد الموت، وعن الحياة في الدار الآخرة، وهو يوضح إلى أقصى حد يستطيعه فكرة الثواب في الجنة والمطهر، والعقاب في الجحيم.

لكن الدين الحقيقي في الإلياذة هو دين الوطنية، وإلهها الأعظم هو رومة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> الإلياذة

فمصير رومة هو المحرك لحبكة القصة، وكل ما في القصة من محن وشدائد إنما يرجع إلى "الواجب المضني واجب بعث الشعب الروماني Tantae Molis Erat Romanam Condere Gentem". والشاعر فخور بالإمبراطورية فخراً يمنعه أن يحسد اليونان على تفوقهم في الثقافة ويقول في ذلك: فلتحول الشعوب الأخرى الرخام والبرونز إلى شخوص حية ولترسم مسارات النجوم.

"أما أنت يا ابن رومة، فواجبك أن تحكم العالم، وستكون فنونك أن تعلم الناس طرائق السلم، وأن تشفق على الذليل، وتذل الفخور (20)". وفرجيل لا يأسف على موت الجمهورية، وهو يدرك أن حرب الطبقات هي التي قضت عليها ولم يقض عليها قيصر؛ وهو في كل جزء من أجزاء قصيدته يبشر بأن حكم أغسطس سيغيدها سيرتها الأولى، ويرحب به ويصفه بأنه حكم زحل قد عاد إلى الأرض، ويعدده بأنه سيُجزى على عمله بأن يُحشر في زمرة الأرباب. وقصارى القول أن أحداً من الناس لم يوف بما ألقى على كاهله من واجب أدبي بأكمل مما وفى به فرجيل.

يبقى بعد ذلك أن نسأل لم نحفظ بحبنا الشديد لهذه الدعوة للتقى وصالح الأخلاق، وحب الوطن، والنصرة الإمبراطورية؟ إن من أسباب هذا الحب ما نجده في كل صفحة من ورقة روح الشاعر وظرفه، وأنا نشعر بأن عطفه قد امتد من إيطاليا بلاده الجميلة إلى جميع بني الإنسان، بل إلى جميع الكائنات الحية؛ فهو يدرك آلام الطبقات العليا والدنيا، ويعرف أهوال الحرب وما يصاحبها من فحش ورذيلة، ولا ينسى أن أنبل الناس أقصرهم أجلاً، وأن ما في الحياة من أحزان وآلام، وما في "الأشياء من دموع Lacrimae Rurum" تذهب ببهجة الأيام تارة وتزيدها تارة أخرى. وهو حين يكتب عن "العندليب الذي يبكي في ظلال شجرة الحور صغارها الحراث فانترزها من عشها قبل أن يكسوها الريش، فيقضي الليل كله ينتحب، ثم يجثم على فنن ويعيد أغنيته الحزينة،

صفحة رقم : 3303

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> الإلياذة

ويملاً الغاية بها ويعوبله" (21) نقول إنه حين يفصل هذا لا يقلد لكريشوس فحسب. وإن الذي يجذبنا نحو فرجيل مراراً وتكراراً هو ما في حديثه من جمال لا ينقطع أبداً. ولم يكن عبثاً منه أن ينكب على سطر من سطور "فيلعه بلسانه ليسويه ويصقله، كما تلعق الدبة ديسمها" (22). ولن يستطيع أحد غير القارئ الذي حاول الكتابة أن يتصور ما عاناه الشاعر من التعب حتى أكسب قصته ما فيها من نعومة وسلاسة، وزينها بكثير من الفقرات ذات الأنغام القوية الرنانة التي تطالعنا في كل صفتين من الكتاب، وتغري القلم باقتباسها واللسان بالنطق بها. ولعل القصيدة مفرطة في جمالها المتناسق المتماثل، لأن جمال اللفظ نفسه يمل إذا أفرطت فصاخته في الطول. وفي فرجيل سحر نسائي ولكننا لا نطالع فيه قط ما نجده في شعر لكريشوس من رجولة وقوة التفكير، وكما لا نجد فيه تلك الأمواج الصاخبة التي نراها في ذلك "البحر المتلاطم العجاج" المسمى هو مر. ونحن نبدأ نفهم ما يعزى إلى فرجيل من حزن واكتئاب، حين نتصوره يدعو إلى عقائد لم يكن في وسعه قط أن يستعيدها في نفسه، ويقضي عشر سنين في كتابة ملحمة تتطلب كل حادثة من حوادثها، ويتطلب كل سطر من سطورها، ما يحتاج إليه الفن المصطنع من جهود، ثم يموت والأفكار تساوره بأنه عجز عن تحقيق غرضه، وأن خياله لم ينزهه وميض من الإبداع والابتكار، وأنه لم يبعث في أشخاصه نسمة الحياة. ولكن أحداً لا يجادل في أن الشاعر قد انتصر نصراً مؤزراً على أدائه إن لم يكن قد نال هذا النصر نفسه على موضوعه. ولما بلغت الصناعة ذلك الحد الأعلى من الإعجاز الذي بلغته في شعر فرجيل. وبعد عامين من وفاته أخرج منقو وصيته قصيدته إلى العالم، وقام بعضهم يعيها ويسفها: فنشر أحد النقاد ثبناً طويلاً بعبوبها، ونشر غيره ثبناً آخر بما فيها من سرقات، وأصدر ثالث ثمانية مجلدات محتوية على ما بين شعر فرجيل والشعر القديم من شبه (23). ولكن رومة سرعان ما نسيت هذه الشيوعية

صفحة رقم : 3304

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> الإلياذة

الأدبية، فوضع هوراس فرجيل هومر، ونشأت مدارس أدبية بدأت بها قرون تسعة عشر، ظل الناس فيها يحفظون الإنيادة عن ظهر قلب، وظل الناس جميعاً خاصتهم وعامتهم يهتفون باسمه، والصناع، والتجار، يقتبسون من شعره، وشواهد القبور والجدران تنقش عليها عباراته؛ ومتنبئو الهياكل يجيبون السائلين بعبارات غاضبة يقتطعونها من أبيات ملحمة؛ وبدأت من ذلك الوقت تلك العادة التي لم تنقطع إلى عصر النهضة، عادة فتح ملحمة فرجيل فتحاً عشوائياً للبحث عن نصيحة أو نبوءة في أول فقرة تقع عليها عين الفاتح. وانتشر صيته حتى كان يعد في العصور الوسطى من السحرة والقديسين. وكيف لا وهو الذي تنبأ في النشيد الرابع بمجيء المنقذ، ووصف رومة فب الإنيادة بالمدينة المقدسة التي ستخرج منها قوة الدين وتنتشل العالم مما يتخبط فيه؟ ألم بصور الكتاب السادس الرهيب يوم الحشر وعذاب المذنبين، وتطهيرهم في نار المطهر، ونعيم الصالحين في الجنة؟ لقد كان فرجيل أيضاً كما كان أفلاطون ذا روح مسيحية طبيعية رغم ألته الوثنية. وكان دانتي يعجب بعذوبة شعره، ولم يكن يسترشد به في وصف الجحيم والمطهر فحسب، بل كان يسترشد به أيضاً في تدفق فنه القصصي وجمال حديثه؛ وكان ملتن يفكر وهو يكتب الفردوس المفقود وخطب الشياطين والأدميين الطنانة الرنانة؛ وكان فلنير-وهو الذي كنا نتوقع أن يكون أقسى مما كان في الحكم على فرجيل- يصف الإنيادة بأنها أجمل ما خلفه لنا الأقدمون من تراث أدبي(74).

صفحة رقم : 3305

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> هوراس

الفصل الرابع

هوراس

إن من أجمل الصور التي يشهدها الإنسان في عالم الأدب-والتي تبدو فيها الغيرة بين الناس شديدة لا تفوقها إلا غيرة العشاق-هي صورة فرجيل وهو يقدم هوراس إلى ماسيناس. فقد التقى الشاعران في عام 40ق.م، حين كان فرجيل في الثلاثين من عمره وهوراس في الخامسة والعشرين، وفتح فرجيل أبواب ماسيناس بعد عام من ذلك الوقت وبقي الثلاثة بعدئذ أصدقاء أوفياء حتى فارقوا هذا العالم.

واحتفلت إيطاليا في عام 1935 بمرور ألفي عام على مولد كونتس هوراشيوس فلاكس Quintus Horatius Flaccus، وكان مولده في بلدة فنوزيا Venusia الصغيرة من أعمال أبوليا Apulia، وكان والده رقيقاً معتوقاً ارتفعت منزلته حتى أصبح جابياً-أو صياداً كما يقول بعض الناس(23). ومعنى كلمة فلاكس ذو الأذن المدلاة، وأكبر الظن أن هوراشيوس هو اسم السيد الذي كان الوالد في خدمته. وأثرى العبد المعتوق بطريقة ما، وأرسل ابنه إلى رومة ليدرس البلاغة ثم أرسله إلى أثينة ليدرس فيها الفلسفة. وفي هذه المدينة انضم الشاب إلى جيش بروتس وتولى قيادة أحد الفيالق، وقال وقتئذ قائله المأثورة "إن من ألد الأشياء أشرفها أن يموت الإنسان في سبيل بلاده Dulce et Decorum Pro Patria Mori(26). ولكن هوراس-وكان يقلد أركلوكس Archilochus في أغلب الأحيان-القي

بدرعه في إبان المعركة وولى الأدميرال. ولما وضعت الحرب أوزارها ألقى نفسه وقد جرد من جميع أملاكه ومن كل ما ورثه

صفحة رقم : 3306

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> هوراس

عن أبيه، "وودفعتني المسبغة إلى قرص الشعر" (27)، ولكن الحقيقة أنه كان يكسب قوته من منصب كاتب كوستر. وكان قصيراً بدينياً، ومزهاً حبيماً، لا يحب السوق ولكنه لا يجد من الثياب أو المال ما يعينه على الاختلاط بالأسواق التي نالت من التعليم ما ناله هو. وكان يخشى عواقب الزواج فأكتفى على حد قوله بالسراري والعشيقات؛ وهو قول قد يكون حقاً، وقد لا يكون إلا نوعاً من الترخيص الشعري اخترعه للدلالة على نضوجه. وقد كتب عن العاهرات كتابة جمعت بين حذر العلماء وتعقيد الشعراء، وظن أنه جدير بأعظم الثناء لأنه لم يُغو النساء المتزوجات (28). وإذا كان أفقر من أن يقضي على نفسه بالإنهماك في الشهوات الجنسية فقد عمد إلى قراءة الكتيبي وكتابة الأغاني باللغتين اليونانية واللاتينية، وبأصعب أوزان الشعر اليوناني وأكثرها اختلاطاً. وأطلع فرجيل على إحدى هذه القصائد وامتدحها لماسيناس. وسر الأبيقوري الرحيم من حياء هوراس وتلجحه في الحديث، ووجد في سفسطته الفكرية ما يدعوه إلى حبه. وفي عام 37 اصطحب ماسيناس فرجيل وهوراس وغيرهما من الصحاب في سفرة قصيرة مخترقين إيطاليا في قارب قنوي تارة، وعربة ومحمل تارة أخرى، ثم سيراً على الأقدام في بعض الأوقات. وبعد قليل من ذلك الوقت قدم ماسيناس الشاعر لأكتافيان، واقترح عليه أن يعينه أمين سره فاعتذر الشاعر قائلاً إنه لا يجد من نفسه ميلاً إلى العمل. وفي عام 34 أهدى إليه ماسيناس بيتاً وضيفة تدر عليه بعض المال في الوادي السابيني ببستيكا Ustica على بعد خمسة وأربعين ميلاً من رومة. وبذلك أصبح في استطاعة هوراس أن يعيش في المدينة أو في الريف كما يشاء، وأن يكتب كما يأمل المؤلفون

صفحة رقم : 3307

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> هوراس

أن يكتبوا في الوقت الذي تحلو لهم فيه الكتابة، وبالعباية والجهد اللذين يحلو لهم أن يبذلوهما في كتابتهم. وأقام بعض الوقت في رومة يتمتع نفسه بحياة من يتسلى بمشاهدة العالم المسرع المندفع. وكان يختلط بجميع طبقات الناس، ويدرس جميع الأصناف التي تتكون منها رومة، ويفكر في حماقات العاصمة ورذائلها وهو مسرور سرور الطبيب إذا كشف علة المريض. وقد وصف بعض تلك الأصناف في كتابين من كتب هجوه (34، 30ق.م)، هذا فيهما أولاً حدو لوسليوس Lucilius، ثم خفف فيما بعد من حدته وأصبح أكثر مما كان متسامحاً. وكان يطلق على هذه

القصاصد اسم المواعظ Sermones وإن لم تكن مواعظ في أية صورة، بل كانت أحاديث خالية من التكلف والصناعة؛ وكانت أحياناً محاورات ودية خاصة في أشعار سداسية الوزن تكاد لغتها أن تكون هي اللغة العامية. وقد اعترف هو نفسه بأنها نثر في كل شيء عدا الوزن، "لأنك لا تستطيع أن تطلق اسم الشاعر على رجل يكتب كما أكتب أنا أحياناً أقرب ما تكون إلى الكلام المنثور". ونحن نلتقي في هذه الأشعار الإذعة بالأحياء من رجال رومة ونسائها، ونستمع إليهم يتحدثون كما يتحدث الرومان: فلننا نجد فيها رعاة فرجيل وزرّاعه وأبطاله، ولا فساق أوفد الخرافيين وبطلاته، بل نشاهد العبد الوقح البذئ، والشاعر المزهو بنفسه، والمحاضر ذا الألفاظ الطنانة، والفيلسوف الشره، والنثرثار الممل، والساميّ الحريص على المال، ورجل الأعمال، والحاكم، ورجل الشارع العادي، غنشعر أنا نشهد آخر الأمر رومة الحقّة. فهذا هو ذا هوراس يضع في قصائده لمن يشاء

صفحة رقم : 3308

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> هوراس

أن ينقب عن آثار الأقدمين القواعد التي يجب أن يسير عليها من يريد النجاح في هذه الحلبة التي تصطرح فيها الغيلان من الناس، ويضعها في صورة مرحة ولكنها مهلكة قاتلة(29). وهو يسخر من النهمين الذين يملنون بطونهم بشهي الطعام، ولكنهم لا يستطيعون المشي على أرجلهم لأنهم مصابون بالرتثية(30)، ويذكر من "يمتدح الأيام الماضية" بأنه إذا جاءه إله ليعبده إلى تلك الأيام أبي وتمنع(31)، ويقول إن أحسن ما في الماضي هو علم الإنسان أنه لن يضطر إلى أن يحيا مرة أخرى. وهو يعجب كما يعجب لكريشوس من ذوي الأرواح القلقة الذين إذا كانوا في المدن تاقوا إلى سكنى الريف، فإذا سكنوا الريف تاقوا إلى المدن، والذين لا يستطيعون أن يستمتعوا بما عندهم، لأن من الناس من عنده أكثر منهم؛ والذين لا يقنعون بزوجاتهم ويهيمون بخيالهم المفرط في العظمة وفي الحقارة معاً بجمال غيرهن من النساء اللاتي أصبحن في نظر غيرهم من الرجال ولا جمال لهن. ويختتم نصائحه بقوله إن جنون المال هو مرض رومة القتال، ويسأل من يقضي أيامه في جمع الذهب: "لم تسخر من تنتلس لأن الماء يبتعد عن شفتيه الضامنتين على الدوام؟ ليس عليك إلا أن تبدل الأسماء فتتطبق القصة عليك أنت(32)" ثم يهجو نفسه أيضاً؛ فهو يصور عبده يقول له في وجهه إنه، وهو الداعي إلى أحسن الخلق، رجل أحرق حاد الطبع لا يعرف قط ما يدور في عقله أو ما يهدف إليه، وأنه عبد شهواته ككل إنسان آخر. وما من شك في أنه يوصي نفسه، كما يوصي غيره، بسلوك الطريقة الوسطى الذهبية إذ يقول: "إن للأشياء حداً ومقياساً(34)" لا يقصر الرجل الذكي عنه ولا يتجاوزه. وهو في بداية كتاب الهجاء الثاني يشكو إلى صديق له أن المجموعة الأولى قد انتقدت أشد النقد، فقيل فقيل إنها مفرطة في الخشونة وفي الضعف، ثم يستصح الصديق فيقول له: "استرح" فيعترض عليه الشاعر بقوله: "ماذا؟ ألا أكتب الشعر قط؟" فيجيبه "نعم" فيقول "ولكني لن أستطيع النوم(35)".

صفحة رقم : 3309

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> هوراس

وكان خيراً له أن يعمل بهذه النصيحة إلى حين. وكان كتابه الثاني المسمى (ردود الغناء) (Epodes 29 ق.م) أقل كتبه شأنًا. فأشعاره خشنة مؤذية للسمع خالية من الشهامة، بعيدة عن الذوق، بذينة في الأمور الجنسية، كل ما يستطيع الإنسان أن يقوله في وصفها إنها تجربة في الأوزان الشعرية ذات المقاطع المتعاقبة منبورة، وهي المقاطع التي سار عليها أركلوكس Archilodhus. ولعل أشمزازة من "دخان رومة ومالها وضجيجها" (36) قد زاد حتى أمر نفسه؛ ولعله لم يطق صبراً على الضغط "السوقة الجهال ذوي التكبير الخبيث". وهو يصور نفسه متدفقاً ومدفوعاً بين أراذل العاصمة، وينادي قائلاً: "أيها البيت الريفي! متى أراك؟ متى أستطيع وأنا بين كتب الأقدمين تارة، وأستمتع بالنوم والفراغ تارة أخرى، أن أجزع النسيان الحلو لمتاعب الحياة؟ متى يقدم لي صحاف الفول إخوان فيثاغورس نفسه، ومعها الخضر المخلوطة باللحم السمين؟ آه، أيتها الليالي والملائم القدسية!" (37) ثم قصرت فترات إقامته في رومة؛ وصار يقضي كثيراً من وقته في بيته السبيني الريفي حتى شكا أصدقائه ماسيناس نفسه بأنه "اقتطعها من حياته". ولكن الحقيقة أنه بعد أن عانى حر المدينة وعثرها وجد في الهواء النقي والعمل النيب الهادي، والعمال السذج في ضيعته، بهجة تطهره من أدران المدن. هذا إلى أنه كان وقتئذ ضعيف الجسم، وأنه كان يعيش على الأكثر، كما يعيش أغسطس، على الخضر وحدها. وفي ذلك يقول: إن فيما أمثلكه من مجرى الماء النقي وأدنة قليلة من الأشجار، ووثوقي من أني سأجني محصولاً من الحب، إن في هذا لسعادة دونها سعادة سيد أفريقية الخصبة ونعيمها البراق" (39). وإن حب الريف ليجد في غيره من شعراء عهد أغسطس من يعبر عنه تعبيراً حماسياً نادر الوجود في أدب اليونان.

ما أسعد من يعيش بعيداً عن قلق الأعمال ومتاعبها.

كما كانت تعيش أقدم شعوب العالم.

صفحة رقم : 3310

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> هوراس

يفلح بثيرانه الأرض التي ورثها عن أبيه.

وليس عليه دين...

ما أحلى النوم تحت شجرة السنديان القديمة.

والنهر يجري بين جسريه العالين.

وطيور الأيك تغرد.

والماء يتدفق من العيون.

يدعو الإنسان للنوم الهنيئ! (40).

وجدسيرنا أن نضيف إلى هذا أن الذي ينطق بهذه الأبيات مراب من أهل المدن، ينطقه بها هوراس في سخرية يمتاز بها عن كثيرين من الشعراء، وأن هذا المرابي بعد أن ينطق بها لا يلبث أ، ينساها ويفقد نفسه بين أكوام نقوده. وأكبر الظن أن هذا المرابض الهادئة هي التي كان يكدها فيها "كدح السعداء المجدين" في تأليف هذه الأغاني التي يعلم أن ذبوع اسمه أزو خمول ذكره موقوف عليها. لقد مل الأشعار السداسية الوزن ولم يعد يطربه انسجام أوزانها المقيسة المحددة، أو التي تُقطع من آخر البيت لضرورة الشعر كأنها جُرّت بمقصلة. وكان قد استمع في شبابه بالأوزان الدقيقة المرحلة التي رآها في شعر سافو Sappho والكيوس Alckeus، وأركلوكس Archilochus، وأنكربون Anacreon، فأراد الآن أن ينقل هذه الأوزان "السابفية" والألكية، والتفاعل المركبة من مقطعين ومن أحد عشر مقطعا، إلى صورة الشعر الغنائي الروماني، وأن يعبر عن آرائه في الحب والخمر، والدين، والدولة، والحياة والموت في مقطوعات جديدة منعشة للنفس جامعة رصينة التركيب، قابلة للتلحين،

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> هوراس

معقدة تعقيداً يتطلب حلها الجهد الكثير. ولم يكن يكتب هذه الأشعار لذوي العقول الساذجة التي تريد أن تمر بها مرأً سريعاً دون أن تبذل في إدراكها أي مجهود؛ والحق أنه قد حذر أمثال هؤلاء من مستهل المجموعة الثالثة من الإقدام على قراءتها فقال:

"إني أبغض السوقة النجسين وأتجنبهم. صه! أنا، كان ربات الشعر، أغني للعذارى والشباب أغاني لم يسمعها أحد من قبل".

ولو أن العذارى قد عنين بشق طريقهن وسط أقوال هوراس ورغباته المقلوبة لارتعن وسررن مما في أغانيه من أبيقورية مهذبة مصقولة. فالشاعر يصور مسرات الصداقة، والطعام والشراب، والمغازلة، وإن المرء ليصعب عليه أن يستدل من هذه الترانيم على أن كاتبها رجل زاهد لا يأكل إلا قليلاً ولا يشرب إلا أقل. ثم يسأل الشاعر نفسه (قبل أن يسألها قارئ هذه الصفحات): "لم نشغل أنفسنا بالسياسة الرومانية والحروب في الأقاليم النائية؟ ولم نعني هذه العناية كلها بتدبير أمور المستقبل الذي يسخر من تدبيرنا. إن الشباب والجمال يمساننا مساً ويمران بنا مرأً سريعاً فلنستمتع بهما الآن،" مضطجعين إلى شجرة الصنوبر، وغداً نرنا الشمطاء متوجة بالأزهار ومعطرة بالناردين السوري(42). وبينما نحن نتحدث هذا الحديث يمر الوقت الحسود وينقضي، فلنغتم الفرص "ولنختطف الأيام (Carpe Diem 43)". ويتلو الشاعر أسماء طائفة من النساء الخليعات اللاتي يقول إنه أحبهن: لالاج، جلسيرا، تئيرا، إيانشا، رستار، كنديا، ليسبي، بيرها، ليديا، تندرأس، كلو، فيلس، مرتال. ولا حاجة بنا أن نصدق كل ما يدعيه من ذنوب يقول إنه ارتكبها، فقد كانت هذه الأقوال وقتنذ دعاوى أدبية يكاد يفرضها شعراء تلك الأيام على أنفسهم فرضاً؛ وشاعد ذلك أنا نجد أولئك السيدات أنفسهن في خدمة

صفحة رقم : 3312

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> هوراس

أقلام غير قلمه قبل ذلك الوقت. ولم يكن أغسطس الذي تاب وقتنذ وأناب لينخدع بهذه الضلالات الشعرية، فقد كان يسره أن يجد بينها تعظيماً لحكمه وثناء عليه، وعلى انتصاراته، وأعوانه، وإصلاحاته الأخلاقية، وعلى السلم التي بسط لواءها في أيامه. وقد ألف هوراس أغنيته المشهورة في الشراب (Nunc etsy Bibendum 44) حين جاءته الأنباء بأن كليوبطرة قضت نحبها، وأن أغسطس استولى على مصر، فقد كان لهذا النبأ وقع عظيم حتى في نفس هذا الشاعر السوفسطائي الذسر من انتصار الإمبراطورية واتساع رقعتها إلى حد لم تبلغه قط من قبل. وهو يحذر قراءه من الاعتقاد بأن القوانين الجديدة يمكن أن تحل محل الأخلاق القديمة، ويأسف لانتشار الترف والزنى، والخلاعة، والعقائد المنحطة الفاسدة، ويقول مشيراً إلى الحرب الأخيرة: "وا أسفا على ما أصابنا من جروح وما ارتكبنا من جرائم، وعلى من مضوا من إخوتنا صرعى في الميدان! وهل ثمة شيء قد اشمازت منه نفوسنا نحن أبناء هذا الجيل؟ وأي ظلم لم نرتكبه؟" (45) ويقول إن رومة لن تتجو إلا بالرجوع إلى الأساليب البسيطة وإلى الثبات الذي كان شعار الأيام الخالية. وهكذا نرى الشاعر المتشكك الذي كان من الصعب عليه أن يؤمن بأي شيء يحني رأسه الأثيب أمام النصب القديمة، ويقر أن الناس يهلكون إذا لم تكن لهم أساطير يؤمنون بها، ويسخر قلمه لخدمة الآلهة المرضى الضعاف.

وبعد فليس في أدب العالم ما يشبه هذه القصائد تمام الشبه فهي رقيقة وقوية؛ وفيها تأنق ورجولة، وحنق وتعقيد، تخفي ما فيها من فن للفن البالغ درجة الكمال، وتخفي ما استلزمته من جهد بما يبدو عليها من يسر وسلاسة. فهي موسيقى من طراز غير طراز فرجيل، ذلك أن موسيقاها أقل من موسيقى فرجيل عذوبة في النغم وأكثر منها تعقلاً،

وهي لم تكتب للشبان والعدارى بل كتبت للفنانين والفلاسفة. وليس في القصائد كلها شيء من الانفعال أو التحمس، أو "اللفظ المنمق"؛ بل الألفاظ كلها سهلة حتى في الجمل المقلوبة

صفحة رقم : 3313

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> هوراس

التي يجب أن يكون أولها آخرها. ولكن في الأغاني الكبرى كبرياءً وجلالاً في التفكير، حتى ليخيل إليك وأنت تستمع إليها أن إمبراطوراً هو الذي يتحدث وأنه لا يتحدث بألفاظ من حروف بل من برونز:

لقد أقمت نصباً أبقى على الزمان من البرونز،

وأعل من قمة الأهرام الملكية؛

لا تستطيع العواصف الهوج أن تحطمه.

ولا ريح الشمال الضعيفة، ولا كر السنين

التي لاعداد لها، ولا مر الزمان السريع.

إني لن أموت الميتة الكبرى.

وأغفلت الجماهير التي هجاها هوراس أغانيه، وشهر بها النقاد ووصفوها بأنها مملّة متكلفة، وندد المتمزتون بما فيها من أغاني الحب؛ أما أغسطس فوصف القصائد بأنها قصائد خالدة، وطلب إلى الشاعر أن يتبعها بمجموعة رابعة تصف أعمال دروسس وتيبيريوس في ألمانيا؛ واختار هوراس لكتابة الأناشيد "القرنية" يصف فيها المباريات القرنية. وأجاب الشاعر إلى ما طلب ولكنه لم يجد من نفسه الإلهام الذي يمكنه من تنفيذ هذه الرغبة؛ ذلك بأن الأغاني قد استنفدت كل جهوده، ولهذا رجع في كتابه الأخير إلى الشعر السداسي الأوتاد الذي كتب به كتبه في الهجاء، والذي هو أليق الأوزان بالحديث، فكتب به رسائله، وهي أشبه بحديث ينطق به صاحبه من مقعد مريح. وكان هوراس يريد على الدوام أن يكون فيلسوفاً، وقد غلبت عليه هذه النزعة في تلك الرسائل، فاسترسل في الحكم حتى في أثناء ثرثته. وإذا كان الفيلسوف شاعراً مبدعاً وفتياً محتضراً، فقد كان هوراس وهو شيخ في الرابعة والخمسين من عمره قد نضجت سنه للبحث في طبيعة الله، والإنسان، والأخلاق، والأدب، والفن.

صفحة رقم : 3314

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> هوراس

وكتبت أشهر رسالة من هذه الرسائل كلها وهي المعروفة لدى النقاد باسم "فن الشعر" إلى أدبيزونس Ad Pisones - وهم أفراد غير معروفين معرفة أكيدة من عشيرة بيزو Piso. ولم تكن هذه رسالة بالمعنى الحقيقي للرسائل، بل كانت نصيحة قصيرة من صديق إلى صديق يبين له فيها طريقة الكتابة، ويقول له فيها: عليك أن تختار موضوعاً يتفق مع مواهبك، واحذر أن ينطبق عليك المثل القائل تمخض الجبل فولد فأرة؛ والكاتب المثالي هو الذي يعلم ويسلّي في وقت واحد، "ومن يمزج النافع بالسار يكسب جميع الأصوات(48)". وتجنب الألفاظ الجديدة، والعنيفة المهملة، والمسرفة في الطول. وأوجز بالقدر الذي يجيزه وضوح معانيك، وامض مسرعاً إلى لباب الموضوع. وإذا كتبت الشعر فلا تظن أن العاطفة هي كل شيء، نعم إنك إذا شئت أن يحس قارئك بعاطفة ما فلا بدّ لك أن تحس بها(49)، ولكن الفن غير الشعور، إنه الصورة التي يعبر بها عنه (وهنا أيضاً يتحدى الأسلوب الإتياعي الإبداعي)، ولكي تصل إلى حسن الصيغة، عليك أن تواصل دراسة آداب اليونان ليلاً ونهاراً؛ وليكن ما تمحوه من كتابتك قد ما تثبته أو قريباً منه. "واعرض ما تكتبه على ناقد قدير وحاذر من أصدقائك، فإذا اجتازت

صفحة رقم : 3315

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> هوراس

كتاباتك هذه المراحل كلها، فأخفها ثماني سنين؛ فإذا لم تجد بعدنذ إنك قد أفدت من نسيانها فانشرها، ولكن اذكر على الدوام أنها لن يعيده إلى الزمن وحده. وإذا كتبت مسرحيات فلتجعل الأعمال لا الأقوال هي التي نقص القصة، وتصور الأشخاص. ولا تمثل الرعب على المسرح، وإلزام وحدة الأعمال والزمان والمكان، واجعل القصة قصة واحدة، تقع

حوادثها في زمن قصير وفي مكان واحد. وادرس الحياة والفلسفة، لأن الأسلوب مهما بلغ لا قيمة له من غير الملاحظة والفهم. كن جريئاً في المعرفة". وعمل هوراس نفسه بكل هذه القواعد إلا قاعدة واحدة فهو لم يتعلم البكاء؛ ذلك أنه لم يكن قوي الشعور، أو أن شعوره قد اختنق فصمت، ولذلك لم يسم قط إلى ذلك الفن الأعلى الذي يجسم الإخلاص في العطف أو "العواطف التي يذكرها أصحابها بهدوء". يضاف إلى هذا أنه كان مسرفاً في تمجيد المدن. ولقد كان قوله: "Nil admirari لا تعجب بشيء قط(50)" نصيحة غير قويمة، لأن الشاعر الحق يجب أن يعجب بكل شيء حتى لو كان كشروق الشمس أو منظر الشجر يحببه كل يوم. وكان هوراس يلاحظ الحياة ويراقبها، ولكنه لم يتعمق في هذه المراقبة، وقد درس الفلسفة واحتفظ على الدوام "باعتدال عقله" ولذلك لم يسم شيء من أغانيه فوق المرتبة الوسطى(52). وكان يعظم الفضيلة تعظيم الرواقين، ويحترم اللذة احتراماً لأبيقوريين، فيسأل نفسه "أي الناس هو الحر إذن؟" ثم يجيب كما يجيب زينون: "هو الرجل الحكيم، سيد نفسه، الذي لا يهرب الفقر ولا الموت ولا الأغلال، والذي يتحدى شهواته ويزدري بالمطامع والذي هو كل في نفسه(53)". ومن أنبل قصائده قصيدة تُضرب على نغمة رواقية وتقول:

"إذا كان الرجل عادلاً حازماً فقد تتصدع الدنيا كلها من حوله وتتساقط فوق رأسه، وتجده تحت حطامها غير هباب ولا وجل(54)". ولكن هوراس رغم هذا كله يلقب نفسه بأمانة جذابة: "خنزيراً من حظيرة أبيقور(55)".

صفحة رقم : 3316

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> هوراس

وهو كأبيقور يقدر الصداقة فوق الحب، وكفرجيل يمتدح إصلاحات أغسطس، ويعيش في حياته كلها عزباً". وقد بذل كل ما في وسعه داعياً إلى الدين ولكنه كان لا دين له، وكان يشعر أن الموت يقضي على كل شيء(56). وقد أظلمت أفكاره أيامه الأخيرة - أو تي حظه من الأسقام، فكان ممعوداً مصاباً بالنقرس وبغيره من الأمراض. ومن أقواله في رثاء حاله: "إن السنين وهي تمر تسلبنا كل مسراتنا واحدة بعد واحدة(57)". ويقول لصديق آخر:

"واحسرتاه يا بيسيوس إن السنين تمر بنا سراة؛ لن تستطيع تقوانا أن تمنع عنا غضون أجسامنا، أو تقدم أعمارنا، أو الموت الذي لا يقهر(58)". وقد ذكر في قصيدته الهجائية الأولى كيف كان يأمل إذا حانت منيته أن يفارق الحياة الدنيا راضياً "كالضيف الذي نال من الوليمة كفايته(59)". وها هو ذا الآن يقول لنفسه: "لقد لعبت ما شئت أن تلعب، وأكلت ما شئت أن تأكل، وشربت ما شئت أن تشرب، وقد أن أن ترحل(60)". وقد انقضت خمس عشر سنة مذ قال لما سينا إن له لن يطول أجله كثيراً بعد رجل المال(61). وقد مات ماسيناس في عام 18 ق.م وتبعه هوراس بعد بضعة أشهر، وأوصى بأملكه إلى الإمبراطور ودفن بجوار قبر ماسيناس.

صفحة رقم : 3317

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ليفي

ليفي

لم يظفر النثر في عهد أغسطس بمثل ما ظفر به الشعر من مؤلفات عظيمة قيمة، فقد اضمحلت الخطابة بانتقال التشريع والقرارات، في الواقع إن لم يكن في الشكل، من مجلس الشيوخ والجمعيات إلى حجرات الزعيم السرية. وظل العلم يجري في مجراه الهادئ تحميه من العواصف والأحداث ومصالحه الخيالية، ولم ينتج العصر كله أية أدبية خالدة إلا في التاريخ. وكان صاحب هذه الآية الخالدة تيتس ليفيوس Titus Livius. ولد تيتس في بتفيوم Patavium (بدوا Padua) في عام 59 ق.م. ثم وفد إلى العاصمة، وأكب على دراسة البلاغة والفلسفة، وخص السنين الأربعين الأخيرة من حياته بكتابة تاريخ لرومة (23 ق.م-17 م). وذلك كل ما نعرفه عن هذا المؤرخ "فمؤرخ رومة لا تاريخ له" (63). وكان موطنه الأصلي، كموطن فرجيل، وهو إقليم البو، وقد احتفظ على الدوام بفضائل الأقدمين وبساطتهم وتقواهم، ثم نشأ فيه احترام قوي للمدينة الخالدة لعل سببه ما كان يصله عنها من أنباء وهو بعيد عنها. وقد وضع خطة كتابه على أساس واسع عظيم، وقدر له أن يتمه وإن لم يصل من "كتبه" البالغة مائة واثنين وأربعين كتاباً إلا خمسة وثلاثون. وإذ كانت هذه الكتب الباقية تحتويها ستة مجلدات فإن في وسعنا أن نقدر ضخامة هذا المؤلف. ويلوح أن الكتاب قد ظهر أجزاء متتابعة لكل منها عنوان خاص، ويجمعها كلها عنوان واحد هو "من أسس المدينة Ab urbe condita". وكان في وسع أغسطس أن يتغاضى عن ميوله الجمهورية وأبطاله الجمهوريين لأن روح الكتاب الدينية والأخلاقية والوطنية كانت تتفق كل الاتفاق مع خطط

صفحة رقم : 3318

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ليفي

الإمبراطورية السياسية. ومن أجل ذلك اتخذ ليفي صديقاً له وشجعاً لي يجعل منه فرجلاً نائراً يبدأ عمله من حيث تركه الشاعر. وقد فكر ليفي في يوم من الأيام وهو في وسط مرحلته الطويلة التي بدأت في عام 753 ق.م أن ينقطع عن العمل بحجة أنه نال ما يبتغيه من الشهرة الخالدة؛ ثم واصل العمل لأنه على حد قوله وجد نفسه قلقاً حائراً حين امتنع عن الكتابة.

وكان المؤرخون الرومان يرون أن الشعر ولد هجين من أبوين هما البلاغة والفلسفة! وإذا كان لنا أن نصدقهم فإنهم كانوا يؤرخون ليوضحوا المبادئ الأخلاقية بالقصص البليغة، أي أن يجلو المغزى الخلقى بقصة. وقد نشئ ليفي ليكون ممثلاً، ولكنه حين وجد الخطابة خطرة معرضة للنقد، "اتجه نحو التاريخ" كما يقول تين Taine "الذي يظل كما كان خطيباً" (65). وبدأ كتابه بمقدمة جافة ندد فيها بما كان شائعاً في عصره من فساد وترف وخنوثة؛ وقال إنه دفن نفسه في الماضي لكي ينسى مساوئ الحاضر، "الذي لا نطيق ما ابتلانا من أمراض كما لا نطيق لها علاجاً"، ثم يقول إنه سيتخذ التاريخ سبيلاً لتصوير الفضائل التي رفعت من شأن رومة. وكانت سبباً في عظمتها، وهي اتحاد الأسرة وقداستها، وتقوى الأبناء، والعلاقة المقدسة بين الناس والآلهة في كل خطوة من الخطوات، وقدسية ما يقطعه الناس

من عهود وضبط النفس والوقار إلى أقصى حد. ويقول إنه سيجعل رومة الرواقية هذه أمة نبيلة كريمة الأخلاق إلى حد يرى الناس معه أن فتح بلاد البحر الأبيض المتوسط كان من الأعمال التي تحتمها من الأخلاق الكريمة، أو أنها أمر إلهي وشريعة مقدسة نزلت على ما في الشرق من فوضى وما في الغرب من همجية، وسيجعل ما نالته رومة من ظفر نتيجة لما تحلي لها به أهلها من كريم الخلق، كما عزاه بولبيوس إلى نظام حكومتها الصالح الرشيد. وأكبر ما في الكتاب من عيوب إنما يرجع إلى هذه النزعة الأخلاقية،

صفحة رقم : 3319

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ليفي

ففي على أن مؤلفه رجل يخضع لحكم العقل. وكان احترامه للدين احتراماً مسرفاً إلى حد يكاد يحمله على الأيمان بكل خرافة، ويملاً صحف كتابه بالفال والطيرة والتنبؤ بالغيب حتى لنشعر ونحن نقرأها أن الذين يدبرون الحوادث ويقومون بالأعمال هم الآلهة كما نشهد ذلك في أشعار فرجيل. ولسنا ننكر أنه يعبر عن شكه أنه يعبر عن شكه فيما يروي من أساطير تاريخ رومة الأول، وبيتسم حين يذكر من الروايات أقلها احتمالاً لأسأ ، ولكنه حين يواصل الكتابة لا يفرق بين الأساطير والتاريخ الحقيقي، ويسير وراء أسلافه بلا تميز كبير بين الباطل من أقوالهم والصحيح، ويقبل الأقيصيص والروايات الخيالية التي اخترعها المؤرخون الأولون ليمجدوا بها أسلافهم(66). ولما يعنى بالرجوع إلى المصادر الأصلية أو الآثار، ولا يشغل نفسه قط بزيارة الأماكن التي وقعت فيها أهم الحوادث. وتراه أحياناً يعمد إلى شرح صحائف كاملة من بولبيوس(67). ويلجأ إلى طريقة القساوة القديمة طريقة الحوليات، فيقص الحوادث التي وقعت في عهد كل فنصل من القناصل، ولهذا فإنك إذا ضربت صفحاً عما فيه من بحوث أخلاقية لن تجد فيه أثراً للتعليل الصحيح وربط النتائج بأسبابها، بل كل ما تجده سلسلة متتابعة من الأحداث الرائعة. وهو لا يفرق بين الآباء الأجلاف الأولين الذين عاشوا في عهد الجمهورية المبكر وبين أشراف عصره، أو بين السوقة الأشداء الذين أنشئوا الديمقراطية الرومانية والغوغاء الأذنياء الذين قرضوا أركانها، وهو يتحيز للأشراف على الدوام. ولقد كان السر الحقيقي في عظمة ليفي هو العزة الوطنية التي تجعل رومة في نظرة محقة على الدوام. وهذا السر هو الذي حباه بالسعادة الدائمة في أثناء كدحه الطويل، ولهذا السبب فإننا قلما نجد كاتباً نفذ خطة واسعة كخطته بمثل ما نفذها هو في أمانة أشعرت قراءة الأقدمين ولا تزال تشعرنا نحن بعظمة رومة وبما قدر لها في عالم الغيب من مصير. ولقد كان هذا الشعور

صفحة رقم : 3320

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ليفي

بعظمة رومة هو مصدر ما في أسلوب ليفي من نشاط، وما في أشخاصه من قدرة، وما في وصفه من بهجة وقوة، وما في نثره من انسجام رائع جليل. وإن الخطب التي اخترعها من عنده وبثها في تاريخه لتعد آيات في الخطابة أصبحت من بعده نماذج تُحتذى في المدارس، وإن القارئ ليسحر ليه ما يتخلل الكتاب كله من أخلاق كريمة؛ فليفى لا يعتمد إلى الصخب والضجيج، ولا يقسو في أحكامه على الناس، وعطفه على الدوام أوسع من علمه وأعمق من فكره. وهذا العطف يفارقه حين يروي قصة هنيبال، ولكننا لا يسعنا أن نغفر ذلك له، وهو إلى هذا يكفر عن هذا الذنب بتتابع حوادث القصة وروعتها التي تصل إلى ذروتها حين يصف الحرب البوننية الثانية. ولم يكن قراؤه يهتمون بما في كتابه من أخطاء، ومن نقص في الدقة، ومن تحيز، وكانوا يحبون أسلوبه وقصصه، ويبتهجون بالصورة الواضحة التي صور بها ماضيهم. وكانوا يعدون كتابه "من أسس المدينة" ولحمة منثورة من أنبل ما خلفه عصر أغسطس، والنزعة التي سادت ذلك العصر. ولقد ظل كتاب ليفي يلون أفكار الناس عن تاريخ رومة وأخلاق أهلها ثمانية عشر قرناً كاملة تبدأ من أيامه. وحتى الذين كانوا يقرعون كتابه من أهل البلاد الخاضعة لسلطان الرومان قد تأثروا بهذا السجل الضخم للفتوح التي لم يكن لها نظير من قبل، وبالأعمال الضخمة الجبارة التي قام بها رجالها. ويقص بلني الأصغر قصة أسباني تأثر بكتاب ليفي تأثراً حمله على أن يسافر من قادس Cadiz إلى رومة لعله يلقاه فيها. فلما حقق رغبته وصلى لربه، ونسي كل ما عدا ذلك من الحقوق، وعاد راضياً إلى موطنه عند المحيط الأطلنطي(68).

صفحة رقم : 3321

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ثورة العاشقين

الفصل السادس

ثورة العاشقين

وظل الشعر في هذه الأثناء ينتشر وتعلو مكانته، ولكن على غير ما كان يشتهي أغسطس. ذلك أن الفنانين العظماء، أمثال فرجيل وهوراس، وهم وحدهم الذين يستطيعون قرض الشعر الجيد في الموضوعات التي تطلبها الحكومة؛ فأما من كانوا أعلى من هذين الشعارين قدرأ فإنهم لا ينصاعون إلى هذه المطالب، وأما من كانوا أقل منهما شأنأ فإنهم لا يستطيعون إجابتها. وقد خضع مصدران من مصادر الشعر الكبرى- الدين، الطبيعة، والحب- إلى سلطان الإمبراطورية، أما المصدر الثالث فقد ظل خارجاً على سلطانها غير خاضع لأي قانون حتى في أغاني هوراس. ثم فر الشعر فراراً بطيئاً على يد تيبلس Tibullus وبروبرتيوس Propertius، وثار ثورة سارت في طريق يحفه المرح المتراد إلى خاتمة مفاجئة.

وتفصيل ذلك أن ألبوس تيبلس (54- 19) خسر الأرض التي ورثها عن أبائه كما خسر فرجيل أرضه حين وصلت نيران الحرب الأهلية بلدة بوم Pedum- قرب تيبور Tibur- مسقط رأسه. وأنقذه مسالاً من الفقر وأخذ مع حاشيته إلى بلاد الشرق، ولكن تيبلس مرض في الطريق وعاد إلى رومة مغتبطاً بنجاحه من الخرب ومن السياسة، فقد أمكنه ذلك من أن يصرف جهوده كلها في التغني بعشق الفتيات والفتيان، ونظم المراثي المصقولة على نمط يوناني

الإسكندرية. وكتب الابتهاال المألوف إلى دليا Dilia (وهو اسم لا نعرف عنه أكثر من هذا ولعله لم يقصد به فتاة بعينها بل كان يسمى به الكثيرات من عشيقاته) التي تجلس أمام بابها كالحارسة العنيدة(69)، يُذكرها كما ذكرت كثيرات من الغانيات قبلها أن الشباب

صفحة رقم : 3322

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ثورة العاشقين

لا يجيء إلا مرة ثم ينقضي مسرعاً خفية؛ ولم يقلق باله أن دليا متزوجة، فقد أنام زوجها بأن قدم له نبيذاً مركزاً، ولكنه استشاط غضباً حين فعل به عاشقها الجديد ما فعله هو بزوجها(70). ولعل هذه الموضوعات العتيقة لم تكن خليقة بإقلاق بال أغسطس، أما الذي جعل تيبلس، وبروبرتيوس وأوفد مبغضين إلى حكومة تلقى أشد الصعاب في وجود مجندين للجيش فهو النزعة المؤثرة القوية المضادة للجندية، والتي كانت تتصف بها هذه العصابة المتحللة في حياها من جميع القبود. ذلك أن تيبلس يسخر من المحاربين الذين يسعون إلى الموت في الوقت الذي يستطيعون فيه أن يغرروا بالنساء، ويتحسر على عهد زحل ويتصوره عهداً:
لم يكن فيه جيوش، ولا حقد، ولا حرب... فلم تكن حرب حين كان الناس يشربون من أفداح خشبية... ألا فأعطني الحب وحده ودع غيري يذهب إلى الحرب... فالبطل هو الذي يدركه الكبر في كوخه المتواضع بعد أن وُلد له بنون، فتراه يرعى الماشية وابنه يرعى الضأن، وزوجته الصالحة تسخن الماء لجسمه المتعب. فلأعش حتى تصبح كل شعرة من شعر رأسي ناصعة البياض، وأحدث عن الأيام الخوالي كما يتحدث الشيوخ"(71).
أما سكستس بروبرتيوس (49-15) فكانت أغانيه أقل بساطة وأقل حناناً، يزينها العلم أكثر مما يزين أشعار تيبلس، وتمثلها فيما تحتويه من أناشيد الدعارة الهادئة. وقد ولد سكستس في أمبريا Umbria وتلقى العلم في رومة، وسرعان ما آل إلى قرص الشعر، وضمه ماسيناس إلى ندوته على الإسكولين Esquiline وإن لم يكن في القراء- إلا قلة ضئيلة منهم- من يستطيع أن يستخرج أفكاره من أغوار حذلقته. وهو يصف في زهو وسرور الولايم التي كانت تقام على شاطئ نهر التيبير، حيث كان يحتسي خمر لزبس Lesbos في كؤوس من صنع الفنانين العظام "وهو جالس كأنه على عرش بين النساء

صفحة رقم : 3323

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ثورة العاشقين

المرحات"، يرقب السفن تجري في النهر من تحته(72). وكان بروبرتيوس يتغنى بمدح الحرب من حين إلى حين ليطرب بذلك ولي نعمته وزعيمه؛ أما حبيبته سنثيا Cynthia فكانت لها عنده نغمة أخرى، فهو يقول لها: "لم أنجب

أبناء ليضحى بهم في الانتصارات البارثية Parthian ؟ لا، لن يكون ولد من أبناتنا جندياً" (73)، وهو يؤكد لها أن كل ما في العالم من أمجاد عسكرية لا يعادل ليلة واحدة مع سنثيا (74).
وإذا أحصينا كل هؤلاء الأبيقوريين خفاف القلوب والأحلام، الذين كانوا يقضون حياتهم بين الحب والصد كان بلبوس أفيدوس نازو Publius Ovidius Naso أتمودجهم السعيد وحامل لوائهم جميعاً. وكان مولده عام 43 ق.م سلمو Sulmo (سلمو)، وهي بلدة في واد جميل من وديان الأبنين على بُعد تسعين ميلاً أو نحوها شرقي رومة. وكان يتخيلها من منفاه في سنيه الأخيرة بلدة جميلة ذات كروم وغياض من شجر الزيتون، وحقول من القمح، ومياه جارئة. وأرسله أبوه - وكان رجلاً ثرياً من رجال الطبقة الوسطى - ليدرس القانون في رومة، ولكنه صدم حين سمع أن ابنه يريد أن يكون شاعراً. فأخذ يذكر للصبي ما لقيه هومر من مصير محزن؛ فقد مات هذا الشاعر - كما يقول أحسن الناس علماً بأخباره - فقيراً أعمى. وأثر هذا التحذير في أوفد فواصل دراسة القانون وارتقى حتى صار قاضياً في المحاكم البريتورية، وأبى أن يتقدم ليكون كوسترا، فحزن لذلك أبوه أشد الحزن (لأن هذا المنصب كان يؤهله لأن يكون عضواً في مجلس الشيوخ)؛ وفضل أن يعمد إلى دراسة الأدب وإلى الحب، محتجاً بأنه لا يسعه إلا أن يكون شاعراً "ولتغت بالأوزان فجاعت الأوزان" (75).
وسافر أوفد على مهل إلى أينة وإلى الشرق الأدنى وصقيلة، ولما عاد انظم إلى زمرة أكثر الناس مجنوناً وخلاعة في العاصمة، وكان ذا نصيب موفور

صفحة رقم : 3324

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ثورة العاشقين

من الجمال، والذكاء، والعلم، والمال، فاستطاع بذلك أن يفتح جميع الأبواب المغلقة. وتزوج مرتين في شبابه، وطلق زوجته، ثم قضى بعض الوقت يرعى في المراعي العامة ويقول: "فليجد غيري مسراتهم في الماضي، وأما أنا فما أسعدني إذ ولدت في هذا العصر الذي توائم أخلاقه أخلاقي" (76). وكان يسخر من الإنباذة، ولم يفد منها إلا نتيجة واحدة، هي أنه لما كان ابن الزهرة هو الذي أنشأ رومة فقد وجب أن تصبح مدينة الحب لتدل على تقى أهلها وصلاحهم إن لم يكن ذلك لسبب آخر (77). وخلبت لبه عاهر جميلة يسميها كورنا Corinna إخفاء لاسمها عن القراء، أو لعل ذلك اسم يطلقه على الكثيرات غيرها من النساء اللاتي وقع في حبهن. وسرعان ما وجدت أشعاره المكشوفة فيها من ينشرها له، فنشرت بعنوان الغزليات Amores في عام 14م، ولم تلبث إلا قليلاً حتى جرت على لسان كل شاب في رومة حديثاً وغناء. ويقول هو في ذلك: "إن الناس في كل مكان يريدون أن يعرفوا من تكون كورونا هذه التي أتغنى بحبها" (78). وقد أضلهم هو في مجموعة أخرى من الغزليات في وصف الحب الخليط فقال: "ليس الذي يثير عاطفتي هو الجمال الثابت؛ بل إن ثمة مائة سبب تحفظ لي حبي، فإذا رأيت فتاة جميلة ذات عينين ناعستين مطرقتين إلى حجزها اشتعلت نار الحب في قلبي، وأسرتني بسذاجتها. وإذا أبصرت فتاة خليعة، اخترقت سهام لحاظها قلبي، لأنها ليست قروية ساذجة، لأنها تقوى أمني في أن أضمها إلى صدري على فراشي الوثير. وإذا تمنعت وتظاهرت بالعناد والصلابة حكمت بأنها ستخضع لي لا محالة، ولكنها ممعنة في خداعها. وإذا كنت عالمة ضليعة بما في الكتب اتهويتني بشمائلك النادرة... وتخطر

صفحة رقم : 3325

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ثورة العاشقين

إداهن الهوينا فأحبها لحسن خطاها، وتخطو الأحرى بقوة، ولكنها ترق إذا طاف بها طائف الحب.. وإذا غنت فتاة بصوت شجي.... خطفها منها القبلات في أثناء الغناء، وإذا ضربت الأخرى بأناملها الخفيفة على الأوتار الشاكية- فمنذا الذي لا يقع في حب هاتين اليدين الماهرتين؟ وهذه تأسرنى بحركاتها، إذا ما حركت يديها في التران وانسجام، وتفننت في ثني خصرها الرقيق فتذكي النار في قلبي الذي تلتهب فيه نيران الحب لأقل الأسباب.... ضع هبوليتس Hippolytus في مكاني يصبح بريابس Priapus!... إني لتفتنني الطويلة والقصيرة على السواء، فكلتاها تضرم النار في قلبي... وإني لأتقدم إليهما ضارحاً متوسلاً أن يستجيبا لحيي(79).

واعتر أوفد عن عدم التّعني بمجد الحرب، وقال إن كيوبد Cupid جاءه واحتلس قداماً من شعره وتركه أعرج(80). وكتب مسرحية لم يُعثر عليها بعد وهي مسرحية ميديا Medea قوبلت بقبول حسن، ولكنه كان على العموم يفضل الشعر الغزلي أو كما يسميه هو "ظلال الزهرة الكسول"، ولا يرغب في أكثر من أن يسمى "المنشد المعروف بأساليبه التافهة"(81). وأغانيه هي بعينها أغاني جماعة التروبادور سبقتها بألف عام كاملة، وموجهة مثلها للسيدات المتروجات. وهي تجعل المغازلة أهم أعمال الحياة. ويعلم أوفد كورنا كيف تتحدث إليه بالإشارات وهي مضطجة على فراش زوجها(82)، ويؤكد لها أنه سيظل وفياً لها أبد الدهر، وأنه لن يزني بغيرها أبداً: "فلست زير نساء ينتقل من هذه إلى تلك ويحب مائة امرأة في وقت واحد". ثم يحظى بها آخر الأمر ويكتب قصيدة ابتهاجاً بنصره، ويثني فيها عليها لطول صدها عنه، وينصحها بأن تعود إلى هذا الصد من حين إلى حين، حتى يدوم حبه لها أبد الدهر. ثم يخاصمها ويضربها، ويندم على فعلته، ويحزن ويجن بحبها أكثر من ذي قبل، ويفعل ما يفعله رميو فيتوسل إلى الليل أن يطول وإلى الفجر ألا يطلع، ويرجو أن تهب

صفحة رقم : 3326

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ثورة العاشقين

ريح مواتية فتحطم قطب عربة الفجر. وتخدعه كورونا كما خدعها، ويستشيط هو غضباً حين يعرف أنها لا تجد فيما لها في شعره من خشوع جزاءً كافياً لحبها له؛ وتقبله طالبة إليه أن يصفح عنها ولكنه لا يسامحها لما كسبته من حذق جديد في بث لواعج الهوى، ويقول إن معلماً جديداً قد علمها هذا الحذق(83). وبعد بضع صفحات من الكتاب نجده يحب فتاتين في وقت واحد كلتاها جميلة حسنة الذوق في اختيار ملابسها، مهذبة، متقفة"(84). ثم لا يلبث أن يساوره الخوف من أن يقضي عليه توزيع قلبه بين حبيبته، ولكنه يقول إنه يسعده أن يخسر سريعاً في ميدان الحب(85).

ولاقت هذه القصائد قبولا لا بأس به من المجتمع الروماني بعد أربع سنين من صدور قوانين الإصلاح البيوليوسية، وظلت بعض الأسر العظيمة أمثال أسرة الفابييين والكرفينيين، والبيمونييين تستضيف أوفد في بيوتها؛ وازدهى الشاعر بما ناله من نصر فأصدر كتاباً في التعرير بالنساء سماه فن الغرام (Ars Amatoria 2م) يقول فيه: "لقد عينتني الزهرة معلماً للحب". وهو يحذر قرائه تحذيراً ينطوي على العفة والطهارة فيقول إن أمثاله يجب ألا تطبق إلا على الجوارح والسراري؛ ولكن ما يفيض به الكتاب من تصوير للصدقات الوثيقة، ومواعيد اللقاء السرية، والرسائل الغرامية، ومن هزل وفكاهة، وخيانة أزواج، وخدمات محتلات ماهرات، كل هذا يوحي بأن الكتاب إنما يصور أحوال الطبقتين العليا والوسطى في رومة. وأراد أن لا تكون دروسه سريعة الأثر فوق ما يجب أن تكون فأضاف إلى

رسالته الأولى رسالة ثانية في علاج الحب Remedia Amoris يقول فيها إن خير علاج من داء الحب هو العمل الشاق، ثم يليه في القوة الصدف، ويأتي بعدهما الغياب، ومن المفيد أيضاً أن تقاجئ حبيبك في الصباح قبل أن تتم زينتها(90). ثم أراد آخر الأمر أن يوفق بين آرائه الأولى والثانية فأخرج رسالة ثالثة عنوانها: De Medicamina Fociei Feminineae وهي رسالة شعرية في

صفحة رقم : 3327

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ثورة العاشقين

أصباغ التجميل وأدهانه، أخذ ما فيها عن اليونان. ولاقت هذه الرسائل الصغيرة رواجاً عظيماً، وانتشرت بسببه سمعة أوفيد السينة في كل مكان، ويقول في ذلك: "ما دامت شهرتي قد طبقت العالم كله فإني لا يعنيني قط ما يقوله عني شخص أو شخصان"(91) ولم يكن وهو يقول هذا يعر أن أحد هذين الشخصين الحقيرين هو أغسطس نفسه، وأن قصائده قد أغضبت الزعيم، وأنه يراها إهانة لحقت بالقوانين اليوليوسية، وأنه لن ينسى هذه الإهانة حين تخطر الفضايح الإمبراطورية على بال الشاعر العاقل.

وفي السنة الثالثة بعد الميلاد تزوج أوفيد للمرة الثالثة، وكانت زوجته الجديدة من أكبر الأسر الممتازة في رومة؛ واستقر الشاعر، وكان وقتئذ في السادسة والأربعين من عمره، في حياته المنزلية الهادئة، ويلوح أنه هو وزوجته قد تبادلوا الوفاء والإخلاص والهناء في فابيا Fabia، وفعلت به السن ما لم يفعل به القانون، فأخدمت نيران عواطفه وجعلت شعره جديراً بالاحترام. فروى في كتابه Heroides قصصاً عن حب شهيرات النساء أمثال بنلي Penelope وفيدرا Phaedra وديدو، وأريديني Ariadne، وسابفو، وهلن Helen، وهيرو Hero ولعله أسرف في طول هذه القصص حتى أمل، لأن التكرار قد يجعل كل شيء حتى الحب نفسه مسماً. على أن مما يثير الدهشة حقاً في هذه القصص جملة على لسان فدرا تعبر فيها عن فلسفة أوفيد: "لقد حكم جوف بأن الفضيلة هي كل ما يهينا اللذة"(92). ونشر الشاعر حوالي 7م أعظم مؤلفاته كلها وهو كتاب "التحول Metamorphoses. ويتألف من خمسة عشر سفرأ، نقص في شعر سداسي الأوتاد تحول الجماد والحيوان والناس والآلهة. وإذا كان كل شيء في الأساطير اليونانية الرومانية، إلا القليل النادر، قد بدل صورته، فقد استطاع أوفيد بفكرته هذه أن يغترف من بحر الأساطير القديمة كلها إلى تأليه قيصر، وكانت كتاباته هي القصص التي ظلت ذات شأن عظيم في برامج الكليات جميعها حتى الجيل السابق على جيلنا

صفحة رقم : 3328

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ثورة العاشقين

هذا، بل إن ثورة هذه الأيام لم تُج بعد ذكرها من العقول: كقصص عربية فيتون Phaethon's Chariot، وبراموس وثرزي Pyramus & Thisbe وبرسيموس وأندرمدا Perseus & Andromeda، وسرقة برسبرين The Pape of Prosperine، وأورثوزا Arethusa، ميديا Medea، وديدالوس وأيكاروس Daedalus & Lacrus، ويوسيز وفليمون Baucis & Philemon، وأورفيوس ويورديس Orpheus & Eurydice، وأطلنطا Atlanta، وفينوس وأدنيس Venus & Adonis وكثيراً غيرها. هذا هو المعين الذي استمدت من مئات الآلاف من موضوعات القصائد، والرسوم والتماثيل. وإذا كان لا بد للإنسان أن يواصل دراسة الأساطير القديمة، فإن أيسر السبل إلى دراستها أن يقرأ قصص هذا الحشد العظيم من الأدميين والآلهة، وهي قصص تروى بكثير من التشكك الفكه النزعة الغزلية، وللفن فيها أثر دائم عظيم يعجز عنه العايب غير القدير، ولا يصل إليه إلا من أوتي المقدره والصبر الطويل، فلا عجب والحالة هذه أن يعلن الشاعر الواصل من نفسه في ختامها أنه من الخالدين: "Per Saecula Omnia Vivam" سأعيش إلى آخر الدهر".

وما كاد يفرغ من كتابة هذه العبارة الأخيرة حتى ترمى إليه أن أغسطس قد أمر بنفيه إلى بلدة تومي Tomi الباردة الهمجية الواقعة على ساحل البحر الأسود وهي المعروفة الآن بقسطنطة، والتي لا تزال غير محببة إلى غير أهلها. وتلك كارثة لم يكن الشاعر مستعداً لتحملها في مثل سنه، وكان قد أتم في هذا الوقت إحدى وخمسين عاماً، وفرغ تواء، قبيل انتهائه من كتاب "التحول"، من قصيدة من الشعر الجيد يثني فيها على الإمبراطور ويعترف فيها بأن سياسته قد نشرت لواء السلام والأمن والرفاهية التي يستمتع بها الجيل الذي يعيش فيه أوفد. وكان فوق هذا قد أتم نصف قصيدة تدعى فاستي Fasti وهي قصيدة تكاد تكون من القصائد النقية تتحدث عما في السنة الرومانية م أعياد دينية. وكان يوشك

صفحة رقم : 3329

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ثورة العاشقين

أن يجعل هذه القصيدة ملحمة موضوعها من التقويم الروماني، لأنه استخدم في رواية قصص الدين القويم وفي تكريم هياكله وآلهته ما استخدمه في الأساطير اليونانية والغزل الروماني من أسلوب سهل واضح وعبارات وجمل رقيقة. وكان يرجو أن يهدي القصيدة إلى أغسطس ليشارك بها في إعادة الدين القويم إلى سابق عهده، ولتكون بمثابة اعتذار منه عن سخريته بهذا الدين، وإنكار لما فرط منه في حقه. ولم يتبين الإمبراطور من قراره أسباب نفيه، وليس في مقدور أحد أن يعرف في هذه الأيام حقيقة هذه الأسباب. على أن ثمة إشارة بعيدة من الإمبراطور لأسباب هذا النفي، فقد نفى في الوقت نفسه حفيده يوليا وأمر بإخراج كتب أوفد من دور الكتب العامة. ويلوح أن الشاعر كان له بعض الشأن في مسلك يوليا الشائن، سواء كان حظه فيه حظ الشاهد، أو المشارك، أو الفاعل الأصلي. أما هو نفسه فيقول إنه عوقب بسبب "خطأ" وقع فيه وبسبب قصائده، ويذكر ما يوحى بأنه شهد على الرغم منه منظرأ غير لائق(93). وأجيز له أن يبقى في أثناء الشهور الباقية من عام 8م ينظم فيها شؤونه. وكان القرار مجرد إبعاد، أخف من النفي، يسمح له بأن يحتفظ بأملكه، ولكنه أفسى منه إذ يلزمه بالإقامة في مدينة واحدة. فلم يكن منه إلا أن أحرق كتاب التحويل، وإن يكن بعض القراء قد نقلوا صوراً منه واحتفظوا بها لأنفسهم. وابتعد عنه معظم أصدقائه(94) وعرض بعضهم أنفسهم لأشد الأخطار ببقائهم معه إلى ساعة رحيله؛ وشجعت زوجته وأعانتها على تحمل محنته بما أظهرت له من الحب والإخلاص، وإن لم تسافر معه إطاعة لأمره. وإذا استثنينا هذه المظاهر القليلة فإن رومة بأسرها لم تظهر شيئاً من الاهتمام بشاعر أفرأحها ومسراتها حين أبحر من أسنيا ليبدأ سفره الطويل وابتعاده عن كل شيء يحبه. وكان البحر هائجاً طوال أيام الرحلة تقريباً،

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ثورة العاشقين

وخيل إلى الشاعر مرة أن الأمواج ستبتلع سفينته، ولما أبصر تومي حزن إذ بقي على قيد الحياة واستسلم للحزن واليأس.

وكان في أثناء الرحلة قد شرع ينظم القصائد المعروفة لنا باسم الأبحان Tristia. فلما جاء المدينة واصل نظمها وبعث بها إلى زوجته وابنته وربيبته وأصدقائه. وأكبر الظن أن الروماني المرهف الحس قد بالغ في وصف أهوال موطنه الجديد حين عنه إنه: مكان قفر خال من الأشجار لا يثبت فيه شيء وإن كان ضباب البحر الأسود عنه الشمس، وإن البرد يشتد فيه حتى يبقى ثلج الشتاء في بعض السنين طوال فصل الصيف، ويتجمد ماء البحر الأسود في فصل الشتاء المظلم الكئيب، كما يتجمد ماء نهر الدانوب حتى ليسهل أن يمر عليه البرابرة الضاربون حول المدينة على أهلها وهم خليط من الجيتا Getae حملة الخناجر واليونان المهجنين. ولما فكر في سماء رومة الصافية وحقول سلمو Sulmo الناضرة تحطم قلبه أسى وحسرة، وسرى في شعره- وكان لا يزال جميلاً في شكله ولفظه- شعور عميق قوي لم يسر فيه قبل.

وتتصف "الأبحان" هي والرسائل الشعرية التي كتبها لأصدقائه "من البحر الأسود Ex Ponto" بكل ما تتصف به أعماله العظيمة من سحر وجمال، فقد بقي له في منفاه كل ما كان له من ألفاظ سهلة يبعث بها السرور في القلوب حتى وهو في المدرسة، ووصف للمناظر تكتسب وضوحها من نفاذ بصره ومن خياله، وقدرة على تصوير الأشخاص وبت الحياة فيهم بما أوتي من دقة ومهارة سيكلوجية، وعبارات موجزة مليئة بالتجربة والتفكير، ورقة في الحوار، ويسر وسهولة في الأوزان، كل هذه الخصائص قد بقيت له في منفاه وخالطها جدُّ ووقار ورقة، كان افتقار قصائده الأولى إليها مما جعلها غير جذيرة بالرجال. وكان ينقصه في جميع مراحل حياته قوة الخلق؛ وكما أنه قد أفسد

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ثورة العاشقين

شعراء في وقت من الأوقات بما ملأه به من وصف الشهوات الجنسية التافهة، فقد أغرق الآن أشعاره بفيض من الدموع والتضرع للزعيم والتذلل له.

وكان يحسد القصائد التي تستطيع الوصول إلى رومة، ومن أقواله في هذا المعنى: "ارحلي أيتها الكتب وحيي باسمي الأماكن التي أحبها" و "أرض بلادي العزيزة على" (95) ويتمنى لو أن صديقاً شجاعاً حمل هذه الرسائل إلى الإمبراطور فأشفق عليه. وهو يفصح في كل رسالة عن أملة في أن يعفو الإمبراطور عنه، أو يأمر بنقله إلى مكان أقل قسوة من منفاه. وهو لا ينفك يفكر في زوجته ويردد اسمها في أثناء الليل، ويتمنى أن يقبل شعرها الأبيض قبل أن تحين منيته (96). ولكنه لم يصله عفو، حتى إذا قضى في المنفى تسع سنين وبلغ من العمر ستين عاماً، رحب بالموت، وجيء بعظامه إلى إيطاليا استجابة لرجائه، ودفنت بجوار عاصمة البلاد.

وحققت الأيام ما تنبأ لنفسه من شهرة خالدة، وكان له في العصور الوسطى ما لفرجيل من أثر عميق، وأضحى كتاباه "التحوليات" والهيرويدات مصدر كثير من روايات الحب في تلك العصور، واستمد منه بوكاشيو، وتسو، وتشوسر، واسينسر كثيراً من موضوعاتهم، ووجد مصورو النهضة في أشعاره الشهوانية كنزاً من الموضوعات لا ينضب له معين، وملاك القول أنه كان أعظم شاعر وجداني إبداعي في العصر العقلي الإبتاعي. وانقضى بموته عهد من العهود الزاهرة في تاريخ الأدب. ولا جدال في أن عصر أغسطس لم يكن من أزهى عصور الأدب كما كان عصر بركليز في اليونان أو عصر إلزبث في إنجلترا. وقد كان حتى في أحسن ما أخرجته من النثر بلاغة طنانة، وفي خير ما أخرجته من الشعر كمال في الشكل قلما ينتقل كلاهما من القلب إلى القلب.

صفحة رقم : 3332

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الذهبي -> ثورة العاشقين

ولسنا نجد في هذا العصر من يضارع إسكلس أو يورديز أو سقراط أو حتى لكريشيوس أو شيشرون. لقد كان احتضار الإمبراطور للأدباء هو الذي يلهم أدب رومة ويغذيه ويقمعه ويضيق عليه. وإن العصر الأرسنقراطي- كعصر أغسطس أو لويس الرابع عشر أو القرن الثامن عشر في إنجلترا- إن هذا العصر ليعلي من شأن الاعتدال والتوسط، وحسن الذوق، ويوجه الأدب وجهة "إبتاعية" في الأسلوب يعلو فيها العقل والشكل على الوجدان والحياة. وذلك أدب أكثر صقلاً وأقل حيوية، وأنصح وأقل تأثيراً من أدب العصور أو العقول المبدعة العاطفية. ولكننا إذا أغضضنا الطرف عن هذا ونظرنا إلى أدب ذلك العصر في نطاق الأدب العقلي الإبتاعي وجدناه جديراً باسمه؛ فنحن لا نرى من قبله حكماً رزيناً قد عبر عنه بمثل هذا الفن البالغ أوج الكمال، وحتى المرح الجنوني الذي وصفه أوفد قد خفف من حدته القالب الإبتاعي الذي صب فيه. وقد بلغت اللغة اللاتينية في شعره وشعر فرجيل وهوراس أعلى ما وصلت إليه بوصفها أداة لقرض الشعر، ولم تبلغ بعدهم ما بلغت في أيامهم من ثراء في اللفظ، وفخامة في النغم، ودقة في التعبير مع إيجاز ومرونة وعذوبة ألفاظ.

صفحة رقم : 3333

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> تيبيريوس

الباب الثالث عشر

الفصل الأوّل

تبيير يوس

إذا نزل العلماء من عليانهم إلى ميدان العواطف زاد العلم ولعابها؛ أما إذا كانت العواطف هي المسيطرة على السياسة تصدعت أركان الإمبراطوريات وزلزلت دعائمها. وكان اختيار أغسطس لتبيير يوس اختياراً حكيماً، ولكنه جاء بعد فوات الفرصة. ولما كان تبيير يوس يعمل على إنقاذ الإمبراطورية بصبره وحسن قيادته أوشك الإمبراطور أن يحبه، فقد جاء في ختام إحدى الرسائل التي وجهت إليه: "وداعاً يا أحب الناس إلي... ويا أشجع الرجال، ويا أعظم القواد إخلاصاً وأحياهم ضميراً"⁽¹⁾. ولكن عاطفة الجوار وقرب الدار أعمت أغسطس كما أعمت من بعده أورليوس، فنأى بجانبه عن تبيير يوس وقرب إليه أحفاده الصغار، واضطره إلى التخلي عن زواج سعيد موافق ليكون ديوث يوليا، وغضب منه حين لم يرض عن سلوكها، وتركه يبلغ سن الشيخوخة وهو يدرس الفلسفة في رودس. ولما تولى تبيير يوس رئاسة الدولة في آخر الأمر كان قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره، وكره المجتمع، ولم يعد يرى في السلطان سعادة.

صفحة رقم : 3334

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> تبيير يوس

وإذا شئنا أن نفهمه على حقيقته وجب علينا أن نذكر أنه من آل كلوديوس وأنه كان أول الفرع الكلودي من الأسرة اليوليوسية الكلودية التي كان آخرها نيرون. وقد ورث عن أبويه أنبل دم في إيطاليا، وأضيّق أهلها أفقاً، وأقواهم إرادة. وكان طويل القامة شديد البأس، حلو الملامح، ولكن حب الشباب ضاعف من حياته، وسماجة طباعه، وإحجامه وحبه للعزلة⁽²⁾. ويمثل رأسه الجميل المحفوظ في متحف بسطن في صورة قس شاب عريض الجبهة، واسع العينين غائرهما، ذي وجه يدل على الحزن وعميق التفكير، وقد بلغ من جده ووقاره في شبابه أن أطلق عليه بعض المجان

اسم "الرجل العجوز". وقد أخذ من التربية كل ما يستطيع أن يأخذه عن الرومان واليونان والبيئة والتبعية، وأنقذ اللغتين اليونانية والرومانية وأدبهما، وكتب الأغاني الشعرية، ودرس التنجيم و"غفل عن الآلهة"(3). وكان يحب أخاه الأصغر دروسس رغم أنه كان أحب منه إلى الشعب؛ وكان زوجاً مخلصاً وفيماً لفسبانيا Vipsania مكرماً لأصدقائه إكراماً لم يكون يترددون معه في أن يهدوا إليه الهدايا وينتظروا منه أن يهدي إليهم أربعة أمثالها. وكان أقسى قواد زمانه وأقدرهم، فنال بذلك إعجاب جنوده وتعلقهم به، لأنه كان يعني بكل شؤونهم مهما صغرت، ولأن كان يكسب المعارك بفنه أكثر مما يكسبها من دماء جنده.

ولكن فضائله هي التي قضت عليه، فقد كان يصدق القصص التي تروى عن أعمال أسلافه، وكان يتوق إلى صرامة الرومان الأقدمين تعود إلى المدنية الجديدة، وارتاح إلى إصلاحات أغسطس الأخلاقية، ولم يخف قط عزمه على تنفيذها طوعاً أو كرهاً. ولكل يكن يحب ذلك الخليط من الأجناس الذي كان يغلي في بوتقة رومة، فقدم إليهم الخبز ولكنه لم يقدم إليهم الألعاب، وأغضبهم بامتاعه عن حضور ما كان يقدمه إليهم منها أثرياء المدينة. وكان قوي الاعتقاد بأن رومة لا ينجيها مما تردت فيه من الانحطاط إلا طبقة

صفحة رقم : 3335

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> تيبيريوس

من الأشراف الصلاب ذوي الخلق القويم والذوق الجميل. ولكن الأشراف والعامّة على السواء لم يطبقوا صلابة عوده، وصرامة وجهه، وصمته الطويل، وحديثه البطيء، وما يبدو عليه من علم بتفوقه، وفوق هذا كله اقتصاده الشديد في أموال الدولة. فهو والحالة هذه رواقى ولد خطأ في عصر أبيقوري. وقد حالت أمانته الصارمة بينه وبين تعلم فن سنكا، فن الدعوة إلى عقيدة بلغة مزينة جميلة، وإتباع عقيدة أخرى والمثابرة عليها بتجمل وكياسة.

وظهر تيبيريوس أما مجلس الشيوخ بعد أربعة أسابيع من وفاة أغسطس، وطلب إليه أن يقرر إعادة الجمهورية، وقال للأعضاء إنه لا يصلح لحكم تلك الدولة المترامية الأطراف، "وإن خير طريقة لإدارة أعمال المصالح المختلفة التي تشرف على الشؤون العامة في مدينة احتوت هذا العدد الجم من الرجال النابهين ذوي الأخلاق العالية... أن يتولاهما جماعة مؤتلفون من خير المواطنين وأعظمهم كفاية"(4). ولم يجرؤ أعضاء المجلس على أن يصدقوا ما يقوله لهم، فحيوه كما حياهم بطاطاة رؤوسهم، وما زالوا به حتى قبل أن يتولى السلطة التي قال عنها "إنها استرقاق مبهظ مثل" على أمل أن يسمح له المجلس في يوم من الأيام أن يعتزلها ليحيا حياته الخاصة متمتعاً بالحرية(5). وهكذا مثلت الرواية من كلا الجانبين أحسن تمثيل. وما من شك في أن تيبيريوس كان يريد أن يتولى الزعامة وإلا لوجد سبيلاً إلى الفرار منها، وأن مجلس الشيوخ كان يخشاه ويبغضه، ولكنه كانت ترهب عودة جمهورية تقوم، كما كانت تقوم الجمهورية القديمة، على جمعيات تعد من الوجهة النظرية مصدر السلطات جميعها، وكان يرغب في نظام أقل ديمقراطية من هذا النظام السالف الذكر لا أكثر منه. ولشده ما ابتهج حين أقنعه تيبيريوس (14 م) أن يأخذ من الجمعية المثوية حق اختيار الموظفين العموميين. وشكا المواطنون من هذا الانقلاب بعض الوقت وكان سبب شكواهم أنهم خسروا الأموال التي كانت تبتاع بها أصواتهم، وأضحى كل ما بقي بعدئذ من السلطة لعمامة الناس هو سلطة

صفحة رقم : 3336

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> تيبيريوس

الاختيار الإمبراطور بقتل سلفه. ذلك أن الديمقراطية بعد تيبيريوس قد انتقلت من الجمعيات إلى الجيش، وكانت أداة الانتخاب هي حد السيف.

ويلوح أنه كان يبغض الملكية بغضاً حقاً خالياً من الرياء، وأنه كان يعد نفسه رأى مجلس الشيوخ الإداري وذراعه المنفذة، ولذلك رفض من الألقاب كل ما تشتم منه رائحة الملكية وقنع بلقب "زعيم الشيوخ" *Princeps Senatus*، وقضى على كل محاولة ترمي إلى تأليهه، أو عبادة روحه، وأظهر كرهه للملق. ولما أراد مجلس الشيوخ أن يسمى أحد الأشهر باسمه، كما سمي من قبل شهرين باسم قيصر وأغسطس، رد هذه التحية رداً ينطوي على الفكاهة فقال: "وماذا تفعلون إذا وجد لديكم ثلاثة عشر قيصرًا؟". ورفض اقتراحاً يطلب إليه أن يعيد النظر فيمن يختارون لعضوية مجلس الشيوخ، وقال إنه لا شيء مطلقاً يفوق احترامه لهذه الجمعية القديمة "جمعية الملوك". وكان يحضر اجتماعات المجلس، ويحيل إليه "حتى أصغر الأمور ليحكم فيها"، ويجلس فيه ويتكلم كأنه عضو عادي لا أكثر، وكثيراً ما كان يقترح مع الأقلية، ولم يحتج يوماً من الأيام إذا وافق المجلس على قرارات تتعارض مع رغبته التي أبداهها جهرة (7). و"كان منطوياً على نفسه، صبوراً". على حد قول ستونيوس "إذا ما وجهت إليه وإلى أسرته الشتائم والافتراءات والمطاعن". وكان يقول في ذلك "إن البلد الحر يجب أن تطلق فيه حرية القول والفكر" (8). ويعترف تاستس وهو من المعادين له أن ترشيحاته "كانت تصدر عن حكمة، وأن من كان يرشحهم من القناصل والبريتورين كانوا يتصفون بصفات الشرف والكمال القديمة الخليفة بمناصبهم. وكان من يلونهم من الموظفين يمارسون سلطات مناصبهم بعيدين عن

صفحة رقم : 3337

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> تيبيريوس

تدخل الإمبراطور. وكانت القوانين إذا استثنينا ما يختص منها باغتصاب الملك تجري في مجراها الطبيعي... وكانت أعمال الإيرادات العامة يصرفها رجال امتازوا بالاستقامة والنزاهة... ولم تفرض على أهل الولايات أعباء جديدة، وكانت الضرائب القديمة تجبى في غير عنف أو قسوة... وساد النظام بين عبيده... وكانت دور العدالة مفتحة الأبواب لتفصل في كل نزاع يقع بين الإمبراطور وأفراد الشعب، وكان القانون وحده هو الفيصل في هذا النزاع" (9).

ودام هذا الحكم الصالح، حكم تيبيريوس، تسع سنين، استمتعت فيها رومة وإيطاليا والولايات بحكومة صالحة لم تر خيراً منها في تاريخها كله. وحسبنا أن نذكر شاهداً على هذا أن تيبيريوس الذي وجد حين اعتلائه العرش في خزنة الدولة مائة مليون سسترس ترك فيها حين وفاته 2.700.000.000 دون أن يفرض ضرائب جديدة، وعلى الرغم من هباته الكثيرة للأسر والمدن التي حلت بها الكوارث، وبالرغم من عنايته بإصلاح جميع المنشآت العامة وعدم اشتباكه في حروب تجر له المغانم، ورفضه كل ما أراد أن يوصي به إليه أشخاص لهم أبناء أو أقارب أدنون. ولم يدخر جهداً في العناية بجميع شؤون البلاد الداخلية والخارجية. وكان يكتب للولاة الذين يريدون أن يجلبوا من الضرائب أكثر مما كان مفروضاً على ولايتهم يقول لهم: "لقد كان من واجب الراعي الصالح أن يقص صوف غنمه لا أن يجزها" (10).

ولم يكن يعزو إلى نفسه مجد الظفر في ميدان القتال وإن كان من القادة المحنكين، وقد بسط لواء السلام على الإمبراطورية واحتفظ به بعد السنة الثالثة من حكمه.

وكانت سياسة السلام هذه هي التي حالت بينه وبين ما كان يبغيه من تقدم في عهده. ذلك أن جرمنكوس ابن أخيه، وهو الشاب الوسيم الذي تيناه بعد موت دروسس، كسب بعض المعارك في ألمانيا ورغب أن يواصل الزحف عليها ليفتحها. وكان من رأي تيبيريوس عدم التورط في هذا الفتح،

صفحة رقم : 3338

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> تيبيريوس

فأغضب بذلك الشعب ذا النزعة الاستعمارية. وإذا كان جرمنكوس حفيد ماركس أنطونيوس فإن الذين كانوا لا يزالون يحملون بإعادة الجمهورية قد اتخذوه رمزاً لقضيتهم، فلما أن نقله تيبيريوس إلى بلاد الشرق عد نصف أهل رومة هذا القائد الشاب شهيداً لحسب الزعيم، ولما أن فاجأ جرمنكوس المرض ومات ظنت رومة كلها أن الإمبراطور قد أمر بأن يدس له السم في الطعام(19)، واتهم بهذه الجريمة أكنيوس بيزو أحد الموظفين المعينين من قبل تيبيريوس في أسية الصغرى. وحاكمه مجلس الشيوخ، وأيقن الرجل أن مجلس الشيوخ سيدينه فانتحر لكي يحتفظ بأملاكه لأسرته. ولم تكشف المحاكمة عن شواهد تدل على ارتكاب تيبيريوس لهذه الجناية أو تثبت براءته منها، وكل ما نعرفه أنه طلب إلى مجلس الشيوخ أن يمكن بيزو من أن يحاكم محاكمة عادلة، وأن أنطونيا أم جرمنكوس ظلت إلى آخر أيام حياتها أخلص أصدقاء تيبيريوس(11).

واضطر تيبيريوس أمام تدخل الجمهور الثائر المهتاج في هذه القضية المشهورة، والقصاص البيئية التي كانت تذاق عن الإمبراطور، ودسائس أجرينينا أرملة جرمنكوس وإثارتها الناس عليه، اضطر تيبيريوس أما هذا كله أن يلجأ إلى قانون الخيانة العظمى الذي أصدره قيصر والذي ينص على الجرائم التي ترتكب ضد الدولة. وإذا لم يكن لرومة مدع عمومي أو نائب عمومي، ولم يكن لها (قبل أغسطس) شرطة، فقد كان من حق كل مواطن ومن واجبه أن يوجه التهمة أما المحاكم لكل شخص يعرف أنه خرق القانون، فإذا أدين المتهم كوفئ المخبر أو المبلغ بربع أملاك المحكوم عليه وصارت الدولة بقية أملاكه. واستعان أغسطس بهذا الإجراء الخطير لإرغام الناس على إطاعة قوانينه الخاصة بالزواج. والآن وقد انتشرت المؤامرات ضد تيبيريوس فقد كثر المخبرون الذين رأوا أن يستفيدوا بالتبليغ عنها، وكان أنصار الزعيم من الشيوخ على أتم استعداد للسير في محاكمة المتآمرين بمنتهى الصرامة، وحاول الإمبراطور أن يمنعهم، ونقذ القانون

صفحة رقم : 3339

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> تيبيريوس

تتفيداً صارماً في حالة الذين اتهموا بتسوي ذكري أغسطس أو تدينس تماثيله؛ أما "الأشخاص الذين كانوا يواجهون التهم له فقد حرم أن يوقع عليهم عقاب ما" كما يقول تاستس. وأكد لمجلس الشيوخ أن والدته ليفيا تريد منهم هذه المعاملة الرحيمة لمن يعتدون على سمعتها الطيبة(12).

وأضحت ليفيا نفسها في ذلك الوقت إحدى المشكلات الكبرى في الدولة. ذلك أن عجز تيبيريوس عن الزواج قد تركه وليس له من يحميه من امرأة ذات عقلية جبارة اعتادت أن يكون لها عليه. وكانت تشعر أن تدبيرها هو الذي هيأ له السبيل لاعتلاء العرش، وأفهمته أنه إنما يتولاه بوصفه ممثلاً لها لا أكثر(13). وكانت رسائله الرسمية في سني حكمه الأولى تحمل توقعه وتوقعها معاً، وإن كان وقتئذ قد قارب الستين من عمره، "ولكنها لم تقنع بأن تكون مساوية له في شؤون الحكم" كما يقول ديور "بل أرادت إن تقرض سيادتها عليه... وشرعت تصرف الأمور جميعها هي وحدها الحاكمة"(14). وصبر تيبيريوس على هذا الحال صبر الكرام ولكن ليفيا عاشت بعد أغسطس خمسة عشر عاماً، فشاد تيبيريوس لنفسه قصرأ خاصاً، وترك أمه لا ينازعها منازع في امتلاكها القصر الذي شيده أغسطس. وراحت السنة السوء تتهمه بقسوة عليها، وبأنه أمات زوجته المنفية من الجوع. وكانت أجرئتنا في أثناء ذلك تدفع ابنها بيرون ليخلف تيبيريوس على العرش أو ليغتصبه منه إن أمكن(15). وتحمل أيضاً على مريض، وكل ما فعله أن أنبها على فعلتها بعبارة مقتبسة من اللغة اليونانية: "هل تظنين يا ابنتي العزيزة أنك تظلمين إذا لم تكوني إمبراطورة؟" وكان أصعب شيء على نفسه أن يعرف أن وحيدته دروسس الذي رزقه من زوجته الأولى كان فتى رقيقاً، دنيئاً، قاسياً، فاسد الأخلاق، شهوانياً، فاجراً.

صفحة رقم : 3340

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> تيبيريوس

كان هذا الكبت الذي فرضه تيبيريوس على نفسه، وصبره على هذه المحن، سبباً في إثارة أعصابه وضيق صدره، فأخذ يزداد انطواءً على نفسه، وبدت على وجهه الكآبة، وفي حديثه الصرامة، مما نفر منه الناس جميعاً، وأبعدهم عنه، اللهم إلا أصدقاءه الذين يرجون له الخير، وكان ثمة رجل واحد بدا أنه أكثر الناس وفاء له، ذلك هو لوسيو سيجانوس Lucius Aelius Sejanus.

وأنثرت في تيبيريوس خيبته وحزنه، وأضحى رجلاً حزيناً فريداً في السابعة والستين من عمره، فغادر العاصمة المهانجة المحمومة وأوآى إلى كابري حيث عاش عيشة العزلة بعيداً عن سائر الناس. ولكن السنة السوء لم تنقطع عن الاستطالة فيه، ولم يعقها عائق عن أن تتبعه في عزلته، فقال بعضهم إنه يريد أن يخفي عن أعين الناس جسمه الهزيل ووجهه الخنازيري، ويطلق العنان لشهوته وذرائله غير الطبيعية(16). ولا شك في أن تيبيريوس كان كثير الشرب، ولكنه لم يكن سكيراً، أما قصة رذائله فأكبر الظن أنها افتراء عليه(17)، ويقول تاستس إن معظم من كانوا حوله من الأصدقاء في كابري كانوا من اليونان الذين لا يمتازون بشيء إلا الأدب(18). وظل هو في عزله بصرف شؤون الإمبراطورية تصريفاً حازماً حكيماً، إلا أنه كان يبلغ آراءه ورغباته إلى الموظفين وإلى مجلس الشيوخ على لسان سيجانوس Sejanus. وإذا كان المجلس يخشاه خشية متزايدة، أو يخشى سجانوس أو الحرس العسكري فقد كان يقبل رغبات الإمبراطور، ويرى أنها أوامر واجبة الطاعة. وبذلك استحال الزعامة إلى ملكية تحت سلطان الرجل الذي عرض أن يعيد الجمهورية، ومن غير أن يحدث أي تغيير في دستور البلاد، ومن غير أن يبدو من تيبيريوس نفسه أي دليل واضح على عدم الإخلاص.

وانتهز سجانوس الفرصة التي أتت له فنفي عدداً كبيراً من أعدائه بعد اتهامه بإيهاهم بتهم ينطبق عليها "قانون الخيانة" أو "قانون الجلالة" حسب اسمه

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> تيبيريوس

اللاتيني، ولم يتدخل الإمبراطور المتعب في هذا الأمر. وإذا كان لنا أن نصدق قوله سوتتيوس فإن تيبيريوس نفسه قد ارتكب كثيراً من أعمال القسوة (91)، ويقول تاستس وهو ممن لا يعتمد على أقوالهم- إنه طلب تنفيذ عقوبة الإعدام في بيبوس سبيتوس Poppaeus Sabinus بحجة أن عيونه قد سمعوه وهو ياتمر بالحكومة (20). وماتت ليفيا بعد سنة من ذلك الوقت (27)، حزينة وحيدة في بيت زوجها السابق؛ ولم يحضر تيبيريوس جنازتها، ولم يكن قد رآها بعد أن غادر روما إلا مرة واحدة. وتحرر سجانوس بموتها مما عساه أن تفرضه عليه "أم بلادها" من قيود، فأفزع تيبيريوس بأن أجرينيا وابنها نيرون كانت لهما يد في مؤامرة سبينوس، فنفتت الأم إلى بندتيريا Pandateria ونفي الابن إلى جزيرة بنتيا Pontia حيث قتل نفسه بعد ذلك بزمن وجيز.

وإذا كان سجانوس قد كسب كل شيء إلا عرش البلاد فقد أخذ يعمل جاهداً للوصول إليه. وكان قد أغضبه خطاب كتبه تيبيريوس إلى مجلس الشيوخ يرشح فيه جيوس ابن أجرينيا ليكون زعيماً من بعده، فدبر مؤامرة لاغتيال الإمبراطور عام (31). ونجا الإمبراطور بفضل أنطونيا أم جرمكوس إذ خاطرت بحياتها لتبعث إليه تحذره من الخطر الذي يتهده؛ ولم يكن الزعيم الشيخ قد فقد عزيمته بعد فعين في السر رئيساً جديداً للحرس، وأمر بالقبض على سجانوس، واتهمه بالخيانة أمام مجلس الشيوخ. ولم يكن هذا المجلس في يوم من الأيام أكثر استجابة لرغبات الأباطرة منه في هذه المرة، فقد أدان سجانوس من فور، ونفذ فيه حكم الإعدام خنقاً في الليلة نفسها. وأعقب ذلك فترة من حكم الإرهاب تولى قيادتها أحياناً شيوخ أضر سجانوس بمصالحهم، أو آذى أقاربهم أو أصدقاءهم، وأحياناً أخرى تولاها تيبيريوس نفسه. ودفعه الخوف والغضب، اللذان استولى عليه بعد أن زال عن عينيه ما كان يغشاها من خداع، إلى سورة جنونية من الانتقام. وفي هذه الفترة قتل كل إنسان ذي خطر عاون سجانوس

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> تيبيريوس

أو كانت لديه يد في تنفيذ أغراضه، ولم تنج من القتل ابنته الصغيرة نفسها؛ وإذا كان القانون يحرم قتل العذارى فقد فضت بكارتها قبل خنقها؛ وانتحرت مطلقته أبكاتا Apicata، ولكنها أرسلت قبل انتحارها خطاباً إلى تيبيريوس تبلغه فيه أن لفلا Livilla ابنة انطونيا قد اشتركت مع سجانوس في تسميم زوجها دروسس ابن الإمبراطور، فما كان من تيبيريوس إلا أن أمر بمحاكمة ليفلا، ولكنها امتنعت عن الطعام حتى ماتت. وبعد سنتين من ذلك الوقت (33) انتحرت أجرينيا في منفاها كما امتنع عن الطعام ابن آخر من أبنائها، كان قد حكم عليه بالسجن، وظل ممتنعاً حتى مات.

وعاش تيبيريوس ستة أعوام بعد سقوط سجانوس، وأكبر الظن أنه أصيب وقتئذ بخبال في عقله، وبغير هذا الافتراض لا نستطيع أن يفسر ما يعزى إليه من أعمال القسوة التي لا يصدقها عقل. فنحن نسمع أنه كان في ذلك الوقت تهم الخيانة العظمى التي توجه إلى الناس بدل أن يعارض فيها، كما كان يفعل من قبل، حتى بلغ مجموع من أدينوا بتلك

التهمة في حكمه ثلاثة وستين شخصاً، وتوسل إلى مجلس الشيوخ أن يعمل على حماية "شيخ وحيد طاعن في السن". وفي عام 37 غادر كابري بعد تسع سنين من السجن الاختياري، وطاف ببعض مدن كمانيا. وبينما كان يستريح في بيت لوكلس الخلوي في ميسنوم انتابته نوبة إغماء وخيل إلى من حوله أنه قضى نحبه. والتقت بطانته من فورها حول جايوس الذي سيصبح في ظنها إمبراطوراً بعد قليل، ولكنهم روعوا حين رأوا تيبيريوس يفيق من نوبته. ثم أنجاهم من هذه الورطة صديق لهم جميعاً بأن كتم أنفاسه بوسادة (37)(21). ويصفه ممسن Mommsen بقوله إنه كان "أقدر حاكم شهدته الإمبراطورية" (22). وقد حلت به في حياته كل الكوارث التي يمكن أن تحل بإنسان إلا القليل النادر منها، وحتى بعد وفاته لم ينج من قلم تاستس.

صفحة رقم : 3343

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> جايوس

الفصل الثاني

جايوس

واحتفل الشعب بموت الإمبراطور الشيخ بهتافه: "تيبيريوس إلى نهر التيبير"، ورحب بواحتفل الشعب بموت الإمبراطور الشيخ بهتافه: "تيبيريوس إلى نهر التيبير"، ورحب بإقرار مجلس الشيوخ بتنصيب جايوس قيصر جرمكوس خليفة له. وكانت أجربينا قد ولدت جايوس وهي ترافق جرمكوس في حروبه عند الحدود الشمالية، فنشأ بين الجند، ولبس لباسهم، ولقبوه تدليلاً له بلقب كالجيو لا Caligula أو الحذاء الصغير أخذاً من الحذاء النصفي Caliga الذي كان يحتديه الجيش. فلما جلس على العرش أعلن أنه سيسير على المبادئ التي كان يسير عليها أغسطس في سياسته، وأنه سيتعاون مع مجلس الشيوخ في جميع الأمور. ووزع على المواطنين التسعين مليون سسترس التي أوصى لهم بها تيبيريوس وليفيا وأضاف إليها ثلثمائة سسترس لكل واحد من المائتي ألف الذين يأخذون حبواً من الدولة. وأعاد إلى الجمعية حق اختيار كبار الحكام، ووعد بتخفيض الضرائب وإقامة الألعاب الكبرى، وأرجع ضحايا تيبيريوس المنفيين، وجاء برماد أمه إلى رومة مصحوباً بمظاهر التقوى والتكريم. ولاح أنه سيكون على النقيض من سلفه في كل شيء، فقد كان متلاًفاً للمال، مرحاً، رحيماً، ولم يمض على اعتلائه العرش ثلاثة أشهر حتى قرب الناس للآلهة مائة وستين ألفاً من الضحايا شكراً لها على أن وهبتها زعيماً فانتاً محسناً (23). وكان الشعب قد نسى حسبه ونسبه، فقد كانت جدته لأبيه ابنة أنطونيوس، وكانت جدته لأمه ابنة أغسطس، وقد تجددت في دمه الحرب التي ثار عجاجها من قبل بين أنطونيوس وأكتافيان وانتصر فيها أنطونيوس. وكان كالجيو لا يفخر بمهارته في المبارزة، والمجادلة، وركوب العربات، ولكنه

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> جايوس

"كانت تتناوبه نوبات الصرع"، ويكاد في بعض الأحيان "يعجز عن المشي أو التفكير" (24). وكان يختفي أسفل سريره إذا سمع هزيم الرعد، ويفر مذعوراً إذا شاهد اللهب فوق بركان إتنا؛ وكان مصاباً بالأرق يطرف به ليلاً جنبات قصره الواسع يصبح طالباً طلوع الفجر. وكان طويل القامة، ضخم الجسم، كثيف الشعر، إذا استثنينا رأسه الأصلع. وكان له صدغان منخفضان، وعينان غائرتان، تنفر الناس منه، ويُسِرُّ هو من ذلك النفور. وكان "يمثل بوجهه أمام المرأة كل المناظر المخيفة" (25). وكان قد أحسن تعليمه في صباه، فكان خطيباً مفوهاً، حاد الذكاء، فكهاً لا يراعي في فكاهته احتشاماً ولا قانوناً. وقد افتتن بحب التمثيل فأعان كثيرين من الممثلين، وكان هو نفسه يمثل ويرقص سراً. وكان إذا رغب أن يشهده النظارة دعا زعماء مجلس الشيوخ متظاهراً بأنه يدعوهم إلى اجتماع خطير، ثم يعرض أمامهم رقصة (26). ولو أنه أتيت له حياة هادئة يعمل فيها عملاً يتحمل تبعته لجاز أن يهدئ ذلك من أعصابه، ولكن سم السلطة ذهب بعقله، ذلك أن صحة العقل، كالحكم، تحتاج إلى ضوابط وموازن، وما من أحد من بني الإنسان يستطيع أن يكون قادراً على كل شيء وأن يكون في نفس الوقت سليم العقل. ولما أسدت إليه جدته أنطونيا بعض النصح أنبها بقوله: "الذكري أن في مقدوري أن أفعل أي شيء بأي إنسان". وذكر لضيوفه في إحدى الولائم أن في وسعه أن يقتلهم كلهم وهم متكئون في مقاعدهم؛ وكان وهو يحتضن زوجته أو عشيقته يقول لها ضاحكاً: "سيطيح هذا الرأس الجميل بكلمة تخرج من فمي" (27).

وسرعان ما أخذ الزعيم الشاب يصدر الأوامر إلى مجلس الشيوخ ويطلب إليه الخضوع لهذه الأوامر، بعد أن كان يُظهر له أعظم الاحترام، فصار يسمح

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> جايوس

للسيوخ أن يقبلوا قدميه تعظيماً له وتبجيلاً، ثم يتقبل الشكر منهم على تشريفه إياهم بهذا التقبيل (28). وكان شديد الإعجاب بمصر وأساليبها، وأدخل كثيراً من هذه الأساليب إلى رومة، وكان يتوق إلى أن يُعيد على أنه إله كما كان يعبد الفراعنة ملوك مصر الأقدمون، وجعل دين إيزيس أحد الأديان الرسمية في الدولة، ولم ينس أن جده الأكبر كان يعترم ضم إقليم البحر الأبيض المتوسط تحت سلطان دولة ملكية شرقية، فأخذ هو أيضاً يفكر في نقل عاصمة ملكه إلى الإسكندرية، ولم يحل بينه وبين تنفيذ قصده إلا ارتيابه في ذكاء أهلها. وبصفه سوتونيوس بأنه كان يقضي وقته "فيما تعود من فصاحة أخواته كلهن" (29)، فقد بدا له أن هذه عادة من أحسن العادات المصرية القديمة. ولما مرض أوصى بأن تكون أخته دروزلا Drusilla وريثة عرشه من بعده، فلما تزوجت أرغما على أن تطلق زوجها وأخذ "يعاملها كأنها زوجة شرعية" (30). وكان يرسل إلى غيرها من النساء اللاتي يحبهن رسائل بأسم أزواجهن يبلغهن فيها نبأ طلاقهن، ثم يدعوهن إلى معانقته، فلم توجد امرأة ذات مكانة إلا دعاها إليه. على أن هذه الصلات كلها مضافاً إليها صلات بينه وبين كلا الجنسين لم تمنعه أن يتزوج أربع مرات. وحضر مرة زفاف ليفيا أريستلا Livia Orestilla وكيوس بيزو Caius Piso، فما كان منه إلا أن أخذ العروس إلى بيته، وتزوجها ثم طلقها بعد بضعة أيام.

وسمع أن لوليا يولينا Lollia Paulina بارعة الجمال، فاستدعاها إليه، وطلقها من زوجها، وأمرها ألا تكون لها من ذلك اليوم علاقة بأي رجل. وكانت زوجته الرابعة سيزونيا Caesonia حاملاً من زوجها حين تزوج بها، ولم تكن صغيرة السن أو جميلة ولكنه أحبها وأخلص لها الحب. وكانت شؤون الحكم في هذا العبث الإمبراطوري من الأمور التي لا يعبأ بها وفي وسعه أن يتركها لغيره من أصحاب العقول الصغيرة. وقد راجع كالجيولا السجل المحتوي على أسماء رجال الأعمال مراجعة تدل على

صفحة رقم : 3346

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> جايوس

مقدرة فائقة، ورقى خير هؤلاء الرجال أعضاء في مجلس الشيوخ. ولكن إسراره لم يلبث أن أفرغ خزانة الدولة من الأموال التي ملأها بها تيبيريوس، فبدها تبديداً منقطع النظر؛ من ذلك أنه لم يكن يستحم بالماء بل بالعمود، وقد أنفق على إحدى الولايم عشرة ملايين سسترس (31)، وبنى قوارب عظيمة للنزهة ذات عمد وشاد أبيها للمأدب، وحمامات، وحدائق، وأشجار فاكهة، مطعنة في مؤخرها بالجواهر. وأمر مهندسيه أن يقيموا على خليج بايا Baiae جسراً مستنداً إلى عدد من القوارب بلغ من كثرته أن عز الطعام في رومة لعدم وجود السفن لنقل الحبوب. ولما تم بناء الجسر أقيم احتفال عظيم، وأضيء مكان الاحتفال بالأضواء الغامرة على الطريقة الحديثة، وأخذ الناس يقصفون ويطيرون ويشربون، حتى انقلبت بهم القوارب وغرق منهم كثيرون. وكان من عادته أن ينثر من قصر يوليا النقود الذهبية والفضية على الشعب من تحته، ثم يراقبهم في مرح وسرور وهم يتنازعون نزاعاً قاتلاً على اختطاف هذه النقود. وبلغ من حبه للعصبة الخضراء في سباق الخيل أن منح سائق إحدى العربات مليوني سسترس، وأن بنى إسطبلاً من الرخام ومزوداً من العاج لجواد السباق انستاتس Incitatus، ودعاه إلى وليمة واقترح أن يعينه قنصلاً. وأراد أن يجمع المال اللازم لبعثه وشهوته التي لم تنقطع طوال حياته فأرجع العادة القديمة، عادة تقيم الهدايا إلى الإمبراطور؛ وكان يتسلم هذه الهدايا بيده، وهو جالس في شرفة قصره، من كل من يقدمها إليه؛ ويشجع المواطنين على أن يذكروه في وصاياهم ويجعلوه وارثاً لهم، وفرض الضرائب على كل شيء: على كل طعام يُباع، وعلى كل الإجراءات القضائية، وفرض 12.5% على أجور المحامين. ويؤكد سوتونيوس أنه فرض "على مكاسب العاهرات" ضريبة "تعادل مقدار ما تناله الواحدة منهن نظير عناقها مرة، وقرر القانون أن تظل من كانت يوماً ما عاهرة خاضعة لهذه الضريبة وإن تزوجت" (32).

صفحة رقم : 3347

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> جايوس

وكان الأغنياء في أيامه يتهمون بالخيانة ويحكم عليهم بالإعدام لتصادر أموالهم لصالح الخزائن العامة. وكان هو نفسه يبيع المجالدين والأرقاء بالمزاد العلني، ويرغم اشراف البلاد على حضور هذا المزاد والاشتراك فيه؛ وكا الواحد منهم إذا عفا فسر إعفائه بأنه عطاء، حتى إذا استيقظ وجد قد كسب ثلاثة عشر مجالداً وخسر تسعة ملايين سسترس(33)، وكان يرغم الشيوخ على أن يجادلوهم أيضاً في المجتلات. ودُبرت بعد ثلاث سنين مؤامرة للقضاء على هذا العبث المذل، ولكن كالجيو لا كشف سر المؤامرة، وانتقم لنفسه بأن فرض على البلاد عهداً من الإرهاب زاده وحشية حبه الجنوني للأذى، فكان يأمر الجلادين بأن يقتلوا الضحايا بإثخانهم بالجراح الصغيرة الكثيرة حتى يشعروا بأنعم يموتون"(34). وإذا كان لنا أن نصدق ديوكاسيوس فإنه أرغم أنطونيا جدته النقية على أن تقتل نفسها(35). ويقول سوتونيوس إنه لما قل ما يلزمه من اللحم لإطعام الوحوش التي كان يستخدمها في الألعاب أمر أن يُقدم "جميع الصلح" المساجين طعاماً لهذه الوحوش لأن في ذلك الخير كل الخير للناس، وأنه أمر أن يكون جميع رجال الطبقات العليا بالحديد المحمي وأن يُحكم عليهم بالعمل في المناجم، وأن يُلقوا للحيوانات الضارية، أو يُجسوا في أقفاص حديدية ثم تُنشر أجسامهم نصفين بالمناشير(36). تلك قصص ليس في وسعنا أن ننفیها أو نؤيدها ونحن نوردها هنا على أنها من الروايات التي كان الناس يتناقضون بها. وكل ما نستطيع أن نقوله نحن بشأنها أن سوتونيوس كان مؤرخاً ثرثاراً مولعاً باغتيال الناس، وأن الشيخ تاستس كان يكره الأباطرة، وأن ديوكاسيوس كتب تاريخه بعد مائتي عام من حكم كالجيو لا(37). وأصدق من هذه القصص في رأينا ما يروى من أن كالجيو لا أشعل نار الحرب بين الزعامة والفلسفة بنفيه كريناس سكندس Crrinas Secundus وإصدار حكم الإعدام على اثنين من المعلمين، وأدرج اسم الشاب سنكا بين أسماء المحكومين بإعدامهم، ثم أنجاه من الموت مرضه واعتقاد الإمبراطور أنه

صفحة رقم : 3348

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> جايوس

سيقضي نحبه دون حاجة إلى تجريح جسمه. ونجا كلوديوس عم كالجيو لا لأنه كان أو تظاهر بأنه أبله حقيراً غلبت عليه شهوة قراءة الكتب. وآخر ما لجأ إليه كالجيو لا من العبث أن أعلن أنه إله معبود لا يقل شأناً عن جوبيتر نفسه، وحطمت رؤوس التماثيل الشهيرة المقامة لجوف وغيره من الأرباب، ووضعت في مكانها رؤوس للإمبراطور. وكان يسره أن يجلس في هيكل كاستر وبلكس Castor and Pollux ويتلقى عبادة الناس. وكان يحلو له في بعض الأحيان أن يتحدث إلى تماثيل من تماثيل جوبيتر، وكان هذا الحديث في الغالب تأنيباً للإله، وقد استنطاع بحيلة من الحيل أن يجيب عن قصف الرعد ووميض البرق كلما قصف الأول وأومض الثاني(38). وأقام هيكلًا لعبادته، وعين له جماعة من الكهنة، وأمه بطانفة من الضحايا، وعين جواده المحبوب كاهناً من بين كهنته. وادعى أن إلهة القمر قد نزلت إليه وعانقته، وسأل فيتولوس Vitellius ألم يرها بعينه؟ فكان جواب تابعه الحكيم "لا، إن أمثالك من الآلهة هم وحدهم الذين يرى بعضهم بعضاً"(39). ولكن الناس لم تخذعهم هذه السخافات؛ من ذلك أن إسكافاً غالياً رأى كالجيو لا متخفياً في صورة جوبيتر، وسأل عن رأيه في الإمبراطور فقال "مخادع كبير". وعلم بذلك كالجيو لا ولكنه لم يعاقب الرجل لى هذه الشجاعة السارة(40). وما كاد هذا الإله يبلغ التاسعة والعشرين من عمره حتى أضحى شيخاً منهوك القوى من طول الإفراط، ولعله أصيب ببعض الأمراض السرية، وحتى كان له رأس صغير نصف أصلع فوق جسم مسترخ بدين، ووجه كالح، وعينان غائرتان، ونظرات خبيثة تتم عن الغدر والخيانة. ووافته المنية على حين غفلة، وكانت منيته على يد الحرس البريتوري الذي طالما ابتاع معونته بالهدايا. وذلك أن ضابط من ضباط الحرس يدعى كاسيوس كنيريا

صفحة رقم : 3349

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> جايوس

Cassius Chaerea أهانه كالجيو لا مراراً كثيرة بالألفاظ البذيئة التي كان يبلغها إليه كل يوم لتكون بمثابة سر الليل ووجواز المرور؛ فقتله سراً في إحدى ممرات الملهى (41). ولما ذاع الخبر في المدينة تردد أهلها في تصديقه، وظنوا أنه حيلة من حيل الإمبراطور الخبيث يريد بها أن يعرف أي الناس يبتهج بموته. وأراد مغتالوه ألا يتركوا الناس في شكهم فقتلوا زوجته الأخيرة؛ وحطمو رأس ابنته بدقه في إحدى الجدران. ويقول ديو إن كالجيو لا عرف في ذلك اليوم أنه ليس إلهاً (41).

صفحة رقم : 3350

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> كلوديوس

الفصل الثالث

كلوديوس

ترك كالجيو لا الإمبراطورية والأخطار تتهددها من كل ناحية: فالخزانة خاوية، ومجلس الشيوخ قد اضمحل وضعف شأنه، والشعب غاضب ثائر، وموريتانيا Moretania ثائرة، وبلاد اليهود قد امتشقت الحسام لأنه أصر على أن يوضع تمثاله ليعبد هيكل أورشليم، ولم يكن أحد يعرف أين يوجد الحاكم القدير الخليلق بأن يواجه المشاكل. ولكن حدث أن عثر الحرس البريتوري على كلوديوس الظاهر البلاهة مختبئاً في أحد الأركان، فنادوا به إمبراطوراً. وخشي مجلس الشيوخ صولة الجند، ولعل هذا الاختيار قد أنجاه من موقف لم يكن يحمده، وسره أن يتعامل مع إنسان متحذلق عديم الأذى بدل أن يتعامل مع رجل مجنون مستهتر لا يعبأ بشيء. ولهذا أيد الحرس في اختياره وارتقى تيبيريوس كلوديوس قيصر أغسطس جرمكوس عرش الإمبراطور في تردد وخشية. وكلوديوس هذا ابن أنطونيا ودروسس وأخو جرمكوس وليفيا، وحفيد أكتافيان وتيبيريوس كلوديوس نيرون. وكان مولده في لجدنوم (ليون الحالية) في السنة العاشرة قبل الميلاد، وكان وقت أن أختير إمبراطوراً في

الخمسين من عمره، طويل القامة ممتلئ الجسم، ذا شعر أبيض ووجه بشوش، ولكن شلل الأطفال وغيره من الأمراض قد أضعفت بنيته. وكانت ساقاه رفيفتان لا تكادان تقويان على حمله، فكان يخجل في مشيته، وكان رأسه يتأرجح فوق كتفيه. وكان مغرمًا بالخمر الجيد والطعام الشهي، وكان يشكو داء الرثية، ويتمتع قليلاً إذا تحدث، وإذا ضحك رفع صوته

صفحة رقم : 3351

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> كلوديوس

إلى حد لا يليق بالأباطرة. ويقول عنه شاننوه القساة إنه كان إذا غضب "خرج الزبد من فمه وسال المخاط من أنفه" (43). وقد قام على تربيته النساء والأرقاء المحررون، فنشأ هيباً حساساً، وهما صفتان قد تصلحان للحكام، ولم تكد تسنح له الفرص للتدريب على ممارسة شؤون الحكم. وكان أقرباؤه يرونه إنساناً مريضاً ضعيف العقل؛ وكانت أمه التي ورثت عن أكتافيان رقتها وظرفها تسميه "الهولة التي لم يكتمل خلقها"، وكانت إذا أرادت أن تعير إنساناً بشدة البلاهة وصفته بأنه: "أشد بلاهة من ابني كلوديوس". وإذا كان محتقراً من جميع الناس فقد عاش حاملاً مغموراً أمناً لذلك على نفسه، ويقضي وقته بين الميسر والكتب والشراب؛ ونقحه في اللغة وفي العاديات، وكان ضليعاً في الفنون "القديمة"، والدين، والعلوم الطبيعية، والقانون. وقد كتب تاريخاً لإتروريا، وقرطاجنة، ورومة، ورسالة في النرد، وأخرى في حروف الهجاء، وملهاة يونانية، وترجمة لحياته. وكان العلماء والفلاسفة يرسلونه ويهدون إليه مؤلفاتهم، وينقل عنه بلني الأكبر ويعده من الثقة الذين يعتمد عليهم. وقد علم الناس وهو إمبراطور كيف يعالجون عض الأفاعي، وهذا مخاوف الشعف الخرافية بأن تنبأ بكسوف الشمس في يوم ميلاده وفسر لهم سبب هذا الكسوف. وكان يحسن الكلام باللغة اليونانية، وكتب عدداً من مؤلفاته بهذه اللغة؛ وكان حسن النية، ولعله كان صادقاً حين قال في مجلس الشيوخ إنه كان يتظاهر بالغبوة لينجو من الموت. وكان أول أعماله وهو إمبراطور أن منح كل جندي من جنود الحرس الذين رفعوه على العرش خمسة عشر ألف سسترس. وكان كالجيولا قد وهبهم من قبل هبات من هذا النوع ولكنه لم يهبها لتكون ثمناً صريحاً لعرش الإمبراطورية. واعترف كلوديوس وقتئذ بسلطان الجيش وسيادته في الوقت الذي ألغى فيه مرة أخرى حق الجمعية في اختيار كبار الحكام. وكان أكثر حكمة وكرماً من سلفه، فوضع حداً للاتهام بالخيانة، وأطلق

صفحة رقم : 3352

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> كلوديوس

سراح من سجنوا من قبل بمقتضى هذا الاتهام، وأعاد جميع المنفيين إلى أوطانهم، ورد الأموال المصادرة إلى أصحابها، وألغى الضرائب التي فرضها جايوس. ولكنه أمر بإعدام قتلة كالجيولا، وحجته في هذا أن الخطر كل

الخطر في التغاضي عن قتلة الأباطرة. وحرمة عادة السجود للإمبراطور، وأعلن في صراحة أنه لا يريد أن يتخذ إليها يعبد. وحذا خذو أغسطس في إصلاح المعابد ودفعه شغفه بالآثار القديمة إلى السعي لبعث الدين القديم. وانكب بجد وإخلاص على العناية بالشؤون العامة، وبلغ من عنايته بها أن كان "يطوف بمن يبيعون السلع ويؤجرون المباني، ليقوم كل ما يعتقد أن فيه ضرراً بمصالح الشعب" (44). لكنه وإن جرى أغسطس في اعتداله، وخرج عن تحفظ أغسطس وحذره إلى سياسة قيصر الجريئة المتشعبة، فسعى إلى إصلاح أداة الحكم والقانون، وأنشأ المباني والخدمات العامة، وأعلى من شأن الولايات، ومنح الحقوق الانتخابية لغاللة وفتح بريطانيا وصبغها بالصبغة الرومانية. وقد أدهش الناس جميعاً حين أظهر أنه ذو خلق وإرادة، وليس ذا علم وذكاء فحسب. ولم يكن أقل ثقة من قيصر وأغسطس بأن كبار الحكام في الأقاليم قليلو العدد ناقصو المران، وأن مجلس الشيوخ يمنعه كبرياؤه ونزقه من الاضطلاع بمهام الإدارة البلدية والإمبراطورية المعقدة المتنوعة؛ ومن أجل هذا كان يعظم المجلس فترك له سلطات كثيرة، ومظاهر شرف وكرامة من هذه السلطات؛ أما شؤون الحكم الحقيقية فكان يضطلع بها نفسه يعاونه بها مجلس يعين هو أعضاؤه، وهيئة من الموظفين العموميين نظمها تدريجياً واختار أفرادها، كما اختارهم قيصر وأغسطس وتيبيريوس، من أرقاء بيت الإمبراطور المحررين؛ واستخدم في الأعمال الكتابية والواجبات الصغرى أرقاء "عموميين". وكان على رأس هذه الإدارة البيروقراطية أربعة وزراء: وزير دولة ("للمواصلات" ab epistulis)، ووزير مالية ("للهسابات" a rationibus)، ووزير آخر ("للمتمسكات" a libellis)، ونائب عمومي ("القضايا القانونية" a cognitionibus). وتولى الثلاثة

صفحة رقم : 3353

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> كلوديوس

المناصب الأولى ثلاثة من أقدر الأرقاء المحررين-نارسس Narcissus، وبلاس Pallas، وكالستس Callistus. وكاب ارتقاؤهم إلى هذه المناصب ذات الثراء والجاه إذاناً بارتفاع شأن طبقة المحررين إلى أعلى الدرجات، وهو ارتقاء كان يسير في مجراه منذ قرون عدة، وبلغ في عهد كلوديوس هذه الدرجة الرفيعة. ولما احتج الأشراف على وضع السلطة في أيدي هؤلاء العصاميين الحديثي النعمة كان جواب كلوديوس أن أعاد منصب الرقيب، وأن اختير هو ليشغل هذا المنصب، وأن أعاد النظر في سجل الأشخاص الذين يختار منهم أعضاء المجلس، فحاش منه أسماء كبار المعارضين لسياسته، وأضاف إليه أعضاءً جديداً من الفرسان من أهل الولايات. ولما تهيأت له هذه الأداة الإدارية وضع لنفسه منهاجاً واسعاً من المنشآت العامة والإصلاحات، فأصلح نظام المرافعات أمام المحاكم وفرض عقوبات على تأخير القضايا، وجلس على منصة القضاء ساعات طويلاً كل أسبوع، وحرّم تعذيب أي أحد من المواطنين. وأراد أن يقي مدينة رومة غائلة الفيضانات المخربة التي أصبحت تهددها أكثر من ذي قبل لأن سفوح الأبنين أخذت تجرد من الأشجار، فأمر بحفر مجرى إضافي في الجزء الأدنى من نهر التيبر. ولكي يعجل باستيراد الحبوب إلى إيطاليا أمر بإنشاء مرفأً جديد بالقرب من أستييا Ostia، وأقام مخازن، وأحواضاً، ورسيفين عظيمين لتقليل حدة أمواج البحر، وحفر قناة توصل الميناء بنهر التيبر في نقطة بعيدة عن مصبه الذي يسده الغرين. وأتم بناء قناة "كلوديوس" التي بدأها كالجيو لا لنقل الماء العذب إلى رومة، وشاد قناة أخرى، وكانت كلتاها من الأعمال الضخمة المشهورة بجمال منظرها ويعقودها الشامخة. ولما رأى أن أراضي المرسيين Marsians تتحول في بعض فصول السنة إلى منافع حين تفيض بحيرة فوستس، خصص جانباً من أموال الدولة تؤدي من أجور 30.000 عامل مدة أحد عشر عاماً

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> كلوديوس

ليحفروا نفقاً طوله ثلاثة أميال يصل البحيرة بنهر سريرز Ciris مخترقاً بعض الجبال. وقبل أن تتطلق مياه البحيرة في هذا النفق أجرى فوق مياه البحيرة معركة بحرية صورية بين أسطولين عليهما تسعة عشر ألفاً من المجرمين الذين أدانتهم المحاكم، وشهدا خلانق أجمعون من كافة أنحاء إيطاليا فوق الثلث المشرفة على البحيرة. وحيث هذه الجموع الإمبراطور بالعبارة المأثورة: "مرحباً بقيصر! نحن الذين نوشك أن نموت نحييك Ave Caesar! Morituri Salutamus(45).

وازدهرت أحوال الولايات في عهده كما ازدهرت في عهد أغسطس، وعاقب الموظفين على سوء استخدام وظائفهم إلا في حالة واحدة هي حالة فلكتس المدعي العمومي في بلاد اليهود، وذلك لأن بلاس Pallas شقيق الشخص الذي نم على القديس بولس أخفى جرائمه عن الإمبراطور، وكان يهتم بكل صغيرة وكبيرة من أعمال الولايات. وتمتاز مراسيمه التي عثر عليها في كافة أنحاء الإمبراطورية بالإسهاب والتكرار، ولكنها تكشف عن عقلية وعن إرادة منصرفتين إلى تحقيق الصالح العام. وقد بذل جهده لإصلاح المواصلات والنقل، وحماية المسافرين من اعتداء اللصوص وقطاع الطرق، وفي خفض ما تتكلفه الهيئات من نفقات الوظائف العامة المنشأة لخدماتها. وكان يرغب كما يرغب قيصر في رفع شأن الولايات حتى تعادل إيطاليا نفسها وحتى تكون كلها وحدات متساوية في مجموعة الأمم الرومانية، فنفذ ما كان يعتزمه قيصر من منح حقوق المواطنة الرومانية لبلاد غالة الجنوبية، ولو استطاع أن ينفذ رغباته لمنح هذا الحق لجميع الأحرار في الإمبراطورية(46). ولقد كشفت في مدينة ليون عام 1524 لوحة برونزية احتفظت لنا بجزء من الخطبة الطويلة الكثيرة الاستطراد التي ألقها بها مجلس الشيوخ بأن يقبل في عضويته وفي المناصب الإمبراطورية أولئك الغالين الذين منحوا حق المواطنة الرومانية، ولم يسمح في الوقت نفسه بأن يضعف الجيش أو يعتدي على حدود الدولة، فظل الجيش عاملاً

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> كلوديوس

قائماً بمهمته ومستعداً على الدوام للقيام بها، ونشأ في أيامه قواد عظام أمثال كربولا Carbula، وفاسبازيان Vespasian، وبولينس Paulinus، وتكونوا بفضل اختياره وتشجيعه. وقرر كذلك أن يتم مشروعات قيصر، فغزا بريطانيا في عام 43 وفتحها، وعاد منها إلى رومة بعد أن غاب عنها ستة أشهر، ولما أقيم له احتفال بالنصر بعد عودته خالف جميع السوابق بأن عفا عن كركتاكوس Caractacus ملكها الأسير. وسخر أهل رومة من عمل إمبراطورهم العجيب ولكنهم أحبوه، ولما أن راجت مرة من المرات في أثناء غيابه عن العاصمة، شائعات كاذبة بأن الإمبراطور قد قتل، عمت المدينة موجة من الحزن لم يسع مجلس الشيوخ معها إلا أن يؤكد للناس تأكيداً رسمياً بأن الإمبراطور لم يُصب بسوء، وأنه سيعود قريباً إلى رومة.

لكنه سقط من هذا العلو الشاهق لأنه أقام نظاماً للحكم أكثر تعقيداً مما يستطيع الإشراف عليه بنفسه، ولأن عبده المحررين وأفراد أسرته أساءوا استغلال لطفه وعطفه. لقد أصلحت البيروقراطية التي أنشأها أحوال الإدارة، ولكنها فتحت فيها آلاف الثغرات للرشا والفساد؛ وكان نارسس وبلاس من أعظم رجال السلطة التنفيذية الذين يرون أن مرتباتهم أقل من كفايتهم، فكانا يستعيزان عن هذا الفرق ببيع المناصب وأغتصاب الرشا بالتهديد، وتوجيه التهم الكاذبة إلى من يريدون مصادرّة ضياعهم من الأثرياء. وكانت نتيجة ذلك أن أصبحا أغنى الناس جميعاً في التاريخ القديم كله، فكان نارسس يمتلك 400.000.000 سسترس (86.000.000 ريال أمريكي) وكان بلاس يشكو الأيوس لأنه لم يكن له إلا 300.000.000 فقط (47). ولما شكّا كلوديوس من وجود عجز في خزانة الإمبراطورية، قال الثرثارون الرومان إن في وسعه أن ينال كفايته من المال وفوق كفايته منه إذا أشرك معه في الحكم عبيده المحررين (48). وروعت هذه السلطات العظيمة والأموال المكدسة الأسر الشريفة القديمة التي أضحت وقتئذ فقيرة

صفحة رقم : 3356

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> كلوديوس

إلى هؤلاء العصاميين، وكانت تتلظى غيظاً حين تضطر إلى رجاء العبيد السابقين أن يسمحو لها بأن تتحدث إلى الإمبراطور.

أما كلوديوس فقد كان منهمكاً في العمل، يكتب إلى الموظفين والعلماء، ويعد المراسيم والخطب، ويؤدي حاجات زوجته. ذلك رجل كان خليقاً به أن يعيش عيشة الرهبان، وأن يحصن نفسه من الحب، لأن زواجه كن سبباً في القضاء عليه، كما كانت سياسته في منزله أقل نجاحاً من سياسته الخارجية. وقد تزوج كما تزوج كالجيو لا أربع مرات، فأما زوجته الأولى فماتت في يوم زفافها، وأما الثانية والثالثة فقد طلقهما؛ ولما كان في الثامنة والأربعين من عمره تزوج فليريا مسالينا وهي فتاة في السادسة عشر، ولم تكن بارعة الجمال. فقد كان رأسها مستويًا، ووجهها متورداً، وصدرها قبيح الشكل (49). ولكن المرأة ليست في حاجة إلى الجمال لكي تكون زانية، ولما أن اعتلى كلوديوس عرش الإمبراطورية تخلقت بأخلاق نساء الملوك، وادعت لنفسها حقوقهن، فكانت ترافقه في مواكب نصره، وعملت على أن تحتفل بعيد ميلادها في سائر أنحاء الإمبراطورية. ثم أحببت الراقص منستر Mnester، ولما صد عنها طلبت إلى زوجها أن يأمره بأن يكون أكثر إطاعة لرجائها؛ وأجابها كلوديوس إلى ما طلبت، وخضع الراقص إليها استجابة لدواعي الزنوية. وابتهجت مسالينا بنجاحها في خطتها التي لم تكلفها أقل العناء، واتبعها مع غيره من الرجال؛ فأما الذين لم تتجح معهم هذه الخطة وظلوا على صدورهم فقد آتهم الموظفون الخاضعون لسلطانهم بجرائم اخترعوها من عندهم اختراعاً، فصودرت أملاكهم وحرموا من حريتهم ومن حياتهم نفسها في بعض الأحيان (50).

ولعل الإمبراطور كان يسمح بهذا العبث وتلك الأعمال الشاذة ليضمن لنفسه هو الآخر حرية الاستمتاع بما يريد من الملاذ، "فقد كان مفرطاً في شهواته

صفحة رقم : 3357

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> كلوديوس

النسائية" كما يقول سوتونيوس، ثم يضيف عليه بعدئذ هذا الميزة العجيبة التي يفضل بها غيره من الناس فيقول: "وكان مبرءاً من الرذائل غير الطبيعية" (51) ويقول ديو: إن مسالينا "كانت تقدم إليه بعض الفتيات ذوات الجمال الجذاب ليضاجعهن" (53). وإذ كانت الإمبراطورة في حاجة إلى المال تستعين به على عيشها واستهتارها فقد كانت تبيع المناصب، والتوصيات، وعقود الأعمال العامة. ونقل المؤرخون عن جوفنال أنها كانت تدخل المواخير متخفية، وتستقبل كل من يدخلها، وتأخذ منهم كل ما يقدمون لها من الأجور وهي منشرفة الصدر راضية. وأكبر الظن أن هذه القصة منقولة عن المذكرات الضائعة التي كتبتها أجرينينا الصغرى التي خلفت مسالينا وكانت من ألد أعدائها. ويروي تاسيتس أنه "بينما كان كلوديوس يقضي وقته كله في تصريف شؤون منصب الرقيب الذي كان يتولاه" (53) -والذي يشمل فينا يشمل من الواجبات رفع مستوى أخلاق الرومان- كانت مسالينا "تطلق العنان لحبها"، وبلغ من استهتارها آخر الأمر أن تزوجت رسمياً من شالب وسيم يُدعى كايوس سليوس Caius Silius حين كان زوجها غائباً في أستيا، وأن تزوجت به "في احتفال مهيب صحبته كل المراسيم المعتادة" (54). وأبلغ نارسس النبأ إلى الإمبراطور عن طريق سراريه (55)، وحذروه من مؤامرة تُدبر لاغتيا له وإجلاس سيلبيوس مكانه على العرش. فعجل كلوديوس بالعودة إلى رومة، واستدعى الحرس البريتوري، وأمر بذبح سيلبيوس وغيره من عشاق مسالينا ثم أوى إلى حجراته محطماً الأعصاب منهوك القوى. أما الإمبراطورة فقد أخفت نفسها في حدائق لوكلس التي كانت قد صادرتها لتتخذها مسرحاً للهوها وملذاتها. وبعث إليها كلوديوس برسالة يدعوها فيها إلى الحضور للدفاع عن نفسها. وخشي نارسس أن يصفح عنها الإمبراطور ويصب جام غضبه عليه هو فأرسل إليها بعض الجند وأمرهم بقتلها، فوجدوها وحدها مع أمها، وقتلها بعضهم بضربة واحدة وترك جثتها بين ذراعي

صفحة رقم : 3358

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> كلوديوس

أما (48). وقال كلوديوس لحرسه البريتوري إنهم في حل من دمه إذا تزوج مرة أخرى ولم يرد ذكر مسالينا على لسانه من تلك الساعة . ولكن لم تمض سنة على وعده حتى كان يتردد بين الزواج من لوليا بولينا Lollia Paulina أو من أجرينينا الصغرى. فأما لوليا زوجة كالجيو لا السابقة فكانت ذات ثروة طائلة، ويقال أنها كانت في بعض الأحيان تتحلى بجواهر تبلغ قيمتها أربعين مليون سسترس (59)، ولعل كلوديوس كان يُعجب بمالها أكثر من إعجابه بذوقها؛ وأما أجرينينا فكانت ابنة أجرينينا الكبرى من جرمنكوس. وكانت هي الأخرى يجري في عروقتها دم أكتافيان وأنطونيوس اللذين مات عدوين. وقد ورثت من أمها جمالها، وكفايتها، وقوة عزيمتها وحبها للانتقام حياً لا يحد منه شيء من وخز الضمير. وكانت قد تزلت مرتين، ورزقت من زوجها الأول أكنيوس دوميتيوس أهينو باريس Cnoeus Domitius Ahenobarbus ابنها نيرون وكان كل منهما طول حياتها أن يرقى ابنها هذا عرش الإمبراطورية. وأما زوجها الثاني كايوس كرسبس Caius Crispus الذي تقول الشائعات إنها قتلتها بالسم فقد ورثت عنه الثروة الطائلة التي استخدمتها للوصول إلى أغراضها. وكان هدفها أن تتزوج كلوديوس، وأن تتخلص بوسيلة ما من ابنه برتلكس، وأن تجعل نيرون بعد أن يتبناه كلوديوس وارث العرش من بعده. ولم يعفها عن تنفيذ قسدها أنها ابنة أخت كلوديوس، بل أتاحت هذه الصلة فرصاً ثمينة للاتصال بالحاكم الشيخ اتصالاً أثار فيه عواطف ليست من قبيل عواطف الخال نحو ابنة أخته. ولم يكن منه إلا أن وقف فجأة أمام مجلس الشيوخ وطلب أن يأمره بالزواج

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> كلوديوس

مرة أخرى لخير الدولة؛ ووافق المجلس على طلبه، وسخر منه رجال الحرس البريتوري، ووصلت أجرينينا إلى العرش(45). وكانت وقتئذ في الثانية الثلاثين من عمرها، أما كلوديوس فكان في السابعة والخمسين؛ وكانت قواه أخذة في الانحلال، أما هي فكانت في عنفوان قوتها، وتغلبت عليه بكل ما وهبت من سحر وفتنة، فأقنعته بأن يتبنى نيرون وأن يزوج الشاب البالغ من العمر ستة عشر عاماً بابنته أكتافيا وهي فتاة في الثالثة عشر من عمرها(53). ولما تم هذا أخذت تزيد من سلطانها السياسي عاماً بعد عام، حتى استطاعت في آخر الأمر أن تجلس معه على سرير الملك، ثم استدعت الفيلسوف سنكا من حيث كان منفياً بأمر كلوديوس، وعينه مدرساً خاصاً لابنها (49)، وأفلحت في تعيين صديقها بروس Burrus رئيساً للحرس البريتوري. فلما استحوذت على السلطان بهذه الطريقة حكمت البلاد حكماً قوياً خليفاً بالرجال، وساد النظام والاقتصاد في بيت الإمبراطور؛ ولو أنها لم تطلق العنان لجشعها وحرصها على المال وحبها للانتقام لكان حكمها خيراً لرومة ورحمة بها. ولكنها أطلقت العنان لهذا الجشع فأمرت بقتل لوليا بولينيا لأن كلوديوس نطق عفواً في لحظة من اللحظات بكلمة أشار فيها إلى رشاقة لوليا وهي إشارة لا تعفو عنها قط زوجة. ثم أمرت بدس السم لماركس سلانس Marcus Silanus لخوفها أن يعينه كلوديوس والائناً له من بعده، وانتمرت مع بلاس ونارسس، وبذلك قضى ملك المال، الذي لم يكن وفاؤه يقل عن ثلوث يده، بقية حياته في السجن. وكان الإمبراطور قد أضعفه اعتلال صحته، وجهوده الفنية، ومغامراته النسائية، فترك بلاس وأجرينينا يروعان البلاد بحكم إرهابي آخر. فكان الناس ينتهبون وينفون أو يقتلون لأن الخزانة خلت من المال الذي انفق في الأعمال العامة والألعاب وأضحيت في حاجة إلى أن تملأ بالأموال المصادرة. وكانت نتيجة هذا أن خمسة وثلاثين من الشيوخ وثلثمائة من الفرسان حكم عليهم بالإعدام في

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> كلوديوس

الثلاثة عشر عاماً التي حكمها كلوديوس. وقد يكون لبعض هذه الأحكام ما يبررها الآن من نفذت فيهم دبروا المؤامرات أو ارتكبوا الجرائم، وإن كنا لا نستطيع أن نقرر هذا واتقين. ولقد ادعي نيرون فيما بعد أنه فحص عن جميع أوراق كلوديوس، وأنه تبين من ذلك الفحص أن الإمبراطور نفسه أمر بأن يحاكم كل واحد ممن سبقوا أمام القضاء(60).

وتنبه كلوديوس إلى ما كانت تفعله أجربينا بعد زواجه بها، فاعتزم أن يضع حداً لسلطانها، وأن يفسد عليها ما دبرته لنيرون، فيعين برتنكس وارثاً للملك من بعده، ولكن أجربينا كانت أقوى منه عزماً وأقل منه إصغاءً لصوت الضمير، فلما علمت نية الإمبراطور جازفت بكل شيء، فأطعمت كلوديوس فطيراً ساماً قضى عليه بعد أيام مبرحة دامت اثنتي عشرة ساعة دون أن يستطيع النطق بكلمة واحدة (54). ولما ألهمه مجلس الشيوخ، وكان نيرون قد اعتلى العرش، قال إنه لا يشك في أن الفطير هو طعام الآلهة، لأن كلوديوس أصبح بعد أن أكله إلهاً يعبد (61).

صفحة رقم : 3361

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

الفصل الرابع

نيرون

ينتمي نيرون من جهة أبيه إلى أسرة الدوميتيين الأهينوياربيين (Ahenobarbi) Domit، وقد لقبوا بهذا اللقب لأن رجال هذه الأسرة كانت لهم لحي شبيهة في لونها بلون البرونز. وقد اشتهروا في رومة مدى خمسمائة عام بقدرتهم وجرأتهم، وغطرستهم، وشجاعتهم، وقسوة قلوبهم. وكان جد نيرون لأبيه مولعاً بالألعاب والمسرح، وكان يسوق عربة في السباق، وينفق الكثير من الأموال على الوحوش والمجتلدات، وقد اضطر أغسطس إلى تأنيبه لقسوته الوحشية في معاملة موظفيه وأرقائه. وقد تزوج بأنطونيا ابنة أنطونيوس وأكتافيا. وزاد ابنه أكنيوس دوميتيوس من شهرة الأسرة بانهماكه في الفسق، ومضاجعه المحارم، والوحشية والخيانة. وقد تزوج في عام 28 م بأجربينا الثانية ولم تكن وقتئذ تزيد على الثالثة عشرة من عمرها، وإذا كان على علم بأبائه زوجته وأبائه فقد اعتقد: "أن لا خير مطلقاً يمكن أن يؤدي إليه قراننا" (62). وقد أطلقنا على ابنهما الوحيد اسم لوسيوس Lucius وأضافا إليه لقب نيرون، ومعناه في اللغة السبينية: القوي الشجاع.

وكان أهم من علموه هما كرمون Chaeremon الرواقي الذي علمه اللغة اليونانية، وسنكا الذي علمه الأدب والأخلاق ولكنه لم يعلمه الفلسفة؛ ذلك أن أجربينا منعت من تعلم الفلسفة لزعمة أنها تجعل نيرون غير صالح لتولي عرش الإمبراطورية (63). وما من شك في أن نتيجة هذا التحريم تشهد بفضل الفلسفة. وقد شكنا سنكا، كما يشكو كثير من الأساتذة، من أن الأم كانت تقصد عليه عمله بتدخلها فيه، فقد كان الغلام يهرول إليها كلما أتبه مدرسه، ولم يكن يشك في أنها ستحنو عليه وتدله. وقد حاول

صفحة رقم : 3362

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

سنا أن ينشئه على حب التواضع، ودمائة الخلق، والبساطة، والتعسف، والصبر على الشدائد؛ وإذا كان قد حرم عليه أن يفصل له القول في عقائد الفلاسفة وجدلهم، فلا أقل من أن يهدي إليه الرسائل البليغة التي كان يؤلفها، ويأمل أن يقرأها تلميذه في يوم من الأيام. وكان الأمير الشاب طالباً مجداً، وكان في وسعه أن يكتب شعراً لا بأس به، وأن يخطب في مجلس الشيوخ بالرفقة والأدب اللذين كان يخطب بهما أستاذه نفسه. ولما مات كلوديوس لم تجد أجربينا صعوبة ما في تثبيته على العرش، وخاصة بعد أن ضمن له بروس تأييد الحرس بكامل قوته. وكافاً نيرون الجند مكافأة مجزية ووهب كل مواطن أربع مائة سسترس، وألقى في تآبين سلفه خطبة أثنى عليه فيها ثناء جماً، كتبها له سنكا (64). وهو الذي نشر بعد قليل بغير توقيع هجاء مقذعاً في الإمبراطور المتوفي قال فيه إنه طرد من أولمبس. وقد نيرون مظاهر الخضوع المعتادة إلى مجلس الشيوخ، واعتذر في أدب وتواضع عن صغر سنه، وأعلن أنه لن يحتفظ بشيء من السلطات التي كان الزعيم يتمتع بها حتى ذلك الوقت عدا قادة الجيوش - وهو اختيار عملي يشعر بذكاء تلميذ الفيلسوف. والراجح أنه كان مخلصاً في وعده - لأن نيرون وفي به بأمانة مدى خمسة أعوام (65) - وهي الخمسة أعوام النيرونية Quinquennium Neronis التي كان تراجان يراها خير السنين في تاريخ الحكومة الإمبراطورية (66). ولما اقترح مجلس الشيوخ أن تقام تماثيل من الذهب والفضة تكريماً له، رفض الإمبراطور الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره هذا العرض. ولما اتهم رجلان بأنهما يفضلان عليه برتنكس أمر أن يلغى هذا الاتهام؛ وتعهد أمام مجلس الشيوخ أن يتمسك طوال حكمه بفضيلة الرحمة التي كان سنكا وقتئذ يمجدها في إحدى رسائله المسماة De Clementia (الرحمة). ولما طلب إليه مرة أن يوقع وثيقة بإدانة أحد المجرمين قال في حسرة:

صفحة رقم : 3363

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

"اليتني لم أتعلم قط الكتابة!" وقد خفض الضرائب الباهظة أو ألغاهاء إغاء تاماً، وخصص معاشات سنوية للمنازين من الشيوخ الذين أحنى عليهم الدهر. وإذا كان يعرف أن عقله لم ينضج بعد، فقد سمح لأجربينا أن تدير له شؤنه، فكانت تستقبل السفراء، وأمرت أن تنقش صورتها على نقود الإمبراطورية إلى جانب صورته. وارتاع سنكا وبروس لتدخل الأم في شئون الحكم فاتفقا على أن يضربا على وتر كبرياء نيرون لينالا لأنفسهما حق القيام بمهام الحكم. واستشاطت الأم غضباً فأعلنت أن برتنكس الوارث الشرعي للعرش، وأنذرت ولدها بأنها ستسقطه بنفس الوسائل القوية التي استخدمتها في رفعه. ورد نيرون على هذا التهديد بأن أمر بدس السم لبرتنكس فما كان من أجربينا إلا أن أوت إلى قصرها الصغير وكتبت فيه مذكراتها، وهي آخر سهم في كنانتها، وطعنت فيها على جميع أعدائها وأعداء أمها، واغترف منها تاستس وستونيوس ذلك التيار الجارف من المثالب والأعمال الوحشية التي صورها بها النواحي السوداء من صور تيبيريوس وكلوديوس ونيرون.

وعم الرخاء الإمبراطورية، وصلحت أحوالها الداخلية والخارجية، بفضل إرشاد الفيلسوف الأول وقوة النظام الإداري الذي كانت تناس به شؤنها. فوضعت على الحدود حراسة قوية، وظهرت البحر الأسود من القرصنة، وأعاد كريولا أرمينية إلى حظيرة الإمبراطورية بأن بسط عليها الحماية الرومانية، ووقعت بارثيا معاهدة صلح دامت خمسين عاماً،

وقلت الرشوة في دور القضاء وفي الولايات، وأصلحت أحوال الموظفين في دواوين الحكومة، وصرفت الشئون المالية بالاقتصاد والحكمة، واقترح نيرون لولهل ذلك كان بايعاز من سنكا ذلك الاقتراح البعيد الأثر القاضي بإلغاء جميع الضرائب غير المقررة، وخاصة الرسوم الجمركية التي كانت تجبي عند الحدود وفي الثغور، حتى تكون التجارة حرة في جميع أنحاء الإمبراطورية. غير أن مجلس الشيوخ لم يوافق على

صفحة رقم : 3364

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

هذا الاقتراح، متأثراً في ذلك بنفوذ نقابة الجباة. وتدل هذه الهزيمة على أن الزعامة كانت لا تزال تلتزم حدود سلطتها الدستورية. وأراد سنكا وبروس أن يمنعا نيرون من التدخل في شئون الدولة فتركاها ينهمك في ملذاته الجنسية كما يهوى. وفي ذلك يقول تاستس: "لم يكن ينتظر من الأباطرة أن يحيوا حياة التقشف وكبح الشهوات في الوقت الذي كانت فيه الرذيلة تستهوي جميع طبقات الناس". ولم تكن العقائد الدينية تشجع نيرون على أن يراعي جانب الفضيلة؛ ذلك أن القدر الضئيل الذي ناله من الفلسفة قد حرر عقله من قيود الدين دون أن ينضج حكمته. "فقد كان يزدري جميع أنواع العبادات" كما يقول ستونيوس. "ويسلح على صورة الآلهة سيبيل-التي كان يجلها أعظم الإجلال" (68). وكان نهماً مفرطاً في الطعام، غريب الأطوار والشهوات، ينفق على الولائم بغير حساب، حتى كانت أزهار الوليمة وحدها تكلفه أربعة ملايين سسترس (69). وكان يقول في هذا إن البخلاء وحدهم هم الذين يحسبون ما ينفقون. وكان يعجب بكيوس بترونيوس Caius Petronius ويحسده لأن هذا الشريف المثري علمه طرقاتاً جديدة للجمع بين الفضيلة والذوق السليم. ويقول تاستس في فقرة ماثورة يصف فيها المثل الأعلى للآبيقورية إن بترونيوس "كان يقضي أيامه في النوم ولياليه في العمل، والمرح واللهو. وكان الخمول شهوته وطريقه إلى الشهرة، وكان ينجز بحب اللذات والراحة المترفة ما ينجزه غيره بالقوة والجد. ولم يكن كغيره من الناس الذين يجهرون بأنهم يعرفون كيف تكون المتعة الاجتماعية، ثم يبددون في ذلك أموالهم، بل كان يحيا حياة كثيرة النفقة ولكنها خالية من التبذير، فكان آبيقورياً ولكنه غير مسرف، يطلق العنان لشهواته ولكنه يستمتع بها في تجمل وحكمة. وهو شهواني متعلم رقيق الحاشية، حديثه مرح ممتع لطيف، يخلب لب من يستمع له بشيء من عدم الاكتراث اللطيف الباعث على السرور. وكان أكثر ما يبعث السرور في حديثه أنه ينساب

صفحة رقم : 3365

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

انسياً طبيعياً غير متكلف من مزاجه الصريح. ولقد أظهر وهو وال على بيثينيا، كما أظهر وهو قنصل، أن قوة العقل ودمائة الخلق قد تجتمعان معاً في شخص واحد، وذلك رغم ما كان يتصف به من دقة، وأخذ الأمور في يسر وإهمال... وكان يعود من أعماله الرسمية إلى مألوف حياة اللذة والمتعة، مولعاً بالرزيلة أو بالملاذ التي تقترب من حدود الرذيلة، وكان نيرون وعصيته مولعين بحسن الذوق والرشاقة فكانوا لذلك يتخذونه المحكمي كل ما يتصل بهما، ولم يكن شيء بديعاً، كما لم يكن شيء ساراً أو نادراً إلا إذا أراد هو أن يكون (70). ولم يبلغ نيرون من الرقة مبلغاً يصل به إلى هذه الأبيقورية الفنية، بل كان يتخفى ويزور المواخير، ويطوف بالشوارع، ويتردد على الحانات بالليل في صحبة أمثاله من رفاق السوء يسطون على الحوانيت ويسئون إلى النساء، ويفسقون بالعلمان، ويجردون من يقابلون مما معهم، ويضربونهم، ويقتلونهم" (71) وحدث أن شيخاً لجأ إلى القوة في رد اعتداء الإمبراطور عليه فأرغم بعد قليل على أن يقتل نفسه. وحاول سنكا أن يوجه شبق الإمبراطور نحو معتوقة تدعى كلوديا أكتي Claudia Acte، فلما تبين له أن أكتي وافية له وفاء تعجز بسببه بالاحتفاظ بحبه استبدل بها امرأة بارعة في كل فنون العشق تدعى بوبيا سابينا Poppea Sabina. وكانت بوبيا تنتمي إلى أسرة عريقة ذات ثروة طائلة، يقول عنها تاستس إنها "كان لها نصيب موفور من كل شيء إلا الشرف". وكانت من النساء اللواتي يقضين النهار كله في تزيين أنفسهن، ولا يحيين قط إلا حين يرعبن في الحياة. وحدث أن افتخر زوجها بجمالها أمام نيرون، فما كان من الإمبراطور إلا أن عينه والياً على لوزتانيا Lusitania (البرتغال) وضرب حصاراً على بوبيا، ولكنها أبت أن تكون عشيقه له، وقبلت أن تتزوجه إذا طلق أكتافيا. وكانت أكتافيا قد صبرت على مساوى نيرون صبر الكرام، وحافظت

صفحة رقم : 3366

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

على تواضعها وعفتها وسط تيار الدعارة الجارف التي اضطرت أن تحيا في غمرته من يوم مولدها، ومما يذكر بالفضل لأجربينا أنها ضحت بحياتها في الدفاع أكتافيا ضد بوبيا، فلم تترك وسيلة تثني بها الإمبراطور عن طلاق أكتافيان إلا لجأت إليها؛ وبلغ من أمرها أن عرضت محاسنها على والدها، وقاومتها بوبيا مقاومة شديدة وتغلبت عليها، ولجأت في كفاحها إلى نزع الشباب، فعيرت نيرون بأنه يخشى والدته، وأقنعت به بأن أجربينا كانت تأتمر به لتسقطه، وما زالت به حتى رضي في ساعة من ساعات جنون الشهوة أن يقتل المرأة التي حملته في بطنها وأعطته نصف العالم. وقد فكر أولاً في أن يقتلها مسمومة، ولكنها كانت قد حصنت نفسها من السم بما تعودته من الأدوية المضادة له. ثم حاول أن يقتلها غرقاً ولكنها أنجبت نفسها بالسباحة من السفينة التي تحطمت بتدبير الإمبراطور. وطاردها رجاله إلى دارها، فلما قبضوا عليها خلعت ثيابها وقالت لهم: "ادفعوا سيوفكم في رحمي" واحتاج قتلها إلى عدة طعنات، ولما رأى الإمبراطور جثتها العارية كان كل ما قاله: "لم أكن أعرف أن لي أمّاً بهذا الجمال" (72). ويقال إن سنكا لم تكن له يد في هذه المؤامرة، ولكن أسوأ ما خط في تاريخ الفلسفة وأدعاه للأسى هو تلك السطور التي تشرح كيف كتب الفيلسوف الرسالة التي وجهها نيرون إلى مجلس الشيوخ يقول فيها إن أجربينا تأتمر بالزعيم، فلما افتضح أمرها انتحرت (73). وقبل مجلس الشيوخ هذا التفسير في سرور ظاهر، وأقبل أعضاؤه مجتمعين ليهنئوا نيرون لما أن عاد إلى رومة، وحمدوا للآلهة أن كلاته بعنايتها وأنجته من كل سوء. وإن المرء ليصعب عليه أن يصدق أن هذا الإنسان الذي قتل أمه شاب في الثانية والعشرين من عمره، مغرم بالشعر والموسيقى والفنون الجميلة، والتمثيل والألعاب الرياضية؛ وأنه كان يعجب باليونان لمبارياتهم التي تنمي فيهم القوة الجسمية والمهارة الفنية، وأنه عمل على إدخال هذه المباريات في رومة فأقام في

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

عام 59 ألعاب الشباب Ludi Iuvenales، وأنشأ في السنة التالية الألعاب النبرونية Neronia على نمط الاحتفال الذي كان يقام كل أربع سنين في أولمبيا، ويشمل سباقاً للخيل، ومباريات الألعاب الرياضية، وفي "موسيقى" ويدخل فيها الخطابة والشعر، وبنى لذلك مدرجاً كبيراً وملعباً رياضياً وحماماً فخماً، وأنه يمارس الحركات الرياضية بمهارة فائقة، كما كان مولعاً بسوق العربات، وأنه اعتزم أخيراً أن يشترك هو نفسه في المباريات. ولكنها هي الحقيقة، وقد بدا لعقله المولع بكل ما هو يوناني أن هذا العمل لاغبار عليه، بل كان يعتقد أنه يتفق مع أحسن التقاليد اليونانية. وأما سنكا فكان يرى أن هذا سخف أيما سخف، وحاول أن يقصر هذا العرض الإمبراطوري على من يضمهم ميدان خاص، ولكن نيرون تغلبت عليه ودعا الجماهير لتشهد ألعابه، فأقبلت عليه وحيته تحية حماسية حارة. ولكن أهم ما كان يرغب فيه هذا المخلوق الغريب بحق هو أن يكون فناناً عظيماً. ذلك أنه، وقد استحوذ على كل سلطة، وكان يتوق إلى الاستحواذ على كل ضروب الكمال والتهذيب. ومما يذكر له مقروناً بالثناء أنه جد في دراسة فنون النقش، والتصوير، والنحت، والموسيقى، والشعر (74). ولجأ في تحسين صوته إلى وسيلة غريبة فكان "يستلقي على ظهره، ويضع لوحاً من الرصاص على صدره، ويفرغ أمعاءه بمحقن أو بالقيء، ويمتنع عن أكل الفاكهة وعن كل طعام يضر بالصوت" (75). وكان في بعض الأيام يقصر على الثوم وزيت الزيتون يتخذهما وسيلة للعرض نفسه. ودعا ذات ليلة أكابر الشيوخ إلى قصره وعرض عليهم أرغناً مائياً جديداً، وأخذ يشرح لهم نظريته وتركيبه (76). وقد بلغ من إعجابه بالنغمات التي كان يضربها ربنوس Terpos على العود وافتتانه بها أن كان يقضي معه بعض الليالي بأكملها يتعلم العزف على هذه الآلة. وكان يجمع الفنانين والشعراء حوله، ويعقد المباريات بينه وبينهم في قصره، ويفاضل بين

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

صوره وصورهم، ويستمتع إلى أشعارهم ويقرأ عليهم شعره. وكان يندفع بثنائهم، ولما أن أنبأه أحد المنجمين بأنه سيفقد عرشه، أجابه ضاحكاً بأنه في هذه الحال سيكسب قوته من فنه. وكان يحلم أنه في يوم من الأيام سيغزف على ملأ من الناس على الأرغن المائي والناي، وينفخ في المزامير، ثم يظهر على المسرح راقصاً وممثلاً لأدوار في مسرحية ترنس Turnus لفرجيل. وفي عام 59 أقام حفلة موسيقية شبه عمومية عزف فيها على العود Citharoedus في حديقته الواقعة على نهر التيبير. وظل خمس سنين لا ينفذ ما تتوق له نفسه من إظهار مهارته في جمع حاشد، ثم نفذ هذا العزم في نابلي آخر الأمر. وسيطرت الروح اليونانية على هذا الحفل، وعفا الناس عن تقصيره، وأدركوا ما يرمي إليه. وازدحمت قاعة الاحتفال بالمستمعين ازدحاماً حال بينه وبين إجادة العرض، وقد بلغ من شدة الازدحام أن تهدمت القاعة عقب خروج النظارة منها. وشجع هذا النجاح الإمبراطور الشاب فظهر في ملهى

بمبي العظيم في رومة (65) يغني ويضرب على العود. وأُنشد في هذه المرة عدة قصائد لعلها كانت من قوله هو نفسه@= \$@ ويقول سوتونيوس إنه شاهد المخطوطات الملكية مكتوبة ومصححة بخط نيرون نفسه @. وقد بقيت أبيات من هذه القصيدة، وهي تدل على مقدرة في القريض لا بأس بها. وكتب من أغانيه الكثيرة ملحمة طويلة عن طروادة (جعل بطلها باريس Paris)، ثم شرع يكتب ملحمة أطول منها عن رومة. ولم يكفه هذا التنوع في مواهبه فظهر على المسرح ممثلاً دور أوديب Oedipus، وهرقل، وألكميون، بل إنه مثل أيضاً دور أستيز قاتل أمه. واعتبط النظارة إذ شاهدوا إمبراطوراً يعني بتسليتهم ويركع على المسرح أمامهم ويطلب أن يصفقوا له حسب مألوف عاداتهم. وتلقف الشعب الأغاني التي كان ينشدها نيرون وأخذ يرددتها في الحانات والطرفات، وانتشر

صفحة رقم : 3369

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

تحمسه للموسيقى والغناء بين الطبقات، وازدادت بذلك محبة الناس له، وكان أخلق بها أن تنقص. وارتاع مجلس الشيوخ من هذه المظاهر أكثر مما ارتاع من كل ما يدور من اللغط عما يحدث في القصر من فجور ومن علاقات جنسية شاذة، وأجاب نيرون عن مخاوف الشيوخ بقوله إن العادة التي كان يجري عليها اليونان وهي قصر المباريات الرياضية والفنية على طبقة المواطنين كان أفضل مما اعتاده الرومان وهو تركها للأرقاء؛ وأن من الواجب أن لا تُتخذ المباريات صورة قتل المجرمين قتلاً بطيئاً؛ وأعلن الشاب المجرم أنه لن يسمح ما دام حياً بأن يستمر القتال في المجتلد حتى يموت المجتلدون(78). وأراد أن يعيد التقاليد اليونانية إلى سابق عهدها، وأن يمجّد أعماله هو في المباريات العامة، فأقنع بعض الشيوخ أن يشتركوا فيها-أو لعله أرغمهم على هذا الاشتراك-ممثلين، وموسيقيين، ورياضيين، ومصارعين وسائقي عربات. وأظهر بعض الأشراف أمثال ثراسي بيتس Thrasea Paetus نفورهم من هذه الأساليب، فكانوا يتعمدون الغياب من مجلس الشيوخ كلما جاء نيرون ليخطب فيه، وندد به بعضهم مثل هلفيديوس برسكس Helvid(us Priscus تنديداً عنيفاً في المنتديات الأرستقراطية التي أضحت الملجأ الوحيد لحرية الرأي؛ وأخذ الفلاسفة الرواقيون في رومة يتحدثون جهرة عن هذا الأبيقوري الخبيث الجالس على العرش. ودُبرت المؤامرات لخلعه، ولكن عيونه كشفتوا أمرها، فكان جوابه كجواب أسلافه، وهو التورط في عهد الإرهاب الشديد، فأعيد قانون الخيانة (62)، ووجهت التهم إلى كل من كان موتهم مرغوباً فيه من الناحية الثقافية أو المالية بسبب مقاومتهم أو ثرائهم. ذلك أن نيرون قد أفقر خزانة كالجيولا من قبله بإسرافه وهباته وألعابه، وجهر بهزمه على مصادر جميع ضياع المواطنين الذين لا يوصون للإمبراطور بعد وفاته إلا بمبالغ قليلة، ثم جرد كثيراً من الهياكل من نذورها، وصهر ما كان

صفحة رقم : 3370

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

فيها من تماثيل ذهبية وفضية؛ ولما أن احتج سنكا على هذه الأعمال وانتقد سلوكه وسعره موكان غضب الإمبراطور على شعره أشد من غضبه على نقد سلوكه-أقاله نيرون من منصبه في البلاط (62)، وقضى الفيلسوف الشيخ الثلاث السنين الباقية من حياته في عزلة عن العالم في بيته، وكان يوروس قد مات قبل إقالة سنكا ببضعة أشهر. وأحاط نيرون بعدئذ نفسه بطائفة جديدة من القراء، معظمهم من قراء السوء ذوي الغلظة والفظاظة، فأصبح تجلينس، رئيس شرطة المدينة، مستشاره الأول، ويسر للزعيم كل سبيل المذات. وفي عام 62 طلق نيرون أكتافيا بحجة أنها عقيم، ولم تمض على طلاقها اثنا عشر يوماً حتى تزوج بوبيا؛ واحتج الشعب على هذا العمل احتجاجاً صامتاً بتحطيم التماثيل التي أقامها نيرون لبوبيا وتوزيع تماثيل أكتافيا بالزهور. وغضبت بوبيا من ذلك العمل وأقنعت حبيبها أن أكتافيا تعتزم الزواج مرة أخرى، وأن مؤامرة تُدبر لخلعه وإحلال زوج أكتافيا الجديد مله. وإذا كان لنا أن نصدق ما يقوله تاستس فإن نيرون دعا أنسييتس Anicetus قاتل أجربينا وطلب إليه أن يعترف بأنه ارتكب الفحشاء مع أكتافيا، ويتهمها بأنها شريكة في مؤامرة لاغتيال الزعيم. ومثل أنسييتس الدور الذي أمر بتمثيله، ونُفي إلى سردينية حيث قضى بقية حياته بنعم بالثروة والراحة؛ أما أكتافيا فقد نفيت إلى بندتيريا Pandateria، ولكنها لم يكد يمضي على مجيئها إليها إلا بضعة أيام حتى أُقبل عليها وكلاء الإمبراطور يريدون اغتيالها. ولم تكد وقتئذ قد جاوزت الثانية والعشرين من عمرها، ولم تكن تعتقد أن الحياة يليق أن تُختتم هذه الخاتمة العاجلة، وبخاصة إذا كانت فتاة مثلها لم ترتكب قط ذنباً. وودافعت عن نفسها أمام قاتليها وقالت لهم إنها لم تعد إلا أخت نيرون، وإنها عاجزة عن الإساءة إليه، ولكنهم قطعوا رأسها وجاءوا به إلى بوبيا يطلبون إليها مكافأتهم على عملهم هذا. ولما أبلغ الشيوخ أن أكتافيا قد توفيت شكروا

صفحة رقم : 3371

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

للآلهة مرة أخرى أن قد حفظوا الإمبراطور وأنجوه من السوء (79). وكان نيرون وقتئذ إليها من تلك الآلهة. ذلك أن أحد القناصل المنتخبين اقترح بعد موت أجربينا أن يقام هيكل "النيرون المأله". ولما أن ولدت له بوبيا في عام 63 ابنة توفيت بعد مولدها بقليل أعلن المجلس ربوبية هذه الطفلة، ولما أُقبل تيريداتس Tiridates ليتلقى من نيرون تاج أرمينية خر راعياً أمام الإمبراطور وعبده بوصفه الإله متراس Mithras، ولما أن شاد نيرون بيته الذهبي أقام أمامه تمثالاً ضخماً ارتفاعه مائة قدماً، وفي أعلاه رأس شبيه برأسه، تحيط به هالة من أشعة شمسية دلالة على أنه فيبس أيلو Phoebus Apollo. هذا ما كان ينصوره أمام حقيقته فإنه وهو في الخامسة والعشرين من عمره كان إنساناً فاسداً، منتفخ البطن، رفيع الأطراف، ضعيفها، ضخم الوجه، مجعد الجلد، أصفر الشعر ملتويه، عسلي العينين كلتيهما.

وكان، وهو كما يزعم إليه وفنان، يضايقه ما في القصور التي ورثها من عيوب، ولذلك صمم بناء قصر جديد لنفسه. ولكن ثل البلاطين كان مزدحماً بالقصور وكان في أسفله المضمار الأكبر من ناحية، والسوق الكبرى من ناحية أخرى، والأكواخ القذرة الحقيمة من بقية النواحي، وكان يحزنه أن يرى رومة قد نشأت على غير نظام موضوع، بدل أن تخطط تخطيطاً علمياً كالإسكندرية وأنطاكية، ولذلك كان يحلم بأن يعيد بناءها من جديد، وأن يكون هو منشئها الثاني، وأن يسميها نيروبوليس (مدينة نيرون).

وحدث في اليوم الثامن عشر من شهر أيلول 64 أن شبت النار في المضمار الأكبر، وانتشرت سريعاً، وظلت مشتعلة تسعة أيام حتى التهمت ثلثي المدينة، وكان نيرون غائباً في أنتيوم Antium حين شبت النار، فلما وصله النبا أسرع بالعودة إلى رومة فبلغها في الوقت الذي استطاع فيه أن يرى القصور القائمة على ثل البلاطين تلتهمها النيران. وكان البناء المعروف

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

بالدومس ترنستوريا (بيت المرور) الذي أقامه منذ زمن قريب ليربط به قصره بحديقة ماسيناس، وكان هذا البناء من أوائل ما تتهدم من الأبنية. ونجت أبنية السوق والكنبوتول من الحريق كما نجت أيضاً الأحياء الواقعة في شرقي نهر التيبير. أما سائر أجزاء المدينة، فقد دُمر فيها ما لا يُحصى من البيوت والهيكل والمخطوطات النفيسة والتحف الفنية. وهلك آلاف من السكان بين أنقاض المباني المتهدمة في الشوارع المزدهمة، وهام مئات الآلاف على وجوههم في الطرقات أثناء الليل لا يجدون لهم مأوى يبيتون فيه وقد ذهب الرعب بعقولهم، وهم يستمعون إلى الشائعات القائلة بأن نيرون هو الذي أمر بإشعال النار في المدينة، وأنه ينشر المواد الحارقة فيها ليجدد ما خبا منها، وبأنه يرقبها من برج ماسيناس وهو ينشد على نغمة القيثارة ما كتبه من الشعر عن نهب طروادة. وقد قام بجهود كبيرة في قيادة المحاولات التي بذلت لحصر النيران أو التغلب عليها، وإغاثة المنكوبين، وأمر بأن تُفتح جميع أبواب المباني العامة والحدائق الإمبراطورية ليلجأ إليها المعدمون، وأقام مدينة من الخيام في ميدان المريخ، وأمر بالاستيلاء على الطعام من الإقليم المجاور للمدينة، ووضع الخطط الكفيلة بإطعام الأهلين (80). وصبر على ما ووجه إليه الشعب الهائج الحانق من تهم وطعون. ويقول تاسنتس (وهو الرجل الذي يجب ألا ننسى قط تحيزه لأعضاء مجلس الشيوخ) إنه أخذ يتلفت حوله ليجد من يستطيع أن يلقي عليه التهمة حتى وحده في:

"طائفة من الناس يحقد عليهم الشعب لأعمالهم الخبيثة، ويسمون غالباً بالكرستيانى Chrestiani (المسيحيين). والاسم مشتق من كرسنتس Chrestus وهو اسم رجل عذبه بنتيوس بيلات Pontius Pilate المشرف

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

على الشؤون المالية في بلاد اليهود في عهد تيبيريوس. وكان ما حل به من العذاب ضربة شديدة وجهت إلى الشيعة التي أوجدها هذا الرجل، وبفضل هذه الضربة وقف نمو هذه الخرافات الخطيرة إلى حين، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى نشاطها وانتشرت انتشاراً سريعاً قوياً في بلاد اليهود... وفي مدينة رومة نفسها، وهي مستودع الأقدار العام الذي ينساب إليه كل ما هو دنيء ممقوت انسياب السيل المنحدر من أقطار العالم. ولجأ نيرون إلى أساليبه المعهود في الحيل، فعثر على جماعة من الفخار والسفلة الأراذل، وأغراهم بمختلف الوسائل على أن يعترفوا بأنهم هم مرتكبو الجريمة النكراء؛ وبناء على اعتراف أولئك السفلة أدين عدد من المسيحيين، ولم يصدر الحكم عليهم على أدلة واضحة تثبت أنهم هم الذين أشعلوا النار في المدينة، بل أدينوا لأنهم يكرهون الجنس البشري كله. واستخدمت في إعدامهم أفانين من القسوة المتناهية، ولم يكتف نيرون بتعذيبهم بل أضاف إلى هذا التعذيب السخرية منهم والازدراء بهم، فألبس بعضهم

جلود الوحوش وتركوا تلتهمهم الكلاب، وسمر غيرهم في الصليبان، ودفن الكثيرون منهم أحياء، ودهنت أجسام البعض الآخر بالمواد الملتهبة وأشعلت فيها النيران، ولتكون مشاعل في الليل... وفي آخر الأمر أفعمت هذه الوحشية قلوب الناس جميعاً رافة ورحمة، ورقت هذه القلوب أسى على المسيحيين (81). ولما أزيلت الأبقاض أخذ نبيرون يعيد بناء المدينة كما صورتها له أحلامه والغبطة بادية في أسارير وجهه. وطلب إلى كل مدينة في الإمبراطورية أن تقدم معونتها لها الغرض، أو أرغمت على تقديم هذه المعونة، واستطاع الذين دمرت بيوتهم أن يبنوا لهم بيوتاً جديدة بعد أن أمدهم بالمال المتجمع من هذه المعونة. وشقت الشوارع الجديدة مستقيمة متسعة، وشيدت واجهات المنازل الجديدة وطبقاتها الأولى من الحجارة، وجعلت بينها وبين غيرها من المباني المجاورة لها فواصل تمنع انتشار النار من بناء إلى

صفحة رقم : 3374

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نبيرون

آخر. وشقت تحت الأرض مجار تنساب فيهماياه العيون السفلى إلى خزان يحتفظ فيه بالماء ليستعان به على إطفاء النار في المستقبل. وشاد نبيرون من أموال الخزانة الإمبراطورية عقوداً ذات عمد على جانبي الشوارع الرئيسية في المدينة، لتكون مداخل مسقوفة ظليلة لآلاف من البيوت. وأسف المولعون بالقديم، كما أسف الشيوخ المسنون، على ما كان في المدينة القديمة من مناظر جميلة خلع عليها الدهر هالة من الرواء والتقدير، ولكنهم لم يلبثوا أن أجمعوا على أن رومة جديدة قد خرجت من بين اللهب أصح وأمن وأجمل من رومة القديمة. ولو أن نبيرون أعاد تنظيم حياته كما أعاد تنظيم عاصمته لغفر له الناس جرائمه، ولكن بوبيا ماتت في عام 65 في الأيام الأخيرة من حملها، ويقال إنها ماتت من ركلة في بطنها. وراجت بين الناس شائعة فحواها أن هذه الركلة كانت عقاباً لها على عودتها متأخرة من السباق (82) وخزن نبيرون حزناً شديداً على موتها، لأنه كان ينتظر على أحر من الجمر وجود وارث له من صلبه، وأمر أن تحنط جثتها بالأفاوية النادرة وتدفن بموكب مهيب وأبناها بنفسه. ثم عثر على شاب يدعى أسبورس Sporus عظيم الشبه ببوبيا، فأمر بخصيه، وتزوجه في احتفال رسمي و "استعمله في كل شيء كما تستعمل النساء"، وقال في ذلك أحد المتفكهن إنه ينمى لو أن والد نبيرون قد عثر على مثل هذه الزوجة (83). وشرع في السنة نفسها يشيد بيته الذهبي، وكان إسراره في زينته، كما كانت تكاليفه الباهظة ومساحته الواسعة فقد أقيم على رقعة من الأرض كانت تشغلها من قبل آلاف من بيوت الفقراء-كان هذا كله سبباً في إثارة سخط الأشراف عليه وارتباب العامة فيه من جديد. وأقبل جواسيس نبيرون فجاءة يبلغونه نبأ مؤامرة واسعة النطاق تهدف إلى إجلاس كلبيرنيوس بيزو Calpurnius Piso على العرش (65)؛ وقبض صنائعه على عدد من الشخصيات غير الكبيرة متهمين بتدبير المؤامرة، وانتزعوا منهم

صفحة رقم : 3375

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

بالتهديد تارة وبالتعذيب تارة أخرى اعترافات تدين، بين من تدين من الشخصيات المعروفة، الشاعر لوكان Lucan والفيلسوف سنكا Seneca، وتكشف الخطة التي كان يرمي إليها الإمبراطور وأعدائه شيئاً فشيئاً. وبلغ انتقام نيرون درجة من الوحشية لم يسع رومة معها إلا أن تصدق ما شاع وقتئذ من أنه أقسم لبيبين طبقة الشيوخ عن آخرها. ولما تلقى سنكا الأمر بأن يقتل نفسه شرع يجادل ساعة من الزمن ثم أطاع، وقطع بعض أوردته ومات وهو ينشد أبياتاً من شعره. وأغرى تجلينس Tigellinus بالمال عبداً من عبيد بترونيوس Petronius فتقدم بالشهادة على سيده، لأن تجلينس كان يحسد هذا الرجل الأبيقوري على منزلته عند نيرون فأغراه بقتله. ومات بترونيوس ميتة بطيئة بأن قطع أوردته ثم سدها، وأخذ يتحدث مع أصدقائه حديثاً لطيفاً كمألوف عادته، ويقراً لهم أبياتاً من شعره. ثم تنزه وأغفى بعض الوقت وفتح أوردته مرة أخرى وفارق الحياة في هدوء واطمئنان (84). وأدين ثراسبابيتس زعيم الداعين إلى الفلسفة الرواقية في مجلس الشيوخ، ولم تكن التهمة التي وجهت إليه أنه اشترك في المؤامرة، بل كانت تهمة عامة يمكن أن توجه إلى أي إنسان وهي حماسه للإمبراطور، وعدم استمتاعه بغناائه وتأليفه كتاباً في حياة كاتو أتتى عليه فيه. واكتفى بنفي هلفيديوس برسكس Helvidius Priseus زوج ابنته، ولكن رجلين آخرين أعدما لأنهما متبا يمتدحان برسكس وصهره. ونفى موسونيوس روفس Musonius Rufus أحد الفلاسفة الرواقيين وكاسيوس لنجينس Cassius Longinus أحد علماء القانون، وحكم على أخوين لسنكا وهما أنيوس ميلا Annaeus Mela والوالد لوكان وأنيوس نوفاتس Annaeus Novatus -وهو جليو Callio الذي أطلق سراح القديس بولس في أثينة- هذان حكم عليهما بأن ينتحرا.

وبعد أن طهر نيرون مؤخرته على هذا النحو سافر في عام 66 ليتبارى في الألعاب الأولمبية ويطوف ببلاد اليونان في رحلة موسيقية، لأن "اليونان"

صفحة رقم : 3376

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

على حد قوله "هم الشعب الوحيد الذي له آذان موسيقية" (85). واشترك في أولمبيا في سباق العربات واساق فيها بنفسه مركبة ذات عجلتين تجرها أربعة جياذ في صف واحد أفقي مستعرض Quadriga وسقط من العربة في حلبة السباق وكاد يقضي عليه، ولما أعيد إلى العربة واصل السباق وقتاً ما، لكنه انقطع عنه قبل نهاية الشوط. وكان المحكمون يفرقون بين الإمبراطور والرجل الرياضي، فقدموا له تاج النصر. وتملكته نشوة الفرح حين رأى الجماهير تصفق له طرباً فأعلن من فوره أن بلاد اليونان كلها لا أثينة وإسبارطة وحدهما ستكون من تلك الساعة حرة طليقة-أي أنها لن تعطي الجزية لرومة. وكان جواب المدن اليونانية على هذا الكرم أن أقامت الألعاب الأولمبية والبيثية Pyth an والنيميانية Nemean والبرزخية Ishmian فام واحد. ورد هو على ذلك بأن اشترك فيها جميعها مغنياً، وعازفاً، وممثلاً، ومنتبارياً في الألعاب الرياضية. وقد حرص أشد الحرص على إطاعة قوانين المباريات، وكان شديد المجاملة لمنافسيه، ومنحهم حق المواطنة الرومانية تعزية لهم على تفوقه عليهم جميعاً. وتلقى في أثناء رحلته أنباء بأن الثورة شبت نارها في بلاد اليهود، وأن لهيها اندلع في الغرب كله. وكان كل ما فعله أن تنهد وتحسر ثم واصل رحلته. ومن أقوال سوتتيوس في التعليق على هذه الرحلة أنه كان إذا غنى في ملهى "لا يسمح لأحد بالخروج منه، ولو كان ذلك لعذر شديد يحتم عليه الخروج؛ وكان من نتائج ذلك أن ولدت بعض النساء وهن في الملهى، وأن تظاهر بعض الرجال بالموت حتى يحملوا إلى الخارج" (86). ولما جاء إلى مضيق كورنثة أمر أن يبدأ العمل في شق قناة ي هذا المضيق

كما كان قيصر ينوي أن يشقها؛ وبديء العمل فعلاً، ولكنه وقف في أثناء الاضطراب الذي حدث في العام الثاني. وارتاع نيرون أنباء الفتن والمؤامرات فعاد إلى

صفحة رقم : 3377

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

رومة (67) ودخلها في موكب رسمي، وعرض في هذا الموكب غنائم نصره، وهي الجوائز التي ظفر بها في بلاد اليونان والبالغ عددها 1808 جائزة. وكانت المآسي جادة مسرعة في أعقاب هذه المهازل. ومن ذلك أن يوليوس فندكس Julius Vindex حاكم ليون الغلي أعلن استقلال بلاد الغليين في شهر مارس من عام 268، ولما عرض نيرون جائزة قدرها 2.500.000 سسترس لمن يأتيه برأسه أجاب فندكس عن هذا القول: " أن من يأتيني برأس نيرون سيأخذ في مقابل ذلك رأسي" (87). وأخذ نيرون يعد العدة لملاقاة هذا العدو الشديد البأس في الميدان، وكان أول ما عني به أن اختار العربات لينقل عليها آلاته الموسيقية وأدوات المسرح (88). وبينما هو يعد العدة إذ جاءت الأنباء في شهر إبريل بأن جلبا Gelba قائد الجيش الروماني في أسبانيا انظم إلى فندكس في ثورته، وأنه يزحف على رومة. وسمع مجلس الشيوخ أن الحرس البريتوري يتأهب للخروج على الإمبراطور طمعا فيما يناله رجاله من أجور عالية، فنادى بجلبا إمبراطوراً. فما كان من نيرون إلا أن وضع بعض السم في صندوق صغير، وبعد أن تسلح بهذا السلاح الفتاك من بيته الذهبي إلى الحدائق السرفيلية الواقعة في طريق أستيا. وطلب قبل فراره إلى من كان في القصر من الضباط أن يرافقه، فرفضوا جميعاً طلبه، وأنشد له أحدهم بيتاً من شعر فرجيل يقول فيه: "وهل من الصعب على الإنسان إذن أن يموت؟". ولم يكن في مقدوره أن يصدق أن قد فارقه فجاءه ذلك السلطان القاهر الذي كان سبباً في القضاء عليه، فأخذ يرسل النداء تلو النداء إلى الكثيرين من أصدقائه يطلب إليهم النجدة، ولكن أحداً منهم لم يرد على رسالة من رسائله، فذهب إلى نهر التيبر يريد أن يغرق نفسه فيه. حتى إذا بلغه خارت قواه، وعرض عليه فائون أحد معاتيقه أن يخفيه في بيته القائم على طريق سلاريا، ورحب نيرون بهذا الاقتراح، واجتاز في ظلال الليل على ظهر جواد أربعة أميال من وسط المدينة إلى بيت فائون. وقضى تلك الليلة

صفحة رقم : 3378

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيرون

في مخزن الطعام، وعليه جلباب قدر، يتلوى من الجوع، ولم يطف بجفنه النوم، ترتعد فرائصه فرقاً في كل صوت يقع على أذنيه. وجاء رسول فائون يبلغه أن مجلس الشيوخ قد نادى بأن نيرون عدو الشعب وأمر بالقبض عليه، وقرر أن يعاقب "حسب السنة القديمة". وسأل نيرون عن ماهية تلك السنة فقيل له: "إن الرجل المذنب يجرد من ثيابه، ويصلب

جسمه في عمود بمسار ذي شعب يُدق في عنقه، ثم يُضرب حتى يقضي نحبه. وارتاع من هول هذا العقاب، فحاول أن يطعن نفسه طعنة تقضي عليه، ولكنه أخطأ إذ جرب سنان الخنجر أولاً ووجده حاداً لا يطيقه فنادى قائلاً: "أي فنانا يموت موتي!".

وسمع في مطلع الفجر وقع حوافر الخيل، فأدرك أن جنود مجلس الشيوخ قد أدركوه، فأنشد بيتاً من الشعر يقول: "استمعوا؛ ها هي ذي أصوات الساعين إلى تقع على أذني"-ثم طعن نفسه بخنجر في حلقه، ولكن يده اضطربت ووهنت فأعانه إيثروديتس أحد معاتيقه على أن يدفع سن الخنجر إلى نهايته. وكان قد طلب إلى من حوله قبل موته أن يحولوا دون تشويه جسمه، وأجابهم رجال جلبا إلى ما طلبوا. وقامت مربياته العجائز وأكتى عشيقته السابقة بدفن جثته في قباب القصر دوميتيوس (68) وابتهج كثيرون من العامة بموته، واخذوا يطوفون بأحياء رومة وعلى رؤوسهم قلائس الحرية. ولكن الذين حزنوا كانوا أكثر منهم لأن سخاءه على الفقراء لم يكن يقل عن قسوته الشديدة على العظماء، وأصغوا إلى ما أشيع وفتند من أنه لم يمت بحق، بل إنه يقاتل أعداءه في طريق رومة، ولما أن رضوا آخر الأمر بأن يصدقوا نبأ موته، ظلوا شهوراً كثيرة يحجون إلى قبره وينثرون الأزهار أمامه(89).

صفحة رقم : 3379

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> الأباطرة الثلاثة

الفصل الخامس

الأباطرة الثلاثة

وصل سرفيوس سلبوس جلبا Servius Sulpius Galba رومة في يونية من عام 68، وكان من أصل شريف، فقد كان أبوه عل حد قوله ينحدر من نسل جوبتر، كما كانت أمه تنتمي إلى باسفائي Basipha (زوجة مينوس Minos. وكان في السنة التي ارتقى العرش أصلع الرأس متقلص اليدين والقدمين من داء المفاصل، فكان لا يستطيع أن يلبس حذاء أو يمسك كتاباً(90). وكان ينصف بالردائل المألوفة في تلك الأيام، سوية كانت أو غير سوية، ولكن هذه الردائل لم تكن هي التي قصرت حكمه، بل إن الذي أحنق الجيش والشعب عليه هو اقتصاد الشديد في الأموال العامة، وحرصه الشديد على تنفيذ العدالة(91). ولما أن قرر أن يرد كل من نالوا إعطية من نيرون تسعة أعشار ما استولوا عليه إلى خزانة الدولة، خلق لنفسه آلافاً من الأعداء الجدد وتصرمت أيامه سراعاً.

وذلك أن شيخاً مفلساً يدعى ماركس أتو Marcus Etho أعلن أنه لا يستطيع أداء ديونه إلا إذا أصبح إمبراطوراً(92). وانضم إليه الحرس، وزحفوا على السوق والتقوا بجلبا راكباً في هودج، ومد جلبا عنقه إلى سيوفهم دون أن يبدي أية مقاومة فقطعوا رأسه وذراعيه، وشفنتيه، وحمل واحد منهم رأسه إلى أتو، ولكنه لم يستطع أن يقبض بقوة على شهره القليل المبلل بالدماء فأدخل إصبعه في فمه. وأسرع مجلس الشيوخ فوافق على تولية أتو في الوقت الذي كان الجيش الروماني في ألمانيا ينادي بقائده أولس فيتليوس Aulus Vitillius والجيش الروماني في مصر ينادي بقائده تيتس فلافيوس فسبازبانس Titus Flavius Vespasianus إمبراطوراً. وزحف فيتلوس على إيطاليا بفيالقه القوية، وقضى

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> الأباطرة الثلاثة

على ما أبدته الحاميات الشمالية، وما أبداه الحرس البريتوري، من مقاومة ضعيفة، وانتحر أتو بعد أن حكم خمسة وتسعين يوماً، وارتقى فيتلبيوس عرش الإمبراطورية.

وليس مما يشرف النظام العسكري الروماني أن يتولى القيادة في أسبانيا شيخ ضعيف مثل جلبا، وفي ألمانيا أبيقوري متهاون مثل فيتلبيوس. لقد كان فيتلبيوس نهماً أهم ما يعرفه عن الزعامة أنها وليمة يُشبع فيها نهمه، ويجعل كل وجبة من وجباته وليمة كبرى، أما شؤون الحكم فكان يكفيها ما بين الوجبات من فراغ، وإذ كانت هذه الفترات قد أخذت تقصر شيئاً فشيئاً، فقد ترك شؤون الدولة في يد معنوقه أسياتكس Asiaticus فلم تمض على هذا المعنوق أربعة أشهر حتى أصبح أغنى رجل في رومة. ولما علم فيتلبيوس أن أنطونيوس قائد فسبازيان يزحف بجيشه على إيطاليا ليخلعه، عهد بالدفاع عنه إلى جماعة من أتباعه واستمر هو في ولائمه. وكانت النتيجة أن جيوش أنطونيوس هزمت أنصار فيتلبيوس عند كرمونا Gremona في شهر أكتوبر عام 69؛ وفي هذه المعركة جرت الدماء كما لم تجر في أية معركة أخرى في التاريخ القديم كله، وزحفت الجيوش الظافرة على رومة فقاومتها فلول فيالق فيتلوس مقاومة باسلة بينما كان مختبئاً في قصره. ويقول ناستس "إن الجماهير احتشدت لنشاهد المعارك، كأن منظر القتل وإراقة الدماء لم يكن إلا منظرأ يعرض عليهم لتسليتهم". وبينما كانت المعركة حامية الوطيس كان بعضهم ينيهون المتاجر والمنازل وكانت العاهرات يمارسن مهنتهن(93). وانتصرت جيوش أنطونيوس في المعركة، وأعملوا السيوف في رقاب المهزومين بلا رحمة، وأطلقوا لأنفسهم العنان في السلب والنهب، وساعدهم الغوغاء وهم الذين لا يقلون عن التاريخ تمجيداً للمنتصرين-على إخراج أعدائهم من مخابئهم، وسحبوا فيتلبيوس من مخبئه وطافوا به نصف عام في أنحاء المدينة، وحول رقبته طوق معقود، وألقيت عليه الأقرار، وعُذب تعذيباً بطيئاً، ثم أشفقوا عليه فقتلوه (ديسمبر من عام 69) وسُحبت جثته بخطاف في شوارع المدينة وألقيت في نهر التير(94).

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> فسبازيان

لشد ما يغتبط الإنسان بعد ما قرأه عن الأباطرة السابقين أن يرى رجلاً متصفاً بالحكمة والكفاية والشرف! لقد كان فاسبازيان، وهذه الأحداث قائمة، يخوض غمار الحرب في بلاد اليهود، ولذلك لم يتعجل في القدوم إلى رومة ليشتغل المنصب العالي المحفوف بأشد الأخطار الذي رفعه إليه جنوده وبادر مجلس الشيوخ إلى الاعتراف به. فلما وصل إليها في أكتوبر عام 70 أخذ يعمل بجد على إعادة النظام إلى المجتمع الذي اضطرب في كل ناحية من نواحيه، وسرى جده هذا إلى نفوس أعوانه. ولما أدرك أن لا بد له أن يعاني نفس المشاق التي عاناها أغسطس، سار على سيرة ذلك الزعيم وسلك مسلكه في أخلاقه وسياسته، فسالم مجلس الشيوخ، وأعاد الحكم الدستوري إلى البلاد، وأطلق سراح من حكم عليهم من قبل بمقتضى قانون الخيانة في عهد نيرون وجلبا وأتو وفيتليوس، واستدعى من كان منهم منفيًا خارج البلاد. ثم أعاد تنظيم الجيش وزاد عدد الحرس البريتوري ووسع سلطة رجاله، وعين قواداً لكفاة لقمع الثورات التي شبت ناراها في الولايات، واستطاع بعد قليل أن يغلق هيكل يانوس Janus رمزاً لعودة السلام وعهداً منه بالمحافظة عليه.

وكان قد بلغ الستين من العمر، ولكنه كان محتفظاً ببنيته القوية التي لم يوهنها الإفراط. وكان مقتول العضلات، قوى الأخلاق، ذا رأس عريض أصلع ضخم، وملامح غليظة ولكنها مهيبية، وعينين صغيرتين حادثتين تخترقان المظاهر الخداعة إلى الحقائق المستورة. ولم يكن يتصف بشيء من شذوذ العباقرة، ولا يزيد على كونه رجلاً قوي الإرادة شديد

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> فاسبازيان

الذكاء العملي. وكان مولده في قرية سبينية قريبة من ريتي Reate وأسرته من عامة الشعب. وكان جلوسه على العرش ثورة رباعية: فها هو ذا قائد يتربع على عرش الإمبراطورية، وهاهو ذا جيش من جيوش الولايات قد غلب الحرس البريتوري وتوج من يريده إمبراطوراً، وهاهي ذي أسرة الفلافيين Flavians قد خلفت أسرة اليوليوس-كلوديين، وعادات الطبقات الوسطى وفضائلها قد حلت في بلاط الإمبراطور محل الإئتلاف الأبيقوري الذي كان يتصف به أبناء أغسطس وليفيا الذين نشأوا في الحواضر. ولم ينس فاسبازيان قط أصله المتواضع، ولم يحاول أن يخفيه عن الناس، ولما حاول الأئساب أن يصلوا بنسب أسرته إلى أحد أصحاب هرقل طمعاً منهم في عطائه أرغمهم بسخريته على الصمت. وكان يعود بين الفينة والفينة إلى البيت الذي ولد فيه ليستمتع بما فيه من أساليب وأطعمة ريفية، ولم يسمح بأن يُغَيَّر فيه شيء قط. وكان يزدرى الترف والبطالة، ويأكل طعام الفلاحين، ويصوم يوماً في كل شهر؛ وأعلن حرباً عواناً على التبذير والإتلاف. وجاءه في يوم ما رجل روماني رشحه لمنصب من المناصب تقو من رائحة العطر، فقال له: "لقد كنت أؤثر أن تقو منك رائحة الثوم"، ورجع عن ترشيحه لذلك المنصب. ولم يحجب بابه عن الناس، وكان يعيش كما يعيش عامتهم ويتحدث إليهم حديث الرجل الذي لا يترفع عنهم، ويضحك من الفكاهة التي كانت توجه إلى شخصه، ويسمح لكل إنسان أن يوجه إلى خلقه وسلوكه ما شاء من النقد بكامل حريته. وكشف مرة عن مؤامرة تُدبر له فعفا عن المتأمرين، وقال إنهم بلهاء لا يدركون عبء المتاعب التي بنوء بها كاهل الحاكم. ولم يُعرف عنه أنه فقد حلمه إلا مرة واحدة. ذلك أن هلفديوس برسكس Helvidius Priscus، بعد أن عاد إلى مجلس الشيوخ من منفاه الذي أخرجه إليه نيرون، أخذ يطالب بعودة الجمهورية ويطعن على فاسبازيان طعناً مرأ في السر والعلن، فطلب إليه فاسبازيان أن يمتنع حضور جلسات المجلس إذا

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> فسبازيان

كان يريد أن يواص هذا السباب، فلما رفض هلفديوس أن يجيبه إلى ما طلب نفاه إلى خارج البلاد ولوث حكمه الصالح بأن أمر بإعدامه. وقد ندم على عمله هذا فيما بعد واستمسك في سائر عهده، على حد قول سوتونيوس "بأعظم الصبر وهو يستمع إلى عبارات أصدقائه الصريحة... وإلى قحة الفلاسفة" (95). وكان هؤلاء فلاسفة كلبيين ساخرين أكثر منهم رواقيين؛ كانوا فوضويين متفلسفين يشعرون أن كل حكم أياً كانت صفته عبء على الناس فرضاً، وكانوا يهاجمون كل إمبراطور يجلس على العرش.

وأراد أن يطعم مجلس الشيوخ بدم قوي جديد، بعد أن أوهنته الحرب الأهلية والقيود على اختلاط الأسر، فعمل على أن يعين رقيباً، ثم جاء إلى رومة بألف من الأسر الممتازة في إيطاليا والولايات القريبة، وسجل أسماءها في سجلات طبقتي الأشراف والفرسان، وملاً ما كان في مجلس الشيوخ من فراغ من بين هذه الأسر الجديدة. وحذا هؤلاء الأشراف الجدد حذوه بعد أن ضرب لهم أحسن الأمثلة، فأصلحوا بسلوكهم الأخلاق الرومانية والمجتمع الروماني. ذلك أن أفراد هاتين الطبقتين لم يكونوا ممن أفسدتهم الثروات الطائلة، ولم يكونوا ممن طال عليهم العهد ببعدهم عن العمل الشاق وزراعة الأرض، فلم يستكفوا أن يقوموا بالواجبات والأعمال الرتيبة في الحياة وتصريف شؤون الحكم. وكانت تتصف بما يتصف به الإمبراطور من نظام حسن وأداب رقيقة. وق خرج من هذه الطبقة الجديدة أولئك الحكام الذين صلحت بهم حكومة رومة بعددومتيان Domitian مدى جيل كامل، وأدرك فسبازيان ما جره من المساوي استخدام العبيد المحررين مننفذين لأوامر الإمبراطور، فاستبدل بمعظمهم رجالاً ممن جاء بهم ومن طبقة رجال الأعمال التي اخذ عددها يزداد في رومة. واستطاع بمعونة هؤلاء وأولئك أن يرد إلى رومة كرامتها وهو عمل يكاد يكون معجزة من المعجزات.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> فسبازيان

وقد أنه في حاجة إلى 40.000.000.000 سسترس لكي ينتشل البلاد من وهدة الإفلاس ويعيد الثقة إلى خزنة الدولة فعمل على جمع هذا المال بأن فرض الضريبة على كل شيء تقريباً، وزاد خراج الولايات، وأعاد فرض الخراج على بلاد اليونان، ورد إلى الدولة الأراضي العامة وأجرها للأفراد، وباع القصور والضباع الإمبراطورية، وفرض الاقتصاد الدقيق في نفقات الدولة إلى حد جعل الناس ينددون به ويقولون عنه إنه فلاح بخيل، وقرر ضريبة على المبالو العامة التي كانت تزدان بها رومة القديمة كما تزدان بها رومة الحديثة. واحتج ابنه على هذه الضريبة الأخيرة المناقبة للكرامة، ولكن الإمبراطور الشيخ أمسك بيده بعض النقود المحصلة منها وقربها من فم الشاب وقال له: "انظر يا بني، هل تشم لها رائحة كريهة؟" (97). ويتهمه سوتونيوس بأنه ضاعف أموال الخزنة العامة ببيع المناصب،

وترقية أشد الموظفين شراة في جباية الضرائب من الولايات، حتى يتخوما جبوبهم بالمال حين يعزلهم فجاءة، ثم يفحص عن أعمالهم ويصادر ما جمعه لأنفسهم. على أن هذا المالي الماهر الواسع الحيلة لم يستخدم لنفسه شيئاً مما جمعه، بل استنفذ هذا المال كله في إنعاش الحالة الاقتصادية، وفي تجميل رومة بالمنشآت العامة وفي تقدمها الثقافي. وبقي بعدئذ على هذا الجندي الخشن أن ينشئ أول نظام للتعليم تقوم به الدولة في التاريخ القديم، فكان أول ما عمله في هذا الميدان أن أمر بأن تؤدي لطائفة من ذوي الكفاية من مدرسي الآداب وعلوم البلاغة اللاتينية واليونانية أجورهم من خزانة الدولة، وأن يوظف لهم معاش بعد عشرين عاماً من الخدمة. ولعل هذا الشيخ المتشكك قد أحس بأن للمدرسين نصيباً في تكييف الرأي العام، وبأنهم سيمتدحون الحكومة التي تؤدي إليهم أجر أعمالهم.

صفحة رقم : 3385

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> فسبازيان

ولعل سبباً كهذا هو الذي حدا به إلى إعادة كثير من الهياكل القديمة في الحواضر وفي بلاد الريف نفسها. فقد أعاد بناء هيكل جوبتير، ويونو، ومنيرفا، وكان جنود فيتلوس قد أحرقوا هذه الهياكل وهدموا فوق روؤوس جنوده. وشاد معبداً لباكس Pax إلهة السلام، وبدأ أشهر المباني الرومانية كلها وهو مبنى الكولسيوم. وغضبت الطبقات العليا حين رأت الضرائب تفرض على ثروتها لإقامة المنشآت للدولة وأداء الأجور للعمال الفقراء، كما أن العمال أنفسهم لم يحموا له كثيراً عمله هذا. ومن أعماله الأخرى أنه حشد الشعب لإزالة ما خلفته الحرب الأخيرة من أنقاض، وحمل هو نفسه أول ما حمل منها، ولما أن عرض عليه أحد المخترعين تصميم آلة رافعة تقلل الحاجة إلى العمل الجثماني إلى حد كبير أبي أن يستخدمها وقال: "إني أريد أن أطعم شعبي" (98) وكان هذا الخطر المؤقت الذي فرضه فسبازيان على الاختراع اعترافاً منه بمشكلة التعطل الفنية، وقراراً بالحيلولة دون حدوث ثورة صناعية. وعم الرخاء الأقليم إلى حد لم يكن له نظير من قبل، فكانت ثروتها في ذلك الوقت -إذا قدرت بالنقد على الأقل- ضعفي ما كانت عليه في عهد أغسطس، ولذلك تحملت أعباء ما زاد من الخراج من غير أن يصيبها ضرر ما. وعين فسبازيان أجر كولا Agricola الرجل القدير حاكماً على بريطانيا، وعهد إلى تيتس أن يخمد ثورة اليهود، فاستولى على أورشليم ثم عاد إلى رومة بكل مظاهر الشرف التي تتوج الإسراف في التقتيل، وسار القائد المظفر في موكب نصره ومن ورائه صف طويل من الأسرى وقدر كبير من الغنائم مخترقاً شوارع رومة، وأقيم له قوس نصر شهير لتخليد ذكرى هذا النصر الباهر. وازدهى فسبازيان بانتصار ولده ولكنه ساءه وأقلق باله أن رأى نيتس يأتي معه بأميرة يهودية جميلة تدعى برنس Berenice لتكون خليله له، ويرغب أن يتزوجها، وفي هذه المرة أيضاً حمل الأسر معه أسره.

صفحة رقم : 3386

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> فسبازيان

ولم يكن الإمبراطور يرى سبباً يدعو لأن يتزوج الإنسان خليلته، وقد ظل هو نفسه بعد وفاة زوجته يعيش مع جارية معتوقة ولم يعن قط بأن يعقد عليها، ولما ماتت كنييس هذه وزع قلبه بين عدة محظيات (99). وكان قوي الاعتقاد بأنه يجب أن يستقر على رأي في وراثة العرش قبل وفاته، لأن هذه هي السبيل الوحيدة لمنع الفوضى. ووافق مجلس الشيوخ على هذا الرأي، ولكنه طلب إليه أن يختار "خير الأختيار" ويتبناه-ولعل المجلس كان يريد منه أن يختار أحد أعضائه. ورد فسبازيان بأنه يرى نيتس خير الأختيار. وأراد ولده أن يبسر الأمر لأبيه فأبعد عنه برنيس، واستعاض عنها بالشيوخية الجنسية (100) ثم أجلس الإمبراطور ولده معه على العرش وعهد إليه قسطاً متزايداً من الحكم. وزار فسبازيان ريتي مرة أخرى، وشرب وهو في الإقليم السبيني كثيراً من ماء بحيرة كوتليا Cutelia المسهل فأصيب بإسهال شديد. وظل وهو طريح الفراش يستقبل الرسل ويؤدي واجبات منصبه. وقد احتفظ إلى آخر لحظة بفكاهته السمجة رغم علمه بأنه قاب قوسين أو أدنى من الموت فقال: "وا أسفاه أظن أنني صائر إلى أن أكون إلهاً Vae Puto deus fio). ووقف على قدميه وهو يكاد أن يُغمى عليه، وأعانه على ذلك بعض أتباعه وقال: "إن الإمبراطور يجب أن يموت واقفاً". وبهذا ختم حياة كاملة بلغت التاسعة والستين عاماً، واختتم حكماً صالحاً عشر سنين.

صفحة رقم : 3387

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> نيتس

الفصل السابع

نيتس

كان أكبر ولديه المسمى باسمه نيتس فلافيوس فسبازيانس Titus Flavius Vespasianus أسعد الأباطرة كلهم حظاً. ذلك أنه مات في السنة الثانية من حكمه وفي الثانية والأربعين من عمره وهو لا يزال "محبوب بني الإنسان". ولم يطل به الوقت حتى تقسده السلطة أو تتكشف له خيبة الرجاء. لقد امتازوه في ريعان الشباب ببأسه وقسوته في الحرب، ولوثة سمعته بالانغماس في الملذات، فلما أن تولى الحكم لم تسكره السلطة، وصلحت أخلاقه، وجعل حكومته مضرب المثل في الحكمة والنزاهة. وكان أكبر عيوبه كرمه الحاتمي، فكان يرى أن اليوم الذي لم يسعد فيه إنساناً ما بهبة يقدمها يوماً أضاعه من حياته. وقد أسرف في الإنفاق على المعارض والألعاب، وترك خزانة الدولة الغاصة بالمال وهي تكاد أن تكون خاوية كما وجدها أبوه. ومن أعماله أنه أتم تشييد الكليسيوم، وبنى حماماً عاماً جديداً في رومة، ولم يحكم على أحد بالإعدام في أثناء حكمه القصير، بل فعل عكس هذا، فقد كان الواشون والمخبرون يضربون وينفون من البلاد، وأقسم أنه يفضل أن يُقتل هو على أن يكون سبباً في قتل إنسان، ولما عرف أن اثنين من الأشراف ياتمرون به ليخلعاه، لم يعمل أكثر من أن يرسل إليهم يحذرهم، ثم أرسل رسولا يطمئن والدته أحد المتآمرين، ويبلغها أن ابنها لم يُصب بسوء.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> تيتس

وكان ما أصابه من سوء الحظ ناشئاً من نكبات لا سلطان له عليها. ذلك أن حريقاً شب في رومة ودام ثلاثة أيام، دمر فيها كثيراً من الأبنية الهامة، وكان مما دمر فيها مرة أخرى هياكل جوبيتر، ويونو، ومنيرفا. وفي السنة نفسها ثار بركان فيزوف، وخرّب بمبي، وأهلك آلافاً من الإيطاليين؛ وفي السنة التالية تقشى في رومة طاعون لم تشهد وباء أشد منه فتكاً في تاريخها كله. وبذل كل ما في وسعه ليخفف وقع هذه الكوارث الشديدة، ولم تظهر في ذلك العمل عناية الإمبراطور برعاياه فحسب، بل ظهر كذلك عطف الوالد الحنون على أولاده" (102). ومات تيتس في سنة 81 في نفس البيت الريفي الذي توفي فيه أبوه من زمن قصير. وحزنت عليه رومة كلها إلا أخاه الذي على العرش.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> دومتيان

الفصل الثامن

دومتيان

إن المؤرخ الذي يريد أن يرسم صورة صادقة لدومتيان ليجد في ذلك صعوبة لا تعادلها صعوبة رسم صورة لنيرون نفسه. ذلك أن أهم المصادر التي نستمد منها معلوماتنا عن حكمه مصدران هما تاسيتس وبلني Pliny الأصغر، وكلاهما ممن علا نجمهم في عهده، ولكنهما كانا من حزب الشيوخ الذين كانت بينهم وبينه حرب عوان يريد فيها كلا الطرفين أن يضرب الضربة القاضية. ولدينا في مقابل هذين المؤرخين المعاديين له شاعران هما استاتيوس Staius، ومارتبال Martial اللذين كانا ينالان رفته أو يسعيان لنيله، واللذين شادا بذكره ورفعاه إلى عنان السماء. ولعلمهم هم الأربعة كانوا على حق فيما قالوه عنه، لأن دومتيان آخر الفلافيين بدأ حياته كالملائكة وختمها كالشياطين، وكان شأنه في هذا شأن كثيرين من اليوليوسيين-الكلوديين. وقد سايرت روح دومتيان جسمه في هذا التطور: فقد كان في شبابه متواضعاً، رشيقاً، لطيفاً، وسيماً، طويلاً؛ ثم صار فيما بعد "بطيئاً، رفيع الساقين، أصلع الرأس" -وإن كان قد ألف كتاباً "في العناية بالشعر" (103). وكان في كهولته يقرض الشعر أما في شيخوخته فلم يكن يثق بثره، وكان يعهد

إلى غيره كتابة خطبه وتصريحاته. ولو لم يكن تيتس أخاه لأمكن أن يكون أسعد مما كان؛ ولكن أنبل الناس وحدهم هم الذين يغتبطون بنجاح أصدقائهم. أما دومتيان فقد استحالته غيرته من أخيه في أول الأمر نكداً صامتاً ثم مكائداً تدبر سرّاً لإسقاطه. واضطر تاستس أن يرجو أباه أن يصفح عن أخيه الأصغر. ولما مات فسبازيان، أدعى دومتيان أن أباه قد أوصى بأن يكون شريكاً في

صفحة رقم : 3390

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> دومتيان

الحكم ولكن الوصية عبثت بها الأيدي؛ ورد تيتس على هذا الادعاء بأن عرض عليه أن يكون شريكه وخليفته، فرفض دومتيان هذا العرض وظل سادراً في مؤامراته؛ ويقول ديوكاسيوس إنه لما مرض تيتس عجل دومتيان منيته بأن أحاط جسمه بالثلج (104). وليس في وسعنا أن نتأكد من صحة هذه الأخبار أو غيرها من القصص الني وصلت إلينا عن شهواته الجنسية الطليقة كقولهم إن دومتيان كان يسبح في الماء مع العاهرات، وإنه ضم ابنة تيتس إلى سراريه، وإنه "كان فاجراً فاسقاً بالنساء والعلمان على السواء" (105). ذلك أن التواريخ اللاتينية كلها لا تختلف في شيء عن سياسة هذه الأيام، فقد كانت ضربات توجه للوصول إلى أغراض رجال العصر الذي كتبت فيه. فأما من حيث سياسة دومتيان نفسها فإنه كان في العشر سنين الأولى من حكمه متميزاً في أخلاقه قديراً في سياسته إلى حد دهش معه عارفيه؛ فقد اتخذ سياسة تيبيريوس وأخلاقه مثلاً يحتذيه، كما اتخذ فسبازيان أغسطس مثلاً آخر له. ومن ذلك جعل نفسه رقيباً مدى الحياة، ثم حرم نشر المطاعن البذيئة (وإن كان قد غض النظر عن فكاكات مارتياش الشعرية). ونفذ القوانين اليوليوسية الخاصة بالزنى، وحرم تمثيل المسرحيات الصامتة لمجافاتها الأخلاق، أمر بضرب عنق فسنتية حكم عليها بالزنى أو بمضاجعة أحد أقربائها المحرمين عليها، وقضى على عادة الخصاء وهي العادة التي انتشرت مع ارتفاع أثمان الأرقاء الخصيان، ولم يكن يطبق رؤية الدم المسفوك ول كان دم الثيران التي يضحي بها في المراسم الدينية. وكان رجلاً شريفاً، واسع الفكر، لم يؤخذ عليه بخل أو شره في حب المال، وأبى أن يقبل الوصايا ممن لهم أبناء، وألغى جميع الضرائب المتأخرة من أكثر من خمس سنين، وأعرض عن المتجسسين. وكان في أحكامه صارماً نزيهاً، وكان له أمناء سر من معاتيقه ولكنه ألزمهم جميعاً أن يكونوا أمناء صالحين.

صفحة رقم : 3391

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> دومتيان

وكان عهده من أعظم عهود العمارة الرومانية، فلما رأى أن النار التي شبت في عامي 82، 79 قد دمرت كثيراً من المباني وأنزلت بالبلاد كثيراً من البلايا، وضع برنامجاً واسعاً للمنشآت العامة ليوفر بذلك العمل للأهلين ويساعد

على توزيع الثروة (106)، وكان هو أيضاً ممن يأملون في إحاء الإيمان القديم بتجميل الهياكل والأضرحة والإكثار منها. ومن أعماله أنه أعاد بناء هيكل جوبتير ويونو ومنيرفا، وأنفق ما يعادل 22.000.000 ريال أمريكي في صنع أبوابها المصفحة بالذهب وأسقفها المطلية به، وأعجبت رومة بنتائج هذه الجهود وأسفت على ما أنفق فيها من أموال طائلة. ولما أن شاد دومتيان لنفسه ولموظفيه الإداريين قصره الرحب المعروف باسم دومس فلافيا Domus Flavia شكوا الأهليون بحق من كثرة ما أنفق في بنائه من الأموال، ولكنهم لم يرفعوا أصواتهم بالاحتجاج على الألعاب الكثيرة الأكلاف التي حاول أن يخفف بها من كراهية الشعب. وقد دشّن هيكلًا باسم أبيه وأخيه، وأعاد بناء الحمامات، وهيكل الآلهة التي أنشأه أجربا، والرواق ذي العمدة الذي أقامته أكتافيا، وهيكل إيزيس وسرابس، وأضاف أجنحة جديدة للكليسيوم، وأتم حمامات تيتس، وبدأ الحمامات التي أكملها تراجان.

ولم تشغله هذه المنشآت عن بذل الجهود الجبارة في تشجيع الفنون والآداب حتى بلغ النحت الفلافي الملون في أيام زعامته ذروة مجده، وحتى النقود التي سكنت في أيامه رائعة الجمال. ومن الوسائل التي استعان بها على تشجيع الشعر أن أقام في عام 86 الألعاب الكيتولية، وكانت تشمل مباريات في الأدب والموسيقى. وأقام معهداً للموسيقى في ميدان المريخ؛ وقدم معونة متوسطة لاستاتيوست Staius ذي المواهب الوسطى، وأخرى لمارتيال ذي المواهب الوضيعة، وأعاد بناء دور الكتب العامة التي دمرتها النيران، وجدد ما كانت تحتويه من الكتب بأن أرسل الكتبة لنسخ المخطوطات المحفوظة في الإسكندرية - وذلك برهان آخر

صفحة رقم : 3392

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> دومتيان

على أن مكتبتها العظيمة لم يحرق إلا جزء صغير من كنوزها في النار التي أوقدها فيها قيصر. وإلى هذا كله كان يصرف شؤون الإمبراطورية أحسن تصريف، وكان يتصف بما يتصف به تيبيريوس من عزيمة قوية صارمة في الشؤون الإدارية، وقد ضرب على أيدي المختلسين والمرتبّنين، وكان شديد الرقابة على تعيين الموظفين ومصائرهم. وكما فعل تيوبيريوس بجرمنكوس إذ حد من جسعه، كذلك استرجع دومتيان أجركولا من بريطانيا بعد أن قاد هذا القائد المغامر جيوشه ودفع حدود الأملاك الرومانية حتى وصلت اسكتلندة، ويلوح أن أجركولا كان يعتزم مواصلة الزحف ولكن دومتيان أبى عليه ذلك. وقد عزا بعضهم استرجاع أجركولا لحسد دومتيان له وغيرته من مجده، وجوزي الإمبراطور على هذا أشد الجزاء حين كتب تاريخ حكمه صهر أجركولا نفسه. وخانه الحظ في الحرب أيضاً حين عبر الداشيون بهر الدانوب في عام 86، وغزوا ولاية موئيزيا Moesia الرومانية، وهزموا قواد دومتيان، فما كان من الزعيو إلا أن تولى القيادة بنفسه، ووضع خطة الحرب فأحكم وضعها، وأوشك أن يدخل داشيا ولكن أنطونينس ستورنيس Antoninus Saturninus الوالي الروماني على ألمانيا العليا أقنع فيلقين من الفيالق المعسكرة في مينز Mainz بأن تنادي به إمبراطوراً. وأحمد أعوان دومتيان الفتنة، ولكنها أفسدت عليه خطته إذ مكنت أعداءه من جمع شملهم والاستعداد لقتاله. فلما أن عبر الدانوب لملاقاة الداشيين هزمه هؤلاء على ما يظهر، فعقد الصلح مع دسبالس Dacibalus ملك الداشيين، وأرسل إليه هدية كان يرسل مثلها في كل عام يسترضيه بها، وعاد إلى رومة ليحتفل بنصر مزدوج على الشاتين Chatti والداشيين، واكتفى فيما بعد بإنشاء طريق محصن بين نهري الرين والدانوب وآخر بين النية الشمالية لهذا النهر والبحر الأسود. وكانت فتنة سترنيس نقطة الانقلاب في حكم دومتيان، أو الحد الفاصل

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> دومتيان

بين نفسه الطيبة ونفسه الخبيثة. لقد كان على الدوام شديداً لا يلين، أما الآن فقد انحدر إلى القسوة والوحشية؛ ولقد كان قادراً على أن يحكم حكماً صالحاً، ولكن مقدرته هذه كانت موقوفة على أن يكون حاكماً أوتوقراطياً لا معقّب لحكمه؛ ففي عهده لم يلبث مجلس الشيوخ أن فقد سلطته، وكانت اختصاصاته الواسعة بوصفه رقيباً سبباً في إذلال هذا المجلس وبث روح الانتقام في نفوس أعضائه. هذا إلى أن غرور دومتيان لم يقف عن حد، والغرور كما هو معروف من الصفات التي تترعرع حتى نفوس الوضيعين من الناس: ومن مظاهر غروره أنه ملأ الكبتول بتمائيله، ونادى بتأليه أبيه وأخيه وزوجته وأخته كما نادى بتأليه نفسه، وأنشأ طائفة جديدة من الكهنة سماوا الفلافياles ليشرّفوا على عبادة أولئك الأرباب، وطلب إلى الموظفين ألا يذكره في وثائقهم إلا بلقب "سيدنا وإلهنا Dominus et Deus Noster". وكان يجلس على عرشه ويشجع زائريه على أن يحتضنوا ركبتيه، وأدخل في قصره المزخرف آداب القصور الشرقية، لأن الزعامة أصبحت بقوة الجيش وانحلال مجلس الشيوخ ملكية غير دستورية. واشتعلت نيران الفتن على هذا التطور الجديد بين صفوف الأشراف وبين الفلاسفة والأديان التي أخذت تنتسب إلى رومة من بلاد الشرق. وأبى اليهود والمسيحيون أن يعبدوا دومتيان ويتخذوه إلهاً من دون الله، وندد الكلبيون بكل أنواع الحكومات، وأقسم الرواقيون ليقاوم كل مستبد جبار ويكرّم من قتلته المستبدين وإن قبلوا أن يحكم البلاد ملوك. وفي عام 39 طرد دومتيان الفلاسفة من رومة، ثم أخرجهم من إيطاليا كلها في عام 95، وكان قرار طردهم من رومة يشمل معهم المنجمين، لأن تنبؤهم بموت الإمبراطور أوقع الرعب في قلب رجل خال قلبه من الإيمان ومستعد لقبول الخرافات والأوهام. وفي عام 93 أعدم دومتيان بعض المسيحيين لأنهم أبوا أن يقربوا القرابين بين يدي تمثاله؛

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> دومتيان

وتقول الروايات المتواترة إن فلافيوس كلمنز Flavius Clemens ابن أخيه كان من بين هؤلاء القتلى (109). زاد خوف الإمبراطور من المؤامرات حتى بلغ في السنين الأخيرة من حكمه جد الجنون، فكان يبطن بالحجارة البراقة جدران الأروقة التي يمشي تحت سقفها، حتى يرى صورة من كان وراءه معكوسة فيها. وكان يندب سوء حظ الحكام لأن أحداً لا يصدقهم إذا قالوا إن الناس يأترون بهم إلا إذا نجحت المؤامرة، وكان كتيبيريوس يستمع للواشين حين تقدمت به السنون، فلما أن تضاعف عدد الوشاة، لم يكن أحد من المواطنين ذوي المكانة يأمن على نفسه وهو في عقر داره من الجواسيس. وزادت التهم والأحكام زيادة سريعة بعد فتنة سترنيس، ففي الأشراف أو قتلوا تقتيلاً، وعذب كل من اشتبه فيه عذاباً شديداً، وكان من بين ضروب العذاب "إدخال النار في أعضائهم التناسلية" (108). وأخذ مجلس الشيوخ المروع وكان من أعضائه تاسنيس الذي يقص هذه الأخبار والحقد يملأ قلبه-أداة لهذه المحاكمات والأحكام، وكان كلما أعدم إنسان يحمد للآلهة أن أنجت الزعيم.

وكان من الأخطاء التي وقع فيها دومتيان أن قذف الرعب في قلوب آل بيته أنفسهم. من ذلك أنه أمر في عام 96 بإعدام إيفرديتس Epaphraïdus أمين سره لأنه أعان نيرون على الانتحار قبل ذلك الوقت بسبع وعشرين سنة.

وأحس معاتيق بيته بأنهم مهددون بالخطر، فاعتزموا أن يتقوا الشر بقتل دوميتيان، وانضمت إليهم دوميتيا Domitia في هذه المؤامرة. وحدث في الليلة السابقة لليلة مقتله أن قفز من فراشه مذعوراً. ولما حلت الساعة المتفق عليها وجه خادم دوميتيان الضربة الأولى؛ واشترك أربعة عشر غيره في الهجوم عليه؛ وقاوم دوميتيان هذا الهجوم مقاومة المجنون، ثم خر صريعاً، وكان ذلك في السنة الخامسة والأربعين من عمره والخامسة عشرة من حكمه (96). ولما علم الشيوخ بالنبأ

صفحة رقم : 3395

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> دوميتيان

مزقوا ما كان له في قاعة المجلس من صور وحطموا ما وضع له فيها من تماثيل وأمروا أن يُحطم كل ما في الإمبراطورية بأجمعها من تماثيل له ومن نقوش يُذكر فيها اسمه. وبعد فقد ظلم التاريخ هذا العهد "عهد الطغاة"، وكان سبب هذا الظلم أنه تحدث عنه أكثر ما تحدث بلسان أعظم المؤرخين نباعة وأبعدهم عن الإنصاف. ولسنا ننكر أن ثرثرة سوتونيوس كثيراً ما تؤيد اتهامات تاستس أو تحذو حذوها، ولكن دراسة الأدب والنقوش قد حكمت عليها بأنهما يظنان خطأ أن كتابة تاريخ الإمبراطورية، وتاريخ القرن الذي كانا يعيشان فيه، لا تخرج عن تسجيل رذائل الأباطرة العشرة وخطاياهم. وإن أسوأ هؤلاء الحكام لم يكن مجرداً من كل خير - فقد كان تيبيريوس حاكماً مخلصاً في عمله، وكان كالجيولا مرحاً جذاباً، وكان كلوديوس يكبح لتعلم الحكمة، وكان نيرون مرهف الحس بالجمال، وكان دوميتيان قديراً في حكمه صارماً فيه. وقام من خلف مظاهر الفجور والتقتيل نظام إداري حفظ للولايات قسطاً كبيراً من النظام خلال هذه الفترة الطويلة كلها. يضاف إلى هذا أن الأباطرة أنفسهم كانوا أكبر ضحايا سلطانهم، فقد كان مرض من نوع ما يجري في دمائهم، أشعلت ناره حرارة شهواتهم الطليقة، وظل يلازم اليوليوسيين - الكلوديين حتى قضى عليهم كما قضى أثريوس Atreus. وكان عيب من نوع ما في نظام الحكم هو الذي حط من شأن الفلافيين في مدى جيل واحد، فهو يبهيم من حزمهم في شؤون الحكم وصبرهم على متاعبه إلى القسوة الوحشية المروعة. ولقد اختتمت حياة سبعة من هؤلاء الرجال العشرة أسوأ خاتمة، وكانوا كلهم تقريباً غير سعداء في حياتهم، فقد عاشوا في جو من المؤامرات والفساد، والخيانة، ويحاولون أن يحكموا عالماً من بيت تسوده الفوضى. وإذا كانوا قد أطلقوا العنان لشهواتهم فما ذلك إلا لأنهم كانوا يعرفون أن سلطانهم العظيم سريع الزوال وأنهم كانوا يعيشون يروعهم في كل يوم

صفحة رقم : 3396

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الجانب الآخر من الملكية -> دوميتيان

بأنهم مقضي عليهم بالموت الباكر المفاجئ. وإذا كانوا قد انحطوا إلى الدرك الأسفل فما ذلك إلا لأنهم كانوا فوق متناول القانون، وإذا كانوا قد أضحوا أقل من الرجال فما ذلك إلا لأن السلطة جعلت منهم آلهة يعبدون. ولكننا مع ذلك لا يحق لنا أن نغفر لهذه الحقبة أو للزعامة ما اقترفته من الجرائم الخسيسة الدنيئة؛ نعم إنها نشرت السلام في ربوع الإمبراطورية، ولكنها بسطت حكم الإرهاب على رومة، وأفسدت الأخلاق بما ضربته من أمثلة القسوة المروعة والفجور الطليق، وقطعت أوصال إيطاليا بإشعال نار الحرب الأهلية التي كانت أشد هولاً ووحشية من حروب قيصر وبمبي، وملأت الجزائر بالمنفيين، وأفنت خير الرجال وأشدهم بأساً وأقواهم قلباً. ونشرت الغدر والخيانة بين الأقارب والأصدقاء بإجزال العطاء للجواسيس الشرهين. وقد استبدلت في رومة حكم القانون بطغيان الأفراد وشادت صروحاً ضخمة بجمع الخراج من الولايات، ولكنها أضعفت النفوس بإرهاب ذوي المواهب والابتكار حتى يذلوا أو يصمتوا. وشر من هذا كله أنها جعلت الجيش صاحب السلطة في البلاد. فلم يكن منشأ سلطة الزعيم على مجلس الشيوخ هو عبقريته الفذة، أو ما جرى به العرف، أو مكانة الزعيم وهيئته، بل كان عماد هذه السلطة أسنة الحرس. ولما رأت جيوش الولايات كيف كان الأباطرة يرفعون على العرش، وكيف كانت العطايا توزع عليهم في العاصمة والغنائم تؤخذ منها، واستولت على سلطة الحرس البريتوري، وتولت هي صنع الملوك. ولقد استطاع الحكام العظماء، الذين كانوا يُختارون بالتبني لا بالوراثة، استطاعوا بالحكمة أو بالبطش أو بالمال أن يكبحوا جماح الفيالق الرومانية ويؤمنوا الحدود والتغور، فلما أن عادت البلاهة إلى الجلوس إلى العرش بعمل فيلسوف عاشق، شق الجند عصا الطاعة وفسد نظامهم، ومزقت الفوضى غشاء النظام الرقيق، وتأزرت الحرب الأهلية والبرابرة المتربصون فتحطم صرح الحكم النبيل المزروع الذي شادته عبقرية أغسطس.

صفحة رقم : 3397

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> المولعون بالفنون

الباب الرابع عشر

العصر الفضي

96-14م

الفصل الأول

أطلقت الرواية المتواترة على الآداب اللاتينية فيما بين 14، 117م اسم العصر الفضي للدلالة على أن هذه الآداب قد نزلت عن المستوى الثقافي الرفيع الذي بلغته في عصر أغسطس؛ والرواية هي صوت الزمان، والزمان هو الوسط الذي يختار فيه بين الطيب والخبيث، والعقل الحذر يجلب حكمها لأن الشباب وحده هو الذي يعرف ما لا تعرفه عشرون قرناً من الزمان. على أننا نرجو أن يؤذن لنا بأن نرجئ حكمنا على هذا العصر، وأن نستمتع بلا تحيز إلى ما يقوله عنه لو كان، وبترونيوس، وسنكا، وبلني الأكبر، وسلسس Celsus، واستاتيوس Status ومارتيال، وكونتليان، وأن نستمتع في أبواب أخرى من هذا الكتاب إلى أقوال تاستس، وجوفنال، وبلني الأصغر، وإيكتتس Epictetus، وأن نستمتع بأقوالهم استمتاع من لم يسمعوا قط بأنهم عاشوا في عصر من العصور الاضمحلال. ذلك أنا نجد في كل عصر شيئاً يضمن شيئاً ينمو؛ فالمقطوعات الشعرية الفكهة، والهجاء، والروايات القصصية، والتاريخ، والفلسفة، بلغت كلها في العصر الفضي ذروة مجدها، كما أن فن النحت الواقعي، والعمارة الضخمة قد بلغا فيه ما لم يبلغاه في عصر آخر من عصور الفن الروماني.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> المولعون بالفنون

وفي هذا العصر دخل حديث الشارع مرة أخرى في الأدب، وأهملت بعض قواعد النحو والصرف، وحذت الحروف الساكنة من أواخر الكلمات، ولم يعباؤها الرومان أكثر مما كان يعباؤها الغاليون. وحدث في منتصف القرن الأول أو حواليه أن رقق الحرفان الاتينيان V (وكان ينطق كما ينطق حرف W (و) في اللغة الإنكليزية)، B (إذا كان بين حرفين متحركين) حتى أصبحا مماثلين في النطق لحرف V الإنكليزي. وهكذا أصبحت كلمة Babere ومعناها التملك ينطق بها Bavere، وكان هذا تمهيداً للكلمة الإيطالية avere، والفرنسية Avoir؛ وأخذت كلمة Vinum ومعناها النبيذ أو الخمر تقترب في النطق من كلمة Vино الإيطالية، وكلمة Vin الفرنسية وذلك بإهمال الحرف الساكن الأخير المتغير. وقصارى القول أن اللغة الاتينية شرعت تمهد السبيل للغات القومية الإيطالية والأسبانية والفرنسية.

وجدير بنا أن نعترف في هذا المقام بأن الخطابة ازدهرت وقتتذ على حساب البلاغة، وأن النحو ارتقى على حساب الشعر؛ وأن لمقتدرين الكفاة وجهوا كل جهودهم إلى دراسة شكل اللغة وتطورها ودقائقها، وإلى نشر اللصوص التي أصبحت في ذلك العهد نصوصاً "فصحى"، وإلى صياغة قواعد الكتابة الأدبية الراقية والخطب القضائية، وأوزان الشعر، وتقاسيم الجمل في النثر. وحاول كلوديوس أن يدخل بعض الإصلاح على الحروف الهجائية، وجعل نيرون الشعر طراز العصر المحبب، وألف سنكا الأكبر كتباً في البلاغة، وحجته في هذا أن الفصاحة تزيد كل قوة إلى ضعفها؛ ولم يكن أحد يرقى في رومة بغير الفصاحة إلا قواد الجند وحدهم، وحتى هؤلاء القواد كان يجب أن يكونوا خطباء. واستحوذ جنون البلاغة على جميع أشكال الأدب: فأصبح الشعر خطابياً، والنثر

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> المولعون بالفنون

شعرياً، وحتى بلني نفسه كتب صفحة بليغة في المجلدات الستة من كتابه في التاريخ الطبيعي. وأخذ الناس يغلون أنفسهم باتزان عباراتهم، وتناغم جملهم، وأضحت التواريخ خطباً حماسية، وأخذ الفلاسفة يجهدون أنفسهم في البحث عن النكات، وشرع كل إنسان يكتب أمثالاً مركزة موجزة، وصار الأدباء كلهم يكتبون الشعر ويقرؤونه لأصدقائهم حول مناضد في ردهات أو دور تمثيل يستأجرونها لهذا الغرض، بل إنهم كانوا يقرؤونه في الحمامات نفسها، حتى شكا من ذلك مارتياحاً مر الشكوى. وعقدت مباريات عامة للشعراء، ينال الفائزون فيها جوائز وتحتفل بهم المجالس البلدية، ويضع الأباطرة عل رؤوسهم أكاليل النصر. وكان الأشراف والزعما يرحبون بأن تُهدى إليهم المؤلفات أو يُثنى عليهم فيها، وكانوا يجيزون أصحابها بالولائم أو الأموال. وكانت شهوة الشعر مما أكسب هذه الفترة وتلك المدنية اللتين دنستهما الإباحية الجنسية وعهود الإرهاب المتكررة نقول كانت هذه الشهوة مما أكسب هذه الفترة ذلك الجمال الذي يخلعه المؤلفون الهواة على العصر الذي يعيشون فيه.

واجتمع الشعر والإرهاب في حياة لوكان، وكان سنكا الكبير جده، وسنكا الفيلسوف عمه. وقد ولد في قرطبة عام 39 وسمي ماركس أنيوس لوكانس Marcus Annaeus Lucanus، وحيء به في طفولته إلى رومة ونشأ في بيئة أرسنقراطية يضطر عفيها الشعر والفلسفة مع دسائس الحب ومع السياسة في سبيل الغلبة والمكانة السامية في الحياة. ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره اشترك في المباريات التي عقدت أثناء الألعاب النبرونية، وتقدم إليها بفصيحة "في مدح نبرون" نال عليها جائزة. وأدخله سنكا في بلاط الإمبراطور، وسرعان ما أخذ الشاعر والإمبراطور يتطارحان الملاحم. وأرتكب لوكان غلطة شنيعة إذ كسب الجائزة الأولى في مباراة شعرية مع الزعيم، فما كان من نبرون إلا أن أمره بالأينشر بعدها شعراً، وانسحب لوكان ليثار لنفسه سراً بتأليف ملحمة قوية ولكنها خطابية

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> المولعون بالفنون

سماها فرساليا رأى فيها الحرب الأهلية بعين الأرسنقراطية البمبية. ولم يخس لوكان في هذه الملحمة قيصر حقه، وقد وصفه فيها بتلك العبارة البليغة "Nil actum credens cum quid superssent agendum" يظن أنه لم يفعل شيئاً إذا ما بقي ما لم يفعله" (1)، ولكن البطل الحقيقي في هذه الملحمة هو كاتو الأصغر الذي يضعه لوكان في مصاف الآلهة في سطر مشهور من سطور كتابه "Victrix causa deis placuit sed victa catoni" إن القضية الراجعة سرت الآلهة، ولكن القضية الخاسرة كاتو" (2). وقد أحب لوكان أيضاً القضية الخاسرة، ومات في سبيلها. فقد اشترك في مؤامرة ليحل بيزو محل نبرون، وقبض عليه، فخارت قواه (ولم يكن قد جاوز السادسة والعشرين من عمره)، وباح بأسماء شركائه في المؤامرة، حتى اسم أمه نفسها-على حد قول المؤرخين. ولما أيد نبرون حكم الإعدام الذي صدر عليه، استعاد شجاعته، ودعا أصدقاءه إلى وليمة، وأكل معهم حتى شبع، ثم فتح بعض أورته، وأنشد ما قاله من الشعر في هجو الظلم والطغيان بينما كان دم الحياة ينزف من جسمه.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> بترونيوس

الفصل الثاني

بترونيوس

ولسنا واثقين من أن بترونيوس الذي لا يزال كتابه المسمى الساتريكون Satyricon يجد له كثيراً من القراء هو نفسه كيوس بترونيوس Caius Petronius الذي قُتل بأمر نيرون بعد عام من مقتل لوكان. وليس في الكتاب كله كلمة واحدة يمكن أن يُستدل منها على هويته؛ ولا يذكر تاسيتس في وصفه القوي البليغ لهذا "الحاكم الظريف" كلمة واحدة عن هذه الآية الأدبية التي بلغت في سوء السمعة. وتعزى نحو أربعين مقطوعة فكهة إلى كاتب يدعى بترونيوس ومنها بيت يكاد يمثل فلسفة لكريوشوس كلها وهو: "إن الخوف هو الذي أوجد الآلهة في العالم أول الأمر" (3) ولكن هذه النتف أيضاً لا تذكر شيئاً يفصح عن حقيقة مؤلفها.

وكتاب الساتريكون مجموعة من الهجاء يغلب على الظن أنها كانت في ستة عشر كتاباً لم يبق منها إلا الكتابان الأخيران، وحتى هذين الكتابين ناقصان. واسمها مشتق من ساتوري Saturae اللاتينية ومعناها "خليط" وهي تارة نثر وتارة شعر، وتختلط فيها المغامرت في الفلسفة، وجراحة المعدة بالصيد، وهي مدينة في صورتها هذه لكتب منبوس Menippus الهجائية؛ ومنبوس هذا فيلسوف سوري كلبى Cynic كان يقيم في جدارا Gadara وفيها كتب مؤلفه عام 60 ق.م، ومنها "القصص الميليزية" Milesian أو الروايات الغرامية التي انتشرت في العالم ذي الحضارة اليونانية. إذ كان ما لدينا من أمثلة لهذا النوع من الكتابات إنما يرجع إلى ما بعد عصر بترونيوس فإن كتاب الساتريكون يمتاز عن أمثاله من الكتب بأنه أقدم رواية قصصية معروفة.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> بترونيوس

ولا يكاد الإنسان يصدق أن رجلاً مترفاً أرسقراطياً نبيلاً، اشتهر بذوقه الراقي، ينزل إلى الدرك الذي نزل إليه كتاب الساتريكون. إن كل ما فيه من الشخصيات العاملة من العامة، والأرقاء السابقين، وكل ما فيه من المناظر مأخوذ من أسفل أنواع الحياة؛ وبه ينتهي فجاءة العهد الأغسطي الذي كانت تؤخذ فيه موضوعات الأدب من حياة الطبقات العليا. فإنكليبوس Encolpius الذي تروى القصة على لسانه زان، مخنث، كاذب، لص، يرى من الطبيعي أن يكون كل ذي عقل على شاكلته. وهو يقول عن نفسه وعن صديقه: "لقد اتفقنا فيما بيننا على أن نختلس كل ما تصل إليه أيدينا كلما أتيت لنا فرصة الاختلاس، لنملأ به خزينتنا المشتركة" (4). وتبدأ القصة في بيت للدعارة، يلتقي فيه إنكليبوس بأسيلتوس Ascylltos بعد أن لجأ هذا إلى ذلك المكان فراراً من محاضر في الفلسفة، ومغامراتهما بين مدن إيطاليا الجنوبية وكهوفها هي الرباط الذي يربط أجزاء القصة المبعثرة، كما أن تنازعهما على جبتون Giton الغلام الرقيق الوسيم هو الذي يفرق بينهما في قصة اللصوص الغرامية. ويصل الرجلان آخر الأمر إلى بيت التاجر تريملكيو Trimalchio، ثم يدور الجزء الباقي لدينا من الكتاب حول وصف السنا تريملكيونس Cina Trimalchionis وهو أعجب غداء في الأدب كله.

وتريملكيو هذا عبد سابق جمع ثروة طائلة واشترى ضياعاً واسعة، يحيا حياة المترفين الحديثي النعمة، بين جدران قصر وفي جو ملئ بالاضطراب. وقد بلغت ضياعه من الاتساع حداً لا بد معه من كتابة صحيفة يومية يعرف بها مكاسبه، وهو يطلب إلى ضيوفه أن يشربوا ويقول:

"إذا لم يعجبكم الخمر استبدلت به غيره، ولست مضطراً إلى شرائه وذلك ما أحمده للآلهة. إن كل ما يسيل لعابكم في هذا المكان قد جاءني من إحدى مزارعي التي لم أرها بعد؛ ولكنهم يقولون لي إنها في طريق ترسينا Terracina

صفحة رقم : 3403

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> بترونيوس

وتارنيم، وإني أفكر في أن أضم صقلية لأملاكي الصغيرة الأخرى، حتى إذا ما أردت أن أسافر إلى أفريقية استطعت أن أسير مجاوراً لشواطئ أملاكي... وإذا ما حدثتكم عن الفضة فإني أحدثكم عنها حديث الخبير؛ فعندي منها أقداح في حجم دنان الخمر... وعندي ألف جفنة تركها مميوس Mummius لسيدي... وأنا أشتري الأشياء بأبخس الأثمان وأبيعها بأغلاها؛ وقد يكون لغيري من الناس آراء غير هذه الآراء (5). وهو رغم هذا رجل ظريف، يسب عبده ولكنه يعفو عنهم من فوره، وهم من الكثرة بحيث لا يعرف صورته منهم إلا عشرهم، وهو لا ينسى أنه في الأصل عبد مثلهم ولذلك يقول عنهم قولاً كريماً: "إن العبيد رجال قد رضعوا اللبن الذي رضعناه.. وسوف يشرب عبيدي إذا طال بهم العمر الماء الذي يشربه الأحرار". وهو يبرهن على حسن نواياه بأن يأمر بإحضار وصيته وقراءتها على ضيوفه فيجدون فيها أمواً مخصصة لقبريته التي يختتمها بقوله مفتخراً إنه "اغتنى من لاشيء، وإنه ترك وراءه ثلاثين مليون سسترس، وإنه لم يستمع قط إلى فيلسوف" (6).

واختص وصف العشاء بأربعين صفحة، وإن عدداً قليلاً من الجمل لتكفي لوصف نكهته: وكانت لدينا صينية مستديرة نقشت على أطرافها أبراج النجوم، وقد وضع الخادم على كل برج خبز مايلانمه من الطعام؛ فوضع جلبان الضأن على برج الحمل ولحم البقر على برج الثور... ورحم خنزيرة لم تلد على برج السنبل... ووضع على برج الميزان كفتين في إحداهما فطيرة وفي الأخرى كعكة... وأقبلت أربعة راقصات مسرعات ليرفعن الغطاء عن الطعام. وكان من تحته طيور محشوة، وبطون خنازير، يتوسطها أرنب، وفي الجوانب أربعة تماثيل لمارسياس Marsyas يخرج من مثنائتها حساء متبل يقع على سمك يسبح في الصحاف... ثم جاءت صينية أخرى عليها خنزيرة، علفت في أنيابها سلال مثقلة بالبالح، ومن حولها صغارها مصنوعة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> بترونيوس

من الفطائر... ولما دفع الخادم السكين في جانب الخنزيرة طار منها طير السماني وحط كل واحد على ضيف من الأضياف(7).

ثم تدخل الحجر أربعة خنازير بيضاء ويختار الضيوف ما يريدون أن يطهى لهم منها؛ ويشوى لهم ما يختارونه وهم يطعمون؛ ويؤتى لهم به، فإذا قطع خرجت من بطنه أمعاؤه المحشوة والفطائر. وإذا قدمت الحلوى لم يجد أنكليبيوس لديه شهية لتناولها، ولكن ترملكيو يحث ضوفه على الأكل ويؤكد لهم أن الحلوى قد صنعت كلها من لحم الخنزير. ويدلى خطاف من السقف، يحمل لكل ضيف إبريقاً من المرمر مملوءاً بالعطر ويملاً العبيد أقداحاً فارغة بالخمير المعق. وتذهب الخمر بعقل تريمليكو فيغازل غلاماً، وتحتج عليه زوجته البدينة، ويقذفها بكأس في رأسها ويقول: "إن هذه العاهر السورية الرقاصة ضعيفة الذاكرة، فلقد انتشلتها من سوق النخاسة وجعلتها امرأة، وهاهي ذي تنفخ أوداجها كالضفدعة... وهذه سنة الخلق إذا ولدت في علية تحت سطح منزل، فلن تستطيع أن تنام في قصر" (8) ثم يامر قهرمانه أن يبعد تمثالها عن قبره "وإلا فإنها ستؤنبنني حتى بعد أن اموت".

هذا كتاب في الهجاء القوي المقذع، واقعي في تفاصيله وحدها، ولا يصدق إلا على قسم صغير من الحياة الرومانية. وإذا كان كاتبه هو بترونيوس الذي عاش في عهد نيرون، وجب علينا أن نعهده هجاء مقذعاً للأغنياء المحدثين من الأرقاء المحررين، كتبه رجل من الأشراف، ولم يكسب قط بعمله ما كان له من المال. والكتاب كله خلو من الرحمة ليس فيه شيء من العطف على الناس، ولا يهدف إلى مثل أعلى، ويرى كاتبه أن الفساد وسوء الخلق أمر طبيعي لا غبار عليهما، وتعرض فيه حياة السوق من الناس عرض من يستمتع بها ويعجب بها ولا يعلق بكلمة ما عليها. وفي هذا الكتاب تنساب الأقدار انسياباً سريعاً إلى الأدب الروماني، وتحمل إليه أحكام أصحابها، وأذواقهم، وألفاظهم الوقحة، وحيويتهم

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> بترونيوس

المرحة. وترى القصة أحياناً تصل إلى أعلى درجات السخف والبذاءة والسباب التي تتوج ملحمة جرجنتوا وبنترجول، وتعد تمهيداً لقصة "الأتان الذهبية" لأبوليوس Apuleius وتضارعها جيل بلاس Gils Blas التي كتبت بعدها بسبعة عشر قرناً، وتواصل قصتنا ترسترام شاندي Tristram Shandy، وت جونز Tom Jones ما في قصصها من التواء، وجملة القول أن هذا الكتاب هو أعجب كتاب في الأدب الروماني كله.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> الفلاسفة

الفصل الثالث

الفلاسفة

في هذا العصر الشديد التعقيد والانحلال، الذي فرضت فيه على الحرية أضيق القيود وتحررت فيه الحياة من كل قيد، في هذا العصر ازدهرت الفلسفة إلى جانب الفسق والفجور، ولم تنفردا قط عن التعاون والاتفاق. لقد ترك ما طرأ على الدين القومي من انحلال ثغرة في الأخلاق حاولت الفلسفة أن تسدها، فكان الآباء يرسلون أبناءهم، وكثيراً ما كانوا يذهبون هم أنفسهم، ليستمعوا إلى محاضرات رجال يعرضون عليهم قانوناً عقلياً للأخلاق الصالحة، أو ستاراً رسمياً للشهوات المكشوفة، وكان بعض من أتوا سعة من المال يستأجرون الفلاسفة ليعيشوا معهم، وليعلموهم، وليكونوا لهم مستشارين روحيين، وأصحاب هكذا كان أتيسوس لأغسطس، لا يكاد يبرم أمراً حتى يستشير فيه، ومن أجله (إذا كان لنا أن نصدق الحكام فيما يقولون) لم يقس على مدينة الإسكندرية، ولما مات دروسس استدعت ليفيا "فيلسوف أبيها" وهذا نص عبارة سنكا- "اليعينها على تحمل أجزائها". وكان لنيرون، وتراجان وأورليوس بطبيعة الحال فلاسفة يقيمون معهم في بلاطهم، كما للملوك أمراء في هذه الأيام. وكان الناس في الساعات الخيرة من حياتهم يستدعون الفلاسفة، ليمهدوا لهم طريق الموت، كما جرت العادة بعدئذ أن يستدعي الناس القساوسة (10). ولم يكن الشعب ليغفر لهؤلاء الفلاسفة أنهم يتقاضون على أعمالهم هذه مرتبات أو أجوراً، بل كان يرى أن الفلسفة قي حد ذاتها تعني عن الطعام والشراب؛ وكان الفلاسفة الذين لا يقدرهم مهنهم حق قدرها عرضة لسخرية الشعب، وانتقاد كورنتليا Quintilian، وهجو لوشيان Lucian وعداء

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> الفلاسفة

الأباطرة. والحق أن الكثيرين منهم كانوا جديرين بهذا كله، لأنهم كانوا يلبسون لباس الفلاسفة الخشن، ويطلقون لحاهم طويلة، ليسترُوا بثوب العلم نهمهم، وأطماعهم، وبخلهم، وغرورهم. وفي ذلك يقول أحد الأشخاص للوسيان إن:

"دراسة قصيرة للحياة قد أفنعتني بما في جميع الأغراض الدنيوية من سخف وحقارة... وخير ما أستطيع أن أفكر فيه وأنا في هذه الحالة النفسية هو أن أعرف حقيقة الحياة كلها من الفلاسفة... ومن أجل هذا اخترت أحسنهم- إذا كان وقار المنظر، واصفرار الوجه، وطول اللحية هي المقياس الذي يعتمد عليه في هذه الحال... ثم وضعت نفسي بين أيديهم. وطلبت إليهم أن يعلموني نظام الكون في نظير مبلغ كبير من المال أؤديه إليهم فوراً، ومبلغ آخر أؤديه إليهم حين أصل إلى الغاية في الحكمة. ولكن الذي حدث لسوء الحظ أنهم لم يبددوا ما كنت فيه من جهل، بل زادوا عقلي ارتباكاً فوق ارتبائه بما جرعوني من بدايات وغايات، ودرات وفراغ، ومواد وأشكال. وكان أصعب ما لقيته أنهم جميعاً كانوا يريدون أن أصدقهم، رغم ما بينهم من خلاف، ورغم ما كان في أقوالهم كلها من تناقض؛ فكان كل واحد منهم يجذبني نحوه... وكثيراً ما كان يعجز عن أن يخبرك بما بين مجارا وأثينة من أميال، ولكنه لا يتردد مطلقاً في أن يخبرك بما بين الشمس والقمر من أقدام(11).

وكان معظم الفلاسفة الرومان من أتباع المذهب الرواقي، أما لأبيقوريين فلم تترك لهم الخمر ونساء والطعام وقتاً للنظريات الفلسفية. وكان في أماكن قليلة من رومة متسولون يدعون إلى الفلسفة الكلبية، لا يعنون بالتفكير، ويدعون الناس إلى البساطة والتقشف، ويدعون لما يطلبه الشعب إلى الفلاسفة أن يكونوا فقراء، ومن أجل هذا كانوا أقل طوائف الفلاسفة احتراماً. ولكن سنكا اتخذ واحداً من هؤلاء صديقاً وفيّاً له؛ وقال في هذا متسائلاً: "ولم لا أجل دمتريوس وأعظمه؟ لقد وجدته

صفحة رقم : 3408

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> الفلاسفة

كاملاً لا ينقصه شيء. وقد دهش الحكيم صاحب الملايين حين رفض الفيلسوف الكلبى، الذي لم يكده يجد عنده ثوباً يستتر به عورته، عطية من كالجيو لا مقدارها مائتا ألف سسترس(12). وإذ كان الرواقي الروماني رجل قتال لا رجل تأمل وتفكير، فقد كان يتجنب ما وراء الطبيعة، ويرى ذلك من المطالب المينوس منها، وكان يجد في الرواقية فلسفة أخلاقية تقوم على الآداب الإنسانية، وتضم شمل الأسرة، وتثبت النظام الاجتماعي من غير حاجة إلى رقابة علوية وسيطرة إلهية. وكان جوهر قانونه الأخلاقي هو سيطرة المرء على نفسه: فكان يدعو إلى إخضاع الشهوات للعقل، وكان يعود إرادته ألا تطلب شيئاً يجعل راحته النفسية تعتمد على الطيبات الخارجية. وكان في الناحية السياسية يعترف بأخوة البشر الخاضعين لأبوة الله. وكان في الوقت نفسه يحب بلده وتراه على الدوام مستعداً لأن يضحي بحياته لكي يرد عنها وعن نفسه المذلة والعار. وكانت الحياة على الدوام رهن تصرفه، له أن يغادرها حين تصبح نقمة عليه لا نعمة له، وكان الرواقي يسعى لأن يكون ضمير الإنسان أقوى من كل قانون، وكانت الملكية في رأيه شراً لا بد منه لحكم الأقطار الشاسعة المتباينة، ولكن قتل الطاغية المستبد كان أمراً طيباً مرغوباً فيه كل لرغبة.

وقد استفادت الرواقية الرومانية أول الأمر من الزعامة، ذلك أن القيود التي فرضت على الحرية السياسية دفعت الناس من السوق إلى الدرس، وبعثت في أرق هؤلاء الناس وأظرفهم نزعة إلى الفلسفة التي تجعل الشخص المسيطر على نفسه ذا سلطان أقوى من سلطان الملك الثائر المنفعل. ولم تقيد الحكومة حرية الفكر أو العقول ما دامت الأفكار والأقوال لا تتجه علناً إلى مهاجمة الإمبراطور وأسرتة، أو إلى الطعن على الآلهة الرسمية. فلما أن شرع الأساتذة وأولياؤهم من الشيوخ ينددون بالظلم والاستبداد شبت بين الفلسفة والحكم المطلق حرب عوان، دامت حتى جمع بينهما الأباطرة المنتبئون فوق العرش

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> الفلاسفة

ولما أمر ثراسي Thrasea بأن يقتل نفسه (65) نفي في الوقت نفسه موسونيوس روفس Musonius Rufus صديق ثراسي، وأخلص فلاسفة رومة الرواقيين في القرن الأول عقيدة، وأشدهم عملاً بفلسفته. وكان روفس قد عرف الفلسفة بأنها هي البحث عن السلوك الطيب، وشرع في هذا البحث بجد ومثابرة. وقد شهر بالانسري رغم شريعتة، وكان يطلب إلى الرجال أن يحافظوا في أخلاقهم الجنسية على المستوى الذي يطالبون به النساء. وكان الرجل التولستوي النزعة يقول إن العلاقات الجنسية لا تباح إلا في حالة الزواج وللمحافظة على النسل. وكان يعتقد بوجود تكافؤ الفرص التعليمية للرجال والنساء على السواء يرحب بوجود النساء في محاضراته، ولكنه يأمرهن أن يبحثن في الزينة والفلسفة عن الوسائل التي يكملن بها أنوثتهن (13). وكان الأرقاء أيضاً يشهدون محاضراته. وقد شرف أحد هؤلاء وهو Epictetus أستاذه بأن تفوق عليه. ولما أن شبت نار الحرب الأهلية في رومة بعد موت نيرون خرج موسونيوس للجيش المهاجم، وأخذ يخطب فيه ويشرح له فوائد السلم وفضائع الحرب. وسخر منه جنود أنطونيوس وعادوا إلى تحكيم السيف. ولما أن طرد فسبازيان الفلاسفة من رومة استثنى منهم روفس، ولكنه احتفظ بسراريه.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> سنكا

الفصل الرابع

سنكا

وجدت الفلسفة الرواقية في حياة لوسيوس أنيوس سنكا Lneius Annaeus Seneca أكثر مظاهرها مدعاة إلى الريبة، كما وجدت في كنيته أصدق تعبير عنها. وكان مولده في قرطبة (Corduba) حوالي العام الرابع قبل الميلاد، وسرعان ما جيء به إلى رومة وتلقى فيها كل ما كان يستطيع أن يتلقاه من تربية وتعليم. وقد تشرب الفلسفة من أبيه، والرواقية من أتالس Attalus والفيثاغورية من سوتيون Sotlon، والفلسفة العملية من زوج عمته حاكم مصر من قبل الرومان. وحاول مدى عام أن يعيش على الأطعمة النباتية، ثم عدل عن هذا، ولكنه ظل طوال حياته مقلداً من الطعام والشراب، فكان من ذوي الملايين في بيئته لا في عاداته. وقد عانى كثيراً من مرض الربو وضعف الرئتين،

حتى فكر في بعض الأحيان في الانتحار. ومارس مهنة المحاماة، واختير كوسترا في عام 33م، وبعد عامين من ذلك الوقت تزوج بميبا بولينا Pompeia Paulina وعاش معها عيشة مستمرة عجيبة حتى مماته. ولما ورثت ثروة أبيه، ترك مهنة المحاماة، واشتغل بالكتابة. ولما أرغم كالجيو لا كرمتيوس كوردس Cremutius Cordus على أن يقتل نفسه (40) كتب سنكا إلى أبنته مقالة تعزية Consolatis، وكانت هذه المقالات من الموضوعات التي يكتبها الخطباء والفلاسفة في تلك الأيام. وأراد كالجيو لا أن يقتله عقاباً له على وقاحته، ولكن أصدقاؤه أنجوه من القتل بقولهم إنه لن يلبث أن يموت من السل إذا ما ترك وشأنه. وبعد قليل من ذلك الوقت اتهمه كلوديوس بوجود علاقات غير شريفة بينه وبين يوليا ابنة جرمنكوس،

صفحة رقم : 3411

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> سنكا

وحكم عليه مجلس الشيوخ بالإعدام، ولكن كلوديوس استبدل بهذا الحكم النفي في جزيرة كورسكا. وفي هذه الجزيرة الصخرية الوعرة قضى الفيلسوف في عزله ثماني سنين (41-49) بين أقوام لم يرتفعوا قط عن بدانتهم التي وصفهم بها أوفد في تومي Tomi. وصبر في أول الأمر على هذه الكارثة صبر الروافيين الحقيقيين، وكتب إلى أمه مقالاً يواسيها فيه "Consolatio ad Helviam"، فلما أن توالى عليه أعوام الشقاء، ضعفت نفسيته واستولى عليه اليأس، فكتب إلى أمين سر كلوديوس مقالة Consolatio ad Polybium يرجوه فيها متذلاً أن يعفو عنه، ولما لم يفده هذا الرجاء حاول أن يحفف من آلامه بكتابة المآسي. وأكبر الظن أن هذه المسرحيات العجيبة التي يكاد كل شخص فيها أن يكون خطيباً، وإنما كتبت لتقرأ وتدرس لا لتمثل على المسرح، وذلك أننا لم نسمع أن واحدة منها مثلت، وغاية ما في الأمر أن بعض الحوادث ذات الروعة أو بعض الخطب الطنانة الرنانة، لُحنت ومثلت تمثيلاً هزلياً. ونرى الفيلسوف الرقيق في هذه المسرحيات يجري الدماء على المسرح كأنه يريد ألا يكون هذا المسرح أقل بشاعة وسفكاً للدماء من الاحتفالات والألعاب. على أنه رغم ما بذله فيها من جهود جبارة، لم ينجح في مسرحياته لانصرافه فيها إلى التفكير أكثر من انصرافه إلى الإخراج المسرحي، فهو يفضل الأفكار على الرجال، ولا يدع فرصة تمر دون أن يشغلها بالتأملات والعواطف والفكاهة. ولسنا ننكر أن في مسرحياته أبياتاً جميلة، ولكن الإنسان لا يلام إذا لم يعلق شيء منها بذاكرته بعد سماعها. على أننا يجب أن نضيف إلى هذا أن كثيرين ممن يعتد بحكمهم لا يتفقون معنا في الرأي، ومن هؤلاء اسكلجر Scaliger سيد النقاد جميعاً في عصر النهضة والذي يفضل سنكا عن يورديز. ولما أن عادت الآداب القديمة إلى الحياة، كان سنكا هو الذي اتُخذ

صفحة رقم : 3412

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> سنكا

نموذجاً لأولى المسرحيات التي كتبت باللغات الحديثة، وعنه أخذت الصيغ الفصيحة، ووحدة الزمان والمكان التي امتازت بها مسرحيات كورني Corneille وراسين Racine، والتي ظلت مسيطرة على المسرح الفرنسي حتى القرن التاسع عشر. ولقد كانت ترجمة هاي وود (Heywood 1559) لمسرحيات سنكا في إنجلترا، التي كانت أقل البلاد تأثراً بنفوذه، المثال الذي نسجت على منواله مأساة بودك Gorboduc أولى المآسي الإنجليزية، كان لهذه المآسي أثرها في مسرحيات شكسبير.

وحدث في عام 48 أن حلت أجربينا الصغرى محل مسالينا في السيطرة على كلوديوس وعلى رومة، وكانت تتوق إلى أن تجعل من ابنها نيرون، وكان وقتئذ في الحادية عشر من عمره، اسكندراً ثانياً، فأخذت تتلفت حولها تبحث له عن أرسطاطاليس، حتى وجدته في جزيرة كورسكا، فأمرت باستدعاء سنكا وأعدته إلى مكانه في مجلس الشيوخ، وظل خمس سنين يعلم تلميذه الشاب، وخمس سنين أخرى يرشد الإمبراطور ويمسك بزمام الدولة. وكان طوال هذه العشر السنين يديج الرسائل لإصلاح شأن نيرون، كما كتب عدة رسائل مختلفة يعرض فيها الفلسفة الرواقية عرضاً ظريفاً. ومن هذه الرسائل رسائله: في الغضب، وفي قصر الحياة، وفي هدوء الروح، وفي الرحمة، وفي الحياة السعيدة، وفي ثبات المسرح، وفي حسن التدبير. وهذه الرسائل التي تعنى أكثر ما تعنى بالشكل والمظهر لا تبرز أحسن مواهب سنكا، فهي كمسرحياته ملى بالنكات، ولكن هذه النكات التي يجدها القارئ منثورة غير ارتباط في صحف الكتاب كلها تفقد بهجتها آخر الأمر وتبعث الملل في نفس القارئ. على أن قراء سنكا مع ذلك كانوا يقرؤون هذه المقالات من حين إلى حين، ولم يكونوا يشمئزون من النكات المرححة التي أغضبت كونيان الصارم(14)

صفحة رقم : 3413

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> سنكا

المتزمت(14)، ولا من المحسنات اللفظية التي لم يرض عنها ذوق فرننتو Fronto العتيق. لقد كان يسر أولئك القراء أن وزيرهم الأول ينطق بأقواله الظريفة، وأنه يحاول كما يحاول تلميذه بكل ما أوتي من جهد، يكسب ثناءهم عليه. وقد ظل سنكا كثيراً من السنين حامل لواء الكتاب، والساسة، وزارع الكروم في إيطاليا. وضاعف ما ورثه عن أبيه من ثروة باستثمارها استثماراً استعان عليه فيما يظهر بمنصبه الرسمي وعلمه الواسع؛ وإذا كان لنا أن نصدق ديو فإنه كان يقرض المال لأهل الولايات بربا فاحش آثار الفزع والفتنة في بريطانيا حين فاجأ مدينته فيها بطلب أمواله البالغ قدرها 40.000.000 سسترس(15). ويقال إن ثروته بلغت 300.000.000 سسترس أي (30.000.000 ريال أمريكي)(16). وقد اتهمه جاسوس من أصدقاء مسالينا يدعى ببليوس سوليوس Publius Sullius علناً بأنه "منافق، زان، خليع، يذم حاشية الإمبراطور ولا يفارق قصره، ويذم الترف، ويتباهى بأن له خمسمائة خوان من الأرز والعاج، ويندد بالثروة ويستنزف دماء الولايات بالربا الفاحش"(17). وقنع سنكا كما قنع قيصر بمقارعة الحجة بالحجة، وكان في وسعه أن يأمر بإعدام خصمه. ولقد أعاد ذكر هذه التهم في مقاله "عن الحياة السعيدة" ورد عليها بأن الحكيم لا يتحتم عليه أن يكون فقيراً، فإذا جاءه المال من طريق شريف كان في وسعه أن يقبله، ولكن يجب أن يكون في مقدوره أن يتخلى عنه متى شاء دون أن يندم عليه"(18)، وكان في هذه الأثناء يعيش عيشة الزهد والتقشف بين أثائه الجميل، ينام على خشبة صلبة خشنة، ولا يشرب إلا الماء القراح، ولا يتناول إلا القليل من الطعام، حتى ضمير جسمه من قلة التغذية قبل وفاته(19). وكتب في ذلك يقول: "إن كثرة الطعام تذهب بالذكاء، والإفراط فيه يخلق الروح"(20). أما ما اتهم به من الشذوذ الجنسي فلعله كان

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> سنكا

يصدق عليه أيام شبابه، ولكنه اشتهر بعطفه الدائم على زوجته. والحق أنه لم يقرر في حياته أيهما إليه الفلسفة أو السلطة، الحكمة أو السعادة؛ ولم يقنع في يوم من الأيام بتعارض الفلسفة مع السلطة، أو الحكمة مع السعادة؛ وكان يعترف بأنه حكيم جد ناقص، ومن أقواله في هذا: "أني لا أمتدح الحياة التي أحيها بل الحياة التي يجب أن أحيها، وهي الحياة التي أحبو إليها حبواً، وهي بعيدة عني كل البعد" (21)، وأينا لا يصدق عليه هذا الوصف؟ وإذا لم يكن مخلصاً في قوله إن "الرحمة لا تزين أحداً من الناس بقدر ما تزين الملك أو الزعيم" (22)، فلا أقل من أنه قد وصفق هذه العاطفة وصفاً لا يقل جمالاً عن وصف بورشيا Portia لها. وقد ندد بمعارك المجتذات التي كانت تنتهي بقتل المصارعين (24)، وكان من أثر ذلك أن حرّمها نيرون، وخفف من حدة النقد في أيامه بما يسميه تاسيتس: "كياسته في تلقين الحكمة" (25)، ولم يكن في حياته يتطلب الكمال، كما لم يكن يمارسه عملياً.

ولقد سبق القول بأنه حكم الإمبراطور حكماً صالحاً وأنه أساء إلى سمعته بالتغاضي عن شر ما ارتكبه نيرون من الجرائم، و "السماح بارتكاب الكثير من الشر حتى يكون في مقدوره أن يفعل القليل من الخير" (27). وكان يحس بما في منصبه الرسمي من ذلة ومهانة، ويتوق إلى التحرر من عبوديته، ووصف قصر الإمبراطور بأنه "سجن يشقى فيه العبيد". وكان يتمنى أن لو قضى حياته كلها في دراسة الحكمة، وتجنب دياجير السلطان. وكان يسره أن يتخلى من حين إلى حين عم مشاغله السياسية، وأن يستمع وهو في سن الستين إلى محاضرات متروناكس Metronax في الفلسفة كما يستمع إليها الصبي الحريص على الإفادة منها. وطلب في عام 22-وكان وقتئذ في السادسة والستين من عمره-أن يؤذن له باعتزال منصبه في القصر، وكان وقتئذ أقل شأنًا من منصبه الأول،

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> سنكا

ولكن نيرون لم يجبه إلى طلبه. ولما طلب نيرون إلى جميع من في الإمبراطورية أن يكتبوا في إعادة بناء رومة بعد الحريق العظيم الذي دمرها في عام 64، تبرع هو بالجزء الأكبر من ثروته لهذا الغرض. واستطاع فيما بعد أن ينسحب شيئاً فشيئاً من بلاط الإمبراطور، وأن يقضي جزءاً متزايداً من وقته في بيوته في كمانيا، لعله يستطيع بعزلته الشبيهة بعزلة النساك أن يفر من الإمبراطور ومن جواسيسه. وظل وقتاً ما لا يطعم إلا التفاح البري ولا يشرب إلا الماء الجاري خشية أن يفس له السم في الطعام.

وفي هذا الجو المليء بالرعب والفرح دون بين عامي 63، 65 دراسات في التاريخ الطبيعي Questiones Naturales كما كتب أطف كتاباته كلها وهي رسائله الأخلاقية Epistulae Morales. وهذه الرسائل احاديث عارضة شخصية موجهة إلى صديقه لوسليوس وإلى صقلية المثري، الشاعر، الفيلسوف والأبيقوري الصريح. وقل أن يجد الإنسان في الأدب الروماني كتباً تبعث على السرور خيراً من هذه المحاولات الطريفة لتكبيف الرواقية حسب حاجات الرجل الواسع الثراء. وتعد هذه الرسائل بداية المقالة الخالية من التكلفة والصنعة التي أمست فيما بعد الوسيلة

التي لجأ إليها أفلوطرخس، ولوسشيان، ومنتاني، وفنتير، وروسو، وبيكن، وأدسن واستيل للتعبير عن آرائهم. وإن القارئ ليشعر وهو يقرأ هذه الرسائل بأنه على اتصال بروماني مستنير، رحيم، متسامح، سما إلى الذروة وتعمق إلى أبعد حد في الأدب، والسياسة، والفلسفة، ويحسن كأن زينون يتحدث فيها برقة أبيقور وتسامحه وبسحر أفلاطون. ويعتذر سنكا للوسليوس عن أسلوبه المهلهل الذي يبدو فيه كبير أثر للعناية (وهو مع ذلك أسلوب لاتيني رائع الحسن)؛ ويقول في اعتذاره هذا: "وأحب أن تكون رسائلي إليك هي عين حديثي، إذا ما جلسنا أو سرنا معاً" (30). ويضيف إلى ذلك قوله:

"الست أكتب هذا لجمهرة الناس، بل أكتبه إليك، فحسبي وحسبك

صفحة رقم : 3416

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> سنكا

أن يستمع كل منا للآخر Satis magnum alteri theatrum sumus"، وإن كان السياسي الشيخ يرجو بلا ريب أن يسترق الناس هذا الحديث. وهو يصف ربوه وصفاً رائعاً وإن كان لا يرثي فيه لنفسه، ويسمي هذا المرض تسمية مرحة ظريفة فيقول إنه "التدريب على الموت" بأخذ "أنفاس أخيرة" متقطعة تدوم كل منها ساعة، وكان وقتئذ في السابعة والستين من العمر ولكنه لم يبلغها إلا بجسمه، أما "عقلي فقوي يقظ، يجادلني في موضوع الشيخوخة، ويجهر بأنها فترة ازدهار" (32). وهو يبتهج إذ وافته الفرصة آخر الأمر لقراءة الكتب القيمة التي اضطر إلى إغفالها زمناً طويلاً. ويلوح أنه في ذلك الوقت قد عاد إله قراءة كتب أبيقور، لأنه ينقل عنها فقرات كثيرة وينقلها بحماسة تزي بأمثاله من الرواقيين، ويستولي عليه الرعب حين يشهد تطرف كالجيلولا، ونيرون، وآلاف غيرهما من الرومان في نزعتهم الفردية وفي الجري وراء شهواتهم؛ يريد أن يجد وسيلة يقاوم بها المغريات التي تحيط بمن ينحدر عقله قبل أن ينضح خلقه، ويبدو أنه أخذ على نفسه أن يرد على الأبيقوريين ويفهمهم بأقوال نطق بها زعيمهم الذي دنسوا اسمه بأعمالهم، والذي لا يجروون على فهم تعاليمه.

وأول درس يلقيه على الناس في الفلسفة هو أننا لا نستطيع أن نكون عقلاء حكماء في كل شيء، وأنا لسنا في حقيقة أمرنا إلا قطعاً متناثرة في الفضاء اللانهائي، ولحظات قصيرة في الأبدية، وإن محاولة هذه الذرات المتشعبة أن تصف الكون، أو الكائن الأعلى، لعمل ترتج من الكواكب سخرية ومرحاً. ومن أجل هذا فإن سنكا لم يكن في حاجة إلى الدين أو إلى علم ما وراء الطبيعة؛ وفي وسع الإنسان أن يثبت من كتاباته أنه كان من الموحدين، أو المشركين، أو الكافرين، أو الماديين، أو الأفلاطونيين، أو القائلين بوحدة الوجود، أو ثنائيته. وهو يرى في بعض الأحيان أن الله قوة مدبرة شخصية،

(31)

تهيمن على كل شيء، "تحب الصالحين من الناس" (33)، وتستجيب إلى دعواتهم، وتعينهم بلطفها الإلهي (34). ثم تراه في فقرات أخرى يقول إن الله هو العلة الأولى في سلسلة متصلة من الحلقات من العلة والمعلومات، وإن القوة النهائية هي القدر وهو علة لا تزدد ولا تنقص، تصرف شؤون البشر والآلهة على السواء... بقود الطائعين وتجرجر الغاضبين" (36). وهذا التردد نفسه يطمس فكرته عن النفس البشرية، فهي عنده نسمة مادية رقيقة تبعث الحياة في الجسد ولكنها أيضاً "إله يسكن" في الهيكل البشري "كما يسكن الضيف" عند مضيفه (37). وهو يتحدث حديث المرتجي عن حياة بعد الموت، تكمل فيها المعرفة والفضيلة (38)؛ ويسمي الفساد الخلقي كما يسميه من قبل "حلماً جميلاً" (39). وحقيقة الأمر أن سنكا لم يفكر في هذه المسائل تفكيراً يصل به إلى نتيجة متسقة (أو عامة)، بل هو يتحدث عنها حديث السياسي المذبذب الذي يوافق الناس جميعاً. ذلك أنه عمل بدروس أبيه الخطابية فنجح فيما كان يبغيه نجاحاً فوق ما يجب، واستطاع أن يعبر عن جميع الآراء المتناقضة بعبارات بليغة لا يستطيع القارئ أن يقاوم أثرها في نفسه.

وهذا التردد عينه يفسد فلسفته ويجملها معاً، فهو مسرف في رواقيته إلى حد يجعل فلسفته غير عملية، وهو لين إلى حد لا يستطيع معه أن يكون رواقياً حقيقياً؛ وهو يرى م حوله فساداً خلقياً ينهك الجسم ويزري بالنفس، ولا يرضى هذا أو ذلك؛ ويرى أن الشره والترف قد قضيا على الطمأنينة والصحة، وأن كل ما أفاده الإنسان من القوة أن صار وحشاً أقدر على الأذى من سائر الوحوش فهل من سبيل إلى نجاة الإنسان من هذا الاضطراب الشائن المنزل؟ ولقد قرأت اليوم قول أبيقور: "إذا شئت أن تستمتع بالحرية الحقة، وجب عليك أن تكون عبداً للفلسفة، ذلك أن الرجل الذي يخضع لها يتحرر لساعته... إن الجسم إذا شفي من مرضه مرة كثيراً ما ينتابه المرض مرة أخرى..."

صفحة رقم : 3417

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> سنكا

أما العقل، فإذا شفي، فلن يعود إليه المرض أبداً، وسأحدثكم عما أعنيه بالصحة: إن الصحة في رأيي أن يكون عقل الإنسان راضياً واثقاً، يدرك أن الأشياء التي يسعى إليها الناس جميعاً، وكل الفوائد التي يعملون لها أو ينالونها، لا أثر لها في الحياة السعيدة... وسأدلكم على قاعدة تقيسون بها أنفسكم وتحولكم من حال إلى حال! إنكم تصلون إلى ما تبغونه لأنفسكم في ذلك اليوم الذي تدركون فيه أن الناجحين هم أكثر الناس شقاء(40).

"والفلسفة هي علم الحكمة، والحكمة هي فن العيش، والسعادة هي الغرض الذي نبتغيه، ولكن الطريق إليها هو الفضيلة لا اللذة. والحكم القديمة التي يهزأ بها الناس صحيحة صادقة تثبت التجارب صدقها في كل يوم. وسوف نعال آخر الأمر بالشرف، والعدالة، والحلم، والرافة، قدرأ من السعادة أكثر مما نناله بالجري وراء اللذة. وما من شك في ان اللذة طيبة مستحبة، ولكنها لا تكون كذلك إلا إذا اتفقت مع الفضيلة؛ وليس في مقدور الرجل العاقل أن يتخذها هدفاً له، ومثل الذين يجعلونها غرضهم في الحياة كمثل الكلب الذي يختطف كل قطعة من اللحم تُلقى إليه، وابتلعها كلها، وهو بعدئذ لا يستمتع بها، بل يقف فاغراً فاه يتلطف على قطعة أخرى(41).

ولكن كيف يحصل الإنسان على الحكمة؟ إن السبيل إلى ذلك أن تمارسها كل يوم بقدر مهما يكن ضئيلاً، وأن تمتحن سلوكك في آخر كل يوم، وأن تكون قاسياً على أغلاطك ليناً على أغلاط غيرك، وأن تصاحب من هم أعظم منك حكمة وفضيلة، وأن تتخذ لنفسك رجلاً لا تراه عينك مشهوداً له بالحكمة ليكون لك ناصحاً وقاضياً تحتكم إليه في شئونك، ويساعدك على الوصول إليه أن تقرأ كتب الفلاسفة، ولست أقصد بهذه الكتب قصص الفلاسفة الموزعة، بل أقصد بها مؤلفات الفلاسفة أنفسهم، "ولا ترُجُ قط أنك ستستطيع في يوم من الأيام أن تحصل على زبد حكمة النابهين من الرجال بقراءة خلاصات موجزة لهذه

صفحة رقم : 3418

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> سنكا

الحكمة" (42)، "إنك ستغادر كل واحد منهم أسعد مما كنت وأشد رغبة في حكمته، ولن يتركك واحد منهم تقارقه صفر اليدين... ألا ما أعظم تلك السعادة، وما انبل تلك الشيخوخة اللتين تنتظران ذلك الرجل الذي يحتمي بحماهم ويتخذهم سادة له وأنصاراً!" (43). اقرأ الكتب الطيبة مراراً، فذلك خير لك من قراءة الكتب الكثيرة؛ وسافر سفراً بطيئاً، ولا تسرف في الأسفار، لأن "الروح لا تتضح وحدتها إلا إذا كبحت جماح تشوفها وتجوها" (44). وأولى سمات العقل المنظم أن يكون صاحبه قادراً على أن يبقى في مكان واحد، وأن يطيل المكث مع أصدقائه (45). وإياك والجموع الكبيرة فإن "الناس وهم مجتمعون أخبث منهم وهم فرادى، فإذا اضطرت أن تكون في حشد كبير، فأنت أشد ما تكون في حاجة إلى الانطواء على نفسك" (46).

وآخر درس يتعلمه الرواقي هو احتقار الحياة وإيثار الموت. ذلك أن الحياة ليست على الدوام ممتعة إلى الحد الذي يجعلها جديرة بأن يطول أجلها؛ ومن الخير للإنسان بعد حمى الحياة ونوباتها أن ينام ليستريح. "وهل ثمة شيء أخط من أن يضطرب الإنسان ويغضب وهو على عتبة إسلام؟" (47). وإذا وجد الإنسان الحياة محزنة، واستطاع أن يغادرها دون أن يضر ذلك ضرراً بليغاً بغيره من الناس، فعليه بأن من حقه أن يختار الوقت الذي يغادرها فيه والطريقة التي يغادرها بها. ويحبذ سنكا للوسليوس الانتحار كأنه سيكون هو وريثه فيقول:-

"من الأسباب التي لا يستطيع معها أن يتدمر من الحياة أنها لا تستبقيه فيها رغم إرادته...كم من مرة قطع لك وريد ليقل بذلك وزنك! وإذا ما طعنت نفسك في قلبك فإنك لن تكون في حاجة إلى جرح واسع حتى تموت؛ وإن مشروطاً يشق لك الطريق إلى الحرية، وفي وسعك أن تشتري راحتك بوحزة إبرة... (48) وحيثما أدت بصرك وجدت الوسيلة التي تقضي بها

صفحة رقم : 3419

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> سنكا

على متاعيك. فهل ترى هذه الربوة الشديدة الانحدار. إنها تهبط بك إلى الحرية؟ أو هل ترى هذا النهر أو ذلك الحوض أو ذلك البحر؟-إن الحرية في أعماقها(50)...ولكنني تحدثت فأطلت الحديث، وكيف يستطيع الإنسان أن يختم حياته إذا لم يكن في وسعه أن يختم رسالة يكتبها؟(51)...أما أنا يا عزيزي لوسليوس فقد بلغت أُرذل العمر، وقد عشت كفايتي، وها أنا ذا في انتظار الموت. وداعاً أيها الصديق"(52).

واستجاب الأقدار لدعائه، فقد أرسل إليه نيرون تربيوناً يستجوبه فيما اتهم به من أنه يتآمر على جعل بيزو إمبراطوراً؛ فأجاب الرسول بأنه لم يعد يهتم بالسياسة، وأنه لا يبتدئ غير السلام، وأن تتاح له الفرصة للعناية "ببنيتة المتهدمة الضعيفة". ويقول التربيون: "إنه لم تظهر عليه أعراض الخوف أو أمارات الحزن...وإن أقواله ونظراته كانت تتم عن عقل هادئ قويم ثابت". وقال نيرون للتربيون: "عد إليه وقل له أن يموت" ويقول ناستس إن "سنكا تلقى النيا بهدوء واطمئنان"، ثم عانق زوجته، وطلب إليها أن تتخذ من حياته الشريفة النبيلة ومن دروس الفلسفة سبباً للسلوى والاطمئنان. ولكن بولينا أبت أن تعيش بعد مماته، فلما أن فتحت أوردته، أمرت هي الأخرى بفتح أوردتها، ثم استدعى أحد أمناء سره وأملى عليه رسالة وداع للشعب الروماني. وطلب بعدئذ قدحاً من شراب السكران، فجيء له به، كأنه اعتزم أن يموت ميتة سقراط. ولما أن وضعه الطبيب في حمام فاتر ليخفف به ألمه، رش الماء على أقر الخدم له وهو يقول: "هذا ماء ساكب لجوف المنقذ"، ثم فارق الحياة بعد أيام مريرة (65)، وأمر نيرون الطبيب بأن يربط معصمي بولينا على الرغم منها، ويمنع خروج الدم من أوردتها ففعل، وبذلك عاشت بعد زوجها بضع سنين؛ ولكن امتناع لونها الدائم كان يدل على عزمها القوي الثابت.

ورفع الموت من قدر سنكا وأنسى جيلاً من الأجيال مواقفه وتذبذبه. وكان

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> سنكا

ككل الرواقيين يستخف بالسلطة ولا يقدر قوة الوجدان والعواطف حق قدرها، ويغاليه في قيمة العقل ويفرط في الاعتماد عليه، ويثق فوق ما يجب بالطبيعة وهي منبت جميع أزهير الشر والخير على السواء. ولكنه جعل الرواقية فلسفة بشرية وأنزلها من عليائها حتى أضحت فلسفة حية في متناول بني الإنسان ومهد بها للمسيحية. ولقد كان تشاؤمه، وتنديده بفساد الأخلاق في أيامه، ودعوته الناس أن يقابلوا الغضب بالحلم(54)، وانشغاله بأمر الموت(55)، كان كل هذا مما حمل ترنتليان Tertullian على أن يقول عنه إنه "مثا"(56)، كما حمل أوغسطين على أن يقول فيه "ماذا يستطيع المسيحي الصميم أن يقول أكثر مما قاله هذا الوثني؟"(57). نعم إن سنكا لم يكن مسيحياً، ولكنه في القليل طالب بالقضاء على القتل والسلب، ودعا إلى الحياة البسيطة المهذبة، وقل ما كان هناك من فروق بين الرجل الحر والمحروم والرقيق حتى أضحت هذه الفروق لا تزيد على "الألقاب التي خلقتها المطامع أو الأخطاء"(58). وكان الذي استفاد أكبر فائدة من تعاليم سنكا عبداً في بلاط نيرون وهو إيكنتس. كذلك صاغت كتاباته نرفا Nerva وتراجان إلى حد ما، وكانت أعماله مثلاً يُحتذى في السياسة الإنسانية القائمة على الإخلاص وإرضاء الضمير. وقد ظل إلى آخر العهود القديمة كما ظل طوال العصور الوسطى محبباً للجماهير؛ ولما حل عهد النهضة وضعه بترايك في المرتبة الثانية بعد فرجيل، وصاغ نثره على مثال نثر سنكا. وتجم صهر منتاني كتاباته إلى اللغة الفرنسية، وكان منتاني نفسه يقتبس من أقواله كما يقتبس سنكا من أبيقور. وكان إمرسن يقرأ مؤلفاته مراراً وتكراراً(59)، حتى أضحى سنكا الأمريكيين. نعم إن الإنسان قلما يجد في أقوال سنكا أفكاراً جديدة مبتكرة، ولكن هذا يغتفر له، لأن كل الحقائق الفلسفية قديمة، ولا شيء فيها مبتكر إلا الخطأ، ولقد كان رغم أخطائه كلها أعظم الفلاسفة الرومان، كما أنه كان في كتبه على الأقل أرجحهم عقلاً وأرقهم قلباً؛ وكان بعد شيشرون أحب المناققين إلى القلوب في التاريخ كله.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> علوم الرومان

الفصل الخامس

علوم الرومان

لقد أطلنا الكلام فيه أكثر مما يجب؛ ولكننا مع ذلك لم نفرغ منه بعد، فقد كان عالماً طبيعياً أيضاً. ذلك انه أخذ يسلي نفسه في السنين الخصبية الواقعة بين اعتزاله شؤون الحكم وموته بالتفكير في المسائل الطبيعية كالبحت عن تفسير للمطر، والبرد، والرياح، والمذنبات، وأقواس قوس قزح والزلازل، والأهوار، والينابيع، وقد أشار في مسرحية ميديا Medea إلى الوجود قارة أخرى على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي(60). وبنفس هذه اللقانة الطبيعية كتب وهو يتأمل ملايين النجوم في السماء: "كم من كرات تتحرك في أعماق الفضاء لم تصل بعد إلى عيون بني الإنسان"(61). ثم يضيف إلى هذا وكأنه قد كشف عن بصره الغطاء: "كم من أشياء سيتعلمه أبنائنا ولا نستطيع الآن أن نتصورها في خيالنا! -وكم من أشياء أخرى ستظل مجهولة مئات السنين بعد أن تنسى أسماؤنا!... ويدهش أبنائنا من جهلنا"(62)، ولقد صدق في قوله هذا، فنحن يدهشنا جهله. ذلك أن سنكا رغم بلاغته لا يضيف شيئاً إلى ما قاله أرسطاطاليس وأراتس Aratus، وهو يستعير الشيء الكثير من بوسيدونيوس Poseidonius. ويؤمن بأن في مقدور الإنسان أن يتنبأ بالغيوب بالرغم من معارضة شيشرون لهذه العقيدة، ويتورط في بيان العلل النهائية للمعلولات مخالفاً بذلك عقيدة لكريشوس، وكثيراً ما يقطع أقواله العلمية بما يضيفه فيها من وصايا أخلاقية، فهو ينتقل بحذق عظيم من الكلام على بلح البحر إلى الكلام في الترف، ومن المذنبات إلى أسباب الانحطاط. وكان آباء الكنيسة يحبون هذا الخلط بين الأجرام السماوية والأخلاق، ولذلك جعلوا كتاباً

صفحة رقم : 3422

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> علوم الرومان

المسائل الطبيعية أشهر كتاب علمي في العصور الوسطى. وكان في رومة عدد قليل من الرجال ذوي النزعة العلمية والولع بالعلوم، ومن هؤلاء فارو، وأجربا، وبمبنيوس ميلا Pomponius، وسلسس Celsus، ولكن علمهم لم يكن يتعدى نطاق تقويم البلدان، وفلاحة البساتين، والطب. أما فيما عدا هذا فلم يكن العلم الطبيعي قد انفصل بعد عن السحر، والخرافات، والدين، والفلسفة، وكان قوامه ما تجمع من المشاهدات والروايات؛ ولما كان يشمل بحوثاً جديدة عن حقائق الأشياء، وكانت التجارب فيه جد نادرة. وبقي الفلك حيث تركه البابليون واليونان، فكان الوقت يقاس بالساعات المائية، وبالمز أول، وبالمسلة الكبرى التي اختلسها أغسطس من مصر وأقامها في ميدان المريخ؛ وكان ظلها يقع على طوار نقشت عليه علامات من نحاس، تدل على ساعات النهار وعلى فصول السنة(63). وكان النهار والليل يحددان بشروق الشمس وغروبها، وينقسم كل منها إلى اثنتي عشرة ساعة، وبذلك كانت تطول ساعة النهار، وتقصر ساعة الليل في فصل الصيف عنها في فصل الشتاء. وكان التنجيم من المعتقدات الشائعة التي يكاد يؤمن بها كل إنسان. وفي هذا يقول بلني ان الناس كلهم في أيامه (70م) - السذج منهم والمتعلمون - يعتقدون ان مصير الانسان يقرره النجم الذي يولد هو ساعة مطلعته(64). وكانوا يؤيدون هذه العقائد بحجج طليية كقولهم ان نمو النبات، مرده إلى الشمس، ولعل فصول التزاوج عند الحيوانات مردها إليها كذلك، وإن خصائص الناس الجسمية والخلقية تتأثر بعوامل المناخ التي تتأثر هي أيضاً بالشمس، وإن أخلاق الأفراد ومصائرهم لا تختلف عن هذه الظواهر العامة في أنها نتيجة لأحوال جوية لا نعرفها حق المعرفة. ولم يرفض أحد التنجيم إلا المتشككون أتباع الأقدمية المتأخرة الذين أنكروا ما يدعيه

صفحة رقم : 3423

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> علوم الرومان

رجاله من علم، والمسيحيون الذين سخروا منه وأعدوه ضرباً من الوثنية. أما الجغرافية فكانت دراستها أكثر واقعيًا وكان الغرض منها ان يستعان بها على الملاحة. وقد نشر بمبنيوس ميلا (Mela Pomponius 43م) خرائط قسم فيها سطح الأرض إلى منطقة حارة في الوسط، ومنطقتين معتدلتين شمالية وجنوبية. وكان الجغرافيون الرومان يعرفون أوروبا وشمال آسيا الغربية، وشمالها الشرقي، أما سائر أجزاء العالم فكانت لديهم عنها أفكار غامضة، وأقاصيص خرافية غريبة. وقد وصلت السفن الأسبانية والأفريقية الصغيرة إلى جزائر مديرة Madeira وقناريا أو الخالدات (Canary 65)، غير انه لم يبق في ذلك الوقت رجل مثل كولمبس ليحقق حلم سنكا. وكان أوسع المنتجات العلمية الإيطالية وأكثرها دلالة على الجد، وأبعدها عن العلم الصحيح كتاب التاريخ الطبيعي (Historia Naturalis 67) الذي وضعه كيوس بلنيوس سكندس Caius Plinius Secundus. وقد قضى كيوس حياته كلها تقريباً جندياً، ومحامياً، ورحالة، وحاكماً، وقائداً للأسطول الروماني في غربي البحر المتوسط، ولكنه رغم هذه المشاغل كلها ألف رسائل في الخطابة، والنحو، والحرب، وكتب تاريخاً لروما، وتاريخاً آخر لحروب روما في ألمانيا، وسبعة وثلاثين "كتاباً" في التاريخ الطبيعي هي كل ما بقي من هذا الفيض العظيم من المؤلفات. أما كيف استطاع ان يفعل هذا كله في خمس وثلاثين سنة فيفسره خطاب كتبه ابن أخيه يقول فيه: لقد كان سريع الفهم، متحمساً حماساً لا يكاد يصدقها العقل، وله القدرة على ترك النوم منقطعة النظير. وكان يستيقظ من نومه في منتصف الليل أو في الساعة الواحدة صباحاً، ولم يحدث قط أن ظل نائماً إلى ما بعد الساعة الثانية، ثم يبدأ عمله الأدبي... وقبل أن يطلع النهار يمثل بين يدي فسبازيان، وكان هو أيضاً يختار ذلك الوقت لتصريف شؤون الدولة. فإذا انتهى من الأعمال التي عهدا إليه الإمبراطور عاد إلى منزله وواصل الدرس. وكان يتناول في الظهيرة... وجبة خفيفة لا تستغرق إلا القليل من

صفحة رقم : 3424

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> علوم الرومان

الوقت، فإذا كان الفصل صيفاً... فإنه كثيراً ما يستريح قليلاً في الشمس؛ ولكنه كان في أثناء ذلك يستمع إلى كتاب يقرأ له، ويقتبس منه بعض عبارات، ويكتب عنه بعض مذكرات... وتلك كانت عادته في كل ما يقرأ. وكان بعد ذلك يستحم عادة بالماء البارد، ويتناول بعض المرطبات الخفيفة، ويستريح قليلاً، ثم يواصل الدرس حتى موعد العشاء، كأنه يبدأ يوماً جديداً. وفي أثناء العشاء يقرأ له كتاب آخر يكتب عنه مذكرات... تلك كانت خطته في الحياة وسط ضجيج المدينة وصخبها. أما في الربيف فكان يقضي وقته كله في الدرس اللهم إلا حين كان يستحم فعلاً. وحتى في ذلك الوقت الذي كان يدلك فيه جسمه ويجفف كان يستمع فيه إلى كتاب يقرأ له أو يملئ هو شيء من عنده. وكان يرافقه في أسفاره على الدوام كاتب ملم بطريقة الاختزال يجلس معه في عربته أو في هودجه... وقد لامني في يوم من الأيام على المشي وقال لي: "لم يكن لك ان تضيع هذه الساعات" لأنه كان يرى أن كل وقت لا يصرف في الدرس وقت ضائع(66). وكتابه هذا في جملته وتفصيله دائرة معارف كتبها رجل واحد، وجمع فيها خلاصة علم زمانه وأخطائه. زفي ذلك يقول: "إن الغرض الذي أرمي إليه هو أن أعرض وصفاً عاماً لكل ما نعرف أنه موجود على سطح الأرض"(67).

فهو يبحث في عشرين ألف موضوع ويعتذر عما تركه من الموضوعات الأخرى، ويشير في هذا الكتاب إلى ألفي مجلد كتبها 473 مؤلفاً، ويعترف بدينه إلى من رجع إليهم من الكتاب ويذكر أسمائهم جميعاً بصراحة لا نظير لها في الأدب القديم، ويشير عرضاً إلى أنه وجد أن كثيراً من المؤلفين نقلوا أقوال من سبقوهم بنصها دون أن يعترفوا بهذا النقل. أما أسلوب الكتاب فتقيل ممل وإن كان منمقاً في بعض المواضيع؛ ولكننا ليس من حقنا أن ننتظر أن تكون دوائر المعارف جذابة الأسلوب ساحرته.

صفحة رقم : 3425

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> علوم الرومان

ويبدأ بلني بالكفر بالآلهة، ويظن أنها لا تعدو أن تكون ظواهر طبيعية، أو كواكب سياره، أو خدمات جسدت وألهت. والإله الأوحده في رأيه هو الطبيعة، أي مجموع القوى التي في الكون، ويلوح أن هذا الإله لا يعنى عناية خاصة بالشؤون الدنيوية(68). ويرفض بلني في تواضع أن يقيس الكون، وليس ما يورده من معلومات فلكية إلا خليطاً من السخافات والمستحيلات (كقوله "إن الشمس في أيام الحرب التي شبت بين أكتافيان وأنطونيوس ظلت قائمة ما يقرب من عام كامل"(69))، ولكنه يشير إلى الشفق القطبي ويقدر الزمن الذي يستغرقه كل من المريخ، والمشتري، وزحل في دورته بسنتين واثنتي عشرة سنة وثلاثين سنة على التعاقب، ويورد بعض البراهين على كرية الأرض(71). ويحدثنا عن جزائر خرجت من قاع البحر الأبيض المتوسط في أيامه، ويظن أن صقلية وإيطاليا؛ وبوشيا وعوبيا؛ وقيرص وسوريا قد انفصلت كل واحدة من الثانية بفعل مياه البحر على مدى الأحقاب الطوال(72). ويتحد عن أعمال التعدين الشاقة المذلة ويذكر في ألم وحسرة أن "كثيراً من الأيدي تبلى لكي يزين مفصل صغير(72)، ويتمنى أن لو كان الناس لم يعثروا على الحديد، لأنه جعل الحرب أشد هولاً مما كانت عليه قبل أن يعثروا عليه، "كأننا أردنا أن نعجل بموت الناس، فجعلنا للحديد أجنحة وعلماه الطيران"(74) وهو يشير بقوله هذا إلى القذائف الحديدية التي تجهز بريش من الجلد يساعدها على الاحتفاظ بخط سيرها. ويذكر كما يذكر ثيوفراستس Theophrastus تحت اسم انتراسيت Anthracitis "حجراً يحترق"(75)، ولكنه لا يذكر عن الفحم شيئاً غير هذا. ويشير إلى نوع من "الكتان لا يحترق" يطلق عليه اليونان اسم أزبستون Asbestinon "ويستخدم فيه تحنيط جثث الملوك"، ويصف كثيراً من الحيوانات ويورد قوائم باسم حيوانات أخرى ويمتدح ذكاءها، ويذكر الطريقة التي يستطيع التحكم في نسلها، فنجعلها ذكوراً

صفحة رقم : 3426

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> علوم الرومان

أو إنائاً طبقاً لإرادتنا: "فإذا أردت أن تكون صغارها إنائاً فلتولي الأم وجهها نحو الشمال في أثناء الوشب" (76). وله أثنا عشر كتاباً عجبياً في الطب، أي في القيمة العلاجية لمختلف المعادن والنباتات، فالكتب المرقومة من 20 إلى 25 كلها في النباتات الرومانية، التي انتقلت من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وأضحت بداية المعلومات النباتية في الطب الحديث. وعنده علاج لكل شيء من السكر والبخر (77) إلى "الأم العنق" (78). ويصف بعض منبهات الغريزة الجنسية (79). ويحذر النساء من العطس بعد الجماع خشية أن يجهضن لساعتهن، قبل أن يقمن من مقامهن (80). ويصف الجماع علاجاً للتعب، وحة الصوت، وآلام الحنقوين، وضعف البصر، والاكنتاب، واختلال القوى العقلية (81).

وقصارى القول أن في هذا الكتاب دواء لكل داء وأنه من هذه الناحية يضارع ما قاله الأسقف بيركلي في فوائد ما القطان. ولكننا نجد في وسط هذا الهراء كثيراً من المعلومات النافعة وخاصة ما كان منها متصلاً بالصناعات القديمة والأخلاق والعقاقير، وفيه إشارات طريفة لعقيدة التأسل في الوراثة Atavism وإلى الزيت المعدني، وإلى تغيير الشخص بعد مولده من ذكر إلى أنثى أو العكس.

ويحدثنا مسيانوس Muscianus أنه رأى في أرجوس Argos يوماً من الأيام شخصاً كان يسمى وقتئذ أرسكون Arescon ولكنه كان يسمى قبل أرسكوزا Arescusa؛ وأن هذا الشخص تزوج من قبل برجل، ولكنه لم يلبث أن نبتت له لحية، وبعض خصائص الذكران الأخرى، وأنه اتخذ لنفسه بعدنذ زوجة (82). ونجد في مواضيع متفرقة من الكتاب بعض إشارات قيمة. من ذلك أن هلمي (Hilmy 1800) حين قرأ في كتاب بلني فقرة (83) عن استخدام عصير اللبين (Anagalis) قبل عملية الكتركتا (إظلام العين) (84) حمله ذلك على أن يبحث عن مفعول

صفحة رقم : 3427

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> علوم الرومان

نباتي السكران Jusquiamus، و "ست الحسن" Belladonna في إنسان العين. وفي الكتاب أيضاً فصول قيمة عن التصوير والنحت تعد أقدم وأهم ما وصل إلينا من وصف الفن القديم. ولم يقنع بلني بدراسة التاريخ الطبيعي، بل أراد بعد ذلك أن يكون فيلسوفاً، ولذلك تراه ينثر في جميع صحف كتابه معلومات عن الأدميين. ويرى أن حياة الحيوان أفضل من حياة الإنسان لأنها "لا تفكر قط في المجد أو المال أو المطامع أو الموت" (85)، ولأن في وسعها أن تتعلم دون حاجة إلى معلم، وأنها لا تضطر إلى ارتداء الملابس، ولا تشن الحرب على أبناء جنسها، وهو يقول إن اخترع النقود كان ضربة قاضية على سعادة بني الإنسان، فهي التي أوجدت الربا، وبه استطاع بعض الناس أن يعيشوا من كد غيرهم، دون أن يقوموا بعمل ما (87). وكانت نتيجة ذلك أن وجدت الضياع الواسعة التي يمتلكها الكبراء الغائبون عنها، وأن حلت المراعي محل الزراعة فجر ذلك على الأهلين الخراب والدمار. ويقول بلني إن الحياة تجلب للإنسان من الحزن والألم أكثر مما تجلبه من السعادة، وأن الموت والنعمة الكبرى (88)، وأن ليس شيء قط وراء الموت. وكتاب التاريخ الطبيعي أثر خالد لجهل الرومان، ففيه يجمع بلني الخرافات والتنبؤات، ورقى الحب، والعلاج بالسحر، ويجد في جمعها كجده في غيرها من المعلومات. ويلوح أنه يؤمن بمعظمها، فهو يضمن مثلاً أن في مقدور الإنسان - وخاصة إذا كان صائماً - أن يقتل الأفعى إذا بصق في فمها (89). "ومن المعروف جيداً أن إنائ الخيل تحمل في في لوزنانيا Lusitania بفعل ربح الشمال (91). وهي مسألة غفل عنها شلي Shelley في أغنيته. ويندد بلني بالسحر ولكنه يقول لنا أنه "إذا أبلت المرأة الحائض حمض عصير العنب وفسدت البذور التي تلمسها فلا تنبت، وسقطت الثمار من الشجرة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> علوم الرومان

التي تجلس تحتها؛ وإذا نظرت إلى الصليب تتلم حده، وإلى العاج ذهب لمعانه وصلقه؛ وإذا سقطت على ثول من النحل مات من فورهِ" (92). وهو لا يؤمن بالنتجيم ولكنه يملأ صفحات من كتابه بالحوادث "المنذرة" المستمدة من مظاهر الشمس والقمر (93). كقولهِ: "حدث في عهد قنصلية م. اسليوس M. Acilius وفي عهد أخرى كثرة أن أمطرت السماء لبناً ودماً" (94)، وإذا ما ذكرنا ان هذا الكتاب هو وكتاب المسائل لسنكا أهم ما خلفه الرومان للعصور الوسطى من علم التاريخ الطبيعي، ثم فاضلنا بينهما وبينما يماثلهما من كتب أرسطو وثيوفراطس وبين عقليّة هذين الرجلين وقد عاشا قبل عهد بلني وسنكا بأربعمئة عام، إذا ما فعلنا ذلك بدأنا نشعر بالمأساة المروعة مأساة موت الثقافة موتاً بطيئاً. لقد فتح الرومان العالم اليوناني، ولكنهم خسروا قبل فتح أثمن تراث في العالم.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> الطب عند الرومان

الفصل السادس

الطب عند الرومان

أما في الطب فكانوا خيراً منهم في التاريخ الطبيعي. فلقد أخذوا علم الطب أيضاً عن اليونان، ولكنهم أحسنوا صياغته، وتنظيمه، وطبقوه على الصحة، العامة والخاصة، ولقد كانت روما تحيط بها من جميع جهاتها تقريباً مناقع واسعة، وكانت معرضة للفيضانات الوبائية، فكانت بذلك في أشد الحاجة إلى العناية في الصحة العامة، فنحن نسمع أن الملاريا كانت منتشرة في روما في القرن الثاني قبل الميلاد، وأن بعوضة الأنوفيل كانت في ذلك الوقت مستقرة في مناقع بنتين (Pontine 95). وانتشر داء النقرص بانتشار الترف، وفي ذلك يحدثنا بلني الأصغر أن صديقه كورليوس روفس Corellius ظل يعاني آلامه من السنة الثالثة والثلاثين إلى السابعة والستين قبل ان ينتحر بعد ان استمتع بلذة البقاء حيات يوماً واحداً بعد موت "ذلك اللص دومتيان" (96). وتدل بعض الفقرات في كتابات الهجائين الرومان على

ظهور الزهري في القرن الأول بعد الميلاد(97). واجتاحت الأوبئة الفتاكة إيطاليا الوسطى في عام 23 ق.م وفي أعوام 95، 79، 166 ميلادية. وكان الناس من أقدم الأزمنة يحاولون التغلب على المرض والطاعون بالسر والصلوات، وحتى في ذلك الوقت الذي نتحدث عنه طلبوا إلى فسبازيان المتشكك اللين الجانب أن يداوي عمامهم ببصاقه، وعرجهم بمس قدمه(98). وكانوا يحملون مرضاهم وقرابينهم إلى هيكل إيسكلبيوس. Aesculapius ومنيرفا، وكان الكثيرون منهم يتركون فيهما الهدايا شكراً على نعمة الشفاء. فلما أن حل القرن الأول قبل الميلاد أخذت عنايتهم بالطب الدنيوي تزداد شيئاً فشيئاً. ولم تكن الدولة في ذلك الوقت قد وضعت

صفحة رقم : 3430

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> الطب عند الرومان

نظاماً لممارسة مهنة الطب، فكان الحذاؤون، والحلاقون، والنجارون يمارسون مع مهنتهم الأصلية إذا شاءوا، ويستعينون بالسر، ويخلطون عقايرهم بأنفسهم ويبيعونها للناس(99). ولم تخل تلك الأيام من التفرغ والشكاوى المألوفة. وقد كرر بلني تنديده بأطباء اليونان الذين "يغوون زوجاتنا، ويجمعون الثروات الطائلة بتسمينا، ويتعلمون بتعدينا ويتدربون بقتلنا"(100). واشترك بترونيوس، ومارتيال، وجوفنال في هذا الهجوم العنيف، وبعد قرن من ذلك الوقت نرى لوسيان يندد بعجز من يمارسون مهنة الطب، والذين يخفون هذا العجز بجمال أجهزتهم وأدواتهم(101). وفتحت في عهد فسبازيان مستمعات Auditoria لتعليم الطب يتولى التعليم فيها أساتذة تعترف بهم الدولة وتؤدي إليهم رواتبهم، وكانت اللغة اليونانية لغة التعليم في هذه المعاهد كما أن اللغة اللاتينية هي اللغة التي تكتب بها تذاكر الدواء في هذه الأيام، وللسبب عينه-هو أن اللغة اليونانية كانت وقتئذ اللغة التي يفهمها أصحاب اللغات المختلفة. وكان يطلق على خريجي هذه المعاهد اسم أطباء الجمهورية، وكانوا هم وحدهم الذين يستطيعون ممارسة الطب بصفة قانونية في رومة بعد عهد فسبازيان(103). ونص في قانون أكويا Les Aquilia على أن تشرف الدولة على الأطباء، كما نص فيه على وجوب تحملهم تبعة إهمالهم. وكان قانون كرنليا Les Cornelia يفرض أشد العقوبات على من يتسببون في موت المرضى بسبب إهمالهم أو خطئهم الناشيء من جلهم بأعمالهم(104). ومع هذا فإن الدجالين ظلوا يمارسون دجلهم، ولكن عدد الأطباء المتعلمين ظل يزداد شيئاً فشيئاً. وكانت كثرة الرومان ممن أخرجتهم القابلات إلى هذا العالم، ولكن هاته النسوة كن مدربات على عملهن أحسن تدريب(105). وقد وصل الطب العسكري في عام 100م إلى أرقى ما وصل إليه في الزمن القديم: فكان في كل فيلق أربعة وعشرون جراحاً، كما كان له هيئة للإسعاف الأولي

صفحة رقم : 3431

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> الطب عند الرومان

ونقالات ميدان منظمة أحسن تنظيم، وكان بالقرب من كل معسكر هام مستشفى عسكري (106). وافتتح الأطباء مستشفيات خاصة، *Valetudinaria*، كانت هي التي تطورت منها المستشفيات العامة في العصور الوسطى. وكانت الدولة تعين الأطباء لمعالجة الفقراء مجاناً وتؤدي لهم أجورهم (107)، أما الأغنياء فكان لهم أطباءهم الخصوصيون وكان "رؤساء المداوين *Archiarti*" يعنون بالإمبراطور وأسرته، وخدمه وأعوانه، وتؤدي لهم على ذلك أجور طبية. وكانت بعض الأسر تتعاقد أحياناً مع بعض الأطباء على أن يعنوا بصحتها ويدواها من أمراضها مدة معينة، وكان كونتس استرنتيوس يكسب بهذه الطريقة 600.000 سسترس في العام (108). وأدى الجراح الكون *Alcon* الغرامة التي فرضها عليه كلوديوس ومقدارها 10.000.000 سسترس من أجوره في بضع سنين (109). وبلغت مهنة الطب في ذلك الوقت درجة عظيمة من التخصص، فكان في لبلاد أخصائيون في المجاري البولية، وفي أمراض النساء، وكان فيها أطباء مولدون وأطباء رمديون، وأخصائيون في أمراض العين والأذن، وأطباء بيطريون، وجراحو أسنان، وكان في وسع الرومان أن تكون لهم أسنان صناعية من ذهب، وأسنان مرتبطة بأسلاك، وكباري وأسنان ذات قشرة (110) ذهبية. وكان لديهم عدد كبير من الطبيبات، وقد كتبت الكثير منهن كتباً في الإجهاض كانت واسعة الانتشار بين سيدات الطبقات الراقية وبين العاهرات. وكان الجراحون يتخصصون في فروع الجراحة المختلفة وقلما كان يوجد جراح غير متخصص في فرع خاص. وكان عصير البيروج (المندراغورا) والأثروبين يستعملان في التخدير (111)، وقد وجدت في خرائب بمبي أكثر من مائتي أداة جراحية مختلفة. وكان تشريح جنث الأدميين عملاً غير مشروع ولكنهم كانوا يستعيضون عن ذلك بالفحص عن أجسام المجالدين المجرحين أو المحترزين.

صفحة رقم : 3432

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> الطب عند الرومان

وكان العلاج بمياه العيون واسع الانتشار وكانت العيون الحارة الكبرى وعاهد للعلاج والاستشفاء. وقد جمع شارميس *Charmis* المرسيلى ثروة طائلة بإدارة حمامات باردة. وكان المصابون بالسل يرسلون إلى مصر أو شمالي إفريقية. وكان الكبريت يُستخدم لعلاج الأمراض الجلدية ولتبخير الحشرات بعد انتشار الأمراض المعدية (112). وكانت العقاقير آخر ما يلجأ إليه الناس من وسائل العلاج، ولكنهم كانوا يلجأون إليها في كثير من الحالات، وكان الأطباء يصنعونها بأنفسهم بطرق يحتفظون بسريتها ولا يطلعون الجماهير عليها، ويبيعونها بأعلى الأثمان التي يطيقها المرضى (113). وكانت العقاقير الكريهة ذات منزلة كبيرة، فكانت فضلات العظام تُستخدم مسهلات، وكانت احشاء الأدميين توصف أحياناً؛ وقد وصف أنطونيوس موسى براز الكلاب لعلاج مرض الذبحة، واستخدم جالينوس براز الغلمان لعلاج أورام الحلق (114). وفي مقابل هذه الأدوية الكريهة عرض أحد الدجالين المرحين أن يداوي بالخمير كل داء تقريباً (115).

وليس بين الكتاب المعروفين في علم الطب في هذا العهد كاتب من أصل روماني إلا واحد فقط، وحتى هذا الكاتب لم يكن طبيباً. لقد كان أورليوس كرنليوس سلسس *Aurelius Cornelius Celsus* من أبناء الأشراف، جمع حوالي عام 50 في دائرة المعارف كل ما درسه عن الزراعة، والحرب، والخطابة، والقانون، والفلسفة، والطب. وقد ضاع كل مل كتبه إلا القسم الخاص بالطب، ويعد كتابه في هذا العلم أعظم مؤلف وصل إلينا من القرون الستة المحصورة بين أبقراط وجالينوس، ويمتاز فوق هذا بأنه كتب بلغة لاتينية فصحة نقية لقب سلسس من أجلها بشيرون الطب. ولقد ظلت الأسماء اللاتينية التي ترجم بها المصطلحات الطبية اليونانية تسيطر على علم الطب من ذلك الوقت إلى أيامنا هذه. ويدل الكتاب السادس من كتبه على علم بالأمراض السرية يعد في ذلك العهد القديم عملاً واسعاً غزيراً. ويصف الكتاب السابع في جلاء ووضوح بعض

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> الطب عند الرومان

الجرارات، ويحتوي أقدم وصف معروف للأربطة، ويصف عملية قطع اللوز، واستخراج حصى المثانة بشق الجنب، وجراحة الترقيع، وعمليات إظلام عدسة العين (الكتاركتا). وهذا الكتاب في مجموعه هو خير ما ألف في الآداب العلمية الرومانية، وإنه ليوحى إلينا بأنه لو لم يبق الدهر على كتاب بلني لكان تقديرنا للعلوم عند الرومان أعلى في الوقت الحاضر. ومما يؤسف له أن العلماء قد أجمعوا على أن كتاب سلسس ليس في أكثر أجزاءه إلا جمعاً أو شرحاً للنصوص اليونانية القديمة (116). وقد فقد هذا الكتاب في العصور الوسطى، ثم عثر عليه مرة أخرى في القرن الخامس عشر، وأعيد طبعه قبل أن يطبع كتاب أبقراط أو جالينوس، وكان له شأن أيما شأن في إحياء علم الطب في العصر الحديث.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> كونتليان

الفصل السابع

كونتليان

لما انشأ فسبازيان كرسيًا رسميًا للبلاغة في رومة عين في هذا المنصب رجلاً من أصل أسباني، وكان كثير من المؤلفين في العصر الفضي من أبناء تلك البلاد. وقد ولد ماركس فابيوس كونتليانس Marcus Fabius Quintilianus في كلاجوريس Calagurris (عام 53م) ثم رحل إلى رومة ليدرس فن الخطابة وافتتح مدرسة لتدريس البلاغة كان من بين طلابها تاستس وبلني الأصغر. ويصفه جوفنال بأنه كان في أيام شبابه وسيماً، نبيلاً، حكيماً، حسن التربية، ذا صوت رخيم، ولقاء جميل، وهابه كمهابة أعضاء مجلس الشيوخ. وأثر العزلة في الشيخوخة ليكتب كتاباً يرشد فيه ولده إلى الطريقة المثلى لمعالجة فن الخطابة، واسم هذا الكتاب (Institutio Oratoria) (96) "ظننت أن هذا الكتاب سوف يكون أثنى ما يرثه ولدي، وقد أظهر م الكفاية النادرة العجيبة ما أوجب على أبيه أن

يحرص الحرص كله على تنقيفه... وقد واصل الليل بالنهار سعياً وراء هذه الغاية، وعجلت بإتمامها خشية أن ينصرم أجلي فيحول الموت بيني وبين إتمام هذا الواجب. ثم حلت بي الكارثة فجأة فأضحى نجاحي في عملي لا يهم إنساناً آخر أقل مما يهمني أنا نفسي... ذلك أنني فقدت من كان معقداً آمالي ومن كنت أرجو أن يكون سلوة لي في شبخوختي (117)".

وكانت زوجته قد توفيت في سن التاسعة عشرة، وخلفت ولدين، توفي أحدهما في سن الخامسة "وكانني قد فقدت بفقده إحدى عيني"، ولأن يختطف الموت ولده الثاني ويترك المعلم الشيخ "يعاني ألم فراق أقرب الناس إليه وأعزهم عليه".

صفحة رقم : 3435

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> كونتليان

وهو يعرف البلاغة بأنها العلم الذي يؤدي إلى أحسن الكلام، ويقول إن تدريب الخطيب يجب يبدأ قبل مولده، إذ يحسن أن يولد لأبوين متعلمين، حتى يتنفس الكلام الصحيح والأخلاق الطيبة من الهواء الذي يستنشقه، ذلك أنه من المستحيل أن يصبح الإنسان متعلماً ومهذباً معاً في جيل واحد. ويجب على من يريد أن يكون خطيباً أن يدرس الموسيقى، حتى يستطيع تمييز الأصوات المتناسقة المتناغمة؛ كما يجب عليه أن يتعلم للرقص ليكسب الرشاقة والاتزان، والتمثيل لكي يبعث الحياة في خطبه بما يبثه فيها من حركات اليدين والجسم؛ والألعاب الرياضية لكي يستطيع الاحتفاظ بصحته وقوته؛ والأدب ليصلح به أسلوبه ويدرب به ذاكرته، ويمده بكنز من الآراء العظيمة؛ والعلوم لكي يدرك بها أسرار الطبيعة؛ والفلسفة لكي يصوغ نفسه حسيماً يمليه عليه العقل ونصائح الحكماء. ذلك لأن كل إعداد سيذهب أدراج الرياح إذا خلا من استقامة الخلق وسمو الروح وهما اللذان لا غنى عنهما لوجود الإخلاص في الحديث، وهو قوة لا يمكن قط أن تقاوم. وعلى الطالب بعد ذلك أن يكتب أكثر ما يستطيع وأن يبذل في كتابته أقصى ما في وسعه من العناية. ويقول كونتليان: إن هذا تدريب شاق "ويقيني أن أحداً من قرائي لن يفكر قط في احتساب قيمته المالية (118)".

وللخطابة في رأيه خمسة أوجه: التفكير، والتنظيم، والأسلوب، والذاكرة، والإلقاء. فإذا ما أختار الخطيب موضوعه، وحدد غرضه بوضوح، وجب عليه بعدئذ أن يجمع مادته بالمشاهدة والبحث، ومن الكتب، فإذا تم له ذلك وجب عليه أن ينظمه تنظيمًا منطقيًا ونفسيًا حتى يكون كل جزء منه في موضعه الصحيح مؤدياً إلى ما بعده أداءً طبيعيًا كأنه جزء من برهان نظرية هندسية (119). وكل خطبة حسنة التنظيم تتألف من مقدمة (Exordium)، وقضية، وبرهان، ودحض، وختام. ويجب أن لا تُكتب الخطبة كلها إلا إذا

صفحة رقم : 3436

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> كونتليان

أريد حفظها بأجمعها عن ظهر قلب، أما حفظ بعض الأجزاء المكتوبة دون البعض الآخر فإنه يُفسد الأسلوب الارتجالي ويعوقه، وإذا كتبت الخطبة فلنكتب بعناية "فإذا أسرع في الكتابة، فإنك لن تحسنها أبداً، وإذا أحسنت الكتابة فإنك لن تلبث أن تكتب بسرعة"؛ تجنب "تurf الإملاء الذي أخذ ينتش بين الكتاب في هذه الأيام" (120)، والذي يدل على التهاون والكسل، "والوضوح ألزم الأشياء للخطب، ثم يليه الإيجاز والجمال والقوة. عليك أن تصحح أخطائك المرة بعد المرة ولا تبال بما يصيبك في هذا من عنت.

"وليس المحو بأقل أهمية من الكتابة، امح كل ما لا ضرورة له، واسم بكل ما هو عادي ورتب ما تراه مضطرباً، واجعل العبارات متزنة إذا ما وجدتها خشنة غير رقيقة، وخففها إذا وجتها دسمة أكثر مما يجب... وخير طريقة للإصلاح أن يغفل الإنسان ما كتبه بعض الوقت، حتى إذا عاد إليه بعدئذ بدا عليه مظهر الجدة، كأنه من عمل لإنسان آخر؛ وبهذه الطريقة لا يكلف الإنسان بكتابه كلفه بطفله الحديث الولادة (121).

ويجب يضرب الإلقاء والكتابة على أوتار العواطف والقلوب، ولكن عليك أن لا تسرف في الحركات والإشارات، لأننا "لا نكون بلغاء إلا بالوجدان وقوة الخيال". أما إذا "صرخت، وخُرت، ورفعت يدك، ولهتت، وهززت رأسك، بيدك، وضربت فخذك وصدرك وجبهتك، فإنك ستهوي من فورق إلى قلوب احط من يستمعون إليك (122)".

ويضيف كونتليان في كتابه الثاني عشر إلى هذه النصائح القيمة خير نقد أدبي بقي لدينا من أيام الأقدمين، فهو يدلي بدلوه، وهو أشد ما يكون حماسة، في ذلك الصراع القديم والحديث بين القدامى والمحدثين، ويجد الحقيقة تتأرجح في الوسط بين هؤلاء وهؤلاء؛ وهو لا يرغب كما يرغب فرنتو Franto في أن يعود إلى البساطة والخشونة اللتين ينادي بهما كاتو وإنيوس؛

صفحة رقم : 3437

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> كونتليان

ولكنه أقل من ذلك رغبة في أن يجرفه أسلوب سنكا "الفخم المتكلف"، ويرى أن يكون المثل ال 1 الذي يجب على طالب البلاغة أن يحتذيه هو أسلوب شيشرون في خطبه القوية المهذبة، ويقول: إن شيشرون هو الكاتب الروماني الوحيد الذي فاق اليونان في مجال الخطابة (123). أما أسلوب كونتليان نفسه فهو في كثير م المواضيع أسلوب المدرس، تخنقه التعاريف، والتصاريح، وتحديد الفروق، ولا يرقى إلى مستوى عال من البلاغة إلا حين يطعن على سنكا. ولكنه مع ذلك أسلوب قوي يخفف من جلاله حيناً بعد حين قليلاً من الفكاهة ومن العطف على الإنسانية، ويحس الإنسان على الدوام أن وراء معنى الألفاظ الجميل طيبة الرجل الهادئة، وإن قرأته لحافز قوي إلى الخلق الطيب الكريم. ولعل الرومان الذين أسعدهم الحظ بالاستماع له قد أخذوا عنه بعض ذلك التجديد الذي سما بعصر بلني الأصغر وتأسست أكثر مما سما به الأدب الرفيع.

صفحة رقم : 3438

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> إستاتيوس ومارتيال

الفصل الثامن

استاتئوس ومارتيال

لقد استبقينا إلى آخر هذا الكتاب شاعرين عاشا في وقت واحد، وسعياً للخطوة لدى إمبراطور واحد وأنصار بعينهم، ومع ذلك فكلاهما لا يذكر اسم الآخر: وكان احدهما أعف شاعر في تاريخ روما الإمبراطورية كما كان الآخر أفحش شاعر فيه. فأما أولهما فهو ببليوس بابنيوس استاتئوس Publius Papinius Statius وهو ابن شاعر ونحوي من مدينة فابلي. وقد هيات له بيئته وتربيته كل شيء بطمع فيه عدا المال والعبقرية. فكان يعاني قرض الشعر، ويفاجيء الندوات بما يرتجله منه، وكتب منه ملحمة تدعي الطيبية Thebaid في خرب السبع المدن في طيبة. ولسنا نستطيع قراءتها في هذه الأيام لأن أبياتها تزدهم بأسماء الآلهة الموتى، ولأن الإنسان لا يطيق ما لأشعارها السلسلة من قدرة على التحذير؛ ولكن معاصريه كانوا يغرمون بها، وكانت الجموع تهرع لتستمع إليه وهو ينشدها في أحد ملاهي مدينة نابلي؛ وكانوا يفهمون ما تحتويه من أساطير ويعجبون بركة إحساساته، ويجدون أشعاره تجري سهلة على ألسنتهم، وقد منحه المحكمون في مباريات الشعر في أولبان الجائزة الأولى، وكان الأثرياء يخطبون وده ويعينونه على التخلص من فقره (124)، ودعاه دومتيان Domitian نفسه في قبة فلافيا Flavia وجزاه استاتئوس على فعله هذا بأن شبه القصر بالجنة والإمبراطور بالإله.

ووجه استاتئوس أطف قصائده وأبعثها للسرور إلى دومتيان وغيره من نصرائه. وكانت هذه القصيدة وهي قصيدة سلفا Silva تشتمل على طائفة من المدح ومن أناشيد الرعاة في شعر خفيف ظريف في الدرجة الوسطى من الجودة. على أنه لم يكسب الجائزة الأولى في مباريات الكبتولين بل نالها

صفحة رقم : 3439

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> استاتئوس ومارتيال

شاعر آخر. وأخذ نجمه في الأفول في رومة المتقلبة، فما كان منه إلا أن أفتع زوجته بمغادرة المدينة والعودة معه إلى البلد الذي قضى فيه حداثته. وفي نابلي شرع يكتب ملحمة أخرى هي الأخيلية Achelleid ولكن المنية فاجأته في عام 96 فتوفي ولما يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره. ولم يكن استاتئوس عظيماً ولكنه كان يضرب على نغمة من الرأفة والحنان محببة إلى النفوس في وسط أدب كثيراً ما تغلب عليه السخرية والحقد المرير، وفي مجتمع بلغ من الفساد والفحش درجة لم يكن لها من قبل مثيل، ولو أنه بلغ من الدناءة ما بلغه مارتيال لكان خليقاً بأن ينال ما ناله من الشهرة.

وولد ماركس فليريوس مارتيليس في بليليس من أعمال أسبانيا في السنة الأربعين بعد الميلاد، ولما بلغ الرابعة والعشرين من عمره جاء إلى رومة وعقد أواصر الصداقة مع لوكاس وسنكا، وأشار عليه كونتليان أن يتخذ المحاماة وسيلته للنزاهة، ولكنه فضل عليها الشعر مع الإملاق. وأطاحت مؤامرة بيزا فجاءه بأصدقائه فاضطر توجيه قصائد

للموسرين الذين يستطيعون أن يطعموه إذا قال لهم نكتة شعرية. وكان يسكن في عليية في الطابق الثالث، وأكثر الظن أنه كان يعيش فيها وحيداً؛ نقول هذا لأنه وأن كان يوجه قصيدتين من قصائده لامرأة يقول عنها إنها زوجته فإن ما في القصيدتين من فحش لا يترك مجالاً للشك في أن هذه المرأة إما أن تكون اختراعاً من عنده وإما أن تكون قوادة (126). وهو يخبرنا بأن قصائده كانت تقرأ في جميع أنحاء أوروبا لا يستثنى منها القوط أنفسهم. وهو يغتبط إذ يعلم أنه اشتهر فيها شهرة جواد السباق، ولكنه كان يؤلمه أن يرى الناشر الذي يبيع كتبه يجمع الثروة الطائلة، وأنه هو لا يجني منها شيئاً. وأشار مرة في إحدى قصائده إلى أنه في أشد الحاجة إلى جبة رومانية، فلما أرسلها إليه بارتثيوس الثري معشوق الإمبراطور رد عليه بمقطوعتين مدح في إحداها جدة الجبة وندد في الثانية بحقارتها ورخص ثمنها. على أنه عثر بعد

صفحة رقم : 3440

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> إستاتايوس ومارتيال

قليل على نصراء أكرم من بارتثيوس وأكثر منه سخاءً وأهدى إليه أحدهم ضيعة صغيرة في نومنتم Nomentum، واستطاع بطريقة ما أن يجمع مالاً يكفي لشراء منزل بسيط في تل الكورنيال Quirinal. وصار في ذلك الوقت يضع نفسه تحت رعاية عظيم بعد عظيم، يقوم بخدمتهم في الصباح، ويتلقى منهم الهدايا في بعض الأحيان؛ لكنه ما لبث أن أحس بحطة منزلته هذه، وأخذ يتحسر لأنه لم يؤت من الشجاعة ما يجعله يقنع بفقره فيحرر نفسه من ذل التبعية (127). غير أنه لم يكن في وسعه أن يعيش فقيراً لأنه كان مضطراً إلى الاختلاط بمن يستطيعون أن يكافئوه على شعره، فأخذ يبعث لدومتيان بالقصيدة تلو القصيدة يمدحه بها ويمجده، ويقول إنه لو دعاه جوبتير ودومتيان إلى الطعام في يوم واحد لرفض دعوة الإله وأجاب دعوة دومتيان؛ ولكن الإمبراطور كان يفضل عليه استاتايوس فدبت الغيرة من الشاعر الشاب في قلب مارتيال، وقال في إحدى قصائده: إن نكته حية أعلى قيمة من ملحمة ميتة (128). وكانت القصائد الموجزة ذات النكت مما يقال في كل موضوع سواء كان إهداء أو تحية، أو قيرية، ولكن مارتيال هذبها فجعلها أقصر وأعظم حدة مما كانت، وأضاف إليها الكثير من الهجاء اللاذع. وإنا لنظلمه إذا قرأنا قصائده ذات النكت البالغ عددها 1516 قصيدة في جلسات قليلة. فلقد صدرت هذه القصائد في اثني عشر كتاباً في أوقات مختلفة، ولم يكن ينتظر من القارئ أن يلتهمها كما يلتهم طعام الوليمة، بل كان ينتظر منه أن يتناولها تناول المشهيات قبل الطعام. ويبدو الكثير منها غثاً تافهاً في هذه الأيام، ذلك أن ما فيها كان خاصاً بهذين الزمان والمكان، فكان لذلك قصير الأجل غير جدير بالبقاء. ولم يكن مارتيال نفسه يقدرها كثيراً، ولم يكن يجادل في أن الغث منها يزيد على الثمين، ولكنه كان مرغماً على أن يملأ بها مجلداً في إثر مجلد (129). وهو رجل قادر على قرص الشعر، عارف بجميع أوزانه وجميع ما يتطلبه من حيل وأساليب، ولكنه يتجنب

صفحة رقم : 3441

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> إستاتايوس ومارتيال

فنون الخطابة ويفخر بهذا كما يفخر به بترونيوس الشريف الذي كان مقامه في النثر يضارع مقام مارتياي في الشعر. ولم يكن يعنى أقل عناية بالأساطير التي كانت تغص بها آداب تلك الأيام، بل كان أكبر همه رجال ذلك العهد ونساؤه وحياتهم الخاصة، وهو يصف هذه الحياة وصفاً ينم عن ضغن ومسرة. ويقول في إحدى قصائده "إن صفحتي تطالعك بالرجال" (130)، ولقد كان في وسعه أن "يتناول" أحد الأشراف الفظاظ، أو الأثرياء البخلاء، أو المحامين المزهوين، أو الخطباء المشهورين. ولكن أكثر من يجب التحدث عنهم هم الحلاقون والأساكفة، والبائعون الجوالون، ومدربو الخيل، واللاعبون على الحبل، والدلالون، وناقعو السم، والمفسدون والعاهرات. وليست المناظر التي يضعها مأخوذة من بلاد اليونان القديمة بل يستمدّها من الحمامات، ودور التكنيل، والشوارع، والملاعب ومنازل رومة، ومساكن فقرائها، وقصارى القول أنه شاعر السفلة والرعاع.

وهو يعنى بالمال أكثر مما يعنى بالحب، وإذا فكر في الحب فإن أكثر ما يفكر فيه هو حب الرجال للرجال، أو النساء للنساء. على أن شعره لا يخلو من العاطفة، وهو يحدثنا في إحدى قصائده حديثاً ملؤه الحنو والأسى على ابن صديق له عاجلته المنية؛ ولكن كتبه كلها لا يوجد فيها بيت واحد ينم عن المروءة والشهامة، أو عن الغضب الشريف. وهو يرثل قصائده ترتيلاً تفوح منه اخبث الروائح ويقول عنها "إنني أفضل هذه الروائح الكريهة على قصائدك كلها يا بسا" (131 Bassa). ويصف إحدى خليلاته بقوله:

"إن صفائرك يا جلا Gella قد صنعت في مكان بعيد وإنك لتخلعين أسنانك في الليل كما تخلعين أثوابك الحريرية، وأنت ترقدين مختزنة في مائة برميل، ولكن وجهك لا ينام معك؛ وتغمزين بحاجب جيء به إليك

صفحة رقم : 3442

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> إستاتيوس ومارتياي

في الصباح وقد تجردت من كل احترام لجيفتك البالية التي تستطيعين أن تعديها لقدمها جيفة جدة من جداتك. وهو يتحدث في حقد غير خليق بالرجال على النساء اللاتي أبين أن يخضعن له، ويلقي عليهن نكاته القذرة كما يلقي الكناس الأقدار. ويوجه أغانيه الغزلية للغلمان، وتتملكه النشوة من عبير "قبلائك أيها الغلام" (133). وقد قلد أحد شعراء الإنجليز إحدى قصائده التي قال فيها:

لا أحبك يا سبيديوس، ولست أعرف لذلك سبباً؛

وكل ما أستطيع أن أقوله أني أبغضك أشد البغض.

والحق أن الذين لا يحبهم مارتياي كثيرون وهو يصفهم بعد أن يطلق عليهم أسماء مستعارة لا تخفي حقيقتهم وبالألفاظ لا يجد الإنسان لها مثيلاً إلا على جدران مراحيض المواخير (135). ولست تجده إلا هاجياً لأعدائه كما لا تجد إستاتيوس إلا مادحاً أصدقاءه. وقد أراد بعض ضحاياه أن ينتقموا لأنفسهم منه فنشروا بإمضائه قصائد أشد قذارة من قصائده

الحقيقية، أو هاجموا باسمه بعض من كان مارتياي يحرص على إرضائهم. وفي وسع الإنسان أن يؤلف من هذه النكات الشعرية التي أوفت على الغاية من الناحية الفنية معجماً كاملاً يحوي أقدر ما في اللغة من ألفاظ. غير أن في مقدور الإنسان أن يعفو بعض الشيء عن بذاءة مارتياي، فهو يشترك فيها مع خلق عصره، ولا يشك في أن فتيات الأسر الراقية يسرنهن أن يقرأنها في عرائش قصورهن. "واستحت لكريشا وعلت وجهها حمرة الخجل وألقت بكتابي، وكان بروتس حاضراً فابتعد عنها يا بروتس؛ إنها ستقرؤه" (136) ذلك أن ما كان يطلقه هذا العصر للشعر من حرية مفرطة يسمح بكل ضروب البذاءة على شريطة أن تكون الأوزان والألفاظ صحيحة. بل إن مارتياي ليفخر بفجوره أحياناً فيقول في أحد كتبه "لا تخلوا صحيفة من صحفي من الفجور" (137). لكنه في أكثر الأحيان

صفحة رقم : 3443

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> العصر الفضي -> إستاتيوس ومارتياي

يستحي قليلاً من فجوره، ويطلب إلينا أن نعتقد أن حياته أظهر من شعره. ومل آخر الأمر من ابتياع الطعام والشراب بالمديح والهجاء، وتاقت نفسه إلى حياة اهدأ من حياته السابقة وأطهر منها، وحن إلى موطنه في أسبانيا. وكان وقتئذ قد بلغ السابعة والخمسين من عمره، وسرى الشيب في شعر رأسه، وأطال لحيته، واسمرت بشرته، حتى ليستطيع أي إنسان -على خد قوله- بمجرد النظر إليه أن يدرك أنه ولد بالقرب من نهر التاجة Tagus. وأرسل طاقة شهرية إلى بلني الأصغر فأرسل هذا بدلاً منها مبلغاً من المال يكفي نفقات سفره إلى بلبليس. ورحبت به تلك البلدة الصغيرة، وعفت عن سوء أخلاقه بسبب ما نال من الشهرة. ووجد نصراء ومعينين لم يبلغوا من الثراء مبلغ من كانوا يناصرونه في رومة ولكنهم كانوا أئدى منهم يداً. وأهدت إليه سيدة رحيمة بيتاً ريفياً متواضعاً ذا حديقة قصى فيه ما كان باقياً له من سنين قليلة. وفي عام 101 كتب بلني يقول: "لقد سمعت توأ بموت مارتياي، وقد أحزنني النبأ وأقضى مضجعي، فلقد كان مارتياي ذا فكاهة قوية لاذعة، يمزج في شعره الملح بالشهد، وأظهر ما يمتاز به هو الصراحة" (138). وإذا كان بلني أحب هذا الرجل فلا بد أن كانت فيه فضيلة خافية على سائر الناس.

صفحة رقم : 3444

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الزراع

الباب الخامس عشر

في العصر الفضي ظهر المرجع الروماني الهام في الزراعة وهو كتاب يونيوس كلوملا Junius Columella المسمى De Re Rustica. ومؤلفه من أصل أسباني فهو من الناحية شبيهه بكونتليان ومارتيال وآل سنسكا. وكان يستغل عدة ضياع في إيطاليا ثم اتخذ مسكنه بعدئذ في رومة. ذلك انه وجد ان أحسن الأراضي قد شيدت عليها البيوت ذات الحدائق وسويت لتكون مسارح للأثرياء، وان التي تليها في الجودة قد غرست فيها بساتين الزيتون والكروم، ولم يبق للزراعة إلا أردأ الأراضي. ومن أقواله في هذا: "لقد وكلنا حرث أراضينا لأحط العبيد، وهم يقومون بعملهم قيام الهمج". وكان يرى أن أحرار إيطاليا يتدهورون في المدن على حين انه كان في مقدورهم أن يقووا أجسامهم وأخلاقهم بالعمل في الأرض، "فنحن نعمل في الملاعب ودور التمثيل ولا نعمل بين المزارع والكروم". وكان كلوملا يحب الأرض ويحس بأن أفلحها أعود على الناس من ثقافة المدن، ويقول في ذلك إن "الزراعة من أخوات الحكمة". وكان يغرى الناس بالعودة إلى الحقول بتجميل موضوعاته بالألفاظ اللاتينية المصقولة. وإذا تحدث عن الحدائق والأزهار بلغت حماسته الشعرية غايتها.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الزراعة

وتلك هي الفترة التي نطق فيها بلنى العالم الطبيعي بقبرية لم يكن موعدها قد حان: "إن الضياع الكبيرة قد خربت إيطاليا"، وذلك حكم أصدره غيره من الكتاب وهم سنكا، ولو كان، وبترونيوس، ومارتيال، وجوفناتل. فقد وصف سنكا مسارح الأنعام التي كانت أوسع رقعة من الممالك يزرعها عبيد مصفون في الغلال. ويقول كالوملا ان بعض الضياع قد بلغت من السعة حداً يستحيل معه على مالكيها أن يطوفوا حولها راكبين. ويحدثنا بلنى عن ضيعة يعمل فيها

4117 من العبيد، و 7200 ثور، و 257.000 من الحيوانات الأخرى. نعم ان ما عمله أبنا جراكس، وقيصر، وأغسطس من توزيع الأراضي على الرومان قد زاد عدد صغار الملاك، ولكن معظم هؤلاء تركوا أملاكهم في أثناء الحروب التي قامت بعدئذ وابتاعها الأغنياء، ولما ان قللت الإدارة الإمبراطورية من أعمال السلب والنهب في الأقاليم ابتاع الأشراف بأموالهم ضياعاً كبيرة. وكان سبب انتشار المراعي والضياع الواسعة إن تربية الماشية وزراعة أشجار الزيتون والكروم كانت أكثر ربحاً من زراعة الحبوب والخضر، وأن أصحابها قد تبينوا ان المراعي إذا أريد أن تستغل على خير وجه وجب ان تكون متسعة المساحة موحدة الإدارة. فلما اشرف القرن الأول بعد الميلاد على الانتهاء كانت هذه المزايأ قد أخذت في الزوال بسبب ما حدث من الزيادة في تكاليف العبيد، ومن النقص في إنتاجهم، ومن ضعف قدرتهم على الابتكار. وقد بدأ في هذه الأثناء الانتقال الطويل الأجل من استخدام العبيد إلى استخدام أقتان الأرض. وكان سبب ذلك أن السلام قلل من استرقاق أسرى الحروب، فعمد بعض ملاك الضياع الواسعة إلى تقسيمها أقساماً صغيرة لا يستخدمون في فلحها العبيد بل يؤجرونها إلى زراع أحرار يؤدون لهم في نظير ذلك مالاً وعملاً. وكان معظم (الأراضي العامة) التي تملكها الحكومة يستغل وقتئذ بهذه الطريقة، كما كانت تستغل بها أيضاً الأراضي الواسعة التي يمتلكها بلنى الأصغر الذي يصف

صفحة رقم : 3446

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الزراعة

مستأجره بأنهم فلاحون أصحاء، أقوياء، طيبو القلوب، ثرثارون، وهو وصف ينطبق كل الانطباق على الفلاحين الإيطاليين في هذه الأيام، فقد بقوا على حالهم رغم ما حل بالبلاد من أحداث وما طرأ عليها من تغيير. وكانت أساليب الزراعة وأدواتها لا تختلف اختلافاً جوهرياً عما كانت عليه منذ قرون، فقد احتفظ المحراث، والمجرفة، والمعزقة، والفأس، والمذراة، والمنجل بصورتها التي كانت عليها في تلك الأيام، ولم تكد تتغير في شيء. وكانت الحبوب تطحن في طواحين تديرها المياه أو الحيوانات. وكانت المضخات اللولبية والسواقي ترفع الماء من العيون أو الأنهار إلى قنوات الري. وكان يحفظون بخصب التربة باتباع الدورة الزراعية، واستخدام المخصبات والنباتات التي تفيد الأرض كالفصصة والبرسيم والشيلم والقول. وكانوا يتقنون في انتخاب البذور، وكان في وسعهم بعنايتهم وحذقهم أن يجنوا ثلاثة محاصيل أو أربعة في بعض الأحيان من حقول كمبانيا ووادي البو الخصبة الغنية. وكان في مقدورهم أن يحصلوا من زرعة واحدة من الفصصة على أربعة محصولات أو ستة في كل عام لمدة عشرة أعوام. وكانوا يزرعون كل الخضر الأوربية المعروفة عدا أندرها، وكانوا يزرعون بعضها في البيوت الزجاجية ليتجروا فيها أثناء الشتاء. وكانت أشجار الفاكهة والنقل على اختلاف لا أنواعها كثيرة، لأن القواد والتجار الإيطاليين، والتجار الأجانب، والأرقاء حملوا معهم إلى إيطاليا الكثير من أصنافها، فجاءوا بأشجار الخوخ من بلاد الفرس، والمشمش من أرمينية، والكرز من كراسس في إقليم بنتس (ومنها اشتق اسم هذه الفاكهة)، والكرم من سوريا، والبرقوق من دمشق، والوخ والبندق من أسية الصغرى، والجوز من بلاد اليونان، والزيتون والتين من أفريقية. واستطاع المهرة من زراع الأشجار أن يطعموا شجر القطلب (الأربوطس) بأغصان شجر الجوز، وشجر الدلب بأغصان الخوخ، وشجر الدردار بأغصان الكرز. ويذكر بلنى تسعة وعشرين نوعاً

صفحة رقم : 3447

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الزراعة

من شجر التين كانت تزرع في إيطاليا، ويقول كالوملا: "لقد عرفت إيطاليا بفضل عناية زراعنا كيف تنتج فاكهة العالم كله تقريباً". ثم نقلت هذه الفنون إلى غربي أوروبا وشمالها. وجملة القول أن ألوان الطعام الكثيرة التي نأكلها قد تجمعت من رقعة واسعة من الأرض، وان لها من ورائها تاريخ طويل. وقد يكون هذا الطعام جزءاً من التراث الذي ورثناه من بلاد الشرق أو بلاد اليونان والرومان الأقدمين.

وكانت بساتين الزيتون كثيرة العدد، أما الكروم فلم يكن يخلو منها مكان، وكانت تدرج لها سفوح الجبال فتبدو ذات روعة وجمال. وكانت إيطاليا تخرج خمسين نوعاً من أنواع النبيذ المشهورة، وكانت رومة وحدها تحتسى منها خمسة وعشرين مليون جالون في كل عام، أي بمعدل نصف جالون لكل شخص من ساكنيها رجالهم ونسائهم وأطفالهم وعبيدهم كل أسبوع. وكان معظم النبيذ من إنتاج المنظمات الرأسمالية - أي بطريقة الإنتاج الكبير الذي تموله رومة. وكان الكثير مما تنتجه يصدر إلى خارج البلاد لك يتذوق البلاد التي ينتشر الجعة كآلمانيا وغالة لذة النبيذ. وشرعت أسبانيا وأفريقية وغالة تزرع كرومها، واخذ زراع الكروم الإيطاليون يفقدون من البلاد التي يصدرون إليها نبيذهم أسبوعاً بعد أسبوع، ويغمرون سوقهم المحلية بأكثر مما تطيقه من النبيذ في إحدى أزمت الإنتاج الوفير التي عانتها رومة في الزمن القديم. وحاول دومتيان أن يخفف من أثر هذه الحال السيئة، وأن يعيد زراعة الحبوب إلى حالها الأولى، فحرم غرس كروم جديدة في إيطاليا وأمر بأن تدمر نصف الكروم المزروعة في الولايات. وأثارت هذه الأوامر عاصفة من الاحتجاج الشديد، وعجزت الحكومة عن تنفيذها فكانت النتيجة ان نبيذ غالة وزيتون أسبانيا وأفريقية وبلاد الشرق أخذوا يطردان الغلات الإيطالية من أسواق البحر الأبيض المتوسط وبدأ من ذلك الوقت اضمحلال إيطاليا الاقتصادي.

صفحة رقم : 3448

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الزراعة

وخصص جزء كبير من أراضي شبه جزيرة إيطاليا للمراعي، فكانت الأرض غير الموفورة الخصب، وكان العبيد ذوو الأجور الرخيصة يستخدمان لتربية الماشية والضأن والخنازير، وكانوا يعون بتربيتها على الطريقة العلمية. وكانت الخيل تربي في الغالي للأغراض الحربية، وللصيد وألعاب الفروسية، ولقما كانت تستخدم لجر المركبات؛ وكانت الثيران تجر المحاريث والعربات، والبيغال تحمل الأثقال على ظهورها؛ وكانت البقر والغنم والماعز تمد الأهلين بثلاثة أنواع من اللبن يصنع منه الإيطاليون وقتئذ كما يصنعون منه في هذه الأيام أصناف الجبن اللذيذ. وكانت الخنازير تربي في الغابات الغنية بالجوز وثمار البلوط. ويقول استرابون إن إيطاليا كانت تعيش في الغالب على لحم الخنازير التي تربي في غابات البلوط الكثيرة في شمالي إيطاليا. وكان الدجاج يمد المزارع بالسماد المخصب والأسر الإيطالية بالطعام اللذيذ، كما كان النحل يمد الأهلين بالشهد الذي كان منذ القدم يستعمل بدل السكر. وإذا أضفنا إلى ما سبق بعض مساحات من الكتان والتيل، وقليلاً من صيد الحيوان، وكثيراً من سيد السمك، تكونت لدينا الصورة التي كان عليها الريف الإيطالي منذ ألف وتسعمائة عام والتي لا يزال محتفظاً بها إلى اليوم.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الصناع

الفصل الثاني

الصناع

لم يكن في الحياة الرومانية - ولعله لا يصح أن يكون فيها إذا صلحت الأحوال الاقتصادية - فرق جغرافي بين الزراعة والصناعة مثل ما بينهما من فرق في هذه الأيام. ذلك ان الموطن الجغرافي القديم - سواء أكان كوخاً أم بيتاً صغيراً ذا حديقة أم مبيتاً كبيراً في ضيعة - كان مصنعاً يدوياً بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ بعمل فيه الرجال بأيديهم في صناعات هامة متعددة لا غنى لهم عنها، بينما تملأ النساء البيت وما يجاوره بما لا يحصى من منتجات الفنون والصناعات. فهناك تستحيل الغابات ملاجئ ويتخذ منها الوقود والأثاث، وتدبح الماشية وينتقع بجلودها ولحومها، وتطحن الحبوب وتخيز، وتعصر الزيوت والخمور، ويعد الطعام ويحفظ، وينظف الصوف والتيل وينسجان، ويحرق الطين في بعض الأحيان وتصنع منه الأنية والأجر والقرميد، وتطرق المعادن وتصنع منها الأدوات. والحياة في الريف مليئة بالعمل المهذب المثقف المختلف الأنواع الذي لا يستمتع به إلا القليلون منه في عصرنا الحاضر عصر الحركة الواسعة والتخصص الضيق. ولم يكن تعدد الصناعات في المنزل الواحد دليلاً على أن الحال الاقتصادية في الريف فقيرة وبدائية، فقد كانت أكثر البيوت ثراءً أكثرها اعتماداً على نفسها واكتفاء بمنتجاتها، وكان أهلها يفخرون بأنهم ينتجون معظم ما هم في حاجة إليه. وكانت الأسرة في تلك الأيام منظمة من وحدات اقتصادية متعاونة متحدة الجهود في الأعمال الزراعية والصناعية التي تقوم بها في منزلها. ولما أن تعهد صانع ما بالقيام بعمل لعدة أسر، وأقام لنفسه حانوتاً في موضع يسهل على هذه الأسر جميعها أن تصل إليه، لما فعل هذا أخذ اقتصاد القرية

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الصناع

يكمل ما ينقص من اقتصاد الأسرة، ولكنه لم يحل محله. مثال ذلك أن الطحان أخذ يحمل الحبوب من عدة حقول ويطحنها لأصحابها؛ ثم أخذ بعدئذ يصنع لها الخبز، وقام آخر الأمر بتوزيعه. وقد عثر في أنقاض بمبي على أربعين مخبزاً، وكان لصناع الفطائر في رومة نقابة خاصة بهم. كذلك كان هناك متعاقدون يشترون محصول الزيتون على شجره ويجمعونه فيما بعد. على أن معظم الضياع ظلت تجمع زيتونها وتصنع خبزها بنفسها. وكانت ملابس الزراع والفلاسفة تغزل في البيوت، أما الأثرياء فكانت ثيابهم تعزل في البيوت كملابس الفقراء ولكنها كانت تمشط، وتنظف، وتبيض، وتقص في أماكن معدة لهذه الأغراض. وكانت بعض المنسوجات الصوفية الرفيعة تنسج في مصانع خاصة، وكان الكتان الذي تصنع منها أسرع السفن أو شباك الصيد ينسج في المصانع قماشاً رفيعاً تتخذ منه ملابس للسيدات ومناديل للرجال. وكان النسيج في بعض الأحيان يرسل بعدئذ إلى صباغ لا يقتصر عمله على تلوينه بل كان يطبع عليه رسوماً جميلة كالتي نراها مطبوعة على الملابس المصورة على جدران بمبي، وتطورت دباغة الجلود فأصبحت لها مصانع خاصة بها، وإن بقيت صناعة الأحذية يقوم بها الأفراد فيصنعون منها ما يطلب إليهم صنعه. وكان فيهم أخصائيون لا يصنعون إلا (شباشب) النساء.

وكانت الصناعات التي تستخرج موادها الغفل من باطن الأرض يقوم بها كلها تقريباً العبيد والمجرمون، وكانت مناجم الذهب والفضة في داشيا وغالة وأسبانيا، ومناجم الرصاص والقصدير في أسبانيا وبريطانيا، ومناجم النحاس في قبرص والبرتغال، ومناجم الكبريت في صقلية، والملح في إيطاليا، والحديد في إلبا، والرخام في لونا Luna وهيمشس Hymettus وباروس Paros، والحجر السماقي في مصر، كانت هذه كلها وغيرها من موارد الثروة التي تستخرج من باطن الأرض تمتلكها الدولة وتستغلها بنفسها أو تؤولها لغيرها، وكانت مصدرراً

صفحة رقم : 3451

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الصناعات

هاماً من مصادر الإيراد القومي؛ وحسبنا دليلاً على أهميتها أن فسبازيان كان يحصل من مناجم الذهب في أسبانيا وحدها على ما قيمته 44.000.000 دولار في كل عام. وكان البحث عن الثروة المعدنية من أهم أسباب الفتوح الاستعمارية، ومن أقوال تاسيتس في هذا المعنى أن ثروة بريطانيا المعدنية كانت "جزاء النصر" الذي ظفر به كلوديوس في حروبه. وكان الخشب والفحم النباتي أهم أنواع الوقود، وكان البترول معروفاً في كمجيني Commagene وبابل وبارثيا، وكان المدافعون عن ساموساتا Samosata يلقونه متقدماً على مشاعل على جنون لوكلس، ولكننا لم نعثر على شاهد يدل على أنه كان يستخدم وقوداً على نطاق تجاري. وقد عثر على الفحم الحجري في البلوبونيز وفي شمال إيطاليا، ولكن أكثر من كواو يستخدمونه هم الحدادون. وكانت صناعة كبريتة الحديد لتحويله إلى فولاذ قد انتشرت من مصر إلى كافة أنحاء الإمبراطورية. وكان معظم صناعات الحديد، والنحاس، والذهب، والفضة، يقومون بأعمالهم في مصاهر خاصة يعملون فيها بمساعدة صبي أو صبيين. وفي كابوا ومنورني Menturnae وبتولي Puteoli وأكوبليا Aquileia وكومو Como وغيرها من البلاد انضمت عدة أفران ومصاهر وتكونت منها مصانع كبيرة. ويلوح أن مصانع كواو كانت مشروعات رأسمالية ذات إنتاج ضخم، تعتمد على أموال تأتيها من خارجها.

وكانت صناعة البناء حسنة التنظيم عظمة التخصص، فكان "حاملو الأشجار" Dendrophoroi يقطعون الأشجار ويرودونها، و"صناع الخشب" Fabri lingaru يصنعون الأثاث، و"صانعو الأسمنت" Caementaru

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الصناع

يخلطونه، و"المشيديون" Structures يضعون الأساس، و"القباعون" arcuaru يثبتون العقود، و"مقيموا الجدران" parietaru يرفعون الحوائط، و"الطلاسون" يطلونها بالجص، والمبيضون albaru يطلونها بالجير، وصانعو الأدوات الصحية artifices plumaru يصنعون من أدواتها وهي في الغالب أنابيب من الرصاص (plumbum)، وكان المبتلون marmoru يفرشون الأرض بالرخام، وفي وسعنا أن نتصور ما تؤدي إليه هذه الأعمال كلها من نزاع، وكان الأجر والقرميد يأتيان من معامل الفخار، وكان معظمها قد بلغ مرحلة المصانع الكبيرة، وكان تراجان، وهديان، وماركس أورليوس يمتلكون عدداً منها ويجتن منها أرباحاً طائلة. وكانت قمائن أرتيوم Arretuim، وموتينا Mutina، وبيتولي وسرنتم، وبولنتيا Pollentiae تصنع أدوات الموائد العادية اللازمة لإيطاليا ولجميع الولايات الأوربية والأفريقية. ولم تكن هذه المنتجات الكثيرة ذات صبغة فنية راقية، بل كان أهم ما يعنى به أصحابها هو كثرة الإنتاج، ولذلك كانت الأدوات الخزفية التي امتلأت بها أسواق إيطاليا أقل جودة من منتجات أرتيوم السالفة الذكر. وكانت هناك أدوات متقنة ذائعة الصيت تصنع من الزجاج، وسنذكر شيئاً عنها فيما بعد.

وليس من حقنا أن نعزو إلى إيطاليا القديمة وجود رأسمالية صناعية مستنديين إلى ما نجده فيها من مصانع للزجاج، والأجر والقرميد، والفخار، والأدوات المعدنية. ذلك أن رومة نفسها لم يكن فيها إلا مصنعان كبيران أحدهما مصنع للورق والثاني مؤسسة للصباعة؛ وأكبر الظن ان المعادن والوقود لم يكن من الميسور الحصول عليها بكميات وفيرة، ون مكاسب السياسة كانت تبدو لأهل رومة أعظم شرفاً من أرباح الصناعة. أما في مصانع إيطاليا الوسطى فإن الصناع على بكرة أبيهم تقريباً وبعض المشرفين على المصانع كانوا من العبيد، وفي مصانع شمالي إيطاليا كان عدد غير قليل من الصناع أحراراً، وكان عدد العبيد

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الصناع

لا يزال كبيراً إلى الحد الذي يحو لدون استخدام الآلات. ولم يكن من المنتظر أن يعتمد المهملون المتراخون الذين لا مصلحة لهم في الإنتاج إلى الاختراع والابتكار، بل انهم كانوا يرفضون بعض الوسائل التي توفر المجهود العضلي خشية أن تنتشر البطالة بين الصناع، كما أن قدرة الشعب على الشراء كانت أضعف من أن تمول الإنتاج الكبير بالآلات، أو تشجع عليه. ولسنا نفكر انه كان هناك بعض الآلات البسيطة بطبيعة الحال في إيطاليا ومصر والعالم اليوناني: كالمضاغط والمضخات اللولبية، والآلات الرافعة للمياه، ومطاحن الحبوب التي تجرها الحيوانات، وعجلات الغزل، والأنوال، والروافع، وعجلة الفخراي الدوارة... ولكن الحياة الإيطالية في الوقت الذي نتحدث عنه (69م) لم يكن فيها من الحركة الصناعية إلا بقدر ما كان في حياة الناس إلى ما قبل القرن التاسع عشر. ولم يكن مستطاعاً أن تزيد هذه الحياة على هذا القدر مادامت قائمة على الرقيق وعلى تركيز الثروة أشد التركيز. يضاف إلى هذا أن القانون الروماني لم يكن يشجع المنشآت الكبيرة لأنه كان يتطلب من كل شريك في أي مشروع صناعي أن يكون شريكاً مسئولاً من الوجهة القانونية، وكان يحرم قيام الشركات ذات "المسؤولية المحدودة"، ولا يسمح بقيام الهيئات المساهمة

الا لأداء الأعمال الحكومية. ولما كانت هذه القيود وأمثالها تحد من نشاط المصارف، فإنها قلما كانت تقدم رؤوس الأموال اللازمة لمشروعات الإنتاج الكبير، ولم يكن في وسع التطور الصناعي في رومة أو إيطاليا أن يبلغ في وقت من الأوقات ما بلغه في الإسكندرية أو في بلاد الشرق ذات الحضارة اليونانية.

صفحة رقم : 3454

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الحمالون

الفصل الثالث

الحمالون

كانت المركبات ذات العجلات محرمة في رومة أثناء النهار من عهد قيصر إلى كومودس؛ وكان الناس وقتئذ يمشون أو يحملهم العبيد في كراسي أو هودج، أما المسافات الطويلة فكانوا يقطعونها على ظهور الخيل أو في مركبات تجرها الجياد، وكان متوسط ما تقطعه المركبات العامة نحو ستين ميلاً في اليوم. وقد اجتاز قيصر مرة ثمانمائة ميل في ثمانية أيام، واجتاز الرسل الذين حملوا إلى جلبا في أسبانيا نبأ وفاة نيرون 332 ميلاً في ست وثلاثين ساعة؛ وقطع تيبيروس في ثلاثة أيام واصل فيها السير ركباً ليلاً ونهاراً ستمائة ميل ليكون إلى جوار أخيه ساعة وفاته. وكان البريد العام الذي ينقل في العربات أو على ظهور الخيل في ساعات النهار والليل جميعها يسير بسرعة يبلغ متوسطها مائة ميل في اليوم. وكان أغسطس قد أنشأه على غرار نظام البريد الفارسي، لأنه وجد ألا غنى له عنه في تصريف شئون الإمبراطورية. وكان يطلق عليه لفظ البريد العام لأن مهمته هي خدمة المصلحة العامة بنقل الرسائل الرسمية. أما الأفراد فلم يكونوا يستطيعون الانتفاع به إلا في ظروف قليلة وبتصريح خاص تصدره الحكومة ويسمى دبلوما أي "مطوية مرتين" يبيح لحامله بعض الامتيازات، ويمكنه من الاتصال في الطريق ببعض أصحاب المقامات لدبلوماسية الكبيرة. وكان ثمة وسيلة أخرى للاتصال أسرع من هذه الوسيلة، وهي طريقة إرسال الرسائل بمصابيح مرفوعة على أعمدة ترسل إشارات بالضوء من نقطة إلى نقطة؛ وبهذا البرق البدائي عرفت رومة المضطربة القلقة نبأ وصول السفن التي تحمل الحبوب إلى بمبي. أما الرسائل غير الرسمية فكان ينقلها رسول خاص، أو ينقلها التجار أو الأصدقاء المسافرون. ولدينا من الشواهد ما يوحي

صفحة رقم : 3455

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الحمالون

بوجود شركات خاصة في عهد الإمبراطورية تتكفل بنقل بريد الأفراد. وكانت الرسائل الخاصة في ذلك الوقت أقل من مثيلاتها في هذه الأيام وأحسن منها. على أن نقل الأخبار في غربي أوربا وجنوبها لم يكن في عهد قيصر أقل سرعة منه في أي وقت من الأوقات قبل مد السكك الحديدية. وشاهد ذلك أن الخطاب الذي أرسله قيصر من بريطانيا إلى شيشرون في عام 54 ق.م وصل إلى رومة في تسعة وعشرين يوماً، وأن سير ربرت بيل لما سافر مسرعاً من رومة إلى لندن في عام 1834 احتاج إلى ثلاثين يوماً (20).

وكانت الطرق القنصلية من أهم العوامل في تسيير سبل الاتصال والنقل. وكانت هذه الطرق هي الوسائل التي ينفذ لها القانون الروماني، والأعصاب التي تصبح بها رغبات رومة إرادة الدولة بأجمعها. وقد أحدثت هذه الطرق في العالم القديم انقلاباً تجارياً من نوع الانقلاب الذي أحدثه إنشاء الطرق الجديدة في القرن التاسع عشر. وحسبنا شاهداً على عظمة هذه الطرق أن طرق أوربا في العصور الوسطى وفي العصور الحديثة ظلت إلى أيام استخدام البخار في النقل أقل شأناً من طرق الإمبراطورية الرومانية في عهد الأنطونيين. لقد كان في إيطاليا وحدها في ذلك الوقت 372 طريقاً رئيسياً، 12000 ميل من الطرق الكبرى المرصوفة، وفي الإمبراطورية بأجمعها 51.000 ميل من الطرق العامة المرصوفة، فضلاً عن شبكة أخرى من الطرق الثانوية. وكانت الطرق الكبرى تسير فوق جبال الألب إلى ليون، وبردو، وباريس، وريمس، وبولوني؛ وكانت طرق أخرى تجري إلى فينا، ومينز، وأجزبرج، وكولوني، وأترخت، وليدن؛ وكان ثمة طريق يبدأ من أكوليا محازياً ساحل البحر الأديادي، ويصل هذه المدينة عن طريق إجناشيا بسلانيك Thessalonica. وأقيمت جسور فخمة لتحل محل القوارب التي كانت تنقل الركاب والبضائع في عرض المجاري التي كانت تعطل سبل الاتصال في الزمن القديم. وكانت توضع عند كل ميل في الطرق

صفحة رقم : 3456

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الحمالون

القنصلية شواهد حجرية تبين المسافة بين كل شاهد والبلدة التي تليه. ولا تزال أربعة آلاف من هذه الشواهد باقية إلى يومنا هذا؛ ووضعت على مسافات معينة مقاعد يستريح عليها المسافرين المتعبون. وأنشئت بعد كل عشرة أميال محاط يستطيع من شاء أن يستأجر منها خيلاً، وأقيم بعد كل ثلاثين ميلاً نزل Mansio كان أيضاً مستودعاً للسلع ودوة وماخورا (21). وكانت نقط الاستراحة الرئيسية هي المدائن التي أنشئت فيها عادة فنادق جميلة تمتلكها وتديرها أحياناً الحكومات البلدية (22). وكان معظم أصحاب النزل يسرقون أموال النزلاء كلما تيسرت لهم أسباب السرقة، كما كان غيرهم من اللصوص يجعلون الطرق غير آمنة في أثناء الليل على الرغم من وجود حاميات من الجند في كل محطة. وكان في استطاعة المسافرين أن يبتاعوا كتباً للإرشاد تبين الطرق والمحاط، وأطوال ما بينها من المسافات (23). وكان الأثرياء الذين يستكفون أن ينزلوا في النزل يحضرون معهم ما يلزمهم من الحاجيات، ويصطحبون العبيد وينامون في عرباتهم بحراسة رجالهم، أو في بيوت أصدقائهم، أو موظفي الحكومة المحليين. وأكبر الظن أن الأسفار في عهد نيرون كانت أكثر منها قبل أن نولد نحن، رغم ما كان يعترضها من الصعاب. وفي ذلك يقول سنكا: "إن كثيرين من الناس كانوا يركبون البحار مسافات طويلة ليشاهدوا منظرًا بعيداً" (24). ويحدثنا أفلوطرخس عن الخبايين الذين يقضون خير أيام حياتهم في النزل وفي القوارب (25). وكان الرومان المتعلمون يهرعون جماعات إلى بلاد اليونان ومصر وأسية اليونانية، وينقشون أسماءهم على الآثار التاريخية، ويرتادون الأجواء ومنابع المياه المفيدة للعلاج والصحة، أو يأتون لمشاهدة المجموعات الفنية في الهياكل، أو

يسافرون للدرس على مشهوري الفلاسفة والخطباء والأطباء؛ وما من شك في انهم كانوا يسترشدون ببيوسنياس كما نسترشد نحن ببديكر (26). وكانت هذه الرحلات الطويلة تتضمن عادة رحلة بحرية على ظهر سفينة

صفحة رقم : 3457

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الحمالون

أو أكثر من السفن التجارية التي تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط، متتبعه عشرات العشرات من طرق الملاحة التجارية. وقد وصف جوفنال هذه الطرق بقوله: "انظر إلى الموانئ والبحار تجدها غاصة بالسفن وعلى ظهرها من الخلائق أكثر ممن على الأرض" (27). وكانت الثغور التي تنافس رومة في عظمتها، وهي بتيولي، وبورتس، وأستيا، تحوي كثيراً من دور الصناعة تبنى المراكب وفيها القيارون يجلفطونها والعمال يضعون فيها صابورات من الرمال، والحمالون يفرغون الحبوب في أكياس، والوازنون يزنونها، والملاحون يسيرون القوارب الصغيرة بين السفن الكبرى والبر، والغواصون يغوصون في البحر لينتشلوا ما يسقط فيه من البضائع. وكانت خمس وعشرون سفينة من سفن الحبوب وحدها تجر إلى نهر التيبير في كل يوم من أيام العمل، فإذا أضفنا إليها ناقلات حجارة البناء والمعادن، والزيت، والخمور، وعشرات المئات من المواد الأخرى تكونت لدينا صورة من النهر الغاص بالمتاجر وما يصحب شحنها وتفريغها من ضجيج الآلات، ورجال الأهوسة، والحمالين، والخازنين، والتجار، والسماصرة، والكتبة. وكانت السفن تسير بالأشرعة يساعدها صف أو صفوف من المجاديف، وكانت في ذلك الوقت أكبر حجماً في العادة من ذي قبل، فأتينوس Atheaeus يصف سفينة من ناقلات الحبوب بأنها كانت 420 قدماً في الطول و 57 في العرض (29)، ولكن هذا الحجم كان حجماً شاذاً كل الشذوذ. وكان لبعض السفن ثلاث أسطح، وكانت حمولة الكثير منها 250 طناً، وحمولة بعضها ألف طن من البضائع. ويحدثها يوسفوس عن سفينة تحمل ستمائة رجل ما بين راكب وبحار (30)، وقد حملت سفينة أخرى مسلة مصرية في حجم المسلة المقامة في سنترال بارك Central Park بنيويورك، ومعها 300 ملاح، و 1300 راكب،

صفحة رقم : 3458

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> الحمالون

و 93000 بشل من القمح، ومقادير من الكتان، والفلفل، والورق، والزجاج (31). على أن السفر بالسفن بعيداً عن السواحل كان لا يزال معرضاً للأخطار، كما وجد القديس بولس في أسفاره. ولم يكن يجرؤ على عبور البحر الأبيض المتوسط فيما بين نوفمبر ومارس إلا عدد قليل من السفن، وكانت الرياح الموسمية تجعل السفر في وسط الصيف مستحيلاً من جهة الشرق. وكانت الأسفار بالليل وكثيرة في تلك الأيام، وكان في ميناء ذي شأن منارة صالحة، وكادت القرصنة أن تختنق من البحر الأبيض المتوسط، وقد جدد أغسطس في القضاء عليها ومنع الطعام عن الولايات التي

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة العاملة - الحمالون

230 ميلاً بحرياً في أربع وعشرين ساعة(32). وإذا ما صلحت الرياح استطاع الإنسان أن يبسافر من صقلية إلى الإسكندرية أو من قادس إلى أستيا في ستة أيام، ومن يودكة Ytica إلى رومة في أربعة(33).

وكانت أطول الرحلات وأكثرها تعرضاً للخطر الرحلة البحرية التي تستغرق ستة أشهر من عدن في بلاد العرب إلى بلاد الهند، وذلك لأن الرياح الموسمية كانت تضطر السفن إلى ملازمة السواحل الغاصة بالقراصنة في الطريق كله؛ وقد استطاع ملاح يوناني من أهل الإسكندرية في وقت ما قبل سنة 50 ميلادية أن يبين بالرسم أوقات هبوب الرياح الموسمية، ويعرف ان في مقدوره في بعض الفصول أن يعبر المحيط الهندي في طريق مستقيم وهو آمن. وكان هذا الكشف يعادل في أهميته بالنسبة لهذا البحر أهمية عبور كولومبوس المحيط الأطلنطي؛ ذلك ان السفن قد استطاعت بعد هذا العمل أن تسير من الثغور المصرية الواقعة على البحر الأحمر إلى بلاد الهند في 40 يوماً. وحدث حوالي 80م ان كتب بحار آخر من أهل الإسكندرية غير معروف اسمه كتاباً عن " الطواف بالبحر الأريتزي ". وكان بمثابة دليل للتجار الذين يتجرون بين ثغور ساحل أفريقيا الشرقي والهند. وكان غيره من الملاحين في ذلك الوقت قد سار في المحيط الأطلنطي إلى بلاد غالة، وبريطانيا، وألمانيا، بل انهم وصلوا إلى اسكنديناوة وروسيا(34). ولسنا نعرف في تاريخ الإنسانية قبل ذلك ان البحر قد حمل من السفن أو من البضائع و من الخلق ما حمله في تلك الأيام.

الفصل الرابع

المهندسون

كانت السفن والطرق التي تحمل عليها البضائع، والقناطر التي تربط الطرق بعضها ببعض، والموانئ والأحواض التي تستقبل السفن، والقنوات المبنية التي يجري فيها الماء النقي إلى روما، والمصارف التي تنصرف فيها مياه المستنقعات الريفية وأقذار المدن، كانت هذه كلها من عمل المهندسين الرومان واليونان والسوريين يساعدهم آلاف من العمال الأحرار وجنود الفيالق والعبيد. وكانوا يرفعون الأحمال أو الحجارة الثقيلة، أو يجرونها بوساطة البكرات أو القوائم الخشبية العمودية تديرها الروافع التي يدفعها فيها الحيوانات أو الآدميون (35). وقد أقاموا على شاطئ التيبر الغدار جدراناً ذات درجات ثلاث حتى لا ينكشف الطين في قاع النهر إذا انخفض ماؤه . وقد أنشئوا ميناءً مزدوجاً عند أستيا لكلوديوس ونبيرون وتراجان، وافتتحوا موانئ أصغر منها في مرسيليا وبتيولي، وميسينم، وقرطاجنة وبرنديزيوم ورافنا؛ وجددوا أعظم موانئ الإمبراطورية كلها في الإسكندرية. وقد جففوا البحيرة الفوسية، واستصلحوا أرضها للزراعة وذلك بأن شقوا لها نفقاً يخترق جبلاً من الصخر الصلب، وأنشأ تحت الأرض في روما مصارف من الأسمنت المتحجر للأجر والقرميد قاومت البلبي مئات السنين، وجففوا مناقع كمبانيا حتى أصبحت صالحة للسكنى، ويدل ما عثر عليه فيها من آثار على أن قصوراً فخمة كثيرة أقيمت فيها ، وقاموا بتنفيذ

المشروعات العامة المدهشة التي خفف بها قيصر وغيره من العباقره التعطل في البلاد وجملوا بها روما.

وكانت الطرق القنصلية من أقل أعمالهم مشقة، ولكنها لم تكن تنقص عن طرق هذه الأيام. وكانت سعتها تختلف من ستة عشر إلى أربع وعشرين قدماً ولكن بعض هذا العرض كان يشغله بالقرب من روما ممرات جانبية مرصوفة بألواح حجرية مستطيلة الشكل. وكانت تسير مستقيمة إلى أهدافها مضحية بالنفقات العاجلة في سبيل اقتصاد دائم؛ وأقيمت على المجاري التي لا حصر لها قناطر كثيرة النفقات، فإذا وصلت إلى المستنقعات اخترقتها فوق قباب مقامة على جدران من الأجر والحجارة، وكانت تصعد فوق الجبال الوعرة وتتحد على سفوحها دون أن تستخدم النفق، وسارت بمحاذاة الجبال أو الجسور العالية تحميها الجدران القوية. واختلفت المواد التي ترصف بها باختلاف الأماكن التي تمر بها. وكانت الطبقة السفلى تصنع في العادة من الرمل ويتراوح سمكها بين أربع بوصات و ست، أو من الملاط بسمك بوصة واحدة. ثم تقام فوق هذه الطبقة أربع طبقات من البناء: الأولى وسمكها قدم وتبنى من الحجارة يمسكها الأسمنت أو الطين، تليها طبقة ثانية سمكها عشر بوصات من الأسمنت القوي، ثم طبقة ثالثة سمكها ما بين اثنتي عشر وثمان عشر بوصة وتتألف من عدة طبقات من الأسمنت المقوى أيضاً، فوقها الطبقة الرابعة وتتخذ من حجر الصوان أو الحمم البركانية الكثيرة الأضلاع والتي يختلق قطر كل منها بين قدم واحد وثلاث أقدام، وسمكها بين ثمان بوصات واثنتي عشر بوصة. وكان يسوون الوجه الأعلى لهذه القطع، وكانت مواضع اتصالها بعضها ببعض لا تكاد تتبينها العين. وكانت الطبقة العليا تصنع في بعض الأحيان من الأسمنت المقوى، وفي الطرق القليلة الأهمية كانت تصنع من الحصباء؛ وفي بريطانيا كانت من حجر الصوان المخلوط بالأسمنت فوق طبقة من الحصباء. وكان سمك الطبقات السفلى كبيراً إلى حد جعل المهندسين

لا يعنون كثيراً بتصريف الماء الجوفي. ويمكننا أن نقول عن هذه الطرق بوجه عام إنها أطول الطرق أعماراً في التاريخ كله، ولا يزال بعضها يستخدم إلى اليوم، ولكن منحنياتها الشديدة التي صنعت لسير البغال والعربات الصغيرة جعلتها غير صالحة لوسائل النقل الحديث.

وكانت القناطر التي تحمل هذه الطرق نماذج طيبة لتضافر العلم والفن، ولقد ورث الرومان عن مصر البطليموسية أصول الهندسة المائية واستخدموها على نطاق بلغ من السعة حداً لم يسبقهم أحد إليه من قبل، وبقيت الأساليب التي نقلت عنهم لم يطرأ عليها تغيير إلى هذه الأيام. وقد وضعوا الأساس وأشادوا الأرصفة تحت الماء كما كانت تشاد هذه وتلك في أقدم العهود. وكانوا يدفعون في أنواع المجاري اسطوانات مزدوجة مملوءة بمواد البناء، وقد أحكموا إغلاق كل منهما ونزحوا الماء مما بينهما، وغطوا الجزء المعرى بالحجارة أو الجير، وأقاموا الرصيف المطلوب إقامته على هذا الأساس. وقد أقيمت على نهر التبير قبالة روما تسعة جسور بعضها قديم مقدس كجسر سبليسيوس الذي لم يكن يجوز استخدام المعادن فيه، وبعضها كجسر فبريسيوس متقن البناء اتقاناً أبقاه صالحاً للاستعمال إلى هذه الأيام. وعن هذه الجسور نقلت العقود الرومانية لتستخدم في البناء مئات المئات من القناطر فوق المجاري في العالم الذي يسكنه البيض.

وكان بني يظن أن قنوات المياه المبنية أعظم أعمال الرومان، وفي ذلك يقول: "إذا فكر لإنسان في مقدار ما يصل إلى المدينة من الماء للأغراض العامة والخاصة التي يخطئها الحصى وإذا شاهد القنوات المشيدة العالية التي لا بد أن تحتفظ بالعلو والتدرج المطلوبين، والجبال التي لا بد من اختراقها، والمنخفضات التي لا بد من ملئها - لم يسعه إلا أن يحكم أن الأرض كلها ليس فيها ما هو أعجب وأعظم من هذه الأعمال" (38). وكانت أربع عشرة قناة من هذا النوع يبلغ مجموع أطوالها

1300 ميل

وتخترق النفق وتسير فوق عقود فخمة، كانت هذه القنوات تحمل إلى روما من عيون بعيدة ما لا يقل عن 300.000.000 جالون من الماء في كل يوم، ينال منها كل فرد في روما ما يناله أي إنسان في مدننا الحديثة(39). على أن هذه المباني الضخمة لم تكن تخلو من عيوب. فقد كانت أنابيب الرصاص تخرق وتتطلب الإصلاح المرة بعد المرة، وأصبحت هذه القنوات كلها غير صالحة للاستعمال قبل نهاية عهد الإمبراطورية الغربية . ولكننا إذا ذكرنا أنها كانت تحمل إلى المباني، والمساكن، والقصور، والفسافي، والحدائق، والبساتين، والحمامات العامة التي يستحم فيها آلاف الناس مجتمعين، وان ما بقي بعد ذلك من الماء كان يكفي لإنشاء بحيرات صناعية للمعارك الحربية، إذا ذكرنا هذا كله بدأنا ندرك أن رومة كانت احسن الحواضر القديمة إدارة، وأنها كانت من خير المدن المزودة بما تحتاج إليه من الضروريات والكماليات، رغم ما كان فيها من فساد، وما كان ينتابها من رعب في كثير من الأحيان.

وكان يشرف على مصلحة المياه في ختام القرن الأول الميلادي سكستس يوليوس فرنينيس الذي جعلته كتبهم أشهر مهندسي الرومان الأقدمين. وكان قبل أن يتولى هذا المنصب قد عمل بريتورا، ووالياً على بريطانيا، وتولى القنصلية مراراً عدة. وكان كالحكام الإنجليز في هذه الأيام يجد متسعاً من الوقت لتأليف الكتب وحكم الولايات، فقد نشر كتباً في العلوم الحربية لا يزال ختامه باقياً إلى هذه الأيام ، وترك لنا وصفاً بقلمه لعملية المياه في رومة De Aquis Urbis Romanae. وهو يصف ما وجده في تلك المصلحة حين تولى أمورها من ضروب الفساد والرشوة، وكيف كانت القصور والمواخير تخرق الأنابيب الكبرى

صفحة رقم : 3464

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة العاملة - المهندسون

وتسرف في الماء إسرافاً جعل روما في بعض الأيام تطلب الماء فلا تجده(41). ثم يصف ما أدخله بحزمه وهمته من ضروب الإصلاح، ويفصل القول في زهو وإعجاب في مبدأ كل قناة وطولها

والغرض منها. ويختتم هذا القول كما يختتم بلنى قوله بهذه العبارة: "من ذا الذي يجرو على أن يوازن هذه القنوات العظيمة بالأهرام السخيفة أو بأعمال اليونان الذائعة الصيت العديمة النفع"(42). ونحن نحس هنا بما يؤمن به هذا الروماني من مبدأ النفسية، وبعدم تذوقه الجمال المجرد من النفعية. ولسنا نلومه على هذا، ونقر بأن من الواجب أن تحصل المدينة على الماء النقي قبل أن يكون فيها هياكل جميلة ونحن نستشف من خلال هذه الكتب الخالية من التجميل الفني انه كان لا يزال في رومة في أيام الطغاة رومان من الطراز القديم، رجال ذوو كفاية وصلاح، وإدريون يعملون بوحى ضمائرهم، وقد افلحوا في نشر الرخاء في أنحاء الإمبراطورية، تحت حكم الأباطرة السفهاء الفاسدين، وكانوا هم الذين مهدوا السبيل لعصر الملكية الذهبي.

صفحة رقم : 3465

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> التجار

الفصل الخامس

التجار

اتسعت تجارة البحر الأبيض المتوسط اتساعاً لم يسبق له مثيل من قبل بسبب إصلاح إدارة الحكم ووسائل النقل. ففي أحد طرفي عملية التبادل كان البائعون الجائلون يطوفون بالريف وبييعون أهله كل شيء من عيدان النقاب إلى الحرير المستورد الغالي الثمن. وشببه بهؤلاء من يبيعون البضائع "بالمزاد"، وكان عملهم أيضاً المناداة على البضائع المفقودة والعبيد الأبقين. وكانت هناك أسواق بيومية وأخرى دورية، وكنت ترى أصحاب الحوانيت يساومون المشتريين ويخسرون الموازين، ويرقبون في حذر مفتشي الحكومة (الإيديل) الذين كانت مهمتهم مراقبة المكايل والموازين. وكان أرقى من هؤلاء في السلم التجاري الحوانيت التي تصنع بنفسها سلعا؛ وكانت هذه الحوانيت عماد

الصناعة والتجارة جميعاً. وكان في الثغور البحرية أو بالقرب منها بائعو الجملة (magnaru) يبيعون لتجار التجزئة أو للمستهلكين البضائع المستوردة حديثاً من خارج البلاد؛ وكان صاحب السفينة أو رئيس بحارتها في بعض الأحيان يبيع ما فيها من البضائع قبل أن يفرغها. وظلت إيطاليا مانتني عام وميزان التجارة في غير صالحها، فقد كانت تشتري أكثر مما تبيع، وكانت راضية بذلك مغتبطة. كانت تصدر بعض الفخار الأريتيني Arretine وبعض الخمر والزيت، والأدوات المعدنية والزجاج، والروائح العطرية من كمبانيا؛ أما ما عدا هذه من المنتجات فقد كانت تحتفظ به لنفسها. وكان لتجار الجملة في هذه الأثناء وكلاء يشترون البضائع لإيطاليا من كافة أنحاء الإمبراطورية، وكان للتجار الأجانب سمسرة يعرضون

صفحة رقم : 3466

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> التجار

بضائعهم في إيطاليا؛ وبهذه العملية المزروجة جاءت طبيبات نصف العالم إلى إيطاليا لتتلذذ بها أفواه عظماء الرومان، ونكتسي بها أجسادهم، وتزدان بها بيوتهم؛ وفي ذلك يقول إيلْيوس أرسْتِيديس Aelis Aristides: "من شاء أن يرى جميع طبيبات العالم فعليه أن يطوف العالم كله أو يقيم في رومة" (45). وكانت صقلية ترسل لها الحبوب، والماشية، والجلود، والخمور، والصوف، والأدوات الخشبية الفنية الجميلة، والتماثيل، والحلي، وكانت ترد من شمالي أفريقيا الحبوب والزيت؛ ومن قورينة الانجنان Silpium؛ ومن أفريقيا الوسطى الوحوش اللازمة للملاعب والمجلدات؛ ومن بلاد الحبشة وشرقي أفريقيا العاج والقردة، وأصداف السلاحف، والرخام النادر الطبيعي، والتوابل، والعيبد الزوج؛ ومن غربي أفريقيا الزيتون، والحيوانات البرية، والماشية، والصوف، والذهب، والفضة، والرصاص، والقصدير، والنحاس، والحديد، والزنجفر، والقمح، والتيل، والفلين، والخيل، ولحم الخنزير، وخير أنواع الزيتون وزيتته؛ ومن بلاد غالة الملابس، والخمور، والقمح والخشب، والخضر، والماشية، والدجاج، والفخار، والجبن، ومن بريطانيا، القصدير، والرصاص والفضة، والجلود، والقمح، والماشية، والعيبد، والمحار، والكلاب واللؤلؤ، والمصنوعات الخشبية؛ وكانت أسراب الإوز تسير من بلجيكا إلى إيطاليا لتملاً أكبادها بطون الأشراف من أبنائها. وكانت ألمانيا تورد الكهرمان،

والعبيد، والفراء؛ وبلاد اليونان والجزائر اليونانية تصدر الحرير الرخيص، والتيل، والخمر، والزيت، وعسل النحل، والخشب، والرغام، والزمرد، والعقاقير،

صفحة رقم : 3467

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة العاملة - التجار

والمصنوعات الفنية، والروائح العطرية والماس، والذهب، وكانت بلاد البحر الأسود تصدر الحبوب، والسمك، والفراء، والجلود، والعبيد؛ وأسية الصغرى تصدر المنسوجات التيلية والصوفية، والجلد المرقق للكتابة، والخمر، وتين أزمير وغيرها من البلاد، والعسل والجبن، والمحار، والسجاجيد، والزيت، والتفاح، والكمثرى، والبرقوق، والتين، والبلح، والرمان، والبندق، والناردين، والبلسم، والصمغ القرمزي، والأرجواني، وأرز لبنان؛ وكانت تدمر تورد المنسوجات والعطور والعقاقير؛ وبلاد العرب تورد البخور، والصمغ، والصبر، والمر، والأفيون، والزنجبيل، والقرفة، والأحجار الكريمة؛ ومصر تورد الحبوب، والورق، والتيل، والزجاج، والحلي، والحجر الأعل، وأحجار البازلت، والمرمر، والبرفير؛ وكانت آلاف الأدوات المصنوعة المختلفة الأنواع ترد إلى رومة وغريب أوربا من الإسكندرية، وصيدا، وصور، وانطاكية، وطرطوس، وروُدس، وميليتس، وإفسوس وغيرها من كبريات مدائن الشرق؛ وكانت بلاد الشرق نفسها تستورد المواد الغفل والنقود من الغرب. وكانت هناك فضلاً عن هذا كله تجارة واردات ضخمة من خارج الإمبراطورية. فكانت ترد إلى إيطاليا من بارثيا وبلاد الفرس الجواهر، والعطور النادرة، والجلود الرقيقة، والطنافس، والحيوانات البرية، والخصيان؛ وكان يرد من الصين بطريق بارثيا أو الهند أو القوقاز الحرير منسوجاً أو غير منسوج؛ وكان الرومان يظنونهم محصولاً نباتياً يستخرج من الشجر ويقومونه بوزنه ذهباً (44). وكان معظم هذا الحرير يرد إلى جزيرة كوس Cos حيث ينسج ملابس لنساء رومة وغيرها من المدن؛ واضطرت ولاية مسينيا Messenia - وهي الولاية الفقيرة نسبياً، أن تحرم على نساؤها ارتداء الملابس الحريرية

الشفافة في الاجتماعات الدينية؛ وهذه الملابس هي التي غزت بها كليوباترة قلبي قيصر وأنطونيوس (45). وكانت الصين تستورد من الإمبراطورية الرومانية في نظير صادراتها إليها الطنافس والحلي، والكهرمان، والمعادن، والأصباغ، والعقاقير، والزجاج. ويحدثنا المؤرخون الصينيون عن بعثة تجيء بطريق البحر إلى الإمبراطور هوان دي عام 166، من قبل الإمبراطور "آن-تون" - أي ماركس أورليوس أنطونيوس. وأكبر الظن ان هذه البعثة لم تكن إلا جماعة من التجار انتحلوا صفة السفراء. وقد عثر في ولاية شانسي الصينية على ست عشرة قطعة من النقود الرومانية مضروبة فيما بين حكم تيبيريوس وحكم أورليوس. وكانت الهند تورد إلى إيطاليا الفلفل، وسنبلة الطيب، وغيرها من التوابل (التي سافر كولمبس لبحث عنها)، والأعشاب، والعاج، وحجر الزفر (الخرز اليماني) والجمست، والياقوت الأحمر، والماس، والمصنوعات الحديدية، وأدوات التجميل، والمنسوجات، والنمورة، والفيلة. وفي مقدورنا أن ندرك مقدار هذه التجارة وخشب الرومان لأسباب الترف إذا عرفنا ان إيطاليا كانت تستورد من الهند أكثر مما تستورده من أي بلد آخر عدا أسبانيا (46). ويذكر استرابون ان مائة وعشرين سفينة كانت تبحر كل عام من ثغر واحد نم الثغور المصرية إلى الهند وسيلان. وكانت الهند نفسها تستورد في مقابل صادراتها مقداراً غير كبير من الخمور، والمعادن، والصبغة الأرجوانية، وتأخذ ثمن ما بقي من بضائعها أكثر من مائة مليون سسترس نقوداً أو سبائك. وكان مثل هذا القدر من المال يرسل إلى بلاد العرب والصين، ولعل مثله أيضاً كان يرسل إلى أسبانيا.

وظلت هذه التجارة الواسعة مصدر رخاء عظيم مائتي عام، ولكن أساسها غير السليم جر الخراب على الاقتصاد الروماني في آخر الأمر. ذلك ان إيطاليا لم تحاول قط أن تتعادل صادراتها وواراداتها، وأنها استولت على مناجم خمسين

ولاية أو نحوها، وفرضت على أهلها الضرائب لتستمد منها المال الذي تدفعه لموازنة صادراتها ب وارداتها. فلما ان استنفذت العروق المعدنية الغنية ولم تنقص شهوة الرومان للترف والكماليات، حاولت رومة أن تؤجل انهيار نظام الاستيراد بفتح بلاد جديدة اشتهرت بمعادنها مثل داشيا Dacia، وبتخفيض قيمة نقدها الذي كان من قبل أبعد النقود عن الفساد والانحطاط، فصارت تصنع أكثر ما تستطيع صنعه من النقود من أقل ما لديها من السبائك. ولما أن اقتربت نفقات الإدارة والحروب من مكاسب الإمبراطورية، كان على رومة أن تؤدي ثمن ما تستورده من البضائع بضائع أخرى، ولكنها عجزت عن هذا. وكان اعتماد إيطاليا على ما تستورده من الطعام أهم أسباب ضعفها. ذلك أنها ساعة أن عجزت عن إرغام غيرها من البلاد على أن ترسل إليها الطعام والجنود، إذن مجدها بالزوال وفي هذا الوقت عينه أخذت الولايات تسترد رخائها وألويتها الاقتصادية؛ فكاد التجار الإيطاليون في القرن الأول الميلادي يختفون من الثغور الشرقية، واستقر التجار السوريون واليونان في ديلوس وبتيولي، وتضاعف عددهم في أسبانيا وغالة، وأخذ الشرق بين مد التاريخ وجزره المتباعدة الأجل يستعد لأن يسطر مرة أخرى على الغرب.

ترى كيف كان الإنتاج والتجارة يمولان؟ لقد كانا يمولان قبل كل شيء ينقد محترم موثوق به في العالم إلى حد كبير. نعم إن النقود الرومانية جميعها قد انحطت قيمتها شيئاً فشيئاً من أيام الحرب البونية الأولى، لأن الخزنة وجدت انه يسهل عليها أن تؤدي ما استدانته الحكومة من المال بسبب الحروب بسماعها بالتضخم الذي ينشأ بطبيعته من ازدياد النقود ونقص السلع. من ذلك ان الآس وكان في الأصل رطلاً من النحاس انخفض وزنه إلى أوقيتين في عام 241، وإلى أوقية واحدة في عام 202، وإلى نصف أوقية في عام 87 ق.م، وإلى ربع أوقية في عام 60م؛ وفي المائة العام الأخيرة من عهد الجمهورية كان قواد الجند يسكون نقودهم، وكانت هذه النقود في العادة هي الأورى وهو نقد ذهبي كانت قيمته في الغالب مائة سسترس. ومن هذه النقود الحربية جاءت نقود الأباطرة، وقد جرى هؤلاء على سنة قيصر فطبعوا صورتهم على ما يسكونه من النقود رمزاً لضمان الحكومة إياها. وسك السسترس وقتئذ من النحاس بدل الفضة، وجعلت قيمته أربعة آسات ، وأنقص نيرون ما كان يحتويه الدينار من الفضة إلى 90% مما كان يحتويه منها قبل، ثم أنقصه تراجان إلى 85%، وأورليوس إلى 75%، وكمودس إلى 70%، وسبتميوس سفيرس Septimius

صفحة رقم : 3471

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة العاملة - رجال المال

Severus إلى 50%. وأنقص نيرون قيمة الأوريوس من 40/1 من الرطل من الذهب إلى 45/1، وأنقصها كركلا إلى 50/1. وصحب هذا التخفيض ارتفاع عام في إثمان السلع، ولكن يلوح ان الدخل ارتفع بنسبة هذا التخفيض وظل يرتفع حتى زمن أورليوس. ولعل هذا التضخم غير الطليق الخاضع لإشراف الحكومة، لم يكن إلا وسيلة سهلة لتخفيف العبء عن المدينين على حساب الدائنين، لأن هؤلاء لو تركوا وشأنهم لاستطاعوا بفضل ما يمتازون به من كفاية، وما يتاح لهم من فرص، أن يركزوا الثروة في أيدي قليلة إلى حد يقف معه دولاب الاقتصاد وينذر بالثورة السياسية. ومن واجبنا أن نعد النظام المالي الروماني من أكثر النظم المالية نجاحاً وثباتاً في التاريخ رغم ما طرأ

عليه من تغيرات. ذلك ان معياراً واحداً للنقد ظل قائماً موثقاً به مدى قرنين من الزمان، وبفضل هذا الثبات راجت التجارة واستثمار المال رواجاً لم يكن له نظير في أي عصر من العصور السابقة. ومن أجل هذا انتشر الصيارفة في كل مكان، يبدلون النقود بعضها ببعض، ويراجعون الحسابات والودائع ذات الفوائد، ويصدرون التحويل المالية للمسافرين وتوكل إليهم إدارة أملاك الأفراد وبيعها، وشرائها، واستثمار الأموال، وأداء الديون، وإقراض المال للأفراد والشركات. وكان مصدر هذا النظام المصرفي بلاد اليونان وبلاد الشرق اليوناني، وكان أكثره في أيدي اليونان والسوريين حتى في إيطاليا نفسها وفي غربي أوربا؛ وكان اللفظان اللذان يطلقان على السوري، والمصرفي في غالة مترادفين. وانخفض سعر الفائدة إلى أربعة في المائة لكثرة الغنائم التي يجاء بها أغسطس من مصر، ولكنه عاد فارتفع إلى 6% بعد موته، وبلغ حده القانوني الأقصى وهو 12% قبيل عصر قسطنطين. ويدل "الذعر" المشهور الذي حدث في عام 33 م على ما وصلت إليه حال المصارف والتجارة في أيام الإمبراطورية، كما يدل على اعتماد كلا النظامين على الآخر. ذلك أن أغسطس سك العملة بلا حساب، وبسط يده في الإنفاق

صفحة رقم : 3472

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة العاملة -> رجال المال

كل البسط، على أساس أن كثرة تداول المال، وانخفاض سعر الفائدة، وارتفاع الأثمان، ستبعث النشاط في الأعمال المالية والتجارية. وقد حدث هذا فعلاً ولكن هذه العملية لم يكن من شأنها أن تستمر إلى غير نهاية، ولذلك حدث انتكاس ولما يمض على بدايتها زمن طويل؛ فقد حدث في عام 10 ق.م أن وقف إصدار العملة، وعاد تيبيريوس إلى عكس النظرية السابقة وهي أن خير ضروب الاقتصاد هو أشدها اقتصاداً. ولذلك فرض القيود الشديدة على النفقات الحكومية، وحدد إصدار العملة تحديداً شديداً، وجمع في خزانة الدولة 2.700.000.000. ونشأ عن هذا أن قل تداول النقود قلة زاد أثرها سوءاً نزوح الأموال إلى بلاد الثراء لابتتياع الكماليات منها. ونتج عن ذلك انخفاض الأثمان، وارتفاع سعر الفائدة. وعجز المديون عن الوفاء بديونهم، فباعوا أملاكهم، وقاضى المديون المرابين، وامتنع الاقتراض أو كاد. وحاول مجلس الشيوخ أن يمنع تصدير رؤوس الأموال فطلب أن يستثمر

قدر كبير من ثروة كل عضو من أعضائه في الأراضي الإيطالية، فعمد الشيوخ من أجل ذلك إلى المطالبة بما لهم من الديون، وباعوا أملاك مدينتهم للحصول على الأموال، وازدادت الأزمة سوءاً على سوء؛ ولما ان أبلغ الشيخ بلبوس أسبنثر Publius Spinther مصرف بلبس وألبوس & Balbes Ollius انه لابد له أن يسحب 30.000.000 سسترس للوفاء بما يتطلبه القانون الجديد، أعلن المصرف إفلاسه. وحدث في الوقت نفسه أن أفلست شركة بالإسكندرية هي شركة سوئيس وولده Son & Seuthes على أثر ضياع ثلاث سفن لها تحمل التوابل، وانهارت شركة ملكس Malchus للصبغة في مدينة صور، فشاع في طول البلاد وعرضها ان مصرف مكسمس وفيبو & Maximus Vibo الروماني على وشك الإفلاس بسبب ما له من ديون كثيرة على هاتين الشركتين. ولما ان هرع أصحاب الودائع إلى هذا المصرف لسحبها أغلق أبوابه، وحدث بعدئذ في اليوم نفسه أن أجل الدفع مصرف كبير آخر

صفحة رقم : 3473

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة العاملة - رجال المال

هو مصرف أولاد بتيوس Pettius. ووصلت في الوقت عينه تقريباً أنباء تقول إن مصاريف مالية كبرى في ليون، وقرطاجنة، وكورنثة، وبيزنطية قد أفلست هي الأخرى، وأغلقت مصارف رومة واحداً بعد واحد، ولم يكن من المستطاع اقتراض المال إلا بفوائد أعلى كثيراً من السعر المصرح به قانوناً. واضطر تيبيريوس في آخر الأمر أن يعالج الأزمة بوقف قانون الاستثمار في أرض إيطاليا، وتوزيع 100.000.000 سسترس على المصارف لقرضها من غير فائدة لأجل ثلاث سنين، بضمان الأملاك العقارية، فاضطر المرابون من الأفراد إلى تخفيض سعر الفائدة، وخرجت الأموال من مخابئها، وعادت الثقة شيئاً فشيئاً إلى السوق المالية والتجارية.

صفحة رقم : 3474

الفصل السابع

الطبقات

كان كل إنسان في رومة إلا أقلية لا يعتد بها يعبد المال عبادة جنونية، وكان الناس جميعاً عدا أصحاب المصارف يلعنون المال ويذمونهم. من ذلك أن أوفد يقول في أحد كتبه على لسان إله من الآلهة: "ما أقل ما تعرف عن العصر الذي تعيش فيه إذا توهمت أن الشهد أحلى من المال في يدك" (15). وبعد مائة عام من ذلك يشيد جوفنال في سخريّة: "بجلال الثروة المقدس أعظم التقديس". وظل القانون الروماني إلى آخر عهد الإمبراطورية يحرم على الشيوخ استثمار أموالهم في التجارة أو الصناعة؛ ومع انهم كانوا يحتالون على هذا التحريم بأن يجيزوا لمعتوقيهم أن يستثمروا لهم المال، فإنهم كانوا يحتقرون وكلاءهم، ويرون ان الحكم بحق المولد هو وحده الذي يليق بهم أن يستبدلوا به الحكم بحق المال أو الأساطير أو السيف. وقد ظلت الانقسامات الطائفية باقية في البلاد بعد ما قام فيها من الثورات، وبعد أن نقص عدد الأشراف نقصاناً كبيراً، واتخذوا لهم ألقاباً جديدة: فأصبح أفراد طبقتي الشيوخ، والفرسان، والحكام، والموظفين، يلقبون "رجال الشرف" honestiores أو رجال المناصب؛ ولقب كل من عداهم "بالأدنياء" humiliores أو "الضعفاء" tenuiores. وكان وقار الشيخ وزهوه يمتزج بهما اعتزازاً بالشرف والكرامة، وكان يعمل في عدد من المناصب بعضها في اثر بعض من غير أجر بل تفرض عليه نفقات طائلة، وكان يضطلع بالواجبات التي تفرضها عليه مناصبه الهامة بدرجة لا بأس بها من الكفاية والاستقامة؛ وينفق من ماله على الألعاب العامة، ويساعد الموالي المحررين من العبيد، ويقتسم بعض ثروته مع الأهلين بضروب الصدقات التي يخرجها في أثناء حياته أو بعد

مماته. وإذ كان مركزه يتطلب منه كثيراً من الواجبات، كان يطلب إليه إذا أراد أن ينضم إلى طبقة الشيوخ أو يبقى فيها أن يكون لديه مليون سسترس. وقد بلغت ثروة أحد الشيوخ وهو نيوس لنتولس Lentulus Gnaeus 400.000.000 سسترس، ولكننا إذا استثنينا هذا الشيخ وحده كان أعظم الناس ثراء في رومة هم رجال الأعمال الذين لم يكونوا يستكفون أن يشتغلوا بالشؤون المالية أو التجارية. وبينما كان الأباطرة ينقصون من سلطان مجلس الشيوخ كانوا يختصون رجال الأعمال بالمناصب الكبرى، ويحمون الصناعة والتجارة والأعمال المالية، واتخذوا معونة الفرسان سندا للزعامة ضد دسائس الأشراف. وكانت عضوية هذه الطبقة الثانية، طبقة الفرسان، تتطلب من صاحبها أن يكون مالكا لأربعمائة ألف سسترس، وأن يرشح الزعيم نفسه أعضاء هذه الطبقة؛ ومن أجل هذا كان كثيرون من ذوي الثراء من طبقة العامة. وكانت هذه الطبقة وقتئذ تتألف من رجال الأعمال الذين لم يرشحوا إلى العضوية في طبقة أخرى، ومن العمال الأحرار المولد، والفلاحين الملاك، والمدرسين، والأطباء، والفنانين والعبيد المحررين. ولم يكن الإحصاء يحدد طبقة الصعاليك حسب أعمال أفرادها بل كان يحددها حسب مولدهم؛ وقد وصفتهم إحدى الرسائل القديمة بأنهم "السوقة الذين لا يقدمون للدولة إلا الأطفال" (52) وكان الكثيرون منهم يهملون في الحوانيت، وفي المصانع، وفي تجارة المدن بأجر يبلغ متوسطه دينارا (50/100 من الريال الأمريكي) في اليوم. وزاد هذا الأجر في القرون التالية، ولكن زيادته لم تكن أسرع من زيادة الأثمان (53). وجدير بنا أن ننسى أن استغلال الأقوياء للضعفاء أمر طبيعي كالطعام والشراب، ولا يختلف عنهما إلا في السرعة؛ وأنه لا يخلو منه عصر من العصور ولا مجتمع من المجتمعات أيا كان نوعه وأيا كان نظام الحكم الذي يخضع له؛ ولكن هذا

الاستغلال لم يكن في بلد من البلاد أكمل مما كان في رومة القديمة، كما لم تكن الطبقات في بلد آخر أقل تعاطفاً من الطبقات فيها. لقد كان ساكنوها جميعاً في وقت من الأوقات فقراء لا يشعرون بفقرهم، ولكن الفقر والثراء ما لبثا أن وجدا معاً في صعيد واحد، فشعر الفقراء وقتئذ بفقرهم. على أن نظام الإعانات الحكومية والصدقات التي كان السادة يحسنون بها على مواليتهم، والوصايا القيمة التي كان يوصى بها الأثرياء أمثال بلبس الذي أوصى لكل ساكن في رومة بخمسة وعشرين ديناراً، كل هذا قد حال بين الأهلين وبين الفقر المدقع. وكاد نظام الطبقات في رومة أن يصبح شبيهاً بنظيره في الهند الحاضرة فيقسم الأمة أقساماً منفصلة متنافرة، ولكن من كان ذا قدرة من الأهلين كان في وسعه أن يتحرر من الرق، وأن يجمع المال، ويرقى إلى المناصب العالية في خدمة الزعيم. وكان ابن العبد المحرر يتمتع بجميع حقوق الأحرار، وكان في وسع حفيده أن يصبح عضواً في مجلس الشيوخ، بل ان حفيد أحد المحررين قد أصبح امبراطوراً بعد قليل من هذا الوقت الذي نتحدث عنه. وتولى العبيد المحررون في القرن الأول الميلادي كثيراً من المناصب العامة. وكثيراً ما كان يعهد إليهم الإشراف على أموال الإمبراطورية في الولايات، وعلى عمليات المياه في رومة، وعلى مناجم الامبراطور، ومقالع أحجاره وضياعه، وعلى تموين معسكرات الجيش. وكان المحررون أو العبيد، وكلهم تقريباً من اليونان أو السوريين، يديرون شؤون القصور الإمبراطورية، ويتولون أخط والمناصب في مجالس الدولة. وتحولت الصناعات والتجارة الصغرى شيئاً فشيئاً إلى أيدي المحررين، وأصبح الكثيرون منهم على مر الأيام من أصحاب رؤوس الأموال وملاك الأراضي؛ وقلما كان ماضيهم يتيح لهم الفرص لرفع مستواهم الخلفي أو يسمو بأغراضهم وأسباب اهتمامهم، فلما أن حرروا أصبح المال شغلهم الشاغل فلم يكونوا يتورعون عن سلوك أي سبيل توصلهم إليه، أو يراعون في إنفاقه وازعاً

من ضمير أو ذوق سليم. وقد ندد بهم بترونيوس Petronius أشنع تنديد في تريمليكو، وسخر سنكا، وان يكن أقل من بترونيوس حدة، بالأثرياء المحدثين الذين يبتاعون مجاميع مزينة من الكتب ولكنهم لا يقرأونها أبداً(54). وأكبر الظن ان بعض هذا الهجاء كان رد فعل مبعثه غيرة طبقة من الناس رأت ان ما كانت تختص به من استغلال الناس والاستمتاع بضروب الترف والملاذ قد أخذ يعتدي عليه هؤلاء المحدثون، ولم يكن في وسعها أن تصفح عن أولئك الذين قاموا بشاركونها في أموالها وسلطانها.

وما من شك في ان ما لقيه المحررون ممن نجح قد بعث بعض السلوى والأمل في نفوس تلك الطبقة التي كانت تقوم بمعظم الأعمال اليدوية في إيطاليا. وقد قدر بلوك Peloch عدد العبيد في رومة حوالي سنة 30 ق. م بما يقرب من 400.00 أي نحو نصف عدد سكانها جميعاً، وقد عددهم في إيطاليا بنحو 1.500.000. وإذا جاز لنا أن نصدق ثرثرة أثينوس فان بعض الرومان كان يمتلك الواحد منهم 20.000 عبد(55). ومن أكبر الشواهد على كثرتهم أن مجلس الشيوخ قد رفض اقتراحاً عرض عليه يرمي إلى إلزام العبيد بأن يلبسوا زياً خاصاً، وكان سبب الرفض خوف المجلس أن يدركوا بذلك كثرة عددهم. وقدر جابينوس نسبة العبيد إلى الأحرار في برجموم Pergamum حوالي سنة 170م بواحد إلى ثلاثة أي 25%، وأكبر الظن ان نسبتهم في المدن الأخرى لم تكن تختلف كثيراً عن هذه النسبة(56). وكان ثمن العبد يختلف من 330 سترس يبتاع بها من يعمل في الضياع، إلى سبعمائة ألف (105.000 ريال أمريكي) التي ابتاع بها ماركس أسكورس Marcus Scaurus دفنيس Daphnis النحوي(57). وكان متوسط ثمن العبد في الوقت الذي نتحدث عنه 4000 سسترس (400ريال)، وكان ثمانون في المائة من العمال في الصناعة وفي تجارة الأشتات من العبيد، كما كانت معظم الأعمال اليدوية والكتابية في المصالح

الحكومية يؤديها "عبيد عوميون" Servi Publici. أما عبيد المنازل فكانوا أنواعاً لا حصر لها، كما كانت مراكزهم وأعمالهم كثيرة متنوعة: كانوا يقومون بخدمة سادتهم، وكانوا صنّاع يدويين، ومعلمين

خصوصيين، وطهاة وحلاقين، وموسيقيين، ونساختين، وأمناء مكاتب، وفنانين، وأطباء، وفلاسفة وخصياناً، وغلماً حساناً أقل ما يقومون به من الأعمال أن يكونوا سقاة، ومقعدين يسلمون سادتهم بأجسادهم المشوهة. وكانت في رومة سوق خاصة يستطيع الإنسان أن يبتاع فيها عبداً أعرج، وأقطع الذراع، أو ذا أعين ثلاث، أو طويلاً مفرطاً في الطول، أو قزماً أو خنثي(58). وكان عبيد المنازل يضربون أحياناً وأحياناً يقتلون، وقد قتل والد نيرون عبيده لأنهم أبوا أن يشربوا من الخمر القدر الذي يرغب فيه(59). ويصف سنكا في فقرة له غاضبة "العذراء الخشبية وغيرها من آلات التعذيب، والجب وغيره من السجون، والنيران التي كانت توقد في الحفر حول أجسام المساجين، والخطاطيف التي كانت تجر بها جثثهم، والأغلال الكثيرة الأنواع، وضروب العقاب المختلفة، واقتلاع الأعضاء وكبي الجباه". ويلوح أن هذه كلها كان يلقاها عبيد المزارع. ويصف جوفنال سيدة كان عبيدها يضربون واحداً بعد واحد أثناء تصفيف شعرها، ويصور أوفد سيدة أخرى تدفع دبابيس الشعر في ذراعي خادمة لها، ولكن هذه القصص يبدو عليها أنها من اختراع الأدباء، ومن واجبتنا أن نعدها من الحقائق التاريخية المقطوع بصحتها.

ونحن معرضون لخطأ المبالغة في قسوة الماضي لنفس السبب الذي يحملنا على المبالغة في جرائم الحاضر وفساد أخلاقه – ذلك بأن ندرة القسوة تجعلها طريفة مستمحة. والحق ان متاعب عبيد البيوت أيام الإمبراطورية قد أخذت تقل شيئاً فشيئاً على أثر قبولهم أعضاء في الأسر التي كانوا يخدمونها، وبالإخلاص المتبادل بينهم وبين سادتهم، وبالعادة الطريفة عادة أن يقوم

السيد بخدمة عبيده في بعض الأعياد، وبما كان يضمه العبد من عم لدائم في خدمة سيده قل ان يكون له نظير في هذه الأيام. ولم يكن العبيد يحرمون من مسرات الحياة العائلية؛ وتدل شواهد قبورهم على انهم لم يكونوا يقلون رحمة وشفقة عن الأحرار. انظر مثلاً إلى ما كتب على قبر واحد من أبنائهم: "لقد أقام والدا يوكوبيون Eucopion هذا الأثر لأبنيهما الذي عاش سنة أشهر وثلاثة أيام؛ كان فيها أظرف الأطفال وأكثرهم إدخالاً للسرور على قلوب من حولهم؛ ولقد كان أكبر أسباب سعادتنا وان لم

يكن قادراً على الكلام". وثمة شواهد أخرى تدل على ما كان بين السادة والعبد من حب وعطف. من ذلك أن أحد الأسياد يجهر بأن خادمه الميت كان عزيزاً عليه كولده، وأن أحد الشبان النبلاء يبدي حزنه الشديد على موت مربيته، وأن مربية أخرى تظهر حزنها لموت طفل ترعاه، وأن سيدة متعلمة أقامت نصباً تذكاريّاً جميلاً لأمين مكتبتها. وقد كتب استاتيوس Statius قصيدة إلى فلافيوس أورسس Flavius Ursus يعزّيه في موت عبد عزيز عليه". ولم يكن من غير المعتاد أن يخاطر عبد بحياته لحماية سيده، ومنم كثيرون صاحبوا سادتهم في مفاهيم طائعين مختارين، ومنهم من ضحوا بحياتهم من أجل سادتهم. ومن النساء من حررن عبيدهن وتزوجنهم، ومن الرجال من كانوا يعاملونهم معاملة الأصدقاء، وكان سنكا يأكل معهم. وقد كان للأخلاق الرقيقة، والحس المرهف، وعدم وجود فارق في اللون بين السيد والعبد، والمبادئ الفلسفة الرواقية، وللعقائد الدينية التي جاءت من بلاد الشرق والتي لم تكن تعرف الفروق بين الطبقات، كان لهذه كلها نصيب في تقليل الرق وتحسين حال الأرقاء؛ ولكن العوامل الأساسية في هذه القلة وذلك التحسين كانت هي المزايا الاقتصادية التي تعود على السيد، وارتفاع ثمن العبيد. وكان كثيرون من العبيد ينالون احترام سادتهم لثقافتهم الراقية، فقد كان منهم مختزلون لخطبهم، ومساعدون لهم في بحوثهم، وأمناء لهم في شئونهم المالية،

صفحة رقم : 3480

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة العاملة - الطبقات

ومدبرون لأعمالهم؛ وكان منهم فنانون، وأطباء، ونحاة، وفلاسفة. وكان في مقدور العبد في كثير من الأحوال أن يتجر لحسابه الخاص، وأن يعطي جزءاً من مكاسبه لمالكه، وأن يحتفظ بما بقي منها لتكون "ماله القليل Peculium"، أي ملكاً خاصاً له. وكان في وسع العبد بهذه المكاسب، أو بأمانته وإخلاصه في خدمة سيده، أو بالقيام له بخدمة غير عادية، أو بجمال خلقه، أن ينال حريته عادة في ست سنين (66).

وقد تجسّن أحوال العمال وأحوال العبيد أنفسهم بعض التحسن بفضل منظمات العمال Collegia. ونحن نستمتع قبيل هذا الوقت الذي نتحدث عنه بوجود عدد كبير من هذه المنظمات وبتخصصها إلى حد يدعو إلى الفخر، فكانت هناك هيئات خاصة بالمداخين، والنافخين في الأبواق، والقرون، والناي،

والمزمار، وغيرها من الآلات؛ وكانت هذه المنظمات تنشأ عادة على مثال الهيئات البلدية، فكان يقوم عليها عدد من الرؤساء ذوي الرتب المتدرجة؛ وكان لها إله واحد أو آلهة متعدون تقيم له أو لهم معبداً وعيداً سنوياً. وكانت تعمل ما تعمله المدن فتطلب إلى ذوي المال أو ذواته رعايتها، والأخذ بناصرها، ومساعدة أعضائها في رحلاتهم، وإقامة قاعات اجتماعهم ومعابدهم. وكانوا يجدون هذه المساعدة على الدوام. ونحن نخطئ إذا ظننا أن هذه المنظمات كانت شبيهة باتحادات العمال في هذه الأيام. وخير ما نتصورها به هو أن نقول إنها كانت أشبه بالهيئات الأخوية، ذات العدد الذي لا يحصى من المناصب، وألقاب الشرف، وضروب اللهو، والرحلات، والمعاونات المتبادلة البسيطة. وكثيراً ما كان الأغنياء يساعدون على قيام هذه المنظمات ولا ينسونها في وصاياهم. وكان رجال المنظمة كلهم "إخوة" كما كان نساؤهم "أخوات". وكان في مقدور العبد في بعضها أن يجلس أمام مائدة الطعام، أو في مجلس إدارتها، مع الرجل الحر. وكان كل "عضو ذي مقام" يضمن لنفسه جنازة طيبة.

صفحة رقم : 3481

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة العاملة - الطبقات

وقد وجد الزعماء الشعبيون على اختلاف طبقاتهم في آخر قرن من حياة الجمهورية أن في وسعهم أن يقنعوا هذه المنظمات بأن يقترح أفرادها على بكرة أبيهم للمرشح الذي يقدم لها المال. وبهذه الطريقة أصبحت أدوات سياسية في أيدي الأشراف، وأصحاب المال، والمتطرفين من السياسيين، وكان لتنافسها في الفساد أكبر الأثر في القضاء على الديمقراطية الرومانية. وقد حرم قيصر وجودها ولكنها بقيت رغم هذا التحريم، وحلها أغسطس كلها إلا عدداً قليلاً من المنظمات النافعة، وعاد تراجان فحرم وجودها، ثم سمح أورليوس بوجودها، وما من شك في أنها ظلت قائمة طوال هذه العهود كلها داخل نطاق القانون أو خارجه عنه، ثم امست في آخر الأمر مسالك دخلت منها المسيحية إلى البلاد وتغلغت في حياة رومة.

صفحة رقم : 3482

الفصل الثامن

النظام الاقتصادي والدولة

ترى إلى أي حد حاولت الحكومة في عهد الإمبراطورية أن تسيطر على الحياة الاقتصادية؟ لقد حاولت أن تعيد ملكية الأرض إلى الفلاحين، ولكنها عجزت عن ذلك إلى حد كبير. ولقد كان الأباطرة في هذه الناحية أكثر استنارة من مجلس الشيوخ لأن هذا المجلس كان خاضعاً لسيطرة أصحاب الضياع الكبيرة. وأراد دومتيان أن يشجع زراعة الحبوب في إيطاليا ولكنه لم يفلح فيما كان يرمي إليه، ولهذا كانت إيطاليا على الدوام تخشى الهلاك جوعاً. وأرغم فسبازيان مجلس الشيوخ على أن يرضى به إمبراطوراً بسيطرته على مصر وكانت وقتئذ مصدر القمح الذي تحتاجه إيطاليا، وأراد سبتموس أن يحذو حذوه باستيلائه على شمالي أفريقية. وكان على الدولة ان تضمن استيراد الحبوب إلى إيطاليا وتوزيعها، وقد اضطرها هذا إلى أن تشرف بنفسها على الاستيراد والتوزيع. وكانت تمنح بعض الامتيازات للتجار الذين يستوردون الحبوب إلى إيطاليا وقد ضمن لهم كلوديوس أن يعرضهم مما عساهم أن يتعرضوا له من الخسارة؛ وأعطى نيرون سفنهم من ضريبة الأملاك، وكان تأخر سفن أسطول الحبوب عن الوصول في مواعدها أو تحطمها هو السبب الوحيد الذي يدفع الشعب الروماني إلى شق عصا الطاعة.

وكانت السياسة الاقتصادية الرومانية تسير على مبدأ التخلي *Laissez faire* مع استثناء امتلاك الدولة للمناجم ومقالع الأحجار، ومصايد السمك، ورواسب الملح، ومساحات واسعة من الأرض المنزرعة (86). وكانت الفيالق الرومانية تصنع الأجر والقرميد اللازمين لمبانيها، وكثيراً ما كانا

يستعملان في المنشآت العامة وخاصة في المستعمرات، والراجح أن صناعة الأسلحة وعدد الحرب كانت وفقاً على دور الصناعة التي تمتلكها الدولة، وليس ببعيد أنه قد وجدت في القرن الأول مصانع تمتلكها الحكومة كالتالي نسمع عنها في القرن الثالث (70). وكانت الأعمال العامة تعطي في العادة للمقاولين تراقبهم الحكومة مراقبة بلغت من الدقة حداً اضطرتهم إلى القيام بها عادة على الوجه الأكمل، وبأقل ما يستطيع من الارتشاء والفساد (70). ثم أصبحت هذه الأعمال حوالى سنة 80 م يقوم بعدد متزايد منها المحررون من عبيد الإمبراطور، ويعمل فيها عبيد الحكومة، ويلوح أن الغرض الوحيد من إقامة هذه المشروعات في جميع الأوقات هو تخفيف حدة التعطل (71). وكانت ترفض على التجارة ضريبة يسيرة مقدارها 1% من ثمن المبيعات، ورسوم جمركية قليلة، وعوائد في بعض الأحيان على مرور البضائع فوق الجسور واجتيازها المدن. وكان الإديليون Aediles يراقبون تجارة الأشتات وفق نظام بلغ الغاية في الجودة، ولكننا إذا جاز لنا أن نصدق ما ورد على لسان شخص حانق في بترونيوس فإنهم لم يكونوا خيراً من أمثالهم من الموظفين في غير ذلك الوقت؛ " فقد كانوا يقبلوا الرشوة من الخبازين وأمثالهم من السفلة... وأفواه الرأسماليين مفتوحة على الدوام " (72) وكانت الشؤون المالية تتأثر بتدخل الحكومة في قيمة العملة، وبمنافسة مالية الدولة للمصاريف، ويلوح أن بيت المال كان يضطلع بأكثر الأعمال المصرفية في الإمبراطورية بأجمعها. فكان يفرض المال بالربا للزراع بضمان محصولاتهم ولسكان المدن بضمان أثاث بيوتهم (73). وكانت الحروب عوناً للتجارة لأنها كانت تفتح لهاموارد وأسواقاً جديدة وسيطرة على الطرق التجارية. من ذلك أن حملة جالس Gallus على بلاد العرب فتحت الطرق إلى بلاد الهند وتغلبت على منافسة العرب والبارثيين. وكان بلني

يشكو أن الحروف تشن كي تجد السيدات الرومانيات ويجد الغنادرة من الشبان مجالاً واسعاً للحصول على القصور(74).

ويجب ألا نبالغ في تقدير ثروة رومة القديمة، ذلك أن مجموع إيرادات الدولة في أيام فسبازيان لم تزد على 1.500.000.000 سسترس (150.000.000 ريال أمريكي)...وهي أقل من خمس ميزانية نيويورك اليوم. ولم تكن الوسائل التي تمكن الناس من جمع ثروات طائلة بطريق الإنتاج الكبير معروفة في ذلك الوقت أو أنها لم تكن يُعنى بها، ولم تكن قد نشأت وقتئذ صناعة العالم الحديث وتجارته اللتان يمكن أن تفرض عليهما الضرائب العالية. ولم تكن الحكومة الرومانية تنفق على الأسطول الحربي إلا القليل من المال، ولم تكن تنفق شيئاً على خدمة الدين العام، فقد كانت تعيش على مواردها لا على ديونها. وإذ كانت معظم الصناعات منزلية فإن منتجاتها كانت تنتقل إلى المستهلك دون أن يعترضها من الوسطاء والضرائب ما يعترضها في هذه الأيام، فقد كان الناس ينتجون للبيئة التي يعيشون فيها أكثر مما ينتجون للسوق العامة، وكانوا يعملون لأنفسهم أكثر مما يعمل اليوم، ولغيرهم ممن لا يرونهم أقل مما نعمل نحن. وكانوا يستخدمون أجسامهم أكثر منا، ويعملون زمناً أطول منا، وكانوا في عملهم أقل منا حدة وانكباباً على العمل، ولم يكونوا يشعرون بأنهم محرومون من آلاف الكماليات التي لا تتراءى لهم في احلامهم، ولم يكن في مقدورهم أن يشرعوا في اقتناء الثروة التي تضارع ثروتنا نحن في السنين العجاف؛ ولكنهم كانوا يستمتعون بقدر من الرخاء لم تعرف أمم البحر الأبيض المتوسط نظيراً له من قبل ونستطيع أن نقول بوجه عام إنها لم تر ما يماثله بعد. وملاك القول أن العالم القديم وصل في تلك الأيام إلى أعلى درجات عظمته المادية.

الفصل الأول

ما تدين به لليونان

لم يكن الرومان بطبعهم شعباً فنياً، فقد كانوا قبل أغسطس محاربين وكانوا بعده حكاماً، يرون أن استقرار النظام واستتباب الأمن على أيدي الحكام خير أعظم وواجب أنبل من الخلق والجمال أو الاستمتاع به. وكانوا يبتاعون أعمال الأساتذة الموتى بأعلى الأثمان، ولكنهم كانوا يحتقرون الفنانين الأحياء ويحشرونهم في زمرة الخدم. ومن أقوال سنكا وهو الرجل الرحيم الشفيق: "إننا وإن كنا نعبد التماثيل لنحتقر الذين يصنعونها"، وكان يبدو لهم أن أشرف سبل الحياة سبيل القانون والسياسة؛ أما الفنون البدوية فكان أشرفها لديهم الزراعة (إذا صح أن تعد الزراعة فناً من الفنون). وكان معظم رجال الفن في رومة، إذا استثنينا المهندسين المعماريين، من اليونان الأرقاء أو المحررين أو المستأجرين، وكانوا كلهم يعملون بأيديهم ويعدون من طبقة الصناع، ولم يعن المؤلفون اللاتين قط بذكر أسمائهم أو حوادث حياتهم، ومن أجل هذا يكاد رجال الفن الروماني كلهم أن يكونوا مجهولي الأسماء، فليس ثمة شخصيات حية تصبغ تاريخه صبغة إنسانية أو تضيئها كما يضيء ميرون Myron، وفدياس،

وبركستيلز Praxiteles، وبروتوجنيس Protogenes قصة الفنون الجميلة في بلاد اليونان. ففيه يضطر المؤرخ إلى الحديث عن الأشياء لا عن الأشخاص، وأن يحصي النقود، والآنية، والتماثيل، والنقوش، والصور، والمباني، ويبدل في ذلك جهد اليأس لعله يستطيع بما يبذله من الكد في جمعها أن يصور للقارئ صورة عظمة رومة المليئة بأسباب العظمة. ذلك أن منتجات الفن تستهوي العين أو الأذن، أو اليد، أكثر مما تستهوي العقل، ويذهب جمالها أو يكاد إذا خففته فأحلتها أفكاراً وألفاظاً. وليس عالم التفكير إلا واحداً من عوالم كثيرة لكل فكرة عالمها الخاص، ومن أجل هذا كان لكل فن وسيلته الخاصة التي ينفذ بها إلى النفوس، والتي لا يمكن أن تستحيل ألفاظاً وكلاماً، وحتى الفنان نفسه إذا كتب عن الفن فإنه يعجز عن تصويره.

وثمة سحابة قائمة مشثومة تغطي سماء الفن الروماني خاصة: تلك هي أننا نصل إليه عن طريق الفن اليوناني الذي يبدو في أول الأمر أنه المثل الذي احتذاه، والمرشد الذي اهتدى بهديه. وكما أن مشاعرنا تضرب لما نشاهده في فن الهند من صور وأشكال غريبة، فكذلك تخمد جذوة عواطفنا لما في الفن الروماني من تكرار ممل للصور والأشكال المألوفة، ولقد تحدثنا من قبل عن الأعمدة والتيجان الدورية والأيونية والكورنثية، كما تحدثنا عن النقوش الملساء التي اتخذت مثلاً أعلى يحتذى؛ وقد كانت التماثيل النصفية للشعراء والحكام والآلهة، والمظلمات المدهشة التي كشفت عنها آثار بمبي منقولة كما يقول لنا المختصون عن أصول يونانية. ولم يكن هناك فن روماني الأصل سوى الطراز "المركب"، وهو الذي ننفر منه لتعارضه مع فكرتنا عن الوحدة والبساطة والتقييد التي ألفناها في الفن القديم. وما من شك في أن فن رومة في عصر أغسطس كان فناً يونانياً بقضه وقضيضه، فقد انتقلت أشكال الجمال وطرائقه ومثله العليا من بلاد اليونان إلى الفن الروماني عن طريق صقلية وإيطاليا اليونانية، وعن طريق كمانيا وإتروريا،

وأخيراً من بلاد اليونان نفسها والإسكندرية والشرق المصطبغ بالصبغة اليونانية؛ ولما أن أصبحت رومة سيدة بلاد البحر الأبيض المتوسط أقبل الفنانون اليونان إلى مركز الثروة والرعاية الجديد وأخرجوا صوراً لا حصر لها من روائع الفن اليوناني للهيكل والقصور والميادين الرومانية، وكان كل فاتح يحمل معه إلى بلاده نماذج من هذه الروائع، وكل موظف كبير ينقب في المدائن عما كان باقياً فيها من كنوز الصناعة اليونانية؛ حتى أصبحت إيطاليا على مر الأيام متحفاً للرسوم والتماثيل المشتراة أو المسروقة التي صارت النسق الذي يحتضيه الفن الرماني مدى قرن كامل. وقصارى القول أن رومة قد ابتلعها العالم المتأغرق من الناحية الفنية.

على أن هذا كله ليس إلا نصف الحقيقة. أما النصف الآخر فهو أن تاريخ الفن الروماني، كما سنرى فيما بعد، كان من ناحية نزاعاً بين العقود والعوارض المركبة على الأعمدة، ومن الناحية الأخرى نزاعاً بين الفن الواقعي الإيطالي الأصل الذي يحاول أن يسترد ما فقدته لما أن غزا شبه الجزيرة الفن اليوناني الذي كان يصور الآلهة لا الناس، وبين الطراز الأفلاطوني والفكرة الأفلاطونية المجردة لا الفرد الأرضي الدنيوي الذي كان يسعى إلى تمثيل الكمال النبيل في الشكل بدل الحقيقة في الإدراك والقول. لقد أصابت الفن الروماني القوي الأصيل الذي أعان على نحت الصور على القبور التस्कانية سنة من لنوم بين فتح بلاد اليونان وافتتان نيرون بفنونها؛ ولكنه في آخر الأمر حطم القلب اليوناني الصبغة وأحدث في الفن القديم انقلاباً كاملاً بما أدخله فيه من النحت الواقعي، وبفضل جمالها المستعار، العاصمة الفنية للعالم الغربي، وظلت كذلك ثمانية عشر قرناً من الزمان.

صفحة رقم : 3488

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - رومة الكادحة

الفصل الثاني

رومة الكادحة

كان الرحالة القديم، الذي يطوف برومة في عهد الأسرة الفلاقية، إذا سار صعوداً في نهر التيبير من أستييا متجهاً إلى الشمال، يشاهد من بادئ الأمر سرعة التيار المحمل بالغرين الذي يأتي به من التلال والوديان ويلقيه في البحر. وهذه الحقيقة البسيطة هي منشأ مأساة التحات البطيئة، والصعاب التي تعترض التجارة الصاعدة في النهر والمنحدرة فيه، وانطمار فن التيبير من حين إلى حين، والفيضانات التي كانت في كل ربيع تقريباً تغطي على أرض رومة المستوية، وتقتصر المساكن على الطبقات العليا التي يصل إليها ساكنوها بالقوارب، وتتلف الحبوب المخزونة في الأهراب على أرصفة الميناء؛ فإذا انحسرت المياه جرفت معها المنازل ودمرتها وأهلكت الحرث والنسل(2).

فإذا اقترب الزائر من المدينة استرعى نظره الحي التجاري الذي كان يمتد مدى ألف قدم محاذياً الضفة النهر الشرقية، وكان يعج بضجيج العمال والحوانيت والأسواق والسلع الرائحة والغادية. وكان يقوم من ورائه التل الأفنتي Aventine الذي "استقر عليه" العامة الغضاب حين غادروا رومة مضربين في عامي 494 و449 ق. م. وعلى الضفة النهر اليسرى في هذه البقعة كانت الحدائق التي أوصى بها قيصر للشعب، ومن ورائها الجانكيولم Janiculum. وكان بالقرب من الضفة الشرقية عند جسر إيماليوس الجميل سوق الماشية ومعبداه (القائمان إلى هذا الوقت) المقامان للحظ وإلهة الفجر. وإلى شمال هذه السوق على الضفة اليمنى يظهر تل بلتين وتل كبنتين المليئان بالقصور والهياكل. وقامت على الضفة اليسرى حدائق أجربا ومن

ورائها تل الفاتكان، وإلى شمال وسط المدينة بالقرب من شاطئ البحر الشرقي كانت تمتد الخمائيل الواسعة والمباني الفخمة الجميلة التي يزدان بها ميدان المريخ حيث أقيم ملهى بلبس، وملهى بمبي، وحلبة فلامينوس، وحمامات أجربا، وملعب دومتيان. وهنا كانت الفيالق تتدرب على الحركات العسكرية، ويتبارى المتبارون في الألعاب الرياضية، وتستبق المركبات، ويلعب اللاعبون الكرة(3)،

وتعقد الجمعية جلساتها برياسة الأباطرة لتبحث القرارات التي يتمخض عنها شبح الديمقراطية. فإذا نزل الزائر إلى المدينة عند طرفها الشمالي أبصر بقايا السور الذي يعزى إلى سرفيوس تليوس، وأكبر الظن أن رومة قد أعادت بناءه بعد أن أغار الغاليون عليها في عام 390 ق. م، ولكن الرومان تركوا هذا السور يتهدم اعتماداً على قوة الجيوش الرومانية وعلى مناعة العاصمة. ولم يشيد سور آخر إلا في عهد أورليان (سنة 270 م)، فكان ذلك دليلاً على ذهاب هذه المتعة. وكانت قد فتحت في الجدار أبواب ذات أقواس مفردة أو ثلاثية لتنفذ منها الطرق الكبرى التي سميت بأسمائها. وإذا طاف الزائر بحدود المدينة من شرقيها إلى جنوبيها شاهد حدائق سالت الغناء، ومعسكر الحرس البريتوري المتعب، وعقود مجاري الماء التي أقامها ماركسيوس وأبيوس وكلوديوس، وأبصر عن يمينه التلال البنسيانية والكويرينالية، والفيمينالية، والاسكويلينية، والكئييلية يتلو بعضها بعضاً. فإذا ما ابتعد عن الأسوار واتجه نحو الشمال الغربي عن طريق أبيوس اجتاو باب كابينا ومر بالسفح الجنوبي من تل بلاتين إلى الشارع الجديد Nova Via، ثم اتجه بعدئذ شمالاً مجتازاً متاهة من العقود والمباني حتى يصل إلى السوق القديمة رأس رومة المفكر وقلبها النابض. وكانت هذه السوق في بادئ الأمر سوقاً حقة للبيع والشراء، طولها ستمائة قدم، وعرضها مئتان؛ أما في الوقت الذي نتحدث عنه (96 م) فكان البائعون قد غادروها إلى الشوارع القريبة منها أو إلى غيرها من الأسواق، ولكن الناس

صفحة رقم : 3490

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - رومة الكادحة

كانوا في الباسلقات المجاورة يبيعون الأسهم في اتحادات الخمارين، ويتعاقدون مع الحكومة، ويدافعون عن أنفسهم في المحاكم، أو يستشيرون المحامين ليرشدوهم إلى أهون السبل للفرار من القانون.

وكانت قد أقيمت حول السوق، كما أقيمت حول وول استريت Wall Street في نيويورك الحديثة، هياكل متواضعة للآلهة، وصروح كبيرة للأعمال المالية، وازدانت بعدد كبير من التماثيل. وكان المارة يجدون من ظلال العمدة المقامة في العمائر العظيمة ما لا يجدونه من ظلال الأشجار القديمة. وظلت

من عام 145 ق. م إلى أيام قيصر مكان انعقاد الجمعيات، فكان في كل طرف من طرفيها منصة للخطباء تسمى المنطح لأن واحداً منها قد زين من قبل بمناطح السفن التي استولى عليها الرومان في أنتيوم عام 338 ق. م. وكان عند طرفها الغربي "الحجر الذهبي" وهو عمود من البرونز المذهب أقامه أغسطس علامة على التقاء عدة طرق قنصلية وعلى بدايتها، وقد نقشت عليه أسماء المدن الكبرى التي توصل إليها هذه الطرق، وبعد كل منها عن رومة. وكان يسير بحذاء جانبه الشمالي الغربي الطريق المقدس Sacra Via الموصل إلى هيكل المشتري وهيكل زحل وعلى تل الكبتول. وإلى شمال هذه السوق يجد الزائر سوقاً أخرى أكبر منها وهي سوق لوليوم Lulium التي أنشأها قيصر ليخفف بها الضغط الواقع على السوق القديمة؛ وكان بالقرب منها أسواق ثانوية أنشئت لأجل أغسطس وفسبازيان، ثم عمّد تراجان بعد قليل من الوقت إلى توسيع أكبر هذه الأسواق وتزيينها. ولم يكن يسع السائح حتى في هذا التجوال السريع إلا أن يحس بما بين أهل المدينة من فوارق جمّة، وبأن كثيراً من الأجناس المختلفة قد حشرت فيها حشراً

صفحة رقم : 3491

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - رومة الكادحة

وأن شوارعها قد شقت فيها على غير نظام موضوع، لذلك كانت عاجزة عن الوفاء بأغراض السكان عجزاً يضايقهم ويسبب لهم أشد المتاعب والآلام. لقد كان عدد قليل من هذه الشوارع يختلف عرضه بين ست عشرة وتسع عشرة قدماً، أما كثرتها فكانت أزقة ملتوية من الطراز الشرقي. ويشكو جوفنال من أن عربات النقل التي تعج بها الشوارع المرصوفة أثناء الليل تجعل لنوم مستحيلاً، وأن الجماهير التي تزدحم بها طرقات المدينة تجعل السير فيها بالنهار أشبه الأشياء بالحرب والكفاح؛ "فهمها أسرعنا سد عليها الطريق جيش لجب من أمامنا، وكتل بشرية كثيفة تدفعنا دفعاً من خلفنا، فمنهم من يضربني بمرفقه، ومنهم من يدفعني بعمود هودج، هذا يسقط على أم رأسي كتلة خشبية، وذاك قارورة خمر؛ ورجلاي يغطيهما الوحل، وتطوئي أرجل ضخمة مقبلة من جميع الجهات. وهذا جندي يطاء أصابع قدمي بمسامير حدائه"⁽⁴⁾. وكانت الشوارع الرئيسية في المدينة مرصوفة بكتل من الحمم البركانية خماسية الأضلاع مثبتة في الأرض بقوة أمكنتها من البقاء في مكانها إلى اليوم. ولم تكن لشوارع

تضاء، ولذلك كان كل من يجرؤ على الخروج من منزله ليلاً يحمل بيده مصباحاً أو يسير خلف عبد يحمل مشعلاً، ولم يكن في كلتا الحالتين بمأمن من اللصوص، وما كان أكثر عددهم في طرقات المدينة المظلمة. وكانت الأبواب تغلق بالأقفال والمفاتيح، والنوافذ تشد بالمزالج ليلاً، وما كان منها في الطابق الأرضي تحميه قضبان من الحديد كالتي تشاهد في أمثالها من نوافذ هذه الأيام. ويضيف جوفنال إلى هذه الأخطار ما كان يلقي على المارة من السوائل والجوامد من نوافذ الطبقات العليا، ويختتم حديثه بقوله إن الأبله وحده هو الذي كان يخرج من بيته للعشاء دون أن يكتب وصيته(5). ولم يكن بالمدينة مركبات عامة تنقل العمال من مساكنهم إلى مقر أعمالهم، ومن أجل ذلك كان معظم السوقة يقيمون في مساكن عامة من الأجر بالقرب من

صفحة رقم : 3492

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - رومة الكادحة

وسط المدينة أو في حجرات خلف حوانيتهم أو في أعلاها. وكان كل مسكن عام يشعل في العادة مربعاً كاملاً من الأرض، ولذلك كان يطلق عليه لفظ إنسولا Insula أو جزيرة. وكان الكثير من هذه المباني يعلو ستة طباق أو سبعة، وكانت ضعيفة البناء ضعفاً جعل الكثير منها ينهار على من فيه ويقضي على حياة مئات منهم. وقد حدد أغسطس ارتفاع واجهات المباني بسبعين قدماً رومانية، ولكن يبدو أن هذا القانون كان يسمح بارتفاع الأجزاء الخلفية منها إلى أكثر من هذا القدر لأن مارتياي يحدثنا عن "بائس مسكين يسكن حجرة عليها يرتقي إليها بمائتي درج"(6). وكان في الطبقات السفلى لكثير من المساكن حوانيت، وكان لبعضها شرفات في الطبقة الثانية، وكان قليل منها يصلها من أعلاها بالمساكن المقابلة لها في الشارع ممرات ذات عقود تحتوي حجرات إضافية تتخذها بعض العامة منازل لهم غير مأمونة. وكانت هذه الجزائر تكاد غص بها الطريق الجديدة النوفافيا Novavia، والكليفس فكتوريا Clives Victoriae (تل النصر)، في أعلى تل البلاتين، وحي الصابورا وهو حي صاخب مليء بالمواخير بين الفمنال Viminal والإسكويلين Esquiline حيث كان يسكن صيادو الأسواق وقصابو مسيلوم Macellum وبائعو السمك من رجال سوق السماكين، وبائعو الماشية أهل سوق البقر، وبائعو الخضر أهل سوق الخضر، وجميع عمال رومة كتبنتها وأهل

الحرف فيها. وكانت أحياء رومة الفقيرة تمتد إلى أطراف السوق العامة الكبرى. وكانت الحوانيت تقوم على جانبي هذه السوق، وكانت تترد فيها أصداء ضجيج العمال ولجاجة المساومين، وكان بائعو الفاكهة، والكتب، والعتور، والطحانون، والصباغون، وتجار الزهور والآلات الحادة والأقفال، والصيدلة، وغيرهم من يقضون حاجات الناس وشهواتهم وأسباب غرورهم وكبريائهم، كان هؤلاء جميعاً يزحمون الشوارع بمظلاتهم وأكواخهم الممتدة فيها. وكان

صفحة رقم : 3493

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة وفنونها -> رومة الكادحة

الحلاقون يمارسون مهنتهم في الهواء الطلق حيث يستطيع الناس جميعاً أن يستمعوا لثرثرتهم. وبلغت حانات الخمر من الكثرة درجة خيل معها إلى مارتياي أن رومة حجرة استقبال واحدة ضخمة (7). وكان أهل كل حرفة ينزعون على التجمع في حي أو شارع واحد وكثيراً ما كان يطلق اسم هذه الحرفة على الحي أو الشارع الذي تستقر فيه. فكان صناع الأحذية ذات السيور (الصنادل) يتجمعون في الفيكس سندلريوس Vicus Sandalarius، وصناع السروج في الفيكس لوراريوس Vicus Lolarius، وصناع الزجاج في الفيكس فتراريوس Vicus Vitriarius، والصياغ في الفيكس مرجرتريوس Vicus Margaritarius.

وفي هذه الحوانيت وأمثالها كان الفنانون الطليان يقومون بأعمالهم لا يستثنى منهم أحد إلا أعظمهم شأناً ممن كانوا يؤجرون على أعمالهم أسخى الأجور، ويحيون حياة الترف والتجوال أمثال أرسلسوس Arcesilaus الذي منحه لوكلس مليون سسترس لكي يصنع تمثالاً للإلهة بلستاس Pelicitas، وزندورس Zenodorus الذي أعطى 400.000 ليقوم تمثالاً ضخماً لعطارد (8). وكان المهندسون المعماريون والمثالون يقدرون كما يقدر الأطباء، والمدرسون، والكيميائيون لأنهم جميعاً يمارسون فنون الأحرار Artes Liberales؛ مع أن الذين يقومون بمعظم الأعمال الفنية في رومة كانوا إما عبيداً أو محررين، وكان بعض من يملكون العبيد يعلمونهم النحت والتصوير وغيرهما من الفنون التي تتطلب الحذق، وكانوا يبيعون ما يخرجونه لهم في إيطاليا وفي خارجها. وكان العمال في هذه الحوانيت منقسمين أقساماً متباينة كل التباين ومنفصلة بعضها عن بعض، فمنهم الإخصائيون في

صنع أية النذور، ومنهم من يصنعون مظلمات الزينة، ومنهم من يقطعون الأعين الزجاجية للتماثيل، ومن الرسامين من كان يصنع النقوش على الطراز العربي أو الأزهار أو المناظر الطبيعية، أو الحيوانات، أو الرجال؛ وكان يحدث أن يعمل عدد من هؤلاء بالتناوب في الصورة الواحدة. وقد برع جماعة من الفنانين

صفحة رقم : 3494

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة وفنونها -> رومة الكادحة

في تزييف التحف الفنية، فكانوا يقلدون ما صنع منها في عصر من العصور القديمة التي يرغب الناس في اقتناء مخلفاتها(9). وكان أهل القرن الأول قبل الميلاد يخدعون بسهولة في هذه المخلفات، لأنهم كغيرهم من الأغنياء المحدثين يميلون إلى تقويم الأشياء حسب أثمانها وندرته، بدل أن يقوموا حسب جمالها ومنافعها. ولما أضحي الثراء من غير المميزات في عهد الإمبراطورية صلحت أدواق الناس وجاء حب الجمال والجودة الحقة إلى آلاف عدة من الأسر بالآنية الرقيقة والتحف الجميلة التي لم يعرف أمثالها في مصر وأرض الجزيرة واليونان إلا عدد قليل من الناس. وكان شأن الفن في الزمن القديم كشأن المنتجات الصناعية في هذه الأيام. نعم إن الناس لم يكونوا ينعمون بالمنتجات الكثيرة النافعة التي تخرجها آلاتنا في هذه الأيام، ولكنهم كان في وسعهم، إذا شاءوا، أن يحيطوا أنفسهم شيئاً فشيئاً بالتحف التي عنى الفنانون أشد العناية بصنعها وصقلها، والتي كانت تهب ما يقتنيها كل ما تهبه الروائع الفنية الجميلة من أسباب السعادة الخفية الهادئة.

صفحة رقم : 3495

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة وفنونها -> بيوت العظماء

لو أن زائراً في ذلك الوقت أراد أن يدرس مساكن الطبقة الوسطى من سكان رومة لوجدها بعيدة عن وسط المدينة على جانبي الطرق الرئيسية المتفرعة منه إلى أطرافها. وكانت جدرانها الخارجية المقامة من الآجر والجبس لا تزال تبنى كما كانت تبنى قبل على النمط البسيط المتين الذي تحتمه ضرورات الأمن وحرارة الجو؛ ولم يكن أهل الطبقة الوسطى من الرومان أسخياء بما عندهم من الفن يضيعونه لكي يتمتع به من يمرون بيوتهم. وقلما كانت البيوت تعلو أكثر من طابقين، وكانت السرايب التي تتخذ لخزن المؤن نادرة، والسقوف تتلأأ عليها قطع القرميد، والنوافذ ذات مصاريع أو ألواح من الزجاج في بعض الأحيان. وكان لمدخل الدار في العادة باب ذو مصراعين يدور كل منهما على عقبين من المعدن، وكانت أرض الدار تصنع من مزيج متماسك من الكلس والحصا والرمل أو من القرميد؛ وكثيراً ما كانت تصنع ن مربعات الفسيفساء، ولم تكن تفرش عليها طنافس. وكانت الحجرات الرئيسية في البيت تجمع حول الردهة الوسطى. وهذا النظام هو الأصل الذي نشأت منه هندسة الأديرة والساحات المربعة المحاطة بالأبنية في مقر المجامع العلمية. وكانت إحدى الحجرات في بيوت الأغنياء من أهل هذه الطبقة تستخدم للاستحمام، وذلك في أحواض شبيهة كل الشبه بما نستخدمه منها الآن. أما الأدوات الصحية فقد بلغت عند الرومان درجة من الرقي لا نظير لها قبل القرن العشرين. فقد كانت أنابيب من الرصاص تحمل الماء من القنوات المائية المبنية ومن الأحواض الرئيسية إلى معظم المباني والمساكن، وكانت الصنابير والمحابس تصنع من البرونز ويشكل بعضها أشكالاً

جميلة. وكانت الأنابيب والميازيب المتخذة من الرصاص تحمل الماء من أسطح المباني؛ ولما كانت الحجرات تدفأ تدفئة صناعية، فإذا أرادوا تدفئتها اتخذوا لذلك مواقد متقلبة يحرقون فيها فحم الخشب. وكان عدد قليل من البيوت، وكثير من منازل الضواحي ذات الحدائق، وقصور الأغنياء والحمامات العامة، كانت هذه كلها تستمتع بمراكز رئيسية للتدفئة ذات أفران يحرق فيها الخشب أو فحمه، وتمد عدداً كبيراً من الحجرات بالهواء الساخن يسير في أنابيب من القرميد أو في ممرات في أرض المنزل وجدرانه .

ثم أضيفت إلى بيوت الأغنياء في أوائل عهد الإمبراطورية متعة جديدة مأخوذة عن اليونان. ذلك أن الأغنياء لحرصهم على أن يهيئوا لأنفسهم مكاناً منعزلاً لا يجدونه في الردهة الوسطى كانوا يبنون خلفها بهواً من غير سقف يغرسون فيه الأشجار والشجيرات، ويزينونه بالتمائيل، ويحيطونه بالأروقة ذات العمد، وينشئون في وسطه فسقية أو بركة للاستحمام. وكانوا يشيدون حول هذا البهو طائفة جديدة من الحجرات: واحدة للطعام، و "بيتاً" للنساء، ومتحفاً لمجموعاتهم الفنية، ومكتبة لكتبهم، وهيكللاً لآلهة بيوتهم. وقد يكون لهم أيضاً حجرات إضافية للنوم، وقباب صغيرة بارزة في الحجرات تتخذ أيضاً مخادع في الليل وترفع منها الأسرة بالنهار. وأما البيوت التي لا يبلغ أصحابها من الثراء مبلغ أصحاب البيوت السابقة فكانوا يستبدلون بذلك البهو الكبير حديقة، وإذا لم يجدوا فيها متسعاً لها وضعوا أصص الأزهار في النوافذ، أو غرسوا الأزهار والشجيرات على أسطح الدور. ويقول سنكا إن بعض الأسطح الكبيرة كان فوقها عرائش كروم وأشجار فاكهة، وأشجار للظل مغروسة

في صناديق ملأى بالطين(12). وكان لعدد غير قليل منها مشامس يعرض فيها أصحابها أجسامهم لأشعة الشمس. ومن الرمان عدد كبير سئموا حياة الضجيج والسرعة في رومة ففروا منها إلى هدوء الريف وسكونه.

وقد نشأ عند الأغنياء والفقراء على السواء ميل شديد إلى الطبيعة يفوق كل ما عرفناه عن هذا الميل عند اليونان. وكان جوفنال يرى أن الأحقق وحده هو الذي يسكن في العاصمة، وفي وسعه أن يبتاع بالأجر الذي يؤديه في عليه مظلمة في رومة، بيتاً جميلاً في بلدة إيطالية هادئة، تحيط به "حديقة أنيقة خليفة بأن يقيم فيها مأدبة لمائة من أتباع فيثاغورس" (13). وكان أغنياء رومة يتركونها في بداية الصيف ليقيموا في بيوت خلوية على سفوح الأبنين أو على سواحل البحر أو البحيرات. وقد ترك لنا بلني الأصغر وصفاً ممتعاً لبيته الريفي في لورنتم على ساحل لاتيوم. ويقول عنه إنه من السعة بالقدر الذي يستريح له، وإن نفقاته لا ترهقه؛ ولكنه بعد أن يستمر في وصفه يخيل إلينا أن في هذا الوصف شيئاً من التواضع، فهو يحدثنا فيه عن مدخل من فوقه نوافذ زجاجية وتعلوه طنف... وبه حجرة جميلة للطعام تعانقها آخر أمواج البحر عناقاً خفيفاً، وتضيؤها نوافذ واسعة تطل على البحر من ثلاث جهات فتحسبه ثلاثة أبحر مختلفة، وبه ردهة كبرى "يمتد بصر من فيها إلى الغابات والجبال"، وحجرتا استقبال ومكتبة على شكل نصف دائرة تستقبل نوافذها الشمس طول النهار"، وحجرة للنوم. وعدة حجرات للخدم. وكان للبيت جناح منفصل عنه يحتوي "حجرة استقبال ظريفة"، وحجرة أخرى للطعام وأربع حجرات صغيرة، وحماماً، وتوابعه وتشمل "حجرة جميلة لخلع الملابس"، وحماماً بارداً، وحماماً فاتراً به ثلاث برك مختلفة حرارتها، وحماماً ساخناً، تسخنها كلها أنابيب من الهواء الحار. وكان في خارج البيت بركة للسباحة، وساحة للعب الكرة، ومخزن، وحديقة متنوعة الغروس، وحجرة خاصة للمطالعة، وردهة للمآدب، وبرج للأرصاد يحتوي على شقتين وحجرة للطعام.

صفحة رقم : 3498

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - بيوت العظماء

ويختتم بلني هذا الوصف بقوله: "والآن حدثوني: ألسنت على حق إذا آثرت هذا الملجأ اللطيف بوقتي وحبوته بعطفي؟" (14).

وإذا كان في مقدور عضو في مجلس الشيوخ أن يكون له هذا المسكن الريفي على شاطئ البحر، ومسكن آخر على بحيرة كومو، فإن في وسعنا أن نتصور ما كان عليه قصر تيبيريوس في ضيعته عند كبرى أو قصر دومتيان عند ألبانجا، دع عنك قصر هدرين الذي أنشأه في تيبور Tipur بعد

قليل من هذا الوقت الذي نتحدث عنه.

وإذا أراد الزائر أن يجد مثيلاً لهذا الإسراف فما عليه إلا أن يتخذ سبيله إلى قصور الأثرياء والباطرة على تل البلاتين. ولم يكن الرومان يحرصون في هندسة منازلهم على محاكاة هندسة بلاد اليونان القديمة حيث كانت البيوت المتواضعة وحيث لم يكن يوجد من الأبنية الفخمة إلا القصور، بل شادوا قصورهم على نمط قصور الملوك الذين كانوا يحكمون البلاد المصطبغة بالصبغة اليونانية، والذين تأثروا أشد التأثر بالعادات والأنماط الشرقية. فقد جاءت أنماط البطالمة إلى رومة مع ذهب كليوباترة، ورافقت هندسة البناء الملكية أساليب الملوك السياسية. وقد اتسع فصر أغسطس الذي سمي باسم التل المقام فوقه بما أضيف إليه من الملحقات حين تضاعفت الشؤون الإدارية الخاصة بالقصر الإمبراطوري. وشاد معظم خلفائه قصوراً إضافية لهم ولموظفيهم، فشاد تيبيريوس قصره المسمى دومس تيبيريانا Tiberiana Domus وكليولا قصره المعروف باسم دومس جيانا Domus Giana وشاد نيرون دومس أوريا Domus Aurea أي القصر الذهبي. وأضحى هذا القصر الذهبي أعجوبة الأعاجيب في رومة، فقد أقيمت مبانيه وحدها على مساحة قدرها تسعمائة ألف قدم مربعة، ولم تكن هذه إلا جزءاً صغيراً من القصر الذي انتشر من تل البلاتين إلى التلال المجاورة له. وكان يحيط به بستان عظيم يشمل حدائق وحمائل وبركاً للسماك. ومسارح

لحيوان الصيد، وأبراجاً للطير وكروماً، ومجاري مائية، وعيوناً فوارية، ومساقط مائية، وبحيرات وسفائن إمبراطورية، وبيوتاً للهو، ومصايف، ومشاتل لتربية الأزهار، وأروقة ذات عمد يبلغ طولها ثلاثة آلاف قدم. وقد حفر أحد الفكهين على جدار من جدران هذا القصر هذه العبارة العظيمة الدلالة: "لقد أصبحت رومة كلها مسكن رجل واحد، وأن أن تهاجروا أيها المواطنون إلى فياي-إلا إذا كانت فياي نفسها سيحتويها بيت نيرون" (15). أما داخل القصر فكان يتلأأ فيه الرخام والبرونز والذهب فضلاً عن المعادن المذهبة التي تغطي تيجان العمدة الكورنثية، ومعها آلاف التماثيل والنقوش البارزة، والرسوم الملونة، وروائع الفن التي جيء بها من أنحاء العالم القديم أو نهبت منها نهباً، ومنها

اللاؤكون Laocoon. وكانت بعض الجدران مرصعة باللؤلؤ وغيره من الجواهر الغالية، وكان سقف حجرة المآدب مغطى بأزهار من العاج، يسقط منها بإشارة من الإمبراطور رشاش من العطر على الضيوف. وكان لحجرة الطعام سقف كروي من العاج، منقوش بحيث يمثل السماء والنجوم، تحركه حركة بطيئة دائمة آلات مخفية عن الأبصار. وكانت بالقصر طائفة من الحجرات بها حمامات حارة وأخرى باردة أو فاترة المياه، وحمامات ذات مياه بحرية وأخرى كبريتية. ولما كاد المهندسان الرومانيان سلر Celer وسفيرس Severus يفرغان من تشييد هذا الصرح العظيم ودخله نيرون قال: "لقد سكنت آخر الأمر". وبعد جيل من ذلك الوقت أهمل هذا القصر العظيم الذي يحاكي قصور فرساي في العصر الحديث لكثرة ما يتطلبه الاحتفاظ به من النفقات، وما يتعرض له من الأخطار، وما يحيط به من الفقر، وشاد فسبازيان على أنقاضه الكلوسيوم كما شاد عليها تيتس وتراجان حماماتهما الضخام.

وشارك دومتيان نيرون في جنون البناء، فقد شاد له ربربوس Rabirius قصره المعروف ببيت فلافيا Flavia Domus. ولم يبلغ هذا البيت

صفحة رقم : 3500

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة وفنونها -> بيوت العظماء

من الضخامة مبلغ متحف نيرون، ولكنه لم يكن ينقص عنه في الروعة والزينة. وكان في جناح واحد منه باسلقا واسعة الأرجاء، ولعلها هي البهو الذي كان الإمبراطور ينظر فيه القضايا التي تستأنف إليه في مرحلتها الأخيرة. وكان هذا الجناح نفسه يضم رواقاً سعته ثلاثون ألف قدم مربعة، تجاوره حجرة للمآدب أرضها من الرخام البرفيرى الأحمر والحجر الملوي الأخضر الذي لم يقو الزمان حتى الآن على إبادته فيما أباد من الستائر الرخامية الرقيقة والنوافذ ذات العمدة الجميلة التي كان المدعوون بعد فراغهم من الطعام يشاهدون من خلالها الماء يسقط في الأحواض الرخامية من الفوارات القائمة في خارجها. وجدير بنا أن ننبه القارئ إلى أن دومتيان لم يكن يستخدم هذا القصر إلا في الحفلات وفي الأعمال الإدارية، أما مسكنه فكان في قصر أغسطس الذي يقل عن هذا القصر ضخامة وفخامة. وما من شك في أن هذه الصروح الملكية كانت جزءاً من المظاهر الخارجية للإمبراطورية الرومانية،

قصد بها أن تلقي الروح في قلوب الأهلين والزائرين والسفراء، أما الأباطرة أنفسهم -مع جواز استثناء كلجيولا ونيرون- فكانوا يضيّقون ذرعاً بالمراسم التي تجري في قاعات الحفلات، فيفرون منها إلى الدعة والألفة في مساكن أسرهم، حيث يستمتعون "بلذة كونهم رجالاً" على حد قول أنطونينس بيوس .Antoninus Pius

صفحة رقم : 3501

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة وفنونها -> الفنون والنقوش

الفصل الرابع

الفنون والنقوش

وكانت مئات الفنون تستخدم في هذه القصور وفي بيوت الأغنياء لتجعل كل شيء فيها عظيم النفقة إن فاتها أن تجعله جميلاً. فقد كانت أرضها في الغالب من الرخام المتعدد الألوان، أو الفسيفساء الذي عني فيه صانعه بجمع المكعبات الصغيرة الكثيرة الألوان Cesserae، وبذلوا في ذلك الكثير من الجهد والوقت، فأخرجوا منها رسوماً مذهشة في واقعيتها وثباتها. وكان أثاث هذه القصور أقل عدداً من أثاث بيوتنا وأقل منه مجلبة للراحة، ولكنه يفوق في فخامة نقشه ودقة صنعه. فكانت المناضد، والكراسي، والمقاعد، والمضاجع، والأسرة، والمصابيح، والأواني، كلها تصنع من المواد المتينة، كما كانت كثيرة الزينة. وكانت خير أنواع الخشب، والعاج، والرخام، والبرونز، والفضة، والذهب تخرط وتصقل بمنتهى الدقة والعناية، وتنقش عليها صور لأنواع النبات والحيوان، أو ترصع بالعاج، والفيروز، والصدف، والبرونز المنقوش، أو الحجارة الكريمة. وكانت المناضد تصنع أحياناً من خشب السرو أو الليمون الغالي، وكان بعضها يصنع من الذهب أو الفضة، والكثير منها يصنع من الرخام أو البرونز. أما المقاعد فكانت على أشكال لا حصر لها، منها مقاعد تطوى إلى عروش

للأباطرة ولكنها كانت أقل تشويهاً للعمود الفقري من مقاعد هذه الأيام. وكانت الأسرة تتخذ من الخشب أو المعدن، وكانت ذات أرجل رفيعة ولكنها ثابتة متينة تنتهي في كثير من الأحيان برؤوس الحيوانات أو أقدامها، وكانت عليها شبكة برونزية تحمل حشية القش أو الصوف بدل الشبكات اللولبية التي تستخدم في هذه الأيام. وكانت ضد رشيقة ذات ثلاثة أرجل تستخدم في

صفحة رقم : 3502

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة وفنونها -> الفنون والنقوش

الأغراض التي تستخدم فيها نضدنا، وكانوا يضعون في أماكن مختلفة من الحجرات خزانات ذات عيون لتوضع فيها الكتب الملفوفة. وكانت مواقد من البرونز تدفئ الحجرات، ومصابيح من البرونز تضيئوها. وكانت المرايا تصنع أيضاً من البرونز، وتصل صقلاً جيداً، وتنقش عليها أو تحفر فيها أزهار أو صور خرافية. وكان بعضها محدباً أو مقعراً أفقياً أو رأسياً لكي يغير من الصور المعكوسة عليها فيجعلها رقيقة أو ضخمة تثير الضحك.

وكانت مصانع كمبانيا تستخدم منتجات المناجم الأسبانية الفنية فتصنع الكثير من الأنية الفضية لتباع في الأسواق، وبذلك انتشرت صحاف الطعام الفضية في بيوت الطبقتين الوسطى والعليا. وقد عثر أحد الحفارين في عام 1895 في حوض لبيت ريفي في بسكوريل Boscoreale على مجموعة عجيبية من الأنية الفضية لعل مالكةا قد وضعها فيه قبل أن ينجو بحياته من نيران بركان ويزوف حين ثار في عام 79 م، ووجدت على أحد الأقداح نقوش لا يكاد يمسهها أذى لأوراق نباتية بسيطة، ووجد على قدحين صورة هيكلين عظيمين بارزين، وعلى إناء آخر صورة أغسطس بين الزهرة والمريخ وهما الإله والآلهة اللذان يتنازعان فيما بينهما السيطرة على الجنس البشري، ومنها قدح يدل على شدة الخبث والدهاء وعليه نقش يمثل زينون الفيلسوف الرواقي يشير في سخرية إلى أبيقور وهو يلتهم قطعة كبيرة من الفطائر، وإلى جانبه خنزير رافع ساقه الأمامية يسأله في أدب جم أن يعطيه قطعة منها.

ويدل على ما وجد من النقود والجواهر في عصر الإمبراطورية الأول على ما وصل إليه فن الحفر من رقي. ويدل على ما وجد منها من عصر أغسطس على نفس الذوق الجميل الذي تدل عليه الرسوم

التي يشاهدها الإنسان على مذبح السلام كما يحتوي أحياناً على نفس هذه الرسوم. وكانت الأحجار الكريمة المستوردة من أفريقية وبلاد العرب والهند تقطع وتركب في الخواتم،

صفحة رقم : 3503

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة وفنونها -> الفنون والنقوش

ودبابيس الصدور، والعقود، والأساور، والأقداح، بل وفي الجدران أحياناً. وكان لبس خاتم في إصبع واحدة على الأقل من الضرورات الاجتماعية التي لا غنى عنها، وكان من المتطرفين عدد قليل يلبسون خواتم في جميع أصابعهم عدا واحدة منها. وكان الروماني يطبع إمضاءه بخاتمه، ولهذا كان يحرص على أن يكون هذا الخاتم فريداً في رسمه. وكان من بين الفنانين الذين ينالون أعلى الأجر عدد من قاطعي الجواهر أمثال آل دسكوريدس الذين صنعوا خاتم أغسطس. وقد وصل العصر الذهبي في قطع حجر القمو إلى مستوى من الرقي لم يفقه فيه عصر آخر، ولا يزال أجمل ما وجد في العالم من جواهر جوهرة أغسطس Gemma Augusta المحفوظة في فينا. وكان جمع الجواهر والحلي ذات النقوش البارزة هواية أثرياء الرومان-ومنهم بمبي وقيصر وأغسطس. وقد ظل ما في خزائن الأباطرة من جواهر يتكاثر على مر الزمن بما ورثوه منها عن أسلافهم حتى باعه ماركس أورليوس لينفق من ثمنه على حربه ضد الماركوماني. وقد أخذت إنجلترا منصب حافظ الخاتم الأكبر أو الخاص عن منصب حارس الأختام والجواهر الإمبراطورية في أيام الرومان. وفي هذه الأثناء كان خزافو كبوا، وبتيولي، وكومية، وأرتيوم يملأون بيوت الإيطاليين بجميع أنواع الآلية الخزفية. وكان في أرتيوم خوابي للخلط تتسع لعشرة آلاف جالون. وقد ظل ما تصنعه من صحاف الطعام المطلية بقشرة زجاجية حمراء مدى قرن كامل أكثر الصحاف انتشاراً في إيطاليا. ووجدت بعض هذه الصحاف في إيطاليا بأجمعها فلم يكده يخلو منها مكان واحد فيها. وكانت الأختام الحديدية البارزة الحفر تستخدم في طبع كل مزهرية ومصباح وقطعة من القرמיד باسم صانعها، وكان يطبع عليها أحياناً اسما القنصلين الحاكمين دلالة على تاريخ صنعها. هذا هو الحد الذي بلغه علم القدماء بفن الطباعة، وقد تركوه دون أن يرتقوا

به إلى ما فوق هذا القدر، لأن النساخين الأرقاء كانوا يتقاضون أجوراً قليلة (18). وانتقل صناع كومية، ولترنوم، وأكوليا، من صنع الخزف إلى صنع الزجاج الفني الجميل . ومن أشهر أمثلة هذه الأنية الزجاجية مزهرية بورتلاند وأجمل منها "المزهرية الزجاجية الزرقاء" التي عثر عليها في بمبي والتي نقش عليها عيد خمري لباخوس نقشاً جميلاً ينبض بالحياة (19). ويقول بلني واسترابون (20): إن فن صنع الزجاج قد نقل في عهد تيبيريوس من صيدا والإسكندرية إلى رومة، وسرعان ما أخرج فنانونه قنينات صغيرة، وقداحاً وطاسات، وأواني أخرى متعددة الألوان دقيقة الصنع، جميلة المنظر أصبحت في وقت ما مطلب الأثرياء وجامعي الروائع الفنية. وقد عرض في عهد نيرون ستة آلاف سسترس ثمناً لقدمين صغيرين من الزجاج المعروف في هذه الأيام باسم "ميل فيوري Milliefiori أو "الزهرات الألف"، صنعا بصهر عصى زجاجية مختلفة اللون. وكان أعلى من هذين ثمناً مزهريات "مورهيـن" Murrhine التي جيء بها من آسية وأفريقية. وكانت تصنع بوضع خيوط رفيع من الزجاج الأبيض والأرجواني بعضهما بجوار بعض للحصول على الرسم المطلوب،

ثم إشعال النار فيها، أو ترصيع جسم أبيض شفاف بقطع من الزجاج الملون، وقد جاء بمبي بروائع من هذا النوع إلى رومة بعد انتصاره على مثراداتس. واحتفظ أغسطس لنفسه بكأس كليو بطرة

المصنوعة من زجاج مرهين، وإن كان قد صهر صحافها الذهبية. وقد دفع نيرون مليون سسترس ثمناً لقدح من هذا النوع، وكسر بترونيوس قدماً آخر وهو يحتضر حتى لا يقع في يد نيرون. ويمكن القول بوجه عام إن الرومان لم يفقه أحد في صنع الزجاج؛ وقلّ أن يوجد في العالم مجموعات فنية أثنى من مجموعة الأنية الزجاجية الرومانية المحفوظة في المتحف البريطاني وفي متحف العاصمة الفني بنيويورك.

صفحة رقم : 3506

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - النحت

الفصل الخامس

النحت

انتقل فن الخزف إلى النحت عن طريق الصلصال المحروق-من نقوش بارزة، وتمائيل صغيرة، ولعب، ومحاكاة للفاكهة والعنب والسّمك-حتى وصل آخر الأمر إلى تماثيل بالحجم الطبيعي. وقد وجد الشيء الكثير من هذه في خرائب بمبي. وكانت قواصر الهياكل وطفنها تزينها نقوش تمثل سعف النخل ومتقفات وميازيب في صورة رؤوس حيوانات ونقوش بارزة. وكان اليونان يسخرون من هذه الحليات، وقد أصبحت في عهد الإمبراطورية من الطرز العتيقة، ولم يكن أغسطس ممن يحبون أن تزين القصور بالطين محروفاً كان أو غير محروق.

ولعل ذوقه الأتيقي هو الذي سما بفني النقش والنحت حتى بلغا من الروعة في رومة منزلة تضارع ما بلغته أحسن النقوش والتماثيل في البلاد التي امتدت إليها الحضارة اليونانية؛ فقد ظل الفنانون في رومة جيلاً ينحتون الفساقى، وشواهد القبور، والعقود، والمذابح نحتاً تبدو فيه رقة الشعور، ودقة العمل، وروعة الشكل، وهدوؤه، كما يبدو فيه قدر من التشكيل ومراعاة المنظور يرفع النقوش

الرومانية إلى مستوى الآيات الفنية العالمية.

أما النحت فحسبنا أن نقول فيه إن مجلس الشيوخ احتفل بعودة أغسطس إلى رومة في عام 13 ق. م بعد أن أعاد السلام إلى أسبانيا وغالة بأن أمر بإقامة "مذبح السلم الأوغسطية Augustae Ara Pacis" في ميدان المريخ. وهذا المذبح أفخم ما بقي من أعمال النحت في رومة، ولعل شكل مأخوذ عن مذبح برجموم Pergamum، ولعل فكرته مأخوذة عن طنف البارثون المنقوش. وقد أقيم المذبح على مرتفع قليل في مساحة مسورة شيد بعض أسوارها

صفحة رقم : 3507

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - النحت

من المرمر المنقوش. وكل ما بقي ن هذا الهيكل قطع من هذه الأسوار . وتمثل إحداهما تلس Tellus- الأم الأرض-وبين ذراعيها طفلان، وإلى جانبها ينمو الحب والزهر، وعند قدميها ترقد حيوانات وادعة راضية. وتلك هي المبادئ الرئيسية التي قامت عليها إصلاحات أغسطس: عودة السرة إلى أحضان والديها، وعودة الأمة إلى الزراعة، وعودة الإمبراطورية إلى السلم. والرسم الأوسط لا يكاد يفوقه رسم آخر مهما عظم، والحق أن فيما جمعه من الأمومة الناضجة، والجمال الأنثوي، ورقة القلب، ورشاقة الشكل، لكماً ورقة لا ترقى إليهما آلهات البارثون الفخمة العظيمة. "وكان لطنف السور الخارجي بروز سفلي ذو درج مسنفة ، أو منقوش عليها تويجات الفاونيا والخشخاش العريضة، وعناقيد كبيرة من ثمار اللبلاب. وهذه أيضاً نجد لها نظيراً في غير هذه التحفة الفنية. وعلى بروز آخر نقش موكبان يتحركان في اتجاهين متضادين ليلتقيا أمام مذبح آلهة السلام. وفي هذه المجموعات صور هادئة وقورة لعلها صور أغسطس وليفيا والأسرة الإمبراطورية، ومعها عدد من النبلاء والكهنة والعداري الفستية والأطفال. وصور الأطفال واقعية جذابة تستلفت النظر بحياتها وطهرها. ومن بينها طفل رضيع يحبو كأنه لا يجد لذة في هذا الاحتفال، وآخر وهو ولد يفخر بما بلغه من العمر، وطفلة صغيرة بيدها طاقة زهر، وأخرى تؤنّبها أمها على عمل خبيث ومن ذلك الحين بدأ الأطفال يكون لهم شأن متزايد في الفن الإيطالي؛ ولكن فن النحت الروماني لم يصل في

إليه وقتئذ من قدرة على تصوير السجف، والمجموعات الطبيعية القوية المؤثرة، وتنظيم الأضواء والظلال تنظيمًا أوفى على الغية في الإتقان. وقد وجد الإيطاليون في هذا النقش كما وجدوا في شعر فرجيل أكمل وسيلة للدعوة لأنفسهم وإذاعة مجدهم في أنحاء العالم.

وليس ثمة نقوش رومانية تضارع هذه النقوش إلا النقوش المنحوتة على الأقواس التي كانت تقاوم عند دخول القواد الطافرين. وأجمل ما بقي من هذه الأقواس قوس تيتس الذي بدأه فسبازيان وأتمه دومتيان لتخليد ذكرى فتح بيت المقدس، ويمثل أحد هذه النقوش المدينة المحترقة، وأسوارها المهدامة، وأهلها الذين استولى عليهم الرعب، وثروتها التي تنتهبها الفيالق الرومانية. ويمثل نقش آخر تيتس يسير إلى رومة في مركبته بين الجنود، والحيوانات، وكبار الحكام، والكهنة، والأسرى، ومن ورائه ثريبات الهيكل المقدسة وغيرها من غنائم الحرب على اختلاف أنواعها. وقد كان الفنانون الذين حفروا هذه الرسوم جد جريئين في تجاربهم: فقد حفروا صوراً تختلف باختلاف المستويات، ووزعوها على سطوح متفاوتة الارتفاع، ونحتوا خلفية الصورة بحيث تمثل العمق، ولونوا الصورة كلها لتحمل إلى الرائي درجات مختلفة من الاكتناظ والبعد، فوق ما تحمل من المعاني الأخرى. وأما الأعمال التي تمثلها الصورة فلا تظهر كأنها حوادث متفرقة بل تبدو مستعمرة دائمة، كما تبدو في طنف بلاد النهرين ومصر، وكما تبدو فيما بعد على أعمدة الإمبراطورين تراجان وأورليوس؛ وبذلك استطاعت أن تمثل معنى الحركة والحياة على خير وجه. كذلك لم يعمل العرف والمثل الأعلى عملهما في الصورة فيخرجها عن الواقعية ويفرضا عليها ما فرضه الفن الأتيكي على صور "مذبح السلام" اليوناني؛ بل إن أناسه أناس واقعيون من لحم ودم وأقدار نحتوا على سنن التقاليد الإيطالية تقاليد الواقعية والحيوية. ولم يكن موضوعها هو الآلهة المكلمة بل كان هو الأدميين الأحياء.

وهذه الواقعية القوية هي التي تميز فن النحت الروماني. ولولا إخلاص الرومان المتواتر لهذه النزعة المتأصلة في نفوسهم لما أضافوا إلا القليل لعالم الفن. وقد حدث في عام 90 ق. م أن جاء على رومة رجل يوناني من أهل إيطاليا الجنوبية يدعى بستليز Pestiles، وأقام فيها ستين عاماً كاملة، أخرج فيها تحفاً فنية من الفضة والعاج والذهب، وجاء إليها بالمرابا الفضية، وأخرج نسخاً متعددة من روائع الفن اليوناني، وكتب خمسة مجلدات عن تاريخ الفن. فكان بذلك فساري وسليبي زمانه في آن واحد. كذلك قدم يوناني آخر يدعى أرسلس لقيصر تمثالاً ذائع الصيت لفينوس جنتر كس. ونحت أبولونيوس الأثيني تمثال الترسو بلفدير Torso Belvedere في الفاتيكان، وهو تمثال خلت فكرته من الغلو، فليس فيه عضلات بارزة، بل يمثل رجلاً في كمال القوة وصحة الجسم، ولعل نحته في رومة نفسها. وكل ما نستطيع أن نقوله عن هذا التمثال أنه بلغ الكمال على الحد الذي كان ينبغي صاحبه أن يمثله فيه. وقد ظلت مناحات الفنانين وقتاً ما تعمل جاهدة في إعطاء الآلهة الإيطالية صوراً يونانية، ولم تستثن من ذلك التجريدات القدسية كالفرصة والعفاف. ويغلب على الظن أن جليكون Glycon الأثيني نحت في هذا الوقت نفسه وفي مدينة رومة تمثال هرقل الفرنسي. ولسنا نعرف متى صنع تمثال أبلو بلفدير ولا متى صنع، ولعله صورة رومانية لتمثال أصيل نحته ليوكارس Leochares الأثيني. ويعرف كل طالب علم كيف أثار جماله الهادئ نشوة ونكلمان Winkelmann الأورانية (21). ونحت ليونو في ذلك الوقت تمثالين هما تمثال يونو الفرنسية المنحوت من حجر السماق والمحفوظ في متحف نابلي، وتمثال يونو اللدفيزية المحفوظ في ترم Terme- وهو تمثال فاتر، عابس، ينم عن الاستقامة والعدالة؛ إذا نظر إليه الإنسان بدأ يفهم طواف جوف وتجواله. كانت هذه التماثيل كلها كما كان تمثال برسيوس واندرمدا Perseus and Andromeda الجميل المحفوظ في متحف الكبتول من الطراز اليوناني الذي اتخذ

طرازاً عاماً في النقش ومثلاً أعلى له، وقدس تقديساً يبعث على الأمل والسامة. وأكثر من هذه النقوش إلفاتاً للنظر واسترعاء للانتباه التماثيل النصفية التي هي بمثابة معجم من البرونز والرخام لجميع وجوه الزمان من عهد بمبي إلى عهد قسطنطين. وهذه أيضاً قد اتخذ بعضها مثلاً أعلى وخاصة رأساً يوليوس وكلوديوس، ولكن النزعة الواقعية التيسكانية القديمة ومغيبات الموتى التي لم يكن فيها شيء من المجاملة والملق، والتي لم تكن تغيب قط عن أعين المثاليين، قد جعلت الرومان لا يستكفون قط أن يمثلوا بمعارف قبيحة على شرط أن يظهروا في تماثيلهم أصحاباً أقوياء. وقد أوصى الكثيرون منهم بتماثيلهم للميادين والأماكن العامة، وبلغت هذه التماثيل الموصى بها من الكثرة حداً خيل معه في وقت من الأوقات أن الذين يملكون رومة من الموتى أكثر ممن يملكونها من الأحياء؛ وقد بلغ من حرص بعض الكبراء على أن توضع تماثيلهم في الأماكن أنهم لم يصبروا حتى تنصرم آجالهم، فأقاموا لأنفسهم تماثيل قبل وفاتهم. ودفعت الغيرة الأباطرة إلى تحريم هذه العجلة في التخليد حتى تنتسح رومة للأحياء من أبنائها.

وأعظم التماثيل النصفية الملونة هو التمثال المعروف باسم "رأس قيصر" المصنوع من حجر البازلت والمحفوظ في متحف برلين. ولسنا نعرف من الذي يمثله هذا التمثال النصفية رغم هذه التسمية، ولكن شعره القليل، وذقنه المحدد، ووجهه الرفيع البارز العظام، وما فيه من خطوط عميقة دالة على كثرة القلق والتفكير، والعزيمة المستسلمة للحقائق بعد أن زالت عن الأعين غشاوتها وعن العقول أو هامها، كل هذه تتفق مع صفات قيصر الذي تعزو إليه الرواية هذا التمثال.

ويلي هذا التمثال النصفية في القدر مباشرة التمثال الضخم الذي يمثل رأس قيصر والمحفوظ الآن في نابلي: وفي هذا التمثال تعمقت أخاديد الوجه حتى نمت عن حقد ومرارة، كأن هذا الجبار قد عرف آخر الأمر أن ليس في العالم عقل

بلغ من السعة قدراً يمكنه من فهم العالم دع عنك حكمه. وترى الواقعية التي تصل إلى حد يبعث على الاشمئزاز بادية في تمثال بمبي المقام في ناي كارلسبرج جلوبتوتك Ny Carlsberg Gluptotek بكوبنهاجن Copenhagen: وينطق هذا التمثال بأن صاحبه قد نسي في البداية الكهولة وهزائمها ما ناله بشجاعته من مجد ونصر في عهد الشباب. ولدينا لأغسطس نحو مائة تمثال، كثير منها جيد غاية الجودة، متقن غاية الإتقان: منها تمثال أغسطس الغلام (المحفوظ في الفاتيكان) والذي يبدو فيه صاحبه جاداً ثاقب البصر نبيلاً- وهو أجمل صورة لغلام حقيقي في جميع عصور التاريخ على الإطلاق. ومنها تمثال أغسطس في الثلاثين من عمره (المحفوظ في المتحف البريطاني)- وهو تمثال من البرونز تبدو فيه العزيمة القوية الصادقة، ويذكرنا بقول ستونيوس إن الإمبراطور كان يسعه أن يطفئ نار الفتنة بنظره؛ ومنها تمثال أغسطس القس (في متحف ترم) ذو الوجه الدال على التفكير العميق بارز من السجف المحيطة به من كل جانب؛ وتمثال أغسطس القائد الذي عثر عليه في خرائب قصر ليفيا الريفي في بريما بورتا Prima Porta والمحفوظ في الفاتيكان؛ وقد غطى الدرع البرونزي الذي يحمل صدر هذا التمثال الشهير بنقوش غريبة تربك الناظر وتحوله عن تأمل التمثال نفسه . ووقفة أغسطس كما بصورها هذا التمثال ثابتة قوية، وساقاه أقوى ما تكونان لشخص عليل مثله؛ ولكن الرأس يمثل القوة الهادئة، والثقة بالنفس تكشف عن يد الفنان العظيم ونفسيته. وكانت ليفيا حسنة الحظ إذا سخرت الأقدار فناناً عظيماً لصنع

رأسها المحفوظ في كوبنهاجن. ترى في هذا الرأس الشعر الجميل، والأنف الروماني الأفني الذي ينم عن قوة الخلق، والعينين الدالتين على الحنان والتفكير، والشفتين الجميلتين الدالتين على القوة والثبات.

وتلك هي المرأة التي وقفت وراء عرش أغسطس تدعمه بهدوئها، والتي غلبت جميع منافسيها وأعدائها، وسيطرت على الناس جميعاً عدا ولدها. وكان تيبيريوس هو الآخر رجلاً محفوظاً. ذلك أن تمثاله الجالس المحفوظ في متحف لاتران، وإن نحت على طراز مثل أعلى موضوع، يعد آية فنية أخرجتها يد مثال لا يقل براعة عن المثال الذي نحت من حجر الديوريت تمثال خفرع المحفوظ في المتحف المصري. أما كلوديوس فلم يكن حظه حظ من سبقوه، وما من شك في أن المثال كان يسخر منه، أو أنه كان يمثل الصفات التي وصفه بها سنكا في هجائه المشهور. فقد صورّه في صورة جوبتر المتعب المتضجر، بديناً، ظريفاً، أبكم. وأجهد نيرون نفسه في أن ينمي حاسة الإحساس بالجمال؛ ولكن أعظم ما كان يرغب فيه هو الشهرة والضخامة، ومن أجل هذا لم ير لزودوتس Zenodotus اسكوباس Scopas زمانه شيئاً أفضل من أن يقضي وقته في نحت تمثال له في صورة أبلون يعطو مائة وسبع عشرة قدماً . وأمر هدریان أن يوضع هذا التمثال في صدر المدرج الفلافي، ومن ثم سمي هذا المدرج باسم الكلوسيوم Collosseum لضخامة هذا التمثال(22).

وعاد فن النحت إلى واقعيته في عهد فسبازيان الأمين، فسمح لمتاليه أن يكونوا صادقين في تصويره في صورة السوقي الحق، ذي معارف غليظة خشنة، مغضن الجبهة، أصلع الرأس ضخم الأذنين. وخير من هذا وأكثر منه دلالة على الرحمة التمثال النصفي المحفوظ في ترم Terme، والذي يدل

صفحة رقم : 3513

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - النحت

على نفس شغلتها شؤون الدولة عن نفسها؛ ووجه رجل الأعمال الذي يطل على الناظر إليه من الأس الضخم المحفوظ في متحف نابلي. ويصل إلينا تيتس في جمجمة كالسابقة مكعبة الشكل، ووجه غير جميل. وإن المرء ليصعب عليه أن يعتقد أن هذا الشخص الذي يبدو في تمثاله كأنه من الباعة المتنقلين هو حبيب البشر أجمعين. وقد أوتي دومتیان من بعد النظر في العصر الفلافي ما جعله يعمل على أن يبغضه الشعب في حياته فيحطم جميع تماثيله بعد وفاته.

ولما خرج الفنان من القصر وأخذ يجول في الشوارع استطاع أن يطلق العنان للنزعة الإيطالية الخبيثة، نزعة الحقيقة الفكهة المضحكة. وما من شك في أن شيخاً طاعناً في السن أقل حكمة ومالاً

من الوزير الفيلسوف هو الذي يصوره التمثال الهزيل الكثر الشعر الذي كانوا يقولون عنه من قبل غنه تمثال سنكا. واستطاع الفنانون المشهورون في فترة من الزمن أن يمثلوا عضلات الرياضيين تمثيلاً يخلدها على مدى العصور. وشقت تماثيل المصارعين طريقها إلى أكبر البيوت، سواء كانت بيوت الأثرياء الريفية أو قصور الكبراء في الحواضر. وكان المثالون الرومان رحماء وهم ينحتون تماثيل النساء: فتراهم بين الحين والحين ينحتون تمثالاً لامرأة سليطة حمقاء، ولكنهم صنعوا بالإضافة إلى هذا تماثيل لبعض العذارى الفسقية، ومثلوا وقارهن ورشاقتهن أحسن تمثيل، كما صنعوا في بعض الأحيان تماثيل تتجلى فيها رقة القلب مجسمة كتماثيل الكليتي Clytie المحفوظة في المتحف البريطاني، وأخرى لنساء من الأشراف هشة لينة تسحر اللب سحر دُمى وتو Watteau أو فروجونارد (Fragonard 23). وكانوا جد بارعين في تمثيل الأطفال كما يدل على ذلك تمثال الغلام البرونزي المحفوظ في متحف نيويورك، أو تمثال الطفلة البريئة المحفوظ في متحف الكبتول. وكان في وسعهم أن ينحتوا أو يصبوا تماثيل حيوانات مدهشة في دقتها ووضوح معالمها،

صفحة رقم : 3514

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - النحت

كما نرى ذلك في رؤوس الذئاب التي وجدت في نيمي عام 1929، أو الخيل الواثبة في سانت مارك St. Mark. نعم إنهم لم يبلغوا قط ما بلغته مدرسة بركليز الفنية من كمال وبراعة في الصقل؛ ولكن منشأ هذا النقص أنهم كانوا يحبون الفرد أكثر مما يحبون الطراز، وأنهم كانوا يعتزون بالنقائص الحقيقية التي هي سمة الحياة. وقصارى القول أن هؤلاء الفنانين رغم قصورهم قد سموا إلى أعلى مكانة في تاريخ الفن التصويري.

صفحة رقم : 3515

الفصل السادس

التصوير

لقد كان من يزور رومة في الزمن القديم يجد فن التصوير أكثر انتشاراً من فن النحت في هياكلها ومساكنها، وأروقتها، ذات العمد، وميادينها؛ وكان يعثر فيها على الكثير من أعمال كبار الفنانين الأقدمين أمثال بولجنوتس Polygnotus وزيوكسيس Zeuxis، وأبليز Appeles، وبروتجنيس Protogmese وغيرهم. ولم تكن الأعمال أقل قيمة أو أقل تقديراً في الإمبراطورية الواسعة الثراء من صور عهد النهضة الأوروبية في أمريكا الغنية في هذه الأيام؛ وكان يجد أعمال رسامي الإسكندرية ورومة أعظم وفرة في رومة القديمة من صور النهضة في أمريكا الحديثة وذلك لحسن تعهدها وشدة العناية بحفظها. لقد كان الفن قديماً في إيطاليا حيث كان كل جدار يتطلب الفن، والتجميل. وأتى على إيطاليا حين من الدهر كان نبلاؤها أنفسهم يمارسون هذا الفن، ولكن تيار الحضارة الهلنستية الجارف جعل التصوير يوناني الطابع شديد الخضوع للعرف والتقاليد حتى انتهى الأمر بأن عجب فالريوس مكسمس Valerius Maximus من ان فابيوس بكتور Fabius Pictor ينزل من علائه فيصور على جدرانه "هيكل الصحة" (24). غير أنا نجد حالات شاذة لا ينطبق عليها هذا التعميم: من ذلك أن أريوس Arellius قد ذاع صيته في أواخر عهد الجمهورية لأنه كان يستأجر العاهرات ليكن نماذج لصور الآلهات؛ وحدث في عهد أغسطس أن اشتغل بالتصوير شريف أبكم يدعى كونتس بديوس Pedius Quintus لأن عاهته قد سدت في وجهه جميع سبل الأعمال الأخرى؛ واستخدم نيرون لتزيين بيته الذهبي مصوراً يدعى أمليوس Amulius كان يرسم في وقار جم وهو مرتد جبته (25).

ولكن هؤلاء الرجال كانوا متفرقين في بحر المصورين اليونان الخضم الذين أخذوا يخرجون في رومة وبمبي وسائر أنحاء الجزيرة نسخاً من الرسوم اليونانية مطابقة لها أو مختلفة بعض الشيء عنها، تمثل موضوعات يونانية أو مصرية.

وكاد فن التصوير في رومة أن يكون مقصوراً على المظلمات والألوان المائية الممزوجة بمادة غروية لاصقة توضع فوق سطح جاف. وكان المصورون يلجأون في بعض الأحيان على تثبيت الألوان بالحرارة، وذلك بإذابتها في الشمع الشديد الحرارة. أما من حيث حجم الصور فإننا نذكر أن نيرون أمر بأن ترسم صورته على قطعة من القماش يبلغ ارتفاعها مائة وعشرين قدماً - وهذه الصورة أول ما لدينا من صور استخدم فيها قماش التصوير. وقد سبق القول إن الألوان كانت تستخدم في تلوين التماثيل، والهياكل، والمناظر المسرحية، والصور الكبيرة المرسومة على الأقمشة التيلية لعرضها في السوق العامة في أوقات الاحتفال بالنصر، ولكن مواضعها المحببة كانت هي الجدران الخارجية في المباني. وقلماً كان الرومان يضعون الأثاث مستنداً إلى الجدران أو يعلقون عليها الصور، ذلك أنهم كانوا يفضلون أن يستخدموا الجدار كله ليرسموا عليه صورة واحدة أو مجموعة من الصور المتصلة بعضها ببعض في موضوعها. وبهذه الطريقة أضحت الصورة الجدارية جزءاً متمماً للبيت وعنصراً أساسياً في هندسته المعمارية.

وقد حفظت لنا أبحرة فيزوف الحارقة نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مظلم - وهي يزيد عددها في بمبي وحدها على عدد كل ما وجد منها في سائر أنحاء العالم القديم. وإذ كانت بمبي في أيامها من المدن المتوسطة الحجم غير العظيمة الشأن فإن في وسعنا أن نتصور عدد الرسوم الجدارية التي كانت تزدان بها المنازل والأضرحة في إيطاليا القديمة. وقد نقل أحسن ما بقي من هذه الرسوم إلى متحف نابلي، ولا يزال لجمالها الهادئ رغم انتقالها إلى مكانها الجديد أعظم الأثر في نفس من ينظر إليها؛ ولكن الأقدمين وحدهم هم الذين كانوا يعرفونها في عمق ألوانها وفيما بها من إطار هندسي يجعل لكل صورة من هذه

الصور معنى خاصاً وموضعاً خاصاً. وقد تركت الصور الجدارية التي في بيت فتاي في أماكنها الصلية، فترى في المطعم ديونيشس يفاجئ أدرياني النائمة، وترى على الجدار المقابل لهذه الصورة ديدالس Daedalus يعرض بقرته الخشبية على باسفائي؛ Pasifa) وفي الطرف الأقصى من الجدار ترى هرمس ينظر في هدوء إلى هفيسستس Hephaestus وهو يشد إكسيون Ixion إلى عجلة التعذيب. ونشاهد في حجرة ثانية مظلمات مضحكة متتابعة فيها صور متعددة لكيوبد إله الحب يسخر مما في بمبي من صناعات بما فيها صناعة الخمر في فتاي. وقد عدت عوادي الأيام على هذه الصورة التي كانت من قبل ناضرة براقية، ولكن ما بقي منها يكفي لأن يشعر الزائر بما يجب أن يكون عليه من تواضع وحياء، فصور الأجسام البشرية تكاد تبلغ الغاية في الإتقان والجودة، وتكاد تنبض بالحياة وتثير دم الشهوة في عروق الأحياء من بني الإنسان.

ولقد حاول الخبراء أن يفهموا ماهية فن التصوير في إيطاليا القديمة ويصنفوا عصوره وأنماطه بالاعتماد على ما وجدوه من نماذج له في إيطاليا القديمة. وهذه الطريقة في التصنيف خطيرة غير مأمونة لأن بمبي نفسها كانت يونانية أكثر منها لاتينية؛ ولكن ما بقي في رومة وضواحيها من رسوم قديمة يتفق على حد كبير مع تطور فن التصوير في بمبي. ففي الطراز الأول (القرن الثاني قبل الميلاد) حين كانت الجدران تغطي بقشرة كاملة قبل الرسم عليها، كانت الجدران في أغلب الأحيان تلون بحيث تبدو كأنها مطعمة بألواح من الرخام كما تشاهد في "بيت سلت" في بمبي. وفي الطراز الثاني أو الطراز المعماري (القرن الأول قبل الميلاد) كان الجدار يطلو ليمثل بناء أو واجهة أو بهواً ذا عمد، وكثيراً ما كانت العمد ترسم كما تبدو للناظر إليها من الداخل، وبينها مظاهر الريف الخلوية، وبهذه الطريقة كان الفنان يضيف على الغرفة التي لا نوافذ لها في أغلب الظن محيطاً ذا نسيم عليل من الأشجار والأزهار والحقول، والجدول، والحيوانات الهادئة أو المرححة اللاعبة.

وكان في وسع ساكنها السجين فيها أن يتخيل أنه مقيم في حدائق لوكلس، ولم يكن ذلك ليكلفه أكثر من النظر إلى الجدران كما كان في وسعه أن يصيد السمك، أو يقتنص الحيوان، أو يداعب الطيور ويدلها، ويعتز بها في غير فصولها وأيامها، وذلك لأن الطبيعة كانت تنقل إليه في منزله فلا يتحمل هو مشقة الانتقال إليها. وفي الطراز الثالث أو طراز التحلية (1- 50 م) كانت الأشكال الهندسية المعمارية للزينة لا غير، وكانت تضع المناظر الطبيعية في المنزلة الثانية بعد صور الأدميين. وفي الطراز الرابع المختلط المعقد كان الفنان يترك العنان لخياله يخترع تراكيب وأشكالاً غريبة، ويضعها في مواضعها وهو مرح ساخر مما تتطلبه الحشمة والوقار، ويكس في صورته الحدائق والعمد والبيوت الريفية والجواسق بعضها فوق بعض كنتشويش الرسوم في هذه الأيام(26)؛ وكثيراً ما كان يحصل بهذا على الأثر الذي تحدثه في الناظر صورة تكملها ذكريات لا وعيية سلطت عليها الأضواء. وكان فن العمارة في جميع هذه الطرز المتقاربة إما خاضعاً للتصوير ومسيطرأ عليه يخدمه ويستخدمه، فأنشأ فيه بذلك تقاليد عادت إلى اليقظة بعد ستة عشر قرناً على يدي نقولاس بوسن
Nicholas Poussin.

ومن دواعي الأسف أن ما بقي من موضوعات الرسوم الكبرى قلماً يتعدى الأساطير اليونانية؛ فالآلهة، وجن الحراج، والأبطال، والخاطئون المذنبون - زيوس، والمريخ، وديونيشس، وبن، وأخسيل، وأديسيوس، وإفجينا، وميديا هذه كلها تتكرر تكراراً يبعث على الأمل والسامة، وإن كانت هذه التهمة بعينها يمكن توجيهها إلى فن النهضة. وثمة صور قليلة تمثل الحياة الهادئة الساكنة، كما أننا نعثر في مواضع متفرقة على مطرقة أو صاحب حانة أو قصاب يلتمع فوق جدران بمبي. وكثيراً ما يسيطر الحب على المنظر برمته فترى فتاة مطرقة يتنازعها شوق كمين ليس معدوم الصلة بإيروس إله العشق الواقف إلى جانبها، وترى الفتيات والشبان يمرحون على الكلاً يتبادلون نظرات الوجد والهيام، وأرباب

الخمر والفسق يلعبون كأن المدينة لم تعرف في حياتها شيئاً غير الحب والخمر؛ وإذا ما حكمنا على نساء بمبي من صورهن التي على الجدران كانت هؤلاء النسوة خليقات بأن يكون جمالهن محور الحياة بأجمعها في تلك المدينة، فنحن نراهن منهنمكات في لعبة "الكعاب" أو متكئات في رشاقة على القيثارات، أو نشاهدهن يقرضن الشعر والأقلام بين شفاهن، ودلائل التفكير بادية على ملامحهن، ووجوهن هادئة من أثر النضوج، وأجسامهن سليمة صحيحة كاملة النمو، وأثوابهن مسبلة عليهن، فضفاضة أنيقة كأنها من نحت فدياس، يمشين كأنهن كلهن هلن اليونانية التي سلبت عقل باريس بن بريام، مدركات قداستهن. وترى إحداهن ترقص رقصة باخوسية لعلها في هواء رقيق، وذراعاها ويدها وقدمها اليمنى من أجمل ما رأته العين في تاريخ التصوير. ويحب أن تضم إلى هذه الروائع بعض صور الرجال أيضاً كصورة تسيوس Theseus وهو ينتصر على المونوتور Minotaur وهرقل وهو ينجي ديانيرا Deianira أو يتبنى تلفوس Telephus، وأخيل يسلم وهو غضبان آسف برسيس Briseis المتمنعة الآبية. وكل شكل رسم في هذه الصورة الأخيرة يكاد يبلغ الغاية في الكمال ويصل فيه التصوير البمبائي إلى ذروة الإبداع. وللكاهة أيضاً نصيبها من التصوير؛ فهذا زعيم أشعت يتمر على عكازته، وهذا جني ظريف يهز ساقيه في مرح تهكمي، وهذا سلينس Silenus أصلع بذيء يصور وهو في نشوة موسيقية. وللحانات والمواخير أيضاً مكانها في زينة الجدران، ولا يجد السائح المتقصي حاجة لأن يقال إن بريابس Priapus لا يزال يزهره بقواه الثمينة على جدران بمبي. وفي الطرف الآخر من هذه السلسلة حيث توجد بيوت الضواحي نرى طائفة من الصور الدينية توحى بأن المكان كان يستخدم للاحتفال بالطقوس الديونيشية الخفية؛ ففي أحد المظلمات نشاهد بنتاً أمعنت في تقواها بغير رفق حتى شلت حركتها، تقرأ في كتاب يبدو أنه كتاب

صفحة رقم : 3520

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - التصوير

مقدس؛ وفي مظلم آخر يتقدم موكب من الفتيات ينفخن في الأبواق، ويأتين بالقرايين؛ وفي مظلم ثالث

نرى سيدة عارية ترقص على أصابع قدميها وإلى جوارها راهبة مبتدئة راكعة على ركبتها، منهوكة القوى من شدة ما قاست في أحد الطقوس الدينية(27). وأجمل من هذه كلها نقش جداري عثر عليه في خرائب ستابيا Stabiae من نوع نقوش بتيشلي Botticelli ومتقدم عليها، ويسمي هذا النقش الربيع: وهو يمثل امرأة تمشي في حديقة على مهل تقطف الأزهار، ولا يرى منها إلا ظهرها ورأسها تديره بخفة ورشاقة إلى خلفها؛ وقلمًا استطاع فن من الفنون أن يصور ما في هذا الموضوع السهل من شاعرية تصويراً مؤثراً في النفس مثيراً للعواطف كما صورته هذا الفنان.

وأقوى ما وجد من الصور في هذه الخرائب صورة ميديا التي عثر عليها في هركيلانيم Herculaneum وحفظت في متحف نابلي، وهي تمثل امرأة مطرقة عليها ثياب فاخرة تفكر في مقتل أبنائها؛ ويلوح لنا أن هذه صورة منقولة عن الصور التي أجاز عليها قيصر مصورها تموماكس Timomachus البيزنطي بأربعين ألف وزنة (تالنت) أي 144000 ريال أمريكي(27)؟

ولم يوجد في رومة إلا القليل من الصور التي تبلغ هذه المنزلة، ولكن عثر في بيت ليفيا المقام في بريما بورتا Prima Porta على مثل رائع من صور المناظر الطبيعية التي تسمو فيها إيطاليا على بلاد اليونان، فيه تخدع العين فيظن الإنسان أنه يجتاز بهواً إلى تكعيبية في أرض رخامية من ورائها أجمة من النبات والأزهار بلغت من الإتقان حداً يمكن العالم النباتي في هذه الأيام من أن يتبينها ويصنفها؛ فكل ورقة من أوراقها رسمت بشكلها ولونها الطبيعيين، والطيور تجثم على مواضع متفرقة منها كأنها تحط عليها إلى وقت ما، والديدان تزحف بين الأغصان والأوراق. ويقرب من هذه الصورة في روعتها ورقتها عرس الديرنديتي التي وجدت في التل

الإسكولي في عام 1606 والتي درسها روبن Rubens وفان ديك وجيتة بحماسة بالغة. وقد تكون هذه منقولة عن صورة يونانية، وقد تكون صورة أصلية من عمل رسام يوناني استوطن رومة، أو من عمل روماني أصيل. وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن ما عليها من صور الأشخاص - كصورة العروس الهادئة الحبيبة، والآلهة التي تسديها النصيحة، والأم المنهمكة في الاستعداد للعرس،

والعدارى ينتظرن ليعزفن على القيثارة ويغنين- كل هذه قد رسمت برقة وحساسية ترفعان هذا الرسم الجداري إلى منزلة الآثار الفنية القديمة الممتازة.

على أن فن التصوير الروماني يخلو من عنصر الابتكار، وسبب ذلك أن الفنانين اليونان نقلوا معهم تقاليدهم وأساليبهم إلى كل مكان نزلوا فيه، وحتى النزعة الثائرية الغامضة التي في هذه الصور قد تكون من أثر مهارة الفنانين الاسكندرانيين؛ ولكن فيها مع ذلك دقة في الخطوط، وغازارة في اللون نعرف منهما لم بلغ المصورون أمثال أبليز Apples وبروتوجنيز Protogenes من الشهرة مثل ما بلغه منها المثالون من طراز بولكليتس وبركستليز. واللون في بعض الأحيان واضح غزير كما لو كان جيورجيون Giorgione هو الذي وضعه، كما أن تدرج الأضواء والظلال يوحي في بعض الأحيان أنه من عمل رمبرانت Remebrandt. وترى تارة رسماً خالياً من الدقة يذكر الإنسان بواقعيه فان جونج المنفرة. وفن المنظور في الرسم غير صحيح كما أن السرعة في العمل تقسد نضج التفكير. ولكن ما في الرسوم من حيوية نضرة يغطي على هذه الأغلاط كلها، فتتناسب الثياب يخدع العين، ومناظر الغابات والأشجار كانت بلا ريب من أسباب البهجة لسكان المدن المكتظة بالسكان. ويجب ألا ننظر إلى هذه الرسوم بعين هذه الأيام، فأذواقنا اليوم أقل تحرراً وأكثر تحفظاً من أذواق الأقدمين، ونحن نفضل أن نترك الجدران كما هي مقصورة على وظيفتها، وقد كنا حتى

صفحة رقم : 3522

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - التصوير

الأمس القريب نتردد في أن نغطيها بالألوان. أما الإيطالي فكان الجدار له بمثابة السجن، وقلماً كان يطل منه على العالم من خلال نافذة؛ ولهذا كان يرغب في أن ينسى هذا الحاجز القائم أمام عينيه، وأن يندفع بطريق الفن إلى جنان السلام المخضرة الناضرة. ولعله كان في تفكيره هذا على حق، فإن شجرة مرسومة على جدار الخير من منظر يتألف من ألف قمة من قمم سطوح المنازل الخشنة غير المصقولة التي تشوه جمال السماء كأنها قرح خبيثة في الشمس، ويطل عليها المرء من نافذة مسحورة في جدار.

الفصل السابع

العمارة

1- أصولها، موادها، أشكالها

لقد احتفظنا إلى آخر هذا الباب بأهم ما نستطيع أن نعرضه في رومة على زائرها الذي نسيناه في أثناء حديثنا الطويل عن فني النقش والتصوير. أما وقد وصلنا إلى هذا الفصل الأخير فلنعرض على هذا الزائر أهم الفنون الرومانية على الإطلاق وهو فن العمارة الذي استطاعت به أن تحمي نفسها من غزو اليونان، والذي أظهرت فيه قدرتها على الابتكار وجرأتها وقوتها. على أن الابتكار لا يكون بغير لفاح فهو كالنسب مزيج جديد من عناصر موجودة من قبل؛ والثقافات جميعها انتقائية في حداثة عهدها لأن التعليم يبدأ بالتقليد، فإذا ما بلغت الروح أو الأمة أشدها طبعت بطابعها- إن كان لها طابع- جميع أعمالها وألفاظها. لقد أخذت رومة، كما أخذ غيرها من مدائن البحر الأبيض المتوسط، نظم العمود الدورية والأيونية والكورنثية من مصر وبلاد اليونان، ولكنها أخذت نظام العقود والأقواس والقباب من آسية، ومن مزيجهما أقامت مدينة من القصور، والأروقة ذات العمود، والمدرجات، والحمامات لم ير العالم مثيلاً لها من قبل. ولقد أضحت فن العمارة الروماني هو التعبير الفني عن الروح الرومانية والدولة الرومانية: فهو يمثل الجرأة، والتنظيم، والفخامة، وقد رفعت القوة العضلية هذه الصروح المنقطعة النظير فوق التلال فكانت هي الروح الرومانية ممثلة في الجلاميد الصم.

وكان معظم كبار المهندسين المعماريين في رومة رومانين لا يونان،

صفحة رقم : 3524

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - العمارة - أصولها موادها أشكالها

وقد كتب أحد هؤلاء المهندسين واسمه ماركس فتروقيوس بليو Marcus Vitruvius Pallio كتاباً في العمارة يعد من مهمات الكتب العالمية القديمة في هذا الفن (حوالي 27 ق.م) . ذلك أنه بعد أن قضى فترة من الزمن مهندساً حربياً يعمل تحت إمرة قيصر في أفريقية، ومهندساً معمارياً في عهد أكتافيان، اعتزل العمل الرسمي في شيخوخته ليضع أصول أعظم الفنون الرومانية وأسماها منزلة. وهو يقول عن نفسه "إن الطبيعة لم تهني طول القامة، ولم تبق السنون على شيء من جمال وجهي، وسلبني المرض قوة جسمي؛ ولهذا أرجو أن أكسب رضاء الناس بعلمي وبكتابي"(29). وكما أن شيشرون وكونتليان قد جعلوا الفلسفة من مستلزمات الخطيب، كذلك رآها فتروقيوس من مستلزمات المهندس المعماري، فهي تحسن أغراضه كما يحسن العلم وسائله وأدواته، وهي "تسمو بمداركة وتجعله رقيق الحاشية، عادلاً، وفيماً، غير شره، ولا يمكن أن يتم عمل صالح من غير إيمان قوي ويدين طاهرتين"(30). وقد وصف مواد البناء، والأعمدة، وأجزاءها، ومختلف أنماط المباني في رومة، وأضاف إلى الكتاب بحثاً في الآلات، والساعات المائية، ومقاييس السرعة ، ومجاري مياه الشرب المسقوفة، وتخطيط المدن والصحة العامة. وقد أشار فتروقيوس باستعمال النظام الإشعاعي في تخطيط المدن (وهو النظام الذي خطت عليه المدينة الإسكندرية القديمة وواشنطن الحديثة) بدل النظام المربع الذي ثبت قواعده هيبودامس Hippodamus في كثير من المدن اليونانية،

صفحة رقم : 3525

أشار فتروفيس باستعمال هذا النظام الإشعاعي ولكن الرومان ظلوا يخططون مدنهم على النظام المربع نظام معسكراتهم. ومما يؤثر عنه أنه حذر إيطاليا من أن الماء الذي تشربه في كثير أجزائها يؤدي إلى تضخم الغدة الدرقية، وقال إن التسمم قد ينتج من الاشتغال بالرصاص، وفسر الصوت بأنه حركة اهتزازية في الهواء، وكتب أول بحث باق حتى الآن في علاقة هندسة البناء بالأصوات. وقد كان لكتابه الذي كشف من جديد في عصر النهضة أعمق الأثر في ليوناردودافنشي، وبلاديو Palladio وميكل أنجلو.

ويقول فترفيوس إن الرومان يبنون بالخشب والأجر، والجبس الناعم والمسلح والحجر والرخام. وكان الأجر المادة الشائعة الاستعمال في الجدران، والعقود والأقواس، وكثيراً ما كان يستعمل هو والجبس لتغطية الملاط. وكان الأجر يصنع من الرمل، والجير، وتراب الرخام، والماء، ويصقل صقلاً جيداً ويوضع طبقات بعضها فوق بعض، يصل سمكها في بعض الأحيان إلى ثلاث بوصات. ومن أجل هذا استطاع ذلك الأجر أن يحتفظ بشكله تسعة عشر قرناً كما نشاهد ذلك في الكلوسيوم أما المسلح فلم تبلغ أمة من الأمم إلى وقتنا هذا ما بلغه الرومان في صنعه واستخدامه، فقد كانوا يأخذون الرماد البركاني الكثير بقرب نابلي، ويخلطونه بالجير والماء، ويضعون فيه قطعاً من الأجر، والفخار، والرخام، والحجارة، ويخرجون منها منذ القرن الثاني قبل الميلاد ملاطاً في صلابه الصخور، يمكن أن يصعب في أي قالب، ولا يكاد يستعصي عليه أي شكل يراد أن يشكل به. وكانوا يصبونه كما نصبه الآن في أحواض مصنوعة من ألواح خشبية. وبفضله استطاعوا أن يغطوا مسافات كبيرة لا عمد فيها بقباب صلبة خالية من الأكتاف الجانبية التي تحمل السقف المقوس. وهذه هي الطريقة التي شادوا بها قمة البانثيون، وقمم الحمّامات الكبرى. واستخدمت الحجارة في تشييد معظم الهيكل وبيوت الكبراء، وكان من أنواعها نوع نصف شفاف يستخرج من

كبدوكية ينفذ الضوء من خلاله، حتى أن هيكلاً بنى به كان ينال كفايته من ضوء النهار وجميع نوافذه مغلقة (32). وبدأت رغبة الرومان في استخدام الرخام على أثر فتح بلاد اليونان، وقد أشبعوا هذه الرغبة باستيراد العمدة أولاً، ثم باستيراد الرخام، ثم باستخراجه من محاجر كرارا القريبة من لونا Luna. وكان استخدام الرخام قبل أيام أغسطس مقصوراً على الأعمدة والألواح المستوية، ثم استخدم في عهده لتغطية الأجر والمسلح؛ وإذا ما قال إنه ترك رومة مدينة من الرخام فيجب ألا يفهم من قوله هذا أكثر من المعنى السالف الذكر، وهو أن بعض ما فيها من آجر ومسلح في أجزاء متفرقة منها قد غطى بألواح من الرخام. أما الجدران المشيدة من الرخام المصمت فكانت نادرة، وكان الرمان يميلون إلى أن يجمعوا في البناء الواحد بين حجر مصلى الأعبال الأحمر والرمادي، وحجر عوبية البصلي ذي اللون الأخضر، ورخام نوميديا الأسود والأصفر، وبين رخامهم الأبيض المستخرج من محاجر كرارا وأحجار البازلت، والمرمر، والحجر السماقي؛ ولم تبلغ مواد البناء في عصر من العصور ما بلغته في رومة من تعدد في الأنواع والألوان.

وقد أضافت رومة إلى الطرز الدورية، والأيونية، والكورنثية الأنماط السكنانية والأنماط المركبة من خليط من هذه كلها أو من بعضها بصورها الأصلية أو بتعديل فيها. وكثيراً ما كانت العمدة تقام من حجر واحد بدل أن تكون من حجارة مثقوبة يرتكز بعضها فوق بعض. وكانت للعمدة الدورية قواعد أيونية، واتخذت لها شكلاً جديداً رفيعاً خالياً من الثنايا، وقد تكون للتيجان الأيونية التي تعلو الأعمدة أربع تلافيف في بعض الأحيان حتى يكون منظرها واحداً من جميع الجوانب؛ أما العمدة والتيجان الكورنثية فقد بلغت في تطورها حداً من الجمال والرقعة لم تبلغه نظائرها اليونانية وإن كان الإفراط في التجميل والتنميق قد أفسد هذا الطراز من

العمد في العصور المتأخرة. ومثل هذا يقال عن الإفراط في رسم الأزهار فوق التلايف الأيونية لصنع التيجان المركبة من طرز مختلفة كما نشاهد ذلك في قوس تيتس. وكانت التلايف تنتهي أحياناً بأشكال حيوانية أو آدمية توهم الرائي بأنها ميازيب على صورة حيوانات أو أناس على غرار ما صنع منها بعدئذ في العصور الوسطى. وكثيراً ما كان الرومان المسرفون يخلطون بين طرز مختلفة في البناء الواحد، كما نشاهد ذلك في ملهى مارسلس؛ يضاف إلى هذا أنه قد بلغ بهم الشح في بعض الأحيان حداً جعلهم يتركون العمد الجانبية ملتصقة بجسم الهيكل نفسه كما نشاهده في البيت المربع Maison Carr(e) في نيمز Nimes. وظل الرومان يضيفون العمد إلى مبانيهم يزينوها بها ولو لم يعد لها عمل أصيل بعد أن سلبها تطور العقود ما كان لها من شأن قديم في استناد هذه المباني إليها- وبقيت هذه العادة قائمة إلى عصرنا الحاضر دون أن يعرف مصدرها الذي أخذت عنه.

صفحة رقم : 3528

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة وفنونها -> العمارة -> هياكل رومة

2- هياكل رومة

لقد احتفظت رومة في جميع هياكلها إلا قلة ضئيلة منها بنظام الأروقة ذات العمد، المبسطة عليها عوارض رئيسية تحمل السقف. وكان أغسطس متحفظاً في الفن شأنه في كل شيء سواه، ولذلك استمسكت جميع الأضرحة التي بنيت بأمر منه بالتقاليد الصحيحة القديمة. ثم أخذ الأباطرة من بعده يضاعفون عدد الهياكل التي يقيمونها لآلهتهم التي تنافسهم في السلطان والجاه، ويغشون فجورهم بستار من التقى المعماري، حتى ازدحمت التلال وسدت الشوارع بالمزارات المقرمة المذهبة. وكان جوبتر بطبيعة الحال صاحب النصيب الأوفر منها، فكان من بين هياكله الكثيرة هيكل جوبتر المرعد،

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة وفنونها -> العمارة -> هياكل رومة

أقدام الرومان وأوقف هربهم في القتال، واقتسم مع يونو ومنيرفا أقدس مزارات رومة فوق تل الكبتول. فقد أقيم في الحجره الوسطى تمثال ضخم من الذهب والعاج لجوبتر الأفضل والأعظم Maximus Jupiter Optimus يحيط به من الجانبين رواق معمد ذو ثلاثة طبقات. وتعزو الرواية التاريخية أول صورة من صور هذا الصرح الأعظم من الصروح الرومانية المقدسة إلى تاركونيوس بسكس، وقد دمرته النار عدة مرار، وكان في كل مرة يعاد بناؤه بعد تدميره. واختلس استلكو في عام 404 م أبوابه البرونزية المذهبة ليؤدي بها رواتب جنده، ونهب الوندال قراميد السقف المصفحة بالذهب، ولا تزال بعض قطع من أرضيته باقية إلى اليوم.

وكان يقوم على القمة الشمالية من قمم هذا التل نفسه هيكل يونو المنذرة أو الحارسة Juno Moneto، وهناك كانت دار سك العملة. ولا حاجة إلى أن نذكر للقارئ أن اسم دار السك (Mint) والنقود (Money) مصدر كثير من المطامع، مشتق من لفظ منيتو الذي كانت تلقب به يونو. وعلى المنحدر الجنوبي من منحدرات هذا التل كان يقوم معبد ساترن (زحل) أقدم آلهة لكبتول. ويرجع الرومان تاريخ بناء هذا الهيكل لذلك الإله إلى عام 497 ق. م؛ وقد بقي منه حتى الآن ثمانية عمد أيونية وعارضة واحدة فوق بعض هذه العمد. وفي السوق الكبرى عند سفح التل كان المعبد الصغير المخصص لجانوس Janus إله البدايات كلها. وكانت أبوابه لا تفتح إلا في زمن الحرب ولم تغلق في أثنائها إلا ثلاث مرات في تاريخ رومة القديم. وفي الركن الجنوبي الشرقي من أركان السوق كان هيكل كاستر وبلكس And Pollux Castor الذي شيد في عام 495 ق. م؛ وقد وصلت إلينا من بقايا الهيكل الذي جدده تيبيريوس ثلاثة عمدة كورنثية رفيعة، وهي بإجماع الخبيرين أجمل العمد الرومانية على الإطلاق.

وأضاف أغسطس إلى هذه الهياكل في سوقه هو هيكلًا للمريخ المنتقم

Mars Ultor وفاء بنذره قبل فلبياي Philippi، وى تزال ثلاثة من عمده الفخمة قائمة في مكانها إلى اليوم. وكان أحد أطراف ساحته الوسطى عبارة عن نصف دائرة ذات سقف مقبب، وهي طراز معماري أصبح فيما بعد طراز محراب الكنائس المسيحية الأولى. وأقام أغسطس على تل البلاتين هيكلًا فخماً من الرخام الخالص للإله أبولون نظير معونته له في أكتيوم، وزينه بتمائيل من صنع ميرون Miron واسكوباس Scopas، وأضاف إليه مكتبة فخمة ومعرضاً فنياً، وبذل كل ما في وسعه ليشعر الناس أن الإله قد غادر بلاد اليونان وجاء إلى رومة يحمل معه إليها زعامة العالم الروحية والثقافية؛ بل إن أصدقاء أغسطس، بعد أن زالت أسباب التخرج من هذا النمى بوفاة والدة أغسطس، قالوا إن أبولو متخفياً في صورة ثعبان رشيق سريع الحركة هو الذي استولدها هذا الزعيم الداهية.

وكان في الجزء الشمالي الغربي في المدينة هيكل عظيم لإيزيس Issis وعلى تل البلاتين مزار فسيح لسبييل. وكانت فيه، ملاذات لبعض المعاني المجردة مجسدة-كالصحة، والشرف، والفضيلة، والوئام، والوفاء، والحظ، وكثير من أمثالها. وكانت كل هذه الهياكل تقريباً تحتوي ساحات ملى بالتمائيل والرسوم الملونة. وقد جمع فسبازيان في معبد السلم العظيم الذي أقامه كثيراً أن الكنوز الفنية التي كانت في بيت نيرون الذهبي، وبعض المخلفات التي جاء بها من أورشليم وأباح للناس مشاهدتها.

ويمتاز هيكل فرتونا فربلس Fortuna Virilis القائم في سوق بريوم Boarium Forum بأنه أكمل بناء في رومة من عهد ما قبل أغسطس احتفظ بأجزائه إلى اليوم. وكانت نساء العاصمة يترددون كثيراً على هذا الهيكل للعبادة فيه، فقد كن يعتقدن أن الآلهة تعلمهن كيف يخفين عيوبهن عن أعين الرجال.

وقد أضاف مهندسو رومة إلى هذه الهياكل وإلى العشرات العشرات من الهياكل الأخرى المشيدة على الطراز المربع القديم، أضافوا إليها عدة هياكل

دائرية الشكل تكشف عن سيطرتهم الحديثة على مشكلة تشييد القباب. وتقول الرواية التاريخية إن هذا الطراز من البناء مأخوذ على كوخ رمبولوس المستدير الذي احتفظ به كما يحتفظ بالآثار الدينية على تل البلاتين قرونًا طويلاً.

ولا يكاد يقل عنه في القدم بيت فستا Aedes Vestae الجميل المجاور لهيكل كاستروبلكس؛ وكانت ساحته الوسطى المغطاة جدرانها بالرخام الأبيض تحيط بها عمد كورنثية جميلة، وكان سقفها قبة من الشبهان المذهب. وكان إلى جوارها قصر العذارى الفستية-ويتكون من أربع وثمانين حجرة مشيدة على نظام الأديرة حول بهو ذي عمد. ولم يكن البانثيون قد أصبح بعد هيكلًا مستدير الشكل؛ فقد كان في صورته التي أقامه عليها أجربا مستطيلاً، ولكن كانت له ساحة مستديرة أمامه. وقد أقام مهندسو هدریان فوق هذه الساحة الهيكل المستدير والقبة الضخمة اللذين لا يزالان حتى الآن أعظم شاهدين على جرأة الإنسان وشجاعته.

لقد كانت رومة في عمارتها الدنيوية أعظم منها في عمارتها الدينية، ذلك بأنه كان في وسعها في أول العمارتين أن تتحرر من قيود التقاليد، وأن تجمع بين الهندسة والفن-بين المنفعة والقوة من جهة،

والجمال والشكل من جهة أخرى-بطريقة اختصت بها هي لا يشاركها فيها غيرها من المدن. لقد كان الأساس الذي قامت عليه العمارة اليونانية هو الخط المستقيم (مهما أدخل عليه من التنظيم الدقيق كما يشاهد في البارثون): كالعمود الرأسي، والعارضة الأفقية، والقوسرة المثلثة الشكل؛ أما أساس هندسة البناء الرومانية الخالصة فقد أصبحت الخط المنحني؛ ذلك أن الرومان كانوا ينشدون العظمة، والإقدام، والضخامة،

صفحة رقم : 3533

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة وفنونها -> العمارة -> التحول الفجائي إلى الطراز المقوس

ولكنهم لم يكن في وسعهم أن يسقفوا مبانيهم الواسعة على مبادئ الخطوط المستقيمة والأروقة ذات العمدة إلا إذا أقاموا فيها مجموعة من العمدة التي تعترض طرقاتها، وكانت سبيلهم للتغلب على هذه المشكلة هي الأقواس بشكلها المستدير في الغالب؛ وما العقود إلا أقواس استطالت، وما القباب إلا أقواس تحركت ودارت؛ ولعل القواد الرومان وأعاونهم قد ألفوا في مصر وآسية الأشكال المقوسرة، وازدادت ألفتهم لها على مر الأيام، فأيقظوا في مواطنهم التقاليد الرومانية والتسكانية القديمة التي طال العهد بطغيان الأنماط اليونانية عليها، فأخذت رومة تستخدم العقود استخداماً بلغ من اتساعه أن اشتق منه فن البناء كله اسم جديد أصبح علماً عليه ولم يفارقه قط. وقد أنشأ الرومان القبوة المفصلية بوضع شبكة من الأضلاع المكونة من الأجر على طول خطوط الالتواء قبل أن يصب الملاط المسلح في الإطار الخشبي لعمل السقف؛ ثم أنشئوا، بوضع قبوتين اسطوانيتين متعامدين، شبكة من الأضلاع والحنيات تستطيع أن تتحمل فوقها بناء أثقل منها كما تستطيع أن تتحمل دفعاً قوياً من الجانبين. هذان هما المبدآن اللذان قام عليهما الانقلاب الفجائي في فن العمارة الرومانية وتحوله من طراز الخطوط إلى طراز الأقواس.

وبلغ الطراز الجديد كماله في الحمامات والمدرجات الكبرى، وكانت حمامات أجربا، ونيرون، وتيتس الحلقة الأولى من سلسلة طويلة انتهت بحمامات دقلديانوس، فقد كانت هذه صروحاً من الملاط المسلح مغطاة بالجبس أو الأجر تعلو علواً شاهقاً في الهواء. وكانت مزينة من داخلها بفساقي من الرخام

والفسيفساء، وبأعمدة مختلفة الألوان، وسقف مزخرفة، وصور ملونة وتمائيل. وكان فيها حجرات لخلع الملابس، وحمامات ساخنة وباردة، وحجرة وسطى ذات هواء دفيء، وبرك للسباحة، ومواضع للتمريبات الرياضية، ومكتبات وحجر للمطالعة، وأخرى للبحث، وأرائك للراحة، وأكبر الظن أنها كانت

صفحة رقم : 3534

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة وفنونها -> العمارة -> التحول الفجائي إلى الطراز المقوس

تحتوي أيضاً على معارض فنية. وكانت أغلب الحجرات تسخن من مركز عام تمتد منه أنابيب كبيرة من الصلصال، وتسير تحت أرض الحجرات وفي داخل الجدران. وكانت هذه الحمامات الحارة أوسع وأفخم ما شيد من المباني العامة، ولم يوجد لها قط نظائر من نوعها في العالم كله. وكانت جزءاً من الاشتراكية في الترفيه عن الشعب حاولت به الزعامة أن تبرر سلطانها المطلق المتزايد. وكانت هذه النزعة نفسها هي الحافز على بناء أعظم دور التمثيل في التاريخ كله. وكان عدد هذه الدور في رومة أقل منها في العواصم الحديثة، ولكنها كانت أوسع منها رقعة. وكان أصغرها هو الملهى الذي شاده كورنيليوس بلبس Cornelius Balbus في ميدان المريخ (13 ق. م)، والذي كان يتسع لسبعة آلاف وسبعمئة من النظارة؛ وقد أعاد أغسطس بناء ملهى بمبي الذي كان يتسع لسبعة عشر ألفاً وخمسائة، وأتم بناء ملهى آخر سماه باسم مرسلس Marcellus ويتسع لعشرين ألفاً وخمسائة. وكانت هذه الدور تختلف عن مثيلاتها في بلاد اليونان في أنها كانت مسورة، وفي أن مقاعد النظارة كانت تستند في أبنية ذات أقواس وقباء بدل أن تستند إلى منحدرات التلال. وكان المسرح وحده هو المسقف، ولكن النظارة كانوا يتقون الشمس بمظلو من نسيج التيل (Velarium) كانت في ملهى بمبي تغطي مساحة عرضها 550 قدماً. وكانت فوق المداخل مقصورات للأعيان وذوي المناصب الكبرى في الدولة، وكان لبعض المسارح ستائر لم تكن ترفع إلى أعلى إذا بدأ التمثيل بل كانت تنزل في فتحات معدة لها. وكان المسرح يرتفع عن أرض الملهى بنحو خمس أقدام،

وكان الجزء الخلفي منه يتخذ في العادة شكل بناء أنيق يمتد من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر، فيمكن

صفحة رقم : 3535

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة وفنونها -> العمارة -> التحول الفجائي
إلى الطراز المقوس

الممثلين بذلك من أن يسمعون أصواتهم للعد الجم من النظارة الذين يضمهم الملهى. ويحدثنا سنكا عن "صناع المسارح الذين يخترعون حمالات ترتفع من نفسها أو أرضيات ترتفع في سكون من الهواء" (32أ). وكان تغيير المناظر يحدث بوساطة مناشير دوارة أو بتحريك مجموعة منها إلى طرفي المسرح أو إلى أعلاه فتتكشف بذلك المجموعة التي تليها. وكان يستعان على إسماع النظارة أصوات الممثلين بوضع جرار فارغة في أرض المسرح وجدرانه (32ب). وكانت أمكنة النظارة تبردها جداول مائية تجري في ممراتها، وكان مزيج من الماء والنبيد وعصير الزعفران ينقل أحيانا إلى أعلى المقاعد في أنابيب ثم يرش على النظارة في هيئة رشاش عطر (32ج) وكان داخل الملهى يزداد بالتمثيل وكانت صور كبيرة ترسم على المسرح بدل المناظر المتغيرة في هذه الأيام. ولعلنا لا نجد الآن في العالم كله ملهى مهما عظم يبلغ في الاتساع والفخامة ما بلغه ملهى بمبي في رومة. وكانت حلبة الألعاب ومضمار الركض والمدرج أحب إلى الشعب من دار التمثيل. وكان في رومة عدة مضامير تستخدم أكثر ما تستخدم في المباريات الرياضية. وكان سباق الخيل والعربات وبعض الألعاب الأخرى تعرض في حلبة فلاننيوس في ميدان التاريخ أوفي الحلبة الكبرى التي جدد قيصر بناءها بين تلي بلاتين وأفنتين. وكانت هذه الحلبة في شكل قطع ناقص طوله 2200 قدم وعرضه 705، وكان فيها مقاعد خشبية في ثلاث جهات منها تتسع لمائة وثمانين ألفاً من النظارة (33). وفي وسعنا أن نقدر ثروة رومة إذا عرفنا أن تراجان أعاد بناء هذه المقاعد من الرخام. وكان بناء الكلوسيوم بناء متواضعاً إذا قيس إلى هذه الحلبة الكبرى، فقد كانت مقاعده لا تتسع لأكثر من خمسين ألفاً، ولم يكن تصميمه جديداً؛ لأن مدن إيطاليا اليونانية كانت من زمن بعيد تحتوي مدرجات مثله؛ فقد أنشأ كوريو Curio كما قلنا من قبل مدرجاً في عام 53 ق. م،

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة وفنونها - العمارة - التحول الفجائي
إلى الطراز المقوس

وبنى قيصر مدرجاً آخر في عام 46، وبني استاتليوس تورس Statilius Taurus مدرجاً ثالثاً في عام 29 ق. م. وكان فسبازيان هو الذي بدأ المدرج الفلافي - وهو الاسم الذي كان الرومان يطلقونه على الكلوسيوم - كما كان تيتس هو الذي أتمه في عام 80 م، ولا نعرف اسم المهندس الذي أشرف على بنائه. وقد اختار فسبازيان لبنائه البحيرة التي كانت في قصر نيرون بين التل الكئيبي Caelian والتل البلاطيني. وقد شيد من الحجر الترافطيني على شكل إهليلجي يبلغ طول محيطه 1700 قدم. وكان ارتفاع سورہ الخارجي 157 قدماً، وكان مقسماً إلى ثلاثة أطباق يقوم بعض طابقه الأول على أعمدة تسكانية-دورية، ويقوم طابقه الثاني على عمد أيونية، والثالث على عمد كورنثية، وبين كل عمودين عقد. وكانت الدهاليز الرئيسية مسقوفة بأقبية اسطوانية تتقاطع في بعض المواضع على طراز أديرة العصور الوسطى. وكان داخله مقسماً أيضاً إلى ثلاث طبقات تستند كل منها إلى أعمدة، وتنقسم إلى الحلقات من المقصورات والمقاعد، متحدة في مركزها تقطعها طرقات ذات درج فتقسمها إلى "أوتاد" Cunei. ويبدو داخله للناظر إليه في هذه الأيام كأنه كتلة ضخمة من البناء قطع فيه صانع جبار عقوداً وطرقات ومقاعد. وكان داخله يزدان بالتماثيل وغيرهما من وسائل التجميل، وكانت كثير من صفوف المقاعد مصنوعة من الرخام، وكان للمدرج ثمانون مدخلاً خصص أثناء منها للإمبراطور وحاشيته. وكانت هذه المداخل والمخارج Vomitoia تكفي لإخراج الجماهير الغفيرة التي تملأ هذا المدرج الضخم في دقائق معدودات. وكان يحيط بالحلبة التي يبلغ اتساعها 287 قدماً في 180 سور يبلغ ارتفاعه خمس عشر قدماً يعلوه دبرزون يحمي وحوشه الأدميين من وحوش الغاب. وليس الكلوسيوم من المباني الجميلة المنظر، وإن ضخامته

نفسها لتتم عما في الطبيعة الرومانية من خشونة، كما تكشف عما فيها من عظمة. وكل ما يمكن أن يقال في مديحه أنه أكثر الخرائب التي خلفها العالم الروماني القديم روعة. لقد كان الرومان يبنون كما يبني الجبابرة، ولو أننا طلبنا إليهم أن يصقلوا مبانيهم كما يصقل الصياغ الحلي لكفناهم ضد طباعهم. لقد أنشأ الفنانون الرومان فنهم من خليط مختار من الطرز الأتيكية، والآسيوية، والإسكندرية، فجمعوا فيه بين التحفظ والضخامة والرشاقة. غير أنهم لم يمزجوا في يوم من الأيام هذه الصفات لينشئوا منها تلك الوحدة الأساسية التي هي أساس من أسس الجمال. وإن فيما تتصف به المباني الرومانية الخالصة من قوة وفجاجة لمسحة شرقية، فهي تبعث في النفس الرهبة لا الجمال؛ وإن بنثيون هدرين نفسه ليعد ن عجائب الصروح أكثر مما يعد من روائع الفن؛ فليس لنا أن نتطلع في الفن الروماني إلى رقة الشعور ودقة التنفيذ اللهم إلا في حالات نادرة كالنقوش والتحف الزجاجية الباقية من عصر أغسطس. بل يجب أن نتوقع هنا وجود فن هندسي يهدف إلى الغاية في الصلابة والاقتصاد والمنفعة، إلى افتتاحان العصامي بالضخامة والزينة وإصرار الجندي على الواقعية، وإلى فن المحارب ذي القوة الباطشة. وإذا كان الرومان لم يصقلوا فنهم صقل الصياغ فما ذلك إلا لأن الفاتحين لا يصبحون قط صياغاً، ولذلك صقلوه صقل الفاتحين.

وما من شك في أنهم قد أنشأوا أكثر المدن فتنة وروعة في التاريخ، وأوجدوا فناً مرناً، تصويرياً ومعماريّاً في مقدور كل إنسان أن يفهمه، وشادوا مدينة يستطيع كل مواطن أن يعيش فيها وينتفع بها. لقد كانت جماهير الأحرار في تلك المدينة فقيرة كثيرة الثراء، ولكنها كانت إلى حد ما تمتلك كثيراً من ثروتها: فقد كانت تأكل حب الدولة، وتجلس بغير أجر، أو بأجر هو والعدم سواء، في دور التمثيل، وفي حلبات الألعاب، وفي المدرجات وميادين السباق. وكانوا يمارسون ضروباً من الرياضة البدنية،

ويتناولون المرطبات، ويستمتعون بضروب التسلية، ويتعلمون في الحمامات؛ ويتفنون ظلال مئات من الأروقة ذات العمد، ويمشون تحت القباب وال عقود المنقوشة المزينة التي كانت تغطي أميالاً كثيرة من شوارع رومة، وتغطي ثلاثة أميال في تاريخ المريخ وحده، ولم يشهد العالم قبل رومة عاصمة مثلها، فقد كان في وسطها سوق عجابة سخابة تدور فيها رحى العمل بلا انقطاع، وتتردد في جنباتها أصداء أصوات الخطباء، وتدور فيها المناقشات التي تزلزل قواعد الإمبراطورية، ومن حولها حلقة من الهياكل، والباسلقات، والقصور، ودور التمثيل، والحمامات، في كثرة منقطعة النظر؛ وتحيط بهذه الحلقة حلقة أخرى من الحوانيت مكتظة بالبائعين والمشتريين، تدوي فيها أصواتهم، وتليها حلقة ثالثة من البيوت والحدائق، فحلقة رابعة من المعابد والحمامات مرة ثانية، وتنتهي بدائرة من القصور الريفية الصغيرة ذات الحدائق، ثم الضياع التي تدفع بأطراف المدينة إلى الريف وتربط الجبال بالبحر. هذه هي رومة القياصرة-مزهوة، قوية، براقة، مادية، قاسية، ظالمة، مشوشة غير منظمة، سامية رفيعة الذرى.

صفحة رقم : 3539

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> الشعب

الباب السابع عشر

رومة الأبيقورية

30 ق. م-96 م

والآن فلندخل تلك المساكن، والهيكل، ودور التمثيل، والحمامات لنرى كيف كان يعيش الرومان، وسنراهم حين ندخلها ممتعين أكثر من فنونهم. وعلينا أن نذكر من بادئ الأمر أن أولئك القوم قد صاروا قبل عهد نيرون رومان من الوجهة الجغرافية فحسب، ذلك أن الظروف التي عجز أغسطس عن التغلب عليها، وهي ما سرى بين الأسر القديمة من عادات الامتناع عن الزواج، وعن التناسل، ومن قتل الأطفال، وتحرير الأرقاء، وما كانت تتصف به الأسر الجديدة من خصوبة نسبية، كل هذا قد غير أحوال الشعب الروماني من الناحية العنصرية، والأخلاقية، والجسمية.

لقد كان الرومان في العهد القديم تدفعهم الغريزة الجنسية إلى كثرة النسل، كما كانت تدفعهم إليها رغبتهم في أن يكون لهم من بعدهم من يعني بقبورهم؛ أما في الوقت الذي نتحدث عنه، فقد عرفت طبقاتهم العليا والوسطى كيف تفصل الغريزة الجنسية عن الأبوة، فتشبع الأولى دون أن يؤدي ذلك الإشباع إلى الثانية، كما أصبحت هذه الطبقات ترتاب في عقيدة الدار الآخرة.

وكانت تربية الأبناء في الزمن الأول واجباً على الآباء للدولة يحتمه عليه الشرف ويلزمهم به الرأي العام؛ أما الآن فقد بدا من أسخف الأشياء أن يطلب إلى الآباء أن يزيدوا عدد سكان المدينة التي ضاقت بمن فيها؛ وكان المنافقون المداهنون لا ينفكون يتملقون الغُراب ومن لا أبناء لهم من المتزوجين يطلبون إليهم أن يوصوا لهم بأموالهم بعد وفاتهم. وقد وصف جوفنال هذه الحال بقوله: إن

أكثر ما يحبب فيك أصدقاءك أن تكون لك زوج عقيم(1)". وقد ورد على لسان شخصية من شخصيات بترونيوس: "ليس في أقرطونا إلا طبقتان من السكان-متملقون ومتملقون، والجريمة الوحيدة فيها أن تلد أبناء يرثون مالك من بعدك. فهي أشبه بميدان قتال في فترة راحة: ليس فيه إلا جيف وطيور جارحة تلتهمها(2)". وفقدت أم ولدها الوحيد فعزاها سنسكا بقوله إنها ستصبح محببة عند الناس مكرمة لأن "الثكل عندنا يزيد سلطان الثكلي أكثر مما ينقصه"(3) وكان في أسرة جراكس اثنا عشر طفلاً، ولكننا لا نعتقد أنه كان بين طبقتي الأشراف والفرسان في رومة على عهد نيرون خمس أسر من هذا النوع. وكان الزواج في العهد القديم رباطاً اقتصادياً يدوم مدى الحياة، أما الآن فقد أصبح في نظر مائة ألف روماني مغامرة قصيرة الأجل، خالية من كل معنى روحي، وعقداً ضعيفاً يسهل التحلل منه غايته الحصول على اللذة الجسمية أو السلطة السياسية. ولكي تلفت النساء من القيود المفروضة على العزّاب في الوصايا والهبات كان بعضهن يتزوجن بالخصيان حتى لا يحملهن(4)، ومنهن من كن يعتقدن زيجات صورية على رجال فقراء مشترطات ألا يطلب إليهن أن يحملهن، وأن يكون لهن من العشاق بقدر ما يرغبن(5). وكانت موانع الحمل بنوعها الآلي والكيميائي واسعة الانتشار(6) فإذا لم تفلح أسعفن الإجهاض بأشكاله الكثيرة. نعم إن الفلاسفة والمشرعين كانوا يحرمونه، ولكن أرقى الأسر كانت تلجأ إليه. وفي ذلك يقول جوفنال: "إن الفقيرات من النساء

صفحة رقم : 3541

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> الشعب

يقاسين آلام الوضع ومتاعب تربية الأبناء، أما الفرش المذهبة فقلما تضم امرأة حاملاً؛ ألا ما أشد حذق المجهضين وما أقوى العقاقير المجهضة!" ولكنه مع هذا يقول للزوج "أعطها الدواء وأنت مغتبط، فإنك قد تجد نفسك، إن ولدت، أباً لطفل حبشي"(7). وأما قتل الأطفال فقد كان نادراً في هذا المجتمع المستنير .

على أن قلة نسل الطبقات المثرية في رومة والإمبراطورية الرومانية كان يقابله من الناحية الأخرى كثرة الهجرة وخصب الطبقات الفقيرة، ولذلك ظل سكان رومة والإمبراطورية في ازدياد مستمر. وقد

قدر بلوك Belcok سكان رومة في عهد الإمبراطورية الأولى بثمانمائة ألف، وقدرهم جين بمليون ومائتي ألف، وقدرهم ماركوارت Marquardt بمليون وستمائة ألف. وقدر بلوك سكان الإمبراطورية بأربعة وخمسين مليوناً، كما قدرهم جين بمائة وعشرين مليوناً (11). وظل عدد الأشراف كما كان من قبل، ولكنهم كانوا كلهم تقريباً يختلفون في أصولهم عن الأشراف القدامى؛ فلم نعد نسمع عن أسر إيمليوس، وكلوديوس، وفابيوس، وفليريوس؛ ولم يبق من العشائر القديمة التي ظلت من عهد قيصر تفخر بأصولها وتختال في رومة إلا أسرة كرنليوس. فمن هذه الأسر من حصده الحروب أو الاغتيالات السياسية، ومنها من قضت عليه قيود الزواج وتحديد النسل، والعجز الجنسي، ومنها من افتقر حتى أصبح في عداد الطبقات الدنيا. وحل محل هذه الأسر في رومة رجال الأعمال الرومان، وأعيان البلدان

صفحة رقم : 3542

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبييقورية - الشعب

الإيطالية، وأشراف الولايات النائية. وقد قال عضو في مجلس الشيوخ عام 56 م. إن "الكثرة الغالبة من الفرسان، والعدد الكبير من أعضاء مجلس الشيوخ، من نسل الأرقاء" (12). ولم يمض على هؤلاء الأعيان الجدد إلا جيل أو جيلان حتى تخلقوا بأخلاق من سبقوهم، فقلّ نسلهم، وزاد ترفهم، واستسلموا لتيار المهاجرين من الشرق.

وكان أول القادمين هم اليونان - ولم تكن كثرتهم من بلاد اليونان الأصلية، بل كانت من شمال أفريقية، ومصر، وسوريا، وآسية الصغرى، وكانوا على جانب كبير من الحماسة، والنشاط، ولين العريكة، أشبه بأهل الشرق؛ وكانت كثرتهم من صغار التجار أو المستوردين؛ وكان بعضهم علماء، وكُتّاباً، ومعلمين، وفنانين، وأطباء، وموسيقين، وممثلين؛ وكان بعضهم يشتغلون بالفلسفة حباً في دراستها أو طعماً فيما يعود عليهم من المال من هذه الدراسة؛ وكانت كثرتهم من الموظفين الإداريين ورجال المال القادرين، وكان الكثيرون منهم لا يراعون عهداً ولا ذمة، وكلهم تقريباً لا يؤمنون بدين. وقد أتى معظمهم في الأصل أرقاء، ولم يكونوا ممتازين في شيء، وحافظوا بعد تحررهم على مظاهر الذلة والخنوع وعلى ما كانوا ييطنونونه من حقد على أغنياء الرومان، الذين أصبحوا من

الناحية الذهنية كلاً على التراث الثقافي لليونان الأقدمين، واستهزاءً بهم. وغصت شوارع العاصمة باليونان الثرثارين الكثيري الجلبة والحركة، وكان السائر فيها يسمع اللغة اليونانية أكثر مما يسمع اللغة اللاتينية، وكان على الكاتب إذا أراد أن تقرأ جميع طبقات الأمة كتابته أن يكتبها باليونانية. وكان المسيحيون الأولون في رومة كلهم تقريباً يتكلمون اللغة اليونانية، وكذلك كان السوريون والمصريون، واليهود. وكانت جالية كبيرة من المصريين - تضم تجاراً وصناعاً وفنانين - تعيش في ميدان المريخ. أما السوريون، النحاف الأجسام، الودعون الظرفاء، الماكرون الدهاء، فكان الإنسان يلتقي بهم في كل مكان من العاصمة

صفحة رقم : 3543

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبييقورية - الشعب

يشتغلون بالتجارة، والصناعات اليدوية، والأعمال الكتابية، والشئون المالية، والاحتيايل على الناس. وأصبح اليهود من عهد قيصر عنصراً قوياً من عناصر السكان في العاصمة وقد وفد منهم إليها عدد قليل من عهد ماض يرجع إلى عام 140 ق. م (13)، وحيء بعدد كبير منهم إلى رومة أسرى حرب بعد حروب بمبي التي شبت في عام 63 ق. م، ولم يلبث هؤلاء أن تحرروا من الرق، لجدهم واقتصادهم، أو لأن استمساكهم الشديد بأوامر دينهم كان يضايق سادتهم. ولم يحل عام 59 ق. م حتى كان عددهم في الجمعية قد ازداد إلى حد جعل شيشرون يصف معارضتهم بأنها مجازفة سياسية غير مأمونة العاقبة(14). ويمكن القول بوجه عام إن الحزب الجمهوري كان معادياً لليهود، وإن الشعب والأباطرة كانوا من أصدقائهم وقبل أن ينصرم القرن الأول كان عددهم في العاصمة قد بلغ 20.000(18)، وكانت كثرتهم تسكن على الضفة الغربية من نهر التيبير، وكانت تعاني الأمرين من جراء الفيضان الموسمي لهذا النهر. وكانوا يعملون في أحواض السفن القريبة من مساكنهم، ويشتغلون بالصناعات اليدوية وتجارة الأشتات في الحوانيت، أو بالتنقل في أحياء المدينة. وكان منهم أغنياء، ولكن لم يكن من بينهم إلا عدد قليل من كبار التجار، فقد كان السوريون واليونان هم المسيطرين على التجارة

الدولية. وكان لهم في رومة عدد كبير من المعابد، لكل واحد منها مدرسته، وكتبته، ومجلسه المكون من شيوخهم(19)، والمعروف باسم الجروسيا Gerousia. وكانت نزعة اليهود الانفصالية، واحتقارهم بالشرك وعبادة الأوثان، وتزمتهم الخلقي، وامتناعهم عن الذهاب إلى دور التمثيل أو مشاهدة الألعاب، وعاداتهم وطقوسهم الدينية الغربية، وفقدهم وما نتج عنه من قذارة، كان كل هذا سبباً في كراهية العناصر الأخرى لهم، وهي الكراهية المألوفة في تاريخهم الطويل. وقد ندد جوفنال بكثرة تناسلهم، كما ندد تاستس بوحدايتهم الدينية وأميانس مرسيلس Ammianus Marellinus بشغفهم بالثوم(20). وزادت البغضاء بينهم وبين غيرهم من الطوائف بعد استيلاء الرومان على بيت المقدس وسط معارك دموية، ومثلت في موكب النصر الذي استقبل به تاستس جماعة كبيرة من الأسرى اليهود والغنائم المقدسة، كما مثلت رموز من هذا النوع على ما أقيم له من أقواس النصر، وأضاف فسبازيان إلى أذاهم السخرية منهم وأمر أن يخصص من ذلك الوقت نصف الشاقل، الذي كان يرسله اليهود المشتتون لصيانة الهيكل، لتعمير رومة. على أن كثيراً من الرومان المتعلمين كانوا يعجبون بعقيدة التوحيد اليهودية، ومنهم من اعتنق هذا الدين، وكان الكثيرون منهم حتى من بين الأسر الغنية يتخذون يوم السبت اليهودي يوم عبادة وراحة.

وإذا ما أضفنا إلى اليونان، السوريين، والمصريين، واليهود، وبعض التوميديين، والنوبيين، والأحباش الأفريقيين؛ وقليلاً من العرب، والبارثيين والكبدوكيين، والأرمن، والفريجيين، والبنثيين الأفريقيين؛ و"البرابرة" الأقوياء من دلماشيا، وتراقية، وداشيا، وألمانيا، والأشراف ذوي الشوارب من غالة، والشعراء والفلاحين من أسبانيا؛ "المتوحشين ذوي الوشم من بريطانيا" إذا ما أضفنا هؤلاء كلهم إلى اليونان كانت لنا صورة من الأجناس المختلفة التي تتكون منها رومة الدولية. وقد دهش مارتياش أشد

الدهشة من قدرة عاهرات رومة على أن يكيفن لغتهن ومفاتنهن حسب أجناس من يترددون عليهن من هذا الخليط، وحسب أهوائهم(23). وكان جوفنال يقول وهو متألم إن نهر العاصي، أكبر أنهار سوريا يصب في نهر التيبير(24)، ووصف تاستس العاصمة بأنها "بالوعة أقدار العالم"(25). وكانت وجوه الشرقيين، وأساليبهم، وملابسهم، وألفاظهم، وحركاتهم، وإشاراتهم، ومنازعاتهم، وأفكارهم، وعقائدهم، عنصراً كبيراً من حياة المدينة الزاخرة، وما وافى القرن الثالث بعد الميلاد حتى كانت حكومة المدينة ملكية مطلقة كحكومات البلاد الشرقية، وما وافى القرن الرابع حتى كان دين رومة ديناً شرقياً، وحتى خر سادة رومة سجداً لإله الأرقاء.

على أن هذا الحشد الخليط لم يخل من عناصر النبل والكرامة، فقد هجر بسخطه على بوبيا عشيقة نيرون في الوقت الذي صمت فيه الشيوخ فلم يجرؤا على النطق بكلمة؛ وهاجم مجلس الشيوخ ليحتج على قتل أرقاء بدونيوس سكندس جملة(26)، ولم تكن الفضائل البسيطة التي يتحلى بها الرجل العادي معدومة في هذا المجتمع؛ فقد كانت حياة الأسرة اليهودية مثلاً يحتذى في الحياة الصالحة؛ وكانت الطائفة المسيحية القليلة العدد تقض بتقواها ورقة حاشيتها مضاجع العالم الوثني المنهمك في ملذاته وشهوته. لكن معظم الوافدين إلى رومة قد فسدت أخلاقهم بلا ريب حين انتزعوا من بيئاتهم، وثقافتهم، وقوانينهم الأخلاقية التي نشأوا فيها ودرجوا عليها. وقضت أعوام الاستعباد الطوال على ما كانوا يتصفون به من احترام الذات الذي هو عماد الاستقامة والخلق الطيب، وجردهم احتكاكهم في كل يوم بطوائف من الخلائق مختلفي العادات والمشارب من كثير مما بقي لهم من أخلاق كريمة تأصلت في نفوسهم بحكم العرف المألوف والعادة. ولو أن رومة لم تبتلع هذا العدد الكبير من الناس في هذا الوقت القصير، ولو أنها ألحقت هؤلاء الوافدين كلهم بمدارسها بدل أن تلحقهم بأقذر أحيائها، ولو أنها عاملتهم على أنهم رجال ذوو مزايا كامنة في نفوسهم تستطيع الكشف عنها

والانتفاع بها، ولو أنها أغلقت أبوابها حيناً بعد حين في وجه الوافدين حتى تستطيع عملية الهضم والتمثيل أن تجاري عملية الهجرة وتلاحقها، لو أنها فعلت هذا لكان في مقدورها في أكبر الظن أن تكسب من هذا الاندماج قوة عنصرية وأدبية جديدة، ولبقيت رومة رومانية، ولظلت حصن الغرب الحصين الناطقة بمبادئه والمعبرة عن آرائه. أما وهي لم تفعل هذا فقد كان ذلك الواجب شاقاً عليها لا تستطيع الاضطلاع به. وقضت على المدينة الظافرة سعة ملكها واختلاف الأجناس الخاضعة لحكمها، وورق دمها الوطني وخف في محيط رعاياها الزاخر، وانحطت طبقاتها المتعلمة إلى ثقافة من كانوا عبيداً لها، لأنهم لكثرتهم كانوا أقوى من سادتهم، فغلبت كثرة هؤلاء على فضائل أولئك ومميزاتهم؛ وأصبح المغلوبون المخصبون سادة في بيوت الأسياد العقيمين المجديين.

صفحة رقم : 3547

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبييقورية - التعليم

الفصل الثاني

التعليم

لسنا نعرف الشيء الكثير عن أطفال الرومان، ولكن في وسعنا أن نحكم، استناداً إلى الفن الروماني وشواهد القبور الرومانية، أن الأطفال كانوا بعد أن يولدوا يصبحون موضع الحب المفرط غير الحكيم. ونرى جوفنال يخرج أحياناً عن غضبه ليكتب قطعة رقيقة تفيض بالعاطفة عن المثل الطيبة التي يجب علينا أن نعرضها على الأطفال، وعن المناظر السيئة والأصوات المنفرة التي يجب أن نبعدهم عنها، وعن مظاهر الاحترام التي يجب أن نتحلى بها أمامهم في جميع الأوقات حتى الأوقات

التي نظهر لهم فيها منتهى الحب(27). ويطلب فافورينوس، في مقاله لو أن كتب بعد عهد روسو لكان تقليداً ساخراً له، إلى الأمهات أن يرضعن أولادهن(28). ويضرب سنكا وأفلو طرخس على هذه النعمة نفسها وإن لم يستمع إليهما إلا عدد قليل، فقد كان استخدام المراضع هو القاعدة المتبعة لدى جميع الأسر التي تمكنها مواردها من استخدامهن، ويبدو أن هذه العادة لم تنشأ منها مأس لهذه الأسر .

وكانت التربية الأولى تقوم بها المراضع، وكن في العادة يونانيات. وكن يقصصن عليهم قصصاً خرافية تبدأ عادة بهذه العبارة: "يحكى أن ملكاً وملكة...". وكان التعليم الابتدائي لا يزال من المشروعات الفردية، وكثيراً

صفحة رقم : 3548

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> التعليم

ما كان الأغنياء يستأجرون المربين لأبنائهم، ولكن كونتليان حذرهم من هذا العمل كما حذر منه إمرسن Emerson لأنه يحرم الطفل صداقة زملائه التي لا غنى له عنها في نشأته، كما يحرمه عامل المنافسة التي تنبه قواه وتنشطها. وكان أبناء الطبقات الحرة وبناتها يدخلون المدرسة الأولية عادة في سن السابعة، يصحب كلاً منهم في غدوه ورواحه "مرشد الطفل" (بداجوج Paedagogue) ليحافظ عليه من الناحيتين الجسمية والخلقية. وانتشرت هذه المدارس في جميع أنحاء الإمبراطورية فلم تخل منها بلدان الريف الصغيرة. وتوحي الكتابة المخرفشة التي كشف على جدران بمبي بأن أهلها لم يكن بينهم أميون، وأكبر الظن أن التعليم كان وقتئذ منتشراً في عالم البحر الأبيض انتشاراً لا يقل عنه في أي وقت سابق لهذا العهد أو لاحق. وكان المرشد (البداجوج) والمعلم (لودي ماجستر Ludi Magister) من اليونان الأرقاء أو المحررين. وكان كل تلميذ في أيام هوراس وفي البلدة التي كان يعيش فيها يؤدي للمدرس في كل شهر ثمانية أسات (48/100 من الريال الأمريكي)(30). وبعد ثلاثمائة وخمسين سنة من ذلك الوقت جعل دقلديانوس الحد الأعلى للمدرس في المرحلة الأولية من مراحل التعليم خمسين ديناراً (20 ريالاً أمريكياً) عن كل تلميذ في كل شهر؛ وفي وسعنا أن نحكم من هذا على ارتفاع قدر المدرس أو انخفاض قيمة الآس.

فإذا بلغ التلميذ (أو التلميذة) الثانية عشرة من عمره، وكان ناجحاً، أدخل مدرسة ثانوية أو عالية، وكان في رومة مائة وثلاثون مدرسة من هذا النوع. وكان التلاميذ يدرسون فيها قديراً أوفى من النحو، واللغة اليونانية، والآداب اليونانية واللاتينية، والموسيقى، والفلك، والتاريخ، والأساطير، والفلسفة؛ وكانت الطريقة المألوفة في هذه الدراسة هي المحاضرات التي تشرح أقوال الشعراء الأقدمين. ويلوح أن منهج الدراسة حتى هذه المرحلة كان واحداً للذكور والإناث

صفحة رقم : 3549

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبييقورية - التعليم

على السواء، ولكن البنات كثيراً ما كن يتلقين فضلاً عن هذا دروساً في الموسيقى والرقص. وإذا كان المدرسون في المدارس الثانوية (جرماتيشي Grammatici) من المحررين اليونان على الدوام، فقد كانوا يوجهون معظم اهتمامهم إلى آداب اليونان وتاريخهم بطبيعة الحال؛ ومن أجل هذا اصطبغت الثقافة الرومانية بالصبغة اليونانية، حتى إذا ما أشرف القرن الثاني الميلادي على نهايته، كانت اللغة اليونانية لغة التعليم العالي كله تقريباً، وضاعت الآداب اللاتينية في غمرة علوم ذلك العصر وثقافته. أما الدراسات التي تعادل الدراسات في الكليات والجامعات في هذه الأيام فكان مقرها مدارس الخطباء. ولم يكن في الإمبراطورية مكان يخلو من الخطباء الذين يدافعون عما يستأجرونهم في دور القضاء أو يكتبون لهم الخطب، أو يلقون المحاضرات العامة، أو يعلمون التلاميذ فن الخطابة، أو يقومون بهذه الأعمال كلها. وكان الكثيرون منهم ينتقلون من مدينة إلى مدينة، يتحدثون في الأدب، أو الفلسفة أو السياسة، ويعرضون على المستمعين كيف يطرقون أي موضوع بمهارة الخطباء البلغاء. ويحدثنا بلني الأصغر عن إسيوس Isaeus اليوناني وكان وقتئذ في الثالثة والستين من عمره فيقول: كان يعرض على سامعيه عدة أسئلة للمناقشة ويترك لهم الحرية الكاملة في اختيار أيها يشاءون، بل كان يطلب إليهم أحياناً أن يختاروا له الناحية التي يجب أن يؤيدها، ثم يقوم، ويرتدي ثوبه ويبدأ حديثه... وكان يعرض موضوعه عرضاً لبقاً جميلاً، وكان قصصه واضحاً، ونقاشه متيناً قوياً يشهد بالذكاء والفتنة، ومنطقه قوياً، ولغته بليغة إلى أقصى حدود البلاغة(13).

وكان يسمح لهؤلاء الرجال أن يفتتحووا المدارس، ويستخدموا فيها مساعدين لهم، ويجمعوا عدداً كبيراً

من الطلاب. يدخلونها حوالي لسنة السادسة عشرة من العمر، ويدفعون من الأجور ما يصل أحياناً إلى ألفي سسترس

صفحة رقم : 3550

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> التعليم

عن كل منهج في مادة من مواد الدراسة. وكانت أهم موضوعات الدرس هي الخطابة، والهندسة النظرية، والفلك، والفلسفة-وكانت هذه المادة الأخيرة تشمل الكثير مما يطلق عليه الآن اسم العلوم الطبيعية. ويتكون من هذه المواد ما يعرف "بالتعليم الحر" أي المخصص لأبناء الأغنياء الأحرار (Homoliber)، وهم الذين لم يكونوا في أغلب الظن يقومون بأي عمل جثماني. وقد شكوا بترونيوس، كما يشكو كل جيل، من أن التعليم لا يؤهل الشبان لمواجهة ما سوف يعترضهم من المشاكل في مستقبل حياتهم فيقول: "إن المدارس هي الملومة فيما يتصف به شبابنا من سخف وبلاهة، لأنهم لا يستمعون فيها إلى شيء من شئون الحياة اليومية" (32). وكل ما نستطيع أن نقوله نحن عنها كانت تربي في الطالب المجد ملكة التفكير الواضح السريع، الذي امتازت بها مهنة القضاء في جميع العصور، وعلمتهم تلك البلاغة الخالصة التي لا تنقيد بالقويم من المبادئ أو الأخلاق، والتي امتاز بها خطباء الرومان. ويبدو أن هذه المدارس لم تكن تمنح خريجها إجازات علمية؛ وكان في وسع الطالب أن يبقى فيها ما يشاء، وأن يختار من المواد ما يريد؛ من ذلك أن لوس جليوس Gellius Aulus بقى في إحداها حتى بلغ الخامسة والعشرين. وكانت مفتحة الأبواب للنساء حتى المتزوجات منهن. ومن شاء من الطلاب أن يستزيد من التعليم انتقل إلى أثينة لدراسة الفلسفة من منابعها الفياضة، أو إلى الإسكندرية لدراسة الطب، أو إلى رودس لدراسة آخر دقائق علوم البلاغة. وكان شيشرون يدفع عن ابنه في جامعة أثينة ما قيمته أربعة آلاف ريال أمريكي في كل عام. وكانت مدارس البلاغة حين جلس فسبازيان على العرش قد بلغت من الكثرة وقوة النفوذ درجة رأى معها هذا الإمبراطور الداهية أن من الحكمة أن ينقل كبرياتها إلى العاصمة، وأن يضعها تحت إشراف الحكومة، وذلك بأن يدفع إلى كبار الأساتذة فيها مرتبات من قبل الدولة، بلغ أعلاها

مائة ألف سسترس (نحو عشرة آلاف ريال أمريكي) في كل هام. ولسنا نعرف كم عدد الأساتذة الذين خصهم فسبازيان بهذه المرتبات أو عدد المدن التي فاضت عليها أمواله. ولكننا نسمع بالإضافة إلى هذا عن هبات من الأفراد للتعليم العالي، كما فعل بلني الأصغر في كومم (33Comum). وأعطى تراجان رواتب لخمسة آلاف طالب، كان لهم من العقل أكثر مما لهم من المال. فلما جلس هدریان على العرش كانت البلديات هي التي تنفق على المدارس الثانوية في معظم مدائن الإمبراطورية؛ وخصص معاش للمدرسين بعد تقاعدهم. وأعطى هدریان وأنطونيوس كبار الأساتذة في كل مدينة من الضرائب وغيرها من الأعباء العامة. وبلغ التعليم ذروته في الوقت الذي انتشرت فيه الخرافات، وفسدت الأخلاق وذوي غصن الآداب.

الفصل الثالث

الرجال والنساء

كانت الحياة الخفية خاضعة للرقابة الشديدة عند البنات وللاشراف مع الرفق عند الشبان. وكان الرومان، كما كان اليونان، يتفاوضون عن اتصال الرجال بالعاشرات. وكانت هذه المهنة ينظمها القانون ويخضعها لإشرافه، فكان يحتم ألا توجد المواخير إلا في خارج المدن، وألاً تفتح إلا ليلاً، وكان يناط بالإيدل تسجيل أسماء العاشرات، ويحتم عليهن أن يلبسن الطوغة Toga بدل الاستولا Stola. وكان بعض النساء يسجلن أسماءهن في سجل العاشرات ليتخلصن من ضروب العقاب التي يفرضها القانون على الزانيات. وكانت الأجور تحدد بحيث لا ترهق أي طبقة من الطبقات. فقد وصلت إلينا أنباء عن "نساء يؤجرن بربع آس". ثم نشأت طائفة مطردة الزيادة من السراري المتقفات اللاتي يسعين لكسب الأنصار بإنشاد الشعر، والغناء، والموسيقى، والرقص، والحديث المتقف. ولم يكن الإنسان في حاجة إلى الخروج من أسوار المدينة للبحث عن هاته النسوة أو عن غيرهن من السيدات الطيبات؛ ويؤكد لنا أوفد لنا أن من السهل أن يلقاهن تحت الأروقة ذات العمد، وفي حلبات المصارعة، وفي دور التمثيل، وأنهن "لم يكن أقل عدداً من نجوم السماء" (34). وقد التقى جوفنال بهن بجوار المعابد وخاصة معبد إيزيس الآلهة الرؤوفة بالعاشقين (35). ويتهم المؤرخون المسيحيون الرومان بأن الدعارة كانت تمارس داخل الهياكل الرومانية وبين مذابحها (36). وكان في البلاد أيضاً رجال مخنثون. وكان اللواط محرماً بحكم القانون ولكنه

صفحة رقم : 3553

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبييقورية - الرجال والنساء

كان مباحاً بحكم العادة، واسع الانتشار لا يرى فيه مسبة ولا عار. انظر إلى قول هوراس: "لقد أصاب قلبي سهم الحب"، فهل يعرف القارئ من الذي رمى الشاعر بهذا السهم؟ إنه "اليسيكوس الذي لا تضارعه أية امرأة في رفته"؛ ولا شيء يشفي الشاعر من هذه العاطفة القوية "إلا شعلة أخرى من نار الحب تشعلها بين جوانحه فتاة جميلة أو يشعلها فتى آخر نحيل" (37). وتدور خير نكات مارتياي الشعرية حول اللواط. ومن قصائد جوفنال في الهجو قصيدة لا يليق نشرها تردد شكوى إحدى النساء من هذه المنافسة المرذولة منافسة الغلمان للنساء (38). وكان الغزل الشعري في الذكور والإناث على اختلاف قيمته واسع الانتشار بين الشباب والفتيان الذين لم تتضح أجسامهم بعد.

وكان ثمة صراع شديد بين الزواج وبين هذه المنافذ الجنسية المنافسة له، وكان يجد له أنصاراً من الذين يتوقون لأن يكون لهم أبناء، ومن سمسرة الزواج، وبفضل هذا العون كان في وسع كل فتاة تقريباً أن تجد لها زوجاً مؤقتاً على الأقل. وكانت النساء غير المتزوجات اللاتي يجاوزن التاسعة عشرة من العمر يعتبرن عوانس ولكن عددهن كان قليلاً. وقلماً كان الخطيب يرى خطيبته قبل الزواج، ولم تكن هناك مغازلة وتحبيب، وليس في لغة الرومان لفظ للتعبير عن هذا المعنى. وقد شكنا سنكا من أن كل شيء يجرب قبل الشراء عدا الزواج فإن العريس لا يجرب عروسه (39). ولم تكن الرابطة العاطفية قبل الزواج مألوفة، وكان الشعر الغزلي يخاطب به النساء المتزوجات أو النساء اللاتي لا يفكر الشاعر قط في أن يتزوج بهن. وكانت مداعبة النساء تأتي بعد الزواج، كما كان يحدث في الظروف المشابهة لظروف الرومان في فرنسا في العصر الوسيط وفي هذه الأيام. وكان سنكا الأكبر يعتقد أن الزنى منتشر بين نساء الرومان في أوسع نطاق (40)، وكان ابنه الفيلسوف يظن المرأة المتزوجة التي تقنع بعاشقين تعد آية في الإخلاص لزوجها (41). ويقول أوفد الساخر: "ليس ثمة نساء طاهرات إلا اللاتي لم يطلبهن أحد، وإن

صفحة رقم : 3554

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبييقورية - الرجال والنساء

الرجل الذي يغضب من صلوات زوجته الغرامية رجل جلف" (42). قد لا تكون هذه إلا أساليب أدبية مما يلجأ إليها الكتّاب، ولعل أصدق منها تلك القبرية التي كتبها كونتس فسبلو Quintus Vespillo على قبر زوجته: "قلماً يدوم زواج حتى الموت من غير طلاق، ولكن زواجنا ظل زواجاً سعيداً إحدى وأربعين سنة" (43). ويحدثنا جوفنال عم امرأة تزوجت ثماني مرات في خمس سنين (44)؛ وسبب ذلك أن الرابطة بين الزوجين لم تكن في بعض الأحيان هي الحب بل كانت المال أو السياسة، ومن أجل ذلك كانت بعض النساء يرين أنهن قد أدين واجبهن كاملاً إذا ما أسلمنا بانذتهن إلى أزواجهن وأجسامهن إلى عشاقهن. ويقول جوفنال على لسان زانية تخاطب زوجها الذي فاجأها على غير انتظار: "ألم نتفق على أن يفعل كل منا ما يحلو له؟" (45). وكان للمرأة في ذلك العهد مثل ما لها الآن من "الحرية" الكاملة إذا ما استثنينا من ذلك الحقوق السياسية الشكلية وحرفية القوانين الميتة. لقد كان

التشريع يبقي المرأة خاضعة أسيرة، ولكن العادة جعلتها حرة طليقة.
وكان معنى هذا التحرر في بعض الأحيان أن تقوم بنصيبتها من العمل كما هي الحال في هذه الأيام؛
فمنهن من كن يعلمن في الحوانيت أو المصانع وخاصة في الحرف المتصلة بالنسيج، ومنهن من
أصبحن محاميات أو طبيبات(46)، وأصبح لبعضهن سلطان سياسي قوي؛ وكانت زوجات حكام
الأقاليم يستعرضن الجند ويخطبنهم(47). وكانت العذارى الفستية يتوسطن لأصدقائهن في الحصول
على المناصب السياسية، وكانت نساء بمبي ينقشن على الجدران أسماء من يفضلن من الرجال لتولي
هذه المناصب. وكان المحافظون يبدون الألم والشماتة حين ظهر لهم أن قد وقع ما حذرهم منه كاتو
حين قال إن النساء إذا ما تساوين بالرجال سيحولن هذه المساواة إلى سيادة لهن. وقد ارتاع جوفنال
رأى من النساء ممثلات، ورياضيات، ومصارعات وشاعرات(48)، ويصفهن مارتال بأنهن
بصار عن

صفحة رقم : 3555

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبييقورية - الرجال والنساء

الوحوش، ومنها السباع في المجتلد(49). ويحدثنا استاتيوس عن نساء قتلن في هذه
المصارعات(50). وكانت النساء ينتقلن في الشوارع محمولات في الهودج: "يعرضن أنفسهن من كل
ناحية للناظرين"(51). وكن يتحدثن إلى الرجال في الأروقة، والمنتزهات والحدائق، وساحات المعابد؛
وبرافقنهم إلى المآدب العامة والخاصة، وإلى المدرجات، ودور التمثيل، حيث "تكون أكتافهن العارية"
كما يقول أوفد "من المناظر التي تسر العين وتبعث على التفكير"(52). والحق أن المجتمع الروماني
في ذلك العهد كان مجتمعاً مرحاً، متعدد الألوان، مختلط الصلات الجنسية، لو شهدته اليونان في عصر
بركليز لتولتهم منه الدهشة. وكانت نساء الطبقات الراقية في فصل الربيع يملأن القوارب، والشواطئ،
والبيوت الريفية ذات الحدائق في باي Baiae وغيرها من المصايف تعج بضحكهن، ويعرضن فيها
جمالهن، ومغامرات عشقهن، ودسائسهن السياسية. وكان الطاعنون في السن من الرجال ينددون بهذه
الفعال وهم يتمنون أن لو استطاعوا الاستمتاع بها.
وكانت النساء الطائشات أو الفاسدات يؤلفن وقتئذ كما يؤلفن الآن أقلية ظاهرة تقع عليها العين في كل

مكان. وكان ثمة عدد يماثلهن- وإن لم يكن على الدوام ظاهرات مثلهن- من النساء اللاتي يعشقن الفن أو الدين أو الأدب. فقد كان الرومان يرون أن شعر سابيشيا Sulpicia جدير بأن يتناقله الناس كشعر تيبلس Tibullus سواء بسواء. وكان شعرها غرامياً متطرفاً في الغرام، ولكنه كان موجهاً إلى زوجها ولهذا لا تكاد ترى فيه ما يبغده عن الفضيلة(53). وكانت ثيوفيليا Theophila صديقة مارتيا ل فيلسوفة، متمكنة من مبادئ الرواقيين والأبيقوريين، وكانت بعض النساء يشغلن وقتهن في الأعمال الخيرية والخدمات الاجتماعية، ومنهن من أنشأن في مدنهن المعابد، ودور التمثيل، والأروقة ذات العمد، وكن يناصرن جماعات الكهنة. وفي نقش عند لنورفيوم Lanurvium

صفحة رقم : 3556

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبيقورية - الرجال والنساء

حديث "عن جمعية النساء" (Mulierum Curia). وكان في رومة ناد للسيدات، ولا يبعد أن إيطاليا كان بها اتحاد أهلي لنوادي النساء. ومهما يكن من أمر هذه النوادي والمجتمعات فإننا بعد أن نقرأ ما كتبه عنها مارتيا ل وجوفنال لا نكاد نصدق أنه كان في رومة هذا العدد الكبير من فضليات النساء. كان فيها أكتافيا التي ظلت وفيه لأنطونيوس رغم خياناته الكثيرة لها، تربي أبناءه من زوجات أخرى؛ وكان فيها أنطونيا ابنتها المحبوبة وأرملة دروسس الطاهرة وأم جرمانكوس الكاملة؛ وملونيا Mallonia التي أنبت تيبيريوس على ملاء من الناس لكثرة آلامه ثم قتلت نفسها، وأريابيتا Arria Paeta التي طعنت صدرها بالخنجر حين تلقى زوجها كاسينا بيتس Caecina Paetus أمر كلوديوس بأن يقتل نفسه ثم أسلمت هذا الخنجر وهي تحتضر إلى زوجها وهي تؤكد له "أنه لا يؤلم(45)"، وبولينا التي حاولت أن تموت مع سنكا؛ وبولنا التي حاولت أن تموت جوعاً حين أمر نيرون بقتل زوجها، ثم انتحرت مع أبيها، لما أن صدر أمر نيرون بقتله(55). وإيكارس Epicharis المعتوقة التي تحملت كل أنواع العذاب ولم تكشف عن مؤامرة بيزو Piso. وإن تنس لا تنس النساء الكثيرات اللاتي أخفين أزواجهن وحمينهن في عهد القتل والتعذيب والتشريد، واللاتي رافقنهم في المنفى، أو دافعن عنهم كما دافعت فانيا Fannia عن زوجها هلفديوس Helvidius، وعرضن أنفسهن لأشد الأخطار" إن هؤلاء وحدهن إذا وزن في ميزان مع العاهرات اللاتي ورد ذكرهن في نكات

مارتيال وقوارص جوفنال ليرجنن عليهن بلا ريب.

وكان من وراء هؤلاء النسوة اللاتي اشتهرن ببطولتهن كثيرات من النساء المغمورات اللاتي لم يذكر التاريخ أمرهن واللاتي كان وفاؤهن لأزواجهن وتضحياتهن في سبيل أبنائهن الدعامة القوية التي أبتقت على صرح الحياة الرومانية. لقد ظلت الفضائل الرومانية القديمة- فضائل التقى والوقار

صفحة رقم : 3557

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> الرجال والنساء

والبساطة- والإخلاص المتبادل بين الأبناء والآباء، والشعور بالتبعية الصادرة عن تعقل ورزانة، والابتعاد عن الإسراف والتظاهر الكاذب، ظلت هذه الفضائل كلها باقية في البيوت الرومانية. إن الأسر المهذبة الرقيقة السليمة التي يصفها بلني في رسائله لم تبدأ فجأة في عهد نيرفا وتراجان، بل كانت باقية هادئة في أيام الطغاة المستبدين، حافظت على كيانها رغم تجسس الأباطرة، وتسفل الشعب المهين الذليل، وانحطاط الفسقة والأراذل والمومسات. وإنا لنلمح ومضات من ضياء هذه البيوت في القبريات التي يكتبها الأزواج لأزواجهم والأدباء لأبنائهم. وهاك واحدة منها: "هنا تثوي عظام أربليا Urbilia زوجة بريمس Primus. لقد كانت أعز عليّ من حياتي نفسها، لقد قضت نحبا في الثالثة والعشرين من عمرها محبوبة من الجميع. وداعاً يا سلوتي!" وجاء في قبرية أخرى: "إلى زوجتي العزيزة التي عشت معها ثمانية عشر عاماً سعيدة. ولقد لأقسمت من فرط حبي لها ألا أتزوج قط غيرها" (56). وفي وسعنا أن نتصور أولئك النساء في بيوتهن-يغزلن الصوف، يعذرن أبناءهن ويعلمنهم، ويرشدن الخدم إلى واجباتهم، ويحسن القيام على مصروفهن القليل، ويشتركن مع أزواجهن في عبادة آلهة البيت التي اعتدن أن يعبدنها من أقدم الأزمان. ولقد كانت رومة رغم ما فيها من فساد، لا بلاد اليونان، هي التي رفعت شأن الأسرة وسمت بها في مدارج الرقي الجديدة في العالم القديم.

صفحة رقم : 3558

الفصل الرابع

الثياب

إذا جاز لنا أن نحكم على الرومان من بضع مئات من التماثيل، قلنا إن رجال الرومان في عهد نيرون كانوا أكثر بدانة، وألين أجساماً، وأرقى ملامح من أمثالهم في عصر الجمهورية الناشئة. لقد كانت سيطرة الرومان سبباً في احتفظ الكثيرين منهم بالصلابة وشدة المراس، يخشاهم الناس أكثر مما يحبونهم؛ ولكن الطعام والخمر والكسل أثرت في أجسام غير هؤلاء فأكسبتهم بدانة لو أنها كانت في أسرة سيبو لجللتها العار. وكانوا لا يزالون يحلقون لحاهم - أو على الأصح كان لهم حلاقون (Tensores) يحلقون على لحاهم. وكان اليوم الذي يحلق فيه الشاب لحيته أول مرة يوم يحتفل به في حياته. وكثيراً ما كان يهب شعر عارضية الأول إلى إله من الآلهة دليلاً على ورعه وتقواه (57). وقد احتفظ العامة من الرومان بعبادتهم التي كانوا عليها في عهد الجمهورية عادة تقصير شعر رؤوسهم، أو إزالته كلها، ولكن عدداً متزايداً من الغنادرة كانوا يقصون شعرهم. وهكذا يمثل لنا ماركس أنطونيوس ودومتيان. وكان كثير من الرجال يتحلون بالشعر المستعار، ومنهم من كانوا ينقشون على قحوف رؤوسهم ما يشبه الشعر (58). وكانت جميع الطبقات في العهد الذي نتحدث عنه تلبس داخل البيوت وخارجها اللفاعة البسيطة Tunic أو الصدر الواسعة Blouse؛ أما الطوغة (Toga) أو الجبة الرومانية فلم تكن تلبس إلا في المناسبات الرسمية، وكان يلبسها الموالي حين يستقبلهم الشريف الذي يحميهم،

والأشراف إذا ذهبوا إلى مجلس الشيوخ أو مشاهدة الألعاب. وكان قيصر يلبس طوغة أرجوانية ويتخذها شعاراً لمنصبه، وقد حذا حذوه في هذا كثيرون من كبار الموظفين، ولكن الطوغة الأرجوانية لم تلبث أن أصبحت امتيازاً خاصاً بالأباطرة. ولم يكونوا يعرفون السراويل (البنطلون) التي تضايقنا في هذه الأيام، ولا الأزرار الخداعة التي لا فائدة للكثير منها، ولا السراويل المنتفخة الضيقة عند الركبتين. لكن الرجال بدءوا في القرن الثاني يلفون أرجلهم باللفافات العريضة Fasciae، أما الأحذية فكانت تختلف من الخف البسيط- وهو نعل من الجلد أو الفلين مشدود بشريط من الجلد بين الإصبع الكبرى والتي تليها كما يفعل أهل نيبون Nippon- إلى الحذاء الكامل المصنوع كله من الجلد أو الجلد والقماش. وكانوا ينتعلونه عادة مع الطوغة في المناسبات التي تتطلب ارتداء الثياب الكاملة. أما النساء الرومانيات في عهد الإمبراطورية الأولى، كما نشاهدن في المظلمات وفي التماثيل وعلى النقود، فقد كن ذوات شبه قريب بنساء الولايات المتحدة الأمريكية في بداية القرن العشرين إذا استثنينا من هذا التعميم أنهن كلهن تقريباً كن ذوات بشرة سمراء. وكانت أجسامهن متوسطات في النحافة، وكانت أثوابهن تخلع عليهن قواماً رشيماً فاتناً، وكن يدركن قيمة ضياء الشمس، والرياضة، والهواء الطلق، وما لها من أثر في صحة الجسم واعتدال القوام، وكان منهن من يمارسن الألعاب الرياضية بالأتقال، ومنهن من لا ينقطعن عن السباحة، ومن يعشن على نظام خاص من الطعام. وكان بعضهن يربطن صدورهن بالمشدات(59). وكانت النساء في العادة يمشطن شعرهن ويعقدنه خلف العنق، وكن في الغالب يغطينه بالشباك، ويربطنه بشريط فوق الرأس. وتطلبت الأزياء المستحدثة بعدئذ تنظيماً جديداً للشعر أرقى من هذا التنظيم القديم، فكان يرفع أحياناً فوق أسلاك معدنية، وتضاف إليه غدائر مستعارة شقراء اللون مأخوذة من شعر الفتيات الألمانيات(60). وكانت المرأة المتطرفة على

وكانت أدهان الوجه والشعر كثيرة كثرتها في هذه الأيام. ويقول جوفنال إن "التجميل" كان من أهم فنون ذلك العصر، وقد كتب فيه الأطباء، والملكات، والشعراء، مجلدات (62). وكان صوان السيدة الرومانية مستودعاً غاصاً بالأدوات - من ملاقط، ومقصات، وأمواس، ومبارد، وفراجين، وأمشاط، ومكاشط، وشباك للشعر، وضمائر مستعارة - وأباريق أو قناني للعطور، والأدهان والزيوت والمعاجين، وحجارة الخفاف، والصابون. وكانت الجموش تستخدم لإزالة الشعر، والمراهم المعطرة لتمويجه أو تثبيته. وكانت كثيرات من النساء تضع على أوجههن في الليل غماء من العجين ولبن الأتان وهو مزيج اصطنعته بوبيا Poppea لأنها وجدت فيه عوناً لها على إخفاء عيوب وجهها. ومن أجل هذا كانت الأتانات تصحبها أينما سافرت، وكانت أحياناً تصطحب قطعاً كاملاً منهن وتستحم بلبنهن (63). وكانت النساء يطلين وجوههن بالمساحيق والمعاجين البيضاء أو الحمراء، ويصبغن حواجبهن ورموشهن، أو يطلينها باللون الأسود؛ وكانت الأوعية الدموية في الصدغين ترسم فوقها أحياناً خطوط دقيقة زرقاء (64). وكان مما يشكو منه جوفنال أن المرأة الغنية تكثر من مراهم بوبيا التي تلتصق بشفتي زوجها المنكود الحظ، الذي لا يرى وجهها قط. وكان أوفد يرى هذه الفنون كلها خداعاً في خداع، وينصح السيدات أن يخفينها كلها عن عشاقهن عدا تمشيط شعرهن الذي يسبي عقله (66). وأضيفت الثياب الكتانية الرفيعة في ذلك العهد إلى أثواب النساء البسيطة التي كن يلبسها قبل حروب هنيبال. وكانت خمرهن تسدل فوق أكتافهن، والبراقع تخفي الوجوه فتزيدهن إغراء وفتنة. وكانت الثريات من النساء يلبسن في الشتاء أثواباً من الفراء تزيدهن جمالاً على جمالهن. أما الحرير فكان واسع الانتشار يلبسه الرجال والنساء على

صفحة رقم : 3561

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبيقورية - الثياب

السواء. وكان هو والتيل يصبغ بالأصباغ الغالية، وكثيراً ما كان الثري الروماني يدفع ألف دينار ثمناً لرطل من صوف صور المزوج الصباغة (67). وكان التطريز بخيوط الذهب والفضة يستخدم لتزيين الثياب، والسجف، والطنافس، وأغطية، الفرش. وكانت أحذية النساء تصنع من الجلد اللين الرقيق أو القماش، وتفصل أحياناً تفصيلاً جميلاً، وكانت مفتوحة من أعلاها، تزركشن أحياناً بالذهب

وتحلى بالجواهر (68)، وتضاف إليها الكعوب العالية أحياناً لتعوضهن ما حرمتهن منه الطبيعة. وكانت الجواهر عنصراً هاماً في جهاز النساء، فكانت الخواتم، والأقراط وعقود العنق والصدر، والتمائم، والأساور، والمشابك، من مستلزمات الحياة. وقد ارتدت لوليا بولينا Lollia Poulina يوماً ما ثوباً مغطى من رأسها إلى قدمها بالزمرد واللؤلؤ، وكانت تحتفظ معها بالإيصالات الدالة على أن هذه الجواهر قد كلفتها أربعين مليون سسترس (69). ويصف بلني أكثر من مائة نوع مختلفة من الحجارة الكريمة المعروفة في رومة. وكان تقليد هذه الجواهر تقليداً محكماً صناعة رائجة يشتغل بها عدد كبير من الصناع. وكان "الزمرد" الروماني المصنوع من الزجاج أرقى كثيراً من مثيله في هذه الأيام، وقد ظل بائعو الجواهر يبيعونه على أنه زمرد حقيقي حتى القرن التاسع عشر بعد الميلاد (70). وكان الرجال والنساء على السواء مولعين باقتناء الحجارة الكبيرة التي تستلفت النظر؛ وقد وضع أحد أعضاء مجلس الشيوخ في خاتم له "عين هر" في حجم البندقية، ولما سمع بذلك أنطونيوس، أمر بأن يدون اسمه في سجل المحكوم عليهم بالنفي؛ ولكن الشيخ فر وفي إصبعه مليوناً سسترس. وما من شك في أن الجواهر كانت في ذلك الوقت - كما كانت في كثير من الأحيان - وقاية من التضخم المالي أو الثورة. وكانت الصحافة الفضوية وقتئذ مألوفة عند جميع الطبقات إلا أفقرها. وقد أصدر تيبيريوس وغيره من الأباطرة

صفحة رقم : 3562

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبييقورية - الثياب

الذين جاءوا بعد عدة مراسيم تحرم الترف، ولكنه لم يكن في وسعه إرغام الناس على طاعتها، وسرعان ما أغفل أمرها. وخضع تيبيريوس للأمر الواقع وأقر بأن تبذير الأشراف والحديثي النعمة يحول بين الصناع في رومة والشرق وبين التعتل، ويساعد على تسرب خراج الأقاليم من العاصمة. ويقول "كيف تستطيع رومة، وكيف تستطيع الولايات، أن تعيش بغير الترف؟". ولم تكن ثياب النساء والرجال في رومة أكثر ترفاً من ثياب نساء هذه الأيام، أو أكثر فخامة أو غلى ثمناً من ثياب الأشراف في العصور الوسطى. ولم تكن الأزياء تتبدل في رومة بالسرعة التي تتبدل بها في المدن الحديثة، بل كان الثوب الحسن يبقى مدى الحياة في بعض الأحيان دون أن يصبح زياً

عنيفاً. ولكننا إذا وازنا بين حياة الطبقات العليا في رومة وبينها في عصر الجمهورية قبل أن يأتي بمبي لوكلس بغنائم الشرق وملذاته، حكمنا بأن رومة أضحت في العصر الذي نتحدث عنه جنة ينعم بها المترفون بأفخر الثياب وأشهى الطعام المختلف الأنواع، وأجمل الأثاث، وأفخم البيوت. ولما أن جرد الأشراف مما كان لهم من زعامة سياسية، وكادوا يحرمون كل سلطان سياسي، وانسحبوا من الجمعيات السياسية إلى قصورهم، ولم يكن عليهم من أنفسهم وازع من الأخلاق اللهم إلا وازع الفلسفة، أطلقوا العنان لشهواتهم وأخذوا يسعون لاغتراف اللذة والتتعم بفن الحياة.

صفحة رقم : 3563

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبيقورية - يوم في حياة روماني

الفصل الخامس

يوم في حياة روماني

لقد سار الترف في المنزل أسرع من سير الترف في الملابس، وحسبنا أن نذكر من بين مظاهر الترف التي كانت تزدان بها القصور في عصر نيرون أرضها المصنوعة من الرخام والفسيفساء، وأعمدتها المقامة من الرخام والمرمر والجزع المختلف الألوان، وجدرانها المزدانة بالصور الزاهية أو المطعم بالحجارة الغالية الثمن، وسقفها المصفحة بالذهب (71) أو المغطاة بألواح الزجاج السميك (72)، ونضدها المصنوعة من خشب الليمون وأرجلها من العاج، وآرائها المنقوشة بأصداف السلاحف أو العاج أو الفضة أو الذهب، والاستبرق الإسكندري أو الأغطية البابلية التي كان يدفع فيها الأثرياء العاديون ثمانمائة ألف سسترس ويدفع فيها نيرون أربعة ملايين (73)، والأسرة البرونزية ذات الكلال، والثريبات من البرونز أو الرخام أو الزجاج، والتمائيل، والصور الملونة، والتحف الفنية، والمزهريات المصنوعة من البرونز الكورنثي أو الزجاج المرهيني؛ حسبنا أن نذكر هذه ليتبين

القارئ ما كان ينعم به الأثرياء في ذلك العهد.

لقد كانت القصور أشبه الأشياء بالمتاحف، وكان لا بد من استيراد العبيد ليحرس بعضهم هذه الثروة الطائلة، ويحرس البعض الآخر هؤلاء الحراس؛ وكان في بعض البيوت أربعمئة من هؤلاء العبيد، يخدمون صاحب البيت وأسرته، أو يشرفون على بيته، أو يشتغلون ببعض الصناعات المنزلية؛ وكانت حياة الرجل حتى في أخص خصائصها يطلع عليها هؤلاء العبيد. لقد كان يأكل والأتباع عن يمينه وشماله، ويخلع ملابسه وعند كل حذاء من حذائه عبد، ويضطجع ليستريح وعند كل باب

صفحة رقم : 3564

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبيقورية - يوم في حياة روماني

من أبوابه خادم. لم تكن هذه هي الجنة بل كانت هي الشقاء كل الشقاء؛ وكأنما أراد الثري الروماني العظيم أن يزيد حياته شقاء على شقائها، فكان يبدأ يومه حوالي الساعة السابعة باستقبال "مواليه" والمتطفلين عليه يعرض عليهم خدمه ليقبلوهما، ثم يفطر بعد ساعتين أو نحوهما من ذلك الوقت، ويستقبل من يزورونه من أصدقائه أو يرد لهم الزيارات. وكانت آداب اللياقة تحتم على الرجل أن يرد الزيارة لكل صديق يزوره، ويساعده في قضايا وفي قضايا مطالبه، ويشهد الاحتفال بخطبة ابنته وبلوغ ابنه سن الرشد، وقراءة قصائده والتوقيع على وصيته. وكان يؤدي وغيرها من الواجبات الاجتماعية بأدب ومجاملة لا يفوقهما أدب أو مجاملة في أية حضارة من الحضارات. ثم يذهب الرجل العظيم إلى مجلس الشيوخ، أو يعمل في إحدى اللجان الحكومية، أو يشرف على شئونه الخاصة. أما حياة الرجل صاحب الثروة المتواضعة فكانت أبسط من هذه الحياة السابق وصفها، ولكنها لم تكن أقل منها مشقة، فكان إذا انتهى من زيارات الصباح الاجتماعية عني بأعماله الخاصة حتى منتصف النهار. وكان عامة الناس يبادرون بالذهاب إلى أعمالهم من مطلع الشمس، ذلك أن الروماني العادي كان ينتفع بيومه على أكمل وجه لأنه لم يكن يشترك في الحياة الاجتماعية في أثناء الليل. وكان يتناول وقت الظهر غداء خفيفاً، ويتناول وجبة كاملة في الساعة الثالثة أو الرابعة، وتتأخر هذه الوجبة كلما كان الرجل أرقى منزلة. وكان الفلاح أو العامل الأجير بعد أن يتغدى ويغفو قليلاً يعود إلى عمله إلى قرب الغروب، أما غير الفلاح والأجير فكانوا يخرجون إلى التنزه في الخلاء أو في

الحمامات العامة. وكان الرومان في عهد الإمبراطورية يرون الاستحمام أوجب عليهم من عبادة الآلهة، وكانوا كاليابانيين يطبقون الروائح العامة أكثر مما يطبقون رائحتهم الخاصة، ولم يكن يضارعه شعب آخر في نظافة الجسم غير المصريين. وكانوا يحملون معهم مناديل (Sudaria) ليمسحوا بها عرقهم(74)، ويصطنعون

صفحة رقم : 3565

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبييقورية - يوم في حياة روماني

الفرجون لتنظيف أسنانهم بالمساحيق والمعاجين. وكانوا في عهد الجمهورية الأول يكتفون بالاستحمام مرة كل ثمانية أيام، أما في الوقت الذي نتحدث عنه فكان الروماني يستحم كل يوم وإلا نالته نكتة من نكات مارتياي. ويقول جالينوس إن القرويين أنفسهم كانوا يستحمون كل يوم(75). وكان في معظم البيوت أحواض للإستحمام، أما بيوت الأغنياء فكان فيها حمامات وتوابعها يتلأأ فيها الرخام والزجاج والصنابير وصفائح الفضة المثبتة على الجدران(76). لكن الكثرة الغالبة من أحرار الرومان كانت تعتمد على الحمامات العامة.

وكانت هذه الحمامات في العادة ملكاً للأفراد، وكان عددها في رومة عام 33 ق. م مائة وسبعين حماماً، وفي القرن الرابع بعد الميلاد كان فيها 856 حماماً عدا حمامات السباحة العامة البالغ عددها 1332(77). وكان أهم من هذه وتلك وأكثر اجتذاباً للشعب الحمامات العظيمة التي أقامتها الدولة وعهدت إدارتها إلى ملتزمين، وعبئت فيها مئات من الرقيق. وكانت هذه "الحمامات الحارة" (Thermae) التي شادتها أجربا وشادها من بعدها نيرون، وتيتس، وتراجان، وكركلا، وإسكندر سفيرس، ودقلديانوس، وقسطنطين، منشآت ضخمة فخمة تطبع الدولة بالطابع الاشتراكي. وكان في حمام نيرون 1600 مقعد من الرخام، وكان يتسع لألف وستمائة مستحم في وقت واحد. أما حمامات كركلا ودقلديانوس فكان الواحد منها يتسع لثلاثة آلاف. وكانت مفتحة الأبواب لكل روماني، ولم يكن أجرها يزيد على ما يعادل 200 slash 3 من الريال الأمريكي(78)، وكانت الحكومة تسد العجز من أموال الدولة؛ ويلوح أن هذا الأجر كان يشمل الزيت وخدمة المستحمين. وكانت الحمامات تفتح من مطلع الفجر إلى الساعة الواحدة بعد الظهر لاستقبال النساء، ومن الساعة الثانية إلى الثامنة لاستقبال

الرجال، ولكن معظم الأباطرة كان يبيح للرجال والنساء أن يستحموا معاً. وكانت العادة المألوفة أن يذهب الزائر أولاً إلى حجرة

صفحة رقم : 3566

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - الزعامة - رومة الأبييقورية - يوم في حياة روماني

خاصة يبدل فيها ثيابه، ثم ينطلق إلى مكان التمارين العضلية ليلاكم، أو يصارع، أو يستبق، أو يقفز، أو يقذف القرص أو الحربة، أو يلعب الكرة. وكانت ألعاب الكرة على أنواع منها نوع شبيه بلعبة "الكرة الطبية" عندنا، ومنها نوع آخر تتنازع الكرة فيها طائفتان وتعدو بها كل طائفة إلى الأمام بحماسة لا تقل عن حماسة اللاعبين من طلبة الجامعات في هذه الأيام (79). وكان لاعبو الكرة المحترفون يأتون أحياناً إلى الحمامات ليعرضوا ألعابهم على روادها (80). أما كبار السن الذين يكتفون بأن يشاهدوا ألعاب غيرهم فكانوا يذهبون إلى حجرات التدليك حيث يزيل لهم العبيد ما تراكم في أبدانهم من الدهن.

ثم ينتقل المستحم إلى الحمام ذاته، فيدخل أولاً حجرة متوسطة الحرارة يسخنها هواء دفيء، ثم يخرج منها إلى الحجرة الحارة ذات الهواء الحار، فإذا أراد أن يتصيب عرقه أكثر مما تصيب في هاتين الحجرتين انتقل إلى حجرة أخرى فيها بخار شديد الحرارة. ثم يستحم بالماء الساخن ويغسل جسمه بشيء جديد تعلمه من الغالبيين - وهو صابون مصنوع من الشحم ورماد خشب الزان والدردار (81) وهذه الحجرات الساخنة كانت أحب الحجرات إلى الشعب، وهي التي سمى اليونان الحمامات باسمها؛ ولعلها كانت هي المحاولة التي بذلها الرومان لتخفيف وطأة داء الرثية وأوجاع المفاصل (82). وينتقل المستحم بعدئذ من حجرة إلى حجرة كل منها أقل حرارة من سابقتها، حتى يصل إلى الحجرة الباردة فيغتسل فيها بالماء البارد، ويستطيع إذا شاء أن يغطس في حمام السباحة. ثم يدلك بالزيت أو بعض المراهم المصنوعة في العادة من زيت الزيتون. ولم تكن هذه الزيوت والمراهم تغسل عن الجسم، بل كان يكتفي بحكها بمكشط ثم يجفف الجسم بقطيعة، وذلك لكي يعود بعض الزيت إلى الجسم بدل الشحم الذي أزاله منه الحمام الحار.

وقلما كان المستحم يغادر الحمام بعد أن يصل إلى هذا الحد، لأن هذه الأماكن لم تكن حمامات

فحسب، بل كانت بالإضافة إلى هذا نوادي، فيها

صفحة رقم : 3567

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم في حياة روماني

حجرات للألعاب كلعب النرد والشطرنج(83)، ومعارض للصور والتماثيل ومنصات يجلس عليها الأصدقاء ليتحدثوا، ومكتبات وحجرات للمطالعة، وأبهاء يجلس فيها موسيقى يعزف أو شاعر ينشد بعض قصائده، أو فيلسوف يفسر أسرار العالم. وكان المجتمع الروماني يلتقي في هذه الساعات التي يقضيها في هذه الحمامات بعد الظهيرة، ويختلط فيها النساء والرجال بلا قيد، ويلهون، ويتناقشون، ويتغازلون على سجيتهم، ولكنهم لا يخرجون عن جادة الأدب. في هذه الأماكن وفي الملاعب كان الرومان يشبعون شهوتهم في الحديث وحبهم للثروة وتتبع الأنبياء، ويعرفون كل ما يحدث داخل البيوت من حوادث وفصائح.

وكان في وسعهم إذا شاءوا أن يتناولوا طعامهم في مطعم الحمام، ولكن كثرتهم كانت تفضل الطعام في البيت. ولعل السبب في نشوء عادة النوم بعد هذه الوجبة هو ما يعترتهم من تراخ وكسل بسبب الجهد والحمام الحار. وكانت النساء في بادئ الأمر يجلسن بمعزل عن الرجال حين يضطجع هؤلاء، أما في العصر الذي نتحدث عنه فقد كانت النساء تضطجع إلى جوار الرجال، وقد سميت حجرة الطعام المسماة عندهم "تركلينيوم أي ذات المضاجع الثلاثة" بهذا الاسم لأنها كانت تحتوي في العادة على ثلاثة مضاجع حول الخوان يتسع كل واحد منها عادة لثلاثة أشخاص. وكان من يتناول الطعام يسند رأسه على ذراعه اليسرى وذراعه على وسادة، ويمد جسمه في خط مستقيم متجه إلى الجهة المقابلة للمائدة.

وظلت الطبقات الفقيرة تعيش أكثر ما تعيش على الحبوب، ومنتجات الألبان، والخضر، والفاكهة، والنقل. ويذكر بلني أنواعاً كثيرة من الخضر التي يطعمها الروماني تختلف من الثوم إلى السلجم. وكان الأغنياء يأكلون اللحم ويكثرون من أكله إكثار النهمين المستهترين، وكان أحبه إليهم لحم الخنزير. ويمتدح بلني الخنازير لأنها تمد الرومان بخمسين نوعاً مختلفاً من الأطعمة(84).

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم في حياة روماني

وكانت أمعاء الخنازير المحشوة Potule تباع في الشوارع في أفران متنقلة كما تباع في طرقاتنا العامة اليوم. وكان الروماني، إذا دعى إلى وليمة، ينتظر أطعمة أندر من هذه الأطعمة السالفة الذكر. وكانت الوليمة تبدأ في العادة في تمام الساعة الرابعة وتدوم إلى وقت متأخر من الليل أو إلى صباح اليوم التالي. وكانت الأزهار والبقدونس تنتثر على المائدة، والهواء يعطر بالأرواح المحضرة من خارج البلاد، والمضاجع تغطي بالوسائد اللينة الناعمة، وكان الخدم يرتدون أزياء خاصة متماثلة. وتقدم أولاً المشهيات (Gustatio)، ثم تأتي بينها وبين الحلوى المسماة عندهم Secunda Mensa أو المائدة الثانية الأصناف الشهية النادرة التي يفخر بها المضيف ورئيس طهاته. وكانت أنواع السمك والطيور والفاكهة النادرة تشبع غريزة التشوف ولذة الحلق معاً، فكان سمك النباح يبتاع بألف سسترس للطل الواحد، وقد ابتاع أسنيوس سلر Asinius Celer سمكة من هذا النوع بثمانية آلاف سسترس. ويقول جوفنال وهو غضبان أسف إن الصياد كان أقل قيمة من السمكة. وكان مما يزيد من بهجة الضيوف أن تحضر السمكة حية ونظهي أمام أعينهم، حتى يستمتعوا بمختلف الألوان التي تتلون بها وهي تعالج سكرات الموت (85). وكان فديوس بليو Vedius Pollis يربي هذا السمك، الذي يبلغ طول الواحد منه قدماً ونصف قدم، في حوض كبير ويقطعه لحم المغضوب عليهم من العبيد (86). وكان سمك الجريت Eel والحلزون Snails عندهم من الأطعمة الشهية، ولكن القانون كان يحرم أكل الزغبة (الدرموس Dormouse). وكانت أجنحة النعام، والسنة (البشروش) (Flamingo)، ولحوم الطيور المغردة وأكباد الإوز، من أشهى

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم في حياة روماني

الأطعمة الرومانية. وقد اخترع أبسيوس Apicius - وهو من مشهوري الأبيقوريين في عهد تيبيريوس - "فطائر الأكباد السمان" وذلك بزيادة سمنة أكباد الخنازير بإطعامها التين. وكان العرف يبيح للطاعم أن يفرغ معدته من الطعام بتناول مقيئ بعد الوليمة الثقيلة. وكان بعض النهمين يفعلون هذا في أثناء الوليمة ثم يعودون إليها ليشبعوا جوعهم. وقد قال سنكا في هذا "إنهم يتقايئون ليأكلوا ويأكلون ليتقايئوا" (90) (Vomunt Set Edant, Ant, Edant) (Ut Vomant). لكن هذا كان مسلماً شاداً، وليس هو أسوأ من مسلك مدمني الخمر من الأمريكين. وكان أظرف من هذه العادة عادة تقديم الهدايا إلى الضيفان أو إسقاط الأزهار أو العطور عليهم من سقف الحجرات، أو تسليتهم بالأنغام الموسيقية، أو الرقص، أو الشعر، أو التمثيل وكانت الليالي تختتم بالحديث فتطلق الألسن من عقالها بسبب الخمر، ويثيرها وجود النساء في المآدب.

وليس لنا أن نظن أن هذه المآدب كانت هي الخاتمة العادية التي يختتم بها كل يوم من حياة الروماني، أو أنها كانت أكثر في حياتهم من مآدب هذه الأيام. إن التاريخ، كالصحف، يسيء تصوير الحياة، لأنه مولع بالشاذ من كل شيء، ويتجنب حياة الرجل الشريف التي لا أخبار فيها، والحياة اليومية الهادئة الرتيبة السوية. لقد كان معظم الرومان خلقاً عاديين أشبه الناس بنا وبحيرتنا، يستيقظون من النوم كارهين، ويفرطون في الأكل، وفي العمل، ولا يلعبون إلا قليلاً، ويحبون كثيراً، وقلمًا يكرهون، ويتشاجرون بعض الشيء، ويكثرون من الكلام، ويحلمون أحلام اليقظة وينامون.

صفحة رقم : 3570

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم عطلة روماني -> المسرح

الفصل السادس

يوم عطلة روماني

1- المسرح

كان لرومة أيام عطلة كثيرة، كانت في أيامها القديمة مطبوعة بطابع الوقار الديني، وفي الأيام التي نتحدث عنها مرحلة ملؤها المباهج الدنيوية. وترجع هذه الكثرة إلى تعدد ألهمتهم وكثرة الأقاليم التي تمتص خيراتها. وكان الكثيرون من فقرائها يفرون في الصيف من حرارتها ورطوبتها إلى حانات الضواحي وشواطئ البحر وأيكها، يشربون، ويأكلون، ويرقصون، ويعشقون في الهواء الطلق. وكان ذوو اليسار منهم يذهبون إلى شواطئ الاستحمام المنتشرة على الساحل الغربي، أو إلى خليج بايا Baiae مع واسعي الثراء. وكان من أشد ما يرغب فيه كل من يعتد بطبقته أن يذهب إلى الجنوب - إلى رجيوم Rhegium أو تارنتم إن استطاع - ويعود منه وقد لفحت الشمس جلده ليثبت أنه من ذوي اليسار. ولكن الذين يبقون في رومة لم يكونوا يعدمون فيها الكثير من ضروب اللهو والتسلية القليلة الكلفة. لقد كانوا يجدون فيها تلاوة الشعر، والمحاضرات والحفلات الموسيقية، والكثير من المجون، والمسرحيات، والمباريات الرياضية والافتتال لنيل الجوائز، وسباق الخيل، والعربات والصراع المميت بين الرجال والرجال أو بين الرجال والوحوش، والمعارك البحرية الصاخبة الزائفة في البحيرات الصناعية - وقصارى القول أن رومة لم تكن تضارعها قبلها مدينة أخرى في كثرة ضروب اللهو والتسلية.

وكان لرومة في عهد الإمبراطورية الباكر خمسة وسبعون عيداً تقام فيها

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم عطلة روماني -> المسرح

الألعاب، منها خمس وخمسون تخصص للمسرحيات أو ألعاب المجون، و22 للألعاب في الحلبات أو المضامير أو المدرجات. وازداد عدد الألعاب حتى أصبحت في عام 354 م تعرض في 175 يوماً (91)؛ ولم يصحب هذه الزيادة زيادة في المسرحيات الرومانية؛ بل حدث عكس هذا، حدث أن اضمحلت المسرحيات في الوقت الذي ازدهر فيه المسرح، وكانت المسرحيات الجديدة تكتب الآن لتقرأ لا لتمثل، واكتفت دور التمثيل بالماسي القديمة الرومانية واليونانية، والمسالي والمسخر القديمة الرومانية. وكان نجوم التمثيل يسيطرون على المسرح ويجمعون من عملهم أموالهم طائلة؛ فقد ترك إيسيس Aasopus ممثل المأسى عشرين مليون سسترس بعد حياة من الإسراف والبدخ؛ وكان رسيوس Roscuus الممثل الهزلي يكسب خمسمائة ألف سسترس في العام، وقد بلغ من الثراء حداً جعله يمثل في عدة مواسم من غير أجر - وكان هذا احتقاراً للمال جعل هذا العبد المحرر واسطة العقد في مجالس الأشراف. أما الألعاب التي كانت تدور في الحلبات والمدرجات فكانت تستحوذ على اهتمام الجمهور وتقصد أذواقه، وقد مات التمثيل الروماني ودفن في المجتذات، وكان شهيداً آخر من شهداء أيام الأعياد الرومانية. ولما زاد الاهتمام في التمثيل بحركات الممثلين وبالمناظر بدل الحكايات والأفكار تخلى التمثيل عن مكانه في المسرح إلى التهريج والمسخر. وكانت المسخر لا تحتوي إلا على القليل من الحوار، وكانت تختار موضوعاتها من حياة أخط الطبقات، وتعتمد على تصوير الشخصيات تصويراً بارعاً في التقليد الساخر وبعد أن قضى على حرية القول في الجمعيات وفي السوق بقيت بعض الوقت في هذه المهازل القصيرة، حيث كان في وسع الماجن أن يجازف برفع رأسه وإطلاق لسانه لينال بذلك تصفيق الجماهير بتورية يسدها إلى الإمبراطور أو الملتقين حوله. وقد أمر كلجيولا بحرق أحد الممثلين حياً في المدرج عقاباً له على إشارة من هذا النوع (92). وفي اليوم الذي دفن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم عطلة روماني -> المسرح

فيه فسبازيان الشحيح مثلت مهزلة قلدت فيه جنازته تقليداً ساخراً، كان من مناظرها أن جلست الجثة في أثناء موكب الجنازة وسألت كم أنفقت الدولة على هذه الجنازة؛ ولما قيل لها إنها أنفقت "عشرة ملايين سسترس" أجابت بقولها "أعطوني مائة ألف فقط ألقوني في نهر التيبير" (93). ولم يكن يسمح للنساء بالتمثيل إلا في هذه المهازل، وإذا كانت هذه النسوة يعتبرن بهذا العمل من العاهرات فإنهن لم يكن يخسرن شيئاً بما ينطقن به من بذيء اللفظ. وكان النظارة في بعض المناسبات الخاصة كعيد فلورارية الزهر يطلبن إلى أولئك الممثلات أن يخلعن جميع ملابسهن (94). وكان الرجال والنساء يشهدون هذا الضرب من التمثيل كما يشهدونه الآن وقد وجد شيشرون فيه عرائس له كما عثر العرائس عليه فيه.

ولما منع الكلام في هذه المهازل منعاً باتاً، وارتفعت موضوعاتها فأصبحت تستمد من الآداب القديمة، تطورت المهازل الماجنة إلى استعراضات صامتة. وكان في ترك الكلام على هذا النحو كسب للجمهور. ذلك أن سكان رومة

المختلفي الأجناس كانت كثرتهم لا تفهم إلا اللغة اللاتينية البسيطة إلى أقصى حد، ومن أجل هذا أصبح في استطاعتها أن تتبع حركات الممثلين بعد أن لم تعد مثقلة بعبء الألفاظ. وفي عام 21 م قدم إلى رومة ممثلان أحدهما من قلبية ويدعى بيلاديس Pylades، والآخر من الإسكندرية ويسمى باثيلس Bathylus؛ وأدخلو فيها التمثيل بالإيمان والحركة. وكان قد انتشر في الشرق الهلنستي. وقد مثلاً فيه مسرحيات من فصل واحد ليس فيها إلا الموسيقى، والحركات، والإيماءات والرقص. ورحبت رومة بهذا الفن الجديد لأنها سئمت المسرحيات المؤلفة بالشعر القديم الطنان الرنان، وأعجبت إيما إعجاب بحذق الممثلين ورشاقتهم، وسرت بفخامة ملابسهم وجمال أفئعتهم أو ظرفها، وبأجسامهم المدربة التي أعد للعمل بالغذاء المناسب المنقّى، وبحركات الأيدي

صفحة رقم : 3573

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> يوم عطلة روماني -> المسرح

التي تحسن التعبير عن المعاني على الطريقة الشرقية البارعة، وسرعة تقليدهم للشخصيات على اختلاف مشاربها، وتمثيلهم مناظر العشق المثيرة للغرائز الجنسية. وكان النظارة ينقسمون طوائف وجماعات تؤيد كل منها الممثلين المتنافسين، وكثيراً ما كانت نساء الطبقات العليا يقعن في حب الممثلين ويتعقبنهم بالهدايا والعناق، حتى قطعت رأس واحد منهم بسبب علاقته بزوجة دومتيان. وما لبث هذا التمثيل الصامت أن طرد من المسرح الروماني كل ما عداه من أنواع التمثيل ما عدا المساهر الماجنة. وحلت المراقص والمساهر محل المسرحيات الجدية.

صفحة رقم : 3574

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> يوم عطلة روماني -> الموسيقى الرومانية

2- الموسيقى الرومانية

وكان تطور الموسيقى والرقص ورفيهما هما اللذين جعلاً هذا الفوز مستطاعاً. فقد كان ينظر إلى الرقص في عهد الجمهورية على أنه عمل مردول يجلل الراقص العار. وكان سبب الأصر قد أرغم الدولة على أن تغلق المدارس التي تعلم الموسيقى والرقص (95)، وكان مما قاله في هذا "أن الذي ذهب عقله هو وحده الذي يرقص وهو غير سكران" (96). ولكن المسرحية الصامتة جعلت الرقص طرازاً حديثاً مرغوباً فيه، ثم جعلته بعدئذ شهوة قال عنها سنكا: "لا يكاد يخلو بيت واحد من مرقص يردد أصداء وقع أقدام الرجال والنساء؛ وأصبح الآن في بيوت كل ثري معلم للرقص كما فيه طاه وفيلسوف، وأضحى وجود هذا المعلم من مستلزمات هذه البيوت. وكان الرقص في صورته

المألوفة في رومة يتطلب حركات منتظمة باليدين والجزء الأعلى من الجزع أكثر مما يتطلبه من حركات الأرجل والأقدام. ولم يكن النساء يتعلمن هذا الفن ويمارسنه لما يكسبهن من جاذبية فحسب، بل لأنه يكسب الجسم مرونة ورشاقة.
وكان الرومان يحبون الموسيقى حباً لا يفوقه إلا حبهم للسلطان، والمال، والنساء، والدماء. وأخذ الرومان موسيقاهم، كما أخذوا كل شيء سواها

صفحة رقم : 3575

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم عطلة روماني -> الموسيقى الرومانية

في حياتهم الثقافية، عن بلاد اليونان؛ وكان لا بد لهذه الموسيقى أن تتشق طريقها وسط مقاومة المحافظين الذين لا يفرقون بين الفن والانحطاط. ذلك أن الرقباء كانوا قبل عام 115 ق. م قد حرموا العزف على أية آلة موسيقية أو النفخ فيها ما عدا الناي الإيطالي القصير، وكان سنكا الأكبر بعد قرن كامل من ذلك الوقت لا يزال يعد الموسيقى غير جديرة بالرجال؛ ولكن فارو Varro كان قبل ذلك الوقت قد خص إلهة الموسيقى De Musica بكتاب من قلمه؛ وأصبحت هذه الرسالة، هي والمصادر اليونانية التي استمدت منها، معيناً لا ينضب لمؤلفات رومانية كثيرة في النظريات الموسيقية (97). وما لبثت الأنغام الموسيقية الخصبة الشهوانية، والآلات اليونانية، أن تغلبت آخر الأمر على الأنغام والآلات الرومانية الساذجة السمجة، وأصبحت الموسيقى عنصراً أساسياً في تعليم النساء، وكثيراً ما كانت عنصراً هاماً في تعليم الرجال أيضاً. وما وافى عام 50 م حتى عمت جميع الطبقات، وتعلمها الذكور والإناث، فكان الرجال والنساء يقضون أياماً كاملة في الاستماع إلى الأنغام أو تأليف المقطوعات أو غنائها. وانتهى الأمر بأن أصبح الأباطرة أنفسهم من الموسيقيين، فكان هدريان الفيلسوف ونيرون المخنث ممن يزدهون بحذقهم العزف على القيثارة. وكان المقصود من قرص الشعر الغنائي أن يغني بمصاحبة الموسيقى، ولما كانت الألحان الموسيقية توضع إلا للشعر؛ ذلك أن الموسيقى القديمة كانت خاضعة للشعر، عكس ما هي عليه اليوم إذ أنها تنزع إلى السيطرة على الألفاظ وتحضعها لها. وكانت الموسيقى الجماعية منتشرة محبوبة وكثيراً ما كانت تعزف في حفلات الزواج والألعاب والجنائز، وفي الاحتفالات الدينية. وقد تأثر هوراس أشد التأثر بأصوات الفتيّة والعداري وهو يغنون Carmen Secul Are، وكان المغنون جميعهم في هذه الأغاني الجماعية يغنون نغمة واحدة وإن اختلفت مقاماتها، ويلوح أن الغناء الانفرادي لم يكن معروفاً عندهم.
وكانت الألتان الرئيسيتان عندهم هما الناي والقيثارة، ولا تزال آلات

صفحة رقم : 3576

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم عطلة روماني -> الموسيقى الرومانية

النفخ والآلات الوترية عندنا مجرد تحويل وتعديل لهاتين الآلتين، فأقوى السمفونيات عندنا ليست إلا تأليفاً حكيماً بين النفخ والجدب، والحك، والضرب. وكان الناي يصحب التمثيل، وكان يظن أنه يثير العواطف؛ أما القيثارة فكانت تصحب الغناء، وكان يرجى منها أن تسمو بالروح. وكان الناي طويلاً، ذا ثقوب كثيرة، وأوسع مدى في التعبير من ناي هذه الأيام. أما القيثارة فكانت أشبه بقيثارتنا ولكنها كانت على أنواع وأشكال كثيرة، فكانت عند اليونان ذات حجم صغير ولكن الرومان زادوه إلى حد جعل أميانوس يصف القيثارة بأنها "كبيرة كالعربة" (98) ويمكن القول بوجه عام إن الآلات الموسيقية الرومانية نشأت كما نشأت الاتنا نحن مما أدخل من تحسين على الآلات القديمة وخاصة على رنينها وحجمها. وكانت أوتار القيثارة تصنع من أمعاء الحيوان أو أوتار أجسامها، وقد بلغ عددها ثمانية عشر وترًا. وكانت تشد عند العزف عليها بمضراب (ريشة) أو بالأصابع، وكانت الأصابع وحدها هي التي تستطيع إخراج سلسلة الأنغام السريعة. وجاء من الإسكندرية في أوائل القرن الأول الأوغرغ المائي المتعدد النغمات والأنابيب، وقد وقع في قلب نيرون وتأثر كونتليان الهادئ بقوته وتعدد نغماته.

وكانت تقام من أن إلى أن حفلات موسيقية رسمية، وكان للمباريات الموسيقية شأن في بعض الألعاب العامة، بل إن الولايم المتواضعة كانت تتطلب قدراً ولو قليلاً من الموسيقى. وكان مارتيا يعد ضيفه بالاستماع إلى نافخ في الناي على الأقل (99). أما في حفلات تريمليكيو Trimalchio فكان الطعام يرفع عن المائدة على أصوات المغنين. وكان لكلجيولا فرقة موسيقية وجوقة من المغنين نظريه في قارب نزهته. وفي التمثيل الصامت كان الغناء الجماعي والرقص يصحبان عزف الفرقة الموسيقية. وكان الممثل في بعض الأحيان يغني أدواره الإفرادية، وكان يحدث أحياناً أن يغن مغن محترف ألقاط الدور بينما كان الممثل يقوم

صفحة رقم : 3577

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> يوم عطلة روماني -> الموسيقى الرومانية

بالحركات التمثيلية أو الرقص. ولم يكن من الأمور الشاذة النادرة أن يصحب التمثيل الصامت ثلاثة آلاف راقص (100). وكان قوام الفرقة الموسيقية النايات تساعد القيثارات، والصنج، والمزامير، والأبواق، والاسكابلا Scabella وهي ألواح معدنية تشد إلى أقدام بعض أفراد الفرقة يضربونها بها فتحدث أصواتاً أشد إزعاجاً من أصوات الفرق الموسيقية الحديثة في أعلى قوتها. ويشير سنكا إلى الإيقاع في عزف الأفراد (101)، ولكننا لا نجد ما يدل على وجوده عند الفرق الموسيقية القديمة. وكانت الموسيقى التي تصحب الغناء تعلق عنه في النغمة عادة ولكن مبلغ علمنا أنها لم تكن تسير على نظام متدرج متتابع واضح.

وكان مهرة الموسيقيين كثيرين، وكذلك كان غير الماهرين، فقد كان ذوو المواهب يهرعون إلى مركز الذهب في العالم من جميع الولايات، وكان نظام الاسترقاق يسمح بتدريب فرق المغنين والعازفين في نطاق واسع وإن كان كثير النفقات. وكان للكثير من الجماعات والهيئات الفنية موسيقيون تختص بهم، وكانت ترسل من تتوسم فيهم النبوغ منهم إلى مهرة الأساتذة لرفع مستواهم، فمنهم من تخصصوا في العزف على القيثارة وأقاموا الحفلات يغنون فيها ويعزفون؛ ومنهم من تخصصوا في الغناء وكان هؤلاء في العادة يؤلفون أغانيهم، وآخرون منهم كانوا يقيمون الحفلات يعزفون فيها على الأوغرغ وينفخون في الناي، ومن هؤلاء كانوس Cannus الذي كان يفخر كما يفخر بيتهوفن بأن موسيقاه تستطيع تخفيف الحزن وزيادة الفرح، وتعين على التقى وتلهب نار الحب في الصدور (102). وكان هؤلاء الموسيقيون المحترفون يطوفون الولايات النائية في الإمبراطورية، يكسبون المال والثناء وتقام لهم التماثيل ويفتن بهم النساء، ومنهم على حد قول جوفنال، من كانوا يبيعون حبهم ليزيدوا بذلك أجورهم (102). وكانت النساء يتنافسن في الحصول على الريشة التي يمس بها مشهورو الموسيقيين أوتار آلاتهم، ويقربن القرابين على المذابح ليفوز من يحببن من الموسيقيين في

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> يوم عطلة روماني -> الموسيقى الرومانية

الألعاب النبرونية والكبتولية. وفي وسعنا أن نرسم في الخيال صورة وإن تكن غير واضحة للمنظر الرائع الذي يجمع الموسيقيين والشعراء من جميع أنحاء الإمبراطورية، وهم يتبارون أما الجموع المحتشدة، والذي يتقدم فيه الفائزون المجهدون ليضع الأباطرة بأيديهم أكاليل أوراق البلوط على رؤوسهم. ولسنا نعرف عن الموسيقى الرومانية ما يكفي لبسط القول في وصفها. ويلوح أنها كانت أرقى، وأكمل، وأكثر عجباً من الموسيقى اليونانية. وقد دخلت عليها من صيغة شرقية من مصر وأسية الصغرى وسوريا. وكان المتقدمون في السن من الرومان يأسفون لأن المؤلفين المحدثين أخذوا يهجرون ما يمتاز به النمط القديم من تمنع ووقار، وأنهم كانوا يتلفون أرواح الشباب وأعصابهم بالأنغام الشاذة والآلات الصاخبة. والذي لا جدال فيه أنه ما من شعب قديم أحب الموسيقى كما أحبها الرومان. فقد كانت أغاني المسرح تتلقفها الجماهير المرححة السريعة الحركة فتردد أصداءها في شوارع رومة ونوافذ بيوتها، وكانت أغاني التمثيل الصامت المعقدة تنطبع في ذاكرة المعجبين بها انطباعاً بلغ من قوته أن كان في مقدورهم إذا سمعوا أولى نغماتها أن يقولوا لك من أية مسرحية هي، ومن أي فصل في المسرحية. على أن رومة لم تعد الموسيقى فائدة حقة اللهم إلا ما عسى أن تكون قد فعلته من تنظيم اللاعبين إلى فرق كبيرة تنظيمياً أحسن مما كان عند من سبقهم من الأمم. ولكنها كرمت الموسيقى بإشاعة استخدامها، وبالاستجابة إليها والتأثر بها، يضاف إلى هذا أنها جمعت التراث الموسيقي للعالم القديم في هياكلها، ودور تمثيلها، وبيوتها؛ ولما أن سقطت أورثت الكنيسة الآلات والعناصر المستخدمة في الموسيقى التي تتأثر بها نفوسنا وتحرك مشاعرنا في هذه الأيام.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> يوم عطلة روماني -> الألعاب

3- الألعاب

ولما لم يعد للحرب أثر في هذا العهد، أصبحت الألعاب العظيمة أكثر حوادث العام إثارة لمشاعر الرومان. وكانت تقام، أكثر ما تقام، في الاحتفال بالأعياد الدينية- كعيد الأم العظمى، وعيد سيريس Ceres، وعيد فلورا ربة الأزهار، وعيد أبلو، وعيد أغسطس. وقد تكون أحياناً "ألعاب العامة" التي تقام لتسليية الطبقات الدنيا، وقد تكون "الألعاب الرومانية" التي تقام تكريماً للمدينة وإلهتها روما. وكانت تقام أحياناً احتفالاً بنصر، أو نيل منصب رئيسي، أو فوز في انتخاب، أو بمناسبة أحد الأعياد الإمبراطورية. وربما أقيمت احتفالاً بمرور فترة معينة في التاريخ الروماني. وكانت

ألعاب إيطاليا في بادئ الأمر تقام زلفي للأموات وتكريماً لهم، شأنها في هذا شأن الألعاب التي أقامها أخيل تكريماً لبيروكلس. من ذلك أنه لما مات بروتس بيررا Brutus Pera في عام 264 ق. م عرض ابنه ثلاث مباريات؛ ودارت في جنازة ماركس ليدس Marcus Lepidus عام 216 ق. م اثنتان وعشرون معركة، وفي عام 174 احتفل تيتس فلأمنيوس Titus Flaminius بجنازة أبيه بأن أقام صراعاً في مجتلد اقتتل فيه اثنتان وعشرون رجلاً. وكانت أبسط الألعاب العامة هي المباريات الرياضية التي تقام في ملعب عام. وكان معظم اللاعبين من المحترفين والغرباء، وكانوا يتبارون في العدو، وقذف القرص، والمصارعة، والملاكمة. ولكن جمهرة الرومان الذين اعتادوا ألعاب المجتلد الدموية لم يكونوا يحبون هذه الألعاب الرياضية إلا قليلاً، وكانوا مولعين بالقتال لنيل الجوائز وهو القتال الذي كان اليونان ينهمكون فيه حتى يكادوا يخرون صرعى، وقد لبسوا في أيديهم قفازات مقواة عند البراجم بأطواق من الحديد يبلغ سمكها ثلاثة

صفحة رقم : 3580

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم عطلة روماني -> الألعاب

أرباع بوصة. ويصف فرجيل- وهو الرجل الرقيق- حفلة ملاكمة غير شديدة في لغة لا تكاد تفتقر عن لغة هذه الأيام فيقول:

"ثم جاء ابن أنكيسيز Anchises بقفازات من الجلد متساوية في الوزن، وربط بها أيدي الملاكمين... ووقف كلاهما في موضعه معتمداً على أطراف أصابع قدميه، ورافعاً ذراعه... ثم يبعد رأسه إلى الوراء ليتقي ضربات خصمه ويبدأ التلاكم باليدين، ويسدد كل منهما ضربات قوية همجية إلى صدر الآخر، وجنبيه، وأذنيه، وجبهته، وخديه، يردد الهواء صداها. ويمد إنتلس Entellus يمانه، وينحرف دارس Dares إلى أحد الجانبين بحركة رشيقة... ويهاجم أنتلس دارس بقوة، ويطرحه على أرض المجتلد، ويكيل له الضربات بيمناه تارة وبيسراه تارة أخرى... ثم يجيء إينياس وينتهي المعركة، ويقبل رفقاء دارس ويقودونه إلى السفن تصطك ركبتاه ويتأرجح رأسه من ناحية إلى أخرى وفمه تخرج منه الأسنان والدماء.

وكان السباق في الحلبة الكبرى Circus Maximus أكثر من هذه الملامكات إثارة لمشاعر النظارة. وكانت أربعون سباقاً تقام في يومين متتاليين منها سباق الخيل يركبها راكبون محترفون؛ ومنها سباق العربات الخفيفة ذات العجلتين يجرها جوادان أو ثلاثة جواد أو أربعة مشدودة إليها جنباً إلى جنب. وكانت الاصطبلات المتنافسة التي يملكها الأغنياء هي التي تؤدي نفقات السباق. وكان الراكبون المحترفون وسائقو المركبات يلبسون حلاً تختلف ألوانها وتطلى المركبات نفسها بألوان مختلفة لكل اصطبل لون خاص يميزه من غيره من الاصطبلات: منها الأبيض والأخضر والأحمر والأزرق. فإذا اقترب موعد هذه المباريات انقسمت رومة كلها شيعاً تسمى كل شعبة باسم اللون الذي تتناصره وخاصة اللونين الأحمر والأزرق. وكان نصف الأحاديث في المنازل، والمدارس، والمحاضرات، والسوق الكبرى يدور حول راكبي الخيل المحترفين، وراكبي

صفحة رقم : 3581

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> يوم عطلة روماني -> الألعاب

العربات، وتعلق صورهم في كل مكان، وتعلن أنباء فوزهم في النشرة اليومية. ومنهم من كان يجني من وراء ذلك ثروات طائلة، ومنهم من كانت تقام له التماثيل في الميادين العامة. وإذا أقبل يوم السباق سار مائة وثمانون ألفاً من الرجال والنساء في حللهم ذوات الألوان الزاهية إلى المضمار الرحب الكبير. وهناك ترتفع حماسة النظارة إلى حد الجنون، فترى أشياح كل جواد يشمون روثه ليتأكدوا من أن ذلك الجواد قد أطعم الطعام الذي يليق به (105). وكان النظارة يمرون بالحوانيت والمواخير الممتدة على طول أسوار المضمار الخارجية، ثم يدخلون من مئات الأبواب ويوزعون أنفسهم على المقاعد المنظمة على شكل حذاء الفرس، والعرق يتصبب من جباههم من فرط الشوق والقلق، والبائعون يبيعون الوسائد لأن المقاعد كانت تصنع في العادة من الخشب الصلب، ولأن السباق كان يستمر طول النهار. وكان لأعضاء مجلس الشيوخ وغيرهم من العظماء مقاعد خاصة من الرخام مزينة بالبرونز، وكان من خلف مقصورة الإمبراطور طائفة من الحجر الفخمة يستطيع- إذا شاء- أن يأكل فيها ويشرب، ويستريح، ويستحم وبنام. وكانت حمى المراهقات ترتفع إلى أقصى حد، والثروات تنتقل من يد إلى يد كلما تقدم النهار. وكانت الخيل وراكبوها، والعربات وسائقوها، تخرج من فتحات تحت المقاعد، وكلما بدا لون منها قابله أنصاره بتصفيق ترتج المقاعد من شدته. وكان سائقو العربات- ومعظمهم من العبيد- يلبسون جلابيب زاهية الألوان ويضعون على رؤسهم خوداً براقاً، ويمسك كل منهم بإحدى يديه سوطاً، وفي منطقتيه سكين يقطع بها السيور المربوطة في وسطه، إذا حدثت له حادثة. وكان شكل المضمار إهليجياً تمتد في وسطه "الشوكة" (Spina) وهي جزيرة طولها ألف قدم تزدان بالتماثيل والمسلات، وفي طرف من أطراف المضمار تقوم "المقاييس" (Metae) وهي عمد مستديرة ينتهي عندها السباق. وكان طول سباق المركبات سبع دورات في العادة، أي حوالي خمسة

صفحة رقم : 3582

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> يوم عطلة روماني -> الألعاب

أميال. وكان مقاييس مهارة السائق هو قدرته على أن يدور حول الأهداف (العمد) بأسرع وأحد ما يستطيع من غير أن يتعرض للخطر، وكثيراً ما كان المتسابقون يصطدمون في هذه الأماكن فتقع المأسي المروعة التي يكون ضحاياها الرجال والمركبات والحيوانات. فإذا ما وصلت الخيل أو المركبات إلى أهدافها قام النظارة، وكأنهم قد استيقظوا من سبات عميق، وماج بهم المكان كما يموج البحر المتلاطم، وأخذوا يشيرون بأيديهم وأجسامهم، ويلوحون بمناديلهم، ويصيحون، ويبتهلون، ويثنون، وبلعنون، وبهللون وهم في نشوة غير طبيعية. وكان التصفيق الذي يحيا به الفائز يسمع على مسافة بعيدة خارج أسوار المدينة. وكان أعظم المناظر روعة وفخامة منظر الاحتفالات الرومانية التي تمثل فيها المعركة البحرية الرائمة. وكانت أول معركة بحرية كبيرة من هذا النوع هي التي دارت بأمر قيصر في حوض كبير احتقر لهذا الغرض خاصة في خارج حدود المدينة. ولما أراد أغسطس أن يهدي الهيكل الذي أقامه "للمريخ المنتقم" إلى هذا الإله أمر أن تدور معركة بحرية تمثل معركة سلاميس بين ثلاثة آلاف مقاتل في مياه بحيرة صناعية طولها ألف وثمانمائة قدم وعرضها ألف ومائتا قدم. وقد سبق القول إن كلوديوس احتفل بإتمام نفق فوسين Fucine بتمثيل معركة اقتتل فيها سفن من ذوات الصفوف الثلاثة والأربعة من المجاديف، عليها نحو تسعة عشر ألف رجل. ولكن القتال جرى في رقة أغضببت الإمبراطور واضطرته إلى أن يرسل جنوداً إلى السفن لكي يضمن قادراً كافياً من سفك الدماء (106). ولما احتفل بتدشين الكولوسيوم أمر تيتس بأن تغرق حلبتها بالماء وأن تمثل فيها معركة الكورنثيين والكرثيين التي أعقبتها حرب

البلوبونيز. وكان المقتتلون في هذه المعارك من أسرى الحروب أو المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام؛ وكانوا يقتتلون بحق ويقتل بعضهم بعضاً حتى يفنى أحد الفريقين؛ فإذا ما تبيين

صفحة رقم : 3583

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> يوم عطلة روماني -> الألعاب

أن الفريق الفائز أظهر الشجاعة المطلوبة في التقتيل أمر أن يحرر من الأسر أو ينجو من الإعدام. وكانت هذه الألعاب تصل إلى غايتها في صراع الحيوانات والمجالدين في المجتلد أو في الكولسويم بعد أيام فسبازيان. وكان المجتلد أرضاً من الخشب فرش عليها الرمل. وكان في الإمكان خفض أجزاء من هذه الأرض ثم رفعها على الفور إذا أريد تغيير المنظم، أو عمر الأرض كلها بالماء بمجرد إشارة تصدر بهذا. وكانت غرف كبيرة تحت أرض المجتلد تحتوي الوحوش، والآلات، والرجال استعداداً لذلك اليوم. وكان من فوق سور المجتلد شرفة من الرخام صفت فيها مقاعد مزينة يجلس عليها الشيوخ والكهنة وكبار الموظفين. وكان فوق هذه الشرفة مقصورة عالية (Suggestum) يجلس فيها الإمبراطور والإمبراطورة على عرشين من العاج والذهب، ومن حولهما أعضاء الأسرة الإمبراطورية والحاشية. ومن خلف هذه الدائرة الممتازة، دائرة الأشراف، يجلس فيها أفراد طبقة الفرسان في عشرين صفاً من المقاعد. ويفصل سور عال مزدان بالتماثيل الطبقات العليا عن السفلى في المقاعد العالية. وكان في وسع أي شخص من الأحرار ذكراً كان أو أنثى أن يشهد الجلاء، ويلوح أنه لم تكن ثمة رسوم تؤدي عن الدخول، وكانت الجماهير تنتهز فرصة وجود الإمبراطور في المجتلد وفي مضمار السباق لتسمعه رغبتها. في العفو عن أسير أو مصارع مهزوم، أو تحرير عبد شجاع، أو حضور مجالد محبوب، أو إصلاح غير ذي بال. وكانت مطلات تنشر فوق المجتلد عند الحاجة إليها، وتمتد على مكان في السور إلى حواجز المجتلد لتظليل ما يتعرض من أجزائه لأشعة الشمس. وكانت في أماكن متفرقة منه تقذف الماء المعطر لتبريد الهواء. فإذا انتصف النهار أسرع معظم النظارة إلى أسفله ليتناولوا غداءهم، وكانوا يجدون حاجتهم من الطعام والشراب والحلوى عند أناس رخص لهم بيعها في هذا المكان. وكان يحدث في بعض المناسبات أن يأمر

صفحة رقم : 3584

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> يوم عطلة روماني -> الألعاب

الإمبراطور بإطعام الجماهير المحتشدة كلها من خيراته، وأن تنثر الأطعمة الشهية والهدايا على الجماهير فتتلقها أيديهم. وإذا ما أقيمت الألعاب في الليل، وكان هذا يحدث أحياناً، كان في الاستطاعة إنزال دائرة من النور فوق المجتلد والنظارة. وكانت فرق موسيقية تطرب المجتمعين في الفترات التي تتخلل الألعاب؛ وفي الأوقات التي تبلغ المباريات حدتها، كانت الموسيقى تعزف أنغاماً مهيبة مثيرة مطردة العلة في النغمة.

وكانت أبسط الحوادث التي تشاهد في المدرج عرض حيوانات أجنبية تجمع من جميع أنحاء العالم المعروف: من فيلة، وأسود، و نمورة رقط وسود، وتماسيح، وأفراس بحر، وأويسات، وقردة، وفهود، ودببة، وخنزير برية، وذئب، وزرافات، ونعام، ووعول، وغزلان، وطيور نادرة الوجود. وكان يحتفظ بهذه كلها في حدائق الحيوان التي يملكها الأباطرة والموترون من الأهلين، وتدريب على القيام بالألعاب مضحكة. فكانت القردة تعلم ركوب الكلاب وسوق المركباب، والتمثيل في المسرحيات؛ والثيران تدريب على ترك الغلمان يرقصون فوق ظهورها، وأسود البحر تدريب على النباح إذا ذكرت أسماؤها، والفيلة ترقص على صوت صنوج تضربها فيلة أخرى، أو تمشي على حبل، أو تجلس حول مائدة الطعام، أو تكتب حروفاً يونانية أو لاتينية. وكان يكتفي في بعض الأحيان بعرض هذه الحيوانات في حل زاهية أو مضحكة، ولكنها في العادة كانت تقتل بعضها بعضاً، أو تقاتل الرجال، أو تضرب بالسهم والحراب حتى تموت. وقد حدث في أيام نيرون أن اقتتل أربعمئة نمر مع ثيران وفيلة، وقتل في يوم آخر من أيام كلجيو لا أربعمئة دب، ومات في يوم تدشين الكولوسيوم خمسة آلاف حيوان (107). وإذا تبين أن الحيوانات قد فترت غريمتها عن القتال ضربت بالسباط، أو رميت بالسهم، أو كويت بالحديد المحمي ليثار غضبها فتتفر للقتال. وقد أرغم كلوديوس فرقة من الحرس البريتوري على قتال الفهود، وأرغم نيرون فرقة أخرى على أن تقاتل أربعمئة دب وتلثمائة أسد (108).

صفحة رقم : 3585

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم عطلة روماني -> الألعاب

وأدخل قيصر إلى رومة عادة صراع الثيران والأدميين، وهي العادة التي كانت شائعة في كريت وتساليا من قبله بزمان طويل، وأصبحت منذ عهده من المناظر المألوفة في المدرجات (109). وكان المجرمون المحكوم عليهم بالإعدام يلقون إلى الحيوانات التي استوحشت لهذا الغرض خاصة، وكثيراً ما كان هؤلاء الرجال يغطون بجلود لكي يشبهوا الحيوانات. وكانوا يعانون في أثناء موتهم أشد أنواع الآلام، وكانت جراحهم تتعمق أحياناً في أجسامهم حتى كان الأطباء يستخدمون هذه الأجسام لدراسة تشريحها الداخلي. وليس في العالم من يجهل قصة أندركليز Androcles العبد الأبق، وكيف ألق به إلى أسد في المجتلد بعد أن قبض عليه، ولكن الأسد كما تقول القصة تذكر أن أندركليز خرج في ذات يوم شوكة من مخله، فأبى أن يمسه بسوء، وكيف عفى عن أندركليز بعدئذ وظل يكسب عيشه بعرض أسده المتحضر في الحانات (110). وكان يطلب إلى المقضي عليه بالموت في بعض الأحيان أن يمثل تمثيلاً واقعياً دوراً مشهوراً في إحدى المآسي: فقد يمثل دور منافسة ميديا، فيرتدي ثوباً جميلاً يلتهب فجأة ويحرقه؛ وقد يمثل هرقل فيحرق حياً فوق كومة من الحطب، وقد نجب خصيته علناً كما فعل بارتيز (إذا صدقنا قول ترتليان Tertullian)، وقد يمثل دور موسيوس اسكافولا Mucius Scaevola فيبسط يده فوق نار فحم حتى تحترق؛ وقد يمثل دور إكارس Icaeus فيسقط من السماء، لا في بحر رحيم، بل بين قطيع من الوحوش الضاربة، وقد يكون باسيفيا Pasipha (، فيحتضن ثوراً. وألبس أحد الضحايا مرة ثياباً كثياب أرفيوس Orpheus، وبعث به ومعه قيثارة إلى مجتلد مثلث فيه أيكة جميلة من الأشجار والجدال، ثم أطلقت من خبايا المجتلد على حين غفلة وحوش جياع ومزقه إرباً (111). وصلب لص يدعى لوريولس Laureolus في المجتلد لينتسلى النظارة برؤيته؛ ولما لم يلفظ آخر أنفاسه بالسرعة المطلوبة جيء إليه بدب وسلطوه عليه ومازوا يغرونه به حتى أكله

صفحة رقم : 3586

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> يوم عطلة روماني -> الألعاب

قطعة بعد قطعة وهو معلق في الصليب. ويصف مارتبال هذا المنتظر وصف المعجب به الراضي عنه(112). وكانت أروع الحداثات في هذه الألعاب هي قتال الرجال المسلحين، إما في صورة مبارزات فردية أو معارك جماعية. وكان المتقاتلون في هذه الحالة من أسرى الحروب، أو المجرمين المذنبين، أو العبيد العاصين. وكان حق المنتصرين في أن يقتلوا أسراهم من الحقوق المعترف بها عادة في العهود القديمة جميعها، ومن أجل هذا كان الرومان يرون أنهم رحماء كرام حين يتيحون لأسراهم فرصة ينجون فيها من الموت بإرسالهم إلى المجتلد. كذلك كان المحكوم عليهم في الجرائم الكبرى يرسلون من كافة أنحاء الإمبراطورية إلى رومة، فيلحقون بمدارس المجالدين ولا يلبثون أن يظهرُوا في الألعاب، فإذا ما أظهروا في الصراع شجاعة نادرة فقد يحررون من فورهم. وأما إذا نجوا من القتل من غير أن يظهرُوا هذه الشجاعة فكانوا يرغمون على القتال مرة بعد مرة في الأعياد والمواسم المتواليه؛ فإذا ظلوا أحياء ثلاث سنين استبدل الاسترقاقي بالإعدام؛ وإذا ما أرضوا سادتهم عامين نالوا حريتهم. وكانت الجرائم التي يحكم على مرتكبيها بحياة المجالدين مقصورة على القتل، والسرقة، والتسميم، وتدنيس الأماكن المقدمة، والتمرد؛ ولكن حكام الأقاليم المجدين كانوا يحرسون في بعض الأحيان على سد حاجة الأباطرة إلى أمثال هؤلاء الناس، فيتخطون هذه القيود إذا نقص عدد المجالدين(113). وكان الفرسان وأعضاء مجلس الشيوخ أنفسهم يحكم عليهم أحياناً بأن يقاتلوا في المجتلد؛ بل إن شهوة الثناء وحب التصفيق كانت في بعض الأحيان تدفع أفراداً من طبقة الفرسان لأن يتطوعوا لهذا القتال مختارين، ومن الناس عدد غير قليل كانوا يدخلون مدارس المجالدين حباً في المغامرة ومغالبه الأخطار. وقد وجدت هذه المدارس في رومة من عام 105 ق. م. وكان فيها أربع مدارس من هذا النوع في عهد الإمبراطورية، عدا ما كان منها في

صفحة رقم : 3587

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> يوم عطلة روماني -> الألعاب

أنحاء إيطاليا وكانت واحدة في الإسكندرية، وكان للأغنياء في أيام قيصر مدارس أنشأها لأنفسهم ليعدوا فيها العبيد ليكونوا مجالدين، وكانوا يتخذون خريجها حرساً خاصاً لها في زمن السلم وجنوداً في وقت الحرب، ويؤجرونهم للقتال في المآدب الخاصة، ويعيرونهم للقتال في الألعاب. وكان الكثيرون ممن يدخلون مدارس المجالدين المحترفين يقسمون عند دخولهم يميناً بأن "يقبلوا الضرب بالعصي والحرق بالنار، والقتل بحد السنان"(114). وكان التدريب والنظام فيها صارمين، وكان الأطباء يراقبون ما يقدم فيها من الطعام، ويصفون للطلاب أكل الشعير ليقفوا بأكله عضلاتهم. وكان عقاب من يخرج على القواعد والنظم الموضوعه الجلد، والكي، والسجن والأغلال. ولم يكن طلاب الموت هؤلاء جميعهم غير راضين عن مصيرهم، فمنهم من كانوا يزدنون بما سوف يحرزون من نصر، وكانوا يفكرون في شجاعتهم أكثر من تفكيرهم فيما يتعرضون له من الأخطار(115)، ومنهم من كان يشكو أنه لم تتح له فرص كافية للقتال، وكان هؤلاء يحقدون على تيبيريوس لأنه لا يكثر من إقامة الألعاب. لقد كان يعزيهم عن الخطر الذي يتعرضون له، ويغريهم بركوب هذا الخطر، ما سوف ينالون من الشهرة، فقد كان المعجبون بهم يكتبون أسماءهم على جدران المباني العامة، وكانت النساء تعشقهم، وكان الشعراء يغنون بمدحهم، والمصورون يصورونهم،

والمثالون يخلدون للأجيال المقبلة صور عضلات أذرعهم الحديدية، وعبوسة وجوههم الرهيبة. على أن منهم كثيرين كانوا يألمون لسجنهم الطويل، وحياتهم الوحشية الرتيبة، وما يتوقعون لأنفسهم من أجل قصيرة، ومنهم من كانوا ينتحرون، وقد انتحر واحد منهم بأن كتم نفسه بإسفنجة كان يستخدمها في تنظيف أعضائه السرية، وانتحر آخر بوضع رأسه بين أنصاف محاور عجلة تتحرك، وانتحر كثيرون منهم بشق بطونهم في المجتلد(116). وكانوا في الليلة السابقة للقتال تولم لهم وليمة طيبة؛ فمن كان منهم فظاً

صفحة رقم : 3588

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم عطلة روماني -> الألعاب

خشن الطباع ملأ بطنه بلذيذ الطعام والشراب، ومنهم من كان يودع زوجته وأبناءه وهو حزين كظيم؛ وكان المسيحيون منهم يجتمعون ليتناولوا معاً "طعام المحبة" (Agap). وكان هؤلاء وأولئك يأتون إلى المجتلد في اليوم الثاني في حلل فاخرة ويذرعونه من أوله إلى آخره، وكانوا يسلحون في العادة بالسيوف، أو الرماح، أو الخناجر، ويلبسون خوذاً من البرونز، ودروعاً، ووقايات للأكتاف وتروساً وجراميق. وكانوا يصنفون حسب أسلحتهم؛ فمنهم أصحاب الشباك الذين يوقعون خصومهم في الأحابيل ثم يقضون عليهم بطعنات الخناجر، ومنهم من يحذقون مطاردة مقاتليهم بالتروس والسيوف؛ ومنهم من يرمون بالمقالع، ومنهم من يقاثل الواحد منهم بسيف قصير في كلتا يديه، ومنهم من يقاثلون في المركبات، ومنهم من يصارعون الوحوش. وكان المجالدون فضلاً عن هذه المغامرات كلها يتبارزون مثني مثني أو جماعات، وإذا جرح أحد المتبارزين جرحاً شديداً في مباراة فردية طلب من أقام المباراة إلى النظارة أن يدلوا برأيهم، فإذا رفعوا إبهامهم أو لوحوا بمناديلهم كان ذلك دليلاً على أنهم يريدون الرحمة بالجريح، وإذا ما خفضوا إبهامهم عرف أنهم يطلبون إلى الفائز أن يقتل المغلوب من فوره(117). وإذا أظهر أحد المقاتلين أنه لا يحب أن يموت أثار بذلك غضب النظارة وأثيرت حميته وشجاعته بوخزه بالحديد المحمي(118). وإذا أريدت مجازر كبيرة هيئت معارك جماعية يقتتل فيها آلاف الرجال بوحشية المستبشرين. وقد اشترك في الثمان المعارك التي أعدها أغسطس عشرة آلاف مقاتل اقتتلوا فيها مجتمعين. وكان رجال في ثياب كارون Charon ينخسون من يسقطون في المعركة بأسنان العصى الحادة ليعرفوا هل ماتوا حقاً أو أنهم يتصنعون الموت. فإذا وجدوهم يتصنعوه قتلوهم بضربات المطارق على رؤوسهم.

صفحة رقم : 3589

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم عطلة روماني -> الألعاب

وكان هناك رجال آخرون في ثياب عطارد رسول الآلهة يجرون أجساد الساقطين بخطاطيف في الوقت الذي يجمع فيه عبيد من المغاربة التراب المبلل بالدماء في مجارف، ويفرشون الرمل على الأرض لاستقبال من يأتون بعدهم من الأموات.

وكان معظم الرومان يدافعون عن الألعاب في المجتلدات بقولهم إن الضحايا كانوا من المحكوم عليهم بالإعدام لما ارتكبوه من الجرائم الشنيعة، وإن ما يلقون بالعذاب يحول بين غيرهم وبين ارتكاب أمثال هذه الجرائم، وإن الشجاعة التي يدرّب عليها المقضي عليهم ليلاقوا بها الجراح والموت تغرس في قلوب الشعب الفضائل العسكرية، وإن اعتياد العين رؤية الدماء والمعارك الحربية تعود الرومان مطالب الحرب والتضحية بالنفس. وها هو ذا جوفال الذي ندد بكل شيء عدا هذه الألعاب قد تركها من غير تجريح، وامتدح بلني الأصغر، وهو الرجل الراقي المتحضر، تراجع لأنه عرض على الشعب مناظر تثير في الناس رغبة أن يُثخنوا "بالجراح الشريفة والاستهزاء بالموت" (119). وكان تاستس يرى أن الدماء التي تراق في المجتلد، أياً كان شأنها، هي "الدماء الرخيصة" التي تجري في عروق العامة (120). أما شيشرون فكانت نفسه تتقزز من هذه المجازر وهو يسائل الناس "أية تسلية يمكن أن تتسلى بها الروح الرقيقة الإنسانية حين ترى وحشاً شريفاً يطعنه الصائد في قلبه بلا رحمة، أو ترى إنساناً يمزقه وحش ضار أقوى منه جسماً؟" ولكنه يضيف إلى ذلك قوله. "إذا ما اضطر المجرمون إلى القتال فإن العين لا تشهد طريقة تهيب الإنسان لملاقاة العذاب واستقبال الموت خيراً من هذه الطريقة" (121). وأقبل سنكا على الملاعب في وقت الظهيرة حين خرجت كثرة النظارة للغداء، فهاله وحز في نفسه أن يرى مئات المجرمين يساقون لبيتسلى من بقوا فيها برؤية دمائهم المراقبة:

"وأعود إلى منزلي أكثر مما كنت نهماً وقسوة ووحشية، لأنني كنت بين آدميين. لقد شاهدت بمحض المصادفة معرضاً مقاماً في وقت الظهيرة،

صفحة رقم : 3590

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> يوم عطلة روماني -> الألعاب

وكنت أتوقع أن أرى بعض ما يبعث السرور أو الفكاهة أو يروح عن النفس بعض متاعبها... وتستطيع عين الإنسان أن تستريح به من رؤية المجازر التي تذهب فيها حياة أخيه الإنسان... ولكني رأيت عكس هذا... إن هؤلاء المحاربين في وقت الظهيرة يخرجون وليس عليهم دروع من أي نوع كان، أجسامهم معرضة للطعنات، في كل جزء من أجزائها، فكل طعنة تصيبهم في الصميم... إنهم في الصباح يلقون الناس أمام الأساد، أما في الظهيرة فيقذف بهم أمام النظارة، فتري الجماهير تطلب إلى المنتصر الذي قتل خصيمه أن يقاتل الرجل الذي سوف يقتله، ويحتفظ بالمنتصر الأخير ليقتل قتلة أخرى... وهذه الأمور وأمثالها تحدث والمقاعد تكاد تكون خالية... إن الأدمي الذي لا يحل للإنسان قتله، يقتل لعباً ولهواً وحباً للمسرة" (122).

صفحة رقم : 3591

الفصل السابع

العقائد الجديدة

رضى الدين عن الألعاب وعدها الصور الصحيحة للاحتفالات الدينية، ولذلك كانت تبدأ بمواكب فخمة وقورة، وكان الكهنة والعذارى القسنتية يحتلون أماكن الشرف في دور التمثيل، وفي مضامير السباق وأمام المجتلد، وكان الإمبراطور الذي يرأس هذه الاحتفالات هو الكاهن الأكبر لدين الدولة.

وقد بذل أغسطس وخلفاؤه كل ما وسعهم من جهد ليعيدوا الحياة إلى الدين القديم، إلا عنصراً من عناصره وهو الحياة الأخلاقية الفاضلة؛ وحتى أشد الأباطرة كفراً بهذا الدين أمثال كلجيولا ونيرون كانوا يؤدون جميع المراسم والطقوس الواجبة للآلهة الرسمية، وظل اللوبرسي يرقصون في الشوارع في يوم عيدهم، كما ظل إخوان أرفال Arval ينطقون بالدعوات والصلوات للمريخ بلغة لاتينية قديمة لا يفهم أحد معناها. وكان التنبؤ بالغيب وزجر الطير من الأعمال التي لا ينقطع الناس عن ممارستها والثقة العظيمة بها، وكان الأباطرة الذين يخرجون المنجمين من البلاد يستشيرونهم في مهام الأمور. وأدخل السحر والشعوذة والخرافات والأوهام الباطلة، والرقي، والتعاويد، والتناول، والتطير، وتفسير الأحلام في نسيج الحياة الرومانية حتى أصبحت لحمتها وسداها، وكان أغسطس يدرس أحلامه دراسة جدية لا نقل عن دراسة علماء النفس في هذه الأيام؛ ويحدثنا سنكا أنه شاهد بعينه نساء يجلسن على درج الكبتول ينتظرن أن يستمتع بهن جوبتر لأنهن رأين في أحلامهن أن الإله راغب فيهن (123). وكان كل قنصل يحتفل بتقلده منصبه احتفالاً يضحى فيه بعدد من العجول؛ وحتى جوفنال نفسه، وهو الذي كان يسخر بكل ما عدا هذه الأعمال،

صفحة رقم : 3592

قطع بيده في تقي وخشوع أعناق حملين وعجل حنيز شكراً للآلهة على أن صديقاً له عاد من رحلته سالماً. وغصت الهياكل بقرابين الذهب والفضة؛ وكانت الشموع تضاء أمام المذابح، وقد بليت شفاه التمانيل المقدسة وأيديها وأقدامها من كثرة ما طبعه عليها الأتقياء الصالحون من قبيلات. وقصارى القول أن الدين القديم بدا وكأنه لا يزال محتفظاً بقوته، وظل يخلق آلهة جدداً مثل أنونا Anona (جامعة حبوب العالم إلى رومة)، ويبعث حياة جديدة في عبادة فورتونا Fortuna وروما Roma ويؤيد القانون، والنظام، والاستبداد أقوى تأييد. ولو أن أغسطس بعث حياً بعد عام واحد من وفاته لما كان عليه حرج إن قال إن ما بذله من هود لإحياء الدين قد نجح أعظم نجاح.

لكن الدين القديم، رغم هذه المظاهر الخارجية، دب فيه دبيب الفناء من أعلاه ومن أسفله على السواء. ولم يكن تأليه الأباطرة دليلاً على إجلال الطبقات العليا لحكامها، بقدر ما كان شاهداً على قلة إجلالها لآلهتها. وأخذت الفلسفة تمحو العقائد الدينية من قلوب المتعلمين وإن كانت في الوقت نفسه تبسط على هذه العقائد حمايتها، ولم تكن كتابات

لكريشبيوس Lucritius عديمة الأثر في العقول؛ نعم إن الناس لم يكونوا يذكرونه، ولكن إغفالهم ذكره لم يكن له من سبب إلى أن الانغماس في الأبيقورية كان أسهل عليهم من دراسة أبيقور أو شارحه المتحمس لمبادئه. ولم يجد الشبان الأثرياء الذين ذهبوا ليتزودوا بالدراسات العليا في أثينة والإسكندرية ورووس ما يزيد إيمانهم بالدين الروماني وعقائده. وكان الشعراء اليونان يسخرون من آلهة الرومان، وسرعان ما أخذ شعراء الرومان أنفسهم يحذون حذوهم، فكانت قصائد أوفد تفترض أن الحديث عنهم هزل لا جد فيه. ويلوح أن أحداً لم يشك من هذا أو يعترض عليه، وقام شخص وطرده ديانا من المسرح بعد أن انهال عليها ضرباً

صفحة رقم : 3593

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> العقائد الجديدة

بالسياط، وجاء آخر فمئل جوبتر وهو يوصي بوصيته استعداداً للموت(124). ولاحظ جوفنال ما لاحظته أفلاطون قبل عهده بخمسة قرون، وما نلاحظه نحن بعده بثمانية عشر قرناً، أن خوف إله رقيب مطلع على السرائر لم يعد له من القوة ما يستطيع به أن يكشف الحنث على الإيمان(125). وحتى شواهد القبور نفسها تقرأ عليها ما يدل على ازدياد التشكك في الدين وعلى الانغماس الصريح في الشهوات. فقد كتبت على واحد منها هذه العبارة: "لم أكن، لقد كنت، ولست بكائن، ولا أبالي". وكتب على شاهد آخر: "لم أكن قد وجدت، لست موجوداً، لست أدري"، وعلى شاهد ثالث: "لم يكن لي إلا ما أكلت وشربت؛ لقد تمتعت بحياتي"(126). وكتب على شاهد آخر: "لا أومن بشيء وراء القبر". ويؤكد شاهده غير أن "ليس ثمة جحيم ولا كارون، ولا سربس Cerebus". وكتبت نفس قلقة كدرة: "لا حاجة لي الآن بأن أخشى الجوع، ولا حاجة لي بأن أؤدي الرعب، ولقد تحررت من وجع المفاصل على الأقل". وكتب شخص نكد من أتباع لكريشبيوس عن جنته المدفونة يقول: إن "العناصر التي تكونت منها تعود مرة أخرى إلى أصولها، إن الحياة عارية تعار للإنسان، وليس في مقدوره أن يحتفظ بها إلى أبد الدهر، وهو إذا مات يرد ما عليه من دين إلى الطبيعة"(127).

لكن الشك مهما يكن فيه من إخلاص لا يمكن أن يحل محل الإيمان، ولم يجد ذلك المجتمع بين ملذاته كلها سعادة ما، بل سئم ما فيه من تنعم، واستنفد قواه فيما سادته من دعارة، وظل الفقراء والأغنياء على السواء معرضين للآلم والحزن والموت، ولم تستطع الفلسفة بجميع أنواعها، وخاصة تلك العقيدة الباردة السامية عقيدة الرواقية، أن تهيب الرجل العادي إيماناً يخفف عنه شعوره بفقره، ويشجعه على تهذيب خلقه، ويواسيه في أحزانه، ويبعث الأمل في قلبه. لقد كان الدين القديم يؤدي لوظيفة الأولى من هذه الوظائف الثلاث، وعجز عن أداء الوظائف الأخرى. ذلك أن الناس كانوا يحتاجون إلى وحي يوحى إليهم،

صفحة رقم : 3594

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبيقورية -> العقائد الجديدة

ولكن الدين لم يهتبه إلا طقوساً ومراسم؛ وكانوا يطلبون خلوداً وحياء بعد الموت، ولكن دينهم جاء لهم بدل هذا بالعباد. كذلك شعر الناس الذين جاءوا من بلاد أخرى عبيداً أو أحراراً أنهم محرومون من هذه العبادات القومية، ومن أجل هذا جاءوا معهم بالهتبه، وأقاموا لها هياكل خاصة بها، ومارسوا شعائرها الخاصة؛ وغرسوا في قلب بلاد الغرب دين الشرق. وبدأت بين عقائد الفاتحين وإيمان المهزومين، حرب لم تتفعل فيها أسلحة الجحافل الرومانية؛ وكانت حاجات القلوب هي التي قررت لمن يكون الفوز.

وجاء الأرباب الجدد مع أسرى الحروب، ومع الجنود العائدين من ميادين القتال ومع التجار. وأقام التجار الوافدون من أسية ومصر هياكل في بتيولي Puteoli، وأستيا Ostia رومة ليعبدوا فيها الهتبه التقليدية. وكانت الحكومة الرومانية تنظر إلى هذه الأديان الأجنبية نظرة التسامح في العادة؛ ذلك أنها لم تكن تريد أن تسمح للأجانب أن يشاركوا الرومان في عباداتهم، ومن أجل هذا كانت ترى أن ممارستهم شعائرها دينهم الذي جاءوا به معهم أفضل من تركهم بلا دين. وكانت تطلب إليهم في نظير هذا أن يكون كل دين أجنبي متسامحاً كذلك مع غيره من الأديان، وأن تتضمن طقوسه ما يشعر بالخضوع إلى "عقريّة" الإمبراطور، وإلى الألهة "روما" ليعبروا بذلك عن ولائهم للدولة؛ وشجع هذان التساهل والتسامح الأديان الشرقية، وكانت قد استقرت في رومة، فأضحت هذه الأديان الكبرى المنتشرة بين العامة. وأراد كلوديوس أن يهذب هذه العبادات الشرقية فرفع القيود المفروضة على عبادة الأم العظمى، وأجاز للرومان أن يكونوا لها كهنة لها وقائمين على خدمتها، وقرر لها عيداً رسمياً حوالي الاعتدال الربيعي بين 5 و 27 مارس. وكانت منافستها الكبرى في القرن الأول الميلادي هي إيزيس المصرية إلهة الأمومة، والإخصاب، والتجارة. وكانت الحكومة قد حرمت المرة بعد المرة عبادة هذه الألهة الأجنبية في رومة،

صفحة رقم : 3595

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> رومة الأبييقورية -> العقائد الجديدة

ولكنها لم تكن تلبث أن تعود بعد كل تحريم لأن تقوى عبادها كانت أقوى من سلطان الدولة، وأيد كلجيو لا استسلام الدولة لها بأن شاد لها من الأموال العامة ضريحاً فخماً في ميدان المريخ. واشترك أتو Otho، ودومنيان في الاحتفالات الإيزيسية، ومشى كومودس عاري الرأس خلف كهنتها يمسك بيديه في خشوع تمثالاً لأنوبيس Anubis القرد إله المصريين.

وزاد شأن هذا الغزو الديني عام بعد عام، فجاءت من جنوبي إيطاليا عبادة فيثاغورس وهي الاقتصار على أكل الخضر، والاعتقاد بعودة الأرواح إلى التجسد. وجاءت من هيربوليس Hierapolis الإلهة أترجانس Atargatis المعروفة عند الرومان "بالإلهة السورية"، كما جاء منها أيضاً أزيز Aziz المعروف "بزيوس دلوكي Dolochi" وغيره من الأرباب العجيبة. ونشر التجار والأرقاء السوريون عبادة هذه الألهة، وما زال عبادها يقوون حتى اعتلى العرش آخر الأمر من شاب كهنة "بعل" السوري وتسمى باسم إلبالس Elagabalus-عابد إله الشمس. وجاءت من بارتيا عدوة رومة عبادة إلهة من إلهات الشمس هي ميثرا Mithra. وكان عبادها يعتقدون أنهم جنود في الحرب الكونية العظيمة حرب الضياء على الظلام، وحرب الخير على الشر. وكان في هذا الدين كثير من صفات الرجولة، ولهذا كان أكثر أنصاره من الرجال لا من النساء، وأعجبت به الفيالق الرومانية المرابطة عند الحدود النائية حيث كان يصعب عليهم أن يسمعون أصوات الهتبه القومية. وجاء من بلاد اليهود إلههم يهوه إله الموحدين الذين لا يقبلون معه شريكاً، والذي كان دينه يتطلب من أهله حياة شاقّة من التقى ورعاية القواعد والنظم، ووضع لهم قانوناً أخلاقياً صارماً، وأكسبهم شجاعة كانت لهم عوناً فيما نزل بهم من محن، وأسبغت على حياة أفقر الفقراء وأقلهم جاهاً جلباباً من النبل والشرف. وكان بين اليهود الرومان أتباع هذا الدين طائفة لم تكن قد تميزت بعد من سائر الطوائف تمييزاً واضحاً، كانت تعبد ابنه الذي حلت فيه روحه والذي بعث حياً.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> المشترعون العظام

الباب الثامن عشر

القانون الروماني

146 ق. م إلى 192 م

الفصل الأول

المشترعون العظام

كان القانون أخص خصائص الروح الرومانية، وأبقى مظهر من مظاهرها وكانت رومة مضرب المثل في النظام كما كانت بلاد اليونان مضرب المثل في الحرية، ولقد أورتتنا رومة شرائعها، وتقاليدها الإدارية لتكون هي أسس النظام الاجتماعي، كما أورتتنا بلاد اليونان الديمقراطية والفلسفة اللتين كانتا أساس الحرية الفردية. وأهم ما يجب على الساسة ورجال الحكم هو أن يجمعوا بين هذين التراثين المختلفين المتنافرين ويوحدوا بينهما، ويؤلفوا من نغماتهما المتعارضة المنشطة نغماً مؤتلفاً منسجماً.

وإذ كان القانون هو أساس التاريخ الروماني وجوهره، فقد كان من المستحيل أن نفضل هذا عن ذلك، ومن أجل هذا لن يكون هذا الباب من أبواب الكتاب إلا مكماً لما سبقه وما سيعقبه من تفصيلات، ولن يزيد على لبنات متفرقة في صرح الحضارة الرومانية. والدستور الروماني يشبه الدستور البريطاني- فلم يكن هذا الدستور طائفة من القواعد المخدلة التي يتقيد بها

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> المشترعون العظام

الناس، بل كان سلسلة متتابعة من السوابق ترشد وتوجه، ولكنها لا تمنع التغيير. فكلما زاد الثراء وتعقدت أساليب الحياة، أصدرت الجمعيات وأصدر الحكام والزعماء، قوانين جديدة، وسأيرت الشرائع الإمبراطورية في نموها واتساع نطاقها، فكانت كلما امتدت رقعة الإمبراطورية لاحقتها القوانين إلى الحدود الجديدة، وتطلب تعليم رجال القانون، وإرشاد القضاة، وحماية المواطن من الأحكام الظالمة غير المشروعة، تطلب هذا تنظيم الشرائع وصياغتها في صورة مرتبة يسهل معرفتها والوصول إليها. وبينما كانت الاضطرابات التي حدثت عقب ثورات ابني جراكس وماريوس على أشدها قام ببليوس موسيوس اسكافولا (Publius Mucius Scaevola) (الذي ولي القنصلية في عام 133 ق. م) وابنه كونتس Quintus (وقد ولي القنصلية في 55 ق. م) وبذلاً جهوداً كبيرة لصياغة قوانين رومة صياغة يسهل فهمها. وكتب شيشرون، وكان من تلاميذ رجل آخر يدعى كونتس موسيوس اسكافولا (وقد ولي القنصلية عام 117 ق. م)، رسائل بليغة في فلسفة القوانين، ووضع مشروع قوانين مثالية يقصد بها الاحتفاظ بالثروة الطائلة التي جمعها وبالدين الذي خسره. وخلقت القوانين المتناقضة التي سنها ماريوس وصلاً، وسلطة بمبي المطلقة التي لم يكن لها مثيل من قبل، والشرائع الثورية التي وضعها قيصر، والدستور الجديد الذي وضعه أغسطس، خلقت هذه كلها مشاكل جديدة للعقول التي حاولت أن تجعل الشرائع المتمشية مع المنطق السليم، وأخذ المشترع النابه أنتستيو لبيو Antistius Labeo يندد بما في القوانين من اضطراب وفوضى، ويعلن أن المراسيم التي أصدرها قيصر وأغسطس مراسيم باطلة لأنها مظهر لسلطة مغتصبة غير شرعية. ولم يكن في مقدور عقول الأفراد أو سلطة المحاكم أن تقبل هذه القوانين الجديدة إلا بعد أن وطدت الزعامة سلطتها باستخدام القوة أولاً وبسلطان العادة فيما بعد. ويعود الفضل إلى القرنين الثاني والثالث من التاريخ الميلادي في وضع القوانين

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> المشترعون العظام

الرومانية في الغرب في صورتها النهائية- وهو عملاً لا يقل خطراً عن صياغة العلم والفلسفة في بلاد اليونان. وفي هذا المجال أيضاً كان قيصر هو الذي حدد الهدف المقصود، ولكن الجهود الحقيقية التي بذلت لتحقيق هذا الهدف لم تبدأ بالفعل إلا في أيام هدریان (117 م)؛ فقد جمع هذا الإمبراطور- وهو أرقى الأباطرة كلهم تعليماً- حوله طائفة من فقهاء القانون وألف منهم مجلسه الخاص، وكلفهم أن يستبدلوا بمراسيم البريتورين المتناقضة "مرسوما خالداً" يلتزمه في المستقبل جميع القضاة في إيطاليا. ولعل الذي أوحى إلى هدریان بإصلاح شرائع رومة وتنسيقها هو إطلاعه في أثناء رحلاته الكثيرة على دساتير المدن اليونانية في أسية وإيطاليا؛ ذلك أن هذه المدن قد أنشأت على توالي الأيام طائفة راقية من القوانين التي تنظم شئونها البلدية، وإن كان اليونان بوجه عام لم يخرجوا بعد أيام صولون

كتاباً في القانون يعد من الآيات الخالدة في هذا الموضوع. وواصل الأنطونيون خلفاء هدریان هذا التقنين، وكانت الشهرة النصف الرسمية التي تتمتع بها الفلسفة الرواقية مما جعل لليونان أثراً عميقاً في القوانين الرومانية. فقد أعلن الرواقيون جهرة أن القوانين يجب أن تتفق مع المبادئ الخلقية القويمة، وأن الجريمة كامنة في نية المرء لا في نتيجة عمله. وقد أمر أنطونيوس، وهو ثمرة من ثمار المدرسة الرواقية، أن يفسر الشك لمصلحة المتهم، وأن يظل الإنسان بريئاً حتى تثبت إدانته (1) - وهما مبدآن من أرقى المبادئ في قوانين البلاد المتحضرة.

وقد نبغ في فلسفة القانون عدد كبير من العباقرة جاء بعضهم في إثر بعض، وكان من أهم العوامل في هذا النبوغ مناصرة الأباطرة وتشجيعهم. ومن هؤلاء العباقرة سلفيوس يوليانيس Salvius Julianus وهو روماني أفريقي المولد أظهر من الجد وغزارة العلم حين كان يعمل مستشاراً قانونياً للإمبراطور ما حمل مجلس الشيوخ على أن يقرر أن يكون مرتبه ضعفي المرتب المخصص

صفحة رقم : 3599

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> المشترعون العظام

لهذا المنصب عادة واشتهرت فتاواه بوضوحها وسلامة منطقتها، و "خلاصته" عبارة عن مجموعة منظمة من القوانين المدنية. وكان هو الذي صاغ المرسوم البريتوري الدائم حين كان أشهر الأعضاء البارزين في مجلس هدریان. وهناك مشرع آخر يدعى جايوس Gaius لا نعرف عنه غير اسمه. وقد عثر نيبيهر Neibuhr عام 1816 م على "أنظمته" مكتوبة على ورق وفوقها مقالات لجيروم Jerome، وهي الآن أكمل مرجع يعتمد عليه في دراسة القوانين التي سنت قبل عهد جستنيان. وقد صدرت هذه "الأنظمة" حوالي عام 161 م، ولم يكن يقصد بها أن تكون عملاً إنشائياً جديداً، بل كانت كتاباً مدرسياً أولياً للطلاب والدارسين. فإذا رأينا نحن أنها أية من آيات العرض المنظم، ففي وسعنا أن نتصور العقلية الجبارة التي كان يتمتع بها أولئك الرجال الذين تلخص هذه الرسالة كتبهم. وبعد ستين سنة من ذلك العهد أوصل بابنيان بولس Papinian Paulus وألبيان Alpian فقه القانون الروماني إلى ذروته؛ وبينما كان تنفيذ القوانين يخر صريعاً للعنف والفوضى صاغه هذان العالمان صياغة منطقية متمسقة خالية من التناقض، ولم يلبث هذا العلم أن هوي بعدهما في غمرة الخراب الشامل.

صفحة رقم : 3600

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> مصادر القانون

الفصل الثاني

كما أن مصطلحات العلم والفلسفة مأخوذة في الأغلب الأعم من اللغة اليونانية فتكشف بذلك عن مصدر هذه العلوم، كذلك لغة القانون مأخوذة في معظمها من اللغة اللاتينية. وكان اللفظ الدال على القانون في هذه اللغة هو Ius أي العدالة أو الحق، أما كلمة Lex فقد كان معناها القانون الخاص. وقد وصف فقه القانون في مختصر جستنيان (533 م) بأنه علم وفن معاً "علم العدل وغير العدل" و "فن تدبير ما هو صالح ومقسط" وكانت كلمة Ius تشمل القانون غير المكتوب أو العادات المرعية التي تحوي القانون المكتوب نفسه، وكان هذا القانون المكتوب يتكون من Ius Civilen- أي "قانون المواطنين (الرومان)، Ius Gentium- أي "قانون الأمة". وكان القانون المدني وقانون المواطنين يسمى "القانون العام" إذا كان يتعلق بشئون الدولة والعبادة الرسمية، و "القانون الخاص" إن كان يبحث في العلاقات القانونية بين المواطنين بعضهم بعضاً.

والقانون الروماني بوجه عام مأخوذ من خمسة مصادر: (1) ففي عهد الجمهورية كان المصدر النهائي للقانون هو إرادة المواطنين يعبرون عنها في الجمعيتين العشرية والمئوية بلفظ Leges وفي الجمعية القبلية بلفظ Plebisuta ("قررت العامة"). ولم يكن مجلس الشيوخ يقر اللجيس Leges إلا إذا عرضت على الجمعيتين مصحوبة بالمراسيم المقررة وعرضهما عليه موظف كبير في مرتبة

صفحة رقم : 3601

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> مصادر القانون

أعضاء مجلس الشيوخ. وإذا ما اتفق مجلس الشيوخ والجمعية على إنفاذ قانون من القوانين أعلن باسم Senatus Populusque Romauns.

(2) ولم يكن لمجلس الشيوخ نفسه من الوجهة النظرية في عهد الجمهورية حق إصدار القوانين؛ أما قراراته المعروفة باسم "استشارات الشيوخ" Senayusconsulta فكانت من الناحية الرسمية توصيات إلى الحكام؛ ثم أضحت على مر الأيام توجيهات، ثم أوامر، ثم صار لها في عهد الجمهورية المتأخرة وفي عهد الإمبراطورية قوة القوانين. وكان مجموع القوانين التي أجازتها الجمعيتان ومجلس الشيوخ في خلال ستة قرون قليلاً إلى حد يدهش له من اعتاد السيل الجارف من الشرائع التي تصدرها الدول في الوقت الحاضر.

وكانت الحاجة إلى القوانين الصغرى أو الخاصة تسدها الأوامر Edicta التي يصدرها موظفو المجالس البلدية. ذلك أن كل حاكم جديد للمدينة كان يصدر في بدء قيامه بمهام منصبه أمراً بريطورياً Edictum Praetorium يذيعه مناد في السوق العامة وينقش على أحد الجدران، ويعلن فيه المبادئ القانونية التي ينثوي الحاكم العمل بها والحكم بين الناس بمقتضاها في خلال السنة التي يتولى فيها منصبه. وكان في وسع القضاة المنتقلين Praelores Peregrini وحكام الولايات أن يصدروا أيضاً أمثال هذه القرارات. ولم يكن يسمح للبريتورين بمقتضى سلطة الحكم المخولة لهم أن يسفروا القوانين القائمة فحسب، بل كان لهم فوق ذلك أن يسنوا قوانين جديدة. وبهذه الطريقة كان القانون الروماني يجمع بين استقرار الشرائع الأساسية ومرونة الأحكام البريتورية. وإذا انتقل قانون أو انتقلت فقرة من فقراته من مرسوم بريطور إلى مرسوم البريتور الذي يليه مرات كثيرة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من القانون الأساسي المعروف

باسم Ius Honorarium حتى حل "قانون المنصب" قبيل عهد شيشرون محل الجداول الاثني عشر، وأصبح هو النص الرئيسي للأوامر القانونية في رومة. على أن

صفحة رقم : 3602

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> مصادر القانون

البريتور كثيراً ما كان يخالف المبادئ التي جرى عليها سابقه، ويصدر من الأحكام ما يناقضها كل المناقضة في بعض الأحيان؛ وبهذا أضيف الغموض في القوانين والتعسف في الأحكام إلى المساوئ الطبيعية التي لا يخلو منها أي نظام قضائي يتبعه بنو الإنسان؛ وهذا هو الغموض الذي أراد هدریان أن يقضي عليه حين عهد إلى يولييانس أن يجمع القانون الأساسي Ius Honorarium كله في مرسوم دائم لا يستطيع تغييره إلا الإمبراطور نفسه.

(4) وأصبحت قوانين الزعماء Constitutiones Principum نفسها في القرن الثاني مصدراً آخر من مصادر القانون. واتخذت هذه القوانين أربعة أشكال مختلفة (أ) فقد كان الزعيم يصدر مراسيم بوصفه كونه صاحب منصب في المدينة، وكانت هذه المراسيم نافذة في الإمبراطورية كلها، ولكن يلوح أنها كان يبطل مفعولها بعد وفاته. (ب) وكان لأوامره Decreta بوصفه قاضياً ما كان لغيرها من الأوامر من قوة القانون. (3) وكانت ردوده الإمبراطورية Rescripta أجوبة لما يوجه إليه من الاستعلامات. وكانت هذه الأجوبة تتخذ في العادة شكل رسائل Epistulae أو إجابات قصيرة Subscriptiones "تكتب تحت" سؤال أو ملتمس. وقد ضمت الرسائل الحكيمة الجامعة التي رد بها هدریان على ما يطلبه موظفو الحكومة من إرشادات إلى قوانين الإمبراطورية، وظلت نافذة المفعول بعد وفاته بزمن طويل. (4) وكانت عهود الأباطرة Mandata هي التوجيهات التي يصدرونها للموظفين، وقد تكون من هذه العهود على مر الزمن كتاب كبير من القانون الإداري.

(5) وكان من المستطاع في بعض الظروف الخاصة أن تسن القوانين الجامعة المعروفة باسم Responsa Prodentium. ولقد كان من أجمل المناظر بلا ريب أن يجلس العلماء الأعلام من المشترعين على كراسي في السوق العامة (أو في بيوتهم كما كان يحدث في العهود المتأخرة) ويصدروا فتاوي قانونية

صفحة رقم : 3603

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> مصادر القانون

لكل من يريد استفتاءهم، وكانوا ينالون في بعض الأحيان على عملهم مكافآت من طريق غير مباشر. فكثيراً ما كان المحامون أو قضاة البلديات يأتون إليهم ليستشيرهم في مشاكلهم القانونية. وكانوا يفعلون ما يفعله كبار الحاخامات اليهود من التوفيق بين المتناقضات، ويحددون ما بين القوانين بعضها وبعض من فروق دقيقة، ويفسرون القانون القديم بما يلائم حاجات الحياة القائمة في وقتهم أو يلائم ظروفها السياسية، أو يوفقون بينه وبين هذه الحاجات

والظروف. وقد أضحى لأجوبتهم المكتوبة بحكم العادة غير المكتوبة قوة لا تفوقها إلا قوة القوانين نفسها. وجعل أغسطس لهذه الفتاوي كل ما للقوانين من قوة إذا توافر فيها شرطان: أولهما أن يكون المشترون قد تلقوا من الأميراطور حق إصدار الفتاوي القانونية *Ius Sespodenti* وثانيهما أن ترسل الإجابة مختومة إلى القاضي المعروضة عليه القضية الصادرة فيها الفتوى. ولم يحل عصر جستينيان حتى أضحى هذه الإجابات أو الفتاوي القانونية مصدراً واسعاً للشرائع وأدابها، ومعينا لا ينضب استمد منه مختصره وكتاب قوانينه وكان عماداً لهما.

صفحة رقم : 3604

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الأحوال الشخصية

الفصل الثالث

قانون الأحوال الشخصية

يقول ماريوس المعروف بدقته إن القانون كله يتعلق إما بالأشخاص، وإما بالملك، وإما بالمرافعات (3). وكانت لفظ *Persona* في أول الأمر تعني قناع الممثل، ثم صار معناها بعدئذ العمل الذي يقوم به الإنسان في الحياة، ثم بات معناها آخر الأمر الشخص نفسه- وكأنما قصد بهذا التطور أننا لا نستطيع أن نعرف شخصاً ما، بل كل الذي نعرفه هو ما يقوم به من أعمال، أو ما يلبسه من قناع أو أفتعة.

وكان الشخص الأول في القانون الروماني هو المواطن؛ وكان تعريفه عندهم هو أنه الشخص الذي ضم إلى إحدى القبائل الرومانية بحكم المولد أو التبني، أو العتق، أو المنحة من قبل الحكومة. وكان الذي ينطبق عليهم هذا التعريف ينقسمون ثلاث درجات: (1) المواطنين الكاملين الذين يتمتعون بالحقوق الأربعة: حق الاقتراع (*Ius Suffrag*)، وحق التوظف (*Ius Honorum*)، وحق الزواج من حرة بمولدها (*Ius Conub*)، وحق الدخول في تعاقد تجاري يحميه القانون الروماني (*Ius Commerc*). (2) "المواطنين الذين لا حق لهم في الاقتراع" وهم الذين يتمتعون بحق الزواج والتعاقد، ولكنهم لا حق لهم في الاقتراع، ولا في تولي المناصب. (3) المعاتيق الذين يتمتعون بحقي الاقتراع والتعاقد ولكنهم لا حق لهم في الزواج بحرة أو في تولي المناصب. وكان للمواطن الكامل المواطنة، فضلاً عن حقوقه السالفة الذكر، حقوق يضمنها له القانون الشخصي ولا يشاركه فيها سواه؛ كحق الأب على أبنائه (*Patria Potestas*)، والزوج على زوجته (*Manus*)، والمالك في ملكه ومنه عبيده (*Dominium*)،

صفحة رقم : 3605

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الأحوال الشخصية

وحق الرجل الحر على غيره إذا تعاقد معه (Mancipium). وكان ثمة نوع آخر من الحقوق هو حق المواطنة الإمكانية أو حق الدخول في الحضيرة اللاتينية أو Ius Lat أو Latinitas، تمنحه رومة للأحرار سكان المدن أو المستعمرات المفضلة ويعطيهم حق التعاقد ولكنه لا يعطيهم حق التزاوج بالرومانيات، وينال به كبار موظفيهم حقوق المواطنة الرومانية الكاملة حين تنتهي مدة توليهم مناصبهم. وكان لكل مدينة في الإمبراطورية مواطنوها وشروطها الخاصة لنيل حقوق المواطنة. وكان من المميزات الفذه لهذه الإمبراطورية أن الشخص يستطيع أن يكون مواطناً لعدة مدن في وقت واحد، وأن يستمتع فيها جميعاً بالحقوق المدنية. وكانت أئمن ميزة يستمتع بها المواطن الروماني هي حماية القانون لشخصه، وملكه، وحقوقه، وأمنه على نفسه من التعذيب أو العنف في أثناء المحاكمة. وكان من مفاخر القانون الروماني أنه يحمي الفرد من الدولة.

ويلي الأب المواطن الأهمية في نظر القانون. لقد كان انتشار القانون في الأقاليم التي كانت خاضعة في الأزمنة القديمة لسلطان العادة سبباً في إضعاف حقوق الآباء على الأبناء، ولكن في وسعنا أن نحكم على ما بقي له من سلطان إذا ذكرنا أنه حين خرج أولس فلفيوس Aulus Fulvius لينضم إلى جيش كاتلين Catiline استعاده أبوه وقتله. على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن سلطان الأب على أبنائه أخذ يضعف كلما ازداد سلطان الحكومة على الأفراد؛ وإن المواطنة دخلت الأسرة حين غادرت الدولة. لقد كان الآباء هم الدولة في باكورة عهد الجمهورية، فكان رؤساء الأسر هم الذين يكونون الجمعية القبلية، وأكبر الظن أن رؤساء القبائل هم الذين كانوا يكونون مجلس الشيوخ. ثم ضعف نظام الحكم عن طريق الأسر والقبائل حين كثر عدد السكان واختلقت أصولهم، وأصبحت الحياة أكثر حركة وتعقيداً، وازدادت الصلات التجارية بين الناس فحل التعاقد والقانون محل القرابة والمكانة الاجتماعية والعادة (4). فنال الأبناء من آباءهم

صفحة رقم : 3606

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الأحوال الشخصية

نصيياً أوفى من الحرية، كما ازدادت تحرر الزوجات من الأزواج والأفراد من الجماعات. وشاهد ذلك أن تراجان أمر بفصل ابن عن أبيه لأنه أساء معاملته، وأن هدريان سلب من الأب حقه في قتل أفراد أسرته ونقل هذا الحق إلى المحاكم، ومنع أنطونينس أباً من أن يبيع أبنائه عبيداً (5). وكانت العادة قد قصرت من زمن بعيد استخدام هذه السلطات القديمة على حوادث فردية نادرة. ذلك أن القانون ينزع على الدوام للسير ببطء خلف التطور الأخلاقي، لا لأن القانون عاجز عن التعلم بل لأن التجارب قد دلت على أن من المحكمة أن تجرب الأساليب الجديدة عملياً قبل أن توضع في صورة الشرائع.

وكانت المرأة الرومانية تحصل على حقوق جديدة كلما فقد الرجل حقوقاً قديمة، ولكنها كانت من المهارة بحيث تستطيع أن تستر حريتها بستر من القيود القانونية المطردة الزيادة. لقد كانت شرائع الجمهورية تقتض أنها "لا حق لها على نفسها Sui Iuris" مطلقاً بل أنها على الدوام خاضعة لولي من الذكور. وفي ذلك يقول جايوس: "توجب عادتنا على النساء الرشيديات أنفسهن أن يبقين تحت الوصاية لخفة عقولهن" (6). ثم زال القسط الأكبر من هذه الوصاية في عهد الجمهورية المتأخر وفي عهد الإمبراطورية، وكان سبب زواله مفاتن النساء وقوة إرادتهن، واستجابة الرجال لهذه المفاتن وهيامهم بالنساء. فكان المجتمع الروماني من أيام كاتو الأكبر إلى أيام كمودس

Commodus خاضعاً لسلطان النساء، وإن كان من الناحية القانونية مجتمعاً أبوياً، وكان يسوده كل ما كانت تمتاز به سيادتهن على إيطاليا في عهد النهضة أو الندوات الفرنسية في عهد آل بربون من ظرف ورشاقة. وأقرت قوانين أغسطس هذه الحقيقة الواقعة بعض الإقرار بأن رفعت الوصاية عن كل امرأة ولدت ثلاثة أبناء شرعيين (7). وأصدر هدریان مرسوماً يجعل من حق النساء أن يتصرفن في أملاكهن كيفما شئن بشرط أن يحصلن قبل ذلك على موافقة أوليائهن، ولكن الإجراءات الفعلية لم تلبث

صفحة رقم : 3607

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الأحوال الشخصية

أن استغنت عن هذه الموافقة. ولم يكد يختتم القرن الثاني حتى كانت الولاية البشرية قد رفعت من الوجهة القانونية عن الحرائر من النساء متى تجاوزن الخامسة والعشرين من العمر. وظل رضاء الأبوين إلى الوقت الذي نتحدث عنه واجباً في الزواج الشرعي (8). وكان الزواج الذي يتطلب احتقالاتاً دينياً Con Farreatio وقتنذ (60 م) مقصوراً على عدد قليل من الأسر التي يتألف من آبائها مجلس الشيوخ. وبقي الزواج بالشراء (Coemptio) قائماً من حيث الشكل، فكان العريس يؤدي ثمن العروس بأن يزن في ميزان أساً أو سبيكة من البرنز أمام خمسة شهود بعد موافقة أبيها أو وليها (9). غير أن معظم الزواج أضحي وقتنذ زواجاً بالمعاشرة (Usus). وكانت الزوجة تتجنب الخضوع لحق زوجها في تملكها (Manus) بأن تغيب عن بيتها ثلاث ليال في كل عام، وبذلك تحتفظ بسيطرتها على أملاكها عدا باننتها. بل إن الزواج في واقع الأمر كثيراً ما كان يسجل أملاكه باسم زوجته تهرباً من قضايا التعويض عن الأضرار أو العقاب على الإفلاس (10). وكان في وسع كل من الطرفين فسخ هذا الزواج الذي يتسلم فيه الزوج زوجته أو أملاكها Sine Manu متى أراد، أما ما عداه من أنواع الزواج فكان الزوج وحده هو الذي يحق له فسخه. وظل الزنى من الجرائم الصغرى إذا ارتكبه الرجل، أما إذا ارتكبه المرأة فكان يعد من الجرائم الكبرى ضد أنظمة الملكية والميراث، ولكن الزوج لم يبق له وقتنذ حق قتل زوجته إذا ضبطها متلبسة بجريمة الزنى، بل أعطى هذا الحق لأبيها اسماً وللمحاكم فعلاً. وكان عقابها هو النفي. وكان القانون يعترف بالتسري بدلاً من الزواج لا مصاحباً له، ولم يكن يجيز للرجل أن تكون له خطبتان في وقت واحد، ولم يكن أبناء السراري يعدون أبناء شرعيين أو يجعل لهم حق الإرث. ومن أجل ذلك كان اتخاذ السراري أمراً محبوباً كل الحب للرجال الذين يتكالب عليهم من يسعون لأن يوصي لهم بأملاكهم. فاتخذ

صفحة رقم : 3608

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الأحوال الشخصية

فسبازيان، وأنطونينس بيوس، وماركس أورليوس لهم سراري يعيشون معهن بعد أن ماتت أزواجهم (11).

وحاول القانون أن يشجع الأبوة بين الأحرار، لكنه لم يفلح في ذلك إفلاحاً يستحق الذكر. وكان يحرم قتل الأبناء إلا إذا كانوا مشوهين أو مصابين بمرض مستعص على العلاج. وكان عقاب من يجهض حاملاً أن ينفي من البلاد وأن تصدر أملاكه، فإذا ماتت الحامل نتيجة لهذا العمل عوقب بالإعدام(12). على أنه كان في الاستطاعة الإفلات من هذه القوانين في ذلك الوقت كما يفلت من يرتكب هذه الجرائم الآن. وكان الأبناء أياً كانت سنهم يبقون تحت سلطان أبيهم إلا إذا باعهم عبداً ثلاث مرات، أو تحرروا من سيطرته بحكم القانون، أو شغل الابن منصباً عمومياً، أو صار كاهناً، أو أصبحت إحدى بناته زوجة استولى زوجها عليها وعلى مالها، أو أضحت عذراء فستية. وإذا تزوج ابن في حياة أبيه كانت ولاية أبنائه لجدهم(3). وقد أعتت شريعة أغسطس مكاسب الابن من الجندية أو من توليه منصباً عاماً، أو كهنوياً، أو من الاشتغال بإحدى المهن الحرة أعتتها من الخضوع إلى القانون القديم الذي كان يجعل هذه المكاسب كلها من حق الأب. وكان لا يزال من حق الأب أن يبيع ابنه (Mancipium)؛ ولكن حاله تلك كانت تختلف عن حال الرقيق فقد كان يحتفظ بما له من حقوق مدنية أما العبد فلم تكن له حقوق مدنية على الإطلاق، والحق أن القانون الروماني كان يتردد في أن يطلق عليه لفظ شخص Person، ثم خرج أخيراً من هذه الورطة بأن سماه "إنساناً غير شخصي"(14). ولم يبحث جايوس في أمره تحت عنوان قانون الأشخاص إلا لخطأ وقع فيه أدى إلى هذا الإنصاف غير المقصود؛ أما منطلق الحوادث فكان يعد العبد من قبيل المتاع Res، فلم يكن يحق له أن يمتلك، أو يرث، أو يورث، ولم يكن يستطيع أن يتزوج زوجاً شرعياً، وكان أبنائه كلهم يعدون أبناء غير شرعيين، كما أن أبناء الجارية كانوا يعدون كلهم

صفحة رقم : 3609

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الأحوال الشخصية

عبيداً ولو كان أبوهم من الأحرار(15). وكان في وسع السيد أن يرتكب الفحشاء مع عبيده وجواريه من غير أن ينالوا منه تعويضاً قانونياً، ولم يكن في مقدور العبد أن يقاضي من يؤذيه من المحاكم، وكان الذي يحق له أن يقاضي من يتسبب في إيذاء العبد هو سيده. وكان لهذا السيد في عهد الجمهورية أن يضربه، ويسجنه، ويحكم عليه أن يقاتل الوحوش في المجتد، ويعرضه للموت جوعاً، أو يقتله لسبب أو لغير سبب ومن غير أن تكون عليه رقابة إلا رقابة الرأي العام المكون من ملاك العبيد. وإذا أبق عبد ثم قبض عليه كان في مقدور سيده أن يكويه بالنار أو يصلبه؛ وكان أغسطس يفخر بأنه قبض على ثلاثين ألفاً من العبيد الأقيين، وأنه صلب كل من لم يكن له مالك يطلبه(16). وإذا ما استقر العبد عمل من هذه الأعمال أو غيرها فقتل سيده، قضى القانون بأن يقتل جميع عبيد القتل؛ ولما أن قتل الوالي بدانيوس سكندس Pedanius Secundus في عام 61 وحكم على عبيده الأربعمائة بالإعدام، احتجت أقلية من أعضاء مجلس الشيوخ على هذا الحكم، وطلبت جماعة غاضبة في الشارع باستعمال الرأفة، ولكن المجلس أصر على تنفيذ القانون اعتقاداً منه أن السيد لا يكون آمناً على نفسه من عبيده إلا بمثل هذه القسوة(17). ومما يذكر بالشكر للإمبراطورية أو للنقص في موارد العبيد - أن أحوالهم أخذت تتحسن تحسناً مطرداً في عهد الأباطرة. ومن مظاهر هذا التحسن أن كلوديوس حرم قتل العبد الذي لا يرتجى منه نفع، وأمر أن يصبح العبد المريض الطريد بعد شفائه حراً من تلقاء نفسه. وحرّم قانون بترونيا Les Petronia، في عهد نيرون على الأرجح، على الأسدياء أن يحكموا على العبيد بأن يقاتلوا في المجتد إلا إذا وافق على ذلك موظف كبير. وأجاز نيرون للعبيد الذي أسبئت معاملته أن يلجأ إلى تمثاله ويحتمي منه، وعين قاضياً لينظر في شكاوي أمثال هذا العبد - وكان ذلك تقدماً متواضعاً لرومة كأنه انقلاب ثوري، لأنه فتح

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الأحوال الشخصية

أبواب المحاكم للعبيد. وقد جعل دومتيان خصي العبيد للأغراض الجنسية جنائية، وحرّم هدريان ملاك العبيد مما كان لهم من حق قتل عبيدهم دون موافقة الحكام، وأجاز أنطونينس بيوس للعبد الذي أسبئت معاملته أن يحتمي في أي معبد، وقرر أن يباع مثل هذا العبد إلى سيد آخر إذا أثبت أنه لحقه ضرر. وشجع ماركس أورليوس الأسياد على أن يعرضوا على المحاكم ما لحقهم من الأضرار على أيدي العبيد، بدل أن يقتصوا منهم بأنفسهم. وكان يرجو أن يحل القانون والحكمة بهذه الطريقة محل الوحشية والانتقام الفردي (18). وآخر ما نذكره من الإصلاحات أن مشرعاً عظيماً في القرن الثالث هو أبلين Uplian جهر بما لم يجزؤ على الجهر به إلا عدد قليل من الفلاسفة، وهو أن "الناس أكفاء بحكم قانون الطبيعة" (19). وقال غيره من المشرّعين إن من القواعد المقررة أنه إذا كان ثمة شك في أن رجلاً ما حر أو عبد كانت الشكوك كلها مؤيدة لحرية (20). على أن خضوع العبيد القانوني لسادتهم على هذا النحو لهو رغم هذه الملطفات كلها أسوأ وصمة يوصم بها القانون الروماني. وكانت آخر سوءات هذا القانون ما يفرضه من الضرائب والقيود على عتق العبيد حتى لقد كان كثيرون من الملاك يتملصون من قانون فوفيا كانينا Les Fufia Canina بأن يعتقوا عبيدهم من غير شهود رسميين أو احتفال قانوني، وإن كان هذا العتق لا يعطي المعتوق حقوق المواطنة بل كل ما يمنحه إياه هو أن يجعله لاتينياً. أما العبد الذي يعتق حسب الإجراءات القانونية فكان يصبح مواطناً يستمتع بالحقوق المدنية مقيدة ببعض القيود؛ لكن العادة كانت تتطلب منه أن يؤدي واجب التعظيم لسيده السابق كل صباح، وأن يقوم على خدمته إذا دعت الضرورة، وأن يعطيه صوته في كل انتخاب، وأن يؤدي إليه في بعض الحالات قسطاً من كل ما يكسبه من المال. وإذا مات المعتوق دون أن يوصي لأحد بماله، ذهب هذا المال من تلقاء نفسه إلى سيده السابق إن كان حياً؛ وإذا ما أوصي بماله وهو على قيد الحياة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الأحوال الشخصية

كان ينتظر منه أن يخص هذا السيد ببعضه (11). وقصارى القول أن المعتوق لم يكن يستنشق نسيم الحرية بحق إلا بعد أن يموت سيده، وتقام جنازته، ويواري التراب بالطرق التي جرى بها العرف والتقاليد المرعية. ومن واجبا أن نضيف إلى الأقسام العامة من قانون لأحوال الشخصية السالف الذكر ذلك القسم الذي يطلق عليه في الشرائع الحديثة اسم خاص هو القانون الجنائي. لقد كان التشريع الروماني يحسب حساباً للجرائم التي تقع على أفراد الدولة والهيئات الاجتماعية والتجارية بوصفها أشخاصاً معنويين. فأما الدولة فقد كان الاعتداء عليها يشمل خيانتها بالفعل أو بالقول، وعصيانها، والاعتداء على دينها الرسمي، والرشوة، وابتزاز الأموال أو الفساد في أعمالها الإدارية، أو سرقة أموالها؛ أو تقديم الرشا للقضاة أو المحلفين. ونستطيع أن نتبين من هذا التثبيت لذي لا يحوي إلا عدداً قليلاً من الجرائم أن الفساد تمتد جذوره إلى أبعد العهود وأن فروعه في أكبر الظن ستظل تورق حتى المستقبل البعيد. أما

الجرائم التي تقع على الأفراد فكان منها الإيذاء البدني، والغش، والفحش، والقتل؛ ويشير شيشرون في بعض أقواله إلى قانون اسكانتينا Lex Scantinia الذي يعاقب على اللواط (22). وقاوم أغسطس هذه الجريمة بفرض غرامة على مرتكبيها، وقاومها مارتيا بالهجاء، ودومتيان بالإعدام. ولم يعد الإيذاء البدني يعاقب عليه في ذلك الوقت بالقصاص كما هو وارد في الجداول الاثني عشر، بل كان يعاقب عليه بالغرامة. ولم يكن الانتحار جريمة، بل إنه قبل دومتيان كان يكافأ عليه في بعض الأحيان، فكان في مقدور الرجل المحكوم عليه بالإعدام إذا لجأ إلى الانتحار أن يضمن عادة تنفيذ وصيته وانتقال أملاكه لورثته دون أن توضع في سبيل ذلك العقوبات. وكان القانون يترك له الحرية المطلقة في اختيار إحدى الطريقتين ليختم بها حياته.

صفحة رقم : 3612

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الملكية

الفصل الرابع

قانون الملكية

وكان أكبر قسم في القانون الروماني هو الخاص بشئون الملكية، والالتزامات، والتبادل، والتعاقد، والديون، ذلك أن الممتلكات العينية كانت هي حياة رومة، وكان ازدياد الثروة واتساع التجارة يتطلبان طائفة من القوانين أكثر تعقيداً إلى أبعد حد من قوانين العشرة الساذجة.

وكانت الملكية تجيء عن طريق الوراثة أو وضع اليد. وإذا كان الوالد يمتلك بوصفه وكيلاً عن الأسرة أو ولياً عليها، فقد كان الأولاد والأحفاد ملاكاً بالإمكانية أو "ورثة أنفسهم" (23) حسب النص الفذ الوارد في القانون. فإذا مات الوالد من غير أن يترك وصية ورث أبناؤه أملاك الأسرة من تلقاء أنفسهم، وورث أكبر الآباء من هؤلاء الأبناء حق الولاية على الأسرة. وكان عمل الوصايا القانونية يحاط بمناات من القيود، وكانت صياغتها تتطلب كما تتطلب في هذه الأيام سيلاً من اللغو والتكرار والألفاظ الطنانة الرنانة. وكان كل موص ملزماً بأن يترك جزءاً من أملاكه إلى أبنائه، وجزءاً آخر للزوجة إذا رزقت منه بثلاثة أبناء، وأجزاء أخرى (في بعض الأحيان) إلى اخوته وأخواته، وآبائه إن وجدوا. ولم يكن من حق أي وارث أن يستولي على جزء من التركة إلا بعد أن يتحمل نصيبه من جميع ديون المتوفي، وما عليه من الالتزامات القانونية. وكثيراً ما كان الروماني يجد نفسه متورطاً في وصية ملعونة على حد تعبيرهم، أو وصية حمراء إذا جاز هذا التعبير. وإن امرؤ هلك ليس له ولد ولم يترك وصية انتقلت أملاكه وديونه من تلقاء نفسها إلى أقرب "قريب ذكر من الصعب" أو من أولاد الظهور كما نقول نحن في هذه الأيام. ثم ألغى هذا التقييد بالعصب

صفحة رقم : 3613

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الملكية

في عهد الإمبراطورية، وقبل أن يجلس جستنيان على العرش كان لأبناء البيطون مثل ما لأبناء الظهور من حق في الإرث. وقد كان قانون قديم سن بإيعاز كاتو (169 ق.م) يحرم على كل روماني يملك 100.000 سسترس (أي ما قيمته 15.000 ريال أمريكي) أو أكثر أن يوصي بأي جزء من ثروته لامرأة. وكان قانون فكونيا Lex Voconia هذا لا يزال مدونا في كتب القوانين في أيام جايوس، ولكن الحب وجد له سبيلاً إلى التملص منه، فقد كان الموصي يوصي بأملكه إلى وارث له حق الإرث، ثم يلزمه بأن ينقل هذه الأملاك قبل وقت معين إلى المرأة التي يريد أن يهبها تلك الأملاك. وبهذه الطريقة وأمثالها انتقل جزء كبير من ثروة رومة إلى أيدي النساء. يضاف إلى هذا أن الهبة كانت سبيلاً آخر إلى الفرار من قانون الوصية، غير أن الهبات التي كانت توهب قرب الوفاة كانت عرضة لأن تبحث بحثاً قانونياً دقيقاً، وأضحت في عهد جستنيان خاضعة لنفس القيود التي كانت مفروضة على الوصايا.

وكان الاستحواذ بجيء عن طريق الأيلولة أو الانتقال المترتب على قضية حكمت فيها بالمحاكم. فأما الأيلولة (Mancipatio أو التسليم باليد) فكانت الوسيلة إليها هي الهبة القانونية أو البيع أما شهود وبوجود كفتي ميزان يوضع فيهما سبيكة نحاسية رمزاً لهذا البيع. فإذا لم تصحبها هذه المراسم القديمة فإن القانون لا يقرأ أي انتقال للملك. وكانت هناك ملكية وسطى أو إمكانية يعترف بها القانون وتسمى حق وضع اليد على الملك أو استخدامه: فكان الذين يفلحون أراضي الدولة مثلاً من هذا الصنف "الجالسين" لا المالكين، فإذا ما ظلوا عامين يشغلون هذه الأراضي ولا يبناز عهم فيها منازل أصبحوا ملاكاً لها لا شك في ملكيتهم، وكانت لهم بحق الانتفاع أو بوضع اليد في لغة هذه الأيام. ولعل الحصول على الملك بعد شغله بهذه الوسيلة السهلة اللينة يرجع في أصله إلى عمل الأشراف الذين حصلوا به

صفحة رقم : 3614

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الملكية

على الأراضي العامة (24). وبهذه الطريقة طريقة الملك بالانتفاع أو وضع اليد كانت المرأة التي تعاشر رجلاً عاماً كاملاً لا تغيب عنه فيه ثلاث ليال تصبح ملكاً له.

وكان الإلزام هو م يفرضه القانون قسراً على شخص ما بأن يقوم بعمل من الأعمال. وكان الشخص يلزم بعمل ما إذا ارتكب جنحة أو تعاقد على القيام بهذا العمل. فأما الجنح، وهي الذنوب البسيطة التي تضر بالشخص أو بملكه، فكان يعاقب عليها في كثير من الأحيان بغرامة تؤدي إلى من وقع عليه الأذى تعويضاً عنه عما لحقه من الضرر. وأما العقد فكان اتفاقاً ينفذه القانون. ولم يكن يفرض في هذا التعاقد أن يكون مكتوباً؛ والحق أن الاتفاق الشفوي الذي كان يتم بالنطق بلفظ "أعد Spondeo" أمام أحد الشهود قد ظل حتى القرن الثاني بعد الميلاد يعد أكثر قداسة من أي تعهد مكتوب. ولم تعد كثرة الشهود ولا المراسم الوقورة التي كان لا بد منها في العهود السابقة لإتمام التعاقد القانوني ضرورية في الوقت الذي نتحدث عنه. ونشطت الأعمال المالية والتجارية حين اعترف القانون بكل اتفاق واضح- وكان هذا التعاقد يتم عادة بأن يسجل الطرفان ما اتفقا عليه في دفاتر حساباتهما Tabulae. غير أن القانون كان يحمي الأعمال المالية والتجارية أتم حماية، فكان يلفت نظر البائع والمشتري كليهما إلى آلاف الخدع التي تنشأ بطبيعتها في

الحياة المتحضرة. من ذلك أن القانون كان يحتم على كل بائع ماثية أو عبيد مثلاً أن يكشف للمشتري عما في أجسامها أو أجسامهم من عيوب، وكان يعتبر مسئولاً عن هذه العيوب وإن قال إنه يجهلها (25). وكان يعقد إما فلسفة، أو رهناً، أو ودیعة، أو أمانة. وكان ما يعقد من قروض للاستهلاك يضمن عادة برهن بعض العقار أو المنقولات. وكان العجز عن أداء الدين يجعل من حق الراهن قانوناً أن يستولي على

صفحة رقم : 3615

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الملكية

الملك المرهون. ولقد رأينا في الفصول السابقة أن هذا العجز في عهد الجمهورية الباكر كان يجيز للدائن أن يتخذ المدين عبداً له. وقد عدل قانون بوتليا Poetelia الذي صدر في عام 336 ق.م هذه القاعدة بأن أجاز للمدين أن يعمل حتى يؤدي دينه وهو محتفظ بحريته. وفي عهد قيصر كانت الأملاك المرهونة التي يعجز أصحابها عن فك رهنها تباع لأداء ما عليها من الديون من غير أن يضار المدين في شخصه. غير أن حالات من استرقاق المدينين ظلت تحدث إلى أيام جستينيان. أما العجز عن الأداء في الأحوال التجارية فقد خفف من آثاره قانون الإفلاس، الذي كان يجيز بيع أملاك المفلس للوفاء بديونه، ولكنه يترك له مما يحصل عليه بعدئذ ما يكفي لمعيشته. وكان أهم الجرائم التي ترتكب على الأملاك هو الإتلاف، والسرقة، والنهب. أي السرقة بالإكراه. وكانت قوانين الجداول الاثني عشر تحكم على السارق الذي يضبط بالضرب، ثم يجعل بعدئذ عبداً لمن سرق منه؛ فإذا كان السارق عبداً، ضرب ثم ألقى به من فوق الصخرة التريبية Tarpeian Rock. فلما زاد استقرار الأمن خفف القانون البريتوري هذه العقوبات القاسية بأن فرض عليه أن يرد إلى المسروق منه ضعفي ما سرقه أو ثلاثة أضعافه أو أربعة أضعافه (26) ولقد كان قانون الملكية في صورته الأخيرة أكمل جزء من الشريعة الرومانية.

صفحة رقم : 3616

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون المرافعات

الفصل الخامس

قانون المرافعات

كان الرومان أكثر الشعوب القديمة ميلاً إلى التقاضي، على الرغم مما امتاز به قانون المرافعات عندهم من تعقيد فني وغموض محير مربك كان خليفاً بالألا يشجعهم على الالتجاء إلى المحاكم. وما من شك في أنهم لو شهدوا إجراءتنا القضائية لبدت لهم هي الأخرى طويلة مضللة؛ وكلما رجعنا في الحضارة إلى الوراء زادت القضايا طولاً؛ ولقد كان في وسع أي روماني، كما سبق القول، أن ينصب نفسه مدعياً في المحكمة الرومانية، وكان يطلب إلى المدعي والمدعى عليه والحاكم في عهد الجمهورية، حين كان يتولى الأشراف الحكم فيها، أن يسيروا على نهج معين يسمى الإجراء القانوني، إذا حاد أحدهم عنه قيد شعرة بطلت المحاكمة. وفي ذلك يقول جايوس: فإذا قاضى شخص آخر لأنه قطع كرومة ثم أطلق عليها في قضيته اسم "كروم" خسر القضية، فقد كان يجب عليه أن يسميها "أشجاراً" لأن اللفظ الوارد في الجداول الاثني عشر هو الأشجار لا الكروم بصفة خاصة (27). وكان كل من طرفي النزاع يودع لدى الحاكم مبلغاً من المال Sacramentum يضيع على من يخسر القضية، ويصبح من حق دين الدولة، وكان من الواجب على المدعي عليه أن يقدم كفالة تضمن بها المحكمة حضوره أمامها فيما بعد. فإذا تم هذا أحال الحاكم النزاع إلى رجل يختاره من ثبت يحتوي أسماء الرجال الذين يصح لهم أن يكونوا قضاة. وكان القاضي في بعض الأحيان يصدر حكماً تمهيدياً يوجب على أحد الطرفين المتقاضيين أو كليهما أن يقوم بعمل من الأعمال أو يمتنع عن القيام به، وإذا خسر المدعي عليه القضية كان من حق المدعي أن يستولي على أملاكه أو يقبض عليه حتى ينفذ الحكم.

صفحة رقم : 3617

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون المرافعات

وفي عام 150 ق.م ألغى قانون إيبوتيا الإجراءات المعقدة القديمة واستبدل بها إجراءات أخرى أقل منها تعقيداً؛ فلم يصبح من الضروري إتباع مراسم معينة أو النطق بألفاظ خاصة؛ وصار من حق المتقاضين أن يشتركوا مع الحاكم في تحديد الشكل الذي يعرض به النزاع على القاضي، ثم يصدر الحاكم بعدئذ إلى القاضي تعليمات بالحقائق الموضوعية والمسائل القانونية التي يتضمنها النزاع. وكانت هذه إحدى الوسائل التي وضع بها الحاكم أو البريتور "القانون البريتوري" فيما بعد. وجدت في القرن الثاني بعد الميلاد طريقة ثالثة للحكم في القضايا غير العادية، كان للحاكم بمقتضاها أن يفصل بنفسه في القضية. وقبل أن يختتم القرن الثالث اختفت الإجراءات السالفة الذكر عن آخرها وأصبح الحاكم هو الذي يصدر الأحكام بطريقة عاجلة، وكان ذلك الحاكم مسئولاً أمام الإمبراطور وحده مديناً له بمنصبه، فكان هذا إيذاناً بقيام الملكية المطلقة.

وكان في وسع المتقاضين أن يعرضوا بأنفسهم قضاياهم ثم يصدر البريتور أو القاضي حكمه فيها دون معونة المحامين إذا شاء المتقاضيان هذا؛ غير أنه لما كان القاضي في كثير من الأحيان رجلاً غير مدرب تدريباً مهنيًا ولم يدرس القانون دراسة خاصة، ولما كانت العقبات الفنية تعترض المتقاضين في كل خطوة في القضية، فإن المتنازعين كانوا يلجئون في العادة إلى محامين ليترافعوا عنهم Avocati وإلى أخصائيين قانونيين Pragmatici وإلى مستشارين قانونيين Jurisconsulti وفقهاء قانونيين Jurisprudentes. ولم تكن المواهب القانونية تنقص الرومان، فقد كان كل أب يعز أبناءه يتوق إلى أن يرى ابنه محامياً، وكان القانون وقتئذ كما هو الآن الطريق الموصل إلى المناصب العامة. فنرى أحد الأشخاص في كتاب لبرتونيوس يعطي ابنه طائفة من الكتب ذات الظهور الحمراء "ليتعلم قليلاً من القوانين" لأن "القانون يأتي بالمال" (28). وكان طالب القانون يبدأ بدراسة المبادئ القانونية على معلم خاص، ثم يشهد في المرحلة الثانية

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون المرافعات

الاستشارات التي تعرض على أعلام فقهاء القانون، ويتمرن بعدئذ عند محام يترافع في القضايا. وأنشأ بعض المستشارين القانونيين في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد مدارس Stationes في أحياء مختلفة من مدينة رومة يعلمون فيها القانون أو يصدرن فيها فتاوي قانونية. ويشكو أميانس Ammianus من ارتفاع الأجر الذي كان يفرضها هؤلاء الفقهاء، ويقول إنهم كانوا يتقاضون ثمن تتأوبهم نفسه، ويحلون قتل الأم إذا أدى العميل أجراً كافياً(29). وكان هؤلاء المعلمون يسمون "أساتذة القانون"؛ ويلوح أن لفظ أستاذ Professor قد أطلق عليهم لأنه كان يطلب إليهم أن يعلنوا Profiteri عزمهم على أن يعلموا وأن يحصلوا بعدئذ من السلطات العامة على ترخيص بممارسة هذا العمل(30).

وكان لابد أن يوجد بين المحامين الكثيرين الذين يمارسون مهنتهم عدد منهم لا يتورعون عن بيع علمهم لأغراض صغيرة(31)، وعن قبول الرشا لكي يعرضوا قضايا موكلهم عرضاً ضعيفاً، وعن البحث عن ثغرات في القانون يبررون بها أية جريمة، وعن إثارة النزاع بين الأغنياء، وعن إطالة القضايا إلى أطول أجل يمكنهم من سلب أموال المتقاضين(33)، وأن يزلزوا المحاكم أو السوق العامة بأسئلتهم الإرهابية وعباراتهم الموجزة البذيئة. ومنهم من اضطرهم التنافس على القضايا إلى العمل على نيل الشهرة بالهرولة في الشوارع وبأيديهم أضاير من الوثائق وبأصابعهم خواتم مستعارة، ومن خلفهم خدم وأتباع، ومصفقون مأجورون ليصفقوا لهم وهم يخطبون(34). وقد بلغ من كثرة الأساليب التي اخترعت للتملص من قانون سنسيوس Cincius القديم الخاص بأجور المحامين أن اضطر كلوديوس أن يجعل الحد القانوني الأعلى لهذه الأجر عشرة آلاف سسترس لكل قضية، وأن يجعل من حق المتقاضيين قانوناً أن يستردا ما زاد على هذا القدر(35). لكن هذا القيد كان يسهل الإفلات منه. فنحن نسمع أن محامياً في أيام فسبازيان جمع ثروة تبلغ 300.000.000 سسترس (نحو 30.000.000

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون المرافعات

ريال أمريكي(36). غير أنه كان يوجد وقتئذ، كما يوجد في كل عصر من العصور، محامون وقضاة يضعون مواهبهم الصافية المنظمة في خدمة الحق والعدالة من غير نظر إلى الأجر، وكانت شهرة فقهاء قانون العظام الذين لا يعلو اسم على أسمائهم في تاريخ القانون، تطغى على نقائص أولئك المحامين الأذنياء. وكانت المحاكم التي تنظر في قضايا المذنبين على درجات تختلف من المحاكم ذات القاضي أو الحاكم الواحد إلى الجمعيات الوطنية ومجلس الشيوخ والإمبراطور. وكان في وسع البريتور أن يختار بطريق القرعة بدل القاضي الواحد محلفين لا حد لعددهم، ولكنهم يكونون في العادة 51 أو 71 محلفاً ومن بين الثمانمائة والخمسين اسماً من أسماء طبقة الشيوخ أو الفرسان المدونة في ثبت المحلفين، وكان من حق المدعي والمدعى عليه أن يقدم ما شاء من

الاعتراضات على هذا الاختيار. وكانت محكمتان خاصتان تعقدان بصفة دائمة، إحداهما محكمة العشرة رجال Decemviri وتتنظر في أحوال الأفراد المدنية، والثانية محكمة المائة Centumviri وتتنظر في قضايا الملك والميراث. وكانت المرافعات أمام هذين النوعين من المحاكم علنية بباح حضورها للجمهور، لأننا نرى بلني الأصغر يصف الجمهور الكبير الذي حضر ليستمع إليه وهو يترافع أمام المحكمة الثانية(37). ويشكو جوفنال(38) وأبوليوس (39Apuleius) من الارتشاء وكثرة التأجيل في هذه المحاكم، ولكن غضبهما نفسه يوحي بأن ما يشكون منه كان من العيوب الاستثنائية القليلة. وكانت المحاكمات تمتاز بنصيب من الحرية في القول والفعل قل أن نجد له نظيراً في محاكم هذه الأيام. وكان في وسع عدد من المحامين أن يحضروا مع كل طرف من طرفي النزاع؛ منهم من تخصص في تحضير البيئات، ومنهم من تخصص في عرضها على المحكمة. وكان كتبة مختلفون Norarii، Actuarii، Scribae يسجلون المرافعات، وكان بعضها يسجل بطريقة الاختزال. ويصف مارتيا

صفحة رقم : 3620

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون المرافعات

بعض أولئك الكتبة بقوله: "ومهما تكن السرعة التي تقال بها الألفاظ، فإن أيديهم أسرع منها"(41). ويصف أفلو طرخس الطريقة التي كان المختزلون يدونون بها خطب شيشرون، والتي كانت تضايقه في أكثر الأحيان. وكان الشهود يعاملون حسب السوابق التي خلع عليها طول العهد ثوباً من الوفاق، والتي يصفها كورنتليان بعبارة التي لا يعلو عليها وصف آخر فيقول:

"إذا أريد الفحص عن شهادة شاهد فإن أول ما تجب مراعاته هو صنف هذا الشاهد نفسه. ذلك أن الشاهد الجبان يستطيع إرهابه، والشاهد الأبله يمكن التفوق عليه في الدهاء، والرجل الغضوب يمكن استثارته، والرجل المغرور يستطيع تملقه. أما الشاهد الذكي الأريب الرابض الجأش فيجب إبعاده على الفور لأنه خبيث عنيد أو... إذا كان في حياته الماضية ما يعاب عليه، فإن شهادته يستطيع نقضها بما يمكن مجابته به من التهم الفاضحة"(42). وكان في وسع المحامي أن يدلي بما شاء من الحجج. فكان يستطيع أن يطلع المحكمة على ما لديه من صور خاصة بالجريمة المزعومة، مرسومة على القماش أو الخشب؛ وكان في مقدوره أن يمسك طفلاً بين يديه وهو يناقش نقطة من النقاط؛ وكان يحق له أن يكشف عما في جسم جندي متهم من ندوب وما في جسم عميله من جروح. وقد ابتدعت الدفوع لمقاومة مفعول هذه الأسلحة؛ فما هو ذا كورنتليان يحدثنا عن حيلة لجأ إليها محام جاء خصمه بأطفال موكله إلى المحكمة ليوضح بهم مرافعته، فما كان منه إلا أن ألقى بينهم بنرد، فزحف الأطفال على أرض المحكمة، وأفسدوا بذلك على المحامي ختام قضيته(43). وكان من المستطاع تعذيب العبيد إذا كانوا أحد طرفي الخصومة لانتراع الشهادة منهم، ولكن الشهادة المنتزعة بهذه الطريقة لم تكن تقبل ضد مالكيهم. وقد أصدر مرسومًا يجرم فيها تعذيب العبيد لانتراع إقرار منهم بجرمتهم، إلا إذا لم يفلح معهم كل ما عدا ذلك من الوسائل، على أن يتبع في هذا التعذيب أدق

صفحة رقم : 3621

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون المرافعات

الإجراءات المرسومة له، ونبه المحاكم إلى أن الشهادة المنتزعة بالتعذيب لا يستطاع الوثوق بها على الإطلاق. على أن التعذيب القانوني ظل رغم هذا من الوسائل التي يلجأ إليها، واتسع نطاقه في القرن الثالث حتى شمل الأحرار (44). وكان المحلفون يعطون أصواتهم بإيداع ألواح ذات علامات خاصة في وعاء، وكانت أغلبيتهم المطلقة تكفي لإصدار القرار. وكان في وسع من يخسر القضية في كثير من الأحيان أن يستأنف الحكم أمام محكمة أعلى درجة من المحكمة التي أصدرته، وكان في مقدوره أن يستأنفه أمام الإمبراطور نفسه إذا أمكنته موارده من ذلك.

وكان القانون هو الذي يحدد العقوبات فلم تكن تترك لاختيار القضاة أنفسهم. وكانت هذه العقوبات تختلف باختلاف منزلة المحكوم عليه، وكان أقساها ما يوقع على العبيد، فقد كان بالاستطاعة أن يحكم على العبد بالصلب، أما المواطن فلم يكن يستطاع صلبه؛ ولم يكن يستطاع جلد المواطن الروماني، أو تعذيبه، أو قتله دون أن يستأنف حكم القتل أمام الإمبراطور، ويتضح ذلك لكل من يطلع على سفر أعمال الرسل. وكانت العقوبات تختلف في الجريمة الواحدة باختلاف منزلة المذنب وهل هو من "نوي الشرف" Honestiores أو من "المنحطين Humiliores؛ كما كانت تختلف في حال الرجل الحر المولد والمحرم، والمفلس وغير المفلس، والجندي والمدني. ولما كانت قيمة العملة تتغير أسرع من تغير العقوبات المقررة في القانون فقد نشأ عن ذلك التغير السريع بعض الشذوذ والتناقض. من ذلك أن الجداول الاثني عشر كانت تفرض غرامة مقدارها خمسة وعشرون أساً (وكانت في الأصل خمسة وعشرين رطلاً من النحاس) على من يضرب رجلاً حراً؛ فلما انخفضت قيمة الأس بسبب غلاء الأسعار إلى ما يعادل 100/6 من الريال الأمريكي أخذ لوسيبوس فراتيبوس Lucius Veratius يصفع الأحرار على وجوههم، ومن ورائه عبد يعد خمسة وعشرين أساً لكل من يتلقى الصفعة (45). وكانت بعض الجرائم يعاقب عليها بفرض

صفحة رقم : 3622

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون المرافعات

"الصمت" على من يرتكبها. وكان يقصد بالصمت في الغالب منع المحكوم عليه من الحضور في القضايا بشخصه أو أن ينيب عنه من يمثله؛ وأشد من هذا العقاب أن يفقد المجرم حقوقه المدنية Capitis Drminutiso. وكان فقدان هذه الحقوق يتدرج من فقد الأهلية للميراث، إلى الطرد من البلاد، إلى الاسترقاق. وكان الطرد أسمى صورة من صور النفي: فقد كان المطرود يقيد بالأغلال، ويحجز في مكان حقير، وتنتزع منه كل أملاكه. أما النفي Exilium فكان أخف من الطرد، فقد كان يسمح فيه للمنفي أن يعيش حراً في أي مكان يشاء خارج إيطاليا؛ ويختلف الطرد والنفي عن الإبعاد، ذلك أن الإبعاد - كما حدث لأوفد - لم يكن يتضمن مصادرة المال، وكل ما في الأمر أن المبعد كان يرغم على الإقامة في بلدة معينة، بعيدة في العادة عن رومة. ولما كان يلجأ إلى السجن ليكون عقوبة دائمة، ولكن كان في الاستطاعة أن يحكم على الرجال بالاشتغال في الأعمال العامة، أو في المناجم أو المحاجر التي تستغلها الدولة. وكان في وسع الرجل الحر المحكوم عليه بالإعدام في عهد الجمهورية أن ينجو من العقاب إذا أخرج من رومة أو من إيطاليا؛ وازدادت أحكام الإعدام في عهد الإمبراطورية في عددها وقسوتها، فكان أسرى الحرب، والمحكوم عليهم بالإعدام من غير الأسرى في بعض الأحيان، يلقون في جب ثليان ليموتوا من الجوع وفنك الحشرات القارضة والقمل في السرايب المظلمة وسط الأقدار التي لا يستطيعون إزالتها (46). وفي مثل هذه الأماكن مات ججورنا وسميون بن جيوبا Simon Ben- Giova البطل الذي دافع عن أورشليم ضد تيتس، وفي مثلها كما تقول الرواية المتواترة: عذب القديسان بطرس وبولس قبل أن يصلبا، وكتبا آخر رسائلهما إلى العالم المسيحي الناشئ.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الأمم

الفصل السادس

قانون الأمم

وكانت أعقد المشاكل التي واجهها القانون الروماني أن وكيف نفسه، وهو قانون الدولة السيدة ذات العقلية الممتازة، بحيث لا يتعارض مع القوانين السائدة أو العادات المرعية في الأراضي التي أخضعتها رومة لسلطانها بقوتها العسكرية أو مهارتها السياسية. وكان عدد كبير من هذه الدول الخاضعة لرومة أقدم منها، وكان لها من تقاليدها التي تقدر بها ومن أساليبها الخاصة التي تحرص عليها وتعزز بها ما يعوضها عما فقدته من قوتها العسكرية. وقد استطاعت رومة أن تتغلب على هذه المشكلة بمهارة فائقة، فقد عينت في بادئ الأمر بريطوراً يختص بشؤون الأجانب Praetor Peregrinus القاطنين في رومة ثم القاطنين في إيطاليا، ثم في الأقاليم الخارجية، وجعل من حقه أن يوفق بين القانون الروماني والقانون المحلي توفيقاً دائماً. ولقد نشأ من القرارات التي يصدرها البريتورون، وحكام الولايات، والإيديلون على مر الزمن قانون الأمم الذي كان يطبق على الإمبراطورية بأكملها، والتي كانت تحكم بمقتضاه.

ولم يكن "قانون الأمم" قانوناً دولياً، أي أنه لم يكن طائفة من الالتزامات والأحكام ارتضه الدول بوجه عام لتحديد علاقاتها بعضها ببعض. لقد كان في العهد القديم قانون دولي إذا لم تفهم من هذا اللفظ بمعناه في الزمن القديم معنى أدق كثيراً مما نفهمه منه في هذه الأيام. فقد كانت بعض العادات العامة تراعى ويتقيد بها في السلم والحرب - كالحماية المتبادلة للتجار والدبلوماسيين الدوليين، ووقف القتال لدفن الموتى، والامتناع عن استخدام السهام المسمومة، وما إلى هذا. وكان فقهاء القانون الروماني يصفون قانون الأمم هذا *ius gentium* بأنه قانون

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الأمم

عام يشمل الأمم جميعها، ولكن هذا لم يكن إلا من قبيل التفاخر الوطني الكاذب. على أنه لم يكونوا يعززون إلى رومة أكبر من نصيبها الحق فيه. فقد كان في واقع الأمر قوانين محلية كيفت بحيث تتفق مع السيادة الرومانية، وكان الغرض منها أن يستطاع بها حكم شعوب إيطاليا والولايات التابعة للدولة الرومانية من غير أن يعطى لأهلها حق المواطنة الرومانية وغيرها من الحقوق المنصوص عليها في القانون المدني.

وبمثل هذه الدعوى الكاذبة حاول الفلاسفة أن يقولوا إن قانون الأمم هو "قانون الطبيعة". وكان الرواقيون يعرفون قانون الطبيعة بأنه قانون أخلاقي متأصل في الإنسان بفعل "العقل الفطري". وكانوا يعتقدون أن الطبيعة نظام من نظم العقل، قوامه المنطق والترتيب المحكم الكامن في الأشياء جميعها. وهذا الترتيب المحكم الذي ينمو في المجتمع من تلقاء نفسه، ثم يصل إلى مستوى الوعي في الإنسان، هو القانون الطبيعي، وقد عبر شيشرون عن هذا الوهم بعبارة ذاتة الصيت فقال:

"إن القانون الصحيح هو العقل الحق المتفق مع الطبيعة، والذي يدخل في نطاقه العالم بأسره، والسرمد الذي لا يتبدل... وليس من حقنا أن نقاوم ذلك القانون أن نبدله، وليس في مقدورنا أن نلغيه، ولا نستطيع أن نتحرر مما يفرضه علينا من التزامات بالتشريع أياً كان، ولسنا في حاجة إلى أن ننظر في خارج أنفسنا لنبحث عن شرح له أو توضيح. وهذا القانون لا يختلف في رومة عنه في أثينة، ولا في الحاضر عنه في المستقبل... وهو قانون صحيح ثابت عند جميع الأمم وفي جميع الأحقاب... ومن عصاه فقد أنكر نفسه وأنكر طبيعته" (47).

ذلك وصف كامل لمثل أعلى أخذ يزداد قوة حين جلست الرواقية على العرش في عهد الأنطونيين. وما زال البيان يرفع من شأنه حتى بلغ

صفحة رقم : 3625

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الأمم

على يديه ذلك المبدأ الواسع المدى القائل بأن ما بين الطبقات من فروق ومميزات أمور عارضة اصطناعية. ولم يكن ثمة إلا خطوة واحدة بين هذا المبدأ وبين الفكرة المسيحية القائلة بأن الناس في حقيقة أمرهم أكفاء. غير أن جايوس عرف قانون الأمم بأنه ليس أكثر من "القانون الذي شرعه العقل الفطري بين البشر جميعاً" كان يعتقد خطأ أن الأسلحة الرومانية هي الإرادة الإلهية، ذلك أن القانون الروماني كان هو منطق القوة وهدفها الاقتصادي؛ ولم تكن القوانين العظمى المدنية والأممية إلا القواعد التي يخلع بها الفاتح الحكيم النظام، والاطراد، والقداسة الزمنية على تلك السيادة القائمة على قوة الفيالق. نعم إن هذه القوانين كانت طبيعية، بمعنى أنه كان من الطبيعي أن يستخدم الأقوياء الضعفاء وأن يسيئوا استخدامهم.

لكن هذا الصرح المهيب من أداة الحكم التي يطلق عليها اسم القانون الروماني كان فيه شيء من النبيل. وإذا كان لا بد أن يكون الحكام هم الأقوياء فإن من الخير أن تكون القواعد التي يفرض بها سلطانه واضحة صريحة، وبهذا المعنى يكون القانون هو استقرار القوة واستقامتها. ولقد كان من الطبيعي أن ينشئ الرومان أعظم نظام قانوني في التاريخ كله. ذلك أنهم كانوا يحبون النظام وأنهم كانت لديهم الوسائل التي تمكنهم من فرضه على الناس، وقد فرضوا على مئات من الأمم المختلفة المشارب والأجناس التي كانت تتخبط في دياجير الفوضى والاضطراب سلطاناً وسلاماً، لا ننكر أنهما لم يبلغا حد الكمال ولكنهما كانا في واقع الأمر جليلي القدر عظيمي الأثر. ولقد كان لغير رومة من الدول التي قامت قبلها قوانين، ونشأ فيها مشترعون أمثال حمورابي ووصولاً سنوا طائفة مكتملة من التشريعات الإنسانية الرحيمة، غير أنه لم يوجد قط شعب غير الرومان أفلح فيما أفلحوا هم فيه من تنسيق الشرائع وتوحيدها وتقنينها، وهي أعمال كانت الشغل الشاغل لأصحاب العقول الجبارة في رومة من عهد أبناء اسكافولا Scavola إلى جستنيان.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> القانون الروماني -> قانون الأمم

وقد يسرت مرونة قانون الأمم انتقال القانون الروماني إلى الدول الأخرى في العصور الوسطى وفي عصرنا الحاضر. وكان من محاسن الصدق أنه بينما كانت الفوضى التي أعقبت غارات البرابرة تقضي على التراث القانوني في غربي أوربا، كان قانون جستينيان، وموجزه، ونظمه تجمع وتصاغ في القسطنطينية في ظل الاستقرار والثبات النسبيين السائدين في شرقيها. وبفضل هذه الجهود، وعشرات الوسائل الأقل منها شأنًا، وأساليب الحياة الصامتة الدائبة، دخل القانون الروماني في الشرائع الدينية التي سنتها الكنيسة في العصور الوسطى، وكانت هي الوحي الملهم لعقول المفكرين في عصر النهضة، وأضحت هي الأساس التي قامت عليه قوانين إيطاليا، وأسبانيا، وفرنسا، وألمانيا، وبلاد المجر، وبوهيميا، وبولندا، بل واسكتلندا، وكوبك، وسيلان، وأفريقية الجنوبية من بلاد الإمبراطورية البريطانية. ولقد استمد القانون الإنجليزي نفسه، وهو الصرح القانوني الوحيد الذي يضارع القانون الروماني في اتساع المدى، قواعد العدالة، والقوانين البحرية، والولاية، والإرث من القانون الروماني. وإذا أحصينا أئمن ما ورثناه من العالم القديم قلنا إنه هو العلوم والفلسفة اليونانية، والمسيحية اليهودية اليونانية، والديموقراطية اليونانية الرومانية، والقانون الروماني.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> نيرفا

الباب التاسع عشر

الملوك الفلاسفة

اختلفى من تاريخ الملكية الرومانية مبدأ وراثه العرش بعد اغتيال دومتيان قرناً من الزمان. ذلك أن مجلس الشيوخ لم يعترف قط بأن الوراثة وسيلة لارتقاء العرش، والآن بعد 123 سنة من خضوعه لهذا المبدأ، عاد فأثبت سلطانه، ورشح عضواً من أعضائه ليكون زعيماً وإمبراطوراً، كما كان يختار ملوك رومة في بداية عهدها. وكان هذا عملاً جريئاً ينطق بالشجاعة ولا يستطيع فهمه إلا إذا ذكرنا أن حيوية الأسرة الفلافية قد نضب معينها، في نفس الجيل الذي شهد تجدد حيوية مجلس الشيوخ بما طعم به من دم إيطالي وإقليمي.

وكان ماركس ككسيوس نيرفا في السادسة والستين من عمره حين فوجيء بدعوته إلى هذا المركز السامي. ويظهره تمثاله الضخم المحفوظ في متحف الفاتيكان رجلاً ذا وجه وسيم تتجلى فيه صفات الرجولة الكاملة، ويتعذر على من يشاهده أن يعتقد أن صاحبه كان من أئمة فقهاء القانون المبجلين، وأنه كان رجلاً محموداً، وشاعراً رقيقاً ظريفاً، حياه مواطنوه في وقت من الأوقات ولقبوه "تيليس زماننا" (1). ولعل مجلس الشيوخ قد اختاره لشيبته وبعده عن الأذى؛ وكان يستشير هذا المجلس

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> نيرفا

في جميع خططه السياسية، وحافظ على العهد الذي قطعه على نفسه بألا يكون قط سبباً في موت أي عضو من أعضائه. وقد أعاد إلى البلاد من نفاهم منها دومتيان ورد إليهم أملاكهم، وخفف من رغبتهم في الانتقام من أعدائهم، ووزع على الفقراء ما قيمته 60.000.000 سسترس من الأراضي الزراعية، وأنشأ الأمانتا- وهي رصيد من مال الدولة- ليشجع بها تناسل الفلاحين ويمدهم بما يحتاجونه من المال. وألغى عدداً كبيراً من الضرائب وخفض ضريبة التركات، وأعفى اليهود من الجزية التي فرضها عليهم فسبازيان ودعم في الوقت نفسه مالية الدولة بمراعاة الاقتصاد في بيته وحكومته. وكان يعتقد بحق أنه كان يراعي العدل في معاملته جميع الطبقات؛ ومن أقواله في هذا المعنى:

"إنني لم أفعل شيئاً يحول بيني وبين إلقاء منصبى الإمبراطوري عن كاهلي وعودتي أمناً مطمئناً إلى الحياة الخاصة" (2). ولكن حدث بعد عام من توليته أن حاصر الحرس البريتوري قصره، وطالبه بتسليم قتلة دومتيان، وقتل عدداً من مستشاري نيرفا. وكان هذا الحرس قد فوجئ باختياره لمنصبه، واستاء من سياسة الاقتصاد التي كان يسير عليها. ومد نيرفا عنقه لسيوف الجند ولكنهم أبقوا عليه. وآلمه هذا الإذلال فأراد أن ينزل عن العرش، ولكن أصدقاءه أقتعوه أن يقتدي بأغسطس فيتبني رجلاً يرضى عنه مجلس الشيوخ، ويخلفه على العرش، ويكون في مقدوره أن يحكم

الإمبراطورية وأن يحكم الحرس أيضاً. وأعظم ما تدين به رومة لنيرفا أنه اختار ماركس ألبوس ترايانس Marcus Ulpianus خلفاً له. وتوفي بعد ذلك بثلاثة أشهر في عام 98 بعد حكم دام ستة عشر شهراً. وكان معنى مبدأ التبني الذي عاد سيرته الأولى بهذه الطريقة الغير منتظرة أن يشرك كل إمبراطور من الأباطرة، حين يحس بالضعف يدب في قواه، معه في الحكم أقدر من يستطيع أن يجده من الرجال، وأكثرهم

صفحة رقم : 3629

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> نيرفا

جداره بهذا المنصب الخطير، حتى إذا وافاه الأجل لم تتعرض البلاد إلى أن يجلس على عرشها رجل يرفعه الحرس البريتوري وإلى ما في هذا من سخف، أو يرث هذا العرش وارث طبيعي ولكنه غير جدير به، أو أن تتعرض إلى حرب أهلية بين المتنافسين على العرش. وكان من المصادفات الطيبة أن تراجان، وهديان، وأنطونينس بيوس لم يكن لهم أبناء، وأن كان في مقدور كل واحد منهم أن يعمد إلى مبدأ التبني من غير أن يحط من شأن أبناء له أو يكشف عن نقص في الحب الأبوي. ولقد كسبت رومة من هذا المبدأ، طوال المدة التي طبق فيها، طائفة من الأباطرة العظام خلف بعضهم بعضاً على العرش، وكانوا خير من شهدته العالم من الحكام وأجلهم شأنًا.

صفحة رقم : 3630

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> تراجان

الفصل الثاني

تراجان

تلقى تراجان نبأ جلوسه على العرش وهو يتولى قيادة جيش روماني في كولوني Cologne؛ فلما أن تلقاه واصل عمله عند الحدود وأجل عودته إلى رومة ما يقرب من عامين. وكان مولد تراجان في أسبانيا من أسرة إيطالية استوطنت تلك البلاد من زمن بعيد، وقد وصلت أسبانيا الرومانية على يديه وعلى يد هديان إلى الزعامة السياسية،

كما ارتفعت على يدي سنكا، ولوكان، ومارتيال إلى الزعامة الأدبية. وكان هو بداية سلسلة طويلة من القواد يبدو أن مولدهم وتدريبهم في الأقاليم أكسبهم قوة الإرادة التي فقدتها العنصر الروماني الأصيل. ولم تحتج رومة على ارتقاء رجل من رجال الأقاليم عرش الإمبراطورية، وكان عدم احتجاجها هذا في حد ذاته حادثاً خطيراً ومؤذناً بتطور جديد في التاريخ الروماني.

وظل تراجان قائداً حتى بعد جلوسه على العرش. فقد كان ذا قامة عسكرية، وكان مظهره مظهر السادة المؤمرين، وكانت ملامحه قوية وإن لم تكن بادية متميزة. كان طويل القامة، ممتلئ الجسم، وكان من عادته أن يسير مع جنوده على قدميه، وأن يخوض بعناده الحربي الكامل ما يضطرون إلى عبوره من مئات الأنهار. وكان رجلاً شجاعاً يصير على الألم ولا يفرق بين الحياة والموت. ولما قيل له إن لوسنيوس سوراً كان يأتمر به، ذهب إلى منزل سورا، وأكل من كل ما قدم إليه دون أن يفحص عما يأكل، وحلق له حلاق سورا (4). ولم يكن تراجان فيلسوفاً بأي معنى فني من معاني هذا اللفظ. وكان من عادته أن يصحب معه في عربته ديوكريستوم Dio Chrysostom الخطيب "صاحب الفم الذهبي" ليتحدث إليه في الفلسفة، ولكنه يعترف بأنه لم يكن يفهم كلمة واحدة

صفحة رقم : 3631

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> تراجان

مما يقوله ديوس (5)- وبذلك خسرت الفلسفة الشيء الكثير. وكان صافي الذهن صريحاً ليس فيه التواء، وكان ما نطق به من الهراء قليلاً إلى أبعد حد؛ وكان فيه ما في سائر البشر من اغترار بالنفس، ولكنه كان مبرأ من العجرفة والادعاء ولم يكن يتخذ منصبه السامي وسيلة للتعاطف على الناس أو أداة ينفع بها نفسه، فكان يجلس مع أصدقائه على الطعام ويصحبهم في الصيد، ويشرب معهم بكثرة، ويرتكب ما يرتكبونه من لواط في بعض الأحيان، كأنه يريد بذلك ألا يخالف عادات زمانه، وترى رومة من مفاخره التي يستحق عليها الثناء أنه لم يسيء قط إلى زوجته بلوتينا بأن يعشق امرأة أخرى.

ولما وصل تراجان إلى رومة وهو في الثانية والأربعين من عمره، كان قد بلغ من النضوج العقلي غايته، وسرعان ما اكتسب ببساطته، ودمائة أخلاقه، واعتداله، قلوب الشعب الذي جرب الاستبداد من عهد قريب. واختار مجلس الشيوخ بلني الأصغر ليرحب به. وألقى ديوس كريستوم أمام الإمبراطور في الوقت نفسه خطبة فيما يجب على الملوك في نظر الفلسفة الرواقية. ولكن بلني وديوس فرقا بين السيادة والزعامة فقالا إن الزعيم يجب ألا يكون سيد الدولة، بل خادمها الأول، ومندوب الشعب لتنفيذ إرادته، ينتخبه عن طريق ممثليه أعضاء مجلس الشيوخ. "ومن أراد أن يؤمر على الناس جميعاً، وجب أن يختاروه جميعاً" (6) واستمع الناس إلى أقوالهما ورحبوا بها.

ولم تكن هذه البدايات الطيبة جديدة في التاريخ، ولكن الذي دهش رومة أن تراجان أوفى بهذا الوعد إلى حد بعيد، فأعطى أعوانه ورفاقه القصور الريفية التي كان أسلافه يقيمون فيها أسابيع قليلة في كل عام، ويقول بلني "إنه لم يكن يرى أن شيئاً ما ملك له إلا إذا كان أيضاً ملكاً لأصدقائه" (7). وكان هو نفسه بسيطاً في معيشته بساطة فسبازيان، فكان يسأل الشيوخ رأيهم في كل المسائل ذات البال، وقد تبين أن في وسعه أن يكون ذا سلطة مطلقة إذا لم يستخدم ألفاظ

صفحة رقم : 3632

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> تراجان

ذوي السلطة المطلقة. وكان مجلس الشيوخ يرضى أن يترك له مقاليد الحكم إذا راعى الشكليات التي تحفظ له مكانته وهيئته؛ وكان هذا المجلس، كما كانت رومة كلها، يحب في ذلك الوقت الأمن والطمأنينة حياً لا يستطيع معه أن يحتفظ بحريته. ولعله كان يسره أيضاً أن يرى تراجان رجلاً محافظاً لا ينوي أن يشتري رضا الفقراء بمال الأغنياء. وكان تراجان إدارياً قديراً لا يمل من العمل، حسن التدبير لشئون المال، وقاضياً عادلاً. ويعزو إليه موجز جستنيان المبدأ القائل "إن فرار المجرم من العقاب أفضل من عقاب البريء" (8). وقد استطاع بالإشراف الدقيق على مصروفات الدولة (وبعض الفتوح التي عادت عليها بالريح) أن يتم كثيراً من المنشآت العامة من غير أن يزيد أعباء الضرائب، بل إنه فعل عكس هذا فخفض الضرائب، ونشر على الشعب اعتمادات الميزانية ليعرف إيرادات الحكومة ونفقاتها، فيبحثها وينتقدها. وكان يطلب إلى الشيوخ الذين يستمتعون بصحبته أن يكون إخلاصهم في أعمالهم الإدارية مماثلاً لإخلاصه أو قريباً كل القرب منه. واشترك الإشراف في مناصب الدولة وعملوا فيها بجد، ولم يكتفوا بأن يقضوا أوقاتهم في الوقت واللعب. وإن ما بقي لدينا من الرسائل المتبادلة بينهم وبين تراجان ليوحى بأنهم كانوا يعملون بجد وعناية تحت قيادته الرقابية الملهمة. وكانت مدن كثيرة في بلاد الشرق قد أساعت التصرف في أموالها حتى أشرفت على الإفلاس، فأرسل لها تراجان حراساً أمناء أمثال بلني الأصغر ليساعدوها على إصلاح أمرها. وأضعف هذا العمل استقلال البلديات وقلل من شأن أنظمتها، ولكنه عمل لم يكن منه بد، فقد قضى الحكم الذاتي على نفسه بإسرافه وعجزه. وكان تراجان قد نشأ في مهاد الحرب، فكان لذلك استعمارياً صريحاً يفضل النظام على الحرية، والقوة على السلم. ولم يكد يمضي على قدومه إلى رومة عام

صفحة رقم : 3633

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> تراجان

واحد حتى خرج لفتح داشيا. وكانت داشيا في ذلك الوقت تنطبق حدودها بوجه عام على حدود رومانيا الحاضرة، وكانت تمتد كقبضة اليد في قلب ألمانيا، فكانت إذا استولى عليها تصبح عزيمة النفع من الوجهة العسكرية في الكفاح الذي كان تراجان يتوقع قيامه بين الألمان وإيطاليا. يضاف إلى هذا ضمها إلى الدولة الرومانية يمكنها من الإشراف على الطريق الذي يسير على ضفتي نهر الساف إلى ملتقاه بنهر الدانوب ومن ثم إلى بيزنطية. وهو طريق بري نحو الشرق لا يمكن تقدير قيمته، دع عنك ما في داشيا من مناجم الذهب. وأعد تراجان لفتحها حملة عسكرية رسم خطتها بمهارة فائقة ونفذها بأكثر سرعة، فقاد فيالقه، وتغلب على كل ما اعترضه من الصعاب والمقاومة، حتى وصل إلى سرمزجتوسا Sarmizegetusa عاصمة تلك البلاد وأرغمها على الاستسلام. وقد ترك لنا مثال روماني صورة رائعة لدسبالس Decebalus ملك داشيا. ينم وجهه فيها عن قوة الجسم ومتانة الخلق. وثبته تراجان على عرشه، وجعله قياً من أقباله، ثم عاد إلى رومة (102)؛ ولكن دسبالس لم يلبث أن نقض عهده واستعاد استقلاله؛ فسير تراجان جيشه إلى داشيا (105)، وعبر الدانوب على جسر كان من أعجب المنشآت الهندسية في ذلك القرن، وهاجم عاصمة داشيا مرة أخرى واستولى عليها عنوة، وقتل دسبالس. وأقيمت حامية عسكرية قوية في سرمزجتوسا، وعاد تراجان إلى رومة ليحتفل بنصره بعشرة آلاف من المجالدين (أكبر الظن أنهم من أسرى الحرب) احتفالاً دام 123

يوماً أقيمت فيها ألعاب عامة. وأصبحت داشيا بعد هذا الفتح ولاية رومانية، وجاءها مستعمرون من الرومان، تزوجوا من نساها، وأفسدت اللغة اللاتينية على طريققتها الخاصة. ووضعت مناجم الذهب في ترنسلفانيا تحت إشراف رقيب من قبل الإمبراطور، استطاع أن يسترد منها في وقت قصير ما أنفقه في الحرب من أموال. وأراد تراجان أن يكافأ نفسه على جهوده فأخذ من داشيا مليون رطل من الفضة ونصف مليون

صفحة رقم : 3634

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> تراجان

من الذهب- وكانت هذه آخر الغنائم القيمة التي استولت عليها الفيالق الرومانية لتعد بها للرومان مهاد الراحة والخمول.
وبفضل هذه الغنائم وزع الإمبراطور 650 ديناراً (نحو 260 ريالاً أمريكياً) على كل مواطن تقدم بطلب هذه المنحة- وأكبر الظن أن عدد من طلبوها بلغ حوالي 300,000- وبقي منها ما يكفي لعلاج مشكلة التعطل الناشئة عن تسريح الجنود بالإقدام على مناهج من المنشآت العامة، والمساعدات الحكومية وتزيين إيطاليا بالمباني الفخمة، لم تر له البلاد نظيراً من أيام أغسطس. وأصلح تراجان قنوات مياه الشرب القديمة وأنشأ قناة جديدة لا تزال تؤدي عملها إلى هذا اليوم، وأقام في أستيا مرفأً واسعاً تصله عدة قنوات بنهر التيبير وبمرفأً كلوديوس القديم، وزينه بالمخازن التي كانت نماذج في الجمال كما كانت نماذج في النفع. وأصلح مهندسوه الطرق القديمة، وشقوا طريقاً جديداً في وسط المناقع البننتية، ووضعوا مشروع طريق تريبانا Traiana من بنفنتم إلى برندزيوم. وأعادوا فتح نفق كلوديوس الذي جففت به بحيرة فوستس، وأنشأوا مرتين عند سنتمسلا Centumcellae وأنكونا Ancona، وطريقاً لجر مياه الشرب إلى رافنا، ومدرجاً في فرونا Verona. وأدى تراجان النفقات التي تطلبها إنشاء الطرق، والجسور، والمباني الجديدة في كافة أنحاء الإمبراطورية، ولكنه كان يقاوم تنافس المدن في إقامة المباني، ويحثها أن تنفق ما لديها من الأموال الزائدة على حاجتها في إصلاح أحوال الفقراء وبيئتهم. وكان مستعداً على الدوام لمديد المعونة إلى أية مدينة نكبتها الزلازل، أو النيران أو العواصف. وحاول أن يعمل على تقدم الزراعة في إيطاليا بأن طلب إلى أعضاء مجلس الشيوخ أن يستثمروا ثلث رؤوس أموالهم في الأراضي الإيطالية. ولما رأى أن هذا العمل سيزيد من عدد الضياع الكبيرة، شجع صغار الملاك بأن قدم لهم أموالاً من قبل الدولة بفوائد قليلة، ليشتروا بها بيوتاً وأراضي زراعية ويصلحوها(9). وعمل على رفع نسبة المواليد

صفحة رقم : 3635

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> تراجان

بزيادة مال الألمنتا Alimenta أي المال المخصص للإطعام. وتفصيل هذا أن الدولة كانت تقدم عروضاً عقارية بسعر 5% (وهو نصف السعر العادي وقتئذ) للزراع الإيطاليين، وأجازت للجان الصدقات المحلية أن توزع ما يتجمع من فوائد هذه القروض على الفقراء من الأباة بمعدل ستة عشر سسترساً (1.6 ريال أمريكي) كل شهر لكل ولد ذكر، وأثنى عشر سسترساً لكل بنت. وقد يبدو هذا المبلغ صغيراً، ولكن الشواهد الباقية من ذلك العصر تدل على أن مبلغاً يتراوح بين 16 سسترساً وعشرين كان يكفي لرعاية طفل مدة شهر في ضيعة من ضياع إيطاليا أثناء القرن الأول (10). وقد بعته هذا الأمل نفسه لأن يجيز لأطفال رومة أن يحصلوا على إعانات من القمح زيادة على ما يحصل عليه أبائهم منه. وقد وسع هدریان والأنطونيون نطاق نظام الإطعام هذا حتى شمل عدة أجزاء من الإمبراطورية، يكمله الإحسان القروي. ومن أمثلة هذا النوع الأخير ما أخرجه بلني من ماله لهذا الغرض إذ تبرع من ماله للألمنتا بثلاثين ألف سسترس لتوزع على أطفال كومم Comum، وأوصى كيليا مكرينا Caelia Macrina بمليون سسترس لتمثل هذا الغرض لتتفق على أطفال تراسينا Terracina في أسبانيا.

وكان تراجان، مثل أغسطس، يفضل إيطاليا على الولايات، ويفضل رومة على إيطاليا نفسها. وقد انتفع إلى أقصى حد بعقرية أبلودورس ومهارته في العمارة. وكان أبلودورس هذا يونانياً من أهل دمشق خطط الطرق وقنوات مياه الشرب الجديدة وجسر نهر الدانوب. ثم كلفه الإمبراطور وقتئذ بأن يزيل طائفة كبيرة من البيوت، ويقطع مائة وثلاثين قدماً من قاعدة التل الكويرينالي Quirinal، وينشئ في الفضاء الناشئ من إزالتها والفضاء المجاور لها سوقاً جديدة تعادل مساحتها مساحة الأسواق السابقة كلها مجتمعة، ويحيط هذا السوق بمباني فخمة جديدة بعاصمة العالم التي بلغت في عهده أوج سلطتها وثرانها. وكان المدخل الموصل إلى هذه السوق الجديدة هو قوس نصر تراجان. وكانت مساحتها 370

صفحة رقم : 3636

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> تراجان

قدما في 354؛ وكانت مرصوفة بالحجارة الملساء ومحوطة بسور عال، وأمامها صف من العمد، وكان سوراها الشرقي والغربي تتخللهما كوات نصف دائرية غير نافذة مكونة من عمد دورية. وقامت في وسطها باسلفا ألبيا التي سميت باسم عشيرة تراجان والتي كان الغرض منها أن تكون مكاتب للأعمال التجارية والمالية، وكانت مزينة من الخارج بخمسين عموداً، نحت كل منها من حجر واحد؛ وكانت أرضها من الرخام، وتحيط بصحنها الرحب عمد من الحجر الأبل، وسقفها القائم على كتل ضخمة مغطى بالبرنز. وأنشئت بالقرب من الطرف الشمالي للسوق الجديدة مكتبتان إحداهما للمؤلفات اللاتينية، والأخرى للمؤلفات اليونانية. وقام بينهما عمود تراجان وخلفهما هيكله. وكانت السوق بعد أن تمت من عجائب العمارة في العالم كله.

وكان العمود الذي لا يزال قائماً إلى اليوم في بداية أمره شاهداً على البراعة في نقل الحجارة. وكانت حجراته منحوتة من ثمان عشرة كتلة مكعبة من الرخام زنة كل منها خمسين طناً، وقد حملت الكتل على ظهور السفن من جزيرة باروس، ثم نقلت على مواعين عند أستيا Aestia، ثم جرت مصعدة في النهر ضد التيار، ثم حملت على اسطوانات إلى ضفة النهر وفي الشوارع إلى المكان الذي أقيم فيه العمود. وقطعت المكعبات بعد نقلها إلى اثنتين وثلاثين كتلة، شيدت قاعدة العمود من ثمان منها، وزينت ثلاثة من أوجه هذه القاعدة بتمائيل منحوتة، أما الوجه الرابع فكان يوصل إلى سلم مكون من 185 درجة رخامية، وأما جذع العمود، وكان طول قطره من أسفل اثنتي عشرة قدماً، وارتفاعه سبعة وتسعين، فيتكون من إحدى وعشرين كتلة حجرية، وفي أعلاه تمثال لتراجان يمسه بيده كرة أرضية. وقد زينت الكتل قبل تثبيتها في مواضعها بنقوش بارزة تمثل حروب تراجان في داشيا. وكانت هذه النقوش أعلى ما وصلت إليه الواقعية الفلافية وفن النحت القديم التاريخي. ولم تكن تهدف

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> تراجان

إلى الجمال الهادئ إلى أنماط فن النحت اليوناني التي كانت عند اليونان مثلاً علياً يحتذيها المثالون، بل كانت تهدف إلى أن تنقل للناظر إليها صورة واضحة للأفراد الأحياء وسط مناظر الحرب وضوضائها. فكانت والحالة هذه هي بلزاك Balzac وزولا Zola بعد كورني Corneille وراسين. وفي وسعنا أن نتتبع في الألفي صورة المنقوشة على المائة والأربع والعشرين لوحة لولبية فتوح داشيا خطوة خطوة، فنرى الكنائس الرومانية خارجة من ثكناتها المسلحة أكمل تسليح، ونشاهدها تعبر نهر الدانوب على جسر عائم، ونبصرها تقيم معسكراً في أرض العدو، ثم نرى المعركة التي اختلطت فيها الحراب والسهام والمناجل والحجارة، وفيها قرية داشية تشتعل فيها النار، ونساؤها وأطفالها يطلبون إلى تراجان أن يرحمهم، ونرى نساء داشيات يعذبن أسرى الرومان، وجنوداً يعرضن على الإمبراطور رؤوس من قتلوهن من الأعداء، وجراحين يضمون الجروح، ونرى الأمراء الداشيين يشربون كؤوس السم واحداً بعد واحد. وهاهو ذا الرأس دسبالس يؤتى به إلى تراجان ضمن غنائم الحرب، وهاهو ذا صف طويل من الأسرى، من رجال ونساء وأطفال، قد انتزعوا من بيوتهم ليكونوا عبيداً للرومان في أرض القرية. كل هذا وكثير غيره يحدثنا به العمود القاتم اللون منقوشاً أحسن نقش وممثلاً لأروع قصة في تاريخ النحت في العالم كله. ولم يكن الفنانون الذين قاموا بهذا العمل، ولم يكن من استخدموهم للقيام به، مدفوعين إليه بنعرة وطنية عارمة؛ فهم قد مثلوا ما أظهره تراجان من ضروب الرحمة والرافة، ولكنهم كشفوا كذلك عن أعمال البطولة التي قامت بها أمة تجاهد في سبيل حريتها؛ وأجمل صورة في النقش كله هي صورة ملك داشيا. وتلك بلا شك وثيقة عجيبة مزدحمة إلى حد يقلل من قوة تأثيرها. وبعض ما فيها من الصور فجة حسنة بدرجة يظن الإنسان معها أن محارباً داشياً هو الذي نحتها، ونرى فن المنظور يستبدل به وضع الصور بعضها فوق بعض، وقد رسم المنظر كله كان الإنسان يشاهده كما يشاهد نقش فدياس،

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> تراجان

من ركن بعيد مخبوء على الأرض. ولكنه رغم هذه العيوب خروج طريف على الطراز المقرر الذي لم يستطع لوداعته وهدوئه أن يعبر عما في الخلق الروماني من جد غامر ونشاط فياض. "وطريقة الأستمرار" التي جرى عليها- أي تدخل كل منظر في الذي يليه وفناؤه فيه- لتخرج إلى حيز الوجود ما يوحي به قوس تيتس وتمهد السبيل إلى النقوش البارزة الوسطى. وقد قلد المثالون هذه القصة، رغم ما فيها من عيوب، المرة بعد المرة من عمود أورليوس في رومة وعمود أركديوس في القسطنطينية إلى العمود النابليوني في البلاس فنديه Place Vendée في باريس. واختتم تراجان منهاجه البنائي بأن أكمل بناء الحمامات التي بدأها دومتيان وحرص على أن يجعلها حمامات عظيمة فخمة. وكان في هذه الأثناء قد مل السلم بعد أن دامت ست سنوات؛ ذلك أن العمل الإداري لم يكن يوقظ مما

يكن فيه من نشاط كما توقظه الحرب، ولم يكن يحس وهو في قصره أنه حي، وقال في نفسه لم لا أبدأ في تنفيذ خطط قيصر من حيث أخفق أنطونيوس، فأسوى المسألة البارثية تسوية نهائية، وأجعل الدولة- الرومانية- حدوداً أكثر مناعة وصلاحيّة من جهة الشرق، وأسيطر على الطرق التجارية التي تخترق أرمينية وبارثيا إلى أواسط آسيا والخليج الفارسي وبلاد الهند؟

وبعد أن أتم استعداده بدأ يزحف مرة أخرى على رأس فيالقه (113). فاستولى على أرمينية بعد عام واحد من بداية زحفه؛ ولم يمض عام آخر حتى كان قد اخترق بلاد النهرين؛ ووصل إلى المحيط الهندي- فكان أول من وقف أمام ذلك البحر من القواد الرومان وأخرهم. وكان الرومان في ديارهم يتعلمون الجغرافية بتتبع انتصاراته؛ وكان يسر مجلس الشيوخ أن يسمع في كل أسبوع تقريباً أن أمة أخرى قد غلبت أو أنها تعجل بالاستسلام: البسبور Bosphorus، والكليشي، وأيبيريا الأسيوية؛ وألبانيا الأسيوية، وأسر هويني Osrhoene ومسينيا، وميديا، وأشور، وبلاد العرب الشمالية، وبارثيا نفسها

صفحة رقم : 3639

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> تراجان

في آخر الأمر. وقد جعل بارثيا، وأرمينية، وأشور، وبلاد النهرين ولايات، وكان من مفاخر هذا الإسكندر الجديد أن اختار لكل بلد من هذه البلاد التي كانت قديماً ن أعداء رومة، ملكاً خاضعاً لسلطانه وأجلسه على عرشه. ووقف تراجان على شواطئ البحر الأحمر وقال إنه يؤسفه أشد الأسف أن شيوخه تحول بينه وبين مواصلة الزحف إلى نهر السند كما فعل القائد المقدوني العظيم، واكتفى بأن أنشأ في البحر الأحمر أسطولاً يسيطر به على طريق الهند وعلى تجارتها، ووضع حاميات في جميع النقاط ذات الأهمية الحربية وعاد وهو كاره إلى رومة. لكن تراجان كان قد عدا طوره فذهب كما ذهب أنطونيوس إلى أبعد مما يجب وبأسرع ما يجب، وأهمل تنظيم فتوحه وخطوط اتصاله. فلما وصل إلى أنطاكية علم أن أسروس Asroes ملك بارثيا الذي خلعه قد حشد جيشاً جديداً استعداد به ما بين النهرين، وأن نار الفتنة اشتعلت في جميع الولايات الجديدة، وأن يهود الجزيرة، ومصر، وقوريني قد خرجوا عليه وأشعلوا نار الثورة في البلاد، وأن الاستياء قد عم بلاد لوبيا، ومورتانيا، وبريطانيا. وأراد المحارب الشيخ أن ينزل إلى ميدان القتال مرة أخرى، ولكن قوته الجسمية لم تسعفه. ذلك أنه أنهك جسمه بأن عاش في الشرق الحار بنشاط الغرب البارد، فأصيب بداء الاستسقاء، وعدت عليه ضربة شلل جعلت إرادته القوية لا حول لها ولا طول في جسمه المهدم. ومن أجل ذلك عهد وهو مكتئب حزين إلى لوسيوس كويتس Lucius Quietus أن يقلم أظفار الفتنة الناشبة في أرض الجزيرة، وأرسل مارسوس تربا Marcus Turba لإخضاع اليهود في أفريقية؛ وولى هديان ابن أخيه قيادة الجيش

صفحة رقم : 3640

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> تراجان

الروماني الرئيسي في سوريا. ثم أمر أن يحمل هو إلى ساحل قليقية Cilicia، على أمل أن يبحر منها إلى رومة حيث كان مجلس الشيوخ يعد له أعظم احتفال بالنصر أقيم لقائد من القواد من عهد أغسطس. ولكن منيته وافته في الطريق عند سلينس (117Selinus)، وهو في الرابعة والستين من عمره، بعد أن حكم تسعة عشر عاماً. وحمل رماده إلى عاصمة ملكه، حيث دفن تحت العمود العظيم الذي اختير ليكون له قبراً.

صفحة رقم : 3641

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الحاكم

الفصل الثالث

هدريان

1- الحاكم

لعلنا لن نعرف قط هل جلس هدریان أروع شخصية في الأباطرة الرومان على عرش الإمبراطورية بأساليب العشق والغرام، أو لوثوق تراجان بكفايته وعظيم قدرته. فأما ديوكاسيوس فيقول إن "سبب تعيينه أنه مات تراجان ولم يكن له وارث، عملت أرملته بروتينا، وكانت تحب هدریان، على أن يخلفه على العرش(12). ويعيد اسبارتيانوس Spartianus هذه القصة، ولكن بلوتينا وهدريان يكذبان هذه الشائعة، غير أنها رغم تكذيبها إياها ظلت تلوكها الألسن طوال حكمه، وقد فصل هو في الأمر بأن وزع هيات سخية على جنوده.

ويقول بيبليوس إيلبيوس هدریانس إن اسمه واسم أسرته مشتقان من مدينة أدريا الواقعة على البحر الأدرياتي، وتقول سيرته التي كتبها بنفسه إلى أسلافه هاجروا من هذه المدينة إلى أسبانيا. وشهدت مدينة إتلكا Italica الأسبانية التي ولد فيها تراجان في عام 52 مولد ابن أخيه هدریان في عام 76. ولما مات والد الغلام في عام 86 كفله عمه تراجان وكيليوس أتیانس Caelius Attianus. وتولى ثانيهما تعليمه وغرس فيه حباً شديداً للأدب اليوناني جعل الناس يلقبونه به من قبيل الفكاهة غريقبولس Graeculus. ودرس أيضاً الغناء، والموسيقى، والطب، والعلوم الرياضية، والتصوير، والنحت، ثم مارس فيما بعد عدة فنون أخرى. واستدعاه تراجان إلى رومة (91) وزوجه بابنة أخيه (100) فيفيا سبينا. وكانت هذه الفتاة، كما تدل عليها صور تماثيلها النصفية، إن لم تكن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الحاكم

هذه التماثيل قد صورتها كأنها مثل أعلى للفتيات، نقول كانت هذه الفتاة ذات جمال بارع تحس به هي وتفخر به، ولكن هدریان لم يجد في هذا الجمال سعادة باقية. ولعل سبب شقائه أنه كان مولعاً بالكلاب والجياد فوق الحد الواجب، وأنه كان يقضي في الصيد مع هذه الكلاب والجياد وفي بناء القبور لها حين تموت أكثر مما يجب أن يقضيه من الوقت في هذين العملين، أو لعله كان زوجاً غير أمين أو بدا أنه كذلك. ومهما يكن من شيء فإنها لم تلد له أبناء، وعاشا طوال حياتهما متنافرين متباعدين وإن كانت قد رافقته في كثير من أسفاره، وكان يظهر لها كل أنواع الرقة والمجاملة، ووهبها كل خير ما عدا الحب. ولما أن نطق سوتونيوس Seutonius أحد أمناء سره بما لا يليق عنها فصله عن منصبه.

وكان أول قرار أصدره هدریان بعد ارتقائه عرش الإمبراطورية أن نقض سياسة عمه الإمبراطورية. وكان قد نصح تراجان بعدم المضي في حملته في بارتيا، لأنها تكلفه الكثير من المال والرجال، ولأنها تجيء في أعقاب حروب داشيا، وأنها في أحسن الظروف تبشر بمكاسب يصعب الاحتفاظ بها، ولم يغفر له قواد تراجان الحريصين على المجد هذه النصيحة قط. فلما أصبح صاحب الأمر سحب الفيالق الرومانية من أرمينية، وأشور، وبلاد النهرين، وبارتيا، وجعل أرمينية مملكة تابعة له بعد أن كانت ولاية خاضعة للدولة، ورضي أن يكون نهر الفرات حد الإمبراطورية من جهة الشرق. وكان مسلكه بعد تراجان كمسكن أغسطس بعد قيصر، فنظم إدارته السلمية ما يستطيع تنظيمه من الدولة التي لم يكن لها في سعتها مثل من قبل، والتي كسبتها الجيوش الباسلة المغامرة. وظن القواد الذين كانوا على رأس جيوش تراجان - بالما، وسلس، وكوبتس، ونجربنس - أن هذه خطة مبعثها الجبن، وأنها بعيدة كل البعد عن الحكمة والسداد، وكانوا يشعرون أن وقف الهجوم، معناه الاقتصر على الدفاع، وأن الاقتصر على الدفاع هو بداية الموت. وبينما كان هدریان مع فيالقه على ضفاف الدانوب،

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الحاكم

أعلن مجلس الشيوخ أن القواد الأربعة يدبرون مؤامرة لقلب الحكومة، وأنهم أعدموا بأمر المجلس. وكان إعدامهم دون محاكمة صدمة شديدة لأهل رومة؛ ومع أن هدریان عاد مسرعاً إليها وأعلن أنه لم تكن له يد في الأمر كله فإن أحداً لم يصدقها، حتى بعد أن أقسم أنه لم يقتل شيخاً إلا بأمر المجلس. ولقد وزع على الشعب هبة سخية من المال، وأقام له كثيراً من الألعاب ليسليه بها، وألغى من الضرائب المتأخرة ما قيمته 900,000,000 سسترس وحرقت سجلات الضرائب علناً، وظل عشرين عاماً يحكم البلاد حكماً عادلاً، حكيماً تحت راية السلم، ولكنه رغم هذا كله لم يكن له في قلوب الشعب كل ما يرجوه من حب.

ويصفه كاتب سيرته القديم بأنه كان طويل القامة، رشيقاً، منتني الشعر، "ذا لحية طويلة يخفي تحتها ما في وجهه من عيوب طبيعية" (14). واقتدى به أهل مات رومة فأطالوا من ذلك الوقت لحاهم، وكان قوي البنية، وقد حافظ على قوته بممارسة الكثير من ضروب الرياضة البدنية، وأهمها كلها الصيد، وكثيراً ما قتل السباع بيده (15). وقد امتزجت في خلقه عناصر بلغت من الكثرة حداً يتعذر معه وصفها. فيقول لنا كتاب سيرته إنه كان "صارماً وبشوشاً، فكها وقوراً، شهوانياً وحذراً، شديداً وكرهماً، قاسياً ورحيماً، بسيطين بساطة خادعة، جمع المتناقضات في كل شيء" (16). وكان ذا بصيرة نافذة سريعة، وكان نزيهاً متشككاً؛ ولكنه كان يحترم التقاليد، ويرى أنها النسيج الذي يربط الأجيال بعضها ببعض، وكان يقرأ كتب إبيكتس الرواقى ويعجب به، ولكنه كان يطلب اللذة ويتذوقها دون حياء. وكان رجلاً غير متدين، يعتقد بالخرافات، ويسخر من النبوءات، ويمارس السحر والتنجيم، ويشجع الاستمساك بالدين القومي، ولا ينقطع عن القيام بواجباته بوصفه الكاهن الأكبر للدين الروماني. وكان مجاملاً وعنيداً، قاسياً في بعض الأحيان، ورحيماً في العادة؛ وربما كانت هذه المتناقضات أعمالاً اقتضتها ظروف. وكان يعود المرضى، ويساعد

صفحة رقم : 3644

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الحاكم

المنكوبين، وقد وسع نطاق أعمال الإحسان القائمة في وقته حتى شملت اليتامى والأرامل؛ وكان سخياً في مناصرة الفنانين، والكتاب، والفلاسفة؛ وكان يجيد الغناء والرقص، والعزف على القيثارة؛ وكان مصوراً قديراً، ومثلاً وسطاً. وقد ألف عدة كتب- منها كتاب في النحو وآخر في سيرته. ومنها قصائد مؤدبة وأخرى بذئبة (17)، باللغتين اللاتينية واليونانية؛ وكان يفضل الأدب اليوناني على اللاتيني ويفضل لغة كاتو الشيخ البسيطة على لغة شيشرون الفصيحة السلسلة الفياضة. وقد هذا كثير من كتاب ذلك الوقت حذوه، فأخذوا يكتبون بأسلوب عتيق متكلف. وقد جمع الأساتذة الذين كانت تؤجرهم الدولة، وأنشأ منهم جامعة علمية، ورفع مرتباتهم، وشاد لهم مجمعاً علمياً فخماً لينافس به متحف الإسكندرية. وكان يسره أن يجمع حوله العلماء ورجال الفكر، ويلقي عليهم الأسئلة المحيرة، ويضحك من متناقضاتهم ومجادلاتهم العلمية. وكان فافورينس Favorinu الغالي أعظم فلاسفة هذه الندوة حكمة، وكان إذا ما سخر منه أصدقائه لأنه يوافق هدریان على آرائه، أجابهم بأن كل رجل يشد أزره ثلاثون فيلقاً لا بد أن يكون على حق (18). ولقد جمع إلى هذه المتع العقلية الجملة إحساساً سليماً بالواجبات العملية. من ذلك أنه هذا حذو دومتيان، فلم يول معانيقه إلا المناصب الصغيرة، واختار رجال الأعمال ذوي الكفايات المجربة، ليتولوا الإدارات الحكومية، وألف منهم ومن بعض الشيوخ وفقهاء القانون مجلساً Concilium يجتمع في أوقات منتظمة للنظر في سياسة الدولة. وعين كذلك وكيلاً للخزانة Advocatus Fiscus ليكشف عما عساه أن يرتكب من فساد أو غش في شئون الضرائب، وكانت نتيجة هذا أن زادت إيرادات الدولة زيادة ملحوظة من غير زيادة في الضرائب. وكان يراقب نفسه كل إدارة من إدارات الحكومة، وقد أدهش رؤساءها، كما أدهش نابليون رؤساء إدارته، لأمامه الدقيق بتفاصيل أعمالها، ويقول إسبارتيانس إنه "كان قوي الذاكرة،

صفحة رقم : 3645

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الحاكم

وإنه كان يكتب، ويملي، ويستمع، ويتحدث إلى أصدقائه كل ذلك في وقت واحد(19)- وإن كان تكرر هذه القصة يبعث على الريبة في صدقها. وبفضل عنايته، وبمعاونة إدارة المدينة الواسعة النطاق، نعمت الإمبراطورية بحكم لعلها لم تنعم بمثله قبله أو بعده. وكان الثمن الذي أداه لهذا النظام المحكم هو قيام بيروقراطية مطردة الانتساع وإسرافاً في إصدار الأوامر والنظم يبلغ حد الجنون، قرب الزعامة أكثر من ذي قبل إلى الملكية المطلقة. وقد حرص هدریان على كل مظاهر التعاون مع مجلس الشيوخ، ولكن موظفيه كانوا يزدادون كل يوم اعتداء على اختصاصات تلك الهيئة التي كانت تبدو من قبل "جمعية من الملوك". ولقد كان هو قريباً من المشكلة قرباً يحول بينه وبين التنبؤ بأن بيروقراطيته القديرة المطردة التكاثر قد تصبح على مدى الأيام عبئاً باهظاً ينوء به دافعوا الضرائب، بل كان بعكس هذا يعتقد أن لكل شخص في الإمبراطورية سيجد لنفسه في داخل هذا النطاق من القانون والفرائض الذي أنشأته الحكومة طريقاً يظهر فيه مواهبه، وأن في وسع كل إنسان أن يرقى من طبقة إلى طبقة أعلى منها.

ولم يكن عقله الصافي المنطقي يطيق فرضي ما تجمع من القوانين الغامضة المتناقضة، ولهذا كلف يوليائس بأن ينسق قرارات البريتورين السابقين، ويصدر بها مرسوماً دائماً، وشجع غير هذا من أعمال التقنيين التي مهدت السبيل لجستيان. وكان يجعل من نفسه محكمة عليا سواء كان في رومة أو في أثناء تجواله في الولايات، واشتهر بأنه قاض عالم نزيه. وكان رحيماً على الدوام بقدر ما يجيزه القانون من رحمة؛ وقد أصدر طائفة لا عديد لها من المراسيم، ينصر معظمها الضعفاء على الأقوياء والعيبد على الأسياد، والفلاح الصغير على صاحب الضيعة الكبيرة، والمستأجر على مالك الأرض، والمستهلك على بائعي الأشتاب الغاشين، ويقاوم بها كثرة الوسطاء بين المنتجين والمستهلكين(20). وكان يرفض ما يوجه إلى الناس من تهمة الخيانة، ولا يقبل الوصايا من الآباء، أو ممن لا يعرفهم من الأشخاص، وأمر بأن

صفحة رقم : 3646

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الحاكم

يراعى التسامح في تطبيق القانون على المسيحيين(21). وقد ضرب بنفسه المثل بما اتبعه في أراضي الدولة من وسائل إصلاح الأراضي البور، فكان يشجع الملاك على تأجير الأراضي غير المستصلحة إلى الزراع ليغرسوا فيها الحدائق من غير أن يؤدوا عنها إيجاراً حتى تثمر الأشجار. ولم يكن هدریان مصلحاً متطرفاً في إصلاحاته، بل كان إدارياً قديراً يسعى في نطاق ما يكبل الطبيعة البشرية من قيود، وما يعتورها من تفاوت في الكفايات، إلى أن يوفر للناس جميعاً أكبر خير مستطاع. ولقد أبقى على الأشكال القديمة ولكنه صب فيها بالتدريج محتويات جديدة كلما دعت الضرورة إلى هذا. وحدث ذات مرة، حين ضعفت رغبته في الأعمال الإدارية، أن رفض الاستماع إلى امرأة جاءت تعرض عليه شكواها، وكانت حجتة أن "ليس لدي وقت". فصاحت قائلة: "إذن فلا تكن إمبراطوراً" فما كان منه بعدئذ إلى أن استمع إلى شكواها.

صفحة رقم : 3647

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الجوال

2- الجوال

كان هدریان علی نقیض من سبوقه، یهتم بالإمبراطورية اهتمامه بالعاصمة. ومن أجل سار سیرة أغسطس الحميدة، فقرر أن یزور كل ولاية من ولاياتها، ویفحص عن أحوالها، ویتعرف حاجاتها، ویبادر بتخفيف أعبائها بما فی یدیه من موارد الإمبراطورية. وكان إلى هذا شغوقاً بمعرفة ما لدى الشعوب المختلفة فی الإمبراطورية من فنون، وما تتبعه فی حیاتها من أسالیب، وما تكتسى به من ثياب، وما تدين به من عقائد. وكان یتوق إلى رؤية الأماكن الشهيرة التي ذاع صيتها فی تاریخ اليونان، وأن یضرب بسهم تلك الثقافة اليونانية التي كانت العامل الأكبر فی تهذيب عقله كما كانت هي زینته. ویصفه فرننتو Fronto بقوله: "إنه لم یکن یحب أن یحکم العالم فحسب، بل كان یحب فوق ذلك أن یطوف به" (23) ففي عام 120 غادر رومة، ولم یغادرها بأبهة الملك وزینته،

صفحة رقم : 3648

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الجوال

بل كلن یصحبه فیها الخبراء، والمهندسون المعماريون، والبناعون، والمهندسون والفنانون. وذهب أولاً إلى غالة "وأعان جمیع ما فیها من العشائر بما أفاض علیها من سخائه وجوده" (24)، ثم انتقل منها إلى ألمانيا، وأدهش كل من فیها بما أظهره من الدقة والعناية فی تفتیش وسائل الدفاع عن الإمبراطورية ضد من قضوا علیها فی مستقبل الأيام، وأعاد تنظیم الطرق الحصينة الممتدة بین الرین والدانوب، وزاد من أطوالها، وأصلحها. ومع أنه كان رجل سلام فإنه كان متمكناً من فنون الحرب، وكان یعترم ألا یجعل میوله السليمة تضعف من قوة جیوشه أو تغري به أعداءه. وقد أصدر أوامر مشددة للمحافظة علی النظام العسکري، وكان هو نفسه یخضع لما وضعه من القواعد أثناء زيارات المعسكرات، فكان إذا حل بها عاش عیشة الجنود، وأكل من طعامهم، ولم یركب قط مركبة، بل كان یسیر علی قدمیه یحمل عتاده ویواصل السیر عشرين میلاً بلا انقطاع، ویظهر من الجلد ما لا یعتقد معه من یراه أنه عالم وفیلسوف. وكان فی الوقت نفسه یکافی المتقوين، وقد رفع من شأن منزلة الفیالق من الناحیتین القانونية والاقتصادية، وأمدھا بالجید من الأسلحة وبکفایتها من المؤن. وخفف عنها شدة النظام فی أوقات الفراغ، وكل ما كان یصر علیه فی هذه الأوقات، أن تكون وسائل التسلية مما لا یضعف من قدرتها علی أداء واجباتها، حتی لم یکن الجیش الروماني فی وقت من الأوقات أحسن حالاً مما كان علیه فی أيامه. وانحدر بعدئذ فی نهر الرین نحو مصبه وأبحر من هناك إلى بریطانيا (122). ولسنا نعلم عن نشاطه فی تلك الكتاب أكثر من أنه أمر أن یقام سور من خلیج سلوای Solway Firth إلى مصب نهر التین Tyne "لیفصل بین البرابرة والرومان". وعاد من هناك إلى غالة ومر علی مهل بأفنیون Avignon، ونیمر Nimes، وغیرهما من بلاد تلك الولاية، وألقى عصا التسیار لیقضي

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الجوال

الشتاء في طرقونة Tarragona في شمالي أسبانيا، وبينما هو سائر بمفرده في حديقة مضيئه إذ هجم عليه عبد وسيفه مسلول في يده وحاول أن يقتله. ولكن هدریان تغلب عليه وأسلمه في هدوء إلى الخدم، فوجده مختل العقل. وفي ربيع عام 123 قاد بعض الفيالق ليحارب المغاربة الضاربين في شمالي أفريقيا الغربي، والذين كانوا يغيرون على مدن مورتانيا الرومانية، فهزمهم وردهم على أعقابهم إلى تلامهم؛ ثم أبحر إلى إفسوس، حيث قضى فصل الشتاء، ثم زار مدن أسية الصغرى واستمع إلى مطالب أهلها وشكواهم، وأنزل العقاب بمن أساءوا استخدام سلطتهم من الموظفين، وكافأ القادرين منهم، وأعد المال والرسوم، والعمال لتشييد الهياكل والحمامات ودور التمثيل. وكانت سزكس Cyzicus ونيقية Nicaea، ونيقوميديا Nicomedia قد نكبت بزلزال شديد، فأصلح هدریان ما تخرّب منها بنفقات من أموال الدولة، وشاد في سزكس هيكلاً عد من فوره بين عجائب الدنيا السبع (25). ثم اتجه شرقاً محاذياً ساحل بحر اليكسين إلى طرابزوس Trapezus، وأمر حاكم كيودكيا- المؤرخ أريان Arrian- أن يبحث أحوال جميع الثغور الواقعة على البحر الأسود، وأن يعد له تقريراً عنها؛ ثم اتجه نحو الجنوب الغربي، واخترق بفلجونيا Paphlagonia، وقضى الشتاء في برجموم. وفي خريف عام 125 أبحر إلى رودس ومنها إلى أثينة حيث قضى شتاء طيباً سعيداً عاد بعده إلى وطنه. ولم تفارقه الرغبة في الاستطلاع وهو في الخمسين من عمره فانتقل من إيطاليا إلى صقلية، وتسلق جبل إتنا، يشاهد شروق الشمس من فوق صخرة ناتئة تعلو فوق البحر 11000 قدم. ومما هو جدير بالذكر أنه استطاع أن يغيب من عاصمة ملكه خمس سنين وهو واثق من أن مرؤوسيه سيصرفون شئون الدولة كما يحب، ذلك أنه قد عمل ما يجب أن يعمله الحاكم القدير، فأنشأ ودرّب أداة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الجوال

حكومية صالحة تكاد تسير من تلقاء نفسها. وأقام في رومة، بعد عودته إليها أكثر قليلاً من عام، ولكن حب الأسفار كان يسري في دمه ولحمه، وكان لا يزال في العالم أجزاء كثيرة تتطلب البناء والإصلاح. فغادر إيطاليا مرة أخرى في عام 128، وقصد في هذه الرحلة يتكا Utica، وقرطاجنة، والمدن الجديدة المزدهرة في شمالي أفريقيا. ثم عاد إلى رومة في فصل الخريف، ولكنه غادرها بعد قليل، وقضى شتاء آخر في أثينة (128-129). واختير فيها أركونا، ورأس وهو مبتهج سعيد حفلات الألعاب والأعياد، وسره أن يلقب بالمحرر، وبهليوس Helios وزيرس، ومنفذ العالم. وفيها اختلط بالفلاسفة، ورجال الفن، وأظهر ما أظهره نيرون وأنطونيوس من ظرف ولطف دون أن ينزل إلى ما نزلوا إليه من حماقة وسخف. وساء ما في قوانين أثينة من فوضى فكلف جماعة من كبار المشترعين أن يجمعوا هذه

القوانين وينسقوها. وإذا كان هو على الدوام من المهتمين بشئون الدين المتشككين فيه، فقد أن يتطلب الطقوس الإلزيانية الخفية. ولما وجد التعطل يهدد أثينة، وكان يعتزم في الوقت نفسه أن يعيد المدينة إلى ما كانت عليه من الفخامة في عصر بركليز، استدعى رجال العمارة، والمهندسين، ومهرة الصناع، وبدأ مشروعاً ضخماً من المباني يفوق مبانيه العامة في رومة. فقد شاد عماله في مساحة مربعة من الأرض تحيط بها طائفة كبيرة من العمد مكتبة عامة جدرانها من الرخام بها 120 عموداً، ولها سقف مذهب وحجرات رحبة تتلأأ فيها أحجار المرمر والصور والتماثيل. ثم بنوا ملعباً رياضياً، وقناة لماء الشرب، وهيكلأ لهيرا، وآخر لزيوس "إله اليونان أجمعين". وكان أعظم هذه الأعمال كلها هو إتمام الأولمبيوم- أي الهيكل الفخم المقام لزيوس الأولمبي والذي بدأه ببيستراتس قبل ذلك الوقت بستة قرون وعجز أنتيوخس إيفانيز عن إتمامه. ولما غادر هدریان أثينة غادرها وهي أنظف وأكثر رخاء وجمالاً مما كانت عليه في أي عهد من عهودها السابقة(26).

صفحة رقم : 3651

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الجوال

وفي ربيع عام 129 أبحر إلى إفسوس. ثم رحل مرة أخرى إلى أسية الصغرى، وكان ينشئ المدن ويشيد المباني أينما حل. وسافر إلى كبدوكيا، وفتش حاميتها. ولما جاء إلى أنطاكية وهبها المال اللازم لبناء قناة لماء الشرب، وهيكل، ودار للتمثيل، وحمائم عامة. وزار في خريف ذلك العام تدمر وبلاد العرب، ثم رحل في عام 130 إلى أورشليم. وكانت المدينة المقدسة لا تزال مخربة، لا تكاد تقترق في شيء عما تركها عليه تيتس قبل ذلك الوقت بستين عاماً، يسكنها عدد قليل من اليهود الفقراء المساكين يقيمون في حظائر وأكواخ بين الصخور. وتأثر قلب هدریان وخياله بما شاهده من آثار الدمار والتخريب بمكانها المقفر. لقد كان يرجو بما شاهده في بلاد اليونان والشرق الهلنستي وما أعاده إليهما من مظاهر الفخامة أن يقيم الحواجز بين الحضارة اليونانية- الرومانية وبين العالم الشرقي إلى أعلى مما كانت قبل؛ أما الآن فقد أصبح يحلم بأن يحول صهيون نفسها إلى قلعة وثنية، فأمر أن يعاد بناء أورشليم لتكون مستعمرة رومانية وأن تسمى إيليا كبتولينا، تخليداً لذكرى قبيلة هدریان وكبتول جوبتر في رومة. وارتكب بعمله هذا خطأ نفسانياً وسياسياً كان خليفاً أن لا يرتكبه رجل من أوسع الساسة عقلاً وأعظمهم حكمة في التاريخ كله. ثم انتقل إلى الإسكندرية (130)، وابتسم ابتسامة الرجل المتسامح الواسع الأفق حين أبصر أهلها المتخاصمين المتشاحنين. وزاد محتويات المتحف، وأعاد بناء ضريح بمبي، ثم عمل ما لم يعمل قيصر، فأرعى لنفسه العنان وصعد في النيل على مهل بصحبة زوجته سينا، وحببيه أنتنؤوس Antino(s). وكان قد التقى بالفتى اليوناني في بيثينيا قبل ذلك الوقت ببضع سنين، وأعجبه جمال الشاب ذي الوجه المستدير، والعينين الرقيقتين، والشعر الملتوي، واتخذة خادماً خاصاً له، وشعر نحوه بعاطفة قوية وحب عظيم. ولم يصل إلينا ما يدل على أن سينا احتجت على هذه الصلة، ولكن السنة السوء

صفحة رقم : 3652

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الجوال

في المدينة كانت تقول إن الغلام كان جنميدي Gednyme زيوس الجديد. وربما كانت الحقيقة أن الإمبراطور الذي لا ولد له قد أحب الغلام لأنه يرى أن الآلهة قد حبته به ليكون ولداً له. وفي هذه الرحلة وبينما كان هدریان في أوج سعادته مات أنتنؤوس في الثامنة عشرة من عمره- ويلوح أنه غرق في نهر النيل وحزن ملك العالم "وبكى كما تبكي النساء" على حد قول اسبارتيانس؛ وأمر بأن يقام له هيكل على شاطئ النهر، ودفن فيه الغلام، وأعلن للعالم أنه إله. ثم أنشأ حول ضريحه مدينة هي مدينة أنتينوبوليس التي قدر لها أن تكون فيما بعد عاصمة من عواصم الدولة البيزنطية. وبينما كان هدریان يعود محزوناً إلى رومة بدلت الأساطير القصة: فقالت إن الإمبراطور عرف عن طريق السحر أن أعظم خطئه لن تفلح إلا إذا مات أحب الأشياء إليه. وسمع أنتنؤوس بهذه النبوءة فأمات نفسه طائعاً مختاراً. ولعل هذه الخرافة قد نشأت بالسرعة التي تكفي لأن تمر عيش هدریان وتهد ركنه في سني ضعفه وشيخوخته. ولما عاد إلى رومة (131) كان يحس بأنه قد جعل الدولة خيراً مما كانت حين جلس على عرشها. ولقد كان على حق في هذا الإحساس، فإن الدولة في واقع الأمر لم تبلغ في وقت من الأوقات، ولا في عهد أغسطس نفسه، ما بلغته وقتئذ من الرخاء. ولم يصل عالم البحر الأبيض في يوم من الأيام إلى مثل ما وصل إليه في عهده من الاستمتاع بالحياة الكاملة، ولم يعد مرة أخرى موطناً لحضارة بلغت ما بلغته حضارة تلك الأيام من رقي، وسعة انتشار، وعمق أثر في جميع السكان. ولم يكن في الحكام جميعهم حاكم أكثر من هدریان حباً لخيرها، وعملاً لرفاهيتها. لقد كان أغسطس يرى أن الولايات توابع لإيطاليا تقيدها منها مالا وثراء، وكان يحكمها حكماً صالحاً لتندر الخير على إيطاليا. أما الآن فقد نضجت آراء قيصر

صفحة رقم : 3653

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> الجوال

وكلوديوس وأنت أكلها كاملة لأول مرة، فلم تكن رومة جابية الضرائب لإيطاليا؛ بل كانت الحاكم المسئول عن دولة يستمتع كل جزء من أجزائها بقسط من عناية الحكومة مكافئ لما تستمتع به سائر الأجزاء، وتحكم فيها الروح اليونانية بلاد الشرق، ويحكم فيها العقل الروماني الواسع الأفق سعة الروح الرومانية الدولة والغرب، لقد رأى هدریان قبله موته الدولة كلها بعينيه وجمع شتاتها ووحدها، وكان قد وعد أنه "سيدبر شئون هذه المجموعة من الأمم تدبير من يدرك أنها ملك الشعب لا ملكه الخاص" (37)؛ وقد أنجز ما وعد.

صفحة رقم : 3654

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> البتاء

ولم يكن باقياً إلا شيء واحد- إذا حصلت عليه رومة كانت أيضاً أجمل مما كانت قبل. لقد كان هدریان الفنان لا ينفك يناقش هدریان الحاكم، فقد أعاد بناء البانثيون في الوقت الذي كان يعيد فيه تنسيق القانون الرماني. ولسنا نعرف رجلاً غيره أكثر منه بناء، ولا حاكماً شاد من المباني مثل ما شاد هو. لقد كان في بعض الأحيان يضع بنفسه تصميم ما يشاد له من المباني، وكان يفحص عنها بنفسه ويقومها بخبرته في أثناء تشييدها، وقد أمر بإصلاح نحو مائة مبنى أو إعادة بنائها، ولم ينقش اسمه على أي واحد منها. وقد جنت رومة الشيء الكثير من حكمته وقدرته مجتمعين وهما قلماً تجتمعان في إنسان. أما هو فقد اجتمعت فيه قوة الشباب وحكمة الشيوخ.

وأشهر ما أعاده كن المباني حرم البانثيون- وهو أحسن بناء احتفظ بشكله من أبنية العالم القديم، ولقد دمرت النار الهيكل الرباعي الذي بناه أجربا، ويلوح أنه لم يبق منه إلا مدخله الكورنثي الأمامي المعمدز والآن أمر هدریان مهندسيه أن يقيموا شمالي هذا الهيكل القديم هيكلًا دائرياً، وألا يخرجوا في بنائه على الأنماط اليونانية الأصيلة وكان ينزع بحكم ذوقه اليوناني إلى تفضيل الأشكال

صفحة رقم : 3655

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> البناء

اليونانية على الأشكال الرومانية فيما ينشئه من مباني في عاصمة ملكه. ولم يكن الهيكل الجديد هو ومدخله المعمد وحدة منسجمة متناسقة، أما داخله- وهو دائرة قطرها 132 قدماً، خالية من الدعائم التي تعترض السائر فيها- فكان بفرغه يوحي للسائر فيه بإحساس من الحرية لا يجد له نظيراً إلا في الكنائس القوطية. وكان سمك جدرانه عشرين قدماً، وكانت مشيدة من الحجر ومغطاة في جزئها الأسفل الخارجي بالرخام، وفي أجزائها الأخرى بالمصيص، تبرز منها الفصوص من حين إلى حين. وكان سقف المدخل من صفائح البرنز، وقد بلغ من سمكها أنها حين أزالها البابا إربان الثامن وجدها تكفي لصب مائة مدفع وعشرة مدافع، وإقامة المظلة المرفوعة فوق المذبح العالي في كنيسة القديس بطرس(29). وكانت أبوابه البرنزية الضخمة مغطاة في بادئ الأمر بصفائح الذهب. وأنشئت في الأجزاء السفلى من جدرانه الداخلية الخالية من النوافذ سبعة محاريب زينت بعمد عالية ترتكز عليها دعائم هي والعمد من الرخام، وكانت هذه المحاريب في أول الأمر كوات غير نافذة وضعت فيها تماثيل، أما الآن فهي محاريب صغيرة في كنيسة فخمة. وقد غطيت بعض الأجزاء العليا من الجدار بألواح من الحجارة الغالية تفصلها بعضها عن بعض عمد من الحجر السماقي. وكانت أعظم روائع الهندسة الرومانية هي القبة المصندقة التي ترتفع في الداخل فوق أعلى الجدران. وكانت طريقة إنشائها أن صب الأسمنت المسلح في أقسام مضلعة، ثم تركت حتى تتماسك فيتكون منها كلها كتلة قوية صلبة، كأنها حجر ضخم واحد، وكانت بهذه الطريقة في غنى من الدعائم الجانبية، ولكن المهندس الذي أقامها أراد أن يزداد ثقة بقوتها، فأنشأ لها أكتافاً في الجدران. وكانت مشكاة (يسمونها العين Oculus)، يبلغ قطرها 20 ميلاً، هي الفتحة الوحيدة التي تمد الضريح بحاجته من الضوء. ويبلغ طول قطر هذه القبة الفخمة الضخمة 26 قدماً، وهي أكبر قباب العالم كله قديمة وحديثة، وقد أنشئت على غرارها سلسلة من القباب تختلف من الطراز البيزنطي إلى الطراز

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> البتاء

الروماني وإلى طراز قبة القديس بطرس إلى قبة الكبتول في واشنطن، وما بين هذه من طرز تماثلها أو تختلف عنها تماثلاً واختلافاً متفاوتين في القرب والبعد.

وأكبر الظن أن هدریان نفسه هو الذي وضع تصميم هيكل فينوس وروما Roma ذي القباعين الذي كان يقوم أمام الكلوسيوم، لأن الخرافات تروي أنه أرسل تصميم الهيكل إلى إيلودورس، وأنه أمر أن يعدم هذا الفنان الشيخ لأنه أرسل إليه يسخر من هذا التصميم (30). ولقد اشتهر هذا الهيكل بعدة صفات انفرد بها عن كثير من الهياكل: منها أنه كان أكبر هيكل في رومة، فقد كان له محرابان، كل منهما لأحدى الألهتين، وكانتا تجلسان فيه على عرشين متصلين وظهر كل منهما في ظهر الأخرى؛ ومنها أن سقفه المقيي المصنوع من ألواح البرنز والمغطى بصفائح الذهب كان من أجمل مناظر المدينة وأكثرها لألاء. وبنى الإمبراطور لنفسه بيتاً أوسع من هذا الهيكل نفسه، وهو القصر الريفي الذي لا تزال بقاياه تستهوي الزائرين إلى الضاحية الجميلة التي كانت تعرف في أيام الإمبراطور باسم تيبور والتي تعرف لنا اليوم باسم تيفولي Tivoli. فقد أقيم في هذا المكان، وسط ضيعة يبلغ محيطها سبعة أميال، قصر احتوى كافة أنواع الحجرات والحدائق التي ازدحمت بالروائع الفنية الذائعة الصيت والتي بلغ من كثرتها أن اغتنى ببقاياها كل متحف من متاحف أوروبا في هذه الأيام. وقد أظهر واضع تصميم هذا القصر ما اعتاده المهندسون الرومان من عدم المبالاة بتناسب الأجزاء، فقد كان يضيف إليه بناء إثر بناء كلما دعت إليه الحاجة أو استهواه الخيال، ولم يحاول أن يجعل فيه من التناسق أكثر مما في مباني السوق الرومانية من فوضى معمارية. ولعل الرومان قد ملوا التناسب كما مله اليابانيون، ولعلمهم كانت تعجبهم مفاجآت الشذوذ وعدم الانتظام. وقد أضاف المهندس ذو الخيال الفيض إلى ما فيه من أروقة ذات عمد ومكتبات، وهياكل، وملهي، وردهة رقص، ومضمار سباق، أضاف إلى هذا

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدریان -> البتاء

كله نماذج مصغرة من مجمع أفلاطون العلمي، ولوفيون أرسطو، واستوازينون، كان الإمبراطور، وهو متغمس في هذا الثراء الباطل، أن يظهر شيئاً من التقدير للفلسفة ويرد إليها بعض اعتبارها.

ولقد تم بناء هذا القصر في السنين الأخيرة من حياة هدریان، ولسنا نعلم أنه وجد فيه ما كان ينشده من سعادة، فقد أقضت ثورة اليهود التي شبت في عام (135) مضجعه وأمرت عيشه، غير أنه أحمدها بوسائل رحيمة، وساءه كثيراً أنه لم يستطع أن يختم حياته من غير حرب، وأصيب في ذلك العام نفسه، ولم يكن قد تجاوز التاسعة والخمسين من عمره، بداء عضال- ربما كان هو ذات الرئة أو داء الاستقساء- هد كيانه، وبرحت به الأمه، وأنهك شيئاً فشيئاً جسمه وروحه وعقله، وزاد مزاجه حدة، وأخلاقه شكاسة، فأخذ يرتاب في أصدقائه القدامى، ويظنهم يأترون به ليقتلوه ويجلسوا على العرش بعده، وأخيراً أمر أن يعدم جماعة منهم- ولسنا نعلم أكان على حق في ريبته، أم أنه أصدر أمره هذا في ساعة ذهب فيها عقله.

وأراد أن يخمد حرب الوراثة التي كانت نارها مشتعلة وقتنذ في بلاطه، فتبنى صديقه لوسيو فيرس Lucius Verus واختاره خليفة له. ولمامات لوسيو بعد قليل من ذلك الوقت، استدعى هدران إليه وهو على سريرته في تيبور رجلاً أبيض الصحيفة اشتهر بين الناس باستقامته وحكمته وهو تيتس أورليوس أنطونينس Titus Aurelius Antoninus وتبناه وجعله وارثاً لملكه من بعده. ثم شاء أن يكون أبعد من هذا نظراً فأشار على أنطونينس أن يتبنى هو الآخر شابين كانا يعيشان وقتنذ في بلاطه ويربيهما تربية تجعلهما أهلاً لهذا المنصب السامي، وهما ماركس أنينس فيرس

صفحة رقم : 3658

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدران -> البناء

Marcus Aninus Verus وكان وقتنذ في السابعة عشرة من عمره، ولوسيو إيليو فيري Lucius Aelius Verus، وهو غلام في الحادية عشرة من عمره. وكان أولهما ابن شقيق أنطونينس وثانيهما ابن لوسيو فيرس. ومنح هدران أنطونينس في ذلك الوقت لقب قيصر ولم يكن يلقب به قبل ذلك الوقت إلا الأباطرة وأبناؤهم ومن تناسل من أبناؤهم الذكور. أما بعده فقد كان الأباطرة يمنحون هذا اللقب كل من وارث للعرش مفترض، ويحتفظون لأنفسهم بلقب أغسطس. واشتد المرض وقتنذ على هدران وبرح به الألم، وكثيراً ما كان الدم ينزف من منخاريه. وضاق ذرعاً بالحياة، وأخذ يتمنى الموت. وكان قد أعد لنفسه قبراً على الضفة الأخرى من نهر التير- وهو ذلك الضريح الضخم الذي أضحت بقاياها الآن قلعة القديس أنجيلو Castel Sant, Angelo والذي لا يزال الناس يصلون إليه فوق جسر إيليو الذي أقامه هدران. وكان قد تأثر بالمثل الذي ضربه الفيلسوف الرواقي يفرانيز Euphrates، وكان وقتنذ في رومة. ذلك أن هذا الفيلسوف لما وجد أن المرض قد هد جسمه والشيوخ قد أنهكته طلب إلى هدران أن يأذن له بأن يقتل نفسه، فلما أذن له تجرع عصير الشوكران (31). ورجا الإمبراطور أن يقدم له سمّاً أو سيفاً، ولكن أحداً ممن كانوا حوله لم يجب رجاءه، فأمر عبداً من بلاد الدانوب أن يطعنه طعنة قاتلة، ولكن العبد فر منه؛ ثم أمر طبيبه أن يسمه، فلم يكن من الطبيب إلا أن انتحر (32). ثم عثر بعدنذ على خنجر وهم بقتل نفسه، ولكن الخنجر انتزع منه. وحزن أشد الحزن لأنه، وهو الذي يستطيع أن يقتل أي إنسان، لا يسمح له هو نفسه أن يموت. فلما ضاقت به الحيل صرف أطباءه وأوى إلى بايا Baiae وتعمد أن يأكل ويشرب الأطعمة والأشربة التي تعجل منيته؛ وأخيراً خارت وقواه وجن من شدة

صفحة رقم : 3659

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> هدران -> البناء

الألم ومات (138)، بعد أن عاش ستين عاماً وحكم واحداً وعشرين. وقد خلف وراءه قصيدة صغيرة تعبر كما تعبر قصيدة دانتي عما ينتاب الإنسان من الأسى حين يذكر في أيام حزنه ما مر به من أيام السعادة: أيا نفسي، أيا نفسي الجميلة، أيا نفسي الخفاقة، أيا شريكة جسمي الطيني وضيغه، إلى أين أنت مسرعة- أيتها النفس الشاحبة، أيتها النفس الجاسية، أيتها النفس العارية- إلى حيث لا تعودين، إلى حيث لا تعودين؟(33).

صفحة رقم : 3660

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> أنطونينس بيوس

الفصل الرابع

أنطونينس بيوس

يكاد أنطونينس ألا يكون له تاريخ، وذلك لأنه لا يكاد يقع في أخطاء أو يرتكب قط جرائم. وكان أباه الأولون قد جاءوا من نيمز قبل ذلك العهد بجيلين، وكانت أسرته من أغنى الأسر في رومة، ولما اعتلى عرش الإمبراطورية في الحادية والخمسين من عمره وهبها حكومة هي أعدل حكومة شهدتها طوال تاريخها، ولم تكن أقل هذه الحكومات كفاية.

وكان أسعد من لبس التاج خطأ. ويقول مؤرخوه إنه كان طويل القامة، وسيماً، جيد الصحة، وقوراً، دمث الأخلاق، حازماً، متواضعاً، صادق البأس، فصيح اللسان، يحترق بلاغة الألفاظ، محبباً إلى الشعب، يكره الملق. وإذا صدقنا ما يقوله فيه متبناه ماركس، كان علينا أن نرفض ما وصف به من أنه "كان الجبار المعصوم من الخطأ الذي لم يعرفه العالم قط". ولقد لقبه مجلس الشيوخ "بالتقي Pius" لأنه رأى فيه مثلاً للفضائل الرومانية الهادئة، كما وصفه بأنه أفضل الزعماء. ولم يكن له أعداء مطلقاً، وكان له مئات من الأصدقاء؛ غير أنه لم يكن بمنأى من الأحزان، فقد ماتت كبرى ابنتيه وهو يستعد للسفر إلى أسية ليكون والياً عليها، وكانت صغراهما زوجة مربية لأورليوس، واتهم الناس زوجته بأن خيانتها لزوجها كانت تعدل جمالها. وتحمل أنطونينس هذه الشائعات وهو صامت صابر، ولما ماتت زوجته فوستينا Faustina أرصد باسمها وتكريماً لها أموالاً طائلة لمساعدة الفتيات وتعليمهن، وخلد ذكرها بإنشاء هيكل في السوق العامة كان من أجمل هياكل رومة. وزاد على ذلك أنه لم يتزوج غيرها حتى لا يشقي أبناؤه أو ينقص ميراثهم بهذا الزواج واكتفى بأن اتخذ له حظية.

صفحة رقم : 3661

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> أنطونينس بيوس

ولم يكن رجلاً ذكياً، بالمعنى الضيق لهذا اللفظ، فلم يكن له حظ من العلم، وكان ينظر إلى رجال الأدب والفلسفة والفن نظرة الأرستقراطي الذي يتركهم وشأنهم ولا يتدخل في أعمالهم، لكنه مع ذلك كان يساعدهم بالمال الكثير، وكثيراً ما كان يدعوهم إلى قصره. وكان يفضل الدين على الفلسفة، ويعبد الآلهة القدامى بإخلاص ظاهر، وضرب لمن تنبأهم مثلاً في التقى والصلاح. كان له أعظم الأثر في ماركس فلم ينس قط قوله: "افعل كل شيء كما يجب أن يفعله تلميذ أنطونينس". وقد أمر نفسه بأن "يذكر استمساكه بكل عمل معقول، واعتداله في كل شيء، وتقواه، وصفاء ملامحه، واحتقاره للشهرة التي لا قيمة لها... واكتفائه بالقليل؛ وجده وصبره، واستمساكه بالدين مع بعده عن الخرافات" (34). وكان مع هذا متسامحاً مع أصحاب الأديان غير الرومانية، فخفف من الإجراءات التي اتخذها هدرين ضد اليهود، وجرى على سنة أسلافه من التساهل مع المسيحيين. ولم يكن بالرجل المترمت الذي يضيق صدره بالمرح، بل كان يحب النكتة، وكثيراً ما كانت تصدر منه الفكاهة اللطيفة. وكان يلعب، ويصيد السمك والوحوش مع أصدقائه، ولم يكن في وسع الإنسان أن يستدل من سلوكه على أنه إمبراطور. وكان يفضل هدوء بيته الريفي في لوفيوم Lanuvium على ترف قصره الرسمي، وكان يقضي كل لياليه تقريباً مع أسرته. ولما أن ورث العرش امتنع عن التفكير فيما كان يتوق إليه من راحة وهدوء يجعلهما سلواه في شيخوخته. ولما تبين أن زوجته تتوقع أن تزداد بعد ارتقائه العرش أبهة وعظمة أنبها على ذلك بقوله: "ألا تعلمين أننا قد فقنا الآن ما كان لنا من قبل؟" (35). فقد كان يعرف أنه ورث هموم العالم ومشاغله.

وكان أول ما عمله بعد اعتلائه العرش أن وهب ثروته الشخصية الكبيرة إلى خزانة الدولة. ثم ألغى المتأخر من الضرائب، ونفح المواطنين بهبات من المال، وأقام على نفقته كثيراً من الألعاب والحفلات، وسد ما كان يعانيه الأهلون من

صفحة رقم : 3662

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> أنطونينس بيوس

نقص في الخمر، والزيت، والقمح، بشراء هذه الأصناف وتوزيعها على الناس من غير ثمن. وواصل تنفيذ مناج هدرين في البناء في إيطاليا، وفي الولايات، ولكنه سار فيه باعتدال؛ ومع هذا كله فقد دبر مالية الدولة بكفاية كانت نتيجتها أن وجد في خزانها كلها بعد وفاته 2,700,000,000 سسترس، وكان ينشر على الناس إحصاء بجميع الإيرادات والنفقات، ويعامل مجلس الشيوخ على أنه هو عضو من أعضائه لا أكثر، ولم يقدم قط على عمل خطير إلا بعد استشارة زعمائه. وكان يعني بدقائق الشؤون الإدارية عنايته بالمشاكل السياسية؛ "فكان يهتم بجميع الناس وبجميع الأشياء كأنهم أهله وكأنها ملكه الخاص" (36). وواصل سياسة هدرين بصبغ القانون بصيغة الحرية، وجعل عقوبة الزنى متساوية على الرجال والنساء، وحرّم السادة القاسين من عبيدهم، وقيد تعذيب العبيد في المحاكمات بقيود شديدة، وفرض أشد العقوبات على كل سيد يقتل عبداً له. وشجع التعليم برصد المال له من قبل الدولة، وعلم أبناء الفقراء على نفقتها، ومنح المعلمين والفلاسفة المعترف بهم كثيراً من امتيازات طبقة أعضاء مجلس الشيوخ. وحكم الولايات أحسن حكم مستطاع دون أن يطوف بها، فلم يغب قط عن رومة أو ما جاورها يوماً واحداً في أثناء حكمه الطويل؛ وكان يكتفي بأن يعين لحكم الولايات رجلاً من ذوي الكفاية المخبورة والشرف الموثوق به. وكان يحرص على سلامة الإمبراطورية دون الاشتباك في حروب؛ "ولم يكن ينقطع قط عن ترديد قول سيبو إنه يفضل

الاحتفاظ بحياة مواطن واحد على قتل ألف عدو" (37). على أنه قد اضطر أن يخوض غمار بعض الحروب الصغرى ليخمد ما نشب من الثورات في داشيا، وأخبة، ومصر؛ ولكنه عهد بهذه الواجبات إلى مرؤوسيه، ولم يسع إلى توسيع رقعة الدولة بل اكتفى بالحدود التي رسمها لها هدریان وراعى في رسمها جانب الحذر. وحسبت بعض القبائل الألمانية لينة هذا

صفحة رقم : 3663

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> أنطونينس بيوس

ضعفًا، ولعل هذا اللين قد شجعها على أن تتأهب لتلك الغزوات التي اهتزت لها دعائم الإمبراطورية بعد وفاته؛ وكان هذا هو الخطأ الوحيد الذي ارتكبه في سياسته. أما في ما عدا ذلك فقد كانت الولايات سعيدة في أيامه، ورضيت بحكم الإمبراطورية ورأت فيه البديل الوحيد من الفوضى والشقاق. وأمطرته الولايات سيلاً من الملتزمات والمطالب، أجابها إليها جميعاً إلا القليل الذي لا يستحق الذكر؛ وكان في وسعها أن تعتمد عليه ليعوضها عن كل ما يصيبها من الخسائر بسبب الكوارث العامة. وتغنى المؤرخون من أهل هذه الولايات أمثال أسترابون، وفيلو، وأفلو طرخس، وأبيان، وإبكتنس، وإيلبوس أرسنديز بمديح السلم الرومانية؛ ويؤكد لنا أبيان أنه شاهد في رومة مندوبي الدول الأجنبية يرجون عبثاً أن توضع بلادهم تحت الحكم الروماني لكي تستمتع بمزاياه (38). ولم يعرف قط قبل ذلك الوقت أن حكومة ملكية مطلقة تركت الناس أحراراً كما تركتهم حكومة بيوس، أو احترمت حقوق رعاياها كما احترمتها هذه الحكومة (39). ولاح أن العالم قد أدرك المثل الأعلى في نظم الحكم. فقد كان هذا الحكم وقتئذٍ للعقل والحكمة، وكان العالم يحكمه أب شفيق رحيم.

ولم يكن باقياً على أنطونينس بعد هذا كله إلا أن يختم حياته الصالحة بموت هادئ. ولقد أصيب في السنة الرابعة والسبعين من عمره بزلة معدية، وانتابته حمى شديدة، فدعا ماركس أورليوس إلى فراشه، وعهد إليه العناية بشئون الدولة، وأمر خدمه أن ينقلوا إلى حجرة ماركس تمثال فرتونا Fortuna (الحظ) الذهبي، وكان الزعيم قد احتفظ بهذا التمثال في حجرته عدداً كبيراً من السنين. وأسر إلى ضابط ذلك اليوم كلمة السر "الهدوء". ثم أدار وجهه لساعته كما لو كان يريد النوم، وأسلم الروح (161). وأخذت جميع الطبقات وجميع المدن تتبارى في تكريم ذكره.

صفحة رقم : 3664

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

الفصل الخامس

يقول رينان Renan: "لو أن أنطونينس لم يعين ماركس أورليوس خليفة له من بعده لما استطاع أحد قط أن ينافسه فيما اشتهر به من أنه خير الملوك على الإطلاق" (41). ويقول جين Gibbon: "لو أن إنساناً طلب إليه أن يحدد في تاريخ العالم وقتاً كان فيه الجنس البشري أعظم ما يكون سعادة ورخاء، لما تردد في أن يقول أنه هو الفترة التي تمتد من جلوس نيرفا إلى موت أورليوس. ولعل حكمهم مجتمعاً هو الفترة الوحيدة في تاريخ العالم التي كانت فيها سعادة شعب عظيم هدف الحكومة الوحيد" (42).

ولد ماركس أورليوس فيرس في رومة عام 121، وكانت أسرة أنباي Annii قد وفدت قبل ذلك الوقت بمائة عام من سكوبا Succuba القريبة من قرطبة إلى رومة، ويلوح أن ما اشتهروا به في هذا البلد من شرف قد أكسبهم لقب فيرس أي "الحق". ومات والد الغلام بعد ثلاثة أشهر من مولده فكفله جده الثري، وكان قنصلاً في ذلك الوقت، وأخذه إلى بيته. وكثيراً ما كان هدرين يتردد على هذا البيت زائراً، فأعجب الغلام، ورآه من طراز الملوك. ولم يعرف قط أن غلاماً مثله كان شبابه ينم عما ينتظره من مستقبل عظيم، أو كان يدرك ما هيأته له الأقدار من حظ حسن. وقد كتب بعد ذلك الوقت بخمسين عاماً يقول: "إني مدين للآلهة بما وهبتني من جدود طبيبين، وآباء طبيبين، وأخت طيبة، ومدرسين طبيبين، وأقارب وأصدقاء طبيبين، وكل شيء تقريباً طيب" (43). وأراد الدهر أن يفرض عليه شيئاً من التوازن فجعل له زوجة مريبة وابناً سافلاً. وقد أحصى في تأملاته ما يتصف به

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

أولئك الناس من فضائل وما تلقاه عنهم من دروس في التواضع، والصبر، والرجولة، والتعفف، والتقوى، وحب الخير، و"بساطة الحياة البعيدة كل البعد عن عادات ذوي الثراء" (44)، وإن كان الثراء يحيط به من كل جانب. ولم يلق غلام قط ما لقيه هذا الغلام من حرص ومثابرة على تربيته وتعليمه. فقد التحق في شبابه بخدمة الهياكل والكهنة، وحفظ عن ظهر قلب كل كلمة من كلمات الطقوس الدينية القديمة الغامضة المتعذرة الفهم، ولم تنقص الفلسفة في مستقبل الأيام من مثابرتة على أداء تلك الطقوس القديمة المفروضة على الأتقياء الصالحين، وإن كانت هذه الفلسفة قد زعزت عقيدته الدينية. وكان ماركس يحب المباريات والألعاب الرياضية ومنها صيد الطير والحيوان، وقد بذلت بعض الجهود لتقوية جسمه كما كانت الجهود تبذل لتنمية عقله وتقويم خلقه، ولكن سبعة عشر مدرساً خاصاً يحيطون بطفل عبء ثقيل وعقبة كؤود في سبيله. فقد كان أربعة نحاة، وأربعة من علماء البلاغة، وواحد من علماء القانون، وثمانية من الفلاسفة يفتسمون رومة فيما بينهم. وكان أشهر هؤلاء الأساتذة كلهم م. كورنيليوس فرنو Cornelius M. Fronto معلم النبيان. وكان ماركس يحبه ويحبه بكل ما يحبو به التلاميذ أبناء الملوك أساتذتهم من عطف ولطف، ويتبادل معه رسائل تفيض وفة ووفاء، ولكن الغلام رغم هذا أدار ظهره إلى فن الخطابة ورآه فناً باطلاً غير شريف وأنهمك في دراسة الفلسفة.

وهو يشكر لأساتذته أنهم لم يلزموه بدراسة المنطق والتنجيم، ويشكر لديجنيتس Diognetus الرواقي أنه حرر عقله من الخرافات، وليونيوس رستكس Junius Rusticus أنه عرفه بابكتنس، ولسكستس القيرونياني Sextus of

Chaeronea أنه علمه أن يعيش عيشة تتفق والطبيعة. وهو يحمد لأخيه سيفيرس Severus أنه علمه أخبار بروتس، وكاتو الينكاني، وثراسيا Thrasea، وهلفديوس Helvidius ويقول: "إنني تلقيت عنه فكرة الدولة

صفحة رقم : 3666

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

التي يكون فيها قانون واحد لجميع الناس، والتي يتمتع أهلها جميعاً بحقوق متكافئة، وبحرية الكلام؛ وأخذت عنه فكرة الحكومة الملكية التي تحترم حرية المحكومين أكثر من احترامها كل شيء سواها" (45) وفي هذا القول يستحوذ المثل الأعلى الرواقي للحكومة الملكية على العرش. ويشكر أورليوس لمكسمس Maximus أن علمه "أن يحكم نفسه، وألا يسمح لشيء ما أن يضلّه، وأن يكون بشوشاً في كل الظروف، وأن يجمع قدراً متكافئاً من اللطف والكرامة، وأن يؤدي ما عليه من الواجبات من غير تذمر" (46). وجدير بنا أن تشير هنا إلى أن من الأمور الجلية أن كبار الفلاسفة في ذلك الوقت كانوا كهنة بلا دين، ولم يكونوا ميثافيزيقيين بلا حياة. غير أن ماركس آمن بأقوالهم إيماناً جدياً كاد وقتاً ما يفقد بسببه صحته التي كانت ضعيفة بطبيعتها لانهماكه في حياة الزهد والتعشف. فقد ارتدى وهو في الثانية عشرة من عمره رداء الفلسفة، وأخذ ينام على قليل من القش المنثور على الأرض، وظل زمناً طويلاً لا يأبه برجاء أمه له أن ينام على فراش. ذلك أنه كان رواقياً قبل أن يصير رجلاً، ويحمد ربه: "لأنني احتفظت بزهرة شبابي، وأني لم أطمع في أن يكون رجلاً قبل الأوان، بل أجلت هذا أكثر مما كنت أحتاج إلى تأجيله... وأني لم تكن لي صلات جنسية قط... وأني حين انتابنتي فيما بعد نوبات من الحب، لم ألبث أن شفيت منها بعد زمن قليل" (47). وقد حوله عن احترام الفلسفة والكهنوت عاملان كان لهما أثر بالغ في حياته. أولهما ما تولاها من المناصب السياسية الصغرى منصباً في إثر منصب، وذلك لأن واقعية الرجل الإداري تعارضت لديه مع مثالية الشاب الغارق في التأملات. وكان العامل الثاني هو صلته الوثيقة بأنطونينس بيوس. ولم تكن حياة أنطونينس الطويلة سبباً في مضايقته بل ظل يحيا حياته الرواقية البسيطة، ويواصل دراساته الفلسفية، وواجباته الرسمية، وهو يعيش

صفحة رقم : 3667

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

في القصر، ويمارس مرانه الطويل. وكان للمثل الذي ضربه له متبنيه في الإخلاص والنزاهة في الحكم أقوى الأثر في نضوج عقله وخلفه. وكان الاسم الذي نعرفه به وهو أورليوس هو اسم القبيلة التي ينتمي إليها أنطونينس، وقد ماركس ولوسيوس كلاهما بعد أن تبناهما. فأما لوسيوس فقد أصبح رجلاً مرحاً محباً لمفاتيح العالم، خبيراً بملذات الحياة ومباهجها. ولما أن رغب بيوس عام 146 أن يكون له زميل يشترك معه في أعباء الحكم، اختار لذلك ماركس وحده، وترك للوسيوس دولة الحب. ولما أن مات أنطونينس جلس ماركس على العرش بمفرده، ولكنه تذكر رغبة

هدريان فاتخذ لوسيو فيرس زميلاً له وزوجاً بابنته لوسلا Lucilla. فانكبت الفيلسوف بسبب حنوه ورأفته من الخطأ في بداية حكمه ما ارتكبه في نهايته. ذلك أن تقسيم الحكم على هذا النحو كان سابقة سيئة، فرقت شمل الدولة وأضعفتها فيما بعد أيام خلفاء دقلديانوس وقسطنطين.

وطلب ماركس إلى مجلس الشيوخ أن يخلع على بيوس مراسم التكريم القدسية، وأتم الهيكل الذي شرع بيوس في أن يقيمه تخليداً لذكرى زوجته، وأظهر فيه أحسن الذوق وأكمله، ووهبه لذكرى أنطونينس وفوستينا معاً. وحبا مجلس الشيوخ بكل أنواع المجاملة، وسره أن يجد الكثيرين من أصدقائه الفلاسفة قد شقوا طريقهم إلى عضويته، وحيثه إيطاليا بأجمعها والولايات على بكرة أبيها، ورأت فيه تحقيقاً لحلم أفلاطون: لقد أصبح الفيلسوف ملكاً. ولكنه لم يفكر قط في أن يجعل من الإمبراطورية "مدينة فاضلة". فقد كان مثل أنطونينس محافظاً مستمسكاً بالقديم؛ ذلك أن المتطرفين لا ينشأون في القصور، وكان ملكاً- فيلسوفاً بالمعنى

صفحة رقم : 3668

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

الرواقي لا الأفلاطوني لهذا اللفظ. وقال يحذر نفسه: "لا تؤمل قط أن تقيم جمهورية أفلاطون. وحسبك أنك أصلحت أحوال البشر إلى حد ما، ولا تظن أن هذا الإصلاح أمر قليل الخطر. ومنذا الذي يستطيع تغيير آراء الناس؟ وإذا لم تستطع تغيير عواطفهم، فإنك لا تستطيع أن تجعل منهم إلا عبيداً متمردين ومناققين مثلونين". وكان قد تبين أن الناس لا يرغبون كلهم أن يكونوا قديسين أظهراً، ووطن النفس على أن يعيش في عالم مليء بالخيب والفساد، ومن أقواله في هذا: "إن الآلهة المخلدون يرضون أن يصبروا أجلاً طويلاً على هذه الكثرة من الأشرار وعلى ما ترتكبه من أثام كثيرة، دون أن يغضبوا، بل إنهم يحيطون هؤلاء الأشرار بالنعمة الموفورة، فهل يليق بك على قصر أجلك أن يسرع إليك الملل؟" (48): وقد وطد العزم على أن يعتمد على القدوة الحسنة لا على سطوة القانون، فجعل نفسه بالفعل خادماً للدولة، وأخذ على عاتقه جميع أعباء الإدارة والقضاء، بما في ذلك القسم الذي وافق لوسيو على أن يتحملة ولكنه أهمله؛ ولم يسمح لنفسه بشيء من الترف، وعامل الناس جميعاً معاملة زملاء لا أكثر ولا أقل، وأنهك نفسه بكثرة العمل بأن يسر للناس مقابلته. ولم يكن ماركس بالسياسي العظيم، فقد أنفق كثيراً من أموال الدولة في الهبات النقدية التي كان ينفق بها الشعب والجيش، ومنح كل فرد من أفراد الحرس البريتوري عشرين ألف سسترس. وزاد عدد الذين كان من حقهم أن يطلبوا الحبوب من غير ثمن، وأكثر من الألعاب الباهظة النفقة، وأعفى الناس والولايات من كثير من الضرائب والجزية المتأخرة. لقد كان هذا كرمًا له سوابقه، ولكنه كان عملاً غير حكيم في وقت كانت الثورات والحروب تهدد الدولة تهديداً لا يخفى على عين الحاكم البصير، وكانت نيرانها مشتعلة بالفعل في كثير من الولايات وعلى أطراف الحدود العظيمة الأمداد.

وواصل ماركس ذلك الإصلاح القانوني الذي بدأه هدریان وبذل في ذلك الإصلاح كثيراً من الجد والنشاط. فزاد أيام جلسات المحاكم، وقصر آجال

صفحة رقم : 3669

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

المحاكمات، وكثيراً ما كان يجلس بنفسه في مجلس القضاء، ولا يرحم من يرتكب جريمة من الجرائم الكبرى، ولكنه كان في العادة رحيماً. وقد ابتكر وسائل قانونية لحماية عديمي الأهلية من جشع الأوصياء، ولحماية المدنيين من الدائنين، والولايات من الحكام، وغض الطرف عن عودة الجماعات الدينية التي كانت محرمة قبل عهده، وبسط حماية القانون على الهيئات التي كانت في حقيقة أمرها جماعات تعني بدفن الموتى، وأكسبها الشخصية المعنوية التي يحق لها بمقتضاها أن تقبل الوصايا، وأنشأ صندوقاً لينفق منه على دفن الموتى من الفقراء. وبلغ عدد المستفيدين من نظام الأمانت أي من الأموال التي خصصتها الدولة لتشجيع النسل بين الفلاحين أكبر عدد وصل إليه في تاريخ هذا النظام كله. ولما ماتت زوجته أنشأ صندوقاً لمساعدة الفتيات الفقيرات، ولدينا نقش منخفض يمثل أولئك الفتيات وقد أحطنا بفوستينا الصغرى وهي تصب القمح في حجورهن. وألغى الاستحمام المختلط، وحرّم دفع أجور عالية للمثلين والمجالدين، وفرض على ما تتفقه المدن على الألعاب قيوداً تحد من هذه النفقات وتجعلها متناسبة مع ثروتها، وأوجب أن تكون الأسلحة التي يستخدمها المجالدون غير ذات أسنة، وفعل كل ما تبيحه له هذه العادة الوحشية أن يفعله لمنع قتل المصارعين. وأحبه الشعب ولكنه لم يحب قوانينه، ولما أن جند المصارعين في جيشه الذي سيّره للحروب الماركمانية Marcomannic قال الناس في غضب فكه: "إنه يسلبنا أسباب سرورنا، ويريد أن يرغمنا على أن نكون فلاسفة" (49). لقد كانت رومة تستعد للترمت، ولكنها لما تصبح مستعدة له. وكان من سوء حظه أن شهرته في الفلسفة، وأن السلم الطويلة التي دامت أيام هدریان وأنطونينس، قد شجعتا الثوار في داخل البلاد، والبرابرة في خارجها، على العصيان. فاندلعت نيران الثورة في بريطانيا عام 162، وغزا النشاتي Chatti ألمانيا الرومانية، وأعلن فولجاسيز Vologases

صفحة رقم : 3670

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

الثالث ملك بارثيا الحرب على رومة، واختار ماركس أقدر القواد لتقليم أظفار الفتنة في الشمال، ولكنه عهد إلى لوسيووس فيرس بالواجب الأكبر وهو محاربة بارثيا، ولم يتجاوز لوسيووس في زحفة مدينة أنطاكية، لأن تلك المدينة كانت مسكن بانثيا Panthea التي بلغت من الجمال والتهذيب والثقافة حداً ظن معه لوسيان أن كل ما حوته آيات النحت من روعة قد اجتمعت فيها، وأنها وهبت فوق ذلك صوتاً رخيماً عذباً يسلب لب من سمعه، وأنامل تجيد العزف، وعقلاً ملماً بروائع الأدب والفلسفة. فلما رآها لوسيووس نسي كما نسي جلميش متى ولد، فأطلق العنان لذاته، للصيد أولاً ثم للدعارة بعدئذٍ، بينما كان البارثيون يزحفون على بلاد سوريا التي باستولى عليها الرعب. ولم يعلق ماركس بكلمة على أعمال لوسيووس ولكنه أرسل إلى أفديوس كاسيووس Avidius Cassius الذي يلي لوسيووس في قيادة جيشه خطة للحملة كانت من الاتقان بحيث أعانت القائد القدير المحنك على صد البارثيين إلى ما بين النهرين، وإلى رفع الراية الرومانية مرة أخرى على سلوقية وطقشونة. وأحرق المدينتان في هذه المرة عن آخرهما، لكيلا تتخذا مرة أخرى قاعدتين لحمالات البارثيين. وعاد لوسيووس من أنطاكية إلى رومة حيث أقيم له إحتفال بالنصر، أصر كراماً منه وشهامة على أن يشاركه فيه ماركس.

وجاء لوسيووس معه بالمنتصر الخلفي في هذه الحرب- وهو الوباء. وكان قد ظهر في باديء الأمر بين جنود أفديوس حينما استولوا على سلوقية، ثم انتشر بسرعة اضطرت أن يسحب أولئك الجند إلى بلاد النهرين بينما كان البارثيون يطربون لأن الآلهة قد انتقمتم لهم من أعدائهم. ونقلت الفيالق المنسحبة الوباء معها إلى سوريا، وأخذ لوسيووس معه

جنوداً من هذه الفيالق لتشارك في موكب النصر، فنقلوا العدوى إلى كل مدينة مروا بها، وإلى كل صقع من أصقاع الإمبراطورية انتقلوا إليه فيما بعد. ويحدثنا المؤرخون القدامى عن فتك هذا الوباء أكثر مما يحدثونا عن طبيعته، ولكن ما يقولونه عنه

صفحة رقم : 3671

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

يوحي بأنه قد يكون مرض التيفوس الطفحي أو الطاعون الدملي(32). ويظن جالينوس أنه من نوع الوباء الذي فتك بالأثينيين في عهد بركليز. وسواء أكان هذا أم ذاك فقد كانت بثرات سوداء تنتشر في الجسم، ويصاب المريض بسعال جاف مبحوح، ويكون "نفسه ذا رائحة خبيثة"(53). وقشا الوباء سريعاً في آسية الصغرى، ومصر، وبلاد اليونان، وغالة، وأهلك خلال عام واحد (67-166) أكثر ممن أهلكتهم الحرب. ومات منه في رومة ألفان في يوم واحد، ومنهم عدد كبير من أشرف المدينة(54)، وكانت الجثث تخرج منها أكواماً. وعجز ماركس عن مقاومة هذا العدو الخفي، ولكنه بذل كل ما يستطيع ليخفف عن شره، غير أنه لم يجد معونة من علم الطب في ذلك الوقت، وجرى الوباء في مجراه حتى أوجد في الناس معونة منه أو أهلك كل من حمل جراثيمه. وكانت له في البلاد آثار يخطنها الحصر. فقد أقرت كثير من الأنحاء من سكانها حتى أضحت صحاري أو غابات، ونقص إنتاج الغذاء، واضطربت وسائل النقل، وأتلفت فيضانات الأنهار مقادير كبيرة من الحبوب، وجاء القحط في أعقاب الوباء. واختفت مظاهر البهجة التي امتازت بها بداية حكم ماركس، واستسلم الناس للحيرة والتشاؤم، وهرعوا إلى العرافين والمنتبين، وغمروا المذابح بالبخور والضحايا، وطلبوا العزاء في الملاذ الوحيد الذي أتيح لهم، في الدين الجديد دين خلود النفس والسلام السماوي.

وبينما كانت هذه الكوارث تجتاح البلاد في الداخل جاءت الأنبياء (167) بأن القبائل الضاربة على ضفاف الدانوب-التشاتي، والقادي، والمركماني، واللازيجي Lezygcs- قد عبرت النهر، وفتكت بحامية رومانية عدتها عشرون ألفاً، وأخذت تزحف على داشيا، وريتيا Rretia، وبتونيا، ونوركم، وأن بعضها قد شقت طريقها فوق جبال الألب، وهزمت كل الجيوش التي أرسلت لصدّها، وحاصرت أكويليا Aquileia (القريبة من البندقية)، وأخذت تهدد فرونا Veroua، وتتلّف الحقول الغنية في شمال إيطاليا. ولم تكن القبائل الألمانية

صفحة رقم : 3672

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

في وقت من الأوقات أكثر مما كانت وقتئذٍ إتحداً وتماسكاً في زحفها، ولم تهدد رومة في يوم ما أشد من تهديدها إياك في ذلك الوقت. وأقدم ماركس على العمل الحاسم بسرعة أدهشت الناس جميعاً، فنبذ ملاذ الفلسفة، وقرر أن ينزل

بنفسه إلى الميدان ليخوض غمار الحرب التي تتبأ بأنها ستكون أخطر الحروب التي خاضتها رومة منذ أيام هنيبال، وروع إيطاليا بتجنيد رجال الشرطة، والمجالدين والعبيد، وقطاع الطرق، ومرترقة البرابرة، في فيالقه التي حصدها الحروب والأوبئة. وحتى الآلهة نفسها قد جندها لأغراضه: فقد أمر كهنة الأديان الأجنبية أن يقرّبوا القرابين إلى رومة حسب طقوسهم المختلفة، وحرّق هو نفسه من الضحايا على المذابح ما جعل أحد الفكهين يذيع رسالة بعثت بها إليه ثيران سود، ترجوه فيها ألا يسرف في الانتصار وتقول فيها: "ما أشد خسارتنا إذا انتصرت" (55). وأراد أن يوفر المال اللازم للحرب دون أن يفرض لها ضريبة خاصة فباع بالمزاد العلني في السوق العامة ما في القصور الإمبراطورية من خزانات الثياب، والتحف الغنية، والحلي. وأعد العدة للدفاع بعناية عظيمة- فحصن المدن القائمة على الحدود من غالة إلى بحر إيجه، وسد الممرات الموصلة إلى إيطاليا، وأغرى القبائل الألمانية والسكوذية بالرشا السخية على الهجوم على مؤخرة الغزاة. ثم درب جيشه ونظمه أحسن تدريب وتنظيم بجد وشجاعة نثيران أعظم الإعجاب لمحبتيهما من رجل يكره الحرب. ثم قاد الجيش بنفسه في حرب عوان وضع خططها بمهارة وقدرة حربية فنية، وفك الحصار عن أكويليا، وطارد المحاصرين وبدد شملهم عند نهر الدانوب، حتى لم يكذب ينجو منهم من القتل إلا من وقع في الأسر.

ولم يكن يخفي عليه أن أعماله هذه لم تقض على الخطر الألماني، ولكنه حسب أن ما أدركه يجعل الموقف آمناً إلى حين، فعاد إلى زميله إلى رومة؛ ولكن لوسبوس قضى نحبه في الطريق بالسكتة القلبية، غير أن الشائعات، كالسياسة، لا تعرف سبيلاً إلى الرحمة، فقالت إن ماركس دس له السم. وقضى الإمبراطور الفترة الواقعة بين يناير وسبتمبر عام 169 في رومة ليستريح من الجهود التي أضنت بنيتة الضعيفة حتى كادت تقضي عليه، وكان يشكو نزلة معوية كثيراً ما كانت تتركه ضعيفاً لا يقوى على الحركة. ولكنه عالج هذا الداء بالاقتصاد في الطعام فكان لا يأكل إلا أكلة خفيفة في اليوم. وكان الذين يعرفون حالته الصحية وغذائه القليل يدهشون مما كان يبذله في القصر والحقل من جهود، كل ما يعللونها به أنه كان يعوض بعزيمته ما يعوزه من قوة جسمه. وقد استدعى إليه عدة مرار جالينوس البرجمومي أشهر أطباء زمانه، وأثنى عليه لبساطة ما كان يصفه له من العلاج (56).

ولعل ما توالى عليه من المتاعب المنزلية مضافة إلى الأزمات السياسية والعسكرية قد ساعد على اشتداد علته حتى أصبح شيخاً منهوكاً في الثامنة والأربعين من عمره. ولعل زوجته فوستينا، التي ترى وجهها الجميل في كثير من التماثيل، لم يكن يسرها أن تشارك في الطعام والفرش رجلاً يكاد يكون هو الفلاسفة متجسدة، ذلك أنها كانت امرأة مرحة نشيطة، تتوق إلى حياة أكثر بهجة مما تستطيع أن تهبطها إياها فطرته الرزينة الوقور. غير أن النمامين في المدينة كانوا يتهمونها بخيانة زوجها؛ وهجته المسرحيات التقليدية الصامتة ووصفته بأنه ديوث، بل ذهبت إلى أبعد من هذا فذكرت أسماء من ينافسونه على زوجته (57). لكن ماركس فعل ما فعله أنطونينس مع أمه فوستينا فصمت ولم يقل شيئاً، ولم يكف بالصمت بل عين عشاقها المزعومين في مناصب عالية، وأظهر إلى فوستينا كل دلائل العطف والاحترام، وألهاها لما ماتت (175) وشكر في تأملاته الآلهة لأنها وهبته "زوجة محبة مطيعة" (58). وليس لدينا قط دلائل ندينها بمقتضاها (59)، ولقد ولدت له أربعة أبناء، كان يحبهم حباً لا نزال نحس بحرارته في رسائله التي كتبها لفرننتو. وقد ماتت منهم بنت في طفولتها، وأما الثانية فكانت حياة لسيوس سبباً في حزنها، ووفاته سبباً في ترملها. وكان الاثنان الآخران توأمين ولداً

صفحة رقم : 3673

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

في عام 161، مات أحدهما أثناء ولادته، وأما الثاني فهو كومودس Commodus، وقالت السنة السوء إنه كان هدية إلى فوستينا من مجالد (60)، وقد ظل هو طول حيلته يجاهد لتوكيد هذه القصة. لكنه كان غلاماً وسيماً قوياً نشيطاً، وكان ماركس يحبه ويحنو عليه حنواً بالغاً لا يستطيع أحد أن يلومه عليه، وقدمه إلى الفيالق بطريقة ترمز إلى أنه

سيختاره خليفة له من بعده، واستخدم خير المدرسين في رومة ليجعلوه صالحاً للحكم. ولكن الشاب كان يفضل الشرب، والرقص، والغناء، والصيد، والمثاقفة، ونشأت فيه روح الكراهية للكتب والعلماء والفلاسفة، وهي كراهية نستطيع فهم أسبابها، ولكنه كان يسر بصحية المجالدين وهواة الألعاب الرياضية؛ وسرعان ما يز جميع رفاقه من الكذب، والقسوة، والألفاظ القذرة. وكان ماركس أشد طيبة من أن يبلغ من العظمة قدراً يستطيع معه أن يؤديه، أو يتبرأ منه، وظل يأمل أن التعليم والتبعية التي ستلقى على عاتقه سيهذبان من طبعه ويغرسان فيه صفات الملوك. وأخذ الإمبراطور في عزله يهزل جسمه، ويطول شعر لحيته دون أن يعنى به، وتضعف عيناه من الهم والأرق، ويولي ظهره إلى زوجه وولده، ليعنى بشئون الحكم والحرب.

ولم تكن هجمات القبائل الضاربة في وسط أوروبا قد وقفت إلا إلى حين قصير، ولم تكن السلم في هذا الصراع القائم لتدمير الإمبراطورية وتحرير البرابرة إلا هدنة مؤقتة، ثم أقدم أنتشاتي في عام 169 على غزو الأقاليم الرومانية عند مجرى الرين الأعلى، وفي عام 170 هاجم أنتشوسي بلجيكا، وحاصرت قوة أخرى سرمزجتوسا، وعبر الكنتسبأي جبال البلقان وانقضوا على بلاد اليونان، ونهبوا هيكل الطقوس الخلفية في إلويس التي تبعد عن أثينة بأربعة عشر ميلاً، وغزا المغاربة أسبانيا من موطنهم في أفريقية، وظهرت لأول مرة على نهر الرين قبيلة جديدة تدعى اللنجباردي أو اللبارديين. وكان البرابرة المخصبون يزدادون في كل يوم قوة رغم ما منوا به من الهزائم الكثيرة، بينما كان الرومان العقيمون يزدادون في كل يوم

صفحة رقم : 3674

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

ضعفاً. ورأى ماركس أن الحرب وقتئذٍ حرب حياة أو موت، بهلك فيها أحد الطرفين عدوه أو يذل له. ولم يكن في وسع مخلوق أن يبذل نفسه تبديلاً تاماً من فيلسوف متصوف إلى قائد ناجح قدير إلا من نشأ نشأة رومانية عرف فيها معنى الواجب المقدس كما يفهمه الرواقيون. ولقد بقي الفيلسوف متخفياً تحت دروع الإمبراطور؛ فبينما كانت هذه الحرب الماركمانية الثانية (169-75) حامية الوطيس، وبينما كان ماركس في معسكره المواجه لقبائل القاديين على نهر جرننا Granna شرع يكتب ذلك الكتاب الصغير كتاب التأملات وهو أهم ما يذكره العالم به. وهذه اللوحة التي تكشف لنا عن قديس ضعيف غير معصوم من الزلل يقلب في ذهنه مشكلتي الأخلاق والأقدار، وهو يقود جحفاً عظيماً في صراع يقف على نتيجته مصير الإمبراطورية، نقول إن هذه اللوحة لهي صورة من أدق الصور التي حفظها الزمان لأعظم رجاله وأصدقها. لقد كان بطارد السرماتيين بالنهار ولكنه كان في وسعه أن يكتب عنهم بالليل كتابة من يعطف عليهم: "إن العنكبوت إذا أمسك بذبابه، ظن أنه أقدم على عمل عظيم، وكذلك يظن من صاد أرنباً... أو أسر السرماتيين... أليس هؤلاء جميعاً لصوصاً؟" (61).

ولكنه رغم هذا ظل يحارب السرماتيين Sarmatians، والمركمانيين، والقاديين، واليزجيين، حرباً عواناً دامت ست سنين طوا الأ، ذاق فيها الأمرين. ثم هزمهم، ودفع بفيالقه إلى الشمال حتى بلغت بوهميا. ويبدو أنه كان يبغى أن يجعل سلاسل جبال هرسينيا Hercynian والكربات الحدود الجديدة للإمبراطورية. ولو أنه نجح في تحقيق غرضه، لكان من المحتمل أن تجعل الحضارة الرومانية ألمانيا، كما جعلت غالة، لاتينية في لغتها، ويونانية في تراثها الثقافي، ولكنه روع وهو في أوج ظفره، إذ علم

صفحة رقم : 3675

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

أن أفديوس كاسيوس قد أعلن نفسه إمبراطوراً بعد أن أخذ ثورة شبتت في مصر. وأدهش ماركس البرابرة بأن عقد معهم صلحاً سريعاً، واكتفى بأن ضم إلى الإمبراطورية شريطاً من الأرض لا يزيد عرضه على عشرة أميال على الضفة الدانوب الشمالية، ووضع حاميات قوية على الضفة الشمالية. ثم جمع جنوده، وأخبرهم أنه يسره أن يترك مكانه لأفديوس إذا رغبت رومة في ذلك، ووعد أن يعفو عن القائد المتمرد، ثم سار إلى أسية ليواجهه. وحدث في تلك الأثناء أن اغتال كاسيوس ضابط صغير، وخدمت على أثر مقتله نار الثورة. واخترق ماركس أسية الصغرى وسوريا، وجاء إلى الإسكندرية، وحزن كما حزن قيصر لأنه لم تتح له فرصة يظهر فيها رحمته. وكان وهو في أزمير، والإسكندرية، وأثينة يمشي في الشوارع بلا حرس، ويلبس عباءة الفلاسفة، ويستمتع إلى محاضرات كبار الأساتذة، ويشترك معهم في المناقشات، ويتكلم اللغة اليونانية؛ وأنشأ وهو في أثينة أستاذية في كل مذهب من المذاهب الفلسفية الكبيرة. الأفلاطونية، والإرسطاطيلية، والرواقية، والأبيقورية.

ووصل أورليوس إلى رومة في خريف عام 176، بعد حرب دامت قرابة سبع سنين، واستقبل فيها بموكب نصر عظيم حى فيه بأنه منقذ الإمبراطورية. وأشرك كمودس معه في نصره، وأجلسه، وهو لا يزال غلاماً في الخامسة عشرة من عمره معه على العرش. وكانت هذه هي المرة الأولى منذ قرن من الزمان التي لم يراع فيها مبدأ التبني، والتي عاد فيها مبدأ الوراثة. ولم يكن ماركس يجهل الخطر الذي سيحيق بالإمبراطورية من جرّاء فعلته هذه، لكنه فعل ما فعل لأنه رأى أن يختار ضرراً أخف من ضرر الحرب الأهلية التي يخشى أن يخوض كمودس وأصدقائه غمارها إذا حرمه من العرش. وليس من حقنا أن نحكم عليه بعد أن عرفنا عاقبة فعلته، كما أن رومة لم تكن تتوقع عواقب هذا الحب الأبوي، ذلك أنها كانت قد نسيت فتك الوباء بأهلها، وأخذ أبنائها يذوقون طعم السعادة من جديد، يضاف إلى هذا أن العاصمة لم تقاس إلا القليل من ويلات الحرب التي

صفحة رقم : 3676

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الملوك الفلاسفة -> الفيلسوف إمبراطور

دبر لها ما يلزمها من المال تدبيراً روعي فيه الاقتصاد الشديد، ولم يفرض عليها فيه إلا القليل الذي لا يستحق الذكر من الضرائب الإضافية؛ وبينما كانت نار الحرب مشتعلة عند الحدود، كانت التجارة رائجة في داخل المدينة، وكان رنين النقود يسمع في كل مكان فيها، لقد بلغت رومة في ذلك الوقت أوج عزها، وبلغ حب الشعب للإمبراطورية غايته، وحياء العالم كله، وكان في نظره جندياً، وحكيماً، وقديساً في وقت واحد. ولكنه لم يندع بهذا النصر المؤزر، فقد كان يعرف أن مشكلة ألمانيا لم تحل بعد. وكان على ثقة من أن الإمبراطورية لن تستطيع صد الغزوات في المستقبل إلا إذا اتبعت سياسة نشيطة دفعت بها حدودها إلى جبال بوهيميا. ولذلك أقدم كمودس في عام 178 على الحرب المرمكانية الثالثة، واجتاز نهر الدانوب وهزم القاديين مرة أخرى بعد حملة طويلة قاسية، لم يلق بعدها مقاومة، وأوشك أن يضم إلى الإمبراطورية بلاد القاديين، والمركمانيين، والسرمانيين (وهي بوجه التقريب بوهيميا وغاليسيا المجاورة لنهر الدانوب)، ويجعلها ولايات جديدة تابعة للإمبراطورية. ولكن المرض انتابه وهو في معسكره في فندوبونا Vindobona (فيينا). ولما أحس بدنو أجله، دعا كمودس إلى جانبه، وأنذره أن

يوصل السير على الخطة التي أوشكت أن تثمر ثمرتها، ويحقق حلم أغسطس، ويدفع حدود الإمبراطورية إلى نهر الإلب . ثم امتنع عن الطعام والشراب، ومررت به وهو على هذه الحال خمسة أيام، وفي اليوم لسادس استجمع آخر ما كان عنده من قوة، ووقف على قدميه، وقدم كمودس للجيش على أنه الإمبراطور الجديد. ثم عاد إلى فراشه، وغطى رأسه بملاءة الفرش، وأسلم الروح بعد قليل. وقبل أن يصل جثمانه إلى رومة، كان أهلها قد عبوه واتخذوه إلهاً رضى أن يعيش على الأرض زمناً قصيراً.

صفحة رقم : 3677

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> تاسنيس

الباب العشرون

الحياة والفكر في القرن الثاني

192-96 م

الفصل الأول

تاسنيس

لقد حررت سياسة نيرفا وتراجان عقل رومة المكبوت، وبعثت في أدب عهديهما روح التمرد الشديد على الطغيان الذي ولى ولكنه قد يعود إلى سابق عهده. ولقد عبر بلني في تفریطه عن هذا الشعور بترحيبه بأول الأباطرة الثلاثة حين جلس على العرش؛ وقلما كان جوفنال يتغنى بشيء آخر غير مديحهم، ولم يكن لتاسنيس أنبه المؤرخين من عمل إلا التتديد بالأيام الخوالي، والتشنيق بقلمه على ذلك القرن من الزمان.

ولسنا نعرف متى ولد تاستس أو أين ولد، بل إننا لا نعرف إسمه الأول؛ وأكبر الظن إنه كان ابن كورنليس تاستس الذي وكل إليه الإشراف على إيرادات الإمبراطورية، في غالة البلجيكية. وبفضل ما ناله هذا الرجل من الرقي في المناصب الحكومية، ارتفعت الأسرة من طبقة الفرسان إلى طبقة الأرسقراطية الجديدة. وأول حقيقة مؤكدة عن هذا المؤرخ هي قوله: "اتفق أجر كولا في عام قنصليته (78)... على أن يزوجني ابنته، التي كانت بلا ريب تتطلع إلى صلة أرقى من هذه" (2) وكان قد

صفحة رقم : 3678

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> تاستس

تلقي ما يتلقاه الناس عادةً من تعليم، وأتقن الفنون الخطابية التي يتجمل أسلوبه ذات بهجو ورواء، وحقق طريقة إيراد الحجج المؤيدة والمعارضة التي يمتاز بها ما في تواريخه من خطب. وكثيراً ما استمع إليه بلني الأصغر في المحاكم، وأعجب بفصاحته وألفاظه الجزلة وسماه أعظم خطباء رومة (3). وعُيّن تاستس بريطوراً في عام 88، وأصبح من ذلك الوقت عضواً في مجلس الشيوخ. وجدير بالذكر أنه يعترف على نفسه ذلك الاعتراف المخجل وهو أنه عجز عن مقاومة الاستبداد، وأنه انضم إلى الشيوخ الذين حكموا على زملائهم ضحايا دومتيان. ثم عينه نيرفا قنصلاً (97)، وعينه تراجان والياً على أسية. وما من شك في أنه كان خبيراً بشئون الإدارة، وأنه كان ذا تجارب عملية. ولقد كانت كتبه ثمرة تجارب حياته السابقة، ونتاج شيخوخته الخالية من الكد وعقله الناضج العميق. وتسري في هذه الكتب كلها روح واحدة. هي كراهيته للأرسقراطية؛ فنراه في حوار ه عن الخطباء (إذا كان هذا كتابه بحق) يعزو اضمحلال البلاغة إلى ما أصيبت به الحرية من قمع، كما تراه في كتابه "الأجر كولا" Agricola - وهو أكمل تلك الرسائل ذات الموضوع الواحد التي قصر الأقدمون عليها السير - يروي بفخر وخيلاء ما قام به حموه، وهو قائد وحاكم، من جلائل الأعمال؛ ثم يقص في حقد وضغينة كيف فصله دومتيان من عمله وأهمله. ويبين في مقاله القصير عن مركز الألمان وأصلهم الفرق بين فضائل الشعب الحر المنبعثة عن الرجولة وبين انحلال الرومان وجبنهم في عهد الطغاة المستبدين. وتاستس حين يثني على الألمان لأنهم يرون قتل الأطفال جريمة جريمة تجلل مقترفاها العار، ولا يعلنون من شأن العقم، لا يمدح الألمان في واقع الأمر بل يندد بالرومان. وهكذا نرى الهدف الفلسفي يفسد موضوعية

صفحة رقم : 3679

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> تاستس

البحث، ولكنه يدل على إتساع أفق الموظف الروماني الذي يمتدح قدرة الألمان على مقاومة رومة .

وكان نجاح هذه المقالات مما أغرى تاستس على أن يوضح مساويء الاستبداد ببيان جرائم الطغاة المستبدين بتفصيل خال من الرحمة. وقد بدأ عمله هذا بإيراد الجرائم التي كانت ر تزال حاضرة في ذاكرته، والجرائم التي يشهد بها كبار السن من أصدقائه- وهي التي وقعت في الفترة المحصورة بين عهد جلبيا وموت دومتيان. ولما أن أقرت الأرستقراطية الشاكرة هذه التواريخ ووصفتها بأنها خير ما كتب في التاريخ من بعد ليفي Livy واصل قصته بأن وصف في الحوليات Annales حكم تيبيريوس، وكليولا، وكلوديوس، ونيرون. وقد بقيت لنا من الأربعين (أو الثلاثين في قول بعضهم) "كتاباً" من كتب التواريخ أربعة كتب ونصف كتاب، وكلها مقصورة على أحداث السنين 69، 70 م؛ وأما الحوليات فقد بقي منها إثنا عشر كتاباً، وكانت عدتها في الأصل ستة عشر أو ثمانية عشر. وهذه الكتب حتى في هذه الصورة المبتورة تعد أقوى ما كتب في النثر الروماني؛ وفي وسعنا أن نرسم منها صورة غير واضحة لعظمة الكتابين كليهما وأثرهما في النفس. وكان تاستس يأمل أن يؤرخ أيضاً حكم أغسطس، ونيروفا، وتراجان، وأن يخفف من كآبة ما نشر من مؤلفاته بتخليد ذكرى سياسة هؤلاء الأباطرة الإنشائية. ولكن الأجل لم يمهل، وحكم عليه الخلف، كما حكم هو على الماضي، بأن نظر إليه من الناحية القائمة دون غيرها.

ويرى تاستس أن "أهم ما يجب على المؤلف هو أن يحكم على أعمال الناس حتى ينال الطبيب من هذه الأعمال ثواب الفضيلة، وحتى يكون ما توجهه محكمة الخلف إلى أعمال السوء من ذم وتقريع حائلاً بين المواطنين وبين سيء

صفحة رقم : 3680

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> تاستس

الأعمال" (6). ألا ما أعجب هذا الرأي الذي يجعل التاريخ يوم حساب، ويجعل المؤرخ إليها يحاسب الناس على أعمالهم. وإذا ما فهم التاريخ هذا الفهم استحال إلى مواظب- أعني دروساً في الأخلاق وسيلتها ضرب أشد الأمثال رهبة- وأصبح كما يفترض تاستس خاضعاً لعلم البيان. إن من السهل على من يغضب أن يكون فصيحاً بليغاً، ولكن ليس من السهل عليه أن يكون عادلاً نزيهاً؛ ولهذا وجب ألا يقدم العالم الأخلاقي على كتابة التاريخ. ولقد كان تاستس قريب العهد بالمستبدين يحتفظ في ذاكرته بصورتهم، وهذا في حد ذاته يحول بينه وبين نظره إليهم في هدوء. ومن أجل هذا لم ير من أعمال أغسطس إلا قضاءه على الحرية، وظن أن كل ما كان للرومان من عبقرية قد قضى عليه يوم أكتوبوم (7). ويبدو أنه لم يخطر بباله أن يخفف من حدة التهم التي يوجهها إلى الأباطرة، بذكر براعتهم الإدارية، ورخاء الولايات في عهد أولئك الطغاة الجبابرة. وما من أحد يقرأ تواريخه ثم يخطر بباله أن رومة كانت إمبراطورية كما كانت مدينة. وليس يبيد أن "الكتب" التي ضاعت، كانت تلقي نظرة على الولايات وعالمها، أما الكتب الباقية فهي تجعل تاستس مرشداً مقررأ، لا يكذب قط ولكنه لا يسجل الحقيقة مطلقاً. وكثيراً ما يفتبس من المصادر التي يرجع إليها، سواء كانت هذه المصادر كتب تاريخ أو خطباً، أو رسائل، أو أوامر يومية، أو قرارات مجلس الشيوخ، أو أخبار الأسر القديمة؛ وتراه أحياناً يبحثها بحث الناقد الخبير. غير أنه لم يسمع في معظم الأحوال إلا قصص النبلاء المضطهدين، وهو لا يتصور قط أن حوادث إعدام الشيوخ وإغتيال الأباطرة لم تكن إلا أحداثاً عارضة في صراع طويل بين الملوك الفاسدين، القساة، الكفاة القادرين، وبين

صفحة رقم : 3681

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> تاستس

أرستقراطية منحلّة، فاسدة، قاسية، عاجزة. وهو يفتتن بالشخصيات والحوادث البارزة، أكثر من إفتتانه بالقوى العاملة، والعلل، والأفكار، والتطورات؛ ويرسم أنبه الشخصيات وأكثرها ظلماً في التاريخ، ولكنه لا يدرك قط أثر العوامل الإقتصادية في الحوادث السياسية؛ ولا يهتم مطلقاً بحياة الناس وصناعاتهم، ولا بتيار التجارة، أو أحوال الناس العلمية، ولا بمنزلة المرأة، ولا بتقلب العقائد الدينية، ولا بروائع الأدب أو الفلسفة أو الفن. وفي كتب تاستس نرى سنكاً، ولو كان، وبترنيوس يموتون، ولكنهم لا يكتبون، ونرى الأباطرة يقتلون الخلق ولكنهم لا يشيدون. ولعل هذا المؤرخ الكبير كان مقيداً برغبات قرائه وسامعيه، وأكبر الظن أنه كان يقرأ أجزاء من كتبه. كما جرت به عادة ذلك الوقت. إلى أصدقائه الأشراف الذين يقول عنهم بلني إنهم كانوا يحتشدون لأستقباله؛ ولعله إذا سئل عن سبب إغفاله ما أغفل قال إن أولئك الرجال والنساء كانوا يعرفون الحياة الرومانية، وأحوال الصناعة، والأدب، والفن، وإنهم لذلك لم يكونوا في حاجة لم يكونوا في حاجة إلى من يذكرهم بها، وإن ما كانوا يحتاجون إلى سماعه مراراً وتكراراً هو قصة هؤلاء الأباطرة الأشرار المثيرة للشعور، وما كان يقوم به الشيوخ الصابرون من أعمال البطولة، وكفاح تذبذبه طبقتهم النبيلة ضد السلطة الغاشمة. وليس من حقنا أن نأخذ تاستس بما لم يقدم عليه، وكل ما من حقنا أن نفعله أن نأسف لضيق هدفه السامي وللقيود التي فرضها على عقله الجبار.

وهو لا يدعي قط أنه فيلسوف، ولذلك تراه ينتهي على أم أجركولا حين تحاول أن تنتهي عن الاشتغال بالفلسفة ولداها "الذي أصبح أشد تحمساً للفلسفة مما هو خليق بالروماني عضو الشيوخ(8)". ولقد كان خياله وفنه. كما كان خيال شيكسبير وفنه. أنشط وأكثر إبداعاً من أن يسمح له بأن يفكر وهو هاديء في معنى الحياة وإمكانيتها. وهو يكثر من ذكر الفضائح التي يعوزها التثبت والتحقيق كما يكثر من ذكر الشروح والتعليقات التي توضح

صفحة رقم : 3682

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> تاستس

الحوادث وتثيرها، ولكننا يصعب علينا أن نجد في كتبه فكرة منسقة ثابتة عن الله، أو الإنسان، أو الدولة. فهو غامض غموض الحذر حين يكتب عن العقائد الدينية، ويوحى بأن من يقبل دين بلاده أعظم حكمة ممن يحاول أن يستبدل به العلم والمعرفة. وهو لا يصدق معظم المنجمين، والعرفان، ولا يؤمن بالفأل ولا بالطيرة، ولا بالمعجزات، وإن كان يصدق بعضها. ذلك أن ظرفه وكما أدبه بحولان بينه وبين إنكار ما يؤكد الكثير من الناس. ويقول إن الحوادث تنزع بوجه عام إلى إثبات "أن الآلهة لا تهتم بالأخبار أكثر من إهتمامها بالأشهرار" (10)، ويؤمن بوجود قوة مجهولة، وقد تكون قوة متقلبة الأطوار والميول، تدفع الناس والدول إلى مصائرهما دفعاً لا حول لها أمامه ولا طول (11). وهو يأمل أن يكون أجركولا قد انتقل إلى حياة سعيدة، ولكن يتضح من أقواله أنه يشك في هذا؛ وهو يقنع بأخر ما تخادع به العقول الكبيرة نفسها. خلود الشهرة الطيبة(12).

وهو لا يواسي نفسه بشيء من الآمال الطوبوية؛ وفي ذلك يقول: "إن الكثرة الغالبة من خطط الإصلاح يعنتقها الناس في بداية الأمر بحماسة وغيره، ولكن سرعان ما تبلى جدتها، وتنتهي مشروعاتها إلى لا شيء" (14). وهو يعترف كارهاً بأن الأمور في أيامه خير مما كانت قبل، وإن كان هذا الخير قصير الأجل، ولكنه يرى أن لا شيء، حتى عبقرية تراجان نفسه، ستمنع عودة التدهور والإضمحلال (15)، وذلك لأن رومة قد استشرى فيها الفساد، حتى سرى إلى قلوب الناس، ففسدت نفوس الجماهير وبدلوا الحرية فوضى(16)، وأصبحوا رعاماً "مولعين بكل ما هو جديد،

تتوق نفوسهم إلى التغيير، وهم على استعداد دائم لأن ينحازوا إلى جانب الأقوياء" (17). وهو يرثي إلى ما ينطوي عليه العقل البشري من خبث (18)، ويهزأ كما يهزأ جوفنال بالعناصر الأجنبية من سكان رومة. وهو لا يفكر قط في العودة إلى الجمهورية بعد أن سوأ سمعة الإمبراطورية، ولكنه يرجو أن يتمكن الأباطرة من التوفيق بين الزعامة

صفحة رقم : 3683

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> تاستس

والحرية (19). وهو يظن في آخر الأمر أن الأخلاق أعظم أهمية من الحكومة، وأن عظمة الشعب لا تقاس بما لديه من قوانين بل تقاس بما فيه من رجال. وإذا كنا لا نجد مناصاً من أن نضع تاستس في مصاف أعظم المؤرخين، رغم ما يثير دهشتنا من أننا نجد مواضع ومسرحيات حيث كنا نبحث عن التاريخ، فما ذلك إلا لأن قوة فنه تعوضه عن ضيق نظرتة. فنظرتة قوية، وأحياناً عميقة، وهي دائماً واضحة، والصور التي يرسمها أكثر وضوحاً، وهي حين تخطو على مسرح التاريخ أكثر حيوية من أية صور أخرى في الأدب التاريخي. على أن هذه الصور نفسها لا تخلو من نقائص وعيوب. فتاستس يؤلف من عنده خطباً لشخصياته المختلفة ويؤلفها كلها بطريقته الخاصة وينثره الفخم. فهو يصف جلباً بالبلاهة ثم ينطقه بما ينطق به الحكماء (20). وهو لا يرقى إلى ذلك الفن الصعب الذي يمكنه من أن يجعل شخصياته تنمو وتكمل على مر الأيام؛ فتببير يوس مثلاً في بداية حكمه هو بعينه تيبيريوس في آخره، وإذا كان يبدو إنساناً رحيماً في البداية، فإن ذلك في رأي تاستس نفاق وخداع. وأهم ما يمتاز به تاستس هو روعة أسلوبه، فلسنا نجد كاتباً غيره قد قال كل ما قاله بمثل إحكامه. ولسنا نقصد من هذا أن عبارته كانت موجزة فهو على عكس هذا مسهب كثير الاستطراد، يشغل 400 صفحة من تواريخه لتدوين حوادث عامين اثنين. وتراه أحياناً يفرط في التركيز حتى يبلغ حد التكلف أو الغموض، وحتى تتطلب كل كلمة ثانية جملة تترجم بها؛ وكأن الأفعال وحروف العطف عنده ليست إلا عكازات للعقول الكليية. وهذا الأسلوب هو النتيجة التي أدى إليها أسلوب سالست Sallust الموجز السريع، ونكات سنكا القصيرة المحكمة، والجمل القصيرة المترنة التي كانت تعلم في مدارس البلاغة. وهو أسلوب، إذا كتب به كتاب طويل، ولم تتخلله فقرات أكثر من فقراته اعتدالاً، يثير عقل القارئ وينهكه، ولكنه مع ذلك يعود إليه ويزداد به

صفحة رقم : 3684

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> تاستس

افتناناً. وهذا الجفاف العسكري الذي يقتصد في الألفاظ أكثر مما يقتصد في الرجال، وهذا الازدراء بدعامات الجمل، وهذه المشاعر الثائرة، وهذا الوضوح في التصور، وهذا السيل الجارف من المفردات الجديدة، وهذه العبارات اللاذعة

القائلة التي لم تبل جدتها، هذه كلها تضيفي على كتابات تاستس سرعة، ولوناً، وقوة، لم يضارعه فيها كاتب آخر من الكتاب الأقدمين. نعم إن اللون قاتم، والمزاج نكد، والسخرية لاذعة، والنغمة كلها نغمة دانتي مجردة من رفته وحنوه؛ غير أن الأثر الذي ينتج من هذا كله قوي عارم. وإن العنصر القصصي الذي يجمع بين المهابة والإثارة، والجزالة والعنف، ليحملنا على الرغم من تحفظنا وتمنعنا في هذا النهر العكر الأسود المليء بالتشنيع الخالي من الرأفة. فترى شخصية في أثر شخصية تظهر على مسرح الحوادث؛ ثم يقضى عليها؛ ومظهراً في أثر مظهر يدفع أمامنا حتى يبدو لنا أن رومة كلها قد دمرت، وأن كل من اشتركوا في الصراع قد هلكوا، وحتى لا نكاد نصدق حين نخرج من هذا الجو المليء بالرعب والهول، أن هذا العهد الاستبدادي المفعم بالجبن والفساد الخلقي قد أعقبه مجد الملكية أيام هدرين والأنطونيين، وتأدب أصدقاء بلني الهادي.

ولقد أخطأ تاستس في ازدرائه الفلسفة- ونعني بها مراعاة التناسب في كتابته. وإن عيوبه كلها لترجع إلى هذا النقص. ولو أنه استطاع أن يهذب قلمه، ويسيطر عليه، ويسخره لخدمة عقله الواسع، لوضع اسمه في مقدمة أسماء أولئك الرجال الذين بذلوا جهودهم ليخلدوا تراث البشرية، ويصوروا هذا التراث في صورة حية خالدة.

صفحة رقم : 3685

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> جوفنال

الفصل الثاني

جوفنال

ومما يؤسف له أن جوفنال يؤيد تاستس ويعزز أقواله. فالذي يكتبه ثانيهما عن الزعماء والشيوخ في نشر حاد نافذ في الصميم، ينشده أو لاهما عن النساء والرجال في شعر لاذع قارص.

كان دسيمس جونيوس جوفنالس Decimus Junius Juvenalis ابن أحد المعاتيق الأثرياء. وقد ولد في أكوينم Aquinum من أعمال لاتيوم Latium في عام 59. وجاء إلى رومة يطلب العلم، وأخذ يمارس في صناعة المحاماه "البيتسلي بها". وتدل أشعاره الهجائية على ما ينتاب الأذواق الريفية من دهشة وصدمة إذا ما إنتقت بصخب حياة المدن المنحلة. ولكن يبدو مع هذا أنه كان صديقاً لمارتيال، الذي تدل فكاهاته على أنه لم يكن من دعاة الأخلاق الفاضلة.

وتقول إحدى الروايات غير الموثوق بصحتها إن جوفنال ألف قبل موت دومتيان بزمان قليل قصيدة هجائية فيما للراقصات من أثر في البلاط ووزعها على أصدقائه، ويقال إن باريس الممثل الهزلي الصامت أغضبه هذا فسعى يعمل على نفيه إلى مصر. ولسنا نستطيع أن نجزم بصحة هذه القصة، كما أننا لسنا واثقين من تاريخ عودة جوفنال إلى رومة. ومهما يكن من أمر فإنه لم ينشر شيئاً حتى مات دومتيان. وقد ظهر المجلد الأول من قصائده الهجائية الست عشرة في عام 101، ثم ظهر الباقي منها في أربعة مجلدات على فترات متقطعة في أثناء حياته الطويلة، وأكبر الظن أنها كانت ذكريات من عهد دومتيان الذي لم يعف الشاعر عما لحقه من أذى فيه، ولكن الحقد وهو السبب في وضوحها وقوتها وارتيابنا في صدقها ليوحى بأن سني "الأباطرة الصالحين" القليلة لم تمح المساوىء التي يندد بها. أو لعله

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> جوفنال

قد اختار الهجاء لأنه من الأساليب التي تميز الرومان من غيرهم من الشعوب. وأنه وجد أمثلة يحتذيها، ومادة يقتبسها في كتابات لوسليوس، وهوراس، وبرسيوس؛ وصاغ سخطه وغضبه على أساس المباديء البيانية التي تعلمها في المدرسة. والحق أنا لا نعرف مقدار التقدم الذي خلعه على الصورة التي في ذهننا عن رومة الإمبراطورية، وما كان يجده الكتاب والشعراء من لذة في التشهير والسباب.

ويتخذ جوفنال كل شيء موضوعاً لشعره. وهو لا يجد قط مشقة في أن يجد في كل شيء ناحية تتحمل الدم، ويظن "أنا قد وصلنا إلى الدرجة القصوى في الرذيلة، وأن من يأتون بعدنا لن يستطيعوا أن يتفوقوا فيها علينا" وهو صادق في هذا. ولقد كان أصل البلاء كله طلب الثروة بجميع الوسائل الطيب منها والخبيث. وهو يسخر من العالمة الذين كانوا في الأيام الخالية يحكمون الجيوش ويخلعون الملوك، ولكنهم أضحوا الآن يُشترى بالخيز والألعاب (23). وتلك عبارات من مئات العبارات التي خلدها جوفنال بقوته وحيويته. وهو يستنكر ذلك السيل المتدفق من الوجوه، والثياب، والأساليب، والروائح، والآلهة الشرقية؛ ويحتج على نزعة اليهود القبلية، وأقل من يحبه من الخلق هو "اليوناني القميء الشره" وهو السلالة المنحطة لشعب كان من قبل عظيماً ولكنه لم يكن قط شريفاً. وهو يظهر اشمزازه من المخبرين، أشباه رجيس Regulus الذي يصفه بلني، والذين يثرون بنقل ما ينطق به الأفراد من عبارات "غير وطنية"؛ ومن الذين يجرون وراء الوصايا فيحومون حول من لا أبناء لهم من الطاعنين في السن؛ ومن حكام الولايات الذين يعيشون طول حياتهم عيشة الترف بما يبتزونه من الأموال في أثناء حكمهم؛ ومن المحامين النابهين الذين يطيلون القضايا كما يطيل العنكبوت نسيجه الذي يبرزه من بطنه؛ وأشد ما يعافه هو الإفراط في الصلات الجنسية والشذوذ الجنسي: الخليع المتهتك الذي إذا تزوج وجد أن عهده قد جعله ضعيفاً عاجزاً؛ ومن الشبان المنافقين الذين لا نستطيع أن نميزهم من النساء لتشبههم بهن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> جوفنال

في أخلاقهم، وتعطروهم، وشهواتهم؛ ومن النساء اللاتي يعتقدن أن معنى التحرر أن يتشبهن في كل شيء بالرجال حتى لا تستطيع تمييزهن منهم.

وقد خص الجنس اللطيف بقصيدته الهجائية السادسة وهي أشد قصائده صرامة. نرى فيها بستيوس Postumus يفكر في الزواج، فيحذره جوفنال من التورط في هذا العمل، ثم يصور الشاعر نساء رومة ويصفهن بأنهن أنانيات، سليات، مخرفات، مسرفات، كثيرات الشجار، متعجرفات، مغرورات، محبات للنزاع، زانيات، لا يكدن يتزوجن

حتى يظن، ويستبدل الكلاب المدللة بالأطفال" (24). ويخلص من هذا الوصف إلا أنه لا تكاد توجد في رومة كلها امرأة خليقة بأن تكون زوجة. ويقول إن الزوجة الصالحة عصفور نادر، أندر من الغراب الأبيض. ويدهشه أن يستموس يفكر في الزواج على حين أن هناك "حبالاً كثيرة للشنق، ونوافذ كثيرة عالية شاهقة يستطاع الوصول إليها؛ وعلى حين إن جسر إيميلْيوس لا يبعد عنه إلا قليلاً". حذار أن تتزوج، بل إبق عزباً، وأخرج من مستشفى المجانين الذي يحطم الأعصاب والذي يسمونه رومة، وعش في بلدة إيطالية هادئة، تلتقي فيها برجال أشرف، وتأمين فيها على نفسك من المجرمين والشعراء، والمباني المنهارة، واليونان (27). وأطرح المطامع وراء ظهرك، فإن الهدف لا يستأهل ما يبذل في الوصول إليه من جهود. ألا ما أطول الجهد، وما أقصر ما يعقبه من صيت. عش عيشة بسيطة، وازرع حديقتك، ولا تطلب أكثر مما يسد رمفك، وبطفيء ظمأك، ويرد عنك البرد والحر (28). وعود نفسك الرأفة، وأشفق على الأطفال، وكن ذا عقل سليم في جسم صحيح (29). والأبله وحده هو الذي يرجو طول الأجل. وليس من العسير علينا أن نفهم هذا المزاج. ذلك أن مما يسر له الإنسان أن يفكر في نقائص جيرانه وفي ضعة العالم وحقارته إذا قورن بأحلامنا. وإن مما يضاعف سرورنا ونحن نفكر هذا التفكير أن نرى هذه الآراء

صفحة رقم : 3688

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> جوفنال

مصوغة في ألفاظ جوفنال التي جمعها من أسنة الغوغاء في أزقة المدن وأشعاره السلسة السداسية الأوتاد، وفكاهته الساخرة، وأسلوبه البذيء. ولكن ليس من حقنا أن نأخذ بحرفية أقواله. لقد كان يكتب وهو غاضب، لأنه لم يشق طريقه في رومة بالسرعة التي كان يرجوها. وكان يحلو له أن يثار لنفسه بأن يكيل الضربات قوية لكل من حوله مدفوعاً إلى ذلك بحفده الذي لم يدع في يوم من الأيام أنه حقد عادل. لقد كان معياره الخلقي عالياً وسليماً وإن كان قد لوثته أهواء المتحفظين وأراؤهم الخائنة عن الماضي الطاهر الشريف. وفي وسعنا إذا استمسكنا بهذه المعايير، واتبعناها في غير رحمة واعتدال، أن ندين أي جيل من الناس في أي مكان. وقد أدرك سنكا قدم هذا اللهو فكتب يقول: "لقد كان أسلافنا يشكون، ولا نزال نحن نشكو، وسيظل أبناؤنا وأحفادنا يشكون، من فساد الأخلاق، ومن تمكن الشر من النفوس، ومن تردي الناس في مهاوي الخطايا كل يوم أكثر من الذي قبله، ومن أحوال الناس تنتقل من سيء إلى أسوأ منه (30). إن من وراء الفساد الخلقي الظاهر في كل مجتمع دائرة من الحياة السليمة يتسع نطاقها إتساعاً مستمراً ويكفي ما فيها من خيوط التقاليد، وأوامر الدين التي تحض على الخلق الصالح، وما تقرضه الأسرة من واجبات إقتصادية، وما تدفع إليه الغريزة من حب الأبناء والعناية بأمرهم، وما للمرأة ورجال الشرطة من رقابة، يكفي ما فيها من هذا كله لأن يجعلنا أمام الناس مؤدبين محتشمين عاقلين معتدلين. لقد كان جوفنال أعظم الهجانين الرومان، كما كان تاستس أعظم المؤرخين الرومان، ولكننا نخطيء إذا أخذنا الصورة التي يرسمانها على أنها صورة صحيحة، كما نخطئ إذا قبلنا من غير بحث وتمحيص المنظر الراقي الجذاب الجميل الذي يتراءى أمامنا ونحن نقرأ رسائل بلني.

صفحة رقم : 3689

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> سيد روماني كامل

الفصل الثالث

سيد روماني كامل

لما ولد في كومو Como سمي بلينيوس كاسيليوس سكندس Plinius Caecilius Secundus. وكان لأبيه ضيعة وقصر صغير ذو حديقة قرب البحيرة، وكان يشغل منصباً كبيراً في المدينة. وتيمّم وهو صغير فتبناه وعلمه أولاً فرجينوس روفس Virginius Rufus وإلى ألمانيا العليا، ثم عمه كيبوس بلينيوس سكندس Caius Plinius Secundus مؤلف كتاب التاريخ الطبيعي. وتبنى هذا العالم المجد ابن أخيه وأورثه ملكه ثم مات بعد ذلك بقليل. وتسمى الولد باسم متبنيه كما جرت به العادة في تلك الأيام، وأدى ذلك إلى ارتباك في الأسماء ظل قائماً ألفي عام. وتلقى العلم في رومة على كونتليان، فنشأه على تذوق شيشرون، وإليه يرجع بعض الفضل في أسلوب بلني الشيشروني السلس. ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره قيد في جدول المحامين، وفي التاسعة والثلاثين اختير لإلقاء خطاب ترحيب بتراجان. وفي السنة نفسها عيّن قنصلاً؛ وفي عام 103 عيّن عرّافاً؛ وفي عام 105 عيّن "حارساً على مجرى التيرير وضفتيه وعلى مجاري المدينة". ولم يكن يأخذ أجراً أو هدايا على أعماله القضائية، ولكنه كان واسع الثراء، في وسعه أن يكون كريماً عظيماً. وكانت له أملاك في إتروريا، وبنفنتم، وكومو، ولورنتم، وعرض ثلاثة ملايين سسترس ثمناً لملك آخر (31).

وكان يفعل ما يفعله كثيرون من أشرف ذلك الوقت فيتسلى بالكتابة: كتب أولاً مأساة يونانية، ثم عدة قصائد، كلها خفيفة الروح، وبديئة في بعض الأحيان. ولما للامه بعضهم على هذا اعترف بخطئه ولكنه لم يرجع عنه، وعرض مرة أخرى أن "يندفع في تيار المرح، والفكاهة واللهو،

صفحة رقم : 3690

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> سيد روماني كامل

ويندمج في روح أشد أنواع الأدب خلاعة وفجوراً" (32). ولما سمع الناس يثنون على رسائله، ألف بعضها لينشر، ونشرها في فترات متقطعة بين عامي 97، 109. وإذ لم يكن ينشر هذه الرسائل للجمهور فحسب، بل كان يقصد أيضاً أن تستمتع بها الأوساط التي يصفها فيها، فقد تجنب وصف النواحي القاتمة من الحياة الرومانية، وأغفل المسائل الفلسفية والسياسية الواسعة لأن فيها من الجد أكثر مما يتفق مع غرضه. وتتحصر قيمة هذه الرسائل في صدقها وظرفها، وفيما تضفيه الخلق الروماني وعلى أساليب الأشرف من أضواء وردية براقية.

ويكشف بلني عن نفسه بنصف الصراحة التي يكشف بها عن نفسه منتاني وبكل ما في كتابات منتاني من سلاسة التعبير. وهو يتصف بالغرور الذي يستطيع أي مؤلف أن يتحاشاه، ولكن صراحته في غروره هذا تجعله غروراً لا يكاد يسيء. انظر مثلاً إلى قوله: "إني لأعترف ألا شيء أقوى أثراً في من الرغبة في أن يخلد اسمي" (33). وهو يقدر

غيره كما يقدر نفسه، ويقول إن "في وسع الإنسان أن يثق بأن شخصاً ما يتصف بكثير من الفضائل إذا سمعه يعجب بفضائل غيره" (34). ومهما تكن عيوب بلني فإن مما يستريح له الإنسان بعد دراسة جوفنال وناستس، أن يستمع إلى مؤلف يثني على بني جنسه. ولقد كان كريماً في أعماله كما كان كريماً في أقواله، لا يتردد قط في أن يفعل المعروف، ويقرض المال، أو يقدم الهدايا، ولا يرضن بعمل الخيرات على إختلاف أنواعها، سواء كانت شخصية كالبحث عن زوج لأبنة أخ صديق، أو زيادة ثروة المدينة التي ولد فيها. ولما وجد أن كورنتليان عاجز عن أن يقدم لأبنته باننة تليق بمقام الرجل الذي ستتزوج به، بعث إليها بخمسين ألف سسترس، واعتذر في الوقت نفسه عن حقارة الهدية (35). ووهب رقيقاً قديماً له في الدراسة ثلثمائة ألف سسترس، ليتمكن من أن ينضم إلى طبقة الفرسان؛ ولما وجد أن إبنة صديق له حُمّلت بعد موت أبيها بديون باهظة أداها كلها عنها، وأقرض مبلغاً كبيراً إلى

صفحة رقم : 3691

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> سيد روماني كامل

فيلسوف نفاه دومتيان وتعرض بذلك لبعض الخطر. ووهب كومو هيكلأ، ومدرسة ثانوية، ومعهداً للأطفال الفقراء، وحمّاماً للبلدية، وأحد عشر ألف سسترس لإنشاء مكتبة عامة. وأكثر ما يسر له الإنسان من صفاته هو حبه لموطنه، أو إن شئت فقل لموطنه، وهو لا يذم رومة، ولكنه يكون أسعد حالاً في كومو أو لورنتم بالقرب من البحيرة أو البحر. وأهم ما كان يعمل هناك هو القراءة وعدم القيام بعمل ما. وهو يحب حدائقه، وما وراءها من المناظر الجبلية؛ ولم يكن عليه أن ينتظر روسو ليعلمه حب الطبيعة. وهو يتحدث بمنتهى الحنان عن زوجته الثالثة كلبيرنيا Calpurnia فيصف طبعها الحلو، وعقلها الصافي، وابتهاجاً بنجاحه، وحبها لكتبه، ويعتقد أنها قد قرأتها كلها وأنها تحفظ الكثير من صحائفها عن ظهر قلب. وقد أحنّت قصائده وغنتها، وكان لها قصة خاصة من الرسل يأتونها بجميع ما يحدث من التطورات أثناء نظره في قضية هامة. ولم تكن هي إلا واحدة من نساء كثيرات طبيبات في محيطه. فهو يحدثنا عما تتصف به في الفتاة الرابعة عشرة من عمرها من تواضع، وصبر، وشجاعة. وكانت هذه الفتاة قد خطبت من وقت قصير ولكنها ما لبثت أن عرفت أنها مصابة بداء عضال لا تشفى منه، فأخذت تنتظر منيتها وهي مبتهجة (36). ويحدثنا كذلك عن زوجة بمبيوس سترنينس Pompeius Saturninus التي كانت رسائلها لزوجها أناشيد حب ونماذج باللغة اللاتينية الظريفة (37)؛ وعن فانيا Fannia إبنة ثرازيا Thrasaea التي قاست آلام النفي دون أن تشكو أو تتلمل لأنها دافعت عن زوجها هلفديوس، والتي مرضت قريباً لها في أثناء إصابته بمرض خطر، فأصيبت بذلك المرض وقضى على حياتها؛ ثم يقول فيها: "ألا ما أكمل فضائلها، وطهرها، واستقامتها، وشجاعته!" (38). وكان له مائة صديق، بعضهم من العظماء، وكلهم من خيار الناس، وقد

صفحة رقم : 3692

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> سيد روماني كامل

انضم إلى تاستس في محاكمة ماريوس برسكس لخيائته وقسوته في أثناء ولايته على أفريقية. وصحح كلا الخطيبين خطبة صاحبه، وأثنى عليه أجمل الثناء. وأشاد تاستس بلني ورفع إلى عنان السماء، حين قال إن عالم الأدب اعترف بهما زيمي الكتاب في عصرهما (39). وكان يعرف مارتيا، ولكنه يعرف من بعيد معرفة الأرسطو. واستصحب معه ستونيوس إلى بيثينيا، وساعده على التمتع بميزة من "له ثلاثة أبناء" دون أن يكون له ابن واحد. وكان محيطه يطن بهواة الأدب والموسيقى، وبمن ينشدون الشعر ويلقون الخطب على الجماهير. وفي ذلك يقول العالم بواسييه Boissier: "لست أعرف أن الأدب كان يحبه الناس في عصر من العصور بالقدر الذي كان يحبه به أهل ذلك العصر" (40). فقد كانوا يدرسون هومر وفرجيل على ضفاف الدانوب؛ وكانت البلاغة تزلزل نهري الرين والريمز. لقد كان النصف الأعلى من ذلك المجتمع ظريفاً، أنيساً، محبوباً، غنياً بما فيه من أزواج متحابين، وأباء عاطفين، وسادة رحماء، وأصدقاء أوفياء، ومجاملات لطيفة. وقد جاء في إحدى الرسائل: "إني أقبل دعوتك للعشاء، ولكنني أشرط عليك مقدماً أن تأذن لي بالخروج بعد قليل، وأن تكون مقتصداً فيما تقدمه إلي، وألا تجعل مائدتنا تزدحم إلا بالأحاديث الفلسفية، وحتى هذه دعنا نستمتع بها في نطاق محدد" (42). وكان أكثر الرجال الذين يصفهم بلني من الأشراف الجدد الذين نشأوا في الولايات. ولم يكن هؤلاء ممن لا يقومون بعمل، لأنك لا تكاد تجد واحداً منهم لا يشغل منصباً عاماً أو لا يشترك في الإدارة البارعة التي كانت تدير شؤون الإمبراطورية في عهد تراجان. وقد عُيِّن بلني نفسه والياً على بيثينيا بعد أن كان بريطوراً في رومة ليعيد إلى بعض مدنها مقدراتها على أداء ديونها. وتشمل رسائله بعض الأسئلة الموجهة إلى الزعيم، ومعها إجابات

صفحة رقم : 3693

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> سيد روماني كامل

تراجان السديدة. وهي تظهره بلني بمظهر الرجل الذي ينجز مهمته بمقدرة وأمانة، وشرف، وإن كانت تظهره أيضاً بمظهر الرجل الذي يعتمد على نصيحة الإمبراطور في كل صغيرة وكبيرة. وهو يرجو الإمبراطور في رسالته الأخيرة أن يغفر له إرساله زوجته المريضة في عربات البريد الإمبراطوري. ويختفي بلني بعد هذه الرسالة من ميدان الأدب والتاريخ، تاركاً وراءه ما يعوضنا عن فقدته - صورة الروماني السميذع، لإيطاليا في أسعد أيامها.

صفحة رقم : 3694

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> اضمحلال الثقافة

لو أننا أحطنا هذه الشخصيات البارزة بأضواء أقل من أضوائها لطمسناها وأخفيناها عن أعين الناظرين. ذلك بأنه لم يخلفها في الآداب اللاتينية الوثنية جبايرة أمثالها، لأن العقل قد بذل كل ما كان يدخره من جهد من عهد إنيوس إلى عهد تاسنس حتى لم يبق لديه جهد مدخر. ولهذا فإننا نصدم أكبر صدمة حين ننقل من عظمة كتابي التاريخ والحواليات إلى كتاب ستونيوس المزري المسمى حياة الرجال النابهين (110). ففي هذا الكتاب ينحط التاريخ حتى يصبح مجرد سير، وتنحط السير حتى تصير قصصاً. وتمتلئ صفحات الكتاب بالندر، والمعجزات، والخرافات. ولم يرفع الكتاب إلى منزلة الكتب الأدبية إلا الأسلوب الإليصاباتي الذي ترجمه به فليمون هليند Philemon Holland (1606). وأقل من هذا إثارة للاشمئزاز الانحدار من رسائل بلني إلى رسائل فرننتو. ولعل هذه الرسائل الأخيرة لم يكن يقصد نشرها، وليس من العدل لهذا السبب أن نفاضل بينها وبين رسائل بلني. لكننا يجدر بنا أن نقول إن بعضها قد أفسده جرى الكاتب وراء العبارات العنيفة، وإن كان في الكثير منها شيء من العطف الحقيقي الذي يشعر به المعلم نحو تلميذه. وقد أيد أولس جليوس Aulus Gellius حركة الرجوع إلى العبارات العنيفة في كتابه الليالي الأتكية (169)- وهو أكبر مجموعة من السخافات الحقيرة التافهة في الأدب القديم؛ ووصل أبوليوس Apuleius بهذه الحركة إلى غايتها في كتابه المسمى الحمار الذهبي. وقد جاء أبوليوس وفرننتو من أفريقية وربما كان من أسباب نشأة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> اضمحلال الثقافة

هذه الهواية أن الأدب اللاتيني في تلك البلاد لم يكن قد اختلف عن لغة الشعب والجمهورية بقدر اختلافه عن هذه اللغة في رومة. وكان فرننتو قوي الاعتقاد بأن من الواجب أن يفوق الأدب بلغة الشعب، كما يجدد الإنسان قوة النبات بتقليب الأرض عند جذوره. لكن الشباب لا يعود قط إلى حياة الرجل، أو الأمة، أو الأدب أو اللغة. لقد كانت النزعة الشرقية قد بدأت تدب في هذه الكتب، ولم يكن من المستطاع وقف سيرها. وكانت اللغة اليونانية العامية المنتشرة في الشرق الهلنستي ورومة المستشرقة تصبح شيئاً فشيئاً لغة الأدب، ولغة الحياة جميعاً. وقد اختارها تلميذ فرننتو ليكتب بها تأملاته، وكما اختار أبيان Appian، وهو يوناني اسكندري اتخذ رومة موطناً له، اللغة اليونانية ليكتب بها كتابه الواضح الساطع في تواريخ حروب رومة (حوالي 160)؛ وكذلك فعل كلوديوس إيليان Claudius Aelian. وهو رجل روماني المولد والدم، وكتب ديوكاسيوس، وهو رجل روماني من أعضاء مجلس الشيوخ، بعد نصف قرن من ذلك الوقت، تاريخاً لرومة باللغة اليونانية. ذلك أن زعامة الأدب قد أخذت وقتئذ تعود من رومة إلى الشرق اليوناني، على أن هذه العودة لم تكن عودة إلى الروح اليونانية الأصيلة، بل إلى الروح الشرقية، وإن كانت تستخدم اللغة اليونانية. لقد وجد في الأدب اليوناني بعد هذا الوقت جبايرة، ولكنهم كانوا قديسين مسيحيين. وكان اضمحلال الفن الروماني أبطأ من اضمحلال الآداب اليونانية. ذلك أن الكفاية الفنية قد طال عهدها وأخرجت طائفة قديرة من المباني، والتماثيل، والصور، والفسيفساء. ومن أمثلة تحف ذلك العصر رأس نيرفا المحفوظ في

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> اضمحلال الثقافة

الفاتيكان، والذي يتمثل فيه الطابع الواقعي الواضح الذي نشاهده في الصور الفلافية؛ وعمود تراجان مثل من النقوش الرائعة رغم كثرة ما فيه من فجاجة. ولقد بذل هدریان جهوداً مضنية لأحياء الفن اليوناني القديم، ولكنه لم يجد من يصدق عليه ماله وعونه كما أغدق بركليز المال والعون على فدياس. يضاف إلى هذا أن الإلهام الذي كان يحرك بلاد اليونان بعد مرثون، ويحرك رومة بعد أكتيوم، كان معدوماً في عصر يكيل فيه الناس أنفسهم بالقيود، ويصطنعون القناعة ويجنحون للسلم. ومن أجل هذا نرى تماثيل هدریان النصفية تعوزها الصفات المميزة لشخصيته لما فيها من خطوط هلنستية ملساء؛ ورأساً بلوتينياً وسابينا جميلتان، ولكن النفس تشتمز من صور أنثينوس لما فيها من تقاهة مخنثة ناعمة. وأكبر الظن أن هدریان قد أخطأ إذ حاول العودة إلى الفن اليوناني القديم: فقد قضى بهذه المحاولة على ما كان يمتاز به فن النحت الغلافي والتراجاني من نزعة طبيعية وفردية دافعة قوية، كانت لها جذور متأصلة في التقاليد والأخلاق الإيطالية، وما من شك في أن شيئاً ما لا يستطيع أن يتضح إلا عن طريق تحقيق طبيعته الخاصة به. وقفز فن النحت اليوناني إلى قرب ذروته في عهد الأنطونيين، بل إنه وصل في هذا العهد إلى درجة الكمال مرة واحدة على الأقل، وذلك في صورة فتاة مثل فيها رأسها المقنع وثيابها المتواضعة تمثيلاً رقيقاً ساحراً، وبخطوط غاية في القوة (43). وتكاد تضارعها في الجمال صورة فوستينا لماركس، وهي التي تثير من الشهوة ما يتفق مع لمزات التاريخ. وقد نحتت لأورليوس نفسه أو صبت له تماثيل لا تقل أشكالها عن ألف شكل تختلف من تماثيل الكبتول النصفية الذي يمثله شاباً مفكراً سليماً من المكر والخداع ولكنه

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> اضمحلال الثقافة

شديد الحساسية، إلى تماثله في هذه المجموعة نفسها والذي يمثله في صورة أستاذ ذي شعر ملتو ودروع سابعة. وليس ثمة سائح يجهل تمثال الإمبراطور أورليوس الفارس ذلك التمثال البرنزي الفخم الذي يشرف، من يوم أعاده ميكل أنجلو، على ساحة الكبتول. وبقي النقش البارز إلى آخر العهود فناً رومانياً محبوباً. وعادت في أيام هدریان العادة التस्कانية والهلنستية، عادة حفر المناظر الاسطورية والتاريخية على التوابيت حين اتخذ الأمل في الخلود صورة شخصية بل صورة جسمية، وحل دفن جنث الموتى محل إحراقها. وتظهر إحدى عشرة لوحة باقية من أقواس النصر التي أقيمت لتخليد ذكرى حروب أورليوس الطراز الطبيعي في أكمل أشكاله: فليس في هذه اللوحات صورة واحدة لشخص قد رسم على أنه مثل أعلى للأشخاص، بل إن لكل فرد فيها خصائصه الفردية التي يمتاز بها من غيره، فصورة ماركس وهو يستقبل في غير

فخر أو كبرياء خضوع أعدائه المغلوبين صورة يستثير صاحبها الحب، والمغلوبون لا يظهرون كأنهم برابرة همج بل يبدون في صورة رجال خليقين بكفاحهم الطويل في سبيل حريتهم. وقد أقام مجلس الشيوخ والشعب في عام 174 عمود أورليوس الذي لا يزال يزين الساحة التي يقيم فيها، وقد استلهم من أقاموه فكرته من عمود تراجان، فصوروا فيه الحروب المرمكانية وأظهروا في فنهم هذا من العطف ما يشرف الغالبين والمغلوبين على السواء. وكانت روح الإمبراطور هي التي ساعدت على تشكيل فن هذا الوقت وأخلاقه. ذلك أن الألعاب في أيامه كانت أقل قسوة، وأن القوانين كانت أكثر رعاية للضعفاء، وكان الزواج فيما يبدو أدوم وأرضى للزوجين. نعم إن الفساد الخلقي قد بقي كما كان في كل العهود، تجهر به القلة، وتخفيه الكثرة، ولكنه كان قد جاوز غايته في عهد نيرون، ولم يعد هو طراز الوقت

صفحة رقم : 3698

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> اضمحلال الثقافة

المحبيب، وأخذ الرجال والنساء يعودون إلى الدين القديم، أو يهبون أنفسهم لأديان جديدة، ووافقهم الفلاسفة على هذا وذلك. وغصت رومة وقتئذٍ بأولئك الفلاسفة، فمنهم من دعاهم أورليوس، ومنهم من رحب بمجيبهم، ومنهم من سمح لهم بالإقامة. وقد أفادوا كل الإفادة من كرمه وسلطانه، فازدحم بهم بلاطه، ونالوا منه المناصب والهبات، وألقوا ما لا يحصى من المحاضرات، وافتتحوا كثيراً من المدارس، ووهبوا العالم في شخص تلميذهم الإمبراطور مجد الفلسفة القديمة وانحلالها.

صفحة رقم : 3699

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> الإمبراطور الفيلسوف

الفصل الخامس

الإمبراطور الفيلسوف

جلس ماركس أورليوس في خيمته قبل موته بست سنين ليصوغ أفكاره عن الحياة البشرية ومصيرها. ولسنا واثقين من أن كتابه المسي "إلى نفس" كان يقصد به أن تطلع عليه أعين الجماهير، ولكننا نرجح أن هذا كان قصده لأن الناس جميعاً، حتى القديسين، لا يسلمون من الغرور، ولأن أعظم رجل عامل مجد تمر به لحظات من الضعف يتمنى فيها أن يكتب كتاباً. ولم يكن ماركس مؤلفاً قديراً، وقد أضاع معظم ما علمه إياه فرننتو من اللغة اللاتينية لأنه أخذ يكتب باللغة اليونانية. هذا إلى أن تلك "الأفكار الذهبية" قد كتبت في الفترات التي تتخلل أسفاره، وحروبها، وما كان يقع في البلاد من فتن واضطرابات كثيرة. وليس لنا أن نلومه لأنه جعلها منقطعة غير منسجمة، ولأنه يعمد فيها إلى التكرار الكثير، ولأنها في بعض الأحيان مسئمة مملّة، ولأن قيمة الكتاب لا تعتمد إلا على محتوياته - على رفته وصراحته، وعلى ما يكشفه دون وعي كامل منه عن نفسية تجمع بين الوثنية والمسيحية، وبين العصر القديم والعصر الوسيط.

وكان أورليوس يرى كما ترى كثرة فلاسفة زمانه أن الفلسفة ليست وصفاً نظرياً للنهاية، بل هي مدرسة لتعليم الفضيلة وطريقة للحياة. ولما كان يشغل باله في البحث عن حقيقة الله، وتراه يتحدث أحياناً كما يتحدث اللا أدريون، فيعترف أنه لا يعرف، ولكنه بعد أن يقر على نفسه هذا الإقرار يقبل دين آباءه وأجداده بتقوى الرجل الساذج، ويسأل نفسه قائلاً: "وماذا يعود على من حياتي في عالم خالٍ من الآلهة ومن قوة تصرف شئونه؟" (44) وكان إذا

صفحة رقم : 3700

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> الإمبراطور الفيلسوف

تحدث عن الله تحدث عنه تارةً بصيغة المفرد وتارةً بصيغة الجمع، وفي حديثه كل ما في سفر التكوين من عدم مبالاة. وهو يصلي ويقرب القرابين للآلهة القدامى، ولكنه في خبيثة نفسه يؤمن بألوهية الكون، ويتأثر أشد التأثير بنظام العالم وكلمة الله فيه، وهو يحس كما يحس الهنود باعتماد العالم والإنسان كل منهما على الآخر. ويثير عجبه نمو الطفل من بذرة صغيرة، لا تلبث أن تتشكل فتكون لها أعضاء، وقوة، وعقل، وأمان، وكل ذلك بقليل من الطعام (45). ويعتقد أننا لو استطعنا أن نفهم الكون على حقيقته لوجدنا فيه كل ما في الإنسان وقوة خالقة مبدعة ويقول: "إن الأشياء جميعها متشابكة بعضها ببعض، والرابطة التي بينها رابطة مقدسة.... وفي الأشياء العاقلة كلها عقل مشترك، وثمة إله واحد يسري في كل شيء، ومادة واحدة، وقانون واحد، وحقيقة واحدة... وهل يمكن أن يكون فيك أنت نظام واضح، وفي الكون كله اضطراب واختلال؟" (46).

وهو يعترف بما يجده الإنسان من صعوبة في التوفيق بين الشر والألم والشقاء الذي يبدو أن الإنسان لا يستحقه، وبين وجود قوة مدبرة خيرة، ولكنه يعقب على هذا بقوله إننا لا نستطيع أن نحكم على موضع عنصر أو حادثة في نظام الأشياء إلا إذا رأينا هذه الأشياء كلها، ومنذا الذي يدعي أنه أوتي القدرة على أن ينظر إلى الأشياء هذه النظرة الجامعة؟ يدرك علاقتها بعضها ببعض؟ ولهذا كان من السخف والوقاحة أن نحكم على العالم؛ وإنما تكون الحكمة في الاعتراف بعجزنا وفي العمل على أن نكون أجزاء متناسقة مع النظام العام للكون، وأن نحاول أن نستشف ما وراء جسم العالم من عقل، وأن نتعاون معه راضين مختارين. ومتى أدرك الإنسان هذه الفكرة أدرك أن "العدل في كل ما يحدث" أي أنه يحدث وفقاً لمنهج الطبيعة (47)، ولا يمكن أن يكون شيء يحدث وفقاً لمنهج الطبيعة شراً (48). وكل شيء طبيعي جميل في نظر من يفهم (49)؛ وكل شيء يفرره العقل العالمي العام أي المنطق الكامن في جميع الأشياء، وعلى كل جزء أن يرحب،

صفحة رقم : 3701

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> الإمبراطور الفيلسوف

في رضاء وابتهاج، بنصيبه المتواضع وبمصيره. "والايزان" (وهو الذي أوصى به أنطونينس ساعة وفاته) هو أن يقبل الإنسان طائعاً مختاراً كل ما تحدده طبيعة المجموع كله" (50).
"كل ما يوائمني يوائمك أيها الكون، وليس شيء يحدث في الوقت الذي يناسبك يحدث لي مبكراً عن موعده أو متأخراً عنه. وكل شيء تأتي به فصولك أيها الطبيعة ثمرة ناضجة لي، كل الأشياء تصدر منك، وكل الأشياء مستقرة فيك، وكل الأشياء عائدة إليك" (51).
وكل ما للمعرفة من قيمة أنها أداة للحياة الصالحة. "وما الذي يرشد الإنسان ويهديه إذن؟ لا شيء إلا الفلسفة" (52)-
على أن لا تكون منطقاً أو علماً، بل تدريباً على السمو الخلقي دائماً متصلاً "كن مستقيماً وإلا فلنقوم" (53). ولقد وهب الله الإنسان ديموناً أو روحاً داخلية- هي عقله. والفضيلة هي حياة العقل.
"تلك هي مبادئ النفس العاقلة، وهي تسري في الكون كله، وتشرف على شكله، وتمتد إلى الأبدية، وتحتضن التجدد الدوري لجميع الأشياء، وتترك أن من سيخلفوننا لن يروا شيئاً جديداً، وأن من سبقونا لم يروا أكثر مما رأينا، بل إن من في الأربعين من عمره، إذا كان لديه شيء من الإدراك، قد رأى بطريقة ما، وبفضل هذه الوحدة المتناسقة، كل ما كان وما سيكون" (54).
ويرى ماركس أم مقدماته تضطره إلى أن يكون من المتمزتين وهو يقول: "ليست اللذة طيبة أو نافعة" (55). وهو ينبذ الجسم وكل أعماله ويتحدث أحياناً كما يتحدث ماركس أنطونبوس.
"ألا فانظروا إلى حقارة الأشياء وسرعة فناؤها؛ إن ما كان بالأمس قطعة صغيرة، سيصبح غداً جثة أو رماداً.... وما أكثر شقاء الجسم الذي يجتازها به!... قلبها ظهراً لبطن تر أية حياة هي (56). والعقل في رأيه يجب أن يكون

صفحة رقم : 3702

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> الإمبراطور الفيلسوف

حصناً محرراً من الشهوات الجسمية، والغضب، والحقد؛ ويجب أن يكون منهمكاً في عمله انهماكاً لا يكاد يلاحظ معه تقلبات الحظوظ أو سهام العداوات. "إن قيمة كل إنسان تعدل بالضبط قيمة ما يشغل به نفسه من الأشياء" (57). وهو يسلم كارهاً بأن في هذا العالم أشراراً، ويقول إن الطريقة التي يجب أن يتبعها الإنسان معهم هي أن يذكر أنهم أيضاً رجال، وأنهم الضحايا العاجزون لأخطائهم التي ارتكبوها مدفوعين بجبرية الحوادث والظروف (58). "وإذا أساء إليك إنسان، فالضرر واقع عليه، ومن واجبك أن تعفو عنه" (59). وإذا أحزنك وجود الأشرار من الناس، ففكر في العدد الكثير من الأخيار الذين إنقبت بهم، وفيما يمتزج في الأخلاق غير الكاملة من فضائل كثيرة (60). والناس كلهم إخوة، أختياراً كانوا أو أشراراً، وكلهم أبناء الله ينتسبون إليه، والهمجي البشع نفسه مواطن في الوطن العام الذي ننتمي كلنا له. "فأنا بوصفي أورليوس تكون رومة وطني، وبوصفي رجلاً يكون وطني هو العالم كله" (61). ترى هل هذه فلسفة خيالية غير عملية؟ كلا، إن الأمر على عكس هذا تماماً ولا شيء أقوى أو أشد متعة من الفطرة الطيبة، إذا لازمها الاخلاص (62). إن الرجل الصالح حقاً لا تؤثر فيه مصائب الدهر، ومهما يصيبه من الشر لا يسلبه نفسه:

"هل هذا (الشر) الذي أصابك يمنعك أن تكون عادلاً، كريماً، معتدلاً، حصيف الرأي... متواضعاً، حراً؟... ولنفرض أن الناس قد لعنوك، أو قتلوك، أو مزقوك إرباً! فماذا تستطيع هذه الأشياء أن تفعل لتمنع عقلك أن يبقى طاهراً، حكيماً، متزنأً، عادلاً؟ وإذا وقف الإنسان بجوار نبع رائق صاف ولعنه، فإن النبع لا يقف عن إرسال الماء النظيف، وإذا دنه أو رمى فيه الأقدار، فسرعان ما يلقي بها إلى خارجها ولا يتدنس بها مرةً أخرى... ولا تنس كلما أصابتك كارثة أن تطبق هذا المبدأ القائل: إن ذلك ليس شقاء حل بك، بل إن الصبر عليه صبر الكرام هو

صفحة رقم : 3703

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> الإمبراطور الفيلسوف

السعادة بعينها... ألا ما أقل الأشياء التي إذا حصل عليها الإنسان استطاع أن يحيا حياة هادئة مطمئنة تشبه حياة الأرباب(63)".
بيد أن حياة ماركس لم تكن تتصف بالهدوء؛ فلقد اضطر أن يقتل الألمان وهو يكتب هذا "الانجيل الخامس"، وأن يلقي الموت آخر الأمر دون أن يجد عزاء في الابن الذي سيخلفه، وألا يكون له أمل في أن يحظى بالسعادة بعد مماته، لأن النفس والجسم على السواء، على حد قوله، يعودان إلى عناصرهما الأولى:
"فكما أن تبدل الأجسام وانحائها، يفسحان المكان لأجسام أخرى كتب عليها الموت، فكذاك تتبدل الأرواح التي تنتقل إلى الهواء وتتبدد... وتتوزع في عقل العالم الأصلي وتخلي مكانها إلى أرواح جديدة(64)... لقد وجدت أنت بوصفك جزءاً من كل... وسوف تقنى في ذلك الذي أخرجك... وهذا أيضاً هو ما تريده الطبيعة... فاجتز إذن هذه الفترة القصيرة من الزمن حتى تصل هادئاً إلى الطبيعة، واختم رحلتك وأنت راض، وليكن مثلك كمثل حبة الزيتون تسقط حين تنضج، وتبارك الطبيعة التي أخرجتها، ونثني على الشجرة التي حملتها(65)".

صفحة رقم : 3704

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> كمودس

الفصل السادس

كمودس

ولما أقبل ضابط الحرس يسأل ماركس وهو على فراش الموت عن كلمة السر لذلك اليوم أجابه بقوله: "إذهب إلى الشمس المشرقة؛ أما شمسي فهي غاربة". وكانت الشمس المشرقة وقتئذ في التاسعة عشرة من العمر، وكانت هي فتى متين البنية قوي الجسم، جريئاً، لا يصده شيء عما يريد، وليس له وازع من خلق أو خوف. ولقد كان الإنسان يتوقع أن يرى فيه أكثر مما يرى في ماركس، القديس العليل، وأن يراه أكثر مما يراه ماركس ينهج سياسة الحرب إلى النصر أو الموت. لكن الذي حدث أنه عرض من فوره الصلح إلى الأعداء. وكان ما عرضه من الشروط أن ينسحبوا من الأراضي المجاورة لنهر الدانوب، وأن يسلموا معظم أسلحتهم، ويعيدوا جميع الأسرى والفارين من الرومان، وأن يؤدوا إلى رومة جزية سنوية من الحبوب، وأن يقتنعوا ثلاثة عشر ألفاً من جنودهم بالتطوع في الفيالق الرومانية (66). ولأمنه رومة كلها على فعلته هذه ما عدا الشعب. فأما قواده فقد استشاطوا غضباً لأنه سمح للفريسة الواقعة في الشرك أن تفلت منه لتقاتلهم مرة أخرى. على أن قبائل أراضي الدانوب لم تسبب قط متاعب للإمبراطورية في عهد كمودس. والحق أن الزعيم الشاب، وإن لم يكن جباناً خوار العود، كان قد شهد كفايته من الحروب، وكان في حاجة إلى السلم ليستمتع بالحياة في رومة. فلما عاد إلى عاصمة ملكه انتهر مجلس الشيوخ، وأثقل العامة بالعطايا التي لم يعهدوا مثلها من قبل- فوهب كل مواطن 725 ديناراً. ولما لم يجد في السياسة ميداناً يظهر فيه شدة بأسه عمد إلى صيد الوحوش في الضياع الإمبراطورية، وبرع

صفحة رقم : 3705

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> كمودس

في استعمال السيف والقوسبراعة اعترم معها أن يظهرها أمام الجماهير. فغادر القصر وعاش في مدرسة المجالدين فترة من الزمان، وأخذ يسوق المركبات في مباريات السباق، ويصارع الحيوانات والرجال في المجتلد (67). ولا حاجة إلى القول بأن من كانوا يتبارون معه كانوا يحرصون على أن يكون هو الفائز؛ ولكنه لم يكن يبالي أن يخرج بمفرده قبل الفطور ليقاتل فرس نهر، أو فيلاً، أو نمراً لا يعبأ قط بالملوك (68). وقد بلغ من إتقانه الرماية أن استطاع في استعراض واحد قتل مائة نمر بمائة سهم. فكان يترك النمر يهاجم مجرماً من المحكوم عليهم بالإعدام. ثم يرميه بسهم فيقتله، ويترك الرجل سليماً يواجه الموت مرة أخرى (69). وقد أمر أن تسجل هذه الأعمال المجيدة في صحيفة الحوادث اليومية، وأصر على أن يؤدي إليه من خزانة الدولة أجر على كل صراع من الألف الصراع التي قام بها. ولقد كان المؤرخون أمثال تاسيتس، اللذين لا بد لنا من الرجوع إليهم في هذا الموضوع، ينظرون إلى هذه الأعمال بعين الأشراف الحانقين، ويحكمون عليها حسب تقاليدهم؛ ولهذا فإننا لا نعرف كم من العجائب التي يروونها تاريخ صحيح، وكم منها أملت الرغبة في التشهير به والثأر منه. فهم يؤكدون لنا أن كمودس كان يسكر ويقامر، ويبيد أموال الدولة، وأن في حريمه ثلثمائة امرأة وثلثمائة غلام، وأنه يحلو له أن يكون امرأة في بعض الأحيان، أو في القليل أن يلبس ثياب النساء حتى في الألعاب العامة نفسها. وقد روي لنا عنه قصصاً من القسوة لا يقبلها عقل. فيقولون مثلاً إن كمودس أمر أحد كهنة بلونا Bellona أن يبتر ذراعه ليبرهن بقطعها على تقواه، وإنه أرغم بعض النساء اللاتي نذرن أنفسهن لخدمة إيزيس أن يضربن صدورهن بثمار البلوط المخروطية حتى يمتن، وإنه كان يقتل الرجال بلا تمييز بينهم بهراوة هرقل التي كان يمسكها بيده، وإنه جمع المقعدين وقتلهم بسهامه واحداً بعد واحد... (70) ويلوح أن إحدى عشيقاته كانت مسيحية، وأنه عفا من أجلها عن بعض المسيحيين الذين حكم عليهم بالعمل في مناجم سردينية.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> كمودس

ويوحى إخلاص هذه السيدة لكمودس بأن هذا الرجل، الذي كان أشد وحشية من الوحوش الضارية، لم يكن مجرداً من عناصر طيبة غفل عن ذكرها التاريخ.

وكان خوفه من الاغتيال يدفعه، كما كان يدفع أسلافه، إلى أقصى ضروب الوحشية. من ذلك أن عمته لوسلا Lucilla انتمرت به لتقتله، فلما كشف المؤامرة أمر بقتلها، كما أمر بقتل عدد كبير جداً من ذوي المقامات العالية، ثبت عليهم الاشتراك في المؤامرة أو حامت حولهم شبهة الاشتراك فيها. وقد بلغ من عدد القتلى أنه لم يكذب على قيد الحياة أحد من ذوي المكانة في أيام ماركس. وعاد المخبرون إلى نشاطهم ومكانتهم بعد أن كادوا يختفون من رومة قرناً كاملاً، وساد المدينة عهد جديد من عهود الارهاب. وعين كمودس برنيس Perennis رئيساً للحرس البريتوري وأسلمه أزمة الحكم ثم استسلم هو (على حد قول الرواة) إلى الفسق والفجور، وحكم برنيس البلاد حكماً حازماً ولكنه كان حكماً صارماً خالياً من الرحمة؛ فنظم حكماً للإرهاب قتل فيه جميع معارضيه. وظن الإمبراطور أن برنيس يعتزم اغتصاب العرش لنفسه، فأسلم هذا السيجانس الثاني إلى مجلس الشيوخ. وتورط المجلس نفسه في طائفة من أعمال الانتقام المتأجج الخالي من الرحمة. وخلف برنيس في رئاسة الحرس البريتوري معتوق يدعى كليندر (Cleander 185)، وبزه في الفساد والقسوة، فكان أي منصب من المناصب يناله من يؤدي نظيره رشوة طيبة، وكان من المستطاع إلغاء أي حكم تصدره أية محكمة والحصول على حكم يناقضه. وقد أعدم بأمره الشيوخ والفرسان بعد أن اتهموا بالخيانة أو بانتقاد أعماله، فلما ضاق الشعب به ذرعاً حاصر الغوغاء في عام 190 القصر الذي كان يقيم فيه كمودس وطلبوا إعدام كليندر. وأجابهم الإمبراطور

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> كمودس

إلى ما طلبوا، وعين ليتس Laetus بدلاً منه. وظل ليتس يصرف الأمور ثلاث سنين أيقن بعدها أن منيته قد دنت، فقد وقع في يده مصادفة ثبت بأسماء المحكوم بإعدامهم، وكان يحوي أسماء أنصاره وأصدقائه ومارسيا Marcia. فلما كان آخر يوم من عام 192 قدّمت مارسيا لكمودس كأساً من السم، ولما أبطأ مفعول السم، خنقه اللاعب الذي كان قد أبقاه في الحمام ليتأففه، وكان وقتئذ شاباً في الحادية والثلاثين من العمر.

ولنعد إلى الوراء قليلاً فنقول إن رومة حين مات ماركس كان قد بلغت أوج عظمتها وبدأت في الاضمحلال. فقد امتدت حدودها إلى ما وراء نهر الدانوب؛ ووصلت إلى إسكتلندة، والصحراء الكبرى، وجبال القوقاز، وروسيا، وأبواب بارثيا؛ وكانت قد وهبت هذا الخليط المضطرب من الشعوب والأديان وحده، إن لم تكن في اللغة والثقافة، فقد كانت في القليل وحده في الاقتصاد والتشريع. وقد صاغت منها مجموعة عظيمة من الأمم المرتبطة برباط واحد، وكان تبادل السلع يجري في داخلها حراً موفوراً بدرجة لم يكن لها نظير من قبل؛ وظلت قرنين من الزمان تصد البرابرة عن هذه الدولة العظيمة وتهبها الأمن والسلام. وكان عالم الجنس الأبيض ينظر إليها على أنها مركز العالم

كله، وأنها المدينة الخالدة القادرة على كل شيء. ولم يشهد العالم في عصر من العصور السابقة مثل ما شهده فيها من الثراء، والعظمة والسلطان. وفي وسط هذا الرخاء الذي كانت مظاهره تتألق في رومة خلال هذا القرن الثاني كانت تنبت جميع بذور الأزمات التي قضت على إيطاليا في القرن الثالث. وكانت لماركس اليد الطولى في خلق هذه الأزمات لأنه رشح كمودس للجلوس على العرش من بعده، ولأن ما خاضه من الحروب زاد السلطة تركيزاً في يدي الإمبراطور. فقد احتفظ كمودس في زمن السلم بالسلطات التي وضعها أورليوس في يده زمن الحرب. فذوي غصن الاستقلال الفردي والمحلي، والابتكار والأنفة

صفحة رقم : 3708

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> كمودس

بسبب نماء سلطان الدولة واتساع دائرة اختصاصها، ونضبت موارد ثروة الأمم بما فرض عليها من الضرائب التي أخذت أعباؤها تزداد زيادة مستمرة على مر الأيام، لكي تقاوم بها بيروقراطية تضاعف نفسها، وبسبب حروب العدوان التي ما فتئت الدولة تثير عجاجها للدفاع عن نفسها. وأخذت ثروة إيطاليا المعدنية تتناقص (7)، وقضت الأوبئة والمجاعات على الكثيرين من أهلها، وظهر عجز نظام الزراعة باستخدام الأرقاء، وأفقرت خزانة الدولة من الأموال وانحطت قيمة العملة بسبب الزيادة المطردة في نفقات الحكومة وفي إعانة العجزة والمساكين. وأخذت الصناعات الإيطالية تخسر أسواقها في الولايات لمنافسة الولايات نفسها لهذه الصناعة، ولم توضع قط سياسة اقتصادية حكيمة لتعوض البلاد عن التجارة الأجنبية الكاسدة بتوزيع قوة الشراء في داخل البلاد على نطاق أوسع من ذي قبل. وبينما كان هذا يحدث في إيطاليا نفسها كانت الولايات قد أخذت تفيق مما أصابها من جراء انتزاع ثروتها على أيدي صلا، وبمبي، وقيصر، وكاسيوس، وبروتس، وأنطونيوس؛ فعاد إليها حذقها القديم، وازدهرت صناعاتها، وأخذت ثروتها الجديدة تعين بالمال العلم والفلسفة والفن. وسد أبنائها ما حدث في الفيالق من فراغ، وعقدت أولوية هذه الفيالق للقواد من أهلها؛ وما لبثت جيوش الولايات أن وضعت إيطاليا تحت رحمتها وعينت قوادها أباطرة، وانقضى عهد الفتوح وانقلبت الآية وأخذ المغلوبون من ذلك الحين يبتلعون الغالبين. وكانما أدرك عقل رومة هذه النذر والمشاكل، فاستسلم في أواخر أيام الأنطونيين إلى عهد من الكلال الثقافي والروحي. وكان حرمان الجمعيات الشعبية أولاً ثم مجلس الشيوخ بعدئذ من سلطانها حرماناً يكاد أن يكون كاملاً قد ذهب بالحافز الذهني الذي ينبعث من النشاط السياسي الحر، ومن الشعور الواسع الانتشار بالحرية والسلطان. وإذا كانت السلطة كلها تقريباً قد تركزت في يد الزعيم فقد ألقى المواطنون عليه التبعة كلها تقريباً، فانزوى عدد متزايد

صفحة رقم : 3709

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الزعامة -> الحياة والفكر في القرن الثاني -> كمودس

منهم في أسرهم، وقصروا جهودهم على شؤونهم الخاصة؛ وأصبح المواطنون ذرات، وأخذ المجتمع يتمزق من داخله إرباً في الوقت الذي لاح فيه أن الوحدة على أتم ما تكون. وخاب رجاء الناس في الملكية، كما خاب رجأؤهم من قبل في الديمقراطية، وكثيراً ما كانت "أفكار" أورليوس "الذهبية" أفكاراً من الرصاص، يزيداً ثقلاً ظنه أن مشاكل رومة مستعصية على الحل، وأن البرابرة الذين يتضاعف عددهم بلا انقطاع لن تستطيع سلالة عظيمة جانحة إلى السلم أن تصمد لهم زمناً طويلاً. وأخذت الرواقية، التي بدأت عهداً بالدعوة إلى القوة، تدعو الآن إلى الاستسلام للمقادير، وعقد الفلاسفة كلهم تقريباً الصلح مع الدين. وبعد أن ظلت الطبقات العليا أربعمئة عام تتخذ الرواقية بديلاً من الدين، أطرحت هذه الطبقات الآن ذلك البديل، وأدارت الفئة الحاكمة ظهرها إلى الفلاسفة وولت وجهها شطر مذابح الآلهة. على أن الوثنية هي الأخرى كانت تلفظ آخر أنفاسها. فقد كانت كإيطاليا تنتعش بفضل المعونة الحكومية، فلما امتنعت عنها هذه المعونة أوشكت قواها أن تخور؛ لقد غلبت هي الفلسفة، ولكن أرباضها أخذت قبل ذلك العهد تستمع في خشوع إلى أسماء الآلهة الغازية. وكان هذا العصر عصر البعث للولايات والنصر المؤزر الذي يتجاوز حدود العقل للمسيحية.

صفحة رقم : 3710

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> المدن

الكتاب الرابع

الإمبراطورية

146ق.م. - 192 م

الباب الحادي والعشرون

إيطاليا

فلنقف قليلاً عند هذا المجد المزروع ونحاول أن ندرك أن الإمبراطورية كانت أعظم شأنًا من مدينة روما؛ ذلك أننا قد أطلقنا الوقوف عند هذا المنظر الباهر الذي استحوذ على عقول المؤرخين كما خلب ألباب سكان الولايات، لكن الواقع الذي لا مناص من الاعتراف به أن حيوية الدولة العظيمة لم يعد مقرها في عاصمتها الفاسدة المحترقة؛ بل إن ما بقي لهذه الدولة من قوة وحيوية، وكثيراً مما كان فيها من جمال، ومعظم ما كانت تحتويه من نشاط عقلي، إن هذا كله كان في الولايات وفي إيطاليا؛ ومن أجل هذا فلن نستطيع أن نكون لأنفسنا فكرة صحيحة عن روما، وعمّا قامت به من جلائل الأعمال في الإدارة والسلم، حتى نترك العاصمة نفسها ونطوف بالمدائن الألف التي كان يتكوّن منها العلم الروماني.

قال بلني الأكبر لما أن بدأ يصف إيطاليا: "ترى كيف أبدأ هذا العمل؟ ألا ما أكثر ما هنالك من بلدان! - ومنذا الذي يستطيع أن يحصيها كلها؟ وما أعظم شهرة كل بلد بمفرده!". لقد كان حول روما وجنوبها إقليم

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> المدن

لاتيوم، الذي كان في بادئ الأمر أمها، ثم صار عدوها، ثم جنة من الضواحي والقصور يقيم فيها الرومان أصحاب المال والذوق السليم، وكان إلى جنوب العاصمة وغربها نهر التمبر وطرق برية صالحة تربطها بالمرفأين المنافسين لها وهما يورترس Portus وأستيا على البحر الترهيني. وقد وصلت أستيا إلى أوج عزها في القرنين الثاني والثالث من التاريخ الميلادي، فكانت شوارعها غاصة بالتجار وصاندي السمك، ودور تمثيلها مزدحمة بهم. وكانت بيوتها ومساكنها ذات الشقق الكثيرة شبيهة كل الشبه بأمثالها في روما الحارة، وقد تحدث عنها سائح من فلورنس في القرن الخامس عشر حديث المعجب بثروتها وزينتها العظيمة. وتدل بعض الأعمال الباقية منها إلى اليوم، ويدل أحد المذابح البديع التصميم والذي نقشت عليه أزهار جميلة دقيقة، على أن سكانها التجار أنفسهم كانوا يدركون معنى الجمال الحق.

وكان إلى جنوبي أستيا على شاطئ البحر مدينة انتيوم Antium (أنزيو Onzio) حيث كان لأغنى الرومان، ولكثير من الأباطرة، وللحبيبين من الآلهة قصور وهايكل تمتد إلى شاطئ البحر الأبي لتستقبل ما يسري فيه من نسيم عليل. وقد وجدت في خرابئها التي تمتد نحو ثلاثة أميال، تماثيل ذات روعة وجمال، منها تماثيل المجالد البرغيزي وتمثال أبوا بلفادير. وبالقرب منهما أثر باق إلى اليوم كان يذكر "المواطنين العظام" الذين مضى عليهم الآن ثلاثة عشر قرناً من الزمان أنهم كانوا من عهد قريب يستمتعون برؤية أحد عشر مجالداً يموتون وهم يقاثلون عشرة دببة ضارية (2).

وكان إلى شماليها ومن وراء التلال الساحلية مدينة أكوينم مسقط رأس جوفنال وأربينم Arpinum التي كانت تفخر بإبنيتها ماريوس وشيشرون. وعلى بعد عشرين ميلاً من روما كانت تقوم مدينة برانستي Praeneste القديمة (بالسترينا القديمة Palestrina)، وكانت بيوتها الجميلة مشيدة على شرفات مدرجة على سفوح الجبل؛ وحدائقها

صفحة رقم : 3712

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> المدن

تشتهر بورودها، وقمة جبلها بتوجها هيكل ذائع الصيت للإلهة فورتونا بريمجينيا Fortuna Primigenia التي كانت تحيط النساء برعايتها وقت المخاض، وتنال منهن المال نظير ما تنطق به من النبوءات. وكانت تسوكيولم Tusculum التي تبعد عشرة أميال عن روما غنية مثلها بالحدائق والقصور، وفيها ولد كاتو الكبير، واحتفظ شيشرون بكتابه "المجادلات التسكيولانية"، وكانت أعظم ضواحي روما شهرة صاحبة تيبور (ترفولي) التي مد إليها هدريان قصره الريفي والتي قضت فيها زنوبيا ملكة تدمر سني أسرها.

وإلى شمال روما تقع إتروريا التي بُعثت في عهد الزعامة بعثاً جديداً متواضعاً، وفيها بلدة بروزيا Perusia التي خرب أغسطس معظمها وجدد بناء بعضها، وجمل فنانونه فيها قوساً تسكانيا قديماً وأنجبت أربيتوم Arretium ميسناس Maecenas وبعثت به إلى روما، وأخرجت خزفاً للعالم القديم، وكانت مدينة بيبي Pisa في ذلك الوقت قد عمرت طويلاً، وتغزو هذه المدينة اسمها ومنشأها إلى جماعة من المستعمرين اليونان جاؤوا من بيزا Pisa في البلوبونيز وكانوا يكسبون عيشهم فيها بنقل الخشب في نهر أرنس Arnus. وقامت على هذا النهر نفسه على مسافة من هذه المدينة في اتجاه منبعه مستعمرة رومانية ناشئة تدعى فلورنتيا Florentia، يندر وجود مثلها بين المدن لأنها في أغلب الظن لم تقدر مستقبلها حق قدره. وكان إلى الطرف الشمالي الغربي من أتورريا محاجر كررار Carrara التي كان ينقل أجمل رخام روما إلى ثغر لونا Luna ثم تحمله السفن إلى العاصمة. وكانت جنوبي من زمن بعيد هي المرفأ الذي تصدر منه غلات شمالي إيطاليا الغربي. ونسمع من زمن بعيد، أي من عام 209 ق.م، أن القرطاجيين قد دمروا تلك المدينة في حرب تجارية ضروس، وأنها دُمرت بعد

صفحة رقم : 3713

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> المدن

ذلك مراراً كثيرة ولكنها كانت في كل مرة تبعث بعثاً جديداً وتعود أكثر مما كانت رخاءاً وازدهاراً. وعند قاعدة جبال الألب كانت أوغستا تورنورم Augusta Taurinorum التي أنشأها الغاليون التورينيون Touurini Gauls، والتي جعلها أغسطس مستعمرة رومانية؛ وفي مقدور الإنسان أن يرى الآن أوصفتها ومجاريها القديمة تحت أرض شوارع تورين، وقد بقي فيها من أيام أغسطس باب ضخم يذكرنا بأن المدينة كانت في يوم من

الأيام حصناً يصد عن البلاد المغيرين عليها من الشمال. وهنا ينثني نهر بدوا (البو) الكسول الذي ينبع من جبال الألب الكنتية Cottian ويجري نحو الشرق مائتي وخمسين ميلاً، ويقسم الجزء الشمالي من إيطاليا قسمين كانا يعرفان في عهد الجمهورية بغالة ما قبل ألبو وغالة ما وراء ألبو. وكان وادي ألبو أخصب أقاليم شبه الجزيرة كلها، وأكثرها سكاناً، وأعظمها رخاءاً.

وكان - عند سفح جبال الألب تلك البحيرات العظيمة - فربانس Verbanus (مجبوري Maggiori)، ولاريوس Larius (كومو Como)، وبانكس Benacus (جاردا Garda)، التي كانت روعتها متعة العين والنفس لتلك الأجيال ولا تزال كذلك لنا نحن في هذه الأيام. وكان يبدأ من كومم، مدينة بلني الأصغر طريق تجاري رئيسي يتجه جنوباً إلى مديولانم Mediolanum (ميلان). وقد استقر الغاليون في هذه المدينة في القرن الخامس قبل الميلاد، ثم أضحت في أيام فرجيل من الحواضر الكبيرة والمراكز التعليمية الهامة، وقبل أن يحل عام 286 صارت عاصمة الإمبراطورية الغربية بدل روما. وكانت فيرونا وقتئذ تسيطر على التجارة التي تعبر ممر برنر Brenner؛ وقد بلغت من الثراء درجة أمكنتها من أن تنشئ لها مدرجاً (جدد حديثاً) يتسع لخمسة وعشرين ألفاً من النظارة. وقامت على نهر ألبو الملثوي مدينة بلاسنتيا Placentia (بياسنزا)

صفحة رقم : 3714

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> المدن

الحديثة (Piacenza)، وكرمونا Cremona، ومنتوا Mantua وفرارا Ferrara - وكانت في أول أمرها رباطات على الحدود أقيمت لصد الغالبيين.

وكان إقليم فنيشيا يقع شمال نهر ألبو وشرق الأديج Adige. وقد اشتق اسمه من الفينيتي Veneti، المهاجرين الأولين من إلبيريا Illyria. ويصف لنا هيرودوت كيف كان زعماء تلك القبائل يجمعون فتيات قراهم اللاتي في سن الزواج، ويقدرون لكل فتاة ثمناً يتناسب مع جمالها، ويزوجونها ممن يؤدي ذلك الثمن، ثم يتخذون تلك المهور باننة مغرية للفتيات لمن كنّ أقل من هؤلاء جمالاً وفتنة (4). ولم تكن مدينة البندقية (Venice) قد نشأت بعد، ولكن مدناً كبيرة قامت عند بولا Pola على شبه جزيرة إستريا Istria؛ وترجستي Tergeste (تريسته Trieste) وأكويليا Aquileia، وبنقيوم Patavium (بدوا Padua) تتوج رأس البحر الأدريايوي. وقد بقي في بولا من أيام الرومان قوس نصر ضخم، وهيكل ظريف، ومدرج لا يفوقه في الروعة إلا الأصل الذي بني على نمطه وهو الكاوسيوم. وكان يمتد إلى جنوب نهر ألبو سلسلة من المدن تبدأ من بلاسنتيا مخترفة بارما، وموتينا (مودينا)، وبونونيا Bononia (بولونيا)، وفافنتيا Faventia (فينزي Faenze) وتنتهي عند أرمنيم.

وهنا عند رميني Rimini يقوم جسر من الجسور التي لا حصر لها والتي أقامها المهندسون الرومان، وهو أكثر الجسور احتفاظاً بشكله الكامل القديم. وكان الطريق الفلاميني يمتد على هذا الجسر إلى المدينة مخترقاً قوساً يعادل الخلق الروماني في صلابته وسيطرته. ويتفرع منه طريق فرعي يصل بتونيا برفنا بندقية الأيام الرومانية. وقد شيد هذا الطريق على قوائم في المستنقعات التي لوثتها عدة أنهار تصب في البحر الأدريايوي. ويصف استرابون مدينة رافنا بأن "فيها شوارع واسعة مكونة من قناطر ومعديات" (5). وقد اتخذها أغسطس مقراً لأسطوله الأدريايوي، واتخذها كثير من الأباطرة مسكناً رسمياً لهم في القرن

صفحة رقم : 3715

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> المدن

الخامس. وقد كان تفوق شمالي إيطاليا على سائر أجزائها في خصب التربة، وفي جوه الصحي المنشط الباعث على العمل، وفي موارده المعدنية، وفي صناعاته المختلفة المتنوعة، وتجارته النهريّة القليلة النفقة، كان تفوقه في هذا كله مما سما به من الناحية الاقتصادية على وسط إيطاليا في القرن الأول الميلادي ومن ناحية الزعامة السياسية في القرن الثالث.

ولم ينشأ على الساحل الشرقي في جزئه الممتد جنوبي أرمنيم وشمالي برنديزيوم إلا عدد قليل من المدن الهامة، وذلك لأن هذا الساحل صخري كثير العواصف قليل المرافي. بيد أنه كان في أمبريا Umbria، وبسينيم، وسمنيوم، وأبوليا، بلدان صغرى كثيرة لا يستطاع الحكم على ثرائها وفنها إلا بدراسة أنقاض بمبي، ومن هذه البلدان أسسيوم Assisum مسقط رأس بروبرتيوس والقديس فرانسيس؛ ومنها سرسينا Sarsina التي وُلد فيها بلوتس Blautus؛ وأميتيرنم Amiternum مسقط رأس سلست Sallust وسلمو Sulmo التي شهدت مولد أوفد، وفنوزيا التي شهدت مولد هوراس. ولم تشتهر بنفنتم بهزيمة برس فحسب بل اشتهرت كذلك بقوس النصر العظيم الذي أقامه فيها تراجان وهديريان. وقد قصّ هديان في نقوشه الواضحة على هذا العمود قصة أعماله المجيدة في الحرب والسلام. وكانت برنديزيوم القائمة على الساحل الجنوبي الشرقي تشرف على طرق الاتصال في دنماشيا وبلاد اليونان والشرق. وعند "عقب" إيطاليا كانت تقوم مدينة دلماشيا وبلاد اليونان والشرق. وعند "عقب" إيطاليا كانت تقوم مدينة تارنتم، وكانت من قبل دولة - مدينة عزيزة الجانب، ولكنها لم تكن الوقت الذي نتحدث عنه إلا مشتى أخذاً في الاضمحلال لكبار الموظفين والأشراف الرومان. وفي جنوبي إيطاليا استولى أصحاب الضياع الكبيرة على معظم الأراضي وحولوها إلى مراعى للماشية؛ ففقدت المدن من كانت تعتمد عليهم من المزارعين، واضمحلّت طبقاتها من التجار وأرباب الأعمال، وأفل نجم العشائر اليونانية التي كانت تتفق أموالها بسخاء في الأيام السابقة، وذلك بسبب تسرب

صفحة رقم : 3716

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> المدن

القبائل الهمجية إليها وبسبب قيام الحرب البونية النائية، فاضمحل شأنها حتى لم تعد أكثر من بلدان صغيرة أخذت اللغة اللاتينية تحل فيها ببطيء بحل اللغة اليونانية. وفي "اصبح" إيطاليا كانت مدينة رجيوم Rhegium (رجيوم Reggio الحالية) ذات المرفأ الصالح. وقد أثرت هذه المدينة بفضل تجارتها مع صقلية وأفريقية. وعلى الشاطئ الغربي كانت تقوم فيليا Velia؛ ولعلها لم يكن من السهل عليها أن تذكر أيامها السالفة حين كان اسمها إيليا، وحين كان يتردد في جنباتها أصداء أشعار برمنيدز وزينون وأقولهما المتناقضة الخبيثة. وقد بدلت الجالية الرومانية التي استعمرت بوسيدونيا اسم هذه البلدة فجعلته بيستم Paestum، ولا تزال تدهش زائرها بما فيها من هياكل فخمة. وكان أهلها اليونان في الوقت الذي نتحدث عنه قد أخذوا يذوبون في الدم "البربري" - الإيطالي في هذه المرة - الذي كان ينصب فيها من الريف القريب منها. ولم تبقى الحضارة اليونانية حية في إيطاليا إلا في كمبانيا. وكانت كمبانيا - المكونة من الجبال ومن الساحل المحيطين بنابلي - من الناحية الجغرافية جزءاً من سمنيوم. أما من الناحيتين الاقتصادية والثقافية فكانت عالماً مستقلاً بنفسه، لأنها كانت من الوجهة الصناعية أكثر تقدماً من روما،

وكانت قوية من الناحية المالية، جمعت في رقعة صغيرة من الأرض حياة مليئة بالاضطرابات السياسية، والمنافسات الأدبية، والازدهار الفني، والألعاب العامة المثيرة. وكانت أرضها خصبة التربة تنتج أحسن الزيتون والكرام في إيطاليا، وكان يصدر منها النبيذ السرنتي Surrentine والفالرني Falernian الذائعا الصيت ولعل فارو Varro كان يفكر في كمبانيا وهو يتحدى العالم بقوله: "يا من ضربتم في أرضين كثيرة، هل رأيتم فيها أرضاً زُرعت أحسن من أرض إيطاليا؟... أليست إيطاليا مليئة بأشجار الفاكهة امتلاء يخيل معه إلى من يراها أنها كلها بستان واحد عظيم؟" (6). وفي طرف كمبانيا الجنوبي شبه

صفحة رقم : 3717

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> المدن

جزيرة صخرية وعرة المنحدر تمتد نائثة في البحر من سالرنم Salernum إلى سرنتم Surrentum. وكانت القصور الصغيرة مبنية بين الكروم والحدائق المغروسة على التلال، كما كانت تقوم بمحاذاة شاطئ البحر. وكانت سرنتم جميلة مثل سرنتو Sorrento في هذه الأيام، وقد لقبها بلني الأكبر بأنها "بهجة الطبيعة" التي حبتها بكل ما لديها من هبات (7)؛ ويبدو أنه لم يكذب يتغير فيها شيء في خلال ألفي هام، وأكبر الظن أن أهلها لا يزالون محتفظين بعباداتهم القديمة، وأن الهتهم في هذه الأيام هي الهتهم في الأيام الخالية؛ ولا تزال أجراف الصخور تحصر البحر حصاراً لا آخر له.

وكان في مواجهة هذا اللسان البارز في البحر جزيرة كبريا Capraea (كابري Cpri) تلاطمها الأمواج من جميع الجهات. وكان بركان فيروف المطل على الشاطئ الجنوبي للخليج يرسل دخانه في السماء، بينما كانت بمبي وهركيولانيم ترفدان تحت طبقات الحمم. ثم تلي هاتين المدينتين نيوبوليس Neopolis "المدينة الجديدة" أكثر بلاد إيطاليا اصطبغاً بالصبغة اليونانية في عهد تراجان. وفي وسعنا أن نتبين من كسل نابلي في هذه الأيام مدى انهماكها القديم في الحب واللهو والفن. لقد كان أهلها إيطاليين، ولكن ثقافتهم، وعاداتهم، وألعابهم كانت كلها يونانية. وكان فيها هياكل وقصور، وملاهي جميلة؛ وكانت تقام فيها مرة في كل خمس سنين مباريات في الموسيقى والشعر نال أسناتايوس في واحدة منها جائزة. وفي الطرف الغربي من الخليج كان ثغر بتيولي Puteoli (بزيولي Puzzuoli الحديثة) التي إشتق اسمها من رائحة بركها الكبريتية (8). وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل تجارة روما وبفضل مصنوعات الحديدية، وخزفها، وزجاجها. وكان فيها مدرج تدل ممراته التي تحت الأرض والباقية إلى هذا اليوم على الطريقة التي كان يصل بها المجالدون والوحوش إلى المجلد وعلى الجانب الآخر من مرفأ بتيولي كانت تتلألأ قصور بايا التي Baiac التي

صفحة رقم : 3718

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> المدن

يزيد بهاءها وجاذبيتها قيامها بين الجبال والبحر. هنا كان يلهو قيصر وكليجولا ونيرون، وهنا كان الرومان المصابون بداء الرئة يأتون ليستحموا في مياه عينونها المعدنية. وكانت المدينة تجني فوائد كثيرة من اشتهارها بالقمار وبالفساد الخلفي؛ وها هو ذا فارو Varro يقول إن فتياتها كنّ مُلكاً مُشاعاً، وإن كثيرين من فتياتها كانوا بنات (2)، وكان كلوديوس يرى أن شيشرون قد جلله عار لا يمحي أبد الدهر لأنه سافر مرة إلى هذه البلدة (10). ويقول سنكا متسانلاً: "أظن أن كاتو كانت تحدّثه نفسه بأن يقيم في قصر مليء بأسباب اللهو والسرور، يستطيع وهو فيه أن يحصي عدد من يمر به أمام عينه من النساء القاصرات اللائي يملأن القوارب والسفن الكثيرة الأنواع المطلية بكافة الألوان، والورود التي تتمايل حول البحيرة؟" (11).

وعلى بعد بضعة أميال قليلة شمال بايا، في فوهة بركان خامد، كانت بحيرة أفيرنس Avernus تبعث في الجو دخاناً كبيرتيا بلغ من قوته أن وصفته الأساطير بقولها أنه ما من طائر يطير فوقه ويبقى حياً. وكان بالقرب من الكهف الذي شقّ إنياس طريقه السهل إلى الجحيم كما جاء في ملحمة فرجيل.

وفي شمال البحيرة كانت مدينة كومي Cumae القديمة، وقد أخذت تحتضر في ذلك الوقت بعد أن قامت إلى جانبها غبنتها مدينة نيوبوليس التي كانت أكثر منها جاذبية، ولوجود مرفأين بجوارها أكثر أمناً من مرفئها وهما بنتولي وأستيا، ولتقدم الصناعة في كبوا Capua. وكانت كبوا تبعد عن شاطئ البحر في الداخل نحو خمسين ميلاً وتقوم في إقليم خصيب كان ينتج في بعض الأحيان أربع غلات في العام (12)؛ ولم يكن في إيطاليا كلها ما يضارع ما فيها من مصانع البرنز والحديد. وقد جازتها روما على مساعدتها هنيئال جزاء أضربها قرنين من الزمان عجزت فيهما عن أن تفيق من كبوتها، ووصفها شيشرون

صفحة رقم : 3719

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> المدن

في خلالها بأنها "مسكن من ماتوا سياسياً" (13). وظلت كذلك حتى أعادها قيصر إلى سابق عهدها بأن جاء إليها بالآلاف من المستعمرين الجدد؛ وأضحت في أيام تراجان مدينة مزدهرة مرة أخرى. لقد يبدو لنا أن هذه المدن الكبرى التي كانت قائمة في إيطاليا القديمة والتي سردناها على القارئ سرداً سريعاً ليست أكثر من أسماء. ولشد ما نخطئ إذ نظن أنها مجرد ألفاظ على خريطة، أو لا نحس أنها كانت مساكن صاخبة لرجال مرهفي الحس يجدون في طلب الطعام والشراب والنساء والذهب. والآن فلنرفع الرماد عن إحدى المدائن الرومانية لنقف في آثارها التي احتفظت بها بأعجب الوسائل عن مجرى الحياة في تلك الشوارع القديمة.

صفحة رقم : 3720

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> بمبي

كانت بمبي إحدى البلدان الصغرى في إيطاليا، وقلما يرد لها ذكر في الأدب اللاتينية إلى إذا ذكر حساء سمكها المتبل، وكرنبها، ودفنها تحت الرماد البركاني، وقد أنشأها الإسكانيون Oscans، ولعلها تضارع روما في قدم عهدا؛ وسكنها مهاجرون من اليونان، واستولى عليها سلا، وجعلها مستعمرة رومانية، ودمر بعضها زلزال في عام 63م. وكان بناؤها لا يزال يجدد في الوقت الذي دمرها بركان فيزوف مرة أخرى. فقد ثار هذا البركان في اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام 79م. وقذف من فوهته رماداً وصخوراً في الهواء وعلته أسنة من اللهب. وانهمر فوقها مطر غزير فاستحالت المواد التي قذفها البركان سيلاً جارفاً من الطين والحجارة حط على بمبي وهركيولانيم، فلم تمض إلا ست ساعات حتى غطاها بطبقة يبلغ سمكها ثمانى أقدام أو عشر. وظلت الأرض ترتزل والمنازل تتداعى طوال ذلك النهار والليل التي أعقبته. فدفن النظارة تحت أنقاض دور التمثيل (14)، واختنق مئات من الأهلين بالتراب والدخان، وثارَت الأمواج فحالت بين من حاولوا النجاة بطريق البحر. وكان بلني الأكبر وقتئذ يتولى قيادة الأسطول الغربي عند ميسينم Misenum القريبة من بتيولي وتأثر قلبه باستغاثة أهل البلدة وطلبهم النجدة، كما تأثر برغبته في مشاهدة هذه الظاهرة عن كثب، فركب سفينة صغيرة ونزل منها إلى البر على الشاطئ الجنوبي للخليج، وأنجى عدداً من الأشخاص؛ وبينما كانت تلك الجماعة تغدو خوفاً من البرد والدخان اللذين كانا يتقدمان نحوها، خارت قوى العالم الشيخ، فسقط في

قصة الحضارة -> قيصر و المسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> بمبي

الطريق وقضى نحبه . وفي صباح اليوم التالي انظمت زوجته وابن أخيه إلى الجماعة اليائسة التي كانت سائرة بإزاء الساحل تحاول الفرار من الموت، وكانت ثورة البركان وقتئذ لا تزال مستمرة، وقد غطت السماء من نابلي إلى سرنتم بالحجارة والرماد حتى استحال النهار ليلاً حالك السواد. واستولى الهلع على الفارين الذين افترقوا في هذا الظلام الدامس عن أزواجهم وأبنائهم، فعلا صراخهم وعويلهم وزادوا الموقف هلعاً ورعباً. وأخذ بعضهم يستغيث بمختلف الآلهة لتنجيهم من هول الكارثة، وبعضهم ينادي بأن الآلهة كلها قد هلكت، وأن نهاية العالم التي طالما تنبأ بها الناس قد حلت (16). ولما صفت السماء آخر الأمر في اليوم الثالث كانت الحمم البركانية وما اختلط بها من الطين قد غطت كل شيء في بمبي إلى أعلى السقف، وحتى كانت هركيولانيم قد اختفت عن آخرها من الوجود. وأكبر الظن أن ألفين أو نحوهما من سكان بنبي البالغ عددهم عشرين ألفاً قد قضوا نحبتهم في هذه الكارثة؛ وقد حفظ الرماد البركاني أشكال عدد من الموتى؛ ذلك بأن الأمطار وأحجار الخفاف التي سقطت عليها غطتها بطبقة سميكة صلبت حين جفت، ولما ملئ فراغ هذه القوالب العاجلة خرجت منه أشكال بشعة. وعاد قليلون ممن نجوا إلى أنقاض

المدينة يبحثون فيها عن بعض ما فقدوه من النفائس، ثم تركوا هذا الموضع فيما بعد فغطته الأتربة على مر الأيام. وفي عام 1709 إتحفّر قائد نمساوي حفرة في موضع هركيولانيم، ولكن الرواسب التي فوق المدينة والتي كان سمكها في بعض المواضع يبلغ ستين قدماً بلغت من السمك درجة جعل أعمال الحفر تسير ببطء شديد وتتكلف نفقات باهظة. أما بمبي فقد بدأ الكشف عنها في عام 1749، وظل حتى الآن يجري في فترات متباعدة. وقد كشف الآن عن الجزء الأكبر من المدينة، فظهر عدد كبير من

صفحة رقم : 3722

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> بمبي

البيوت، والأدوات، والنقوش، فاستطعنا أن نعرف عن بمبي القديمة من بعض النواحي أكثر مما نعرفه عن روما القديمة. وكان محور حياة المدينة هو السوق العامة، شأنها في هذا شأن سائر المدن الإيطالية. وما من شك في أن هذه السوق كانت في الزمن القديم ملتقى الزُّراع، وحاصلاتهم في "يوم السوق"، وكانت تقام فيها الألعاب، وتمثل فيها المسرحيات، وقد أقام فيها الأهلون أضرحة لألهتهم، فشادوا ضريحاً لجوبتر في أحد طرفيها وضريحاً لأبلو في الطرف الآخر، وبالقرب من هذا الضريح الأخير أنشأوا ضريحاً لفينوس (زهرة) بمبيانا Pompeiana راعية المدينة وحاميتها. ولكن أهل المدينة لم يكونوا قوماً متدينين، فقد شغلتهم الصناعة، والسياسة، والألعاب، والصيد فلم تترك لهم وقتاً للعبادة، وكانوا إذا عبدوا عظمة عضو التذكير واتخذوه أهم الرموز لطقوسهم الديونيشية (17). ولما أن زادت الشؤون الاقتصادية والحكومية في مقدارها وخطرها، وعلت قيمتها، قامت أبنية عظيمة حول السوق إتخذت مراكز للأعمال الإدارية، وللمساومات، والمفاوضات، وتبادل السلع. وفي وسعنا أن ندرك مما نعرفه عن المدن الإيطالية الحديثة كيف كانت الشوارع المجاورة للسوق تعج بالبائعين الجائلين، ويعلو فيها ضجيج البائعين والمشتريين، وعجيج الصناعات بالنهار والمرح بالليل. وقد عثر المنقبون في خرائب الحوانيت على بعض النُقل، والعيش، والفاكهة، المتفحمة أو المتحجرة التي لم تجد من يشتريها. وفي الشوارع على مسافة من السوق كانت الحانات، ومحال الميسر، وبيوت الدعارة، كل منها يحاول أن يجمع هذه كلها فيه. ولو لم يحرص أهل بمبي على أن ينقشوا عواطفهم على جدران المباني العامة لما استطعنا أن نتخيل ما كانت عليه حياتهم من حدة ومضاء. وقد نُقلت ثلاثة آلاف من هذه النقوش. وأكبر الظن أن آلافاً أخرى لم يتح لها البقاء، وقد اكتفى ناقشوها في بعض الأحيان بذكر أسمائهم وفحشهم الجريء، الذي لا يزال

صفحة رقم : 3723

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> بمبي

الناس يجبون أن يفعلوه؛ ودون بعضهم الأوامر التي كانوا يصدرونها إلى أعدائهم مؤملين أن يطيعها هؤلاء الأعداء كقول واحد منهم "من سامبيوس Samius إلى كورنليوس Cornelius: إثنق نفسك". ومن النقوش ما هو رسائل حب كثيراً ما تكون شعراً: فقد كتبت رميولا Romula تقول إنها "وقفت هنا مع ستفيلس Stephylus"، وكتب شاب متيم: "وداعاً يا فكتوريا؛ في وسعك أياً كان مكانك أن تعطسي أحسن عطسة" (18).

وليست الحوادث العامة أو القرابين الخاصة المنحوتة أو المرسومة على الجدران بأقل عدداً من هذه الرسائل، فترى الملاك يعلنون أيام عطلتهم، والذين فقد لهم متاع يعلنون عن فقده، ونقابات أرباب الحرف وغيرها من الجماعات تعلن عن تأييد المرشحين الذين يؤمل نجاحهم في حملات الانتخابات البلدية؛ فها هم أولاء "صائدوا السمك يرشون بوبديوس روفس Popfdius Rofus ليكون إيدىلا Aedile" و "قاطعوا الأخشاب وبائعوا الفحم النباتي يطلبون إليكم أن تنتخبوا مارسيلينس" (19)، وها هي ذي بعض النقوش الخشنة تعلن عن ألعاب المجالدة، وبعضها الآخر يمتدح شجاعة مشهورى المجاهدين مثل سلاوس Celadus، وها هي ذي "العدارى تتحسر" أو تهيم بأحد الممثلين المحبوبين _ "أي أكتيوس Actius، يا حبيب الشعب عجل بالعودة!" (20). لقد كانت بمبي تعيش لكي تتلذذ، فقد كان فيها ثلاثة حمامات عامة وساحة للتدريب الرياضي، ودار تمثيل صغيرة تتسع لألفين وخمسمائة من النظارة، وأخرى كبيرة تتسع لخمسة آلاف، ومدرج يستطيع عشرون ألفاً أن يستمتعوا فيه بالأم الموت يقاسيها غيرهم من الناس بدلاً منهم. وها هو نقش يقول: "يسقتل في بمبي في الرابع والعشرين، والخامس والعشرين، والسادس والعشرين، من نوفمبر ثلاثون زوجاً من المجالدين: قدمهم حاكما المدينة، وسيكون هناك صيد؛ مرحباً

صفحة رقم : 3724

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> بمبي

بك يا ميوس Maius مرحى يا باريس! "وكان ميوس هذا أحد حاكمي المدينة، أما باريس فكان كبير المجالدين. وتدل آثار داخل المنازل على أن الأهلين كانوا يحيون حياة مفعمة بالنعيم تجملها الفنون المختلفة. فأما البيوت فتكاد تكون خالية من النوافذ والتدفئة فيها نادرة، ولا تظهر الحمامات إلا في منازل الأغنياء، وكان لبعض الدور بركة في حديقة محاطة بألعاب وكانت أرض الحجرات تصنع من الإسمنت أو الحجر أو من الفسيفساء أحياناً، وقد نقش رجل صريح من طلاب المال على أرض داره هذه العبارة: "مرحباً بالكسب"، ونقش آخر "الكسب لذة" (21). ولم يعثر إلا على القليل من الأثاث فقد كان كله تقريباً من الخشب، ولهذا لم يبق منه شيئاً يذكر، غير أن عدداً كبيراً من النضد، والأسرة، والكراسي، ومصابيح الرخام أو البرنز قد نجت من التلف، وفي وسع الإنسان أن يرى في متحفى بمبي ونابلي مجموعة متنوعة من الأدوات المنزلية، من أفلام، ومحابر، وموازن، وأدوات المطبخ، والزينة، والآلات الموسيقية.

ونواحي البقايا الفنية التي كشفت في بمبي أو بالقرب منها بأن الأشراف الذين يسكنون في القصور الصغيرة ذات الحدائق لم يكونوا هم وحدهم الذين يستمتعون بالميزات الثقافية للحياة، بل كان يشاركهم فيها تجار المدينة. فقد كشفت في هركيولانيم مكتبة خاصة كانت تحتوي على 1756 مجلداً أو ملفاً، ولا داعي هنا لأن نعيد ما قلناه من قبل عن كؤوس البسكورىالي Boscureale أو المناظر الرائعة والنساء الرشيقات المصورة على جدران منازل بمبي. ولقد كان في كثير من المساكن تماثيل ذات روعة، وكان في السوق العامة وحدها مائة وخمسون تمثالاً. وقد عثر في هيكل جوبتر على رأس لهذا الإله قد يكون فدياس نفسه هو الذي سواه؛ فأنت ترى فيه القوة والعدالة ماتلنين في ثيابا الشعر الغزير واللحية الكثة. وكان في هيكل أبلو تمثال لدينان ثقب مؤخر رأسه حتى يستطيع كاهن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> بمبي

مختبئ أن يتحدث بالنبوءات. وقد عثر في أحد قصور هركيولانييم الصغيرة على طائفة من التماثيل والأدوات البرنزية كانت من الكثرة بحيث امتلأت بها حجرة ذائعة الصيت في متحف نابلي. وأكبر الظن أن روائع هذه المجموعة - عطارد المستريح، ونارسس أو ديونيش، والساتير السكران وإله الحقول الراقص - كانت يونانية بأصلها أو بصنعها؛ وهي تكشف عن حذق في الصنع، وعن السرور غير المحتشم البادي في الجسم الصحيح السليم، وهما الخاصتان المائلتان في الفن البركستيلي. ومن هذه التماثيل تمثال نصفي من البرنز لأحد الدالين في مدينة بمبي ويدعى ل. كاسليوس أبوكندس L.Caacilius Iuoundus الذي وجدت حساباته منقوشة على 154 لوحاً من الشمع عثر عليها في داره بمدينة بمبي. ويظهر في هذا التمثال الرأس الأصلع والوجه الصارم غير المجرد من الحنو. في هذا التمثال تبرز الخشونة بالذكاء، والحكمة بالتأليل الجلدية؛ وهو من صنع مثال معاصر - ولعله مثال إيطالي - أظهر فيه شخصية صاحبه على حقيقتها وبأحسن ما تظهر الشخصيات. والحق أن الإنسان لتستريح نفسه لوجود هذه الشخصية الواقعية إلى جانب ما يحيط بها في متحف نابلي من تماثيل الآلهة والإلهات الخالية وجوهها من الغضون، والتي تكاد تتطع معارفها الملساء الوديعا المستكنة لتخبرنا بأن أصحابها لم يعيشوا قط على ظهر الأرض.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> نظام البلديات وحياتها

الفصل الثالث

نظام البلديات وحياتها

ولم تكن الحياة الخاصة والعامة، حياة الأفراد وحياة الجماعات، أحد وأقوى ما كانت في إيطاليا القديمة؛ غير أن حوادث هذه الأيام تبلغ من الخطر ومن استفاد الجهود حداً لا نستطيع معه أن نولي تفاصيل نظام البلديات في عهد القياصرة كثيراً من عنايتنا، ومن أجل هذا لم تعد نظم الحمم المختلفة المميزة أو الحقوق السياسية المتتابعة التي كان الأهليون يعضون عليها بالنواجذ، لم تعد هذه أو تلك جزءاً من ذلك الماضي الحي الذي هو موضوع بحثنا ومثار اهتمامنا.

لقد كان من الخصائص الأساسية للإمبراطورية الرومانية تتألف من مجموعة من دول- المدن تحكم نفسها بنفسها إلى حدٍ ما، وتضم كل منها في مؤخرتها أرضين واسعة تمتلكها وتسيطر عليها، مع أن الإمبراطورية كلها كانت مقسمة إلى ولايات. وكان معفي الوطنية في هذه الإمبراطورية حب الشخص لمدينته أكثر مما تعني حبه للإمبراطورية. وكان الأحرار في كل مدينة يقتنعون في الأحوال العادية بممارسة حقوقهم السياسية المحلية البحتة؛ ولما كان الذين نالوا المواطنة الرومانية من غير أهل روما يذهبون إلى تلك العاصمة ليعطوا أصواتهم في الانتخابات؛ ولم يكن اضمحلال الجمعيات العامة في العاصمة مصحوباً باضمحلال مماثل له في مدن الإمبراطورية ما تدل على هذا بمبي نفسها. وكان لمعظم البلديات الإيطالية مجالس شيوخ Curia- ولمعظم المدن الشرقية مجالس 'boule' تشريعية- تسن قوانينها وجمعيات comitia ekklesia تختار حكامها؛ وكان ينتظر من حاكم المدينة أن يهب مدينته مبلغاً كبيراً من المال وجماعات Snmma Honoraria (والكلمة الثانية مشتقة من Honas بمعنى المنصب) نظير تفضلها

صفحة رقم : 3727

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> نظام البلديات وحياتها

عليه بأن يكون حاكماً لها، وقد جرت العادة أيضاً أن يتبرع من حين إلى حين ببعض المال للأغراض أو الألعاب العامة. وإذا كان المنصب لا ينال عليه صاحبه أجراً فإن ديمقراطية الأحرار- أو أرسقراطية الأحرار- قد استحال في كل مكان تقريباً الجركية يتولاها ذوو المال والجاه. وظلت البلديات مائتي عام من عهد أغسطس إلى عهد أورليوس في رخاء وازدهار. ولسنا ننكر أن الكثرة الغالبة من أهلها كانت من الفقراء بطبيعة الحال؛ فقد تكفلت الطبيعة والمميزات المختلفة بإيجاد هذه الحال ولكن التاريخ لم يحدثنا قط عن عهد من العهود، قبل هذا العهد أو بعده، فعل فيه الأغنياء للفقراء قدر ما فعله أغنياء هذه المدائن لفقرائها: ذلك أن نفقات إدارة المدينة كلها تقريباً، وما يلزم من المال لتمثيل المسرحيات، وغير ذلك من ضروب التسلية، والألعاب، وتشبيد الهياكل، ودور التمثيل، والملاعب؛ ومدارس التدريب الرياضي، والمكتبات العامة، الباسلقات، والقنوات التي تنقل ماء الشرب للمدن، والقناطر والحمامات، وتجميل هذه كلها بالأقواس والأروقة ذات العمدة، والصوَر والتماثيل، كانت كلها يتحملها ذوو اليسار. وقد ظل الوطن طوال المائتي عام الأولى من عهد الإمبراطورية يدفع أولئك الأقوام إلى التنافس فيما بينهم للقيام بهذه الأعمال الخيرية تنافساً أدى في بعض الأحيان إلى إفلاس عدد من الأسر التي كانت تمولها، أو المدن التي تتكفل بها بعد إقامتها من مال الأغنياء. وقد جرت العادة في أيام القحط أن يبتاع الأغنياء الطعام ويوزعوه من غير ثمن على الفقراء، وكانوا في بعض المناسبات يقدمون لجميع المواطنين؛ ولجميع السكان أحياناً، زيتاً أو خمرًا بالمجان، أو يقيمون لهم وليمة عامة، أو يهبونهم قدرًا من المال. وخلدت النقوش الباقية إلى الآن كثيراً من هذا السخاء. فما هو ذا مثر من أصحاب الملايين يهب مدينة ألتينم في فينشيا 1.600.000 سسترس لإقامة حمامات عامة، وها هي ذي سيدة تشيد هيكلًا ومدرجاً في كسينم Casinum؛

صفحة رقم : 3728

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> نظام البلديات وحياتها

وها هو ذا ديسميوس تلس Decimus Tullus يهب تركوينياي Tarquinii حمامات تكلفت 5.000.000 سسترس؛ وها هي ذي كرمونا Cremona التي دمرها جنود فسبازيانلا تلبث أن يعاد بناؤها من تبرعات المواطنين. وتذكر النقوش إسمي طبيبين قدما كل ما يملكان هبات لنمئلي. وفي أسنيا التي كانت مزدحمة بالسكان دعا لوسليوس جمالا Lucilius Gemala جميع أهلها إلى الطعام ورفف فيها طريقاً طويلاً واسعاً، ورمم سبعة هياكل أو أعاد بناءها وأعاد بناء حمامات البلدية، ووهب خزانتها ثلاثة ملايين سسترس(22). وكان من عادة بعض الأغنياء أن يقيم الواحد منهم وليمة يدعو إليها قسماً كبيراً من المواطنين في عيد ميلاده أو لمناسبة إنتخابه إلى منصب عام، أو زواج إبنته، أو ارتداء ابنه الطوغة، دليلاً على بلوغه سن الرشد، أو تدشين بناء أهدها إلى المدينة. وكانت المدينة تجزي هذا المحسن على إحسانه بأن تعينه في منصب عام، أو تقيم له تمثلاً، أو تمتدحه بقصيدة أو نقش. ولم يكن الفقراء يشعرون بالذلة حين ينالون هذه العطايا كلها، ذلك بأنهم كانوا يتهمون الأغنياء بأنهم لم يحصلوا على هذا المال الذي يفعلون به الخير إلا من طريق الاستغلال، ومن أجل هذا كانوا يتطلبون الاقتصاد في المباني الجميلة والتمائيل، ويلحون في تخفيض ثمن الحبوب والإكثار من الألعاب(23). وإذا أضفنا إلى هبات الأفراد، ما كان يهبه الأباطرة للمدن، وما كان يقام فيها بأموالهم من مبان، وما يقدمونه لها من مال لتخفيف ما يحل بها من الكوارث، فضلاً عن الأعمال العامة والمناصب التي كانت تحول من خزائن البلديات، إذا فعلنا هذا بدأنا نحس بفخامة المدن الإيطالية في عهد حكومة الزعامة. لقد كانت شوارعها مرصوفة، وكان فيها مجار لنقل المياه الفذرة، وشرطة لحماية الأمن، وكثير من وسائل الزينة، وخدمة طبية مجانية للفقراء من أهلها، وماء نقي نظيف يصل إلى الدور في أنابيب نظير أجر قليل، وطعام يقدم

صفحة رقم : 3729

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> إيطاليا -> نظام البلديات وحياتها

للفقراء بثمن بخس. وكانت الحمامات في معظم الأحوال مباحة من غير أجر يُنق عليها من هبات المحسنين، والمال يقدم للأسر الفقيرة مساعدة لها على تربية الأبناء والإكثار منهم؛ وكانت المدارس ودور الكتب تُنشأ للتعليم والمطالعة، والمسرحيات تُمثل، والحفلات الموسيقية تقام، والألعاب تُنظم لثنافس بها تلك المدن روما غير عابئة بما تنفقه فيها من مال. ولم تكن حضارة المدن الإيطالية حضارة مادية بالقدر الذي كانت عليه في العاصمة؛ فقد كانت هذه المدائن تتنافس في إقامة المدرجات، ولكنها أقامت كذلك هياكل فخمة، يضارع بعضها أحسن ما كان منها في روما(24)، وجعلت شهورها مرحلة بما كانت تقيمه من أعياد دينية ذات بهجة. وكانت تنفق بسخاء على الأعمال الفنية، وتنشئ القاعات الرحبة للمحاضرات، وللشعراء، والسفسطائيين، والخطباء، والفلاسفة، والموسيقيين. وكانت تبسّر لمواطنيها أسباب الصحة، والنظافة، والتنزه، والحياة الثقافية القوية. ومنها، لا من روما، خرج عظماء المؤلفين اللاتين، وعدد كبير من أحسن ما في متاحفها من روائع النحت كتمثال نيكى (العدالة) في متحف نابلي، وتمثال بروس (الحب) في سنتومسلا Centumecella، وتمثال زيوس في أتركولي Atricoli. وكانت تقوم بحاجيات عدد من السكان، لا يقلون عن عددهم قبل هذا القرن، في المدن التي قامت مكانها وتؤمنهم من مصائب الحرب تأمناً منقطع النظير. وقصارى القول أن القرنين الأول والثاني من التاريخ الميلادي قد شهدا ذروة مجد شبه الجزيرة العظيمة.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> رومة والولايات

الباب الثاني والعشرون

تمدن الغرب

الفصل الأول

روما والولايات

كانت الوصمة التي يوصم بها رخاء إيطاليا - إذا غضضنا النظر عن نظام الاسترقاق الذي كان نظاماً عاماً في الدول القديمة - هي اعتمادها إلى حدٍ ما على استغلال الولايات. لقد كانت إيطاليا معفاة من الضرائب لأن الولايات كانت تؤدي لها الشيء الكثير نهياً أو خراجاً، ومن ذبنكما النهب والخراج كان أصل الثروة التي نشأ عنها ازدهار المُدن الإيطالية. وكانت روما قبل عهد قيصر تعد الولايات أقاليم تمتلكها بحق الفتح، وتعد سكانها جميعاً رعايا رومانيين، ولم يكن منهم إلا عدد قليل يعدون ضمن المواطنين الرومان؛ وكانت أرض تلك البلاد بأجمعها ملكاً للدولة الرومانية، ويمتلكها أصحابها على أنها منحة لهم من قبل الحكومة الإمبراطورية ومن حقها أن تستردها منهم وأرادت روما أن تقلل من احتمال قيام الثورات في الأقاليم المفتوحة فقسمتها ولايات صغيرة حرّمت على كل ولاية أن يكون بينها وبين غيرها من الولايات معاملات سياسية مباشرة، وكانت تفضّل رجال الأعمال على الطبقات الدنيا في جميع الولايات. وكان سر الحكم الروماني وشعاره هو فرّق تُسدّد Divide et impera. ولعل شيشرون كان يبالغ حين قال عن أمم البحر الأبيض المتوسط، في

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> رومة والولايات

سياق تشهيره بفريس Verres، إن بلادها كانت مقفورة في عهد الجمهورية: "إن كل الولايات تندب حظها، وجميع الأحرار يصرخون ويعولون، وجميع الممالك تحتج على فسوتنا وشرهنا، وليس ثمة مكان فيما بين المحيطين، مهما يكن قاصياً أو خافياً، لم يشعر بوطأة جشعنا وظلمنا" (1). أما الزعامة فكانت أكثر سخاء من الجمهورية في معاملتها للولايات، ولم يكن هذا كرمها منها بل كان حسن التدبير. فقد كانت الضرائب في أيامها غير باهظة، وكانت تحترم الأديان واللغات والعادات المحلية، وكانت حرية الكلام مباحة إلا إذا كانت طعناً في السلطة العليا، وسمحت لها أن تحتفظ بقوانينها المحلية مادامت هذه القوانين لا تتعارض مع مكاسب الرومان وسيادتهم. وقد اتبعت خطة مرنة حكيمة أمكنها بها تقسيم الولايات الخاضعة لسلطانها أقساماً متفاوتة في المرتبة، وتقسيم الأهليين في داخل كل ولاية طبقات متفاوتة القدر كذلك. فقد كانت بعض البلديات كأثينة ورووس "مدناً حرة"، تعطي جزية، ولا تخضع لحاكم الولاية، وتدير شؤونها الداخلية بنفسها من غير أن تتدخل فيها روما ما دامت تحتفظ بالنظام الاجتماعي والسلم. وقد سمحت روما لبعض الممالك القديمة أمثال نوميديا وكبوكيا أن تحتفظ بملوكها، ولكن هؤلاء الملوك كانوا "أفيالاً" لروما يعتمدون على حمايتها وسيادتها، وكان يطلب إليهم أن يمدوها بالمال والعتاد إذا أرادت ذلك. وكان حاكم الولاية تجمع في شخصه السلطة التشريعية التنفيذية، والقضائية، ولم يكن يحد من سلطانه إلا المدن الحرة، وحق المواطن الروماني في أن يلجأ إلى الإمبراطور، والرقابة المالية التي كان يقوم بها الكوستر أو الرقيب. غير أن هذا السلطان المطلق كان يغري الحكام بأن يسيئوا استخدام سلطتهم، ومع أن المدة التي كان يتولى فيها الحاكم منصبه قد طالت في عهد الزعامة، ومع أن مرتبه ومخصصاته الأخرى قد زبذبت زيادة كبيرة، ومع أن مسؤوليته عن أعماله المالية أمام الإمبراطور قد قللت من فساد الحكم وسوء

صفحة رقم : 3732

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> رومة والولايات

استعمال السلطة، فإن في وسعنا أن نستدل من رسائل بلني ومن فقرات في كتاب تاستس، على أن ابتزاز المال والفساد لم يُصبِحاً من الأمور النادرة في آخر القرن الأول. وكانت جباية الضرائب أهم أعمال الحاكم وأعوانه. وكانت الدولة في عهد الإمبراطورية تقوم بإحصاء عام في كل الولايات، تقصد به فرض الضرائب على الأرض وعلى الأملاك - ومنها على الحيوانات وعلى العبيد. وأرادت الدولة أن تشجع زيادة الإنتاج فاستبدلت بالعشور خراجاً محدد القيمة. ولم يعد الملتزمون هم الذين يجبون الضرائب، وإن ظلوا يجبون بعض العوائد الجمركية في الثغور، ويشرفون على الأعمال الجارية في غابات الدولة ومناجمها وعلى الأشغال العامة فيها. وكان يُنتظر من الولايات أن تسهم في عمل تاج من الذهب لكل إمبراطور جديد، وأن تقوم بتكاليف إدارة الولاية، وأن ترسل في بعض الحالات سفناً محملة بالغلل إلى روما. واحتفظ في الشرق بالعادة القديمة، عادة أداء الأفراد خدمات عامة للدولة، ثم انتشرت فيما بعد من الشرق إلى الغرب. وكان للحكومة المحلية أو للوالي بمقتضى هذه العامة أن "يُطلب" إلى الأغنياء أن يقدموا قروضاً للحرب، وسفناً للأسطول، ومباني للأغراض العامة، وطعاماً لضحايا القحط، ومغنين في الأعياد والمسرحيات. ويقول شيشرون، وهو ممن تولوا بعض المناصب العامة في الدولة، إن الضرائب التي كانت تؤديها الولايات لا تكاد تكفي نفقات الإدارة والدفاع (3). وكان "الدفاع" عندهم يشمل القضاء على الفتن والثورات، وأكبر الظن أن نفقات "الإدارة" كانت تشمل المطالب التي خلقت ذلك العدد الكبير من الرومان أصحاب الملايين. ومن واجبننا ألا نرى

حرجاً في أن ترسل أي سلطة يناط بها حفظ الأمن والنظام في ذلك الوقت جباة يجمعون أكثر مما يكفي لهذين الغرضين. على أن الولايات قد عمها الرخاء في عهد حكومة الزعامة على الرغم من

صفحة رقم : 3733

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> رومة والولايات

هذه الأعباء كلها. ذلك بأن الإمبراطور ومجلس الشيوخ قد فرضا رقابة شديدة على الموظفين في الولايات، وكانا يفرضان أشد أنواع العقاب على كل من يسرق من الأموال أكثر مما تبيحه له منزلته. وكان ما يؤخذ من الولايات أكثر مما يتطلبه الفرسان السابق ذكرهما يرد آخر الأمر إليها ثمناً لبضائعها، وبفضل هذا العون الذي كان يقدم للصناعات أصبحت الولايات أقوى من إيطاليا الطفيلية المزعزعة الكيان. وجدير بنا أن نختم هذا الفصل بالعبارة الآتية المنقولة عن أفلوطرخس، وهي أن نعمتين يجب أن تضمنهما الدولة للشعب قبل كل شيء: وهما الحرية والسلام؛ "فأما السلام فلسنا في حاجة إلى أن نشغل أنفسنا به، لأن الحروب كلها قد وضعت أوزارها. وأما الحرية فإن لنا منها ما تركته لنا الحكومة (روما)؛ ولعلها قد أبقت لنا أكثر مما فعلت لما كان ذلك من مصلحتنا"(4).

صفحة رقم : 3734

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> أفريقية

الفصل الثاني

أفريقية

ضمت كورسكا وسردينيا معاً وتكونت منهما ولاية واحدة، ليست جزءاً من إيطاليا؛ وكان الجزء الأكبر من كورسكا أرضاً جبلية مقفرة، يصيد فيها الرومان الأهلين بالكلاب ليبيعوهم عبيداً(5). أما سردينيا فكانت تمدّم بالعبيد، والفضة، والنحاس، والحديد، والحبوب؛ وكان فيها ألف ميل من الطرق الصالحة ومرفاً جيداً ممتاز هو مرفأ كراالس Carales (كجلياري الحالية). وكانت صقلية قد انحطت منزلتها حتى كادت تصبح ولاية زراعية محضه من الولايات

التي تمد روما الجائعة بالطعام. وكان الجزء الأكبر من أرضها الصالحة للفلاحة قد جُعل ضياعاً كبيراً لتربية الماشية، يراها عبيد لا ينالون إلا أقل الغذاء والكساء، وكثيراً ما كانوا يفرون من عملهم لهذا السبب ويؤلفون عصابات للسلب والنهب. وكان سكانها في عهد أغسطس يبلغون 750.000، (وقد بلغوا في عام 1930 حوالي 3.972.300). وكانت أكثر مدنها الخمس والستين ازدهاراً هي قطانيا Catania، وسرقوسة، وتورومينيوم Panormus (تورمينا Taormina الحالية)، ومسانا، وأجرنتم، وبنورمس Panormus (بلرمو الحالية). وكان في سرقوسا وتورومينيوم ملهيان يونانيان فخمان، لا يزالان يستخدمان لهذا الغرض حتى الآن. وكانت سرقوسا، على الرغم مما أصابها من النهب على أيدي فريس Verres مملوءة بالمباني الرائعة، والتماثيل الشهيرة، والمواقع التاريخية بدرجة يسرت العيش للإدلاء المحترفين الذين كانوا يصحبون السياح الكثيرين الوافدين إلى تلك الجزيرة(6)، وكان شيشرون يحسبها أجمل مدينة في العالم كله. وكان لمعظم الأسر الغنية ضياع أو بساتين في

صفحة رقم : 3735

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> أفريقية

ضواحيها وكان جميع ريفها تعطره أشجار الفاكهة والكروم كما تعطره في هذه الأيام. وعاد على أفريقية كل ما فقدته بسيطرة الرومان عليها، فقد أخذت تحل شيئاً فشيئاً محل تلك الجزيرة في توريد الحبوب مكرهة إلى روما، لكن الجنود، والمستعمرين، ورجال الأعمال، والمهندسين الرومان جعلوا تلك الولاية جنة وارفة الضلال إلى حد لا يكاد يصدق العقل. وما من شك في أن الفاتحين الجدد قد وجدوا فيها حين قدموا إليها أصقاعاً خصبة غنية؛ فقد كان بين الجبال العابسة المطللة على البحر الأبيض المتوسط وسلسلة جبال أطلس التي تصدّ عنها رمال الصحراء وادٍ شبه مداري يمدّه نهر بجرداس Bagradas (مجردا) بكفايته من الماء؛ وكانت الأمطار تهطل فيها شهرين من السنة لتعوض الأهلين عن عملهم الزراعي الشاق الطويل الذي علمهم إياه ماجو Mago وأرغمهم عليه ماسينسا Masinissa. ولكن روما أصلحت ما وجدته فيها من الأساليب الزراعية وزادت عليه. فقد شاد مهندسوها السدود على مجاري الأنهار التي تنحدر من التلال الجنوبية، واختزنوا الزائد من المياه في خزانات إبان موسم الأمطار، وصبّوه في قنوات للري في الأشهر الحارة التي تجف فيها مياه الأنهار(7). ولم تكن روما تفرّض على هذه الولايات أكثر مما كان يجيبه منها رؤساؤها الوطنيون، ولكن فيالق روما وتحصينها كانت أقدر من حكوماتها الوطنية على حمايتها من القبائل البدوية التي تهبط عليها من الجبال، وكان يضم إليها بعد ميل من الصحراء أو الأراضي البور فتزرع أو تُسكن. وكان الوادي ينتج كميات من زيت الزيتون بلغت من الوفرة حداً أدهش العرب حين قدموا إلى هذه البلاد في القرن السابع، إذ وجدوا أن في وسعهم أن ينتقلوا من طرابلس إلى طنجة دون أن يبتعدوا عن ظلال أشجار الزيتون(8). وأخذت البلدان والمدن يتضاعف عددها ويرتفع شأنها بفضل ما اتبع فيها من الأساليب المعمارية،

صفحة رقم : 3736

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> أفريقية

ووجدت الآداب فيها سوطاً جديداً يعبر عنها. وحسبنا دليلاً على ما بلغت أفريقية الرومانية من الرقي والثراء أن نشاهد آثار ما خلقه الرومان من أسواق وهياكل وقنوات لجر مياه الشرب للمدن، ودور للتمثيل في أرض أصبحت الآن فقراً يباباً. ذلك أن هذه الحقول النادرة قد استحالت الآن صحارى رملية. ولم يكن سبب هذا التغيير الجوبل كان سببه تبدل الحكم - من دولة تضمن للبلاد الأمن الاقتصادي والنظام إلى أخرى تركت العنان للفوضى والإهمال يخربان الطرق والخزانات وقنوات الري.

وكان على رأس هذا الرخاء المستعاد مدينة قرطاجنة التي بعثت وقتئذ بعثاً جديداً. ذلك أن أغسطس قد احتضن بعد وقعة أكتيوم مشروع كيبوس وقيصر الذي أخفق من قبل، وأرسل إلى قرطاجنة بعض الجنود الذين أراد أن يعرضهم عم إخلاصهم وانتصارهم أرضاً يهبها لهم. وسرعان ما انتزعت قرطاجنة مرة أخرى من يثكا تجارة الإقليم الصادرة منه والواردة إليه، وذلك بفضل موقعها الجغرافي الممتاز، ومرافأها الجيد، ودال نهر بجر داس الخصبة، والطرق الصالحة التي أنشأها المهندسون والرومان أو أعادوا فتحها؛ ولم يمض على تأسيس المدينة الجديدة قرن واحد حتى أضحت أكبر مدائن الولايات الغربية، وأقام أغنياء التجار والملك قصوراً فخمة على ثل برسا Byrsa التاريخي، أو بيوتاً صغيرة ذات حدائق في الضواحي الشجرية؛ أما الفلاحون الذين تركوا الأرض لعجزهم عن منافسة أصحاب الضياح الكبرى فقد انضموا إلى صعاليك المدن وإلى الأرقاء، وعاشوا في أحياء وبيوت قذرة حياة العدم والفاقة التي جعلتهم يرحبون فيما بعد بدعوة المسيحية إلى المساواة. وقامت البيوت في المدينة من ست طبقات أو سبع، وتلالاً الرخام في المباني العامة، وغصت الشوارع والميادين بالتمائيل المنحوتة على الطراز اليوناني. وشيئت الهياكل من جديد للآلهة القرطاجيين القديمة، وظل ملكارت Melkart حتى القرن الثاني بعد الميلاد يستمتع بالضحايا

صفحة رقم : 3737

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> أفريقية

من أطفال الأحياء(9). وأخذ أهل البلاد ينافسون الرومان في حب الترف، وأدهان التجميل، والحلي والشعر المصبوغ، وسباق العربات، وألعاب المجالدين. وكان من بين المناظر البارزة في المدينة حماماتها العامة العظيمة التي وهبها لها ماركس أورليوس. وكانت فيها قاعات للمحاضرات، ومدارس لتعليم البيان، والفلسفة، والطب، والقانون، مما جعل قرطاجنة مدينة جامعية لا يفوقها من هذه الناحية إلا أثينة والاسكندرية، وقد إليها أبوليوس Apuleius وترتليان Tertullian ليدرسا فيها جميع فروع العلم، وقد دهش القديس أغسطين من مرح الطلاب وفساد أخلاقهم، فقد كان يحلو لهم أن يفتحموا قاعات المحاضرات ويخرجوا منها الأستاذ وتلاميذه(10). وكانت قرطاجنة حاضرة الولاية المسماة أفريقية ومحلها الآن شرقي بلاد تونس. ونشأ من رواج التجارة في جنوبي هذه المدينة على الشاطئ الشرقي طائفة من المدن أخذت ثروتها القديمة تعود إليها بعد اثني عشر قرناً من الزمان حتى دهمتها الحروب في هذه الأيام، ومن هذه المدن القديمة حضرمنت Hadrumentum (ومحلها الآن سوسة) ولبتس Leptes الصغرى، وثبوسوس Thapsus وتكابى Tacapae (فابس الحالية). وكان إلى شرقيها على البحر الأبيض إقليم يدعى تريبوليس Tripolis (طرابلس) وسمي كذلك لأنه حلف مكون من ثلاث مدن: أوبا Oea (طرابلس الحالية) التي أسسها الفينيقيون قبيل عام 900 ق.م، وسبراته Sabrata ولبتس مجنا (الكبرى) (لبدة الحالية). وهذه البلدة الأخير هي مسقط رأس الإمبراطور سبتيميوس Septimius Sevrus فقد ولد فيها عام 146م؛ وهبها في حياته بأسلفاً وحماماً عاماً تدهش آثاره السائح أو المحارب في هذه الأيام. وكانت طرق مرصوفة تسير عليها قوافل الإبل

تصل هذه الثغور بالمُدن الداخلية: سفتولا Safetula وهي الآن قرية صغيرة بها آثار هيكل روماني عظيم؛
وThysdrus (الجم)، وكان فيها مدرج

صفحة رقم : 3738

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> أفريقية

يُتسع لستين ألف، وثجا Thugga (دجا) التي تشهد خرائب ملهاها ذي العُمد الكورنثية الرشيفة بئراء أهلها وحسن
دوقهم. وكانت في شمال قرطاجنة أمها ومناقستها القوية ينكا Ytica؛ وفي وسعنا أن نلمح ما كانت عليه من ثراء في
عهد الرومان، إذا عرفنا أن ثلاثمائة من رجال المصارف وبائعي الجملة من الرومان كانت لهم فروع فيها عام 46
ق.م. وكان الإقليم التابع لها يمتد شمالاً إلى هيو دير هيتس Hippo Diarrgytus (بنزرت الحالية)، وكان يمتد فيها
طريق محاذٍ لشاطئ البحر متجه نحو الغرب يصلها بمدينة هيو رجيوس Hippo Rigius (بونة)، التي أضحت بعد
زمن قليل كرسي أبرشية القديس أوغسطين. وكان إلى جنوبيها في الداخل مدينة سرته Cirta (قسطنطينية) عاصمة
ولاية نوميديا، وفي غرب هذه المدينة الأخيرة بلدة ثمجادي Thomuhadi (ثمجاد)، التي تكاد تحتفظ بآثارها احتفاظ
بمبي؛ ففيها الشوارع المرصوفة المعمدّة، والمجاري المسقفة، وفيها قوس نصر ظريف، وسوق عامة، وبناء مجلس
الشيوخ، وباسلقا، وهياكل، وحمّامات، وملهى، ومكتبة، وبيوت خاصة كثيرة. وقد عثر في أرض السوق على لوحة
للعبد الداما نقشت عليها هذه العبارة: Venari, Iavare. Iudere, ridere, hoc est vivere - ومعناها "الصيد،
والاستحمام، واللعب، والضحك، هذه هي الحياة" (12). والفيلق الثالث الذي كان وحده يحرس الولايات الأفريقية هو
الذي أنشأ ثمجادي حوالي عام 117م. ثم اتخذ في عام 123 مركزاً لقيادته يقيم فيه أكثر مما يقيم في ثمجادي ويبعد
عنها بضعة أميال نحو الغرب، وأنشأ في مدينة لمبيسيس Lambaesis (لمبيز). وهنا تزوج الجنود واستقروا، وعاشوا
في بيوتهم أكثر مما كانوا يعيشون في المعسكر. ولكن معسكرهم نفسه كان مرحاً، فخماً، جميل الزينة، به حمّامات لا
تقل جمالها عن أية حمّامات أخرى في أفريقية. أما في خارج المعسكر فقد أعانوا الأهلين في بناء هيكل لجوبيتر، وعدد
من الهياكل، وأقواس النصر، ومدرج يقام فيه صراع ويحدث فيه الموت فيخففان من ملل الحياة السليمة الرتيبة.
وكان الذي مكن فيلقاً واحداً من حماية أفريقية الشمالية من القبائل المغيرة الضارية في الداخل هو إنشاء شبكة من
الطرق، كان الغرض الأول منها عسكرياً ولكنها كانت عظمة النفع من الناحية التجارية، وكانت تربط قرطاجنة
بالمحيط الأطلنطي، والصحراء بالبحر الأبيض المتوسط. وكان للطريق الرئيسي ينجح نحو الغرب من سرته إلى
قيصرية عاصمة (مراكش)؛ وهنا نشر الملك جوبا الثاني Juba II أساليب الحضارة بين موري Mauri أي السود
(المغاربة) الذين اشتق اسمهم من اسم الإقليم في الزمن القديم واسمه في هذه الأيام. وكان جوبا الثاني هذا ابن جوبا
الذي مات في ثبوس، وأخذ وهو طفلاً إلى روما ليزدان به موكب قيصر؛ ثم عفى عنه، وأخذ يدرس في روما حتى
أصبح من جهاذة العلماء في أيامه. وعينه أغسطس قيلاً على موريتانيا وأمره أن ينشر بين أهل وطنه الثقافة
الرومانية التي جدّ في تحصيلها. ونجح في هذه المهمة، وكان من أسباب نجاحه أن امتد حكمه ثمانية وأربعين عاماً؛
ولشدّ ما كانت دهشة رعاياه حين رأوا رجلاً يكتب الكتب ويحكم. وجاء كلجوبولا بابن جوبا هذا إلى روما وأماته
جوعاً، وضم كلوديوس مملكته إلى روما وقسمها ولايتين: موريتانيا سيزرينسس Caesariensis (موريتانيا
القيصرية) وموريتانيا تنجتانا Tingitana (موريتانيا التنجتانية) نسبة إلى عاصمتها تنجيس Tingis، وهي طنجة
الحالية.

وكان في هذه المُدن مدارس كثيرة مفتحة الأبواب للفقراء والأغنياء على السواء. ونسمع أنه كان يدرّس فيها الاختزال
(13)، ويسمى جوفتال أفريقية مربية المحامين (14). وقد أنجبت في هذا العهد مؤلّفين أحدهما صغير والآخر كبير -

هما فلنتو وبوليوس. ولكن الأدب الأفريقي لم تكن له الزعامة على آداب العالم إلا أيام مجده في عهد المسيحية. وكان لوسيوس أبوليوس شخصية غريبة جديرة بالتصوير، أكثر من شخصية منكاني المتعدد الكفايات. وكان مولده في

صفحة رقم : 3739

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> أفريقية

مدورا Madaura من أسرة عريقة النسب (124م)، وقد درس فيها وفي قرطاجنة وأثينة، وبدد ثروة كبيرة ورثها عن أسرته، وأخذ ينتقل من مدينة إلى مدينة ومن دين إلى دين، وانضم إلى الجماعات ذات الطقوس الدينية الخفية ومارس السحر وألف كتباً كثيرة في موضوعات تختلف من اللاهوت إلى مسحوق الأسنان، وألقى محاضرات في الفلسفة والدين في روما وغيرها من المدن، ثم عاد إلى أفريقية وتزوج في طرابلس من سيدة تكبره وتفوقه في الثراء. فلما فعل هذا رفع أصدقائها وورثتها المنتظرون الأمر إلى القضاء مطالبين بالغاء الزواج، واتهموه بأنه حصل على موافقة السيدة عليه بفنون السحر؛ ودافع الرجل عن نفسه أمام المحكمة بخطبة وصلت إلينا بعد أن أدخل عليها بعد أيامه كثيراً من الصقل والتنميق، وكانت نتيجتها أن كسب القضية والزوجة، ولكن الناس أصروا على الاعتقاد بأنه ساحر؛ ولما ظهر المسيح أخذ حلفاء هؤلاء القوم يحيطون من قدره بتعداد معجزات أبوليوس. وقضى الرجل بقية حياته في مدورا وقرطاجنة يمارس صناعاتي الحمامة والطب، وكتابة الرسائل والخطب، ولكن معظم ما كتب كان في الموضوعات العلمية والطبيعية؛ وقد أقامت له مدينته نصباً تذكاريًا نُقشت عليه باللاتينية العبارة الآتية: الفيلسوف الأفلاطوني، ولو أنه استطاع العودة إلى الحياة لساءه ألا يذكره الناس إلا بكتابه الحمار الذهبي.

وهذا كتاب شبيه كل الشبه بكتاب ساتريكون Satyricon لمؤلفه بترونيون، بل هو أكثر منه غرابة وشدوذاً. وكان الاسم الأول لهذا الكتاب هو أحد عشر كتاباً في التحول Metamorphoseon Lebri Xi، وهو توسع غريب في قصة رواها لوسيوس البتراسي عن رجل انقلب حماراً. ويتألف من سلسلة غير مرتبطة من المغامرات، والوصف، والحوادث المحشورة فيها حشراً، يتخللها السحر، والرعب، والفحش في القول، والحديث عن التقوى المرجاة.

صفحة رقم : 3740

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> أفريقية

ويروي لوسيوس بطل القصة كيف طاف بتساليا واستمتع فيها بعدد من الفتيات وألقى نفسه أين ما حل في جور من السحر. ومما جاء في هذا الكتاب:
"وما كاد الليل ينقضي وبيزغ فجر يوم جديد حتى كان من حظي أن أستيقظ، وأن أقوم من فراشي وأنا نصف مدهول، راغب حقاً في أن أعرف وأرى أشياء عجيبة محيرة... والحق أنني لم أكن أرى شيئاً أعتقد أنه كما أراه في الواقع؛ بل أن كل شيء بدالي أنه قد تحول إلى صور أخرى بتأثير قوة السحر الخبيثة. وبلغ من قوة اعتقادي هذا أن ظننت أن

الحجارة التي قد تعثر بها قدمي تصلّبت واستحالت من رجال إلى الصورة التي هي عليها، وأن الطيور التي سمعتها تغرد، والأشجار والمياه الجارية، استحالت إلى هذا الريش والورق ومنابع الماء، من صور أخرى غير هذه الصور. وكذلك ظننت أن التماثيل والصور ستتحرك في مستقبل الأيام، والجدران ستتكلم وتروي أخباراً عجيبة، وإني سأسمع من فوري وحيّاً من السماء ومن شعاع الشمس (15).

والآن وقد أصبح لوسيو مستعداً لأية مغامرة يريدّها، يقول انه يدلك جسمه بمرهم سحري، وهو شديد الرغبة في أن يستحيل طائراً؛ ولكنه يدلك نفسه بهذا المرهم يستحيل حماراً. وتروي القصة بعدئذ ما يلقاه من المحن ذلك الحمار "الذي له إحساس الإنسان وإدراكه". وكانت سلواه الوحيدة هي "أدني الطويلتين اللتين أستطيع بهما أن أسمع كل شيء ولو كان شديد البعد عني". وقد قيل له أنه سيعود إلى صورته الأدمية إذا عثر على وردة وأكلها، وهي أمنية يدركها بعد أن يمر بطائفة كبيرة من الحظوظ الحمارية منها ما هو طيب ومنها ما هو سيئ. ثم كره الحياة، فلجأ أولاً إلى الفلسفة، ثم إلى الدين؛ وألف دعاء يشكر فيه إيزيس شكراً بينه وبين ابتهاج المسيحيين إلى أم الإله شبه عجيب (16). ثم يلحق رأسه ويُقبل في الطبقة الثالثة من أتباع إيزيس المبتدئين. ويرصف طريقاً يعود به إلى الأرض بعد أن يفسر حلاًماً بأمره فيه أوزريس "أعظم الآلهة" بأن يعود إلى وطنه ويشغل بالقانون.

صفحة رقم : 3741

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> أفريقية

وما أقل الكتب التي تحوي كل ما يحتويه هذا الكتاب من السخف، ولكن أقل منها ما يعبر عنه سخفه بعبارة تماثل عبارة هذا الكتاب في طلاوتها. ذلك أن أبوليوس يحاول فيه كل أنواع الأساليب، ويلبس كل أسلوب حوله أجمل لباس؛ وأكثر ما يحبه من الأساليب، هو الأسلوب المطنب المنمق المسجوع المتجانس الأحرف في بداءة الألفاظ، المليء بالعبارات العامية الطريفة، والألفاظ القديمة المهجورة، والكلمات المصعرة العاطفية، والنثر الموزون الشعري في بعض المواضع. وقصارى القول أن الكتاب يضم إلى الأسلوب الشرقي القوي ما في الشرق من غموض وشهوانية. ولعل أبوليوس قد أراد أن يشير من طرف خفي، مستنداً إلى تجاربه الخاصة، إلى ان الانهماك في الشهوة الجنسية يذهب بالعقل ويبدل الأدميين بهائم، والى أن السبيل الوحيدة التي يعودون بها إلى آدميتهم اقتطاف زهرة الحكمة والصلاح. وهو يبدو أحسن ما يكون في القصص العارضة التي يلتقطها بأذنيه القويتين الدوارتين؛ كما نرى في قصة العجوز التي تسلي فتاة بأن تروي لها قصة كيوبت وسيكي (17) - فتخبرها كيف وقع ابن الزهرة (فينوس) في حب فتاة حسناء، وهياً لها كل أنواع السرور إلا سرورها برؤيته، وأثار غيرة أمه الشديدة، ثم نالت آخر الأمر سعادتها في السموات العلى. ولسنا نعرف مصوراً، بز بقلمه لسان هذا الأثيب السليط، في رواية هذه القصة القديمة.

صفحة رقم : 3742

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> أسبانيا

إذا عبرنا المضيق من طنجة انتقلنا من ولاية من أقدم ولايات روما إلى ولاية من أحدثها. وتقع أسبانيا في موقع عظيم الخطر من الناحية الحربية، عند مدخل البحر الأبيض المتوسط، وفي جوف أرضها معادن ثمينة كانت نعمة عليها ونقمة روت أرضها بدماء الشره، وتخرقها سلاسل الجبال التي تعوق سبل الاتصال، وامتزاج السكان ووجدتهم. وقد أحسّت أسبانيا بحمي الحياة الشديدة من اليوم الذي كان فيه الفنانون في العصر الحجري القديم يصورون الثور الوحشي (البيزن) على جدران الكهوف في ألتميرا إلى أيامنا الحاضرة المضطربة. ولقد ظل الأسبان ثلاثين قرناً شعباً حربياً ذا عزة وأنفة، وأجسام نحيلة قوية، وشجاعة وجلد، وكانوا ولا يزالون أصلاب الرأي، أقوياء العاطفة، يمتازون بالزراعة والاكتئاب، والاقتصاد وكرم الضيافة، والمجاملة والمروءة، يسهل استثارة بغضهم، ويسهل أكثر من هذا استثارة حبهم. ولما جاء الرومان إلى بلادهم وجدوا فيها سكاناً يتألفون حتى في ذلك الوقت البعيد من أجناس مختلفة يتعذر فصل بعضها عن بعض: منهم الإمبرييون من أفريقية، واللجوريون من إيطاليا، والكلت من غاليا، وعلى رأسهم طبقة من القرطاجنيين. وإذا جاز لنا أن نصدق الرومان الذين فتحوا بلادهم قلنا أن الأسبان كانوا قبل الفتح الروماني شعباً قريباً من الهمجية، يعيش بعضه في مدن وبيوت، وبعضه في قرى وأكواخ وكهوف، بنام على أرض الحجرات أو على الطين، ويغسل أسنانه بالبول المعثق (18). وكان الرجال يلبسون عباءات سوداء والنساء يرتدين "مآزر طوالاً"

صفحة رقم : 3743

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> أسبانيا

وجلابي زاهية الألوان"، وبضيف استرابون إلى هذا قوله في سياق اللون والتأنيب "إن النساء يرقصن مع الرجال ويمسكنهم بالأيدي(19)".
وقد أنشأ سكان جنوب أسبانيا الشرقي - في ترسوس وهي ترشيش Tarshish الفينيقية - حوالي عام 2000 ق.م صناعة البرنز، وكانوا يبيعون منتجاتها في جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط. وأنشأت ترسوس أساس هذه الصناعة، في القرن السادس قبل الميلاد، أدياً وفناً قال أهلها إن عمرهما كان في ذلك الوقت يبلغ ستة آلاف عام. على أنه لم يبقَ من آثار الفن سوى بضعة تماثيل فجة وتمثال نصفي متعدد الألوان منحوت من حجر الخرسان، وتمثال سيدة السكي Eicke المشابه للتماثيل اليونانية والنحوت على نمط كلتي قوى فياض. وشرع الفينيقيون حوالي عام 1000 ق.م يبحثون عن ثروة أسبانيا المعدنية، ولم يحل عام 800 حتى استولوا على قادس ومالقة Malaga وشادوا فيهما هيكليين عظيمين. ثم استقر المستعمرون اليونان حوالي عام 500 ق.م على الساحل الجنوبي الشرقي؛ وفي ذلك الوقت عينه أو حواليه استعان الفينيقيون ببني عمومهم القرطاجنيين لإخماد ثورة في البلاد ففتحوا ترسوس وجميع أسبانيا الجنوبية والشرقية. وكان من أثر استغلال القرطاجنيين لشبه الجزيرة استغلالاً سريعاً بين الحرب البونوية الأولى والثانية أن فتح الرومان أعينهم على ما في البلاد التي يسمونها "أيبيريا" من موارد ثروة غنية، فكان تحرك سبيو إلى

أسبانيا هو الذي قضى آخر الأمر على انقضاء هنيبال على إيطاليا. ودافعت القبائل الأسبانية المفككة عن استقلالها دفاع الأبطال، فكان النساء يفضلن قتل أبنائهن على وقوعهم أسرى في أيدي الرومان، وكان الأسرى من الرجال ينشدون أغانيهم الحربية وهم يموتون مصلوبين (20). وتطلب فتح أسبانيا مائتي عام، ولكنها بعد أن تم فتحها كانت دعامة للدولة أقوى من معظم الولايات. وأحل ولدا جر اكس، وقيصر، وأغسطس سياسة المجاملة والاحترام محل سياسة القسوة التي كانت تجري عليها الجمهورية

صفحة رقم : 3744

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> أسبانيا

وأثمرت السياسة الجديدة أحسن الثمرات وأدومها، فأخذت البلاد تصطبغ اصطبغاً سريعاً بالصبغة الرومانية، واتخذ الأهلون اللاتينية لغة لهم بعد أن كيفوها بما يلائم طبيعتهم، ونمت اقتصاديات البلاد واتسعت، وأخذت تمد روما بالشعراء، والفلاسفة، وأعضاء مجلس الشيوخ والأباطرة. وظلت أسبانيا الدعامة الاقتصادية للإمبراطورية من أيام سنكا إلى عهد أورليوس، فأغنت المعادن الأسبانية روما كما أغنت من قبل صور ثم قرطاجنة؛ وكانت لإيطاليا كما كانت بلاد المكسيك وبيرو لها هي فيها بعد. فاستخرج من أرضها الذهب، والفضة، والنحاس، والقصدير، والحديد، والرصاص. وبذل فيها من العناية والدقة ما يبذل في استخراجها في هذه الأيام. ولا يزال في وسع المرء أن يرى في هذه الأيام مناجم عند ريو تينتو Rio Tinto بعيدة القرار محفورة في صخور الكوارتز الصماء، ويشاهد فضلات من الصخور باقية من أيام الرومان ولم يبق فيها إلا نسبة من النحاس يدesh الإنسان من ضالتها. وكان الأرقاء والأسرى يعملون في هذه المناجم يوماً بعد يوم، وكثيراً ما كانوا يقضون الشهور الطوال دون أن ترى أعينهم ضوء الشمس (22). ونشأت بجوار المناجم صناعات معدنية عظيمة. وكانت أرض أسبانيا في هذه الأثناء رغم ما فيها من جبال وقنوات جذباء تخرج الحلفاء التي تصنع منها الحبال الرفيعة والسميكة، والسلال، والفرش، والأخفاف، وتغذي الضأن وتخرج صناعة الصوف الذائعة الصيت، وتمد الإمبراطورية بأحسن ما عرفه الأقدمون من أنواع الخمور وزيت الزيتون. وكانت أنهار الوادي الكبير والتاجة والأبرة وغيرها من المجاري التي هي أصغر منها تساعد شبكة الطرق الرومانية على حمل غلات أسبانيا إلى ثغورها وإلى مدنها التي يخطئها الحصر.

والحق أن أعظم النتائج التي تمخض عنها الحكم الروماني في هذه البلاد نتيجة تمتاز بها الإمبراطورية الرومانية على سائر الإمبراطوريات وهي تضاعف عدد المدن أو اتساع رقعتها. فقد كان في ولاية بيتكا Baetica (الأندلس Andalusia

صفحة رقم : 3745

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> أسبانيا

الحديثة) مدائن كارتيا Carteia (الجسر) ومندا (Munda) ومالقة، وإيطاليكا (مسقط رأس طراجان وهديان)، وقرطبة، وهسبالس (أشبيلية)، وقادس. ونشأت قرطبة في عام 152 ق.م، وكانت مركزاً أدبياً عظيماً واشتهرت بما فيها من مدارس لتعليم فنون البلاغة، وفيها ولد لوكان، وسنكا الأكبر والأصغر، وجليو Gallio محرر القديس بولص. وقد احتفظت هذه المدينة بتقاليدها العلمية حتى العصور الوسطى، وبفضلها كانت قرطبة أعظم مدن أوروبا علماً. وكانت قادس أكثر مدائن أسبانيا سكاناً، وكانت غنية عنى فاحشاً. ذلك أنها لوقوعها عند مصب نهر الوادي الكبير كانت تسيطر على تجارة المحيط الأطلنطي مع غرب أفريقية، وإسبانيا، وغالا، وبريطانيا؛ وقد أضافت فتياتها الرافصات الرشيقات قدراً لا بأس به إلى شهرتها.

وكانت بلاد البرتغال تعرف عند الرومان بإسم لوزتانيا Lusitania، كما كانت لشبونة تعرف عندهم بإسم أولزيبو Olisipo. وقد أقام مهندسو تراجان جسراً على نهر الناجة عند نوربا قيصرية Norba Caesarcna (التي أطلق عليها العرب اسمها الحديث القنطرة) هو أكمل جسر روماني بقي على حالته حتى اليوم. ولا تزال عقود الفخمة التي يبلغ اتساعها مائة قدم والتي تعلو مائة وثمانين قدماً فوق قاع النهر، وتحمل طريقاً من أربعة دروب كثيرة الحركة. وكانت عاصمة لوزتانيا هي مدينة أمرينا (مريده Merida) وكانت تزهو بما فيها من تماثيل كثيرة، وبناتل قنوات لجر مياه الشرب، وبحلبة للألعاب، ودار للتمثيل، وبحيرة لتمثيل المعارك البحرية، وقنطرة طولها 2500 قدم. وكان إلى شرقيها في ولاية تراكنسس Tarraconensis مدينة سجوفا Segovia التي لا تزال تستمتع بالمياه النقية تحملها إليها قناة أنشئت في عهد تراجان. وكان إلى جنوبها مدينة طليطم (طليطلة Toledo الحديثة) التي اشتهرت في عهد الرومان بما فيها من مصانع الحديد، وقامت على الساحل الشرقي مدينة نوفا كرتاجو Nova Carthago

صفحة رقم : 3746

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمددين الغرب -> أسبانيا

قرطاجنة الحديثة) التي أثرت من مناجمها، ومصائد سمكها، وتجارتها. وكان في البحر الأبيض بالقرب من أسبانيا جزائر البليار، وكانت فيها مدينتا بلما Palma، وبولنتا Pollentia. وكانتا في ذلك العهد مدينتين قديمتين مزدهرتين. وكان على الساحل الشرقي نحو الشمال مدائن بلنسية، وتراكو (Tarrac's (Tarragona (طرقونة) وبرسينو (برشلونة)، وكان إلى جنوب جبال البرانس مباشرة بلدة إمبروريا Emporiae القديمة. فإذا ما سار المسافر في سفينته مسافة قليلة حول حافة الجبال الشرقية ألقى نفسه في بلاد غالة.

صفحة رقم : 3747

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمددين الغرب -> غالة

لقد كان في مقدور جميع السفن ذات الحمولة المتوسطة، بما فيها سفن المحيطات أن تسير في تلك الأيام في نهر الرون من مرسيليا إلى ليون. أما القوارب الصغيرة فكانت تستطيع مواصلة السير إلى ما يقرب من أربعين ميلاً من نهر الرون الأعلى. فإذا نقلت البضائع بعد ذلك مسافة قصيرة فوق أرض مستوية استطاع الناس بعدها أن ينقلوها بالسفن مارة بمائة مدينة وألف قصر صغير إلى بحر الشمال. وكانت قفزات أرضية شبيهة بهذه القفزة تؤدي من الرون والساوون إلى اللوار وإلى المحيط الأطلنطي، ومن الأود Aude إلى الجارون وبردو، ومن الساوون إلى السين وبحر المانش. وكانت التجارة تسير في هذه الطرق المائية، ونشأت بفضلها مدائن عند ملتقاها، وكانت فرنسا، كما كانت مصر، هبة مجاريها المائية.

ويمكن القول أن الحضارة الفرنسية - بأحد المعاني التي يمكن أن تفهم من لفظ الحضارة - بدأت منذ أيام "الرجل الأوريناسي Ourignacian man" أي قبل ميلاد المسيح بثلاثين ألف عام، فقد كان في هذا الوقت البعيد، كما تدل كهوف منتنيك Montignac، فنانون يستطيعون أن يصوروا بالألوان الزاهية والخطوط الواضحة. ثم انتقلت فرنسا حوالي عام 12000 ق.م من ذلك العصر الحجري القديم، عصر الصيد والرعي، إلى حياة الاستقرار وفتح الأرض في العصر الحجري الحديث، وانتقلت منه بعد عشرة آلاف عام طوال إلى عصر البرنز. وحوالي عام 900 ق.م أخذ جنس جديد هو الجنس "الألبي" المستدير الرؤوس يتسرب إلى البلاد من ألمانيا، وينتشر في فرنسا، ومنها إلى بريطانيا وإيرلندا،

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> غالة

ثم ينزل إلى أسبانيا. وجاء هؤلاء، "الكلت" معهم بثقافة هولستات Hallstatt الحديدية من النمسا. ثم استوردوا من سويسرا حوالي عام 550 ق.م فن لاتين La Te`ne في صناعة الحديد، وكان قد تقدم تقدماً كبيراً في سويسرا. وسمت روما فرنسا أول ما عرفتها بإسم كلتيكا Celtica ولم يتغير هذا الاسم إلى غالة Gallia إلا في عهد قيصر. وغلب المهاجرون أهل البلاد أو فاقوهم في عددهم، واستقروا قبائل مستقلة لا تزال أسماؤها تتم عليها المدن التي شادوها. ويقول قيصر إن الغالبيين كانوا قوماً طوال القامة، وأقوياء الأجسام، ظاهري العضلات (23)، يمشطون شعرهم الغزير الأشقر ويرسلونه خلف رؤوسهم وعلى أفتيتهم، وكان بعضهم يطبلون لحاهم، والكثيرون منهم يتركون شواربهم تنتشى حول أفواههم. وقد نقلوا معهم من بلاد الشرق، وربما كان ذلك عن الإيرانيين الأقدمين، عادة لبس السراويل القصيرة، وأضافوا هم إليها رداء مصبوغاً بالألوان كثيرة ومطرزاً بالأزهار، ومن فوقه عباءة مخططة تتدلى من الكتفين، وكانوا مولعين بالجواهر، ويتزينون في الحروب بالحلي الذهبية - إن لم يكن عندهم ما هو أتمن منها (24). وكانوا يكثرون من أكل اللحم، وشرب الجعة والخمر غير المخفف بالماء، لأنهم كانوا "سكيرين بفطرتهم"

إذا جاز لنا أن نصدق أبيان(25). ويصفهم أسترابون بأنهم قوم "سدج.. ذوو شمم وكبيراء، لا يطيقهم أحد إذا انتصروا، وتطير نفوسهم شعاعاً إذا غلبوا"(26)، ولكن علينا ألا نثق كل الثقة بهذه الأقوال لأنه ليس من الخير

صفحة رقم : 3749

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> غالة

في كل الأحوال أن يكتب عن الناس أعداؤهم. وقد اشمزت نفس بوسيدونيوس حين رآهم يعلقون رؤوس أعدائهم بعد فصلها عن أجسامهم في رقاب جيادهم(27). وكان يسهل استئثارهم للجدول والقتال، وكانوا في بعض الأحيان يسألون أنفسهم في المآدب بأن يتبارزوا حتى يقتلوا بعضهم بعضاً. ويقول عنهم قيصر: "إنهم كانوا أكفاء لنا في الشجاعة وفي التحمس للحرب"(28)، ويصفهم أميناس مرسلينس Ammianus Marcellinus بأنهم: "مهما تكن سنهم يلبقون للخدمة العسكرية، فالشيخ منهم يخرج للحرب وهو لا يقل شجاعة عن الشاب في مقتبل العمر... والحق أن سرية كاملة من الأجانب لتعجز عن الوقوف في وجه غالي واحد إذا دعا زوجته إلى تأييده، وهي في العادة أشد منه بأساً وأعظم شراسة، وخاصة إذا نفخت عنقها، وعضت على أسنانها، ولوّحت بذراعيها الضخمتين، وشرعت تكيل الربات ببديها وقدميها كأنها حجارة تُدْف من منجنيق".

وكان الغاليون يؤمنون بالهة كثيرة، نسي الناس كل أمرها فلا ضير عليها إذا لم نذكر أسماءها. وكان اعتقادهم بحياة سعيدة في الدار الآخرة قوياً إلى حد حمل قيصر على الحكم بأن هذا الإيمان كان له أكبر الأثر في شجاعة الغاليين. ويقول فاليريوس مكسمس: إن قوة هذه العقيدة كانت تدفع رجالهم إلى أن يُقرضوا المال على أن يردّ إليهم في الديار الآخرة، ويقول ليسدونيوس إنه رأى الغاليين في إحدى الجنازات يكتبون الرسائل إلى أصدقائهم المتوفين ويلقون بها على كومة الحريق حتى يحملها الميت إلى المرسلّة إليهم(30)؛ وليتنا نستطيع أن نستمتع برأي رجل غالي في هذه القصص الرومانية. وكان كهنتهم يشرفون على جميع شؤون التعليم، ويعنون كل العناية بغرس العقيدة الدينية في نفوس المتعلمين؛ وكانوا يقومون بطقوس دينية ذات روعة، يؤدونها في الأيك أكثر مما يؤدونها في الهياكل، ويسترضون الآلهة بتقديم الضحايا البشرية

صفحة رقم : 3750

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> غالة

يأخذونها من المحكوم عليهم بالإعدام لجرائم ارتكبوها؛ وقد تبدو هذه العادة همجية لمن لم يروا بأعينهم في هذه الأيام طريقة الإعدام بالكهرباء؛ وكان الكهنة هم الطائفة الوحيدة المتعلمة - ولعلها كانت الطائفة والوحيدة غير الأمية - في هذا المجتمع الغالي؛ وكانوا يؤلفون التراجم الدينية، والقصائد، ويكتبون السجلات التاريخية، ويدرسون النجوم وحركاتها، وحجم الكون والأرض، ونظام الطبيعة(31)، وقد وضعوا لأنفسهم تقويماً عملياً، وكانوا قضاة لهم نفوذ

كبير في بلاط ملوك القبائل. وكانت غالة قبل عهد الرومان، كما كانت في العصور الوسطى، تسير على النظام الإقطاعي المكتسب بثياب الحكم الديني. وبلغت غالة الكلتيّة ذروة مجدها تحت حكم هؤلاء الملوك والكهنة في القرن الرابع قبل الميلاد، وازداد عدد السكان لوفرة الإنتاج الناشئ عن أساليب لاتين La Te`ne الفنية، فأدى ذلك إلى سلسلة من الحروب للاستيلاء على الأرض، ولم يحل عام 400 ق.م حتى كان الكلت الذين يمتلكون معظم أوروبا الوسطى وغالة، قد استولوا على بريطانيا، وأسبانيا، وشمال إيطاليا. وفي عام 390 اندفعوا جنوباً نحو روما، وفي عام 278 نهبوا دلفي واستولوا على فريجيا؛ وبعد قرن من ذلك الوقت أخذت قوتهم في الاضمحلال؛ وكان بعض السبب في هذا لين طباعهم الناشئ من ثروتهم ومن تأثرهم بالأساليب اليونانية، وبعضه الآخر قوة أمراء الإقطاع السياسية. فكما أن الملوك قد قضوا في العصور الوسطى على قوة الأمراء وأنشئوا بعد القضاء عليها دولة موحدة، كذلك قضى أمراء الإقطاع في القرن السابق لظهور قيصر على سلطة الملوك، وتركوا غالة مقطعة الأوصال أكثر من ذي قبل. وأخذ الكلت يردون إلى الورا في كل مكان عدا أيرلندة، فأخضعهم القرطاجيون في أسبانيا، وأخرجهم الرومان من إيطاليا، وفتح الرومان في عام 125 ق.م جنوبي غالة لحرصهم على تأمين طريقهم إلى أسبانيا، وجعلوا تلك البلاد ولاية رومانية. وفي عام 58 ق.م استعاث زعماء الكلت بقيصر

صفحة رقم : 3751

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> غالة

ليساعدهم على صد غارة ألمانية، فأجابهم قيصر إلى ما طلبوا وحدد هو ثم هذه المعونة:
وأعاد قيصر وأغسطس تنظيم غالة فقسّمها أربع ولايات: غالة التربونية في الجنوب، وهي المعروفة للرومان باسم بروفنسيا Provincia ولنا باسم بروفانس Provence، وقد اصطبغت هذه الولاية إلى حد كبير بالصبغة اليونانية بسبب استيطان اليونان لشاطئ البحر الأبيض المتوسط، وأكوتانيا في الجنوب الغربي، ومعظم سكانها من الأيبيريين، وغالة اللدجونية Ludgonensis في الوسط، وكانت الكثرة الغالبة من أهلها من الكلت، وبلجيكا في الجنوب الشرقي وكثرة أهلها ألمان. وقد أقرت روما هذه الأقسام العنصرية وزادتها حدة لتتقي بذلك ثورتها الجامحة، فأبقت المقاطعات التي تسكنها القبائل المختلفة على حالها واتخذتها أقساماً إدارية. وكان الملاك هم الذين يختارون الحكام، وقد ضمنت روما ولاء هؤلاء الملاك بما كانت تقدمه لهم من عون د الطبقات الدنيا، ومنحت حق المواطنة الرومانية مكافأة منها للغالبيين المواليين لها الذين يؤدون لها خدمات قيمة. وكانت جمعية إقليمية تضم ممثلين يُختارون من كل مقاطعة تجتمع كل عام في مدينة ليون. وقد قصرت وظيفتها في أول الأمر على القيام بطقوس عبادة أغسطس، ولكنها ما لبثت أن انتقلت من هذا إلى التقدّم بملتمسات إلى الحكام الرومان، ثم أصبحت هذه الملتمسات توصيات ثم مطالب. وانتزعت شؤون القضاء من أيدي الكهنة، وبدد شملهم، واتبع القانون الروماني في فرنسا، وظلت غالة ما يقرب من قرن خاضعة مستسلمة للنيرو الجديد.

وحدث في عام 68م وفي عام 71م أن اندلع لهيب الثورة زمناً قصيراً بقيادة فندكس Vindex وسفيلس Civilis، ولكن الأهلين لم يقدموا إلا عوناً قليلاً لهاتين الحركتين، وفضلوا الاستمتاع بالرخاء، والأمن والسلام على حب الحرية.

صفحة رقم : 3752

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> غالة

وأصبحت في ظل السلم الرومانية من أغنى أقسام الإمبراطورية، وكانت روما نفسها تعجب من ثراء الأشراف الغالبيين الذين انضموا إلى مجلس الشيوخ في عهد كلوديوس، وأخذ فلورس Florus بعد مائة عام من ذلك الوقت يذكر الفرق بين ثراء غالة المزدهرة وضعف إيطاليا المضمحلة (33). فقد قُطعت الغابات لتفسح الأرض للزراعة، وجففت المستنقعات، وارتقت أساليب الزراعة حتى استخدمت حصادة آلية (34)، وانتشرت الكروم وأشجار الزيتون في كل مقاطعة، وكان بلني وكولملا Columella في القرن الأول الميلادي يمتدحان خمور برغندية وبردو. وكانت في البلاد ضياع واسعة يفلحها العديد وأفنان الأرض ويمتلكها أسلاف أمراء الإقطاع في العصور الوسطى، ولكن كان فيها أيضاً كثيرون من صغار الملاك، وكانت الثروة في غالة القديمة، كما هي في فرنسا الحديثة، موزعة توزيعاً أقرب إلى المساواة منه في أية دولة متمدنة أخرى. وتقدمت الصناعة بوجه خاص تقدماً سريعاً، فلم يحل عام 200م حتى أخذ صناعات الفخار والحديد ينتزعون أسواق ألمانيا وأسواق الغرب من إيطاليا، والنساجون الغالليون يقومون بالجزء الأكبر من صناعة النسيج في الإمبراطورية، وحتى كانت مصانع ليون تُخرج الزجاج التجاري وأدوات زجاجية ذات روعة فنية ممتازة (35). وكانت البراعة الفنية في الصناعة يتوارثها الأبناء عن الآباء، حتى أضحت جزءاً ثميناً من التراث الروماني، وكانت الطرق التي أصلحها الرومان أو أنشئوها والتي يبلغ طولها 13000 ميل غاصّة بأدوات النقل والتجارة.

وأثرت بلدان كلتيكا القديمة بفضل هذه الحياة الاقتصادية المتسعة، فأصبحت مدائن كبرى في غالة الرومانية، فكانت بردجالا Burdegala (هي بردو الحالية) عاصمة أكوثانيو من أكثر ثغور المحيط الأطلنطي حركة وتجارة، وكانت ليمونم Limonum (ليموج) وأفريكم Avaricum (بورج). وأغسطنتم Augustonemetum (كيرمون - فران Clermont. Ferraand) مدائن غنية.

صفحة رقم : 3753

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> غالة

حتى قد استطاعت هذه المدينة الأخيرة أن تقدم لزودوتس Zenodotus أربع مائة ألف سسترس ليقيم بها تمثالاً ضخماً لعطارد (36). وفي غالبا التريونية بلغت المُدن من الكثرة درجة جعلت بلني يصفها بأنها "أشبه بإيطاليا منه بولاية من ولاياتها" (37). وكان في الجهة الغربية مدينة طولوزا Tolosa (طولوز الحالية) التي اشتهرت بمدارسها، وكانت ناربو Narbo نربونة (Narbonne) عاصمة الولاية في القرن الأول الميلادي أعظم مدائن غالة، وأهم الثغور التي تصدر منها غلاتها إلى إيطاليا وأسبانيا، وقد وصفها سيدونيوس أبليينارس Sidonius Apollinaris بقوله إن "فيها أسواراً، وطرقاً للتنزه، وحنات، وعقوداً وأروقة ذات عمد، وسوقاً عامة، وملهى، وهياكل وحمّامات، وأسواقاً للبيع والشراء، ومراعي، وبحيرات، وقنطرة، وبحراً" (38). وكان إلى شرق هذه المدينة على طريق دوميتيا العظيم الذي يصل أسبانيا بإيطاليا بلدة نموسس Nemousus (نيمز Nimes). وقد شاد أغسطس والمدينة بيتها المربع Maison Carre الجميل تخليداً لذكرى حفيديه لوسيوس وكيبوس قيصر؛ ومما يدعو إلى الأسف أن أعمدته الداخلية داخلية في جدران المحراب، ولكن أعمدته الكورنتية المنفصلة لا تقل جمالاً عن أية عمد في روما. ولا تزال الاحتفالات تقام من آن إلى آن في مدرجها الذي كان يتسع لعشرين ألفاً من النظارة. وتحولت القناة الرومانية التي كانت تنقل الماء العذب إلى روما على مر الزمن إلى قنطرة نهر جار Gard ولا تزال العقود السفلى لهذه القنطرة قائمة إلى اليوم في صورة

آثار ضخمة محطمة في الريف العابس القريب من المدينة تظهر بجلاء ما بينها وبين العقود الصغرى التي فوقها من إختلاف، وتشهد هذه وتلك بعظمة فنون روما الهندسية.
وأنشأ قيصر شرق هذه المدينة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط مدينة أرلات (Arelate (أرل الحديثة Arles) ظلنا منه أنها ستحل محل مساليا (Massalia) المشاكسة؛ فتكون مركزاً لبناء السفن وثغراً تجارياً هاماً. وكانت

صفحة رقم : 3754

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> غالة

مساليا (مرسيليا) مدينة قديمة حين ولد قيصر، وبقيت يونانية بلغتها وثقافتها إلى آخر أيامه، وكانت فنون الزراعة، وعرس الأشجار، وزراعة الكروم، والثقافة اليونانية قد دخلت بلاد غالة من مرفأ هذه الفُرصة البحرية. وفيها بنوع خاص كانت أوربا الغربية تستبدل بغلاتها حاصلات بلاد اليونان والرومان، وكانت إلى هذا من أعظم مراكز الجامعات في الإمبراطورية، وكان أعظم ما اشتهرت به مدرسة الحقوق. وقد اضمحل شأنها بعد قيصر ولكنها ظلت ما كانت مدينة حرّة مستقلة في شؤونها عن حاكم الولاية. وكان يليها من جهة الشرق فورم لولياي (Forum Lulii (فريجو Frejus)، وأنتبوليس Antipolis (أنتيب Antibes) ونيسيا Nicaea (ميس)، ويتألف منها كلها ولاية الألب البحرية الصغيرة. وإذا انتقل المسافر في نهر الرون من أرلات وصل إلى أفنيو Avenio (أفنيون الحديثة Avignon) وأروسيو Arausio (أورانج Orange) وقد بقي في هذه المدينة الأخيرة قوس عظيم من أيام أغسطس؛ وفيها أيضاً ملهى روماني ضخم لا تزال تمثل فيه مسرحيات قديمة.
وكانت أكبر ولايات غالة هي غالة اللجدونية، وسميت كذلك نسبة إلى عاصمتها لجدونم Lugdunum (ليون الحالية). وكانت هذه العاصمة تقع عند ملتقى الرون والساؤون وملتقى عدة طرق برية كبرى أنشأها أجربا، ولذلك أضحت المركز التجاري لإقليم غني وعاصمة لغالة كلها. وقد استطاعت بفضل ما قام فيها من صناعات الحديد والزجاج والخزف أن تقبل في القرن الأول الميلادي عدداً من السكان بلغ حوالي مائتي ألف (40). وكان إلى شمالها بلدة كيلونم Cabillonum (شالون - على - الساؤون Chalon - sur - Saone) وقيصردونم Caesarodunum (تور Tours الحالية) وأغسطدونم Augustodunum (أوتون Outun الحالية) وسنابوم Cenabum (أورليان الحالية Orleans) ولورتيريا Luteria (باريس الحالية). وكتب الإمبراطور يولييان يصف هذه

صفحة رقم : 3755

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> غالة

المدينة الأخيرة فقال: "لقد قضيت الشتاء (357-358) في لوتيريا مدينتنا المحبوبة، لأن هذا هو الاسم الذي يطلقه الغاليون عن مدينة الباريزيين الصغيرة، وهي جزيرة في النهر... يعصر فيها الخمر الطيب (41).

وكانت ولاية بلجيكا التي تشمل أجزاء من فرنسا وسويسرا الحاليين بلاذاً لا يكاد أهلها يشتغلون بغير الزراعة؛ وكان معظم ما فيها من صناعات قليلة متصلاً بالقصور الصغيرة ذات الحدائق التي تدل بقاياها الكثيرة على أن أصحابها كانوا من الأشراف الذين يعيشون معيشة الدعة الوترف. وفي هذه الولاية أنشأ أغسطس المدائن المعروفة الآن بأسماء سواسون Soissons، وسان كنتن St. Quentin، وسنلي Senlis، وبوفيه، وتريف Treves، وازدهرت آخر هذه المدن، وكانت تسمى أغسطس ترفورم Augusta Trevirorum لأنها كانت مركز قيادة الجيش المدافع عن الرين، وأصبحت في أيام دقلديانوس عاصمة غالة بدل مدينة ليون، وصارت في القرن الخامس أكبر مدينة في شمال جبال الألب، ولا تزال حتى الآن غنية بآثارها الرومانية القديمة - فلا تزال البورتا نجرا Porta Nigra محتفظة بأسوارها الرومانية، ولا تزال فيها حمامات سانت بربارا، وفي إيجل Igel القريبة منها مقبرة أسرة سكنديني، وفي نوماجين Neumagen المجاورة لها النقوش الفجة التي كانت على كتل الحصن الحجرية. وبُذلت الحياة حول هذه المدن ظاهراً تبدلاً بطيناً وُجِّدَت عناصرها في عناد شديد فاحتفظ الغاليون بحقهم، وسراويلهم القصيرة، وظلوا ثلاثة قرون محتفظين بلغتهم ولكن اللغة اللاتينية غلبتهم على أمرهم في القرن السادس. وكان أكبر السبب في هذه الغلبة استخدامها في الكنيسة الرومانية، ولكنها كانت وقتئذ قد شذبت ورخمت حتى صارت فرنسية. ونالت روما أعظم فوز لها في غالة بنقل الحضارة الرومانية إليها. ويرى بعض كبار المؤرخين الفرنسيين أمثال جوليان وفنك برنتانو

صفحة رقم : 3756

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> غالة

Funck Brentano أن فرنسا كانت تكون خيراً مما هي لو لم تفتحها روما، ولكن مؤرخاً آخر أعظم من هذين المؤرخين يعتقد أنه لو لم تفتح روما غالة لفتحها ألمانيا حتماً، وأنه لو لم ينتصر قيصر في تلك البلاد كما يقول ممسن Mommsen:

"حدثت هجرة الشعوب قبل حدوثها بأربعمئة عام، وفي وقت لم تكن الحضارة الإيطالية قد تأقلمت في غالة أو على ضفاف الدانوب، أو في أفريقية وأسبانيا. وبفضل ما كان للقائد والسياسي الروماني العظيم من بصيرة نافذة أدرك بها أن القبائل الألمانية هي العدو المنافس للعالم الروماني - اليوناني، وبفضل قوته وشدة بأسه التي استطاع بها أن يضع للدولة نظامها الجديد نظام الدفاع الهجومي بجميع تفاصيله ودقائقه ويعلم الناس أن يحصنوا حدود الإمبراطورية بالأنهار والأسوار الصناعية... بفضل هذا كله كسب للثقافة اليونانية - الرومانية الفترة التي لم يكن منها بد لتمدين الغرب" (44).

لقد كان نهر الرين هو الحد الفاصل بين الحضارة الرومانية - اليونانية وبين الحضارة البدائية؛ فأما غالة فلم يكن في وسعها أن تدافع عن هذا الحد، وأما روما فقد دافعت عنه، وكان دفاعها هذا هو الذي حدد مجرى تاريخ أوروبا إلى يومنا هذا.

صفحة رقم : 3757

الفصل الخامس

بريطانيا

عبر البحر من عالية حوالي عام 1200 ق.م من قبائل الكلت واستقر في إنجلترا. وقد وجدوا في تلك البلاد خليطاً من شعب أسود الشعر لعله أيبيري، وشعب أشقر الشعر اسكندناوي: وغلّب الكلت هؤلاء الأهلين على أمرهم، وتزوجوا منهم، وانتشروا في إنجلترا وويلز. حوالي عام 100 ق.م (وتقل تلك القرون الأحد عشر لأن أنانيتنا تحملنا على اختصار هذه الأحقاب المليئة بالحوادث وتمحو الأجيال الجلييلة الشأن من الذاكرة المزدهمة لكي تقربنا من عصرنا الحديث) أقبل فرع آخر من الكلت من داخل القارة وطرّد بني عمومته من جنوبي بريطانيا وشرقها. ولما جاءها قيصر وجد سكان الجزيرة يتألفون من عدة قبائل لكل منها ملك يريد أن يوسّع مملكته الصغيرة، وأطلق على السكان كلهم اسم البريطاني Britauni نسبة إلى قبيلة غالية تسمى بهذا الاسم كانت تسكن جنوبي القناة الإنجليزية مباشرة، ظناً منه أن هذه القبيلة نفسها تسكن كلا الشاطئين.

وكانت بريطانيا الكلتية شبيهة كل الشبه بغالة الكلتية في عاداتها ولغتها ودينها. ولكنها كانت متأخرة عنها في حضارتها. وقد انتقلت من العصر البرنزي إلى العصر الحديدي قبل مولد المسيح بنحو ستة قرون أي بعد انتقال غالة إلى هذا العصر الأخير بثلاثة قرون، ولما عبر بيثياس Pytheas، المرتاد الماسليوني Massiliot المحيط الأطلنطي إلى إنجلترا حوالي عام 350 ق.م، وجد بلدة كنتاوي Cantii في مقاطعة كنت Kent غنية بزراعتها وتجارها، فقد كانت تربتها خصبة بفضل الأمطار

صفحة رقم : 3758

الجزيرة، وكانت أرضها تحتوي على خامات غنية بالنحاس، والحديد، والقصدير، والرصاص. وكانت صناعاتها المنزلية قبل عهد قيصر تكفي لإيجاد تجارة ناشطة بين القبائل التي تسكنها ومع القبائل الأوربية، وضربت فيها نقود من البرنز والذهب (45). وكانت غارات قيصر في واقع الأمر غارات استكشافية، عاد منها ليؤكد إلى روما أن القبائل التي تسكن تلك البلاد عاجزة عن المقاومة المتحدة، وأن غلاتها تكفي جيشاً غازياً يأتيها في الوقت المناسب. وبعد مائة عام من ذلك الوقت (43م) عبر كلوديوس القناة ومعه أربعون ألفاً من الجنود كان نظامهم وتسليحهم، ومهارتهم فوق طاقة السكان الأصليين، فأخضعوا بريطانيا لروما وأصبحت من ذلك الوقت ولاية تابعة لها. وفي عام 61 قادت ملكة لإحدى القبائل البريطانية تدعى بونكا Boudicca أو بوديسيا Boadicea ثورة شديدة، وادعت أن ضباطاً رومانيين قد اعتدوا على عفاف ابنتيها، ونهبوا مملكتها، وباعوا كثيراً من رجالها الأحرار في سوق الرقيق. وبينما كان الحاكم

الروماني بولينس مشغولاً في الاستيلاء على جزيرة مان Man هزم جيش بوتكا الفيلق الوحيد الذي وقف في وجهه، وزحف على لندنيوم Londinium، وكانت في ذلك الوقت - على حد قول تاستس - "أهم مسكن للتجار، كما كانت سوقاً كبيراً للتجارة" (46). وقتل كل روماني في هذه المدينة أو في فيريولامنيوم Verulamium (سانت أولينز St. Aibans)، وذبح سبعون ألف روماني هم وحلفاؤهم قبل أن يلتقي بولينس وفيالقه بالثوار. وحاربت بوتكا وابنتها في عربة حربية بشجاعة نادرة في أثناء هزيمتها، ثم تجرعت السم، وضربت بحد السيف رؤوس ثمانين ألفاً من البريطانيين.

ويحدثنا تاستس عن أجر كولا زوج ابنته وحاكم بريطانيا (78-54م) فيروي كيف نشر الحضارة بين "شعب فظ مشتت ذي نزعة حربية" بإنشاء المدارس، وإداعة استعمال اللغة اللاتينية، وتشجيع المُن والأغنياء على تشييد

صفحة رقم : 3759

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> بريطانيا

المعابد، والباسقات، والحمامات العامة، ثم يقول ذلك المؤرخ السليط: "واستحوذت مباحج الرذيلة شيئاً فشيئاً على قلوب البريطانيين، فصارت الحمامات، والحجرات الجميلة، والمآدب الفخمة، محببة اليهم، وأخذ البريطانيون الغافلون يسمون الآداب الجديدة باسم فنون الإنسانية المهذبة، وإن لم تكن في حقيقة أمرها إلا ستاراً جميلاً للاسترقاق".

واستطاع أجر كولا بحملات حربية سريعة أن يحمل هذه الفنون والحكم الروماني، إلى ضفاف نهر الكليد Clyde والفورث Forth وأن يهزم جيشاً من الاسكتلنديين مؤلفاً من ثلاثين ألفاً، ولو لم يدعه دومتيان ليواصل الزحف. وشاد هدریان سورا (122-127) طوله سبعين ميلاً في عرض الجزيرة يمتد من خليج سلواي Splway Firth إلى مصب التين Tyne ليصد الاسكتلنديين الذين كانوا يرتابون في نواياه، وبعد عشرين عاماً من ذلك الوقت أقام لوليوس Lollius في شمال هذا السور سوراً آخر طوله ثلاثة وثلاثون ميلاً يعرف بسور أنطونينوسيمتد بين مصبي الكليد والفورث. وبفضل هذين الحصنين استطاعت روما أن تأمن على بريطانيا أكثر من قرنين من الزمان.

وكان حكم روما يزداد ليناً ورحمة كلما زاد استقراراً، فأصبحت المُن تشرف عليها مجالس شيوخ وجمعيات وطنية وحكام من أهلها، وترك للريف كما ترك في غالة إلى رؤساء القبائل الخاضعين لإشراف الرومان. ولم تكن الحضارة في بريطانيا حضارة مُدن كما كانت في إيطاليا، كما أنها لم تكن غنية غناء حضارة غالة، ولكن المُن البريطانية أخذت وقتئذ أشكالا جديدة بفضل استنهاض روما وحمايتها لها. وكانت أربع من هذه المُن مستعمرات يتمتع أهلها بحق المواطنة الرومانية وهي: كمولودنم Camulodunum (كلشستر Colchester) التي كانت أولى عواصم بريطانيا الرومانية ومقر مجلس الولاية، ولندم Lindum التي بدل اسمها لنكولن الحديث Lincoln على ما كان لها من امتياز قديم، وإبرام Eboracum (بورك) وكانت وقتئذ مركزاً حربياً هاماً، وجليفم Glevum، التي

صفحة رقم : 3760

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدين الغرب -> بريطانيا

امتزج في اسمها الحديث جلوسستر Gloucester لفظاً جليفاً وشستر وثاني اللفظين هو اللفظ الإنجليزي السكسوني المقابل لكلمة مدينة ؛ ويلوح أن تشستر، وونشستر، ودورشستر، وشيشستر، وليسستر (لستر)، وسلشستر، ومنشستر قد بدأت كلها في القرنين الأول والثاني من حكم الرومان. وكانت في أول الأمر بلداناً صغيرة يسكن كل منها حوالي ستة آلاف نفس، ولكنها كانت تستمتع بشوارع مرصوفة ذات مجار، وبأسواق عامة وباسقات، وهايكل، وبيوت أسسها من الحجارة وأسقفها مغطاة بالقرميد، وكان في فركونيوم Virconium (ركستر الحالية Wroxeter) باسقات تتسع لستة آلاف شخص، وحمّامات تتسع لاستحمام مئات من الأشخاص في وقت واحد. وكان لأكوا سالس Aquae Salis (المياه الملحة)، التي تعرف باسم باث Bath عيون حارة أصبحت بفضلها ملاذاً طيباً في الزمن القديم كما يدل على ذلك ما بقي من آثار حمّاماتها الحارة إلى اليوم. وعلا شأن لندنيوم من الناحيتين الاقتصادية والحربية لحسن موقعها على نهر التاميز ولأهمية الطرق المتفرعة منها، وزاد سكانها حتى بلغوا ستين ألفاً وسرعان ما أضحت عاصمة بريطانيا بدل كولودونم(49).

وكانت البيوت في لندن الرومانية من الأجر والمصيص أما في البلدان الصغيرة فكانت من الخشب، وكان الجو هو الذي يحدد شكلها، فكان لها سقف هرمي يقيها المطر والتلج، ونوافذ كثيرة لينفذ منها ما عسى أن يكون من أشعة الشمس، "لأن الشمس" كما يقول استرابون "لم تكن تُرى أكثر من ثلاث ساعات أو أربع حتى في اليوم الصحو"(50). أما داخلها فكان على الطراز الروماني: - أرضه من الفسيفساء، وبه حمّامات كبيرة، وجدران قائمة عمودية وتدفة مركزية،

صفحة رقم : 3761

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> بريطانيا

(تزيد على ما كان منها في البيوت الإيطالية) بأنايب تحمل الهواء الساخن في أرض البيت وجدرانه وكان الفحم يستخرج من العروق القريبة من سطح الأرض. ويستخدم في تدفئة البيوت، وفي الأغراض الصناعية كصهر الرصاص. ويبدو أن مناجم بريطانيا القديمة كانت موكاً للدولة، ولكنها تؤجرها للأفراد يستغلونها(51). وكان باث مصنع (فبريكا Fabrica) لصنع الأسلحة الحديثة(52)، وأكبر الظن أن صناعات الخزف، والأجر والقرميد قد ارتقت حتى كانت تصنع في المصانع، ولكن معظم الصناعات كانت في البيوت، والحوانيت الصغيرة، والدور ذات الحدائق. وكان في الجزيرة خمسة آلاف ميل من الطرق الرومانية، وعدد لا يحصى من الطرق المائنة تنقل عليها التجارة الداخلية النشيطة، هذا فضلاً عن تجارتها الخارجية المتواضعة التي كانت عكس تجارة بريطانيا في هذه الأيام لأنها كانت تصدر المواد الأولية اللازمة للصناعة.

ثرى إلى أي عمق نفذت الحضارة الرومانية في حياة بريطانيا وروحها في الأربعة القرون التي سيطرت فيها روما على الجزيرة؟ لقد صارت اللغة اللاتينية لغة السياسة، والقانون، والأدب، والأقلية المتعلمة في البلاد، لكن اللسان الكلتى بقي سائداً في الريف وبين عمال المُنْدن، ولا يزال يقاوم حتى الآن في ويلز وفي جزيرة مان. ونشرت المدارس الرومانية القراءة والكتابة في بريطانيا، وعينت الصورة الرومانية لحروف الهجاء الإنجليزية، وغمر اللغة الإنجليزية سيل من الكلمات اللاتينية. وبنيت هياكل للآلهة الرومانية، ولكن الرجل العادي ظل يمجّد الأرباب والأعياد الكلتية، وحتى المُنْدن الكبرى نفسها لم تمد روما فيها جذوراً باقية؛ وكل ما في الأمر أن الأهلين خضعوا كارهين لحكم استمتعوا في ظلّه بسلم متمر ورخاء لم تستمتع الجزيرة بمثلّه إلا أيام الانقلاب الصناعي.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> البرابرة

الفصل السادس

البرابرة

كان ما قرره أغسطس وتيبيريوس من عدم السماح بفتح ألمانيا من بين الحوادث الهامة في تاريخ أوروبا. فلو أن روما فتحت ألمانيا وصيغتها كما صيغت غالة بالصيغة الرومانية، لكان لأوروبا الواقعة في غرب روسيا كلها تقريبا نظام واحد، ولربما قامت أوروبا الوسطى في هذه الحالة حاجزاً في وجه تلك الجماعات الكبرى التي كان ضغطها على الألمان سبب غزوهم إيطاليا.

ونحن نسميهم الألمان، وإن كانوا هم أنفسهم لم ينطقوا بهذا الاسم، وليس ثمة من يعرف مصدره، ولقد كانوا في الأيام القديمة خليطاً من قبائل مستقلة ضاربة في ذلك الجزء من أوروبا المحصور بين نهري الرين والفيستولا Vistula؛ وبين الدانوب وبحر الشمال والبحر البلطي. وتبدلت أحوالهم شيئاً فشيئاً في القرنين الواقعين بين حكم أغسطس وحكم أورليوس فانتقلوا من حياة الهجرة للصيد والرعي إلى حياة الزراعة والقرى، ولكنهم كانوا لا يزالون على درجة من البداوة جعلتهم يستنفدون بسرعة خصب الأرض التي يفلحونها، ثم يرحلون ليفتحوا بحد السيف أرضاً جديدة. ومن أجل هذا كانت الحرب طعام الألماني وشرابه إذا جاز لها أن نصدق قول تاستس:

"ليس شعار الألماني هو أن يزرع الأرض وينتظر حتى يجني المحصول في موسمه، بل إنك ليسهل عليك أن تقتنعه بأن يهاجم عدوه ويلقى في جسمه الجراح الشريفة في ميدان القتال، ويرى الألماني أن كسبك بعرق الجبين ما تستطيع

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> البرابرة

أن تشتريه بدمك هو شعار العاجزين الخاملين وأنه لا يليق قد بالجندي" (53). ولقد تحدث المؤرخ الروماني عن صفات الألمان الحربية وعن حماسة النساء وهن يحرضن الرجال على القتال، ويحاربن إلى جنبهم في كثير من الأحيان. وكان وهو يفهم يتحسر على تدهور شعبه بفعل الترف والسلم، ويغالي في

هذا الوصف مغلاة الواعظ والمعلم الأخلاقي. ولقد كان الفرار من العدو يسربل من يرتكبه بعار لا يمحي مدى الحياة، ويؤدي في كثير من الأحيان إلى الانتحار. وقد وصف أسترابون الألمان بأنهم "أشد بأساً وأطول قامة من الغالبيين" (54). وكان سنكا قد قرأ تاستس فاستنتج من هذا نتائج منذرة بأسوأ النذر فقال: "إن الترف والثراء لا يُزيدان هذه الأجسام القوية العنيفة، وهذه التقوى التي لا تعنى قط باللذة، إلا قليلاً من التنظيم والحنق في الحركات العسكرية - وحسبي هذا. ولن تستطيعوا (أيها الرومان) أن تقفوا في وجههم إلا إذا عدتم إلى فضائل آبائكم" (55). ويرى تاستس أن أولئك الأقوام كانوا في أيام السلم كسالى بلداء، يقضي الرجال أوقاتهم (ولعل ذلك بعد الصيد أو موسم الحصاد) في ملء بطونهم باللحم وشرب أنهار من الجعة، بينما تقوم النساء والأطفال بالأعمال المنزلية (56) وكان الألماني يشتري زوجته من أبيها بهدية من الماشية أو السلاح، وكان له عليها وعلى أبنائهما حق الحياة أو الموت بشرط أن توافق على ذلك جمعية القبيلة. لكن النساء رغم هذا كانت لهم مكانة عالية، وكثيراً ما كان يُطلب إليهن أن يفصلن فيما يشجر بي رجال القبيلة من منازعات، وكان من حقهن أن يطلقن أزواجهن، كما كان من حق هؤلاء الأزواج أن يطلقوهن. وكان لبعض زعماء القبائل عدة أزواج، ولكن الأسرة الألمانية العادية لم يكن فيها إلا زوجة واحدة، ويؤكد لنا المؤرخون أنها كانت تراعي مستوى عالياً من الأخلاق الزوجية، "فالزنى قلما كان يُسمع به عندهم"، وإذا ارتكبهت المرأة عوقبت بقص شعرها والحكم عليها بأن تسير عارية في الشوارع وأن تضرب بالسياط، وهي تحاول

صفحة رقم : 3764

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> البرابرة

الفرار. وكان يسمح للزوجة أن تجهض نفسها إذا شأنت (58)، ولكنها كانت في العادة امرأة ولوداً. وكان يندر وجود رجال بلا أبناء ولهذا لم تكن عندهم وصايا، وكان المفروض أن أملاك الأسرة يرثها الولد عن أبيه جيلًا بعد جيل (59).

وكان السكان يتألفون من أربع طبقات: (1) طبقة المقيدين - وبعضهم عبيد وكثرتهم من أفنان الأرض المرتبطين بها. والمفروض عليهم أن يؤديوا التزاماتهم للمالك من غلتها. (2) والمحربين - وهم المستأجرون الذين لا يتمتعون بحقوق سياسية. (3) والأحرار - وهم الملاك والمحاربون. (4) والأشراف - وهم ملاك الأراضي الذين تتصل أنسابهم بالآلهة، ولكنهم يقيمون سلطتهم على أساس أملاكهم الموروثة وحرصهم الخاص (Comites أي الرفاق، ومنها اشتقت كلمة كونت). وكانت الجمعية القبلية تتألف من الأشراف، ورجال الحرس، والأحرار، يأتون إليها مسلحين، ويختارون الزعيم أو الملك، ويوافقون على ما يُعرض عليهم من اقتراحات بضرب الحراب بعضها ببعض، أو يرفضونها بزمجرة كثرة الحاضرين. وكان بعض أفراد الطبقتين الثانية والثالثة يشتغلون بالصناعات اليدوية والمعدنية التي برع فيها الألمان، أما الطبقة الرابعة فكان منها النبلاء والفرسان، وهي التي أنشأت نظام الفروسية في ألمانيا الإقطاعية. ولم يُضف إلا القليل من البناء الثقافي فرق هذا النظام الاجتماعي الساذج. ولم يكد الدين وقتئذ ينتقل من عبادة الطبيعة إلى عبادة الأرباب المجسدة في صورة الأدميين. ويسمى تاستس آلهتهم: المريخ Mars، وعطارد Mercury، وهرقل Hercules - والراجح أن الأسماء الحقيقية لهذه الآلهة هي تيو Tiu (تير Tyr) ووودن Woden (أو ودين Odin)، ودونار Donar (تور)، ولا تزال أربعة أيام من كل أسبوع تخلد ذكراها هي وفريا Freya إلهة الحب، على غير علم منا، وكانت لهم إلهة عذراء (هرثا Hertha) (الأم الأرض). التي حملت من أحد أرباب السماء، كما أن كل حاجات الإنسان وكل ما يخطر بباله كانت تؤديه طائفة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> البرابرة

مختلفة من الجنيات، والعمارة الصغار والكبار، وجن البحار، والمردة، والأقزام. وكانت الضحايا البشرية تقرب إلى وودن، وربما كانت الحيوانات الألد طعاماً من الأدميين تقرب إلى غيره من الأرباب، وكانت الصلوات تقام في الخلاء في الغابات والغياض، لأن الألمان كانوا يرون أن من السخف حصر روح من أرواح الطبيعة في مسكن تشييده الأيدي البشرية. ولم يكن عندهم طبقة دينية قوية شبيهة بالدرويد Druids عند الغالين أو البريطانيين، ولكنهم كان لديهم كهنة وكاهنات، يرأسون الاحتفالات الدينية، ويجلسون للفصل في القضايا الجنائية، ويتبنون بالمستقبل بدراسة مهبل الجياد البيض وحركاتها. وكان عندهم كما كان في غالة شعراء يتغنون في شعر فح بأقاصيص قبائلهم وتاريخها. وكان منهم أقلية تعرف القراءة والكتابة، وكتبت الحروف الهجائية اليونانية فجعلت منها العلامات التي تطورت منها الحروف القوطية وهي الحروف الألمانية الحديثة. وكان الفن عندهم بدائياً، ولكنهم أخرجوا تحفاً جميلة من الذهب. ولما أن سحبت روما فيالقتها من ألمانيا احتفظت بسيطرتهم على نهر الرين من منبعه إلى مصبه، وقسمت هذا الوادي الفخم ولايتين - ألمانيا العليا وألمانيا السفلى. وكانت ثانيتهما تشمل هولندا وأرض الرين الممتدة جنوباً إلى كولوني. وكانت هذه المدينة الجميلة المعروفة عند الرومان بإسم كولونيا أجرينسس Colonia Agirpdinansis قد جعلت ولاية (50م) تكريماً لأمن نبرون التي ولدت فيها؛ ولم يمض عليها أكثر من خمسين عاماً حتى كانت أغنى المحلات القائمة على نهر الرين. أما ولاية ألمانيا الشمالية فكانت تمتد على نهر الرين نحو الجنوب مخترقة مجنتياكم Maguntiacum (ماينس Mayence)، وأكوا أوريليا Aquae Aureliae (بادن - بادن Baden. Baden) وأرجنترام Argentoratum (ستراسبورج Strsbourg) وأغسطا روركورم Augusta Rauricorum (أوغسط August) وتنتهي عند فنونسا Vindonissa (فندش Windisch). وكان في هذه المدن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> البرابرة

جميعها تقريباً ما في غيرها من الهياكل والباسقات، والملاهي، والحمامات، والتمايل العامة. وكانت كثير من الفيالق التي ترسلها روما لحراسة الرين تجيش خارج معسكراتها، ويتزوج رجالها بفتيات ألمانيات، ويعيشون مواطنين في تلك البلاد بعد أن تنتهي مدة خدمتهم العسكرية. والراجح أن بلاد الرين لم تكن في أيام الرومان أقل سكاناً أو غنى منها في أي وقت قبل القرن التاسع عشر. ولقد سبق القول إن مهندسي روما العسكريين قد أنشئوا بين نهر الرين والدانوب طريقاً محصناً، وأقاموا على جانبيه قلاعاً تبعد كل منها عن الأخرى تسعة أميال، كما أقاموا عليه سوراً يبلغ طوله ثلاثمائة ميل. وأفاد هذا الطريق المحصن روما مائة عام، ولكنه لم يفدها شيئاً حين نقصت نسبة المواليد بين الرومان نقصاً كبيراً عما كانت عليه عند الألمان. وكان نهر الدانوب الذي يعدّه الأقدمون أطول أنهار العالم أضعف من نهر الرين حداً فاصلاً بين الدولة الرومانية والقبائل الألمانية. وكان إلى جنوبه الولايات النصف الهمجية ريتيا، ونوركم، وبنونيا، وهي الولايات التي

تتكوّن منها البلاد التي كُتبا نعرها في شبابنا بإسم دولتي النمسا والمجر والصرب. وقد أنشأ الرومان في موضع أجزبرج Augsburg (أي بلطة أغسطس الحديثة) مستعمرة رومانية هي مستعمرة أغسطس فندلكورم Augusta Vindelicorum كان هي المحطة الرئيسية على الطريق الممتد من إيطاليا فوق ممر برنر Brenner إلى نهر الدانوب. وشادوا على النهر نفسه مدينتين حصينتين عند فندوبونا Vindobona وهي مدينة فينا الحالية، وعند أكونكم Aquincum على المرتفعات التي تشرف منها بودا Buda على بست Pest. وقامت مدينة سريموم Sirmium (ميتروفكا Mitrovica) في بنونيا الجنوبية الشرقية على نهر الساف Save غرب موقع بلغراد الحديثة، وصارت هذه المدينة في أيام دقلديانوس إحدى العواصم الإمبراطورية الأربعة. وقامت بفضل النشاط التجاري

صفحة رقم : 3767

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> البرابرة

اليوناني، والرومان، والأهالي الوطنيين في مقاطعة دلماشيا الواقعة جنوبي بنونيا ثغور البحر الأدرياتي وهي سالونا Salona (سبلاتو Spalato الحديثة) وأبولونيا Appolonia (بالقرب من فالونا) ودير هوكيوم Dyrrhachium (دورزو Durazzo الحديثة). وكانت روما الإمبراطورية تجنّد من هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب أقوى جنودها أجساماً وأصلبهم عوداً، كما كانت تستمد منها في القرن الثالث الأباطرة الحربيين الذين صدّوا سيل البرابرة حوالي مائتي عام. وكان في شرق بنونيا ولاية داشيا (رومانيا الحديثة)، وكانت عاصمتها سمرجتوسا التي لم يعد لها الآن وجود. وكان في جنوب هذه الولاية وشرقها ولاية متيزيا (وتشمل أجزاء من يوغوسلافيا ورومانيا وبلغاريا الحديثة)، وكان فيها على الدانوب مدينتان كبيرتان هما سنجندوم (بلغراد الحديثة) وترزمس Troesmia (أجلتزا Iglitza) وثلاثة بالقرب من نهر إسكّر Isker وهي سردিকা Sardica (صوفيا الحديثة). وثلاثة بلدان كبرى على البحر الأسود وهي إستروس Istrus، وتومي Tomi (قسطنجة الحديثة) وأديسس Oddessus (وارنة Varna). ولقد كافحت الحضارة اليونانية والجيوش الرومانية في هذه المستقرات النكدة لكي تحافظ على كيانها ضد القوط، والرومانيين، والهنون، وغيرهم من القبائل المتبربرة التي أخذت تتكاثر وتتجول في شمال النهر العظيم، ولكن هذا الكفاح لم يجدهما نفعاً.

وكان عجز روما عن تمدن هذه الولايات الواقعة جنوب الدانوب هو الذي أدّى إلى سقوطها. فلقد كان هذا الكفاح من أشق الواجبات على شعب يعاني آلام الشيخوخة، وكانت حيوية الجنس السائد قد أخذت تضعف في مهاد الراحة والعقم بينما كانت القبائل الضاربة في الشمال تتكاثر وتقوى وتزداد جرأة وتهوراً. لما أن قدّم تراجان المال للرومانيين ليجنحوا للسلم كان ذلك العمل منه بداية النهاية، ولما أن جاء ماركس أورليوس بألاف من الألمان وأسكنهم داخل

صفحة رقم : 3768

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> تمدن الغرب -> البرابرة

الإمبراطورية، انهارت الحواجز التي كانت تفصل بينهم وبين الرومان، واستقبل الجنود الألمان في الجيش الروماني بالترحاب، وارتقوا إلى مناصب القيادة. وما لبثت الأسر الألمانية أن تضاعف عددها في إيطاليا بينما كانت الأسر الإيطالية آخذة في الانقراض. وهكذا انعكست الآية في هذه الحركة، فأخذ البرابرة "بيربرون" روما بعد أن كانت روما تصبغهم بصبغتها. لكن عجز روما عن ضم الشمال لحظيرة التراث الروماني واليوناني القديم لم يقلل من عظمة ضمها الغرب لهذا التراث أو من خطر شأنه. ففي هذا الغرب على الأقل برزت فنون السلم من بين عجاج الحرب، وكان في وسع الناس أن يستبدلوا بسيوفهم محاريث من غير أن تتحل قواهم في نعيم المَدن وأحيائها القذرة. ونبئت فيما بعد حضارة جديدة في أرض أسبانيا وغالة القوية حين ضعف تيار البرابرة، وأثمرت بذور قبور الطغيان ثمارها، وعفا الدهر عن أثمها في البلاد التي جاءت إليها الجحافل الغاشمة بقوانين روما ونقلت إليها شعلة الحضارة اليونانية.

صفحة رقم : 3769

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> أفلوطرخس

الباب الثالث والعشرون

بلاد اليونان الرومانية

الفصل الأول

أفلوطرخس

بذلت روما جهدها لكي تكون كريمة في معاملتها لبلاد اليونان، ولت تخفق في هذا الإخفاق كله؛ فهي لم تضع حاميات من الجند في ولاية أخية الجديدة، وكان ما فرضته عليها من الخراج أقل مما كان ينتزع جباتها من أهلها قبل مجيء الرومان إليها، وتركت روما دول المَدن تحكم نفسها حسب دساتيرها وقوانينها القديمة، وجعلت لكثير منها: كاثينة، وإسبارطة، وبلاطية، ودلفي وغيرها "مدناً حرة"، تتمتع بحقوقها القديمة كلها عدا حقها في أن تشن الحرب الخارجية أو حرب الطبقات.

لكن بلاد اليونان كانت تتحرق شوقاً إلى حرّيتها، كما أن القواد الرومان، والمرابين، ورجال الأعمال الذين حذقوا أساليب شراء غلات البلاد بأبخس الأثمان وبيعها بأغلاها، هؤلاء كلهم قد استنزفوا خيرات البلاد، ومن أجل هذا انضمّت إلى ثورة مترداتس وعوقبت على انضمامها إليها أشد العقاب، فحوصرت أثينة حصاراً أهلك فيها الحرث والنسل، ونُهب كنوز هياكل دلفي، وإليس، وإيدورس. وبعد جيل من ذلك الوقت تقاتل قيصر وبمبي، ثم أنطونيوس وبروتس،

صفحة رقم : 3770

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> أفلوطرخس

على أرض اليونان، وجتدوا أهلها في جيوشهم، واستولوا على محصولات البلاد وذهبها، وجبوا في عامين ضرائب عشرين عاماً، وتركوا الدائن خاوية على عروشها. وانتعشت أسية اليونانية تحت حكم أغسطس، ولكن بلاد اليونان نفسها ظلت فقيرة، ولم يكن سبب فقرها هو الفتح الروماني بل كان هو الاستبداد الذي خنق أرواح الأهلين في إسبارطة، والحرية التي انحطت حتى أصبحت فوضى في أثينة، وما جرّه على البلاد عقم الرجال وجذب التربة من وبال. ذلك أن أكثر أبنائها جرأة ومغامرة قد هجروها إلى الأراضي التي كانت أغنى منها وأحدث استقلالاً. وأدى قيام دول جديدة في مصر، وقرطاجنة، وروما، وقيام الصناعة في بلاد الشرق الهلنستي إلى ترك مواطن الروح اليونانية القديمة خاوية مهجورة. وكانت روما تنقل اليونان بمدحها وتتهب روائع فنها: قد أخذ منها اسكورس Skourus ثلاثة آلاف تمثال ليزين بها ملهاه، وأرسل كلجيلو لا زوج عشيقته لئنقب في بلاد اليونان عن التماثيل، ونهب نيرون وحده نصف ما في دلفي من روائع النحت، ولم يبسم الحظ لأثينة مرة أخرى إلا حين تولّى هدرين الملك. وكانت إبيروس هي التي انصبّ عليها غضب روما أول الأمر في الحروب المقدونية، وأباحها مجلس الشيوخ إلى الجند يهبونها ويعيثون فيها فساداً، وبيع من أهلها خمسة عشر ألفاً في سوق الرقيق، وبنى أغسطس عاصمة جديد لإبيروس فينيقوبوليس ليخلد ببنائها انتصاره في أكتيوم القريبة منها. وما من شك في أن الحضارة قد وجدت فيها ملجأً ومعتصماً لأن "مدينة النصر" أوت إيكنتس، واستمعت إلى تعاليمه. وكان حظ مقدونية خيراً من حظ جارتها الوفية، فقد كانت هذه البلاد غنية بالمعادن والخشب، وزادت حياتها التجارية نشاطاً بفضل طريق اجناشيا Egnatie الذي كان يصلها هي وترافة من ابلونيا ودير هكيوم إلى بيزنطية. وعلى هذا الطريق الرئيسي الذي لا يزال بعضه باقياً حتى الآن

صفحة رقم : 3771

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> أفلوطرخس

كانت تقوم أهم مُدن الولاية: إيسا، وبلا، وتسالونيكًا. وكانت هذه المدينة الأخيرة التي كان اليونان يعرفونها باسمها القديم "نصر تساليا" عاصمة الولاية، ومركز مجالسها، وإحدى الثغور التجارية الهامة بين بلاد البلقان وآسية. أما تراقية الواقعة في شرقها فقد اختصت نفسها بالزراعة، والرعي، والتعدين، ولكنها كانت تشتمل على مُدن كبيرة أهمها سريكا (Serдика (صوفيا Sofia)، وفلبوبوليس Philippopolis عاصمتها، وأديانوبل (أدرنة)، وبرنثس Perinthus، وبيزنطية (اسطنبول الحالية). وهنا على القرن الذهبي، كان التجار وصائدوا السمك يجمعون ثروة طائلة بينما كان اليونان الذين يقطنون من ورائها في الداخل يتقهقرون أمام البرابرة المعتدين. وكانت الحبوب الواردة من داخل البلاد تجيء إلى أرصفتها، كما كانت جميع تجارة سكوذيا والبحر الأسود تؤدي المكوس وهي مارة بها، ويكاد السمك لكثرته أن يقفز في الشباك وهو يجتاز مضيق البسفور. ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أدرك قسطنطين قيمة هذا الموقع العظيم وعرف أنه مفتاح العالم اليوناني - الروماني القديم.

وتخصصت تساليا الواقعة جنوب مقدونية في إنتاج القمح وتربية الجياد الجميلة. وقد وصف ديوكريسستيم (1) جزيرة عوبية العظيمة التي أطلق عليها هذا الاسم (كما أطلق اسم يوشيا على الجزيرة المسماة بهذا الاسم) لما فيها من الماشية الحسنة الشكل، وصفها بأنها تعود إلى البربرية في القرن الثاني الميلادي. وقد تجمعت في هذا الأقليم عدة عوامل كادت تمحو من الوجود الذين كانوا في يوم من الأيام شعباً زراعياً مطرد النماء والرخاء. وأهم هذه العوامل هي ما لاقاه الفقراء من عنت لتركز الأرض الزراعية والثروة في أيدي عدد قليل من الأسر، وما لاقاه الأغنياء من عنت لثقل الضرائب والفروض الدينية المطردة الزيادة، وقلة النسل لأنانية الرجال وحبهم الثراء أو لفقهم المتع.

وكانت نتيجة

صفحة رقم : 3772

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> أفلوطرخس

هذا كله أن تركت الأرض مراعي للماشية في داخل أسوار خلكيس وإرنريا نفسيهما ولم تكن يوشيا قد فاقت مما حل بها من موت وما فرض عليها من الضرائب الباهضة أيام حروب سلا. ويقول استرابون "إن طيبة ليست إلا قرية صغيرة"، قد انكشفت حتى لم تعد تشغل أكثر من الموضع الذي لم يكن قبل إلا قلعتها. على أن مائة عام من السلم قد أعادت بعض الرخاء إلى بلاتية، واحتفظت فيرونية التي كسب فليب سلا على سهولها إمبراطوريتين عظيمتين ما يكفي من الروعة لاستبقاء أشهر رجل من أبنائها فيها. ويقول عنها هذا الابن - أفلوطرخس - إنها بلغت من الصغر حداً لا يجب أن تصغر عنه بتركه إياها. وإنا لنجد في حياته الهادئة وتفكيره السار اللطيف ناحية مشرقة مبهجة من منظر نكد كنيب، كما نجد فيه هو نفسه رجلاً مهذباً من رجال الطبقة الوسطى مستمسكاً بفضائل العهد القديم، ينطوي قلبه على الإخلاص لبلده، والوفاء لأصدقائه، والحب لأبنائه.

وقصارى القول أنه ليس في قصتنا كلها شخصية أطرف من شخصية أفلوطرخس القيرونيائي.

وكان مولده في تلك البلدة حوالي عام 46م ووفاته فيها حوالي عام 126م. وكان يطلب العلم في أثينة حين كان نيرون يوالي انتصاره في بلاد اليونان. وما من شك في أنه رحل إلى مصر وآسيا الصغرى، وطاف مرتين بإيطاليا. وقد ألقى محاضرات باللغة اليونانية في روما، ويبدو أنه خدم بلده في بعض الشؤون الدبلوماسية. وكان يحب العاصمة العظيمة، وآداب أشرافها الجدد، وحياتهم الرقيقة ويعجب بقانونها الصارم، ويقول مع انبوس إن روما قامت على دعائم من الأخلاق الطيبة العالية. وبينما هو يفكر في أمر هؤلاء النبلاء الأحياء والموتى خطر له أن يوازن بين أبطال روما وأبطال اليونان. ولم يكن يقصد أن يكتب تاريخاً أو سيراً فحسب، بل كان يعترزم فوق هذا أن يعلم

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> أفلوطرخس

الناس الفضيلة والبطولة بضرب الأمثلة من التاريخ، وحتى سيره المتماثلة Parallel Lives كانت في ذهنه دروساً في الأخلاق، ولهذا تراه على الدوام معلماً لا يترك فرصة تمر دون أن يستخلص مغزى خلقياً من كل قصة، وما من أحد قد قام بمثل هذا العمل أجمل مما قام به هو. وهو يحذرنا في سيرة الاسكندر بقوله إنه يهتم بالأخلاق أكثر من اهتمامه بالتاريخ، ويأمل أنه حين يجمع بين عظماء الرومان وعظماء اليونان ويوازن بينهم يستطيع أن يبعث في نفوس قرائه دوافع للخلق الطيب وللبطولة. وهو يعترف اعترافاً صريحاً لا يسعنا نعه إلا أن نعفو عن زلاته بأنه قد صلح حاله لطول صحبته لأولئك الرجال الممتازين(3).

وليس من حقنا أن نتوقع في كتاباته دقة المؤرخ الحق ونزاهته، فكتابه مليء بالأغلاط في أسماء الناس، والأمكنة، والتواريخ، وتراه أحياناً (إذا جاز لنا أن نصدر حكماً عليه) يُخطئ في فهم الحوادث، بل إنه يُقصر في واجبين كبيرين من واجبات كل كاتب سويسر - وهما أن يبين أن أي شيء في أخلاق المترجم له وأعماله يرجع إلى الوراثة أو البيئة أو الظروف، وأن يتتبع تطور أخلاقه خلال نموه، وما يلقي عليه من التبعات وما يقع فيه من أزمات. بل إننا لنخرج من كتاب أفلوطرخس كما نخرج من كتاب هرقلبيطس بأن خلق الإنسان مقدر له. ومع هذا فما من إنسان قرأ كتاب "السير" ثم أحس بعد قراءته بما فيه من عيوب، ذلك بأن هذه العيوب تخفي كلها في روايته الواضحة، وحوادثه المثيرة، وقصصه الفاتنة الساحرة، وتعليقاته الحكيمة، وأسلوبه الجزل. وليس في صفحاته البالغ عددها ألفاً وخمسمائة سحر واحد يحس القارئ أنه حشو لا ضرورة له، بل إن كل جملة من جملة لها شأنها معناها. وقد شهد بفضل الكتاب مائة من عظماء الرجال - منهم قواد عسكريون، ومنهم شعراء وفلاسفة، فقالت عنه السيدة رولان Roland "إنه مَرَبَع النفوس العظيمة"(4). وكتب عنه منتاني يقول:

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> أفلوطرخس

"إنني لا أستطيع الاستغناء عن أفلوطرخس فهو كتاب صلواتي"(5). وقد استمد منه شكسبير كثيراً من قصصه، وإن رأيه في بروتس لمُستمد عن طريق أفلوطرخس من أخلاق الأشراف الرومان الأقدمين. وكان نابليون يحمل كتاب "السير" أينما ذهب لا يكاد يفارقه أبداً. ولما قرأ هين Heine هذه التراجم لم يسعه إلا أن يقفز على ظهر جواد ويعود به إلى فتح فرنسا. وقصارى القول أن بلاد اليونان لم تترك لنا كتاباً أثمن من هذا الكتاب. وبعد أن شاهد أفلوطرخس علم البحر الأبيض المتوسط عاد إلى قبرونية ورزق فيها بثلاثة أبناء وبنت واحدة، وألقى محاضرات، وألف كتباً وسافر إلى أثينة من حين إلى حين، ولكنه قضى معظم وقته في مسقط رأسه وعاش فيه عيشة أهله البسيطة وكان يرى أن من الواجبات المفروضة عليه لبلده أن يجمع بين المنصب الرسمي والحياة العلمية حياة الدرس والتحصيل، واختاره مواطنوه مقنئاً للمباني، ثم كبير حكامها ثم بؤوتاركا Boeotarch أي عضواً في المجلس الوطني. وكان يرأس المواكب والاحتفالات البلدية، وأصبح في أوقات فراغه كاهناً في مهبط الوحي في دلفي،

وكان هذا المنصب قد عاد إلى الوجود. وكان يرى أنه ليس من الحكمة أن يرفض الدين القديم لما فيه من عقائد لا يقبلها العقل، لأن أهم الأشياء في رأيه ليست العقيدة، بل هو التأييد الذي تستمدّه منها أخلاق الإنسان الضعيفة، وما توجده أعضاء الأسرة الأموات بين الأجيال المتعاقبة في الأسرة والدولة من روابط تبعث فيهما المزيد من القوة، وكان يعتقد أن نشوة العاطفة الدينية هي أعمق تجارب الحياة. ولقد كان بفضل تسامحه الديني وتقواه مجتمعين أن يضع أسس دراسة الدين المقارن في رسالته التي كتبها عن العبادات الرومانية والمصرية (6). ومما قالتها هذه الرسالة أن الأرباب كلها مظاهر لكائن واحد أعلى، لا يحده زمان يجلّ عن كل وصف، بعيد عن الشؤون الدنيوية والزمنية بعدا يترك للأرواح الوسطى Daimones أن تخلق العالم

صفحة رقم : 3775

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> أفلوطرخس

وتنظم شؤونه. وكان يقول أيضاً بوجود أرواح خبيثة، يسيطر عليها ويرأسها شيطان هو مصر الفوضى جميعها وروحها، وأصل كل الخبائث وجميع ما لا ينطبق على العقل في الطبيعة وفي بني الإنسان. ويرى أفلوطرخس أن من الخير أن يؤمن الإنسان بخلود الأشخاص - بجنة ينعم فيها الأخيار، ومطهر، وجحيم يعدّب فيه الأشرار. وكان من أسباب سلواه أن الإقامة في المطهر قد تطهّر أي إنسان مهما خبث حتى نيرون نفسه، وأنه قلما يوجد في الناس من يعذبون عذاباً سرمدياً (7). وكان يندد بالخرافات ويرى أن أهولها شرّاً من الكفر نفسه، ولكنه يقبل العرافة والنبوءات واستحضار الأرواح ويؤمن بأن الأحلام تنبئ عن المستقبل. ولم يكن يدعى أنه فيلسوف مبتدع، بل كان يقول عن نفسه، كما يقول أبوليوس وكثيرون غيره من فلاسفة ذلك العصر عن أنفسهم، إنه يأخذ آراءه عن أفلاطون ويوفق بينها وبين زمانه. وكان يعيب على الأبيقوريين أنهم يستبدلون هول الفناء بالخوف من الجحيم، وينتقد عيوب الرواقية، ولكنه يرى ما يراه الرواقي من أن العمل بأوامر الله وإطاعة العقل شيء واحد (8). وقد عني المتأخرون بجمع محاضراته ومقالاته وأسموها الآداب (Moralia) لأن معظمها مواضع بسيطة لطيفة تبين ما تنطوي عليه الحياة من حكمة. وهي تبحث في كل شيء، من الحث على استيقاظ كبار السن في المناصب العامة إلى البحث في أيهما أسبق الكتكوت أو البيضة. وأفلوطرخس مغرم بمكتبته، ولكنه يقرّ بأن الصحة الجيدة خيرٌ من الكتب القيمة:

"من الناس من يدفعهم الشره فيهرعون إلى الحانات يلتمسون ما فيها كأنهم يستعدون لحصار... إن أقل الأطلعمة ثمناً هي على الدوام أكثرها نفعاً... ولما عجز أردشير ممنون في أثناء تدهوره السريع عن أن يجد ما يأكله غير خبز الشعير

صفحة رقم : 3776

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> أفلوطرخس

والنتين صاح قائلًا: "ما ألد هذا الذي لم يكن لي من قبل!"... والنبذ أفيد المشروبات على شريطة أن يكون في مناسبة سعيدة وأن يمزج بالماء... وأكثر ما يجب أن يخشاه الإنسان هو سوء الهضم الناشئ من أكل اللحوم لأنها تخدم العزيمة في أول الأمر، وتترك بعدئذ رواسب ضارة بالجسم. وخير ما يفعل الإنسان أن يعود جسمه عدم الحاجة إلى اللحم بالإضافة إلى غيره من الطعام، ذلك بأن الأرض تخرج كميات موفورة من أشياء كثيرة لا تقيد في التغذية فحسب، بل تقيد كذلك راحة ومنتعة. أما وقد أصبحت العادة طبيعة ثانية طبيعية، فإن تعاطي اللحوم يجب أن يكون... دعامة وسنداً لغذائنا؛ وينبغي لنا أن نأكل غيرها من الأطعمة... التي هي أكثر منها موافقة للطبيعة، وأقلّ منها كلاله على شعلة التفكير التي توقد من مواد سهلة خفيفة إذا صحّ هذا التعبير(9)".

وهو يحذو حذو أفلاطون في الدعوة إلى تكافؤ الفرص للرجال والنساء على السواء، ويضرب أمثلة كثيرة للنساء المثقفات في الأزمنة القديمة (ولقد كان هناك نساء مثقفات في المحيط الذي يعيش فيه)؛ ولكنه ينظر إلى زنى الرجل بنفس السهولة التي ينظر بها إليه الرجل الوثني فيقول:

"إذا كان الرجل داعراً منهمكاً في ملذاته وزلّ مع عشيقته أو خادمة، فلا يصحّ لزوجته أن تختاض لذلك أو تغضب، بل يجب أن تعتقد أن احترامه لها هو الذي دفعه إلى أن يشرك في فجوره امرأة غيرها(10).
ولكننا مع هذا إذا فرغنا من قراءة هذه المقالات الممتعة الساحرة أحسنا بعد قرأتها، بأننا كنا في صحبة رجل رقيق القلب، طيب في جوهره، كامل في رجولته، لا يسوءنا قط أن أفكاره عادية. وإن اعتداله لهو الترياق الشافي من الهوى الفكري الذي يغلب على عصرنا الحاضر، وإن عقله المتزن، وفكاهته اللطيفة، وإيضاحاته الجذابة لتدفعنا إلى القراءة دفعا لا نقوى على مقاومته حتى في المواضيع المبتدلة منها. وإن الإنسان لتراتح نفسه حين يجد فيلسوفا أوتي من

صفحة رقم : 3777

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> أفلوطرخس

الحكمة ما يكفي لإسعاده، وينصحنا بأن علينا أن نحمد الله على ما في الحياة من بركات ونعم عادية وألا نجعل دوامها سبباً في قلة ابتهاجنا بها:

"يجب علينا ألا ننسى تلك النعم وأسباب الراحة التي نشترك فيها مع الكثيرين من الناس، بل يجب... أن نبتهج لأننا نعيش، وأننا أصحاء الأجسام، وأننا نبصر ضوء الشمس... أليس من واجب الرجل الصالح أن يعدّ كل يوم عيداً... ذلك بأن العالم هو أجلّ المعابد وأجدرها بسيدها. في هذا المعبد يدخل الإنسان وقت مولده، ولا تستقبله فيه تماثيل ساكنة من صنع الأيدي، بل تستقبله مخلوقات أظهرها العقل الإلهي لحواسنا... من بينها الشمس، والقمر، والنجوم، والأنهار التي لا تنفك تصبّ الماء العذب صبباً، والأرض التي تخرج الطعام... وإذا كانت هذه الحياة هي أكمل إعداد لأسمى العبادات الدينية، فإن علينا أن نكون على الدوام ممثلين غبطة وبهجة".

صفحة رقم : 3778

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> صيف هندي

الفصل الثاني

صيف هندي

تتمثل في أفلو طرخس حركتان قامتتا في عصره أو لاهما العودة إلى الدين، وثانيتها انتهاء النهضة اليونانية في الآداب والفلسفة. وعمت الحركة الأولى جميع بلاد اليونان، أما الثانية فكانت مقصورة على أثينة والشرق اليوناني. وازدهرت في هذه الأثناء ست مدن من مدائن البلوبونيز، ولكنها لم تمد التفكير اليوناني إلا بالقليل: وهذه المدن هي مدينة باتري Patrae التي ظلت حية منتعشة خلال العصر الروماني والعصور الوسطى إلى أيامنا هذه بفضل التجارة الغربية وصناعة النسيج النشطة. ومنها أولمبيا التي أثرت من أموال السياح الوافد عليها لزيارة تمثال زيوس الذي صنعه فدياس أو لمشاهدة الألعاب الأولمبية. ومن أكثر حوادث التاريخ اليونانية طرافة أن هذه المباريات التي كانت تقام مرة كل أربع سنين، قد ظلت تقام من عام 776 ق.م حتى عام 394م حين منعها ثيودوسيوس Theodosius. كذلك ظلّ الفلاسفة والمؤرخون يقدون إليها كما كانوا يقدون في أيام برودكس وهيرودوت ليخطبوا في الجماهير المحتشدة لمشاهدة حفلات الألعاب. ويصف ديوكريستيم المؤلفين وهم يقرؤون "مؤلفاتهم السخيفة" للمستمعين العابرين والشعراء وهم ينشدون أشعارهم، والخطباء يمثلون الهواء بصخبهم والسوقسطينيين الكثيرون العدد كأنهم طواويس تزهو بنفسها، وقد جاءوا لينفخوا ريحهم على الجماهير (12). وقد برهن ديوكريستيم بقوله هذا على أنه ليس أكثر صمتاً من سائر القادمين. ويصور إيكنتس النظارة وقد غصت بهم المواقف غير المظلمة وهم يتصببون عرقاً وتلفحهم الشمس أو يغرقهم المطر، ولكنهم لا يعيئون بهذا ولا ذاك في غمرة من الضجيج والعجيج التي كان ينتهي بها كل دور في اللعب

صفحة رقم : 3779

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> صيف هندي

أو شوط في السباق (13). وظلت الألعاب القديمة النيمية Nemean والبرزخية، والبيثية Pythian، والأثينية الجامعة تقام باستمرار، وأضيفت إليها ألعاب جديدة كالألعاب الهلينية الجامعة التي أقامها هديان، وكان الكثير منها يشتمل على مباريات في الشعر أو الخطابة أو الموسيقى. فما هي ذي شخصية من شخصيات لوشيان تسأل: ألا نستطيع أن نسمع الموسيقى اليونانية القديمة في الاحتفالات العظيمة؟ (14) وأدخلت الجالية الرومانية التي استوطنت كورنثا قتال المجالدين في هذه الألعاب وما لبث هذا القتال أن انتشر من مورنثا إلى غيرها من المدن حتى تدنس ملهى ديونيش نفسه بهذه المذابح. واحتج كثيرون من اليونان - ديوكريستيم، ولوشيان، وأفلو طرخس - على هذا التدنيس، وتقدم دمناكس Demonax، الفيلسوف الكلبي إلى الأثينيين يروجهم ألا يسمحو بهذه البدعة قبل أن يهدموا مذبح إلهة الرحمة في أثينة (15)، ولكن الألعاب الرومانية ظلت تقام في بلاد اليونان حتى انتشر الدين المسيحي وكانت له السيادة في تلك البلاد.

وكانت إسبارطة وأرجوس لا تزالان يسري فيهما دم الحياة إلى حدّ ما، وأثرت أبدورس من مال زوّارها مرضى الأجسام والنفوس الوافدين إلى ضريح أسكليبيوس. ولم يكّد يمضي على كورنثة، بعد أن أعاد قيصر بناءها، نصف قرن من الزمان حتى أضحت لحسن موقعها على البرزخ المسمى بإسمها أغنى المُدن في بلاد اليونان. وكان يسكنها خليط من الرومان، واليونان، والسوريين، واليهود، والمصريين انتزع معظمهم من بلادهم ومن أخلاقهم الأولى، وعرفوا بنزعتهم التجارية والأبيفورية، وبفسادهم الخلقي. وكان هيكل أفرديتي بنديوس القديم سوقاً ذات تجارة رائجة ومركزاً للدعارة الكورنثية. ويصف أبوليوس Apuleius حفلة راقصة فخمة شهدها في كورنثا مُثلت فيها محاكمة باريس "ظهرت فيها فينوس عارية الجسم إلا من شعار حريري رقيق يغطي خصرها النحيل الجميل، وحتى هذا الشعار كانت الريح تعبث به فتدفعه تارة إلى اليمين وتارة إلى

صفحة رقم : 3780

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> صيف هندي

الشمال" (16). وهكذا لم تغرّر كورنثا أساليبها منذ أيام أسباريا. فإذا انتقل الإنسان إلى أتكا عن طريق مجارا بدا الريف في فقر مدقع اجتمعت فيه عوامل التعرية، وتقطيع الغابات، واستنزاف الثروة المعدنية إلى الحروب، والهجرة، والضرائب الفادحة وقلة النسل، فأحالته في عصر السلم الرومانية صحراء مجدبة. ولم يكن في أتكا كلها إلا اثنتان من المُدن ذوات الرخاء: إليسير التي كانت طقوسها الدينية الخفية تجتذب إليها الجماهير الغنية في كل عام، وأثينة المركز التعليمي والثقافي للعالم القديم. وكانت معاهدها ونظمها القديمة - المجلس، والجمعية، والأركونية - لا تزال تقوم بعملها، كما أن روما قد أعادت إلى مجلس الأريوبجس سلطته الأولى فجعلته مصدر الأحكام القضائية وحصن حقوق الملكية الحصين. وكان الحكام أمثال أنتيخوس الرابع، وهيرود الأكبر، وأغسطس، وهديان ينافسون أصحاب الثراء أمثال هيرودس أنكس Herodes Atticus في هباتهم للمدينة، فأعاد هيرودس بناء الملعب العظيم بالرخام حتى لم يكّد يُبقي منه شيئاً في بنتلكس، وأقام قاعة للموسيقى في أسفل الأكروبوليس. وتبرّع هديان بالمال اللازم لإتمام بناء الأولمبيوم Olympieum، وشاد لزيوس، وكان وقتئذ على حافة القبر جيناً خليفاً به في عنفوان شبابه.

وفي هذه الأثناء كانت شهرة أثينة الفذة في الآداب، والفلسفة، والتعليم وعدم وجود مُدن أخرى تنافسها في هذه الميادين، قد جذبت إلى مدارسها عدداً جماً من الشبان الأغنياء والطلاب الفقراء المحتاجين، وكانت جامعتها تضم عشرة كراسي للأساتذة يُنفق عليها من مال المدينة أو الإمبراطور، فضلاً عن جيش جرار من المحاضرين والمدرسين الخصوصيين. وكانت تلقى فيها دروس ومحاضرات في الأدب، وفقه اللغة، والبيان، والفلسفة، والرياضيات، والفلك، والطب، والقانون. وكانت تلقى عادة في مدارس التدريب الرياضي أو دور التمثيل، وأحياناً

صفحة رقم : 3781

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> صيف هندي

في المعابد أو البيوت. ولم يكن يراعى في منهاج هذه المواد بأجمعها، عدا الخطابة والقانون، أن يؤهل الطالب لكسب عيشه، بل كان يهدف بدلاً من هذا إلى شحذ ذهنه، وتقوية إدراكه، وإمداده بقانون أخلاقي. وقد أثمرت هذه الدراسات ثمارها فأخرجت عدداً كبيراً من ذوي العقول النابغة، ولكنها أخرجت أيضاً آلافاً من الجدليين الذين لا هم لهم إلا التلاعب بالألفاظ، والذي حولوا الفلسفة والدين إلى نظريات جدلية لا يُعرف لها أول ولا آخر.

وإذا كانت موارد أثينة تعتمد إلى حد كبير على طلابها، فقد كانت صابرة على نزقهم وطيشهم. كان الطلاب الجدد يوجه إليهم مزاح عملي يسبب الأذى لغيرهم من المواطنين في بعض الأحيان، وكان طلبة الأساتذة المختلفين يتشيعون لأساتذتهم، ويهاجم بعضهم بعضاً، وينشأ من ذلك شغب كثير شبيه بالشغب الذي يحدثه شباب هذه البلاد وتستخدم فيه العصي. وكان بعض الطلبة يحسبون أن في مقدورهم أن يتعلموا من العشيقات والمقامرين أكثر مما يتعلمون من جميع أساتذة الفلسفة، ويشير ألسفرون Alciphron إلى أن أولئك النسوة كنّ ينظرن إلى الأساتذة نظرتهم إلى منافسين لهنّ بلداء عاجزين (17). غير أنه كثيراً ما كانت تقوم بين الطلاب والأساتذة روابط قوية من الصداقة الطيبة الوفية، فكان الكثيرون من الأساتذة يدعون الطلاب إلى الطعام، ويرشدونهم إلى ما يقرؤون، ويعودونهم إذا مرضوا، ويحرصون على أن يبقى أبائهم مخدوعين في مبلغ تقدمهم. وكان معظم المحاضرين يعيشون من الأجور التي يؤديها لهم طلبتهم، وكان عدد قليل من الأساتذة يتقاضون مرتبات من الدولة، فكان كل واحد من رؤساء المدارس الفلسفية الأربع يتقاضى عشرة آلاف درخمة (6000 ريال أمريكي) في السنة من الخزانة الإمبراطورية.

ومن هذه الدوافع نشأ عصر "السفسطائية الثانية" - الذي عاد فيه إلى الظهور الخطيب - الفيلسوف الذي ينتقل من مدينة إلى مدينة كلما دعاه داعي

صفحة رقم : 3782

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> صيف هندي

الكسب، يلقي الخطب، ويعلم التلاميذ، ويرافع في المحاكم عن المتقاضين، ويعيش في بيوت الأغنياء مستشاراً روحياً، ويكون أحياناً مبعوثاً مكرماً لدولة - مدينته. وازدهرت هذه الحركة في جميع أنحاء الإمبراطورية، وبخاصة في العالم اليوناني، في خلال الثلاثة القرون الأولى من التاريخ الميلادي، وقد وصفهم ديوبقوله إن الفلاسفة لم يكونوا وقتئذ يقفون عدداً عن الأساكفة (18). ولم يكن لهؤلاء السفسطائيين الجدد، كما لم يكن لإخوانهم الأقدمين، مبادئ مشتركة بينهم، وكانوا يصوغون تعاليمهم في عبارات بليغة، ويجذبون إليهم عدداً كبيراً من المستمعين، ويصلون في كثير من الأحيان إلى مراكز عالية في المجتمع، وينالون رضا الأباطرة، ويجمعون ثروات طائلة. وكانوا يختلفون عن السفسطائيين الأقدمين في أنهم قلما كانوا يتعرضون لشؤون الدين أو الأخلاق، بل كان همهم منصرفاً إلى الشكل والأسلوب، والفن الخطاب والحدق فيه، أكثر من انصرافه إلى المسائل الكبرى التي زعزت عقائد العالم ومبادئه الأخلاقية. والحق أن السفسطائيين الجدد كانوا من الأنصار المتحمسين للدين القديم، ولقد احتفظ لنا فيلوستراتس Philostratus بتراجم زعماء السفسطائيين في ذلك العصر، وحسبنا أن نضرب مثلاً واحداً منهم. كان أدريان Adrian الصوري يدرس البيان في أثينة وارتقى حتى صار فيها أستاذ البيان للدولة. وكان يبدأ خطبته الافتتاحية بتلك العبارة الدالة على الفخر والكبرياء: "ها قد عادت الأداب مرة أخرى من فينيقية". وكان يأتي إلى محاضراته راكباً عربة تجرها جياذ ذات عدة من الفضة، وعليه ثياب تتلألأ فيها الجواهر، ولما زار ماركس أورليوس مدينة أثينة أحب أن يمتحن أدريان فطلب إليه أن يرتجل خطبة في موضوع صعب. واجتاز أدريان هذا الاختبار بنجاح جعل هدريان يخلع عليه كثيراً من أسباب التكريم، من ذهب، وفضة، وبيوت وعبيد. ولما ارتقى أستاذاً للبيان في روما، كانت محاضراته جذبة مغرية إلى حد جعل أعضاء مجلس الشيوخ يؤجلون جلساته وجمهور السكان

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> صيف هندي

يتركون دور التمثيل، ويهرعون إلى سماعها مع أنه كان يلقيها باللغة اليونانية(19). وتلك خطة تكاد تؤذن بموت الفلسفة، فقد طغى عليها سيل البيان، وغادرها التقكير حين تعلمت الكلام. وكان في الطرف الآخر جماعة الكلبيين. ولقد وصفناهم في غير هذا المكان وصفنا ثيابهم الممزقة، وشعرهم الأشعث، ولحيتهم الكثة، وجعبتهم وعكازهم، ونزولهم بالحياة إلى أبسط الأمور، وإلى الفحش في بعض الأحيان. وكانوا يعيشون معيشة الرهبان المتسولين، في ظل نظام كهنوتي فيه مبتدئون ورؤساء أعلنون(30)، لا يتزوجون ولا يعملون، ويسخرون من تقاليد الحضارة ومظاهرها المصطنعة، ويشتهرون بالحكمات كلها على اختلاف أنواعها، ويرون أنها بأجمعها عديمة النفع، لا تعدو أن تكون تلوصاً سافراً، ويستهزئون بالنبوءات، و"الطقوس الخفية"، والأرباب. وكان الناس كلهم يهجونهم، وخاصة لوشيان، فقد صبّ عليهم أذع هجاء، ولكن لوشيان نفسه كان يعجب بدموناكس Demonax، الفيلسوف الكلبي المثقف الذي خرج عن كل ثروته ليعيش في فقر فلسفي، والذي وهب حياته الطويلة التي دامت قرناً كاملاً (50-150م) لمساعدة غيره من الناس، وإزالة الخلاف بين المتباغضين والمدن المتعادية، حتى لقد عظّمته أثينة رغم أنها كانت تسخر من كل شيء. ولما اتهم أمام محكمة أثينة بأنه يرفض تقرب القرايين للآلهة، برأته المحكمة حين قال إن الآلهة لا حاجة لها بالقرايين، وإن الدين ليُنحصر في الحنو على جميع الخلق، وكان هذا هو كل ما دافع به عن نفسه. ولما أن تورّطت الجمعية الأثينية في نزاع حزبي كان ظهوره فيها كافياً لفض النزاع، ولم يكن منه إلا أن غادرها دون أن ينطق بكلمة واحدة وكان من عادته في شيخوخته أن يدخل أي بيت من غير دعوة، ويُطعم فيه وينام. وكان كل بيت في أثينة يسعى لأن ينال هذا الشرف(21). ويتحدّث لوشيان بعطف

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> صيف هندي

أقل من هذا العطف على برجرينس Peregrinns الذي جرّب المسيحية ثم خرج عليها وانضمّ إلى جماعة الكلبيين، وندد بروما، وحرّض بلاد اليونان جميعها على الثورة، وأدهش المجتمعين في أولمبيا بأن جمع محرّفته بنفسه، وأوقد فيها النار، وقفز إليها، واحترق في لهيبها (165م) (22). وبهذا الاحتقار للثراء وللحياة نفسها كان الكلبيون يمهّدون السبيل لرهبان الكنيسة المسيحية. ولما أنشأ فسبازيان، وهديان، وماركس أورليوس كراسي للفلسفة في أثينة، أغفلوا الكلبيين والمتشككة، ولم يعترفوا إلا بمدارس الفكر الأربع: الأكاديمية الأفلاطونية، واللوقيون الأرسطوطيلية، والرواقية، والأبيقورية. وكانت

الأكاديمية قد وسّعت إيمان أفلاطون وافتخاره بالعقل الإنساني حتى استحال إلى الشك العام الذي قال به كرنيديز Carneades، فلما أن مات هذا الفيلسوف المشكك عادت هذه المدرسة فمالت إلى النزعة الأصلية، ورجع أنتيوخوس العسقلاني الذي كان يعلم شيشرون في المجمع العلمي (79 ق.م) إلى آراء أفلاطون في العقل، والخلود، والله. وكانت الموقيون وقتئذ قد قصرت بحوثها على العلوم الطبيعية جريباً على سثة ثيوفراسطس، أو على كتابة الشروح والتعليقات في ورع وخشوع على مؤلفات أرسطو. أما مدرسة أبيقور فكانت في هذا العصر الديني سائرة في طريق الأضمحلال، وقلما كان أحد من الناس يجروء على الجهر بعقائدها دون أن يشفع ذلك الجهد بتحفظات دبلوماسية. وكانت ألفاظ أبيقوري، وكافر، ومسيحي، في معظم بلاد أسية كلها ألفاظاً مترادفة، تعبّر عن الهلع والدنس (22). وقد كانت للفلسفة الرواقية الغلبة على سائر الفلسفات من قبل ذلك الوقت بزمن طويل، وكان ما اتصفت به صورها الأولى من صرامة وكمال قد خفت حدته على يدي بانيتيوس وبوسيدونيوس، وكلاهما من مواطني رودس.

صفحة رقم : 3785

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> صيف هندي

فأما بانيتيوس Panaetius فإنه عاد إلى أثينة بعد موت سيبو (129 ق.م) وأصبح وقتئذ رئيس الاستوا Stoa، وعرف الله بأنه روح مادية أو نفس مادي (pneuma)، يسري في الأشياء جميعها، ويظهر في الثبات في صورة قوة النماء، وفي الحيوان على هيئة النفس psyche وفي الإنسان على هيئة العقل logos وقد تطور هذا المذهب الغامض مذهب وحدة الله والكائنات إلى فلسفة أقرب إلى الفلسفة الدينية على أيدي خلفائه، واقتربت نظرية التأديب الأخلاقي الرواقية من الزهد الكلبي حتى أضحت الكلبية في القرن الميلادي ونيس بينها وبين الرواقية فارق إلا في رداؤها المهلهل على حد قول أحد الكتاب. ونرى الحركتين كلتيهما تتقدمان نحو المسيحية على أيدي إيكنتس وماركس أورليوس.

صفحة رقم : 3786

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> إيكنتس

الفصل الثالث

إيكنتس

وُلِدَ ابكتنس في هيرابوليس Hierapolis من أعمال فريجيا عام 50م، وكانت أمه جارية فكان هو لهذا السبب عبداً. ولم تُنح له فرصة للتعليم لأنه صار ينتقل من سيد إلى سيد، ومن مدينة إلى مدينة، حتى وجد نفسه مملوكاً لإفروديتس Epaphroditus وهو معتوق ذو سلطة في بلاط نيرون، وكان ضعيف الجسم أعرج، ولعل سبب ضعفه وعرجه هو وحشية أحد أساده، ولكنه عاش السبعين عاماً التي يعيشها الرجل العادي. وقد سمح له إفروديتس أن يستمع إلى محاضرات موسنيوس روفس، ثم حرره فيما بعد وما من شك في أن ابكتنس قد اشتغل معلماً في روما، لأنه كان يبيم من فروا منها حين نفى دومتيان الفلاسفة. ثم استقر في نقوبوليس واجتذب إلى محاضراته فيها طلاباً من جميع الأنحاء منهم أريان النيقوميدي الذي أصبح فيما بعد حاكم طردوكيا. وقد دون أريان عبارات ابكتنس، وأكبر الظن أنه دونها بطريقة الاختزال ثم نشرها باسم "Diatribai" أي عبارات "ممسوحة" أو نسخ - وهي التي تُذكر الآن بين قوائم أحسن الكتب في العالم بعنوان أحاديث Discourses وليس هذا الكتاب رسالة ثقيلة مملّة، بل هي حديث بسيط جيد، وفكاهة حلوة، تكشف في وضوح عن خلق متواضع حنون، ولكنه خلق قوي صارم. وكان ابكتنس يستخدم سخريته اللاذعة للاستهزاء بنفسه وبغيره على السواء، ويسخر في مرح من أسلوبه الجاف الخالي من التتميق. ولم يشك قد حين سمع دمناكس الأعزب العجوز ينصح الناس بالزواج، وأراد أن يسخر منه فنقّم

صفحة رقم : 3787

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> ابكتنس

إليه يخطب ابنته. وقد برر عدم زواجه بحجة أن في تعليم الفلسفة خدمة لا نقل عظمة عن ولادة "طفلين أو ثلاثة أطفال فطس الأنوف". واتخذ لنفسه في آخر أيامه زوجة تساعده على العناية بطفل أنجاه من الموت بسبب تعرضه لتقلبات الجو. وذاع صيته في جميع أنحاء الإمبراطورية في تلك الأيام، وكان هديران يعدّه من بين أصدقائه. وكان ابكتنس شبيهاً بسقراط في هذا وفي نواح أخرى كثيرة، ولكنه لم يعن بالطبيعة أو بما وراء الطبيعة عناية تحمله على إنشاء نظام فكري، بل كان موضوعه الأوحده الذي يشغف به ويوجه إليه كل عنايته هو الحياة الصالحة. ومن أقواله في هذا المعنى: "ماذا يهمني من أن تكون الأشياء الموجودة على ظهر الأرض مكونة كلها من ذرات... أو من النار والتراب؟ أليس يكفي أن أعرف حق المعرفة ما هو الطيب وما هو الخبيث؟" (25). وليست الفلسفة في رأيه هي قراءة ما في الكتب من حكمة، بل هي تدريب الإنسان نفسه على اتباع الحكمة. وجوهر المسألة أن يشكل الإنسان حياته وسلوكه بحيث لا تتأثر سعادته بالظروف الخارجية إلا أقل التأثر. وهذا لا يتطلب منه أن يكون موقفه من الحياة موقف الثسآك، بل إن "الابيقوريين، وأسافل الناس" ملومون لأنهم يحولون بين الناس وبين أداء الخدمات العامة، والرجل الصالح يقوم بنصيبه في الشؤون الدينية، ولكنه يرضى، وهو هادئ مطمئن، بجميع صروف الزمان: من فقر، وحرمان، وإذلال، وألم، ورق، وسجن، وموت. ويعرف كيف "يصير وينبذ". "لا نقل عن شيء ما" "إني فقدته" بل قل فقط "إني رددته". هل مات لك طفل؟ لقد رُدّ. هل ماتت لك زوجة؟ لقد أعيدت. "لقد أعتصبت مني مزرعتي". حسن جداً هذه أيضاً قد رُدّت. وما دام الله قد وهبك إياها فاعتن بها على أنها ليست لك... "أسفي على أنني أعرج!" أيها العبد!

صفحة رقم : 3788

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> إيكنتس

أتؤنب الكون لأنك فقدت ساقاً حقيرة؟ ألا يليق بك أن تنزل عنها هبة خالصة للكون كله؟... وإذا أرغمت على الخروج من بلدي منفيًا، فهل في مقدور أحد من الناس أن يمنعني أن أخرج مبتسماً هادئاً؟... "سألقبك في السجن". إنك لن تسجن إلا جسمي، وسأموت حتماً، فهل يجب إذن أن أموت شاكياً؟... تلك هي الدروس التي يجب أن تبدأها الفلسفة وتعيدها، وتدونها كل يوم، وتمارسها... ليست منصة الخطابة وليس السجن إلا مكانين، أحدهما عالٍ والآخر منخفض، ولكن هدفك الأخلاقي يجب أن يكون واحداً في كلتا الحالتين (27).

وفي مقدور العبد أن يكون حر الروح كديجين، وفي وسع السجين أن يكون حراً كسقراط، وقد يكون الإمبراطور عبداً كنيرون (28)، وليس الموت نفسه إلا حادثاً عارضاً في حياة الرجل الصالح، في وسعه أن يستعجله إذا تبين أن الشر يرحج كثيراً على الخير (29). وخليق به على أية حال أن يستقبله في هدوء، وأن يرى فيه جزءاً من حكمة الطبيعة المكنونة.

"لو أن سنابل الحب كان لها إحساس، فهل كانت ترجو ألا تُحصد؟... إنني أحب أن تعلم أنك لو عشتَ أبد الدهر لكان عيشك هذا نقمة... إن السفينة تغرق، فماذا أفعل إذن؟ مهما استطعتُ أن أفعل... فسأغرق دون أن أخشى شيئاً أو أن أحجم أو أجدف في حق الله. بل أعتقد أن من يولد لأبد أن يهلك. ذلك أني جزء من الكل كما أن الساعة جزء من اليوم. عليّ أن أجيء كما تجيء الساعة، وأن أنقضي كما تنقضي (30)... يجب ألا تُعد نفسك أكثر من خيط واحد بين جميع الخيوط التي يتكون منها الثوب (31)... لا تسع لأن يكون ما يحدث لك يحدث كما تحب، بل أحب أن يحدث ما حدث كما حدث، فإن فعلت وجدت الهدوء والطمأنينة" (32). وكثيراً ما يتحدث إيكنتس عن الطبيعة بوصفها قوة غير ذات شخصية،

صفحة رقم : 3789

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> إيكنتس

ولكنه في كثير من الأحيان أيضاً يجعل لفكرته عن الطبيعة شخصية، وذكاء، وعاطفة حب. وترى الجو الديني الذي كان يسود عصره يغمر فلسفته ويحيلها تقوى مُستسلمة شبيهة بتقوى الإمبراطور الذي قرأ فلسفته وردد صدى أفكاره بعد زمن قليل. فهو يتحدث حديثاً بليغاً رقيقاً عن النظام الفخم الذي يسود الزمان والمكان، وعمّا في الطبيعة من خطط موضوعة، ولكنه ينتقل من هذا ليقول إن "الله قد خلق بعض الحيوانات لكي يؤكل وبعضها الآخر لكي يعمل في المزارع، وبعضها لكي يُخرج الجبن" (33)، وهو يعتقد أن العقل البشري نفسه أداة عجيبة لا يستطيع أن يوجد إلا إله خالق، وأنها وقد وُجدت لنا عقول لا بد أن تكون في الواقع أجزاء من العقل العالمي. ولو أننا استطعنا أن نرجع بأنسابنا إلى الإنسان الأول لوجدنا أنه من أبناء الله، فإله إذن أبونا جميعاً بالمعنى الحرفي للفظ الأبوة، والناس كلهم إخوة (34).

"لم يحجم من راقب تصريف شؤون العالم وفهمها وعرف أن أعظم المجتمعات وأوسعها هو نظام (سسيتما) Systema أي الوقوف الإجماعي) الخلق والله، وأن الله هو الذي انبعثت منه الأصول التي نشأت منها جميع الأشياء وخاصة الكائنات العاقلة، لم يحجم عن أن يُسمى نفسه مواطناً عالياً... أو بعبارة أصح: ابن الله؟ وإذا استطاع الإنسان أن يؤمن بهذا المبدأ بقلبه وروحه فأكبر ظني أنه لم تخالجه قط فكرة دنيئة أو غير شريفة... فلا تنسَ إذن وأنت تأكل،

من أنت الذي يأكل، ومن هو الذي تغذيه، وإذا ما ضاجعت النساء، فأذكر من أنت الذي تفعل هذا... إنك تحمل الله معك... أنت أيها التعس المسكين، وإن كنت لا تعرف (35)!

ويحث إبيكتس طلابه في فقرة خليقة بأن يكتبها القديس بولص أن يسلموا إرادتهم لله في ثقة واطمئنان، وألا يقتصروا على هذا بل أن يكونوا فضلاً عن ذلك رُسلًا لله بين بني الإنسان فيقول:

صفحة رقم : 3790

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> إبيكتس

يقول الله: "اذهبوا وكونوا شهداء لي على الناس" (36)... وفكروا في المعنى الذي ينطوي عليه قولكم: "لقد بعثني الله إلى العالم لأكون جندياً من جنوده وشاهداً من شهوده، ولأخبر الناس أن أجزائهم ومخاوفهم عبثٌ وبطلان، وأن الشر لا يمكن أن يصيب الرجل الطيب، حياً كان أو ميتاً. والله يبعثني يوماً هنا ويوماً هناك، ويؤدبني بالفقر والسجن، لكي أكون شاهداً حقاً له بين الناس. وإذا ما قمت بهذه الرسالة، فهل يعنين أي مكان أكون فيه، أو من يكون رفاقي، أو ماذا يُقال عني؟ أجل ألا تكون فطرتي كلها منجذبة نحو الله، ونحو شرائعه ووصاياه" (37).

أما هو نفسه فقد كان غموض الأشياء ولأنها يملأه رهبة وشكراً، وهو يترنم للخالق بتسبيحة وثنية تُعد من أروع الفقرات في تاريخ الأديان.

"أية لغة ترقى إلى الثناء على جميع أعمال العناية الإلهية؟... أما كان خليقاً بنا، لو كانت لنا عقول، أن نصرف وقتنا كله في التغني بمجد الإله والتسبيح بحمده، والتحدث بنعمه؟ أليس من واجبنا ونحن نحفر الأرض ونفلقها، ونأكل من ثمارها، أن تلهج ألسنتنا بالثناء عليه؟ - وماذا بعد هذا؟ - أما وقد أصبحت كثر تكلم الغالبة عمياء، أفلا يجب أن يكون هناك إنسان يؤدي هذا الواجب بدلاً منكم، وينوب عنكم جميعاً في التغني بمدح الله؟" (38).

إننا لنجد في هذه الفقرات تشابهاً عجباً بينها وبين كثير من أفكار المسيحية الأولى وإن كنا لا نرى فيها كلمة واحدة عن الخلود، وإن كان في وسعنا أن نرجع بها جميعاً إلى عقائد الرواقيين والكلبيين. والحق أن إبيكتس ليبتدع أحياناً على المسيحية يتقدم عليها في تنديده بالاسترقاق، وفي وجوب تحريم عقوبة الإعدام، وفي مناداته بأن يُعامل المجرمون على أنهم مرضى يحتاجون إلى العلاج (39). وهو يدعو الناس إلى أن يحاسبوا ضميرهم في كل يوم من

صفحة رقم : 3791

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> إبيكتس

أيام حياتهم (40)، ويضع لهم قاعدة من نوع القواعد الذهبية: "لا تكن سبباً في أن يتعذب الناس بما لا تحب أن تتعذب به أنت" (41)، ويضيف إلى ذلك قوله: "إذا قيل لك إن إنساناً يتحدث عنك حديث السوء، فلا تُدافع عن نفسك بل قل: إنه لو عرف سائر عيوبه لما ذكر هذه وحدها" (42). وهو ينصح الناس بأن يجزوا الإساءة بالإحسان، "وألا يردوا

الشم إذا شتموا!" (44). وأن يصوموا من حين إلى حين، وأن "يمتعوا عما يشتهون" (45). وتراه أحياناً يتحدث عن الجسم باحتقار مزرر كالذي يتحدث به عنه الناسك الذي لم يتطهر بعد من ذنوبه: "إن الجسم أفقر الأشياء جميعاً وأخيها... ومن أغرب الأشياء أن نحب هذا الشيء ونودي له هذه الخدمات العجيبة في كل يوم. أنا أملاً هذا الكيس، ثم أفرغه، فهل ثمة عمل أكثر من هذا مشقة؟" (46).

ومن أقوال أبكتنس فقرات تتطرق بتقى أوغسطين وفصاحة نيومن Newman؛ "تصرف في يارب كما تشاء؛ إن عقلي منك وإليك؛ أنا ملك لك. ولست أطلب أن أعفى من شيء ترى أنت أنه خير. اهدني إلى حيث تريد، واكسني بما تشاء من الثياب" (47)، وهو يأمر أتباعه كما يأمرهم عيسى بالاهتمام بأمر غد.

"إذا كان الله خالقنا، وأبانا، ووليّنا - أفلا يكفي هذا لأن يردعنا الحزن والخوف! ويتساءل بعض الناس: من أين أطمع إذا لم يكن عندي ما أطعمه؟ ولكن ماذا نقول عن الحيوانات، يكتفي كل منها بنفسه، ولا يعدم ما يصلح له من الطعام، ولا ينقصه ما يوائمه ويتمشى مع طبيقته من أساليب الحياة؟".

وهل من عجب بعد هذا أن يثني عليه المسيحيون أمثال القديس يوحنا وكريستوم وأوغسطين، وأن يتخذ كتابه "الموجز" بعد تغيير طفيف قاعدة لحياة النساء في الأديرة ومرشداً لهن؟ (49). ومن يدري لعل أبكتنس قد قرأ أقوال عيسى في صورة ما وأنه قد اعتنق المسيحية على غير علم منه.

صفحة رقم : 3792

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> لوشيان والمتشككة

الفصل الرابع

لوشيان والمتشككة

ومع هذا فقد كان في هذه المرحلة الأخير من مراحل الثقافة الهلنستية متشككة يعيدون إلى الأذهان شكوك بروتجوراس، وكان فيها لوشيان، يسخر من العقائد الدينية بوقاحة كوقاحة أرسطس، وبأسلوب لا يكاد يقل سحراً عن أسلوب أفلاطون. ولم تكن مدرسة بيرو Pyrrho قد ماتت بعد، وقد أعاد إينسديمس Aenesidemus النسوسي صياغة أقوالها الإنكارية بمدينة الاسكندرية في القرن الأول الميلادي، وذلك في "الأساليب" Tropoi العشرة أو المتناقضات التي تجعل المعرفة مستحيلة. وفي أواخر القرن الثاني صاغ سكستس إمبركس Sextus Empiricus، وهو رجل لا نعرف له تاريخاً ولا موطناً، فلسفة المتشككة في شكلها الأخير وضمنها عدة مجلدات هدامة بقيت منها حتى الآن ثلاثة. ويتخذ سكستس العالم كله عدواً له، ويُقسّم الفلاسفة أجناساً مختلفة، ويقضي عليهم واحداً

صفحة رقم : 3793

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> لوشيان والمتشككة

بعد واحد، ويكتب بالقوة الخلقية بالجلادين، وبالترتيب الحسن والوضوح اللذين تمتاز بهما الفلسفة القديمة، ولا يخلو أسلوبه من الفكاهة الساخرة ومن فتات من المنطق الكنيبي.

ويقول سكستس ان كل حجة يمكن معارضتها بحجة مساوية لها، ومن أجل هذا لن نجد في آخر الأمر شيئاً لا ضرورة له أكثر من التعليل والاستدلال لا يوثق به إلا إذا قام على أساس الاستقراء الكامل، ولكن الاستقراء الكامل مستحيل، لأننا لا نستطيع أن نتبين متى يظهر أمامنا "مثل سلمي" (51). وليست "علة" إلا سابقة منتظمة (كما يُكرر هيوم Hume)، والمعرفة كلها نسبية (52). كذلك لا يوجد خير أو شر موضوعي، فالمبادئ الأخلاقية تختلف باختلاف البلاد (53)، وللفضيلة في كل جيل تعريف يختلف عن تعريفها في كل جيل آخر. وانك لتجد في أقوال هذا الفيلسوف جميع الحجج التي أدلى بها في القرن التاسع عشر عن إمكان معرفة وجود الله أو عدم وجوده. كما تجد فيها جميع الأقوال المتعارضة بين قدرته العليا الخيرة والآلام الدنيوية (54). ولكن سكستس أكمل لأدرية من اللادريين، لأنه يؤكد أننا لا نستطيع أن نعرف أننا لا نعرف. ويقول أن اللادرية عقيدة (55)، ولكنه يواسينا بقوله أننا لسنا في حاجة إلى الحقيقة المؤكدة؛ وإن في الترجيح ما يفي بجميع أغراضنا العملية، وإن تعليق الحكم في المسائل الفلسفية بدل إزعاج العقل به يهبه الهدوء الناشئ عن عدم الاهتمام (Atarasia 56): وإذا لم يكن ثمة شيء مؤكد فلنقبل عرف الزمان والمكان اللذين نعيش فيهما وعقائدهما، ولنعبد أربابنا القدامى متواضعين (57).

ولو أن لوشيان قد أوتي من الحمق ما جعله يقيد عقله بالانتماء إلى طائفة خاصة من الفلاسفة لكان من طائفة المتشككة. وكان يكتب الفلسفة كما يكتبها فلنير الذي يشبهه في كل شيء إلا في عطف فلنير وحنانه، يكتبها بأسلوب بلغ من

صفحة رقم : 3794

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> لوشيان والمتشككة

الإشراق والوضوح حدّاً لا يظن معه إنسان أنه يكتب الفلسفة. وكان مولده في سموساتا Samosata من أعمال كمجيني Commagene البعيدة، وكأنه قد وُلد في هذا المكان بالذات ليدلنا على مدى انتشار الهلنستية. وقد قال عن نفسه: "أنا سوري من بلاد الفرات". وكانت لغته الأصلية هي السريانية، وأكبر الظن أن الدم الذي كان يجري في عروقه هو الدم السامي (58). ثم أرسل ليتمرّن على النحت عند مثال؛ ولكنه ترك النحت وأخذ يدرس البلاغة؛ وبعد أن أقام في إنطاكية يمارس صناعة المحاماة شرع يتجول في الطرقات كما يفعل "العالم المستقل"، يكسب عيشه بإلقاء المحاضرات، وخاصة في روما وغالة؛ ثم ألقى عصا التنسيار في أثينة (عام 165م)، وأنجاه ماركس أورليوس الورع المتسامح من الفقر في آخر أيامه، وعين المتشكك غير المحترم في منصب رسمي في مصر، حيث مات في تاريخ غير معروف.

وقد أبتت الأيام على سنة وسبعين كتاباً من كتب لوشيان الصغيرة، وكثيٌّ منها لا يقل حدة ومناسبة لأحوال هذا العصر عما كانت عليه حين كان يقرؤها على أصدقائه ومستمعيه قبل ثمانية عشر قرناً من الزمان. وقد أخذ يجرب أفانين مختلفة من الكتابة حتى عثر أخيراً على أسلوب الحوار الممتع الظريف. وقد بلغ كتابه محاورات الحظيات من التحرر

درجة جعلت له كثيرين من القراء، ولكنه كان في كتبه على الأقل أكثر انهماكاً في الآلهة منه في الحظيات؛ وهو لا يفرغ قط من الإساءة إليهن. وفي كتابه هذا على لسان منبس Menippus: "كُنْتُ وأنا غلام أستمع إلى قصص هومر وهزيبود عن الآلهة - الآلهة الزانين، الآلهة الجشعين النهابين، الآلهة العنيفين المتنازعين، مرتكبي الفحشاء مع المحارم. ولم أكن أجد في هذا كله مأخذاً، بل إنني في واقع الأمر وجدتُ فيه متعة عظيمة؛ ولكني حين بلغت سن الرشد وجدت الشرائع تتناقض أقوال الشعراء مناقضة تامة، فتحرم الزنى والسلب والنهب".

صفحة رقم : 3795

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> لوشيان والمتشككة

وتحير منبس فذهب إلى الفلاسفة يستوضحهم الأمر، ولمنهم كانوا مشغولين بأنفسهم يحاول كل منهم أن يُفند حجج غيره، فلم يدوه إلا حيرة واضطراباً، ولم يردأ من أن يصنع له جناحين ويطير بهما إلى السماء، ويفحص عن الأمر بنفسه. واستقبله زيوس أحسن استقبال، وأكرم وفادته، وسمح له أن يراقب مجرى الأمور من فوق أولمبس. وكان زيوس نفسه يستمع إلى الصلوات وهي تأتي إليه من "صف من الفتحات لها أغطية كأغطية الآبار... وكان من بين الخلق الذين يعملون في البحار رجل يطلب ريحاً شمالية وآخر يطلب ريحاً جنوبية. وكان الزارع يدعو ليرسل إليه المطر، والقصار يدعو أن يرسل إليه الشمس. وخُيِّل إلى الرجل أن زيوس قد تحير في أمره، لا يعرف أي دعاء يستجيب له، فامتنع عن الحكم امتناع العلماء الحقيقيين، وأظهر من التريث والانتزان ما هو خليق ببيرو نفسه" (59). ثم يرفض الإله بعض المطالب، ويستجيب لبعضها الآخر، ثم ينظم طقس اليوم: فيرسل المطر إلى سكوديا، والنلج إلى بلاد اليونان، والعواصف إلى البحر الأدرياتي، و"يصرخ صرخة تبعث بعشرين ميكيالا من البرد إلى كيدوكيا". ويغضب زيوس من الآلهة السمجة الغربية التي تسللت إلى مجمع آلهته؛ فيصدر أمراً يقول فيه إن جبل أولمبس قد ازدحم بالآلهة الأجنبية المتعددة الأجناس حتى ارتفع ثمن الرحيق الذي نشربه، وأخرجت منه الآلهة القديمة، التي هي دون غيرها، الآلهة الحقّة؛ ولهذا فإن لجنة من سبعة سنشكل لتتظر في مطالب الآلهة. وفي كتاب التحقيق مع زيوس يسأله فيلسوف أبيقوري: هل الآلهة هي الأخرى خاضعة للأقدار؟ فيجيب جوف الظريف بقوله: نعم. فسأله الفيلسوف: "ولم إذا يُقرّب الأدميون لك القرابين؟. وإذا كان القدر هو المسيطر على الأدميين والأرباب، فلم نكون مسؤولين عن أعمالنا؟"، فبردّ عليه زيوس بقوله: "يتبين لي أنك كنت مع تلك الجماعة اللعينة جماعة

صفحة رقم : 3796

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> لوشيان والمتشككة

السفسطائيين" (60)؛ وفي زيوس تراجودس Zeus Tragoedus ترى الإله مكتنباً ساخطاً لأنه يرى جمعاً محتشداً في أثينا يستمع إلى داميس Damis الأبيقوري ينكر وجود الآلهة واهتمامها بالخلق، بينما يؤكد ذلك تمكليز Timocles الرواقي. ثم يهزم تمكليز ويفر من الميدان؛ ويأس زيوس من مستقبله، ولكن هرمس يواسيه بقوله: "لا يزال في الأرض كثيرون من المؤمنين، هم الكثرة الغالبة من اليونان، أواسط الشعب وسفلته، والبرابرة على بكرة أبيهم" (61). ولم يتهم لوشيان بالكفر لقوله هذا، وفي ذلك دليل إما على روح التسامح التي كانت تسود ذلك العصر وإما على قرب زوال الآلهة اليونانية من الوجود.

وكان لوشيان يتشكك في قيمة البلاغة والفلسفة تشككه في الدين القديم. ففي إحدى محاورات الموتى يأمر كارون Charon أحد البلغاء، وهو ينقله إلى الدار الآخرة، "أن تنثر ما بلغك من طول الجمل الذي لا آخر له، ومن والطباق والمقابلة والعبارات المتوازنة" - وإلا غرق القارب حتماً (62). وفي هرמותس Hermotimus ترى طالباً يبدأ دراسة الفلسفة متحمساً لها راجياً أن يستعيز بها بعض الاستعاضة عن الإيمان، ولكنه يصطدم مما يتصف به المعلمون المتنافسون من غرور وشرة، ويتركه هؤلاء المعلمون عارياً ذهنياً وخلقياً، لأن كل فريق منهم يقضي وقته في دحض حجج الفريق الآخر، ولهذا "سأبتعد عن الفيلسوف كما أبتعد عن الكلب" على حد قوله في ختام حديثه (63). ويعرف لوشيان نفسه الفلسفة بأنها محاولة "للوصول إلى مرتفع تتطلع منه إلى جميع الجهات" (64). وتبدو له الحياة من هذا المرتفع كأنها خليط مهوش سخيف، وأوجعة مضطربة مختلة النظام، يتحرك فيها الراقصون ويصرخون كلُّ كما يريد حتى يطردهم رئيس الفرقة من فوق المسرح واحداً بعد الآخر (65). ويصور

صفحة رقم : 3797

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> لوشيان والمتشككة

في "كارون" منظر البشر، كما تراه عين فوق عين الأدميين من قمة سماوية عالية، صورة حالكة السواد: صورة خلائق يفلحون الأرض، ويكدحون، ويتنازعون، ويتقاضون في المحاكم، ورايون، ويعشون ويغشون. ويجرون وراء الذهب أو اللذة. وفوق رؤوسهم سحابة من الرمال والمخاوف، والحمق، والكره، ومن فوق هذه كلها تعترل الأقدار خيط الحياة لكل ذرة بشرية؛ فإنسان يرتفع من بين جمهرة الناس ثم يسقط إلى الحضيض، وكل إنسان يسحبه بدوره رسول من رسل الموت. ويصير كارون جيشين يقتتلان في أرض البلوبونيز، فيعلق على قتالهم بقوله: "ما أشدَّ حمق هؤلاء! إن كلاً منهم لا يعرف أنه وإن كسب البلوبونيز وحده لن يكون له آخر الأمر إلا قدم واحدة من الأرض" (66). ولوشيان لا يحابي أحداً شأنه في هذا شأن الطبيعة نفسها، فهو يهجو الأغنياء لشراههم، والفقراء لحسدتهم، والفلاسفة لشراهم، والآلهة لعدم وجودهم. ويختم حديثه في آخر الأمر بما يختم به فلنتير حديثه وهو أنه ينبغي للإنسان أن يزرع حديثه. فمنبس Menippus يجد تيرسياس Teiresias في الدار السفلى ويسأله: ما خير أنواع الحياة؟ فيجيبه النبي الشيخ بقوله:

إن حياة الرجل العادي خير أنواع الحياة، ومن اختارها كان أكثر الناس فطنة؛ وإياك وسُخف المجادلات فيما وراء الطبيعة والبحث في أصول الأشياء وغاياتها؛ ولا تحسبن هذا المنطق كله إلا هراء في هراء، ولا تسع إلا لغاية واحدة وهي كيف تعمل ما تجده يدك لتعمله؛ وسر في طريقك دون أن تتفعل قط وعلى فمك ابتساماً على الدوام (67). وقصارى القول أن التفكير اليوناني في القرنين الأولين من التاريخ الميلادي تغطي عليه النزعة الدينية على الرغم من لوشيان وآرائه. لقد خسر الناس قبل ذلك العهد إيمانهم وعمدوا إلى المنطق؛ أما في الوقت الذي نتحدث عنه فقد كانوا يخسرون المنطق ويعودون سراعاً إلى الإيمان. ذلك أن الفلسفة اليونانية

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> بلاد اليونان الرومانية -> لوشيان والمنتشكة

كانت قد أتت دورتها مبتدئة باللاهوت البدائي، ثم انتقلت منه إلى تشكك السفسطائيين الأولين، ثم إلى كثر دمقريطس، فمداهنة أفلاطون ومحاولته التوفيق بين النزعتين، فنزعة أرسطو الطبيعية، فعقيدة وحدة الله والكون التي كانت تنادي بها الستوا، فالعودة إلى فلسفة التصوف والاستسلام والتقوى. أما المجمع العلمي فقد انتقل من أساطير مؤسسة النفعية عن طريق تشكك كرنيديز Carneedes إلى خشوع أفلوطرخس القائم على العلم. ولا يلبث أن يبلغ الذروة في رؤى بلوتنس السماوية. لقد نسي الناس كشوف فيثاغورس العلمية العظيمة، ولكن فكرته عن التجسد بدأت وقتئذ تحيا حياة جديدة، فكان الفيثاغوريون الجدد ينقبون فيما تنطوي عليه الأعداد من أسرار خفية، ولا ينقطعون يوماً واحداً عن اختبار الضمير الإنساني ويدعو الله أن ينتقلوا بعد أقصر فترة مستطاعة من التجسد إلى الاتحاد المبارك مع الله بعد أن يمروا بالمطهر - إن كان لابد لهم أن يمروا به (68). وكانت الرواقية تبعد شيئاً فشيئاً عن أن تكون فلسفة الأشراف المفخرة المستهزئة، وقد وجدت آخر المعبرين عنها وأفصحهم لساناً في عبد من العبيد. وكان إيمانها باللهب الذي سوف يحرق العالم آخر الدهر، ونبذها كل ملاذ الجسد، واستسلامها في خضوع ومذلة إلى إرادة الله الخفية، كان هذا كله يمهد السبيل إلى اللاهوت المسيحي والمبادئ الخلقية المسيحية. وملاك القول أن المزاج الشرقي كان وقتئذ يستحوذ على القلعة الأوربية.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> مصر الرومانية

الباب الرابع والعشرون

اليقظة الهلنستية

الفصل الأول

كان خليفاً بمصر أن تكون أسعد بلدان الأرض قاطبة، لأن النيل يرويهما ويغذيها، ولأنها أكثر بلاد البحر الأبيض المتوسط قدرة على الإكتفاء بخيراتها- فهي غنية بالحب والفاكهة، وتنتج أرضها ثلاث غلات في العام، ولم يكن يعلو عليها بلد آخر في صناعاتها، وكانت تصدّر الغلات والمصنوعات إلى مائة قطر وقطر، وقلما كان يزعجها ويفلق بالها حرب خارجية أو أهلية. ولكن يبدو أن "المصريين" برغم هذه الأسباب- أو لعلمهم لهذه الأسباب- "لم نعموا بالحرية يوماً واحداً في تاريخهم كلهم" (1) على حد قول يوسفوس. ذلك أن ثروتهم كانت تغري بهم الطغاة أو الفاتحين واحداً في إثر واحد مدى خمسين قرناً من الزمان كانوا فيها يستسلمون لأولئك الطغاة والفاتحين .

صفحة رقم : 3800

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> مصر الرومانية

ولم تكن روما تعد مصر ولاية تابعة لها، بل كانت تعدّها من أملاك الإمبراطور نفسه، وكان يحكمها حاكم مسئول أمامه وحده. وكان موظفون من اليونان المتمصرين يديرون أقسامها الثلاثة- مصر السفلى، ومصر الوسطى، ومصر العليا، ومقاطعاتها الست والثلاثين، وبقية اللغة اليونانية في ذلك العهد هي اللغة الرسمية- ولم تبدل محاولة ما لتحضير السكان، فقد كانت وظيفة مصر في الإمبراطورية أن تكون المورد الذي تستمد منه روما ما يلزمها من الحبوب، ولهذا السبب انتزعت من الكهنة مساحات واسعة من الأرض وأعطيت للممولين الرومان أو الإسكندرانيين، وجعلت ضياعاً واسعة يعمل فيها الفلاحون ويستغلّون بلا رحمة. وظلت الرأسمالية الحكومية كما كانت في عهد البطالمة، وإن كانت في صورة أخف من عهدها السابق؛ لقد كانت تنظم كل خطوة من خطوات الأعمال الزراعية وتشرف على تنفيذها: فكان موظفون حكوميون مطردو الزيادة يعينون ما يزرع من المحاصيل، ومقدار ما يزرع منها، ويوزعون البذور على الزراع في كل عام، ويستولون على المحصولات ويودعونها في مخازن حكومية (thesauri)، ويصدرون منها حصة روما، ويقتطعون الضرائب منها عينا، ويبيعون ما يتبقى بعد ذلك في السوق. وكان القمح والكتان محتكرين للحكومة من البذر إلى البيع؛ وكذلك كان شأن الطوب، والروائح العطرية وزيت السمسم في الفيوم إن لم يكن في غيرها من الأقاليم، أما غير هذه من الميادين الاقتصادية فكان يُسمح فيها بمشروعات الاستغلال الخاصة، على أن يكون هذا الاستغلال خاضعاً لأنظمة دقيقة شاملة. وكانت مصادر الثروة المعدنية كلها ملكاً للدولة، وكان قطع الرخام واستخراج الحجارة الكريمة امتيازاً خاصاً للحكومة. واتسع نطاق الصناعات المنزلية فانتشرت في المدين- وكان قد مضى على قيامها في مصر زمن طويل، فاشتهرت بها مدائن بطليمونيس Ptolemais، ومنفيس وطيبة، وأكسيرهنكس Oxyrhynchus، وصان، وبسطة، ونقراطيس،

صفحة رقم : 3801

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> مصر الرومانية

وهلويبوليس (عين شمس)؛ وكانت هذه الصناعات في الإسكندرية المورد الذي تعتمد عليه نصف حياة العاصمة الصاخبة. ويبدو أن صناعة الورق كانت قد بلغت وقتئذ المرحلة الرأسمالية، فإن استرابون يحدثنا أن أصحاب مزارع البردي حددوا محصوله ليرفعوا سعره (3). وكان الكهنة يقيمون المصانع في حرم الهياكل، ويخرجون فيها نسيجاً رقيقاً من التيل، يصنعون منه ملابسهم، ويبيعون بعضه في الأسواق. ولما كان يوجد أرقاء في مصر يعملون في غير الخدمات المنزلية، لأن العمال "الأحرار" لم يكونوا يؤجرون أكثر مما يكفي لستر عورتهم وسد رمقهم. وكان هؤلاء العمال يضربون عن العمل (anachoresis) في بعض الأحيان - فكانوا يمتنعون عنه ويجمعون بالهياكل حتى يخرجوا منها بتأثير الجوع أو الألفاظ المعسولة. وكان يحدث أحياناً أن ترفع الأجور، فترتفع الأثمان، وتعود الأمور كما كانت من قبل. وكان يُسمح بإنشاء النقابات الطائفية، ولكنها كانت في الأغلب الأعم خاصة بالتجار ومديري الأعمال، وكانت الحكومة تستخدمها في جباية الضرائب وفي تنظيم أعمال السخرة كإقامة السدود، وحفر الترعة وتطهيرها، وإقامة المباني العامة.

وكانت التجارة الداخلية نشطة ولكنها بطيئة. فقد كانت الطرق رديئة، وكانت وسائل النقل البري هي الحمّالين، والحمير، والجمال - التي حلت وقتئذ محل الخيل للجر والحمل في أفريقية. وكان جزء كبير من التجارة الداخلية يُنقل في نهر النيل أو القنوات. وكانت قناة كبرى يبلغ عرضها مائة وخمسين قدماً وتمت في عهد تراجان، تربط البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الهندي عن طريق النيل والبحر الأحمر. فكانت السفن تخرج في كل يوم من الشغور الواقعة على هذا البحر مثل أرسنوثي، وميوس هر موس Muos Hormos ويرنيس في طريقها إلى أفريقية أو الهند. وكان النظام المصرفي الذي يمول الإنتاج خاضعاً بأكمله للرقابة الحكومية، وكان في حاضرة كل إقليم

صفحة رقم : 3802

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> مصر الرومانية

مصرف للدولة، يتسلم الضرائب، وتودع فيه الأموال العامة. وكانت القروض تعقد للزراع وتشجيع الصناعة والتجارة والأعمال المالية، تقرضها الحكومة أو الكهنة من خزائن الهياكل، أو هيئات الإقراض غير الحكومية (4). وكانت الضرائب تقرض على جميع المنتجات، والعمليات الاقتصادية، والبيع، والإصدار، والاستيراد، بل وعلى القبور ودفن الأموات؛ وكانت قروض إضافية تُقرر من حين إلى حين، وتُجبي عيناً من الفقراء أو خدمات من الأغنياء. وكانت البلاد - أو كان سادتها - من عهد أغسطس إلى تراجان في رخاء؛ ثم أخذ هذا الرخاء، بعد أن وصل إلى ذروته في ذلم العهد، يفارقها بتأثير الخراج الذي لم يكن يُعرف له حد، والضرائب الفادحة، وما يعقبهما من كساد ونضوب في موارد البلاد، وما يؤدي إليه الاقتصاد المجند من تراخ وإهمال.

وبقيت مصر في خارج الإسكندرية ونقراطيس محتفظة بمصريتها عابسة صامتة، ولما اصطبغ فيها شيء بالصبغة الرومانية بعيداً عن مصاب النيل؛ وهي مدينة الإسكندرية نفسها، التي كانت أعظم المدائن اليونانية، أخذت في القرن الثاني بعد الميلاد تصطبغ بصبغة الحواضر الشرقية في أخلاق أهلها ولغاتهم وفي جوارحها الشرقي. وكان يسكن عاصمة مصر 800.000 من جميع سكان البلاد البالغ عددهم 8.500.000 (5) وكان عدد سكانها في عام 1930

نحو 573.000)، ولم يكن يزيد عليها في عدد السكان سوى روما نفسها. أما من حيث الصناعة والتجارة فقد كانت أولى المُدن في الإمبراطورية. وقد ورد في خطاب يُعزى إلى هدریان- وإن كنا نشك في صحة نسبته إليه- أن كل شخص في الإسكندرية يعمل، وأن لكل إنسان فيها حرمة، وحتى العرج والعمى يجدون لهم عملاً فيها(6). وكان من بين مئات الصناعات القائمة في المدينة صناعة الزجاج، والورق، ونسج الكتان. وكانت هذه المصنوعات موفرة الإنتاج، وكانت الإسكندرية مركز صناعة الكساء والأزياء العصرية المستحدثة في ذلك الوقت، فكانت

صفحة رقم : 3803

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> مصر الرومانية

هي التي تضع طراز الملابس وهي التي تصنعها. وكان لمرافئها العظيم تسعة أرصفة، يخرج منها أسطولها التجاري ليمخر عباب عدة بحار. وكانت المدينة فوق ذلك مركزاً للسياح، فيها الفنادق، والأدلاء، والمترجمون لاستقبال الزائرين القادمين إليها لمشاهدة الأهرام والهيكل الفخمة في طيبة. وكذلك شارعها الرئيسي يبلغ عرضه سبعة وستين قدماً، وتقوم على جانبيه العُمد، والبواكي، والحوانيت المغربية تعرض أجمل التحف التي تنتجها الصناعات القديمة. وكان عند كثير من ملتقى الشوارع ميادين واسعة أو دوائر يسمونها الطرق "الواسعة" (Plateai)- ومنها اشتمت الكلمة الإيطالية Piazza والكلمتان الإنجليزيةتان Place, Plaza. وكانت مباني ذات روعة تزين الشوارع الرئيسية- دار تمثيل كبرى، ومصفق، وهايكل لبيسين، وقيصر، وزُحل، وسرابيوم أو هيكل لسرابيس ذائع الصيت، وطائفة من مباني الجامعة اشتهرت في العالم كله باسم المتحف (الميزيوم Museum أو بيت ربان الفن Muses). وكانت المدينة مقسمة خمسة أقسام، خصّ قسم منها بأكمله تقريباً بقصور البطالمة، وحدائقهم، ومباني الإدارات الحكومية، وكان يقيم فيه في العصر الروماني حاكم المدينة. وفي هذا القسم دُفنت جثة الاسكندر الأكبر مؤسس المدينة في ضريح جميل الشكل، وقد وُضعت في تابوت من الزجاج وحُفظت من البلى في العسل. وكان سكان المدينة خليطاً من اليونان، والمصريين، واليهود، والإيطاليين، والعرب، والفينيقيين، والفرس، والأحباش، والسوريين، والليبيين، والقلبيين، والسكوثيين، والهنود، والنوبيين، ومن شعوب البحر الأبيض كلهم تقريباً. وكان يتألف منهم جميعاً خليط سريع الذوبان بعضه في بعض، سريع الالتهاب أيضاً، متشاحن، سيئ النظام، عظيم المهارة والذكاء، فكه غير محتشم، لا يستحي من فحش القول، متشكك، منحرف، غير مستمسك بالخلق الكريم، مرح، شديد الوله بالتمثيل، والموسيقى، والألعاب العامة. ويصف ديوكريستوم

صفحة رقم : 3804

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> مصر الرومانية

الحياة في المدينة بأنها (قصف دائم... للراقصات، والمصفرين، والقتلة" (8). وكانت الفنون غاصة على الدوام بمحبي المرح والطرب، يستقلون القوارب الصغيرة أثناء الليل، يقطعون فيها مسافة الأميال الخمسة التي توصلهم إلى كنوبس Canopus ضاحيتها المليئة بالملاهي وأسباب التسلية. وكانت تقام فيها مباريات موسيقية لا تقل عن سياق الخيل إثارة للمشاعر والتصفيق والضجيج.

وإذا جاز لنا أن نصدق فيلو (9) فيما يقوله عن سكان المدينة، فقد كان أربعون في المائة منهم من اليهود، وكانت كثرة يهود الإسكندرية تعمل في الصناعة والتجارة، وتعيش في فقر مدقع (10)، وكان كثيرون منهم تجاراً، وعدد قليل منهم مرابين، وبلغ بعضهم من الثراء درجة استطاعوا بها أن يحصلوا على مناصب يُحسدون عليها في الحكومة؛ وبعد أن كانوا في أول الأمر لا يشغلون إلا خُمس مساحة المدينة أصبحوا في الوقت الذي نتحدث عنه يُشغلون خمسيها. وكانوا يحاكمون بمقتضى قوانينهم الخاصة على أيدي كبارهم، وأيدت روما الامتيازات التي منحها إياهم البطالمة والتي يحق لهم بمقتضاها أن يتجاهلوا أي قانون يتعارض مع أوامر دينهم. وكانوا يفخرون بكنيسهم المركزي الفخم وهو باسفاً ذات عمْد، بلغ من الاتساع حداً كان لا بد معه من استخدام نظام للإشارات يضمن بها استجابة المصلين الذين لا يستطيعون- لبعدهم عن المحراب- أن يسمعوا صوت الحاخام (11). ويُستفاد من أقوال يوسفوس أن الحياة الأخلاقية لليهود الإسكندرية كانت مضرب المثل في الاستقامة إذا قيست إلى حياة السكان "الوثنيين" الشهوانية الطليقة (12). وكانت لهم ثقافة ذهنية نشيطة، كما كان لهم حظ كبير من الدراسات الفلسفية والتاريخية والعلمية في ذلك الوقت. وكانت المدينة تضطرب من حين إلى حين بالعداء العصري؛ وشاهد ذلك أننا نجد في الثبذة التي كتبها يوسفوس ضد أبيوق (وهو زعيم معادٍ للسامية) جميع الأسباب، والحجج، والخرافات التي تعكّر العلاقات بين اليهود وغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى في

صفحة رقم : 3805

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> مصر الرومانية

هذه الأيام. وقد حدث في عام 38م. أن هاجم الغوغاء من اليونان معابد اليهود وأصرّوا على أن يضعوا في كل منها تمثالاً لكلجيولا ليتخذوه إلهاً. كذلك حرّم أفليوس فلاكس حاكم المدينة الروماني اليهود من حق المواطنة الإسكندرية وأمر من كانوا يعيشون منهم خارج القسم اليهودي الأصلي أن يعودوا إليه في خلال بضعة أيام من صدور الأمر، فلما انقضى الأجل المحدد لهذه العودة أحرق الغوغاء اليونان أربعمائة من بيوت اليهود، وقتلوا من كان منهم خارج ذلك الحي؛ وقبض على ثمانية وثلاثين من أعضاء الجروزيا (مجلس الشيوخ اليهودي، وجلدوا علناً في إحدى دور التمثيل، وطُرد آلاف من اليهود من بيوتهم أو من أعمالهم أو حرّموا ما كانوا يدخرونه من أموالهم. وعرضَ الحاكم الذي خلفَ فلاكس أمرهم على الإمبراطور، وسافر إلى روما (عام 40م) وفدان مستقلاًن- أحدهما يتألف من خمسة من اليونان والآخر من خمسة من اليهود- ليعرض كل منهما قضيته على كلجيولا، ولكن الإمبراطور قضى نحبه قبل أن يصدر حكمه، فلمّا جلس كلوديوس على العرش أعاد إلى يهود الإسكندرية ما كان لهم من حقوق، وأكد لهم مواظبتهم في المدينة، وأصدر أمراً مشدداً إلى الطانفتين المنتازعتين ألا تعكرا صفو السلام.

صفحة رقم : 3806

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> فيلو

الفصل الثاني

فيلو

كان رئيس الوفد اليهودي إلى كليجولا هو الفيلسوف فيلو، وكان أخوه مدير تجارة الصدار اليهودية في الإسكندرية. ويصفه يوسيبوس Eysebius بأنه من أسرة عريقة من رجال الدين (13). ولا نكاد نعرف شيئاً غير هذا عن حياته ولكن تقواه وكرم أخلاقه يظهران واضحين في المؤلفات الكثيرة التي وضعها في شرح الدين اليهودي للعالم اليوناني. وقد نشأ الرجل في جوديتي، فكان شديد الوفاء لشعبه، ولكنه افتتن بالفلسفة اليونانية، فجعل هدفه في الحياة أن يوفق بين الكتاب المقدس وعادات اليهود من جهة، والآراء اليونانية وبخاصة فلسفة أفلاطون "أقدس القديسين" من جهة أخرى. ولكي يصل إلى غرضه هذا لجأ إلى المبدأ القائل إن جميع الحادثات، والأخلاق، والعقائد، والشرائع المنصوص عليها في العهد القديم ذات معنيين أحدهما مجازي والآخر حرفي، وأنها ترمز إلى حقائق أخلاقية أو فلسفية؛ وكان في وسعه بهذه الطريقة أن يبرهن على صحة أي شيء يريد البرهنة على صحته. وكان يكتب باللغة العبرية بأسلوب لا بأس به. ولكن أسلوبه في اليونانية بلغ من الجودة حداً جعل المعجبين به يقولون إن "أفلاطون كان يكتب كما يكتب فيلو" (14).

وكان فيلو فيلسوفاً أكثر مما كان رجل دين، وكان صوفياً استبقت تقواه الشديدة تقوى بلوتينس وعقلية العصور الوسطى. وكان الله في كتابات فيلو هو الكائن الجوهر في العالم، وهو كائن غير مجسّد، أزلي سرمدي، بجلّ عن الوصف؛ في وسع العقل أن يدرك وجوده، ولكنه لا يستطيع أن يخلع عليه صفة ما، لأن كل صفة تعني التحديد. والذين يتصورونه في صورة بشرية إنما

صفحة رقم : 3807

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> فيلو

يفعلون ذلك لتقريبه من خيال البشر الحسي. والله موجود في كل مكان: "وهل ثمة مكان يستطيع الإنسان أن يجده وليس الله فيه؟" (15) ولكنه ليس كل شيء، فالمادة أيضاً سرمدي، وغير مخلوقة؛ ولكنها لا تكون لها حياة، ولا حركة، ولا صورة، حتى تنبعث فيها القوة الإلهية.

ولكي يخلق الله العالم بأن يشكّل المادة، ويوجد الصلات بينه وبين الإنسان، استخدم لذلك جمعاً من الكائنات الوسطى يسميها اليهود ملائكة ويسميها اليونان شياطين diamones ويسميها أفلاطون أفكاراً. ويقول فيلو إن في وسعنا أن نتصور هذه الكائنات في صورة أشخاص، وإن كانت في واقع الأمر لا وجود لها إلا في العقل الإلهي بوصفها أفكار

الله وقواه (16) وهي مجتمعة تكون ما يسميه الرواقيون الكلمة أو العقل الإلهي خالق العالم وهاديه. وكان فيلو يتأرجح بين الفلسفة واللاهوت، وبين التجريد والتجسيد، ولهذا كان يفكر في العقل الإلهي مرة كأنه شخص وفي ساعة من ساعات نشوته الشعرية يسميه أول ما ولد الله" (17). وغين الله من الحكمة العذراء (18)، ويقول إنه عن طريق الكلمة كشف الله عن نفسه للإنسان. وإذا كانت الروح في رأيه جزءاً من الله، فإن في وسعها أن تسمو عن طريق العقل فتري الكلمة رؤيا صوفية، وإن كانت لا ترى الله نفسه؛ وربما كان في وسعنا إذا تحررنا من دنس المادة والحس، وتدرّبنا على الزهد والتفكير الطويل، أن نصبح في ساعة من الساعات روحاً خالصة، وأن نرى الله نفسه في لحظة من لحظات النشوة (9).

ولقد كانت "عقيدة العقل الإلهي" التي يقول بها فيلو من الآراء ذات الأثر الأكبر في تاريخ التفكير البشري. ولرأيه هذا سابقات واضحة في فلسفة هرقلطس وأفلاطون، والرواقيين؛ وأكبر الظن أنه كان يعرف الآداب اليهودية التي نشأت في العصر القريب من عصره، والتي جعلت من حكمة الله بوصفه خالق الكون شخصاً محدداً مميزاً، وما من شك في أنه قد انطبعت في عقله

صفحة رقم : 3808

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> فيلو

تلك العبارات الواردة في سفر الأمثال (8:22) وما بعدها، والتي تقول فيها الحكمة، "الرب قناني أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم. منذ الأزل مسّحت منذ البدء، منذ أوائل الأرض. إذ لم يكن عمر أبدت إذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه. من قبل أن تقرررت الجبال قبل التلال أبدت إذ لم يكن قد صنع الأرض بعد".

وكان فيلو معاصراً للمسيح ويلوح أنه لم يسمع قط عنه، ولكنه قد أسهم على غير علم منه في تكوين اللاهوت المسيحي. ولم يكن أحبار اليهود راضين عن تفسيراته المجازية للكتاب المقدس، لظنهم أن هذه التفسيرات قد تُتخذ حجة لنبيذ الطاعة الحرفية للشريعة اليهودية؛ وكانوا يرتابون في عقيدة الكلمة ويعدون ارتداداً عن عقيدة التوحيد، كما كانوا يرون في هيام فيلو بالفلسفة اليونانية نذيراً بضياع ثقافتهم، وفقدان الجزء الأكبر من خصائصهم العنصرية، وما ينشأ عن هذا وذاك من اختفاء اليهود المشنتين في بقاع الأرض. ولكن آباء الكنيسة المسيحية كانوا يعجبون بورع هذا الرجل اليهودي المنبعث عن تفكير عميق، وكثيراً ما كانوا يلجئون إلى آرائه وتعبيراته المجازية ليردّوا بها على من يتصدّون لنقد التوراة العبرية، وانضموا إلى جماعة العارفين، ورجال الأفلاطونية الحديثة في القول بأن رؤيا الله الصوفية هي أسمى ما تصل إليه المحاولات البشرية. ولقد حاول فيلو أن يوفق بين اليهودية والفلسفة الهلنستية؛ فأما من وجهة النظر اليهودية فقد أخفق في مسعاه وأما من وجهة النظر التاريخية فقد أفلح، وكانت ثمرة فلاحه هي الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا.

صفحة رقم : 3809

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> تقدم العلوم

كانت الإسكندرية زعيمة العالم الهلنستي في العلوم لا ينازعها في هذه المكانة منازع، ومن أكبر علمائها في ذلك العصر كلوديوس بطليموس الذي يُعدّ بلا جدال من أعظم علماء الفلك الأقدمين، وذلك لأن العالم لا يزال على الرغم من كشف كوبرنيك ينكلم في الفلك بلغة بطليموس. وكان مولد هذا العالم في بلدة بطليمونيس على شاطئ النيل (ومنها اشتق اسمه)، ولكنه عاش معظم حياته في الإسكندرية، وظل يرصد فيها الأجرام السماوية من عام 127م إلى عام 151م. وأهم ما يذكره به العالم إنه رفض نظرية أرسطارخس القائلة بأن الأرض تدور حول الشمس. وقد دوّنت هذه الفلسفة الخالدة في كتاب بطليموس المعروف باسم النظام الرياضي `Mathematike` Syntaxis للنجوم. وكان العرب إذا تحدّثوا عنه نعتوه بإسم التفضيل اليوناني المجسطي `Al.megiste` "الأعظم". وحرّف الناس في العصور الوسطى هذا اللفظ فصارت الماجست `Almagest` وهو الاسم الذي يُعرف به الكتاب في التاريخ. وظلت لهذا الكتاب السيطرة على السماء حتى قلب كوبرنيك العالم رأساً على عقب. ومع هذا فإن بطليموس لم يدّع أنه فعل أكثر من تنظيم أعمال من سبقوه من علماء الفلك وأرصادهم، وأخصهم بالذكر هباركس. وقد صورّ الكون في شكل كروي يدور مرة في كل يوم حول أرض كروية ثابتة لا تتحرك. ومع أن هذا القول يبدو لنا غريباً (وإن كنا لا نعرف ما سوف يفعله كوبرنيك آخر في المستقبل ببطالستنا المحدثين)، فإن النظرية القائلة بأن الأرض مركز الكون قد يسّرت في ضوء

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> البيقطة الهلنستية -> تقدم العلوم

المعلومات الفلكية المعروفة في ذلك العصر تحديد مواضع النجوم والكواكب تحديداً أدق مما كانت تستطيعه النظرية القائلة بأن الشمس هي مركز العالم (20). وعرض بطليموس فوق هذا لنظرية (الانحرافات) ليفسر بها أفلاك الكواكب، واستطاع أن يكشف انحراف فلك القمر. وقاس بُعد القمر عن الأرض بطريقة الزيجان التي لا تزال مستخدمة إلى يومنا هذا، وقدر هذا البعد بما يعادل نصف قطر الأرض تسعاً وخمسين مرة، وهو يعادل تقديراً الحاضر بوجه التقريب؛ وإن كان بطليموس قد اتبع بسيدونيوس في تقدير طول قطر الأرض بأقل من طوله الحقيقي. وقد لخصّ بطليموس في كتابه الموجز الجغرافي جميع ما كان يعرفه الأقدمون عن سطح الأرض، كما لخصّ في نظامه الرياضي ما كانوا يعرفونه في الفلك وصاغه في صبيغته الأخيرة. وهنا أيضاً أخطأ خطأ جسيمة في أزياجه التي بذل فيها جهداً كبيراً والتي حدد فيها خطوط الطول ودوائر العرض لكبريات المدن على سطح الأرض، وكان سبب هذا الخطأ قبوله تقدير بسيدونيوس حجم الأرض بأقل من حقيقته. ولكن هذه الغلطة المشجعة التي نقلها عنه بطليموس هي التي يرجع إليها الفضل في اعتقاد كولمبس أن من المستطاع الوصول إلى جزائر الهند في وقت قصير بالسير في اتجاه الغرب (21). وكان بطليموس أول من استعمل لفظي "متوازيات" (Parallela) و "خطوط الزوال"

meridians في علم الجغرافية، وقد نجح في أن يصور على خرائطه جسماً كروياً على سطح مسور. ولكنه كان في الواقع عالماً رياضياً أكثر منه فلكياً أو جغرافياً؛ وكان أهم جزء من عمله هو صياغته القوانين الرياضية. وقد وضع في كتاب النظام زيجاً دقيقاً

صفحة رقم : 3811

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> تقدم العلوم

لقياس الأقواس، وذلك بأن قسّم نصف قدر الأرض ستين قسماً أولي صغيرة *Partes minutae primal*، هي التي صارت الدقائق عندنا، ثم قسّم كل واحدة من هذه الدقائق "أقساماً صغيرة ثانية" "الثواني" عندنا. ووقع بطليموس في أخطاء كثيرة، ولكنه كان له بلا ريب مزاج العلماء الحقيقيين وصبرهم. وقد حاول أن يعتمد في استنتاجاته على الأرصاد وقلما كان هو صاحبها وقد قام في أحد الميادين بسلسلة طويلة من التجارب، ووُصف كتابه البصريات *Optica* وهو دراسة في انكسار الضوء بأنه "أعظم البحوث التجريبية في التاريخ القديم" (22). ومما هو جدير بالذكر أن هذا الرجل الذي يُعد من أعظم العظماء في الفلك والجغرافية والرياضيات في عصره قد كتب أيضاً "أربعة كتب" *Tetrabiblios* فيما للنجوم من سلطان على حياة بني الإنسان. وفي هذه الأثناء كان أرخميدس أصغر يهبي للعالم القديم فرصة ثانية للقيام بانقلاب صناعي. وكان هذا الرجل مخترعاً أو جامعاً بارعاً وإن كنا لا نعرف عنه إلا اسمه الوحيد هيرون *Hero*. وقد أصدر هذا لرجل وقتئذ في الإسكندرية سلسلة من الرسائل في الرياضة والطبيعة، بقي لنا عدد منها مترجماً إلى اللغة العربية وقد حذر قراءه في صراحة بأن النظريات والاختراعات التي يعرضها عليهم ليست كلها من اختراعه، بل إنها قد تجمعت على مدى القرون الطوال. ووصف في كتابه الديوبترا *Dioptra* آلة شبيهة بالمزواة *Theodolite* وصاغ عدداً من القوانين لقياس الأبعاد التي بين الإنسان وبين النقط التي لا يستطيع الوصول إليها ومساحة هذه الأبعاد. وبحث في كتابه الحيل *Mechanica* في طريقة استخدام أدوات

صفحة رقم : 3812

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> تقدم العلوم

سهلة، والجمع بينها؛ ومن هذه الأدوات العجلة، ومحورها، والرافعة، والبكرة والأسفين، واللولب. ودرس في كتابه الهوائيات *Pneumatica* ضغط الهواء في سبع وثمانين تجربة معظمها من الحيل والالاعيب؛ منها أنه عرض كيف يمكن جعل كل من النبيذ أو الماء يخرج من فتحة صغيرة واحدة في قاع وعاء وذلك بسد ثقب أو آخر في أعلى الوعاء المقسّم قسمين.

ثم تدرّج من هذه اللعب المسلية لصنع مضخة رافعة، ومضخة لآلة إطفاء الحريق ذات مكبس وصمّامات، وساعة مائية، وأرغن مائي، وآلة بخارية. وفي هذا المخترع الأخير كان البخار الناشئ من الماء المسخن ينتقل من خلال أنبوبة إلى كرة تدور في اتجاه مضاد لاتجاه البخار المطرود. وقد حال إحساس هيرون الفكاهي الشديد بينه وبين ترقية هذا المُخترع حتى يمكن الاستفادة منه في الأغراض الصناعية. ومن أعماله أيضاً أنه استخدم البخار لوقف كرة في الهواء ومنعها من السقوط، وجعل طائر آلي يغرد، وتمثال ينفخ في بوق. ودرس في كتابه المرايا Catoptrica انعكاس الضوء، وشرح كيف تصنع المرايا التي يستطيع الناظر فيها أن يرى ظهره، أو يظهر فيها ورأسه إلى أسفل، أو له ثلاث أعين، أو أنفان الخ. وعلم المشعوذين كيف يقومون بالألعاب بأجهزة مخبأة عن الأعين. وقد جعل الماء يخرج من حوض إذا وُضعت قطعة من النقود في فتحة فيه. وصنع آلة مخبأة تجعل الماء المسخن يفيض إلى جردل، ويفتح أبواب هيكل بما يزيد من وزنه، وبوساطة مكبرات. وبفضل هذه الأساليب ومائة أخرى من نوعها استطاع هيرون أن يكون مشعوذاً بارعاً، ولكنه عجز عن أن يكون مخترعاً من طراز جيمس وات James Watt. وكانت الإسكندرية منذ زمن بعيد أهم مركز لدراسة الطب. نعم إنه كانت في مرسلينا، وليون، وسرقسطة، وأثينة، وأنطاكية، وكوس،

صفحة رقم : 3813

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> تقدم العلوم

وإيفوس، وأزمير، وبرجوم مدارس طب شهيرة ولكن طلاب الطب كانوا يهرعون إلى الإسكندرية من جميع ولايات الإمبراطورية، بل إننا لنجد أميناس مرسلينس Ammianus Marcellinus في القرن الرابع الميلادي، حين أخذت مصر تسير في طريق الاضمحلال، يتحدث عن الإسكندرية بقوله: "حسب الطبيب تنويهاً ببراعته أن يقول إنه قد تعلم في الإسكندرية" (24). وكان التخصص في الطب يسير قدماً، وشاهد ذلك ما يقوله فلستراتس (حوالي 225م): "لا يستطيع إنسان أن يكون طبيباً لكل مرض، بل يجب إن يكون هنا أخصائيون في الجروح، والحميات، والعلون، والسل" (25). وكان تشريح الجنث الميتة يحدث في الإسكندرية، ويبدو أنه كان يجري فيها أياً تشريح للأحياء (26). ولم تكن الجراحة في القرن الأول الميلادي أقل رُقياً في الإسكندرية منها في أي مكان في أوربا قبل القرن التاسع عشر. ولم تكن الطبييات نادرات؛ وقد كتبت واحدة منهن تدعى مترودورا Metrodora رسالة في أمراض الرحم لا تزال باقية إلى اليوم (27). ويزدان تاريخ الطب في هذا العصر بأسماء عظيمة: منها روفس الافسوسي الذي وصف العين، وميز أعصاب الحركة من أعصاب الحس، وحسن طرق وقف النزيف في الجراحة، ومنها مريوس Marinus الإسكندري الذي اشتهر بجراحات الجمجمة، وأنتيلس Antylus أعظم الرمديين في عصره. وقد كتب ديوسكوريدس Dioscorides القليقيائي (من 40 إلى 90م) كتاباً في العقاقير وصف فيه وصفاً علمياً ستمائة من النباتات الطبية وصفاً بلغ من الدقة حداً أوصى في هذا الكتاب باستخدام "الصوفات" لمنع الحمل (8). وقد استخدم للتخدير وصفه لنبيذ البيروج Mandragora استخداماً ناجحاً في عام 1874.

صفحة رقم : 3814

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> البيظلة الهلنستية -> تقدم العلوم

ونشر سورانس الافسوسي حوالي عام 116م رسالة في أمراض النساء، وفي مولد الأطفال والعناية بهم، ولا يعلو عن هذه الرسالة من المؤلفات الطبية القديمة الباقية إلى اليوم سوى مجموعات أبقراط ومؤلفات جالينوس. ويصف المؤلف فيها منظاراً مهيباً وكرسباً للتوليد، ويصف الرحم من الناحية التشريحية أجود وصف، ويقدم نصائح عملية وغذائية لا تكاد تختلف عما يقدمه الأطباء في هذه الأيام، منها غسل عيني الطفل الحديث الولادة بالزيت(30)، ويذكر أسماء نحو مائة وسيلة لمنع الحمل معظمها أدوية للمهبل(31)، وهو يجيز الإجهاض إذا كان الوضع يعرض حياة الأم للخطر (على عكس ما يراه أبقراط)(32).

وقصارى القول أن سورانس كان أعظم الأخصائيين في طب النساء في الزمن القديم، ولم يفقه أحد في هذا العلم حتى جاء باريه Pare بعده بخمسة عشر قرناً؛ ولو أن رسائله الأربعين قد بقيت إلى هذا اليوم لوضعاه في أكبر الظن في منزلة جالينوس.

وكان أعظم أطباء ذلك العصر ابن مهندس معماري من برجموم، وقد سماه جليينوس Galenus أي الهادئ المسالم، لأنه كان يأمل ألا يتخلق بأخلاق أمه(33). ولما بلغ الشاب الرابعة عشرة من عمره شغف لأول مرة بالفلسفة، ولم يتحرر قد من غوايتها الخطرة؛ وفي السابعة عشرة تحول عنها إلى الطب، ودرسه في قليقية، وفينيقيية، وفلسطين، وقبرص، وكريد، وبلاد اليونان والإسكندرية (وكان هذا الانتقال في طلب العلم من طبيعة العلماء الأقدمين)، ثم اشتغل جراحاً في مدرسة المجالدين في برجموم، ومارس صناعته فترة من الزمن (من 164 إلى 168م) في روما. وفي هذه المدينة أقبل عليه أغنياء المرضى لنجاحه في صناعته، كما أقبل عليه كثيرون من علية القوم ليستمعوا إلى محاضراته، وذاعت شهرته ذيو عاً جعل الناس يكتبون إليه من كافة الولايات يطلبون إليه النصائح الطبية، فكان يصف لهم العلاج الناجع بالبريد، وكان والده الصالح قد نسي ما كان

صفحة رقم : 3815

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> البيظلة الهلنستية -> تقدم العلوم

يدور بخلده حين اختار له اسمه فنصحته ألا ينضم إلى شيعة أو حزب، وأن يكون صادقاً في كل ما يقول، وصدع جالينوس بأمر أبيه، وأخذ يُشهرُ بجهل كثيرين من أطباء روما وشرهم حتى اضطر بعد سنين قلائل إلى الفرار من أعدائه. ولكن ماركس أورليوس إستدعاه ليعني بكمودس الصغير (126)، وحاول أن يأخذه معه في إحدى الحملات المرمونية، ولكن جالينوس كان مت الدهاء بحيث استطاع أن يعود مسرعاً إلى روما. ومن هذا الوقت لا نعرف عنه غير مؤلفاته.

وتكاد هذه المؤلفات أن تبلغ من الكثرة ما بلغته مؤلفات أرسطو، وقد بلغت خمسمائة أو نحوها، وبقي منها 118 كتاباً تحوي عشرين ألف صفحة، تشتمل على جميع فروع الطب وعلى عدد من ميادين الفلسفة، وليس لهذه الكتب قيمة طبية في هذه الأيام. ولكنها تشتمل في مواضع منها متفرقة على معلومات تافهة، وتكشف عن روح قوية ذات حيوية عظيمة، مولعة بالبحث والجدل. وقد عوده ولعه بالفلسفة عادة سيئة هي استخلاصه نتائج كبرى من معلومات قليلة، وكثيراً ما ساقه إيمانه بعلمه وقواه إلى تعسف لا يليق بعقلية العلماء، وكان سلطانه على من جاء بعده سبباً في بقاء أخطائه الشنيعة ذائعة قروناً عدة. لكنه كان على رغم هذه الأخطاء دقيق الملاحظة، كما كان أكثر الأطباء الأقدمين اعتماداً على التجارب العلمية. ومن أقواله في هذا المعنى: "إني لأعترف بذلك المرض الذي قاسيت منه الأمرين

طوال حياتي وهو أنني لا أتق... بأي قول حتى أجربه بنفسي على قدر استطاعتي" (34). ولما حرّمت عليه الحكومة الرومانية أن يشرّح أجسام الأدميين أحياء كانوا أو أمواتاً، عمد إلى تشرّح الحيوانات الحية والميتة، وكثيراً ما كان يتعجّل فيطبّق على تشرّح الجسم الأدمي ما تسفر عنه دراسته للقردة، والكلاب، والبقر، والخنازير. وقد أفاد علم التشرّح من جالينوس رغم قصوره أكثر مما أفاده من أي

صفحة رقم : 3816

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> تقدم العلوم

مشاهد آخر في التاريخ القديم؛ ذلك أنه وصف بغاية الدقة عظام الجمجمة والعمود الفقرة، والجهاز العضلي، والأوعية اللبينية، والغدة اللسانية، والغدة اللعابية تحت الفك الأسفل، وصمّامات القلب؛ وأثبت أن القلب إذا فصل عن الجسم يمكن أن يظل ينبض في خارجه، وبرهن على أن الأوردة تحتوي دماً لا هواء (كما ظنّت مدرسة الإسكندرية تعلم الناس مدى أربعمائة عام)، لكنه قد فاتته أن يسبق هارفي إلى كشف الدورة الدموية، فقد ظن أن معظم الدم يسير في الأوردة إلى أجزاء الجسم المختلفة ثم يعود فيها أيضاً؛ وأن البقية الباقية منه التي تختلط بهواء الرئتين تسير في الشرايين إلى أجزاء الجسم وتعود منه في الشرايين نفسها. وكان هو أول من شرح الجهاز التنفسي، ودلّ على حصافة وبراعة حين قال إنه يظن أن العنصر الفعال في الهواء الذي نستنشقه هو نفسه العنصر الفعال في الاحتراق (35)؛ وميّز التهاب الرئة، ووصف الورم الوعائي، والسرطان، والتدرّن، وعرّف ما في ثانيهما من خطر العدوى، وأهم من هذا كله أنه وضع أساس مبحث الأعصاب التجريبي، فهو أول من أجرى التجارب على قطاعات من النخاع الشوكي، وعيّن الوظيفة الحسيّة والحركيّة لكل جزء منه، وعرف الأعصاب السمبثاوية، وميّز سبعة أزواج من الأثني عشر زوجاً من أعصاب الجمجمة، وعرف كيف يستطيع حبس النطق بقطع عصب الحنجرة، وبرهن على أن الضرر الذي يصيب أحد نصفي المخ يُحدث اختلالاً في النصف المضاد له في الجسم وعالج السفسطائي بوسنياس من خدر في خنصر يده اليسرى وبنصرها بتنبية الضفيرة العضدية التي يخرج منها العصب الزندي الذي يتحكّم في هاتين الإصبعين (36). وقد برع في بحث أعراض الأمراض براعة أثر معها أن يُشخص علة المريض

صفحة رقم : 3817

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> تقدم العلوم

دون أن يوجّه إليه أسئلة (37). وكان كثير الاعتماد على التغذية، والرياضة، والتدليك ولكنه كان خبيراً في العقاقير، كثير الأسفار للحصول على الأدوية النادرة. ونذّب باستخدام البراز والبول في العلاج، وكان ذلك لا يزال شائعاً عند بعض معاصريه (38)، وأوصى باستعمال الكداس الجاف لمعالجة المغص، ووضع روث المعز على الورم، وترك

ثبتاً طويلاً بالأمراض التي يمكن علاجها بالترياق - وهو دواء ذائع الصيت في ذلك الوقت صنع لمثرداتس الأكبر ليقاوم به السم، وكان يقمّ لماركس أوليوس كل يوم ويدخل فيه لحم الأفاعي(39). لكنه لوّث سجله الحافل بالتجارب وشهرته فيها بسيل من النظريات التي تعجّل في وضعها. وكان يسخر من السحر والرقى، ويقبل التنبؤ بالغيب عن طريق الأحلام، ويظن أن أوجه القمر تؤثر في أحوال المرضى؛ وصدّق فكرة أبقراط عن الأخلاط الأربعة (الدم، والبلغم، والسائل الصفراوي الأسود الأصفر)، وعمل على سرعة انتشار عقيدة فيثاغورس في الأركان (العناصر) الأربعة (التراب، والهواء، والنار، والماء)، وحاول أن يرد الأمراض كلها إلى اختلال في تلك الأخلاط أو هذه الأركان. وكان قوي الاعتقاد بوجود الروح، مؤمناً بأن النفس (pneuma) أو النفس الحيوي أو الروح تسري في كل جزء من أجزاء الجسم، وتبعث فيه النشاط والحركة. وكان كثيرون من الأطباء قد أخذوا يفسّرون نظريات علم الأحياء تفسيراً آلياً؛ ومن هؤلاء أسكليبياديز الذي كان يرى أن علم وظائف الأعضاء يجب أن يُنظر إليه على أنه فرع من الطبيعة، ولكن جالينوس اعترض على هذه الفكرة؛ وقال إن الآلة ليست إلا مجموعة

صفحة رقم : 3818

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> تقدم العلوم

أجزائها، وأما الكائن العضوي فإنه يشتمل أيضاً على الإشراف الغائي على جميع أجزاء الكل. وكما أن الغاية وحدها هي التي مكن بها تفسير منشأ الأعضاء وتركيبها، ووظيفتها؛ فكذلك يرى جالينوس أن الكون لا يمكن أن يُفهم إلا على أنه تعبير عن خطة إلهية وأداة لتنفيذ هذه الخطة. لكن الله لا يعمل إلا بوساطة قوانين طبيعية، وعلى هذا ليس ثمة معجزات، وخير وحى هو الطبيعة نفسها. وأحبّ المسيحيون جالينوس لإيمانه بالغائية وبالوحدانية في الدين، كما أحبه المسلمون بعدنذ لهذا السبب عينه؛ وقد فقدت أوربا كل كتاباته تقريباً في أثناء الفوضى التي أعقبت غزوات البرابرة، ولكن علماء العرب حفظوها لبلاد الشرق، ثم ترجمت هذه المؤلفات من اللغة العربية إلى اللاتينية في القرن السابع والقرن التي تلتها، وأصبح جالينوس بعدنذ المرجع المعترف به الذي لا يوجّه إليه نقد، فكان هو أرسطو الطب في العصور الوسطى. واختتم آخر عصر مبدع من عصور العلم اليوناني ببطليموس وجالينوس، ومن بعدهما انتهى عصر التجارب وساد عصر العقائد التحكّمية؛ وانحط علم الرياضة فأصبح مجرد ترديد للهندسة، كما انحط علم الأحياء فأصبح ترديداً لأقوال أرسطو، وإنحطت العلوم الطبيعية فأصبحت ترديداً لأقوال بلني؛ ووقف الطب جامداً حتى جاء أطباء العرب واليهود في العصور الوسطى فجددوا هذا العلم الذي يعدّ أشرف العلوم على الإطلاق.

صفحة رقم : 3819

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> الشعراء في الصحراء

الشعراء في الصحراء

تقع بلاد العرب في الناحية الشرقية من البحر الأحمر؛ وقد عجز الفراعنة، والأكمينيون، والسلوقيون، والبطالمة، والرومان عن فتح تلك الجزيرة الغامضة العجيبة، ولذلك ظلت صحراء العرب لا تعرف إلا العرب البدو، لكن في جزئها الجنوبي الغربي سلسلة جبلية تسيل فيها عدة مجار مائية فتلطف حرارتها، وتنبت فيها أشجار الفاكهة وتخلق منها بلاد العرب السعيدة Arabia Felix أو بلاد اليمن كما يسمونها في هذه الأيام. وقد قامت في خبايا تلك البلاد مملكة سبأ الصغيرة التي ورد ذكرها في التوراة والتي يكثر فيها الكندر، والمر، والقشبية (خيار شنير)، والقرفة، والصبر، والنردين، والسنا المكي، والصمغ، والحجارة الكريمة. وقد استطاع أهلها أن يشيدوا عند مأرب وغيرها من الأماكن مُدناً تزدهر بهياكلها، وقصورها، وأروقنتها المعمدة (40). ولم يكتف تجار العرب بأن يبيعوا محصولات بلادهم بأعلى الأثمان، بل كانوا يسيرون فيها القوافل التجارية إلى بلاد شمالي آسية الغربي، وكانت لهم تجارة بحرية نشيطة مع مصر، وبارثيا، وبلاد الهند. وبعث أغسطس أبلوس جالس في عام 25 ق.م ليضم تلك المملكة إلى الإمبراطورية الرومانية، ولكن فيالقه عجزت عن الاستيلاء على مأرب وعادت إلى مصر بعد أن قضت الأوبئة وشدة الحرارة على عدد كبير من رجالها. وحينئذ اكتفى أغسطس بتدمير مرفأ أدانا (عدن) العربي، فأمن بذلك التجارة بين مصر والهند. وكان أهم الطرق التجارية الممتدة من مأرب إلى الشمال يخترق الطرف الشمالي

صفحة رقم : 3820

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> الشعراء في الصحراء

الغربي من جزيرة العرب، المعروف عند الأقدمين باسم بلاد العرب البطرية نسبة إلى عاصمتها بطرة التي تبعد عن أورشليم بنحو أربعين ميلاً جهة الجنوب. وكان السبب في إطلاق هذا الاسم على المدينة أنها كانت قائمة وسط دائرة من الصخور الوعرة جعلتها أمنع من عقاب الجو. وفي هذا الجزء أقام العرب في القرن الثاني مملكة أخذت تزدد ثراءً على مر الأيام حتى امتد سلطانها من لوس كوم Leuce Come على البحر الأحمر إلى دمشق، واشتملت على الجزء المصاقب لحدود فلسطين الشرقية وجراسا Gerasa وبُصرى. وبلغت هذه المملكة ذروة مجدها تحت حكم الملك أرتاس (الرابع 9 أرتاس ق.م 40م)، وأضحت بطرة في أيامه بلدة هلنستية، لغتها آرامية، وفنّها يوناني، وشوارعها في عظمة شوارع الإسكندرية. وتنتمي إلى هذا العصر القبور الضخمة المنقورة في الصخور القائمة في خارج المدينة، وهي ذات واجهات ساذجة خشنة ولكنها تُنى عن القوة، وعمد يونانية مزدوجة، يبلغ ارتفاعها في بعض الأحيان مائة من الأقدام. وبعد أن ضمّ تراجان المملكة الشمالية إلى إمبراطوريته (106) جعل بُصرى عاصمة ولاية بلاد العرب، فشادت تلك المدينة العمائر التي ترمز إلى ثرائها وسلطانها. وازمحلّت برطة بعد أن أصبحت طرق القوافل التجارية تلتقي عند بُصرى وتدمر Palmyra، وإنحط شأن المقابر العظيمة حتى أضحت "مداود ليلية لقطعان البدو" (41).

وكان ابرز مظاهر الإمبراطورية العظيمة كثرة مدانها العامرة بالسكان، ولم تنشأ مدن في عصر من العصور التالية لذلك العصر، إذا استثنينا القرن الحالي، بالكثرة التي أنشئت بها في ذلك العهد، فقد كان لوكس، وبمبي، وقيصر، وبيرو، والملوك الهلنستيون، والأباطرة الرومان يفاخرون بما يُنشئون من المدن الجديدة وبتزيين المدن القديمة، حتى لقد كان يصعب على الإنسان وهو ينتقل نحو الشمال محاذياً للشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط أن يسير عشرين ميلاً

صفحة رقم : 3821

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> الشعراء في الصحراء

دون أن تلقاه مدينة رَفَح (رافيا)، وغزة، وعسقلان، ويافا (جبا)، وأبلونيا، والسامرة، وقيصرية. وكانت هذه المدن رغم وجودها في فلسطين نصف يونانية في سكانها، تسودها لغة اليونان وثقافتهم وأنظمتهم. فكانت والحالة هذه بمثابة جسور تنتقل عليها الهلنستية في غزوها الوثني لبلاد اليهود. وأنفق هيرود أموالاً طائلة في جعل مدينة قيصرية خليق بأغسطس الذي سميت باسمه، فأنشأ لها مرفأً صالحاً جميلاً، ومعبدًا شامخاً، وملهى ومدرباً، وأقام فيها قصوراً فخمة وصروحاً كثيرة من الحجر الأبيض (42). وأنشئت في داخل البلاد مدن أخرى يونانية فلسطينية ليفياس Livias، وفلادلفيا، وجراسا، وجندارا (قطة Katra). وفي جراسا مائة عمود هي كل ما بقي من العمد التي كانت قائمة على جانبي شوارعها الرئيسية؛ وإن خرائب هياكلها، وملهاها، وحمّاماتها، ومجرى مائها لتتطرق بما كانت عليه المدينة من الثراء في القرن الثاني بعد الميلاد.

وكانت جدارا، التي تتردد في خرائب ملهاها صدى ذكريات المسرحيات اليونانية، تشتهر بمدارسها، وأسانذتها، ومؤلفيها. وفيها عاش في القرن الثالث قبل الميلاد منبس Menippus الفيلسوف والفكاهي الكليبي الذي يعلم بهجانه أن كل شيء عدا الحياة الصالحة باطل، والذي كان مثلاً احتذاه لوسليوس، وفارو، وهوراس. وفي هذه المدينة "أثينة سوريا" أنشأ ملبجر، أنكربون زمانه، قبل ميلاد المسيح بنحو ألف عام تلك المقطوعات الشعرية المصقولة التي كان يتغزلُ فيها بجمال النساء والغلمان. وظلّ يكتب قصائد الحب حتى كلّ قلمه:

"ما أحلى ابتسام الكأس للحبيب العزيز، بعد أن مسّها فم

زنوفيلّا Zenophila الجميل. وما أسعدني إذا وضعت شفّتيها

الوردبتين على شفّتي، وعبت روجي عباً في عناق طويل" (43).

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> الشعراء في الصحراء

وكان لهيب من هذا النوع، خبا قبل الأوان، يشتعل قوياً في ذاكرته ذلك هو هليودورا Heliodora التي أحبها في صور:

سأجدل البنفسج الأبيض، والآس الأخضر، سأجدل النرجس،

والزنبق اللامع؛ سأجدل الرعفران الحلو، والسنبل البري

الأزرق؛ وسأجدل آخر الأمر الورد رمز الحب الأكيد، حتى

يتألف منها جميعاً تاج من الجمال خليق بأن يزيّن غدائر هليودورا

الحلوة(44). والآن وقد اختطفها الموت ولوّث الثرى زهرتها

الناظرة، فإني أتوسل إليك يا أمنا الأرض أن تكوني رحيمة

حين تضمينها إلى صدرك(45).

وقد خلّد ملبجر اسمه بأن جمع في "إكليل" (Sle`phamos) ما قاله شعراء اليونان في الرثاء من أيام سابفو Sapphs إلى أيام ملبجر. ومن هذه المجموعة وأمثالها من المجموعات نشأت دواوين الشعر اليوناني. وفيها نجد أحسن المقطوعات الشعرية وأسوأها، فمنها ما هو مصقول كصقل الجواهر، ومنها ما هو أجوف كالغاز. ولم يكن من الحكمة أن تُقطف هذه "الأزهار" الأربعمائة من غصونها ليصنع منها هذا التاج الذابل. ومن هذه الأبيات ما يحيي ذكرى بعض الموتى من عظماء الرجال، ومنها ما يخلّد ذكى تماثيل مشهورة، أو أقارب فارقوا هذه الدار. ومنها قبريات ذاتي، إذا صحّ ذلك التعبير. فقد كتبت امرأة، ماتت وهي تلد ثلاثة أطفال في وقت واحد، تقول تلك المقالة السديدة: "وبعد هذا فلنطلب النساء

صفحة رقم : 3823

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> الشعراء في الصحراء

الأبناء" (46). ومنها ما هو سهام موجّهة إلى صدور الأطباء، والنساء السليطات، ومجهّزي الموتى للدفن، ومعلمي الأحداث، والديوثين، أو إلى صدر البخيل الذي أفاق من إغماءة لما شم رائحة فلس؛ أو النحوي الذي ظهر حفيداً له ذكراً ثم أنثى ثم شياً آخر هو ذكر وأنثى معاً (47)؛ أو الملاك المحترف الذي اعتزل حرفته، وتزوَّج، فكانت له زوجته ضربات أكثر مما كانت تكال له في حلبة الملاكمة؛ أو القزم الذي اختطفته بعوضة فظنّ أنه يعاني الآلام من اختطاف جلميدي. وثمة مقطوعة تشيد بمدح "المرأة الشهيرة التي لم تضاجع إلا رجلاً واحداً"؛ ومقطوعات أخرى تقدّم بها القرابين للآرباب: ففي واحدة منها تُعلق ليس Laïs مراتها بعد أن أصبحت عديمة النفع لأنها لا تظهرها بالصورة التي كانت عليها من قبل، وفي أخرى نرى نيسياس Nicias تسلّم راضية منطقتها إلى فينوس بعد أن قضت في خدمة الرجال خمسين عاماً. وتمجّد بعض المقطوعات أثر النبيذ في توسع الشرايين وتقول إن هذا أحكم من الحكمة؛ ومنها واحدة تمجّد الزاني الذي يجمع في وقت واحد بين إثنين والذي دُفن تحت الأنقاض بين ذراعي عشيقته؛ ومنها مرثي وتبّية تصف قصر الحياة؛ ومنها توكيدات مسيحية ليوم البعث السعيد. ومعظمها، بطبيعة الحال، يمدح جمال النساء والغلمان، ويتغنّى بنشوة الحب الموجهة. وإنك لتجد هنا كل ما ورد في الأدب بعد ذلك العصر عن آلام العاشقين وتجدّه موجزاً كاملاً، فيه من الأفكار أكثر مما في الشعر الإنجليزي في عصر إليزابث. من ذلك أن ملبجر يتخذ بعوضة قوادة له، ويحملها رسالته إلى السيدة التي كان يحبها في تلك الساعة. وها هو ذا فلوديمس Philodemus ابن بلدته، والفيلسوف الذي يسدي النصح لشيشرون، يعنّي لمحبوبته زنثو Xantho أغنية حزينة فيقول:

صفحة رقم : 3824

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> الشعراء في الصحراء

يا ذات الخدين الأبيضين كلون الشمع، والصدر الناعم ذي العطر

الشجي، والعينين اللتين تعششُ فيهما ربات الفن، والشفقتين

الحلوتين اللتين تفيضان بأكمل الذات... غني لي أغنيتك

يا زنتو يا ذات الوجه الشاحب غني... ما أسرع ما تنقطع

الموسيقى. أعيدي النغمة الحلوة الحزينة مرة بعد مرة، ومسي الوتر

بأصابعك العطرة؛ يا بهجة الحب، يا زنتو الشاحبة غني(48).

صفحة رقم : 3825

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> السوريون

الفصل الخامس

تقوم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في جزئه الشمالي مُدن فينيقيا القديمة التي كانت هي وفلسطين جزءاً من ولاية سوريا الرومانية. وقد ظلت هذه المُدن حية طوال الحقبة التي دامت ألف عام مليئة بالأحداث الجسام وذلك بفضل عمالها المجدّين البارعين في الصناعات اليدوية، وبفضل موقعها الذي جعل فيها على مر الأيام مرافئ تجارية هامة، وتجّارها المهرة الأغنياء الذين كانوا يرسلون سفنهم وعمّالهم إلى كل مكان معروف على ظهر الأرض. وكان في صور مبانٍ أعلى من مباني روما (49). وأحياء أفدر من أحيائها تفوح منها روائح مصانع الصباغة الكريهة، ولكنها كانت تُعزّي نفسها باعتقادها أن العالم كله يبتاع منسوجاتها ذات الألوان المتعددة الجميلة، وبخاصة حريرها الأرجواني. والراجح أن صيدا قد كشفت طريقة صنع الزجاج بالنفخ، وأنها تخصصت وقتئذ في صناعة الزجاج والبرنز، واشتهرت برنيس (بيروت) بمدارس للطب والبلاغة والقانون، وأكبر الظن أن أبيان وبابنيان المشترعين العظيمين قد تخرّجا في جامعتها ثم انتقلا منها إلى روما.

ولم يكن في الإمبراطورية كلها ولاية تفوق سوريا في صناعاتها ورخائها، وكان يعمرها في زمن تراجان عشرة ملايين من الأنفس وإن كان سكانها الآن لا يزيدون على ثلاثة ملايين ولا يكادون يجدون ما يكفيهم من أسباب العيش (50). وكان في الولاية نحو خمسين مدينة تستمتع بالماء النقي، والحمامات العامة، والمجاري الممتدة تحت الأرض، والأسواق النظيفة، ومدارس التدريب الرياضي، وساحات الألعاب، والمحاضرات، والموسيقى والمدارس، والحياكل، والباسقات، والأروقة المعمّدة، والأقواس، والتماثيل العامة، ومعارض الفن العمومية، وهي

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> السوريون

المظاهر التي كانت تمتاز بها المُدن الهلنستية في القرن الأول بعد الميلاد (51). وكانت أقدم هذه المُدن كلها مدينة دمشق القائمة وراء جبال لبنان المواجهة لصيدا، وكانت تحميها الصحراء المحيطة بها. وقد أحالتها إلى حديقة غناء روافد وفروع لذلك المجرى الذي سمّاه الأقدمون "نهر الذهب" اعترافاً منهم بفضله. وكانت تلقي عندها كثير من طرق القوافل، وتفرّغ في أسواقها غلات قارات ثلاث.

وإذا عاد المسافر في هذه الأيام فعبر تلال لبنان الصغرى واتجه نحو الشمال في طرق متربة أدهشه أن يجد في قرية بعلبك الصغيرة بقايا هيكلين فخمين ومدخل عظيم، كانت في يوم من الأيام مما تفخر به هليوبوليس مدينة الشمس اليونانية - الرومانية - السورية. وأسكن أغسطس في ذلك المكان جالية رومانية صغيرة، ثم نمت المدينة وازدهرت وصارت مركز عبادة بعل إله الشمس وملتقى الطرق الذهبية إلى دمشق، وصيدا، وبيروت، وأقام المهنسون والبّاعون الرومان، واليونان، والسوريون في مكان هيكل بعل الفينيقي القديم مزاراً فخماً لجوبيتر الهليوبوليسي، أقاموا كل جدار من جدرانه من حجر واحد ضخّم قطعوه من محجر يبعد عن موضعه مسافة ميل. وكانت إحدى كتله الحجرية تبلغ اثنتين وستين قدماً في الطول وأربع عشر في العرض، وإحدى عشرة في الارتفاع، وفيها من المادة الحجرية ما يكفي لبناء بيت رحب. وكانت إحدى وخمسون درجة من الرخام يبلغ عرض الواحدة منها مائة وخمسين قدماً تؤدي إلى المدخل الكورنثي العظيم، فإذا اجتاز الإنسان البهو الأمامي والبهو الذي يليه المعمدين وجد البناء الرئيسي للهيكل، وقد

بقي منه حتى الآن ثمانية وخمسون عموداً تعلو في الجو اثنتين وستين قدماً. وبالقرب من هذا الهيكل الكبير بقايا هيكل أصغر منه، يُقال أحياناً إنه كان هيكل فينوس وأحياناً باخوس، وأحياناً دمبر. وقد أبقى الزمان على تسعة عشر عموداً من عمده، وعلى باب جميل دقيق النقش. وتتألق هذه العمدة الفخمة المنعزلة في شمس السماء الصافية، وهي من أجمل ما بقي من

صفحة رقم : 3827

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> السوريون

مخلفات العصور السالفة. وإن المرء حين يشاهدها ليحس، أكثر مما يحس حين يشاهد أي أثر من آثار روما، بعظمة الإمبراطورية الرومانية، وبما فيها من ثراء، وشجاعة، ومهارة، وذوق جميل أمكنها بها أن تتشيد في مدها الكثيرة المتفرقة هياكل أعظم وأكثر فخامة مما عرفته العاصمة المزدهمة في أي عصر من عصورها. وتقع على منظر كهذا عين السائح الذي يتجه نحو الشرق ويعبر الصحراء من حمص، إمسا Emessa القديمة، إلى تدمر التي ترجم اليونان اسمها إلى بلميرا Palmyra أي المدينة ذات الألف نخلة. وقد كانت أرضها الخصبة المحيطة بعينين نضاختين، وموقعها الحسن على الطريقين الممتدين من حمص ودمشق إلى نهر الفرات، سبباً في ثرائها، فلم تلبث أن أصبحت من أكبر مدائن الشرق؛ وقد أمكنها بعدها عن غيرها من المحلات أن تحتفظ باستقلالها الفعلي رغم تبعيتها الاسمية للملوك السلوقيين أو للإباطرة الرومان. وكان على جانبي شارعها الأوسط الرئيسي أروقة ظليلة تحتوي على 454 عموداً، وفي مواضع تقاطعه الأربعة أفواس فخمة بقي منها واحد حتى الآن شاهداً على ما كانت عليه بقية هذه الأفواس من عظمة وجلال. وكان أجمل مباني المدينة كلها وأعظمها هيكل الشمس الذي شُيد في عام 30م. للثالوث الأعظم بعل، وبرهبول (الشمس) وأجلبول (القمر). وكان حجمه أطراداً لتقاليد الآشوريين في الضخامة، وكان بهوه، وهو أكبر الأبهاء في الإمبراطورية الرومانية، يحتوي على صف من العمدة لا مثيل له في بلد من بلادها، طوله أربعة آلاف قدم، وكان الكثير منها عمداً كورنثية مرتبة صفوفاً في كل منها أربعة. وكان في داخل البهو والهيكل رسوم ملونة ومنحوتة يدل ما بقي منها على اقتراب تدمر من بارتية في الفن كقربهما في المكان. ويبدأ من تدمر طريق رئيسي يتجه نحو الشرق ويصل إلى نهر الفرات عند دورا - أوربس Dura-Europus. وهنا اقتسم التجار (عام 100م)

صفحة رقم : 3828

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> السوريون

مكاسبهم مع الثالوث التدمري بأن شيّدوا له هيكلاً كان مزيجاً من الفن اليوناني والهندي؛ وزين مصور شرقي جدرانهم بمظلمات تدل أوضح دلالة على أن الفن البيزنطي والفن المسيحي الأول من أصل شرقي (52). وكان على النهر

الأعظم شمال هذه المدينة مدينتان أخريان ذواتا شأن عند مُلتقى طريقتين بريين كبيرين وهما مدينتا ثيساكس Thapsacus وزجما Zeugma. وإذا اتجه المسافر من ثيساكس نحو الغرب مرّ بمدينتي برونيا Beroea (حلب) وأباما Apamea ووصل إلى البحر الأبيض المتوسط عند لأوديسيا Laodicea - التي لا تزال تحتفظ باسمها القديم اللاذقية مع تحريف قليل فيه، ولا تزال أيضاً تُغراً ناشط الحركة. وبين هذه البلدة وأباميا يتجه نهر العاصي نحو الشمال وتمتدّ على شاطئيه ضياع غنية حتى يصل إلى إنطاكية عاصمة سوريا في ذلك الوقت. وكان النهر تعاونه شبكة عظيمة من الطرق البرية يحمل بضائع الشرق إلى إنطاكية، بينما كانت سلويا سبيريا Selluce Spieria تُغز البلاد الواقع على البحر الأبيض على بُعد أربعة عشر ميلاً من إنطاكية نحو مصب النهر تأتي إليها بحاصلات الغرب. وكان الجزء الأكبر من المدينة يقوم على سفح الجبل ويشرف على نهر العاصي الذي يجري من تحته. وكانت المدينة ذات موقع جميل استطاعت إنطاكية بفضلها أن تتنافس رودس في أن تكون أجمل مدائن الشرق الهلنستي. وكانت شوارعها تضاء بالليل فتكسيها بهجة وجمالاً، وتؤمن سكانها على أنفسهم وأموالهم، وكان شارعها الرئيسي البالغ طوله أربعة أميال ونصف ميل مرصوفاً بالحجر الأعل، ويقوم على جانبه صقّان من العُمد المسقفة، فكان في وسع الإنسان أن يسير راجلاً من أحد طرفي المدينة إلى طرفها الآخر وهو آمن من المطر وحر الشمس. وكان الماء النقي يصل بمقادير موفورة إلى كل بيت من بيوتها. وقد اشتهر سكانها البالغ عددهم 600.000 والذين كانوا خليطاً من اليونان، والسوريين، واليهود بإفراطهم في اللهو والمرح، يعبون اللذات عباً، ويسخرون من الرومان

صفحة رقم : 3829

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> البيقظة الهلنستية -> السوربون

المتباهين الذين جاءوا ليحكموهم، والذين يقضون أوقاتهم بين حلبة الألعاب، والمدرج، والمواخير، والحمامات، ويستمتعون بكل ما يتيح لهم دافني Daphne بستانهم الشهير القائم في ضاحية المدينة. وكان للأهلين أعياد كثيرة، تستمتع أفرديتي بنصيب فيها كلها. وفي عيد بروماليا Brumalia الذي كان يدون معظم شهر ديسمبر، كانت المدينة كلها، كما يقول كاتب معاصر، تبدو كأنها حالة واحدة، وكانت الشوارع تعجّ طول الليل بالغناء والقص والمرح (52). وكان فيها مدارس لتعليم البلاغة، والفلسفة، والطب، ولكنها لم تكن مركزاً علمياً، ذلك أن أهلها كانوا يقضون يومهم كله في العمل، فإذا احتاجوا للذين لجأوا إلى المنجمين، والسحرة، وصنّاع المعجزات، والمشعوذين. والصورة التي تطالعنا لسوريا تحت حكم الرومان هي صورة البلد الرخي رخاء أدوم من رخاء أي ولاية أخرى من ولايات الدولة الرومانية. وكان معظم أهلها من الأحرار إلا من كان يقوم منهم بالخدمة في البيوت. وكانت الطبقات العليا مصطبغة بالصبغة اليونانية، أما الطبقات الدنيا فقد احتفظت بطابعها الشرقي. وكان الفلاسفة اليونان يختلطون في المدينة الواحدة بعاهرات الهياكل والكهنة الفنيين، وقد ظلّ الأطفال حتى أيام هدریان يُضحى بهم قرباناً للآلهة (54). وكانت التماثيل المنحوتة والصور الملونة ذوات وجوه وأشكال نصف شرقية، وعليها طابع العصور الوسطى. وكانت اللغة اليونانية اللغة السائدة في دور الحكومة وفي الأدب، ولكن لغات البلاد أو أهمّها الآرامية - لغة التخاطب بين الأهلين. وكان العلماء فيها كثيرين، وقد طبقت شهرتهم العالم كله فترة قصيرة من الزمان. فقد كان منهم نقولوس الدمشقي الناصح الأمين لأنطونيوس وكليوباترة، وهيرود، والذي أخذ على عاتقه ذلك الواجب الثقيل المُمل واجب كتابة تاريخ عام، وهو واجب يُشقق منه هرقل نفسه، على حد قوله (55). وقد أشفق الدهر عليه فدفن كل مؤلفاته، كما سيدفن مؤلفاتنا هذه على مهل.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> أسية الصغرى

الفصل السادس

أسية الصغرى

كان في شمال سوريا مملكة كمجيني Commagene التي كانت في أول الأمر منضمة للإمبراطورية الرومانية ثم أصبحت فيما بعد ولاية من ولاياتها؛ وكانت عاصمتها سموساتا Samosata التي قضى فيها لوشيان أيام طفولته، أهلة بالسكان. وكان في الناحية الأخرى من نهر الفرات مملكة أسرهوني Osrhoene الصغيرة؛ وقد حصنت روما عاصمتها إدسا Edessa (أروفة) لتكون قاعدة لها ضد بارثيا؛ وسنسمع الكثير عنها في عصر المسيحية، وإذا اتجه المسافر غرباً من سوريا انتقل إلى قليقية (كما ينتقل الآن إلى تركيا) عند الكسندريا إسي Alexandria Issi (الإسكندرونة). وكانت هذه الولاية، وهي ولاية شيشرون، ذات حضارة راقية تمتد على الساحل الجنوبي لآسية الصغرى، ولكنها في جزئها الواقع على جبال طوروس لم تكن قد خرجت بعد من طور الهمجية. ولم تكن حاضرتها طرسوس "بالمدينة الحقيرة" كما يقول ابنها القديس بولص بل كانت تشتهر بمدارسها وفلاسفتها. وكان أمام قليقية في البحر الأبيض المتوسط جزيرة قبرص تعمل كما كانت تعمل من أقدم الأزمنة في استخراج النحاس، وقطع أشجار السرو، وبناء السفن، وتتلقى صابرة ضربات الفاتحين، وكانت مناجمها الغنية ملكاً لروما تستغلها على أيدي الأرقاء. ويصف جالينوس في أيامه منجماً انهياراً على من فيه وقضى على حياة مئات من العمال- وتلك حادثة تتكرر أنا بعد أن في الأسس الجيولوجية لقوى الإنسان وأسباب راحته.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> أسية الصغرى

وكان إلى شمال قليقية ولاية كبدوكيا الجبلية الفاحلة، الغنية بمعادن النحاس، والتي تنبت القمح وتربي الماشية والعيبد لتصدّرها إلى خارجها. وكان إلى غربها ولاية ليكاونيا Lycaonia التي يبدأ تاريخها بزيارات القديس بولص لدربي Derbe وليسترا Lystra وأيكونيوم Iconium، وفي شمال هذا الإقليم نجد جالاتيا Galatia التي استوطنها الغاليون وأطلقوا عليها هذا الاسم في القرن الثالث قبل الميلاد، وكان أهم ما أخرجته هو حجر بسينس Pessinus الأسود الذي أرسل إلى روما ليكون رمزاً لسبييل، وكانت أهم مدنها في ذلك الوقت مدينة أنقورة Ancyra، (أنقرة) التي كانت

عاصمة الحثيين منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام، والتي صارت عاصمة تركيا في هذه الأيام. وكان في ولاية بيسيديا Pisidia الواقعة غرب قلبقية خمس مدن جميلة مثل زنتوس التي كانت وقتئذ قد بدأت تستفيق من الانتحارات الكثيرة قبل بروتس، وأسبندس Aspendus التي احتفظت بملهاها إلى درجة يسهل على الإنسان معها أن يتصوره وقد امتلأ مرة أخرى ليستمع إلى متندر أو يوريديز.

وكان في شمال بيسيديا وغربها ولاية "آسية" بأقسامها الأربعة: فريجيا، وكاريا، وليديا، وميزيا Mysia. وكانت حضارة أيونيا لا تزال مزدهرة في هذه الولاية بعد أن بدأت فيها منذ ألف عام، وقد استطاع فيلوسترانس أن يحصي فيها خمسمائة بلدة يبلغ مجموع سكانها أكثر مما تكفيهم موارد الإقليم كلها في هذه الأيام. وكان ريفها خصباً وكانت الصناعات قد ازدادت دقة جيلاً بعد جيل، وكانت الثغور قد أفادت من قيام الأسواق الغنية في إيطاليا، وأفريقية، وأسبانيا، وغالة. ولقد كان فريجيا بلداً جبلياً، ولكنها كانت تزدهر بمُدنها الكبيرة كأبميا سيليني Apamea Celenae- التي يقول أسترابون إنها لا يفوقها إلا أفسيس في "آسية"- ولوديسيا التي أسعدها الحظ بفلاسفتها وأثرياتها المحسنين الخيرين. وكانت نيدس Cuidus لا تزال على قدر من الغنى يمكنها من

صفحة رقم : 3832

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> آسية الصغرى

أن تحالف روما، أما هلكرنسس فكانت قد انحدرت فلم تنجب أرقى من ديونيشيس- وهي التي أنجبت هيرودوت- وكان ديونيشيس هذا ناقداً أدبياً بارعاً ولكنه كان مؤرخاً تعوزه القدرة على النقد والتمحيص. وكانت ميليتس قد جاوزت عهد شبابها، وإن كانت لا تزال تُعْرَأ نشيطاً؛ وكان وحي أبلو في دديما Didyma القريبة منها لا يزال يجيب عن الأسئلة إجابات مُلغزة، وكان القصاصون في هذا الإقليم يُسجون "القصص الميليتية" الغزلية ذات الخيال الوثاب التي تطوّرت بعد قليل من الوقت فكانت هي الروايات اليونانية القصصية الطويلة. وكانت بريني Priens بلدة صغرى، لكن أهلها أخذوا يتبارون في تجميلها بالمباني الفخمة. وفي هذه المدينة انُخبت في القرن الأول الميلادي امرأة تسمى فيلي Philie لتشغل أسمى المناصب في البلدة وذلك لأن نفوذ روما وثرأها قد أخذوا يرفعان من منزلة المرأة في الأراضي الهيلينية. وكانت مجنيزيا القائمة على ضفة الميندر تضم هيكلاً يعدّه الكثيرون أقرب هياكل آسية إلى الكمال- وكان مخصصاً لعبادة أرتميس (129 ق.م)، وقد خططه هرموجينز Hermogenes أعظم مهندسي ذلك العصر. وكان العامة من أهل ميكالي لا يزالون يجتمعون في كل سنة ليكون منهم اتحاد عام ومجلس ديني لأيونيا. واشتهرت كوس إحدى الجزائر القريبة من ساحل كاريا بنسج الحرير وبمدرستها الطبية الغنية بتقاليد أبقراط؛ وكانت رودس (الوردة) حتى في إبان ضعفها أجمل مدائن العالم اليوناني. ولما أن أراد أغسطس بعد الحرب الأهلية أن يُخفف من بؤس المدن الشرقية بالسماح لها بإلغاء الديون كلها، أبت رودس أن تفيد من هذا التيسير، وأدت كل ما عليها من التزامات بصدق وأمانة، وكان من أثر هذا أن استعادت بعد زمن قليل مكانتها بوصفها المصرف المالي لتجارة بحر ايجة، وعادت كما كانت من قبل الميناء الذي ترسو فيه البواخر المسافرة بين آسية ومصر. وقد اشتهرت المدينة بتمثالها الضخم المحطم، ومبانيها الجميلة،

صفحة رقم : 3833

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> أسية الصغرى

وتماثلها الرائعة، وشوارعها المنظمة النظيفة، وحكومتها الأرستقراطية القديرة، ومدارس الفلسفة والخطابة الذائعة الصيت. وفي هذه المدارس علم أبلونيوس مولو قيصر، وشيشرون تلك الأساليب الفنية التي أثرا بها في كل ما كتب بعدهما من نثر لاتيني.

وكان أشهر علماء رودس في ذلك العصر هو بوسيدونيوس صاحب أكبر عقل مُنشئ مبدع في التاريخ القديم كله. وكان مولده في إياميا Abamea من أعمال سوريا عام 135 ق.م، وكان أول ما اشتهر به سرعة عدوه في المسافات البعيدة، وبعد أن درس على بنيتيوس Panetius في أثينة اتخذ رودس وطناً له، وعمل فيها حاكماً وسفيراً، وطاف بعدة ولايات رومانية، ثم عاد إلى رودس، واجتذب إلى محاضراتها في الفلسفة الرواقية عظماء الرجال أمثال بمبي وشيشرون. وذهب في الثالثة والثمانين من عمره ليعيش في روما ومات فيها في السنة التالية. ومن مؤلفاته كتاب التاريخ العام المفقود الذي يقص تاريخ روما وممتلكاتها من عام 144 إلى عام 82 ق.م؛ وكان العلماء القدامى يضعونه في منزلة كتاب بوليبيوس. وكان وصفه لرحلاته في غالة، ورسالته عن المحيط من المصادر التي استمد منها أسترابون كتاباته. وكان تقديره بُعد الشمس عن الأرض 52.000.000 أقرب إلى تقدير هذه الأيام من تقدير أي عالم قبله. وقد سافر إلى قادس Cadiz ليدرس المد والجزر، وفسر هذه الظاهرة بأنها من فعل الشمس والقمر مجتمعين. وقد عرض المحيط الأطلنطي بأقل من عرضه الحقيقي، وتنبأ بأن في مقدور المسافر من أسبانيا أن يصل إلى الهند بعد أن يقطع ثمانية آلاف ميل. وكان رغم إمامه بالعلوم الطبيعية يؤمن بكثير من الأفكار الروحية السائدة في عصره. فكان يعتقد بالشياطين والقدرة على معرفة الغيب، وبالنتجيم، وقرأة الأفكار، وبقدرة الروح على أن ترقى حتى تتحد اتحاداً

صفحة رقم : 3834

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> أسية الصغرى

صوفياً بالله؛ وعرف الله بأنه القوة الحيوية للعالم. وقد عدّه شيشرون أعظم الفلاسفة الرواقيين وكان في هذا مبالغاً في كرمه، وفي وسعنا نحن أن نعهده من رواد الأفلاطونية الجديدة، وأن نرى فيه قنطرة انتقال من زيتون إلى أفلوطينس. وإذا سار المسافر محاذياً ساحل أسية وميمماً شطر الشمال من كارييا دخل ليديا وأقبل على إفسوس أعظم مدائنها. وقد ازدهرت في أيام الرومان كما لم تزدهر من قبل. ومع أن برجموم كانت العاصمة الرسمية لولاية "أسية" الرومانية فإن إفسوس أضحت مقر الحاكم الروماني والموظفين التابعين له؛ هذا إلى أنها كانت أهم ثغور الولاية، ومكان اجتماع جمعيتها الوطنية. وكان سكانها خليطاً من أجناس مختلفة، بلغ عددهم 225.000 ويختلفون من السفسطانيين الخيرين المحبين للإنسانية إلى الغوغاء الصخابين المخرفين. وكانت شوارع المدينة حسنة الرصف والإضاءة. وكانت لها بواك مظلمة تمتد أميالاً عدة. وكان فيها كثير من المباني العامة التي توجد في غيرها من المدن، وقد كشف بعضها من تاريخ قريب لا يبعد عن عام 1894: ومن هذه المباني "متحف" أو مركز علمي، ومدرسة طب، ودار كتب ذات واجهة عجيبة مسرفة في النقش والزينة، وملهى يتسع لستة وخمسين ألف من النظارة. وهنا آثار دمتريوس صانع التماثيل العامة على القديس بولص بعد هذا العهد. وكان يحيط به 128 عموداً كل واحد منها مهدي من أحد الملوك. وكان يقوم على خدمة كهنته الخصيان قسيسات عذارى وحشد من الأرقاء، وكانت طقوسهم مزيجاً من طقوس الشرقية

اليونانية. وكان للتمثال البربري الذي يمثل هذه الإلهة صقّان من الأنداء الكثيرة العدد ترمز إلى الخصوبة. وكان الاحتفال بعيد أرتيمس يجعل أيام مايو كلها أيام بهجة، ومرح، وحفلات، وألعاب. وكان جو أزمير أطيّب من جو غيرها من البلدان رغم كثرة من كان فيها

صفحة رقم : 3835

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> أسية الصغرى

من صبيّادي السمك. وقد وصفها ابولونيوس التيانائي Apollonius of Tyana الذي كان جواب أفاق بأنها "أجمل مدينة تحت الشمس" (59). وكانت تزدهي على غيرها من المَدُن بشوارعها الطويلة المستقيمة، وأعمدتها ذات الطبقتين من القرميد، ومكتبتها، وجامعتها. وقد وصفها رجل من أشهر أبنائها وهو إيلْيوس أرسْتِيدِيْز Aelius (Arisitides 117-187م) وصفاً يكشف عما كانت عليه المَدُن الرومانية الهلنستية من روعة وبهاء، فقال: سر فيها من الشرق إلى الغرب تمرُّ بهيكل في إثر هيكل، ومن تل في إثر تل، مُخترقاً شارعاً أجمل من اسمه (الطريق الذهبي). ثم قف فوق حصنها ترّ البحر يمتد تحتك، والضواحي تنتشر حولك. والمدينة إذا نظرت إليها ثلاث نظرات ملأت قلبك سروراً وغبطة... وكل شيء فيها من طرفها الداخلي إلى شاطئ البحر كتلة بَرّاقة من ساحات للألعاب، وأسواق، وملاه... وحمّامات بلغت من الكثرة حدّاً لا يسهل عليك معه أن تعرف في أيها تستحم، وفوارات وطرفات عامة، ومياه جارّية في كل بين من بيوتها. وإن ما فيها من مناظر جميلة، ومباريات، ومعارض ليجل عن الوصف؛ أما الصناعات اليدوية فحدث عن كثرتها ولا حرج. وهذه المدينة هي أنسب المدائن كلها لمن يريدون أن يعيشوا في هدوء وطمانينة ليكونوا فلاسفة لا يعرفون العش والخداع (60). وكان إيلْيوس واحداً من كثيرين من البلغاء والفسطاطيين الذين اجتذبت شهرتهم الطلاب إلى أزمير من جميع بلاد هلاس؛ وكان معلمه بوليمو Polimo رجلاً بلغ من العظمة - كما يقول فيلوستر اتس - "درجة جعلته يتحدّث والمدائن أقل منه، والأباطرة لا يعلنون عليه، والآلهة أُنْداد له" (61). وكان إذا حاضر في أثينة استمع إليه هرودس أنكس Herodes Atticus أعظم منافسيه في البلاغة، وكان من تلاميذه المعجبين به. وأرسل إليه هرودس 150.000 درخما (90.000 ريال أمريكي) نظير استمناعه بميزة الاستماع إلى محاضراته؛

صفحة رقم : 3836

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> أسية الصغرى

ولما لم يشكر له بوليمو عمله هذا، قال له أحد الأصدقاء إن المحاضر قد استقلّ المبلغ، فبعث إليه هرودس مائة ألف أخرى، قبلها بوليمو في هدوء على أنها حقٌّ له. وقد استخدم بوليمو ثروته في تزيين المدينة التي اتخذها وطناً له؛ وإشترك في حكمها، ووفق بين أحزابها، وكان سفيراً لها. وتقول الرواية المأثورة إنه أيقن أنه لا يطيق الصبر على داء

المفاصل الذي كان مصاباً به، فدفن نفسه في قبر أسلافه في لأوديسيا، وأمات نفسه جوعاً في سن السادسة والخمسين (62).

وكانت سرديس، عاصمة كروسس القديمة، لا تزال "مدينة عظيمة" غي عهد أسترابون. وقد تأثر شيشرون بعظمة متليني وجمالها ووصفها لنجس Longus في القرن الثالث وصفاً يذكرنا بجمال مدينة البندقية (63). وكانت برجموم يتلألاً فيها المذبح العظيم، والمباني الفخمة التي شادها ملوكها من أسرة أتالس Attalus، وأنفقوا عليها من الخزائن التي امتلأت بالمال من كدح العبيد في غابات الدولة، وحقولها، ومناجمها، ومصانعها. وقد استبق أتالس الثالث التوسّع الروماني والانقلاب الاجتماعي بأن أوصى بمملكته إلى روما في عام 133 ق.م؛ غير أن أرسنتكس ابن الملك يومنيز الثاني من إحدى المحظيات نفذ الوصية وقال إن أتالس أرغم عليها؛ ثم حرّض العبيد والأحرار الفقراء على الثورة، وهزم جيشاً رومانياً (132)، واستولى على عدد كبير من المُدن، ووضع قواعد دولة اشتراكية بمعونة بلوسبيوس Blossius معلّم أبني جراكس. وانضم إلى روما ملكاً بيثينيا وبنّس المجاورتين لبرجموم، كما إنضم إليها طبقات رجال الأعمال في المُدن المحتلة، فأخمدت روما بمعونتها هذه الثورة ومات أرسنتكس في أحد السجون الرومانية. وعاقبت الثورة والحروب المتردات حياة برجموم الثقافية مدى نصف قرن من الزمان، ونهب أنطونيوس مكتبتها الشهيرة ليُعوّض بها الإسكندرية عن الكتب التي احترقت منها أثناء إقامة قيصر فيها. وما من شك في أن برجموم قد انتعشت قبيل عهد فسبازيان، وشاهد ذلك أن بلني الأكبر حكم بأنها أكثر

صفحة رقم : 3837

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> البيقظة الهلنستية -> أسية الصغرى

مدائن أسية ازدهاراً وقامت فيها أيام الأنطونيين حركة بناء جديدة، ونشأت في الإسكالبوم مدرسة طبيّة خرج منها جالينوس ليُدّوي أمراض العالم.

واستحالت إسكندرية تراوس Alexandria Troas على يد أغسطس مستعمرة رومانية تخليداً لأصل روما الطروادي المزعوم، وقد استندت روما إلى هذا الأصل المزعوم في مطالبتها بجميع البلاد التي وصفناها في هذا الفصل. وقد أُعيد بناء طروادة القديمة على تل قريب من هذه البلدة (حصار لك)، وسُميت باسم اليوم Illium الجديدة، وأضحت بعد بنائها مقصداً للسياح، وكان الأدلاء يرشدونهم إلى كل بقعة حدثت فيها إحدى الحوادث الواردة في الإلياذة، ويُطلعونهم على الكهف الذي حاكم فيه باريس هيرا، وأفرديتي، وأثينة. وقد بنى سزكس Cyzicus سفناً على البروبيتس وأرسل منها جميع البحار المعروفة أسطولاً تجارياً لم يكن يناقسه إلا أسطول رودس. وهنا شاد هدریان هيكلًا لبرسفني، وكان من أعظم الهياكل التي تقتخر بها أسية. ويقول ديوكاسيوس إن قطر كل عمود من أعمدته كان ست أقدام وارتفاعه خمسة وسبعين قدماً، ومع هذا فقد كان العمود منحوتاً من كتلة واحدة من الحجر (64). وكان هذا الهيكل قائماً على ربوة، لهذا بلغ من الارتفاع حداً رأى معه إيليبوس أن لا ضرورة لإقامة منارة لهداية السفن. وقامت في أيام السلم الرومانية مائة مدينة مزدهرة على الطريق الممتد من البحر الأحمر إلى البحر الأسود.

صفحة رقم : 3838

الفصل السابع

مثر دانس العظيم

كانت بيبثينيا وبننس تمتدان على السواحل الشمالية لآسية الصغرى؛ وكانت أرضهما جبلية في الداخل؛ لكنها كانت غنية بالخشب والمعادن. وقد طغى على سكانها الحثيين الأقدمين خليط من التراقيين، واليونان، والإيرانيين وحكمت بيبثينيا أسرة ملكية يونانية- تراقية، وشادت لها عاصمة في نيقوميديا، ومدينتين كبيرتين في بروصة Prusa ونيقية. وأقام شريف إيراني سمّي مثر دانس دليلاً على التقى والورع مملكة له حوالي عام 302 ق.م شملت كبدوكيا وبننس، وأنشأ أسرة من الملوك البواسل نشروا الثقافة اليونانية في البلاد، واتخذوا كومانا بننيكا Comana Pontica وسينوب عاصمتين له وانتشر ملكهم حتى اصطدم بمصالح روما الاقتصادية والسياسية؛ فشبت على أثر ذلك نار الحروب المثر دانسية التي سميت بهذا الاسم الموائم كل المواعمة نسبة إلى الملك الجبار الذي جمع آسية الغربية وبلاد اليونان الرومانية، ونشر فيها جميعاً لوء فتنة صماء لو أنها نجحت لبذلت تاريخ أوربا تديلاً.

وكان مثر دانس السادس قد ورث عرش بننس وهو غلام في الحادية عشرة من عمره، وحاولت أمه هي والأوصياء عليه أن يقتلوه لتجلس هي على العرش مكانه، لكنه قفز من قصره، واختفى عن الأبصار، وعاش أحد عشر عاماً في الغابات يصطاد الوحوش، ويتخذ من جلودها لباساً. وحدث في عام 115 ق.م انقلاب سياسي مفاجئ أدى إلى خلع أمه وإعادته إلى ملكه. وكانت تحب

صفحة رقم : 3839

به المؤامرات التي هي من خصائص القصور الشرقية ، فاحتاط لها بأن كان يتجرّع قليلاً من السم في كل يوم، حتى كانت له حصانة من معظم أنواع السم التي كانت في متناول المقربين إليه. وقد كشف في أثناء تجاربه هذه كثيراً من العقاقير المضادة للسم والشفافية منه. ثم امتدت هواياته من هذا إلى الطب بوجه عام، فجمع فيه معلومات بلغ من قيمتها أن أمر بمبي بترجمتها إلى اللغة اللاتينية وكانت حياته البرية الصارمة قد أكسبته قوة في الجسم وفي الإرادة؛ وأن بلغ من الفخامة درجة رأى معها أن يرسل دروعه السابقة إلى دلفي ليشاهدها العابدون. وكان فارساً ماهراً، ومحارباً شجاعاً، ويؤكد لنا عارفوه أنه كان في مقدوره أن يعدو بسرعة يدرك به طباء الفلاة، وأنه يستطيع أن يسوق عربة يجرها ستة عشر جواداً، ويقطع مائة وعشرين ميلاً في اليوم الواحد(65). وكان يفخر بقدرته على أن يأكل أكثر مما يأكل أي إنسان آخر ويشرب أكثر مما يشرب، وكان له عدد كبير من النساء. ويقول المؤرخون الرومان إنه كان قاسي القلب، غداراً، وإنه قتل أمه، وأخاه، وثلاثة من أبنائه، وثلاثاً من بناته(66)، ولكن روما لم تتقل لنا ما عسى أن يقوله

هو دفاعاً عن نفسه. ولقد كان مثقفاً بعض الثقافة، في مقدوره أن يتكلم اثنتين وعشرين لغة، ولم يستخدم قط مترجماً بينه وبين من يتحدث إليه من الأجانب (67). وقد درس الآداب اليونانية، وكان مولعاً بالموسيقى اليونانية، وأغنى بالمال والنفاس الهياكل اليونانية، وكان في بلاطه عدد كبير من علماء اليونان، وشعرائهم، وفلاسفتهم وقد جمع كثيراً من التحف الفنية، وسك نقوداً ذات أشكال جميلة ممتازة. ولكنه لم يتورع عن الشهوانية والفضفاضة التي كان يمثلها بها جوّه النصف

صفحة رقم : 3840

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> مثر دانس العظيم

الهمجي، وصدق خرافات أهل زمانه. ولم يكن يحمي نفسه من روما بما كان خليفاً أن يقوم به القائد أو السياسي العظيم من حركات صادرة عن نفاذ البصيرة وبعد النظر، بل كان يحميها بالشجاعة الارتجالية التي يعمد إليها الحيوان إذا وقع في المحذور. ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يقنع بالمملكة الصغيرة التي خلفتها له أمه. ولهذا فتح أرمينية وبلاد القوقاز مستعينا على ذلك بضباط وجنود مرتزقين من اليونان، ثم عبر نهر قوبان ومضيق كرتش إلى بلاد القرم وأخضع لحكمه جميع المدن اليونانية القائمة على سواحل البحر الأسود الشرقية، والشمالية، والغربية. وإذا كان انهيار قوة اليونان العسكرية قد ترك هذه الجماعات وهي تكاد تكون عاجزة كل العجز عن حماية نفسها من البرابرة الذين يجاورونها من خلفها، فإنها قد استقبلت جيوش مثر دانس اليونانية استقبال الحماة المنقذين. وكانت من المدن التي خضعت له سينوب، وطر بزون، وبنتيكبيم Panticapeum (كرتش)، وبيزنطية. ولكن سيطرت بيثينيا على الهلسينت (الدردينيل) تركت تجارة بنتس في البحر الأبيض المتوسط تحت رحمة الملوك المعادين لها. فلما مات نيوميدس الثاني ملك بيثينيا (94 ق.م) تنازع ولدها العرش، واستعاث الثاني وهو سقراط بملك بنتس. وانتهاز مثر دانس فرصة النزاع الحزبي في إيطاليا فغزا بيثينيا لكي يجلس سقراط على العرش. ولم تشأ روما أن ترى البسفور في أيدي أعدائها فأمرت مثر دانس وسقراط أن يخرجوا من بيثينيا. وصدع مثر دانس بالأمر أما سقراط فرفضه، فلم يكن من حاكم أسية الروماني إلا أن خلعه وتوج نيوميدس الثالث. وغزا الحاكم الروماني الجديد بنتس وشجعه على ذلك منيوس أكوليوس Manius Aquius الحاكم الروماني، وبدأت بذلك الحرب المثر دانسية الأولى (88-84 ق.م).

صفحة رقم : 3841

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> مثر دانس العظيم

وأحسن مثر دانس أن الفرصة الوحيدة التي تتيح له البقاء هي إثارة الشرق الهيني على سادته الإيطاليين، فأعلن أنه منقذ هلاس وسيّر جيوشه لتحرير المدن اليونانية في أسية بالقوة إذا كان لا بد من استخدامها؛ ولما أن قاومته طبقات رجال

الأعمال في المُدن ولى وجهة شطر الأحزاب الديمقراطية، وأخذ يمنيها بإصلاحات شبه اشتراكية. وفي هذه الأثناء كان أسطوله المكون من أربعمئة سفينة قد دمر القسم المرابط في البحر الأسود من الأسطول الروماني وأوقع جيشه المؤلف من 290.000 رجل هزيمة منكرة بقوات نيقوميديس وأكوليوس. وأراد الملك الظافر أن يعبر عن احتقاره لشراة الرومان ويخلهم (68) فصبّ الذهب المصهور في أفواه أكوليوس الأسير - ولم يكن قد مضى على انتصاره على أرقاء صقلية الثائرين إلا وقت قصير. ورأت المُدن اليونانية في أسية الصغرى أن الرومان أصبحوا عاجزين عن حمايتها، ففتحت أبوابها لجيوش مثرانتس، وأعلنت ولاءها له وللفضية التي نصبّ نفسه للدفاع عنها، وقامت في يوم حدده لها، وبناء على أمره، بقتل كل من فيها من الإيطاليين رجالاً كانوا أو نساء أو أطفالاً وقد بلغ عددهم ثمانين ألفاً (88 ق.م) وفي ذلك يقول أبيان:

"ومزق الإفسوسيون أجسام الفارين الذين احتموا في هيكل أرتيميس وأمسكوا بصورة المعبودة، ثم جزّو رؤوسهم. ورمى أهل برججوم بالسهم الرومان الذين احتموا في معبد اسكليبيوس AESCULPIUS. واقتفى أهل أدرميثيوم Adramyttium من أراد النجاة بالسباحة في البحر وقتلوه وأغرقوا أطفالهم. وطارد أهل كونس Canus (في كاربيا) الإيطاليين الذين احتموا حول تمثال فستا، وقتلوا الأطفال أمام أعين أمهاتهم، ثم اتبعوهم بالأمهات، ثم بالرجال... وقد اتضح من هذه الأعمال أن الذي دفعهم إلى ارتكاب هذه الفظائع لم يكن خوفهم من مثرانتس فحسب بل كان أيضاً كرههم للرومان" (69).

وما من شك في أن الطبقات الفقيرة التي قاست أكثر من غيرها مظالم

صفحة رقم : 3842

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> مثرانتس العظيم

الحكم الروماني كانت لها اليد الطولى في هذه المذابح الجنوبية، وما من شك أيضاً في أن طبقات الملاك التي ظلت زماً طويلاً تتمتع بحماية الرومان لها قد استولى عليها الرعب حين أبصرت هذا الانتقام الرهيب. وأراد مثرانتس أن يهدئ ثائرة الطبقات الغنية بإعفاء المُدن اليونانية من الضرائب مدة خمس سنين ويمنحها الاستقلال الذاتي التام، لكنه "أعلن" في الوقت نفسه، كما يقول أبيان "إلغاء الديون، وحرر العبيد، وصادر كثيراً من الضياع، وأعاد توزيع الأراضي الزراعية على السكان" ودبر زعماء العشائر مؤامرة لإغتياله، فما كشف سرّها أمر بقتل ألف وستمئة من هؤلاء الزعماء. واستولت الطبقات الدنيا يساعدها الفلاسفة وأساتذة الجامعات (71) على زمام السلطة في كثير من المُدن اليونانية، ومنها أثينة وإسبارطة نفسها، وأعلنت الحرب على روما وعلى الطبقات الغنية معاً، وقتل يونان ديلوس في نشوة الحرية عشرين ألف إيطالي في يوم واحد. واستولى أسطول مثرانتس على جزائر سكلايز كما استولى جيشه على عوبية، وتساليا، ومقدونية، وتراقية. وكان خروج "أسية" الغنية عن سيطرة الرومان سبباً في وقف الخراج الذي كان يُرسل منها إلى الخزانة الرومانية، وفوائد الأموال التي كان يحصل عليها المستثمرون الرومان، فانتابت إيطاليا أزمة مالية كانت ذات أثر في الحركة الثورية التي قام بها سترنينس Saturninus وسنا Cinua وانقسمت إيطاليا على نفسها لأن السمنيين واللوكانيين عرضوا على ملك بننس أن يعقدوا معه حلفاً. ورأى مجلس الشيوخ الروماني الحرب والثورة تواجهانه في كل مكان، فباع ما تجمع في الهياكل الرومانية من الذهب والفضة ليمول بها جيوش صلا. ولسنا نرى من واجبتنا أن نعيد هنا كيف استولى صلا على أثينة، وهزم جيوش الثوار، وأنفذ الإمبراطورية لروما، وعقد مع مثرانتس صلحاً قوامه اللين انسحب الملك على أثره إلى عاصمة بننس، تجهز في هدوء جيشاً وأسطولاً جديدين،

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> مثر دانس العظيم

وقرر مورينا Murena المبعوث الروماني في أسية أن يهاجمه قبل أن يشتد ساعده؛ فلما أن هزم مورينا في هذه الحرب المثر دانية الثانية (83- 81) لأمه صلا على خرقه شروط المعاهدة وأعلن انتهاء الأعمال العدوانية. وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أوصى نيقوميديس الثالث بيثينيا إلى روما، وأدرك مثر دانس أن مملكته نفسها ستبتلعها روما عن قريب إذا امتد سلطانها إلى حدود بفلجونيا وبننس بعد أن سيطر على البسفور. وبذل في الحرب المثر دانية الثالثة (75- 63) آخر جهوده، وحارب لوكلس وبمبي اثني عشر عاماً وغدر به أحلافه وأعوانه ففر إلى بلاد القرم، وحاول الجندي الشيخ، وكان وقتئذ في التاسعة والستين من عمره، أن يعد جيشاً يخترق به بلاد البلقان، ويغزو إيطاليا من الشمال، ولكن ابنه فرناسس شقّ عصا الطاعة عليه، وأبى أن يساق إلى المغامرة؛ وحاول الملك بعد أن تخلى عنه الجيش أن ينتحر، ولكن السم الذي تجرّعه لم يكن له أثر فيه لما كان قد كسبه قبل من الحصانة، وكانت يده أضعف من أن تضغط على النصل الذي أراد أن يقتل به نفسه، ثم أجهز عليه أصدقاؤه ومحاسبيه الذين أمرهم ولده أن يقتلوه بأن طعنوه بسيفهم وحرابهم.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> النثر

الفصل الثامن

النثر

مما يذكر بالحمد للحكم الروماني أن مُدن أسية الصغرى لم يمض عليها إلا قليل من الوقت حتى أفاق من حمى هذه الحروب المتقطعة. وصارت نيقوميديا عاصمة ولاية بيثينيا- بننس، ثم أضحت عاصمة الإمبراطورية في عهد دقلديانوس؛ وخذ اسم نيقية فيما بعد أن انعقد فيها أخطر مجلس في تاريخ الكنيسة المسيحية، وأخذت المدينتان تتنافسان في تشييد المباني منافسة اضطر معها تراجان أن يرسل بلني الأصغر ليحول بينهما وبين الإفلاس. وأهدت نيقوميديا إلى الأدب ابنها فلافيوس أريانس الذي سجّل أحاديث إبيكتس، كما سبق القول. وكان أريان هذا حاكماً على كبدوكيا ست سنين، وأركونا لأثينة سنة واحدة، ولكنه رغم هذه المشاغل وجد متسعاً من الوقت لكتابة عدة كتب في

التاريخ لم يبقَ منها إلا زحف الاسكندر المذبل بالانديكا Indica. وقد كتبه بلغة يونانية واضحة سهلة بأنه اتخذ أكسفون مثلاً له في أسلوبه، كما اتخذ مثلاً له في حياته، ويقول هو عن كتابه مفتخراً به كما يفخر الأقدمون: "لقد كنت منذ صباي أنزل هذا الكتاب منزلة الوطن والأسرة والمنصب العام ولهذا فإني لا أرى نفسي غير خليق بأن أعدّ بين أعظم المؤلفين في اللغة اليونانية" (72). وكانت هناك مدن أخرى على شاطئ البحر الأسود ذات مياه عظيمة و علماء ذائعي الصيت. كان منها ميرليا Myrlea التي بلغ عدد سكانها 2.320.000 (73) وأمسارتس (أمسرا Amsara) التي وصفها بلني بأنها "مدينة أنيقة جميلة"، والتي اشتهرت بما كان فيها من أشجار البقس الجميلة، وسينوب

صفحة رقم : 3845

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> النثر

التي كانت مركزاً غنياً لصيد السمك ومنفذاً لخشب الإقليم المجاور لها ومعادنه، وأميسس Amisus (سمسون) وطربيزس (طربزون) وكان أهلها يكسبون عيشهم بالتجار مع سكوذيا (جنوبي روسيا) المقابلة لهما على شاطئ البحر، وأماسيا Amasea التي وُلِدَ وعاش فيها أسترابون أعظم الجغرافيين الأقدمين. وكان أسترابون ينتمي إلى أسرة غنية تنحدر، كما يؤكد هو، من ملوك بنتس. وكان مصاباً بحولٍ غريب لا يزال يسمى باسمه حتى الآن (74). وكان كثير الأسفار، ويلوح أن أسفاره كانت في بعثات دبلوماسية، وكان ينتهز كل فرصة مستطاعه لجمع المعلومات الجغرافية والتاريخية. وكتب تاريخاً مكملًا لتاريخ بوليبيوس ولكنه فقد؛ ثم أخرج في عام 7 ق.م كتابه العظيم الجغرافية الذي حفظت لنا الأيام جميع أجزاءه السبعة عشر تقريباً. وقد بدأه كما بدأ أريان كتابه بالتحدث عن مزاياه فقال:

"إني استسمح قرّائي، وأطلب إليهم ألا يلوموني لطول بحثي بدل أن يلوموا أولئك الذين يحرصون أشد الحرص على معرفة كل ما هو شهير وقديم... ولا بد لي في هذا الكتاب من أن أغفل الصغير من الأشياء، وأن أخص بالعناية ما هو نبيل وعظيم... سواء كان نافعاً، أو ذائع الصيت، أو باعثاً للبهجة والمتعة. وكما أننا إذا أردنا أن نحكم على قيمة تمثال ضخم لا نبحت كل جزء من أجزائه بدقة وعناية، بل ننظر إلى الأثر العام الذي ينطبع في أذهاننا منه... فكذلك يجب أن يُحكم على كتابي هذا بالطريقة عينها. ذلك بأنه هو أيضاً عمل ضخم... خليق بأن يكون من عمل فيلسوف" (75). وهو يعترف في صراحة بأنه يأخذ عن بوليبيوس وبسيدينيوس، ولكنه أقل صراحة فيما يأخذ من أرتسنيز، ويشند عليهم جميعاً في نقد أخطائهم،

صفحة رقم : 3846

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> النثر

ويقول إن أخطاءه هو يجب أن يُلام عليها من أخذ عنهم(76). وهو يعترف بالمراجع التي أخذ عنها في صراحة نادرة ويختار هذه المراجع في العادة بدقة وحسن تمييز. ومن أقواله أن امتداد الإمبراطورية الرومانية قد وسع المعلومات الجغرافية، وإنه يعتقد مع ذلك أن قارات بأكملها لا تزال مجهولة- ويرما كانت هذه القارات في المحيط الأطلنطي- وأن الأرض شبه كرة، (ولكن اللفظ اليوناني قد يكون معناه "كروياً") وأن الإنسان إذا سافر من أسبانيا متجهاً نحو الغرب وصل بعد وقت ما إلى الهند. ويقول عن شواطئ البحار إنها في تغيّر دائم بفعل التعرية أو الانفجار؛ ويظن أن اضطراب باطن الأرض قد يشق برزخ السويس وبل البحرين. وكان كتابه تلخيصاً جريئاً لما يعرفه الناس في عصره عن الأرض، وما من شك في أنه من جلائل الأعمال في العلم القديم.

وكان ديوكريسستوم- ديو ذو الفم الذهبي- (40-120م) أعظم شهرة في عصره من استرابون. وكانت أسرته قد اشتهرت في بروصة من زمن طويل؛ فقد أفنى جده ثروته بما قدمه من الهبات لمدينته، ثم جمع بعدئذ ثروة جديدة؛ وحذا أبوه حذو جده؛ وفعل ديو ما فعله الأب والجده(77). ولما كبر صار خطيباً وسفوطانياً، وسافر إلى روما، واعتنق مذهب الرواقية على يد موسنيوس روفس، ونفاه دومتيان من إيطاليا وبيثينيا في عام 82؛ ولما حرّم عليه أن ينتفع بملكه أو دخله، أخذ يضرب في الأرض ثلاثة عشر عاماً وينتقل من قطر إلى قطر انتقال الفيلسوف المفلس، يأبى أن يتقاضى أجراً على خطبته، ويكسب قوته في معظم الأحوال بعمل يديه. ولما جلس نيرفا على العرش بعد دومتيان، تبدّل نفي ديو تكريماً، فقد اصطفاه نيرفا وترأجان ووهبا مدينته هبات جمّة إجابة لطلبه ولما عاد إلى بروصة أنفق معظم ثروته في تجميلها، وإتھمه فيلسوف آخر بإختلاس الأموال العامة فحاكمه بلني، ويلوح أنه بريء من هذه التهمة.

وخلف ديو وراءه ثمانين خطبة. ويبدو لنا في هذه الأيام أن معظمها ألفاظ

صفحة رقم : 3847

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> النشر

جوفاء ليس فيها كثير من المعاني، ويُؤخذ عليها ما فيها من إطناب، وتشبيهات خذاعة، وحيل بيانية، فهي تمط نصف المعنى حتى تملأ به مائة صفحة؛ فلا عجب بعدئذ إذا صاح أحد المستمعين بعد أن سئم هذا الطول: "إنك قد جعلت الشمس تغرب من طول أسئلتك التي لا آخر لها"(78). ولكن الرجل كان فصيح اللسان ساحر البيان، ولولا ذلك لصعب عليه أن يكون أشهر خطباء القرن الذي عاش فيه، ولما كانت الحروب تقف لكي يستمع الناس إلى خطبه وقد قال له ترأجان في يوم من الأيام قولاً صادقاً صريحاً: "لست أفهم ما تقول ولكنني أحبك بقدر حبي لنفسي"(79). وكان البرابرة الضاربون على ضفتي البورستينيز Borysthenes (الدينبير) يستمعون إليه في ابتهاج لا يقل عن ابتهاج اليونان وهو مجتمعون في أولمبيا، أو ابتهاج أهل الإسكندرية المعروفين بسرعة الانفعال. وحدث أن جيشاً أو شك أن يتمرد على نيرفا، فهذأت ثورته بعد أن استمع إلى خطبة ارتجلها الخطيب الطريد النصف العاري. وأكبر الظن أن الذي أغرى الناس بالالتفاف حوله لم يكن أسلوبه اليوناني الأنكي الجميل بل كان هو جرأته في التشهير، ويكاد أن يكون هو الخطيب الوحيد في العهود الوثنية القديمة الذي ندد بالدعارة؛ وما أقل كتاب زمانه الذين هاجموا نظام الاسترقاق بمثل ما هاجمه هو من القوة والصرامة. (بيد انه غضب بعض الغضب حين وجد أن عبده فرّوا منه)(80). وكانت خطبته في أهل الإسكندرية تنديداً عنيفاً بترفهم، وتخريفهم، وذرأئهم. وقد وقف يوماً في اليوم Ilium وألقى خطبة قال فيها إن طروادة لم توجد قط، وإن "هومر كان أجراً كاذب في التاريخ"؛ ثم وقف يوماً آخر في قلب روما وأخذ يذكر فضائل الريف على المدن، وصوّر فقر الريف تصويراً مؤثراً في أسلوب قصصي واضح جذاب، وأندز مستمعيه أن الناس أخذوا يهملون الأرض، وأن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> النثر

الأساس الزراعي للحضارة قد انهار. ووقف مرة في أولمبيا ليخطب في جمع كبير من الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها، وأخذ يصف أهل ذلك العصر من الأبيقوريين والملحدن. وكان مما قاله في هذه الخطبة، إن الصورة التي لدى الناس عن الإله قد تكون باطلة سخيفة، ولكن الرجل العاقل يدرك أن العقل الساذج يحتاج إلى أفكار ساذجة ورموز تصويرية. والحق أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يدرك صورة الكاهن الأعلى، وحتى التمثال الجليل الذي نحته فدياس نفسه لم يكن إلا فرضاً مجسداً لا يليق بمقامه كما لا يليق به تصويره نجماً أو شجرة. ونحن وإن كنا لا نعرف حقيقة الله، ندرك بفطرتنا أنه موجود، ونشعر أن الفلسفة بغير الدين شيء مظلم لا يرجى منه خير، وأن الحرية الحقبة الوحيدة هي الحكمة- أي أن يعرف الإنسان ما هو حق وما هو باطل؛ وأن سبيل الحرية ليست هي السياسة أو الثورة، بل أن سبيلها هي الفلسفة، وليست الفلسفة الحقبة هي الأفكار التي في بطون الكتب، بل هي إتباع طريق الشرف والفضيلة كما ينادي بها من داخلنا صوت هو كما يقول المتصوفة كلمة الله مستكنة في قلب الإنسان(81).

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> التيار الشرقي الجارف

الفصل التاسع

التيار الشرقي الجارف

استعاد الدين في القرن الثاني بعد الميلاد ما كان له من سلطان منذ أقدم العهود حين أقرت الفلسفة بعد أن غلبتها الأبدية والآمال البشرية بعجزها عن تحقيق تلك الأبدية وهذه الآمال، فتخلت عما كان لها من سلطان. وكان الدين قبل أن يستعيد سلطانه هذا قد انزوى وأخذ يغذي جذوره ويترقب الفرص المواتية به. ولم يكن الناس أنفسهم قد فقدوا إيمانهم، فقد قبلت كثرتهم الغالبة مجمل ما وصف به هو من الحياة الآخرة(82). وكانت تقرب القرابين في خشوع قبل البدء برحلة من الرحلات، وتضع أبله في فم الميت ليؤدى بها أجر عبوره نهر استيكس كما كانت تفعل في الزمن القديم. وكانت سياسة الحكم الرومانية ترحب بالعون الذي تلقاه من الكهنة الرسميين وتسعى للحصول على تأييد الشعب بإقامة

الهيكل الفخمة للآلهة المحليّة، وظلت ثروة الكهنة تزداد زيادة مطردة في جميع أنحاء فلسطين وسوريا، وآسية الصغرى؛ وظل السورّيون يعبدون هداد Hadad وأترجاتس Atargatis، وكان لهذين الإلهين مزار رهيب في هيرابوليس؛ وبقيت مَدُن سوريا ترحب ببعث الإله تموز وتنادي قائلة "لقد قام أدنيس (الرب)"، وتحتفل في آخر مناظر عيده بارتماعه إلى السماء(83). وكانت مواكب أخرى من هذا النوع تخلد آلام ديونيس وموته وبعثه بطقوس يونانية. وانتشرت عبادة الإلهة ما Ma من كبدوكيا إلى أيونيا وإيطاليا، وكان كهنتها (المسمون بالهيكليين fanatice أي المنتمين إلى الفانوم fanum أو الهيكل) يرقصون في نشوة عديدة على أصوات الأبواق والطبول، ويطعنون

صفحة رقم : 3850

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> التيار الشرقي الجارف

أنفسهم بالمدى، ويرثون دماءهم على الإلهة وعبادها المخلصين(84) ودأب الناس على خلق آلهة جدد؛ فألهوا قيصر، والأباطرة، وأنطيوخوس، وكثيراً من العظماء، وكثيراً من العظماء المحليين في حياتهم وبعد مماتهم. وأخذت هذه الآلهة يمتزج بعضها ببعض بتأثير التجارة والحرب فيزداد عددها ويعظم شأنها في كل مكان، وتقام الصلاة بألف لغة لألف إله أملاً في النعيم والنجاة> فلم تكن الوثنية والحالة هذه ديناً واحداً، بل كانت أجمة من العقائد المتشابهة، المتناقضة، المتنافسة؛ وكثيراً ما كان يتدخل بعضها في بعض وتختلط اختلاطاً متعمداً مختاراً.

وثبتت عبادة سيبيل في ليديا وفريجيا، وإيطاليا، وأفريقية، وغيرها من الأقاليم، وظل كهنتها يخصون أنفسهم كما فعل حبيبتها أتيس؛ فإذا أقبل عيدها الربيعي صام عبادها، وصلوا، وحزنوا الموت أتيس؛ وجرح كهنتها سواعدهم، وشربوا دماءهم، وحمل الإله الشاب إلى مئواه باحتفال مهيب. فإذا كان اليوم الثاني ضجت الشوارع بأصوات الفرحة الصادرة من الأهليين المحتفلين ببعث أتيس وعودة الحياة إلى الأرض من جديد، وعلا صوت الكهنة ينادي أولئك العباد: "قوا قلوبكم أيها العباد المتصوفون، لقد نجا الإله، وستكون النجاة حظكم جميعاً"(85). وفي آخر يوم من أيام الاحتفال تحمل صورة الأم العظمى في موكب للنصر، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير تحيها وتناديها في روما باسم "أنا"(86) (Nostra Domina).

وكانت إيزيس الإلهة المصرية، والأم الحزينة، والمواسية المحبة، وحاملة هبة الحياة الخالدة، كانت هذه الإلهة تلقى من التكريم أكر مما تلقاه سيبيل؛ وكانت كل شعوب البحر الأبيض المتوسط تعرف كيف مات زوجها العظيم، وكيف قام بعدئذ من بين الموتى؛ وكان يُحتفل بهذا البعث السعيد في كل مدينة كبيرة قائمة على شواطئ هذا البحر التاريخي أروع احتفال وأفخمه؛ وكان عباده المبتهجون ينادون: "لقد وجدنا أوزريس من جديد"(87). وكانوا يرمزون

صفحة رقم : 3851

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> التيار الشرقي الجارف

إلى أيزيس بصور وتمائيل تحمل بين ذراعيها حورس ابنها الإلهي، ويسمونها في الأوراد والأوعية "ملكة السماء"، و "نجم البحر"، و "أم الإله" (88). وكانت هذه الطقوس أقرب العبادات الوثنية إلى المسيحية، لما انطوت عليه قصة الإلهة من الحنو والرأفة، وما اختصت به طقوسها من الرقة، وما كان يسود هياكلها من جو مرح خالٍ من العنف، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة، وما يقوم به كهنتها حليقو الرؤوس ذوو الثياب البيض من أعمال البر والخير (89)، وما كانت نتيجته هذه الإلهة لهؤلاء الكهنة من فرص لمواساة النساء وإدخال السرور على قلوبهنّ، ولترحيبها الشامل بالناس جميعاً على اختلاف أممهم وطبقاتهم. وانتشر دين إيزيس من مصر إلى بلاد اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد، ثم انتشر إلى صقلية في القرن الثالث، وإلى إيطاليا في القرن الثاني، ثم انتشر بعدئذ في جميع أجزاء الإمبراطورية. وقد عُثر على صورها المقدسة على ضفاف نهرى الدانوب والسين، وكُشف عن آثار معبد لها في لندن (90).

وقصارى القول أن شعوب البحر الأبيض المتوسط لم تنقطع قط عن عبادة لم للنساء من قوة مقدسة خلقة، وما يتصفن به من رعاية للأمم.

وكانت عبادة مثراس Mithras الإله الذكر تنتقل في هذه الأثناء من فارس إلى أقصى تخوم الإمبراطورية الرومانية؛ وكان مثراس هذا في المراحل المتأخرة من الدين الزرادشتي ابن أهورا- مزدا إله النور، وكان هو أيضاً إلهاً للنور، والحق، والطهر، والشرف؛ وكان يُقال أحياناً إنه هو الشمس، وأنه يفود الحرب العالمية ضد قوى الظلمة، وأنه يشفع على الدوام لأتباعه عند أبيه، ويحميهم، ويُشجعهم في كفاحهم الدائم للشر والكذب، والدنس، وغيرها من أعمال أهرمان أمير الظلام. ولما أن نقل جنود بمبي هذا الدين من

صفحة رقم : 3852

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> التيار الشرقي الجارف

كبدوكيا إلى أوربا صورَ فناني يوناني مثراس راعياً على ظهر ثور يطعنه في خنجر في عنقه، وأضحت هذه الصورة هي الرمز الرسمي لذلك الدين. وكان اليوم السابع من كل أسبوع يوماً مقدساً لإله الشمس، وكان أتباعه يحتفلون في الأيام الأخيرة من ديسمبر بمولد مثراس "الشمس التي لا تُغلب" والإله الذي نال نصره السنوي على قوى الظلمة في يوم الانقلاب الشتوي، والذي بدأ من ذلك اليوم يفيض على العالم ضياءً يزداد يوماً بعد يوم (91). ويحدثنا تيرتليان Tertullian عن كهنة مثراسيين على رأسهم "حبر أكبر"، وعن عزاب و عذارى في خدمة الإله؛ وكانت القرابين تقرب إليه على مذبحه في كل يوم، كما كان عباده يشتركون في تناول طعام مقدس من الخبز والنبيد؛ وكانت الإشارة التي يختتم بها عيده هي دقات ناقوس (92). وكان يُحتفظ على الدوام بنار مقددة أما القبو الذي يمثل فيه الإله الشاب يطعن الثور بخنجره. وكان الدين المثراسي يحض على الخلق الكريم، ويطلب إلى "جنوده" ألا ينقطعوا طول حياتهم عن محاربة الشر في جميع أنواعه. ويقول كهنته أن الناس كلهم سيحشرون لا محالة أمام مثراس ليحكم بينهم، ثم تسلّم الأرواح الدنسة إلى أهرمان لتعذب على يديه عذاباً أبدياً، أما الأرواح الطاهرة فترتفع خلال طباق سبعة حتى تصل إلى بهاء السماء حيث يستقبلها أهورا- مزدا نفسه (93). وانتشرت هذه الأساطير التي تبعث في نفس أصحابها الأمل والقوة في القرنين الثاني والثالث من التاريخ الميلادي في غربي آسيا، وانتقلت منه إلى أوربا (متخطية بلاد اليونان)، وشادت معابدها متجهة نحو الشمال حتى وصلت إلى سور هدریان. وروغ الأباة المسيحيين ما وجدوه من أوجه الشبه بين دينهم وبين المثراسية، وقالوا إن الثانية قد سرقت هذه العبادات عن المسيحية، أو أنها في المثراسية حيل مضللة احتال بها عليهم الشيطان (صورة من أهرمان). وليس من

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> التيار الشرقي الجارف

السهل أن تعرف أي الدينين أخذ عن الآخر، ولعل الاثنين قد تسربت إليهما أفكار كانت وقتئذٍ منتشرة في جو بلاد الشرق.

وكان في كلا الدينين العظيمين اللذين يسودان إقليم البحر الأبيض المتوسط "طقوس خفية" تتخذ عادة صورة احتفالات تطهير، وتضحية، وتثبيت، ووحى، تدور كلها حول موت الإله وبعثه. وكان الأعضاء الجدد يدخلون في دين سبيل بوضعهم عراة في حفرة يُذبح فوقها ثور، فيسقط دم الحيوان الذبيح على الطالب الجديد ويظهره من خطاياهم ويهبه حياة روحية جديدة خالدة إلى أبد الدهر. وكانت أعضاء التذكير في الثور، وهي التي تمثل الخصوبة المقدسة، توضع في إناء خاص، وتُهدى إلى الإلهة (94). وكان في المثراسية طقس شبيه بهذا يعرفه العالم اليوناني والروماني القديم باسم الثوربليوم Taurobolium أو رمى الثور. ويصف أبوليوس في عبارات جزلة رائعة المراحل التي يمر خلالها خادم إيزيس - فترة الصوم المبدئية الطويلة، والورع والتقتشف، والتطهير بالانغماس في الماء المقدس، ثم تظهر له في آخر الأمر الرؤيا الصوفية للإلهة لتهبه النعيم الأبدي. ويلتزم الطالب في إلبوس أن يعترف بخطاياهم (وقد كان هذا مما أخاف نيرون وأفقدته شجاعته)، وأن يصوم بعض الوقت عن أنواع خاصة من الأطعمة، ويستحم في الخليج ليتطهر من الدنس الجسدي والروحي، ثم يقرب قربان، وهو في العادة خنزير. وفي عيد دمتر كان الطلاب المبتدئون يندبون معها اختطاف ابنتها إلى الجحيم، ويختصرون في أثناء حزنهم هذا على تناول الكهك المقدس، وخليط رمزي من الدقيق والماء والنعناع. وفي الليلة الثالثة تعرض مسرحية دينية تمثل بعث برسفوني، ويعد الكاهن الذي يقوم بالخدمة الدينية كل من تطهرت روحه بأن يبعث كبرسفوني بعثاً جديداً (95). وقد صورت الطائفة الأرفية، متأثرة بالأراء الهندوكية أو الفيثاغورية، موضوع هذه الطقوس في جميع الأراضي اليونانية، فقالت ان الروح تحبس في طائفة متسلسلة من الأجساد المذنبه، وإن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> التيار الشرقي الجارف

في مقدورها أن تتطلق من هذا التجسد الثاني المشين بأن تسمو حتى تتحد اتحاداً هيامياً بديونيشس. وكان الإخوان الأرفيون في اجتماعهم يشربون دم ثور يضخون به للمنقذ الميت الذي يكفر عن خطاياهم ويوحدون بينه وبين هذا المنقذ. وكان الاشرار الجماعي في تناول الطعام والشراب المقدسين من المظاهر الكثيرة الحدوث في أديان البحر الأبيض المتوسط، وكثيراً ما كان أهل هذه الأديان يعتقدون أن هذا الطعام ستحل فيه بهذا التقديس قوى الإله، ثم تنتقل منه بطريقة سحرية خفية إلى المشتركين في تناوله (96).

وكانت الشيع الدينية كلها تؤمن بالسحر، فقد نشر المجوس فنه في أنحاء الشرق وسموا الشعوذة القديمة باسم جديد؛ وكان عالم البحر الأبيض المتوسط غنياً بمن فيه من السحرة، وصانعي المعجزات، والمتنبئين، والمنجمين،

و الزهاد القديسين، ومفسري الأحلام العلميين. وكانت كل حادثة غير عادية تُتخذ نذيراً إلهياً بما سيقع من الحوادث في المستقبل، وأصبح لفظ أسكسيس Askesis، الذي كان معناه عند اليونان تدريب الجسم تدريباً رياضياً، يقصد به وقتنذ إخضاع الجسم لسلطان الروح؛ فكان الناس يضربون أنفسهم بالسياط، ويبترون أعضاءهم، ويجيعون أنفسهم، أو يقيدون أجسامهم بالسلاسل في كل مكان. ومنهم من كانوا يموتون نتيجة لهذا التعذيب أو الحرمان (97) الذاتي. ولجأ جماعة من اليهود وغير اليهود رجالاً ونساء إلى الصحراء المصرية القريبة من بحيرة مريوط. يعيشون فيها منفردين في صوامع وبيع، ويحرمون على أنفسهم جميع العلاقات الجنسية، ويجتمعون في يوم السبت للصلاة الجامعة ويسمون أنفسهم معالجي النفوس (98Therapeutae). وقال الملايين من الناس إن الكتابات المعزوة إلى أرفيوس، وهرمس، وفيثاغورس، والعرفات ومن إليهم قد أملاها أو أوحى بها إله من الآلهة. وكان الوعاظ الذين يدعون أن الوحي قد هبط عليهم من السماء يجوبون الأقطار منتقلين من مدينة إلى مدينة،

صفحة رقم : 3855

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> التيار الشرقي الجارف

يعالجون الناس بما يبدو في نظرهم أنه من المعجزات. من ذلك أن الاسكندر الأيونوتيكي Alexander of Abonoteictus قد درّب أفعى على أن تخفي رأسها تحت ذراعه، وتقبل أن يثبت في ذيلها قناع شبيه بوجه الإنسان، ثم أعلن أن الأفعى هي الإله أسكليبيوس، وأن هذا الإله قد جاء إلى الأرض لينبئ الناس بما سوف يقع في المستقبل، وقد استطاع أن يجمع ثروة طائلة بتفسير الأصوات الحادثة من الأعشاب التي يضعها في رأسها المستعار (99). وأكبر الظن أنه كان إلى جانب هؤلاء المشعوذين آلاف من المبشرين المخلصين المؤمنين بالعقائد الوثنية. وقد صور فيلوسترانس في أوائل القرن الثالث صورة مثالية لأحد هؤلاء المبشرين في كتابه حياة أبولونيوس التيانائي of Tyana؛ فوصفه بأنه حين بلغ السادسة عشرة من عمره قيد نفسه بقيود الأخوان الفيثاغوريين الصارمة، فحرم على نفسه الزواج، وأكل اللحم، وشرب الخمر، ولم يخلق لحبته قط، وامتنع عن الكلام خمس سنين كاملة (100)، ووزع المال الذي تركه ولده والده على أقاربه، وأخذ يطوف، كما يطوف الرهبان المعدمون، في فارس ومصر، وغربي آسية، وبلاد اليونان، وإيطاليا؛ وأتقن علوم المجوس، والبراهمة، والزهاد المصريين. وكان يزور هياكل الأديان على اختلافها، ويدعو كهنتها إلى الامتناع عن التضحية بالحيوان، ويعبد الشمس؛ ويؤمن بجميع الآلهة، ويعلم الناس أن من ورائها كلها إله واحد أعلى لا يحيط به العقل، وكانت حياة التقى وإنكار الذات التي فرضها على نفسه مما جعل أتباعه يدعون أنه ابن إله، أما هو فلم يكن يصف نفسه بأكثر من أنه ابن أبولونيوس. وتعزو إليه الروايات المتواترة كثيراً من المعجزات: فقد كان الناس يقولون إنه من خلال الأبواب المغلقة، ويفهم جميع اللغات، ويطرد الشياطين، وإنه رفع بنتاً من بين الأموات (101). لكنه في واقع الأمر فيلسوفاً أكثر منه ساحراً،

صفحة رقم : 3856

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> التيار الشرقي الجارف

يعرف الأدب اليوناني ويحبه، ويدعو إلى مبادئ أخلاقية بسيطة ولكنها صارمة. وكان يتوسل إلى الآلهة بقوله: "علميني ألا يكون لي إلا القليل وألا أرغب في شيء" ولما سأله أحد الملوك أن يختار لنفسه هدية يهديها إليه أجابه بقوله: "الفاكهة اليابسة والخبز" (102). وكان يبشر بتجسد الروح بعد مفارقتها الجسد، ولهذا أمر أتباعه ألا يؤذوا مخلوقاً حياً، وأن يمتنعوا عن أكل اللحم؛ وحضهم على تجنب العدا، واغتياب الناس، والغيرة، والكراهية؛ ومن أقواله لهم: "إذا كنا فلاسفة، فلن نستطيع أن نكره بني جنسنا" (103). ويقول فيلوسترانس إنه "كان في بعض الأحيان يناقش المبادئ الشيعية ويعلم الناس أن من واجبهم أن يعين بعضهم بعضاً". ولما أتهم بأنه يثير نفع الفتنة، ويعلم الناس السحر، جاء طائفاً إلى روما ليبرئ نفسه أمام دومتيان من هاتين التهمتين، فسُجن، ولكنه فر من سجنه. ومات حوالي سنة 98م. بعد أن عمّر طويلاً. وادعى أتباعه أنه ظهر لهم بعد موته وأنه رفع بعدئذ إلى السماء (105). ترى ما هي الصفات التي جعلت نصف روما ونصف الإمبراطورية ينضويان تحت ألوية هذه الأديان الجديدة؟ من هذه الصفات ما تنطوي عليه هذه الأديان من عدم التفرقة بين الأجناس والطبقات؛ فقد كانت تقبل بين أتباعها خلانق من جميع الأمم، وجميع الأحرار، وجميع الأرقاء، ولا تلقى بالاً إلى ما بين الناس من فروق في الأنساب أو الثراء، وكان هذا من أسباب السلوى لهؤلاء الأتباع. وقد بُنيت هياكلها بحيث تتسع لكل من يؤمها من الخلائق العباد ولإله المعبود. وكانت سيبيل وإيزيس إلهتين أمين تاكلتين ذاقتا مرارة الحزن كما ذاقته ملايين الأمهات الثاكلات، وكان في مقدورهما أن تدركا ما لا تستطيع أن تدركه الآلهة الرومانية. ألا وهو فراغ قلوب المغلوبين. إن الرغبة في العودة إلى أحضان الأم أقوى من غريزة الاعتماد على الأب، واسم الأم هو الذي يخرج

صفحة رقم : 3857

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> اليقظة الهلنستية -> التيار الشرقي الجارف

من تلقاء نفسه إلى الشفتين إذا ما صادف الإنسان سرور عظيم أو حلت به كارثة أليمة. ومن أجل هذا كان الناس رجالهم ونسأؤهم على السواء يجدون لهم سلوى وملجأ في إيزيس وسيبيل، بل إن العابد التقى في بلاد البحر الأبيض المتوسط في هذه الأيام يلجأ إلى مريم أكثر مما يلجأ إلى الأب أو الابن، وإن الصلاة المحببة التي يرددتها أكثر من سائر الصلوات هي الصلاة التي لا يوجهها إلى العذراء بل إلى الأم التي بورك فيها بمن ولدته من بطنها. ولم تكن قوة الأديان الجديدة مقصورة على أنها أعمق أثراً في قلوب الناس بل كان من أسباب قوتها فوق ذلك أنها أعظم أثراً في خيال الناس وحواسهم لما فيها من مواكب، وترانيم، تنتقل من الحزن إلى السرور، وما تحتويه من طقوس ذات رموز تنطبع في الخيال وتبعث الشجاعة من جديد في النفوس التي أثقلتها الحياة الرتيبة المملة. ولم تكن مناصب الكهانة الجديدة يملؤها ساسة يرتدون الثياب الكهنوتية من حين إلى حين، بل كان يشغلها رجال ونساء من كافة الطبقات، يتدرجون فيها من المبتدئ المتقشف الزاهد إلى الخادم الديني الذي لا ينقطع عن مواساة الناس. وكان في مقدور الروح التي تترك ما ارتكبه من ذنوب أن تتطهر منها، وكان يستطيع في الأحيان شفاء الجسم الذي أنهكته العلة، بكلمة أو طقس موج؛ وكانت المراسم السرية الخفية التي يمارسونها ترمز إلى ما يتردد في صدور الناس من رجاء في أن يتغلبوا على كل شيء حتى الموت نفسه.

لقد سما الناس في وقت من الأوقات بما كانوا يتوقعون له من عظمة وخلود، فجعلوا مرتبطين بمجد الأسرة والقبيلة والإبقاء عليهما، ثم انتقلوا بهما إلى مجد الدولة التي كانت من صنعهم والتي هي نفوسهم مجتمعة. أما في الوقت الذي نتحدث فكانت الحدود الفاصلة بين القبائل تذوب في حركة السلم الجديد، ولم تكن الدولة الإمبراطورية تعبر إلا عن الطبقات العليا السائدة، ولم تكن تمثل جماهير الشعب التي لا حول لها ولا طول. وكان على رأس الدولة ملكية مطلقة تحول بين المواطن وبين اندماجه فيها واشترائه في أعمالها، وكانت تخلق بعملها هذا الفردية في أسفلها وتشيعها بين

الدهماء من السكان، وكان ما في الأديان الشرقية وما في المسيحية، التي أخذت منها خلاصتها ثم امتصتها وقضت عليها من وعد بالخلود الشخصي، وبالسعادة الدائمة بعد حياة المذلة، والفاقة، والمحن، والكدر، كان هذا كله إغراء لا تستطيع الدهماء مقاومته، ولاح أن العالم كله أخذ ياتمر ليمهد السبيل إلى المسيح.

صفحة رقم : 3858

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> بارثيا

الباب الخامس والعشرون

رومة واليهودية

132 ق.م - 135 م

الفصل الأول

بارثيا

بين بحر بنّس وجبال القوقاز تقوم جبال أرمينية ذات القلل الشعناء التي رست عليها سفينة نوح، كما تقول قصة الطوفان، وفي أوديتها الخفية كانت تمتد الطرق التي تصل بارثيا وأرض الجزيرة بالبحر الأسود، ومن أجل هذا كانت الإمبراطوريات تتنافس على امتلاك أرمينية. وكان سكانها من الجنس الهندوربي يمتون بصلة القربى للحثيين والفريجيين، ولكنهم ظلوا محتقطين بأنفهم الأناضولي. وكانوا في الأيام الماضية شعباً قوياً صبوراً على أعمال الزراعة، يحذق الصناعات اليدوية، ولا يجابهه شعب آخر في براعته التجارية، استغلوا أرضهم الضئيلة أحسن استغلال، وأنتجوا من الثروة ما يكفي لأن يعيش ملوكهم عيشة الترف، وإن لم يكسبهم الكثير من القوة والسلطان. وقد ذكر دارا الأول في نقش بهستوم (521 ق.م) اسم أرمينية بين الولايات التابعة لبلاد الفرس، وكانت فيما بعد تابعة تبعية

اسمية لدولة السلوقيين ثم تداولتها أيدي بارثيا ورومة مراراً عدة، ولكنها استطاعت لبعدها أن تحتفظ باستقلالها الفعلي. وكان أشهر ملوكها ترجرانس الأكبر (94-65 ق.م) الذي فتح كبدوكيا وأضاف إلى أرتكساتا Artaxata عاصمة ثانية هي ترجانوسترا Triganocetra،

صفحة رقم : 3859

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> بارثيا

وانضم إلى مترداتس في ثورته على رومة؛ ولما أن قبل بمبي عذره، أهدى إلى القائد المنتصر 600 وزنة (21.600.000 ريال أمريكي)، و10.000 درخمة (6000 ريال أمريكي) لكل قائد مائة، وخمسين درخمة لكل جندي في الجيش الروماني. واعترفت أرمينية بسيادة رومة في عهد قيصر وأغسطس ونيرون وأصبحت في فترة من الزمان في عهد تراجان ولاية رومانية. لكن ثقافتها كانت رغم هذا ثقافة إيرانية، وكانت ميولها في العادة نحو بارثيا. وكان الباثيون قد ظلوا عدة قرون يحتلون الإقليم الواقع جنوب بحر الخزر بوصفهم رعايا الملوك الأكيميانيين ثم الملوك السلوقيين. وكان هؤلاء الباثيون من العنصر السكودي-التوراني أي أنهم من جنس الشعوب الضاربة في الجنوب الشرقي من روسيا وفي بلاد التركستان. وفي عام 248 ق.م خرج زعيم سكودي يدعى أرساسيس على حكم السلوقيين، وجعل بارثيا دولة مستقلة ذات سيادة، وأنشأ فيها أسرة أرساسية مالكة. ولما ضعف الملوك السلوقيون على أثر هزيمة رومة لأنتيخوس الثالث (189 ق.م) عجزوا عن حماية بلادهم من البارثيين الهمج المتهورين، فلم يكذبختنم القرن الثاني قبل الميلاد حتى كانت أرض الجزيرة وفارس بأكملها قد ضمت إلى الإمبراطورية البارثية الجديدة. وكان للملوك البارثيين الجدد ثلاث عواصم يقيمون فيها في فصول السنة المختلفة: هكتومبيلس Hecatompylus في بارثيا، وإكبتانا (محل همدان) في نديا، وطشقونة Ctesiphon على المجرى الأدنى لنهر دجلة. وعلى الضفة الأخرى للنهر المقابل لطشقونة كانت تقوم العاصمة السلوقية القديمة وهي مدينة سلوقيا التي ظلت عدة قرون مدينة يونانية في مملكة بارثية: وقد احتفظ الحكام الأرساسيون بالنظام الإداري الذي أقامه السلوقيون، ولكنهم غشوه بنظام إقطاعي أخذوه عن الملوك الأكيميانيين. وكانت جمهرة الشعب تتألف من أفنان الأرض والرقيق؛ وكانت الصناعة متأخرة وإن كان صاهرو الحديد الباثيون قد استطاعوا أن يخرجوا منه نوعاً جيداً،

صفحة رقم : 3860

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> بارثيا

وكانت "صناعة عصر الخمر تدر أرباحاً طائلة" (2). وكان جزء من ثروة البلاد يأتي عن التجارة التي تُنقل في الأنهار الكبرى، ويُنقل بعضها في طرق القوافل التي تجتاز بارثيا في طريقها بين أقاصي آسيا وبلاد الغرب. واشتبكت روما مع بارثيا في حرب بعد حرب من سنة 53 ق.م حين هزم الباثيون كراسس Crassus في كاري

Carrhae إلى سنة 217م حين ابتاع مكربنس Macrinus الصلح من أرتبانس Artabanus، بغية السيطرة على هذه الطرق وعلى البحر الأحمر.

وكان البارثيون أعنى أو أفقر من أن يهتموا بالأدب؛ فقد كان الأشراف، يفضلون فن الحياة على حياة الفن كشأنهم في كل العصور؛ وكان أقتان الأرض أميين لا يعرفون للأداب معنى، وكان الصنّاع منهمكين في عملهم لا يجدون متسعاً من الوقت للاهتمام بالأدب، وكان التجار مشغولين بتجارتهن عن إنتاج فن عظيم أو كتب قيمة. وكان الأهلون يتكلمون اللغة الفهلوية، ويكتبون بالأرامية على الجلود، وكانت الأرامية قد حلت وفتتذ محل الكتابة المسمارية. ولم تبق لنا الأيام سطرأ واحداً من الآداب البارثية، لكننا نعلم أن المسرحيات اليونانية كانت تُمثل في طشقونة كما كانت تُمثل في سلوقيا، وذلك لأن رأس كراسس قد ظهر في أحد أدوار الباحثين ليورديز. أما الصور والتماثيل التي كُشفت في تدمر، ودور - أوربس، وأشور فكانت في أكبر الظن من صنع الفنانين الإيرانيين؛ وكان امتزاج الطرازين اليوناني والشرقي ذلك الامتزاج الساذج ذا أثر في فن العصور التي تلت ذلك العصر في جميع بلاد آسية من الصين إلى القسطنطينية.

وقد بقي لنا نقش واضح يُمثل رامياً بالسهم على ظهر جواد، ويوحى بأنه لو بقي لنا من فن البارثيين أكثر مما عثرنا عليه منه لكان تقديرنا لهذا الفن أعلى من تقديرنا الحالي(3). وقد شاد أمير إقطاعي عربي من أتباع ملك بارثيا قصرأ من حجر الجير في حترا Hatra القريبة من الموصل (88 ق.م) يحتوي على سبعة أبهاء ذات عقود وقباب، وشاده على طراز قوي ولكنه همجي. غير أن

صفحة رقم : 3861

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> بارثيا

أعمالاً فنية بارثية من طراز حسن قد بقيت لنا في الأدوات الفضية وفي الحلبي.

ولكن البارثيين نبغوا في الفن المحبب إلى فن الإنسان - ونعني به زينة الأجسام. لقد كان رجالهم ونساؤهم على السواء يعقصون شعورهم، وكان الرجال يطيلون لحاهم المجددة وشواربهم المتهذلة، ويرتدي الواحد منهم قميصاً وسروالاً منتقخاً يعلوهما في العادة ثوب متعدد الألوان. وأما النساء فكان يرتدين أثواباً مطرزةً تطريزاً دقيقاً جميلاً، ويزين شعرهن بالأزهار. وكان أحرار البارثيين يسلون أنفسهم بالصيد، ويكثرون من الطعام والشراب، ولا يمشون على أقدامهم إذا استطاعوا الركون. وكانوا محاربين شجعاناً، وأعداء شرفاء، يحسنون معاملة الأسرى، ويقبلون الأجانب في المناصب الكبرى، ويحمون اللاجئين، غير أنهم كانوا في بعض الأحيان يبتزون أعضاء المدني من الأعداء، ويُعذبون الشهود، ويُعاقبوا على الذنوب الصغيرة بضرب السياط. وكان من عادتهم تعدد الزوجات إذا أمكنتهم مواردهم من ذلك التعدد، وكانت نساؤهم محجبات معزولات عن الرجال، وكانوا يعاقبون نساءهم على الخيانة الزوجية بأقصى العقوبات، ولكنهم يبيحون الطلاق للرجال والنساء على السواء لا يكادون يقيمون في سبيله عقبة ما(3) ولما أن زحف سرينا Surena القائد البارثي بجيشه على كراسس اصطحب معه مائتي حظية وألف بعير محملة بلوازمه(4). والصورة التي تتطبع في أذهاننا عن البارثيين في جملتهم هي أنهم كانوا أقل حضارة من الفرس الأكيمنيين، وأشرف وأكرم أخلاقاً من الرومان. فقد كانوا متسامحين مع من يخالفونهم في الدين، يُجيزون لليونان واليهود، والمسيحيين المقيمين بين ظهرانيهم أن يقيموا شعائر دينهم دون أن يتدخلوا في شؤونهم. أما هم أنفسهم فقد انحرفوا بعض الانحراف عن الزرادشتية الصحيحة، فكانوا يعبدون الشمس والقمر، ويُفضلون مثراس عن أهورا - مزدا فكانوا من هذه الناحية كثيري الشبه بالمسيحيين

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> بارثيا

إذ يُفضلون المسيح على يهوه. وقد كان لكهنة المجوس يد في القضاء على الأسرة الأرساسية لأنهم لم يلقوا من ملوكها المتأخرين ما كانوا يتطلعون إليه من الرعاية. ولما توفي ملكهم فلوجاسس الرابع (209م) تنازع ولدها فلوجاسس الخامس وأرتبانس الرابع على عرش المملكة. وانتصر أرتبانس في هذا النزاع ثم هزم الرومان في نزيب Nisibis. ودامت الحرب بين الإمبراطوريتين ثلاثين قرناً ثم انتهت بانتصار البارثيين نصراً غير حاسم لأن سهول أرض الجزيرة كانت توائم خيالة البارثيين أكثر مما توائم فيالق الرومان. ثم تورط أرتبانس بعدئذ في حرب داخلية لقي فيها حتفه وأعلن أرتحشتر الشريف الإقطاعي في بلاد الفرس والذي غلبه على أمره ملك الملوك (127م) وأسس الأسرة الساسانية. وعاد الدين الزرادشتي إلى سابق عهده، وبدأ في بلاد الفرس عهد من أعظم العهود التي مرت بها في تاريخها الطويل.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الهسمونيون

الفصل الثاني

الهسمونيون

انتهز سيمون مكابي في عام 143 ق.م فرصة النزاع القائم بين البارثيين، والسلوقيين، والمصريين، والرومان، فانتزع استقلال بلاد اليهود من أيدي الملوك السلوقيين. واختارته جمعية وطنية قائداً وكاهناً أعلى للدولة اليهودية الثانية (142 ق.م - 70م)، وجعلت ثاني المنصبين وراثياً في أسرته الهسمونية، وصارت بلاد اليهود مرة أخرى دولة دينية تحكمها هذه الأسرة الكهنة- الملوك، ذلك أن من أخص خصائص المجتمعات السامية ارتباط السلطتين الروحية والزمنية في الأسرة وفي الدولة لأنها تأبى أن يكون لها سيد إلا الله وحده. وأدرك الهسمونيون ضعف مملكتهم الصغيرة ففوضوا جيلين كاملين يوسعون حدودها بالدبلوماسية تارة وبالقوة تارة أخرى، فلم يحل عام 78 ق.م حتى كانوا قد ضموا إليهم السامرة رادون، ومواب، والجليل، وإدوميا، وما وراء نهر الأردن، وجدارا، وبلا، وجراسا، ورافيا (رفح)، وغزة، ووسعوا حدود فلسطين إلى ما كانت عليه في عهد سليمان. وفرض خلفاء هؤلاء المكابيين الوسائل الذين قاتلوا دفاعاً عن حريتهم الدينية الدين اليهودي والختان على رعاياهم

الجدد بحد السيف(5). وقد الهسمونيون في الوقت نفسه غيرتهم الدينية، واستسلموا شيئاً فشيئاً لما كان في العناصر التي ضموا إلى بلادهم من نزعة هلنستية رغم احتجاج الفريسيين الشديد. غير أن الملكة شالوم اسكندرة

صفحة رقم : 3864

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الهسمونيون

(78- 69 ق.م) عكست هذا الاتجاه، وعقدت الصلح مع الفريسيين، لكن ولداها هركانس الثاني، وأرستبولس الثاني أخذاً يتنازعان العرش قبل موتها، وعرضت الطائفتان أمرهما على بمبي، وكان وقتئذ واقفاً على رأس فيالقه المنتصرة في دمشق (63 ق.م)، فلما انتصر بمبي لهركانس تحصن أرستبولس وجيشه في بيت المقدس، فحاصر بمبي تلك العاصمة، واستولى على أجزائها السفلى؛ ولكن أتباع أرستبولس إحتموا بأقنية الهيكل المسورة، وظلوا يقاومون بمبي ثلاثة أشهر. ويقول المؤرخون إن نقواهم أعانت بمبي على هزيمتهم، فقد شاهد أنهم لا يحاربون في يوم سبتهم، فأمر رجاله بأن يُعدوا في كل سبت الربا والكباش الهدامة التي سيستخدمها في اليوم التالي، ولم يكونوا يلقون مقاومة من اليهود في ذلك الاستعداد، بل كان الكهنة يقضون يومهم في الهيكل يبتهلون ويُقربون القرابين كعادتهم في كل الأوقات. فلما أن تهدمت الأسوار ذبح من اليهود اثني عشر ألفاً، ولم يقاوم منهم إلا عدد قليل، ولم ينجُ منهم أحد، وقفز الكثيرون من فوق الأسوار فلاقوا حتفهم(6). وأمر بمبي رجاله بالألمسوا ما في الهيكل من كنوز، ولكنه فرض على الأمة اليهودية غرامة قدرها عشرة آلاف وزنة (3.600.000 ريال أمريكي)، ونقلت المُدن التي كان الهسمونيون قد فتحوها من حكم اليهود إلى حكم الرومان، ونصب سركانس الثاني حاكماً أعظم، وحاكماً بالاسم على بلاد اليهود ولكنه كان في حراسة أنتباتر الإيدوميني الذي أعان روما في هذه الحرب. وهكذا قضى على المملكة المستقلة وأصبحت بلاد اليهود جزءاً من ولاية سوريا الرومانية. وبينما كان كراسس في طريقه إلى طشقونة في عام 54 ق.م- وهي الحملة التي قُطع فيها رأسه وجيء به ليمثل في بلاط ملك البارثيين دور بنيتوس في مسرحية الباخبين- نهب ما أبقى عليه بمبي من كنوز الهيكل، وكان يبلغ مقدارها عشرة آلاف وزنة. ولما أن جاء البشير بأن كراسس هُزم وقُتل

صفحة رقم : 3865

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الهسمونيون

اغتم اليهود هذه الفرصة ليستعيدوا حريتهم، ولكن لنجيس الذي عُين والياً على سوريا بعد كراسس أخدم الثورة وباع ثلاثين ألفاً من اليهود في أسواق الرقيق (43 ق.م)(7). ومات أنتباتر في تلك السنة، وزحف البارثيون على بلاد اليهود مخترفين الصحراء وعينوا أنتجونس آخر الهسمونيين ملكاً على البلاد يَأتمر بأمرهم ويخضع لمشيئتهم، وقابل أنطونيوس وأكتافيان هذا العمل بتعيين هيرود بن أنتباتر ملكاً على بلاد اليهود وأعانوا جيشه اليهودي بالأموال

الرومانية. فطرد هيرود البارثيين من البلاد وحمل أورشليم من السلب والنهب، وأرسل أنتجونس إلى أنطونيوس ليعدمه، وذبح جميع زعماء اليهود الذين عاونوا الملك السوري، وتهيأت له بذلك أسباب حكم يُعد من أكثر العهود إشراقاً في التاريخ (37-4 ق.م).

صفحة رقم : 3866

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> هيرود الأكبر

الفصل الثالث

هيرود الأكبر

كانت أخلاقه مثالاً من أخلاق عصره الذي أنجب كثيراً من الرجال الذين كانوا أنكباء لا أخلاق لهم، قادرين لا ضمير لهم، شجعاناً مجردين من الشرف. لقد كان صورة مصغرة من أغسطس في بلاد اليهود: فعل فيها ما فعله أغسطس في روما فاستبدل بفوضى الحرية نظاماً دكتاتورياً، وجمل عاصمته بالمباني والتماثيل اليونانية الطراز، ووسّع رقعة مملكته، ونشر فيها الرخاء، والكسبة بالخنل والسياسة أكثر مما كسبه من قوة السلاح، وتزوج كثيراً من النساء، وقضت عليه خيانة أبنائه، واستمتع بكل ما يتيح له الحظ المواتي عدا السعادة. ويصفه يوسفوس بأنه رجل قوي البأس، عظيم المهارة، بارع في رمي السهام والحراب، صياد عظيم، اقتنص في يوم واحد أربعين وحشاً. وكان "مُحارباً لا يستطيع إنسان أن يقف في وجهه" (8). وما من شك في أنه أضاف إلى هذه الصفات شخصية جذابة، فقد كان في وسعه على الدوام أن يتغلب بقوة الحجة أو بكثرة الرشأ على أعدائه الذين حاولوا أن يشوا به عند أنطونيوس أو كليوباترة، أو أكتافيان. وقد خرج من كل الأزمات التي حدثت بينه وبين الحكومة الثلاثية في روما وهو أقوى سلطاناً وأوسع مُلكاً مما كان، وسرعان ما اقتنع أغسطس بأن له "روحاً أعظم من أن تسعها أملاكه الصغيرة"، فأعاد إلى مملكته مدائن فلسطين الهسmonية، وتمنى لو أن هيرود قد حكم سوريا ومصر بالإضافة إلى أملاكه (9). ولقد كان "الإديومي Idumean" رجلاً كريماً خلا قلبه من الرحمة، أفاد على رعاياه من النعم ما لا يعادله إلا ما أصابهم به من الأذى.

ولقد كان من العوامل التي شكلت أخلاقه، ما كان يُضمره له الذين غلبهم

صفحة رقم : 3867

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> هيرود الأكبر

على أمرهم أو قتل أهلهم من بغض شديد، وما يكتفه له الشعب الممتعض من طغيانه والمشمز من أصله الأجنبي من عداً واحتقار. وقد ارتفع إلى العرش بمساعدة روما وأمورها، وبقي إلى آخر عمره صديقاً وخاضعاً للسلطة التي كان الشعب يأتي بالليل وبالنهـار ليخلع عنه نيرها ويسترد حريته منها. وقد ثقل عبء الضرائب التي فرضها على بلاده ذات الموارد الاقتصادية الضئيلة ليستمتع بها بلاطه المترف ويحقق بها منهاجـه الضخم في البناء الذي لا تطيقه الثروة القومية. وما لبث هذا العبء الثقيل أن قصم ظهرها واستنزف جميع مواردها. وحاول هيرود أن يهدئ ثائرة شعبه بمختلف الوسائل، لكن جهوده كلها لم تجده نفعاً. من ذلك أنه نزل عن المتأخر من الضرائب عن السنين الماضية، وأقنع روما بأن تخفض مقدار الجزية المفروضة على بلاده، وحصل لليهود على مزايا في البلاد الأجنبية، وأنقذ البلاد إنقاذاً عاجلاً من القحط وغيره من الكوارث، وحافظ على الأمن والنظام في الداخل وسلامة البلاد من الأعداء من الخارج، ونمى موارد البلاد الطبيعية. وفي عهده قضى على اللصوص وقطاع الطرق، ونشطت التجارة ودب دبيب الحياة في الأسواق والتغور. لكن الملك في الوقت نفسه أثار غضب الشعب بفساد أخلاقه، وقسوته في العقاب، وموت أرستوبولس حفيد هركانس الثاني والوارث الشرعي لعرش البلاد غريقاً "مصادفة" في الحمام. وأخذ الكهنة الذين قضى على سلطتهم، والذين عين هو رؤساءهم، يأترون به، وحدّ عليه الفريسيون لما بدا من أنه يعتزم صبغ بلاد اليهود بالصبيغة اليونانية.

ذلك أن هيرود كان يحكم كثيراً من المدن التي كانت يونانية أكثر منها يهودية في سكانها وثقافتها؛ وقد تأثر بما تمتاز به الحضارة الهلنسية من رقة وتنوع؛ هذا إلى أنه لم يكن يهودياً في أصله أو مؤمناً بهذا الدين عن عقيدة؛ وقد دعا هذا كله بطبيعة الحال إلى العمل على توحيد ثقافة مملكته، وخلع مظاهر الروعة والجلال على حكمه بتشجيع أساليب الحياة والملابس، والأفكار،

صفحة رقم : 3868

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> هيرود الأكبر

والآداب، والفنون اليونانية. وقد أحاط نفسه بالعلماء اليونان، وعهد إليهم الإشراف على الشؤون العليا في الدولة، وعين نقولاس الدمشقي، وهو رجل يوناني، مستشاره ومؤرخه الرسمي. وقد أنشأ في أورشليم داراً فخمة للتمثيل ومدرجاً زينهما بتمائيل لأغسطس وغيره من الوثنيين، وأنفق في ذلك أموالاً طائلة، وأدخل في بلاده الألعاب الرياضية والمباريات الموسيقية اليونانية، وصراع المجتدين الروماني (10)، وجمل أورشليم بمبان أخرى على طراز معماري بدا للشعب أنه طراز أجنبي، وأقام في الأماكن العامة تماثيل يونانية أثار دهشة اليهود وغضبهم بعربها كما أثار غضبهم عربي المصارعين في الألعاب الرياضية. وقد شاد لنفسه قصرأ أقامه بلا ريب على الطراز اليوناني وملاء بالذهب والرخام والأثاث الفخم الثمين، وأحاطه بحدائق واسعة محتدياً في ذلك حذو أصدقائه الرومان. وقد صدم مشاعر الشعب بقوله إن الهيكل الذي شاده زرب بابل منذ خمسة قرون كان ضيقاً، وإنه يعتزم أن يهدمه ويقوم في مكانه هيكلأ أوسع منه. ولم يبال باحتجاج الأهلين ومخاوفهم، وحقق رغبته بأن أقام المعبد الفخم الذي دمّر تيتس فيما بعد.

وقد سوى على جبل موريا أرضاً تقرب مساحتها من سبعمئة وخمسين قدماً مربعة، وأقام على أطرافها أروقة ذات سقف من خشب الأرز "ذات نقوش عجيبة" تعتمد على صفوف متعددة من العمّد الكورنثية، كل عمود من كتلة واحدة من الحجر تبلغ من الضخامة حدأ يصعب منعه على ثلاثة رجال أن يطوقوها بأذرعمهم. وكان في هذا اليهود الرئيسي

مظلات للصرافين، الذين يُبدلون نقود الأجنبي بالنقود التي تُقبل في الهيكل. وكان فيها أيضاً المرابط التي يستطيع الإنسان أن يشتري منها ما يريد أن يقربه من الحيوانات، والغرف أو الأروقة التي يجتمع فيها الطلاب لتعلم اللغة العبرية والشريعة، والمتسولون الصاخبون الذين لا مفر من وجودهم في كل مكان. ومن هذا "الهيكل الخارجي" يصعد بمجموعة من الدرج إلى فضاء داخلي مسور يحرم على غير اليهود أن يدخلوه. وكان

صفحة رقم : 3869

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> هيرود الأكبر

في هذا الفضاء "بهو النساء" يأوى إليه الطاهرون من الرجال مع نسائهم(11). ومن هذا الحرم الثاني يصعد العابد على مجموعة أخرى من الدرج ويمر خلال أبواب مصقحة بالفضة والذهب إلى "بهو الكهنة" حيث يقوم في الهواء الطلق المذبح الذي تُقرب فيه المُحرقات إلى يهوه. وتلي هذه درج أخرى يمر الصاعد فوقها خلال أبواب من البرنز يبلغ ارتفاعها خمساً وسبعين قدماً واتساعها وأربعاً وعشرين، تعلوها كرمة ذهبية ذات زائفة الصيت، وتؤدي إلى بناء الهيكل الرئيسي الذي لا تفتح أبوابه إلا للكهنة وحدهم. وقد شُيّد هذا البناء كله من الرخام الأبيض على هيئة طباق تتدرج في الصغر كلما علت، وشفحة واجهته بالذهب، وقسم داخله قسمين يفصلهما ستار مزركش يمتد في عرض فراغه، فيه من الألوان الأزرق والأرجواني والقرمزي. وأمام هذا الستار كانت المائدة الذهبية ذات الفروع السبعة، ومذبح البخور والمائدة وعليها "خيز التقدمة" غير المختمر الذي يقدمه الكهنة ليهوه ومن خلف الستار قدس الأقداس. وكان الهيكل القديم يحتوي على مبخرة ذهبية وعلى تابوت العهد، ولكن هذا التابوت لم يكن يحتوي على "شيء قط" كما يقول يوسفوس. ولم تكن قدم الإنسان تطأ هذا المكان إلا مرة واحدة في العام وذلك في اليوم الكفارة حين يدخله الكاهن الأكبر وحده. وقد استغرق بناء الأجزاء الرئيسية من هذا الصرح التاريخي ثمانية أعوام. أما أعمال نقشه وتزيينه فقد ظلت قائمة ثمانين عاماً، ولم تتم إلا قبيل مجيء فيالق تيتس(12). وكان الناس يفخرون بهذا الهيكل العظيم الذي كان يعد من عجائب العالم عهد أغسطس، وكادوا لعظمته وبهائه يتجاوزون عن وجود عمده الكورنثية القائمة عند أبوابه، وعن النسر الذهبي الذي يتحدى عقيدة اليهود

صفحة رقم : 3870

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> هيرود الأكبر

في تحريم الصور المنحوتة، والذي كان يرمز عند مدخل الهيكل لروما عدوة اليهودية وسيدتها. وكاد اليهود العائدون إلى مدائن فلسطين ينقلون أنباء العمائر اليونانية الخالصة التي كان هيرود يحدد بها تلك المدائن، وكيف ينفق أموال الأمة والذهب (كما تقول الشائعات) الذي كان مخبوءاً في قبر داود(13) في إنشاء مرفأ عظيم عند قيصرية، وفي إهدائه بسخاء للمدن الأجنبية أمثال دمشق، وببلوس، وبيروت، وصور، وصيدا، وإنطاكية، ورودس، وبرجموم،

وإسبارطة، وأثينة. واتضح لهم أن هيرود يريده أن يكون معبود العالم اليوناني لا ملك فحسب، ولكن اليهود كانوا يعيشون بدينهم، وبإيمانهم بأن يهوه سينقذهم من الرق والظلم في يوم من الأيام؛ ومن أجل هذا كان انتصار الروح الهلنية على الروح العبرانية في شخص حاكمهم نذيراً لهم بكارثة مدلهمة لا تقل عما حل بهم من الاضطهاد على يد أنتيخس. ولذلك أخذوا يحيكون المؤامرات لقتل هيرود، وكشف هو هذه المؤامرات وقبض على المشتركين فيها وعذبهم وقتلهم، ولم يكتفِ بقتلهم وحدهم بل قتل أسرهم كلها في بعض الأحيان (14). وأطلق عيونهم بين الشعب وتخفى ليتجسس بنفسه على رعاياه، وكان يعاقبهم على كل كلمة تشتم منها رائحة العداة له (15). واستطاع أن يرد كيد أعدائه في نحوهم عدا كيد أزواجه وأبنائه. وكان له من الأزواج عشرة اجتمعت منهن تسع في وقت واحد، أما الأبناء فكان له منهم أربعون. وكانت مريمى Mariamne زوجته الثانية حفيدة هركانس الثاني وأخت أرسنبولس اللذين قتلها هيرود. ويصفها يوسفوس بأنها امرأة عفيفة، ولكنها فظة بعض الفظاظة بغريزتها، تعامل زوجها بخطرسة وكبرياء لأنها رائته مغرماً بها غراماً يخضعه لها كأنه ملكٌ يمينها... وكانت فضلاً عن فظاظتها تشهر بأمه وأخته علناً، لأنهما من أصلٍ حقير. وتستطيل في عرضهما إلى حد "امتلات معه القلوب" في بيت الملك "بغضاً وحقداً". واستطاعت أخت

صفحة رقم : 3871

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> هيرود الأكبر

هيرود أن تقنعه بأن مريمى تأمر به لتدس له السم، فوجه هذه التهمة لزوجته أمام أعضاء المحكمة، فحكموا عليها بالإعدام ونُفذ فيها الحكم. غير أن هيرود كان يرتاب في جريمتها، فجنّ جنونه في فرط الندم فترة من الزمان، وأخذ يردد اسمها جهره، ويرسل خدمها ليستدعوها، واعتزل المناصب العامة، وأوى إلى الصحراء "يعذب فيها نفسه أشد العذاب" حتى جيء به إلى قصره محموراً شارداً العقل. واشتركت أم مريمى مع جماعة آخرين في مؤامرة ترمي إلى خلعة، ولكنه استرد قواه العقلية وعرشه فجاءة، وأعدم المتآمرين. وبعد قليل من ذلك الوقت قدم له أنتباتر ابنه من زوجته الأولى أدلة تثبت وجود مؤامرة دبرها ولداه من مريمى الاسكندر وأرسنبولس، فعرض الأمر على مجلس مؤلف من مائة وخمسين رجلاً حكموا على الشابين بالإعدام (6 ق.م). ولم يمض على ذلك عامان حتى اتهم نيقولاوس الدشقي أنتباتر نفسه بأنه يتآمر على انتزاع العرش من أبيه. وأمر هيرود بابنه فجيء به إليه. "وأخذ بيكي ويذكر ما لقيه من النكبات على يد أبنائه" (16) وطاف بقلبه طائف الرحمة ساعة من الزمان أمر فيها بسجن ولده. وكانت قوى الملك الشيخ في هذه الأثناء تنهار بأثير الحزن والمرض؛ فقد أصيب بداء الاستسقاء؛ والقروح، والحمى، والتنسج، والنفس الكريه الرائحة. وحاول أن يقتل نفسه بعد أن أحبط من المؤامرات لاغتياه، ولكنه منع تنفيذ قصده. ولما سمع أن أنتباتر يحاول إرشاء حراسه ليطلقوا سراحه أمر هيرود بقتله، ولم تمض على ذلك إلا خمسة أيام حتى مات هيرود نفسه (33 ق.م) في التاسعة والستين من عمره مكروهاً من جميع شعبه. ويقول أعدائه عنه إنه "تسلل إلى العرش تسلل الثعلب، وحكم حكم النمر، ومات ميتة الكلب".

صفحة رقم : 3872

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الشريعة وأنبيائها

الفصل الرابع

الشريعة وأنبيائها

أوصى هيرود قبل وفاته أن تقسم مملكته بين أبنائه الثلاثة الباقين أحياء. فحكم فيليب الإقليم الشرقي المعروف باسم بنتانيا Bantanea، الذي يحتوي على مدائن بيت سيده، وكتولياس، وجراسا، وفلدلفية، وبصرى. وحكم هيرود أنتيباس بيريا Perea (الأرض الواقعة وراء نهر الأردن)، والجليل في الشمال حيث توجد أزدريلا، وطبرية، والناصرية. وكان نصيب أركلوس سمريتس، وغيدوميا، ويهوذا. وكان في هذا القسم الأخير كثير من المدن والبلدان الشهيرة أمثال بيت لحم، وحبرون، وبير سبع، وغزة، ودارا، وإموس، ويمنيا، ويافا، وقيصرية، وأريحة، وأورشليم. وكانت بعض المدن الفلسطينية تغلب عليها الصبغة اليونانية، وبعضها تغلب عليه الصبغة السورية، وبدل وجود الخنازير في جدارا على وجود غير اليهود فيها. وكان الوثنيون هم الكثرة الغالبة في المدن الساحلية ما عدا يافا، ويمنيا في "المدن العشر" القائمة على شاطئ نهر الأردن، أما في الداخل فيكاد السكان أن يكونوا كلهم من اليهود. وكان هذا الانقسام العنصري، غير المحبب إلى روما، مأساة فلسطين. وإذا أردنا أن نفهم سبب اشمزاز اليهود الصالحين من شرك المجتمع الوثني وما كان يسوده من فساد خلقي فعلى أن نرجع إلى زمن المتطهرين المترمّنين في إنكلترا. لقد كان الدين عند اليهود مصدر شريعتهم، ودولتهم، وأمالهم؛ وكانوا يظنون إنهم إذا رضوا أن يذوب هذا الدين في نهر الهلنية الجارف كان هذا بمثابة انتحار لقوميتهم؛ ومن ثم نشأت تلك البغضاء بين اليهود وغير اليهود حتى جعلت تلك الأمة الصغيرة تقضي حياتها كلها في نزاع عصري واضطراب سياسي،

صفحة رقم : 3873

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الشريعة وأنبيائها

وحروب منقطعة، تخبو نارها كلها تارة ثم تعود فتلتهب من جديد. يُضاف إلى هذا أن يهود يهوذا كانوا يحتقرون أهل الجليل ويصفونهم بالمروق من الدين، بينما كان أهل الجليل يحتقرون أهل يهوذا ويصفونهم بأنهم أرقاء وقعوا في شرك أهل الشريعة. هذا إلى ما كان هناك من نزاع لا ينقطع بين أهل يهوذا والسامريين لأن هؤلاء يدعون أن يهوه لم يختر صهيون موطناً له بل اختار موطنه نل جرزين الواقع في بلادهم، وإلى رفضهم جميع أسفار الكتاب المقدس ما عدا أسفار موسى الخمسة (15). وكان الذي يجمع بين هذه الأحزاب كلها هو كراهيتها لسيطرة الرومان، التي كانت تتقاضى من البلاد ثمناً باهظاً نظير ميزة السلم غير المحببة إليهم. وكان يسكن فلسطين وقتئذ نحو مليونين ونصف مليون من الأنفس يقيم منهم في أورشليم وحدها نحو مائة ألف (19). وكان معظمهم يتكلمون اللغة الآرامية وكان كهنتهم وعلماهم يفهمون العبرية؛ أما الموظفون والأجانب ومعظم

المؤلفين فكانوا يستعملون اللغة اليونانية. وكان معظم السكان يشتغلون بالزراعة، يحرثون الأرض ويسقون الزرع، ويعنون بالحدائق والكروم، ويرعون الضأن. وكانت فلسطين في حياة المسيح تنتج من القمح ما يكفي أهلها وتبقى منه فضلة تصدر منها إلى الخارج (20). وكان بلحها، وتينها، وعنبها، وزيتونها، ونبذها، وزيتها غالبية الثمن يبتاعها الناس في جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط؛ وكان أهلها لا يزالون يعملون بالأمر القديم الذي يحثهم أن يتركوا الأرض بوراً في السنة السبئية. وكانت الصناعات اليدوية وراثية في أغلب الأحيان، وكان الصناع ينتظمون عادة في طوائف. وكان اليهود يعظمون العامل وكان معظم العلماء يعملون بأيديهم كما يعملون بألسنتهم. وكان الأرقاء أقل عدداً منهم في أي بلد آخر من بلدان البحر الأبيض المتوسط. وازدهرت التجارة الصغرى في البلاد، ولكن عدد التجار اليهود ذوي الثراء والتجارة الواسعة كان لا يزال قليلاً فيها.

صفحة رقم : 3874

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الشريعة وأنبيائها

وفي ذلك يقول يوسفوس: "لسنا أمة تجارية؛ فنحن نعيش في بلد (بلاد اليهود الشرقية) عديم السواحل، ولا نميل إلى الاشتغال بالتجارة (الخارجية)" (22). وظلت الأعمال المالية ضيقة النطاق حتى ألغى هلال Hillel القانون الوارد في سفر تثنية الإشتراع (الاصحاح الخامس عشر 1-11) والذي يطلب فيه إلغاء الديون مرة كل سبع سنين، وكان الهيكل نفسه مصرفهم القومي. وكان في داخل الهيكل بهو الجازيث، ملتحق السنهدين أو المجلس الأعظم المكون من كبراء إسرائيل. وأكبر الظن أن هذا المجلس قد نشأ في أثناء حكم السلوقيين (حوالي عام 200 ق.م) ليحل محل المجلس الأول الوارد ذكره في سفر العدد (الآية السادسة عشرة من الاصحاح الحادي عشر) والذي يسدى فيه النصح لموسى. وكان الحاخام الأعظم هو الذي يختار في بداية الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت، ثم أصبح من حقه في عهد الرومان أن يختار أعضاؤه لعضويته عدداً متزايداً من الفريسيين، وعدداً قليلاً من فقهاء الشريعة الموسوية المحترفين (23). وكان أعضاؤه البالغ عددهم واحداً وسبعين عضواً يُدعون أنهم أصحاب السلطة العليا على جميع اليهود أياً كان موطنهم، وكان اليهود المستمسكون بدينهم في كل مكان على الأرض يعترفون لهم بهذه السلطة؛ أما الهسمونيين؛ وهيرود، وروما فلم يكونوا يعترفون لهم إلا بسلطانهم على من يخرج على الشريعة اليهودية من يهود بلادهم الأصلية، فقد كان في وسعهم أن يحكموا بالإعدام على من فيها من اليهود إذا ارتكبوا جريمة دينية، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون تنفيذ الحكم إلا إذا وافقت عليه السلطة المدنية (24). وكان في الجمعية حزبان يتنازعان السيطرة عليها، كما يتنازعان السيطرة على معظم الجمعيات الأخرى، أحدهما حزب المحافظين الذين يتزعمهم كبار الكهنة والصدوقيون، والذين سموا بهذا الاسم نسبة إلى صدوق مؤسس هذه الطائفة

صفحة رقم : 3875

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الشريعة وأنبياءها

وكان أعضاؤه وطنيين في مبادئهم السياسية، مستمسكين بدينهم، ينادون بفرض التوراة أو الشريعة المكتوبة على الأمة اليهودية، ولكنهم كانوا يرفضون ما عدا هذا من العقائد أمثال الأحاديث والقصص الشفوية التي يتناقلها رجال الدين، والتفاسير الطليقة التي يقول بها الفريسيون. وكانوا يرتابون في خلود الروح، ويقنعون بامتلاك طبيبات هذا العالم.

وكان الصدوقيون هم الذين سموا الفريسيين بهذا الاسم (البروشم أي الانفصاليين)، ويقصدون بهذه التسمية أنهم قد فصلوا أنفسهم (كما انفصل البراهمة الصالحون) عن الذين تندسوا بإهمال ما تقرضه عليهم طقوس التطهير (25) وكانوا هم حلفاء الكسديم أو نساك العصر المكابي الذين كانوا ينادون بوجود التزام قواعد الشريعة الموسوية إلى أبعد الحدود. وقد عرفهم يوسفوس، وهو منهم، بأنهم "شبيعة من اليهود يجهرن بأنهم أكثر استمساكاً بالدين من سائر أبناء ملتهم، وبأنهم أدق من غيرهم في تفسير شرائعهم" (26). ولكي يصلوا إلى ما يبيغونه من هذا التفسير الدقيق أضافوا إلى أسفار موسى الخمسة المكتوبة الأحاديث والروايات الشفوية المشتملة على التفسيرات والأحكام التي وردت على السنة معلمي الشريعة المعترف بهم. ويرى الفريسيون أن هذه التفاسير ضرورية لإزالة ما في قوانين موسى من غموض، ولبيان طريقة تطبيقها على الحالات الفردية، ولتعديل حرفيتها في بعض الأحيان حسب ضروريات الحياة وظروفها الدائمة المتغيرة.

وقد جمع هؤلاء الناس بين الصرامة واللين، فكانوا يخففون من صرامة الشريعة في بعض المواضع كما فعلوا في أوامر هلال الخاصة بالربا، ولكنهم كانوا يحتمون على الناس أن يتقيدوا بالروايات الشفوية كما يتقيدون بالتوراة المنزلة نفسها. ذلك أنهم كانوا يحسون بأن لا نجاة لليهود من انقراضهم وامتصاص الشعوب الأخرى لهم إلا بإطاعة هذه الأوامر المطورة والمتواترة. وإذ كان

صفحة رقم : 3876

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الشريعة وأنبياءها

الفريسيون قد ارتضوا أن يخضعوا لسلطان الرومان فقد كانوا يطلبون السلوى فيما يأملونه من الخلود الجماني والروحي. وكانوا يحيون حياة بسيطة، يبتعدون فيها عن الترف وينددون به، ويكثرن من الصوم، ويعنون بالاعتسال، ويتباهون من حين إلى حين باستمسكهم بالفضيلة مباحاة تضايق السامعين. ولكنهم كانوا يمثلون قوة اليهود الأخلاقية، وقد نالوا تأييد الطبقات الوسطى، وغرسوا في نفوس أتباعهم إيماناً وأحكاماً أنقذتهم من الانحلال والتضعف حين ألمت بهم المصائب. ولما أن خرب الهيكل (70م) فقد الكهنة نفوذهم، وأصبح الفريسيون عن طريق الأحرار هم المعلمين والرعاة لذلك الشعب الذي تشتت في بقاع الأرض ولكنه لم تحق به الهزيمة. وكانت أكثر شيع اليهود تطرفاً شيعة الإسينية التي أخذت تقواها عن الكسديمية، وأكبر الظن أن اسمها مشتق من اللفظ الكلدي أسشاي Aschai (المستحم)، وأن أعضائها أخذوا عقائدهم وعباداتهم من نظريات الزهاد ونظمهم التي كانت منتشرة في العالم في القرن الأول قبل المسيح. ولعلمهم قد تأثروا أيضاً بأراء البراهمة، والبوذيين، والمجوس عبدة النار، والفيثاغوريين، والكلبيين، وهي جاءت إلى أورشليم ملتقى الطرق التجارية في غرب آسيا. وكان عددهم في فلسطين يبلغ أربعة آلاف، وقد نظموا أنفسهم في هيئة مستقلة عن غيرها، وكانوا يستمسكون أشد الاستمساك بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ويعيشون معاً عيشة العزّاب الزاهدين، يزرعون الأرض في واحة إنجادي Engadi وسط الصحراء الواقعة غرب الميت. وكانوا يسكنون منازل تمتلكها الجماعة التي ينتسبون إليها، ويطعمون مجتمعين وهم

صامتون، وينتخبون زعماءهم بالاقتراع العام؛ ويخلطون متاعهم ومكاسبهم في بيت مال مشترك، ويعملون بالشعار: "مالي ومالك ملك لك" (27). ويقول يوسفوس إن حياة الكثيرين منهم كانت تطول أكثر من مائة عام،

صفحة رقم : 3877

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الشريعة وأنبيائها

بفضل طعامهم البسيط، وحياتهم المنتظمة (28). وكان الرجل يلبس ثياباً من نسيج التيل الأبيض، ويحمل معه فأساً صغيرة ليغطي بها فضلاته، ويغتسل بعدها كما يغتسل البراهمة، ويرى أن التبرّز في يوم السبت من أعظم الكبائر (29). وكانت قلة منهم تتزوج وتعيش في المُدن العامرة، ولكنهم كانوا يسرون على القاعدة التي وضعها تولستوي وهي أنهم لا يضاجعون أزواجهم إلا بقصد إنجاب الأطفال. وكان أعضاء هذه الشيعة يبتعدون عن جميع الملذات الجسمية، ويسعون إلى الاتصال الصوفي بالله عن طريق التأمل والصلاة. وكانوا يأملون أن ينالوا بتقوى الله وبصيامهم واستغراقهم في التأمل والتفكير علم الغيب وقوة السحر. وكانوا كمعظم معاصريهم يؤمنون بالملانكة، والشياطين، ويعتقدون أن المرض ناشئ من تسلط الأرواح الخبيثة على الأدميين، فكانوا لذلك يحاولون طرد هذه الأرواح بالتعاون السحرية. ومن "عقيدتهم السرية" جاءت بعض "أجزاء القبلة". وكانوا ينتظرون نزول المسيح لينشئ على الأرض مملكة شيعية سماوية (ملسوس شمايم) يتمتع الناس كلهم فيها بالمساواة، ولا يدخلها إلا من كانت حياته تقية طاهرة (31). وكانوا شديدي التمسّ في الدعوة إلى السلام، يأبون أن يصنعوا شيئاً من أدوات الحرب؛ غير أنهم انضموا إلى غيرهم من الشيع اليهودية في الدفاع عن مدينتهم وهيكلها حين هاجمت فيالق نيّس بيت المقدس وهيكل، وظلوا يقاتلون حتى لم يكد يبقى منهم أحد. وإذا ما قرأنا وصف يوسفوس لعاداتهم وآلامهم وجدنا أننا قد دخلنا في جو المسيحية:

"ومع أنهم قد عُذّبوا، وحُرّقوا، وقُطعت أجسامهم، ولاقوا جميع ألوان العذاب لكي يُرغموا على التجديف في حق صاحب شريعتهم، أو أكل ما نهوا عن أكله، فإنهم أبوا أن يفعلوا هذا أو ذلك؛ أو أن

صفحة رقم : 3878

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الشريعة وأنبيائها

يتملقوا معذبهم، أو تتحدر من أعينهم دمعة واحدة، بل إنهم كانوا يتبسّمون وسط آلامهم المبرحة، ويضحكون ساخرين ممن يعذبونهم، ويجودون بأرواحهم وهم مبتهجون، كأنهم يتوقعون أن تعود لهم هذه الأرواح مرة أخرى" (32).

أولئك هم الصدوقيون، الفريسيون، والإسنيون، أشهر الشيع الدينية اليهودية في الجيل السابق لميلاد المسيح. أما الحكمون (Scribes) الذين يضمهم يسوع إلى الفريسيين في كثير من الأحيان فلم يكونوا شيعة من شيع اليهود بل كانوا أبناء مهنة خاصة؛ كانوا علماء متفقيين في الشريعة، يحاضرون فيها في البيع، ويعلمونها في المدارس، ويناقشونها في المجتمعات العامة والخاصة، ويطبّقونها على الأحكام في القضايا المختلفة. وكان عدد قليل منهم أبحاراً، وبعضهم صدوقيين، وكثرتهم فريسيين. وكانوا في القرنين السابقين لهلّل كما كان الأبحار من بعده. كانوا هم فقهاء القانون في بلاد اليهود، وقد صارت فتاواهم القانونية، التي صفاها الزمان، وتداولتها الألسن، وانتقلت بالسمع من المعلم إلى التلميذ، صارت هذه الفتاوى جزءاً من الأحاديث الشفوية التي كان يعظّمها الفريسيون كما يعظّمون الشريعة المكتوبة، وبفضل ما كان لهم من نفوذ وسلطان نمت شرائع موسى حتى ضمت آلافاً من التعاليم المفصلة التي تواجه كل ظروف الحياة وأحوالها.

وأقدم شخصية واضحة معروفة بين معلمي القانون من غير رجال الدين هي شخصية هلال، وحتى هذه الشخصية الواضحة تكاد تخفي معالمها في ذلك النسيج الواهي من الخرافات التي حاكها حول اسمه الخلف المفتن به. ويقول مؤرخوه انه ولد في مدينة بابل (75 ق.م) من أسرة كريمة معروفة أحنى عليها الدهر. ثم جاء إلى أورشليم بعد أن اكتملت رجولته، وأخذ يعول زوجته وأبناءه بالعمل اليدوي. وكان يؤدي نصف أجره اليومي ثمناً لقبوله في المدرسة التي كان فيها أستاذان شهيران هما شمايا وأبتوليم يشرحان الشريعة. وعجز يوماً من الأيام

صفحة رقم : 3879

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الشريعة وأنبيائها

عن أداء هذا الأجر، فلم يُسمح له بالدخول، فتسلق العتبة السفلى لإحدى النوافذ "لكي يستمع إلى ألفاظ الإله الحي". وتقول القصة إن جسمه تجمّد من شدة البرد، فسقط فوق الثلج، وعثر عليه في صباح اليوم الثاني وهو بين الحياة والموت(33). وصار هو فيما بعد حراً محترماً، اشتهر بتواضعه، وجلده، ودمائه أخلاقه. وتقول إحدى القصص إن بعض الناس راهن على أن يُغضب هلال وإنه خسر الرهان(34). وقد وضع ثلاث قواعد ليهتدي بها الناس في حياتهم: حُب الناس، وحُب السلم، وحُب الشريعة ومعرفتها. وسأله رجل يريد أن يهتدي أن يفسر الشريعة فيما لا يزيد من الزمن على الوقت الذي يستطيع أن يقف فيه على قدم واحدة، فأجابته بقوله: "لا تفعل مع غيرك ما تكرهه لنفسك". وكان هذا القول صورة سلبية حذرة من تلك القاعدة الذهبية التي صاغها اللاويون في صيغتها الموجبة من زمن بعيد. ومن تعاليم هلال الأخرى قوله: "لا تحكّم على جارك حتى تكون أنت في مكانه"(37). وقد حاول أن يهدئ ثائرة الشيع المتنازعة بوضعه سبع قواعد لتفسير الشريعة. وكانت تفسيراته هي نفسها قائمة على الحرية والتسامح، وأهم ما فيها أنه يسرّ إقراض المال، والحصول على الطلاق. وكان هو نفسه ناشراً للسلام مصلحاً. وكان من نصائحه للشبان الثائرين في عصره: "لا تخرجوا على الجماعة". وقد قبل هيرود على أنه شرّاً لأبد منه، وعين في عهده رئيساً للسندرين (30 ق.م) وأحبّته الأغلبية الفريسية حباً أبّاه رئيساً للمجلس الكبير إلى

صفحة رقم : 3880

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الشريعة وأنبيائها

يوم وفاته (10م). ثم جعل هذا المنصب من بعده وراثياً في أسرته مدى أربعمئة عام تعظيماً لذكراه. وخصّ المجلس مكان الشرف الثاني فيه لمنافس هلال، وهو الحبر شمائي المحافظ. وكان يفسّر الشريعة تفسيراً أدق وأضيق من تفسير هلال، ولا يجيز الطلاق، ويُطالب بتطبيق التوراة تطبيقاً حرفياً، لا يراعي فيه تغيير الظروف. وكان انقسام المعلمين اليهود إلى محافظين وأحرار قائماً قبل هلال بمائة عام وظل قائماً حتى خرب الهيكل.

صفحة رقم : 3881

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الأمل الأكبر

الفصل الخامس

الأمل الأكبر

تكاد الأداب اليهودية التي وصلت إلينا من ذلك العصر تكون كلها آداباً دينية. ذلك أنه قد بدا لليهودي المتمسك بدينه أن من الخطأ أن يكتب في الفلسفة أو الأدب إلا إذا كان الغرض النهائي من هذه الكتابة أن يحمّد الله ويُمجّد الشريعة؛ كما كان يبدو له أن صنع التماثيل للإله إثم كبير وأن تزيين الهياكل بالفنون التشكيلية امتهان لها وانتهاك لحرمتها. ولا حاجة إلى القول بأن هناك بعض حالات استثنائية من هذا التحريم قد تكون قصة سوزانة الطريفة مثلاً لها. وخالصة هذه القصة أن كبيرين تنقصهما المعرفة التامة اتهمها زوراً فتاة يهودية جميلة بسوء السيرة، وأنها برئت بفضل براعة شاب يدعى دانيال في مناقشة الشهود، وقد وجدت هذه القصة طريقها إلى بعض طبعات سفر دانيال. وقد يكون سفر يشوع بن سيراخ الذي نسميه سفر الحكمة مما كتب في ذلك العهد المتأخر، وهو واحد من أسفار كثيرة تسمى الأبوكريفا - أي "الخفية" أو غير الموثوق بها والتي لا يعترف اليهود بها ضمن أسفار العهد القديم المنزلة. وهي ملأى بالجمال والحكمة، ومن أجل هذا فهي غير جديرة بأن تُطرد من صحبة سفر الشريعة وسفر أيوب. ونجد في إصحاحاتها الأربعة والعشرين ما نجده في الإصحاح الثامن من سفر الأمثال عن عقيدة الكلمة المجسّدة: "الرب قناني أول طريقة من قبل أعماله منذ القدم: منذ الأزل مسحت، منذ البدء منذ أوائل الأرض". وبين عامي 130 ق.م، 40م نشر يهودي إسكندري - أو عدد من اليهود الهلنستيين - سفر أمثال سليمان، وهو سفر يحاول، كما حاول فيلو، أن يوفق بين اليهودية والأفلاطونية، ويهيب باليهود الذين ينادون بالاندماج في الثقافة اليونانية

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الأمل الأكبر

أن يعودوا إلى الشريعة، كل هذا في نثر لا يقل في جزئته وقوته عن أي نثر آخر منذ عهد اشعيا. وأقل من هذا السفر قوة وجزالة سفر مزامير سليمان (حوالي 50 ق.م)، ويكثر فيه التنبؤ بظهور منقذ لإسرائيل. ويسري هذا الأمل في النجاة من روما ومن العذاب الدنيوي على يد منقذ إلهي في كل ما كتب في هذا العصر من أدب يهودي إلا القليل النادر منه واتخذ الكثير منه صورة رؤى تهدف إلى إيضاح الماضي والتسامح فيه بعرضه على صورة إعداد لمستقبل مجيد يظهره الله على لسان رسول من عنده. وكان كتاب دانيال الذي كتب في عام 165 ق.م ليشجع إسرائيل على الوقوف في وجه أنتيخس إيفانيس، لا يزال ذاتاً بين اليهود الذين لم يكونوا يعتقدون أن يهوه سيتركهم طويلاً تحت سيطرة الوثنيين. واتخذ كتاب أخنوخ، وهو في أكبر الظن من عمل عدة مؤلفين بين عامي 170، 66 ق.م صورة رؤى نزلت على الأب الأكبر الذي "سار مع الرب" في سفر التكوين (الآية 24 من الإصحاح الخامس) ويقصّ هذا السفر سقوط الشيطان ومن معه، وما أدى إليه ذلك من حلول الشر والألم في حياة البشر، ثم نجاة بني الإنسان على يد المسيح، وحلول مملكة السماء. وحوالي عام 150 ق.م شرع كاتب يهودي بنشر نبوءات سيبيلية صوراً فيها نبوءات تنتصر لليهودية على الوثنية، وتتنبأ بفوز اليهود النهائي على أعدائهم. والراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربي آسية من بلاد فارس أو بابل (38). فالتاريخ كله والحياة كلها قد صوراً في الديانة الزرادشتية في صورة صراع بين قوى النور المقدسة وقوى الظلمة الشيطانية؛ ثم يأتي في آخر الأمر منقذ - شؤسيانث أو مثراس - ليحكم بين الناس ويقدم حكم العدالة والسلام الدائمين. وكان يبدو للكثيرين من اليهود أن حكم روما جزء من انتصار الشر القصير الأجل، ولهذا كانوا ينددون بما في حضارة "الكفار" من شرارة، وغدر، ووحشية، ووثنية، وما في العالم الأبيقوري من "كفر بالله" وعبادة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الأمل الأكبر

الشهوات. وقد جاء في سفر الحكمة أن المنافقين قالوا في أنفسهم مفكرين إفتكاراً غير مستقيم: "إن عمرنا هو يسير ومحزن، ووفاة الإنسان ليس شفاء، ولم يعرف قط المحلول من الجحيم، لأننا ولدنا من لا شيء، وبعد هذه نكون كأننا لم نكن لأن النسمة دخان في أنوفنا، والنطق شرارة في تحريك قلوبنا، وإذا أطفأت يصير الجسم رماداً والروح ينسكب كالهواء المبيثوث. واسمنا سينسى في الزمان، ولا يذكر أحد أعمالنا، وبزول عمرنا كزوال أثر الغمام، ويضمحل كالضباب الذي بدده شعاع الشمس وتنقله حرارتها، لأن عمرنا ظل عابر وليس لأجلنا إبطاء لأنه أمر محتوم ولن يرده أحد. فهلمّ إذا نتمتع بالخيرات الموجودة، ونستعمل الملذات في البرية ما دام زمان الشبوية، فتمثلن من الخمر الفائقة والطيب، ولا يفوتنا نسيم زهر الربيع. نتكلل بفقاح الورد قبل ذبوله، ولا يكون مرج إلا يجوز عليه تتعمنا" (39). ويقول صاحب هذا السفر إن ثلاثة من الأبيقوريين يدلون بحجج باطلة. وإنهم يربطون عربتهم بنجم ساقط لأن اللذة شيء باطل زائل:

"لأن رجاء المنافق كغبار تحمله الرياح، وكرغوة رقيقة تقدها الزوبعة، وكدخان ينحل في الرياح، وكذكر ضيف مكث يوماً واحداً وإرتحل. أما الصدوقيون فيحبون إلى الدهر، وعند الرب ثوابهم، وعند العلى اهتمامهم. فلماذا يتقلدون مملكة البهاء وتاج الكمال من يد الرب" (40).
وسيقضى على هذا الشر والإثم - كما تقول أسفار الرؤيا- إما بتدخل الله نفسه، أو بإرساله إلى الأرض ابنه أو ممثله المسيح . أولم يُنبئ به النبي إشعيا

صفحة رقم : 3884

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الأمل الأكبر

قبل ذلك العهد بمائة عام إذ يقول: "لأنه يولد لنا ولد وتُعطى ابناً وتكون الرياسة على كتفه، ويُدعى اسمه عجيباً مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام" (41).
وكان كثيرون من اليهود يتفقون مع إشعيا (11 : 1) فيما وُصف به المسيح بأنه ملك دنيوي يولد من بيت داود الملكي؛ ومنهم من يسمونه بإسم ابن الإنسان كأخنوخ ودانيال، وصوروه بأنه سينزل من السماء. أما الفيلسوف صاحب سفر الأمثال والشاعر صاحب حكمة سليمان (42) فلعلهما قد تأثرا بأفكار أفلاطون أو بروح الأرض التي يقول بها الرواقيون فتصوروه الحكمة مجسدة التي هي أول شيء "قناها الرب"، وهي الكلمة أو العقل (Logos) التي لن تلبث أن يكون لها شأن عظيم في فلسفة أفلاطون، ويكاد مؤلفو سفر الرؤيا كلهم يجمعون على أن المسيح سينتصر انتصاراً سريعاً، ولكن إشعيا تصوره في فقرة من أروع فقراته بأنه: محتقرٌ ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومختبر الحزن... لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها... وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا... وبجبره شفيناً... والرب وضع عليه إثم جميعنا... من الضغطة ومن الدينونة أخذ وفي جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء... وهو حملَ خطيئة كثيرين وشفع في المذنبين" (43).
بيد أنهم جميعاً متفقون على أن المسيح سيخضع الكفار في آخر الأمر، ويحرر إسرائيل (44) ويتخذ أورشليم عاصمة له، ويضم إليه الناس جميعاً ليؤمنوا بيهوه والشريعة الموسوية (45). ويسود بعد ذلك "عصر طيب" تسعد به الدنيا بأجمعها فتكون الأرض كلها خصبة، وتحمل كل حبة قدر ما كانت تحمله ألف مرة، ويصير الخمر موفوراً، ويزول الفقر، ويصبح الناس كلهم أصحاء، مستمسكين بالفضيلة، وتسود العدالة والصدقة والسلام في الأرض (46). وكان بعض الناس يظنون أن هذا العهد الصالح ستخلله عهود غير صالحة

صفحة رقم : 3885

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الأمل الأكبر

وأن قوى الظلمة والشر ستبذل جهدها الأخير للهجوم على هذه المملكة السعيدة، وأن العالم سيحترق في الفوضى واللهب؛ وسيقوم الموتى في "يوم الدينونة الأخير" ليحاسبوا أمام "قديم الأيام" (يهوه) أو أمام "ابن الإنسان"، وسيكون له السلطان المطلق الأبدى على العالم بعد أن تجدد وصلح، أي على مملكة الله؛ وسيُلقى الأشرار وهم صامتون "في الجحيم"، أما الأخيار فسيُستقبلون في دار النعيم الأبدى.

ولقد كانت الحركة الفكرية في بلاد اليهود في جوهرها مماثلة للحركة الفكرية الدينية الوثنية المعاصرة لها: شعبٌ كان فيما مضى إذا فكر في المستقبل يحصر تفكيره فيما سوف يؤول إليه مصيره القومي، ثم فقد الآن ثقته بالدولة التي ينتمي إليها، وأخذ يفكر في النجاة الروحية الفردية. وكان الدين ذو الطقوس الخفية الغامضة قد بعث هذا الأمل في صدور الآلاف المؤلفة من اليونان، وفي بلاد الشرق الهلنستي وإيطاليا؛ ولكن هذا الأمل أو الحاجة إليه لم يكونا في بلد من البلاد أقوى مما كان في بلاد اليهود. فلقد كان الفقراء أو المحرومون، والمظلومون أو المُحتقرون في هذه الأرض يتطلعون إلى أن يُرسل لهم الله من ينجيهم ويرفع عنهم نير الذل والعذاب. وتقول أسفار الرؤيا إن هذا المنقذ لن يطول غيابه وإنه حين ينتصر سيرتفع إلى الجنة كل العادلين، حتى من كان منهم في القبور، ليتمتعوا فيها بالنعيم السرمدي، وكان القديسون الشيوخ، أمثال شمعون، وكانت النساء المتصوفات أمثال أنا إينة فانيول يقضون حياتهم حول المعبد، صائمين يترقبون، ويصلون، ويتضرعون لعلمهم يرون هذا المنقذ قبل وفاتهم. وكان هذا الترقب يملأ قلوب الناس.

صفحة رقم : 3886

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الثورة

الفصل السادس

الثورة

ظل اليهود يكافحون قروناً طويلة، ولما أن مات هيرودس الأعظم نبذ الوطنيون نصائح هلال السلمية وأعلنوا الثورة على خليفته أركلوس وعسكروا في خيام حول المعبد. فقتل جنود أركلوس ثلاثة آلاف، كان كثيرون منهم قد جاءوا إلى أورشليم ليحتفلوا بعيد الفصح (4 ق.م)، لكن الثوار عادوا إلى التجمع في عيد العنصرة وتعرضوا في هذه المرة إلى ما تعرضوا له من قبل من قتل، وحُرقت أروقة الدبر ونهب الجنود ما فيه من الكنوز، واستحوذ اليأس على الكثيرين من اليهود فقتلوا أنفسهم. ثم تألفت عصابات من الوطنيين في الريف وهددوا حياة كل من يؤيد روما، ومن هذه العصابات واحدة تحت قيادة بوداس الجولوني استولت على صفورة عاصمة الجليل. وزحف قارس حاكم سوريا على فلسطين بعشرين ألفاً من رجاله، وهدم مئات من بلدانها، وصلب ألفين من الثوار، وباع ثلاثين ألفاً من اليهود في أسواق الرقيق. وذهب وفد من زعماء اليهود إلى روما وطلب إلى أغسطس أن يلغي الملكية في بلاد اليهود. فاستجاب أغسطس لطلبه وعزل أركلوس وجعل البلاد ولاية رومانية من الدرجة الثانية وعين عليها حاكماً مسؤولاً أمام والي سوريا(36).

ونعمت هذه البلاد المضطربة بفترة صغيرة من السلام في عهد تيبيريوس، فلما جلس كلجيولا على العرش أراد أن يجعل عبادة الإمبراطور ديناً يوحد به أجزاء الإمبراطورية المختلفة فأمر أن تشمل كل العبادات قرباناً يقرب لصورته وأصدر تعليماته إلى الموظفين في أورشليم أن يضعوا تمثاله في الهيكل. وكان اليهود في عهد أغسطس وتيبيريوس قد خطوا نصف الطريق إلى

صفحة رقم : 3887

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الثورة

ترضية الأباطرة بأن كانوا يضحون ليهوه باسم الإمبراطور، ولكنهم كانوا ينفرون أشد النفور من وضع تمثال منحوت لرجل وتشي في هيكلهم، وبلغ هذا النفور درجة دفعت آلاف منهم - على حد قول الرواية المأثورة- إلى أن يذهبوا إلى حاكم سوريا ويطلبوا إليه أن يذبحهم وإن لم يرتكبوا ذنباً قبل أن ينفذ هذا المرسوم(49). وحل كلجيولا هذا المشكل بموته. وأقنع أجريا حفيد هيرودس الإمبراطور كلوديوس فعينه ملكاً على فلسطين كلها تقريباً(41)؛ فلما مات أجريا انطلقت الفتنة مرة أخرى من عقالها، وأعاد كلوديوس البلاد إلى ما كانت عليه في عهد أغسطس وعين عليها حاكماً من قبل رومة(44).

وكان معظم الرجال الذين اختارهم معاتيقه ليشغلوا هذا المنصب عاجزين أو سفلة. ومن هؤلاء فليكس الذي عينه أخوه بلاس Pallas والذي "حكم بلاد اليهود" - كما يقول تاستس - "بقوة الملك وروح الرقيق"(50). وكان فستس Festus عدل من فليكس، ولكنه توفي أثناء هذه المحاولة. وجد ألبينس Albinus - إذا جاز لنا أن نصدق يوسفوس - في النهب وفرض الضرائب، وجمع ثروة طائلة بإطلاق المجرمين من السجون نظير أجر يقاضاه منهم حتى "لم يبق أحد في السجن إلا من لم يقاض منه شيئاً"(51). وسلك فلورس Florus - كما يقول هذا الكتاب صديق الرومان المعجب بهم - مسلك "الجلاد لا مسلك الحاكم" فنهب مُدناً بأكملها، ولم يكتفِ بأن يسرق هو نفسه، بل تغاضى عن سرقات غيره إذا نال سهماً من الغنيمة. بيد أن هذه الأقوال يُستَم منها رائحة العداوة الحزبية؛ وما من شك في أن الحكام هم الآخرون كانوا يشكون من أن اليهود شعب مشاكس ليس من السهل إخضاعه. وتآلفت عصابات من "المتحمسين" و "الفدائيين" ليحتجوا على هذا الفساد. وأقسم أعضاؤها أن يغتالوا كل يهودي خائن، فكانوا يندسون وسط الجماعات في الشوارع ويطعنون ضحاياهم من خلفهم، ثم يختفون

صفحة رقم : 3888

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الثورة

بين الجماهير في الفوضى التي تعقب عملهم هذا(52). ولما أن اغتصب فلورس سبع عشر وزنة (61.200 ريال أمريكي) من كنوز الهيكل، اجتمع أمامه جمهور غاضب يطلبون عزله؛ وأخذ جماعة من الشبان يطوفون بالمدينة

وبأيديهم سلالت يطلبون الصدقات له لأنه يعاني مرارة الفقر. لكن فيالق فلورس بددت شمل المجتمعين، ونهبت مئات من البيوت، وذبحت ساكنيها، وقبض على زعماء الفتنة، وجلدوا وصلبوا. ويقول يوسفوس إن 3.600 يهودي قتلوا في ذلك اليوم (53). وأخذ شيوخ العبرانيين وأثريائهم يدعون الناس إلى الصبر، وحجتهم في هذا أن الثورة على هذه الإمبراطورية القوية ليست إلا انتحاراً قومياً؛ أما الشبان والفقراء فكانوا يتهمون هؤلاء بخور العزيمة ومحاباة الظالمين.

وانقسمت المدينة، وانقسمت كل أسرة تقريباً بين هذين الحزبين، فاستولى أحدهما على الجزء الأعلى من أورشليم، واستولى الآخر على جزئها الأدنى، كلاهما يهاجم الآخر بكل ما يصل إلى يده من سلاح. ووصل الأمر في عام 68 إلى نشوب معركة دامية بين الحزبين انتصر فيها المتطرفون وقتلوا 12.000 يهودي من بينهم الأغنياء كلهم تقريباً (54). وهكذا استحالت الفتنة ثورة. وأحاطت قوة من العصاة بالحامية الرومانية المعسكرة في مسادا Massada، وأقنعتها بأن تلقي سلاحها، ثم قتلت رجالها عن آخرهم. وفي ذلك اليوم نفسه حدثت في قيصرية عاصمة فلسطين مذبحه هائلة ذبح فيها غير اليهود من السكان عشرين ألفاً من اليهود، وبيع آلاف غيرهم ببيع الرقيق. وذبح غير اليهود من سكان دمشق عشرة آلاف يهودي في يوم واحد (55). وقام اليهود المخفقون بتدمير عدد كبير من المدن اليونانية في فلسطين وسوريا، وأحرقوا بعضها عن آخرها، وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها كما قُتل منهم هم أيضاً كثيراً؛ ويقول يوسفوس في هذا: "وكان من المناظر المألوفة في ذلك الوقت أن نرى المدن مملوءة بجثث الموتى... ملقاة فيها دون أن تدفن، وأن نشاهد جثث الشيوخ إلى جانب

جثث الأطفال وبينها جثث النساء عارية من كل غطاء" (56). وقبل أن يحل شهر سبتمبر من عام 66 كان الثوار قد استولوا على أورشليم وعلى فلسطين كلها تقريباً؛ وخذل حزب السلم وفقد أنصاره، وانضم معظم أعضائه إلى الثوار. وكان من بين هؤلاء كاهن يدعى يوسفوس، وكان وقتئذ شاباً في الثلاثين من عمره، ونشيطاً، نابهاً، وهباً من الذكاء ما يستطيع به أن يحيل كل شهوة من شهواته فضيلة. وكلفه الثوار بتحسين الجليل، فدافع عن حصنها جوتوباتا ضد قوات فسبازيان المحاصرة لها، حتى لم يبق من حاميتها اليهودية على قيد الحياة غير أربعين جندياً اختبئوا معه في كهف من الكهوف. وأراد يوسفوس أن يسلم لجنود فسبازيان، ولكن رجاله أنذروه بالقتل إن حاول التسليم. وإذا كانوا يفضلون الموت على الأسر، فقد أقنعهم بأن يحددوا بطريق القرعة الترتيب الذي يقتل به كل منهم على يد من يليه. ولما ماتوا جميعاً ولم يبق إلا هو وواحد منهم أقنعه بأن ينضم إليه في الاستسلام للعدو. وقبيل أن يرسل إلى روما مكبلين بالأغلال تنبأ يوسفوس أن فسبازيان سيصبح إمبراطوراً فأطلقه فسبازيان من الأسر، وقربه إليه شيئاً فشيئاً وجعله ناصحاً أميناً له في حربه ضد اليهود. ولما سافر فسبازيان إلى الإسكندرية صحب يوسفوس تينس في حصار أورشليم.

وكان اقترب الفيالق الرومانية إيذاناً بضم صفوف اليهود وتأليفهم وحدة حانقة متعصبة وإن جاء ذلك بعد فوات الأوان. ويقول تاستس إن 60.000 من الثوار تجمعوا في المدينة، وإن "كل من يستطيع الانخراط في سلك الجندية قد تسليح ونزل إلى الميدان"، وإن الروح العسكرية في النساء لم تكن أقل منها في الرجال (57). ونادا يوسفوس من بين صفوف الرومان أهل المدينة المحاصرين إلى الاستسلام، ولكنهم اتهموه بالخيانة، وحاربوا إلى آخر رجل

صفحة رقم : 3889

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الثورة

فيهم. وحاول اليهود بعد أن نفذت مؤنتهم اختراق الصفوف للحصول على الطعام، فأسر الرومان آلافاً منهم وصلبوه، ويقول يوسفوس إن "هؤلاء بلغوا من الكثرة حداً لم تنتع معه الأرض لإقامة الصليبان، ولم يوجد من الصليبان ما يكفي لأجسامهم". وازدحمت شوارع المدينة بجثث الموتى في المراحل الأخيرة من الحصار الذي دام

خمسة أشهر. وكانت جماعات من النهابين تطوف بالموتى وتقطع أجسامهم وتتهب مالهم، ويُقال إن 116.000 جثة أُلقيت من فوق أسوار المدينة، وإن بعض اليهود بلعوا قطعاً من الذهب وخرجوا خلسة من أورشليم، وإن الرومان أو السوريين الذين قبضوا عليهم شقوا بطونهم أو بحثوا في برازهم ليحصلوا على ما ابتلعوه من الذهب (58). ولما استولى تيتس على نصف المدينة عرض على الثوار شروطاً ظننها لينة، فلما رفضوا أضرمت فرق الحراقين الرومان النار في الهيكل فلم يلبث هذا الصرح العظيم، وكان معظمه مشيداً من الخشب، أن احترق بأكمله. وقاتل الباقون من المدافعين عن المدينة قتال الأبطال، فخورين كما يقول ديو بموتهم في حرمة (59). فمنهم من قتل بعضهم بعضاً، ومنهم من ألقوا بأنفسهم على سيوفهم، ومنهم من قفزوا في اللهب. ولم يرحم المنتصرون أحداً، بل قتلوا كل من استطاعوا أن يقبضوا عليه من اليهود. وقد قبض على 97.000 وبيعوا في أسواق الرقيق، ومات كثيرون منهم في المجتذات بعد أن سيقوا مرغمين إلى الألعاب التي أقيمت ضمن احتفالات النصر في بيروت، وقيصرية، وفلباي، وروما. ويقدر يوسفوس عدد من هلك من اليهود في هذا الحصار وما أعقبه من حوادث بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفاً، أما تاسيتس فيقدرهم بستمائة ألف (70م) (60).
ودامت المقاومة في أماكن متفرقة حتى عام 73، ولكن تدمير الهيكل كان في واقع الأمر نهاية الفتنة ونهاية الدولة اليهودية. وصودرت أملاك الذين اشتركوا فيها وبيعت، وكادت الدولة اليهودية أن تخلو من اليهود،

صفحة رقم : 3890

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> الثورة

وعاش من بقي منهم فيها عيش الكفاف. وكان أفقر فقرائهم يُرغم على أن يؤدي للهيكل الوثني في روما نصف الشاقل الذي كان العبرانيون الصالحون يؤدونه في كل عام لصيانة هيكل أورشليم. وألغيت مناصب كبار الكهنة والسنهدين: واتخذت اليهودية الصورة التي احتفظت بها إلى أيامنا هذه: صورة دين بلا معبد مركزي، ولا كهنوت مسيطرين عليه، ولا قرابين. واختفت طائفة الصدوقيين، وأصبح الفريسيون والأخبار زعماء شعب لا وطن له، لم يبق له إلا معابده.

صفحة رقم : 3891

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> التشتيت

الفصل السابع

لقد كانت هجرة مليون من اليهود أو تشريدهم مما عجل انتشارهم في جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط، ومن أجل هذا أرخ علماءهم تشتيتهم من الوقت الذي دمر فيه هيرودس الهيكل. ولقد رأينا أن هذا التشتيت بدأ بالسبي أو الأسر البابلي قبل ذلك الوقت بستة قرون وأنه تجدد باستيطانهم في الإسكندرية. وإذا كانت كثرة التنازل مما يحتمه الدين اليهودي والشريعة اليهودية على الصالحين المتقين، وإذا كان وأد الأطفال محرماً عليهم فإن انتشار اليهود كانت له أسباب من علم الأحياء نفسه فضلاً عن أسباب اقتصادية؛ وكان لا يزال لليهود بعض الشأن القليل في تجارة العالم. وقد قال عنهم استرابون قبل سقوط أورشليم بخمسين عاماً قولاً لا يخلو من المغالاة التي أملت على نزعته المعادية للسامية: "يصعب على الإنسان أن يجد في العالم المعمور كله مكاناً واحداً خالياً من هذا الجنس من الناس، أو خير مملوك له" (61). ووصف فيلو قبل التشتيت بعشرين عاماً "القارات... المملأ بالمحلات اليهودية ومثلها... الجزائر وبلاد بابل كلها تقريباً" (62). وما وافى عام 70 من بعد الميلاد حتى كان آلاف من اليهود في سلوقية على نهر دجلة وفي غيرها من مدائن جارية. وكانوا كثيري العدد في بلاد العرب، ومنها عبروا البحر إلى بلاد الحبشة. وكانوا في سوريا وفينيقية وكانت لهم جالية كبيرة في طرس، وإنطاكية، وميليتس، وإفسوس، وسرديس، وأزمير. وكانوا أقل من ذلك بعض الشيء في ديلوس، وكورنثة، وأثينة، وفلباي وبيرية، وسلانيك. أما في غرب البحر الأبيض كانت هناك جماعات من اليهود في قرطاجنة، وسرقوسة، وبتيولة، وكبوة، وبمبي، وروما، وحتى

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> التشتيت

فنزويلا موطن هوراس نفسها لم تكن تخلو من اليهود. وفي وسعنا أن نقدر عدد اليهود في الإمبراطورية الرومانية إجمالاً بنحو سبعة ملايين أي نحو 7% من سكانها وضعفي نسبتهم إلى سكان الولايات المتحدة الأمريكية في هذه الأيام (63).

وقد أثاروا بكثرة عددهم، ولباسهم، وطعانهم، وختانهم، وفقرهم، وطمعهم، ورخائهم، وعزلتهم، وذكائهم، ونفورهم من الصور وتشدهم في مراعاة السبت رغم ما يسببه ذلك من العنت لهم، أثاروا بهذا كله حركة عداة للسامية تختلف من المزاح في الملاهي، والسخرية بهم في أقوال جوفنال وناستس، إلى ذبحهم فرادى في الشوارع، وقتلهم زرافات في المذابح المدبرة. وقد نصب أبيون الإسكندري نفسه مدافعاً عن هذه الهجمات، ورد عليه يوسفوس برسالة صارمة شديدة اللهجة.

وسافر يوسفوس مع تيتس إلى روما بعد سقوط أورشليم، وصحب قاهر بني جنسه في موكب نصر عرض فيه أسرى اليهود والمغانم اليهودية. ومنحه فسبازيان حق المواطنة الرومانية، ووظف له معاشاً وخصص له مسكناً في قصره وأقطعه أرضاً خصبة في بلاد اليهود (65). وتسمى يوسفوس نظير هذا باسم أسره فسبازيا، وهو فلافيوس، وكتب تاريخ حرب اليهود (حوالي عام 75)، ليدافع عن أعمال تيتس في فلسطين. ويبرز انشاققه على بني جنسه، ويثبط عزائم اليهود إذا ما فكروا في الخروج على روما مرة أخرى بإظهار قوتها وبأسها. واشتد إحساسه بعزلته في شيخوخته فألف كتاباً في قدم اليهود أراد به أن يستعيد عطف بني جنسه بأن يصور لغير اليهود ما قام به هذا الشعب من جرائم الأعمال، ويصف عاداتهم وأخلاقهم. وقصصه في هذا الكتاب واضح قوي،

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> التثنية

ووصفه لهيرودس الأكبر لا يقل امتعناً عن وصف أفلوطرخس، ولكن تحيزه، والغرض الذي يكتب من أجله يفسدان موضوعية الكتاب. وقد تطلب قدم اليهود عدة سنين وأنهك قوى المؤلف، فلم يستطع أن يتمه، وكتب أمناً سره الكتب الأربعة الأخيرة من العشرين كتاباً التي يتألف منها هذا المجلد الضخم مستعينين على كتابتها بمذكراته (66). ولم يكن يوسفوس قد جاوز الخامسة والستين من عمره حين نشر الكتاب، ولكنه كان قد ضعفت قواه متأثرة بحياة المغامرات، والجدل، والعزلة الأخلاقية.

واستطاع اليهود أن يعيدوا بالتدريج بناء حياتهم الاقتصادية والثقافية في فلسطين. وبينما كان الحصار مضرراً على أورشليم فر من المدينة تلميذ شيخ من تلاميذ هلال يدعى يوهنان بن زكاي لأنه خشي أن يبديد المعلمون كلهم في المذبحة فلا يبقى من ينقذ الأحاديث الشفوية. ولما خرج من المدينة أقام مجمعاً علمياً في كرم عند يبنى أو يمنيا قرب شاطئ البحر الأبيض المتوسط. ولما سقطت أورشليم نظم يوهنان سنهدريناً جديداً في يمنيا، ولم يؤلفه من الكهنة، وسياسيين، والأثرياء، بل ألفه من الفريسيين والأخبار أي معلمي الشريعة. ولم يكن لهذا المجلس المعروف باسم بيت الدين أية سلطة سياسية، ولكن معظم يهود فلسطين كانوا يعترفون بسلطانه في جميع الشئون المتعلقة بالدين والأخلاق. وكان الحاخام الذي يختاره المجلس رئيساً له يعين الموظفين الإداريين المشرفين على الجماعات اليهودية، وكان من حقه أن يخرج من حظيرة الدين من لا يرضى عنهم من اليهود. وكان من أثر النظام الصارم الذي فرضه الحاخام جماليل الثاني (حوالي سنة 100م) أن توثقت الرابطة بين أعضاء المجلس أولاً، ثم بين يهود يمنيا، ثم بين يهود فلسطين كلها فيما بعد. وحدث في أيامه أن أعيد النظر في التفسيرات المتناقضة للشريعة وهي التفسيرات التي نقلها هلال وشماي، ثم أخذ الرأي عليها، وكانت النتيجة أن قبلت معظم

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> التثنية

تفسيرات هلال وفرض على اليهود جميعهم أن يعملوا بها. وإذا كانت الشريعة قد أصبحت وقتئذ الرابطة القوية التي لا غنى عنها والتي تؤلف بين اليهود المشتتين الذين لا تؤلف بينهم دولة، فقد أصبح تعليم هذه الشريعة أهم عمل تقوم به الكنائس في جميع البلاد التي شنتت فيها اليهود. وحل المجمع محل الهيكل، كما حلت الصلاة محل التضحية، وحل الربان محل الكاهن. وأخذ الشراح (التنايم) يفسرون مختلف القوانين اليهودية المنقولة بطريق السماع (هلاكا) وكانوا يؤيدون شروحهم في العادة بعبارات يقتبسونها من الكتاب المقدس، يضيفون إليها قصصاً وعضات أو غيرها من المواد (هجاداً) ويوضحونها بها في بعض الأحيان. وأشهر هؤلاء التنايم هو الربان عكيبا بن يوسف. وقد انضم هذا الربان، وهو في سن الأربعين، إلى ابنه البالغ من

العمر خمس سنين، وذهبا معاً إلى المدرسة فتعلم القراءة، واستطاع في زمن قليل أن يتلو عن ظهر قلب جميع أسفار موسى. وبعد دراسة دامت ثلاثة عشر عاماً افتتح له مدرسة تحت شجرة تين في قرية قريبة من يمينيا. وقد كانت حماسته، ومثاليته، وشجاعته، وفكاهته، بل وتعسفه الشديد سبباً في التقاف كثيرين من الطلاب حوله. ولما جاءت الأنباء في عام 95، أن دومتيان سيتخذ إجراءات جديدة ضد اليهود، اختير أكيبا وجماليل واثان آخران من اليهود ليتصلا اتصالاً شخصياً بالإمبراطور. وبينما هم في روما إذ توفي دومتيان. واستمع نيرفا إلى رسالتهم وأظهر العطف على مطالبهم، وألغى الضريبة المفروضة على اليهود لإعادة بناء روما. ولما عادة أكيبا إلى يمينيا أخذ على عاتقه أن يقوم بذلك العمل الشاق الذي قضى فيه بقية حياته ونعني به تقنين الهلاك، وأتم هذا العمل من بعده تلميذه الريان مير Meir وخليفتهما الأب يهوذا (حوالي 200م). وقد بقيت الهلاك حتى في هذه الصورة المصنفة جزءاً من الأحاديث الشفوية، يتناقلها العلماء والحفاظ المحترفون جيلاً بعد جيل - فكانوا هم النصوص الحية للشريعة الموسوية.

صفحة رقم : 3895

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> التشتيت

وكان في الطرق التي جرى عليها أكيبا من السخف بقدر ما في النتائج للتي وصل إليها من الصحة. وقد فسر الشريعة المسطورة تفسيراً عجيباً إذ جعل لكل حرف من حروفها معنى خفياً ثم استمد من هذا التفسير مبادئ حرة؛ ولعل للباعث له على هذا التفسير ما لاحظته من أن الناس لا يقبلون الشيء المعقول إلا إذا كان في صورة غامضة خفية. وعن أكيبا أخذ هذا التنظيم وذاك العرض لعلمي الدين والأخلاق اللذين انتقلا عن طريق التلمود إلى ابن ميمون، ثم انتقلا آخر الأمر إلى أساليب الفلاسفة المدرسيين. ولما بلغ سن التسعين وضعفت قواه وأصبح من الرجعيين ألقى نفسه، كما كان في أيام شبابه، محوطاً بالثورة من كل الجوانب. ذلك أن يهود قورينة، ومصر، وقبرص، وأرض الجزيرة، رفعوا لواء الثورة على روما مرة أخرى في عامي 115 - 116، وأخذ اليهود يقتلون غير اليهود، وهؤلاء يقتلون أولئك حتى أصبح التقتيل هو العادة المألوفة في تلك الأيام. ويقول ديو إن 220.000 قتلوا في قورينة، و240.000 في قبرص. وتلك أرقام لا يقبلها العقل بطبيعة الحال، ولكننا نعرف أن قورينة لم تنتعش قط بعد هذا التخريب، وأن اليهود ظلوا عدة قرون بعد ذلك الوقت لا يسمح لهم قط بدخول قبرص. ثم أهدمت الفتن، ولكن من بقي من اليهود ظلوا محتفظين بأملهم القوي في ظهور مسيح يعيد بناء الهيكل ويعيدهم هم ظافرين إلى أورشليم. وأشعل الرومان، بحمقهم وبأهتهم، نار الثورة من جديد. ذلك أن هدریان أعلن في عام 130 أنه يعتزم بناء ضريح لجوبتر في مكان الهيكل، ثم أصدر في عام 131 مرسوماً بتحريم الختان وتعليم الشريعة اليهودية علناً (67). وكانت آخر وقفة وقفها اليهود في التاريخ القديم لاستعادة حريتهم في عام 132 بزعامة شمعون باركوشيبا الذي ادعى أنه هو المسيح. وبارك أكيبا هذه الثورة رغم أنه كان طوال حياته يدعو إلى السلم، وذلك حين إعترف باركوشيبا أنه هو المنقذ.

صفحة رقم : 3896

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> التثنية

وظل الثوار ثلاث سنين مستبسلين في قتال الفيالق الرومانية حتى هزموا آخر الأمر بعد أن نفذ طعامهم وعتادهم. ودمر الرومان 985 مدينة في فلسطين وذبحوا 580.000 يهودي ويقال إن الذين ماتوا من الجوع والمرض والحريق كانوا أكثر من هذا العدد. وخربت بلاد اليهود كلها تقريباً، وخرَّ باركوشيا نفسه صريعاً أثناء دفاعه عن بيتار. وكان الذين بيعوا من اليهود في أسواق الرقيق من الكثرة بحيث انخفض ثمن الواحد منهم حتى ساوى ثمن الحصان. واختبأ الآلاف منهم في سراديب تحت الأرض مفضلين ذلك على الأسر؛ ولما أحاط بهم الرومان هلكوا من الجوع واحداً بعد واحد، وكان الأحياء منهم يأكلون جثث الموتى (68). وأراد هدریان أن يقضي على ما في اليهودية من رجولة وقدرة على الانتعاش، فلم يكتفِ بتحريم الختان بل حرم معه الإسبات والاحتفال بأي عيد من أعياد اليهود أو إقامة أي طقس من الطقوس اليهودية علناً (69). وفرضت ضريبة شخصية جديدة أكبر من الضريبة السابقة على جميع اليهود، وحرّم عليهم دخول بيت المقدس إلا في يوم واحد محدد في العام يسمح لهم فيه بالمجيء إلى دمشق لبيكوا أمام خرائب الهيكل. وقامت في مواضع أورشلیم مدينة إيليا كبتولينا الوثنية، وشيد فيها ضريحان لجوبتر وفينوس، وساحات للرياضة وملاهي وحمّامات، وحل مجلس يمنيا وحرّم أعضاؤه الاجتماع، وأجيز لمجلس عاجز أصغر منه أن يجتمع في Lydda. أما تعليم الشريعة جهرة فقد منع منعاً باتاً، وأنذر كل من خالف ذلك بالإعدام، وأعدم بالفعل عدد من الأبحار الذين خالفوا. وأصر أكيبا، وكان وقتئذ في الخامسة والتسعين من عمره على أن يعلم تلاميذه، فزج في السجن ثلاث سنين، ولكنه لم ينقطع عن التعليم في سجنه، فحوكم، وأدين، وأعدم وهو ينطق بالعقيدة اليهودية الأساسية: "اسمعي يا إسرائيل، الرب إلهنا، والرب واحد" (70). وظل اليهود قروناً عدة يعانون آثار النكبة التي حلت بهم بعد ثورة

صفحة رقم : 3897

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الإمبراطورية -> رومة اليهودية -> التثنية

باركوشيا، وإن كان أنطونينس بيوس قد خفف من صرامة مراسيم هدریان، ودخلوا من هذه اللحظة في دور الكهولة، وتخلوا عن كل العلوم الدنيوية ما عدا الطب، ونبذوا الهلنستية على اختلاف صورها، ولم يتلقوا السلوى أو الوحدة إلا من أحبارهم، وشعرانهم الصوفيين وشريعتهم. ولسنا نعرف شعباً آخر قد طال نفيه كما طال نفي اليهود، أو عانى من الأهوال مثل ما عانوا. لقد حرم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة، وأرغموا على تسليمها للوثنية ثم للمسيحية، وشردوا في كل ولاية من ولايات الدولة الرومانية وإلى ما وراء حديد تلك الدولة، وضربت عليهم المذلة والمسكنة، ولم يجدوا لهم صديقاً حتى بين الفلاسفة والقديسين، فابتعدوا عن المناصب العامة وعكفوا في عزلتهم على الدرس والعبادة، واستمسكوا أشد الاستمسك بأقوال علمائهم، وأخذوا يتأهبون لكتابتها آخر الأمر في تلمود بابل وفلسطين. وهكذا اختبأت اليهودية في ظلمات الخوف والفرع، بينما كانت وليدتها المسيحية تخرج لفتح العالم وسيادته.

صفحة رقم : 3898

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> المراجع

الكتاب الخامس

شباب المسيحية

من 4 ق. م. إلى 325 م

الباب السادس والعشرون

عيسى أو يسوع

4 ق.م- 30 م

الفصل الأول

المراجع

هل وجد المسيح حقاً؟ أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية وثمره أجزان البشرية، وخيالها، وآمالها- أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا، وأوزريس، وأئيس، وأنديس، وديونيشس، ومثراس؟ لقد كان بولنجبروك والملتقون حوله، وهم جماعة ارتاع لأفكارهم فلنثير نفسه، يقولون في مجالسهم الخاصة إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق، وجهر فلني Volney بهذا الشك نفسه في كتابه خرائب الإمبراطورية الذي نشره في عام 1991؛ ولما التقى نابليون في عام 1808 بفيلاوند Wieland العالم الألماني لم يسأله القائد الفاتح سؤالا تافها في السياسة أو الحرب، بل سأله هل يؤمن بتاريخية المسيح؟

ولقد كان من أعظم ميادين نشاط العقل الإنساني في العصر الحديث وأبعدها أثراً ميدان "النقد الأعلى" للكتاب المقدس- التهجم الشديد على صحته وصدق روايته، تقابله جهود قوية لإثبات صحة الأسس التاريخية للدين المسيحي؛ وربما أدت هذه البحوث على مر الأيام إلى ثورة في التفكير لا تقل شأناً عن الثورة

صفحة رقم : 3899

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> المراجع

التي أحدثتها المسيحية نفسها. وقد دارت رحى أولى المعارك في هذه الحرب التي دامت مائتي عام كاملة في صمت وسكون، وكان الذي أدارها هو هرمان ريمارس Hermann Reimarus أستاذ اللغات الشرقية في جامعة همبرج، فقد ترك بعد وفاته في عام 1768 مخطوطاً عن حياة المسيح يشتمل على 1400 صفحة حرص على ألا ينشره في أثناء حياته. وبعد ستة سنين من ذلك الوقت نشر جتهولد لسنج Gotthold Lessing أجزاء من هذا المخطوط، رغم معارضة أصدقائه في هذا النشر، وسماه هتامات ولفنبتل Wolfenbuttel Fragments. ويقول ريمارس أن يسوع لا يمكن أن يُعد مؤسس المسيحية أو أن يفهم هذا الفهم، بل يجب أن يفهم على أنه الشخصية النهائية الرئيسية في جماعة المتصوفة اليهود القائلين بالبعث والحساب، ومعنى أن المسيح لم يُفكر في إيجاد دين جديد بل كان يفكر في تهيئة الناس في استقبال دمار العالم المرتقب، وليوم الحشر الذي يحاسب فيه الله الأرواح على ما قدمت من خير أو شر. وفي عام 1796 أشار هرردر إلى ما بين مسيح متى، ومرقص، ولوقا، ومسيح إنجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوفيق بينهما، وفي عام 1828 لخص هنريخ بولص Heinrich Paulus حياة المسيح في 1192، صفحة، وعرض تفسيراً عقلياً للمعجزات: أي أنه أمن بوقوعهما، ولكنه عزاها إلى علل وقوى طبيعية. ثم جاء دافد استروس David Strauss (1835-1836) في كتابه عن حياة المسيح- وهو كتاب عظيم الأثر في التاريخ- فرفض ما حاوله بولص من توفيق بين المعجزات والعلل الطبيعية، وقال إن ما في الأناجيل من خوارق الطبيعة يجب أن يُعد من الأساطير الخرافية، وإن حياة المسيح الحقيقية يجب أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر أياً كانت عناصرها. وقد أثارت مجلدات استروس الضخمة عاصفة قوية في التفكير الألماني دامت جيلاً من الزمان. وفي نفس العام الذي ظهر في كتاب استروس

صفحة رقم : 3900

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> المراجع

هاجم فرنداندرستيان بور Ferdinand Christian Bour رسائل بولص وقال انها كلها مدسوسة عليه عدا رسائله إلى أهل غلاطية، وكورنثوس، (كورنثة) ورومية (روما). وفي عام 1840 بدأ برونو بور Bruno Bauer سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية يبغى بها أن يثبت يسوع لا يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير، أو تجسيدا لطقس من الطقوس نشأ في القرن الثاني من مزيج من الأديان اليهودية، واليونانية، والرومانية. وفي عام 1863 أخرج إيرنس رينان Ernest Renan حياة يسوع الذي روع ملايين الناس باعتماده فيه على العقل وسحر لب الملايين بنثره الجزل. وقد جمع رينان في هذا الكتاب نتائج النقد الألماني، وعرض مشكلة الأناجيل على العالم المتقف كله. وبلغت المدرسة الفلسفية صاحبة البحوث الدينية ذروتها في أواخر القرن التاسع عشر على يد الأب لوازي Loisy الذي حلل نصوص العهد الجديد تحليلاً بلغ من الصرامة حداً اضطرت معه الكنيسة الكاثوليكية إلى إصدار قرار يجرمانه هو وغيره من "المحدثين". وفي هذه الأثناء وصلت المدرسة الهولندية مدرسة بيرسن Pierson ونابر Naber، ومنتاس Matthas بالحركة إلى أبعد حدودها إذ أنكرت بعد بحوث مضمينة حقيقية المسيح التاريخية. وفي ألمانيا عرض آرثر دروز Arthur Drews هذه النتيجة السالبة عرضاً واضحاً محدداً (1906)؛ وفي إنكلترا أدلى وب. اسمث W. B. Smith، و ج. م ربرتن J. M. Robertson بحجج من هذا النوع أنكر فيها وجود المسيح. وهكذا بدا أن الجدل الذي دام مائتي عام سينتهي إلى إفناء شخصية المسيح إفاء تاماً. وبعد فما هي الأدلة التي تثبت وجود المسيح؟ إن أقدم إشارة غير مسيحية إليه هي التي وردت في كتاب قدم اليهود ليوسفوس (93م):

"وفي ذلك الوقت كان يعيش يسوع، وهو رجل من رجال الدين، إذا

صفحة رقم : 3901

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> المراجع

جاز أن نسميه رجلاً، لأنه كان يأتي بأعمال عجيبة، ويعلم الناس، ويتلقى الحقيقة وهو مغتبط. وقد إتبعه كثيرون من اليهود وكثيرون من اليونان. لقد كان هو المسيح"؟

قد تنطوي هذه السطور العجيبة على أصل صادق صحيح؛ ولكن هذا الثناء العظيم الذي يثنى به على المسيح يهودي يريد به الزلفى للرومان أو اليهود- وكانا كلاهما يناصبان المسيحية العداء في ذلك الوقت -، نقول إن هذا الثناء لما يبعت الريبة في هذه الفقرة، ولذلك يرفضها علماء المسيحية، ولا يكادون يشكون في أنها مدسوسة على يوسفوس (3). وفي التلمود إشارات إلى يسوع الناصري، ولكنها من عهد متأخر جداً يجعلها مجرد ترديد الأصداء والأفكار المسيحية (4). وأقدم ما لدينا من إشارات إلى المسيح في أدب الوثنيين ما ورد في خطاب كتبه بلني الأصغر (حوالي 110) (5)، يستشير فيه تراجان عما يعامل به المسيحيين وبعد خمس سنين من ذلك الوقت وصف تاستس (6) إضطهاد نيرون للكرستيانى Christiani في رومة ويقول انهم في ذلك الوقت كان لهم أتباع في جميع أنحاء أوربا. وهذه الفقرة شبيهة بكتابات تاستس في أسلوبه، وقوته، وتحيزه شيها له يرتب معه أحد من الباحثين إلا درور وحده في صدورها من هذا الكتاب (7). ويذكر روتونيوس (حوالي 125) خير هذا الاضطهاد نفسه (8)، كما يذكر نفي كلوديوس (حوالي 52) "اليهود الذين أثاروا اضطرابات عامة بتحريض المسيح" (Impuisore Chresto) (9). وتتفق هذه الفقرة اشد الاتفاق مع ما ورد في إصحاح أعمال الرسل من أن كلوديوس أصدر مرسوماً أوجب فيه على "اليهود أن يخرجوا من روما" (10). وهذه الإشارات كلها تثبت وجود المسيحيين لا المسيح نفسه؛ ولكننا إذا لم نسلم بوجود المسيح فلا مناص لنا من أن نأخذ بالفرض

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> المراجع

الضعيف جداً وهو أن شخصية يسوع قد اخترعت اختراعاً في جيل واحد؛ ولابد لنا من أن نفترض فوق ذلك أن الجالية المسيحية وجدت في روما قبل عام 52 ببضع سنين، وإلا لما كانت خليفة أن يصدر بشأنها مرسوم إمبراطوري. ويقول ثالس Thallus وهو كاتب وثني عاش في منتصف ذلك القرن الأول في هتامه من كتاب احتفظ لنا بها يويوس افركانس(11) إن الظلمة العجيبة التي يقال إنها حدثت وقت موت المسيح، كانت ظاهرة طبيعية محضة، ولم تكن أكثر من مصادفة عادية. أما وجود المسيح فهو عند هذا الكاتب قضية مسلم بها مفروغ من صحتها. وقصارى القول أن نكران ذلك الوجود لم يخطر على ما يظهر لأشد المخالفين لليهودية أو لليهود المعارضين للمسيحية الناشئة في ذلك الوقت.

أما الأدلة المسيحية على وجود المسيح فتبدأ إلى الرسائل المعزوة إلى القديس بولص. وبعض هذه الرسائل لا يعرف كاتبها معرفة أكيدة، ومنها عدة رسائل- تؤرخ بعام 64م ولكنها كتبت في الحقيقة بعد ذلك التاريخ- لا يكاد يختلف الباحثون في أنها في جوهرها من كتابات بولص. ولم يشك أحد قط من وجود بولص نفسه أو في لقائه الكثير لبطرس، ويعقوب، ويوحنا؛ ويعترف بولص بأن هؤلاء الرجال قد عرفوا المسيح في أثناء حياته ويحسداهم على هذه المعرفة(12). وكثيراً ما تشير الرسائل المعترف بنسبتها إليه إلى العشاء الأخير(13) وإلى حادث الصلب(14). هذا ما كان من أمر المسيح نفسه، أما الأناجيل فليس أمرها بهذه السهولة. ذلك أن الأربعة أناجيل التي وصلت إلينا هي البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيراً، كانت في وقت ما منتشرة بين المسيحيين في القرنين الأول والثاني. واللفظ الدال على الإنجيل "Gospel" (وهو في اللغة الإنكليزية القديمة Gospels أي أخبار طيبة) ترجمة للفظ اليوناني Euangelion والذي يبدأ به إنجيل مرقس

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> المراجع

ومعناه "أخبار سارة"- هي أن المسيح قد جاء، وأن ملكوت الله قريبة المنال. وأناجيل متى، ومرقس، ولوقا، يمكن الإحاطة بها بنظرة واحدة: ذلك بأن محتوياتها وحوادثها يمكن ترتيبها في أعمدة متوازية "والنظر إليها كلها مجتمعة"؛ وقد كتبت كلها باللغة اليونانية الدارجة، ولم تكن نماذج طيبة في النحو أو في الصقل الأدبي. بيد أن ما في أسلوبها السهل من قوة وإبصال المعاني عن أقرب طريق، وما في تشبيهاتها والصور التي ترسمها من وضوح، وما في الاحساسات التي تصورها من عمق، وما في القصص التي ترويها من روعة، كل هذا يكسبها حتى في صورتها

الأصلية الفجة جمالاً فذاً، زاده قوة عند العالم الإنجليزي الترجمة العظيمة البعيدة كل البعد عن الدقة، والتي وضعت للملك جيمس. وترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث. أما النسخ الأصلية فيبدو أنها كتبت بين عامي 60، 120م، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان الأخطاء في النقل، ولعلها تعرضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التي ينتمي إليها الناسخ أو أغراضها. والكتاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادي لا ينقلون قط شيئاً عن العهد الجديد، بل كان ما ينقلونه مأخوذ من العهد القديم ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحي قبل عام 150 إلا في كتاب بيباس Papias الذي كتب في عام 135 إذ يقول أن "يوحنا الأكبر" - وهو شخصية لم يستطع الاستدلال على صاحبها - قال إن مرقس ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس (15). ويضيف بيباس إلى هذا قوله: "وأعاد متى كتابة الكلمات بالعبرية" - ويبدو أن هذا الإنجيل مجموعة آرامية من أقوال المسيح. والراجح أن بولص كانت لديه وثيقة من هذا النوع، وذلك لأنه ينقل أحياناً كلمات يسوع

صفحة رقم : 3904

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> المراجع

بنصها%=@كشفت Grenfell وهنت Hunt في خرائب إحدى المُنْدن القديمة في مصر في عامي 1897، 1903 عن عشرين قطعة من الكلمات تتفق إلى حد ما في فقرات مماثلة لها في الأناجيل. ولا ترجع هذه البرديات إلى ما قبل القرن الثالث ولكنها قد تكون نسخاً من مخطوطات أقدم منها. @ وإن كان لا يذكر الأناجيل قط. ويتفق الناقدون الثقاة بوجه عام على أسبقية إنجيل مرقس في الزمن على سائر الأناجيل، وفي تحديد تاريخه بين عامي 65 و 70م. وإذا كان هذا الإنجيل يكرر المسألة الواحدة أحياناً في عدة صور (16) فإن الكثيرين من الباحثين يعتقدون أنه يعتمد على الكلمات السالفة الذكر وعلى قصة أخرى قديمة العهد قد تكون هي الصورة الأولى لإنجيل مرقس نفسه. ويبدو أن إنجيل مرقس كان منتشرأ أثناء حياة بعض الرسل أو حياة الرعيل الأول من أتباعهم ومريديهم. ولهذا فإنه يبدو من غير المحتمل أنه كان يختلف اختلافاً جوهرياً عما كان لديهم من أقول وعن تفسير المسيح لهذه الأقوال (17). ومن حقنا إذن أن نحكم كما حكم شوتزتر Schwetzer ذلك العالم النابه الحكيم بأن إنجيل مرقس في جوهره "تاريخ صحيح" (18).

وتقول الرواية المأخوذ بها إن إنجيل متى أقدم الأناجيل كلها، ويعتقد إيرنيوس Ireneaus أنه كتب في الأصل باللغة "العبرية" - أي الآرامية، ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية. وإذا كان يبدو لنا أنه في هذه الصورة الأخيرة يرد أقوال إنجيل مرقس، وأنه ينقل في أكبر الظن من أقوال يسوع نفسها، فإن النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أحد أتباع متى، وليس من أقوال "العشار" نفسه. وحتى أكثر العلماء يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامي 85-90م (30). وإذا كان الغرض الذي يبتغيه متى هو هداية اليهود فإنه يعتمد أكثر من غيره من المبشرين على المعجزات التي تعزى إلى المسيح، ويحرص حرصاً يدعو إلى الريبة على أن يثبت أن كثيراً من نبوءات

صفحة رقم : 3905

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> المراجع

العهد القديم تحققت على يدي المسيح. بيد أنه رغم هذا أشد الأناجيل الأربعة تأثيراً إلى النفس وإثارة إلى العاطفة. ولا يسعنا إلا أن نعدده بين روائع الآداب العالمية، وإن لم يدرك ذلك كاتبه القديم. والإنجيل حسب نص القديس لوقا، وهو النص الذي يعزى عادة إلى العقد الأخير من القرن الأول، يعلن أنه يرغب في تنسيق الروايات السابقة عن المسيح، والتوفيق بينها، وأنه يهدف إلى هداية كفرة لا اليهود. وأكبر الظن أن لوقا نفسه كان من غير اليهود، وأنه كان صديق بولص، ومؤلف سفر أعمال الرسل (21). وهو يقتبس كثيراً من كتابات مرقس كما يقتبس منها متى (22)، فإنك لتجد في إنجيل متى ستمائة آية من الستمائة والإحدى والستين التي يشتمل عليها النص المعتمد لإنجيل مرقس، ونجد منها ثلاثمائة وخمسين في إنجيل لوقا تكاد أن تكون هي بنصها (23). وفي إنجيل متى كثير من الفقرات التي توجد في لوقا ولا توجد في إنجيل مرقس، وهنا أيضاً تكاد تكون هي بنصها، ويبدو أن لوقا أخذ هذه عن متى أو أن لوقا ومتى أخذها عن أصل مشترك، لم نعثر عليه بعد. ويصقل لوقا هذه المقتبسات الصريحة بمهارة أدبية تحمل لينان على الظن بأن هذا الإنجيل أجمل ما ألف من الكتب. ولا يدعى الإنجيل الرابع أنه ترجمة ليسوع، بل هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية بوصفه كلمة الله، وخالق العالم، ومنقذ البشرية وهو يناقض الأناجيل الأخرى في كثير من التفاصيل وفي الصورة العامة التي يرسمها للمسيح (25). وإن ما يصطبغ به الكتاب من نزعة قريبة من نزعة القائلين بأن الخلاص لا يكون بالإيمان بل بالمعرفة، وما فيه من تأكيد لأراء الميتافيزيقية، قد جعل الكثيرين من الباحثين في الدين المسيحي يشكون في صدق القول بأن واضعه هو الرسول يوحنا (26). بيد أن التجارب توحى إلينا بأن لا نعجل في تكذيب الروايات القديمة؛ ذلك بأن أسلافنا لم

صفحة رقم : 3906

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> المراجع

يكونوا كلهم بلهاء. وتنتزع الدراسات الحديثة إلى تحديد تاريخ الإنجيل الرابع بأواخر القرن الأول. والراجح أن الروايات المأثورة كانت صادقة إذ تعزو إلى المؤلف نفسه "رسائل يوحنا"، ذلك بأنه تعرض الأفكار نفسها بالأسلوب نفسه.

وملاك القول أن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً في صحتها، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشبهة بما يروى عن آلهة الوثنيين، وكثيراً من الحوادث التي يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع النبوءات الواردة في العهد القديم، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخي لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس من طقوسها. لقد كان المبشرون بالإنجيل يرون كما يرى شيشرون وسالست، وتأسست أن التاريخ وسيلة لنشر المبادئ الخلقية السامية، ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الأميين من ضعف وعبوب، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو "تصحيح". فإذا سلمنا بهذا كله بقي الشيء الكثير إن ما في الأناجيل من تناقض لا يتعدى التفاصيل الجزئية إلى الحقائق العامة، وإن الأناجيل الثلاثة الأولى لتتفق اتفاقاً عجبياً، وتعرض في مجموعها صورة منسقة للمسيح. ولقد دفعت حماسة الكثف كبار الناقدين إلى أن يقيسوا صحة أحوال العهد الجديد بمقاييس لو طبقت على مئات من العظماء الأقدمين أمثال حمورابي، وداود، سقراط- لزلوا كلهم من عالم الحقائق وهووا إلى عالم الخرافات. وإن المبشرين بالإنجيل،

رغم ما يتصفون به من تحيز وميل مع الهوى ومن الأخذ بأفكار دينية سابقة، ليسجلون كثيراً من الحوادث التي يعمد المخترعون الملقون إلى إخفائها- كتنافس الرسل على المنازل العليا في ملكوت الله، وفرارهم بعد القبض على

صفحة رقم : 3907

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> المراجع

يسوع، وإنكار بطرس، وعجز المسيح عن إثبات المعجزات في الجليل، وإشارة بعض من سمعوه إلى ما عسى أن يكون مصاباً به من الجنون، وتشككه الأول في رسالته، واعترافه بأنه يجهل أمر المستقبل، وما كان يمر به من لحظات يمتلئ قلبه فيها حقداً على أعدائه، وصيحة اليأس التي رفع بها عقيرته وهو على الصليب؛ إن من يطلع على هذه المناظر لا يشك قط في أن وراءها شخصية تاريخية حقة. ولو أن عدداً قليلاً من الرجال السذج قد اخترعوا في مدى جيل واحد هذه الشخصية الجذابة، وهذه المبادئ الأخلاقية السامية، وهذه النظرية الأخوية الملهمة، لكان عملهم هذا معجزة أبعد عن العقول من أية معجزة تسجلها الأناجيل. وإن الخطوط الرئيسية في سيرة المسيح، وأخلاقه، وتعاليمه لتبقى بعد قرنين من النقد الشديد واضحة معقولة؛ لتكون أروع ظاهرة في تاريخ الغربيين وأعظمها فتننة للألباب.

صفحة رقم : 3908

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> نشأة عيسى

الفصل الثاني

نشأة عيسى

يحدد متى ولوقا ميلاد المسيح في "الأيام التي كان فيها هيرودس ملكاً على بلاد اليهود" (27)- أي قبل العام الثالث ق.م على أن لوقا يقول عن يسوع إنه كان "حوالي الثلاثين من العمر" حين عمده يوحنا في السنة الخامسة عشرة من حكم تيبيريوس (27أ)، أي في عام 28-29م، وهذا يجعل ميلاد المسيح في عام 1-2 ق.م. ويضيف لوقا إلى هذا قوله: "وفي

تلك الأيام صدر مرسوم قيصر أغسطس يقضي بأن تفرض ضريبة على العالم كله... حين كان كويرنيوس Quirinius والياً على سوريا. والمعروف أن كويرنيوس كان حاكماً لسوريا بين عامي 6-12م؛ ويذكر يوفوس أنه أجرى إحصاء في بلاد اليهود، ولكنه يقول إن هذا الإحصاء كان في عام 6-7م (28)، ولسنا نجد ذكراً لهذا الإحصاء إلا هذه الإشارة. ويذكر ترتليان (29) إحصاء لبلاد اليهود قام به سترنينس حاكم سوريا في عام 7-8 ق.م، فإذا كان هذا هو الإحصاء الذي يشير إليه لوقا فإن ميلاد المسيح يجب أن يؤرخ قبل عام 6 ق.م. ولسنا نعرف اليوم الذي وُلِدَ فيه بالتحديد، وينقل لنا كلمنت الإسكندري (حوالي 100م) آراء مختلفة في هذا الموضوع كانت منتشرة في أيامه؛ فيقول إن بعض المؤرخين يحدده باليوم التاسع عشر من إبريل وبعضهم بالعاشر من مايو، وأنه هو يحدده بالسابع عشر من نوفمبر من العام الثالث قبل الميلاد- وكان المسيحيون الشرقيون يحتفلون بمولد المسيح في اليوم السادس من شهر يناير منذ القرن الثاني بعد الميلاد. وفي عام 354 احتفلت بعض الكنائس الغربية ومنها كنيسة روما بذكرى مولد المسيح في اليوم الخامس والعشرين من

صفحة رقم : 3909

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> نشأة عيسى

نوفمبر، وكان هذا التاريخ قد عد خطأ يوم الانقلاب الشتوي الذي تبدأ الأيام بعده تطول؛ وكان قبل هذا يحتفل فيه بعيد مثراس، أي مولد الشمس التي لا تقهر. واستمسكت الكنائس الشرقية وقتاً ما باليوم السادس من يناير، واتهمت أخواتها الغربية بالوثنية وعبادة الشمس؛ ولكن لم يكذبختتم القرن الرابع حتى اتخذ اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر عيداً للميلاد في الشرق أيضاً.

ويقول متى ولوقا إن مولد المسيح كان في بيت لحم، القائمة على بعد خمسة أميال جنوبي أورشليم، ثم يقولان إن أسرته انتقلت منها إلى الناصرة في الجليل، أما مرقس فلا يذكر بيت لحم. ولا يذكر المسيح إلا باسم "يسوع الناصري". وقد سمي بالاسم العادي المؤلف "يسوع" Yeshu`a ومعناها معين يهوه؛ وحرّفه اليونان إلى Iesus والرومان إلى Iesus. ويبدو أنه كان ينتسب إلى أسرة كبيرة، وشاهد ذلك أن جيرانه أدهشتم تعاليمه القوية فأخذوا يتساءلون قائلين: "ترى أنى له هذه الحكمة، والقدرة على القيام بهذه العجائب؟ أليس هو ابن النجار؟ أليست أمه تسمى مارية Mary، أليس أخوته هم يعقوب، ويوسف، وشمعون ويهوذا؟ ألا تقوم أخواته هنا بيننا؟" (31). ويحدثنا لوقا عن البشرى بأسلوب أدبي بليغ وينطق مريم- مارية بتلك العبارات البليغة، وهي من أروع القصائد التي يشمل عليها العهد الجديد. وتأتي شخصية مريم في القصة بعد شخصية ولدها في الروعة والتأثير: فهي تربيته وتتحمل مسرات الأمومة المؤلمة؛ وتفخر بعلمه في أيام شبابه،

صفحة رقم : 3910

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> نشأة عيسى

وتدهش فيما بعد من تعاليمه ومطالبه، وترغب في أن تبعده عن جموع أتباعه المثيرين، وأن تعيده إلى بيته الهادئ الشافي (لقد بحثت أنا وأبوك عنك محزونين)؛ وشاهدته وهو يُصلب، وعجزت عن إنقاذه، ثم تلقت جسده بين ذراعيها، فإذا لم يكن هذا تاريخاً فهو الأدب السامي، لأن صلوات الآباء والأبناء تُولف مسرحيات أعمق مما تُولفه عاطفة الحب الجنسي. أما القصص التي أذاعها سلسس Celsus وغيره فيما بعد عن مريم وجندي روماني فالنقاد مجمعون على أنها "افتراء سخيف" (32). وأقل من هذا سخفاً تلك القصص التي تذكر أكثر ما تذكر في الأسفار المحذوفة عن مولد المسيح في كهف أو إسطنبول، وعن سجود الرعاة والمجوس له وعبادتهم إياه. وعن مذبحه الأبرياء، والفرار إلى مصر، وإذا كان العقل الناضج لا يرى ضيراً في هذا الشعر الشعبي. ولا يذكر بولص ويوحنا شيئاً عن مولده من عذراء وأما متى ولوقا اللذان يذكرانه فيرجعان نسب يسوع إلى داود عن طريق يوسف، بسلاسل أنساب متعارضة؛ ويلوح أن الاعتقاد في مولد المسيح من عذراء قد نشأ في عصر متأخر عن الاعتقاد بأنه من نسل داود. ولا يذكر أصحاب الأناجيل إلا القليل الذي لا يغني عن شباب المسيح. فهم يقولون إنه أُخْتِن حين بلغ الثامنة من عمره. ولقد كان يوسف نجاراً، وإن من كان في ذلك العصر من توارث المهنة ليوحى بأن يسوع قد احترف هذه الحرفة اللطيفة وقتاً ما، وكان يعرف من ينتمي إلى حرفته من الصناعات، كما كان يعرف الملاك ورؤساء الخدم، والمستأجرين، والأرقاء، وكل ما كان يحيط به في الريف، ويتردد ذكر هؤلاء جميعاً في أحاديثه. وكان يحس بما في الريف من جمال طبيعي، وما للزهر من لون جميل، وما يحيط بالأشجار المثمرة من هدوء وسكون. وليست قصة أسئلته للتلاميذ في الهيكل مما لا يقبله العقل. وكان

صفحة رقم : 3911

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - شباب المسيحية - عيسى أو يسوع - نشأة عيسى

ذا عقل يقظ طلعة، والشاب متى بلغ الثانية عشرة من عمره في بلاد الشرق أوشك أن يبلغ سن النضوج. لكنه لم يتعلم تعليماً منظماً، وشاهد ذلك أن جبرته كانوا يتسائلون: "كيف يستطيع هذا الرجل أن يقرأ وهو لم يذهب قط إلى المدرسة؟" (33). وكان يتردد على المجمع الديني، ويستمتع إلى تلاوة الكتاب المقدس، ويبدو عليه السرور حين يسمعه. وقد انطبعت في ذاكرته الأقوال الواردة في أسفار الأنبياء والمزامير بنوع خاص، وكان لها أثر كبير في تشكيله. ولعله قرأ أيضاً سفر دانيال وأخنوخ، لأننا نجد في تعاليمه المتأخرة أثراً كبيراً من رؤى المسيح الموعود، ويوم الحشر، ومملكة السماء. وكان الهواء الذي يتنفسه مشحوناً بالحماسة الدينية، وكان آلاف من اليهود ينتظرون على أحر من الجمر مجيء منقذ إسرائيل. وكان السحر والشياطين، والملائكة، وحلول الشياطين في أجسام الأدميين، وإخراجها، والمعجزات، والنبوءات، والإطلاح على الغيب، والتنجيم، كانت كل هذه عقائد مسلم بها في كل مكان. ولعل قصة المجوسي كانت تسليماً لا بد منه لعقائد المنجمين في ذلك العصر (34)، وكان السحرة يطوفون بالمُدن، وما من شك في أن عيسى قد عرف شيئاً عن الأسينيين وعن حياة الزهد الشبيهة كل الشبه بحياة البوذيين، وذلك في خلال أسفار جميع الصالحين من يهود فلسطين إلى بيت المقدس في أثناء عيد الفصح. ولعله قد سمع أيضاً عن شيعة تدعى "الناصرية Mazarenes" كان المنتمون إليها يعيشون في بيرييه في الناحية الأخرى من نهر الأردن؛ وكانوا يرفضون التعبد في الهيكل، ويأبون التقيد بالناموس (36). ولكن الذي

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> نشأة عيسى

أثار حماسه الدينية هو عطات يوحنا ابن أليصابات قريبة مريم. ويروي يوسفوس قصة يوحنا بشيء من التفصيل(37). فإذا قرأناها بدا لنا المعمدان شيخاً طاعناً في السن، أما الحقيقة فهي عكس هذا، فهو في الوقت الذي نتحدث عنه في سن عيسى أو قريب منه، ويصفه مرقس ومثى بأنه كان يرتدي ثوباً من الشعر؛ ويعيش على الجراد الجاف وعسل النحل، ويقف بجوار نهر الأردن؛ ويدعو الناس إلى التوبة. وكان يماثل الإسيبيين في الزهد، ولكنه يخالفهم في اعتقاده أن التعميد يكفي أن يكون مرة واحدة؛ وقد يكون اسمه "المعمدان" مرادفاً للفظ اليوناني "إسين" أي الاستحمام(38)؛ وقد أضاف يوحنا إلى عقيدة التطهير الرمزي تنديده الشديد بالنفاق، وعدم التمسك بالأخلاق القويمة، وطلبه إلى المذنبين أن يستعدوا إلى الدار الآخرة، وإعلانه قرب حلول مملكة السماء(39)، وقوله إنه إذا تابت بلاد اليهود كلها وتطهرت من الخطيئة جاء المسيح وحلت مملكة السماء على الفور.

ويقول لوقا إنه في "السنة الخامسة عشرة من حكم تيبيريوس" أو بعدها بقليل جاء يسوع إلى نهر الأردن ليُعمد على يديه. وهذا القرار الذي اتخذه رجل "يقرب من سن الثلاثين" (40) شاهد على أن المسيح قد آمن بتعاليم يوحنا، وأن تعاليمه هو لن تفترق في جوهرها عن تلك التعاليم. أما أساليبه، وأخلاقه فكانت تختلف عن أمثالها عند يوحنا: فهو لم يعمد أحداً(41)، ولم يعيش في البيداء، بل عاش في العالم. ولم ينقض على هذا اللقاء بين عيسى ويوحنا إلا قليل من الوقت حتى أمر هيرودس أنتيباس "صاحب المُنْدن الأربع" في الجليل بسجن يوحنا. وتقول الأناجيل إن سبب القبض على يوحنا هو انتقاد هيرودس لأنه طلق زوجته، وتزوج هيرودياس وهي لا تزال زوجة لفليب أخيه غير الشقيق. أما يوسفوس فيقول إن سبب القبض عليه هو خوف هيرودس أن

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> نشأة عيسى

يكون يوحنا يستتر بستار الإصلاح الديني ليثير القلاقل السياسية في البلاد(42). ويروي مرقس(43) ومثى(44) في هذا المجال قصة سالوم ابنة هوردياس، التي فتنت هيرودس برقصها أمامه حتى عرض عليها أن يقدم لها أية مكافئة تطلبها. ويقولان إنها طلبت إليه رأس يوحنا، بتحريض من أمها، وإن الحاكم أجابها وهو كاره إلى طلبها. وليس في الأناجيل شيء عن حب سالوم ليوحنا، وليس في يوسفوس ما يشير إلى أنها كانت لها يد في موته.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الرسالة

الفصل الثالث

الرسالة

ولما سجن يوحنا أخذ عيسى يقوم بعمل المعمدان ويخطب في الناس مبشراً بملكوت الله(45)، ويقول لوقا إنه "عاد إلى الجليل"، وأنه "كان يعلم في مجامعهم"(46). وليست لدينا صورة مطبوعة في أذهاننا عن ذلك الشاب المثالي وهو يقوم بدوره في قراءة الكتاب المقدس على المجتمعين في الناصرة، ويختار لهم فقرة من سفر اشعيا: "روح الرب عليّ لأن الرب مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسيبين بالعنق وللمأسورين بالإطلاق" "والعمى بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية"، ويضيف لوقا "وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه، فابتدأ يقول إليهم إنه اليوم قد تم هذا المكتوب في مسامعكم"، وكان الجميع يشهدون ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فيه(48). ولما عرف أن يوحنا قد قُتل وأن أتباعه كانوا يبحثون عن زعيم جديد تحمل يسوع العبء وما يستتبعه من خطر، وارتد أولاً في حذر وحيطة إلى القرى الهادئة وصار يتجنب على الدوام الجدل السياسي، ثم أصبح في كل يوم أعظم جراً في إعلان إنجيل التوبة، والإيمان، والنجاة، حتى ظن بعض أتباعه أنه هو يوحنا قام من بين الأموات(49).

وإننا ليصعب علينا أن ننظر إليه نظرة موضوعية مجردة. وليس سبب هذه الصعوبة مقصوراً على أن كل ما نعرفه عنه منقول عن الذين كانوا يعبدونه، بل إن من أكبر أسبابها أن تراثنا الأخلاقي ومثلنا العليا وثيقا الصلة به، نكون

صفحة رقم : 3915

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الرسالة

على منواله، ولهذا فإننا نحس بما يصيبنا من أذى إذا وجدنا عيباً في أخلاقه. لقد بلغ شعوره الديني من القوة حداً جعله يندد أشد التنديد بمن لا يشاركونه في آرائه، ويعفو عن كل الأغلاط إلا عدم الإيمان. وإن الإنسان ليجد في الأناجيل فقرات قاسية مريرة لا توائم قط ما يقال لنا عن المسيح في مواضع أخرى منها؛ ويبدو أنه قبل دون بحث وتمحيص أفسى ما كان يؤمن به معاصروه عن جهنم السرمدية التي يعذب فيها من لا يتوبون من الكفار والمذنبين بالنار التي لا تنطفئ أبداً والديدان التي لا تشبع من نهش أجسامهم(50). وهو يقول دون أن يحتج عليه أحد إن رجلاً فقيراً في الجنة لم يُسمح له بأن يترك نقطة واحدة من الماء تسقط على لسان رجل غني في الجحيم(51). وينصحنا بنبل شرف الأ

نحكم حتى لا يُحكم علينا، ولكنه يعلن الناس والمُدن التي لم تؤمن برسالته ويلعن شجرة التين التي لم تكن تحمل ثمراً (52). ولعله كان قاسياً بعض القسوة على أمه (53). وكان يتصف بحماسة النبي العبراني المتمزمت أكثر من اتصافه بالهدوء الشامل الذي يمتاز به الحكيم اليوناني وكانت عقائده القوية تملأ قلبه؛ كما كان غضبه للحق يطمس من حين إلى حين معالم إنسانيته العميقة؛ ولكن أغلاطه كانت هي الثمن الذي أداه لذلك الأيمان القوي الذي استطاع أن يحرك به العالم. أما فيما عدا هذا فقد كان أحب الناس إلى القلوب. وليست لدينا صورة واحدة له ولم يترك لنا أتباعه وصفاً دقيقاً له، ولكن الذي لا شك فيه أنه كان وسيماً بعض الوسامة، كما كان ذا روح جذابة، استطاع بفضلها أن يجمع حوله كثرات من النساء وكثيرين من الرجال. وفي وسعنا أن نستدل من بعض العبارات المتفرقة (54). على أنه كان بلبس، كما كان يلبس أهل زمانه، عباءة فوق جلباب، وخفين في قدمه، ولعله كان يضع على رأسه غطاء ينزل على كتفيه ليقيه حر الشمس (55). وكانت كثرات من النساء يجدن عنده شيئاً من العطف والحنان يبعث فيهن إخلاصاً عامراً تفيض به قلوبهن. وليس انفراد يوحنا بذكر المرأة التي ضُبطت وهي تزني

صفحة رقم : 3916

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الرسالة

حجة على كذبها، فليست هذه القصة مما يفيد يوحنا من الناحية الدينية، وهي فوق هذا مما يتفق كل الاتفاق مع أخلاق المسيح. ولا يقل جمالاً عن هذه القصة قصة أخرى ليس في طاقة أتباعه أن يخترعوها، وهي قصة العاهر التي أثرت في قلبها سرعة قبوله توبة المذنبين، فخرت راحة بين يديه، ودهنت قدميه بالطيب الثمين، وغسلتهما بدموعها، وجففتها بشعر رأسها، وقال عنها عيسى إن خطاياها قد عُفرت لها "لأنها أحببت كثيراً" (57). ويروى أن الأمهات كن يأتين إليه بأطفالهن ليمسهم بيديه، وأنه "احتضنهم ووضع يديه عليهم وباركهم" (58). ولم يكن عيسى من النساك الزاهدين كما كان الأنبياء والإسنيون والمعمدان. ويروى عنه أنه قدم كثيراً من الخمر في حفل للزواج، وأنه كان يعيش مع "العشارين والمذنبين"، وأنه قبل عاهراً تانية ضمن أتباعه. ولم يكن يأنف من مسرات الحياة السانجة، وإن كان قد قسا قسوة غير طبيعية على رجل كان يشتهي فتاة. وكان في بعض الأحيان يقبل الدعوة إلى الولائم في بيوت الأغنياء، ويبدو أنه كان في العادة يختلط بالفقراء، وإن كانوا من الامحاريين Amhaarez أشبه الناس بالمنبوذين الذين كان الفريسيون والصدوقيون يحتقرونهم ويتجنبونهم. وكان يدرك أن الأغنياء لن يؤمنوا برسالته، فكان لذلك يبني أماله على ما عساه يحدث من انقلاب يدخل الفقراء الوضيعين الألعين في ملكوت الله. ولم يكن يشبه قيصر إلا في وقوفه إلى جانب الطبقات السفلى وفي اتصافه بالرحمة. أما فيما عدا هذا فما أكبر الفرق بين الرجلين في أخلاقهما، ونظرتهما إلى الحياة، وما يهتمان به فيها. لقد كان قيصر يرجو أن يصلح الناس بتبديل

صفحة رقم : 3917

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الرسالة

نظمهم وشرائعهم، أما المسيح فكان يرغب في أن يكون تغيير طبائع الناس وسيلة لتبديل النظم والاستغناء عن كثير من الشرائع. وكان قيصر هو الآخر ممن يغضبون أحياناً، ولكن انفعالاته كانت على الدوام تحت سيطرة بصيرته النفاذة، أما عيسى فلم يكن أيضاً غير ذي بصيرة، وكان يجب عن أسئلة الفريسيين الماكرة بمهارة تكاد تضارع مهارة المحامين. ولكنها لم تكن مهارة خالية من الحكمة، ولم يكن في وسع أحد أن يربكه ولو هدده بالقتل، لكن قواه العقلية لم يكن منشؤها اتساع عقله أو كثرة معارفه، بل كان مبعثها نفاذ البصيرة، وقوة الشعور، ووحدة الغرض. ولم يكن يدعي العلم بكل شيء، وكثيراً ما كان يفاجأ بالحوادث التي لا ينتظر وقوعها، وكان الذي يحمله على المغالاة في تقدير قواه ومواهبه هو جده وحرصه على الوصول إلى غرضه وتحمسه له، كما حدث في الناصرة وأورشليم، بيد أن قواه كانت غير عادية، ولعل الذي يثبت هذا هو معجزاته.

وأكبر الظن أن معظم هذه المعجزات كانت تحدث في أكثر الأحوال بقوة الإيحاء - أي بتأثير روح قوية واثقة من نفسها، في روح قابلة للتأثر. ولقد كان وجوده في حد ذاته يبعث القوة في من حوله، فكانت لمسته المباشرة بالخير تشفي المريض وتقوي الضعيف، وليست رواية أمثال هذه القصص عن غيره من الناس في الخرافات والتاريخ (59) دليلاً على أن معجزات المسيح هي الأخرى خرافات وأساطير، فليس منها إلا عدد قليل لا يصدق العقل، ويمكن مشاهدة أمثالها في كل يوم تقريباً في لورد Lourdes، وما من شك في أنها كانت تحدث أثناء حياة المسيح في إيدورس Epidaurus وغيرها من مراكز العلاج النفسي في العالم القديم؛ وقد شفى الرسل أنفسهم حالات من هذا النوع. وهناك عاملان يدلان على أن هذه المعجزات ظاهرة نفسية، أولهما أن المسيح نفسه كان يعزو شفاء المرضى على يديه إلى "إيمان" من يشفيهم؛ وثانيهما عجزه عن القيام

صفحة رقم : 3918

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - شباب المسيحية - عيسى أو يسوع - الرسالة

بمعجزات في الناصرة، لأن أهلها فيما يظهر كانوا ينظرون إليه على أنه "ابن نجار" ولا يؤمنون بقواه غير العادية؛ ومن ثم كان قولهم إنه "ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته" (60). ويُقال لنا عن مريم المجدلية إن "سبعة شياطين قد أخرجت منها، أي أنها كانت تشكو ألماً ونوبات عصبية، (ويذكرنا هذا باعتقاد البعض أن الشياطين تنقص أجسام الناس)؛" والظاهر أن هذه الآلام والنوبات كانت تخف حدثها في حضرة عيسى؛ ومن أجل هذا كانت تحبه لاعتقادها بأنه أعاد إليها الحياة، وأن قربه منها كان أمراً لا غنى عنه لسلامة عقلها. وأما ابنة بايروس فقد قال المسيح عنها في صراحة: إن البنت لم تمت بل كانت نائمة - ولعلها كانت مصابة بالشخوص، ولم يلجأ حين ناداها بأن تستيقظ إلى لهجته الرقيقة المعتادة بل قال بلهجة الأمر القوية: "طلبياً قومي" (أي يا صبية قومي) (61). ولسنا نقصد بهذا أن نقول إن عيسى كان يرى أن معجزاته ظواهر طبيعية محضة؛ فقد كان يحس أنه لا يأتي بهذه المعجزات إلا بمعونة ما فيه من روح قدسية. ولسنا نعرف أنه كان مخطئاً في اعتقاده هذا، كما أننا لا نستطيع حتى الآن أن ندرك حدود ما في تفكير الإنسان وإرادته من إمكانيات وقوى كامنة. ويبدو أن عيسى نفسه كان يحس بخور نفساني بعد أن يقوم بمعجزاته، وأنه كان يحاولها وهو كاره، وينهي أتباعه عن إذاعتها، ويؤنب من يطلب عليه "علامة"، ولقد ساءه أن أكبر الأسباب التي دعت الرسل أنفسهم إلى الإيمان به هو ما أتاه من أفعال "عجيبة".

ويصعب علينا أن نقول إن أولئك الرسل كانوا من طراز الذين يختارون ليبدلوا أقوال العالم. فالأناجيل تظهر ما بين أخلاقهم من اختلاف واقعي، وتكشف عن عيوبهم كشفاً صريحاً، فهم لا يخفون مطامعهم، ولما أراد

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الرسالة

عيسى أن يهدئ من هذه المطامع و عدهم بأنهم سيجلسون في يوم الحساب على اثني عشر كرسيًا يدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر (62). ولما أن سجن المعمدان انضم أندرو أحد أتباعه إلى عيسى وجاء معه بأخيه سيمون الذي سماه المسيح باسم كفاس، أي "الصخرة". وترجم اليونان اسمه إلى بطرس، وبطرس هذا شخصية بشرية لحمًا ودمًا، فهو متهور، جاد، كريم، غيور، هياب يصل به الوجل في بعض الأحيان إلى حد الجبن الذي لا يسع الإنسان إلا أن يعفو عنه. وقد كان هو وأندرو يصيدان السمك في بحيرة الجليل، وكذلك كان ولدا زبدي Zebedee يعقوب ويوحنا. وانتقل هؤلاء الأربعة بأعمالهم وأسرهم وأصبحوا دائرة ضيقة حول المسيح. وكان مثنى جابياً في مجينة كبرنوم القائمة على الحدود؛ أي أنه كان يقوم بعمل للدولة، وإن فقد كان في منصبه هذا يخدم رومة، لهذا كان مكروهاً من كل يهودي يتوق إلى الحرية. وكان يهوذا الكريوثي وحده دون سائر الرسل الذي لم يأت من الجليل. وجمع الاثني عشر كلهم جميع ما يملكون وعهدوا إلى يهوذا أن يتولاها نائباً عنهم. وكانوا في طوافهم مع المسيح في رحلاته التبشيرية يعيشون على ما يقدمه لهم القرويون، ويأخذون طعامهم أنا بعد أن مما يمرون به من الحقل، ويقبلون ضيافة أصدقائه ومن يهتدون بهديهم. وقد أضاف عيسى إلى الاثني عشر اثنين وسبعين من الأتباع، وبعث بأثنين منهم إلى كل بلدة يريد أن يزورها، وقال لهم "لا تحملوا كيساً، ولا مزوداً، ولا أحذية" (63). وانضمت بعض النساء الصالحات الرحيمات إلى أولئك الرسل والاتباع وقدمن لهم المعونة، وأدين لهم تلك الأعمال المنزلية التي لا غنى عنها، والتي هي أعظم سلوى لحياة الرجال. وعلى يد هذه الجماعة الصغيرة الوضيعة غير المتعلمة أرسل المسيح إنجيله إلى العالم.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الإنجيل

الفصل الرابع

الإنجيل

وكان يعلم الناس بالبساطة التي تتطلبها حال مستمعيه، ويمزج هذه التعاليم بالقصص الطريفة التي تجعل دروسه تنفذ إلى الأذهان، وبالحكم والأمثال القوية بدل الحجج العقلية، وبالاستعارات، والمجازات التي لا تقل روعة عن أمثالها في أي أدب من آداب العالم. وكانت طريقة القصص الرمزي التي يلجأ إليها مألوفة في بلاد الشرق، وقد أخذ بعض تشبيهاته الرائعة، ولعله أخذها دون علم منه، عن أنبياء بني إسرائيل، وكتاب المزامير وأخبار اليهود (64). ويبدو أن وضوح خطبه واتجاهها إلى هدفها مباشرة، وروعة خياله وقوته، وإخلاصه العظيم، قد رفعت أقواله إلى مستوى الشعر الملهم. ولسنا ننكر الغموض يكتنف بعض أقواله، وأن بعضها يبدو لأول وهلة مما يجافى مع العدالة (65)، وأن منها ما يشتمل على السخرية اللاذعة والحقد المرير، ولكنها كلها تقريباً نماذج في الإيجاز والوضوح والقوة. وكانت بداية تعاليمه هي إنجيل يوحنا المعمدان، وهذا الإنجيل نفسه يرجع إلى دانيال وأخنوخ، إذ ليس في التاريخ طفرات. ومن أقواله أن ملكوت الله قد حان أجلها، وأن الله سيقضي عما قريب على عهد الشر والخبائث، وأن ابن الإنسان سيأتي "على سحب السماء" ليحاسب جميع البشر الأحياء منهم والأموات (66). ومن أقواله إن الوقت الذي يجب أن يتوب فيه الإنسان من ذنوبه يمر مسرعاً، فأما من تاب وأناب، وسلك سبيل العدالة، وأحب الله وآمن برسوله، فإنه يرث ملكوت السموات، ويسمو إلى القوة والمجد في عالم قد تحرر آخر الأمر من جميع الشرور والآلام والموت.

صفحة رقم : 3921

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الإنجيل

وكانت هذه الأفكار كلها مألوفة لسامعيه، ولهذا فإن المسيح لم يحددها تحديداً واضحاً، ومن ثم نشأت في وقتنا هذا صعاب جمة سببها ما في هذه الأفكار من غموض. ترى ماذا كان يعني بملكوت السموات؟ أهى سماء خيالية خارجة عن مألوف الطبيعة؟ يخيل إلينا أنها لم تكن كذلك، لأن الرسل والمسيحيين الأولين كانوا على بكرة أبيهم ينتظرون أن توجد مملكة أرضية، وكانت هذه هي الرواية اليهودية التي ورثها عنهم المسيح، ومن أجل هذا كان يعلم أتباعه أن يصلوا إلى الأب قائلين "الآب ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض". ولم ينطق إنجيل يوحنا المسيح بقوله إن "مملكتي ليست من هذا العالم" (67) إلا بعد أن خبا هذا الأمل. فهل كان يعني بها حالة روحية أو طوبى مادية؟ لقد كان يتحدث في بعض الأحيان عن ملكوت الله في وصفها حالة من حالات الروح يصل إليها الأبطال المبرؤون من الذنوب. "ملكوت الله داخلكم" (69)، وكان في أحيان أخرى يصورها كأنها مجتمع سعيد في مستقبل الأيام، حكامه هم الرسل، ويأخذ من أعطي أو أودى في سبيل المسيح مائة ضعف (70). ويبدو أنه لم يكن يرى أن ملكوت الله هي الكمال الخلقي إلا مجازاً، وأنه يرى أن هذا الكمال الخلقي إنما هو إعداد لهذا الملكوت وثمرته يؤدي للحصول عليه، وأنه هو الحال التي تكون عليها جميع الأرواح الناجية في الملكوت إذا ما تحقق (71). ومتى يحين موعد هذا الملكوت؟ قريباً "الحق أقول لكم إنني لا أشرب بعد من نتاج الكرمة إلى ذلك اليوم حين أشربه جديداً في ملكوت الله". ومن أقواله لأتباعه: "لا تكلمون مدين إسرائيل حتى يأتي ابن الإنسان" (72). ثم أخره قليلاً فيما بعد: "إن من القيام ههنا قوماً لا يزوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتياً في ملكوته" (74)؛ "لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا

صفحة رقم : 3922

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الإنجيل

كله" (75). ومرت به لحظات رأى فيها من حسن السياسة أن يحذر رسله بقوله: "وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن إلا الأب" (76). وستسبقه علامات: "وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب... تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة، وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل في أماكن... يعثر كثيرون... يبغض بعضهم بعضاً، ويقوم أنبياء كذبة كثيرون، ويضلون كثيرون، ولكنة الإثم تبرد محبة الكثيرين" (77). وفي بعض الساعات جعل يسوع مجيء ملكوت الله ينتظر استحالة الإنسان إلهاً عادلاً كما جعله موقوفاً على هذه الاستحالة، وهو يجعل حلول الملكوت عادة عملاً من أعمال الله، وعطية معجزة يفاجأ بها الناس من قبل العناية الربانية.

وقد فهم الكثيرون ملكوت الله بأنه طوبى شيعية؛ وحسبوا المسيح ثائراً اجتماعياً (78). وإنا لنرى في الأناجيل بعض الشواهد التي تؤيد هذا الرأي، منها أن المسيح لا يخفي احتقاره للرجل الذي يجعل همه في الحياة جمع المال والانغماس في الترف (79)، فهو يتوعد الفتى البطين بالجوع والشقاء، ويوآسى بالتطويبات التي ضمن لهم بها ملكوت الله. ولما سأله شاب غني عما يجب أن يفعله بعد أن حفظ الوصايا قال: "بع أملاكك، وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء، و... إتبعني" (80). ويبدو أن الرسل كانوا يفسرون الملكوت بأنه انقلاب ثوري للعلاقات القائمة بين الأغنياء والفقراء، وسوف نراهم هم والمسيحيين الأولين يؤلفون جماعة شيعية: "وجميع الذين آمنوا كانوا معاً، وكان عندهم كل شيء مشتركاً" (81). وكانت التهمة التي أدين من أجلها عيسى هي أنه كان يتأمر ليكون "ملك اليهود". ولكن في وسع الرجل المحافظ أن يجد في العهد الجديد شواهد يؤيد بها آراءه. منها أن المسيح قد اتخذ مئتي صديقاً له، ومتى هو الذي ظل كما كان

صفحة رقم : 3923

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الإنجيل

عاملاً من قبل الرومان، ومنها أنه لم يطعن قط على الحكومة المدنية ولم يكن له فيما تعلم نصيب في الحركة اليهودية التي تهدف إلى الحرية القومية، وأنه كان ينصح بالكياسة البعيدة أئد البعد عن الثورة السياسية. وقد نصح الفريسيين بأن يعطوا "ما لقيصر لقيصر وما لله لله" (82). ولسنا نجد في قصة الرجل الذي "دعا عبده" قبل سفره "وسلمهم أمواله" (83) أية شكوى من الربا أو الاسترقاق. بل إنها تسلم بهاتين السنتين بوصفهما من الأمور التي لا تقبل الجدل. ويبدو أن المسيح يقر ما فعله العبد الذي استثمر العشر الميقات (600 ريال أمريكي) التي عهد بها إليه سيده، فصارت عشرين؛ وأنه لا يقر عمل العبد الذي تركت له منها واحدة فحبسها ولم يستثمرها حتى يعود سيده من غيبته، وينطق هذا السيد بتلك العبارة القاسية: إن كل من له يُعطى، ومن ليس له فالذي عنده يُؤخذ منه (84)، وهي خير ما تلخص به أعمال السوق التجارية، إن لم نقل إنها خير خلاصة لتاريخ العالم. وفي قصة رمزية أخرى نرى العمال غاضبين على صاحب العمل الذي يؤجر من عمل ساعة بقدر ما يؤجر الذين ظلوا يكدحون طوال اليوم؛ فينطق المسيح صاحب العمل بقوله: "أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بمالي؟" (85). ويبدو أن المسيح لم يفكر في القضاء على الفقر، لأن الفقراء دائماً معه. فهو كالأقدمين جميعاً يرى أن من الأمور المسلم بها أنه يجب على العبد أن يخدم سيده على خير وجه: "طوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا" (86) أي ما كلفه به. وهو لا يرى من شأنه أن يهاجم النظم الاقتصادية أو السياسية القائمة في وقته، بل يفعل عكس هذا فيهاجم ذوي النفوس الثائرة المتحمسة الذين

يغتصبون ملكوت السموات (87). أما الثورة التي كان يفكر فيها فكانت أعمق من هذه الثورة وأبعد منها أثراً، فهي ثورة إذا لم تحدث كانت كل الإصلاحات سطحية سريعة الزوال. فإذا استطاع أن يطهر قلوب الناس من الشهوات الأنانية، ومن القسوة، والفجور، فإن الطوبى

صفحة رقم : 3924

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الإنجيل

تحل، ولا يبقى أثر لتلك النظم التي تنشأ من شره الإنسان وعنفه، وما تستتبعه من الحاجة إلى القوانين. وهذا إذا تم كان أعمق الثورات، التي إذا قيست إليها الثورات جميعاً كانت تغييراً موقوتاً يضع طبقة مكان طبقة، وتظل الطبقة الغالبة تستغل الناس كما كانت تستغلهم الطبقة المغلوبة. وبهذا المعنى كان المسيح أعظم الثائرين؛ أي محدثي الانقلابات في تاريخ العالم.

وليس أهم أعماله أنه يبشر بدولة جديدة، بل أهمها أنه يضع الخطوط الرئيسية لمبادئ أخلاقية مثالية. وكانت تلك المبادئ الأخلاقية هي التي تتبأ بقيامها عندما يحل موعد ملكوت الله (88)، والتي كان يقصد بها أن يكون الناس خليقين بالدخول في هذا الملكوت. ومن ثم كانت تلك "التطويات" وما فيها من تمجيد للوداعة، والفقير والرقعة، والسلام لم يسبق له مثيل، وكانت نصيحته أن يدير الإنسان خده الثاني، وأن يكون الناس كصغار الأطفال "لا مثلاً علياً للفضيلة!" وعدم اهتمامه بالشئون الاقتصادية، وبالفقير، وبشئون الحكم، وتفضيله العزوبة عن الزواج، وأمره الناس بأن يتخلوا عن جميع الروابط العائلية لم تكن هذه قواعد للحياة العادية، بل كانت نظاماً يكاد يماثل نظام الأديرة يهتئ الرجال والنساء لأن يختارهم الله لمملكة مرتقبة، لن تكون فيها شريعة، ولا زواج، ولا علاقات جنسية، ولا فقر، ولا حر، وقد أتى يسوع على الذين تركوا "بيتاً، أو والدين، أو أخوة، أو امرأة، وأولاداً" بل أتى أيضاً على الذين "خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات" (89). وما من شك في أن هذه التعاليم قد وضعت لتسير عليها أقلية دينية ورعة، ولم توضع لمجتمع دائم، لقد كانت هذه مبادئ أخلاقية، ضيقة في أغراضها، ولكنها عامة في مجالها، لأنها تطبق فكرة الاخوة والقاعدة الذهبية على الأجانب والأعداء كما تطبقها على الجيران والأصدقاء، وكانت تتطلع إلى زمن لا يعبد في الناس الله في الهياكل بل يعبدونه "بالروح، والصدق" وبكل عمل يعملونه لا بالألفاظ الزائلة.

صفحة رقم : 3925

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الإنجيل

ترى هل كانت هذه المبادئ الأخلاقية جديدة؟ ليس ثمة شيء جديد إلا الترتيل، وإن الفكرة الرئيسية التي تدور حولها عضات المسيح- فكرة يوم الحساب وملكوت الله- لهي من الأفكار التي وجدت عند اليهود قبل ذلك الوقت بمائة عام. ولقد نادى الشريعة بأخوة البشر قبل ذلك بزمان طويل، فقد جاء في سفر اللاويين: "تحب قريبك كنفسك" و "كالوطني

منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك" (90). وكان اليهود قد أمروا في سفر الخروج أن يحسنوا لأعدائهم (91)، وكان إرميا (92) وإشعيا (93)، قد أشارا عليهم أن يديروا خدهم لمن يلطمهم. وكان الأنبياء أيضاً قد جعلوا الحياة الصالحة أعلى درجة من العداوة أياً كان نوعها، وكان إشعيا (94) وهوشع (95)، قد شرعا يبدلان يهوه من رب الجنود إلى إله الحب، وكان هلل قد صاغ القاعدة الذهبية كما صاغها كنفوشيوس؛ وليس من حقنا أن نأخذ على يسوع أنه ورث المبادئ الأخلاقية التي كانت سائدة بين شعبه، وأفاد من تلك المبادئ. وقد ظل المسيح زمناً طويلاً لا يرى في نفسه إلا أنه أحد اليهود، يؤمن بأفكار الأنبياء، ويواصل عملهم، ويجري على سنتهم، فلا يخطب إلا في اليهود، ولما أرسل أتباعه لينشروا إنجيله لم يرسلهم إلا لمدن اليهود: "إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا" (96)؛ ومن ثم كان تردد الرسل بعد موته في أن يحملوا "الأنبياء الطيبة" إلى عالم "الكفرة" (97)؛ ولما التقى بالسامرية عند البئر قال لها "الخلاص لهو من اليهود" (98)؛ وإن لم يكن من حقنا أن نحكم عليه من أقوال لعلها قد تقولها عليه إنسان لم يكن حاضراً معه، أو كتبها بعد سنتين عاماً من الحادثة التي قيلت فيها. ولما طلبت إليه امرأة كنعانية أن يشفي غبنتها أبي في أول الأمر وقال: "لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة" (99). وقال للأبرص الذي شفاه من علته "اذهب أر نفسك للكاهن وقدم القربان الذي أمر به موسى" (100): "على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون،

صفحة رقم : 3926

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الإنجيل

فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه، لكن حسب أعمالهم لا تعملوا" (101)، ولما عرض يسوع أن تعدل الشريعة اليهودية، سار على سنة هلل فلم يفكر في انه ينقض هذه الشريعة: "لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل" (102) "ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس". لكنه مع هذا قد بدل كل شيء بقوة أخلاقه وشعوره. فقد أضاف إلى الشريعة اليهودية أمره إلى الناس بأن يستعدوا للدخول في الملكوت بأن يحيوا حياة العدالة، والرأفة والبساطة. وزاد الشريعة صرامة في مسائل الجنس والطلاق (105)، ولكنه خففها بأن كان أكثر استعداداً للعفو (106)، وذكر للفريسيين أن السبت قد وضع لخير الإنسان (107)، وخفف الشروط الموضوعية على الطعام والطهارة، وحذف بعض أوقات الصوم، وأعاد الدين من المراسم والطقوس إلى الصلاح والاستقامة، وندد بالجهر بالصلوات، والتظاهر بالصدقات، والاحتفالات الفخمة بالجنائز، وترك الناس أحياناً يظنون أن الشريعة اليهودية سوف تمحى حين تحل الملكوت (108). وقد قاوم اليهود على اختلاف شيعتهم هذه الإصلاحات عدا الإسمينيين، وكان الذي أغضبهم بنوع خاص ما دعاه لنفسه من حق العفو عن الخطايا والتحدث باسم الغلة. وقد هالهم أن يروه يختلط بعمال روما المبعضين؛ وبالنساء ذوات السمعة السيئة. وكان كهنة الهيكل وأعضاء السنهدين يرقبون نشاطه بعين الريبة، ويرون في هذا النشاط ما كان يراه هيرودس في نشاط يوحنا وهو أنه ستار يخفي تحته ثورة سياسية، وكانوا يخشون أن يتهمهم الحاكم الروماني بأنهم يتحللون مما هو مفروض عليهم من تبعات ليحافظوا بذلك على النظام الاجتماعي.

صفحة رقم : 3927

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الإنجيل

وقد أوجسوا في نفوسهم خيفة من وعد المسيح بتدمير الهيكل، ولم يكونوا واثقين من أن هذا التدمير إنما هو تدمير مجازي لا يقصد به حرفيته. أما المسيح نفسه فقد ندد بهم تنديداً شديداً.

"الكنبة الفريسيون... يحزمون أحمالاً ثقيلة سرّة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس، وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم. وكل أعمالهم يعملونها لكي تتضررهم الناس، فيعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم، ويحبون المنكأ الأول في الولايم والمجالس الأولى في المجمع: لكن ويل لكم أيها الكنبة والفريسيون.. أيها القادة العميان.. أيها الجهال والعميان!.. تركتم أثقل الناموس- الحق والرحم والإيمان... تتقون خارج الكأس والصحفة، وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة... ويل لكم أيها الكنبة والفريسيون المراءون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة!... تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء ونفاق... إنكم أبناء قتلة الأنبياء، فإملأوا أنتم مكياً أبائكم! أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم؟... إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله" (109).

ترى هل كان يوحنا عادلاً في حكمه على الفريسيين؟ أكبر الظن أنه كان من بينهم من يستحقون هذا التقريع، وأن منهم كثيرين كانوا يفعلون ما فعله المسيحيون بعد بضعة قرون من ذلك الوقت فيستبدلون بطهارة النفس بمظاهر التقى الخارجية. غير أنه كان من بين الفريسيين كثيرون يرون أن الشريعة يجب أن تخفف وأن تكون أكثر إنسانية مما هي (110). ولعل عدداً كبيراً من هذه الطائفة كانوا رجالاً مخلصين وأشرفاً ظرفاء إلى حد كبير؛ يشعرون بأن القواعد الشكلية التي أغفلها يسوع يجب ألا يُحكم عليها مستقلة عن غيرها من القواعد، بل يجب أن تؤخذ على أنها جزء من الشرائع التي ساعدت على جمع كلمة اليهود، بعثت فيهم العزة والأدب وسط عالم يبغضهم ويعاديهم. وكان بعض

صفحة رقم : 3928

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الإنجيل

الفريسيين يعطفون على عيسى، وقد جاءوه ليحذروه من المؤامرات التي كانت تدبر لاغتياله (111)، ولقد كان نقوميديس Nicomedus أحد المدافعين عنه من أغنياء الفريسيين.

وحلت القطيعة الأخيرة بين عيسى وبينهم حين بدأ يعتقد أنه هو المسيح المنتظر، ويُعلن هذا في صراحة ووضوح. لقد كان أتباعه ينظرون إليه في أول الأمر على أنه خليفة يوحنا المعمدان، ثم أخذوا يعتقدون شيئاً فشيئاً أنه هو المنقذ الذي سيرفع نير الرومان عن إسرائيل، ويبسط حكم الله على الأرض. ولما أن سألوه "قائلين يا رب هل في هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل؟" (112) لم يجبههم إلا بقوله "ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التي جعلها الرب في سلطانه" وأجاب جواباً شبيهاً بهذا الجواب في غموضه حين سأله رسل من عند المعمدان هل هو المسيح المنتظر؟ وأراد أن يخرج من عقول أتباعه فكرة أنه مسيح سياسي فأنكر كل إدعاء بأنه من نسل داود (113). ولكن يلوح أن ترقب أتباعه وآمالهم القوية، وما تبينه من قواه النفسية غير العادية قد أقتعاه تدريجاً بأنه رسول من عند الله جاء ليعد الناس لحكم الله في الأرض لا ليعيد سيادة اليهودية. ولم يقل (في الأناجيل الثلاثة المتشابهة: متى، ومرقس، ولوقا) إنه هو الأب إليه واحد أو يسوي نفسه به؛ فقد سأل أتباعه "ماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحداً هو الله" (114) وقال وهو يصلي في جتسماني: "ليكن لا كما أريد أنا، بل كما تريد أنت" (115). وقد أخذ لفظ "ابن الإنسان" الذي جعله دانيال

مرادفاً للفظ المسيح، واستعمله في بادئ الأمر دون أن يقصد به نفسه في وضوح ثم انتهى آخر الأمر بإطلاق هذا اللفظ على نفسه في مثل قوله: "فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً" (117)- وهي عبارة رآها الفريسيون تجديفاً في حق الله. وكان يدعو الله باسم "الأب" دون أن يقصد بهذا في بعض الأحيان أباه هو نفسه، بيد أنه أحياناً أخرى يقول: "أبي". ويبدو أنه يقصد بهذا

صفحة رقم : 3929

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الإنجيل

أنه ابن الله بصفة أو درجة خاصة (118). وقد ظل وقتاً طويلاً ينهي أتباعه عن أن يسموه المسيح، ولكنه في قيصرية فلبس رضي بقول بطرس إنه "المسيح ابن الله الحي" (119). ولما اقترب من أورشليم في آخر يوم اثنين قبل وفاته ليوجه آخر دعوة إلى الناس حباه "جمهور التلاميذ" فائلين "مبارك الملك الآتي باسم الرب"، ولما طلب إليه بعض الفريسيين أن ينتهر تلاميذه من أجل هذه التحية رد عليهم بقوله: "إنه لو سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ" (120). وقد جاء في الإنجيل الرابع أن الجماهير حينه بقولها "إنه ملك إسرائيل" (121). ويبدو أن أتباعه كانوا لا يزالون يعتقدون أنه مسيح سياسي سيقضي على سلطان الرومان ويجعل الكلمة العليا لليهودية. وكانت هذه الأصوات والتحيات هي التي قضت على المسيح بأن يموت ميتة الثور.

صفحة رقم : 3930

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الموت والتجلي

الفصل الخامس

الموت والتجلي

اقترب عيد الفصح واجتمع في أورشليم عدد كبير من اليهود ليقربوا القرابين للهيكل. وكان البهو الخارجي يضح بأصوات البائعين ينادون على الحمام وغيره من حيوانات الضحايا والصيارفة يعرضون النقود المتداولة في هذا

المكان بدل نقود الوثنيين المتداولة في الإمبراطورية الرومانية. ولما زار عيسى الهيكل في اليوم الثاني بعد دخوله المدينة هاله ما كان تحت المظلات من ضجيج وأعمال تجارية، فانتابته هو وأتباعه نوبة من الغضب الشديد، دفعتهم إلى قلب مناخذ الصيارفة وتجار الحمام، وبعثرت نقودهم على الأرض، وإخراج التجار من ساحته بضرب العصي. وظل عدة أيام بعد مجيئه يعلم في الهيكل دون أن يتعرض له أحد (122). ولكنه كان يخرج منه ليلاً ويبيت في جبل الزيتون لخوفه أن يُقبض عليه أو يُغتال.

وكان عمال الحكومة - المدنيون منهم والدينيون، الرومان واليهود - يراقبونه، وأكبر الظن أن هذه المراقبة قد بدأت من يوم أن خلف يوحنا المعمدان في عودته. وكان عجزه عن أن يضم إليه عدداً كبيراً من الأتباع مما جعلهم يهملون أمره، ولكن يبدو أن الاستقبال الحماسي الذي استقبل به في أورشليم حير زعماء اليهود فصاروا يخشون أن تلتهب حماسة هذه الجماعات التي اجتمعت في عيد الفصح، فتدفعها عواطفها الثائرة ونزعتها الوطنية إلى الثورة على السلطة الرومانية ثورة طائشة عقيمة لم يحن موعدها بعد، فتكون عاقبتها القضاء على كل ما تستمتع به اليهودية من حكم ذاتي وحرية دينية. ومن أجل هذا دعا الحاخام الأكبر السنهريين إلى الاجتماع.

صفحة رقم : 3931

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الموت والتجلي

وقال له: "إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها" (123) ووافقته أغلبية الحاضرين على رأيه وأمر المجلس بالقاء القبض على المسيح.

ويبدو أن نبأ هذا القرار وصل إلى مسامع يسوع، ولعل الذي أوصله إليه بعض أعضاء في السنهريين نفسه. ففي اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبري (وهو اليوم الثالث من شهر إبريل) من العام الثلاثين في أرجح الأقوال أكل عيسى ورسله عشاء عيد الفصح في دار صديق له في أورشليم، وكانوا ينتظرون أن يُنجي المعلم نفسه بما له من معجزات؛ لكنه لم يفعل شيئاً من هذا، ورضي بما قُدّر له، ولعله كان يأمل أن يتقبل الله موته على أنه تضحية يكفر بها عن ذنوب شعبه (124). وقد قيل له إن أحد الاثني عشر كان يأتمر به ليسلمه إلى أعدائه، وفي هذا العشاء الأخير اتهم المسيح علناً يهوذا الإسخريوطي. وقد جرى يسوع على السنن اليهودية فيبارك الخمر الذي قدمه للرسل ليشر به، ثم غنوا جميعاً أغنية هاليل اليهودية (127). ويقول يوحنا إنه قال لهم "يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد... وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً... لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فأمنوا بي. في بيت أبي منازل كثيرة... أنا أمضي لأعد لكم مكاناً" (128).

ويبدو أن من المعقول جداً أن يطلب المسيح إليهم في هذه الساعة الرهيبة أن يكرروا هذا العشاء في مواسم خاصة (كما تتطلب ذلك عادة اليهود)، إحياء لذكراه؛ وليس ببعيد أنه، وهو ذو الإحساس الشرقي المرفه والخيال الشرقي

صفحة رقم : 3932

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الموت والتجلي

الوثاب، قد سألهم أن يتصوروا أن العيش الذي يأكلونه هو جسمه، وأن الخمر التي يشربونها هي دمه. ويُقال إن الجماعة الصغيرة اختبأت تلك الليلة في حديقة جتسيماني في خارج أورشليم. وفيها عثرت عليهم سيرة من شرطة الهيكل (129). وقبضت على يسوع. وسيق أولاً إلى بيت أونياس أحد كبار الكهنة السابقين، ثم نُقل منه إلى بيت قيافا. ويقول مرقس "إن المجلس" ولعل الأصح إن لجنة من أعضاء السنهدين - اجتمعت في ذلك المكان. وشهد عليه شهود كثيرون، وذكروا بنوع خاص تهديده بتخريب الهيكل. ولما سأله قيافا هل هو "المسيح ابن الله؟" أجابه كما نقول الرواية "أنا هو" (130)، واجتمع السنهدين في صباح اليوم التالي وأثبت عليه جريمة التجديف (وكان عقابها الإعدام في تلك الأيام) وقرر أن يسوقه أمام الحاكم الروماني. وكان قد جاء إلى أورشليم ليرقب الجماهير المختلفة بعيد الفصح.

وكان بيلاطس البنطي رجلاً قاسياً، استدعي إلى روما بعد وقت ما من هذه الحادثة متهماً بابتزاز المال واستخدام القسوة (131)، وعُزل من منصبه. على أنه لم يبدُ له وقتئذ أن هذا الواعظ الوديع الخلق خطر حقيقي على الدولة. وسأل الرجل يسوع سؤالاً يكاد يكون من قبيل المداعبة: "أأنت ملك اليهود؟" أجاب يسوع، حسب رواية متى بقوله "نعم" ولا يسع الإنسان إلا أن يشك في هذه التفاصيل التي تتألفها الناس مشافهة في أغلب الظن، ثم دونوها بعد وقوعها بزمن طويل. فإذا أخذنا بهذا النص وجب علينا أن نجزم بأن يسوع كان قد قرر أن يموت، وأن نظرية بولس عن التكفير تجد ما يؤيدها في عمل المسيح نفسه. وينقل يوحنا عن يسوع أنه أضاف إلى جوابه السابق قوله: "لهذا قد وُلدتُ أنا... لأشهد للحق". وسأله بيلاطس "ما هو الحق؟" - وهو سؤال لعل الباعث عليه نزعة الإنجيل الرابع الميثافيزيقية، ولكنه يدل بأجلى بيان على ما هنالك

صفحة رقم : 3933

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الموت والتجلي

من فروق بين ثقافة الروماني السفسطانية الساخرة ومثالية اليهودي الواثقة المتحمسة. ومهما يكن من شيء فلم يكن أمام القانون بعد اعتراف المسيح إلا أن يدينه، وبناء على هذا أصدر بيلاطس وهو كاره حكمه بالإعدام. وكان الصلب من طرق العقاب الرومانية اليهودية. وكان الجلد يسبقه عادة، فإذا ما جلد المذنب بقسوة أصبح جسمه كتلة من اللحم المتورم الدامي. ووضع الجنود الرومان تاجاً من الشوك على رأس المسيح يسخرون بذلك من تلقبيه "ملك اليهود" كما نقشوا على صليبه باللغات الأرامية واليونانية واللاتينية "عيسى الناصري هو ملك اليهود" Nazarathaeus Rex Joudeorum. وسواء كان يسوع من دعاة الثورة أو من غير دعائها فليس ثمة ريب في أن روما قد حكمت عليه بوصفه من هؤلاء الدعاة، وكذلك فهم تأسست الأمر على هذا النحو (134). وكانت جماعة صغيرة، لا يزيد عددها على ما يتسع له فناء بيت بيلاطس، قد طالبت بإعدام المسيح؛ فلما أن أخذ يصعد تل جمجمة "تبعه جمهور كبير من الشعب" كما يقول لوقا (135)، والنساء اللواتي كن يلطمن وينحن عليه. وما من شك في أن هذا الحكم لم يرق في عين الشعب اليهودي.

وقد أذن لكل من يريد أن يشهد هذا المنظر الرهيب أن يشهده. وكان الرومان الذين يرون أن لا بد لهم أن يحكموا الناس بالإرهاب يختارون لتنفيذ حكم الإعدام في من يرتكبون الجرائم التي يحدد لها القانون هذه العقوبة الطريقة التي يسميها شيشرون "أقسى أنواع التعذيب وأبشعها" (136). فكانت يدا المذنب وقدماه تُدَق (أو تربط في حالات نادرة) إلى الخشبة، وكانت فيها قطعة بارزة تسند العمود الفقري أو القدمين. وإذا لم يُرجم المذنب فيقتل فإنه يبقى على هذه الحال يومين أو ثلاثة أيام، يُعاسي فيها آلام عدم الحركة، وهو عاجز عن طرد الحشرات التي تتغذى من لحمه العاري، فتخور قواه ببطئ حتى يقف القلب عن الحركة ويضع حداً لهذا العذاب الأليم.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الموت والتجلي

وكان الرومان أنفسهم يشفقون على ضحايا هذا التعذيب في بعض الأحيان، ويقدمون لهم شراباً فيفقدون وعيهم. ويُقال إن الصليب كان يُرفع "عند الساعة الثالثة" أي في الساعة التاسعة صباحاً. ويقول مرقس إن لصين صلبا مع يسوع وإنهما كانا يسبانه. ويؤكد لنا لوقا أن واحداً منهما كان يدعو له (138). ولم يكن مع عيسى أحد من الرسل إلا يوحنا وحده، وكان معه ثلاث نساء تسمى كل واحدة منهن مريم، أم المسيح ومريم أختها، ومريم المجدلية (وكانت أيضاً نساء ينظرن من بعيد) (139). واقتسم الجند ثياب الميت كعادة الرومان؛ وإذا لم يكن للمسيح إلا ثوب واحد فإنهم أخذوا يلقون القرعة ليروا من يأخذ الثوب. ولعلنا نقرأ في هذا المعنى الآية الثامنة عشرة من المزمور الثاني والعشرين منسوبة إلى مسيح. "يقتسمون ثيابي بينهم وعلى لباسي يقتربون". ويبدأ هذا المزمور نفسه بتلك الكلمات: "إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟". وذلك هو نداء اليأس البشري الذي يعزوه مرقس ومتى إلى المسيح وهو يحتضر. فهل يمكن أن يكون الإيمان العظيم الذي أعانه في موقفه أمام بيلاطس قد انقلب في تلك اللحظات المريرة إلى شك أسود؟ ولعل لوقا قد رأى أن هذه العبارة لا تتفق مع عقائد بولس الدينية قبلها بقوله: "يا أبتاه في يديك أستودع روحي" - وهي عبارة ترددت صدى الآية الخامسة من المزمور الحادي والثلاثين ترديداً يثير الريب لما فيه من دقة. وأشفق جندي على المسيح الضمان، فجاء بإسفنجة مغموسة في الخل وقربها من فيه؛ فشرب عيسى وقال: "قد أكمل". وفي الساعة التاسعة - الثالثة بعد الظهر - "نادى يسوع بصوت عظيم... وأسلم الروح". ويضيف لوقا إلى هذا - ويدل بقوله على عطف اليهود "وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر... رجعوا وهم يقرعون صدورهم" (141). واستطاع اثنان من اليهود

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الموت والتجلي

الرحماء ذوي النفوذ أن يحصلوا على إذن من بيلاطس بإنزال جثة المسيح عن الصليب فأنزلاها وحفظها بالبند والمُر ووارياها التراب. ترى هل مات حقاً؟ لقد كان اللسان اللذان إلى جانبه لا يزالان على قيد الحياة، ولقد كسر الجنود ساقهما حتى تتحمل أيديهما ثقل جسمهما، فيؤثر ذلك في حركة الدم ويقف القلب بعد قليل. غير أن هذا لم يحدث في حالة عيسى، وإن كان قد قيل إن جندياً طعنه في قلبه بحربة، فانبثق الدم من الجرح أولاً ثم خرج بعده مصل الدم. وأبدى بيلاطس دهشته من أن يموت رجل بعد ست ساعات من صلبه؛ ولم يوافق على أن يُرفع جسد المسيح عن الصليب إلا بعد أن أكد له قائد المائة المكلف به أنه قد مات.

وبعد يومين من هذا الحادث زارت مريم المجدلية - وكان حبها ليسوع تمتاز به تلك النشوة العصبية التي تمتاز بها عواطفها كلها - قبر المسيح مع مريم أم يعقوب وسالومة فوجدته فارغاً. فامتلات قلوبهن خوفاً وسروراً معاً، وجرياً لينقلن ذلك النبا إلى تلاميذه. والتقين في الطريق برجل حسبه يسوع "فانحنين احتراماً له، وأمسكن بقدميه. وفي سعنا أن نتصور الأمل الذي انبعث في النفوس السانجة من هذا النبا وما لقيه من ترحيب؛ لقد قهر يسوع الموت وأثبت أنه هو المسيح المنتظر ابن الله، وملاً ذلك النبا قلوب "أهل الجليل" بنشوة جعلتهم على استعداد لأن يصدقوا أية معجزة وأي وحي. ويرى الرواة أن المسيح ظهر في ذلك اليوم نفسه إلى تلميذين من تلاميذه في الطريق الموصل إلى عمواس، وتحدث إليهم، وأكل معهم، ولكن "أمسكت أعينهما عن معرفته" ثم "أخذ خبزاً وبارك وكسر، فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما" (142). ورجع التلاميذ إلى الجليل فلما "رأوه" بعد قليل "سجدوا له، ولكن بعضهم شكوا" (143). وبينما كانوا يصطادون السمك

صفحة رقم : 3936

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> عيسى أو يسوع -> الموت والتجلي

رأوا المسيح ينضم إليهم؛ فألقوا شباكهم ولم يستطيعوا أن يجذبوها من كثرة السمك (144). وجاء في سفر أعمال الرسل أن المسيح صعد بجسمه إلى السماء بعد أربعين يوماً من ظهوره إلى مريم المجدلية. لقد كانت فكرة "انتقال" القديس بجسمه وحياته إلى السماء من الأفكار الشائعة المألوفة بين اليهود؛ فقد رووها عن موسى، وأخنوخ، وإليشع وإشعيا. وهكذا اختفى السيد المسيح بنفس الطريقة الخفية التي ظهر فيها. ولكن يبدو أن معظم تلاميذه كانوا يعتقدون مخلصين أنه قد وُجد معهم بجسمه بعد صلبه. وفي ذلك يقول لوقا: "ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم، وكانوا كل حين في الهيكل يسبحون ويباركون الله" (145).

صفحة رقم : 3937

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بطرس

الباب السابع والعشرون

الرسل

الفصل الأول

بطرس

نشأت المسيحية من الإيحاء الغامض العجيب الخاص بحلول الملكوت، واستمدت دوافعها من شخصية المسيح نفسه وتخيالاته، كما استمدت قوتها

صفحة رقم : 3938

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بطرس

من عقيدة البعث والحساب، والوعد بحياة الخلود، واتخذت صورة العقائد الثابتة في لاهوت بولس، ثم نمت باستيعابها العقائد والطقوس الوثنية؛ وأصبحت كنيسة ظافرة منتصرة، بعد أن ورثت ما امتازت به روما من أنماط وعقيدة منظمة.

ويبدو أن الرسل كانوا جميعاً يؤمنون بأن المسيح سيعود بعد قليل ليقيم ملكوت السموات على الأرض. أنظر إلى أقوال بطرس في رسالته الأولى: "نهاية كل شيء قد اقتربت فتعقلوا واصحوا للصلوات" (3) وتقول رسالة يوحنا الأولى: "أيها الأولاد، هي الساعة الأخيرة وكما سمعتم أن ضد المسيح يأتي قد صار الآن أضداد للمسيح كثيرون (نيرون، فسبازيان، دومتيان). من هنا نعلم أنها الساعة الأخيرة" (4). وكان الاعتقاد بنزول مسيح ليظهر الأرض، ويقيم ملكوت الله، ويبعث الناس بأجسامهم، وبعودته إلى الأرض، هو القاعدة الأساسية للدين المسيحي في أوائل عهده. على أن هذه العقائد لم تحل بين الرسل وبين استمرارهم في التمسك بالدين اليهودي. وشاهد ذلك ما جاء في أعمال الرسل: "وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة" (5) وأطاعوا قوانين التغذية والحفلات (6)، واقتصروا في أول الأمر على دعوة اليهود وحدهم إلى دينهم، وكثيراً ما كانوا يخطبون فيهم في الهيكل (7).

وكانوا يعتقدون أنهم قد تلقوا عن المسيح أو عن الروح القدس قوى عجيبة من الإلهام، وشفاء الأمراض والأقوال. وأقبل عليهم كثيرون من المرضى والعجزة، ويقول مرقس (8) إن بعضهم شفوا حين مسحوا بالزيت - وكان هذا المسح على الدوام من وسائل العلاج المنتشرة في بلاد الشرق. ويصور مؤلف سفر أعمال الرسل صورة مؤثرة للاشترابية القائمة على الثقة المتبادلة التي كانت سائدة بين هؤلاء المسيحيين الأولين إذ يقول:

"وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة، ولم يكن أحد

صفحة رقم : 3939

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بطرس

يقول إن شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركاً... لم يكن فيهم أحد محتاجاً لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل، فكان يوزع كل واحد كما يكون له احتياج"(9).

ولما كثر عدد المهتدين، وكثر ما تحت أيدي الرسل من الأموال عينوا سبعة من شمامسة الكنيسة للإشراف على شئون هذه الجماعة؛ وظل رؤساء اليهود فترة من الزمن لا يعارضون قيام هذه الشيعة لصغرها وانتقاء الأذى من وجودها، فلما تضاعف عدد "الناصرين" (النصارا) في بضع سنين قلائل وقفز عددهم من 120 إلى 8000(10) استولى الرعب على قلب الكهنة، فقبض على بطرس وغيره وجيء بهم أمام السنهدين لمحاكمتهم. وكان السنهدين يريد أن يحكم بإعدامهم، ولكن فريسياً يدعى غملائيل - أكبر الظن أنه معلم بولس - أشار على المجلس أن يؤجل الحكم؛ ثم وفق بين الرأيين بأن جُلِدَ المقبوض عليهم وأطلق سراحهم. وحدث بعد ذلك بزمن قليل (30م) أن استدعى أحد الشمامسة الذين عينوا للإشراف على جماعة المهتدين واسمه اسطفانوس (أو استيفن) للمثول أمام السنهدين واتهم بأنه، يتكلم بكلام تجديف على موسى وعلى الله(11)، فدافع الرجل عن نفسه دفاعاً قوياً غير مبال بما يتهدده من أخطار:

"يا قساة القلوب وغير المختونين بالقلوب والأذان، أنتم دائماً تقاومون الروح القدس، كما كان أبواكم كذلك أنتم! أي الأنبياء لم يضطهده أبواكم، وقد قتلوا الذين سبقوا فأنتبوا بمجيء البار الذي أنتم الآن صرتم

صفحة رقم : 3940

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بطرس

مُسَلِّميه وقَاتليه، الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه"(12). وأثار هذا الدفاع القوي غضب السنهدين فأمر بأن يُجر إلى خارج المدينة ويرجم بالحجارة. وكان شاب فارسي يدعى شاوول يساعد على هذا الهجوم؛ وبعد ذلك صار هذا الشاب ينتقل من بيت إلى بيت في أورشليم ويقبض على أتباع "الكنيسة" ويزجهم في السجن(13).

وفر اليهود المهتدون ذوو الأسماء والثقافة اليونانية الذين يتزعمهم اسطفانوس إلى السامر وإنطاكية وأنشئوا فيها جماعات مسيحية قوية. أما معظم الرسل الذين يبدو أنه سلموا من الاضطهاد لأنهم ظلوا يراعون الناموس، فقد بقوا في أورشليم مع المسيحيين اليهوديين. وبينما كان بطرس يحمل الإنجيل إلى البلاد اليهودية صار يعقوب "العادل"

"أخو الرب" رئيس الجماعة المقيمة في أورشليم بعد أن قل عددها ونقصت مواردها. وكان يعقوب يبشر بالناموس بكل ما فيه من صرامة، ولم يكن يقل عن الإسينيين تقشفاً وزهداً؛ فلم يكن يأكل اللحم، أو يشرب الخمر، ولم يكن له إلا ثوب واحد، ولم يقص شعره أو يحلق لحيته قط. وظل المسيحيون تحت قيادته سبعة أعوام لا يمسه أذى. ثم حدث حوالي عام 41 أن قُتل رجل يدعى أنه يعقوب بن زبدي، فقبض على بطرس ولكنه فر. ثم قُتل يعقوب العادل في عام 63. وبعد أربعة أعوام من ذلك الوقت ثار اليهود على روما. وأيقن المسيحيون المقيمون في أورشليم أن "نهاية العالم" قد دنت، فلم يأبهوا بالشؤون السياسية، وخرجوا من المدينة وأقاموا في بلاد الوثنية الضالعة مع روما والقائمة على الضفة البعيدة من نهر الأردن وافتقرت اليهودية والمسيحية من تلك الساعو، فأثم اليهود

صفحة رقم : 3941

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بطرس

المسيحيين بالخيانة وخور العزيمة، ورحب المسيحيون بتدمير الهيكل على يد تيطس تحقيقاً لنبوءة المسيح، وانتقدت نار الحقد في قلوب أتباع كلا الدينين، وأملت عليهم بعض ما كتبوا من أعظم آدابهم تقي وصلاً. وأخذت المسيحية اليهودية من ذلك الوقت يقل عدد أتباعها وتضعف قوتها وتترك الدين الجديد للعقلية اليونانية تشكله وتصبغه بصبغتها. وأصمت الجليل، التي قضى فيها المسيح كل حياته تقريباً، والتي عفت منها ذكرى المجدية وغيرها من النساء اللاتي كن من بين أتباعه الأولين، أصمت أذنها عن سماع الوعظ الذين جاعوها يدعون أهلها للدخول في دين الناصري ابن الله. ذلك أن اليهود المتعطشين إلى الحرية، والذين كانوا يذكرون كل يوم في صلواتهم أن "الله واحد" لم يستسيغوا فكرة "المسيح" المنتظر الذي لا يأبه بكفاحهم في سبيل الاستقلال، ورأوا أن من العار أن يُقال إن إلهاً قد وُلد في كهف أو إسطبيل في إحدى قرَاهم. وظلت المسيحية اليهودية قائمة مدى خمسة قرون بين طائفة قليلة من المسيحيين السريان المسمين بالآبيونيم "الفقراء" الذين كانوا يجمعون بين النقش المسيحي والناموس اليهودي الكامل؛ فلما كان آخر القرن الثاني الميلادي حكمت عليهم الكنيسة المسيحية بالكفر وأخرجتهم من حظيرتها. وكان الرسل والتلاميذ في هذه الأثناء قد نشروا الإنجيل بين اليهود المشتتين (14) بنوع خاص وهم المنتشرون فيما بين دمشق وروما. فهذا فليب عدداً من أهل السامرة وقيصرية، وأوجد يوحنا جالية مسيحية قوية في إفسوس وأخذ بطرس بعض في مَدُن سوريا. وفعل بطرس ما كان يفعله معظم الرسل فإصطحب معه في أثناء تجواله "أختاً" لتكون بمثابة زوجة له ومعينة (15). وبلغ نجاحه في شفاء المرضى حداً أغرى ساحراً يدعى سمعان المجوسي أن يعرض عليه مالاً ليشرکه معه في قواه العجيبة. ففي يافا أقام تابيتا وكان يبدو أنها قد

صفحة رقم : 3942

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بطرس

ماتت، وفي قيصرية هدى إلى المسيحية فاندأ رومانياً على مائة. وجاء في سفر أعمال الرسل أنه رأى رؤيا اقتنع على أثرها أن عليه أن يقبل المهتدين من الوثنيين واليهود على السواء، ثم اقتصر من ذلك الوقت على تعويد المهتدين من غير اليهود بدل أن يعمدهم ويختتمهم معاً، وذلك إذا استثنينا بعض حالات طريفة. وفي وسعنا أن نحس بما كان يعمر قلوب هؤلاء المبشرين الأولين من حماسة إذا اطلعنا على رسالة بطرس الأولى:

"بطرس رسول يسوع المسيح إلى المتقربين من شتات بنطس، وغلاطية، وكبدوكية وآسيا، وبيتية المختارين... لتكثر لكم النعمة والسلام... أيها الأحياء أطلب إليكم كغرباء ونزلاء... أن تكون سيرتكم بين الأمم حسنة لكي... يمجدوا الله في يوم الاتقاد من أجل أعمالكم الحسنة التي يلاحظونها... فاحضعوا لكل ترتيب بشري من أجل الرب... كأحرار وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر... أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة، ليس للصالحين مترفقين فقط بل للعتقاء أيضاً... كذا كن أيها النساء كن خاضعات لرجالكن حتى وإن كان البعض لا يطيعون الكلمة يرحون بسيرة النساء بدون كلمة ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف. ولا تكن زينتك الزينة الخارجية من ضفر الشعر والتحلي بالذهب وليس الثياب، بل... زينة الروح الوديع الهادئ... كذلك أيها الرجال كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الإناء النسائي كالأضعف معطين إياهن كرامة كالوارثات أيضاً معكم نعمة الحبو... غير مجازين عن شر بشر... ولكن قبل كل شيء لتكون محبتكم بعضكم لبعض شديدة لأن المحبة تستر كثرة من الخطايا" (16).

ولسنا نعرف متى شق بطرس طريقه إلى روما أو المراحل التي وصل بها إلى تلك المدينة. فأما بجرورم (حوالي 390) فيؤرخ وصوله إليها بعام 41م. وقد بقيت الرواية القائلة بأن كانت له اليد الطولى في إنشاء الجالية المسيحية

صفحة رقم : 3943

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بطرس

في عاصمة الدولة الرومانية صامدة للنقد (17): ويحدثنا لكتانتوس Lactantius عن قدوم بطرس إلى روما في عهد نيرون (18)، وأكبر الظن أن الرسول زار روما عدة مرات وكان وهو طليق، وبولس وهو سجين، يبذلان ما وسعهما من جهد ويتنافسان لهداية أهلها حتى استشهد كلاهما في سبيل هذه الغاية، ولعل استشهادهما كان في عام واحد هو عام 64 (19). ويروي أرجن أن بطرس "صُلب ورأسه مدلى إلى أسفل، لأنه طلب أن يعذب بهذه الطريقة" (20)، ولعله كان يأمل أن يكون الموت بها أسرع إليه أو (كما يقول المؤمنون) لأنه يرى أنه غير خليق بأن يموت بالطريقة التي مات بها المسيح. وتقول النصوص القديمة إن زوجته قتلت معه، وإنه أرغم على أن يراها تساق للقتل (21). وتحدد إحدى القصص المتأخرة حلبه نيرون، القائمة في ميدان الفانكان، موضعاً لمقتله وفي هذا المكان شُيّدت كنيسة القديس بطرس، وقيل إنها تضم عظامه.

وما من شك في أن تجواله في أسية الصغرى وروما قد ساعد على الاحتفاظ بكثير من العناصر اليهودية في الدين المسيحي. فقد ورث هذا الدين عنه وعن غيره من الرسل ما في الدين اليهودي من توحيد، وتزمت، واعتقاد في البعث والنشور؛ وهذه الرحلات ورحلات بولس هي التي جعلت العهد القديم الكتاب المقدس الوحيد الذي عرفته المسيحية في القرن الأول، وظلت المجامع اليهودية أهم الأماكن التي تُبث فيها الدعوة المسيحية كما ظل اليهود أهم الجماعات التي تُبث بينهم هذه الدعوة حتى عام 70م. ولهذا انتقلت إلى الطقوس المسيحية أشكال العبادات العبرانية واحتفالاتها وملايسها. وتسامى حمل بسكال فصار هو حمل الله المكفر عن الخطايا في القديس الكاثوليكي. كذلك أخذت المسيحية عن أساليب اليهود في إدارة المجامع تنصيب جماعة من الكبراء (برزبيري أي قساوسة) لتولي شؤون الكنائس. وقبلت المسيحية فيها كثيراً من الأعياد اليهودية كعيد الفصح وعيد العنصرة، وإن كانت قد غيرت أشكالها وتوارخها. وقد ساعد تشتت اليهود

صفحة رقم : 3944

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بطرس

في أقطار العالم على انتشار المسيحية، وكان مما مهدّ السبيل لهذا الانتشار كثرة انتقال اليهود من مدينة إلى مدينة، والصلوات القائمة بينهم في جميع أنحاء أوربا، وتجارتهم الواسعة، والطرق الرومانية المعبدة، والسلم الرومانية. وكانت المسيحية حسب تعاليم المسيح وبطرس يهودية، ثم أصبحت في تعاليم بولس نصف يونانية، وأضحت في المذهب الكاثوليكي نصف رومانية، ثم عاد إليها العنصر اليهودي والقوة اليهودية حين دخلها المذهب البروتستنتي.

صفحة رقم : 3945

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> المضطهد

الفصل الثاني

بولس

1- المضطهد

وُلد واضع اللاهوت المسيحي في طرسوس من أعمال كلبيكا حوالي السنة العاشرة من التاريخ الميلادي. وكان أبوه من الفريسيين، ونشأ ابنه على مبادئ هذه الشيعة الدينية المتحمسة، وظل رسول الأمم طوال حياته يعد نفسه فريسياً حتى بعد أن نبذ الشريعة اليهودية. كذلك كان والده مواطناً رومانياً، وأورث ابنه هذا الحق الثمين. وأكبر الظن إن اسم بولص كان هو اللفظ اليوناني المرادف للاسم العبري شاول، ولهذا ظل الاسمان يطلقان على خذا الرسول منذ طفولته(22)، ولم يتعلم تعليماً راقياً ولم يدرس الكتب اليونانية لأن الفريسيين على بكرة أبيهم لم يكونوا يسمحون بأن يتأدب أبناءهم بهذا الأدب اليوناني الخالص، ولو أن كاتب الرسائل درس اليونانية لما كتبها بهذا الأسلوب اليوناني

الركيك. على أنه عرف كيف يتحدث بهذه اللغة بطلاقة تمكنه من أن يخاطب بها المستمعين له من الأثينيين، وأن يشير أحياناً إلى بعض الفقرات المنشورة في الأدب اليوناني. ومن حقنا أن نعتقد أن بعض المبادئ الدينية والأخلاقية للرواقية انتقلت من البيئة المدرسية في طرسوس إلى مسيحية بولس. فهو يستعمل اللفظ الرواقي نيوما (Unema) أي النفس للدلالة على المعنى الذي يستعمل فيه مترجموه الإنجليز لفظ Spirit (الروح). وكان طرسوس كما كان في معظم المدن اليونانية أتباع للأرثوذكسية. وغيرها من العقائد الخفية، يعتقدون أن الله الذي يعبدونه قد قام من أجلهم، ثم قام من قبره، وأنه إذا دعي بإيمان حق،

صفحة رقم : 3946

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> المضطهد

وصحب الدعاء الطقوس الصحيحة استجاب لهم وأنجاهم من الجحيم، وأشركهم معه في موهبة الحياة الخالدة المباركة(23). وهذه الأديان الغامضة الخفية هي التي أعدت اليونان لاستقبال بولس وأعدت بولس لدعوة اليونان. وبعد أن تعلم الشاب حرفة صنع الخيام، وتلقى العلم في المجمع الديني القائم في المدينة، أرسله أبوه إلى أورشليم وهناك كما يقول بولس نفسه: "تعلم عند قدمي غملائيل على طريقة الناموس الدقيقة"(24). وكان المشهور عن غملائيل أنه حفيد هلال، وقد خلفه في رئاسة السنهدرين، وواصل السنة القديمة سنة تفسير الناموس تفسيراً ليتناً راعى فيه ضعف النفس البشرية. غير أن الفريسيين الذين كانوا أكثر منه تزمناً هالهم أن يجدوه ينظر نظرة ال'عجاب والتقدير للنساء الوثنيات أنفسهن(25). وقد بلغ من علمه أن اليهود، الذين يجلبون العلماء أعظم الإجلال أطلقوا عليه اسم "جمال الناموس"، ولقبوه بما لم يُلقب به إلا ستة رجال من بعده وهو "الربان" أي سيدنا. واتخذ بولس عنه وعن غيره تلك الطريقة الحسنة، والجدلية السفسطائية في بعض الأحيان، في تفسير الكتاب المقدس، وهي التي وضحت في التلمود. وقد بقي بولس إلى آخر أيامه يهودياً في عقله وخلقه على الرغم من تعلمه أوليات الهلنية، ولم ينطق بكلمة يُستَم منها أنه يشك في شرائع موسى موحى بها من عند الله، وظل يعتقد في عزة وفخار كما يعتقد اليهود أن اختيار الله وحده هو طريق النجاة.

وهو يصف نفسه بقوله: "في الحضارة دليل بينكم"(26) ويزيد على ذلك: "ولنا أرتفع بفرط الإعلانات أعطيت شوكة في الجسد ملاك الشيطان ليلطمني لنلا أرتفع"(27). ولا يزيد في وصف نفسه على هذا. وتصوره الروايات المأثورة وهو في سن الخمسين رجلاً زاهداً متعشفاً مقوس الجسم، أصلع الرأس، ملتحمياً عريض الجبهة، أصفر الوجه صارمه، نقاذ العينين. وعلى هذا النحو تخيله درور

صفحة رقم : 3947

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> المضطهد

في صورة تُعد من أروع آيات الفن في العالم كله؛ ولكن الحقيقة أن هذه الصور التي تُمثله أدب وفن لا تاريخ. أما عقله فكان من طراز شائع كثيراً بين اليهود: كان فيه من نفاذ البصيرة وشدة الانفعال أكثر مما فيه من الدماثة والظرف؛ وكان فيه من الإحساس القوي والخيال أكثر مما فيه من نزاهة الحكم والنظرة الموضوعية إلى الأشياء، وكان قوياً في العمل لأنه كان ضيق التفكير. وكان رجلاً "أسكرته النشوة الإلهية" أكثر مما أسكرت اسبنوزا نفسه، يلتهب صدره بالحماسة الدينية بالمعنى الحرفي للفظ الالتهاب - لقد كان صدره ينطوي "في داخله على الإله" نفسه. وكان يعتقد أنه ملهم موحى إليه قادر على فعل المعجزات. وكان إلى هذا ذا طبيعة عملية، قادراً على الجد والتنظيم، صبوراً إلى أقصى حد في تأسيس العشيرة المسيحية والمحافظة عليها. وكانت عيوبه وفضائله شديدة الصلة بعضها ببعض لا غنى لكلتيهما عن الأخرى شأنه في هذا شأن الكثيرين من الرجال. فقد كان شجاعاً مندفعاً، متعسفاً حاسماً في أحكامه، مسيطراً مجداً، متعصباً مبتدعاً، فخوراً أمام الناس متواضعاً لله، عنيفاً في غضبه قادراً على أن يستشعر أرق الحب والرحمة، يشير على أتباعه على أن يباركوا من يظطهدونهم، ولكنه يتمنى لأعدائه الذين يختنون أن "يقطعوا أيضاً" (28). وكان يدرك أسباب ضعفه، ويحاول الخلاص منها، ويقول لمن هداهم "ليتكم تحتلمون غباوتي قليلاً" (29). وتلخص الحاشية التي كتبت على رسالته الأولى لأهل كورنثوس أخلاقه حين تقول: "السلام بيدي أنا بولس، إن كان أحد لا يحب الرب يسوع المسيح فليكن أنا نثيماً! ماران أثا! نعمة الرب يسوع المسيح معكم، محبتي مع جميعكم". لقد كان الرجل ما لا بد أن يكون لكي يستطيع أن يفعل ما فعل.

وبدأ بمهاجمة المسيحية دفاعاً عن اليهودية، وانتهى بنبذ اليهودية دفاعاً عن المسيح، وكان في كل لحظة من لحظاته داعياً ورسولاً. فلما هاله احتقار اصطفانوس

صفحة رقم : 3948

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> المضطهد

للناموس انضم إلى قتلته، وترغم الاضطهاد الأول للمسيحيين في اورشليم، ولما سمع أن الدين الجديد أصبح له في دمشق أتباع كثيرون "تقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى اورشليم" (31م) (30). ولربما كان تحمسه لاضطهادهم ناشئاً من شكوك خفية سرت وقتند في نفسه؛ وكان في مقدوره أن يقو، ولكن هذه القسوة لم تكن من النوع الذي لا يعقبه ندم. ولعل منظر اصطفانوس وهو يُرجم بالحجارة حتى يموت، ولعل لمحات من ذكريات الشباب - ذكريات صلب المسيح - كانت تعود إلى خياله فتضطرب بها ذاكرته وتتقل عليه في سفره، وتهيج خياله. ولما اقتربت جماعته من دمشق، كما جاء في سفر أعمال الرسل:

"فبغتة ابرق حوله نور من السماء، فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟ فقال من أنت يا سيد؟ فقال الرب أنا يسوع الذي أنت تضطهده... وأما الرجال المسافرون معه فوقوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً. فنعض شاول من الأرض وكان وهو مفتوح العينين لا يُبصر أحداً، فاقتادوه بيده وأدخله إلى دمشق وبقي ثلاثة أيام لا يُبصر. وليس في وسع أحد أن يعرف العوامل التي أحدثت هذه التجربة وما أعقبها من انقلاب أساسي في طبيعة الرجل. ولعل ما قاساه من التعب في سفره الشاق الطويل في شمس الصحراء اللفحة، أو لعل ومضة برق في السماء ناشئة من شدة الحرارة، لعل شيئاً من هذا أو ذلك كله قد أثر في جسم ضعيف رُبما كان مصاباً بالصرع، وفي عقل يعذبه الشك والإجرام، فدفع بالعملية التي كانت تجري في عقله الباطن إلى غايتها، وأصبح ذلك المفكر الشديد الانفعال

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> المضطهد

أقدر الداعين إلى مسيح اصطفانوس. وكان الجو اليوناني الذي يحيط به في طرسوس يتحدث عن منقذ ينتشل البشرية؛ كما كانت علوم بني جنسه من اليهود تتحدث عن حياة (مسيح) منتظر، ولم لا يكون يسوع صاحب الشخصية العجيبة الغامضة الفتانة، الذي لا يتردد الناس في استقبال الموت من أجله، هو ذلك المسيح المنتظر؟ فلما أحس في آخر سفره وهو لا يزال ضعيفاً وأعمى بيدي يهودي مهتدٍ، رحيمتين، تلمسان وجهه وتسكنان ألمه "فلوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور، فابصر في الحال وقام واعتمد، وتناول طعاماً فتقوى" (22). وبعد بضعة أيام من ذلك الوقت دخل مجامع دمشق وقال للمجتمعين فيها إن عيسى ابن الله.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> المبشر

2- المبشر

وأصدر حاكم دمشق، بإيعاز اليهود الذين ساء لهم ما فعل بولس، أمراً بالقبض عليه، فما كان من أصدقائه الجدد إلا أن أنزلوه في سلة من فوق أسوار المدينة. ويقول هو إنه ظل ثلاثة أيام يدعو إلى المسيح في قرى بلاد العرب، ولما عاد إلى أورشليم عفا عنه بطرس، واتخذه صديقاً له، وعاش معه فترة من الزمان. وكان معظم الرسل يرتابون فيه، ولكن برنابا، وهو مهتدٍ حديث، رحب به وقدم له كثيراً من المعونة، وأقنع كنيسة أورشليم أن تحمل مضطهدها القديم بشرى مجيء المسيح الذي سيقوم عما قريب ملكوت الله. وحاول اليهود، الذين يتكلمون اللغة اليونانية والذي جاءهم بالإنجيل، أن يقتلوه، ولعل الرسل خشوا أن تعرضهم حماسته الشديدة للخطر فأرسلوه إلى طرسوس. وظل في مسقط رأسه ثماني سنين لا يعرف عنه التاريخ شيئاً. ولعله شعر مرة أخرى بأثر التصوف الديني المنتشر بين اليونان وما في من تبشير بمجيء المنقذ. ثم أقبل عليه برنابا وطلب إليه أن يساعده على خدمة الدين في إنطاكية.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> المبشر

وأخذ الرجلان يعملان معاً (43 - 44 ؟) فهديا كثيراً من الناس، فلم تلبث إنطاكية أن فاقت سائر المدن في عدد من بها من المسيحيين. وفيها أطلق الوثنيون إلى "المؤمنين"، أو "التلاميذ" أو "القديسين" كما كانوا يسمون أنفسهم اسم الكرستيانوي أي أتباع المسيح أي الإنسان الممسوح. وهنا أيضاً انضمت "الأمم" أي غير اليهودي إلى الدين الجديد. وكان معظم هؤلاء ممن "يخشون الله" وكانت كثرتهم من النساء اللاتي آمنن ببعض طقوس اليهودية وبما فيها من دعوة إلى الوحدةانية.

ولم يكن الاخوة في إنطاكية فقراء كأمثالهم في أورشليم، فقد كانت فيهم أقلية لا بأس بها من طبقة التجار، فاندفعوا بقوة هذه الحركة الفتية الناشئة إلى جمع قدر من المال ليستعينوا به على نشر الإنجيل، "فوضع" رؤساء الكنيسة "أيديهم" على برنابا وبولس وبعثوهما فيما يسميه التاريخ "رحلة القديس بولس التبشيرية الأولى" (45 - 47 ؟) وهي تسمية تستخف بشأن برنابا. وأبحر الرجلان إلى قبرص، ولقيا نجاحاً مشجعاً بين اليهود الكثيرين المقيمين في تلك الجزيرة. ثم ركبا السفينة من يافوس إلى برجا في بمفيلية واجتازا طرقاً جبلية وعرة تعرضا فيها للخطر حتى وصلا إلى إنطاكية في بسيديا Pisidia. واستمع إليهما الكنيس ورحب بهما فلما بدأ يعظان "الأمم" كما يعظان اليهود غضب عليهما اليهود المتمسكون بدينهم وحملوا موظفي البلدية على إخراج المبشرين من المدينة. ونشأت هذه الصعاب نفسها في إقونيوم Icobium، ورجم بولس في لسترا بالحجارة وجر علو وجهه إلى خارج المدينة، وترك في العراء ظناً من أعدائه أنه مات. بيد أن قلبي بولس وبرنابا كانا لا يزالان يفيضان غبطة بروح القدس فحملا الإنجيل إلى دربي Derbe ثم عادا بالطريق نفسه إلى برجا وأبحرا منها إلى إنطاكية السورية، وفيها واجهتهما أعقد مشكلة في تاريخ المسيحية ذلك أن بعض التابعين الممتازين في دمشق سمعوا أن المبشرين كانا يقبلان

صفحة رقم : 3952

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> المبشر

المهتدين من "الأمم" دون أن يحتما عليهم الختان، فجاءوا إلى إنطاكية "يعلمون الاخوة أنه إن لم تختنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا" (23). ولم يكن الختان عند اليهودي من الطقوس التي توجبها صحة الجسم، بقدر ما كان رمزاً مقدساً لعهد القديم الذي عاهد عليه الله، ولهذا روع اليهودي المسيحي حين فكر في نكث ذلك العهد. وأدرك بولس وبرنابا أنه إذا نال هؤلاء المبعوثون بغيتهم فإن المسيحية لن يقبلها إلا عدد قليل من غير اليهود، وأنها ستبقى "بدعة يهودية" (كما سماها هيني فيما بعد) لا تلبث أن تزول بعد قرن من الزمان. ومن أجل هذا سافرا إلى أورشليم (50؟) وعرضا المسألة على بساط البحث مع سائر الرسل، وكانوا كلهم تقريباً لا يزالون يتبعون مخلصين في الهيكل. فأما يعقوب فقد تردد كثيراً في قبول رأيهما، وأما بطرس فقد دافع عن المبشرين؛ واتفق الجميع آخر الأمر على ألا يُطلب إلى المهتدين الوثنيين أكثر من أن يقلعوا عن الزنى، وعن أكل المخنوقة والدم وما ذبح على النصب (34). ويبدو أن بولس يسر الأمر بأن وعد العشيرة المسيحية المعدمة في دمشق بشيء من المال المطرد الزيادة في كنيسة إنطاكية (35).

ولكن هذه النتيجة كان لها من الخطر ما يحول دون البت فيها بهذه السهولة. فقد جاءت من أورشليم إلى إنطاكية طائفة أخرى من المسيحيين اليهود مستمسكين بدينهم، ورأت بطرس يأكل مع الكفرة وأقنعتة بأن يفصل هو واليهود الذين اعتنقوا المسيحية عن المهتدين غير المختنتين، ولسنا نعرف رأي بطرس في هذه المسألة، ولكن بولس يخبرنا أنه

"قاوم بطرس مواجهة" في إنطاكية(36)، واتهمه بالرياء؛ ولعل بطرس لم يرغب، كما لم يرغب بولس، في أكثر من أن تكون "كل الأشياء لكل الناس".
والراجح أن بولس قام برحلته التبشيرية الثانية في عام 50 من التاريخ الميلادي. وكان قد اختلف مع برنابا الذي اختفى وقتئذ في موطنه بجزيرة قبرص

صفحة رقم : 3953

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> المبشر

ولم يعد له ذكر في التاريخ. وعاد بولس يزور مرة أخرى بني ملته في أسية الصغرى، وضم إليه في لسترا تلميذا يدعى تيموثاوس أحبه. من كل قلبه الذي ظل منذ زمن طويل متعطشاً إلى من يحب. وسافرا معاً واجتازا فريجيا وغلاطية حتى وصلا شمالاً إلى إسكندرية ترواس؛ وفيها تعرف بولس بلوقا وهو ممن اعتنقوا اليهودية من غير المختننين؛ وكان لوقا رجلاً طيب القلب كبير العقل وهو في أكبر الظن صاحب الإنجيل الثالث وسفر أعمال الرسل - وهما السفران اللذان خففا من حدة النزاع الذي إمتاز به تاريخ المسيحية منذ بدايته. ثم أبحر بولس وتيموثاوس ومساعد آخر يدعى سيلاس من ترواس إلى مقدونية، ووطأت أقدامهم لأول مرة أرضاً أوروبية. فلما وصلا إلى فلبي، وهي المكان الذي هزما فيه انطونيوس بروتس قبض عليهما بتهمة تكدير السلام، وجلدا، وزجا في السجن، ثم أطلق سراحهما حين عرف أنهما مواطنان رومانيان. وانتقلا من فلبي إلى تسالونيكي (سالونيك)، وفيها دخل بولس المجمع وظل ثلاثة أسابيع يخطب في اليهود، فأمن بدعوته عدد قليل منهم، وأسسوا فيها كنيسة لهم، وأثار غيرهم أهل المدينة عليه واتهموه بأنه يدعو لملك جديد، واضطر أصدقاؤه أن يخرجوه خلسة إلى بيرية في أثناء الليل. وهناك تقبل اليهود الدعوة بقبول حسن، ولكن أهل تسالونيكي جاءوا يتهمون بولس بأنه عدو لليهودية، فأقلع منها إلى أثينة على ظهر سفينة (51؟) وحيداً كسير القلب كاسف البال.

وهنا في قلب الديانة الوثنية وعلومها وفلسفتها ألقى نفسه بلا صديق، ولم يكن في هذا البلد إلا عدد قليل من اليهود الذين يستمعون إلى مواظبه. وكان عليه أن يقف بين الناس في السوق العامة كما يفعل أي خطيب حديث يريد أن يتحدث إلى الجماهير، وينافس عشرات الخطباء في إيصال دعوته إلى أذان المارة. وكان بعض من يستمعون إليه يناقشونه فيما يقول وبعضهم الآخر يسخرون منه ويسألون: "ترى ماذا يريد هذا المهذار أن يقول؟" (37). وأظهر عدد من

صفحة رقم : 3954

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> المبشر

الناس اهتماماً بقوله، وأخذوه إلى الأريوبجس أو أكمة المريخ ليجد مكاناً أهدأ من السوق العامة يسمع الناس فيه صوته. وقال لهم إنه رأى في أثينة مذبحاً نُقش عليه "إله مجهول" وأكبر الظن أن هذا النقش كان يعبر عن رغبة من نقوشه في التسبيح بحمد إله لا يعرفون اسمه على وجه التحقيق، أو في استرضاء هذا الإله أو طلب معونته، ولكن بولس فسره بأنه اعتراف منهم بجهلهم كنه الله، ثم أضاف إلى ذلك هذه الأقوال البليغة. "فالذي تتقونه وأنتم تجهلونه، هذا أنا أنادي لكم به، الإله الذي خلق العالم وكل ما فيه، هذا إذاً هو رب السماء والأرض لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيادي... هو يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء... وصنع من دم واحد كل أمة من الناس... لكي يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدونه مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيداً لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد؛ كما قال بعض شعرائكم أيضاً. لأننا أيضاً ذريته، فإذا نحن ذرية الله لا ينبغي أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع إنسان. فالله الآن يأمر جميع الناس في كل مكان أن يتوبوا متعاضياً عن أزمنة الجهل، لأنه أقام يوماً هو فيه مزعم أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع إيماناً إذ أقامه من الأموات" (38).

ولقد كانت جراً منه أن يحاول التوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية ومع هذا فإنه لم يتأثر بهذه المحاولة إلا عدد قليل؛ ذلك أن ما سمعه الأثينيون من الآراء قبل ذلك الوقت قد بلغ من الكثرة ما يحول بينهم وبين التحمس لما يلقى إليهم أياً كان شأنه. وغادر بولس المدينة يائساً ذهب إلى كورنثة، وكانت التجارة قد جمعت فيها جالية كبيرة من

صفحة رقم : 3955

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> المبشر

اليهود: وأقام في هذه المدينة ثمانية عشر شهراً (51 - 52 م) يكسب فيها قوته بصنع الخيام ويخطب كل سبت في كنيستها: وأفلح في هداية رئيس الكنيس، وعدد غيره من الأفراد بلغ من الكثرة حداً ارتاع له اليهود فاتهموا بولس أمام غالليون Galileo الحاكم الروماني بأنه يستميل "الناس على أن يعبدوا الله بخلاف الناموس". فأجابهم غالليون بقوله: "إذا كان مسألة عن كلمة وأسماء، وناموسكم، فتبصرون أنتم، لأنني لست أشاء أن أكون قاضياً لهذه الأمور"، ثم طردهم من المحكمة. وأخذت الطائفتان تتضاربان "ولكن لم يهتم غالليون شيء من ذلك" (39). وعرض بولس الإنجيل على غير اليهود من أهل كورنثة ودخل كثيرون منهم في دينه، ولعل المسيحية قد بدت لهم أنها صورة أخرى من الأديان الخفية، التي طالما حدثتهم عن المنقذين الذين يبعثون بعد موتهم، ولعلمهم حين قبلوها قد مزجوها بتلك العقائد القديمة، وأثروا في بولس فجعله يفسر المسيحية تفسيراً يألفه العقل الهلنستي.

ثم انتقل بولس من كورنثة إلى أورشليم (53 م؟) ليسلم على الأخوة. ولكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى بدأ سفرته التبشيرية الثالثة، وزار فيها الجاليات المسيحية في إنطاكية وأسية الصغرى، وبعث فيهم القوة والعزيمة بحماسة وتقته. وقضى في إفسوس عامين، وأتى فيها بأمثال عجيبة جعلت كثيرين من الناس يعتقدون أنه صانع معجزات، وحاولوا أن يشفوا مرضاهم بلمس الأثواب التي لبسها، ووجد صانعوا التماثيل التي كان عابدين الأوثان يضعونها في هيكل أرطيس أن تجارتهم كسدت، ولعل بولس قد أعاد هنا ما أعلنه في أثينة من تشهير بعبادي الصور أو الوثنيين. وقام رجل يدعى دمتر يوس ممن كانوا يصنعون نماذج من فضة للضريح العظيم ليلتبرك بها الحجاج الصالحون، قام هذا الرجل بتنظيم مظاهرة احتجاج على بولس والدين الجديد، وسار على رأس جماعة من اليونان إلى ملهى

صفحة رقم : 3956

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> المبشر

المدينة وظلوا ساعتين كاملتين ينادون "عظيمة هي أرطيس الإفسيسيين!" وأفلح أحد موظفي المدينة في تفريق هذا المجمع الحاشد، ولكن بولس رأى من الحكمة أن يغادرها إلى مقدونية. وقضى بضعة أشهر سعيداً وسط الجماعات التي أوجدها في فلبي، وتسالونيكي وبيريه. ولما سمع أن الانشقاق والفساد أخذاً يفتسآن في عضد الاخوة في كورنثة لم يكتف بلومهم الشديد في عدة رسائل بعث بها إليهم، بل انتقل إليهم بنفسه (56؟) ليواجه من كانوا يذمونهم ويفترون عليه. وكانوا قد ادعوا أنه يستفيد مادياً من عظاته، ويسخرون من الرؤى التي كان يحدثهم عنها، وطلبوا من جديد أن يتمسك المسيحيون جميعاً بالشريعة اليهودية، فأخذ بولس يذكر الاخوة الثائرين أنه كان حيث ما حل يكسب قوته بعمل يديه، وأما الكسب المادي فقد سألهم هل يعرفون ما عاد عليه من أسفاره - لقد جلد سبع مرات، ورجم مرة، وتحطمت به السفينة ثلاث مرات، وتعرض لمئات الأخطار من اللصوص، والوطنيين المتحمسين، والغرق في الأنهار (40). وترامى إليه وهو في هذه المحنة أن "جماعة مختنتين" قد نقضوا، على ما يبدو، اتفاق أورشليم وذهبوا إلى غلاطية وطلبوا إلى جميع المهتدين أ، يطيعوا الشريعة اليهودية إطاعة كاملة. فما كان منه إلا أن كتب إلى أهل غلاطية رسالة تفيض بالغضب، انفصل بها نهائياً عن المسيحيين المتهودين، بل وأعلن فيها أن الناس لا ينجون لاستمساكهم بشريعة موسى بل بإيمانهم القوي الفعال بالمسيح المنقذ ابن الله. ثم سافر إلى أورشليم، وهو لا يعلم ماذا ينتظره فيها من محن وبلايا أشد، ليدافع عن نفسه أمام الرسل، وليحتفل في المدينة المقدسة بعيد العنصرة القديم. وكان يرجو أن يسافر من أورشليم إلى روما، وإلى أسبانيا نفسها، ولا يستريح حتى تسمع كل ولاية من ولايات الإمبراطورية بأخبار المسيح الذي قام بين الموتى وبما وعد به أتباعه الصالحين.

صفحة رقم : 3957

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> العالم الديني

3- العالم الديني

واستقبله زعماء الكنيسة الكبرى "أحسن استقبال" (75؟) ولكنهم حين اختلوا به حذروه بأن قالوا له: "أنت ترى أيها الأخ كم يوجد ربوة من اليهود الذين آمنوا وهم جميعاً غيورون للناموس، وقد أخبروا عنك أنك تعلم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلاً ألا يختنوا أولادهم ولا يسلكوا حسب العوائد... سيسمعون أنك قد جئت، فافعل هذا الذي نقول لك. عندنا أربعة رجال عليهم نذر. خذ هؤلاء وتطهر معهم وانفق عليهم، فسيعلم الجميع أن ليس شيء مما أخبروا عنك. بل تسلك أنت أيضاً حافظاً للناموس" (41). وتقبل بولس النصيحة راضياً، وأجرى طقوس التطهير، ولكن بعض اليهود رأوه في الهيكل فرفعوا عقيرتهم قائلين إنه "هو الرجل الذي يعلم الجميع في كل مكان ضداً للشعب والناموس". وقبض عليه نفر من الغوغاء، وجرّوه خارج الهيكل "وبينما هم يطلبون أن يقتلوه" إذ أقبلت كتيبة رومانية وأنقذته من القتل بأن قبضت عليه. والتفت بولس ليتحدث إلى الجماهير وأكد لهم أنه يهودي ومسيحي، فنادوا بقتله، فأمر الضابط الروماني بجلده، ولكنه ألغى الأمر حين علم

أن بولس يتمتع بحق المواطنة الرومانية. وحيء بالسجين في اليوم الثاني أمام السنهدين، فخاطب بولس المجلس وأعلن أنه فريسي، ونال بذلك بعض التأييد، ولكن أعداءه المهتاجين حاولوا مرة أخرى أن يعتدوا عليه، فأخذ الضابط إلى الثكنات. وجاءه في تلك الليلة ابن أخت له يحذره ويقول له إن أربعين من اليهود قد اقساموا ألا يأكلوا أو يشربوا حتى يقتلوه. وخشى الضابط أن يحدث في المدينة اضطراب يضرب به، فأرسل بولس ليلاً إلى فيلكس وإلى قيصرية. وجاء رئيس الكهنة ومعه بعض الشيوخ من بيت المقدس إلى قيصرية بعد

صفحة رقم : 3958

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> العالم الديني

خمسة أيام من ذلك الوقت وقالوا إنهم وجدوا بولس "مفسداً مهيج فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة" وأقر بولس أنه يدعو إلى دين جديد، وأضاف إلى ذلك قوله إنه يؤمن "بكل ما هو مكتوب في الناموس". فما كان من فيلكس إلا أن طرد الشاكين، ولكنه مع ذلك أبقى بولس تحت الحراسة ومنع أحداً من أصحابه أن يأتي إليه. وبقي بولس على هذه الحال عامين كاملين (58 - 60)، ولعل فيلكس كان يرجو أن يحصل على رشوة طيبة. ولما عيّن فستوس والياً بعد فيلكس عرض أن يحاكم بولس أمامه في دمشق، ولكن بولس خشى هذا الجو المهتاج فلجأ إلى ما له من حق بوصفه مواطناً رومانياً، وطلب أن يحاكم أمام الإمبراطور نفسه. وبينما كان الملك أغرباس (أجربا) ماراً بقبصرية أذن له بالمثل بين يديه مرة أخرى وحكم عليه بأن علمه الكثير قد جعله بهذي ولكنه فيما عدا هذا بريء. وقال أغرباس إنه "كان يمكن أن يطلق هذا الإنسان لو لم يكن قد رفع دعواه إلى قيصر". وأركب بولس سفينة تجارية سافرت به على مهل، وقضت في البحر زمناً طويلاً صادفتها في أثنائه عاصفة شتوية قبل أن تصل إلى إيطاليا. ويقال إن العاصفة دامت أربعة عشر يوماً ضرب فيها بولس البحارة والمسافرين مثلاً طيباً مشجعاً للرجل الذي يسمو على الموت، اللواتق من النجاة. وتحطمت السفينة على صخور مالطة، ولكن من عليها نجوا بالسباحة إلى الشاطئ. وبعد ثلاثة أشهر من هذه الحادثة وصل بولس إلى إيطاليا. وعامله ولادة الأمور الرومان برفق، وانتظروا حتى يأتي الشاكون من فلسطين، وحتى يجد نيرون متنسماً من الوقت يستمع فيه إلى قضيته. وسمح له أن يعيش في بيت يختاره هو لنفسه؛ وأن يوكل جندي لحراسته. ولم يكن في مقدوره أن يتنقل في المدينة بكامل حريته؛ ولكن كان يستطيع استقبال كل من يشاء. ولهذا دعا زعماء اليهود في روما أن يوافوه في المنزل الذي يقيم فيه؛ فجاءوا

صفحة رقم : 3959

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> العالم الديني

واستمعوا إليه وهم صابرون ولكنهم لما رأوا أنه لا يعتقد بأن مراعاة الناموس اليهودي ضرورية للنجاة، تولوا عنه، فقد كان يبدو لهم أن الناموس هو عماد الحياة اليهودية وسلواها اللذان لا غنى لها عنهما. وناداهم بولس قائلاً: "فليكن

معلوماً عندكم أن خلاص الله قد أرسل إلى الأمم وهم سيسمعون!" (42) وغضبت الجالية المسيحية التي وجدها في روما من موقفه هذا كما غضب منه اليهود ذلك أن هؤلاء الأخوان وجلهم من اليهود كانوا يفضلون المسيحية التي جاءت إليهم من أورشليم، فكانوا يختننون، وكانت روما لا تكاد تفرق بينهم وبين اليهود الأصليين. ورحب هؤلاء ببطرس ولكنهم قابلوا بولس بفتور؛ واستطاع أن يهدي بعض سكان روما من غير اليهود، ومن بينهم بعض ذوي المناصب الكبرى، ولكنه ضاق ذرعاً بوحدته في سجنه وأحس بوطأة القيود المفروضة عليه. وكان يجد بعض السلوى فيما يبعث به من رسائل طويلة رقيقة إلى أتباعه البعيدين عنه، وكان قد قضى عشر سنين يكتب مثل هذه الرسائل، وما من شك في أن مجموعها يزيد كثيراً على العشر التي وصلتنا منسوبة إليه. ولم يكن يكتبها هو بقلمه، بل كان يملئها، وكثيراً ما يضيف إليها حاشية بخط يده غير الأنيق ويبدو أنه تركها دون أن يراجعها، تركها بكل ما فيها من تكرار وغموض وخطأ نحوي. ولكن ما فيها من شعور عميق يفيض بالإخلاص، وغيره وغضبة قوية للقضية الكبرى التي وهب حياته للدفاع عنها، وكثرة ما فيها من أقول نبيلة رائعة، كل هذا قد جعلها أقوى وأبلغ ما كتب من الرسائل في أدب العالم كله؛ وإن ما في أدب شيشرون من سحر ليبدو ضئيلاً إذا قيس إلى ما فيها من إيمان قوي فياض. فهي تشتمل على ألفاظ حب قوية

صفحة رقم : 3960

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> العالم الديني

ينطق بها رجل كانت كنائسه في منزلة أبنائه الذين يحميمهم ويرد عنهم الأذى بأعظم ما يستطيع من قوة، وفيها هجوم عنيف على أدائه الذين لا حصر لهم، وتأييب شديد للمذنبين والمارقين، والخصيمين الساعين إلى التفرقة؛ ولا يخلو جزء منها من إنذار ونصح رحيم رقيق "وكونوا شاكرين، لتكون فيكم كلمة المسيح بغنى وأنتم بكل حكمة معلمون ومنذرون بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية بنعمة مترنمين في قلوبكم للرب" (44) وها هي ذي كلمات كبيرة يرددها العالم المسيحي كله ويعتز بها: "الحرف يقتل، ولكن الروح يحيى" (45)، "المعاشرات الردية تقسد الأخلاق الجيدة" (46)، "كل شيء طاهر للطاهرين" (47). "محبة المال أصل لكل الشرور" (48). وها هي ذي اعترافات صريحة منه بعيوبه بل بريانه الشبيه برياء رجال السياسة:

"استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين، فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس مع أنني لست بلا ناموس... لأربح الذين بلا ناموس... صرت لكل كل شيء لأخلص على كل حال قوماً، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكاً فيه" (49).

وقد احتفظت بهذه الرسائل الجماعات التي وجهت إليها وكثيراً ما كانت تتلوها على الناس جهرة، ولم يكذب يختتم القرن الأول حتى كان الكثير منها معروفاً واسع الانتشار، فما هو ذا كلمنت الروماني يشير إليها في عام 97، ويشير إليها أيضاً بعد قليل من ذلك الوقت كل من أجناسيوس Ignatius وبوليكارب Polycarp؛ ولم تلبث أن دخلت في أخص خصائص اللاهوت المسيحي. ولقد أنشأ بولس لاهوتاً لا نجد له إلا أسانيد غامضة أشد الغموض في أقوال المسيح. وكانت العوامل التي أوحى إليه بالأسس التي أقام عليها ذلك اللاهوت هي انقباض نفسه، وندمه، والصورة التي استحال إليها المسيح في خياله؛ ولعله قد

صفحة رقم : 3961

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> العالم الديني

تأثر بنيد الأفلطونية والرواقية للمادة والجسم واعتبارهما شراً وخبثاً؛ ولعله تذكر السنة اليهودية والوثنية سنة التضحية الفدائية للتكفير عن خطايا الناس: أما هذه الأسس فأهما أن كل إن أنثى يرث خطيئة آدم، وأن لا شيء ينجيه من العذاب الأبدي إلا موت ابن الله ليكفر بموته عن خطيئته. وتلك فكرة كانت أكثر قبولا لدى الوثنيين منها لدى اليهود، ولقد كانت مصر، وأسية الصغرى، وبلاد اليونان تؤمن بالآلهة من زمن بعيد - تؤمن بأوزيريس، وأتيس وديونيشس - التي ماتت لتفتدي بموتها بني الإنسان. وكانت ألقاب مثل سوتر (المنقذ) واليوثريوس Eleutherios (المنجي) تُطلق على هذه الآلهة، وكان لفظ كريوس Kyrios (الرب) الذي سمي به بولس المسيح هو اللفظ الذي تطلقه الطقوس اليونانية - السورية على ديونيشس الميت المفندي (52)، ولم يكن في وسع غير اليهود من أهل إنطاكية وسواها من المُدن اليونانية، الذين لم يعرفوا عيسى بجسمه، أن يؤمنوا به إلا كما آمنوا بالهتهم المنقذين، ولهذا ناداهم بولس بقوله: "هو ذا سر أقوله لكم" (53).

وأضاف بولس إلى هذا اللاهوت الشعبي المؤسى بعض آراء صوفية غامضة كانت قد ذاعت بين الناس بعد انتشار سفر الحكمة، وفلسفة افليمون. من ذلك قول بولس إن المسيح هو "حكمة الله" (54) و "ابن الله الأول بكر كل خليفة،

صفحة رقم : 3962

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> العالم الديني

فانه فيه خلق الكل... الكل به وله قد خلق، الذي هو قبل كل شيء وفيه يقوم الكل" (55)، وليس هو المسيح المنتظر "المسيا" اليهودي، الذي سينجي إسرائيل من الأسر، بل هو الكلمة الذي سينجي الناس كلهم بموته. وقد استطاع بولس بهذه التفسيرات كلها أن يغض النظر عن حياة يسوع الواقعية وعن أقواله التي لم يسمعها منه مباشرة، واستطاع بذلك أن يقف على قدم المساواة مع الرسل الأولين، الذين لم يكونوا يجارونه في آرائه الميتافيزيقية. لقد كان في وسعه أن يخلع على حياة المسيح وعلى حياة الإنسان نفسه أدواراً عليا في مسرحية فخمة تشمل النفوس على بكرة أبيها والأبدية بأجمعها. وكان في وسعه فوق هذا أن يجيب عن الأسئلة المربكة أسئلة الذين قالوا إنه إذا كان المسيح إلهاً حقاً فلم رضي أن يُقتل؟ فقال: إن المسيح قد قُتل ليفتدي بموته العالم الذي استحوذ عليه الشيطان بسبب خطيئة آدم. فكان لا بد أن يموت ليحطم أغلال الموت، ويفتح أبواب السماء لكل من نالوا رضوان الله. ويقول بولس إن عاملين اثنين يُقرران من سوف يُنجيهم موت المسيح وهما اختيار الله والإيمان المصحوب بالتواضع. فإله يختار من بداية العالم إلى نهايته من ينالون نعمته ورضوانه ومن تحل بهم نعمته (56). ومع هذا فقد نشط بولس في تقوية إيمان الناس حتى يكون إيمانهم هذا سبيلاً إلى نيل رضاء الله. وقال: إن الروح لا تستطيع أن تحس بذلك التبدل العميق الذي يخلق صاحبها خلقاً جديداً، ويوحد بين المؤمنين وبين المسيح، ويمكنه من الاشتراك في ثمار موته. ويقول بولس إن الأعمال الطيبة، وإطاعة كل ما جاء في أوامر الشريعة اليهودية البالغ عددها 613 أمراً، لا يكفيان للنجاة، لأن هذه الأعمال وتلك الطاعة لا تستطيع أن تبدل طبيعة الإنسان أو أن تُطهر النفس من الذنوب. لقد اختتم عهد الناموس بموت المسيح، ووجب ألا يكون الآن يهودي ويوناني، أو عبد وحر، أو ذكر وأنثى "لأنكم جميعاً واحد في المسيح" (58). لكن بولس لم يمل قط من أن يغرس

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> العالم الديني

في قلوب الناس فائدة للعمل الطيب مقترناً بالإيمان؛ وإن أشهر ما قيل من العبارات عن الحب نفسه لهي ألفاظه هو: "إن كنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنجاً يرن، وإن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم، وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال، ولكن ليس لي محبة فليست شيئاً؛ وإن أطعمت كل أموالي، وإن سلّمت جسدي حتى احترق ولكن ليس لي محبة فلا أنتفع شيئاً، المحبة تتأتى وتترفق، المحبة لا تحسد، المحبة لا تتفاخر... ولا تطلب ما لنفسها... وتحتمل كل شيء... أما الآن فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة ولكن أعظمهن المحبة" (59).

أما الحب الجنسي فيجيزه بولس، ولكنه لا يشجعه إطلاقاً. ومن أقواله فقرة توصي (60)، ولكنها لا تثبت، إنه قد تزوج: "ألعنا، هو وبرنابا" ليس لنا سلطان أن نجول بأخت زوجة كباقي الرسل واخوة الرب وصفاً؟" ولكنه في فقرة أخرى يسمي نفسه عزباً (61). وكان يشبه يسوع في تجرده من الشهوات الجنسية (62)، ولقد روع حين سمع بالشذوذ الجنسي بين الإناث والذكور (63). وسأل أهل كورنثة قائلاً: "أولستم تعلمون أن جسديكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم... فمجدوا الله في أجسادكم" (64)، وعنده أن بقاء البنات عذارى خير من الزواج، "ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا لأن التزوج أصلح من التحرق" وزواج المطلقين والمطلقات حرام، إلا إذا كان المطلق زوجاً لا امرأة غير مؤمنة أو كانت المطلقة زوجة لغير مؤمن فإن لهما بعد الطلاق أن يتزوجا. وعلى المرأة أن تطيع زوجها، وعلى العبد أن يطيع سيده "الدعوة التي دُعي فيها كل واحد (أي اعتنق المسيحية) فليلبث فيها، دعت وأنت عبد لا يهملك، بل وإن استطعت أن تصير حراً فاستعملها بالحرى لأن من دعا في الرب وهو عبد فهو عتيق الرب، كذلك أيضاً الحر المدعو هو عبد المسيح" (65).

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> العالم الديني

ذلك أن الحرية والاسترقاق لم يكن لهما شأن يُذكر إذا كان العالم قريباً من نهايته. ولهذا السبب عينه لم يكن للحرية القومية شأن كبير "لنخضع كل نفس للسلطين القائمة، لأنه ليس سلطان إلا من الله، والسلطين الكائنة هي مرتبة من الله" (60). لقد كان خليفاً بروما ألا تقضي على فيلسوف مجامل طبع إلى هذا الحد.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> الشهيد

4- الشهيد

تقول الرسالة الثانية المشكوك فيها والموجهة إلى تيموثاوس: "بادر أن تجيء إلي سريعاً لأن ديماس قد تركني، إذ أحب العالم الحاضر... وكريسكيس وتيطس... لوقا وحده معي... في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي، بل الجميع تركوني... لكن الرب وقف معي وقواني لكي تتم بي الكرازة ويسمع جميع الأمم، فأنتقدت من فم الأسد. فأني أنا الآن أسكب سكباً ووقت انحلامي قد حضر. قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان(66). لقد كان في حديثه شجاعاً جريئاً. وتقول إحدى الروايات القديمة إنه أطلق من السجن، وأنه سافر إلى أسية وأسبانيا، وعاد منهما إلى الدعوة، وألقى نفسه مرة أخرى سجيناً في رومة. ولكن أكبر الظن أنه لم يُحرر. لقد كان بلا زوجه تؤنسه أو ولد يسليه، وقد فارقه جميع أصدقائه إلا واحداً، فلم يبق له نصير إلا إيمانه القوي؛ ولعل هذا الإيمان أيضاً قد تزعزع. ولقد كان يعيش كما يعيش غيره من المسيحيين في ذلك العصر مؤملاً أن يشهد عودة المسيح، وكان قد كتب إلى أهل قلبي يقول: "ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح... الرب قريب"، وقل إلى أهل كورنثة: "الوقت منذ الآن مقصر لكي يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم... والذين يشتركون كأنهم لا يملكون... لأن هيئة هذا العالم تزول... ماران آثا، المسيح معكم"(68). لكنه في رسالته الثانية لأهل

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> الشهيد

تسالونيكى لأمهم لأنهم يهتمون بشؤون العالم انتظارك لقبول مجيء المسيح، وقال إنه "لا يأتي إن لن يأتي الارتداد أولاً ويُستعلن إنسان الخطيئة (الشيطان) مظهراً نفسه أنه إله"(69). ويبدو لنا من رسالته الأخيرة أنه حاول في أثناء سجنه أنه يوفق بين عقيدته الأولى وبين تأخر مجيء المسيح للمرة الثانية، وأخذ يضع عمله في أن يراه بعد أن يموت، وجعل سلواه ذلك التوفيق العظيم بين العقيدتين الذي أنجى المسيحية - "وهو استبدال الأمل في الاتحاد بالمسيح في السماء بعد الموت بالعقيدة الأولى عقيدة عودة المسيح إلى هذه الأرض". ويبدو أنه حوكم مرة أخرى وأدين؛ وأن الحاكم السياسي وقف مع الرسول الديني وجهاً لوجه، وتغلب أولهما على الثاني. ولسنا نعرف حقيقة التهمة التي وجهت إليه، وأكبر الظن أنه اتهم في هذه المرة بما اتهم به هو وزملاؤه في تسالونيكى وهو أنهم "يعملون ضد أحكام قيصر قائلين إنه يوجد ملك آخر يسوع"(70). وكانت هذه جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام. وليس لدينا سجل قديم لهذه المحاكمة، ولكن ترتليان - وقد كتب بعد مائتي عام من وقوعها - يقول إن "بولس استشهد في روما في عهد نيرون"(71). ونرجح أنه وهو مواطن روماني قد كُرم بأن قُتل بمفرده، فلم يختلط بالمسيحيين الذي صلبوا بعد حريق عام 64.

وتقول إحدى الروايات إنه هو وبطرس استشهدا في وقت واحد وإن كان كلاهما قد استشهدا منفرداً؛ وتصور إحدى القصص المؤثرة هذين الرجلين المتنافسين يرتبطان برباط الصداقة حين يلتقيان في طريقهما إلى الموت. وقد شيد له في القرن الثالث ضريح في موضع على طريق أستييا Ostia يعتقد رجال الدين أن بولس أسلم فيه الروح. وجدد هذا الضريح أكثر من مرة بعد ذلك الوقت، وكان كلما جدد يزداد رونقاً وفخامة حتى أصبح الآن هو الباسلقا الشهيرة المعروفة باسم "القديس بولس وراء الجدران San Paols Fuore le Mura.

صفحة رقم : 3967

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> الشهيد

ذلك رمز خليق بنصره. لقد مات الإمبراطور الذي قضى بإعدامه ميتة الجبناء، وسرعان ما زال من الوجود كل أثر لأعماله التي أسرف في إقامتها أيما إسراف، أما بولس المغلوب على أمره فهو الذي شاد صرح المسيحية الديني، كما أنه هو وبطرس وضعاً نظام الكنيسة العجيب. لقد عثر بولس في خبايا اليهودية على حلم يصور لليهود فلسفة الحشر والنشر، فحرره ووسع نطاقه، وجعله عقيدة ذات قوة تستطيع أن تحرك العالم بأسره، واستطاع بصبره الشبيه بصبر رجال السياسة أن يمزج مبادئ اليهود الأخلاقية بعقائد اليونان فيما وراء الطبيعة؛ وأوجد طقوساً خفيفة جديدة، ووضع مسرحية للحشر جديدة استوعبت كل ما سبقها من مسرحيات تصور هذه العقيدة، وعاشت بعدها كلها، وأحل العقيدة محل العمل في اختيار الفضيلة، وكان من هذه الناحية بداية العصور الوسطى. ولسنا ننكر أن هذا كان تغييراً يُؤسف له كل الأسف، ولكن لعل الإنسانية هي التي شاءت أن يكون؛ ذلك أن الذين يستطيعون أن يحذوا حذو المسيح هم أقلية من القديسين. ولكن نفوساً كثيرة قد تستطيع أن تنمو بآمالها في الحياة الخالدة إلى مستوى رفيع من الإيمان والشجاعة. ولم يشعر معاصرو بولس بأثره في التو والساعة، لأن الجماعات التي أنشأها كانت أشبه بجزائر صغرى في بحر الوثنية الواسع الخضم، ولأن كنيسة روما كانت من صنع بطرس وبقية لذكراه، ومن أجل هذا ظل بولس مائة عام كاملة بعد موته لا يكاد يذكره إنسان. فلما انقضت الأجيال الأولى من المسيحيين، وأخذت أحاديث الرسل الشفهية تضعف ذكرها في الأذهان، وأخذ العقل المسيحي يضطرب بمئات من عقائد الزيف والظلال؛ لما حدث هذا أضحت رسائل بولس إطاراً لمجموعة من العقائد أضفت على الجماعات المتفرقة اتزاناً وألفت منها كنيسة واحدة قوية. ومع هذا كله بقي الرجل الذي فصل المسيحية عن اليهودية من حيث

صفحة رقم : 3968

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> بولس -> الشهيد

الجوهر والأساس يهودياً في قوة خلقه، وصرامة مبادئه؛ ولما أن أراد رجال العصور الوسطى الدينون أن يجعلوا الوثنية كتلكة براقعة لم يجدوا مع يتفق مع هذه النزعة، فلم يقيموا له إلا قليلاً من الكنائس، وقلماً كانوا يقيمون له تمثالاً

أو ينطقون باسمه؛ ومرت خمسة عشر قرناً من الزمان قبل أن يجعل لوثر بولس رسول الإصلاح الديني، ويجد فيه كلفن Calvin النصوص القائمة التي أخذ عنها عقيدته الجبرية. وبهذا كانت البروتستنتية نصراً لبولس على بطرس، وكان الاعتقاد بأن النجاة إنما تكون بالإيمان والعقيدة نصراً لبولس على المسيح.

صفحة رقم : 3969

قصة الحضارة - قيصر والمسيح - شباب المسيحية - الرسل - يوحنا

الفصل الثالث

يوحنا

لقد شاعت أحداث التاريخ المفاجئة أن تنتقل إلينا بولس في صورة واضحة جلية إذا قيست إلى صورة غيره من رسل المسيح، وأن تترك صورة يوحنا في خفاء وغموض. ولقد انحدر إلينا مؤلفان كبيران مقرونان باسمه فضلاً عن رسائل ثلاث. ويحاول النقاد أن يرجعوا سفر الرؤيا إلى عام 69 - 70م (72)، ويعزوه إلى يوحنا آخر هو يوحنا "اللاهوتي" الذي ذكره بيباس (Papias 135) (73). أما جستن مارتن (Justin Martin 135) فيعزو هذا السفر القوي إلى الرسول "المحبوب" (74). ولكن يوزبيوس ذكر من عهد بعيد يرجع إلى القرن الرابع أن بعض العلماء يشكون في صحة نسبته إليه. وما من شك في أن صاحب هذا السفر كان رجلاً ذا مكانة عظيمة لأنه يخاطب كنائس آسية بلهجة المهدد صاحب السلطان. فإذا كان كاتبه هو الرسول نفسه (وسنظل نفترض مؤقتاً أنه هو)، فإن في مقدورنا أن نفهم سبب تسميته، كما سمي أخوه يعقوب باسم بوانرجس Boanerges أي ابن الرعد. وكانت إفسوس، وأزمير، ویرغامس وسارديس وغيرها من مدن آسية الصغرى تنظر إلى يوحنا لا إلى بطرس أو بولس على أنه رئيس الكنيسة الأعلى. وتقول الروايات التي ينقلها يوزبيوس (74) إن دومتیان نفى يوحنا إلى بطنس Patmos وقد عمر يوحنا طويلاً حتى قال الناس إنه مخلص. ويشبه سفر الرؤيا سفري دانيا وأخوخ من حيث الشكل. ولقد كانت رؤى النبوءات الرمزية أحد الأساليب التي يلجأ إليها يهود ذلك العصر في كثير من الأحوال؛ ووجدت رؤى أخرى غير رؤى يوحنا، ولكن

صفحة رقم : 3970

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> يوحنا

هذا السفر سما عليها جميعاً في بلاغته الجذابة. ويستند الكتاب إلى العقيدة الشائعة التي تقول إن حلول ملكوت الله يسبقه حكم الشيطان، وانتشار الشرور الآثام، فيصف حكم نيرون بأنه هو بعينه عهد الشيطان، ويقول إنه لما خرج الشيطان وأتباعه على الله غلبتهم الملائكة جيوش ميخائيل، وقذفت بهم إلى الأرض فقادت العالم الوثني هجومه على المسيحية. ونيرون هو الوحش وعدو المسيح في هذا الكتاب فهو مسيح من عند الشيطان، كما أن يسوع مسيح من قبل الله. ويصف روما بأنها "الزانية العظيمة الجالسة على المياه الكثيرة التي زنى معها ملوك الأرض"، "وسكر سكان الأرض من خمر زناها" وهي "زانية بابل" مصدر جميع الظلم والفساد، والفسق والوثنية، ومركزها وقمتها. هنالك ترى القياصرة المجدفين المتعطشين للدماء، يطلبون إلى الناس أن يخصّوهم بالعبادة التي يحتفظ بها المسيحيون للمسيح.

ويبصر المؤلف في عدة رؤى متتابعة ما سوف يحل بروما وبالإمبراطورية من ضروب العقاب. سترسل عليها أسراب من الجراد تظل خمسة أشهر تعذب سكانها أجمعين عدا المائة ألف والأربعة والأربعين ألفاً من اليهود الذين يحملون على جباههم خاتم المسيحية(77). وتأتي ملائكة أخرى فتصب سبع قوارير من غضب الله على الأرض، فيصاب الناس بقروح شديدة، ويتحول البحر إلى دم كدم الميت يموت منه كل ما في البحر من الكائنات الحية، ويطلق ملك آخر حرارة الشمس بأجمعها على الذين لم يتوبوا، ويلف ملك غيره الأرض في ظلام دامس؛ ويقود أربعة من الملائكة ضعفي عشرة آلاف مرة عشرة آلاف من الفرسان يذبحون ثلث أهل الأرض، ويخرج أربعة فرسان يقتلون الناس "بالسيف والجوع والموت وبوحوش الأرض"(78). ويحدث زلزال تتدك منه الأرض، وتسقط قطع ضخمة من البرد على من بقي من الكفار، وتدمر روما تدميراً تاماً. ويجتمع ملوك الأرض ليقفوا وقتهم الأخيرة في وجه الله،

صفحة رقم : 3971

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> يوحنا

ولكنهم يموتون عن آخرهم، ويلقى بالشيطان وأتباعه إلى الجحيم بعد أن يمنوا بالهزيمة في كل مكان. ولن ينجو من هذه الكارثة إلا المسيحيون الصادقون؛ والذين عذبوا من أجل المسيح، والذين غسلوا في دم الخروف(79) سيجزون الجزء الأوفى.

ثم يطلق الشيطان بعد ألف عام ليفترس بني الإنسان، وتعود الخطيئة فتفسوا مرة أخرى في عالم خال من الإيمان، وتبذل قوى الشر آخر جهدها لتفسد عمل الله. ولكنها تُغلب مرة أخرى، ويلقى بالشيطان وأتباعه هذه المرة في الجحيم حيث يبقون جميعاً إلى أبد الدهر. ثم يحل يوم الحساب الأخير فيقوم الموتى جميعاً من القبور، ويخرج الغرقى من البحار. وفي ذلك اليوم الرهيب "يلقى في البحيرة المتقدة بنار وكبريت" كل "من لم يوجد مكتوباً في سفر الحياة"(80)، ويجتمع المؤمنون ليأكلوا "لحوم ملوك، ولحوم قواد، ولحوم أفوياء... ولحوم الكل حراً وعبداً، صغيراً وكبيراً"(81)، وممن لم يبالوا بدعوة المسيح. وستقوم سماء الله مهياً لتكون جنة على الأرض، وستكون أساساتها من الحجارة الكريمة، ومبانيها من فضة أو ذهب شبه زجاج نقي، وسورها يشب، وكل باب من أبوابها الاثني عشر لؤلؤة واحدة، وسيجري فيها نهر صافٍ من ماء حياة تنمو على ضفته "شجرة حياة". ويُقضى على حكم الشر إلى أبد الدهر، ويرث الأرض من يؤمنون بالمسيح، "والموت لا يكون فيما بعد، ولا يكون حزن، ولا صراخ، ولا وجع فيما بعد"(82).

ولقد كان لسفر الرؤيا أثر عاجل عميق دائم، وكان ما تنبأ به من نجاة للمؤمنين الصادقين ومن عذاب لأعدائهم هو الدعامة القوية التي حفظت حياة الكنيسة في عصور الاضطهاد. كذلك كانت فكرة العهد السعيد سلوى أولئك الذين

أحزنهم طول انتظارهم عودة المسيح. وسرى ما فيه من صور واضحة وعبارات مشرقة في أقوال العالم المسيحي الشعبية والأدبية، وظل الناس تسعة عشر قرناً

صفحة رقم : 3972

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> يوحنا

يُفسرون حوادث التاريخ على أنها تحقيق لما فيه من رؤى، ولا يزال يظفي لونه القاتم ومذاقه المر على عقيدة المسيح في بعض البقاع النائية عن عالم الرجل الأبيض. وقد يبدو من غير المعقول أن يكون كاتب سفر الرؤيا هو نفسه كاتب الإنجيل الرابع. ذلك أن سفر الرؤيا سفر يهودي وأن الإنجيل فلسفة يونانية. ولعل الرسول كتب تلك الرؤى في سورة الغضب التي أعقبت اضطهاد نيرون، وكان لها من هذا الاضطهاد ما يبررها، ثم كتب الإنجيل في أيام نضجه وشيخوخته ونزعتة الميتافيزيقية (90م). وربما كانت ذكرياته عن السيد المسيح قد ذهب بعضها إن كان في وسع الإنسان أن ينسى ذكريات المسيح، وما من شك في أنه قد سمع في الجزائر والمدائن الأيونية أصداء كثيرة للتصوف اليوناني والفلسفة اليونانية. وكان بطليموس من قبله قد نشر تلك العقيدة الخطيرة القائلة إن "أفكار الله" هي النمط الذي شكلت بمقتضاه الأشياء كلها، ثم جمع الرواقيون هذه الأفكار في عبارتهم المعروفة فكرة الله المخصصة. ثم جسد الفيثاغوريون الجدد هذه الأفكار فجعلوها شخصاً قديماً، ثم استحالت على يد فيلون إلى عقل الله أي إلى عنصر قديسي ثان به يخلق الله الخلق ويتصل بالعالم. وإذا ما ذكرنا كل هذا ونحن نقرأ بداية الإنجيل الرابع الذائعة الصيت، واستيقينا لفظ Logos اليوناني بدل ترجمته الإنجليزية Word أو العربية (كلمة) أدركنا من فورنا أن يوحنا قد انضم إلى الفلاسفة: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله... كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان؛ فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس... والكلمة صار جسداً وحل بيننا". وإذا كان يوحنا قد عاش مدى جيلين في بيئة هلنستية فقد بذل جهده

صفحة رقم : 3973

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> يوحنا

لكي يصبغ بالصيغة اليونانية العقيدة الصوفية اليهودية القائلة بأن حكمة الله كانت شيئاً حياً (83). والعقيدة المسيحية القائلة بأن عيسى هو المسيح المنتظر، كما أحس من قبل فيلون العالم المتضلع في البحوث العقلية اليونانية بالحاجة إلى صياغة العقائد اليهودية من جديد كي توائم عقلية اليونان ذوي النزعة الفلسفية، ولقد واصل يوحنا، عرف أو لم يعرف، ما بدأه بولس من فصل المسيحية عن اليهودية فلم يعرض المسيح على العالم، كما كان يعرض عليه من قبل، بوصفه يهودياً يلتزم الشريعة اليهودية إلى حد ما، قل ذلك أو أكثر؛ بل أنطقه في خطابه لليهود بقوله "أنتم" وبحديثه

عن الناموس بقوله "ناموسكم" ولم يكن "مسيحاً منتظراً" أرسل لينجي خراف إسرائيل الضالة، بل كان ابن الله الخالد معه، ولم يكن المحكم بين الناس في المستقبل فحسب، بل كان هو الخالق الأول للكون. فإذا نظرنا إلى المسيح هذه النظرة، كان في وسعنا أن نغفل إلى حد ما حياة الرجل يسوع اليهودية إذ نراها تذوي ويذهب سناها كما يذهب عند الطائفة اللأدرية غير المؤمنة؛ أما فكرة المسيح الإله فقد هضمتها تقاليد العقل الهلنستي الدينية والفلسفية، ومن ثم كان في وسع العالم الوثني - بل وفي وسع العالم المضاد للسامية - أن يحتضنها ويرضى بها. إن المسيحية لم تقض على الوثنية، بل تبنتها، ذلك أن العقل اليوناني المحتضر عاد إلى الحياة في صورة جديدة في لاهوت الكنيسة وطقوسها، وأصبحت اللغة اليونانية التي ظلت قروناً عدة صاحبة السلطان على السياسة أداة الآداب، والطقوس المسيحية، وانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القديس الخفية الرهيبة، وساعدت عدة مظاهر أخرى من الثقافة اليونانية على إحداث هذه النتيجة المتناقضة الأطراف. فجاءت من مصر آراء الثلاث المقدس، ويوم الحساب، وأبدية الثواب والعقاب، وخلود الإنسان في هذا أو ذاك، ومنها جاءت عبادة أم الطفل، والاتصال الصوفي

صفحة رقم : 3974

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> الرسل -> يوحنا

بأنه، ذلك الاتصال الذي أوجد الأفلاطونية الحديثة والأدرية، وطمس معالم العقيدة المسيحية. ومن مصر أيضاً استمدت الأديرة نشأتها والصورة التي نسجت على منوالها. ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى، ومن سوريا أخذت تمثيلية بعث اوتيس. ربما كانت تراقيا هي التي بعثت للمسيحية بطقوس ديونيشس، وموت الإله ونجاته. ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام، وعصور الأرض، واللهب الأخير الذي سيحرقها، وثنائية الشيطان والله والظلمة والنور. فمن عهد الإنجيل الرابع يصبح المسيح نوراً "يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه" (84). ولقد بلغ التشابه بين الطقوس المثراسية والقربان المقدس في القديس حداً جعل الآباء المسيحيين يتهمون إبليس بأنه هو الذي ابتدعه ليضل به ضعاف العقول (85). وقصارى القول أن المسيحية كانت آخر شيء عظيم ابتدعه العالم الوثني القديم.

صفحة رقم : 3975

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

الباب الثامن والعشرون

الفصل الأول

المسيحيون

كانوا يجتمعون في حجراتهم الخاصة أو في معابد صغيرة، وقد نظموا أنفسهم على مثال المجامع اليهودية. وأطلقوا على كل جماعة منهم اسم "الإكليزيا" Ekklesia- وهو اللفظ اليوناني الذي كان يطلق على الجمعية الشعبية في حكومات البلديات- وكانوا يرحبون بالعبيد كما كان يرحب بهم في عبادات إيزيس ومثراس، ولم تبدل أية جهود لتحريرهم، ولكنهم كانوا يواسون بأن يقال لهم انهم سيعيشون في ملكوت يكون الناس فيه جميعاً أحراراً. وكان معظم الذين اعتنقوا الدين الجديد في أول الأمر من الطبقات الدنيا بينهم عدد قليل من الطبقات الوسطى- الدنيا وعدد أقل من الأغنياء، ولكنهم مع هذا لم يكونوا من "سفلة الناس" كما يدعي سلسس Celsus، بل كانوا يحيون في الغالب حياة نظام وجد، يمدون بعثات التبشير بالمال، ويجمعون الأموال لمساعدة الجماعات المسيحية الفقيرة. ولما كانت تبدل في ذلك الوقت جهود لكسب سكان الريف، فلم يعتنق هؤلاء الدين

صفحة رقم : 3976

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

الجديد إلا آخر الأمر؛ كانت هذه الطريقة العجيبة هي السبب في أن أطلق لفظ البجانيين Pagani (أي القرويين أو الفلاحين) على سكان دول البحر الأبيض المتوسط قبل اعتناقهم المسيحية. وكان يُسمح للنساء بالدخول في المجامع الدينية، وكان لهن بعض الشأن في أداء الواجبات الصغرى، ولكن الكنيسة كانت تطلب إليهن أن يحيين حياة التواضع والخضوع والعزلة حتى تستحي غير المسيحيات من حياتهن؛ فكان يُؤمن بأن يأتين للصلاة والعبادة محجبات، لأن شعرهن يُعد من أكبر المغريات، وكان يخشى أن يفتتن به الناس والملائكة أنفسهم أثناء الصلاة(2)، بل أن القديس جيروم كان يرى أن يقص هذا الشعر كله(3). كذلك كان يُطلب إلى النساء

المسيحيات ألا يستخدمن أدهان التجميل أو الحلي، وأن يتجنبن الشعر المستعار بنوع خاص، لأن بركة القس إذا نزلت على الشعر الميت المأخوذ من رأس لابس صعب عليها أن تعرف أي رأس تباركه (4). وقد أصدر بولص أوامر صارمة لأتباعه فقال:

"التصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مآذونا لهن أن يتكلمن... ولكن إذا كن يردن أن يعلمن شيئاً فليسالن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم في كنيسة".

"فإن الرجل لا ينبغي أن يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده، وأما المرأة فهي مجد الرجل، لأن الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل، ولأن الرجل لم يُخلق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل، لهذا ينبغي للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة".

هذه هي النظرة اليهودية واليونانية لا النظرة الرومانية للمرأة؛ ولعلها كانت ثورة على الإباحية التي انزلت إليها بعض النساء بإساءة استعمال ما أوتيت من حرية، ومن حقنا حين نقرأ هذه النذر أن نعتقد أن النساء المسيحيات قد أفلحن في أن يكن فاتنات مغريات على الرغم من عطلهن من الحلي والعطور،

صفحة رقم : 3977

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

وبمعونة براقعهن، فمارسن بدهائهن ما كان لهن من سلطان في الزمن القديم. وقد وجدت الكنيسة للأرامل وغير المتزوجات من الناس أعمالاً كثيرة نافعة، فقد نظمتهم في جماعات "الأخوات" وعهدت إليهن القيام ببعض أعمال الإدارة أو الصدقات، وأنشأت على توالي الزمن طبقات مختلفة من الراهبات كانت أعمالهن الرحيمة أنبل ما تمثلت في المسيحية.

وقد وصف لوشيان حوالي عام 160 "أولئك البلهاء، المسيحيين، الذين يزدرون الأشياء الدنيوية ويرون أنها ملك مشترك بينهم جميعاً" (6). وجاء ترتليان بعد جيل واحد فأعلن أننا "نحن" (المسيحيين) "نشترك جميعاً في كل شيء عدا زوجاتنا"، وأضاف إلى ذلك قوله بتهكمه اللاذع: "فإذا وصلنا إلى هذه النقطة حللنا شركتنا، حللناها بالضبط عند النقطة التي يجعل غيرنا من الرجال اشتركاهم قوياً فعلاً" (7). وليس من حقنا أن نأخذ هذه الأقوال بحرفيتها؛ ذلك أن الشركة، كما يفهم من فقرة أخرى في أقوال ترتليان، لا تعني أكثر من أن كل مسيحي يجب عليه أن يسهم في رصيد الجماعة المشتركة بقدر ما تمكنه موارده. وما من شك في أن الاعتقاد السائد بأن النظام القائم في العالم سيقضى عليه بعد قليل قد جعل هذا التبرع سهلاً على المسيحيين؛ ولعل الأغنياء منهم قد اقتنعوا بأنهم يجب ألا يفاجئوا يوم القيامة وهم ملقون في أحضان المال. وكان بعض المسيحيين الأولين يعتقدون كما يعتقد الأسينيون أن الرجل الغني الذي لا يُشرك الناس فيما لا حاجة له به من ماله لص (9). وقد هاجم يعقوب "أخو الرب" الثروة بألفاظ تتم عن ثورة نفسية مريرة:

"هلم الآن أيها الأغنياء، ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة، غناكم قد تهرأ، وثيابكم قد أكلها العث، ذهبكم وفضتكم قد صدنا، وصدأهما... يأكل لحومكم كنار، ثم كثرتم في الأيام الأخيرة، هو ذا أجره الفعلة الذي حصدوا حقولكم المبخوسة منكم تصرخ وصياح الحاصدين قد دخل إلى أذني

صفحة رقم : 3978

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

رب الجنود.. أما اختار الله فقراء هذا العالم... ورثة الملكوت؟" (10). ويضيف إلى هذا أن الغني سيدبل كما تذبل الأزهار في حر الشمس اللافح (11).

وسرى فيما اعتاده المسيحيون من تناول وجبة الطعام المشتركة عنصر من عناصر الشيوعية؛ فقد كان المسيحيون الأولون يجتمعون كثيراً في عيد الحب Agape ويكون ذلك عادة في مساء يوم أحد السبت. وكان العشاء يبدأ وينتهي بالصلاة وقراءة بعض فقرات من الكتاب المقدس، وكان القس يبارك الخبز والخمر. ويبدو أن المؤمنين كانوا يعتقدون أن الخبز والخمر كانا هما لحم المسيح ودمه، أو أنهما يُمثلان لحمه ودمه (12). وكان عباد ديونيشس، وأثيس، ومثراس يؤمنون بما يشبه هذه العقائد في المآدب التي يأكلون فيها الأجساد المسحورة لألهتهم أو رموز هذه الأجساد (13). وكانت آخر مراسم عيد الحب هذا هي "قبة الحب" وكانت هذه القبة في بعض المجتمعات يتبادلها الرجال فيما بينهم أو النساء فيما بينهن، لكن هذا القيد الثقيل لم يكن يراعى في البعض الآخر، ثم وجد كثيرون من المشتركين في هذا الحفل البهيج أن فيه من الملذات ما يباه الدين، وندد ترتليان وغيره بما أدى إليه من الإباحية الجنسية (14). وكانت الكنيسة توصي بالألتفات الشفاه في أثناء التقبيل، وألا تتكرر القبة إذا أعقبها لذة (15). وأخذ عيد الحب يختفي تدريجياً في القرن الثالث.

وفي وسعنا أن نصدق ما كان يعتقد الأقدمون من أن أخلاق المسيحيين الأولين كانت مثلاً يزدجر به العالم الوثني على الرغم من هذا الحادث السالف الذكر وأمثاله، وعلى الرغم من تشهير الوعاظ الذين كانوا يطلبون إلى المؤمنين أن ينشدوا الكمال. لقد استطاعت هذه المبادئ الأخلاقية السماوية أن تهذب ما في الإنسان من غرائز حيوانية، وتضع له قانوناً أخلاقياً صالحاً للحياة، مهما يكن الثمن الذي تقاضته من حرية العقل والتفكير، وذلك بعد أن ضعفت الأديان

صفحة رقم : 3979

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

القديمة وزال ما كان لها من أثر ضئيل في تدعيم الحياة الخلقية، وبعد أن أخفقت المحاولات التي بذلتها الرواقية لإيجاد قانون أخلاقي قريب من القانون الطبيعي، فلم يكن لها أثر إلا في الصقوة المختارة من الناس. لقد كان الاعتقاد بحلول ملكوت الله ينطوي كذلك على الاعتقاد بوجود حاكم عادل مطلع على جميع أعمال البشر، يعلم ما تخبئه الصدور، لا يعزب عنه مثقال ذرة، ولا يستطيع أحد أن يفر منه أو يخدعه. يُضاف إلى هذه الرقابة القدسية رقابة أخرى من الناس بعضهم على بعض. ذلك أن الذنوب لم يكن من السهل إخفاؤها في هذه الجماعات الصغيرة، وأن المجتمع كان يوجه أشد اللوم علناً لمن يكشف أمرهم ممن يخالفون من أعضائه القانون الأخلاقي الجديد. وقد حرم على المسيحيين الإجهاض ووآد الأطفال وهما اللذان كانا يقضيان على عدد كبير من أفراد المجتمعات الوثنية، وسوى بينهما وبين القتل العمد (16). وكثيراً ما أنقذ المسيحيون الأطفال الذين تركوا في العراء ليقضوا نحبهم، وعمدوهم، وربوهم مستعنيين بما كان يقدم لهم من عون من مال الجماعة العام (17). كذلك حرمت الكنيسة على المسيحيين الذهاب إلى الملاهي، أو مشاهدة الألعاب العامة، أو الاشتراك في الحفلات التي تقام في الأعياد الوثنية، وإن لم تفلح في هذا بقدر ما أفلحت في تحريم الإجهاض ووآد الأطفال (18). وقصارى القول أن المسيحية أيدت وشددت ما كان لدى اليهود المتأهبين للقتال من صرامة أخلاقية. وكانت توصي بالعزوبة وبقاء البنات أباكراً وتعد ذلك من المثل الأخلاقية العليا؛

ولم يكن بالزواج إلا لأنه مانع من الإباحية الجنسية، ولأنه وسيلة سخيفة لحفظ النسل. ولكن الزوج والزوجة كانا يشجعان على الامتناع عن العلاقات الجنسية (19). أما الطلاق فلم يكن يسمح به إلا إذا كان أحد الزوجين وثنياً وأراد أن يلغي زواجه بمن اعتنق المسيحية. وكانت الكنيسة تقاوم زواج الأرمال من النساء والرجال، وقد حرم اللواط ودم نماً قل أن

صفحة رقم : 3980

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

يكون له مثيل في شدته في التاريخ القديم. وفي ذلك يقول تريليان: "أما من حيث المسألة الجنسية فإن المسيحي يقنع بالمرأة" (20). وكان كثير مما ورد في هذا القانون الأخلاقي الصارم يستند إلى قرب عودة المسيح إلى الأرض، فلما أن بدأ هذا الأمل يمحى، أخذت مطالب الجسد تقوى مرة أخرى، وضعفت الأخلاق المسيحية. وشاهد ذلك أن رسالة لا يُعرف كاتبها تسمى راعي هرماس (حوالي عام 110) تندد بعودة البخل، والخيانة، وأصباغ الشفاه، وصبغ الشعر، وتلوين الجفون، والسكر، والزنى بين المسيحيين (21). لكن الصورة العامة التي لدينا عن أخلاق المسيحيين في ذلك العهد تنطق بالتقوى، والوفاء المتبادل، والإخلاص بين الزوجين، والسعادة، والطمأنينة، والثقة، والإيمان. ولم يسع بلني الأصغر إلا أن يكتب إلى تراجان يقول إن المسيحيين يحيون حياة هادئة هي مضرب المثل في الصلاح (22). ويصفهم جالينوس بأنهم "قد سموا في تأديب أنفسهم" وفي... رغبتهم الشديدة في الوصول إلى مستوى خلقي رفيع يجعلهم في منزلة لا نقل عن منزلة الفلاسفة الحقيقيين (23). وقد قوى شعورهم بالخطيئة حين أخذوا يعتقدون أن البشر جميعهم قد تلوثوا بسقوط آدم، وأن العالم سينتهي عما قريب، ويحل اليوم الذي يحكم فيه على الناس بالعذاب السرمدى أو النعيم المقيم. وقد وجه كثير من المسيحيين همهم كله إلى العمل على أن يستقبلوا يوم الحساب الرهيب طاهرين من الدنس، فكانوا لذلك يرون في كل لذة من ملذات الحواس غواية من غوايات الشيطان، ولهذا أخذوا ينددون بعالم الجسم ويعملون لكبت الشهوات بالصوم وبكثير من أنواع التعذيب البدني، وكنوا ينظرون بعين الريبة إلى الموسيقى، والخبز الأبيض، والخمر الأجنبية، والحمامات الدافئة، وحلق اللحية، ويرون في هذه الأعمال استهانة بإرادة الله الجليلة الواضحة للعيان (24). واتخذت الحياة حتى عند المسيحي العادي نفسه لوناً أشد قتامة

صفحة رقم : 3981

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

مما خلعتة عليها الوثنية، إلا حينما كانت تعمل على استرضاء الآلهة السفلى لدفع أذاها. وانتقل إلى يوم الأحد المسيحي ما كان يراعى في السبت اليهودي من جد ووقار حين حل أولهما محل الثاني في القرن الثاني بعد الميلاد. فقد كان المسيحيون يجتمعون في ذلك اليوم المعروف عندهم بيوم الرب، ليقيموا قداسهم الأسبوعي. فكان قساوستهم يتلون عليهم نُبذاً من الكتاب المقدس، ويؤمنونهم في الصلاة، ويلقون عليهم مواضع في العقائد، والتعاليم الأخلاقية، والجدل الطائفي. وكان يسمح لأفراد الجماعة وخاصة النساء، في الأيام الأولى أن "ينطقوا" في أثناء الغيوبة أو النشوة بألفاظ لا يستطيع أن يشرح معناها إلا المفسرون الصالحون؛ ولما أن أدت هذه الأعمال إلى كثير من التهيج والفوضى في شؤون الدين، عمدت الكنيسة إلى عدم تشجيعها ثم منعتها آخر الأمر منعاً باتاً ووجد القساوسة أنفسهم مضطرين عند كل خطوة إلى كبح جماح الخرافات لا إلى خلقها. وقبل أن يُختتم القرن الثاني كانت هذه الحفلات الأسبوعية قد اتخذت شكل القداس المسيحي. وأخذ هذا القداس ينمو نمواً بطيئاً بالاعتماد على صلاة الهيكل اليهودية، وعلى الطقوس اليونانية الخاصة بالتطهير، والتضحية البديلة، والاشترار عن طريق العشاء الرباني في قوى الإله القاهرة للموت، حتى صار في آخر الأمر كومة من الصلوات، والمزامير، والقراءات، والمواضع، والترتيلات، وما هو أهم من هذا كله وهو التضحية الرمزية بحمل الله للتكفير عن الخطايا، وهي التضحية التي حلت في المسيحية محل القرابين الدموية في الأديان القديمة. واستحال الخبز والخمر اللذان كانا يُعدان في الطقوس القديمة هدايا توضع على المذبح أمام الإله بفضل تدشين القساوسة له إلى جسم المسيح ودمه، وأصبحتا يُقدّمان لله بوصفهما تكراراً بتضحية يسوع بنفسه على خشبة الصليب. ويلي هذا موكب مؤثر رهيب يشترك فيه العابدون في حياة منقذهم ومادته نفسيهما.

صفحة رقم : 3982

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

وكانت هذه فكرة خلع عليا طول الزمن قداسة، فلم يكن العقل الوثني في حاجة إلى شيء من التدريب لاستقبالها وإدماجها في "طقوس القداس الخفية" وبها أضحت المسيحية آخر الأديان الغامضة وأعظمها. لقد كانت هذه عادة حقيرة في منشئها (25)، جميلة في تطورها، وكان قبولها في المسيحية وسيلة من أحكم الوسائل التي سلكتها لتوائم بينها وبين رموز العصر وحاجات أتباعها؛ ولم يكن في طقوسها كلها طقس يماثل القداس في بعث الحماسة في النفس الوحيدة المقفورة، وتقويتها على مواجهة العالم الذي يناصبها العداء. وكان (منح البركة) للخبز والخمر أحد الأسرار السبعة المسيحية المقدسة وهي الطقوس التي يعتقد الناس أنهم ينالون بها البركة الإلهية. وهنا أيضاً تستخدم الكنيسة شعر الرموز لتخفف به من أعباء الحياة الإنسانية وتعلي مكانتها، وتجدد في كل مرحلة من مراحل الملحمة الإنسانية صلة الخالق بالمخلوق وهي الصلة التي تقويه على احتمال متاعب الحياة والأمها. ولسنا نجد في القرن الأول الميلادي إلا ثلاث شعائر دينية يؤمن المسيحيون بقداستها: التعميد، والعشاء الرباني، ورسامة الكهنوت؛ ولكن سائر الشعائر كانت أصولها موجودة في عادات المجتمعات الدينية من ذلك الوقت البعيد. ويلوح أنه كان من عادة المسيحيين الأولين أن يضيفوا إلى التعميد "وضع الأيدي" على من يعمدون، وبذلك يدخل الرسول أو القسيس الروح القدس في المؤمنين (28). ثم انفصل هذا العمل عن التعميد على توالي الأيام وأصبح هو تثبيت العماد (29). ولما استبدل تعمد الأطفال شيئاً فشيئاً بتعميد الكبار شعر الناس بحاجتهم إلى التطهير الروحي بعد مرحلة الطفولة؛ فاستحال الاعتراف العام بالخطيئة اعترافاً خاصاً أمام القس، الذي يقول بأنه تلقى من الرسل أو خلفائهم من الأساقفة حق

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

"الربط والحل" أي فرض الكفارات وغفران الذنوب(30).
ولقد كان فرض الكفارات هذا من الأنظمة التي يمكن أن يساء استخدامها بسهولة نيل المغفرة؛ ولكنه مع هذا يمد المذنب بقوة تمكنه من إصلاح نفسه، ويوفر على النفوس القلقة متاعب الندم العصبية.
وكان الزواج في تلك القرون لا يزال من النظم المدنية؛ ولكن الكنيسة أضافت إليه ضرورة الحصول على موافقتها، وأخذت تطالب الزوجين به، فرفعت الزواج بهذا العمل من عقد زمني يستطاع حله إلى عقد مقدس لا يستطاع نقضه. وقيل أن يحل عام 200 بعد الميلاد اتخذت عادة "وضع الأيدي" صورة "الرسامة الكهنوتية"، وبمقتضاها أصبح للأساقفة وحدهم حق رسامة القساوسة القادرين على إقامة القداس بصورته الصحيحة؛ ثم استمدت الكنيسة في آخر الأمر من رسالة يعقوب (5 : 14) "دهن المريض بالزيت المقدس بعد الموت" وهي البركة الأخيرة التي يتلقاها من القس حين يدهن في المسيحي المحتضر أعضاء الحس والأطراف، فيطهره مرة أخرى من الخطايا ويهيئه للقاء الله. ولو أننا حكمنا على هذه الشعائر بما كان يعزوه إليها القائمون بها والمؤمنون بقوتها، وأخذنا أقوالهم فيها بحرفيتها، لكان هذا منتهى السخف منا والجهالة، لكننا إذا أدركنا أنها تبعث في النفوس البشرية الشجاعة والإلهام، حكمنا من فورنا بأنها خير علاج للنفوس وأقربه إلى الحكمة.
وكانت طريقة الدفن المسيحية آخر ما تكرم به حياة المسيحي. ذلك أن من عقائد الدين الجديد عودة الحياة إلى الجسم والروح، ولهذا كان يُعنى بالميت أشد العناية، فيقوم قسيس بالخدمة الدينية للميت وقت دفنه، وتوضع كل جثة وحدها في قبر خاص؛ ثم أخذ المسيحيون حوالي عام 100 يتبعون العادات السوربية والتسكانية القديمة فيدفنون موتاهم في سرايب- وأكبر الظن أن هذا لم يكن يقصد إخفائها بل كان رغبة منهم في الاقتصاد في الأمكنة

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

والنفقات، فكان العمال يحفرون طرقات طويلة تحت الأرض مختلفة البعد عن سطحها، توضع فيها أجسام الموتى في دياميس بعضها فوق بعض ممتدة على جانبي هذه الطرقات. وسار الوثنيون واليهود على هذه السنة نفسها، ولعلمهم فعلوا هذا ليسهلوا مشقة الدفن ونفقاته على الجمعيات التي كانت تقوم بهذه المهمة. ويبدو لنا أن بعض هذه الطرقات قد جعلت ملتوية عمداً وقد يبعث هذا على الظن بأنها كانت تستخدم مخابئ في أوقات الاضطهاد، فلما أن علا شأن المسيحية وانتصرت على أعدائها زالت عادة دفن الموتى في السرايب، وأضحت الدياميس أماكن معظمة يحج إليها الناس؛ وقبل أن يحل القرن التاسع سدت السرايب ونسيها الناس، ولم تكشف إلا بطريق المصادفة عام 1578. وهذه السرايب وما فيها من نقوش بارزة وظلمات وهي التي احتفظت بمعظم ما بقي لنا من الفن المسيحي الأول. فها هنا ظهرت في عام 180 الرموز التي أصبحت فيما بعد ذات شأن أيما شأن في المسيحية: اليمامة الممثلة للروح بعد

أن تحررت من سجن الجسم؛ والفتق Phoenix الذي عادت الحياة إلى رماده بعد احتراقه، وغصن النخلة شعار النصر، وغصن الزيتون رمز السلام. والسمة وقد ضمت إلى شعائر المسيحية لأن اسمها اليوناني i-ch-th-u-s يتكون من الحروف الأولى من العبارة "Jesous Christos thou uios soter" - يسوع المسيح ابن الله، المنقذ"، وهنا أيضاً نجد تلك الفكرة الذائغة الصيت، فكرة الراعي الصالح، ممثلة تمثيلاً صريحاً على تمثال لعطارد يحمل معزى. وتتمثل في هذه الرسوم أحياناً رشاقة رسوم بمبي، ونشاهد ذلك في الأزهار، والكروم، والطيور التي كان يزدان بها قبر دومتيان. وهذه النقوش في العادة من أعمال صغار الصانع المغمورين الذين يفسدون وضوح الخطوط اليونانية والرومانية بالغموض

صفحة رقم : 3985

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

الشرقي. ذلك بأن المسيحية كانت في تلك القرون الأولى منهمكة في شئون الدار الآخرة انهماكاً يحول بينها وبين العناية بتزيين دار الدنيا. يضاف إلى هذا أنها سارت على السنة اليهودية سنة كراهية التماثيل، وخلطت بين التصوير وبين عبادة الأوثان، ودمت النحت والتصوير لأنهما في أكثر الأحيان يمدان العرى، وكان من أثر هذه الآراء أن اضمحل الفن التشكيلي بنماء المسيحية، أما الفسيفساء فكانت أكثر انتشاراً، فكانت جدران الباسليques وأماكن التعميد مرصعة برصائع من أوراق الأشجار وأزهارها وبخروف عيد الفصح، وصور من العهد القديم. وكان صور شبيهة بهذه تنقش نقشاً غير متقن على التوابيت. وكان المهندسون المعماريون في هذه الأثناء يعملون على تكييف الباسليقات اليونانية-الرومانية للوفاء بحاجات العبادات المسيحية؛ ولم تكن الهياكل الصغيرة التي كانت تضم الآلهة الوثنية نموذجاً صالحاً للكنائس المعدة لاستقبال الجماعات الكبيرة، أما صحن الباسليقات الرحب وطرقاتها فكانت صالحة لهذا الغرض، وكان قبائها قد أعد لأن يكون هو المحراب؛ وفي هذه الأضرحة ورثت الموسيقى المسيحية على استحياء النغم، والوزن، والسلم الموسيقي؛ وكان كثير من رجال الدين يعارضون في أن تغني النساء في الكنيسة، بل كانوا يعارضون في أن يغنين في أي مكان عام، لأن صوت النساء قد يثير رغبة دنسة في الرجل القابل للتهيج على الدوام (31). لكن المجتمعين في الكنائس كثيراً ما كانوا يعبرون بترانيمهم عن أملهم، وشكرهم، وبهجته؛ وأضحت الموسيقى على توالي الأيام أجمل الزينات، وأرقى الوسائل لخدمة الدين المسيحي. وهذا الدين في جملته أعظم الأديان التي عرضت على بني الإنسان جاذبية؛ فهو يعرض نفسه دونما قيد على جميع الأفراد، والطبقات، والأمم؛ ولم يكن كالدين اليهودي مقصوراً على شعب بعينه أو على الأحرار في أمة بعينها كما كانت الشعائر الرسمية في روما وبلاد اليونان، والمسيحية إذ تجعل الناس

صفحة رقم : 3986

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

جميعاً وارثين لانتصار المسيح على الموت تعلن المساواة التامة الأساسية بين جميع بني الإنسان، وتجعل كل الفروق في المراتب الدنيوية أموراً عارضة تافهة؛ وقد وهبت البائسين، والمحطمين، والمحرومين، واليائسين، والأذلاء، جميعاً فضيلة الرحمة التي لم يكن لهم بها عهد من قبل؛ كما وهبتهم العزة والكرامة التي ترفع من قدرهم وتعلي شأنهم، وهبتهم فوق ذلك وحياء وإلهاماً ينبعث من صورة المسيح وقصته ومبادئه الأخلاقية؛ وأضاعت حياتهم بما تبعث فيهم من أمل في ملكوت الله المقبلة، وفي السعادة الدائمة بعد الموت؛ ووعدت أشد الناس دنيوياً بالعفو عن ذنوبهم ويقبولهم في الناجين من العقاب في الدار الآخرة، أما العقول التي ألقفها طول البحث في المشاكل المعقدة كمشاكل أصل الحياة ومصير الإنسان والشر والآلام، فقد جاءت إليها بمجموعة من العقائد الموحى بها من عند الله تستطيع أكثر النفوس سداجة أن تجد فيها السلوى والراحة العقلية؛ وجاءت إلى الرجال والنساء الذين يحيون حياة الفاقة والكدح بمباهج العشاء الرباني والقداس، وهما من الشعائر التي تجعل كل حادثة كبرى في الحياة منظرًا خطيراً في مسرحية الله والإنسان؛ وجاءت إلى الفراغ الخلقي الذي خلقتة الوثنية المحتضرة، وإلى فتور الرواقية وفساد الأبيقورية، وإلى العالم الذي أنهكته علل الوحشية، والقسوة، والظلم، والفوضى الجنسية؛ وإلى الإمبراطورية الجانحة إلى السلم، والتي بدت في غير حاجة إلى فضائل الرجولة القوية أو إلى آلهة الحرب، جاءت إلى هذه كلها بقانون أخلاقي جديد قائم على الاخوة، والرحمة، والتأديب، والسلام.

وبعد أن تشكل الدين الجديد بحيث يفي بحاجات الإنسان أخذ ينتشر بين الناس بما أوتي من قدرة على الذبوع والانتشار، فكان كل من اعتنق هذا الدين ينصب نفسه داعياً له بحماسة لا تقل في قوتها عن حماسة الثوار. وكان طرق الإمبراطورية الرومانية، وأنهاها، وشواطئ بحارها، ومسالكها التجارية

صفحة رقم : 3987

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> المسيحيون

أهم العوامل التي عينت الخطوط الرئيسية لنماء الكنيسة المسيحية، فأتجه هذا النماء شرقاً من أورشليم إلى دمشق، والرها، ودورا، وسلوقية، وطشقونة؛ واتجه منها جنوباً عن طريق بصرى، وبطرا إلى بلاد العرب؛ وغرباً عن طريق سوريا، إلى مصر، وشمالاً عن طريق إنطاكية إلى أسية الصغرى وأرمينية؛ ومن إفسوس وترواس وراء بحر إيجه إلى كورنثة (كورنثوس) وتسالونكي، وإلى درهكيوم وراء الطريق الإجناسي؛ ثم إخترق البحر الأدريايوي إلى برنديزيوم، أو عن طريق سلا وكريبيدس إلى بتيولي وروما؛ وعن طريق صقلية ومصر إلى شمالي أفريقية، واخترق البحر الأبيض المتوسط أو جبال الألب إلى أسبانيا وغالة، ومنها إلى بريطانيا. ثم سار الصليب على مهل في أعقاب الحكم الروماني، وشق النسر الروماني، الطريق للمسيح؛ وكانت أسية الصغرى في ذلك الوقت حصن المسيحية الحصين، ولم يكد يحل عام 300 حتى كانت الكثرة الغالبة من سكان إفسوس وأزمير من المسيحيين (32). وعلا شأن الدين الجديد في شمالي أفريقية، فأضحت قرطاجنة وهيو مركزين رئيسيين للعلم والجدل المسيحيين، وفيهما وجد آباء الكنيسة اللاتينية العظام- ترتليان، وكبريان، وأوغسطين؛ وهنا اتخذت نصوص القديس اللاتينية وترجمة العهد القديم اللاتينية صورتيهما المعروفتين. وبلغ عدد الجالية المسيحية في روما قبيل آخر القرن الثالث نحو مائة ألف، وكان في وسع هذه الجالية أن تمد بمعونتها المالية غيرها من الجاليات، وكانت من عهد بعيد تطالب لأسقفها بالسلطة العليا على سائر الكنائس.

ويمكننا أن نقول بوجه عام إنه لم يحل عام 300 بعد الميلاد حتى كان ربع سكان الشرق وجزء من عشرين جزءاً من سكان الغرب من المسيحيين. وفي ذلك يقول ترتليان (حوالي 200): "يجهر الناس بأن الدولة مكتظة بنا، ذلك أن الخلاق على اختلاف سنهم، وأحوالهم، ومراتبهم، يهرعون إلينا، وينضون تحت لوائنا. إننا أبناء الأمس القريب ولكننا رغم هذا قد ملأنا العالم كله" (33).

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنازع العقائد

الفصل الثاني

تنازع العقائد

لو أن عادات وعقائد مختلفة متناقضة لم تنشأ في مراكز المسيحية المتعددة المستقلة بعضها عن بعض إلى حد ما والخاضعة إلى تقاليد وبيئات مختلفة. لو أن هذا لم يحدث لكان عدم حدوثه أمراً شديداً الغرابة. ولقد قدر للمسيحية اليونانية بنوع خاص أن يطغى عليها سيل من البدع الدينية بتأثير عادات العقل اليوناني الميتافيزيقية المولعة بالنقاش والجدل؛ وليس من المستطاع فهم المسيحية على حقيقتها إلا إذا عرفنا ما دخل فيها من هذه البدع، لأنها وإن غلبتها لم تسلم من بعض ألوانها وأشكالها.

وكان ثمة عقيدة مشتركة وحدت الجماعات المسيحية المنتشرة في أنحاء العالم: هي أن المسيح ابن الله، وأنه سيعود لإقامة مملكته على الأرض، وأن كل من يؤمن به سينال النعيم المقيم في الدار الآخرة. ولكن المسيحيين اختلفوا في عودة المسيح؛ فلما أن مات نبيرون، وخرب تيطس الهيكل، ولما أن دمر هديران أورشليم، رحب كثيرون من المسيحيين بهذه الكوارث وعدوها بشائر بعودة المسيح.

ولما أن هددت الفوضى الإمبراطورية في أواخر القرن الثاني، طن ترتليان وغيره أن آخرة العالم قد دنت (34)؛ وسار أحد الأساقفة السوريين على رأس قطيعه إلى الصحراء ليلتقي بالمسيح في منتصف الطريق، وأفسد أسقف آخر في بنطس نظام أتباعه بأن أعلن أن المسيح سيعود في خلال عام واحد (35). ولما لم تصدق كل هذه العلامات، ولم يعد المسيح، رأى عقلاء المسيحيين أن يخففوا من وقع هذه الخيبة بتفسير موعد عودته تفسيراً جديداً، فقيل في رسالة معزوة إلى برنابا

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنازع العقائد

إنه سيعود في خلال ألف عام(36)، وقال أشد هؤلاء حذراً إن عودته ستكون حين ينقرض "جيل" اليهود أو شعبهم عن آخره، أو حين لا يبقى أحد من غير اليهود لم يصل إليه الإنجيل؛ أو كما يقول إنجيل يوحنا: إنه سيرسل بدلاً منه الروح القدس أو المقرّى؛ ثم نقل الملكوت آخر الأمر من الأرض إلى السماء، ومن حياة الناس في هذه الدنيا إلى الجنة في الدار الآخرة. بل إن الاعتقاد بعودة المسيح بعد ألف عام أصبح لا يلقى تشجيعاً من الكنيسة، وانتهى الأمر بأن صارت تقاومه وتحكم على القائلين به بالزيغ والضلال.

وملاك القول أن الاعتقاد بعودة المسيح الثانية هي التي أقامت صرح المسيحية، وأن الأمل في الدار الآخرة هو الذي أبقى عليها .

وإذا عضضنا النظر عن هذه العقائد رأينا أن أتباع المسيح قد انقسموا في الثلاثة القرون الأولى من ظهوره إلى مائة عقيدة وعقيدة. ولو أننا عمدنا إلى ذكر العقائد الدينية المختلفة التي حاولت أن تستحوذ على الكنيسة الناشئة ثم عجزت من الوصول إلى غرضها، والتي اضطرت الكنيسة إلى أن تصمها واحدة بعد واحدة بأنها كفر وسعي إلى الانشقاق والتفريق، لو أننا فعلنا هذا لكان ذلك جهلاً منا بالغرض من كتابة التاريخ.

صفحة رقم : 3990

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنازع العقائد

وجدير بنا أن نشير هنا إلى الأدبية - أي طلب العلم الرباني (gnosis) عن طريق التصوف - لم تكن كفرًا بالمسيحية بقدر ما كانت عقيدة منافسة لها. لقد نشأت هذه العقيدة المسيحية، وكانت تبشر بوجود المنقذ (Soter) قبل أن يولد المسيح(37). وأكبر الظن أن سمعان المجوسي السامري الذي عاب عليه بطرس اتجاره بالرتب الكهنوتية كان هو نفسه مؤلف كتاب المعرض الأكبر الذي جمع فيه طائفة لا حصر لها من الأفكار الشرقية عن الخطوات المعقدة التي يستطيع بها العقل البشري أن يصل إلى العلم اللدني بالأشياء كلها. وفي الإسكندرية امتزجت الأرفية، والفيثاغورية الجديدة؛ والأفلاطونية الجديدة بفلسفة فيلون العقلية ودفعت بسيليدس (Basilides 117)، وفلنتينس (Valentinus 160) وغيرهما إلى تكوين أنظمة عجيبة من "الفيض الرباني" "وايونات" العالم المجسدة؛ وأوجد بردسانس (Bardesanes 200) في الرها اللغة السريانية الأدبية بوصفه هذه الأيونات شعراً ونثراً. وعرض ماركس الأدرى (The Guostic Mercus في غالة أن يكشف للنساء أسرار ملائكتهن الحارسة، وكان كل ما أوحى به إليهن إطراء لهن ونفاقاً، وقبل في نظير ذلك أن يستمتع بهن(38).

وكان أعظم الملاحدة الأولين من غير الأدرين، ولكنه تأثر بأرائهم الدينية. وتتلخص قصة مرسيون Marcion وهو شاب ثري من أهل سينوب في أنه جاء إلى روما حوالي عام 140 معتزماً أن يتم ما بدأه بولس وهو تخليص المسيحية من اليهودية. وكان مما قاله مرسيون إن المسيح حسب رواية الأناجيل،

صفحة رقم : 3991

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنازع العقائد

قد قال إن أباه إله رحيم، غفور، مُحب، على حين أن يهوه كما يصفه العهد القديم، إله غليظ القلب؛ صارم في عدله مستتب، إله حرب؛ ولا يمكن أن يكون يهوه هذا أباً للمسيح الواحد. وتساءل مرسيون قائلًا أي إله خير تطاوعه نفسه بأن يقضي على البشر جميعاً بالشقاء لأن أباهم الأول أكل تفاحة، أو رغب في المعرفة أو أحب امرأة؟ إن يهوه موجود، وهو خالق العالم، ولكنه خلق لحم الإنسان وعظامه من المادة، ولهذا ترك روح الإنسان مسجونة في قالب من الشر، وأراد إله أكبر من يهوه أن يطلق هذه الروح من ذلك السجن فأرسل ابنه إلى الأرض؛ وظهر المسيح؛ وكان عند ظهوره في سن الثلاثين، في جسم طيفي غير حقيقي، وكسب بموته لخيار الناس ميزة البعث الخالص. ويقول مرسيون إن الأختيار هم الذين يفعلون ما فعله بولس فينبذون يهوه والشريعة اليهودية، ويرفضون الكتب العبرانية المقدسة، ويتجنون الزواج، واللذات الجنسية جميعها، ويتغلبون على الجسم بالزهد الشديد. عمل مرسيون على نشر هذه الآراء بإصدار عهد جديد غير العهد المعروف يتكون من إنجيل لوقا ورسائل بولس. وأصدرت الكنيسة قراراً بحرمانه، وردت إليه المال الكثير الذي وهبه إليها حين جاء إلى روما.

وبينما كانت الشيعتان الأدرية والمرسيونية أخذت في الانتشار السريع في الشرق والغرب ظهر زعيم جديد لشيعه ضالة أخرى في ميسيا Mysia. فقد قام في عام 156 رجل يدعى منتانس Montanus يندد بتعلق المسيحيين المتزايد بشؤون هذا العالم ويزاديد سلطان الأساقفة المطلق على الكنيسة، وأخذ يطالب بالعودة إلى بساطة المسيحية الأولى وصرامتها، ويرد حق التنبؤ أو القول الملهم إلى أعضاء الجماعات المسيحية. وأمنت امرأتان تدعيان بريسل Priscilla ومكسمليا Maximillia بأقواله، وأخذتا تنطقان في أثناء غيبوبتها الدينية بأقوال أصبحت النبوءات الباقية لهذه الشيعه. وكان منتانس نفسه يتنبأ في أثناء تشوته الدينية بنبوءات بلغ من فصاحتها أن أتباعه الفريجين أخذوا يلقبونه بالجمدي الذي وعد

صفحة رقم : 3992

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنازع العقائد

به المسيح، ويلقبونه بنفس الترحيب الحماسي الذي كان يصدر من أتباع ديونيشس. وكان مما تتبأ به أن ملكوت السموات قد دنت ساعته، وأن أورشليم الجديدة التي يقول بها سفر الرؤيا ستنزل من السماء على سهل قريب بعد زمن قليل. ثم سار بنفسه إلى هذه الأرض الموعودة على رأس حشد من الناس بلغ من الكثرة درجة خلت معها بعض المدن من سكانها. وحدث في هذا الوقت ما حدث في بداية عهد المسيحية فامتنع الناس عن الزواج وعن التنازل، وجعلوا متاعهم ملكاً مشاعاً بينهم، وعمدوا إلى النقشف والزهد استعداداً بمجيء المسيح (39). ولما اضطهد أنطونينس الحاكم الروماني المسيحيين في أسية الصغرى هرع مئات من أتباع منتانس إلى محاكمه سعياً منهم إلى الاستشهاد، ورغبة في الجنة. ولم يستطع أنطونينس أن يحاكمهم كلهم فاكتفى بإعدام بعضهم وطرد معظمهم وقال لهم: "أيها الخلاق التوسع! إذا كنتم تريدون الموت حقاً، فهل عدتم الجبال وأجراف الصخر العالية؟" (40) وأعلنت الكنيسة أن تعاليم منتانس كفر وضلال؛ وأمر جستنيان في القرن السادس الميلادي بإبادة هذه الشيعه عن آخرها، فاجتمع بعض أتباع منتانس في كنائسهم، وأضرمو فيها النار، واحترقوا فيها أحياء (41).

أما الشيع الضالة الصغرى فقد كانت مما يخطئه الحصر، فمنها شيعه الزهاد التي عمدت إلى قمع شهواتها بمختلف الوسائل، وقالت إن الزواج من الخطايا؛ ومنها شيعه المتخيلة (Docetists) القائلة بأن جسم المسيح لم يكن لحماً ودماً بل كان شبحاً أو خيالاً؛ ومنها الثيودوتية التي لم تكن ترى في المسيح أكثر من إنسان، والمتنبية، وأتباع بولس

الساموساتي Samosata وكانت هاتان الطائفتان تعتقدان أن المسيح كان بمولده رجلاً عادياً ولكنه وصل إلى درجة الألوهية بكماله الخلقى؛ ومنها الظاهرية Modalists والسابلية

صفحة رقم : 3993

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنازع العقائد

(أتباع سابليوس) القائلة بأن الأب والإبن والروح القدس ليست أقانيم منفصلة بل هي صور مختلفة يظهر فيها الله للإنسان، ومنها المنكرون وجود شخصية مستقلة للمسيح والقائلون إن ألوهيته ليست إلا قوة وهبت له. وهؤلاء كلهم يعتقدون أن الأب والإبن شخص واحد؛ واليعاقبة الذين يعتقدون أن للمسيح طبيعة واحدة؛ ومنها القائلون بأن للمسيح مشيئة واحدة، وتغلبت الكنيسة على هذه الشيع كلها بما كان لها من نظام خير من نظمها جميعاً؛ وبتمسكها الشديد بمبادئها، وبفهمها طبائع الناس وحاجاتهم أكثر منها.

وظهر في القرن الثالث خطر جديد في بلاد الشرق يهدد كيان المسيحية، ذلك أن شاباً صوفياً فارسياً يدعى ماني الطشقوني أعلن عند تنويع شابور (242) أنه المسيح المنتظر، وأن الإله الحق أرسله إلى الأرض ليقوم حياة البشر الدينية والأخلاقية. وأخذ ماني عقائده من الزرادشتية، والمتراسية، واليهودية، والأدرية، فقسم العالم مملكتين متنافستين هما مملكتا الظلمة والنور؛ وقال إن الأرض تتبع مملكة الظلمة، وإن الشيطان هو الذي خلق الإنسان، ولكن ملائكة إله النور استطاعت بطريقة خفية أن تدخل إلى البشرية بعض عناصر النور وهي العقل والذكاء والتفكير. وقال ماني أن في النساء أنفسهن بصيصاً قليلاً من النور، ولكن المرأة هي خير ما صنع الشيطان، وهي عامله الأكبر في إغواء الرجل وإيقاعه في الذنوب. فإذا امتنع الرجل عن العلاقات الجنسية، والكلف بالنساء وعن السحر، وعاش عيشة الزهد، ولم يطعم إلا الأغذية النباتية، وصام عن الطعام بعض الوقت، فإن ما فيه من عناصر النور يتغلب على الدوافع الشيطانية، ويهديه إلى النجاة، كما يهديه النور الرحيم. وظل ماني ينشر دعوته بنجاح ثلاثين عاماً صلب بعدها بناء على طلب كهنة المجوس، وحشي جلده بالقش، وعلق على أحد أبواب مدينة السوس؛ وبعث استشهاده في الناس حماسة قوية، فانتشرت مبادئه في غربي آسية وشمال أفريقيا؛ واعتنقها أوغسطين مدى

صفحة رقم : 3994

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنازع العقائد

عشرين عاماً، وعاشت بعد اضطهاد دقلديانوس، وفتوح المسلمين، وظلت تحيا حياة مضمحلة مدى ألف عام إلى أن ظهر جنكيزخان. وكانت الأديان القديمة لا تزال هي أديان الكثرة الغالبة من سكان الإمبراطورية، فأما اليهودية فقد ضمت في مجامعها المتفرقة المطرودين من أتباعها بعد أن عضهم الفقر بنابه، وأخذت تنفس عن تقواها بترتيل التلمود؛ وظل السورتيون

يعبدون بعل وإن أسموه بأسماء يونانية، كما ظل الكهنة المصريون قائمين على خدمة آلهتهم الحيوانية الكثيرة بإخلاص وولاء؛ واحتفظت سيبيل، وإيزيس، ومثراس، باتباعها إلى القرن الرابع؛ واستحوذت مثراسية جديدة على الدولة الرومانية في عهد أورليان، واستمرت النذور والقرابين ترسل إلى آلهة الرومان القديمة في هياكلها، وظل المبتدئون والطلاب يرحلون إلى اليونان، والمواطنون الذين يتطلعون إلى المراكز العليا في الدولة يؤدون مناسك دين الأباطرة في مختلف أنحاءها، لكن هذه الأديان القديمة فقدت حيويتها، ولم تعد تثير في الناس ذلك الإخلاص القلبي الذي يبعث الحياة في الدين اللهم إلا في أماكن قليلة متفرقة؛ ولم يكن سبب هذا الضعف أن اليونان والرومان قد تركوا أديانهم التي كانت في يوم من الأيام إما جميلة محببة أو قوية صارمة؛ بل كان سببه أنهم فقدوا إرادة الحياة، وعمدوا إلى الإسراف في تحديد النسل إلى أبعد الحدود، أو إنهاك الجسم، أو الحروب المدمرة، فقل عددهم إلى الحد الذي أفقد الهياكل عبّادها في الوقت الذي فقدت فيه الأرض زرعها.

وبينما كان أورليوس يقاتل الماركمانيين على ضفاف الدانوب في عام 178 حاولت الوثنية محاولة خطيرة أن تحمي نفسها من المسيحية، وكل ما نعرف عن هذه المحاولة مستمد من كتاب أوجين Origen المسمى ضد سلسس Against Celsus وما فيه من عبارات نقلت في غير عناية من كتابه كلمة الحق لسلسس.

صفحة رقم : 3995

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنازع العقائد

وكان سلسس هذا - وهو ثاني رجل نذكره في قصتنا بهذا الاسم - رجلاً من رجال الدنيا الذين يمتعون أنفسهم بنعيمها، ولم يكن من الفلاسفة، وكان يحس أن الحضارة التي يستمتع بها مرتبطة أشد الارتباط بالدين الروماني ولذلك أخذ على عاتقه أن يدافع عن هذا الدين بأن يهاجم المسيحية التي كانت وقتئذ أكبر أعدائه وأشدهم باساً. وعمد إلى دراسة الدين الجديد دراسة دهش من غزارتها أرجن العالم التحرير. ثم أخذ يهاجم ما في الكتاب المقدس من أمور لا تجوز، على حد قوله، إلا على بسطاء العقول، كما هاجم صفات يهوه، وما يعزى إلى معجزات المسيح من أهمية، وما بين موت المسيح وقدرته الإلهية من تناقض. وسخر من اعتقاد المسيحيين بالنار التي سيحترق بها العالم آخر الأمر، وبيوم الحساب، وبعقيدة البعث والنشور:

"من السخف أن تظن أنه حين يأتي الله بالنار، كما يفعل الطهارة، سيحترق بها سائر البشر ولا يبقى إلا المسيحيون - لا الأحياء منهم وحدهم، بل من ماتوا من زمن طويل، فيقوم هؤلاء من قبورهم في الأرض بأجسامهم التي كانت لهم قبل الموت. الحق أن هذا هو أمل الدود!... وليس في وسع المسيحيين أن يقنعوا بهذه العقائد إلا المغفلين، الأراذل، ضعاف العقول من العبيد والنساء والأطفال ماشطي الصوف، والأساكفة، والقصارين أجهل الناس وأسافلهم؛ وكل من هو مذنب آثم، أو أبله أضله الله سواء السبيل" (42).

وقد روع سلسس انتشار المسيحية، وعداؤها للوثنية وازدراؤها إياها، هي أو الخدمة العسكرية، والدولة؛ وقال في نفسه: كيف تستطيع الإمبراطورية أن تحمي نفسها من البرابرة الذين يحومون حول أطرافها في جميع جهاتها إذا خضع أهلها لهذه الفلسفة المسالمة؟ وكان يرى أن من واجب المواطن الصالح أن

صفحة رقم : 3996

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنازع العقائد

يدين بدين بلاده والعصر الذي يعيش فيه، دون أن ينتقد علناً ما فيه من سخافات، لأن هذه السخافات لا أهمية لها، أما الشيء المهم حقاً فهو أن يكون للدولة دين يوحدتها، ويعين على الخلق الكريم، ويثبت قواعد الولاء لها. ونسي سلس ما صبه على المسيحيين من إهانات، فدعاهم إلى أن يعودوا إلى الآلهة القديمة، وأن يعبدوا عبقرية الإمبراطور الحارسة، وأن ينضموا إلى سائر مواطنيهم في الدفاع عن الإمبراطورية التي يتهدها الخطر. غير أن أحداً لم يلق بالاً إلى هذه الدعوة؛ ولسنا نجد له ذكراً في الأدب الوثنية، وكان قسطنطين أكثر منه حكمة فأدرك أن الدين الميت لا يستطيع أن ينجي رومة.

صفحة رقم : 3997

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> أفلوطينس

الفصل الثالث

أفلوطينس

يضاف إلى هذا أن سلس كان متقدماً عن العصر الذي يعيش فيه؛ فقد كان يطلب إلى الناس أن يتخلقوا بأخلاق السادة المهذبين المتشككين في وقت كانوا يعتزلون فيه مجتمعاً استبعد الكثيرين منهم إلى عالم متصوف يجعل من كل إنساناً إلهاً. وكان شعور الناس بهذه القوى التي لا تتركها الحواس، وهو الشعور الذي يقوم عليه الدين، قد أخذ ينتشر انتشاراً واسعاً ويتغلب على مادية العصر الذي كان يزدهي بما فيه، والذي كانت تسوده المادية والجبرية. وكانت الفلسفة في ذلك الوقت تتخلى عن تفسير التجارب الحسية التي هي ميدان العلوم الطبيعية، وتوجه همها كله إلى دراسة العالم الغير المنظور. وأنشأ الفيثاغوريون الجدد والأفلاطونيون الجدد من نظرية فيثاغورس في تناسخ الأرواح، وآراء أفلاطون في الأفكار الإلهية، نظاماً من الزهد أرادوا به أن يقووا الإدراك الروحي بأمانة الحواس الجسمية، وأن يعودوا بتطهير أنفسهم إلى صعود الدرج التي انحطت بها الروح من عالم السماوات وسكنت في جسم الإنسان. وكان أفلوطينس أكبر الممثلين لهذه الفلسفة الدينية الصوفية. وكان مولده في ليقوبوليس عام 203م، أي أنه كان قبطياً مصرياً ذا اسم روماني وتربية يونانية. وعثر على الفلسفة في سن الثامنة والعشرين، وأخذ ينتقل من معلم إلى معلم دون أن يجد في أحد منهم بغيته حتى وجد طلبته في الإسكندرية، فقد كان فيها وقتئذ أمينوس سكاس Ammenius Saccas وهو رجل مسيحي ارتد إلى الوثنية، وكان يحاول التوفيق بين المسيحية والأفلاطونية، كما فعل تلميذه أرجن من بعده. وبعد أن تتلمذ أفلوطينس على أمينوس عشر سنين انضم إلى جيش موجه إلى بلاد

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> أفلوطينس

الفرس لعله يتلقى الحكمة عن المجوس والبراهمة أنفسهم. فلما وصل إلى أرض الجزيرة قفل راجعاً إلى أنطاكية، ثم ذهب إلى روما (244) وبقي فيها حتى توفي. وقد انتشر مذهبه الفلسفي وأصبح طراز ذلك العصر، فضمه الإمبراطور جالينوس Gallienus إلى حاشيته، ورضى أن يساعده أن ينشئ في كميانيا مدينة أفلاطونية تحكم على مبادئ جمهورية أفلاطون. ولكن جالينوس رجع فيما بعد عن وعده، ولعله فعل ذلك ليوفر على أفلوطينس إخفاقه المخزي.

وأعاد أفلوطينس إلى الفلسفة سمعتها الطيبة بأن عاش معيشة القديسين وسط ترف روما وذرائلها؛ فلم يكن يعنى بجسمه، بل إنه "كان يستحي أن يكون لروحه جسد" على حد قول برفيري (43 Porphyry). ومن الأدلة الناطقة باحتقاره جسده أنه أبى أن يقف أمام المصورين بحجة أن جسده أقل أجزائه شأناً - وفي ذلك إشارة إلى الفن بأن يعنى بالروح لا بالجسم. وحرّم على نفسه اللحم، ولم يأكل من الخبز إلا قليلاً. وكان بسيطاً في عاداته رحيماً في أخلاقه، ابتعد عن كل العلاقات الجنسية، وإن لم يذمّها. وكان تواضعه هو الخليق بالرجل الذي يرى الجزء في ضوء الكل. ولما حضر أرجن درسه علت وجه أفلوطينس حمرة الخجل وأراد أن يختم محاضراته فقال: "إن تحمس المحاضر يزول حين يحس بأن مستمعيه لا يجدون ما يتعلمونه منه" (44). ولم يكن أفلوطينس خطيباً مصقوعاً، ولكن عنايته الشديدة بموضوعه، وإيمانه بما يحدث عنه قد عوضاه خير العوض عن البلاغة، ولم يسجل آراءه الفلسفية كتابة إلا متأخراً وسجلها مع ذلك وهو كاره ولم يراجع قط مسودته الأولى، ولا تزال الإنبذات رغم ما بذله برفيري من عناية في نشرها أكثر المؤلفات اضطراباً في تاريخ الفلسفة.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> أفلوطينس

لقد كان أفلوطينس ذا نزعة مثالية يعترف متفضلاً بوجود المادة، ولكنه يقول إن المادة في حد ذاتها هي إمكانية الشكل غير المتشكلة، وكل شكل تتخذه المادة تعطيه إياها طاقتها الداخلية أي النفس (Psyche)، والطبيعة هي مجموع الطاقة أو النفس التي تنتج كلية الأشكال في العالم؛ والحقيقة الدنيا التي تنتج الحقيقة العليا؛ أما الكائن الأعلى وهو النفس فينتج الأدنى - الصورة المجسدة. ونمو الإنسان الفرد من بداية خلقه في الرحم وتكون أعضائه البطنيء عضواً بعد عضو حتى يكتمل نموه من عمل النفس أو المبدأ الحيوي الذي فيه؛ والجسم يتشكل تدريجاً بتوقان النفس أو توجيهها. ولكل شيء نفس - أي طاقة داخلية هي التي تخلق الصورة الخارجية، وليست خبيثة إلا لأنها لم تتلق الصورة الناضجة، فهي تطور وقف دون الكمال؛ والشر هو إمكانية الخير.

ولسنا نعرف المادة إلا عن طريق الفكر - عن طريق الإحساس، والإدراك، والتفكير. وليس ما نسميه مادة إلا مجموعة من الأفكار (كما قال هيوم فيما بعد)، وهي أكثر ما تكون شيء افتراضي مراوغ يضغط على أطراف أعصابنا ("إمكانية الإحساس الدائمة" التي يقول بها مل)؛ وليست الأفكار شيئاً مادياً؛ وما من شك في أن فكرة الامتداد في المكان لا تنطبق عليها؛ والقدرة على تحصيل الأفكار واستخدامها هي العقل؛ وهو قمة الثالوث البشري المكون من الجسم، والنفس، والعقل. والعقل مقدر محدد من حيث اعتماده على الإحساس؛ وهو حر لأنه أرقى صور النفس المبدعة المشكلة.

والجسد عضو النفس وسجنها معاً؛ والنفس تدرك أنها نوع من الحقيقة أرقى من الجسد؛ وتشعر بما لها من صلة بنفس أكبر منها وأوسع، أي بحياة وقدرة كونيتين من نوع ما؛ وهي حين تعمل لتبلغ بالفكر إلى حد الكمال تأمل أن تتصل مرة أخرى بتلك الحقيقة الروحية العليا التي سقطت منها على ما يبدو في أثناء كارثة أو محنة حدثت في بداية الخليقة. وهنا يستسلم أفلوطينس في بعض

صفحة رقم : 4000

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> أفلوطينس

ثوبات من تفكيره إلى الأدبية التي تقول إنه يرفضها، ويصف سقوط النفس درجة بعد درجة من السماء إلى الإنسان ذي الجسد؛ وهو على العموم يفضل الفكرة الهندية التي تقول إن النفس تنتقل من صور الحياة الدنيا إلى العليا أو من صورها العليا إلى الدنيا، حسب فضائلها وذنابلها، في كل صورة من صور الحياة تنتقل إليها. وهو يبدو في بعض الأحيان فيثاغورياً مازحاً، كما نراه في قوله: "إن الذين يسرفون في حب الموسيقى يصبحون في تجسدهم الثاني طيوراً مغردة، والفلاسفة الذين يتجاوزون الحد في التفكير يتحولون إلى نسور (46). وكلما كانت النفس أكثر رقياً كانت أكثر إصراراً في سعيها إلى أصلها القدسي، ومثلها في ذلك كمثل الطفل الذي ضل من أبيه أو كمثل الجائل المشتاق إلى العودة إلى وطنه. والنفس قادرة على أن تبلغ الفضيلة، أو الحب الحقيقي، أو الإخلاص إلى ربان الفن، أو الفلسفة التي تحتاج إلى صبر طويل؛ وستعثر على السلم الذي نزلت عليه؛ وترقاه إلى ربها. فلتنظّر النفس إذن، ولترغب رغبة صادقة في الجوهر غير المرئي، ولتتقد العالم عن طريق التأمل؛ ولعلها في لحظة من اللحظات التي تخفت فيها كل ضوضاء الحواس، وتتقطع المادة عن طريق أبواب العقل، ستحس فجأة بأنها مستغرقة في محيط الكينونة، في الحقيقة الروحية النهائية (وكتب ثورو وهو يطفو لاهياً على بركة من الدن يقول: "لقد فارقت الحياة في بعض الأحيان، وبدأت أكون")، ويقول أفلوطينس:

"فإذا حدث هذا ترى النفس الإلهية إلى الحد الذي يحق لها أن تصل رؤيتها... وتشهد نفسها قد أضيئت؛ أي ملئت بنور عقلي؛ أو بعبارة أصح تدرك أنها ضياء خالص، غير منقطة، نشيطة، خفيفة، تسير في طريقها إلى أن تكون إليها" (47).

ولكن ما هو الإله؟ يقول أفلوطينس إنه "هو" أيضاً ثالث - من الوحدة (ben) والفكر (nous)، والنفس (psyche) و"من وراء

صفحة رقم : 4001

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> أفلوطينس

الكائن يوجد الواحد"، وفي خلال الفوضى الظاهرية البادية في التعدد الدنيوي تسري الحياة الموحدة. ولا نكاد نعرف عن هذا الواحد إلا أنه موجود، وكل صفة موجبة نصفه بها، أو ضمير متحيف نحله محله، تحديد له غير لائق به. وكل ما نستطيع أن نسويه به هو أنه، واحد، وأول، وخير، وأنه هدف رغبتنا العليا. وينشأ من هذه الوحدة العقل العالمي، وهو القابل عند أفلاطون للأفكار أي النماذج المشكلة، والقوانين المتحركة في الأشياء؛ أو أنها أفكار الله أو عقل واحد، أو نظام العالم ومعقوليته. وإذا كانت هذه الأفكار تبقى مع أن المادة صور متغيرة من الأشكال التي تأتي وتروح، فإن هذه الأفكار هي الحقيقة الصحيحة الباقية. ولكن الوحدة والعقل، وإن أمسكا الكون وحفظاه من التفكك، لا يخلقانه، بل الذي يخلقه هو العنصر الثالث من عناصر الألوهية - أي العنصر الذي يبعث الحياة والذي يملأ الأشياء جميعاً ويكسبها قوتها وصورتها المقررة لها. ولكل شيء، من الذرة الصغيرة إلى الكوكب الكبير، نفس تبعث فيه النشاط، هي في ذاتها جزء من النفس العالمية، والنفس الفردية ليست خالدة إلا من حيث هي باعثة الحياة أو الطاقة لا من حيث هي كائن متميز (49). وليس الخلود هو بقاء الشخصية، بل هو اندماج النفس في الأشياء التي لا تموت (50). والفضيلة هي حركة النفس نحو الله، وليس الجمال مقصوراً على التناسق والتناسب كما ظن أفلاطون وأرسطو بل هو النفس الحية، أو الألوهية غير المنظورة التي في الأشياء، وهي غلبت الروح على الجسد، والصورة على المادة، والعقل على الأشياء، والفن هو تحويل هذا الجمال العقلي أو الروحي إلى وسط آخر. ويمكن أن تدرّب النفس على أن ترتفع من طلب الجمال في المادة أو في الصور البشرية إلى طلبه في النفس الخفية، وفي الطبيعة وسننها، وفي العلم، وما يكشف عنه من نظام دقيق بديع، وإلى طلبه آخر الأمر في الوحدة القدسية التي تؤلف بين

صفحة رقم : 4002

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> أفلوطينس

الأشياء كلها، بما فيها الأشياء المتنافرة المتعارضة، وتجعل منها نظاماً متناسقاً سامياً يثير الدهشة والإعجاب (51). والجمال والفضيلة شيء واحد في نهاية الأمر - وهما اتحاد الجزء مع الكل وتعاونه معه. "ارجع إلى نفسك وتأمل، وإذا لم تجد نفسك جميلاً فافعل مع ذلك ما يفعله صانع التمثال... فهو يقطع هنا، ويصقل هناك، ويجعل هذا الخط أخف، وذاك أنقى، حتى ينشأ لتمثاله وجه جميل. فافعل أنت مثل فعله: واقطع كل شيء زائد وقوم كل معوج: ولا تنقطع عن نحت تماثلك حتى: ترى الطيبة الكاملة مستقرة في الحرم النقي الطاهر" (52). إننا لنحس في هذه الفلسفة بما نحس به في المسيحية المعاصرة لها من جو روحاني - نحس بابتعاد العقول الغضة عن مطالب الحياة الدنيوية واتجاهها نحو الدين، وفرارها من الدولة إلى الله. وليس بعجيب أن يكون أفلوطينس وأرجن تلميذين وصديقين، وأن ينشئ كلمنت Clement أفلاطونية مسيحية في الإسكندرية وأفلوطينس هو آخر الفلاسفة الوثنيين العظام، وهو مسيحي بلا مسيح، مثله في هذا كمثل أبكتنس وأورليوس. ولقد قبلت المسيحية كل سطر من أسطره تقريباً، وما أكثر صحائف أو غسطين التي تردد نشوة هذا الصوفي الجليل. وعن طريق فيلون ويوحنا، وأفلوطينس، وأوغسطين، غلب أفلاطون أرسطو، وتعمق في أبعد أغوار اللاهوت الكنسي، وأخذت الشجرة القائمة بين الفلسفة والدين تضيق شيئاً فشيئاً، ورضى العقل مدى ألف عام أن يسير في ركاب الدين.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> حماة الدين

الفصل الرابع

حماة الدين

وهنا كسبت الكنيسة طائفة من المؤيدين كانوا أحصف عقول الإمبراطورية، منهم أغناطيوس أسقف إنطاكية الذي أنشأ أسرة قوية من "الأباء" جاءوا بعد الرسل، ووهبوا المسيحية فلسفة غلبوا أعداءها بحججها القوية. ومنهم جستين Justin الذي حكم عليه أن يلقي للوحوش لأنه أبى أن يرتد عن دينه، فكتب، وهو في طريقه إلى روما، عدداً من الرسائل تفيض إخلاصاً وحماسة، وتكشف عن الروح التي كان المسيحيون يلقون بها الموت:

"فليعلم جميع الناس أنني أموت طائعاً في حب الله، إذا لم يحل أحد بيني وبين الموت. وأتوسل إليكم ألا تأخذكم بي رافة أرى أنها في غير أوانها، بل اتركوني تنهشني السباع التي أستطيع أن أصل عن طريقها إلى الله... بل أغروا للوحوش بدلاً من هذا أن تلتهمني فلا تترك قطعة من جسدي، حتى إذا نمت نومي الأخير لا أكون كلاً على أحد من الناس... ألا ما أشد شوقي إلى الوحوش التي أعدت لي... ألا فليكن من نصيبي النار والصليب [القتل صلباً]، وقتال الوحوش، والتقطيع والتمزيق، وتهشيم العظام، وبتر الأطراف، وتحطيم جسمي كله، وأقسى أنواع العذاب الشيطاني إذا كنت بهذه الطريقة أصل إلى يسوع المسيح".

وكتب كودراتس Quadratus، وأثيناغورس Athenagoras كثيرون غيرهما "دفاعاً" عن المسيحية، وكانوا يوجهون هذا الدفاع عادة إلى الإمبراطور. وكتب منوسيوس فلкс Minucius Felix حواراً رائعاً يكاد يضارع كتاب شيشرون في بلاغته، أجاز فيه لكاسيليوس Caecilius

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> حماة الدين

أن يدافع عن الوثنية دفاعاً قوياً، ولكنه جعل أكتافيوس يرد عليه بأدب جم كاد يقنع كاسيليوس بأن يعتنق المسيحية. ولما جاء جستين Justin السامري إلى روما في عهد أنطونينس افتتح فيها مدرسة لتعليم الفلسفة المسيحية، وحاول في

"دفاعين" بليغين أن يقنع الإمبراطور وهو "فرسمس Verissimus الفيلسوف" بأن المسيحيين مواطنون مخلصون، لا يتوانون عن أداء الضرائب، وأنهم إذا عوملوا معاملة الأصدقاء قد يصبحون عوناً عظيم القيمة للدولة. وظل عدة سنين ينشر تعاليمه دون أن يصاب بأذى، ولكن حدة لسانه خلقت له أعداء، ولهذا استطاع أحد الفلاسفة المنافسين له أن يغري ولاة الأمور في عام 166 بالقبض عليه هو وستة من أتباعه وإعدامهم على بكرة أبيهم. وبعد ست سنين من ذلك الوقت قام إيرينيوس Irenaeus أسقف ليون بحملة قوية يدعو فيها إلى وحدة الكنيسة، وذلك في كتابه المسمس معارضة الإلحاد Adversus Haereses وهو حملة قوية على كافة ضروب الإلحاد. وقد قال إيرينيوس إنه لا سبيل إلى منع المسيحية أن تتفرق فتصبح ألف شبيعة وشبيعة إلا أن يرضى المسيحيون بالخضوع لسلطة واحدة تحدد لهم مبادئ دينهم - وتلك السلطة هي قرارات مجالس الكنيسة الأسقفية.

وكان أجراً المدافعين عن المسيحية في تلك الفترة هو كونتس سبتميوس ترنتليانس Quintus Septimius Tertnillianus القرطاجني. وكان مولده في تلك المدينة عوالي عام 160، وكان والده قائداً رومانياً على مائة، ولما شب درس البلاغة في نفس المدرسة التي تعلم فيها أبوليوس Apuleius، ثم اشتغل بالمحاماة عاماً واحداً في روما. واعتنق المسيحية في كهولته وتزوج بمسيحية، ونبذ كل اللذائذ الوثنية ورُسم قساً (كما يقول جيروم). فلما تم له هذا استخدم جميع الفنون والأساليب التي عادت عليه من تعلم البلاغة للدفاع عن الدين المسيحي، وضم إليها حماسة الرجل المؤمن المهندي إلى دينه. لقد كانت المسيحية اليونانية فلسفة لاهوتية صوفية، فلما اعتنق ترنتليان دينه الجديد جعل المسيحية اللاتينية ديناً

صفحة رقم : 4005

قصة الحضارة - < قيصر والمسيح - < شباب المسيحية - < نمو الكنيسة - < حماة الدين

أخلاقياً، قانونياً، عملياً. وكانت له قوة شيشرون وحدته، وفحش جوفنال في هجائه وسفاهته؛ وكان في مقدوره أحياناً أن ينافس تيطس في تركيز كل ما لديه من حقد وضغينة في عبارة واحدة. وكان إيرينيوس قد كتب باللغة اليونانية، فلما جاء منوسيوس وترنتليان أصبحت الآداب المسيحية في الغرب لاتينية، وأصبح الأدب اللاتيني مسيحياً. وبينما كان الحكام الرومان في قرطاجنة يتهمون المسيحيين بعدم الولاء للدولة ويحاكمونهم على هذه التهمة، وجه ترنتليان في عام 198 إلى محكمة خيالية أبلغ رسائله من رسائله كلها وهي المعروفة باسم الدفاع Apologeticus، أكد فيها للرومان أن المسيحيين "لا ينقطعون عن الدعاء لجميع الأباطرة، وسلامة الأسرة الحاكمة، ويطلبون إلى الله أن يهب البلاد جيوشاً بأسلة، ومجلس شيوخ وفي أمين، وأن يمن على العالم بالهدوء" (54). وامتدح عظمة التوحيد، وقال إنه وجد أدلة عليه عند كتاب ما قبل المسيحية! "انظروا إلى ما تشهد به النفس، ذاتها وهي بفطرتها مسيحية" (55) وبعد عام من ذلك الوقت انتقل بسرعة عجيبة من الدفاع المقنع إلى الهجوم العنيف، وأصدر كتابه المسمى في المسرح De Spectaculis وهو وصف ساخر للمسارح الرومانية التي قال عنها إنها حصون البذاءة، وللمدركات التي وصفها بأنها أكبر دليل على قسوة الإنسان على أخيه الإنسان، وختمها بذلك الوعيد المرير: "وستشهدون مناظر أخرى - مناظر اليوم الخالد الأخير يوم الحساب... يوم يحترق هذا العالم الذي بلغ سن الشيخوخة، ويحترق أهله جميعاً في لهيب نار واحدة. ألا ما أوسع هذا المنظر في ذلك اليوم! وما أشد عجبي، وأعلى ضحكي، وأكثر ابتهاجي وطربي حين أرى هذا العدد الجم من الملوك - وكان يظن أنهم ينعمون في ملكوت السموات - يئنون ويتوجعون في أعماق الظلام! - الحكام الذين اضطهدوا اسم يسوع تذوب أجسامهم في لهب أشد حرارة من جميع

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> حماة الدين

النيران التي أوقدوها... ضد المسيحيين! - وأرى حكماء وفلاسفة تعلوهم حمرة الخجل أمام تلاميذهم وهم يحترقون معاً!... وممثلة المآسي وهم الآن أعلى صوتاً في مآساتهم مما كانوا في أي يوم من أيام حياتهم، واللاعيب ذوي الأجسام اللدنة في أعماق النار، وسائقي المركبات تشوى لحومهم على عجلة اللهب!" (56).

وهذا الخيال المفرط في القوة يخرج صاحبه عن قواعد الدين السليم. ذلك أنه لما تقدمت بترتليان السن انقلب ما كان فيه أثناء شبابه من نشاط فياض يطلب به اللذة ويصرفه فيها، انقلب إلى تنديد شديد بجميع أسباب السلوى عدا سلوة الدين والأمل في نعيم الآخرة، فكان يخاطب المرأة بأوضح الألفاظ ويصفها بأنها "الباب الذي يدخل منه الشيطان" ويقول لها "من أجلك مات يسوع المسيح" (57).

وكان ترتليان في يوم من الأيام قد أحب الفلسفة، وألف فيها، كتباً ككتاب في النفس De Anina حاول فيه أن يطبق على المسيحية مبادئ الرواقية فيما وراء الطبيعة. أما الآن فقد نبذ كل تفكير منطقي منفصل عن الإلهام والوحي، وقصر أسباب بهجته على كان يحتويه دينه من أمور لا يصدقها العقل السليم. "لقد مات ابن الله: ذلك شيء معقول لا لشيء إلا أنه مما لا يقبله العقل. وقد دُفن ثم قام من بين الموتى: وذلك أمر محقق لأنه مستحيل" (85). واستغرق الرجل في ترمت نكد مكتتب بلغ من أمره أن خرج وهو في الثامنة والخمسين من عمره على المبادئ السليمة للدين المسيحي، لأنها في رأيه ملوثة بالأساليب الدنيوية، واعتنق المبادئ المنتانية لأنه يراها تطبيقاً مستقيماً سليماً لتعاليم المسيح، وندد بجميع المسيحيين الذين يقبلون أن يكونوا جنوداً، أو فنانيين، أو موظفين في الدولة، وبجميع الأساقفة الذين يغفرون خطايا المذنبين التائبين، وانتهى الأمر أن أطلق على البابا لقب "راعي الزانين" Pastor moechorum.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> حماة الدين

لكن الكنيسة ازدهرت في أفريقية على الرغم من هذه الأفعال، فقد قام فيها أساقفة مخلصون من طراز سبريان Cyprian رفعوا أربشية قرطاجنة إلى درجة من الغنى والنفوذ لا تقل عما بلغته روما. أما في مصر فقد كان نماء الكنيسة أبطأ منه في قرطاجنة، وقد اختلفت مراحل الأولى من التاريخ فأصبحنا لا نعرف عنها شيئاً غير أننا نسمع فجأة في أواخر القرن الثاني عن مدرسة لتعليم أصول الدين بالسؤال والجواب قائمة في مدينة الإسكندرية قرنت المسيحية بالفلسفة اليونانية، وأخرج للعالم أبوين من أعظم آباء الكنيسة هما كلمنت وأرجن. وكان كلاهما واسع الاطلاع على الآداب الوثنية، محباً لها على طريقتة الخاصة. ولو أن الروح التي كانت تغمرهما سادت في ذلك الورق لما كان لانفصال الثقافة القديمة عن المسيحية ما كان له من أثر مُثَلِّف شديد.

ولما بلغ أرجينيز ادمنتيوس Origenes Adamantius السابعة عشرة من عمره (202) فُبِضَ على والده بتهمة أنه مسيحي، وحُكِّم عليه بالإعدام. وأراد ابنه أن يشاركه في السجن وفي الاستشهاد، ولم تستطع أمه أن تمنعه من ذلك إلا بإخفاء ملابسه كلها، فأخذ يبعث إلى أبيه رسائل يشجعه فيها على احتمال مصيره؛ وقد جاء في إحدى هذه الرسائل:

"إحذر أن ترجع عن آرائك من أجلنا" (60). وأعدم الوالد ووقع عبء كفالة الأم والأطفال الصغار على الشاب. وبعث ما شاهده من استشهاد كثيرين من المسيحيين في نفس أرجن مزيداً من التقى والإيمان، فعمد إلى حياة الزهد والتشف، وأكثر من الصوم، وأقل من ساعات النوم، وافترش الأرض، ومشى حافياً، وعرض نفسه للبرد والعري، وأخيراً عمد إلى خصي نفسه إطاعة للآية الثانية عشرة من الإصحاح التاسع عشر من إنجيل متى بعد أن تزمت في تفسيرها أشد التزمت. وفي عام 203 خلف كلمنت في رئاسة

صفحة رقم : 4008

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> حماة الدين

المدرسة الأفريقية. ومع أنه لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من العمر فقد اجتذب إليه علمه وبلاغته كثيرين من الطلبة وثنيين ومسيحيين على السواء، وطبقت شهرته جميع أنحاء العالم المسيحي. ويقدر بعض القدامى عدد "كتبه" بستة آلاف، وكان الكثير منها بطبيعة الحال نيداً وجيزة، وحتى على هذا الاعتبار قال فيها جيروم متسانلاً: "من منا يستطيع أن يقرأ كل ما كتب؟" (62). ولقد قضى أرجن عشرين عاماً هائماً يحب الكتاب المقدس، واستخدم طائفة كبيرة من المختزلين والنساخين يضعون في أعمدة متوازية النص العبري للعهد القديم، وإلى جواره ترجمة يونانية حرفية لهذا النص، وفي خزانة أخرى ترجمة يونانية له منقولة عن الترجمة السبعينية، وفي رابعة أكولبية، وخامسة سيماكوسية، وسادسة ثيودوتية. ثم أخذ يوازن هذه التراجم المختلفة بعضها ببعض، واستعان بمعرفته باللغة العبرية فأخرج للكنيسة ترجمة سبعينية مصححة؛ ولكن هذا لم ينفع غلته فأضاف شروحاً بعضها غاية في الإسهاب إلى سفر من أسفار الكتاب المقدس. ويحتوي كتابه المبادئ الأولى Peri archon أول عرض فلسفي منظم للعقيدة المسيحية؛ وفي كتابه الشذرات Stromateis أخذ على عاتقه أن يثبت جميع العقائد المسيحية بالرجوع إلى كتابه الفلاسفة الوثنيين. وأراد أن يخفف عن نفسه عبء هذا الواجب الثقيل فاستعان بالطريقة الرمزية الاستعارية التي استطاع بها الفلاسفة الوثنيون أن يوقفوا بين أقوال هومر وبين ما يقبله العقل المنطقي، والتي وفق فيلون بين اليهودية والفلسفة اليونانية. ومن أقوال أرجن في هذا المعنى أن من وراء المعنى الحرفي لعبارات الكتاب

صفحة رقم : 4009

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> حماة الدين

المقدس طبقتين من المعاني أكثر منه عمقاً - هما المعنى الخلفي والمعنى الروحي - لا تصل إليهما إلا الأقلية الباطنية المتعلمة. وكان يرتاب في صحة ما ورد في سفر التكوين إذا فهم بمعناه الحرفي؛ ويفسر ما كان يلقاه بنو إسرائيل من يهوه من معاملة غير طيبة أحياناً بأن ما وصفت به هذه المعاملة إنما هو رموز؛ وقال إن القصص الواردة في الكتاب

المقدس والتي تقول إن الشيطان صعد بعيسى إلى جبل عال وعرض عليه ملكوت الأرض ليست إلا أساطير (63). ويضيف إلى ذلك إن هذه القصص قد اخترعت في بعض لكي توضح بعض الحقائق الروحية (64). ويقول متسائلاً: "أي رجل عاقل يصدق إن اليوم الأول والثاني والثالث، وأن المساء والصبح، قد كانت كلها من غير شمس أو قمر أو نجوم؟ وأي إنسان تصل به البلاهة إلى حد الاعتقاد أن الله قد زرع جنة عدن كما يزرع الفلاح الأرض، وغرس فيها شجرة الحياة... حتى إذا ما ذاق إنسان ثمرتها نال الحياة؟" (65). وإذا ما واصل أرجن أقواله اتضح لقارئه أنه رواقى، وفيثاغوري حديث، وأفلاطوني حديث؛ وأدري، وأنه مع هذا كله مُصرٌ على أن يكون مسيحياً. ولو أننا طلبنا إلى رجل مثله أن يترك الدين الذي نشر فيه ألف كتاب وتخلّى من أجله عن رجولته لكلفناه ضد طباعه. ولد درس أرجن، كما درس أفلوطينس على أمونيوس سكاس Ammonius Saccas وأنا ليصعب علينا أحياناً أن نفرق بين فلسفة وفلسفتها. فإله عند أرجن ليس هو يهوه، بل هو الجوهر الأول لجميع الأشياء. وليس المسيح هو الإنسان الأدمي الذي يصفه العهد الجديد، بل هو العقل الذي ينظم العالم؛ وهو بهذا الوصف خلقه الله الأب، وجعله خاضعاً له (66). والنفس عند أرجن، كما هي عن أفلوطينس تنتقل في مراحل وتجسّدات متتالية قبل أن تدخل الجسم، وهو تنتقل بعد الموت في مراحل متتالية

صفحة رقم : 4010

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> حماة الدين

مثلاً قبل أن تصل إلى الله. وجميع الأنفس التي أطهرها تتعذب زمناً ما في المطهر ولكنها كلها تتجو آخر الأمر، وسيكون بعد "اللبب الأخير" عالم آخر ذو تاريخ طويل، ثم عالم ثالث، ورابع... كل واحد منها خير من سابقه، وهذه العوالم الكثيرة المتتالية ستحقق على مهل الخطة التي رسمها الله (67). ولسنا نعجب إذا رأينا دمترىوس، أسقف الإسكندرية، ينظر بعين الريبة إلى هذا الفيلسوف النابه الذي تزادان به أبرشيته والذي يرأس الأباطرة. وقد أدت هذه الريبة إلى أن رفض دمترىوس أن يرسمه قسماً بحجة أن الخصاء يجعله غير أهل للكهنة. ولكن أسقفين فلسطينيين رسماه أثناء سفره في بلاد الشرق الأدنى. واحتج دمترىوس على هذا العمل وقال إن فيه اعتداء على حقوقه، وعقد مجمعاً من رجال الدين الذين كانوا تحت رياسته، وألغى هذا المجمع رسامة أرجن ونفاه من الإسكندرية، فانتقل إلى قيصرية وواصل عمله في التدريس، وكتب فيها دفاعه الشهير عن المسيحية المسمى ضد سلسس (248 Contra Celsum)، وقد بلغ من كرمه أن أقر بقوة الحجج التي أدلى بها سلسس؛ ولكنه رد عليها بقوله إن كل صعوبة، وكل فكرة بعيدة عن المعقول، في العقيدة المسيحية يقابلها في الوثنية آراء أصعب منها وأبعد منها عن العقل، ولم يستنتج من هذا أن كلتا العقيدتين باطلة، بل استنتج دين أن الدين المسيحي يعرض أسلوباً للحياة أنبل مما يستطيع أن يعرضه محتضر يدعو إلى عبادة الأصنام. وامتد اضطهاد ديسوس للمسيحيين حتى توصل إلى قيصرية في عام 250، وثبض على أرجن؛ وكان وقتئذ في الخامسة والستين من عمره؛ ومد على العذراء، وثبذ بالأغلال، ووضع في عنقه طوق من الحديد، وبقي في السجن أياماً طويلاً. ولكن الموت عاجل ديسوس أولاً وأطلق سراح أرجن، غير أن حياته لم تطل بعد ذلك أكثر من ثلاث سنين، لأن التعذيب ألحق أشد

صفحة رقم : 4011

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> حماة الدين

الضرر بجسمه بعد أن هد الزهد المتواصل قواه، ومات فقيراً كما كان حين بدأ يعلم الناس، ولكنه كان أعظم المسيحيين شهرة في زمنه. ولما أن ذاعت بدعه، ولم تعد سراً مقصوراً على عدد قليل من تلاميذه، رأت الكنيسة أن لا بد لها أن تتبرأ منه، وطعن البابا أنستيسوس في عام 400 في آرائه التجديفية. ولعنه مجلس القسطنطينية، وأصدر عليه قرار الحرمان في عام 553. لكننا لا نكاد نجد عالماً مسيحياً ممن جاءوا بعده بعدة قرون لم يغترف من بحر علمه الفياض، ولم يعتمد على كتبه؛ وأثر دفاعه عن المسيحية في عقول المفكرين الوثنيين كما لم يؤثر فيها "دفاع" آخر قبله. وبفضله لم تعد المسيحية دين سلوى وراحة للنفوس فحسب، بل أضحت فوق ذلك فلسفة ناضجة كاملة النماء، دعامتها الكتاب المقدس، ولكنها تعترز باعتمادها على العقل.

صفحة رقم : 4012

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنظيم السلطة الدينية

الفصل الخامس

تنظيم السلطة الدينية

لعل للكنيسة عذرها في الطعن على أرجن وحرمانه. ذلك أن تفسيراته الرمزية لم تجعل من المستطاع إثبات أي شيء فحسب، بل إنها فضلاً عن ذلك قضت بضربة واحدة على قصص أسفار الكتاب المقدس وعلى حياة المسيح الأرضية، وأعدت للفرد حقه في الحكم في الوقت الذي كانت تقول فيه إنها تدافع عن الدين. يضاف إلى هذا أن الكنيسة، وقد رأت نفسها وجهاً لوجه أمام حكومة قوية، أحست بحاجتها إلى الوحدة، ولم يكن في وسعها أن تأمن على نفسها إذا رضيت أن تمزقها إلى مائة شيعة صغرى كل ريح تهب عليها من عقل رجل من أتباعها، أو من عقل زنديق خارج عليها، أو نبي مشغوف، أو ابن نابيه. وكان سلس نفسه قد قال ساخراً: إن المسيحيين "تفرقوا شيعاً كثيرة، حتى أصبح هم كل فرد منهم أن يكون لنفسه حزباً" (68). واستطاع إيرينيوس أن يحصي في عام 187 عشرين شيعة مختلفة من المسيحيين، وأحصى إيفانيوس في عام 384 ثمانين؛ وكانت الأفكار الأجنبية تتسرب إلى العقيدة المسيحية في كل نقطة من نقاطها، وأخذ المؤمنون المسيحيون ينضمون إلى هذه الشيع الجديدة. وأحست الكنيسة أن عصر شبابها التجريبي يوشك أن ينتهي، وأن نضجها سيحل بعد قليل، وأن عليها أن تحدد مبادئها، وأن تعلن على الناس شروط

العضوية فيها. وكان لابد لذلك من ثلاث خطوات ليست فيها واحدة سهلة: وضع قانون عام مستمد من الكتاب المقدس، وتحديد العقائد، وتنظيم السلطة. وتفيض الأداب المسيحية في القرن الثاني بالأناجيل، والرسائل، والرؤى،

صفحة رقم : 4013

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنظيم السلطة الدينية

و"الأعمال". ويختلف المسيحيون أشد الاختلاف من حيث قبولهم هذه الكتابات على أنها تعبير صادق عن العقيدة المسيحية أو رفضها. فقد قبلت الكنائس الغربية مثلاً سفر الرؤيا، أما الكنيسة الشرقية فهي بوجه عام ترفضه. وهذه الكنائس الشرقية تعترف بالأناجيل، كما يقول به العبرانيون، ورسائل يعقوب، أم الكنيسة الغربية فترفضهما. ويذكر كلمنت الإسكندري ضمن الكتب المقدسة رسالة كتبت في أواخر القرن الأول الميلادي اسمها تعاليم الرسل الاثني عشر. ولما نشر مرسيون "عهداً جديداً" اضطرت الكنيسة إلى العمل لتحديد ما تعترف به وما لا تعترف به من الأناجيل. ولسنا نعرف متى حددت أسفار العهد الجديد التي نعرفها الآن واعترف بها. أي اعترف بصحة نسبتها لأصحابها وبأنها موحى إليهم بها؛ وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن هتامة لاتينية كشفها مراتوري Muratori في عام 1740 وسميت باسمه، ويرجع الباحثون تاريخها إلى عام 180 تقريباً نفترض أن التحديد تم قبل ذلك الوقت. وتكرر اجتماع المجالس والجامع الكنسية تكراراً متزايداً في القرن الثاني؛ واقتصر في القرن الثالث على الأساقفة؛ وقبل أن يُختتم ذلك القرن اعترف بأن هذه المجالس هي الفصيل الأخير في العقيدة المسيحية "الكاثوليكية" أي العامة. وتغلب الدين القويم على البدع الدينية لأنه أشبع حاجة الناس إلى عقيدة محددة تخفف من حدة النزاع وتهدئ الشكوك، لأنه كان مؤيداً بسلطان الكنيسة. وكانت مشكلة التنظيم تتحصر في تحديد مركزها هذا السلطان. فقد يبدو أن المجالس الدينية المتفرقة، بعد أن ضعف سلطان الكنيسة الأصلية في أورشليم، أخذت تمارس السلطات مستقلة عن هذه الكنيسة وعن بعضها، بعضاً، إلا إذا أنشأتها جماعات أخرى أو كانت تحت حماية هذه الجماعات. لكن

صفحة رقم : 4014

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنظيم السلطة الدينية

كنيسة روما كانت تدعي أن الذي أنشأها هو الرسول بطرس وتستنشهد بقول عيسى: "أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات" (69). لكن بعضهم يقول إن هذه

العبارة مدسوسة عليه، وإنها تورية لا يلجأ إليها إلا شكسبير. غير أنه يحتمل مع هذا أن بطرس، إن لم يكن هو الذي أوجد الجالية المسيحية في روما، كان يعظها ويخطب فيها، وأنه عين لها أسقفها (70). وقد كتب إيرنيو (187) يقول إن بطرس: "عهد إلى لينس Linus بمنصب الأسقفية". ويؤيد ترتليان (200) هذه الرواية، ويهيب سيريان (252) أسقف قرطاجنة المناقسة الكبرى لروما بجميع المسيحيين أن يقبلوا زعامة كرسي الأسقفية (71). ولم يترك الأساقفة الأولون الذين تربعوا على "عرش بطرس" أثراً في التاريخ. ويبرز من بينهم ثالثهم البابا كلمنت مؤلف رسالة باقية إلى الآن أرسلها حوالي عام 96 إلى كنيسة كورنثة يدعو أعضائها إلى نبذ الشقاق والمحافظة على النظام (72). وهذه الرسالة يتحدث أسقف روما، بعد جيل واحد من موت بطرس، إلى مجمع ديني بعيد حديث من له سلطان عليه. وكثيراً ما كان الأساقفة الآخرون يتحدثون سلطان أسقف روما وحقه في الإشراف على قراراتهم وإن كانوا يعترفون "بأولوية" هذا الأسقف خليفة بطرس ووارثه. وكانت الكنائس الشرقية تحتفل بعيد القيامة في اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبري أياً كان ذلك اليوم في الأسبوع، أما الكنائس الغربية فقد أجّلت ذلك العيد إلى يوم الأحد التالي لهذا التاريخ.

صفحة رقم : 4015

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنظيم السلطة الدينية

ولما زار بوليكارب Polycarp، أسقف أزميز، مدينة روما حوالي عام (156) حاول أن يقنع أنتسيتس Anticetus، أسقف روما، بأن يحتفل بعيد القيامة في اليوم الذي تحتفل به فيه الكنيسة الغربية، لكنه لم يفلح في محاولته. ولما عاد إلى بلده رفض إقتراحاً، عرضه عليه البابا، يقضي بأن تقبل الكنيسة الشرقية التاريخ الغربي. وكرر البابا فكتور (190) طلب أنتسيتس وصاعه في صيغة الأمر، فأطاعه أساقفة فلسطين وعصاه أساقفة آسيا الصغرى، فما كان من فكتور إلا أن بعث برسائل إلى المجمع الدينية المسيحية يحرم فيها الكنائس التي عصت أمره؛ واحتج كثيرون من الأساقفة في الشرق وفي الغرب نفسه على هذا الإجراء الاستبدادي، ويبدو أن فكتور لم يصر على تنفيذ رغبته. وكان زفرينس Zfephyrinus الذي خلفه (202-218) "رجلاً سانجاً غير متعلم" (73)، ولهذا رفع إلى رئاسة الشماسية رجلاً كان ذكاًؤه أقل باعثاً للريبة من أخلاقه، ليساعده في إدارة شؤون أسقفية روما الآخذة في الاتساع. ويقول أعداء كالستس Callistus إنه بدأ حياته عبداً، ثم صار من رجال المال والمصارف، واختمس الأموال المودعة عنده فحكم عليه بالأشغال الشاقة، ثم أطلق سراحه؛ وأثار شغباً في أحد المجمع الدينية فحكم عليه بالعمل في مناجم سردينية؛ ولكنه هرب منها بأن احتال على وضع اسمه في ثبت من أعفي عنهم، وقضى عشر سنين يعيش في أنتيوم Antium عيشة قاسى من هدونها أشد الآلام. ولما عهد إليه زفرينس العناية بالمقبرة البابوية نقلها إلى طريق أبيا Appia في السرداب المسمى باسمه، ولما مات زفرينس واختير كالستس Callistus بابا أعلن هبوليتس Hippolytus وغيره من القساوسة أنه لا يصلح لمنصبه، وأقاموا كنيسة وبابوية غير كنيسته وبابويته (218). وزادت الخلافات المذهبية هوة الشقاق: ذلك أن كالستس كان يرى أن يعاد إلى حظيرة الكنيسة من ارتكبوا بعد تعميدهم

صفحة رقم : 4016

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنظيم السلطة الدينية

خطيئة يعاقب عليها بالإعدام، (كالزنى، والقتل، والردة) ثم أعلنوا توبتهم. أما هبوليتس فكان يرى أن هذا التساهل مضر أشد الضرر بالدين، وكتب دحضاً لجميع البدع مع تأكيد هذه البدعة بنوع خاص؛ فما كان من كالتس إلا أن أعلن حرمانه، وأنشأ للكنيسة إدارة حازمة، وثبت دعائم سلطة كرسي روما الأسقي على جميع العالم المسيحي. وانتهى انشقاق هيبوليتس في عام 235؛ ولكن قسيسين هما نوفاتس Novatus في قرطاجنة ونوفاتيان Novatian في روما- أعادوا هذه البدعة في أيام البابا كرنليوس (251-253)، فأقاما كنائس منشقة محرمة تحريماً قطعياً على الذين يرتكبون الذنوب بعد التعميد. أخرج مجلس قرطاجنة برئاسة سبريان Cyprian، ومجلس روما برئاسة كرنليوس هاتين الشيعتين المنشقتين من الكنيسة المسيحية. وكانت استعانة سبريان بكرنليوس سبباً في تقوية البابوية؛ لكن الشقاق دب بين الكنيستين بعد قليل، وكان سببه أن البابا استيفن (254-257) قرر أن لا ضرورة لتعميد من يعتقدون المسيحية من الطوائف غير المؤمنة، فعقد سبريان مَجْمعاً بنياد من أساقفة أفريقية تولى رياسته بنفسه ورفض هذا القرار. وفعل استيفن ما فعله كاتو من قبل فأعلن حرمان أولئك الأساقفة على بكرة أبيهم وشن عليهم حرباً شعواء؛ ولكن موته العاجل سكن هذا النزاع إلى حين، وحال دون انشقاق كنيسة أفريقية القوية. وظل كرسي روما يزداد قوة على قوة في كل عقد من العقود التالية رغم تجاوزه حقوقه في فترة ونكوصه في فترة أخرى؛ وكان ثراؤه وكثرة أصدقائه العامة مما رفع مكانته؛ وكان العالم المسيحي بأجمعه يستشير في كل ما يصادفه من المشاكل الخطيرة؛ وكان هو يقدم من تلقاء نفسه على تحريم البدع والضلالات ومقاومتها، وعلى تحديد ما يجب الاعتراف به من الأسفار المقدسة.

صفحة رقم : 4017

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنظيم السلطة الدينية

لكنه كان ينقصه العلماء الأعلام، فلم يكن فيه رجال يفخر بهم أمثال ترتليان، وأرجن، وسبريان؛ وكان يعنى بالتنظيم أكثر ما يعنى باللاهوت، فكان يبني ويحكم، ويترك الكتابة والكلام لغيره. وعصاه سبريان ولكن سبريان هو الذي نادى في كتابه الكنيسة الكاثوليكية الموحدة بأن كرسي بطرس أو مقره هو مركز العالم المسيحي وأعلى مكان فيه، وأعلن إلى العالم مبادئ التضامن، والإجماع، والثبات التي كانت ولا تزال أساس الكنيسة الكاثوليكية وعمادها (74). وقبل أن ينتصف القرن الثالث كان مركز البابوية ومواردها المالية قد بلغا من القوة حداً جعل ديسيوس يقسم أنه يفضل أن يكون في روما إمبراطور ثان ينافس على أن يكون فيها بابا (75). وهكذا أصبحت عاصمة الإمبراطورية عاصمة الديانة المسيحية.

وأمدت روما المسيحية بالنظام كما أمدتها اليهودية بمبادئها الخلقية وكما أمدتها بلاد اليونان بفلسفتها الدينية. وقد دخلت هذه كلها في بناء الدين المسيحي مع ما دخله وما امتصه من الأديان المعارضة. ولم يكن كل ما أخذته الكنيسة من روما هو العادات والمراسم الدينية التي كانت سائدة في روما قبل قيام المسيحية- كالبطرشيلى وغيره من ثياب الكهنة الوثنيين، واستعمال البخور والماء المقدس في التطهير، وإيقاد الشموع ووضع ضوء دائم لا ينطفئ أمام المذبح، وعبادة القديسين، وهندسة الباسلقا، وقوانين روما التي اتخذتها أساساً للقانون الكنسي، ولقب الحبر الأعظم Pontifex Maximus الذي أطلق على كبير الأساقفة مضافاً إلى اللغة اللاتينية التي أوضحت في القرن الرابع الأداة الخالدة النبيلة للشعائر الكاثوليكية؛ بل كان أهم من هذا كله نظام الحكم الواسع الذي أمسى بعد عجز السلطة الزمنية صرح الحكم الكنسي، فلم يلبث الأساقفة، لا الحكام الرومان، أن صاروا هم مصدر النظام ومركز القوة والسلطان في

صفحة رقم : 4018

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> نمو الكنيسة -> تنظيم السلطة الدينية

مدائن الإمبراطورية؛ وكان المطارنة وكبار الأساقفة أكبر عون لحكام الولايات إن لم يكونوا قد حلوا محلهم، كما حل مجمع الأساقفة محل جمعيات الولايات. وسارت الكنيسة الرومانية في الطريق الذي سارت فيه قبلها الدولة الرومانية، ففتحت الولايات، وجملت العواصم، وثبتت دعائم النظام والوحدة على طول الحدود. وقصارى القول أن روما قضت نحبها وهي تلد الكنيسة، واكتمل نمو الكنيسة بأن ورثت التبعات الملقاة على روما ورضيت أن تضطلع بها.

صفحة رقم : 4019

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

الباب التاسع والعشرون

انهيار الإمبراطورية

193 - 305 بعد الميلاد

الفصل الأول

في أول يوم من شهر يناير سنة 193 اجتمع مجلس الشيوخ بعد ساعات قليلة من اغتيال كمودس، في نشوة البهجة والغبطة واختار للجلوس على عرش الإمبراطورية عضواً من أجل أعضائه واجدرهم بالاحترام، استطاع بإدارته العادلة وهو حاكم للمدينة أن ينهج منهج الأنطونيين ويواصل أحسن تقاليدهم. وقبل برتناكس Pertinax، وهو كاره، هذا المنصب الخطير الذي يرفع صاحبه إلى مكانة سامية إذا سقط منها هوى إلى الدرك الأسفل. ويقول فيه هيروديان (1) إنه "سلك سلوك الرجل العادي"، فكان يستمع إلى محاضرات الفلاسفة، ويشجع الآداب؛ وقد ملأ خزائن الدولة بالمال، وخفض الضرائب، وباع بالمزاد كل ما ملأ به كمودس القصر الإمبراطوري من ذهب وفضة، وأقمشة مطرزة وحرير، وجوار حسان. وفي ذلك يقول ديوكاسيوس: "والحق أنه فعل كل ما يجب على العاهل الصالح أن يفعله (2). وائتمر المعاتيق الذين فقدوا بفضل سياسته الاقتصادية ما كان يعود عليهم من النفع مع الحرس البريتوري الذي ساءه عودة النظام. وفي الثامن عشر من شهر مارس اقتحم ثلثمائة من الجنود

صفحة رقم : 4020

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

أبواب القصر وقتلوه، وحملوا رأسه إلى المعسكر على طرف رمح، وحزن الشعب ومجلس الشيوخ عليه وتوارى أعضاؤه عن الأنظار.

وأعلن قواد الحرس أنهم سيضعون التاج على رأس الروماني الذي يمنحهم أكبر عطاء. وأقنعت دديوس جليانس Didius Julianus زوجته وابنته بأن يغادر مائدة الطعام ويعرض على زعماء الحرس عطاءه، فسار إلى المعسكر، حيث وجد منافساً له يعرض خمسة آلاف درخمة (3000 ريال أمريكي) هبة لكل جندي ثمناً لعرش الإمبراطورية. وصار سمسارة الحرس ينتقلون من مثر إلى آخر، يشجعونهم على زيادة العطاء، فلما أن وعد جليانس كل جندي بـ 6250 درخمة أعلن الحرس اختياره إمبراطوراً.

وثارت ثائرة أهل روما لهذه المذلة المنقطعة النظير، فأهابوا بالفيالق الرومانية المعسكرة في بريطانيا، وسوريا، وبنونيا أن تزحف على روما وتخلع جليانس. وغضبت هذه الفيالق لأنها حرمت من العطاء، فأخذ كل منها ينادي بقائده إمبراطوراً، وزحفت كلها على روما. وتقوق لوسيو سبتيوس سيفيرس جيتا Lucius Septimius Severus Geta قائد جيوش بنونيا على جميع القواد بفضل جرأته وسرعته، وما قدمه من رُشا. وقطع على نفسه عهداً أن يهب كل جندي 12000 درخمة حين يجلس على العرش؛ وزحف بهم من بلاد الدانوب حتى صار على بعد سبعين ميلاً من روما في شهر واحد؛ واستمال إليه الجنود الذين أرسلوا لصدده، وأخضع الحرس البريتوري بأن عرض عليهم أن يعفو عنهم إذا أسلموا إليه قوادهم، وخالف جميع السوابق بدخوله العاصمة ومعه جنود بكامل سلاحهم، ولكنه أرضى المستمسكين بالتقاليد القديمة بأن لبس ثياب المدنيين. وعثر طربيون على جليانس يبكي في قصره من هول تلك الحوادث، فأخذه إلى حمام وقطع رأسه (2 يونيو سنة 193).

وكانت أفريقية في هذه الأثناء تهب المسيحية أعظم المدافعين عنها؛ وقد وُلد

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

فيها وقتئذ (146) سبتميوس واجتاز فيها أولى مراحل تعليمه. وكانت نشأته في أسرة فينيقية تتكلم بهذه اللغة، ودرس الآداب والفلسفة في أثينة، واشتغل بالمحاماة في روما، وكان رغم لهجته السامية من أحسن الرومان تربية وأكثرهم علماً في زمانه، وكان مولعاً بأن يجمع حوله الشعراء والفلاسفة، ولكنه لم يترك الفلسفة تعوقه عن الحروب، ولم يدع الشعر يرقق من طباعه. وكان رجلاً وسيم الطلعة، قوي البنية، بسيطاً في ملبسه، قادراً على مغالبة الصعاب، بارعاً في الفنون العسكرية، مقداماً لا يهاب الردى في القتال، قاسي القلب لا يرحم إذا انتصر. وكان لبقاً فكهاً في حديثه، نافذ البصيرة في قضائه(2)، قديراً صارماً في أحكامه(3).

وكان مجلس الشيوخ قد أخطأ إذ أعلن تأييده لمنافسه ألبينس Albinus فذهب إليه سبتميوس وحوله ستمائة من رجال الحرس، وأقنعه بأن يؤيده في ارتقاء العرش؛ فلما تم له ذلك أعدم عشرات من أعضائه وصادر كثيراً من ضياع الأشراف حتى آلت إليه أملاك نصف شبه الجزيرة. ثم ملأ الأماكن التي خلت في مجلس الشيوخ بأعضاء اختارهم بنفسه من بلاد الشرق التي تدين بالنظام الملكي، وأخذ كبار رجال القانون في ذلك العصر - بابنيان Papinian وبولس Paulus، وألبيان Ulpian - يجمعون الحجج التي يؤيدون بها السلطة المطلقة. وأغل سبتموس شأن المجلس إلا حين كان يبعث إليه بأوامره؛ وبسط سلطانه الكامل على أموال الدولة على اختلاف مصادرها، وأقام حكمه على تأييد الجيش دون خفاء، وحول الزعامة إلى ملكية عسكرية وراثية، وزاد عدد رجال الجيش، ورفع رواتب الجند، وعمد إلى الإسراف في أموال الدولة حتى كاد ينضب معينها. ومن عمله أنه جعل الخدمة العسكرية إلزامية، ولكنه حرّمها على أهل إيطاليا، فأصبحت فيالق الولايات من ذلك الحين هي التي تختار الأباطرة لروما بعد أن فقدت العاصمة قدرتها على الحكم.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

ومن العجائب أن هذا المحارب الواقعي كان يؤمن بالتنجيم، وأنه كان أكثر الناس براعة في تفسير النذر والأحلام. من ذلك أنه لما أن ماتت زوجته الأولى قبل أن يرتقي العرش بسنة أعوام عرض على سوريّة غنية دل طالعها على أنها ستجلس على عرش أن تتزوجه. وكانت هذه الزوجة هي جوليا دمننا Julia Domna ابنه كاهن غني لإلجابال Elgabal إله حمص. وكان نيزك قد سقط في تلك المدينة من زمن بعيد وأقيم له ضريح في هيكل مزخرف، وأخذ الناس يعبدونه على أنه رمز الإله إن لم يكن هو الإله نفسه مجسماً. وجاءت جوليا إلى قصر سبتميوس، وولدت له ولدين هما كركلا وجيتا Geta، وارتقت عرشها الموعود. وكانت أجمل من أن تقتصر على زوج واحد، ولكن مشاغل سبتميوس لم تكن تترك له من الفراغ ما يسمح له بأن يغار عليها. وقد جمعت حولها ندوة من الأدباء، وناصرت الفنون، وأقنعت فيلوسترانس بأن يكتب سيرة أبلونيوس التيانائي Apollonius of Tyana يخلع عليه الكثير من

أسباب المديح. وكانت قوة أخلاقها ونفوذها مما عجل السير بالملكية نحو الأساليب الشرقية التي وصلت إلى غايتها من الناحية الأخلاقية في عهد إجابالس Elgabalus ومن الناحية السياسية في عهد دقلديانوس. وسلخ سبتموس من حكمه الذي دام ثماني عشرة سنة في حروب سريعة وحشية قضى فيها على منافسيه؛ ودك بيزنطية بعد حصار دام أربعة أعوام. فأزال بعمله هذا حاجزاً كان يقف في وجه القوط الأخذيين في الانتشار، وغزا بارثيا، واستولى على طشقونة، وضم بلاد النهرين إلى الإمبراطورية، وعجل سقوط الأسرة الأرساسية المالكة. وأصيب في شيخوخته بداء النقرس. ولكنه لم يكن يرضى أن يضعف جيشه بعد أن قضى في السلم خمس سنين، فزحف به على كلدونيا Caledonia، وانتصرت على الاسكتلنديين في عدة وقائع غالبية الثمن، انسحب على أثرها إلى بريطانيا، ثم آوى إلى يورك حيث وافته المنية (211).

صفحة رقم : 4023

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

ومما قاله عن نفسه: "لقد نلت كل شيء ولكن ما نلته لا قيمة له" (4). ويقول هيروديان إن "كر كلا قد أغضبه أن تطول حياة أبيه... فطلب إلى الأطباء أن يعجلوا بموت الشيخ بأية وسيلة بمتناول أيديهم". وكان سبتموس قد لام أورليوس حين سلم الإمبراطورية إلى كمودس، ولكنه هو نفسه أسلمها إلى كركلا وجيتا، بهذه النصيحة الساخرة: "وفرا المال لجنودكما ولا يهكمما شيء غير هذا" (6). وكان آخر إمبراطور مات في فراشه في الثمانين عاماً التي سبقت وفاته. ويبدو أن كركلا قد خلق، كما خلق كمودس، لكي يثبت أن نصيب الرجل من النشاط قلما يكفي لأن يجعله عظيم في حياته، وفي قوته الجنسية معاً. وقد كان في صباه وسيماً صليماً، فلما بلغ سن رشده أصبح همجياً مفتنتاً بالصيد والحرب، يقتص الخنازير البرية، وينازل أسداً بمفرده، ويحتفظ بعدد من الأسود بالقرب منه في قصره، واتخذ منها رفيقاً له في بعض الأحيان يجالسه على مائدته وينام معه في فراشه (7). وكان يستمتع بصحبة المجالدين والجند بنوع خاص، ويبقي أعضاء الشيوخ زمناً طويلاً في حجرات الانتظار حتى يفرغ من إعداد الطعام والشراب لرفاقه. ولم يكن يرضى أن يشترك معه أخوه في حكم الإمبراطورية، فأمر بقتل جيتا في عام 212، فاغتيل الشاب وهو بين ذراعي أمه، خضب أثوابها بدمه. ويقال انه حكم بالموت على عشرين ألفاً من أتباع جيتا، وعلى كثيرين من المواطنين، وعلى أربع من العذارا الفستية، اتهمهن بالزنى (8). ولما تدمر الجيش على أثر مقتل جيتا أسكتته بأن نفحه بهية تعادل كل ما ادخره سبتموس من الأموال، وكان يفضل الجنود والفقراء على رجال الأعمال والأشراف؛ ولعل ما نقرؤه عنه

صفحة رقم : 4024

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

من القصص التي يرويها ديوكاسيوس ليست إلا انتقاماً كتبه عضو في مجلس الشيوخ واشتدّت رغبته في جمع المال فضايف ضريبة التراكات بأن جعلها عشرة في المائة من مقدار التركة؛ ولما رأى أنها لا تنطبق إلا على المواطنين الرومان وسّع دائرة هذه الحقوق حتى شملت جميع الراشدين من الذكور الأحرار في الإمبراطورية كلها (212)؛ فنال هؤلاء حقوق المواطنين حين استتبع أكثر ما يمكن أن تستتبعه من القروض وأقل ما تستتبعه من السلطان. وأضاف إلى زينات روما قوساً أقامه لسبتيموس سيفيرس لا يزال باقياً إلى اليوم، وحمّامات عامة تشهد خرائبها الضخمة بما كانت عليه من عظمة وجلال، ولكنه ترك معظم شئون الحكم المدني لوادته، وشغل نفسه بالحروب.

وكان قد عين جوليا دمنا أمينة سره لشئون العرائض والرسائل. وكانت تشاركه أو تحل محله في استقبال رجال الدولة أو ذوي المكانة العليا من الأجانب. وهمس الوشاة بأن سلطانها عليه ناشئ من مضاجعته إياها، وأثار الفكيهون الجبناء من أهل الإسكندرية بتشبيهم لها وله بجوكستا Jocesta وأوديب. وأراد أن ينتقم من هذه الإهانة وأمثالها من جهة، ويأمن على نفسه من ثورة تنقد نارها في مصر أثناء حروبه لبارثيا من جهة أخرى، فزار المدينة وأشرف بنفسه (كما يؤكد المؤرخون) على قتل جميع أهل الإسكندرية القادرين على حمل السلاح (9).

ومع هذا فقد كان منشئ الإسكندرية المثل الذي احتذاه والمطمع الذي يأمل أن يبلغه. وللوصول إلى هذه الغاية أنشأ فيلقاً من 16000 جندي سمّاه "فيلق الاسكندر" وسلّحه بأسلحة مقدونية من الطراز القديم، وكان يأمل أن يخضع به بارثيا كما أخضع الاسكندر فارس. وبذل كما يستطيع من الجهد ليكون جندياً عظيماً، فكان يشارك جنوده في طعامهم وكدهم، وسيرهم الشاق الطويل، وكان يساعدهم في حفر الخنادق، وإقامة الجسور، ويظهر

صفحة رقم : 4025

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

الكثير من ضروب البسالة في القتال، وكثيراً ما كان يتحدى أعداءه ويطلب إليهم أن يبارزوه رجلاً لرجل؛ ولكن رجاله لم يكن لهم مثل ما كان له من رغبة في قتال البارثيين، بل كان حبههم للغنائم أكثر من حبههم للقتال، فقتلوه في كاري Carrhae التي هزم فيها كراسس (217). ونادى مكريانس Macrinus قائد الحرس بنفسه إمبراطورياً، وأمر مجلس الشيوخ، بعد أن أظهر بعض التردد، بأن يتخذ كركلا إلهاً. ونفيت جوليا دمنا إلى إنطاكية بعد أن حرمت في خلال ست سنين من الإمبراطورية، ومن زوجها، ومن أبنائها، فأضربت عن الطعام حتى ماتت.

وكان لها أخت تدعى جوليا ميزا Julia Maesa لا تقل عنها قدرة وكفاية. فعادت جوليا الثانية إلى حمص ووجدت فيها حفيدين يبشران بمستقبل عظيم. فأما أحدهما فكان ابن ابنتها جوليا سوامياس Julia Soaemias، وكان كاهناً شاباً من كهنة بعل، يسمى فاريوس أفيتس Varius Avitus، وهو الذي سمي فيما بعد الجابلس Elgabalus أي "الإله الخالق". أما الثاني فكان ابن جوليا ماميا Gulia Mamaea ابنة ميزا، وكان غلاماً في العاشرة من عمره يدعى الكسيانس Alexianus وهو الذي أصبح فيما بعد الكسندر سيفيرس. ونشرت ميزا الشائعة القائلة إن فاريوس هو الابن الطبيعي لكركلا، وإن كان في واقع الأمر ابن فاريوس مرسلس، وأطلقت عليه اسم بسينانس؛ ذلك أن الإمبراطورية كانت أفضل عندها من سمعة ابنتها، وماذا يضيرها بعد أن مات مرسلس والد الشاب. وكان الجنود الرومان في سوريا قد ألغوا الشعائر الدينية السورية، وكانوا يشعرون باحترام لهذا القس الشاب الذي لا يتجاوز الرابعة عشرة من العمر تبعته في قلوبهم عاطفة دينية قوية. يضاف إلى هذا أن ميزا أوعزت إليهم بأنهم إذا

صفحة رقم : 4026

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

اختاروا الجابلس إمبراطوراً فإنها ستفتحهم بعتية سنوية. ووثق الجند بوعداهم وأجابوها إلى ما طلبت، وضمت ميزا بذهبها إلى صفها الجيش الذي سيره مكريينس لقتالها، ولما أن ظهر مكريينس نفسه على رأس قوة كبيرة، تردد مرتزقة السوربيين في ولائهم، ولكن ميزا وسوامياس قفزتا من مركبتيهما، وقادتا الجيش المتردد إلى النصر؛ لقد كان رجال سوريا نساء، وكانت نساؤها رجالاً.

ودخل الجابلس روما في خريف عام 219 مرتدياً أثواباً من الحرير الأرجواني موشاة بالذهب الإبريز، وحذاءين مصبوغين باللون القرمزي، وكانت عيناه تشعان بريقاً مصطنعاً وكان في ذراعه اسورتان غاليتا الثمن، وفي يديه عقد من اللؤلؤ، وعلى رأسه الجميل تاج مرصع بالجواهر، وركبت إلى جواره في مركب فخم جدته وأمه. وكان أول ما فعله حين حضر إلى مجلس الشيوخ أول مرة أن طلب إليه الموافقة على جلوس أمه إلى جانبه لتستمع إلى المناقشات. وأوتيت سوامياس من الحكمة ما أوحى إليها بالإنسحاب، وقنعت برياسة المجلس الأصغر مجلس النساء الذي أنشأته سابينا، والذي كان يبحث المسائل المتعلقة بأثواب النساء وحليهن، وترتيبهن في الحفلات الرسمية، وآداب اللياقة وما إليها، وترك حكم الدولة للجددة ميزا.

وكان في أخلاق الإمبراطور الشاب بعض العناصر المحببة. من ذلك أنه لم ينتقم ممن أيدوا مكريينس، وأنه كان يحب الموسيقى، ويجيد الغناء، وينفخ في المزمار والبوق، ويضرب على الأرنج. وإن كان أصغر من أن يحكم الإمبراطورية فإنه لم يطلب أكثر من أن يستمتع بها. ولم يكن معبوده يعل بل كان هذا المعبود هو الشهوة، وكان معتزماً أن يعبدها بجميع صورها في الذكور والإناث على السواء. وكان يدعو كل طبقة من الأحرار إلى زيارة قصره، وكان أحياناً يأكل معهم ويشرب ويمرح؛ ويوزع عليهم من أن إلى أن جوائز لا باقتراع تختلف من بيوت مؤنثة إلى حفنة من الذباب. وكان يحب أن يمزح

صفحة رقم : 4027

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

مع ضيوفه: من ذلك أنه كان يجلسهم على وسائل منقوشة تتفجر من تحتهم فجأة، ويسكرهم حتى يفقدوا وعيهم حتى إذا ما استيقظوا وجدوا أنفسهم بين فهود، ودبية، وآساد أليفة غير مؤذية. ويؤكد لمبريديوس Lampridius أن إجابلس لم ينفق مرة أقل من 100.000 سسترس (10.000 ريال أمريكي) على وليمة واحدة لضيوفه، وربما بلغت نفقات إحدى الولائم 3.000.000. وكان يخلط قطع الذهب البازلا، والعقيق بالعدس، واللؤلؤ بالارز، والكهرمان بالفول. وكان يهدي الخيل والمركبات، والخصيان؛ وكثيراً ما كان يأمر كل ضيف أن يأخذ معه إلى منزله الصحيفة الفضية والكؤوس التي كان يقدم له فيها الطعام والشراب. وكان يختار لنفسه أحسن كل شيء. فكان الماء الذي في أحواض سباحته يعطر بروح الورد، وكانت المشاجب التي في حماماته من العقيق أو الذهب الخالص، وكان طعامه من أندر المأكولات وأغلاها ثمناً، وأثوابه مرصعة بالجواهر من تاجه إلى حذاءه؛ وتقول الشائعات إنه لم يلبس قط خاتماً مرتين. وكان إذا سافر احتاج إلى 600 مركبة يحمل فيها متاعه وقواده. ولما قال له عراف إنه سيموت ميتة عنيفة،

أعد وسائل غالية للانتحار يستخدمها إذا لزم الأمر : منها حبال من الحرير الأرجواني، وأسياف من الذهب، وسموم في قنينات من الياقوت الأزرق أو الزمرد. غير أنه اغتيل في مرحاض. وأكبر الظن أن أعداءه من أعضاء مجلس الشيوخ ومن في طبقتهم قد اخترعوا أو بالغوا في بعض هذه القصص؛ وما من شك في أن القصص الخاصة بشذوذه الجنسي مما لا يصدق العقل. وسواء كانت صحيحة أو كاذبة فإنه كان يعطر شهرته بتقواه، ويعمل على أن ينشر بين الرومان عبادة إلهه السوري بعل. يضاف إلى هذا أنه إختتن وفكر في أن يخصي نفسه تكريماً لإلهه؛ وأحضر من حمص الحجر الأسود المقدس وأخذ يعبد بوصفه رمزاً لإلجبال، وشاد هيكلًا مزخرفاً ليضعه فيه، وحمل إليه الحجر مغلفاً بالجواهر في عربة تجرها ستة جياد

صفحة رقم : 4028

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

بيض، ومشي الإمبراطور أمامها متجهاً بوجهه نحوها وهو صامت إجلالاً لهذا الحجر. ولم يكن يجد ما يمنعه أن يعترف بجميع الأديان الأخرى، فكان يبسط حمايته على اليهودية، وعرض أن يجعل المسيحية ديناً مشروعاً، وكل ما كان يصير عليه في إخلاص يدعو إلى الإعجاب هو أن يكون حجره أعظم الآلهة(12). وكانت أمه منهمة في علتها تنظر إلى هذه المهزلة الدينية نظرة المتسامح الذي لا يعنيه من أمرها شيء، ولكن جوليا ميزا صممت، حين عجزت عن وقفها، على أن تتعجل تلك الكارثة التي ستقضي على هذه الأسرة العجيبة من النساء السوريات. ولهذا أفتعت إلجابالس بأن يتبنى الاسكندر ابن عمه ويوصي به قيصرًا وخليفة له، وأخذت هي ومامائيا Mamaea تدرجان الغلام على واجبات منصبه، وسلكتنا كل السبل التي تجعل مجلس الشيوخ والشعب ينظران إليه على أنه خير بديل للقس المأفون الذي أساء إلى روما - لا بإسرافه أو فحشه - بل بإخضاعه جوبتر إلى بعل السوري. وكشفت سوامياس المؤامرة وأثارت الحرس البريتوري على أختها وابن أختها. لكن ميزا ومامائيا كانتا أقوى منها حجة إذا بسطتا أيديهما للحرس بالمال الوفير، فقتل رجال الحرس إلجابالس وأمه، وجروا جثته في شوارع المدينة وحول ساحة الألعاب، وألقوها في نهر التيبير، ثم نادوا بالاسكندر إمبراطوراً ووافق مجلس الشيوخ على هذه البيعة (222).

وجلس ماركس أورليوس سفيرس الكسندر على العرش، كما جلس عليه سلفه، في الرابعة عشرة من عمره. وكانت أمه قد عنيت عناية منقطعة النظير بتدريب جسمه، وعقله، وخلقه. وزاد هو شهرته بالجد ورياضة الجسم، فكان يسبح في بركة من الماء البارد ساعة في كل يوم، ويشرب نحو نصف لتر من الماء قبل كل وجبة، ويقتصد في الطعام، ولا يأكل إلا ابسط الأطعمة. ونشأ غلاماً وسيماً، طويل القامة، قوي الجسم، ماهراً في جميع أنواع الألعاب وفنون الحرب، ودرس الآداب اليونانية واللاتينية، ولم يقلل من حبه لهما

صفحة رقم : 4029

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

وانهماكه فيهما إلا إصرار مامائيا، إذ تلت عليه أشعار فرجيل التي تهيب بالرومان أن يدعوا جمال الثقافة لغيرهم من الأجناس، وبعدها أنفسهم لإقامة دولة عالمية وحكمها في سلام. وكان بارعا "ممتازا" في التصوير والغناء، يعزف على الأرغن والقيثارة، ولكنه لم يكن يسمح لغير أهل بيته بمشاهدة هذه الأعمال. وكان بسيطاً متواضعا في ملبسه وأخلاقه "معتدلاً في استمتاعه بالحب، ولم تكن له قط صلة بالمختنئين" (13). وأظهر احتراماً عظيماً لمجلس الشيوخ، فكان يعامل أعضائه كأنهم أكفاء له، ويستضيفهم في قصره، وكثيراً ما كان يزورهم في منازلهم وكان رحيماً، دمث الأخلاق، يعود المرضى أياً كان منزلتهم؛ ولم يسفك قط دماء مدني في الأربعة عشر عاماً التي قضاها في الحكم (14). وعابت عليه أمه لينه وقالت له: "لقد أسرفت في لين الحكم، وفي الإقلال من سلطان الإمبراطورية". فأجابها بقوله: "نعم، ولكنني جعلتها أبقى أمداً وأقوى دعامة" (15). لقد كان رجلاً من ذهب مصفى، غير مشوب بزغل يقويه على احتمال صعاب هذا العالم.

وأدرك السخف الذي تنطوي عليه جهود سلفه والتي كانت تهدف إلى استبدال إيجابال بجوبتر، وتعاون مع والدته في إعادة الهياكل والشعائر الرومانية إلى سابق عهدها؛ ولكن عقله الفلسفي هداه إلى أن يرى أن الأديان جميعها أساليب مختلفة لعبادة قوة واحدة عليا، ولهذا أراد أن يعظم جميع الأديان التي تدعو إلى الخير، ووضع في معبده الخاص الذي كان يتعبد فيه كل صباح صوراً لجوبتر وأرفيوس، وأبلونيوس التينائي، وإبراهيم، والمسيح. وكثيراً ما كان يكرر النصيحة اليهودية - المسيحية القائلة: "لا تعامل غيرك بما لا تحب أن يعاملك به الناس"، وأمر بنقشها على جدران قصره وعلى كثير من جدران المباني العامة. وكان يوصي شعبه بالتخلق بأخلاق اليهود والمسيحيين. ولكن الذين لم يتأثروا به من

صفحة رقم : 4030

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

أهل إنطاكية والإسكندرية الفكهين كانوا يلقبونه "رئيس الكنيس" وكانت أمه تفضل المسيحيين على غيرهم، وقد بسطت حمايتها على أرجن، واستدعته ليفسر للناس أصول دينه المرن.

وإذا كانت جوليا ميذا قد توفيت بعد قليل من اعتلاء الإسكندر العرش، فقد كانت مامائيا وكان أليان معلم الإسكندر هما اللذان يرسمان خطته السياسية، وإصلاحاته الإدارية. ومن أعمالهما أنهما اختارا ستة عشر من أعضاء مجلس الشيوخ البارزين وألفا منهم مجلساً إمبراطورياً وقررا ألا يُنقذ عمل من الأعمال الكبرى إلا إذا وافق عليه. ولما أن تزوج الإسكندر وأظهر تحيزاً ظاهراً لزوجته بسبب حبه لها أمرت مامائيا بنفيها ولم ير الإسكندر بدأ من الاستسلام لوالدته. ولما كبر زاد نصيبه في إدارة شؤون الدولة فكان "يعني بالشئون العامة قبل مطلع الفجر"، كما يقول كاتب سيرته القديم، "وبوالي النظر في هذه الشئون زمناً طويلاً، دون ملل أو غضب، بل يبقى على الدوام مرحاً هادئاً راضياً" (16).

وكانت خطته الأساسية تهدف إلى إضعاف سيطرة الجيش المؤدية إلى انحلال الدولة، وذلك بإعادة هبة مجلس الشيوخ والأشراف؛ فقد كان يبدو له أن حكم الأشراف ذوي الأصول السامية هو البديل الوحيد من حكم المال، أو الخرافات، أو السيف؛ وقد استطاع بمعونة مجلس الشيوخ أن ينقذ مئات الخطط التي أدت إلى اقتصاد كبير في نفقات الإدارة، ففصل عدداً كبيراً من الموظفين الزائدين على الحاجة في قصره، وفي المناصب الحكومية، وفي الولايات، وباع معظم ما كان في خزائن الإمبراطور من جواهر، وأودع ثمنها في بيت المال.

وأصدر قرارات اعترف فيها بهيئات العمال والتجار، وشجعها وأعاد تنظيمها، وأجاز لهذه الهيئات أن تختار محامين عنها من بين أعضائها(17). ولعل مجلس الشيوخ كان أقل رضاً عن هذا العمل منه عن أعماله الأخرى، وقد فرض رقابة شديدة على الأخلاق العامة فأمر بالقبض على العاهرات ونفى

صفحة رقم : 4031

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

ذوي الميول الجنسية الشاذة. ومع أنه خفض الضرائب فقد أعاد بناء الكلوسيوم وحمامات كركلا، وشاد مكتبة عامة وقناة ماء طولها أربعة عشر ميلاً، وحمامات للبلدية جديدة، وبذل المال بسخاء لإنشاء الحمامات وقنوات الماء والطرق في جميع أنحاء الإمبراطورية، وعمل على تخفيض فائدة الديون التي كانت ترهق المدنيين فأفرض المال من خزنة الدولة بفائدة أربعة في المائة، وأعطى الفقراء المال من غير فائدة ليشتروا به أرضاً زراعية. وكانت نتيجة هذه الأعمال أن عمّ الرخاء جميع أجزاء الإمبراطورية، وأن قدرت له وأثنت عليه، وأن خيل إلى جميع الناس أن أورليوس التقي العظيم قد عاد إلى الأرض وإلى السلطان.

ولكن الفرس والألمان اغتتموا فرصة وجود هذا الإمبراطور القديس على العرش، كما اغتتموا فرصة وجود سميه الإمبراطور الفيلسوف، فغزا أردشير رأس الأسرة الساسانية في فارس بلاد النهرين في عام 320 وهدد سوريا. وبعث إليه الاسكندر برسالة فلسفية يلومه فيها على عنفه ويقول له إنه "يجب على كل إنسان أن يقنع بما لديه من أملاك"(18). واستنتج أردشير من هذه الرسالة أنه ضعيف خوارج العود فرد عليه بأن طلب سوريا وآسية الصغرى، فما كان من الإمبراطور الشاب إلا أن امتشق الحسام ونزل إلى الميدان مصحوباً بوالدته، وخاض غمار موقعة غير فاصلة أظهر فيها من البسالة أكثر مما أظهر من الدهاء. ولا يذكر التاريخ إلا النزر اليسير عن انتصاراته وهزائمه، ولكن الحرب أسفرت عن انسحاب أردشير من بلاد النهرين، ولعله انسحب ليرد هجوماً وقع على حدوده الشرقية، وتصور النقود الرومانية الاسكندر متوجاً بأكاليل الظفر ومن تحت قدميه نهراً دجلة والفرات. ورأت قبائل الألمان والمركمان أن حاميات الرين والدانوب قد سحبت لإمداد فيالق سوريا فاقتحمت الطرق الرومانية المحصنة وعانت فساداً في بلاد غالة الشرقية، ولكن الاسكندر جاء إليها مع ماميا بعد الفراغ من احتقاله

صفحة رقم : 4032

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> أسرة سامية

بالنصر على الفرس، وانظم إلى جيشه، وسار على رأسه إلى مينز Mains. وعمل بنصيحة والدته فأخذ يفاوض العدو ويعرض عليه مبلغاً من المال سنوياً نظير احتفاظه بالسلم. ولكن جنوده رأوا في هذا العمل ضعفاً واستسلاماً فتمردوا عليه، ولم يكونوا قد غفروا له شحه، وتشدده في حفظ النظام، وإخضاعهم لمجلس الشيوخ ولحكم امرأة،

ونادوا ببوليوس مكسيميس قائد فيالق بانونيا إمبراطوراً. واقتحم جنود مكسيميس خيمة الاسكندر، وقتلوه هو وأمه وأصدقاءه (235).

صفحة رقم : 4033

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الفوضى

الفصل الثاني

الفوضى

لم يكن من نزوات التاريخ أن أصبح الجيش صاحب السلطة العليا في القرن الثالث، بل كان هذا أمراً طبيعياً. ذلك أن عوامل داخلية أضعفت الدولة وتركتها معرضة للغزو من جميع الجهات، وكان وقف التوسع بعد أيام تراجان ثم بعد أيام سبتوميوس، إيذاناً ببدء الهجوم عليها، فأخذ البرابرة يفتحون بلادها باتحادهم على غزوها، كما كانت روما تفتح بلادهم لتقريبهم. وزادت ضرورة الدفاع من قوة الجيش ورفعت مكانة الجنديّة، وجلس القواد على العرش محل الفلاسفة، وخضع آخر حكم الأشراف لعودة حكم القوة.

وكان مكسيميس جندياً طيباً لا أكثر، وكان ابن فلاح تراقي. ونشأ صحيح الجسم قوي البنية، ويؤكد المؤرخون أن طول قامته كان يبلغ ثماني أقدام، وأن إبهامه كانت من الغلظة بحيث كان يلبس فيها اسورة زوجته كما كان يلبس الخاتم. ولم ينل شيئاً من التعليم. وكان يحتقر المعلمين ويحسدهم في وقت واحد، ولم يزر روما مرة واحدة في الثلاث السنين التي تولى فيها الملك بل كان يفضل حياة معسكره على الدانوب أو الرين. وقد اضطرت حاجته إلى المال لينفق منه في حروبه وفي استرضاء جنوده إلى فرض ضرائب فادحة على الأغنياء أغضبتهم فلم يلبثوا أن ثاروا على حكمه، وقبل جرديانس حاكم أفريقية الثري المتعلم ترشيح جيشه له إمبراطوراً منافساً لمكسيميس. وإذا كان وقتئذ في الثمانين من عمره فقد أشرك معه ولده في هذا المنصب المهلك. وعجزاً جميعاً عن الوقوف في وجه القوى التي سيرها عليهما مكسيميس وقتل الابن في ميدان القتال أما الأب فقتل نفسه، وثأر مكسيميس لنفسه بأن حكم على عدد كبير من الأشراف بالقتل والنفي، ومصادرة

صفحة رقم : 4034

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الفوضى

أملاكهم حتى كاد يقضي على هذه الطبقة. وفي ذلك يقول هروديان Herodian "وكان في وسع الإنسان أن يرى في كل يوم أغني الأغنياء بالأمس يصبح متسولاً" (19). وقاومه مجلس الشيوخ الذي أعاد سفيرس تكوينه وقواه أشد المقاومة، فأعلن أن مكسيمس خارج على القانون، واختار اثنين من أعضائه هما مكسمس Maximus وبلينس Balbinus إمبراطورين. وسار مكسمس على رأس جيش هزيل لملاقاة مكسيمس، فانحدر هذا من جبال الألب وحاصر أكويليا Aquileia. وكان مكسيمس أفضل القائدين، وكانت لديه أكبر القوتين؛ ولاح أن مجلس الشيوخ وطبقات الملاك سيلقيان مصيرهما المحتوم، ولكن جماعة من جنود مكسيمس الذين كانوا حانقين عليه لأنه وقع عليهم عقاباً وحشياً قتلوه غيلة في خيمته. وعام مكسمس ظافراً إلى روما حيث اغتاله الحرس البريتوري هو وبلينس، واختار جرويانس الثالث إمبراطوراً وأيد مجلس الشيوخ هذا الاختيار. ولسنا نريد أن نذكر بالتفصيل الممل أسماء الأباطرة الذين جلسوا على العرش في هذا العصر الدموي الذي سادته الفوضى، ولا أن نذكر وقائعهم الحربية وقتلهم ومماتهم. وحسبنا أن نقول إن سبعة وثلاثين رجلاً نودي بهم أباطرة في الخمسة والثلاثين عاماً الواقعة بين حكم الاسكندر سفيرس وأورليان. وقتل جرديان الثالث جنوده وهو يحارب الفرس (244)، وهزم ديسيوس Decius فليب العربي الذي خلفه على العرش وقتله في فرونا (249Verona)، وكان فليب هذا رجلاً من أهل البريا، وكان ثرياً مثقفاً مخلصاً لروما إخلاصاً خلقياً بالشرف الذي ناله في القصص القديم، وقد وضع فليب هذا في أثناء فترات السلم التي تخللت حرب القوط برنامجاً واسعاً ليعيد به إلى روما دينها وأخلاقيها، وعاداتها الصالحة، وأصدر أوامره بالقضاء على المسيحية. ثم عاد إلى نهر الدانوب، والتقى بالقوط، وشهد بعينه مقتل ابنه إلى جانبه، وأعلن في جيشه الهباب المتردد أن خسارة فرد من الأفراد لا قيمة لها البتة، وهاجم جيش العدو وقتل هو في هزيمة

صفحة رقم : 4035

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الفوضى

من أفسى الهزائم التي أصابت الرومان في تاريخهم كله (251). وخلفه جالس Gllus الذي قتله جنوده (253)، وجاء بعدهما إيمليانوس Aemilianus وقد قتله هو الآخر جنوده في العام نفسه. وكان فليريان Valerian الإمبراطور الجديد في سن الستين، ولما جلس على العرش اضطر لملاقات الفرنجة، والألمان، والمركمان، والقوط، والسكوديين، والفرس في وقت واحد ولهذا عين ابنه جلينس Glaianus حاكماً على الإمبراطورية الغربية، واحتفظ لنفسه بالشرق، وزحف بجيش على أرض النهرين ولكن كبر سنه أعجزه عن القيام بهذا الواجب الذي يحتاج إلى قوة أعظم من قوته فلم يلبث أن ناء به. وكان جلينس وقتئذ في الخامسة والثلاثين من عمره، وكان شجاعاً، ذكياً، مثقفاً ثقافة لا تكاد تتفق مع أحوال ذلك القرن المليء بالحروب الوحشية. وقد أصلح دولاب الإدارة المدنية في الغرب، وقاد جيشه من نصر إلى نصر على أعداء الإمبراطورية عدواً بعد عدو، ووجد مع ذلك متسعاً من الوقت يأخذ فيه بناصر الفلسفة والآداب، وأحيا الفن القديم إحياء لم يدم طويلاً، ولكن عبقريته المتعددة الجوانب لم تقوَ على مغالبة الشرور التي تجمعت في ذلك الوقت. ففي عام (254) أغار المركمان على بنونية وشمال إيطاليا، وفي عام 255 غزا القوط مقدونية ودماشيا، وهاجم الكوديون والقوط آسية الصغرى، وأغار الفرس على سوريا. وفي عام 257 استولى القوط على مملكة بسبورس، ونهبوا المُن اليونانية الواقعة على شواطئ البحر الأسود، وحرقوا طرابزون، وساقوا أهلها عبيداً وإماء، وأغاروا على بنطس. وفي عام 258 استولوا على خلدقون، ونقوميميا. وبروصه، وأياميا، ونيقية، واستولى الفرس في العام

نفسه على أرمينية، ونادى بستيوس بنفسه حاكماً مستقلاً على غالة. وفي عام 259 أغار الألمان على إيطاليا، ولكن جالينس هزمهم عند ميلان. وفي عام 260 هزم الفرس

صفحة رقم : 4036

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الفوضى

فليريان عند الرها ومات أسيراً في زمان ومكان غير معروفين إلى اليوم. وتقدم شابور الأول وفرسانه الخفاف الكثيرين مخترقين سوريا إلى إنطاكية، وباغتوا أهلها وهم يشهدون الألعاب، ونهبوا المدينة، وقتلوا آلافاً من أهلها، وساقوا آلافاً آخرين عبيداً، واستولوا على طرسوس وخربوها، وعاثوا فساداً في قيليقية وكبدوكية، وعاد شابور إلى بلاد الفرس مثقلاً بالغنائم. وحلت بروما في مدى عشر سنين ثلاث مأس أدلتها وجللتها العار: ذلك أن إمبراطوراً رومانياً آخر لأول مرة سريعاً مهزوماً في ميدان القتال، وأسر العدو إمبراطوراً آخر وضحي بوحدة الإمبراطورية استجابة لضرورة ملاقاته الأعداء الذين أغاروا عليها من جميع الجهات. وضععت هذه الضربات وما صاحبها من رفع الجنود الأباطرة على العرش واغتيالهم، أركان الإمبراطورية، وقضت على هيبتها، وفقدت هذه القوى النفسية التي أنزلها الزمان منزلة القداسة وخلع عليها سلطاناً يألفه الناس ولا يسألون عن مبارراته، تقول فقدت هذه القوى سيطرتها على أعداء روما بل فقدتها أيضاً على رعاياها ومواطنيها، فاندلع لهيب الثورة في كل مكان: ففي صقلية وغالة ثار الفلاحون الذين طال عليهم أمد الظلم ثورات عنيفة، وفي بنونيا نادى إنجينس بنفسه حاكماً مستقلاً على الولايات الشرقية. وفي عام 263 سار القوط بحراً بازاء سواحل أيونيا، ونهبوا إفسوس، وأحرقوا هيكل أرتيميس الفخم، وساد الإرهاب جميع بلاد الشرق الهلنستي.

ولكن الإمبراطورية في أسية نجحت على يدي حليف غير متوقع. ذلك أن أونائس، الذي كان يحكم تدمر خاضعاً لسلطان روما طرد الفرس من أرض الجزيرة، وهزمهم في طشقونة (261)، ونادى بنفسه ملكاً على سوريا وقليلة، وبلاد العرب، وكبدوكية، وأرمينية. ثم اغتيل في عام 266، وورث ابن له شاب ألقابه، وورثت أرملته سلطانه. وقد جمعت زنوبيا، كما جمعت كليوباترة التي تدعي هي أنها من نسلها،

صفحة رقم : 4037

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الفوضى

إلى جمال الخلق، براعة في الحكم، وكثيراً من أسباب ثقافة العقل. وقد درست آداب اليونان وفلسفتهم، وتعلمت اللغات اليونانية، والمصرية، والسريانية، وكتبت تاريخاً لبلاد الشرق. ويلوح أنها جمعت بين العفة والقوة والنشاط، فلم تبح لنفسها من العلاقات الجنسية إلا ما يتطلبه واجب الأمومة (20). وعودت نفسها تحمل التعب والمشاق، وكانت تستمتع بأخطار الصيد، وتسير على قدميها أميالاً طوالاً على رأس جيشها. وجمعت في حكمها بين الحكمة والصرامة،

وعينت الفيلسوف لنجيبس رئيساً لوزرائها، وأحاطت نفسها في بلاطها بالعلماء والشعراء والفنانين، وجملت عاصمة ملكها بالقصور اليونانية - الرومانية - الآسيوية التي يدهش لها عابر الصحراء في هذه الأيام. وأحست أن الإمبراطورية تتقطع أوصالها، فاعتزمت إقامة أسرة حاكمة ودولة جديدين، وأخضعت لسلطانها كبدوكية، وغلطية، والجزء الأكبر من بيثينيا، وأنشأت جيشاً عظيماً وعمارة بحرية ضخمة، فتحت بهما مصر واستولت على الإسكندرية بعد حصار هلك في نصف سكانها. وتظاهرت "ملكة الشرق الداھية" أنها تعمل نائبة عن الدولة الرومانية، ولكن العالم كله كان يدرك أن انتصاراتها لم تكن إلا فصلاً من مسرحية واسعة النطاق هي مسرحية انهيار روما.

وعرف البرابرة ثروة الإمبراطورية وضعفها، فتدفقوا على بلاد البلقان واليونان. وبينما كان السرماتيون يعيثون فساداً من جديد في المدن القائمة على شواطئ البحر الأسود، وكان فرع من فروع القوط يسير في خمسمائة سفينة مخترقاً مضيق الهلسبنت إلى بحر إيجه، ويستولي على جزائره جزيرة في إثر جزيرة، ويرسو في ميناء بيريه، وينهب أثينة، وأرجوس، وإسبارطة وكورنثة، وطيبية (267). وبينما كان اسطولهم يعيد بعض المغيرين إلى البحر الأسود، كانت جماعة أخرى منهم تشق طريقها براً نحو موطنها على نهر الدانوب. والتقى

صفحة رقم : 4038

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الفوضى

بهم جالينس على نهر نستس في تراقية، وانتصر عليهم في معركة فيها كثيراً، ولكن جنوده اغتالوه بعد سنة واحدة من هذا النصر. وانقضت جموع أخرى من القوط في عام 269 على مقدونة وحاصرت تسالونيكى، ونهبت بلاد اليونان، ورودرس، وقبرص، وشواطئ أبونيا. وأنقذ الإمبراطور كلوديوس الثاني تسالونيكى، وطرد القوط إلى أعالي وادي الواردار، وهزمهم عند نابيس (وهي نيش الحديثة) هزيمة منكرة قتل فيها منهم مقتلة كبيرة (269). ولو أنه خسر هذه المعركة لما وقف جيش بين القوط وإيطاليا.

صفحة رقم : 4039

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> التدهور الاقتصادي

الفصل الثالث

لقد عجلت الفوضى السياسية تدهور إمبراطورية الإقتصاد، كما عجلت التدهور الاقتصادي انحلال البلاد السياسي، فكان كلاهما سبباً للآخر ونتيجة له. وكان سبب الضعف الاقتصادي أن ساسة الرومان لم يقيموا قط في إيطاليا حياة اقتصادية سليمة، ولعل سهول شبه الجزيرة الضيقة لم تكن في يوم من الأيام أساساً قوياً تبنى عليه آمال الدولة الإيطالية العالية. وكان يقلل من إنتاج الحبوب منافسة الحبوب الرخيصة الواردة من صقلية، وأفريقية، ومصر، كما أن الكروم العظيمة أخذت تفقد أسواقها التي استولت عليها كروم الأقاليم. وشرع الفلاحون يشكون من أن الضرائب الفادحة تستنفذ مكاسبهم المزعومة ولا تترك لهم من المال ما يحفظون به قنوات الري والصرف صالحة، فانطمرت القنوات، وانتشرت المستنقعات، وأنهكت الملايا سكان كميانيا وروما. ويضاف إلى هذا أن مساحات واسعة من الأرض الخصبة قد حولت من الزراعة إلى مساكن للأثرياء أصحاب الضياع الواسعة، وكان أصحاب هذه الضياع البعيدين عنها يستغلون العمال والأرض إلى أقصى حدود الاستغلال، ويبررون عملهم هذا بمشروعاتهم الإنسانية في المدن. وازدهرت العمائر الفخمة والألعاب الرياضية في المدائن في الوقت الذي أقر فيه الريف، ومن أجل ذلك هجر كثيرون من ملاك الأراضي وعمال الريف الأحرار المزارع إلى المدن وتركوا الجزء الأكبر من الأراضي الزراعية الإيطالية ضياعاً واسعة يقوم بالعمل فيها أرقاء كسالى مهملون. ولكن هذه الضياع نفسها قضت عليها السلم الرومانية ونقص عدد حروب الفتح في القرنين الأول والثاني، وما نشأ عن ذلك من قلة الإنتاج، وارتفاع النفقات، وكثرة الأرقاء.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> التدهور الاقتصادي

وأراد كبار الملاك أن يغروا العمال الأحرار بالعودة إلى الأعمال الزراعية، فقسموا أملاكهم وحدات أجروها إلى "الزراع" (Coloni)، يتقاضون منهم أجوراً نقدية منخفضة أو عشر المحصول، وجزءاً من الوقت يقضونه في العمل من غير أجر في بيت الملك الريفي أو في أرضه الخاصة. وقد وجد الملاك في كثير من الأحيان أن من مصلحتهم أن يعتقوا العبيد ويجعلوهم زراعاً من هذا النوع، وأخذ هؤلاء الملوك في القرن الثالث يزدادون رغبة في سكنى بيوتهم الريفية يدفعهم إلى هذا أخطار الغزو الأجنبي والثورات الداخلية في المدن، وحصنوا بيوتهم فاستحالت قلاعاً منيعة أصبحت بالتدريج قصور العصور الوسطى.

وقوى نقص الأرقاء إلى وقت ما مركز العمال الأحرار في الصناعة وفي الزراعة على السواء. ولكن فقر الفقراء لم ينقص على حين أن موارد الأغنياء التهمت الحروب ومطالب الحكومة (22). وكانت الأجور وقتئذ تنراوح بين 6 و 11 في المائة من نظائرها في الولايات المتحدة الأمريكية أوائل القرن العشرين، وكانت الأثمان نحو ثلاثين في المائة من أثمان الولايات المتحدة في ذلك الوقت (23). وكانت حرب الطبقات آخذة في الإشتداد لأن الجيش المجند من فقراء الأقاليم كثيراً ما كان ينظم إلى من يهجمون أصحاب الثروة وكان يشعر بأن ما يؤديه للدولة من خدمات يبرر ما تفرضه عليهم ضرائب تبلغ حد مصادرة أموالهم لتعطي

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> التدهور الاقتصادي

منها هبات لهم. أو أن تنهب أموال الأغنياء نهباً سافراً(24). وتأثرت الصناعة بكساد التجارة ونقصت تجارة الصادر الإيطالية حين انتقلت الولايات من عميلات لإيطاليا إلى منافسات لها؛ وجعلت الغارات والقراصنة لطرق التجارة غير مأمونة كما كانت قبل عهد بمبي، وكان انخفاض قيمة العملة وتقلب الأثمان من العوامل غير المشجعة للمشروعات الطويلة الأجل. ولما أصبحت إيطاليا عاجزة عن توسيع حدود الإمبراطورية، لم يعد في مقدورها أن تزدهر بأن تمد بالسلع دولة أخذت في الاتساع، أو أن تستغل موارد هذه الدولة. وكانت فيما مضى من الأيام تجمع سبائك الذهب والفضة من البلاد المفتوحة، وتملاً خزائنها بما تنهيه من أموال هذه البلاد؛ أما في الوقت الذي نتحدث عنه فإن النقود كانت تهجر الولايات الهلنستية الأكثر تصنيعاً من إيطاليا، وأخذت هي تزداد على مر الأيام فقراً، في الوقت الذي كانت فيه ثروة أسية الصغرى المطردة الزيادة تحتم أن تستبدل بروما عاصمة شرقية للإمبراطورية. واقتصرت المصنوعات الإيطالية على الأسواق المحلية، ووجد الأهلين أفقر من أن يبتاعوا السلع التي كان في وسعهم أن ينتجوها(25). يضاف إلى هذا أن التجارة الداخلية كان يقف في سبيلها قطاع الطرق، والضرائب المترابدة، وتلف الطرق لقلة العبيد وأضحت بيوت الأثرياء في الريف تنتج حاجتها من السلع وتكفي نفسها بنفسها، وحلت المقايضة في التجارة محل النقود، كما حلت الحوانيت الصغيرة عاماً بعد عام محل الإنتاج الكبير وكانت تسد حاجة الإنتاج المحلي بنوع خاص.

وزاد الطين بلة كثرة الصعاب المالية، وذلك بأن المعادن الثمينة أخذت تقل شيئاً فشيئاً لأن مناجم الذهب في تراقية ومناجم الفضة في أسية تناقص إنتاجها وكانت داشيا وما فيها من الذهب توشك أن تخرج من يد أورليان. وكانت الفنون والحلي تستنفذ كثيراً من الذهب والفضة. وواجه الأباطرة من سبتيوس سيفيرس ومن جاءوا بعده هذا النقص الشديد في الوقت الذي كانت فيه الحروب

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> التدهور الاقتصادي

لا تخبو نارها أبداً، فلجئوا أكثر من مرة إلى إنقاص نسبة ما في النقود من ذهب أو فضة لكي يستطيعوا القيام بنفقات الدولة أو حاجات الحروب. فقد كان ما في الدينار من معدن خسيس أيام نيرون عشرة في المائة، وبلغ في عهد كمودس ثلاثين، وفي عهد سبتيوس خمسين، واستبدل به كركلا الأنطوننيانوس Antoninianis المحتوي على خمسين في المائة من وزنه فضة؛ وقبل أن يحل عام 260 نقصت نسبة ما فيه من فضة إلى خمسة في المائة(26). وأصدرت دور السك الحكومية كميات لم يسبق لها مثيل من العملة الرخيصة، وكثيراً ما كانت الدولة ترغم الناس على أن يقبلوا هذه النقود بقيمتها الاسمية، بدل قيمتها الحقيقية، وكانت في الوقت نفسه تأمر بأن تؤدى الضرائب ذهباً أو عينا(27). وأخذت الأثمان ترتفع ارتفاعاً سريعاً، فزادت في فلسطين إلى ألف في المائة من القرن الأول إلى القرن الثالث(28). وفي مصر لم يعد في مقدور الحكومة وقف تيار التضخم، حتى صار مكيال القمح الذي كان يباع بثمان درخمت في القرن الأول يباع بمائة وعشرين ألف درخمة في أواخر القرن الثالث(29). ولم تصل الحال في الولايات

الأخرى مثل هذا الحد، ولكن التضخم في عدد كبير منها خرب بيوت الكثيرين من أهل الطبقة الوسطى وأضاع أموال الموائقات والمؤسسات الخيرية وزرع قواعد جميع الأعمال المالية، فأحجم الناس عنها، وأضاع جزءاً كبيراً من رؤوس الأموال المستخدمة في التجارة والاستثمار والتي تعتمد عليها حياة الإمبراطورية. ولم يكن الأباطرة الذين جاؤوا بعد برتناكس ليسوءهم انعدام طبقة الأشراف وطبقة الملاك الوسطى على هذا النحو. ذلك بأنهم كانوا يشعرون بحقد طبقة أعضاء مجلس الشيوخ وكبار التجار عليهم بسبب أصلهم الأجنبي، واستبدادهم العسكري، واغتصابهم أموالهم. ولذلك تجددت الحرب بين مجلس الشيوخ والأباطرة وكانت قد خبت نارها من عهد نيرون إلى عهد أورليوس؛ وأقام الأباطرة سلطانهم

صفحة رقم : 4043

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> التدهور الاقتصادي

قاصدين متعمدين على ولاء الجيش، وصعاليك المُدن، والفلاحين يشترونه بالهبات والأعمال العامة وتوزيع الحبوب عليهم من غير ثمن. وعانت الإمبراطورية من البلاء مثلما عانتها إيطاليا وإن نقص عنه بعض الشيء. نعم إن قرطاجنة وشمال أفريقيا البعيدين عن الغزاة، قد ازدهرتا، ولكن مصر اضمحلت بسبب ما حل بها من الخراب الناشئ من تنازع الأحزاب، ومن مذابح كركلا، ومن غزو زنوبيا، ومن فدح الضرائب، ومن السخرة والتراخي في العمل، وما كانت تبتزّه روما من الحبوب في كل عام. وكانت أسية الصغرى وسوريا قد قاستا الأمرين من الغزو والنهب، ولكن صناعاتهما القديمة التي تعودت الصبر على الشدائد لم تقض عليها هذه الاضطرابات. وكانت بلاد اليونان، وثرافية، ومقدونية، قد خربها البرابرة، ولم تكن بيزنطية قد أفأقت من حصار سبتموس. ولما جاءت الحرب بالحاميات الرومانية وبالْمون إلى حدود القبائل الألمانية، قامت مدائن جديدة على شواطئ الأنهار - ويانة، وكارلزبرج، وستراسبرج ومينز. وكانت غالة قد اضطرب فيها النظام، وفترت همة أهلها بسبب غزو الألمان لها. ذلك بأنهم نهبوا ستين مدينة من مُدنها، وأخذت الكثرة الغالبة من المُدن والبلدان الأخرى تنكش داخل أسوارها الجديدة، وتتخلى عن طراز الشوارع العريضة المستقيمة الرومانية التخطيط والطرز، لتحل محلها الأزقة الضيقة غير المستقيمة التي يسهل الدفاع عنها والتي كانت من مميزات العهود القديمة والعصور الوسطى. وحتى في بريطانيا نفسها، كانت رقعة المُدن أخذة في النقصان وكانت بيوت الريف أخذة في الاتساع(30)؛ ذلك بأن حروب الطبقات والضرائب الفادحة بددت الثروة أو اضطرتها إلى الاختفاء في الريف. وقصارى القول أن الإمبراطورية بدأت بسكنى المُدن وبالتحضير، وها هي ذي تختتم حياتها بالعودة إلى الريف وبالهمجية.

صفحة رقم : 4044

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الوثنية تحتضر

الفصل الرابع

الوثنية تحتضر

يمكن القول بوجه عام أن الضعف الثقافي سار في إثر الضعف الاقتصادي والسياسي، ولكن حدث في هذه السنين البائسة أن نشأ علم الجبر ذو الرموز، وبرزت أعظم الأسماء في فقه القانون الروماني، وأروع نماذج النقد الأدبي القديم، وطائفة من أفخم المباني الرومانية، وأقدم قصص الحب، وأعظم الفلاسفة الصوفيين. ويلخص الديوان اليوناني سيرة ديوفانتس Diophantus الإسكندري (250) تلخيصاً جبرياً فكها فيقول إن حداته دامت سدس حياته، وإن لحيته نبئت بعد أن انقضى 12\1 من عمره بعد سن الحدائة، وأنه تزوج بعد أن مضى 7\1 آخر من حياته، وأنه رزق بولده بعد خمس سنين أخرى، وإن هذا الولد عاش حتى بلغت سنه نصف سن أبيه، وإن الوالد مات بعد أربع سنين من موت الولد - أي إنه مات في سن الرابعة والثمانين، وأشهر ما بقي من مؤلفاته حتى الآن هو كتابه "الارثماتيقي Arithmetica" (الحساب) - وهو رسالة في الجبر. وفيه حل لمعادلات الدرجة الأولى، والمعادلات التي تؤدي إلى معرفة المجهول، والمعادلات التي لا يكن منها وحدها معرفة المجهول حتى الدرجة السادسة. وقد استخدم حرف سجا sigma اليوناني للدلالة على الكمية المجهولة التي نرملها نحن بحرف سين (وفي الانجليزية بحرف X)، وسمى هذه العلامة أرثمس Arithmos (أي العدد)، واستعمل حروف الهجاء اليونانية للدلالة على الأسس. وكان جبر من نوع ما معروفاً قبل أيامه: فقد اقترح أفلاطون لتدريب عقول الشبان وتسليتهم مسائل متنوعة كتوزيع تفاعلة بنسب معينة على عدد

صفحة رقم : 4045

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الوثنية تحتضر

من الأشخاص (32)؛ وأذاع أرخميدس أغازاً من هذا النوع في القرن الثالث قبل الميلاد، وكان المصريون واليونانيون يحلون بعض المسائل الهندسية بالطرق الجبرية دون الالتجاء إلى رموز علم الجبر. وأكبر الظن أن ديوفانتس لم يفعل أكثر من تنظيم طرق كان يعرفها معاصروه (33)، وإن مصادفات الزمن هي التي أبقت على أعماله؛ وفي استطاعتنا أن نرجع إليه عن طريق العرب تلك الطريقة الجريئة الغامضة التي تهدف إلى صياغة جميع النسب الكمية في العالم كله في قانون واحد.

وعلا نجم بابنيان، وبولس وألبان، أعظم الأسماء الثلاثة في القانون الروماني في عهد سبتيموس سيفيرس، وكانوا كلهم رؤساء الحرس البريتوري وكانوا بحكم منصبهم هذا رؤساء الوزارة في الدولة؛ وكانوا كلهم يبررون قيام الحكم المطلق بحجة أن الشعب قد عهد لحقوقه في السيادة إلى الإمبراطور، ويمتاز كتابا بانينان الأسئلة Questiones والأجوبة Responsa بوضوحهما، وإنسانيتهما وعدالتهما إلى حد جعل جستنيان يعتمد عليها في كثير من مجموعاته القانونية. ولما قتل كركلا جيتاً أمر بابنيان أن يكتب دفاعاً قانونياً عن عمله هذا، فأبى بابنيان وقال إن "قتل الاخوة أسهل من تبرير هذا القتل". فأمر كركلا بقطع رأسه. ونفذ الجنود الأمر فقطع رأسه ببلطة في حضرة الإمبراطور.

وواصل دومنيوس البيانس جهود بابنيان القضائية والإنسانية. وسخر جهوده القضائية للدفاع عن العبيد لأنهم في رأيه أحرار بالفطرة، وعن النساء لأن لهن مثل ما للرجال من الحقوق (34)، وكانت كتاباته في جوهرها تنسيقاً لأعمال من سبقوه شأنها في هذا شأن جميع الأعمال الهامة في تاريخ القضاء؛ ولكن أحكامه كانت بائنة جازمة إلى حد أبقي على ما يقرب من ثلثها في ملخص، ويقول عنه لمبرديوس: "لم يبلغ الإمبراطور الإسكندر سفيرس ما بلغه من سمو المنزلة إلا لأنه كان يحكم أكثر ما يحكم وفقاً لنصائح البيان" (35). بيد أن البيان قد عمل على قتل بعض

صفحة رقم : 4046

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الوثنية تحتضر

معارضيه، ومن أجل هذا فإن بعض أعدائه من رجال الحرس قتلوه في عام 288 انتقاماً منهم. وكانت أسباب قتله أقل انطباقاً على القانون من قتل معارضيه ولكنه أدى إلى نفس النتيجة. وشجع دقلديانوس مدارس القانون وأمدّها بالمال، وألف لجاناً لتقنين ما سنّ بعد تراجع من شرائع، وجمعها كلها في القانون الجريجزياني Codex Gregorianus. ثم أتت على فقه القانون سنة من النوم دامت إلى أيام جستنيان. وسار فن التصوير في القرن الثالث على الأنماط التي كان يسير عليها في بمبي والإسكندرية، والقليل الذي أبقى عليه الزمان فج، كاد الدهر أن يبليه. أما البحث فكان مزدهراً لأن الكثيرين من الأباطرة كانوا يطلبون أن تحت لهم تماثيل، غير أنه جمد حتى أصبح المنظر الأمامي للشخص المصور بدائي الطراز، ولكن هذا العصر لم يفقه أي عصر بعده فيما أخرجه من صور تدهش الناظر إليها بصدقها وواقعيّتها. ومما يدل على فضل كركلا، أو يدل على غباوته، أنه جاز لمثال أن يصوره في صورة شخص فظ، أكرث الشعر متجهّم الوجه، وهي الصورة المحفوظة إلى الآن في متحف نابلي. ولدينا تماثلان ضخمان من تماثيل ذلك العصر هما الثور الفرنيزي وهرقول الفرنيزي، وكلاهما مبالغ في حجمه، متوترة عضلاته توتراً غير مستحب، ولكنهما يشهدان بما كان في هذا العصر من إتقان فني لم ينقص قط عن إتقان العصور السابقة. ومما يدل على أن المثاليين كانوا لا يزالون قادرين على النمط القديم تلك النقوش البارزة الناطقة بالعبفة والطهارة والتي نراها على تالوث الإسكندر سفيرس وهي تالوث لدوفيزي. غير أن النقش الذي على قوس سبتميوس سفيرس في روما ليس فيه شيء مما يمتاز به الفن الأنكي من بساطة وظرف، بل يتصف بالخشونة والقوة الواضحتين اللتين تكادان تتبئان بعودة البربرية إلى إيطاليا. وسار فن العمارة بالنزعة الرومانية التي ترى السمو في ضخامة الحجم إلى أقصى

صفحة رقم : 4047

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الوثنية تحتضر

حد. فأقام سبتميوس على تل البلاطين آخر ما أقيم عليه من القصور الإمبراطورية وضم إليها جناحا جهة الشرق يعلو في الجو سبعة طباق - وهو المعروف بالسبتزونيوم Septizonium. وقدمت جوليا دمنا ما يلزم من المال لإنشاء إيوان فستا، وإقامة هيكل فستا الصغير الذي لا يزال باقياً في السوق العامة. وشاد كركلا لسرييس زوج إيزيس ضريحاً ضخماً احتفظ الزمان بقطع جميلة منه إلى اليوم. ومن أعظم خرائب العالم روعة حمامات كركلا التي تم بناؤها في عهد الاسكندر سفيرس. نعم إنها لم تضاف شيئاً جديداً إلى هندسة البناء، لأنها تسير في جوهرها على طراز حمامات طراجان، وكان البناء الضخم القائم يعبر أحسن تعبير عن صاحبها قائل جيتا وبارنيان. وكان بناؤها الرئيسي المكون من الأجر والإسمنت المسلح يشغل 270.000 قدم مربعة - أي أكبر من مسطح مجلس البرلمان الإنجليزي وبهر وستمستر مجتمعين. وكان درج حلزونية تؤدي إلى أعلى الجدران. وهناك جلس شلى وكتب قصيدة برميثوس الطليق. وكان بداخل الحمامات عدد كبير من التماثيل، ويحمل سقفها 200 عمود منحوتة من الحجر الأصيل والمرمر، والحجر السماقي، وكانت أرض الحمامات وجدرانها المبنية من الرخام مطعمة بمناظر من الفسيفساء، وكان الماء يصب من أفواه ضخمة من الفضة في برك وأحواض تتسع لاستحمام 1600 شخص في وقت واحد. وأنشأ جلييس وديسيوس حمامات مماثلة لهما، وفي هذه الحمامات الأخيرة أقام المهندسون الرومان قبة مستديرة فوق بناء ضخم ذي عشرة أضلاع متساوية وسندوها بدعامات عند زوايا البناء ذي العشر الأضلاع. وهي وسيلة لم تكن تستعمل إلا قليلاً قبل ذلك الوقت ولكنها أصبحت كثيرة الاستعمال في المستقبل. وفي عام 295 شرع مكسميان في بناء الحمام الحار الذي كان أضخم الحمامات الإمبراطورية الحارة الأحد عشر، وسماه حمامات دقلديانوس، وهو تواضع منه لم يكن معروفاً في وقته. وقد أعد لأن يستحم فيه 3600 شخص. وكان به فوق

صفحة رقم : 4048

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الوثنية تحتضر

ذلك مدارس للتدريب الرياضي، وأبهاء للحفلات الموسيقية، وقاعات للمحاضرات: وأنشأ ميكل أنجلو من حجرة واحدة من هذا الحمام كنيسة سانتا ماريا دجلى أنجيلي Santa Maria degli Angeli وهي أكبر كنيسة في إيطاليا بعد كنيسة القديس بطرس. وأنشأت في الولايات مبان لا تقوفا في ضخامتها إلا العمائر السالفة الذكر، وأقام دقلديانوس نفسه كثيراً من المباني في نيقومديا، والاسكندرية، وإنطاكية. وزين مكسميان ميلان وزين جلييريوس سرميوم وجمل قسطنطينوس تريف Treves. وكان الأدب أقل ازدهاراً من العمارة، لأنه قلما كان في مقدوره أن يصل إلى الثروة التي تجمعت في أيدي الأباطرة. ومع هذا فقد زاد عدد دور الكتب ووسعها، وكان لطبيب من أطباء القرن الثالث مجموعة تبلغ 62.000 مجلد، واشتهرت مكتبة البيان بما فيها من المحفوظات التاريخية؛ وبعث دقلديانوس بالعلماء إلى الإسكندرية لينسخوا ما فيها من المخطوطات الأدبية اليونانية والرومانية القديمة، ويأتوا بنسخ منها إلى مكتبات رومة. وكان العلماء كثيرون العدد محبين إلى الأهلين، وقد أشاد فيلوستراتس بذكرهم في كتابه حياة السوفسطانيين؛ وواصل برفيرى عمل أفلوطين، وهاجم المسيحية، وأهاب بالعالم أن يقتصر على أكل الخضر، وحاول أيمبليكس Iamblicus أن يوفق بين الأفلاطونية ومبادئ الديانة الوثنية، وأفلح في ذلك إلى حد استطاع معه أن يوحى بأرائه إلى الإمبراطور جوليان. وجمع ديجين ليرنبوس سير الفلاسفة وأراءهم في مقتطفات وقصص رائعة فانتة، وبعد أن التهم أثينيوس النقراطيسي Athenaeus of Naucratis كل ما في مكاتب الإسكندرية أفرغ كل ما جمعه في كتابه المعروف سوفسطائي مائدة الغداء وهو حوار ممل في الأطعمة، ومرق التوابل، والعاهرات، والفلاسفة والمفردات اللغوية، يخفف من مله ما تجده في بعض أجزاءه من كشف عن عادة قديمة، أو ذكرى عظيم، وكتب لنجينس، وهو كاتب من بلميريا في أغلب

قصة الحضارة -> قيصر و المسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الوثنية تحتضر

الظن، رسالة لطيفة في "السمو" قال فيها أن اللذة الخاصة التي يبعثها الأدب في الإنسان، منشؤها أنها "تسمو" بالفارئ عن طريق الفصاحة التي يستمدّها الكاتب من قوة اقتناعه، وإخلاصه ووفائه لأخلاقه. وشرع ديوكاسيوس ككيانس من أهل نيقية ببيتينيا يكتب تاريخ روما (210؟) وهو في سن الخامسة والخمسين بعد أن قضى حياته يتقلب في مناصب الدولة. وأتم هذا الكتاب في الرابعة والسبعين وقص فيه تاريخ المدينة من روميولوس إلى أيامه ولم يبق من هذا الكتاب إلا أقل من نصف أسفاره الثمانين، ولكن هذه الأسفار الباقية تشمل ثمانين مجلداً ضخماً. ويمتاز هذا العمل باتساع نطاقه أكثر مما يمتاز بعلو صفاته، وفيه قصص واضحة حية، وخطب مبينة، واستنطاقات فلسفية ليست سخيطة المعنى رثة العبارات مستمسكة بالقديم، ولكن النبوءات والنذر تقصد الكتاب كما تقصد كتاب ليفي، وهو مثل كتاب ناستس وصف مطول لمعارضة مجلس الشيوخ؛ وهو كجميع كتب التاريخ الرومانية يعنى أكثر ما يعنى بتقلبات السياسة والحرب كأن الحياة لم تكن في ألف عام إلا ضرائب وموت. وأهم من هؤلاء الرجال الكرام في نظر مؤرخ العقل هو ظهور الرواية الغرامية في هذا القرن. وقد سبقها إعداد طويل تدرج من القبروبيديا لزنزفن، إلى القصائد الغزلية لكلماكس، إلى القصص الخرافية التي تجمعت حول الاسكندر، و"الحكايات الميليثية" التي يرويها أوستيديدز وغيره في القرن الثاني قبل الميلاد وما تلا ذلك القرن من أجيال. وقد اعجب بهذه القصص

قصة الحضارة -> قيصر و المسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الوثنية تحتضر

التي تروي أخبار المغامرات والحب جمهرة الأيونيين اليونان بتقاليدهم، الشرقيين بمزاجهم، ولعلمهم وقتئذ قد أصبحوا شرقيين بدماهم. وتطورت الرواية المنمقة تطورات شتى على أيدي بترونيوس في رومة وأبوليوس في أفريقية، ولوشيان في بلاد اليونان، وأيمليكس في سوريا، ولم تكن في بادئ الأمر تعنى بالحب عناية خاصة، حتى إذا كان القرن الأول بعد الميلاد امتزجت رواية المغامرات برواية الحب، ولعل هذا الامتزاج كان استجابة منهما لزيادة عدد القارئات من النساء.

وأقدم الأمثلة الباقية من هذه الروايات هي "الأثيوبكا Aethiopica" أو القصص المصرية التي كتبها هليودورس الحمصي، وقد ثار الجدل الكثير حول تاريخ هذه القصص، ولكن في وسعنا أن نعزوها إلى القرن الثالث، وتبدأ بأسلوب خلج عليه قدم العهد ثوباً من الجلال: "أفتر ثغر النهار عن بسماط البهجة، وأرسلت الشمس أشعتها فأنارت قلل التلال، حين وقف جماعة الرجال يبدو من أسلحتهم وظهرهم أنهم قراصنة، وأخذوا ينظرون إلى البحر بعد أن صعدوا إلى قمة أحد المنحدرات المطل على

مصب النيل الهرقليوتي. ولكنهم لم يجدوا هناك شراع سفينة يبشرهم بالغنيمة فوجهوا أبصارهم نحو الشاطئ الممتد من تحتهم، وكان هذا هو الذي رأوه (37).

ونلتقي على حين غفلة بثياجينس Theagenes الشاب الغني الوسيم وبالأميرة كركليا Chsriclea الجميلة الباكية. وكان القراصنة قد قبضوا عليهما، وحلت بهما كثير من ضروب الشدائد المختلفة، من سوء التفاهم، والوقائع الحربية، والقتل واللقاء، تكفي لأن تكون مادة لجميع والقصص التي تصدر في فصل من فصول السنة في هذه الأيام. وتختلف هذه القصة عن قصص بترونيوس وأبوليوس في أن عفة العذارى في رواته هليودورس مسألة غير ذات خطر كبير، ويمر عليها القارئ بسرعة، بينما هي عند بترونيوس وأبوليوس جوهر القصة ومحورها الذي تدور عليه

صفحة رقم : 4051

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الوثنية تحتضر

فترى هليودورس يحافظ على عفة كركليز وينجيهما من عشرات الأخطار ويدبح عدداً من العضات القوية المقنعة في جمال الفضيلة النسوية ووجوب المحافظة عليها. ولعلنا نجد هنا شيئاً من تأثير المسيحية؛ بل إن الرواية المتواترة تجعل مؤلف القصة أسقف سالونيكى المسيحي فيما بعد. ولقد كانت الأثيوبكا، على غير علم أو قصد من مؤلفها، منشأ عدد لا يحصى من الروايات التي نسجت على منوالها؛ فلقد كانت هي أنموذج قصة سرفنتيز Cervontes المسماة Pesileey Sigismunda وقصة كورندا في رواية إنقاذ أورشليم لتاسو، وقصص السيدة ده اسكوديري Mme de Scudery. ففي هذه الرواية نجد جريمة الحب، ودلالته، والتوجع والإغماء، والخاتمة السعيدة التي نجدها في مئات الآلاف من القصص الممتعة؛ وهنا نجد رواية كلارسا هارلو Clarissa Harlowe قبل كاتبها رذشردسن Richardson بألف وخمسمائة عام.

وأشهر قصص الحب جميعها في النثر القديم قصة دفينس وكلوني Daphnis and Chloe. ولسنا نعرف عن مؤلفها إلا اسمه لنجس Longus، كما اننا نظن مجرد ظن أنها ألقت في القرن الثالث بعد الميلاد. وتقول إن دفينس عرض لتقلبات الجو القاسية وقت مولده، وإن راعياً أنقذه وعنى بتربيته وإنه أصبح هو الآخر راعياً. وفي القصة فقرات رائعة في وصف الريف توحى بأن لنجس كشف ما فيه من جمال بعد طول مقامه في المدينة، كما كشفه الشاعر ثيو كرينس الذي نسج هو على منواله. ويحب دفينس فتاة حسناء أنقذت هي الأخرى بعد أن عرضت للجو القاسي في طفولتها. ويرعى الفتى والفتاة قطعانها وتتوثق بينهما عرى الصداقة والألفة، ويستحمان معاً وهما عريانين في طهر وبراعة، ويقبل كلهما الآخر أول قبلة يسكران منها. ويشرح لهما جارسنج نشوة حبهما، ويصف لهما ما لاقاه في أيام شبابه من آلام العشق فيقول: "لم أكن أفكر في طعامي،

صفحة رقم : 4052

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الوثنية تحتضر

ولم أكن أدوق طعم الراحة، وهجر الكرا عيني، وأمضني الحزن، وأسرعت ضربات قلبي، وأحست أطرافي ببرودة الموتى(28). ويعرفهما أبواهما، وكان وقتئذ من أغنياء الناس، ويهبانها الكثير من المال، ولكنهما لا يعبان بالثراء، ويعودان إلى حياة الرعي المتواضعة. والقصة مكتوبة ببساطة الفن الجميل المصقول وقد ترجمها أميو Amyot إلى اللغة الفرنسية السلسلة المطواعة (1559) فكانت هذه الترجمة هي المثال الذي احتذاه سان بيير في بول وفيرجينيا كما أوحى بما لا يحصى من الرسوم والقصائد والقطع الموسيقية. وشبيه بها قصيدة من الشعر تعرف باسم أمسية فينوس. ولا يعرف أحد اسم منشئها أو متى أنشأها، وأغلب الظن أنها من شعر ذلك القرن نفسه(39) وموضوعها هو موضوع خطب لكريشوس التي تمتاز بما فيها من التفات، ورواية لنجس الغرامية - وخلصتها أن ربة الحب تلهب قلوب جميع الأحياء بالرغبة الجامحة، وأنها لهذا السبب هي خالقة العالم الحقّة!

غداً سيحب مَنْ لم يطف به طائف الحب،

غداً سيحب مَنْ ذاق قبل طعم الحب،

لقد أقبل الربيع النظر، أخذ يغني غناء الحب،

وولدت الدنيا من جديد، وها هو ذا حب الربيع،

يدفع كل طير إلى قرينه، وها هي ذي الغابات المترقبة

تنثر غداًها لتستقبل شأبيب الربيع،

غداً سيحب مَنْ لم يطف به طائف الحب،

وسيجب مَن ذاق قبل طعم الحب،

وعلى هذا النحو يسترسل الكاتب في شعره العذب الصافي، ويجد الحب في المطر المخصب وفي أشكال الزهر، وفي أهازيج الأعياد البهجة، وفي التجارب

صفحة رقم : 4053

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الوثنية تحتضر

الصعبة التي يعانيتها الشباب المشتاق، وفي مواعيد اللقاء الوجلة، وسط الغابات، وبعد كل مقطوعة يتردد الوعد القوي الجامع: "غداً سيجب مَن لم يطف به طائف الحب، وسيجب مَن ذاق قبل طعم الحب". وإنا لنجد هنا في آخر القصائد الغنائية الكبرى التي تغنت بها الروح الوثنية الوزن الشعري لترانيم العصور التي تستبق أنغام شعراء الفروسية الغرليين بعدة قرون.

صفحة رقم : 4054

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الملكية الشرقية

الفصل الخامس

الملكية الشرقية

لما مات كلوديوس الثاني أثناء انتشار وباء كان يفتك بالقوط والرومان على السواء (270) اختار الجيش خليفة له ابن فلاح إيراى. وكان دوميتيوس أورليانوس Domitius Aurelianus قد ارتفع من أوطاً الطبقات بقوة الجسم والإرادة؛

وقد لقبوه من قبيل السخرية "يد على سيف" وكان مما يشهد بعودة العقل إلى الجيش أنه اختار رجلاً يطلبه عند غيره من النظام ما يطلبه عند نفسه. وفضل قيادته صد أعداء روما عن حدودها في كل مكان عدا نهر الدانوب، فهناك نزل أورليان عن داشيا للقوط لعلهم بذلك يقفون حاجزاً بين الإمبراطورية وبين غيرهم من البرابرة. ولعل هذا الاستسلام قد شجع الألمان والوندال على غزو إيطاليا، ولكن أورليان انتصر عليهم في ثلاث معارك وشتت شملهم. وكان يفكر في القيام بحملات حربية على أجزاء قاصية، ويخشى أن يهاجم الأعداء روما في أثناء غيابه، فأقنع مجلس الشيوخ بأن يوافق على صرف المال اللازم لبناء أسوار جديدة حول العاصمة، كما أقنع النقابات الطائفية بأن تقوم بهذا العمل وأخذت المدين في جميع أنحاء الإمبراطورية تشييد الأسوار حولها، وكان قيامها بهذا العمل شاهداً على ضعف قوة الرومان وخاتمة السلم الرومانية. ورأى أورليان أن الهجوم أفضل من الدفاع، ولذلك اعتزم أن يعيد مجد الإمبراطورية بالهجوم على زونوبيا في الشرق، ثم على تتريكس Tetricus الذي اغتصب السيادة على غالبية بعد بستيسوس. واسترد بروبس Probus قائد أورليان مصر من ابن زونوبيا في الوقت الذي كان هو نفسه يخترق بجيوشه بلاد البلقان،

صفحة رقم : 4055

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الملكية الشرقية

ويعبر الهلسينت، ويهزم جيش هذه الملكة في حمص ويحاصر عاصمتها. وحاولت الملكة أن تفر، وتستجد بالفرس ولكنها أسرت، واستسلمت المدينة ونجت من التدمير، ولكن لنجينس قُتل (272). وبينما كان الإمبراطور عائداً على رأس جيشه إلى الهلسينت، ثارت تدمر وقتلت الحامية التي تركها فيها. فعاد إليها مسرعاً كسرعة قصير، وحاصر المدينة مرة أخرى واستولى عليها بعد قليل من الوقت، وأباحها الجنود يسلبون ويعيثون فيها فساداً، ودك أسوارها، وقضى مرة أخرى على تجارتها، وتركها تعود قرية صحراوية، وهكذا ظلت من ذلك الحين إلى الوقت الحاضر. وسارت زونوبيا مكبله بالأغلال تزين موكب أورليان وهو داخل منتصر إلى رومة؛ وسمح لها بأن تقضي البقية الباقية من عمرها حرة إلى حد ما في تيبور. وفي عام 274 هزم أورليان تتريكس عند شالون Chalons وعاد بعدئذ إلى غالبية. واغتبطت روما بعودة سيادتها إليها فرحبت بالقائد الظافر ولقبته "مرجع العالم" restitor orbis. ثم وجه عنايته إلى واجبات السلم، فأعاد إلى الإمبراطورية سبباً من النظام الاقتصادي بإصلاح النقد الروماني، وأعاد تنظيم الأداة الحكومية بأن طبق عليها نفس النظام الصارم الذي رد به الحياة إلى الجيش. وكان يعزو بعض ما تعانيه روما من الفوضى الأخلاقية والسياسية إلى تعدد الأديان والمذاهب فيها ويسعى لأن يوحد الأديان القديمة والجديدة ويوجهها إلى عبادة إله واحد هو إله الشمس، والإمبراطور نائبه في الأرض ولما أظهر الجيش ومجلس الشيوخ تشككهما، أبلغهما أن الله، لا اختيارهما، هو الذي جعله إمبراطوراً. وأنشأ في روما هيكلًا للشمس رائع الجمال، كان يرجو أن يمتزج فيه بعل حمص وإله المثراسية. وكانت الملكية المطلقة والتوحد تسيران

صفحة رقم : 4056

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الملكية الشرقية

وقتنز جنبا إلى جنب، وكانت كلتاها تسعى لأن تستعين بالأخرى؛ وكانت سياسة أورليان الدينية توصي بأن قوة الدولة أخذة في الاضمحلال، وأن قوة الدين أخذة في الارتفاع، وقد أصبح الملوك وقتنذ ملوكاً بنعمة الله. وكانت هذه هي فكرة الشرقيين عن الحكومة وهي فكرة وجدت في مصر، وبلاد الفرس، وسوريا؛ فلما قبلها أورليان عجل التيار الذي كان يحول الملكية إلى حكومة شرقية، وهو التيار الذي بدأ من عهد إجابالس وانتهى عن دقلديانوس وقسطنطين. وبينما كان أورليان يقود جيشاً مخترفاً به تراقية ليحسم الأمر بينه وبين فارس إذ اغتاله في عام 275 جماعة من ضباطه لأنهم خدعوا فظنوا أنه ينوي إعدامهم. وارتاع الجيش لكثرة ما ارتكبه هو نفسه من الجرائم فطلب إلى مجلس الشيوخ أن يختار من يخلف الإمبراطور القتيل؛ ولم يكن أحد يرغب في هذا الشرف الذي ينذر بالقتل على الدوام؛ وانتهى الأمر بأن رضي به تاستس لأنه كان وقتنذ في الخامسة والسبعين من عمره. وكان تاستس هذا يدعي أنه من نسل المؤرخ المسمى بهذا الاسم، وكانت تتمثل فيه جميع الفضائل التي كان ينادي بها ذلك الكاتب الموجز المتشائم؛ لكنه قضى نحبه من فرط الأعياء بعد سنة أشهر من جلوسه على العرش، وندم الجند على ندمهم، فعادوا إلى الاستئثار بالسلطة ونادوا ببروبس Probus إمبراطوراً (276).

وكان ذلك اختياراً موفقاً، كما كان بروبس خليفاً باسمه لأنه كان يمتاز بالشجاعة والاستقامة. فقد طرد الألمان من غالة، وطهر إيليرك Illyricum من الوندال، وشاد سوراً بين الرين والدانوب، وأرهب الفرس بكلمة منه، واستمعت الإمبراطورية كلها في أيامه بالسلم؛ وسرعان ما عاهد شعبه على ألا تكون في البلاد أسلحة، ولا جيوش، ولا حروب، وعلى أن يعم الأرض كلها حكم القانون.

صفحة رقم : 4057

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الملكية الشرقية

وبدأ هذه الطوبى بأن أرغم جنوده على أن يصلحوا الأراضي البور، ويجففوا المستنقعات ويغرسوا الكروم، ويقوموا بضروب أخرى من الأعمال العامة. واستاء الجيش من هذا التسامي الذي لم يكن له به عهد، فاغتاله (283)، وحزن عليه؛ وأقام نصباً تذكاريّاً له.

ونادى برجل يدعى ديوقليز Diocles ابن معنوق دلماشي إمبراطوراً على الدولة. وكان ديوقليسيان أو دقلديانوس - وهو الاسم الذي اختاره بعد ذلك لنفسه - قد ارتقى بمواهبه الفذة ومبادئه الأخلاقية المرنة حتى عين، وحاكماً في بعض الولايات، وقائداً لحرس القصر. وكان رجلاً عبقرياً أكثر دراية بشئون الحكم منه بالحرب. وقد جلس على العرش بعد عهد من الفوضى أشد من الفوضى التي عمت البلاد من أيام ابني جراكس إلى أيام أنطونيوس، ولكنه هدأ كل الأحزاب الثائرة المتنافرة، وصد الأعداء عن جميع الحدود، وبسط سلطان الحكومة وقواه، وأقام حكمه على تأييد الدين ورضاء رجاله. وكان ثالث ثلاثة تدين لهم الإمبراطورية بالشيء الكثير - أغسطس وأورليان؛ ودقلديانوس. وأما أغسطس فقد أنشأها، وأما أورليان فقد أنقذها، وأما دقلديانوس فقد نظمها تنظيمًا جديداً.

وكان أول قراراته الحاسمة قراراً كشف عن المستور من أحوال الدولة وعن أفول نجم رومة، فقد هجر المدينة ولم يتخذها عاصمة لملكه، واتخذ مقامه في نيقوميديا وهي مدينة في آسيا الصغرى تبعد عن بيزنطية بقليل من الأميال جهة الجنوب، وظل مجلس الشيوخ يعقد جلساته في روما كما كان يعقدها قبل، وظل القناصل يقومون بمراسمهم المألوفة، وظلت الألعاب الصاخبة تدور كسابق عهدها والشوارع تموج بمن فيها من الناس على اختلاف أجناسهم؛

ولكن السلطة والقيادة قد انتقلتا من هذه المدينة التي أضحت مركز الانحلال الاقتصادي والأخلاقي. وكان الذي دفع دقلديانوس إلى هذا العمل هو الضرورة الحربية. ذلك أنه كان لا بد

صفحة رقم : 4058

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الملكية الشرقية

من الدفاع عن أوربا وآسية، ولم يكن الدفاع عنهما مستطاعاً من مدينة في جنوب جبال الألب وتبعد عن تلك الجبال هذا البعد الشاسع. ولهذا أشرك معه في الحكم قائداً محكناً يدعى مكسميان (286)، وعهد إليه الدفاع عن الغرب؛ ولم يتخذ مكسميان روما عاصمة له بل اتخذ بدلاً منها مدينة ميلان. وبعد ست سنين من ذلك العام اتخذ كلا الأوغسطيين Augusti "قيصرأ" ليساعده في أعباء الحكم وليكون خليفة له من بعده. فاختار دوقليشان جليوريوس Galerius واتخذ هذا عاصمته مدينة سرميوم Sirmium وهي متروفيكا Mitrovica على نهر الساف Save، وعهد إليه حكم ولايات الدانوب؛ وعين مكسميان قنسطنطيوس طلورس Constantius Chlorus (الأصغر) خلفاً له. واتخذ هذا حضرته مدينة أوغسطا ترفوروم Augusta Trevirorum (تريف Treves). وتعهد كل أوغسطس أن يعتزل الملك بعد عشرين عاماً ليخلفه قيصره؛ وكان من حق هذا القيصر أن يعين هو الآخر "قيصرأ" يعاونه ويخلفه. وزوج كل أوغسطس ابنته "بقيصره" فأضاف بذلك رابطة الدم إلى رابطة القانون. وكان دقلديانوس يرجو بذلك أن يسد الطريق على حروب الوراثة، وأن يعيد إلى الحكومة استقرارها ودوامها، وسلطانها، وأن تكون الإمبراطورية متأهبة لملاقاة الأخطار في أربع نقاط هامة، سواء أكانت هذه الأخطار ناشئة من الثورات الداخلية، أم من الغزو الخارجي. لقد كان تنظيمياً باهرأ، جمع كل الفضائل إذا استثنينا فضيلتي الوحدة والحرية. فقد انقسمت الملكية، ولكنها كانت ملكية مطلقة، وكان كل قانون يصدره كل حاكم من الحكام الأربعة يصدر باسمهم جميعاً، ويطبق في أنحاء الدولة، وكان قرار الحكام يصبح قانوناً ساعة صدوره، من غير حاجة إلى تصديق مجلس الشيوخ في روما. وكان الحكام هم الذين يعينون جميع موظفي الدولة، ومدت أداة بيروقراطية ضخمة فروعها في جميع أنحاء الدولة. وأراد دقلديانوس أن يزيد

صفحة رقم : 4059

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> الملكية الشرقية

من قوة هذا النظم فحول عبادة عبقرية الإمبراطور إلى عبادة شخصه بوصفه تجسيدا لجوبيتر، وتواضع لكسمليان فرضي أن يكون هو هرقول؛ وهكذا هبطت الحكمة والقوة من السماء لتعيدا النظام والسلام إلى الأرض، واتخذ دقلديانوس لنفسه تاجاً - عصابة عريضة مرصعة باللالئ - وأثواباً من الحرير والذهب؛ وأحذية مرصعة بالحجارة الكريمة، وابتعد عن أعين الناس في قصره، وحتم على زائريه أن يمروا بين صفين من خصيان التشريفات والحجاب وأمناء القصر ذوي الألقاب والرتب، وأن يركعوا ويقبلوا أطراف ثيابه. لقد كان في الحق رجلاً يعرف العالم حق

المعرفة. وما من شك في أنه كان يضحك في السر من هذه الخرافات والأشكال ولكن عرشه كان يعوزه ما يخلعه الزمان عليه من شرعية، وكان يأمل أن يدعمه وأن يقيم اضطراب العامة وعصيان الجيش بأن يخلع على نفسه مظاهر الألوهية والرهبة. وفي ذلك يقول أورليوس فكتور: "واتخذ لنفسه لقب السيد Dominus، ولكنه كان يسير في الناس سيرة الأب" (40) وكان معنى إقامة هذا الطراز الشرقي من الحكم الاستبدادي على يد ابن عبد رقيق، وهذا الجمع بين الإله والملك في شخص واحد، كان معنى هذا عجز الأنظمة الجمهورية في العهود القديمة، والتخلي عن ثمار معركة مرثون، والعودة إلى مظاهر بلاط الملوك الإكيمينيين، والمصريين، والبطالمة، والبارثيين، والملوك الساسانيين، وإلى النظريات التي كان يقوم عليها حكم هؤلاء الملوك كما عاد الاسكندر إليها من قبل. ومن هذه الملكية الشرقية الصبغة جاء نظام الملكيات البيزنطية والأوربية، وهو النظام الذي ظل قائماً إلى أيام الثورة الفرنسية. ولم يبق بعد هذا إلا أن يتحالف الملك الشرقي في عاصمة شرقية مع دين شرقي. ولقد بدأت الخواص البيزنطية في الظهور أيام دقلديانوس.

صفحة رقم : 4060

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> اشتراكية دقلديانوس

الفصل السادس

اشتراكية دقلديانوس

وسار دقلديانوس في عمله بنشاط لا يقل عن نشاط قيصر، فأخذ يعيد تنظيم كل فرع من فروع الإدارة الحكومية. وبدل أحوال الأشراف بأن رفع إلى طبقتهم كثيرين من الموظفين المدنيين أو العسكريين، وبأن جعلها طبقة وراثية ذات مراتب مختلفة على النظام الشرقي، وألقاب كثيرة، ومراسم معقدة متعددة. وقسم هو وزملاؤه الإمبراطورية إلى ست وتسعين ولاية تتألف منها اثنتان وسبعون أبرشية، وأربع مقاطعات، وعين لكل قسم حاكم مدني وآخر عسكري، وأصبحت الدولة بذلك ذات حكومة مركزية صريحة، ترى أن الاستقلال الذاتي المحلي، وأن الديمقراطية نفسها، ترف لا يصلح إلا لأوقات الأمن والسلم، وتبرر سلطانها المطلق بحاجات الحرب القائمة أو المتوقعة. ودارت رحى الحرب في تلك الأيام فعلاً وأحرزت الدولة فيها انتصارات باهرة؛ فاستعاد قنسطنطيوس بريطانيا التي ثارت عليه، وأوقع جليريوس بالفرس هزيمة منكرة حاسمة أسلموا بعدها أرض النهرين وخمس ولايات وراء نهر دجلة، وصد أعداء رومت عن حدودها جيلاً من الزمان.

وواجه دقلديانوس وأعوانه في زمن السلم المشاكل الناشئة من الانحلال الاقتصادي، فأحل محل قانون العرض والطلب نظاماً اقتصادياً تسيطر عليه الدولة ليتغلب بذلك على الكساد ويمنع نشوب الثورات (41). ووضع نظاماً نقدياً سليماً بأن عين للعملة الذهبية وزناً وقياساً محددين، احتفظت بهما الإمبراطورية الشرقية حتى عام 1453، ووزع الطعام على الفقراء بنص ثمنه في السوق

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> اشتركية دقلديانوس

أو بغير ثمن على الإطلاق، وشرع يقيم كثيراً من المنشآت العامة ليوحد بذلك عملاً للمتعتلين(42)، ووضع عدداً كبيراً من فروع الصناعة والتجارة تحت سيطرة الدولة ليضمن بذلك حاجات المُدن والجيش؛ وبدأ هذه السيطرة الكاملة باستيراد الحبوب فأقنع أصحاب السفن والتجار والبحارة المشتغلين بهذه التجارة أن يقبلوا أشرف الدولة عليها نظير ضمان الحكومة لعدم تعطلهم ولأرباحهم(43). وكانت الدولة من زمن قديم تمتلك معظم مقالع الحجارة، ورواسب الملح، والمناجم، ولكنها خطت في ذلك الوقت خطوة أخرى فحرمت تصدير الملح، والحديد، والذهب، والخمر، والحبوب، والزيت، من إيطاليا، وفرضت نظاماً دقيقاً صارماً على استيراد هذه المواد(44). ثم انتقلت بعد ذلك إلى السيطرة على المؤسسات الصناعية التي تنتج حاجيات الجيش، وموظفي الدولة وبلاط الأباطرة، وحتمت على مصانع الذخيرة، والنسيج، والمخابز ألا يقل إنتاجها عن قدر معين، واشترت هذا القدر بالأثمان التي حددتها هي له، وألقت على جمعيات الصناع تبعات تنفيذ أوامرها ومواصفات منتجاتها، فإذا تبين أن هذه الخطة لم تؤد إلى الغرض المقصود منها أمت هذه المصانع، وجهازها بعمال فرضت عليهم أن يعملوا فيها(45). وبهذا وضعت الكثرة الغالبة من المؤسسات الصناعية والنقابات الطائفية في إيطاليا شيئاً فشيئاً تحت سيطرة الدولة المتحدة في عهد أورليان ودقلديانوس. وخضع القصابون والخبازون، والبنائون، وصناع الزجاج، والحديد، والحفرون خضع هؤلاء جميعاً لنظم مفصلة وضعتها لهم الحكومة(46). ويقول رستوفتريف Rostovizeff إن الهيئات الصناعية المختلفة كانت أشبه بمراقبات صغرى على مؤسساتها تقوم بهذا العمل نيابة عن الدولة وكانت أشبه بهذه المراقبات منها بمالكة المؤسسات. وكانت خاضعة لسلطان موظفي المصالح الحكومية المختلفة، ولقواد الوحدات العسكرية المتباينة(47).

وحصلت جمعيات التجار والصناع من الحكومة على مزايا كثيرة متنوعة،

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> اشتركية دقلديانوس

وكثيراً ما كانت تؤثر تأثيراً كبيراً في خططها؛ وكانت في نظير هذه المزايا وهذا التأثير تعمل كأنها أعضاء في الإدارة القومية، فكانت تساعد الحكومة على وسائل من الإشراف الحكومي شبيهة بهذه الوسائل في القرن الثالث وأوائل القرن الرابع إلى مصانع الأسلحة القائمة في الولايات، وإلى صناعة الأطعمة والملابس. وفي ذلك يقول بول-لوي Paul Louis: "وكان كل ولاية رقيب خاص يشرف على نواحي النشاط الصناعي، وأصبحت الدولة في كل مدينة كبيرة صاحب عمل وذات قوة كبيرة... تسيطر على جميع المصانع الخاصة التي كانت تزرع تحت أعباء الضرائب الفادحة"(49).

ولم يكن مستطاعاً أن يسيطر هذا النظام إلا إذا سيطرت الدولة على أثمان السلع، ولهذا أصدر دقلديانوس وزملاؤه في عام 301 قانون الأثمان الذي حددت به أقل الأثمان والإجور التي يجيزها القانون لجميع السلع أو الخدمات العامة في

جميع أنحاء الإمبراطوري. وهاجم القرار في مقدمته الاحتكارات التي منعت البضائع من السوق في الوقت الذي "قلت فيه السلع" لكي ترتفع أثمانها. "ومن ذا الذي... خلا قلبه من العاطفة الإنسانية فلا يرى أن ارتفاع الأسعار ظاهرة عامة في أسواق مُدُننا، وأن شهوة الكسب لا يحد منها وفرة السلع ولا أعوام الرخاء؟- ولهذا... يرى أشرار الناس أنهم يخسرون إذا ما توافرت الحاجات... إن من الناس مَنْ يجعلون مهمهم الوقوف في وجه الرخاء العام... والجري وراء الأرباح الباهظة القاتلة... لقد عم الشره جميع الجشعون الأثمان، ولم يكتفوا بالحصول على سبعة أضعاف الثمن المعتاد أو ثمانية أضعافه، بل زادوه إلى الحد الذي تعجز الألفاظ عن وصفه، حتى لقد يضطر

صفحة رقم : 4063

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> اشتر اكية دقلديانوس

الجندي إلى دفة مرتبه كله وإعانة الحرب في شراء سلعة واحدة، وبذلك يذهب كل ما يقدمه العالم كله لإمداد الجيش بحاجته في جيوب أولئك اللصوص الجشعين .
ولقد ظل هذا المرسوم حتى وقتنا الحاضر أعظم محاولة في التاريخ كله لاستبدال القرارات الحكومية بالقوانين الاقتصادية. ولكن التجربة أخفقت إخفاقاً عاجلاً كاملاً، فقد أخفى التجار ما عندهم من السلع وشحت البضائع أكثر من ذي قبل، واتهم دقلديانوس نفسه بالتغاضي عن ارتفاع الأسعار(52). وحدثت عدة اضطرابات؛ واضطرت الحكومة إلى التراخي في تطبيق المرسوم لإعادة الإنتاج والتوزيع إلى حالتها الطبيعية(53)، وانتهى الأمر بإلغائه على يد قسطنطين.
وكانت علة ضعف هذا النظام الاقتصادي الخاضع للسيطرة الحكومية

صفحة رقم : 4064

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> اشتر اكية دقلديانوس

هي ما تطلبه تنفيذه من نفقات. فقد بلغت البيروقراطية التي تطلبها تنفيذه من الاتساع درجة وصفها لكتيبيوس بأنها احتاجت إلى نصف السكان؛ ولا شك في أنه بالغ في هذا التقدير مبالغة كان الباعث عليها ميوله السياسية(54)، ووجد الموظفون آخر الأمر أن عملهم هذا مما تنوء به العدالة الإنسانية، وكانت رقابتهم متباعدة يستطيع الناس أن يقتلوا منها بما أوتوا من مكر ودهاء. وارتفعت الضرائب ارتفاعاً لم يكن له مثيل من قبل، وفرضت على كل شيء لأداء أجور الموظفين، ونفقات البلاط، والجيش، وبرنامج المنشآت العامة، وإعالة العجزة والمتعطلين، ولكن الدولة قد كشفت بعد طريقة الاستدانة لتخفي بها إسرافها وتؤجل يوم حسابها، فقد كانت أعمال كل عام ينفق عليها من إيراد العام نفسه، وأراد دقلديانوس أن يحتاط لما عساه أن يحدث من أداء الضريبة بعملة مخفضة، فأمر بأن تؤدى الضرائب عيناً كلما

كان ذلك مستطاعاً، وحتم على دافعي الضرائب أن يودوا ما عليهم إلى مخازن حكومية، ووضع نظاماً شاقاً لنقل هذه الضرائب العينية من هذه المخازن إلى مقرها الأخير (55)، وجعل موظفي البلديات في كل بلدية مسئولين من الوجهة المالية عن كل تقصير في تحصيل الضرائب المفروضة على إقليمهم (56). وإذا كان من طبيعة كل ممول أن يحاول الهروب من أداء ما عليه من الضرائب، فقد أنشأت الدولة قوة خاصة من الشرطة للفحص عن أملاك كل شخص ودخله؛ واستخدمت وسائل التعذيب مع الزوجات، والأطفال، والعبيد لإرغامهم على الكشف عن ثروة بيوتهم أو مكاسبها، وفرضت عقوبات صارمة على من يحاولون الهرب من أداء ما عليهم (57). ومع هذا كله فقد كاد الفرار من الضرائب أن يصبح وباء متفشياً في الإمبراطورية كلها في القرن الثالث، وأضحى أكثر تفشياً في القرن الرابع؛ فكان الأغنياء يخفون ثروتهم، وبدل الأشراف طبقتهم ووضعوا أنفسهم في عداد الطبقة الدنيا حتى لا يُختاروا للوظائف

صفحة رقم : 4065

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> اشتراكية دقلديانوس

البلدية، وهجر الصناعات حرفهم، وترك الزراع أرضهم المثقلة بالضرائب ليصبحوا أجراء عند غيرهم، وأقفرت كثير من القرى وبعض البلدان الكبيرة (مثل طبرية في فلسطين) من أهلها لفدح الضرائب المفروضة عليها (58)، فلما كان القرن الرابع اجتاز عدد كبير من الأهلين حدود الإمبراطورية ولجأوا إلى البرابرة فوراً من الضرائب الفادحة. وأكبر الظن أن الذي حمل دقلديانوس على الالتجاء إلى تلك الأعمال، التي أوجدت واقع الأمر نظام الاسترقاق الإقطاعي في الحقول، والمصانع، والنقابات الطائفية، هو حرصه على منع هذه الهجرة التي تكلف الدولة كثيراً من النفقة، وعلى ضمان ورود العام بانتظام للجيش والمدن، والضرائب لبيت المال. وبعد أن جعلت الحكومة مالك الأرض بما فرضته عليه من الضرائب النوعية مسئولاً عن حسن استغلال مزارعيه لأرضه، قررت أن يبقى الزراع في أرضه حتى يؤدي جميع المتأخر عليه من الديون أو العشور. ولسنا نعرف متى صدر هذا القرار التاريخي، ولكننا نعرف أن قسطنطين سن في عام 332 قانوناً يفترض وجود هذا القرار ويؤكد؛ ويجعل المستأجر "يرتبط كتابة" بالأرض التي يزرعها، لا يستطيع تركها إلا برضاء مالكها، فإذا بيعت الأرض بيع هو وأسرته معها (60). وليس فيما وصل إلينا من المعلومات ما يدل على أن الزراع قد احتجوا على هذه القيود؛ ولعل هذا القانون قد قدم إليه ضماناً لأمنه وسلامته، كما هو حادث في ألمانيا في هذه الأيام. وبهذه الطريقة وأمثالها انتقلت الزراعة في القرن الثالث من الاسترقاق إلى الحرية ثم الاسترقاق الإقطاعي، وبهذا النظام استقبلت العصور الوسطى. واتبعت الصناعة وسائل من هذا النوع ليضمن بذلك استقرارها. فحرم على العمال تغيير عملهم، أو الانتقال من مصنع إلى مصنع إلا بموافقة الحكومة؛ وقصرت كل نقابة طائفية على حرفتها والعمل المقرر لها، وحرم على أي إنسان أن

صفحة رقم : 4066

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> اشتراكية دقلديانوس

يغادر النقابة التي سجل اسمه فيها(61). وألزم كم من يعمل في الصناعة أو التجارة بأن ينضم إلى نقابة من هذه النقابات الطائفية، وحتم على الابن أن يشتغل بحرفة أبيه(62)، فإذا رغب إنسان في أن يستبدل بمكانه أو حرفته مكاناً آخر أو حرفة أخرى ذكرته الدولة بأن إيطاليا يحاصرها البرابرة وأن على كل رجل أو ابن يشتغل بحرفة أن يبقى حيث هو.

ولما استهل عام 305 نزل دقلديانوس ومكسيميان عن سلطتهما باحتفالين مهيبين أقيما في نيقوميديا وميلان، وأصبح جالريوس، وقنسطنطيوس أغسطسين إمبراطورين أولهما للشرق وثانيهما للغرب. ولم يكن دقلديانوس قد تجاوز وقتنذ الخامسة والخمسين من عمره، ولكنه اختفى في قصره الواسع القائم في أسبلاتا Spalata، وقضى فيه الثمانية الأعوام الباقية من حياته. وشهد بعينه انهيار حكومته الرباعية في غمار الحرب الأهلية. ولما أن ألح عليه مكسيميان أن يستولي على أزمة الحكم مرة أخرى، ويقضي على الشقاق والحب، قال إنه لو رأى مكسيميان الكربن الجيد الذي يزرعه في حديقته لما طلب إليه أن يضحى بهذه المتعة جرياً وراء متاعب السلطان(63). والحق أنه كان قميناً بكرنبه وراحته، فقد قضى على الفوضى التي دامت خمسين عاماً وأقر من جديد سلطان الحكومة والقانون، أعاد الاستقرار إلى الصناعة، ورد الأمن إلى التجارة، وأذل فارس، وخضد شوكة البرابرة، وكان بوجه عام مشرعاً أميناً مخلصاً، وحاكماً عادلاً إذا ضربنا صفحاً عن بعض الاغتيالات القليلة التي جرت على يديه. ولسنا ننكر أنه أقام بيروقراطية باهظة الأكلاف، وقضى على الاستقلال الذاتي للولايات، وعاقب معارضييه أشد العقاب، واضطهد الكنيسة التي كان في وسعه أن يتخذها حليفة له فيما بذل من الجهود لإصلاح أحوال الدولة، وجعل سكان الإمبراطورية مجتمعاً من الطبقات، في أحد طرفيه زراع جهلاء وفي طرفه

صفحة رقم : 4067

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انهيار الإمبراطورية -> اشتراكية دقلديانوس

الأخر ملك مستبد مطلق السلطان، ولكن الظروف التي واجهتها روما لم تكن تسمح بانتهاج سياسة تقوم على مبادئ الحرية؛ وقد جرب ماركس أورليوس والكسندر سفيرس هذه السياسة وأخفقا فيها، ورأت الدولة الرومانية نفسها محاطة بالأعداء من كل جانب، ففعلت ما لا بد أن تفعله الأمم جميعها في أوقات الحروب التي يتقرر فيها مصيرها، وقيلت طغيان زعيم قوي، ورضيت أن يفرض عليها ما لا تكاد تطيقه من الضرائب، وتخلت عن الحرية الفردية إلى أن تتال الحرية الجماعية، ولقد قام دقلديانوس بالأعمال التي قام بها أغسطس، وإن كانت قد كلفت أولهما أكثر مما كلفت الآخر، ولكنه والحق يقال قام بها في ظروف أقسى من ظروفه، وقد أدرك معاصروه ومن جاءوا بعده الأخطار التي نجوا منها بفضل جهوده فلقبوه "أبا العصر الذهبي"، وسكن قسطنطين البيت الذي شاده له دقلديانوس.

صفحة رقم : 4068

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> النزاع بين الكنيسة والدولة

الباب الثلاثون

انتصار المسيحية

306 - 325 م

الفصل الأول

النزاع بين الكنيسة والدولة

64 - 311 م

كانت الحكومة الرومانية قبل أيام المسيحية تُظهر في أغلب الأحيان للأديان المعارضة للدين الوثني المقرر تسامحاً تُظهر هذه الأديان مثله للشعائر الرسمية وللإمبراطورية؛ فلم تكن تطلب من أتباع العقائد الجديدة إلا حركة يأتونها من حين إلى حين يمجدون بها الآلهة ورئيس الدولة. ولهذا ألم الأباطرة أن يجدوا أن المسيحيين واليهود، دون سائر أتباع الأديان الخارجة على دين الدولة، هو الذين يأتون أن يعظموا عبقرياتهم. ذلك أن إحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور كان قد أصبح دليل الولاء للإمبراطورية وتوكيداً لهذا الولاء، فهو من هذه الناحية أشبه ما يكون بيمين الولاء التي تُطَب إلى من ينالون حق المواطنة في هذه الأيام. لكن الكنيسة كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة، وترى في عبادة الإمبراطور نوعاً من الشرك وعبادة الأصنام، ولذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما ينلهم من الأذى بسبب هذا الرفض. واستندت الحكومة الرومانية من هذا على أن المسيحية

صفحة رقم : 4069

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> النزاع بين الكنيسة والدولة

حركة متطرفة - بل لعلها حركة شيوعية - تعمل في السر على قلب النظام القائم. وقد استطاعت القوات قبل عهد نيرون أن تعيشاً معاً من غير أن يشتجر بينهما النزاع؛ وكان القانون يعفي اليهود من أن يعبدوا الإمبراطور؛ ونال المسيحيون في أول أمرهم هذه الميزة لأنهم لم يكن يُستطاع التفريق بينهم وبين اليهود. ولكن مقتل بطرس وبولس، وحرق المسيحيين ليزيد حرقهم ألعاب نيرون بهاء، بدلا هذا التسامح المتبادل المشوب بالاحتقار من الجانبين عداً دائماً، وحرماً تتدلج نارها بين الفينة والفينة. فلا غرابة أن وجه المسيحيون بعد هذا الإيذاء، أسلحتهم كلها إلى صدر روما - فنددوا بما فيها من فساد وعبادة للأصنام، وسخروا بالهتها، وأظهروا الشماتة فيها حين حلت بها الكوارث(1)، وتنبؤوا بسقوطها بعد زمن قليل، وأعلنوا؛ في حماسة الدين الذي أخرجهم عن تسامحه عدم تسامح الدولة معه، أن كل مَنْ أتاحت لهم الفرصة لاعتناق المسيحية ثم لم يعتنقوها سيعذبون عذاباً أبدياً؛ وقال الكثيرون منهم إن هذا سيكون أيضاً مصير كل الخلائق الذين وجدوا قبل المسيحية ثم لم يعتنقوها لأي سبب من الأسباب، وإن كان بعضهم قد استثنى سقراط وحده من العذاب. وردّ الوثنيون على هذا بأن سماوا المسيحيين "حثة الناس" و "برابرة الوقحين"، واتهموهم بأنهم "أعداء الجنس البشري" وقالوا أن الكوارث التي حلت بالإمبراطورية ليست إلا نتيجة غضب الآلهة الوثنية والسماح لمن يسبونها من المسيحيين بأن يبقوا أحياء(2). وأخذ كل فريق يفترى على الآخر آلاف الافتراءات، فاتهم المسيحيون بأنهم سحرة متصلون بالشياطين، وأنهم يقترفون الخطايا سراً، ويشربون دماء الأدميين في عيد الفصح(3)، ويعيدون الحمار. لكن النزاع كانت له أصول أعمق من هذا الخصام. ذلك أن الدولة كانت أسا الحضارة الوثنية في حين أن الدين كان هو أساس الحضارة المسيحية. فالروماني كان ينظر إلى دينه أنه جزء من كيان الحكومة

صفحة رقم : 4070

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> النزاع بين الكنيسة والدولة

وشعائرها، وكانت الوطنية هي الذروة التي تنتهي عندها مبادئه الأخلاقية العليا. أما المسيحي فكان ينظر إلى دينه على أنه شيء منفصل عن المجتمع السياسي، وأنه أسمى من هذا المجتمع مقاماً، وكان يدين أعظم الولاء للمسيح لا لقيصر، وقد وضع ترتليان المبدأ الثوري بأن الإنسان غير ملزم بأن يطيع قانوناً يعتقد أنه ظالم(4)؛ وكان المسيحي يعظم أسقفه، بل يعظم قسيسه، أكثر من تعظيمه الحاكم الروماني، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحيين من مشاكل قانونية على رؤساء الكنيسة لا على موظفي الدولة(5). وكان اعتزال المسيحي للشئون الدنيوية يبدو للوثني كأنه هروب من الواجبات المدنية وضعف للروح القومي والإرادة القومية. وأشار ترتليان على المسيحيين بأن يرفضوا الخدمة العسكرية؛ وعمل عدد كبير منهم بنصيحته كما يدل على ذلك نداء سلسس لهم بأن يضعوا حداً لهذا الرفض، ورد أرجن عليه بأن المسيحيين سيدعون للإمبراطورية وإن أبوا أن يحاربوا من أجلها(6)، وكان زعماء المسيحيين يحرضونهم على أن يتجنبوا غير المسيحيين، وأن يبتعدوا عن الألعاب الهمجية التي يقيمونها في أعيادهم، وألا يعيشوا دور تمثيلهم لأنها مباحة للفجور(7)، وحرّم على المسيحي أن يتزوج بغير مسيحية، وعلى المسيحية أن

تتزوج بغير مسيحي، واتهم الوثنيون العبد المسيحيين بأنهم يبذرون بذور الشقاق في الأسر بتحريضهم أبناء أسيادهم وزوجاتهم على اعتناق الدين المسيحي؛ واتهم الدين المسيحي بأنه يعمل لتشتيت شمل الأسر وخراب البيوت (8). على أن معارضة الدين الجديد قد جاءت من قبل الشعب أكثر مما جاءت من قبل الدولة. ذلك أن الحكام كانوا في كثير من الأحيان رجالاً مثقفين متسامحين، ولكن جمهور السكان الوثنيين قد ساءهم عزلة المسيحيين، وتعاليمهم، وثقتهم بأنفسهم، وأهابوا بحكامهم أن يعاقبوا أولئك الملحدون الذين يهينون الآلهة. ويشير ترتليان إلى "الكراهية العامة التي يحسون بها نحونا" (9).

صفحة رقم : 4071

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> النزاع بين الكنيسة والدولة

ويلوح أن للقانون الروماني منذ أيام نيرون كان يعد الجهر بالمسيحية جريمة يعاقب عليها بالإعدام (10)، ولكن معظم الأباطرة كانوا يتغاضون عن تنفيذ هذا القانون متعمدين (11)، فكان في وسع المسيحي إذا اتهم بمخالفته أن ينجو عادة من العقاب بحرق البخور أمام تمثال الإمبراطور، ويبدو أنه كان يُسمح له بعد ذلك أن يمارس شعائر دينه غير مضيق عليه (12). أما المسيحيون الذين يرفضون تقديم هذا الولاء للإمبراطور فكانوا يسجنون، أو يجلدون، أو ينفون، أو يحكم عليهم بالعمل في المناجم، أو بالإعدام في حالات نادرة. ويبدو أن دومتيان نفى بعض المسيحيين من روما ولكنه "وهو الرجل الرحيم إلى حد ما، لم يلبث أن وقف ما بدأه" (13). ونقذ بلني هذا القانون مدفوعاً إلى ذلك بفضل الرجل الهاوي الذي يبغى إظهار سلطانه على الناس (111)، إذا جاز أن نحكم عليه من رسالته التي بعث بها إلى تراجان: "إن الطريقة التي اتبعتها مع من اتهموا أمامي بأنهم مسيحيون هي هذه: لقد سألتهم هل هم مسيحيون؟ فإذا اعترفوا بأنهم كذلك أعدت السؤال عليهم مرة أخرى، وأندرتهم في الوقت نفسه بأنهم سيقتلون إذا أصروا على قولهم، فإذا أصروا عليها أمرت بقتلهم... إن الناس بعد أن هجروا المعابد، فلا يكادون يطرقونها، قد أخذوا الآن يعودون إليها... وكثير الطلب على الضحايا من الحيوانات بعد أن قل الإقبال على شرائها". وقد رد عليه تراجان بقوله: "إن الخطة التي سرت عليها يا عزيزي بلني في بحث حالات من اتهموا أمامك بأنهم مسيحيون خطة حكيمة... يجب ألا تجد في البحث عن

صفحة رقم : 4072

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> النزاع بين الكنيسة والدولة

هؤلاء الناس، ولكن إذا ما بلغت أمرهم وثبتت من جرمهم فعاقبهم، فإذا أنكر الواحد منهم أنه مسيحي وأيد ذلك... بالابتهاال إلى آلهتنا فاعف عنه... فإذا بلغت عن أحدهم ولم يذكر في البلاغ اسم المتهم فلا تتخذة بيعة على أحد" (14).

وتوحي الفقرة التي أثبتتها هنا بخط الرقعة بأن ينفذ القانون القائم من قبل أيامه إلا مكرهاً، ولكننا مع ذلك نسمع عن شهيدين بارزين في أيام زعامته: أحدهما سمعان رئيس كنيسة أورشليم، وثانيهما أغناطيوس أسقف إنطاكية، وأكبر الظن أنه قد استشهد غيرهما ممن هم أقل منهما شهرة.

وأمر هديران المتشكك الذي يتسع عقله لقبول كل الآراء، موظفيه بأن يفسروا كل شك في مصلحة المسيحيين (15)، أما انطونينس، الذي كان أكثر منه استمساكاً بدينه، فقد أباح اضطهادهم أكثر من هديران. وحدث في أزمير أن طالب الغوغاء فليب حاكم ولاية أسية ألا يتهاون في تنفيذ القانون، فأجابهم إلى ما طلبوا وأمر بإعدام أحد عشر من المسيحيين في المجتلد (155). ولكن هذا لم يطفئ من تعطش الغوغاء للدماء بل زادهم ظمأً إليه، فأخذوا يطالبون بإعدام الأسقف بوليكارب وهو أب ورع في السادسة والثمانين من العمر قيل إنه في أيام صباه كان يعرف القديس يوحنا، وقد وجد الجنود الرومان هذا الشيخ في بيت في ضاحية من ضواحي المدينة، فجاؤا به إلى الوالي وهو يشهد الألعاب دون أن يبدي الرجل أية مقاومة. وألح عليه فليب أن "أقسم اليمين، وسب المسيح، وسأصفي عنك". ويقول أقدم سفر من أعمال الشهداء إن بوليكارب أجابه بقوله: "لقد ظلت خادماً له سنًا وثمانين سنة، لم يسيء لي فيها إلي قط، فكيف إذا أسب ملكي الذي أنجاني؟" ونادا الغوغاء بأنه ينبغي أن يحرق حياً. وتقول الوثيقة التي فاض بها قلب مفعم بالتقوى والإيمان إن النار

صفحة رقم : 4073

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> النزاع بين الكنيسة والدولة

كانت برداً وسلاماً عليه، بل كان فيها كالخبز الذي يخبز، وقد فاحت منه رائحة ذكية كالتي تنبعث من البخور أو غيره من الأفاوية الغالية. وأمر الطغاة آخر الأمر سياتاً أن يجهز عليه بسيفه؛ فلما فعل خرجت منه يمامة، وخرج دم بلغ من غزارته أن انطفأت منه النار وأثار ذلك دهشة الجماهير كلها" (16).

وتجدد الاضطهاد في عهد أورليوس الورع. ذلك أنه لما حلت بالبلاد الكوارث من فيضان، ووباء، أو حرب في حكمه الذي كان في أول أمره حكماً موفقاً سعيداً، ساد الاعتقاد بأن سبب هذه الكوارث هو إهمال آلهة الرومان أو إنكارها، وشارك أورليوس الجماهير في ذعرها، أو لعله خضع لها، فأصدر في عام 177 مرسوماً يقضي بعقاب الشيع الدينية التي تنشر الاضطراب "باستئثار أصحاب العقول غير المترنة" بتلقينها عقائد جديدة، وثارَت الجماهير الوثنية في تلك السنة نفسها ثورة عنيفة على المسيحيين في فينا وليون ورجموهم بالحجارة كلما تجرعوا على الخروج من بيوتهم.

وأمر المرسوم الإمبراطوري بالقبض على زعماء المسيحيين في ليون، ومات الأسقف يوثينس، وهو شيخ في سن التسعين، في السجن من آثار التعذيب. وأرسل رسول إلى روما ليسأل الإمبراطور عما يشير به في معاملة سائر المسجونين، فأشار ماركس بأن يطلق سراح من ينكر الدين المسيحي، وأن يقتل من يعتنقه كما يقضي بذلك القانون. وكان أهل ليون يحتفلون وقتئذ بعيد الأوغسطاليا كعادتهم في كل عام، وأقبلت الوفود من جميع بلاد الغالة حتى ازدحمت بهم عاصمة الولاية. وبينما كانت الألعاب قائمة على قدم وساق جيء بالمسيحيين المتهمين إلى المدرج ووجهت إليهم الأسئلة، فأما من أنكروا فقد أخرجوا من المدرج، وأصر سبعة وأربعون على الاستمساك بدينهم "فقتلوا بعد أن ذاقوا من ألوان العذاب ما لا مثيل له إلا في أيام محاكم التفتيش. من ذلك أن أتلس الذي يلي يوثينس في المراتب الكهنوتية قد أرغم على الجلوس على كرسي من الحديد المحمي الذي شوى جسمه وأزرق

صفحة رقم : 4074

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> النزاع بين الكنيسة والدولة

روحه (17). وظلت بلندينا Blandina، وهي أمة صغيرة السن، تعذب يوماً كاملاً، ثم ربطت في زكبية، وألقيت في المجتاد ليفتك بها ثور وحشر، وتحملت الفتاة عذابها وهي صامتة، ولذلك اعتقد كثيرون من المسيحيين أن المسيح كان يُفقد شهادته قوة الإحساس بالألم؛ ولعل النشوة الدينية والخوف هما علة عدم الإحساس. وفي ذلك يقول ترتليان: "إن المسيحي كان يلهج بالشكر حتى حين يُحكم عليه بالإعدام".

وخفت حدة الاضطهاد في عهد كمودس، ثم عاد إلى ما كان عليه في عهد كبتيموس سفيرس، وبلغ من شدته أن كان التعميد نفسه يُعد جريمة تستحق العقاب، وفي عام 203 استشهد كثيرون من المسيحيين في قرطاجنة ومن هؤلاء أم في مقبل العمر تدعى بربتوا Berpetua تركت وراءها وصفاً يفتت الأكياد لأيامها التي قضتها في السجن، ورجاء أبيها لها أن تتكر الدين المسيحي. وقد أقيت هي وأم شابة أخرى إلى أحد الأتوار الوحشية وافترسهما الثور. ولدينا في أحد أسئلتها الأخيرة "حين ألقى بها إلى الثيران" دليل على ما يحدثه الخوف والغيوبية من تخدير. ونصف لنا قصتها كيف وجهت بنفسها إلى عنقها خنجر المجالد الذي أمر على الرغم منه أن يقتلها (19). ولم تكن الإمبراطورات السوريات اللاني جلسن على العرش بعد سبتيموس يعنين كثيراً بالآلهة الرومانية. ولقيت المسيحية في أيامهن شيئاً من التسامح الناشئ من عدم اهتمامهن بأمرها: ويبدو أن السلم قد سادت جميع الأديان المتنافسة في أيام ألكسندر سفيرس. وانتهت الهدنة بتجدد هجمات البرابرة. وإذا شئنا أن نفهم الاضطهاد في عهد

صفحة رقم : 4075

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> النزاع بين الكنيسة والدولة

ديسيوس (أو أورليوس) على حقيقته وجب علينا أن نصور لأنفسنا أمه منهمكة في حرب عوان، تزعجها الهزائم المنكرة، وتتوقع أن يغزو بلادها الأعداء، وتجنح الإمبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية في عام 249؛ ويهرع الرجال والنساء إلى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون إليها بالصلاة والدعوات؛ وفي وسط هذه الحمى التي تتأجج فيها نيران الوطنية والخوف، يقف المسيحيون عن بعد وقفة المشاهدين الذين لا يعنيه الأمر، ويظنون كسابق عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها (20)، ويسخرون من الآلهة، ويفسرون انهيار الإمبراطورية بأنه هو البشرى التي وردت في النبوءات عن تدمير "بابل" وعودة المسيح. وأراد ديسيوس أن يتخذ من حال الشعب النفسية فرصة يستعين بها على تقوية روح الحماسة الوطنية والوحدة القومية فأصدر مرسوماً يطلب فيه إلى جميع سكان الإمبراطورية أن يتقدموا إلى آلهة روما بعمل يتقربون به إليها ويردون به غضبها. ويلوح أن المسيحيين لم يُطلب إليهم أن ينكروا دينهم بل أمروا أن يشتركوا في التوسل إلى الآلهة التي طالما أنجبت روما من الخطر المحدق بها كما يعتقد العامة. واستجابت كثرة المسيحيين إلى هذا الأمر؛ ففي الإسكندرية "كانت الردة عامة" على حد قول الأسقف ديونيشيوس (21)؛ وحدث ذلك بعينه في قرطاجنة وأزمير؛ وأكبر الظن أن المسيحيين من أهل تلك المدن وأمثالها كانوا يرون أن هذا التوسل لا يُعد وأن يكون نوعاً من الوطنية، ولكن أسقفي أورشليم وإنطاكيا قضيا نحبهما في غياهب السجن، وأعدم أسقفا روما وطولوز (250)، وألقي مئات من المسيحيين الرومان غياهب الجب، وقُطعت رؤوس بعضهم، ومات الكثيرون منهم على قوائم الإحراق، وألقي عدد قليل منهم إلى الوحوش في حفلات الأعياد،

وخفت حدة الاضطهاد بعد عام من ذلك الوقت، ولم يحل عيد الفصح في عام 251 حتى انتهى أمرها أو كاد. وبعد ست سنين من ذلك الوقت أمر فليريان، في خلال أزمة أخرى من أزمات الغزو والرعب،

صفحة رقم : 4076

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> النزاع بين الكنيسة والدولة

أن "يمثل كل شخص للشعائر الرومانية، وحرّم كل الاجتماعات المسيحية، وعصى البابا سكستس Sixtus هذا الأمر فأعدم هو وأربعة من شمامسته، وكذلك قطع رأس سيريان أسقف قرطاجنة، وحرق أسقف طراقونة حياً، وفي عام 261 نشر جالينوس، الذي جلس على العرش بعد أن أزال عنه الفرس فليريان، أول مرسوم يقضي بالتسامح الديني اعترف فيه بأن المسيحية من الأديان المسموح بها وأمر أن يرد إلى المسيحيين ما صودر من أملاكهم، وحدثت اضطهادات خفيفة في السنين الأربعين التالية، ولكن هذه السنين كانت في معظمها سني هدوء ونماء سريع للمسيحية لم ترَ لها مثيلاً من قبل، فقد كان الناس في خلال الفوضى والرعب السائدين في القرن الثالث يفرون من الدولة الواهية المزعزة الأركان إلى الدين يجدون فيهم سلوهم، وقد وجدوا هذه السلوى في المسيحية أكثر مما كانوا يجدونها في غيرها من الأديان المنافسة لها واعتنق المسيحية وقتئذ عدد من الأغنياء، فشادت كنائس فخمة، وأجازت لأبنائها أن يستمتعوا بطيبات العالم، وخبث نار الأحقاد الدينية بين الأهلين، وأصبح المسيحيون أكثر حرية في الاختلاط بالوثنيين بل انهم تزوجوا منهم، وبدا أن ملكية دقلديانس الشرقية قدر لها أن تعزز الأمن والسلام في الدين وفي السياسة على السواء.

بيد أن جليريوس كان يرى أن المسيحية هي آخر العقبات القائمة في سبيل السلطة المطلقة، فأخذ يحرض رئيسه على أن يجعل العودة إلى العهود الرومانية السابقة عودة كاملة، وذلك بإرجاع الآلهة الرومانية إلى منزلتها القديمة. وتردد دقلديانوس في الأخذ بهذه المشورة، لأنه كان عازفاً عن ركوب أخطار لا موجب لها، ولأنه كان أكثر من جليريوس تقديراً لتقل العبء. ولكن حدث في يوم من أيام القربان الإمبراطورية أن رَسَمَ المسيحيون علامة الصليب ليتقوا شر الشياطين الخبيثة؛ ولما أن عجز العرافون عن أن يجدوا في أكباد الحيوانات المذبوحة العلامات التي كانوا يرجون تفسيرها ألقوا الذنب على وجود أشخاص

صفحة رقم : 4077

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> النزاع بين الكنيسة والدولة

كفار نجسين، فأمر دقلديانوس أن يقرب جميع الحاضرين القرابين إلى الآلهة أو يجلدوا، وأن يمثل جميع جنود الجيش لهذا الأمر أو يفصلوا من الخدمة (302). ومن أغرب الأشياء أن الكتاب المسيحيين يتفقون هنا مع الكهنة الوثنيين فيقول لكتنتيوس (Lactantius 22) إن صلوات المسيحيين أبعدت الآلهة الرومانية، وكتب الأسقف

ديونيشيوس بهذا المعنى ذاته قبل ذلك بجيل. ولم يترك جليريوس فرصة إلا انتهزها للقول بأن الوحدة الدينية ضرورية لتدعيم الملكية الجديدة، وما زال يلح على دقلديانوس حتى خضع له في آخر الأمر. وأمر الحكام الأربعة في عام 303 أن تهدم كل الكنائس المسيحية، وأن تحرق الكتب المسيحية، وتُحل المجتمعات المسيحية وتصادر أملاكها، ويُحرم المسيحيون من جميع المناصب العامة، ويعاقب بالإعدام مَنْ يُضبط منهم في أي اجتماع ديني. وبدأت كتيبة من الجند هذا الاضطهاد بإحراق كنيسة نقوميديا وتدميرها عن آخرها.

وكان المسيحيون وقتئذٍ من الكثرة بحيث يستطيعون رد العدوان بمثله، فقامت حركة ثورية في سوريا، وأضرمت بعضهم النار مرتين في قصر دقلديانوس بنقوميديا، واتهم جليريوس المسيحيين بجريمة الحرق عمداً، واتهموه هم بنفس التهمة، وقبض على مئات من المسيحيين وعذبوا، ولكن الجريمة لم تثبت على أحد وصادر دقلديانوس في شهر سبتمبر أمراً بأن يطلق سراح المسجونين من المسيحيين الذين يعبدون الآلهة الرومانية، أما من يرفض ذلك منهم فلتسلط عليه جميع أنواع العذاب التي تعرفها روما. فلما قاوم المسيحيون هذه الأوامر بازدياد استنشاد غضباً من هذه المقاومة، وأمر جميع كبار الحكام في الولايات بأن يبحثوا عن كل مسيحي، وأن يستخدموا معه كل وسيلة مستطاعة لإرغامه على استرضاء الآلهة. ولعله قد سره أن يترك هذه المقامرة التعسة إلى مَنْ يخلفه فاعتزل الملك.

صفحة رقم : 4078

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> النزاع بين الكنيسة والدولة

ونفذ مكسميان هذا المرسوم في إيطاليا تنفيذاً عسكرياً كاملاً صارماً. وشجع جليريوس بعد أن صار أغسطس الاضطهاد في الشرق بجميع وسائل التشجيع، فزاد عدد الشهداء في كل جزء من أجزاء الإمبراطورية عدا غالة وبريطانيا، حيث اكتفى قنسطنطيوس بإحراق عدد قليل من الكنائس. ويؤكد لنا يوسبيوس، ولعله يفعل ذلك في سورة الغضب، أن الناس كانوا يُجلدون حتى تنفصل لحومهم عن عظامهم، أو أن لحمهم كان يقشر عن عظامهم بالأصداف، وكان الملح أو الخال يصب في جروحهم، ويُقطع لحمهم قطعة قطعة ويرمى للحيوانات الواقفة في انتظارها، أو يُشدون إلى الصليبان فتنهش لحومهم الوحوش الجياع جزءاً جزءاً. ودست عصى حادة الأطراف في أصابع بعض الضحايا تحت أظافرهم، وسملت أعين بعضهم، وعلق بعضهم من يده أو قدمه، وصُلب الرصاص المصهور في حلق البعض الآخر، وقطعت رؤوس بعضهم أو صلبوا، أو ضربوا بالعصى الغليظة حتى فارقوا الحياة؛ ومزقت أشلاء البعض بأن شددت أجسامهم إلى غصون أشجار تثبت ثنياً مؤقتاً (23). وقد وصل إلينا علم ذلك كله عن المسيحيين أما الوثنيون فلم ينقلوا إلينا شيئاً من هذه الأخبار.

ودام الاضطهاد ثمانية أعوام، وهلك بسببه نحو ألف وخمسمائة من المسيحيين، بعضهم من أتباع الدين القويم، وبعضهم من الملاحدة، وقاسى عدد آخر يخطئه الحصر ألواناً مختلفة من العذاب. وارتد الآف من المسيحيين عن دينهم؛ وتقول بعض الروايات أن مرسلينس Marcellinus أسقف روما نفسه أرغم بضروب من الإرهاب والتعذيب على أن يرتد عن دينه، ولكن معظم مَنْ نالهم الاضطهاد ثبتوا على دينهم؛ وكان منظر استبسالم في الإخلاص لدينهم، أو كانت أخبار هذا الاستبسالم؛ رغم ما قاسوه من ألوان العذاب، كان هذا وذلك سبباً في شد عزيمة المترددين، وضم أنصار جدد للجماعات الدينية المضطهدة. وأثارت ضروب الاضطهاد الوحشي المتزايدة الرحمة في قلوب الأهلين الوثنيين؛ ووجد الصالحون في نفوسهم من الشجاعة ما دفعهم إلى التصريح بمقتهم لهذا الظلم الذي

صفحة رقم : 4079

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> النزاع بين الكنيسة والدولة

لم يكن له مثيل في التاريخ الروماني كله. لقد كان الشعب في الأيام الخالية يدفع الدولة إلى القضاء على المسيحية؛ أما الآن فقد وقف الشعب بعيداً عن الحكومة، وعرض كثيرون من الوثنيين أنفسهم للموت بحماية المسيحيين أو إخفائهم حتى تتجلى هذه العاصفة (24). وقد انجلت فعلاً في عام 311، ففي ذلك العام أصدر جليريوس مرسوماً بالتسامح مع المسيحيين واعترف فيه بالمسيحية ديناً مشروعاً، وطلب إلى المسيحيين أن يدعوا له في صلواتهم نظير "رحمتنا التي وصلت إلى أقصى حدود الرقة" (25). وكان الباعث له على إصدار هذا المرسوم رجاء زوجته وتوسلها له أن يصلح إليه المسيحيين الذي لم يهزم؛ وكان جليريوس، وقتئذ يشكو من داء عضال، ويوقن بإخفاقه في القضاء على المسيحية. وكان اضطهاد دقلديانوس أشد ما ابتليت به الكنيسة المسيحية، كما كان في الوقت نفسه أعظم انتصار نالته على أعدائها. نعم إن هذا الاضطهاد أضعفها إلى حين، بعد أن خرج منها بعض من انضموا إليها أو نشئوا في أحضانها خلال خمسين عاماً من أعوام الرخاء لم يتعرض لهم فيها أحد بسوء؛ ولكن سرعان ما أخذ المرتدون يتوبون عن ذنبهم ويطلبون العودة إلى حظيرتها، ذلك أن أخبار وفاء الشهداء الذين قضوا نحبتهم، أو عذبوا في سبيل دينهم، أخذت تنتشر من مكان إلى مكان. ونسجت حول أعمال الاستشهاد هذه قصص خيالية مبالغ فيها مثيرة للعواطف محركة للنفوس، كان لها شأن أيضاً شأن في إحياء العقيدة المسيحية، وتثبيت دعائمها. وفي ذلك يقول ترتليان "إن دم الشهداء هو البذور" التي نبتت منها المسيحية (26). وليس في تاريخ البشرية قصة أعظم روعة من فئة قليلة من المسيحيين توالى عليها ضروب الظلم والازدراء على يد سلسلة طويلة من الأباطرة، لكنها صبرت على هذه المحن جميعها واستمكت بدينها، وتضاعف عددها وهي هادئة ساكنة، تقيم النظام وقت أن كان أعداؤها ينشرون الفوضى، تصد القوة بالقوة، والوحشية بالأمل، ثم هُزم آخر الأمر أقوى دولة عرفها التاريخ. لقد التقى قيصر والمسيح في المجتلد، فانتصر المسيح على قيصر.

صفحة رقم : 4080

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين

الفصل الثاني

قسطنطين

شهد دقلديانوس، وهو هادئ في قصره بدلماشيا، فشل الاضطهاد والحكومة الرباعية، ذلك أن الإمبراطورية لم تشهد قط في أيامها السابقة ما شهدته من الاضطراب بعد نزوله عن العرش. وقد استطاع جليوريوس أن يقنع قنستططوس بأن يعين سفيرس ومكسمينس دازا "قيصرين" (305). وما لبث مبدأ الوراثة أن أخذ يثبت دعواه، فقد رغب مكسنتيوس Maxentius بن مكسميان أن يخلف أباه في سلطانه، وثارت هذه الرغبة نفسها في قلب قسطنطين. وكان فلافيوس فليوريوس قنستططينس قد بدأ حياته في نايسس Naissus ابناً غير شرعي لقنستططوس من محظيته الشرعية هلينا، خادمة إحدى الحانات في بيتينيا(27). فلما أصبح قنستططوس قيصرأ طلب إليه دقلديانوس أن يتنحى عن هلينا ويتزوج بثيودورا ربيبة مكسميان. ولم يتلق قنستططين من العلم إلا قليلاً، فقد انخرط في سلك الجندي في سن مبكرة، وأظهر بسالته في الحروب التي قامت ضد مصر وفارس: ولما خلف جليوريوس دقلديانوس أبقى الضابط الشاب بالقرب منه ليكون رهينة لديه يضمن به حسن مسلك قنستططوس. ولما طلب إليه قنستططوس أن يرسل إليه الشاب، تكلأ جليوريوس في إجابته إلى طلبه وأظهر في ذلك كثيراً من الدهاء ولكن قسطنطين فر من حراسه؛ واخترق أوربا راكباً ليلاً ونهاراً لينضم إلى أبيه في بولوني Boulogne، ويشترك معه في حرب ضد بريطانيا. وكان جيش غالة شديد الولاء لقنستططوس لما كان يتصف به من الرحمة، ولما أبصر ابنه الوسيم، الشجاع، النشط، أحبه حباً جماً؛ ولما مات والده في يورك (306York)؛ لم يكتفِ الجند بأن ينادوا قسطنطين

صفحة رقم : 4081

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين

"قيصرأ" فحسب بل نادوا به أغسطساً - إمبراطوراً. لكنه رضي بأصغر اللقبين بحجة أنه لن يأمن على حياته إذا لم يكن وراءه جيش يحميه. ولم يستطع جليوريوس أن يتدخل في الأمر لبعده، فاعترف به "قيصرأ" وهو كاره. وحارب قسطنطين الفرنجة الذين غزوا الإمبراطورية وانتصر عليهم وأطعم وحوش المدرج الغالي ملوك البرابرة. وفي هذه الأثناء نادى الحرس البريتوري في رومة بمكسنتيوس إمبراطوراً. لأنه كان يتوق لعودة الزعامة إلى العاصمة التليدة (306). وانقضّ عليه سفيرس من ميلان وهاجمه. وضاعف مكسميان الاضطراب والفوضى فعاد إلى لبس الأرجوان إجابة لطلب ولده، واشترك في الحرب التي شبت نارها وقتنذ. وتخلّى جنود سفيرس عنه وقتلوه (307)؛ وأراد جليوريوس، وكان في ذلك الوقت شيخاً طاعناً في السن أن يقوي مركزه ليواجه الفوضى التي أخذت تضرب أطنابها في البلاد، فعين أغسطساً جديداً - فلافيوس ليسنيوس Flavius Licinius، فلما سمع قسطنطين بهذا اتخذ لنفسه أيضاً هذا اللقب (307)؛ وبعد سنة واحدة لقب مكسمنيوس دازا نفسه باللقب عينه، وبهذا أصبح في الإمبراطورية ستة أعاطسة بدل الاثنين اللذين كانا على عهد دقلديانوس، ولم يكتفِ واحد منهم بأن يكون قيصرأ فقط. وتنازع مكسنتيوس مع والده، وذهب مكسميان إلى غالة ليستغيث بقسطنطين، وقد كان وقتنذ يحارب الألمان على ضفاف الرين. وحاول مكسميان أن يكون هو قائد الجيوش الغالية بدله، واخترق قسطنطين غالة بجيشه، وحاصر المغتصب في مرسلينا، وأسره، وتفضل عليه بأن أجاز له أن ينتحر (310). وأزال موت جليوريوس الحاجز الأخير بين الدسائس والحرب، فانتم

صفحة رقم : 4082

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين

مكسينس ومكسنتيوس للقضاء على ليسنيوس و قسطنطين، وائتمر الثانيان للقضاء على الأولين. ورأى قسطنطين أن يكون هو البادئ بالعمل، فعبر جبال الألب، وهزم جيشاً لعدويه قرب تورين Turin، وزحف على روما بسرعة مدهشة ونظام عسكري يذكران الإنسان بزحف قيصر من الريبكون Rubicon، والتقى في السابع والعشرين من شهر أكتوبر عام 312 بقوى مكسنتيوس عند سكسا ربرا Saxa Rubra (الصخور الحمراء) التي تبعد تسعة أميال عن روما جهة الشمال، وأفلح بخطته الحديثة الفائقة أن يرغم عدوه على أن يقاثل ونهر التيبر من ورائه، وليس له من طريق يسلكه إذا تقهقر إلا أن يعبر جسر ملفيوس (28) إن قسطنطين شاهد بعد ظهر اليوم الذي دارت فيه المعركة صليباً ملتهباً في السماء وعليه تلك العبارة اليونانية En touti mika ومعناها "بهذه العلامة أنتصر". وفي صباح اليوم الثاني - كما يقول يوسبيوس ولكتيوس (31) رأى قسطنطين فيما يرى النائم أن صوتاً يأمره بأن يرسم جنوده حرف X على دروعهم وفي وسطه خط يقطعه وينتهي حول أعلاه - علامة الصليب. فلما استيقظ من نومه صنع بما أمر وخاض المعركة خلف لواء "عرف من ذلك الوقت باسم اللبارم Labarum" رسم عليه الحرفان الأولان من لفظ المسيح يربطهما صليب. ولعل حقيقة الأمر أن قسطنطين رأى أن يربط حظه بحظ المسيحيين حين رأى مكسنتيوس يرفع لواء مثراس أورليان، وهو لواء الشمس التي لا تقهر. وكان عدد جنوده المسيحيين وقتئذ كبيراً، وبهذا جعل هذه المعركة نقطة التحول

صفحة رقم : 4083

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين

في تاريخ الأديان. ولم يكن الصليب يسيء إلى جنود قسطنطين من عبّاد مثراس، لأنهم طالما حاربوا تحت لواء يحمل شعاراً مثراسياً من الضوء (32). ومهما يكن من شيء فقد انتصر قسطنطين في واقعة جسر ملفيوس وهلك مكسنتيوس هو وآلاف من جنوده في نهر التيبر، ودخل القائد الظافر روما وحبته المدينة وأصبح سيّد الغرب بلا منازع. وتقايل قسطنطين وليسنيوس في ميلان في أوائل عام 313 لينسقا حكمهما: وأراد أولهما أن يجعل تأييده للمسيحيين عاماً يشمل الولايات جميعها، فأصدر هو وليسنيوس "مرسوم ميلان" يؤكدان فيه التسامح الديني الذي أعلنه جليريوس ووسعا نطاقه حتى شمل الأديان كلها، ويأمران بأن يعاد إلى المسيحيين ما انتزع من أملاكهم في أثناء الاضطهاد الأخير. وعاد قسطنطين للدفاع عن غالة بعد هذا الإعلان التاريخي الذي كان في واقع الأمر اعترافاً بهزيمة الوثنية؛ واتجه ليسنيوس نحو الشرق ليكيل الضربات إلى مكسينس (313). كلن مكسينس مات بعد قليل من ذلك الوقت. فأصبح قسطنطين وليسنيوس حاكمي الإمبراطورية لا ينازعهما فيها منازع وتزوج ليسنيوس أخت قسطنطين، واختبأ الشعب الذي ملّ الحروب بمخايل السلام البادية في الأفق. ولكن كلا الحاكمين لم يفارقه قط أملهم في أن يكون صاحب السيادة وحده على الدولة جميعها؛ ووصل العداء المتزايد بينهما في 313 إلى امتشاق الحسام، فغزا قسطنطين باثونيا، وهزم لينسيوس، واضطر إلى أن يسلم له جميع أملاك الدولة الرومانية في أوربا ما عدا تراقية. وانتقم ليسنيوس من المسيحيين المؤيدين لقسطنطين بالعودة إلى اضطهادهم في أسية ومصر؛ فطرد المسيحيين من قصره في نقوميديا، وحتم على كل جندي أن يعبد الآلهة الوثنية، وحرّم اجتماع الرجال والنساء في أثناء العبادات المسيحية، ثم حرم آخر الأمر

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين

جميع الشعائر المسيحية داخل المدينة، وأمر بطرد مَنْ عصى من المسيحيين من خدمة الحكومة وحرمانهم من حق المواطنة، ومن أملاكهم، أو حريتهم أو حياتهم. وظل قسطنطين يتربص الفرصة التي تمكنه من إنقاذ المسيحيين في بلاد الشرق ومن إضافة الشرق نفسه إلى أملاكه. وأتيح له هذه الفرصة حين غزا البرابرة تراقية وعجز ليسنيوس عن الزحف لملاقاتهم، فسار قسطنطين على رأس جيشه إلى تسالونيكي لينفذ ولاية ليسنيوس من الغزاة. فلما أن صد البرابرة احتج ليسنيوس على دخوله تراقية، وتجددت الحرب بين الملكين لأن كليهما لم يكن يجنح للسلم. والتقى حامي المسيحية ومعه 130.000 من رجاله بحامي الوثنية على رأس 160.000 في أدرنة أولاً ثم في كريسوبوليس Chrysopolis (أشفودرة)، وانتصر وأصبح وحده إمبراطوراً على الدولة الرومانية (323). استسلم ليسنيوس بعد أن وعده قسطنطين بالعفو عنه، ولكنه أعدم في السنة الثانية متهماً بأنه عاد إلى دسائسه. واستدعى قسطنطين المنفيين من المسيحيين، وأعاد إلى كل "المؤمنين" ما فقدوه من الامتيازات والممتلكات. ومع أنه كان لا يزال يُعلن أن الناس كلهم أحرار فيما يعبدون، فقد أعلن وقتئذ صراحة اعتناقه الدين المسيحي، ودعا رعاياه أن ينهجوا نهجه في اعتناق الدين الجديد.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والمسيحية

الفصل الثالث

قسطنطين والمسيحية

ترى هل كان قسطنطين حين اعتنق المسيحية مخلصاً في عمله هذا؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية، أو هل كان ذلك العمل حركة بارعة أملت عليه حكمته السياسية؟ أكبر الظن أن الرأي الأخير هو الصواب (33). لقد اعتنقت أمه هيلينا الدين المسيحي حين طلقها قنسطنطيوس؛ ولعلها أفضت إلى ولدها بفضائل المسيحية، وما من شك في أنه تأثر بما ناله

من انتصارات في المعارك الحربية التي خاض غمارها مستظلاً بلواء المسيح وصلبيه. ولكن المتشكك وحده هو الذي يحتال هذا الاحتيال على استخدام مشاعر الإنسانية الدينية لنيل أغراضه الدنيوية. ويقول صاحب كتاب تاريخ أغسطس Historia Augusta على لسانه: "إن الحظ وحده هو الذي يجعل الإنسان إمبراطوراً" (34) - وإن كان قوله هذا تواضعاً منه لا اعتقاداً بسيطرة الظروف على مصائر الناس. وقد أحاط نفسه في بلاطه ببلاذ غالة بالعلماء والفلاسفة الوثنيين (35)؛ وكلما كان اعتناقه دينه الجديد يخضع لما تتطلبه العبادات المسيحية من شعائر وطقوس، ويتضح من رسائله التي بعث بها إلى الأساقفة المسيحيين أنه لم يكن يعني بالفروق اللاهوتية التي كانت تضطرب لها المسيحية - مع أنه لم يكن يتردد في القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية. وقد كان في أثناء حكمه كله يعمل الأساقفة على أنهم أعيان السياسيين؛ فكان يستدعيهم إليه، ويرأس مجالسهم، ويتعهد بتنفيذ ما تقره أغلبيتهم من آراء. ولو أنه كان مسيحياً حقاً أولاً وحاكماً سياسياً بعدئذ؛ ولكن الآية انعكست في حال قسطنطين، فكانت المسيحية عنده وسيلة لا غاية.

صفحة رقم : 4086

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والمسيحية

ولقد شهد في حياته كيف أخفق الاضطهاد ثلاث مرات، وانطبع في نفسه بلا ريب انتصار المسيحية رغم كل اضطهاد. نعم إن أتباع هذا الدين كانوا لا يزالون قلة في الدولة، ولكنهم كانوا إذا قيسوا إلى غيرهم قلة متحدة، مستبسلة قوية، على حين أن الأغلبية الوثنية كانت منقسمة إلى عدة شيع دينية، وكان فيها عدد كبير من النفوس التي لا عقيدة لها ولا نفوذ في الدولة. وكان المسيحيون كثيرين في روما بنوع خاص في عهد مكسنطيوس، وفي الشرق في أيام ليسنيوس؛ وقد أفاد قسطنطين من تأييد المسيحية اثنا عشر فيلقاً لاقى بها هذين القائدين. ولقد اعجب بجودة نظام المسيحيين إذا قيسوا بغيرهم من سكان الإمبراطورية، وبمتانة أخلاقهم، وحسن سلوكهم، وبجمال الشعائر المسيحية وخلوها من القرايين الدموية، وبطاعة المسيحيين لرؤسائهم الدينيين، وبرضاهم صاغرين بفوارق الحياة رضاء مبعثه أملهم في أنهم سيحظون بالسعادة في الدار الآخرة. ولعله كان يرجو أن يظهر هذا الدين الجديد أخلاق الرومان. ويعيد إلى الأسرة ما كان لها من شأن قديم، ويخفف من حدة حرب الطبقات، وقلما كان المسيحيون يخرجون على الدولة رغم ما لاقوه من ضروب الاضطهاد الشديد، ذلك بأن معلمهم قد غرسوا في نفوسهم واجب الخضوع للسلطات المدنية، ولقنوهم حق الملوك المقدس. وكان قسطنطين يأمل أن يكون ملكاً مطلق السلطان، وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين، وقد بدا له أن النظام الكهنوتي وسلطان الكنيسة الدنيوي يقيمان نظاماً روحياً يناسب نظام الملكية، ولعل هذا النظام العجيب بما فيه من أساقفة وقساوسة، يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها. لكن قسطنطين اضطرب إلى أن يتحسس كل خطوة يخطوها بحذر، لأن الوثنية كانت هي الغالبة على العالم الذي يعيش فيه. ولذلك ظل يستخدم ألفاظاً توحيدية يستطيع أن يقبلها كل وثني، وقام خلال السنين الأولى من سلطانه

صفحة رقم : 4087

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والمسيحية

المفرد في صبر وأناة بجميع المراسيم التي يتطلبها منه منصب الكاهن الأكبر، والتي تحتمها عليه الطقوس التقليدية، وجدد بناء الهياكل الوثنية، وأمر بممارسة أساليب العرافة؛ واستخدم في تدشين القسطنطينية شعائر وثنية ومسيحية معاً، واستعمل رقى سحرية وثنية لحماية المحاصيل وشفاء الأمراض(36). ولما توطدت دعائم قوته أخذ يجهر تدريجياً بمحاباة المسيحية، فمحا بعد عام 317 من نقوده واحدة بعد واحدة ما كان على وجهها من صور وثنية، ولم يحل عام 323 حتى كان كل ما عليها من الرسوم نقوشاً محايدة لا هي مسيحية ولا وثنية. ومن المراسيم القانونية الباقية من عهده مرسوم مشكوك فيه ولكنه لم يثبت كذبه، يخول الأساقفة المسيحيين حق الفصل فيما يقوم في أبرشياتهم من منازعات قضائية(37)، وأعفت قوانين أخرى أملاك الكنيسة العقارية من الضرائب(38) وجعلت الجماعات المسيحية شخصيات معنوية قضائية، وأجازت لها امتلاك الأرض وقبول الهبات، وجعلت الكنيسة هي الورثة لأمالك الشهداء الذين لم يعقبوا ذرية(39). وكذلك وهب قسطنطين أموالاً إلى الجامع الدينية المحتاجة إليها، وشاد عدداً من الكنائس في القسطنطينية وغيرها من المدن، وحرّم عبادة الأوثان في عاصمته الجديدة. وكأنه نسي مرسوم ميلان فحرّم اجتماع الشيع الدينية الملحدة، وأمر آخر الأمر بتدمير مجامعهم الدينية(40)، وربى أبناءه تربية مسيحية سليمة، وأعان بالمال أعمال البر المسيحية التي كانت تقوم بها أمه. وابتهجت الكنيسة بهذه النعم التي فاقت كل ما كانت تتوقعه؛ وكتب يوسيبوس صحائف كانت في واقع الأمر عقود مدح لقسطنطين وإقراراً بفضله، واحتشد المسيحيون في جميع أنحاء الإمبراطورية ليعبروا عن شكرهم لانتصار إلههم. غير أن سحباً ثلاثاً كذرت صفو ذلك اليوم الذي "لا سحاب فيه".

صفحة رقم : 4088

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والمسيحية

تلك هي انشقاق الاديرة، والانشقاق الدوناني، والإلحاد الأريوسي. وكانت الكنيسة، في الفترة الواقعة بين اضطهادي ديسيوس ودقلديانوس، قد أضحت أغنى الهيئات الدينية في الإمبراطورية، وخففت من هجماتها على الثراء. فترى سبريان يشكو من أن أبناء أبرشيته قد أضل حب المال عقولهم، ومن أن النساء المسيحيات يصيغن وجوههن، وأن الأساقفة يتولون مناصب في الدولة تدر عليهم المال الكثير، فأثروا، وأقرضوا المال بربا فاحش، وارتدوا عن دينهم إذا بدت لهم أول علامة من علامات الخطر(41)، ويبيدي يوسيبوس حزنه من تناحر القساوسة في تناقضهم على المناصب الكنسية العليا(42). وقصارى القول أن الدنيا جعلت المسيحيين رجال دنيا في الوقت الذي هدت فيه المسيحية العالم إلى ذلك الدين؛ وأظهرت الدنيا ما في الفطرة البشرية من غرائز وثنية. وقامت الرهينة المسيحية احتجاجاً على هذا التوفيق المتبادل بين الروح والجسم. ذلك أن أقلية من المسيحيين كانت ترغب في الابتعاد عن كل طاعة للشهوات البشرية، وتطالب بالاستمرار على الانهماك المسيحي القديم في التفكير في الحياة الأبدية الخالدة. وجرى بعض هؤلاء الزهاد على الكلبيين فتخلوا عن جميع أملاكهم، وارتدوا ثوب الفلاسفة الخلق، وعاشوا على ما يقدم لهم من صدقات. وذهب بعضهم ليعيشوا بمفردهم في الصحراء المصرية كما فعل بولس الناسك. وحدث حوالي عام 275 أن بدأ راهب مصري يدعى أنطونيوس ربع قرن من حياة العزلة قضى بعضها أولاً في قبر، وبعضها في حصن جبلي مهجور، وبعضها الآخر في فجوة ضيقة نحتها في الصخور، كانت تتتابه فيها أثناء الليل

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والمسيحية

رؤى مخيفة وأحلام لذيدة تغلب عليها كلها، حتى اشتهر بالقداسة، وامت هذه الشهرة جميع أنحاء العالم المسيحي، وعمرت الصحراء بالنساك المنافسين له. وأحس باخوميوس في عام 325 أن اعتزال الناس أنانية فجمع الزهاد في دير عند طابين في مصر، وأنشأ الرهبنة الجماعية التي صار لها أعظم الأثر في بلاد الغرب. وقاومت الكنيسة حركة الرهبنة وقتاً ما، ثم رضيت بها لتوازن اهتمامها المتزايد بشؤون الحكم.

وقبل أن يمضي عام واحد على اعتناق قسطنطين المسيحية حدث فيها انشقاق شديد الخطورة كاد يقضي عليها في ساعة النصر. ذلك أن دوناتس Donatus أسقف قرطاجنة، يؤيده قسطنطين اسمه كاسمه ومزاجه كمزاجه، أصر على أن الأساقفة الذين أسلموا الكتاب المقدس لرجال الشرطة الوثنيين قد فقدوا بعملهم هذا أهليهم لمنصبهم وسلطتهم، وأن شعائر التعميد ورسامة القساوسة التي تجري على أيدي هؤلاء الأساقفة باطلة، وأن صحة العشاء الرباني يقف بعضها على الحالة الروحية للقائم بخدمته. ولما رفضت الكنيسة العمل بهذه العقائد الصارمة نصب الدوناتيون أساقفة جدد في كل مكان رأوا أن الأسقف الذي لا تنطبق عليه شروطهم، وحزن قسطنطين أشد الحزن لما أعقب هذه الحركة من فوضى وعنف، وقد كان يظن أن المسيحية ستكون قوة تعمل على الوحدة؛ ولعله قد تأثر بعض التأثير بالحلف الذي عقد إلى حين بين الدوناتيين وبين القائمين بالحركة المتطرفة بين الزراع الأفريقيين. ولهذا دعا الأساقفة إلى مجلس جامع يعقد في أريليس (314)، وأيد ما أصدره من قرار بالتشهير بالدوناتية، وأمر المنشقين بالعودة إلى الكنيسة، وقرر أن المجامع التي لا تطيع هذا القرار تفقد أملاكها وحقوقها المدنية (316). وبعد خمس سنين من ذلك الوقت طافت بعقله في فترة قصيرة ذكرى مرسوم ميلان، فألغى هذه القرارات، وتسامح مع الدوناتيين

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والمسيحية

تسامحاً مصحوباً بالسخرية. وبقيت هذه الشيعة حتى قضى العرب على أتباع الدين القويم وعلى الملحددين حين فتحوا أفريقيا.

وفي هذه السنين نفسها شهدت الإسكندرية قيام أخطر حركة إلحادية في تاريخ الكنيسة. ذلك أن قساً مصريةً تقدم إلى أسقفه حوالي عام 318 بأراء غريبة عن طبيعة المسيح، ويصفه مؤرخ كاثوليكي عالم وصفاً كريماً فيقول: "كان أريوس... طويل القامة، نحيل الجسم، مكتئب المظهر، ذا منظر تبدو فيه آثار خشونة العيش. وكان معروفاً بأنه من الزهاد، كما يستدل على ذلك من ملبسه - وهو جلابب قصير من غير كمين تحت ملحفة يستخدمها عبادة وكانت طريقته في الحديث ظريفة، وخطبه مقنعة. وكانت العذارى اللاتي نذرن أنفسهن للدين، وهن كثيرات في الإسكندرية، يبجلنه أعظم التبريل، وكان له من بين رجال الدين عدد كبير من المؤيدين" (43).

ويقول أريوس إن المسيح لم يكن هو والخالق شيئاً واحداً، بل كان هو الكلمة أول الكائنات التي خلقها الله وأسماءها. واحتج الأسقف ألكسندر على هذا القول، ولكن أريوس أصر عليه وقال إنه إذا كان الابن من نسل الأب، فلا بد أن تكون ولادته قد حدثت في زمن، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن مصقفاً مع وجود الأب في الزمن. يضاف إلى هذا أنه إذا كان المسيح قد خلق فلا بد أن يكون خلقه من لا شيء، أي من غير مادة الأب؛ لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة. وقد ولد الروح القدس من الكلمة، وهو أقل ألوهية من الكلمة نفسها. ونحن نرى في هذه العقائد استمراراً للأفكار المنحدرة من أفلاطون عن طريق الرواقيين، وفيلون، وأفلوطينس، وأرجن إلى أريوس. وبذلك أصبحت الأفلاطونية التي كان لها أعظم الأثر في اللاهوت المسيحي في نزاع مع الكنيسة.

صفحة رقم : 4091

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والمسيحية

وارتاع الأسقف ألكسندر من هذه الآراء، وارتاع أكثر من هذا من سرعة انتشارها بين رجال الدين أنفسهم. ولهذا دعا مجلساً من الأساقفة المصريين إلى الاجتماع في الإسكندرية، وأقنع أعضاءه بأن يحكموا بتجريد أريوس وأتباعه؛ وأبلغ الإجراءات التي اتخذها المجلس إلى سائر الأساقفة، فاعترض عليها بعضهم، وأظهر بعض القساوسة عطفاً على أريوس، واختلفت آراء رجال الدين والدنيا في الولايات الآسيوية في هذه المشكلة، وترددت في المدائن أصداء "الضجيج والاضطراب... حتى كان الدين المسيحي"، كما يقول يوسبيوس "موضوع السخرية الدنسة من الوثنيين، حتى في دور التمثيل نفسها" (45). ولما جاء قسطنطين إلى نوميديا بعد أن هزم ليسنيوس، سمع هذه القصة من أسقفها، فأرسل إلى الاسكندر وإلى أريوس رسالة شخصية يدعوها فيها أن يتخلفا بهدوء الفلاسفة، وأن يوفقا بين آرائهما المختلفة في سلام، فإن لم يفعلا فلا أقل من أن يخفيا جدلهما عن أذان الجماهير، ويكشف هذا الخطاب، الذي نقله لنا يوسبيوس، في صراحة عن قلة اهتمام قسطنطين بعلم الدين، وعن الهدف السياسي الذي كان يبتغيه من سياسته الدينية:

"لقد اقترحت أن أردد جميع آراء الناس في الله إلى صورة واحد، لأنني قوي الاعتقاد بأنني إذا استطعت أن أوحّد آراءهم في هذا الموضوع سهل علي كثيراً تصريف الشئون العامة. ولكنني مع الأسف الشديد أسمع أن بينكما من الخلاف أكثر مما كان قائماً في أفريقية من وقت قريب. ويبدو لي أن سبب هذا الخلاف بينكما صغير تافه غير جدير بأن يثير هذا النزاع الشديد. فأنت يا ألكسندر تريد أن تعرف رأي قساوتك في إحدى النقاط القانونية، في جزء من سؤال هو في حد ذاته عديم الأهمية؛ وأما أنت يا أريوس فقد كان الواجب عليك، إذا كانت لديك أفكار من هذا القبيل، أن تظل صامتاً... ولم يكن ثمة حاجة إلى إثارة هذه المسائل أمام الجماهير... لأنها مسائل لا يثيرها إلا من ليس لديهم عمل

صفحة رقم : 4092

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والمسيحية

يشغلون به أنفسهم، ولا يرجى منها إلا أن تزيد عقول الناس حدة... تلك أعمال سخيفة بالأطفال العديمي التجربة لا برجال الدين أو العقلاء من الناس" (46).

ولم يكن لهذه الرسالة أثر ما لأن مسألة اتفاق الأب والابن في المادة لا مجرد تشابههما كانت في نظر الكنيسة مسألة حيوية من الوجهتين الدينية والسياسية، وكانت ترى أنه إذا لم يكن المسيح إلهاً فإن كيان العقيدة المسيحية كلها يبدأ في التصدع، وإذا ما سمحت باختلاف الرأي في هذا الموضوع فإن فوضى العقائد قد تقضي على وحدة الكنيسة وسلطانها، ومن ثم على ما لها من قيمة بوصفها عوناً للدولة. ولما انتشر الجدل في هذه المسألة، واشتعلت نيران الخلاف في بلاد الشرق اليوناني، اعترم قسطنطين أن يقضي عليه بدعوة أول مجلس عام للكنيسة. ولهذا عقد مجلساً من الأساقفة عام 325 في نيقية البيثينية بالقرب من عاصمة نوميديا، وأعد ما يلزم من المال لنفقاتهم. وحضر الاجتماع عدد لا يقل عن 318 "يصحبهم" كما يقول واحداً منهم "حشد كبير من رجال الدين الأقل منهم درجة" (47)، وهو قول يدل على مقدار نماء الكنيسة العظيم. وكان معظم الأساقفة من الولايات الشرقية، لأن كثيراً من الأبرشيات الغربية تجاهلت هذا الجدل، واكتفى البابا سلفستر الأول Silvester I بأن مثله بعض القساوسة، لأن المرض حال بينه وبين حضور الاجتماع بنفسه.

واجتمع المجلس في بهو أحد القصور الإمبراطورية تحت رئاسة قسطنطين، وافتتح هو المناقشات بدعوة موجزة وجهها إلى الأساقفة بطلب إليهم فيها أن يعيدوا إلى الكنيسة وحدتها. ويقول بوسبيوس إنه كان يستمع بصبر عظيم إلى المناقشات، ويهدئ من عنف الجماعات المتنازعة (48)، ويشترك في المناقشات بنفسه. وأكد أريوس من جديد رأيه القائل بأن المسيح مخلوق، لا يرقى إلى منزلة الأب، ولكنه "مقدس بالاشتراك" معه لا غير. وقد أرغمت بعض الاسئلة

صفحة رقم : 4093

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والمسيحية

الحاذقة على أن يعترف بأنه إذا كان المسيح مخلوقاً؛ وأن له بداية؛ فإن في مقدوره أن يتحول، وأنه إذا استطاع أن يتحول، فقد ينتقل من الفضيلة إلى الرذيلة.

وكانت إجاباته عن الأسئلة منطقية، صريحة، قاطعة. وقد أوضح أثناسيوس Athanasius، رئيس الشمامسة البليغ المشاكس، الذي جاء به الاسكندر معه ليقطع به لسان معارضيه، انه إذا لم يكن المسيح والروح القدس كلاهما من مادة الأب، فإن الشرك لا بد أن ينتصر. وقد سلم بما في تصوير أشخاص ثلاثة في صورة اله واحد من صعوبة، ولكنه قال بأن العقل يجب أن يخضع لما فيه الثالوث من خفاء وغموض. ووافق الأساقفة جميعهم على رأيه عدا سبعة عشر منهم ووقعوا قراراً يعلنون فيه هذا الرأي. ورضي مؤيدو أريوس أن يوقعوا معهم إذا سمح لهم بأن يضيفوا إلى هذا الإعلان نقطة واحدة وهي أن يستبدلوا كلمة همويوسيون Homoiousion (اي مماثلاً في الجوهر) بكلمة هموسيون Homoousion أي من جوهر واحد. ولكن المجلس رفض هذا التعديل وأصدر بموافقة الإمبراطور القرار الآتي:

"نحن نؤمن باله واحد، وهو الأب القادر على كل شيء، خالق الأشياء كلها ما ظهر منها وما بطن، وبسبب واحد هو يسوع المسيح ابن الله، المولود... غير المخلوق من نفس جوهر الأب... وبأنه من أجلنا نحن البشر ومن أجل نجاتنا نزل وتجسد، وصار إنساناً، وتعذب، وقام مرة ثانية في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وسيعود ليحاسب الأحياء والأموات...".

ولم يرفض توقيع هذه الصيغة إلا خمسة من الأساقفة، نقصوا آخر الأمر إلى اثنين. وحكم المجلس على هذين الأسقفين وعلى أريوس الذي لم يترشح عن عقيدته أو يتوب عما صدر منه، حكم عليهم باللعنة والحرمان، ونفاهم الإمبراطور

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والمسيحية

من البلاد. وصدر مرسوم إمبراطوري يأمر بإحراق كتب أريوس جميعها ويجعل إخفاء أي كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام . واحتفل قسطنطين بانقضاء المجلس بأن دعا جميع الأساقفة الذين حضروه إلى وليمة ملكية، ثم صرفهم بعد أن طلب إليهم ألا يمزق بعضهم أجساد بعض (51)، ولكنه أخطأ إذ ظن أن النزاع قد وقف عند هذا الحد، أو أنه هو لن يغير رأيه فيه. غير أنه كان على حق حين اعتقد أنه خطأ خطوة كبيرة في سبيل وحدة الكنيسة. فلقد أذاع المجلس عقيدة الكثرة العظمى من رجال الدين، وهي أن نظام الكنيسة وبقائها يتطلبان تحديد العقائد بطريقة ما؛ وقد أثمر آخر الأمر ذلك الإجماع العملي على العقيدة الأساسية التي اشتق منها اسم الكنيسة في العصور الوسطى وهو الكنيسة الكاثوليكية. وكان في الوقت نفسه إيذاناً باستبدال المسيحية بالوثنية وجعلها المظهر الديني والعرض القوي للإمبراطورية الرومانية. واضطر قسطنطين أن يكون أكثر تصميماً من ذي قبل على التحالف مع المسيحية؛ وهكذا بدأت حضارة جديدة، ومؤسسة على دين جديد، تقوم على أنقاض ثقافة مضعضة وعقيدة محتضرة. لقد بدأت العصور الوسطى.

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والحضارة

الفصل الرابع

قسطنطين والحضارة

أنشأ قسطنطين بعد سنة واحدة من اجتماع المجلس مدينة جديدة وسط خرائب بيزنطية سماها روما الجديدة Nova Roma وسمتها الأجيال التي أعقبته باسمه. وفي عام 330 أدار ظهره نحو روما ونيقوميديا كليهما، واتخذ القسطنطينية عاصمة له، وأحاط نفسه فيها بأبهة الملوك الشرقيين وحاشيتهم، لاعتقاده أن ما تحدثه هذه الأبهة من

تأثير نفساني في الجيش والشعب سوف يجعل ما تحتاجه مظاهرها من المال الكثير اقتصاداً حقيقياً في مطالب الحكم. وبسط رعايته على الجيش بما أوتي من حسن السياسة وقواه بأن أمده بالسلاح، وخفف من نير الاستبداد بقراراته الرحيمة، وناصر الآداب والفنون، وشجع مدارس أثينة، وأنشأ جامعة جديدة في القسطنطينية، كان فيها أساتذة يتناولون مرتبات من قِبَل الدولة، ويعلمون اللغتين اليونانية واللاتينية، والآداب والفلسفة، والبلاغة والقانون، ويدربون الموظفين الذين تحتاجهم الإمبراطورية (52). وأيد ما كان للأطباء والمدرسين في جميع الولايات من امتيازات ووسّع نطاقها، وأمر الحكام أن ينشئوا في ولاياتهم مدارس للعمارة، وأن يستجلبوا الطلاب إليها بمختلف الامتيازات والمكافآت، وأعفي الفنانين من الواجبات المفروضة على غيرهم من المدنيين حتى يوفر لهم ما يكفي من الوقت لإتقان فنهم وتعليمه أبناءهم. وقد استعان بالكنوز الفنية في جميع أنحاء الإمبراطورية على تجميل القسطنطينية حاضرتة الجديدة.

وبدأت أعمال البناء في روما في ذلك العهد على يد مكسنطيوس، فقد

صفحة رقم : 4096

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والحضارة

بدأ هو (306) وأتم قسطنطين باسلفاً ضخمة كانت هي تاج العمارة القديمة في الغرب. وعمد في بنائها إلى طراز الحمّامات الكبرى فعدله وشاد على طرازه المعدل صرحاً عظيماً تشغل قاعدته 330 قدماً في 250. وكانت لردهتها الوسطى التي تبلغ 104 قدماً في 82 سقف مكون من ثلاث قباب متقاطعة مشيدة بالأسمنت المسلح يبلغ ارتفاعها 120 قدماً يستند بعضها إلى ثماني دعائم عريضة تواجهها عمد كورنثية ذات حوز غائرة يبلغ ارتفاعها سنيين قدماً. وكانت أرضها من الرخام الملون؛ ووضعت بين الأعمدة عدة تماثيل، وعلت جدران هذه الأجزاء التي بين الأعمدة فوق سقفها لكي تكون دعائم مرتفعة للقباب الوسطى. ولقد تعلم مهندسو القوط ومهندسو النهضة الشيء الكثير من هذه القباب والدعائم، ولما أراد برامنتي Bramante أن يخطط كنيسة القديس بطرس اعترّم أن يتوج صحن الكنيسة الواسع بقبة ضخمة، أو "أن يقيم بناء الكنيسة الكبرى فوق باسلفاً قسطنطين".

وشاد أول الأباطرة المسيحيين كنائس كثيرة في روما وأكبر الظن أن الشكل الأول لكنيسة سان لورنزو التي في خارج روما كان من هذه الكنائس. وأراد أن يحتفل بذكرى نصره عند نهر ملفيوس فأقام في عام 315 قوساً لا يزال يشرف على طريق النصر Via del Trionfi؛ وهو من أكمل الآثار الباقية في روما ولم ينقص من عظمتها كثيراً ما انتزع من أجزائه أنما بعد أن. ويتركب من أربعة جذوع دقيقة تناسب ترتفع فوق القاعدة المنحوتة، وتقسّم الأفواس للثلاثة، وتسد الدعامة المزخرفة المرتكزة عليها. وعلى الطبقة العليا نقوش بارزة وتماثيل مأخوذة من آثار لتر لاجان وأورليوس، كما أن الحلقات الوسطى التي بين الأعمدة مأخوذة من مبانٍ شيدت في عهد هدران. وربما كان نقشان من النقوش البارزة من عمل فناني قسطنطين، ويشهد ما في هذا الأثر من صور جالسة، ومن اختلاط سمج بين الوجوه المصورة من الجانب والسيقان المصورة من الأمام، ومن

صفحة رقم : 4097

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والحضارة

تكديس الرؤوس فوق الرؤوس بدل أن يراعي الفنان قواعد المنظور، يشهد كل هذا بخشونة الذوق وعدم الإتيان الفني ولكن الحفر العميق وما يقع عليه من ضوء وظل، يطبع في الخيال صورة واضحة من العمق والسعة، والحادثات التي تقصها تلك النقوش ممثلة بحيوية خشنة كأنما الفن الإيطالي قد اعتزم أن يعود إلى منبعه الأول. ويبدو تمثال قسطنطين الضخم المحفوظ في الكنسر فتورى بدائياً إلى حد تشمنز منه النفس، ولا يكاد العقل يصدق أن الرجل الذي تقضل فرأس مجمع نيقية يشبه البربري الفظ إلى الحد الذي يطالع الإنسان في هذا التمثال- إلا إذا كان الفنان قد أراد أن يوضح مقدماً العبارة الجامعة الساخرة التي قالها جبن: "لقد وصفت انتصار الهمجية والدين". وفي أوائل هذا القرن الرابع أخذ فن جديد يتشكل ويزهر في الوجود- ونعني به "تزيين" المخطوطات بصورة ملونة صغيرة. وكان معظم الأدب في ذلك الوقت مسيحي الطابع. ومن أدباء ذلك العصر لوسيوس فرمينيانس لكتينيوس Lucius Firminianus Lactantius الذي شرح شرحاً بليغاً في كتابيه الأنظمة المقدسة Divinae Institutiones (307) وفي الاضطهاد المميت (De Mortibus Persecutorum 314) الآلام الأخيرة التي عاناها الأباطرة مضطهدو المسيحيين، ولم يكن هذا الوصف يقل عن وصف شيشرون بلاغة وحقدًا. ومن أقواله في هذا المعنى: "إن طبيعة الدين تحتم أن يكون حراً، طليقاً، غير متأثر بأي ضغط" (55)، وتلك بدعة لم تطل حياته حتى يكفر عنها، وكان يوسيبوس بمفيلي أسقف قيصرية أوسع منه شهرة. وقد بدأ حياته الأدبية كاتباً قسيساً وأمين مكتبة لسلفه الأسقف بمفيلس، وقد بلغ من حبه لهذا الأسقف أن تسمى باسمه. وكان بمفيلس الأكبر قد حصل على مكتبة أرجن وضم إليها

صفحة رقم : 4098

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والحضارة

أكبر مجموعة من الكتب المسيحية عرفت حتى ذلك الوقت. وعاش يوسيبوس بين هذه الكتب، فأصبح بذلك أكثر رجال الدين علماً في زمانه. وقضى بمفيلس نحبه أثناء اضطهادات جليوريوس (310)، وأخذ الناس يتساءلون فيما بعد كيف بقي يوسيبوس حياً بعد هذا الاضطهاد، حتى أقضت هذه الأسئلة مضجع الرجل وأذت سمعته. وقد عاداه الكثيرون لموقفه الوسط بين أريوس والاسكندر، ولكنه رغم هذا أصبح في بلاط الاسكندر كما كان بوسويه Bossuet في بلاط لويس الرابع عشر، وكلف بكتابة سيرة الإمبراطور، وجمعت بعض كتاباته في تاريخ عام- يعد أوفى الكتب التاريخية القديمة. وقد رتب يوسيبوس التاريخين المقدس والدنس في عمودين متوازيين يفصل بينهما صف من تواريخ السنين المشتركة في كليهما، وحاول أن يحدد السنة التي وقعت فيها كل حادثة خطيرة من أيام إبراهيم الخليل إلى أيام قسطنطين. وقد اعتمدت كل التواريخ المتأخرة على "قانونه" هذا.

ثم كسا يوسيبوس هذه العظام لحمًا، ونشر في عام 325 تاريخاً كنسياً يصف فيه نماء الكنيسة من أول عهدها إلى مجمع نيقية. ويحتوي الفصل الأول من هذا الكتاب- وكان نموذجاً نسج منواله بوسويه مرة أخرى- على أقدم ما كتب في فلسفة التاريخ- فقد صور الزمان كأنه ميدان القتال بين الله والشيطان كما صور الحوادث جميعها على أنها معينة على انتصار المسيح. والكتاب سيئ الترتيب ولكنه حسن الأسلوب. وقد فحص عن المراجع فحصاً دقيقاً راعى فيه الذمة والضمير، وتبلغ أحكامه من الدقة ما تبلغه أحكام أي كتاب قديم في التاريخ؛ وهو في كل خطوة يخطوها يجعل الخلف مديناً له وذلك بما ينقله عن وثائق خطيرة لولا هذا لما عرف العالم عنها شيئاً. والأسقف المؤلف غزير المادة،

واسع الاطلاع إلى حد كبير، وأسلوبه تسري فيه العاطفة القوية، والشعور الفياض، ويسمو إلى أعلى الدرجات في لحظات الكراهية

صفحة رقم : 4099

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والحضارة

الدينية وهو يعترف صراحة بأنه حذف من كتابه كل ما لا يقوي إيمان قرائه المسيحيين أو يؤيد فلسفته ويحاول أن يكتب تاريخ المجلس العظيم- مجلس نيقية- دون أن يذكر اسم أريوس أو أثناسيوس. وهذا الغش الشريف نفسه هو الذي يجعل كتابه الآخر حياة قسطنطين تسيحاً بحمد الرجل لا ترجمة له. فهو يبدو بثمانية فصول ملهمة عن تقوى الإمبراطور وأعماله الصالحة، ويصف لنا كيف "حكّم الإمبراطورية حكماً راعى فيه حدود الله أكثر من ثلاثين عاماً". وليس في مقدور الإنسان بعد أن يقرأ هذا الكتاب أن يظن أن قسطنطين قتل ولده وابن أخته وزوجته. ذلك أن قسطنطين قد أحسن تدبير كل الأمور ما عدا أمور أسرته، شأنه في هذا شأن أغسطس. ولقد كانت صلواته بأمه طيبة سعيدة بوجه عام، ويبدو أنها سافرت بتكليف منه إلى أورشليم ودمرت ذلك الهيكل الشائن، هيكل أفرديتي الذي بني، كما يقول البعض، فوق قبر المسيح المنقذ. ويقول يوسيبوس إن الضريح المقدس ظهر للعين في ذلك المكان، وفيه الصليب بعينه الذي مات عليه المسيح. وأمر قسطنطين أن تشاد كنيسة الضريح المقدس فوق القبر، وحفظت الآثار المعظمة في خزانة مقدسة خاصة. ومن ذلك الحين بدا العالم المسيحي يجمع مخلفات المسيح والقديسين ويعيدها، كما كان العالم الوثني في الأيام القديمة السابقة يعترّب بمخلفات حرب طروادة ويعظمها، وكما كانت روما نفسها تفخر بتمثال أثيني إلهة الحكمة حامية طروادة. وقد غير العالم المسيحي مظهر هذه العبادة وجدد جوهرها كما يفعل الخلائق من أقدم العهود. وشادت هلينا كنيسة صغيرة في بيت لحم في الموضع الذي تقول الرواية أن يسوع وُلد فيه، وقامت في تواضع بخدمة الراهبات اللائي كن يقمن بالخدمة في هذه الكنيسة، ثم عادت إلى القسطنطينية لتموت بين ذراعي ولدها.

صفحة رقم : 4100

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والحضارة

وتزوج قسطنطين مرتين: أولهما بمنيرفينا Minervina التي رزق منها بابنه كرسبس Cripus؛ والثانية بفوستا Fausta ابنة مكسميان التي رزق منها بثلاثة بنين وثلاث بنات. وأصبح كرسبس جندياً ممتازاً، وكان نعم العون لأبيه في حروبه ضد ليسنيوس في عام 326 قُتل كرسبس بأمر قسطنطين؛ وأمر الإمبراطور حوالي ذلك الوقت نفسه بقتل ليسنيانس Licinianus بن ليسنيوس من قسطنطيا أخت قسطنطين؛ وبعد قليل من ذلك الوقت أعدمت فوستا بأمر زوجها. ولسنا نعرف سبب مقتل هؤلاء الثلاثة، غير أن زوسمس Zosimus يؤكد لنا أن كرسبس غازل فوستا، وإنها

شكته إلى الإمبراطور، وإن هلينا، وكانت شديدة الحب لكرسبس، إنتقمت لموته، بأن أفنعت قسطنطين أن زوجته قد استسلمت لولده(57). لكن الأرجح من هذا كله أن فوستا عملت على أن تبعد كرسبس من طريق ابنها الذي كانت تريده وارثاً لعرش الإمبراطورية، وربما كان مقتل ليسينيانس أنه كان يحبك المؤامرات ليحصل على نصيب أبيه في الدولة.

ونالت فوستا بغيتها بعد موتها؛ ذلك بأن قسطنطين أوصى في عام 335 بأن تقسم الإمبراطورية بين من كان حياً من أولاده وأولاد أخته. وبعد سنتين من ذلك الوقت احتفل في يوم عيد القيامة بمرور ثلاثين عاماً من حكمه، وأحس بعد ذلك بدنو أجله. فذهب ليستحم في الحمّات الحارة في أكويريون Aquirion القريبة من القسطنطينية. ولما اشتد عليه المرض استدعى قساً ليجري له مراسم التعميد المقدس الذي أخره عمداً إلى تلك الساعة. وكان يرجو أن يظهره هذا التعميد مما ارتكبه من الخطايا في حياته المزدحمة بالأعمال. ثم خلع الحاكم المجهد الأتواب الملكية الأرجوانية وارتنى الثوب الأبيض ثوب المسيح الحديث للتصريح وأسلم الروح.

صفحة رقم : 4101

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> شباب المسيحية -> انتصار المسيحية -> قسطنطين والحضارة

لقد كان قسطنطين قائداً بارعاً، وإدارياً عظيماً، وسياسياً لا يشق له في شئون الحكم غبار ورث الأعمال التي كان يبغى بها دقلديانوس ديانوس إعادة الدولة إلى سابق عهدها وأتمها؛ وبفضله طال عمر الإمبراطورية 150 عاماً. وقد واصل أنماط الحكم الملكي المطلق التي سار عليها أورليان ودقلديانوس مدفوعاً إلى هذا بأطماعه وكبريائه وباعتقاده أن الحكم المطلق هو العلاج الذي تتطلبه الفوضى السائدة في ذلك الوقت. وكان أكبر أخطائه تقسيمه الإمبراطورية بين أبنائه؛ ولعله قد تنبأ بأن هؤلاء الأبناء سيتنازعون فيما بينهم، يريد كل منهم أن ينفرد بالملك، كما فعل هو من قبل، ولكنه ظن أنهم سيتقاتلون حتماً إذا اختار وارثاً للملك غيرهم؛ وهذا أيضاً هو الثمن الذي تبتاع به الملكية المطلقة. أما أوامره التي أصدرها بالإعدام فليس في مقدورنا أن نصدر حكماً صحيحاً عليها لأننا لا نعرف أسبابها. وربما كانت مشاكل الحكم وأعباءه الثقيلة قد ناعت به فتغلّبت المخاوف والغيرة على العقل والحكمة إلى حين، وإن لدينا الشواهد على أنه في سنيه الأخيرة قد ندم أشد الندم على ما فعل. ويبدو أن عقيدته المسيحية، التي كانت في بدايتها خطة سياسية، قد استحالت بالتدريج إلى إيمان صحيح استمسك به بإخلاص، وأصبح أكثر المبشرين في دولته مثابرة على عمله، واضطهد الملاحدة اضطهاد المؤمن المخلص لدينه، وكان يعتمد على الله في كل خطوة يخطوها. وقد وهب الإمبراطورية الهرمة حياة جديدة بأن ربط بينها وبين دين قتي، ونظام قوي، ومبادئ أخلاقية جديدة وكان في عمله هذا أعظم حكمة من دقلديانوس. وبفضل معونته أضحت المسيحية دولة وديناً، وأمست هي القلب الذي صببت فيه الحياة الأدبية والفكر الأوربي مدى أربعة عشر عاماً، ولعل الكنيسة التي رأت أن تشكر له فضله عليها كانت محقة حين لقبته بأنه أعظم الأباطرة إذا استثنينا أغسطس وحده.

صفحة رقم : 4102

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> لِمَ سقطت روما

الخاتمة

الفصل الأول

لِمَ سقطت روما؟

يقول أحد العلماء النابهين في هذه الأيام "إن أعظم ما يواجه التاريخ من مشاكل مشكلتان. أولهما كيف نفسر قيام الدولة الرومانية، وثانيتهما كيف نفسر سقوطها"(1). ولعلنا نقرب من فهم هاتين المشكلتين إذا تذكرنا أن سقوط روما كقيامها لا يعزى إلى سبب واحد بل إلى كثير من الأسباب، وإن هذا السقوط لم يكن حادثاً واحداً بل كان عملية امتدت إلى أكثر من ثلاثمائة عام. والحق أن ثمة أمماً لم تدم حياتها بقدر ما استلزمه من الزمن سقوط روما. والحضارة العظيمة لا يقضى عليها من الخارج إلا بعد أن تقضي هي على نفسها من الداخل. وشاهد ذلك أنا نجد الأسباب الجوهرية لسقوط روما في شعب روما نفسه، أي في أخلاقها، وفي النزاع بين طبقاتها، وفي كساد تجارتها، وفي حكومتها الاستبدادية البيروقراطية، وفي ضرائبها الفادحة الخائفة وحروبها المهلكة. ولقد كان الكتاب المسيحيون شديدي الإدراك لهذا الضعف المتعدد الأسباب، فلقد بشر ترتليان حوالي عام 200، وهو جذلان، بما سماه ipsa clusula caeculi أي "نهاية عهد" - معتقداً أنه في أغلب الظن مقدمة لدمار العالم الوثني. ورد سبيريان قبيل عام 250 على ما اتهم به المسيحيون من أنهم أصل ما حاق بالإمبراطورية من محن بأن هذه المحن ترجع إلى أسباب طبيعية:

صفحة رقم : 4103

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> لِمَ سقطت روما

"يجب أن تعلموا أن العالم قد شاخ، ولم يبقَ ما كان له قبل من قوة، وأنه يشهد بنفسه على اضمحلاله. وإن مقدار ما يسقط من المطر وما تشعه الشمس من دفاء آخذان في النقصان، وكادت المعادن ينضب معينها، وقل ما ينتجه الزراع من غلة"(2). وما من شك في أن هجمات البرابرة، واستغلال العروق المعدنية الغنية الذي دام عدة قرون، قد أنقصا ما تخرجه روما من المعادن النفيسة؛ وأن ما حدث في إيطاليا الوسطى والجنوبية من تقطيع الغابات، وفعل التعرية والنحات، وإهمال قنوات الري الناشئ من نقص عدد الفلاحين، واضطراب الحكومات - ما من شك في أن هذا كله قد ترك إيطاليا أفقر

مما كانت في سابق عهدها. بيد أن السبب الحقيقي لم يكن ناشئاً من أن التربة قد استنفدت قدرتها على الإنتاج، أو أن جو البلاد قد تغير، بل كان ما حاق بأهلها من إهمال وعقم سببهما ما حل بهم من ضيق وتثبيط للعزيمة. وكانت الأسباب الإحيائية أهم من الأسباب السابقة وأعظم منها أثراً. فقد بدا نقص خطير في عدد السكان في الغرب بعد هدريان. ويشك بعض المؤرخين في هذا النقص، ولكن إسكان البرابرة بالجملة في ولايات الدولة على أيدي أورليوس، وفلنتنيا، وأورليان، وبروتس، وقسطنطين، لا يكاد يترك مجالاً للشك في حقيقة هذا النقص (3). ولما أراد أورليوس أن يسد ما حدث من النقص في جيشه جند العبيد، والمجالدين، ورجال الشرطة، والمجرمين؛ وهذا لا يحدث إلا إذا كان الخطر الذي يتهدد البلاد وقتئذ أشد من ذي قبل، أو أن السكان الأحرار كانوا أقل عدداً منهم في الأيام السابقة، والذي لا شك فيه أن غير الأحرار من السكان قد نقصوا عما كانوا عليه من قبل. ولهذا السبب أقفرت

صفحة رقم : 4104

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> لم سقطت رومة

ضياح كثيرة وتركت أرضها بوراً، وخاصة في إيطاليا، حتى لقد عرضها برتناكس من غير ثمن على من يرضى أن يفلحها. ويتحدث قانون سنه سبتميوس سفيرس عن نقص الرجال (4hominum penuria). وقد ظل هذا النقص يجري في مجراه قرناً طوالاً في بلاد اليونان، وشاهد ذلك أن الأسقف ديونيشيوس يقول إن سكان الإسكندرية نقصوا في أيامه (250) إلى نصف ما كانوا عليه في الأيام السابقة، وكانت هذه المدينة في تاريخها السابق تقخر بكثرة من فيها من السكان. وكان يؤلمه أن "يرى الجنس البشري أخذاً في النقصان والتبدد المستمر" (5). ولم يكن يزداد في هذا الوقت إلا البرابرة والشرقيين في خارج الإمبراطورية وفي داخلها. ترى ما سبب هذا النقص في عدد السكان؟ إن أكبر أسبابه هو تحديد النسل، وهو عملية كانت تلجأ إليها الطبقات المتعلمة أولاً، ثم سرت عدواها إلى الطبقات الدنيا المشهورة بكثرة أبنائها (6)؛ ولم يحل عام 100 بعد الميلاد حتى وصلت هذه العدوى إلى طبقات الزراع، كما يدل على ذلك امتداد المعونة الإمبراطورية إلى هذه الطبقة لتشجيعها على الإكثار من الأبناء، وقبل أن يبدأ القرن الثالث عمّت هذه العادة الولايات الغربية، وأدت إلى نقص السكان في غالة (7). وانتشرت عادة وأد الأطفال بازدياد الفقر على الرغم من أن القوانين كانت تعد هذا العمل جريمة (8). وربما كان الإفراط في الصلاة الجنسية قد أنقص الخصوبة البشرية؛ وكان الامتناع عن الزواج أو تأخير وقته هذا الأثر بعينه. يضاف إلى هذا أن عادة الاخضاء أخذت تزداد بسبب سريان العادات الشرقية في بلاد الغرب، وليس أدل على انتشار هذه العادة من بلنتيانس Plantianus رئيس الحرس البريتوري أمر باخضاء مائة غلام قدمهم هدية إلى ابنته بمناسبة زواجها (9).

ويلى تحديد النسل في أسباب نقص السكان ما كان ينشأ عن الأوبئة

صفحة رقم : 4105

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> لم سقطت رومة

والثورات والحروب من بشرية. وقد قضت الأوبئة التي اجتاحت البلاد في أيام أورليوس، وجليسي، وقسطنطين على عدد كبير من السكان؛ ولم تكد تنجو أسرة واحدة في الإمبراطورية كلها من الوباء الذي تقشى فيها بين عامي 260 و 265؛ ويقال إن خمسة آلاف كانوا يموتون في روما نفسها كل يوم، وإن هذه الحال دامت أسابيع كثيرة (10). وقد شرع بعوض كمبانيا يتغلب على الأدميين الذين غزوا المستنقعات البنتية، وأخذت الملاريا تضعف قوى الأغنياء والفقراء على السواء في لاتيوم وتسكانيا. ولقد كان لمجازر الحروب، والثورات، وربما كان لعادات منع الحمل، والإجهاض، وواد الأطفال، أثر في نقص القدرة على النسل فضلاً عن أثرها في تقليل عدد السكان؛ ذلك بأن أقدر الرجال كانوا أكثرهم تأخيراً لوقت الزواج، وأقلهم نسلاً، وأقصرهم أجلاً. وكانت معونة الدولة سبباً في ضعف الفقراء، كما كان الترف سبباً في ضعف الأغنياء، والسلم الطويلة الأجل سبباً في حرمان الطبقات كلها في شبه الجزيرة من الروح العسكرية والفنون الحربية. وكان الألمان الذين أخذوا من ذلك الوقت يسكنون شمالي إيطاليا ويكثر عددهم في الجيش، أصح أجساماً وأمتن أخلاقاً ممن بقي على قيد الحياة من سكان البلاد الأصليين. ولو أن الزمان سمح لهذا الجنس الجديد أن يمتزج بالسكان الأصليين على مهل لكان من الجائز أن ينتقف بتقافة الرومان ويبيع النشاط والقوة في الدم الإيطالي؛ ولكن الزمان لم يكن كريماً إلى هذا الحد. يضاف إلى هذا أن سكان إيطاليا كانوا قد اختلطوا من زمن بعيد بأجناس شرقية، وأضعف من الجنس الروماني جسماً وإن جاز أن تكون أرقى منه عقلاً. ولم يكن في مقدور الألمان الذين أخذوا يتكاثرون بسرعة أن يفهموا الثقافة الرومانية؛ فلم يقبلوها، ولم ينقلوها إلى غيرهم من الشعوب؛ وكان الشرقيون الذين يتناسلون هم أيضاً بسرعة يميلون إلى تدمير هذه الثقافة، أما أصحابها الرومان فقد ضحوا بها في سبيل

صفحة رقم : 4106

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> لم سقطت رومة

الراحة التي يجلبها العقم؛ وقصارى القول أن روما لم يغلبها على أمرها غزو البرابرة لها من خارجها بل غلبها تكاثر البرابرة في داخلها. وعجل الفساد الخلقي هذا الانحلال. ذلك أن صفات الرجولة التي نشأت من بساطة العيش وتحمل المشاق ودعمها إيمان قوي - نقول إن هذه الصفات قد أضعفها بهرج الثروة وحرية عدم الإيمان. فقد أوتى الناس من أهل الطبقتين الوسطى والعليا في ذلك الوقت الوسائل التي يتمكنون بها من إرضاء شهواتهم والخضوع لما يحط بهم من غوايات، لا يصددهم عن ذلك إلا ما عساه أن يكون لديهم من واجب مراعاة اللياقة الآداب العامة. وضاعف ازدحام المدين بالسكان ضروب التعاقد والمشارطات العامة، ومنعت رقابة الحكومة والأمة من الامتداد إليها، وجاءت الهجرة بمائة أو نحوها من الثقافات التي لم يعد يهتم الناس بالتفريق بينها لكثرة ما بينها من فروق. وانحطت عند الناس معايير الخلق والجمال لتغلب طبقات الشعب وما أصبح لها من أثر كبير في البلاد، وتحررت الشهوات الجنسية من القيود في الوقت الذي ضاعت فيه الحرية السياسية.

ويقول عظيم المؤرخين: إن المسيحية كانت أهم أسباب سقوط الدولة الرومانية (11)، لأن هذا الدين، كما يزعم هو ومن يسير على نهجه (12)، قد قضى على العقائد القديمة التي كانت هي الدعامة الخلقية للنفوس الرومانية؛ والدعامة السياسية للدولة الرومانية، ولأنه ناصب الثقافة القديمة العدا - فحارب العلم، والفلسفة، والأدب، والفن، وجاء بالنصوف الشرقي الموهن فأدخله في الرواقية الواقعية التي كانت من خصائص الحياة الرومانية، وحول أفكار الناس عن واجبات هذا العالم ووجههم إلى الاستعداد لاستقبال كارثة عالمية وهو استعداد مضعف للعزيمة؛ وأغراهم بالجري

وراء النجاة الفردية عن طريق الزهد والصلاة، بدل السعي للنجاة الجماعية بالإخلاص للدولة والتفاني في الدفاع، وحطم وحدة الإمبراطورية حين كان الأباطرة العسكريون يكافحون للاحتفاظ بها، وشجع أتباعه على

صفحة رقم : 4107

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> لم سقطت رومة

الامتناع عن تولي المناصب العامة أو أداء الخدمة العسكرية، وكان المبدأ الأخلاقي الذي يدعو إليه هو مبدأ السلام وعدم المقاومة، حين كان بقاء الإمبراطورية يتطلب تقوية الروح الحربية، وبهذا كله كان انتصار المسيح إيذاناً بموت روما.

ولا يخلو هذا الاتهام القاسي من بعض الحقيقة؛ فقد كان للمسيحية، على الرغم منها، نصيب في فوضى العقائد التي ساعدت على إيجاد ذلك الخليط من العادات التي كان لها نصيب في انهيار روما. ولكن نمو المسيحية وانتشارها كانا نتيجة لضعف روما أكثر مما كانا سبباً في هذا الضعف. ذلك أن تحطم قواعد الدين القديم قد بدأ قبل ظهور المسيح بزمن طويل؛ وقد وجه إليه إينيوس Ennius و لكريشيوس Lucretius هجمات أشد عنفاً من كل ما وجهه إليه أي مؤلف وثني بعدهما. أما الانحلال الخلقي فقد بدأ من وقت أن فتح الرومان بلاد اليونان، وبلغ أوجه في عهد نيرون، ثم صلحت أخلاق الرومان بعدئذ، وكان أثر المسيحية في الحياة الرومانية من الناحية الخلقية أثراً طيباً بوجه عام، وبناء على هذا نقول إن المسيحية قد نمت هذا النماء السريع لأن روما كانت وقتئذ في دور الاحتضار، فالناس لم يفقدوا إيمانهم بالدولة لأن المسيحية أبعدت عواطفهم عنها، بل فقدوه لأن الدولة كانت تنصر الثروة على الفقر، وتحارب لتستولي على العبيد، وتفرض الضرائب على الكدح لتعين على الترف، ولأنها عجزت عن حماية الشعب من المجاعات، والأوبئة، والغزو الأجنبي، والفقر المتعق؛ فهل يلام الناس بعد ذلك إذا تحولوا عن قيصر الذي يدعو إلى الحرب إلى المسيح الداعي إلى السلم، ومن الوحشية التي لا يكاد يصدقها العقل إلى الإحسان الذي لم يسبق له مثيل، ومن حياة خالية من الأمل والكرامة إلى دين يواسيهم في فقرهم ويكرم إنسانيتهم؟ ألا إن نصيب المسيحية في القضاء على الدولة الرومانية لم يكن أكثر من نصيب غزو البرابرة

صفحة رقم : 4108

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> لم سقطت رومة

لها. لقد كانت هذه الدولة قشرة فارغة حين قامت المسيحية في ربوعها، وحين داهمها غزو البرابرة. ولقد ذكرنا في فصل سابق الأسباب الاقتصادية التي أدت إلى ضعف روما، لأننا رأينا أن ذكرها ضرورياً لفهم إصلاحات دقلديانوس، ولسنا نحتاج إلى أكثر من تلخيصها هنا تذكرة للقراء. نذكر اعتماد روما على الحبوب المستوردة من الولايات اعتماداً مزعزعا لا تؤمن مغبته، وإنقطاع ورود العبيد وانهيار الضياع الكبيرة، وانحطاط

وسائل النقل والأخطار التي تتعرض لها التجارة، وفقد رومة أسواق الولايات بسبب منافسة هذه الولايات نفسها لها، وعجز الصناعة الإيطالية عن تصدير ما يوازي واردات إيطاليا، وأدى إليه ذلك من انتقال المعادن الثمينة إلى الشرق؛ والحرب المدمرة بين الأغنياء والفقراء، وارتفاع نفقات الجيوش، والمساعدات التي تقدم للعجزة والفقراء، والأعمال العامة، والبيروقراطية المطردة الزيادة، وتثبيط خطط النابهين ذوي الكفاءات، والحاشية المتطفلة التي تؤدي عملاً من الأعمال، ونفاد رؤوس الأموال المستثمرة لما كان يفرض عليها من الضرائب التي تبلغ حد المصادرة، وهجرة رؤوس الأموال والعمال، واستخدام العبيد في الأعمال الزراعية، وفرض نظام الطبقات الصارم على الأعمال الصناعية؛ كل هذا قد قوض الأسس المادية للحياة الإيطالية حتى أضحت قوة روما في آخر الأمر شبحاً سياسياً يعيش بعد موتها الاقتصادي.

وأما الأسباب السياسية التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية فترجع كلها إلى أصل واحد - هو أن الاستبداد المترديد قضى على شعور الفرد بحقوق المدنية، وأنضب معين قدرته على القيام بأعباء الحكم. ولما عجز الروماني عن التعبير عن إرادته السياسية إلا بالعنف، فقد من أجل ذلك اهتمامه بشئون الحكم، وانهمك في أعماله، وفي متعه، وفي فيلقه، أو في نجاحه الفردية. لقد كانت الوطنية والديانة الوثنية وثيقتي الارتباط إحداهما بالأخرى، وها هما الآن يقضى عليهما معاً (13). واستنم مجلس الشيوخ إلى الكسل والخمول، واعتاد الخضوع أو الارتشاء بعد أن ظل يفقد سلطانه ومكانته شيئاً فشيئاً بعد برتناكس،

صفحة رقم : 4109

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> لم سقطت رومة

فانهار بذلك الحاجز الأخير الذي كان يستطيع إنقاذ الدولة من أخطار العسكرية والفوضى. وأما الحكومات المحلية التي عدا عليها الرقباء والجباة فلم تعد تهوى رجالاً من الطراز الأول، وأدت مسؤولية الموظفين في الولايات عن مجموع الضرائب المفروضة على أقاليمهم، وما تتطلبه مناصبهم العليا من نفقات لا تؤديها إليهم الدولة، وما تنتظره منهم من أموال، وخدمات، وأعمال بر وألعاب؛ وما يتعرضون له من أخطار الغزو الأجنبي وحروب الطبقات، أدت هذه كلها إلى تهرب المواطنين من المناصب تهرباً يشبه تهربهم من الضرائب، والمصانع، والمزارع، فكان الناس يتعمدون جعل أنفسهم غير صالحين لتولي المناصب بإنقاص الطبقة التي ينتمون إليها؛ ومنهم من كان يهاجر إلى بلدة غير بلده، ومنهم من عمل زارعاً أو راهباً، وفي عام 313 وسع قسطنطين نطاق الإعفاء من مناصب البلديات حتى شمل القساوسة المسيحيين، كما أعفاهم من عدة أنواع من الضرائب، وهو الإعفاء الذي اعتاد الكهنة الوثنيون أن يتمتعوا به.

وما لبثت الكنيسة، بسبب هذا الإعفاء أن غمرتها موجة من طالبي الرسامة؛ وأخذت المدن تشكو ما أصابها من نقص في الإيراد وفي اللاتنين من أهلها أن يكونوا شيوخاً، حتى اضطر قسطنطين في آخر الأمر أن يصدر قانوناً يقضي بالأل يقبل في الكهنوت أي رجل لائق لأن يشغل منصباً في حكومات البلديات (14). وكانت الشرطة الإمبراطورية تتعقب الفارين من المناصب العامة كما تتعقب من يتهربون من الضرائب أو الخدمة العسكرية، وتعود بهم إلى مدنهم وترغمهم على العمل في حكوماتها (15)، قد قررت في آخر الأمر أن يرث الابن مركز أبيه الاجتماعي، وأن يقبل المنصب العام الذي تؤهله إليه طبقته. إذا اختير له. وهكذا كمل رق الوظيفة القيود الاقتصادية المفروضة على الطوائف المختلفة.

وخاف جليانس أن يثور عليه مجلس الشيوخ فأعفى أعضاءه من الخدمة في

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> لم سقطت رومة

الجيش: ولما كانت الروح الحربية قد إنعدمت في إيطاليا فإن هذا القرار كان خاتمة الضعف العسكري في شبه الجزيرة؛ فكان إنشاء جيوش من أبناء الولايات ومن الجنود المرتزقة، والقضاء على الحرس البريتوري على أيدي سبتميوس سيفيرس، وظهور قواد للجيش من بين أبناء الولايات، واستيلاؤهم على عرش الإمبراطورية، كان هذا كله سبباً في القضاء على زعامة إيطاليا، بل قل على استقلال إيطاليا، قبل سقوط الإمبراطورية في الغرب بزمن طويل، ذلك أن جيوش روما لم تعد كما كانت من قبل جيوشاً رومانية، بل كان معظمها يتألف من أبناء الولايات وأكثرهم من البرابرة، ولم يكونوا يحاربون دفاعاً عن دينهم أو وطنهم، بل كانوا يقاتلون لنيل أجورهم، وهباتهم، ومغانمهم، وكانوا يهاجمون مَدُن الإمبراطورية وينهبونها بنفس الحماسة التي يظهرونها في مواجهة الأعداء؛ وكان معظمهم من أبناء الفلاحين الذين يحقدون على الأغنياء وعلى المَدُن لأن الأولين يستغلون الفقراء ولأن الثانية تستغل الريف؛ وكانت الحروب الداخلية تتيح لهم الفرصة لنهب المَدُن نهباً لا يكاد يترك فيها شيئاً يدمره البرابرة الأجانب(16). ولما أصبحت المشاكل الحربية أعظم خطراً من الشؤون الداخلية، اتخذت المَدُن القريبة من الحدود مراكز للحكم؛ وأضحت روما مسرحاً للانتصارات، ومظهراً للعمائر الإمبراطورية، ومتحفاً للآثار والأنظمة السياسية. يضاف إلى هذا أن تعدد العواصم وانقسام السلطة حطماً وحدة البلاد الإدارية، فلما أصبحت الإمبراطورية أوسع من أن يحكمها حكامها، ومن أن تحميها جيوشها، بدأت تتفكك.

ولما تركت غالة وبريطانيا وشأنهما تحميان نفسيهما بمفردهما من الألمان والأسكتلنديين دون معونة من الحكومة المركزية اختارت كلتاها (إمبراطورها) الخاص بها وخلعت عليه السلطة العليا والسيادة الكاملة؛ ثم انفصلت تَدْمُر عن الدولة في عهد زونبيا، ولم تلبث أسبانيا وأفريقية أن خضعتا دون مقاومة تذكر إلى الفاتحين البرابرة؛ فلما جلس جليانس على العرش كان ثلاثون قائداً يحكمون

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> لم سقطت رومة

ثلاثين إقليمياً من أقاليم من الإمبراطورية حكماً يكاد يكون مستقلاً عن السلطة المركزية، وفي هذه المأساة المروعة، مأساة دولة عظيمة تنقطع أوصالها كانت الأسباب الداخلية هي العوامل الحقة الخفية، أما الغزاة البرابرة فلم يدخلوها إلا بعد أن فتح لهم ضعفها الأبواب وهيا لهم السبل، وبعد أن أسلم ضعف الحكام الاحيائي، والخلفي، والاقتصادي، والسياسي، المسرح إلى الفوضى، واليأس، والاضمحلال.

ومن الأسباب الخارجية التي عجلت بسقوط الإمبراطورية الغربية توسع الهون أو الشى أونج - نو Hsiung.nu وهجرتهم في شمالي آسيا الغربية. ذلك أنهم لما صدمهم السور الصيني العظيم والجيوش الصينية في زحفهم نحو الشرق اتجهوا نحو الغرب حتى وصلوا في عام 355 إلى نهرى الفاجا وجيخون. وضغطوا في زحفهم هذا على السرماتيين في روسيا فاضطروهم إلى التحرك نحو البلقان؛ وتضايق القوط من هذا الزحف فتحركوا مرة أخرى

على الحدود الرومانية، وسمح لهم بأن يعبروا الدانوب ويستوطنوا مونييزيا (376Moesia)؛ ولما أساء الموظفون الرومان معاملتهم في هذه الولاية، ثاروا عليهم، وهزموا جيشاً رومانياً كبيراً عند أدريانوبل (أدرنه) (378) وهددوا في وقت ما القسطنطينية نفسها.

وفي عام 400 قاد ألبريك Alaric القوط الغربيين وعبر بهم جبال الألب وانقض على إيطاليا، وفي عام 410 استولوا على روما ونهبوها، وفي عام 429 قاد جيسيرك Gaiseric الواندال لفتح أسبانيا وأفريقية، وفي عام 455 استولوا هم أيضاً على روما ونهبوها، وفي عام 451 قاد أتلا Atilla الهون وهجم بهم على غالة وإيطاليا، فهزموا عند شالون Chalons، ولكنهم اجتأحوا لمبارديا. وفي عام 472 عين قائد بانوبي اسمه أرسيتيز Orestes ابنه إمبراطوراً وسماه رميولس أو غسطولس Romulus Augustulus؛

صفحة رقم : 4112

قصة الحضارة -> قيصر والمسيح -> الخاتمة -> لم سقطت رومة

وبعد ست سنين من ذلك الوقت خلع الجنود البرابرة المرتزقون، الذين كانوا يسيطرون وقتئذ على الجيش الروماني، هذا "الأغسطس الصغير" وعينوا قائدهم أدوكر Odoacer ملكاً على إيطاليا، وأقر أدوكر بالسيادة للإمبراطور الروماني الجالس على العرش في القسطنطينية ورضي هذا الإمبراطور به ملكاً تابعاً له. وظلت الإمبراطورية الرومانية في الشرق قائمة حتى عام 1453، أما في الغرب فقد نفضت وقتئذ نفسها الأخير.

صفحة رقم : 4113

(يتبع)

منتدى حديث المطابع
موقع الساخر

www.alsakher.com

